تفسير الخازن

المسمى

لباب التأويل في معاني التنزيل

للإمام علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي
الشهير بالخازن
المتوفى سنة ٧٢٥ هـ

ومعه

تفسير البغوي

المسمى

معالم التنزيل

للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود
الفراء البغوي الشافعي
المتوفى سنة ٥١٦ هـ

ضبطه وصححه

عبد السلام محمد علي شاهين

الجزء الثالث

المحتوى

أول سورة الأنفال ـ آخر سورة الحجر

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٣ ٦٠٢١ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٠٠/٩٦١١/٦٠٢١٣٣ - ٠٠/١٢١٢/٤٧٨١٣٧٣

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

(قرآن كريم)

تفسير سورة الأنفال

مدنية كلها إلا سبع آيات منها نزلت بمكة وهي من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ إلى آخر سبع آيات والأصح أنها نزلت بالمدينة وإن كانت الواقعة مكية وهي خمس وسبعون آية وألف وخمس وسبعون كلمة وخمسة آلاف وثمانون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ (ق) عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن سورة الأنفال. قال: نزلت في بدر واختلف أهل التفسير في سبب نزولها فقال ابن عباس لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ومن أتى مكان كذا وكذا فله كذا وكذا ومن قتل قتيلاً فله كذا فتسارع الشباب وبقيت الشيوخ تحت الرايات فلما فتح الله عليهم جاؤوا يطلبون ما جعل لهم النبي ﷺ، فقال لهم الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا ولا تستأثروا به علينا فإنا كنا رداءاً لكم ولو انكشفتم إلينا فتنازعوا. فأنزل الله عز وجل: يسألونك عن الأنفال. الآية قال أهل التفسير: قام أبو اليسر بن عمرو الأنصاري أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله إنك وعدت أن من قتل قتيلاً فله كذا وكذا وإنا قد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين وقام سعد بن معاذ فقال: والله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادة في الآخرة ولا جبن عن العدو ولكن كرهنا أن تعرى مصافك فتعطف عليك خيل من المشركين فيصيبونك. فأعرض عنهما

سُورَةُ الأَنْفَالِ

مدنية وهي خمس وسبعون آية. قيل: إلّا سبع آيات من قوله: ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ [٣٠ - ٣٧] إلى آخر سبع آيات، فإنها نزلت بمكة. والأصح أنها نزلت بالمدينة، وإن كانت الواقعة بمكة.

﴿ يسألونكَ عنِ الأنفالِ ﴾ الآية، قال أهل التفسير: سبب نزول هذه الآية هو أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «مَنْ أتى مكان كذا فله من النفل كذا ومَنْ قتلَ قتيلاً فله كذا ومَنْ أسر أسيراً فله كذا»، فلما التقوا تسارع إليه الشبّان وأقام الشيوخ ووجوه الناس عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين جاؤوا يطلبون ما جعل لهم النبي ﷺ، فقال الأشياخ: كنّا دِرْءاً لكم ولو انهزمتم لانحرفتم إلينا، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، وقام أبو اليسر بن عمرو الأنصاري أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله إنّك وعدت أنّ مَن قتل قتيلاً فله كذا ومَن أسر أسيراً فله كذا وإنّا قد قتلنا منهم سبعين وأسرنا منهم سبعين، فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: والله يا رسول الله ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء إلّا زهادة في الآخرة ولا جبن عن العدو، ولكن كرهنا أن تعرّى مصافك فيعطف عليك خيل من المشركين فيصيبوك، فأعرض عنهما رسول الله ﷺ. فقال سعيد: يا رسول الله إن الناس كثير والغنيمة دون ذلك، فإن تعطِ هؤلاء الذي

رسول الله ﷺ فقال سعد: يا رسول الله إن الناس كثير والغنيمة دون ذلك فإن تعط هؤلاء الذين ذكرت لا يبقى لأصحابك كبير شيء فنزلت هذه الآية: يسألونك عن الأنفال وقال محمد بن إسحاق: «أمر رسول الله ﷺ بما في العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه هو لنا وكان رسول الله ﷺ نفل كل امرىء ما أصاب وقال الذين كانوا يقاتلون العدو لولا نحن ما أصبتموه وقال الذين يحرسون رسول الله ﷺ لقد كنا نقدر أن نقاتل العدو ولكنا خفنا على رسول الله ﷺ غرة العدو فقمنا دونه فما أنتم بأحق منا فنزلت هذه الآية». .

روى مكحول عن أبي أمامة الباهلي قال: «سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بيننا عن بواء» يقول على سواء وكان فيه تقوى الله وطاعة رسول الله ﷺ وإصلاح ذات البين وعن سعد بن أبي وقاص قال: «لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يا رسول الله إن الله قد شفى صدري من المشركين أو نحو هذا هب لي هذا السيف فقال: «هذا ليس لي ولا لك فقلت: عسى أن يعطي هذا من لا يبلي بلائي فجاءني الرسول فقال «إنك سألتني وليس لي وأنه قد صار لي وهو لك» فنزلت يسألونك عن الأنفال، الآية أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح وأخرجه مسلم في جملة حديث طويل يتضمن فضائل سعد ولفظ مسلم فيه. قال: «أصاب رسول الله ﷺ غنيمة عظيمة وإذا فيها سيف فأخذته فأتيت به رسول الله ﷺ فقلت نفلني هذا السيف فأنا قد علمت حاله فقال رده من حيث أخذته فانطلقت به حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت أعطنيه قال فشد على صوته «رده من حيث أخذته فأنزل الله عز وجل» يسألونك عن الأنفال وقال ابن عباس: كانت المغانم لرسول ﷺ خاصة ليس لأحد فيها شيء وما أصاب سرايا المسلمين من شيء أتوه به فمن حبس منه إبرة أو سلكاً فهو غلول وأما التفسير فقوله سبحانه وتعالى» يسألونك عن الأنفال» استفتاء يعني يسألك أصحابك يا محمد عن حكم الأنفال وعلمها وهو سؤال استفتاء لا سؤال طلب. وقال الضحاك وعكرمة: هو سؤال طلب وقوله عن الأنفال أي من الأنفال وعن بمعنى من. وقيل: عن

ذكرت لا يبقى لأصحابك كثير شيء، فنزلت، ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ وقال ابن إسحق: أمر رسول الله ﷺ بما في العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه، فقال مَن جمعه هو لنا قد كان رسول الله ﷺ نفل كلَّ امرىء ما أصاب، وقال الذيـن يقاتلون العدو: لولا نحن ما أصبتموه، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ: لقد رأينا أن نقتل العدو وأن نأخذ المتاع ولكنّا خفنا على رسول الله ﷺ كَرّة العدو، وقمنا دونه فما أنتم بأحق به منّا. وروى مكحول عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، قال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بيننا عن بواء، يقول: على السواء. وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البين. وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لمّا كان يوم بدر قتل أخي عمير وقتلت سعيد بن العاص بن أُمية، وأخذت سيفه وكان يسمّى ذا الكثيفة، فأعجبني فجئت به إلى النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن الله قد شفى صدري من المشركين فهبْ لي هذا السيف، فقال: «ليس هذا لي ولا لك اذهب فاطرحه في القبض»، فطرحته ورجعت وبي ما لا يعلمه إلّا الله من قتل أخي وأخذ سلاحي، وقلت: عسى أن يعطي هذا السيف مَن لم يبل ببلائي فما جاوزت إلّا قليلاً حتى جاءني رسول الله ﷺ وقد أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾، الآية. فخفت أن يكون قد نزل فيَّ شيء فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ قال: «يا سعد إنك سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي الآن فاذهبْ فخذْه فهو لك». وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المغانم لرسول الله ﷺ خاصة ليس لأحد فيها شيء، وما أصاب سرايا المسلمين من شيء أتوه به فمَن حبس منه إبرةً أو سِلْكاً فهو غلول. قوله: « يسألونك من الأنفال »

صلة أي يسألونك الأنفال والأنفال هي الغنائم في قول ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وأصله الزيادة سميت الغنائم أنفالاً لأنها زيادة من الله عز وجل لهذه الأمة على الخصوص وأكثر المفسرين على أنها نزلت في غنائم بدر. وقال عطاء: هي ما شذ عن المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو امرأة أو متاع فهو للنبي ﷺ يصنع فيه ما يشاء ﴿**قل الأنفال لله والرسول**﴾ أي: قل لهم يا محمد إن الأنفال حكمها لله ورسوله يقسمانها كيف شاؤوا واختلف العلماء في حكم هذه الآية فقال مجاهد وعكرمة والسدي هذة الآية منسوخة فنسخها الله سبحانه وتعالى بالخمس في قوله ﴿**واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول**﴾ الآية. وقيل كانت الغنائم لرسول الله ﷺ يقسمها كيف شاء ولمن شاء ثم نسخها الله بالخمس. وقال بعضهم: هذه الآية ناسخة من وجه منسوخة من وجه وذلك أن الغنائم كانت حراماً على الأمم الذين من قبلنا في شرائع أنبيائهم فأباحها الله لهذه الأمة بهذه الآية وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت بآياته الخمس وقال عبد الرحمن بن زيد إنها محكمة وهي إحدى الروايات عن ابن عباس ومعنى الآية على هذا القول قل الأنفال لله والرسول يضعها حيث أمره الله وقد بين الله مصارفها في قوله: ﴿**واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول**﴾ الآية. وصح من حديث ابن عمر، قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فغنمنا إبلاً فأصاب كل واحد منا اثني عشر بعيراً ونفلنا بعيراً نعيراً أخرجاه في الصحيحين فعلى هذا تكون الآية محكمة وللإمام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس ﴿**فاتقوا الله**﴾ يعني اتقوا الله بطاعته واتقوا مخالفته واتركوا المنازعة والمخاصمة في الغنائم ﴿**وأصلحوا ذات بينكم**﴾ أي أصلحوا الحال فيما بينكم بترك المنازعة والمخالفة وبتسليم أمر الغنائم إلى الله ورسوله ﴿**وأطيعوا الله ورسوله**﴾ فيما يأمرانكم به وينهيانكم عنه ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ يعني إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده قوله سبحانه وتعالى:

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ لما أمر الله سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله في الآية

أي: عن حكم الأنفال وعلمها، وهو سؤال استخبار لا سؤال طلب. وقيل: هو سؤال طلب. قاله الضحاك وعكرمة.
وقوله: ﴿ **عن الأنفال** ﴾ أي: من الأنفال، عن بمعنى من. وقيل: عن صلة أي: يسألونك الأنفال، وهكذا قراءة ابن مسعود بحذف عن. والأنفال: الغنائم، واحدها نفل، وأصله الزيادة، يقال نفلتك وأنفلتك أي زدتك، سمّيت الغنائم أنفالاً لأنها زيادة من الله لهذه الأمة على الخصوص. وأكثر المفسّرين على أن الآية في غنائم بدر. وقال عطاء: هي ما شذّ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو أمة ومتاع فهو للنبي ﷺ يصنع به ما شاء. ﴿ **قل الأنفالُ للّهِ والرّسولِ** ﴾ يُقسمانها كما شاءَا واختلفوا فيه، فقال مجاهد وعكرمة والسدي: هذه الآية منسوخة بقوله عزّ وجلّ: ﴿ واعلموا أنّما غَنِمْتُمْ من شيء فأنّ لله خُمُسَهُ وللرسول ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية. كانت الغنائم يومئذ للنبي ﷺ فنسخها الله عزّ وجلّ بالخُمس. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي ثابتة غير منسوخة، ومعنى الآية: قل الأنفال لله مع الدنيا والآخرة وللرسول يضعها حيث أمره الله تعالى، أي: الحكم فيها لله ولرسوله، وقد بيّن الله مصارفها في قوله عزّ وجلّ: ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خُمسه وللرسول ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية.
﴿ **فاتقُوا اللّهَ وأصلِحُوا ذاتَ بينِكم** ﴾، أي: اتقوا الله بطاعته وأصلحوا الحال بينكم بترك المنازعة والمخالفة، وتسليم أمر الغنيمة إلى الله والرسول ﷺ. ﴿ **وأطيعُوا اللّهَ ورسولَهُ إن كنتُم مُّؤمنين** ﴾.

﴿ **إنّما المؤمنون** ﴾، يقـول ليس المؤمن الذي يخالف الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم،

المتقدمة ثم قال بعد ذلك إن كنتم مؤمنين لأن الإيمان يستلزم الطاعة، بيَّن في هذه الآية صفات المؤمنين وأحوالهم فقال سبحانه وتعالى ﴿إنما المؤمنون﴾ ولفظة إنما تفيد الحصر والمعنى ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم أي خضعت وخافت ورقت قلوبهم وقيل إذا خوفوا بالله انقادوا خوفاً من عقابه. وقال أهل الحقائق: الخوف على قسمين: خوف عقاب وهو خوف العصاة، وخوف الهيبة والعظمة وهو خوف الخواص، لأنهم يعلمون عظمة الله عز وجل فيخافونه أشد خوف، وأما العصاة فيخافون عقابه فالمؤمن إذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته في ذكر الله.

فإن قلت: إنه سبحانه وتعالى قال في هذه الآية وجلت قلوبهم بمعنى خافت وقال في آية أخرى تطمئن قلوبهم بذكر الله فكيف الجمع بينهما؟ قلت: لا منافاة بين هاتين الحالتين لأن الوجل هو خوف العقاب والاطمئنان إنما يكون من ثلج اليقين وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد جمعا في آية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى: تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. والمعنى: تقشعر جلودهم من خوف عقاب الله ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند ذكر الله ورجاء ثوابه وهذا حاصل في قلب المؤمنين ثم قال تعالى: ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ يعني وإذا قرأت عليهم آيات القرآن زادتهم تصديقاً قاله ابن عباس. والمعنى: أنه كلما جاءهم شيء من عند الله آمنوا به فيزدادون بذلك إيماناً وتصديقاً لأن زيادة الإيمان بزيادة التصديق وذلك على وجهين الوجـه الأول وهو الذي عليه عامة أهل العلم على ما حكاه الواحدي أن كل من كانت الدلائل عنده أكثر وأقوى كان إيمانه أزيد لأن عند حصول كثرة الدلائل وقوتها يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفته بالله أقوى فيزداد إيمانه.

الوجه الثاني: هو أنهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ولما كانت التكاليف متوالية في زمن رسول الله ﷺ فكلما تجدد تكليف صدقوا به فيزدادون بذلك الإقرار تصديقاً وإيماناً ومن المعلوم أن من صدق إنساناً في شيئين كان أكبر ممن يصدقه في شيء واحد فقوله تعالى: ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ معناه أنهم كلما سمعوا آية جديدة أتوا بإقرار جديد وتصديق جديد فكان ذلك زيادة في إيمانهم واختلف أناس في أن الإيمان هل يقبل الزيادة والنقص أم لا؟ فالذين قالوا إن الإيمان عبارة عن التصديق القلبي قالوا لا يقبل الزيادة لإجماع أهل اللغة على أن الإيمان هو التصديق والاعتقاد بالقلب وذلك لا يقبل الزيادة ومن قال إن الإيمان عبارة عن مجموع أمور ثلاثة وهي التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح والأركان فقد استدل على ذلك بهذه الآية من وجهين أحدهما أن قوله زادتهم إيماناً صريح في أن الإيمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق بالقلب فقط لما قبل الزيادة وإذا قيل لزيادة فقد قبل النقص.

الوجه الثاني: أنه ذكر في هذه الآية أوصافاً متعددة من أحوال المؤمنين ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: أولئك هم المؤمنون حقاً. وذلك يدل على أن تلك الأوصاف داخلة في مسمى الإيمان.

﴿ **الذين إذا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلوبُهم** ﴾، خافت وفرّقت قلوبهم. وقيل: إذا خُوِّفوا بالله انقادوا خوفاً من عقابه. ﴿ **وإذا تُليتْ عليهم آياتُه زادتْهم إيماناً** ﴾، تصديقاً ويقيناً. وقال عمير بن حبيب وكانت له صحبة: إن للإيمان زيادةً ونقصاناً، قيل: فما زيادته؟ قال: إذا ذكرنا الله عزّ وجلّ وحمدناه فذلك زيادته، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: إن للإيمان فرائِضَ وشرائعَ وحدوداً وسُنناً فمَن استكملها استكمل الإيمانَ ومَنْ لم يستكملْها لم يستكملِ الإيمان. ﴿ **وعلى ربِّهم يتوكّلُون** ﴾، أي يُفوّضون إليه أمورهم ويثقون به ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه.

وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان» أخرجاه في الصحيحين ففي هذا الحديث دليل على أن الإيمان فيه أعلى وأدنى وإذا كان كذلك كان قابلاً للزيادة والنقص. قال عمير بن حبيب، وكانت له صحبة: إن للإيمان زيادة ونقصاناً. قيل له: فما زيادته؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي: أن للإيمان فرائض وشرائط وشرائع وحدوداً وسنناً فمن استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ معناه يفوضون جميع أمورهم إليه ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه.

واعلم أن المؤمن إذا كان واثقاً بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهي درجة عالية ومرتبة شريفة لأن الإنسان يصير بحيث لا يبقى له اعتماد في شيء من أموره إلا على الله عز وجل واعلم أن هذه المراتب الثلاث أعني الوجل عند ذكر الله وزيادة الإيمان عند تلاوة القرآن والتوكل على الله من أعمال القلوب ولما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الصفات الثلاث أتبعها بصفتين من أعمال الجوارح فقال سبحانه وتعالى: ﴿الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ يعني يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها في أوقاتها وينفقون أموالهم فيما أمرهم الله به من الإنفاق فيه ويدخل فيه النفقة في الزكاة والحج والجهاد وغير ذلك من الإنفاق في أنواع البر والقربات ثم قال تعالى: ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿هم المؤمنون حقاً﴾ يعني يقيناً لا شك في إيمانهم قال ابن عباس برؤا من الكفر. وقال قتادة: استحقوا الإيمان وأحقه الله لهم وفيه دليل على أنه لا يجوز أن يصف أحد نفسه بكونه مؤمناً حقاً لأن الله سبحانه وتعالى إنما وصف بذلك أقواماً مخصوصين على أوصاف مخصوصة وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه وهذا يتعلق بمسألة أصولية وهي أن العلماء اتفقوا على أنه يجوز للرجل أن يقول أنا مؤمن واختلفوا في أنه هل يجوز له أن يقول أنا مؤمن حقاً أم لا؟ فقال أصحاب الإمام أبي حنيفة: الأولى أن يقول أنا مؤمن حقاً ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله واستدلوا على صحة هذا القول بوجهين:

الأول: أن المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك إن شاء الله وكذا القول في القائم والقاعد، فكذلك هذه المسألة يجب فيها أن يكون المؤمن مؤمناً حقاً، ولا يجوز أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله.

الوجه الثاني: أنه سبحانه وتعالى قال ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ فقد حكم الله لهم بكونهم مؤمنين حقاً وفي قوله أنا مؤمن إن شاء الله تشكيك فيما قطع الله لهم به وذلك لا يجوز وقال أصحاب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه الأولى أن يقول الرجل أنا مؤمن إن شاء الله واحتجوا لصحة هذا القول بوجوه: الأول أن الإيمان عندهم عبارة عن الاعتقاد والإقرار والعمل وكون الإنسان آتياً بالأعمال الصالحة المقبولة أمر مشكوك فيه والشك في أحد أجزاء الماهية يوجب الشك في الماهية فيجب أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله وإن كان اعتقاده وإقراره صحيحاً وعند أصحاب أبي

﴿ الذين يقيمونَ الصلاةَ وممّا رزقْناهم يُنفقون ﴾.

﴿ أولئك هُمُ المؤمنون حقّاً ﴾، يعني يقيناً. قال ابن عباس: بَرُؤُوا من الكفر. قال مقاتل: حقاً لا شك في إيمانهم. وفيه دليل على أنه ليس لكل أحد أن يصف نفسه بكونه مؤمناً حقاً لأن الله تعالى إنما وصف بذلك قوماً مخصوصين على أوصاف مخصوصة، وكلُّ أحد لا يتحقّق وجود تلك الأوصاف فيه. وقال ابن أبي نجيح: سأل رجل الحسن فقال: أمؤمن أنت؟ فقال: إن كنتَ تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة

حنيفة أن الإيمان عبارة عن الاعتقاد فيخرج العمل من مسمى الإيمان فلم يلزم حصول الشك.

الوجه الثاني: أن قولنا أنا مؤمن إن شاء الله ليس هو على سبيل الشك ولكن إذا قال الرجل أنا مؤمن فقد مدح نفسه بأعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب فإذا قال: إن شاء الله زال عنه ذلك العجب وحصل له الانكسار.

روي أن أبا حنيفة قال لقتادة: لم استثنيت في إيمانك؟ فقال قتادة: اتباعاً لإبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ فقال أبو حنيفة هلا اقتديت به في قوله أولم تؤمن؟ قال: بلى فانقطع قتادة قال بعضهم كان لقتادة أن يقول إن إبراهيم قال بعد قوله بلى ولكن ليطمئن قلبي فطلب مزيد الطمأنينة.

الوجه الثالث: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في أول الآية إنما المؤمنون ولفظة إنما تفيد الحصر يعني إنما المؤمنون الذين هم كذا وكذا وذكر بعد ذلك أوصافاً خمسة وهي الخوف من الله والإخلاص لله والتوكل على الله والإتيان بالصلاة كما أمر الله سبحانه وتعالى وإيتاء الزكاة كذلك ثم بعد ذلك قال: أولئك هم المؤمنون حقاً يعني أن من أتى بجميع هذه الأوصاف كان مؤمناً حقاً ولا يمكن لأحد أن يقطع بحصول هذه الصفات له فكان الأولى له أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله. وقال ابن أبي نجيح: سأل رجل الحسن فقال أمؤمن أنت؟ فقال الحسن: إن كنت سألتني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا بها مؤمن وإن كنت سألتني عن قوله إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم الآية فلا أدري أنا منهم أم لا. وقال علقمة: كنا في سفر فلقينا قوم فقلنا من القوم؟ فقالوا نحن المؤمنون حقاً فلم ندر ما نجيبهم حتى لقينا عبدالله بن مسعود فأخبرناه بما قالوا قال فما رددتم عليهم قلنا لم نرد عليهم شيئاً قال هلا قلتم لهم أمن أهل الجنة أنتم إن المؤمنين هم أهل الجنة؟ وقال سفيان الثوري: من زعم أنه مؤمن حقاً عند الله ثم لم يشهد أنه في الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف الآخر.

الوجه الرابع: إن قولنا أنا مؤمن إن شاء الله للتبرك لا للشك فهو كقوله ﷺ «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» مع العلم القطعي أنه لاحق بأهل القبور.

الوجه الخامس: إن المؤمن لا يكون مؤمناً حقاً إلا إذا ختم له بالإيمان ومات عليه وهذا لا يحصل إلا عند الموت، فلهذا السبب حسن أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. فالمراد صرف هذا الاستثناء إلى الخاتمة. وأجاب أصحاب هذا القول، وهم أصحاب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنهم، عن استدلال أصحاب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنهم بقولهم: إن المتحرك لا يجوز أن يقول أنا متحرك إن شاء الله بأن الفرق بين وصف الإنسان بكونه مؤمناً وبين وصفه بكونه متحركاً أن الإيمان يتوقف حاله على الخاتمة والحركة فعل يقيني فحصل الفرق بينهما والجواب عن الوجه الثاني وهو قولهم إنه سبحانه وتعالى قال: ﴿**أولئك هم المؤمنون حقاً**﴾ فقد حكم لهم بكونهم مؤمنين حقاً أنه تعالى حكم للموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية بكونهم مؤمنين حقاً إذا أتوا بتلك الأوصاف الخمسة ولا يقدر أحد أن يأتي بتلك الأوصاف على الحقيقة ونحن نقول أيضاً إن من أتى بتلك الأوصاف على الحقيقة كان مؤمناً حقاً ولكن لا يقدر على ذلك أحد والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وقوله تعالى: ﴿**لهم درجات عند ربهم**﴾ يعني لهم مراتب بعضها أعلى من بعض لأن المؤمنين تتفاوت أحوالهم في الأخذ تلك الأوصاف المذكورة فلهذا تتفاوت مراتبهم في الجنة لأن درجات الجنة على قدر الأعمال. قال عطاء:

والنار والبعث والحساب، فأنا بها مؤمن، وإن كنتَ تسألني عن قوله: ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قلوبُهم** ﴾ الآية، فلا أدري أمنهم أنا أم لا؟ وقال علقمة: كنّا في سفر فلقينا قوماً فقلنا: مَنِ القوم؟ قالوا: نحن المؤمنون حقاً، فلم ندرِ ما نُجيبهم حتى لقينا عبد الله بن مسعود فأخبرناه بما قالوا، قال: فما رددتم عليهم؟ قلنا: لم

درجات الجنة يرتقون فيها بأعمالهم، وقال الربيع بن أنس: درجات الجنة سبعون درجة ما بين الدرجتين حضر الفرس المضمر سبعين سنة وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام» أخرجه الترمذي وله عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال «إن في الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسعتهم» ﴿ومغفرة﴾ يعني ولهم مغفرة لذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾ يعني ما أعدَّ لهم في الجنة وصفه بكونه كريماً لأن منافعه حاصلة لهم دائمة عليهم مقرونة بالإكرام والتعظيم.

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ اختلفوا في الجالب لهذه الكاف ما هو؟ فقال المبرد: تقديره قل الأنفال لله والرسول وإن كرهوا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن كرهوا. وقيل: معناه امضِ لأمر ربك في الأنفال وإن كرهوا كما مضيت لأمر ربك في الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون. وقيل: معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن ذلك خير لكم كما أن إخراج محمد ﷺ من بيته بالحق هو خير لكم وإن كرهه فريق منكم. وقيل: هو راجع لقوله سبحانه وتعالى: لهم درجات عند ربهم تقديره وعد الله المؤمنين بالدرجات حق حتى ينجزه الله تعالى كما أخرجك ربك من بيتك **بالحق** وأنجز الوعد بالنصر والظفر. وقيل: هي متعلقة بما بعدها تقديره كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم كذلك يكرهون القتال ويجادلونك فيه. وقيل: الكاف بمعنى على أي امض على الذي أخرجك ربك من بيتك بالحق فإنه حق. وقيل: الكاف بمعنى القسم تقديره والذي أخرجك ربك من بيتك وجوابه يجادلونك في الحق. وقيل: الكاف بمعنى إذ تقديره واذكر يا محمد إذ أخرجك ربك من بيتك بالحق. قيل: المراد بهذا الإخراج إخراجه من مكة إلى المدينة للهجرة. وقال جمهور المفسرين: المراد بهذا الإخراج هو خروجه من المدينة إلى بدر ومعناه كما أمرك ربك بالخروج من بيتك بالمدينة بالحق يعني بالوحي لطلب المشركين ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ يعني للقتال وإنما كرهوه لقلة عددهم وقلة سلاحهم وكثرة عدوهم وسلاحهم

نردّ عليهم شيئاً، قال: أفلا قلتم أمِنْ أهل الجنة أنتم؟ إن المؤمنين أهل الجنة. وقال سفيان الثّوري: مَن زعم أنه مؤمن حقاً عند الله، ثم لم يشهد أنه في الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف. ﴿ **لهم درجاتٌ عندَ ربِّهم** ﴾، قال عطاء: يعني درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم. وقال الربيع بن أنس: سبعون درجة ما بين كل درجتين حَضْرُ الفرس المضمر سبعين خريفاً. ﴿ **ومغفرةٌ** ﴾، لذنوبهم ﴿ **ورزْقٌ كريمٌ** ﴾، حسن يعني ما أعدّ لهم في الجنة.

قوله تعالى: ﴿ **كما أخرجـك ربُّك مِن بيتك بالحقِّ** ﴾، اختلفوا في الجالب لهذه الكاف التي في قوله: ﴿ **كما أخرجكَ ربّك** ﴾ قال المبرّد: تقديره الأنفال لله والرسول وإن كرهوا كما أخرجك ربّك من بيتك بالحق وإن كرهوا. وقيل: تقديره امضِ لأمر الله في الأنفال وإن كرهوا كما أمضيت لأمر الله في الخروج من البيت لطلب العِير وهم كارهون. وقال عكرمة: معناه فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن ذلك خير لكم كما أن إخراج محمد ﷺ من بيته بالحق خير لكم، وإن كرهه فريق منكم. وقال مجاهد: معناه كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم، كذلك يكرهون القتال ويجادلون فيه. وقيل: هو راجع إلى قوله: ﴿ **لهم درجات عند ربهم** ﴾، تقديره: وَعْدُ الدرجات لهم حقٌّ حتى ينجزه الله عزّ وجلّ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، فأنجز الوعد بالنصر والظفر. وقيل: الكاف بمعنى على، تقديره: إمضِ على الذي أخرجك ربّك. وقال أبو عبيدة: هي بمعنى القسم مجـــازاً،

﴿يجادلونك في الحق﴾ وذلك أن المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم تعلمنا أنّا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وإنما خرجنا لطلب العير فذلك جدالهم ﴿بعد ما تبين﴾ يعني تبين لهم أنك لا تصنع شيئاً إلا بأمر ربك وتبين لهم صدقك في الوعد ﴿كأنما يساقون إلى الموت﴾ يعني لشدة كراهتهم القتال ﴿وهم ينظرون﴾ يعني إلى الموت شبه حالهم في فرط فزعهم بحال من يجر إلى القتل ويساق إلى الموتِ وهو ينظر إليه ويعلم أنه آتيه.

قوله عز وجل: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين﴾ يعني الفرقتين فرقة أبي سفيان مع العير وفرقة أبي جهل مع النفير ﴿أنها لكم﴾ يعني إحدى الفرقتين لكم. قال ابن عباس وعروة بن الزبير ومحمد بن إسحاق والسدي: أقبل أبو سفيان بن حرب من الشام في عير قريش في أربعين راكباً من كفار قريش منهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري ومعهم تجارة كبيرة وهي اللطيمة. يريد باللطيمة، الجمال التي تحمل العطر والبز غير الميرة، حتى إذا كانوا قريباً من بدر، بلغ النبي ﷺ خبرهم فندب أصحابه إليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدو وقال: هذه هي عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً فلما سمع أبو سفيان بمسير رسول الله ﷺ إليه استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم ويخبرهم أن محمداً في أصحابه قد عرض لعيرهم فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت رؤيا قبل قدوم ضمضم مكة بثلاثة أيام أفزعتها فبعثت إليها أخيها العباس بن عبد المطلب. فقالت: يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وخشيت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فقال

والذي أخرجك، لأن ﴿ ما ﴾ في موضع الذي، وجوابه ﴿ يجادلونك ﴾، وعليه يقع القسم، تقديره: يجادلونك والله الذي أخرجك ربّك من بيتك بالحق. وقيل: الكاف بمعنى إذْ تقديره: واذكرْ إذْ أخرجك ربّك. وقيل: المراد بهذا الإخراج هو إخراجه من مكة إلى المدينة. والأكثرون على أن المراد منه إخراجه من المدينة إلى بدر، أي: كما أمرك ربّك بالخروج من بيتك إلى المدينة بالحق قيل: بالوحي لطلب المشركين ﴿ وإنّ فريقاً منَ المؤمنين ﴾، منهم، ﴿ لَكَارِهُون ﴾.

﴿ يُجادِلُونَك في الحقّ ﴾، أي: في القتال، ﴿ بعدَ ما تبيّن ﴾، وذلك أن المؤمنين لمّا أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك، وقالوا: لم تُعلِمْنا أنّا نلقى العدو فنستعدّ لقتالهم، وإنّما خرجنا للعير، فذلك جدالهم بعد ما تبيّن لهم أنك لا تضع إلّا ما أمرك، وتبيّن صدقك في الوعد، ﴿ كأنّما يُساقون إلى الموت ﴾ لشدّة كراهيتهم القتال. ﴿ وهم ينظرُون ﴾، فيه تقديم وتأخير، تقديره: وإنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون يجادلونك في الحق بعدما تبيّن. قال ابن زيد: هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام لكراهيتهم إيّاه وهم ينظرون.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إحْدَى الطّائِفَتين أنها لكم ﴾، قال ابن عباس وابن الزبير ومحمد بن إسحاق والسدي: أقبل أبو سفيان من الشام في عير لقريش في أربعين راكباً من كبار قريش فيهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري، وفيها تجارة كثيرة وهي اللطيمة حتى إذا كانوا قريباً من بدر، فبلغ النبي ﷺ ذلك فندب أصحابه إليه وأخبرهم بكثرة المال وقلّة العدد، وقال: هذه عير قريش فيها أموالكم فاخرجُوا إليها لعلّ الله تعالى أن يُنفلكموها، فانتدب الناس فخفّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي ﷺ استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لعيرهم في أصحابه، فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة. وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليالٍ رؤياً أفزعتها فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له: يا

لها وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث فأرى الناس قد اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ مثلها بأعلى صوته ألا فانفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ مثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا ودخلها منها فلقة فقال العباس: والله إن هذه الرؤيا فظيعة فاكتميها ولا تذكريها لأحد. ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة، وكان صديقاً للعباس، فذكر رؤيا عاتكة له واستكتمه إياها فذكرها الوليد لأبيه عتبة، ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش بمكة. قال العباس: فعمدت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في نفر من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة فغدوت أطوف فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا. قال العباس: فلما فرغت من طوافي أقبلت إليهم حتى جلست معهم فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم قلت: وما ذاك؟ قال: الرؤيا التي رأت عاتكة قلت وما رأت قال يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن يك ما قالت حقاً فسيكون وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً بأنكم أكذب أهل بيت في العرب قال العباس فوالله ما كان مني إليه من كبير شيء إلا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئاً ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقلن أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم حتى تناول النساء وأنت تسمع ولم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت. قال: قلت قد والله فعلت ما كان مني إليه من

أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وخشيت أن يدخل على قومك منها شرّ ومصيبة، فاكتمْ عليّ ما أحدّثك، قال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس قد اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله مثل بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دُورها إلا دخلتها منها فلقة، فقال العباس: والله إن هذه لرؤيا رأيت! فاكتميها ولا تذكريها لأحد، ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكان له صديقاً فذكرها لها واستكتمه إيّاها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدّثت به قريش، قال العباس: فغدوتُ أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدّثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، قال: فلما فرغتُ أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطّلب متى حدثت هذه البيّنة فيكم؟ قلت: وما ذاك؟ قال: الرؤيا التي رأت عاتكة؟ قلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يكُ ما قالت حقاً فسيكون، وإنْ تمضِ الثلاث ولم يكن من ذلك شيئاً نكتب عليكم كتاباً إنكم أكذب أهل بيت في العرب، فقال العباس: والله ما كان منّي إليه كبير إلا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئاً، ثم تفرقنا فلما أمسيت لم تبقَ امرأة من بني عبد المطّلب إلّا أتتني فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رحالكم ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم تكن عندك غيرة لشيء مما سمعت: قال: قلت: والله قد فعلت ما كان مني إليه من كبير، وأيم الله لأتعرضنّ له فإن عاد لأكفينّكه، قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أن قد فاتني منه أمر أُحبّ أن أُدركه منه، قال: فدخلت المسجد فرأيته فوالله إني لأمشي نحوه

شيء وايم الله لأتعرضن له فإن عاد لأكفيكنه، قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أني قد فاتني شيء أحب أن أدركه منه قال فدخلت المسجد فرأيته فوالله إني لأمر نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به وكان أبو جهل رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر إذ خرج نحو باب المسجد يشتد قال العباس: فقلت في نفسي ماله لعنه الله أكل هذا فرقاً مني أن أشاتمه قال فإذا هو قد سمع ما لم أسمع سمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره وقد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة هذه أموالكم مع أبي سفيان وقد عرض لها محمد في أصحابه ولا أرى أن تدركوها الغوث الغوث قال فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر قال: فتجهز الناس سراعاً ولم يتخلف من أشراف قريش أحد إلا أن أبا لهب قد تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناة ابن كنانة من الحرب فقالوا نخشى أن يأتونا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان من أشراف بني بكر فقال أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه فخرجت قريش سراعاً وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه لليال مضت من شهر رمضان حتى بلغ وادياً يقال له ذا قرد فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عن عيرهم فسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء أخذ عيناً للقوم فأخبره بخبرهم وبعث رسول الله ﷺ عيناً له من جهينة حليفاً للأنصار يدعى أريقط فأتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله ﷺ فنزل جبريل عليه السلام وقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إنها لكم إما العير، وإما قريش، وكانت العير أحب إليهم فاستشار رسول

أتعرّضه ليعود لبعض ما قال فادفع به، وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجد حديد اللسان حديد النظر، إذا خرج نحو باب المسجد يشتدّ، قال: قلت في نفسي ما له لعنه الله أكلّ هذا فرقاً منّي أن أُشاتمه، قال: فإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره، جدع أنف بعيره وحوّل رحله وشقّ قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمدٌ في أصحابه، ولا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث قال: فشغلني عنه وشغله عنّي ما جاء به من الأمر، فتجهّز الناس سراعاً فلم يتخلّف من أشراف قريش أحد إلاّ أن أبا لهب قد تخلّف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناف بن كنانة بن الحارث، فقالوا: نخشى أن يأتونا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدّى لهم إبليس في صورة سُراقة بن مالك بن جعشم وكان من أشراف بني بكر، وقال: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه في ليالٍ مضت من شهر رمضان حتى إذا بلغ وادياً يقال له ذا قرد، فأتاه الخبر عن مسيرة قريش ليمنعوا عن عيرهم، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء أخذ عيناً للقوم فأخبره بهم، وبعث رسول الله ﷺ أيضاً عيناً له من جهينة حليفاً للأنصار يدعى عبد الله بن أُريقط فأتاه بخبر القوم وسبقت العير رسول الله ﷺ، فنزل جبريل وقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريشاً، وكانت العير أحبَّ إليهم، فاستشار النبي ﷺ أصحابه في طلب العير وحبُّ النفير، فقام أبو بكر فقال: فأحسن، ثم قام عمر فقال: فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امْضِ لما أراك الله فنحن معك فوالله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهبْ أنت وربّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد يعني مدينة الحبشة، فجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ: «خيراً» ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ «أشيروا عليّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنّا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذِمامنا نمنعك مما نمنع به أبناءَنا ونساءَنا،

الله ﷺ أصحابه في طلب العير وحرب النفير فقام أبو بكر فقال وأحسن وقام عمر فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله ما نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ يعني مدينة الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه فقال رسول الله ﷺ له خيراً ودعا له بخير ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس وإنما يريد الأنصار وذلك لأنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في زمامنا فنمنعك مما منع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسيروا معه إلى عدو من بلادهم فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال: أجل. قال: آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذ البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا أحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا وعدوك إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله عز وجل أن يريك منا ما تقرّ به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى، فسرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك فقال: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم (م).

عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب حدثه عن أهل بدر قال: «إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى قال عمر فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدها رسول الله ﷺ قال فجعلوا في بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله ﷺ حتى انتهى إليهم فقال يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقاً فإني قد وجدت ما وعدني الله حقاً فقال عمر يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها فقال ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علي شيئاً» فذلك قوله سبحانه وتعالى وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم يعني طائفة أبي سفيان مع العير وطائفة أبي جهل مع النفير ﴿وتودون﴾ أي وتريدون وتتمنون ﴿أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ والمعنى: وتتمنون أن العير التي ليس فيها قتال ولا شوكة تكون لكم والشوكة الشدة

فكان رسول الله ﷺ يتخوَّف أن لا تكون الأنصار ترى عليهم نصرته إلّا على مَن دهمه بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لَكأنّك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل» قال: فإنّا قد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئتنا به هو الحق أعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن نلقى بنا عدوّنا غداً إنّا لصبرٌ عند الحرب صدق في اللقاء ولعلّ الله تعالى يُريك منّا ما تقرّ به عينك، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ذلك، قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم». قال ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان»، قال: ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا، قال: فما ماط أحدٌ عن موضع يد رسول الله ﷺ فذلك قوله تعالى: ﴿ **وإذْ يعدكمُ اللّهُ إحدى الطائفتين أنّها لكم** ﴾، أي: الفريقين إحداهما أبو سفيان مع العير والأخرى أبو جهل مع النفير، ﴿ **وتَودُّون** ﴾، أي: تريدون ﴿ **أنّ غيرَ ذاتِ الشوكة تكونُ لكم** ﴾، يعني العير التي ليس فيها قتال. والشوكة: الشدّة والقوة، ويقال: السلاح. ﴿ **ويُريدُ الله أن يُحِقَّ الحقّ** ﴾، أي يُظهره ويُعليه، ﴿ **بكلماتِه** ﴾، بأمره إيّاكم بالقتال. وقيل: بعداتـه التي سبقت من إظهاره الدين

والقوة ويقال السلاح ﴿ويريد الله أن يحق الحق﴾ أي يظهر الحق ويعليه ﴿بكلماته﴾ يعني بأمره إياكم بالقتال وقيل بعداته التي سبقت لكم من إظهار الدين وإعزازه ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي ويستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿ليحق الحق﴾ يعني ليثبت الإسلام ﴿ويبطل الباطل﴾ يعني وينفي الكفر ﴿ولو كره المجرمون﴾ يعني المشركين وفي الآية سؤالان: الأول: أن قوله ويريد الله أن يحق الحق ثم قال بعده ليحق الحق تكرير فما معناه؟. والجواب أنه ليس فيه تكرير؛ لأن المراد بالأول تثبيت ما وعد في هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء والمراد بالثاني: تقوية القرآن والدين وإظهار منار الشريعة لأن الذي وقع يوم بدر من نصر المؤمنين مع قلتهم وقهر الكافرين مع كثرتهم كان سبباً لإعزاز الدين وقوته ولهذا السبب قرنه بقوله ويبطل الباطل يعني الذي هو الشرك.

السؤال الثاني: الحق حق لذاته والباطل باطل لذاته فما المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل.

والجواب: إن المراد من تحقيق الحق إظهار كون ذلك الحق حقاً والمراد من إبطال ذلك الباطل إظهار كون ذلك الباطل باطلاً وذلك بإظهار دلائل الحق وتقويته. وقمع رؤساء الباطل وقهرهم.

قوله عز وجل: ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ أي واذكر يا محمد إذ تستجيرون بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر وفي المستغيثين قولان أحدهما أنه رسول الله ﷺ والمسلمون معه قاله الزهري والقول الثاني: أنه رسول الله ﷺ وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم له (م) عن ابن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يده فجعل يهتف بربه يقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض فما زال يهتف بربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز جل إذ تستغيثون ربكم ﴿فاستجاب لكم إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ فأمده الله بالملائكة. قال سماك: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه خر مستلقياً فنظر إليه فإذا قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة

وإعزازه، ﴿ ويقطعَ دابرَ الكافرين ﴾، أي: يستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد، يعني: كفّار العرب.

﴿ ليُحِقَّ الحقَّ ﴾، ليثبت الإسلام، ﴿ ويُبطلَ الباطل ﴾، أي: يفني الكفر ﴿ ولو كَرِهَ المُجرمون ﴾، المشركون. وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة ليلة من شهر رمضان.

قوله تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾، تستجيرون به من عدوّكم وتطلبون منه الغوث والنصر. رُوِيَ عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لمّا كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، دخل العريش هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، واستقبل القِبلة ومدّ يده فجعل يهتف بربّه عزّ وجلّ: اللهمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللّهمّ إنّك إنْ تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه عزّ وجلّ ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ الله كفاك مناشدتُك ربَّك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عزّ وجلّ

السيف فأحصى ذلك أجمع وجاء فحدث بذلك رسول الله ﷺ قال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة. فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقوله سبحانه وتعالى فاستجاب لكم، يعني فأجاب دعاءكم أني ممدكم أصله بأني ممدكم أي مرسل إليكم مدداً ورداءً لكم بألف من الملائكة مردفين، يعني: يردف بعضهم بعضاً بمعنى يتبع بعضهم بعضاً. روي أنه نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة وميكائيل عليه السلام في خمسمائة في صور الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوها بين أكتافهم. وروي أن النبي ﷺ لما ناشد ربه وقال أبو بكر إن الله سينجز لك ما وعدك خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش ثم انتبه فقال: يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (خ).

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه آداة الحرب» يعني آلة الحرب قال ابن عباس: كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام وكانوا يكونون فيما سواه عدداً ومدداً. وروي عن أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدراً أنه قال بعد ما ذهب بصره لو كنت معكم اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة وقد تقدم الكلام في سورة آل عمران هل قاتلت الملائكة أم لا والصحيح أنهم قاتلوا يوم بدر لما تقدم من حديث ابن عباس في الذي ضربه بالسوط فحطم أنفه وشق وجهه وكانوا فيما سوى يوم بدر مدداً وعوناً قيل إنهم لم يقاتلوا وإنما نزلوا ليكثروا سواد المسلمين ويثبتوهم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ يعني وما جعل الله الإرداف بالملائكة إلا بشرى ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ وهذا يحقق

﴿ إذْ تستغيثُون ربَّكم ﴾ ﴿ فاستجابَ لكم أنّي مُمدّكم ﴾، مرسلٌ إليكم مدداً ورداءً لكم، ﴿ بألف منَ الملائكة مُرْدِفين ﴾، قرأ أهل المدينة ويعقوب ﴿ مردفين ﴾ بفتح الدال، أي: أردف الله المسلمين وجاء بهم مدداً. وقرأ الآخرون بكسر الدال أي متتابعين بعضهم في إثر بعض، يقال: أردفته وردفته بمعنى تبعته. يُروى أنه نزل جبريل في خمسمائة وميكائيل في خمسمائة في صورة الرجال على خيل بلق عليهم ثياب بيض وعلى رؤوسهم عمائم بيض، قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم. ورُوِيَ أنّ النبي ﷺ لمّا ناشد ربَّه عزّ وجلّ وقال أبو بكر: إنّ اللّهَ منجزٌ لك ما وعدك فخفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش ثم انتبه، فقال: «يا أبا بكر أتاك نصرُ الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع». أخبر عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إبراهيم بن موسى ثنا عبد الوهاب ثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريلُ آخذٌ برأسِ فرَسِه عليه أداةُ الحرب»، وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض ويوم حنين عمائم خضر، ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام، وكانوا يكونون فيما سواه عدداً ومدداً. ورُوِيَ عن أبي أُسيد مالك بن ربيعة قد شهد بدراً أنه قال بعدما ذهب بصره: لو كنت معكم اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشّعبَ الذي خرجت منه الملائكة.

قوله تعالى: ﴿ وما جعلَه اللّهُ ﴾، يعني: الإمداد بالملائكة، ﴿ إلاّ بشرى ﴾، أي: بشارة ﴿ ولِتَطْمَئِنَّ به

أنهم إنما نزلوا لذلك لا للقتال والصحيح هو الأول وأنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا فيما سواه من الأيام.

وقوله تعالى: ﴿**وما النصر إلا من عند الله**﴾ يعني أن الله هو ينصركم أيها المؤمنون فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وشدة بأسكم وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد المسلم أن لا يتوكل إلا على الله تعالى في جميع أحواله ولا يثق بغيره فإن الله تعالى بيده النصر والإعانة ﴿**إن الله عزيز**﴾ يعني أنه تعالى قوي منيع لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب بل هو يقهر كل شيء ويغلبه ﴿**حكيم**﴾ يعني في تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إذ يغشيكم النعاس أمنة منه**﴾ أي: واذكروا إذ يلقى عليكم النعاس وهو النوم الخفيف أمنة منه أي أمنا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم قال عبد الله بن مسعود: النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة من الشيطان والفائدة في كون النعاس أمنة في القتال أن الخائف على نفسه لا يأخذه النوم فصار حصول النوم وقت الخوف الشديد دليلاً على الأمن وإزالة الخوف. وقيل إنهم لما خافوا على أنفسهم لكثرة عدوهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم وعددهم وعطشوا عطشاً شديداً ألقى عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم وكان ذاك النوم نعمة في حقهم لأنه كان خفيفاً بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله إليهم وقدروا على دفعه عنهم وقيل في كون هذا النوم كان أمنة من الله أنه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة فناموا كلهم مع كثرتهم وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة فلهذا السبب قيل إن ذلك النعاس كان في حكم المعجزة لأنه أمر خارق للعادة وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وينزل عليكم من السماء ماء**﴾ يعني المطر ﴿**ليطهركم به**﴾ وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب رمل أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب وكان المشركون قد سبقوهم إلى ماء بدر فنزلوا عليه وأصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب

قلوبُكم وما النّصر إلاّ منْ عند الله إنّ الله عَزيزٌ حكيم ﴾.

﴿ **إذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ** ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يغشاكم» بفتح الياء، ﴿ **النعاس** ﴾ رفع على أن الفعل له، لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ **أمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طائفةً منكم** ﴾ [١٥٤]، قرأ أهل المدينة: «**يغشيكم**» بضم الياء وكسر الشين خفيف، «**النعاس**» نصب لقوله تعالى: ﴿ **كأنّما أُغْشِيَتْ وجوههم** ﴾ [يونس: ٢٧]، وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الشين مشدّد، «**النعاس**» نصب على أن الفعل لله عزّ وجلّ، لقوله تعالى: ﴿ **فغشّاها ما غشى** ﴾ [النجم: ٥٤]، والنعاس: النوم الخفيف. ﴿ **أَمَنَةً** ﴾ أمناً ﴿ **منه** ﴾، مصدر أمنت أمناً وأمنةً وأماناً. قال **عبد الله** بن مسعود رضي الله عنه: النعاس في القتال أمنة من الله وفي الصلاة من الشيطان. ﴿ **ويُنزِّلُ عليكم منَ السماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكمْ بهِ** ﴾، وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر وأصبح المسلمون بعضهم مُحْدِثين وبعضهم مُجْنِبِينَ، وأصابهم الظمأ ووسوس إليهم الشيطان، وقال: تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنكم على الحق وأنكم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين، فكيف ترجون أن تظهروا عليهم؟ فأرسل الله عزّ وجلّ عليهم مطراً سال منه الوادي فشرب المؤمنون واغتسلوا وتوضئوا وسقوا الركاب، وملؤوا الأسقية وأطفأ الغبار ولبّد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ **ويُنزّل عليكم من السماء ماء ليطهركم به** ﴾ من الأحداث والجنابة، ﴿ **ويُذْهِبَ عنكم رِجْزَ الشيطان** ﴾، ووسوسته، ﴿ **ولِيَربطَ على قلوبِكم** ﴾، باليقين والصبر، ﴿ **ويُثبّت به الأقدام** ﴾، حتى لا تسوخ في الرمل بلبيد الأرض. وقيل: يثبت به الأقدام بالصبر وقوّة القلب.

وأصابهم العطش فوسوس لهم الشيطان. وقال: تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنتم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون أن تظهروا على عدوكم؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى مطراً سال منه الوادي فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضؤوا وسقوا الركاب وملأوا الأسقية وأطفأ الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام وزالت عنهم وسوسة الشيطان وطابت أنفسهم وعظمت النعمة من الله عليهم بذلك وكان دليلاً على حصول النصر والظفر، فذلك قوله سبحانه وتعالى: وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به يعني: من الإحداث والجنابة ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ يعني وسوسته التي ألقاها في قلوبكم ﴿وليربط على قلوبكم﴾ يعني بالنصر واليقين والربط في اللغة الشد وكل من صبر على أمر فقد ربط نفسه عليه قال الواحدي ويشبه أن تكون لفظة على صلة والمعنى وليربط قلوبكم بالصبر وما أوقع فيها من اليقين وقيل: إن لفظة على ليست بصلة لأنها تفيد الاستعلاء فيكون المعنى: أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها﴿ ويثبت به الأقدام﴾ يعني أن ذاك المطر لبد الأرض وقوى الرمل حتى تثبتت عليه الأقدام وحوافر الدواب، وقيل المراد به تثبت الأقدام بالصبر وقوة القلب لأن من يكون ضعيف القلب لا يثبت قدمه بل يفر ويهرب عن اللقاء.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى الملائكة الذين أمد بهم النبي ﷺ وأصحابه إني معكم بالنصر والمعونة ﴿فثبّتوا الذين آمنوا﴾ أي: قووا قلوبهم واختلفوا في كيفية هذه التقوية والتثبيت. فقيل: كما أن للشيطان قوة في إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم بالشر، فكذلك للملك قوة في إلقاء الإلهام في قلب ابن آدم بالخير. ويسمى ما يلقي الشيطان: وسوسة، وما يلقي الملك لمة وإلهاماً، فهذا هو التثبيت. وقيل: إن ذلك التثبيت هو حضورهم معهم القتال ومعونتهم لهم أي: ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين، وقيل معناه بشروهم بالنصر والظفر فكان الملك يمشي في صورة رجل أمام الصف ويقول أبشروا فإن الله ناصركم عليهم ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ يعني الخوف وكان ذلك نعمة من الله على المؤمنين حيث ألقى الرعب والخوف في قلوب الكافرين ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ قيل هو خطاب مع المؤمنين فيكون منقطعاً عما قبله. وقيل: هو خطاب مع الملائكة فيكون متصلاً بما قبله.

﴿ إِذْ يُوحِي ربُّك إلى الملائكةِ ﴾، الذين أمدّ بهم المؤمنين، ﴿أنّي معكم﴾، بالعون والنصرة، ﴿فثبّتُوا الذينَ آمنُوا ﴾، أي: قَوُّوا قلوبهم. قيل: ذلك التثبيت حضورهم معهم القتال ومعونتهم، أي: ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين. وقال مقاتل: أي: بشّروهم بالنصر، وكان المَلَكُ يمشي أمام الصفّ في صورة الرجل ويقول: أبشروا فإن الله ناصرُكم. ﴿ سأُلقِي في قلوب الذين كَفرُوا الرُّعْبَ ﴾، قال عطاء: يريد الخوف من أوليائي، ﴿ فاضْرِبُوا فوقَ الأعناق ﴾، قيل: هذا خطاب مع المؤمنين. وقيل: هذا خطاب مع الملائكة، وهو متصل بقوله: ﴿ فثبّتوا الذين آمنوا ﴾، وقوله: ﴿ فوق الأعناق ﴾ قال عكرمة: يعني الرؤوس لأنها فوق الأعناق. وقال الضحّاك: معناه فاضربوا الأعناق، وفوق صلة كما قال تعالى: ﴿ فإذا لقيتُم الذين كفروا فضربَ الرقاب ﴾ [محمد: ٤]. وقيل: معناه فاضربوا على الأعناق. فوق بمعنى: على. ﴿ واضرِبُوا منهم كُلَّ بَنَان ﴾، قال عطية: يعني كل مفصل. وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك: يعني الأطراف. والبَنَانُ جمع بنانة، وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين. قال ابن الأنباري: ما كانت الملائكة تعلم كيف يقتل الآدميون، فعلّمهم الله عزّ وجلّ. أخبرنا إسماعيل بن عبد القادر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا زهير بن حرب ثنا عمرو بن يونس الحنفي ثنا عكرمة بن عمّار ثنا أبو زميل هو سماك الحنفي ثنا عبد الله بن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتدّ في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط

قال ابن الأنباري: ما كانت الملائكة تعرف تقتل بني آدم فعلمهم الله ذلك بقوله تعالى فاضربوا فوق الأعناق. قال عكرمة: يعني الرؤوس لأنها فوق الأعناق. وقال الضحاك: معناه فاضربوا الأعناق وفوق صلة. وقيل: معناه فاضربوا على الأعناق فتكون فوق بمعنى على ﴿**واضربوا منهم كل بنان**﴾ يعني كل مفصل. وقال ابن عباس: يعني الأطراف وهي جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين سميت بذلك لأن بها صلاح الأحوال التي يمكن الإنسان أن يبين ما يريد أن يعمله بيديه وإنما خصت بالذكر من دون سائر الأطراف لأجل أن الإنسان بها يقاتل وبها يمسك السلاح في الحرب. وقيل: إنه سبحانه وتعالى أمرهم بضرب أعلى الجسد وهو الرأس وهو أشرف الأعضاء وبضرب البنان وهو أضعف الأعضاء فيدخل في ذلك كل عضو في الجسد. وقيل: أمرهم بضرب الرأس وفيه هلاك الإنسان وبضرب البنان وفيه تعطيل حركة الإنسان عن الحرب لأن بالبنان يتمكن من مسك السلاح وحمله والضرب به فإذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله. روي عن أبي داود المازني، وكان شهد بدراً، قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قد قتله غيري. وعن سهل بن حنيف قال: لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف، وروى عكرمة عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان الإسلام قد دخل علينا أهل البيت فأسلمت أم الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق في قومه وكان عدو الله أبو لهب قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما جاء الخبر عن مقتل أصحاب بدر كبته الله وأخزاه ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً، قال أبو رافع وكنت رجلاً ضعيفاً أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم فوالله إني لجالس أنحت القداح وعندي أم الفضل جالسة إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهره إلى ظهري فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم فقال أبو لهب: إليّ يا ابن أخي فعندك الخبر اليقين فجلس إليه والناس قيام عليه فقال أبو لهب: يا ابن أخي خبرني كيف كانت أحوال الناس؟

فوقه، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه خرّ مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد حطّم أنفه وشقّ وجهه لضربة السوط فأحضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدّث رسولَ الله ﷺ فقال: «صدقتَ ذلك من مَددِ السماء الثالثة». فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين. ورُوِيَ عن أبي داود المازني وكان شهد بدراً قال: إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري. ورَوى أبو أُمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف. وقال عكرمة: قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنتُ غلاماً للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وأسلمتْ أُمُّ الفضل وأسلمتُ وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرّق في قومه، وكان أبو لهب عدوّ الله قد تخلّف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر كَبَته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوةً وعزاً وكنتُ رجلاً ضعيفاً وكنت أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس أنحت القداح وعند أُم الفضل جالسة إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرّ رجليه حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري فبينا هو جالس إذ قال الناس هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قَدِمَ، فقال أبو لهب: إليّ يا ابن أخي فعندك الخبر، فجلس إليه والناس قيام عليه، قال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء والله إن كان إلاّ أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا وأيمُ الله مع ذلك ما لمت الناس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، لا والله ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء، قال أبو رافع فرفعت طنب الحجرة بيدي، ثم

قال: لا شيء والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا وايم الله ما لمت الناس لقينا رجالاً بيضاء على خيل بلق بين السماء والأرض والله لا يتلقاهم شيء ولا يقوم لهم شيء. قال أبو رافع: فرفعت طرف الحجرة بيدي وقلت تلك والله الملائكة فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة فساورته فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك على صدري وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت إليه أم الفضل بعمود من عمد الحجرة فضربته به ضربة ففلقت رأسه شجة منكرة، وقالت: تستضعفه إن غاب عنه سيده فقام مولياً ذليلاً فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله تعالى بالعدسة فقتلته. وروى مقسم عن ابن عباس قال: كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بني سلمة وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً وكان العباس رجلاً جسيماً فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر كيف أسرت العباس؟ قال: يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا فقال رسول الله ﷺ: لقد أعانك عليه ملك كريم. وكانت وقعة بدر في صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة النبوية.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذلك﴾ يعني الذي وقع من القتل والأسر يوم بدر ﴿بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ يعني بأنهم خالفوا الله ورسوله. والمشاقة: المخالفة، وأصلها المجانبة، كأنهم صاروا في شق وجانب عن شق المؤمنين وجانبهم وهذا مجاز معناه أنهم شاقوا أولياء الله وهم المؤمنون أو شاقوا دين الله ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ يعني أن الذي نزل بهم في ذلك اليوم من القتل والأسر شيء قليل فيما أعد الله لهم من العقاب يوم القيامة ثم قال تعالى: ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى القتل والأسر الذي نزل بهم ﴿فذوقوه﴾ يعني عاجلاً في الدنيا لأن ذلك يسير بالإضافة إلى المؤجل الذي أعده الله لهم في الآخرة من العذاب وهو قوله: ﴿وأن للكافرين عذاب النار﴾ يعني في الآخرة، عن ابن عباس قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من بدر قيل له عليك بالعير ليس من دونها شيء

قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة، فساورته فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك عليّ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً فقامت أُمُّ الفضل إلى عمود من عمود الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فلقت في رأسه شجّة منكرة، وقالت: تستضعفه إن غاب عنه سيِّده؟ فقام مُولِّياً ذليلاً فوالله ما عاش إلّا سبع ليالي حتى رماه الله بالعدسة فقتله. وروَى مقسم عن ابن عباس قال: كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخا بني سلمة، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً وكان العباس رجلاً جسيماً، فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر: «كيف أسرتَ العباس»؟ قال: يا رسول الله لقد أعانني عليه رجل ما رأيتُه قبل ذلك ولا بعده، هيئتُه كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم».

﴿ ذلك بأنّهم شاقُّوا الله ﴾، خالفوا الله، ﴿ ورسولَه ومَن يُشاقِقِ اللَّهَ ورسولَهُ فإنّ اللَّهَ شديدُ العقاب ﴾.

﴿ ذلكم ﴾، أي: هذا العذاب والضرب الذي عجّلته لكم أيها الكفّار ببدر، ﴿ فذُوقُوه ﴾، عاجلاً، ﴿ وأنّ للكافرين ﴾، أي: واعلموا وأيقنوا أن للكافرين أجلاً في الميعاد، ﴿ عذابَ النّار ﴾ روى عكرمة عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء فناداه العباس وهو أسير في وثاقه لا يصلح

قال فناداه العباس من وثاقه لا يصلح لك لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك قال: صدقت، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ يعني مجتمعين متزاحفين بعضكم إلى بعض والتزاحف التداني في القتال وأصل الزحف مشي مع جر الرجل كانبعاث الصبي قبل أن يمشي وسمي مشي الطائفتين بعضهم إلى بعض في القتال زحفاً لأنها تمشي كل طائفة إلى صاحبتها مشياً رويداً وذلك قبل التداني للقتال، وقال ثعلب: الزحف المشي قليلاً قليلاً إلى الشيء ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ يعني فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم فإن المنهزم يولي ظهره ودبره ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ يعني ومن ينهزم ويول دبره يوم الحرب والقتال ﴿إلا متحرفاً لقتال﴾ يعني إلا منقطعاً إلى القتال يرى عدوه من نفسه الانهزام وقصده طلب الكرة على العدو والعود إليه وهذا هو أحد أبواب الحرب وخدعها ومكايدها.

وقوله تعالى: ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ يعني أو منضماً وصائراً إلى جماعة من المؤمنين يريدون العود إلى القتال ﴿فقد باء بغضب من الله﴾ يعني من انهزم من المسلمين وقت الحرب إلا في هاتين الحالتين وهي التحرف للقتال والتحيز إلى فئة من المسلمين فقد رجع بغضب من الله ﴿ومأواه جهنم وبئس المصير﴾

(فصل في حكم هذه الآية)

اختلف العلماء في ذلك، فقال أبو سعيد الخدري: هذا في أهل بدر خاصة لأنه ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لأن النبي ﷺ كان معهم ولم تكن لهم فئة يتحيزون إليها دون النبي ﷺ ولو انحازوا انحازوا إلى المشركين ولأنها أول غزاة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه والمسلمون معه فشدد الله عليهم أمر الانهزام وحرمه عليهم يوم بدر فأما بعد ذلك اليوم فإن المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيزاً إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك قال يزيد بن أبي حبيب: أوجب الله النار لمن فرّ يوم بدر فلما كان يوم أحد قال الله تعالى إنما استزلهم

لك، فقال رسول الله ﷺ: لِمَه؟ قال: لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتُمُ الذيـن كفروا زَحْفاً ﴾، أي مجتمعين متزاحفين بعضهم إلى بعض، والتزاحف: التداني في القتال: والزحف مصدر ولذلك لم يجمع، كقولهم: قوم عدل ورضاً. قال الليث: أزحف جماعة يزحفون إلى عدوٍّ لهم بمرّة، فهم الجمع الزحوف. ﴿ فلا تُوَلُّوهُمُ الأدْبارَ ﴾، يقول: فلا تولّوهم ظهوركم أي لا تنهزمون فإن المنهزم يولّي دُبره.

﴿ ومَنْ يُوَلِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ ﴾، ظهره، ﴿ إلاّ متحرّفاً لقتالٍ ﴾، أي: متعطفاً يرى من نفسه الانهزام، وقصده طلب الغرّة وهو يريد الكرّة، ﴿ أو متحيّزاً إلى فئةٍ ﴾، أي: منضمّاً صائراً إلى جماعة من المؤمنين يريد العودة إلى القتال. ومعنى الآية النهي عن الانهزام من الكفّار والتولّي عنهم، إلاّ على نيّة التحرّف للقتال والانضمام إلى جماعة من المسلمين ليستعين بهم ويعود إلى القتال، فمَن ولّى ظهره لا على هذه النيّة لحقه الوعيد، كما قال تعالى: ﴿ فقدْ باءَ بغضبٍ منَ اللهِ ومَأْواهُ جهنّمُ وبئسَ المصير ﴾، اختلف العلماء في هذه الآية فقال أبو سعيد الخدري: هذا في أهل بدرٍ خاصة، ما كان يجوز لهم الانهزام لأن النبي ﷺ كان معهم، ولم يكن لهم فئة يتحيّزون إليها دون النبي ﷺ، ولو انحازُوا لانحازُوا إلى المشركين، فأمّا بعد ذلك فإن المسلمين بعضهم فئة لبعض، فيكون الفارّ متحيّزاً إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك، قال يزيد بن أبي حبيب: أوجب الله النار لمَن فرّ يوم بدر، فلما كان يوم أُحُد بعد ذلك قال: ﴿ إنّما استزلَّهُمُ الشيطانُ ببعضِ ما كسَبُوا ولقدْ عفَا اللّهُ عنهم ﴾

الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ثم كان يوم حنين بعده فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثم وليتم مدبرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ وقال عبد الله بن عمر: كنا في جيش بعثنا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فانهزمنا فقلنا يا رسول الله نحن الفرارون قال: لا بل أنتم الكرارون إنا فئة المسلمين. قوله فحاص الناس حيصة، يعني جال الناس جولة يطلبون الفرار من العدو. والمحيص: الهرب. وقال محمد بن سيرين: لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر بن الخطاب، فقال: لو انحاز إليّ كنت له فئة أنا فئة كل مسلم.

وقال بعضهم: حكم الآية عام في حق كل من ظهره منهزماً بدليل قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وهذا خطاب عام فيتناول جميع الصور وإن كانت الآية نزلت في غزاة بدر لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وجاء في الحديث «من الكبائر الفرار من الزحف» وقال عطاء بن أبي رباح: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ فليس لقوم أن يفروا من مثلهم فنسخت بذلك إلا في هذه العدة وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا منهم ويولوهم ظهورهم وإن كان العدو أكثر من المثلين جاز لهم أن يفروا منهم قال ابن عباس من فرّ من ثلاثة لم يفر ومن فرّ من اثنين فقد فرّ قوله تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ قال مجاهد: سبب نزول هذه الآية أنهم لما انصرفوا عن قتال أهل بدر كان الرجل يقول: أنا قتلت فلاناً، ويقول الآخر: أنا قتلت فلاناً فنزلت هذه الآية والمعنى فلم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله قتلهم يعني بنصره إياكم وتقويتكم عليهم وقيل: معناه ولكن الله قتلهم بإمداده إياكم بالملائكة.

قال الزمخشري: الفاء في قوله فلم تقتلوهم جواب شرط محذوف تقديره وإن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم ولكن الله قتلهم ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ قال أهل التفسير والمغازي لما ندب رسول الله ﷺ أصحابه،

[آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حُنين بعده فقال: ﴿ ثم ولّيتم مُدْبِرين ﴾ [التوبة: ٢٥]، ﴿ ثم يتوبُ اللَّهُ من بعد ذلك على مَن يشاء ﴾ [التوبة: ٢٧]، وقال عبد الله: كنّا في جيش بعثنا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فانهزمنا، فقلنا: يا رسول الله نحن الفرّارون، قال: «بل أنتم الكرّارون، إنّا فئة المسلمين». وقال محمد بن سيرين: لمّا قُتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال: لو انحاز إليّ كنت له فئة فإنّا فئة كل مسلم. وقال بعضهم: حكم الآية عامّ في حق كلّ مَن ولّى منهزماً. جاء في الحديث: «من الكبائر الفِرارُ من الزحف». وقال عطاء بن أبي رباح: هذه الآية منسوخة بقوله عزّ وجلّ: ﴿ الآن خَفّفَ اللَّهُ عنكم ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فليس لقوم أن يفرّوا من مثليهم فنسخت تلك إلاّ في هذه العدّة وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوّهم لا يجوز لهم أن يفرّوا ويولّوا ظهورهم إلاّ متحرفاً لقتالٍ أو متحيّزاً إلى فئة، وإن كانوا أقل من ذلك جاز لهم أن يُولّوا ظهورهم وينحازوا عنهم. قال ابن عباس: مَنْ فرَّ من ثلاثة فلم يفرّ، ومَن فرّ من اثنين فقد فرّ.

قوله تعالى: ﴿ فلمْ تقتلُوهم ولكنّ الله قتَلَهم ﴾، قال مجاهد: سبب نزول هذه الآية أنهم لمّا انصرفُوا عن القتال كان الرجل يقول: أنا قتلتُ فلاناً ويقول الآخر مثله، فنزلت الآية. ومعناه: فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم ولكنّ الله قتلهم بنصرته إيّاكم وتقويته لكم. وقيل: ولكن الله قتلهم بإمداد الملائكة. ﴿ وما رَميتَ إذْ رميتَ ولكنّ الله رمَى ﴾، قال أهل التفسير والمغازي: ندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدراً، ووردتْ عليهم روايـــا قريش،

انطلقوا حتى نزلوا بدراً ووردت عليهم روايا قريش وفيهم أسلم غلام أسود لبني الحجاج وأبو يسار غلام لبني العاص بن سعد فأخذوهما وأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ فقال لهما رسول الله ﷺ: أين قريش؟ قالا: هم وراء الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى والكثيب العقنقل. فقال رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالا: كثير. قال: ما عددهم؟ قالا: لا ندري. قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً عشرة ويوماً تسعة. فقال رسول الله ﷺ: القوم ما بين التسعمائة إلى ألف. ثم قال لهما: من فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر وطعمة بن عدي والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو فقال رسول الله ﷺ هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها. فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل، وهو الكثيب الرمل جاء إلى الوادي. فقال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني» فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان تناول رسول الله ﷺ كفاً من الحصباء عليه تراب فرمى به وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» يعني قبحت الوجوه فلم يبق مشرك إلا ودخل في عينه وفمه ومنخريه من ذلك التراب شيء فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وقال قتادة وابن زيد: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ أخذ يوم بدر ثلاث حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم، وبحصاة في ميسرة القوم وبحصاة بين أظهرهم وقال: «شاهت الوجوه» فانهزموا فذلك قوله عز وجل: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ إذ ليس في وسع أحد من البشر أن يرمي كفاً من الحصى في وجوه جيش فلا تبقى عين إلا وقد دخل فيها من ذلك شيء فصورة الرمي صدرت من رسول الله ﷺ وتأثيرها صدر من الله عز وجل فلهذا المعنى صح النفي والإثبات، وقيل. في معنى الآية: وما بلغت إذ رميت ولكن الله بلغ رميك، وقيل: ما رميت بالرعب في قلوبهم إذ رميت بحصياتك ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم حتى انهزموا ﴿وليبلي المؤمنين منه

وفيهم أسلم غلام أسود لبني الحجّاج وأبو يسار غلام لبني العاص بن سعيد، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فقال لهما: «أين قريش»؟ قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكثيب: العقنقل، فقال رسول الله ﷺ لهما: «كَمِ القوم»؟ قالا: كثير، قال: «ما عِدَّتُهم»؟ قالا: لا ندري، قال: «كم ينحرون كلّ يوم»؟ قالا: يوماً عشرة ويوماً تسعة، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسع مائة إلى الألف»، ثم قال لهما: «فمَن فيهم من أشراف قريش»؟ قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري ابن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأُميّة بن خلف، ونبيه ومُنبّه ابنا الحجّاج وسُهيل بن عمرو، فقال رسول الله ﷺ: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها». فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل وهو الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي قال لهم: «هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتُكذّب رسولك، اللّهمَّ فنصرَكَ الذي وعدتني»، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: خذْ قبضةً من تراب فارمِهم بها، فلمّا التقى الجمعان تناول كفّاً من حصى عليه تراب فرمى به في وجوه القوم، وقال: «شاهتِ الوجوه، فلم يبق منهم مشرك إلّا دخل في عينيه وفمه ومِنخَرَيه منها شيء، فانهزموا ورَدَفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم. وقال قتادة بن زيد: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ أخذ يوم بدر ثلاثَ حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم وبحصاة في ميسرة القوم وبحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهتِ الوجوه»، فانهزموا، فذلك قوله تعالى: ﴿ وما رَميتَ إذْ رميتَ ولكنّ اللّهَ رَمَى ﴾، إذْ ليس في وسع أحد من البشر أن يرمي كفّاً من الحصا إلى وجوه جيش فلا يبقى فيهم عين إلّا ويصيبها منه شيء. وقيل: معناه وما بلغتَ إذْ رميت ولكنّ الله بلّغ. وقيل: وما رميت بالرعب في قلوبهم إذْ رميتَ بالحصباء ولكنّ الله رمى بالرعب في قلوبهم حتى انهزموا، ﴿ وليُبْلِيَ المؤمنينَ منه بلاءً حسناً ﴾، أي: ولينعم على المؤمنين منه نعمةً

بلاء حسناً﴾ يعني ولينعم على المؤمنين نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة والأجر والثواب فقد أجمع المفسرون على أن البلاء هنا بمعنى النعمة ﴿إن الله سميع﴾ يعني لدعائكم ﴿عليم﴾ يعني بأحوالكم.

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

وقوله تعالى: ﴿ذلكم﴾ يعني الذين ذكرت من أمر القتل والرمي والبلاء الحسن من الظفر بهم والنصر عليهم فعلنا ذلك الذي فعلنا ﴿وأن الله﴾ يعني واعملوا أن الله مع ذلك ﴿موهن﴾ أي مضعف ﴿كيد الكافرين﴾ يعني مكرهم وكيدهم قوله عز وجل: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ هذا خطاب مع المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر، لما التقى الجمعان: اللهم أينا كان أفخر يعني نفسه ومحمداً ﷺ قاطعاً للرحم فأحنه اليوم. وقيل: إنه قال: اللهم أينا كان خيراً عندك فانصره. وقيل: قال: اللهم انصر أهدى الفئتين وخير الفريقين وأفضل الجمعين اللهم من كان أفخر وأقطع لرحمه فأحنه اليوم فأنزل الله عز وجل إن تستفتحوا ومعنى الآية إن تستحكموا الله على أقطع الفريقين للحرم وأظلم الفئتين فينصر المظلوم على الظالم والمحق على المبطل والمقطوع على القاطع (ق).

عن عبد الرحمن بن عوف قال: إني لواقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال أي عم هل تعرف أبا جهل قلت نعم فما حاجتك إليه يا ابن أخي. قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك قال: وغمزني الآخر فقال لي مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس فقلت: ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه قال فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته. فقال: هل مسحتما سيفكما؟ فقالا: لا فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين فقال كلاكما قتله وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لهماوالرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء (ق).

عظيمةً بالنصر والغنيمة، ﴿ إنّ اللّهَ سميعٌ ﴾ لدعائكم، ﴿ عليمٌ ﴾ بنيّاتكم.

﴿ ذلكُمْ ﴾ الذي ذكرت من القتل والرمي والبلاء الحسن، ﴿ وأنّ الله ﴾، قيل: فيه إضمار، أي: واعلموا أن الله ﴿ مُوهِنُ ﴾، مضعف، ﴿ كيدَ الكافرين ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة: «موهن» بالتشديد والتنوين، «كيد» نصب، وقرأ الآخرون بالتخفيف والتنوين إلّا حفصاً، فإنه يضيفه ولا ينوّن ويخفض «كيد».

قوله تعالى: ﴿ إنْ تستفتِحُوا فقدْ جاءَكُم الفتحُ ﴾، وذلك أن أبا جهل لعنه الله قال يوم بدر لمّا التقى الناس: اللّهمَّ أيّنا؟ أفخر؟ يعني نفسه ومحمداً ﷺ قاطعاً للرحم وأتانا بما لم نعرف فأحنه الغداة، فكان هو المستفتح على نفسه. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جدّه قال: قال عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصفّ يوم بدر إذ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السنّ فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه: يا عمّ أرِني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي وما تصنع به؟ فقال: عاهدتُ اللّهُ عزّ وجلّ إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، فقال لي الآخر سرّاً من صاحبه مثله، فما سرّني أني بين رجلين بمكانهما فأشرت لهما إليه فشدّا عليه

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «من ينظر لنا ما صنع أبو جهل فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد قال فأخذ بلحيته فقال أنت أبو جهل وفي كتاب البخاري أنت أبو جهل هكذا قاله أنس فقال وهل فوق رجل قتلتموه أو قال قتله قومه وفي رواية فقال أبو جهل فلو غير أكار قتلني» عن عبد الله بن مسعود قال: مررت فإذا أبو جهل صريع قد ضربت رجله فقلت يا عدو الله يا أبا جهل قد أخزى الله الآخر قال: ولا أهابه عند ذلك فقال أعمد من رجل قتله قومه فضربته بسيف غير طائل فلم يغن شيئاً حتى سقط سيفه من يده فضربته حتى برد أخرجه أبو داود وأخرجه البخاري مختصراً. قال: إنه أتى أبا جهل يوم بدر وبه رمق فقال: هل أعمد من رجل قتلتموه. وقال عكرمة: قال المشركون والله ما نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فأنزل الله عز وجل إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح يعني إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء. وقال السدي والكلبي: كان المشركون لما خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين ففيه نزلت: إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح. يعني: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر. وهو على ما سألوه فكان النصر لأهدى الفئتين وهم أصحاب محمد ﷺ.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر قال: قال معاذ بن عمرو بن الجموح: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة بدر أمر بأبي جهل بن هشام أن يلتمس في القتلى فقال: اللهم لا يعجزك، فلما سمعتها جعلته من شأني فعمدت نحوه فضربته ضربة طيرت قدمه بنصف ساقه قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة وأجهضني القتال عنه فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني جعلت عليها قدمي ثم تمطيت بها حتى طرحتها ثم مر بأبي جهل وهو عفير معاذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق فمر به عبد الله بن مسعود قال عبد الله وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه فقلت هل أخزاك الله يا عدو الله قال وبماذا أخزاني أعمد من رجل قتلتموه أخبرني لمن الدبرة قلت لله ولرسوله. روي عن ابن مسعود أنه قال: قال لي أبو جهل لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً ثم احتززت رأسه ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ قلت يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل فقال: آلله الذي لا إله غيره فقلت نعم والذي لا إله غيره ثم ألقيته بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله. وقال أبي بن

مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنا عفراء. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن المثنى ثنا ابن أبي عدي عن سليمان التيمي عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «مَنْ ينظرُ لنا ما صنع أبو جهل»؟ قال: فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى تردّى، قال: فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل؟ فقال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قتلتموه. قال محمد بن إسحاق حدَّثني عبد الله بن أبي بكر قال: قال معاذ بن عمرو بن الجموح لمّا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه أمر بأبي جهل بن هشام أن يُلتمس في القتلى، وقال: «اللّهمَّ لا يعجزنَّك»، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني فعمدت نحوه فضربته ضربة طيّرت قدمه بنصف ساقه، قال: وضربني ابنُه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلّقت بجلدة من جنبي وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامّة يومي وإنه لأصحبها خلفي، فلما آذتني جعلت عليها قدمي ثم تمطّيت بها حتى طرحتها، ثم مرّ بأبي جهل وهو عفير معاذ بن عفراء فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق فمرّ عبد الله بن مسعود قال عبد الله بن مسعود وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه، ثم قلت: هل أخزاكَ الله يا عدوّ الله؟ قال: وبماذا أخزاني أعمد من رجل قتلتموه، أخبرني لمَن الدائرة؟ قلت: لله ولرسوله ورُوِيَ عن ابن مسعود أنه قال: قال لي أبو جهل: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرْتقاً صعباً، ثم احترزت رأسه ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هذا رأس أبي جهل، فقال: «الله الذي لا إله غيره»؟ قلت: نعم والذي لا إله غيره، ثم ألقيته

كعب: هذا خطاب لأصحاب رسول الله ﷺ قال الله عز وجل للمسلمين إن تستفتحوا أي تستنصروا فقد جاءكم الفتح أي النصر (خ) عن خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» قلت: استدل البغوي بهذا الحديث على ما فسر به أبي بن كعب الآية وفيه نظر، لأن هذه الواقعة المذكورة في الحديث كانت بمكة والآية مدنية، فلا تعلق للحديث بتفسير الآية والله أعلم ولكن النبي ﷺ لما دعا الله ببدر وسأله إنجاز ما وعده من إحدى الطائفتين وألح في الدعاء والمسألة حتى سقط رداؤه وقال الله سبحانه وتعالى مجيباً له إن تستفتحوا يعني تطلبوا النصر وإنجاز ما وعدكم الله به فقد جاءكم الفتح يعني فقد حصل لكم ما طلبتم فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من إجابة دعائكم وإنجاز ما وعدكم به وهذا القول أولى لأن قوله فقد جاءكم الفتح لا يليق إلا بالمؤمنين.

هذا إذا فسرنا الفتح بالنصر والظفر على الأعداء.

أما إذا فسرناه بالقضاء والحكم لم يمتنع أن يراد به الكفار.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وإن تنتهوا فهو خير لكم**﴾ فهو خطاب للكفار يعني وإن تنتهوا عن قتال محمد ﷺ وعن تكذيبه فهو خير لكم في الدين والدنيا أما في الدين بأن تؤمنوا به وتكفوا عنه فيجعل لكم بذلك الفوز بالثواب والخلاص من العقاب.

وأما في الدنيا فهو الخلاص من القتل والأسر ﴿**وإن تعودوا نعد**﴾ يعني وإن تعودوا لقتال محمد ﷺ نعد بتسليطه عليكم ونصره عليكم ﴿**ولن تغني عنكم فئتكم**﴾ يعني جماعتكم ﴿**شيئاً**﴾ يعني لا تغني عنكم شيئاً ﴿**ولو كثرت**﴾ يعني

بين يد رسول الله ﷺ فحمد الله عزّ وجلّ. وقال السدي والكلبي: كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللّهمّ انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين ففيه نزلت: ﴿ **إنْ تستفتِحُوا فقدْ جاءَكُم الفتحُ** ﴾ أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر. وقال عكرمة: قال المشركون والله لا نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ أي: إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء. وقال أُبيّ بن كعب: هذا خطاب لأصحاب رسول الله ﷺ، قال الله تعالى للمسلمين: إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أي: إن تستنصروا فقد جاءكم الفتح والنصر. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن الطوسي ثنا عبد الرحيم بن منيب ثنا الفضل بن موسى ثنا إسماعيل بن خالد عن قيس عن خباب رضي الله عنه قال: شكونا إلى النبي ﷺ وهو متوسّد بُردة في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلنا: ألا تدعو الله فقعد وهو محمرٌ وجهه، وقال: كان الرجل فيمن كان قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيها فيُجاء بالمِنشار فيوضع فوق رأسه فيشقّ باثنين فما يصدّه ذلك عن دينه، ويمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب وما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون. قوله: ﴿ **وإنْ تنتهوا** ﴾، يقول الكفّار: إن تنتهوا عن الكفر بالله وقتال نبيّه ﷺ، ﴿ **فهو خيرٌ لكم وإنْ تعودُوا** ﴾، لحربه وقتاله، ﴿ **نَعُدْ** ﴾ بمثل الواقعة التي أوقعت بكم يوم بدر. وقيل: وإن تعودوا إلى الدعاء والاستفتاح نعد للفتح لمحمد ﷺ، ﴿ **ولنْ تغنيَ عنكم فِئتُكم** ﴾، جماعتكم، ﴿ **شيئاً ولو كثرتْ وَأنَّ اللَّهَ معَ المؤمنين** ﴾، قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص «وأن الله»

جماعتكم ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ يعني بالنصر لهم عليكم يا معشر الكفار.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله**﴾ يعني في أمر الجهاد لأن فيه بذل المال والنفس ﴿**ولا تولوا عنه**﴾ يعني عن الرسول ﷺ لأن التولي لا يصح إلا في حق الرسول ﷺ لا في حق الله تعالى والمعنى لا تعرضوا عنه وعن معونته ونصرته في الجهاد ﴿**وأنتم تسمعون**﴾ يعني القرآن يتلى عليكم ﴿**ولا تكونوا كالذين قالوا**﴾ بألسنتهم ﴿**سمعنا وهم لا يسمعون**﴾ يعني وهم لا يتعظون ولا ينتفعون بما سمعوا من القرآن والمواعظ وهذه صفة المنافقين ﴿**إن شر الدواب عند الله**﴾ يعني إن شر من دب على وجه الأرض من خلق الله عند الله ﴿**الصم**﴾ عن سماع الحق ﴿**البكم**﴾ عن النطق به فلا يقولونه ﴿**الذين لا يعقلون**﴾ يعني لا يفهمون عن الله أمره ونهيه ولا يقبلونه وإنما سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم. قال ابن عباس: هم نفر من بني عبد الدار بن قصي كانوا يقولون نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد ﷺ فقتلوا جميعاً يوم أحد وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم إلا رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة ﴿**ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم**﴾ يعني سماع تفهم وانتفاع وقبول للحق ومعنى ولو علم الله. قال الإمام فخر الدين: إن كان ما كان حاصلاً فيجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه فلا جرم حسن التعبير عن عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده وتقدير الكلام لو حصل فيهم خير لأسمعهم الله الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهم ﴿**ولو أسمعهم**﴾ يعني بعد أن علم أنه لا خير فيهم لم ينتفعوا بما يسمعون من المواعظ والدلائل لقوله تعالى: ﴿**لتولوا وهم معرضون**﴾ يعني لتولوا عن سماع الحق وهم معرضون عنه لعنادهم وجحودهم الحق بعد

بفتح الهمزة، أي ولأن الله مع المؤمنين، كذلك ﴿ **لنْ تُغنيَ عنكم فئتُكم شيئاً** ﴾، وقيل: هو عطف على قوله: ﴿ **ذلكم وأن الله مُوهِن كيدَ الكافرين** ﴾، وقرأ الآخرون: ﴿ **وإنَّ الله** ﴾ بكسر الألف على الابتداء.

﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسولَهُ ولا تَولَّوا عنه** ﴾، أي: لا تُعرضوا عنه، ﴿ **وأنتم تسمعون** ﴾، القرآن ومواعظه.

﴿ **ولا تكونُوا كالذين قالوا سمعنَا وهم لا يسمعُون** ﴾، أي: يقولون بألسنتهم سمعنا بآذاننا وهم لا يسمعون، أي لا يتعظون ولا ينتفعون بسماعهم فكأنهم لم يسمعوا.

قوله تعالى: ﴿ **إنّ شرَّ الدوابِّ** ﴾، أي: شرّ من الدواب على وجه الأرض من خلق الله، ﴿ **عندَ اللّهِ الصُّمُّ البُكْمُ** ﴾، عن الحق فلا يسمعونه ولا يقولونه، ﴿ **الذين لا يعقلُون** ﴾ أَمْرَ الله عزّ وجلّ سمّاهم ﴿ **دواب** ﴾ لقلّة انتفاعهم بعقولهم، كما قال تعالى: ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، قال ابن عباس: هم نفر من بني عبد الدار بن قصي، كانوا يقولون: نحن صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ عمّا جاء به محمد، فقُتلوا جميعاً بأُحُد، وكانوا أصحاب اللواء لم يسلم منهم إلاّ رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة.

﴿ **ولو علمَ اللّهُ فيهم خيراً لأَسْمَعَهم** ﴾، سماع التفهّم والقبول، ﴿ **ولو أسمعهم** ﴾، بعد أن علم أن لا خير

ظهوره وقيل: إنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: أحي لنا قصياً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن لك فقال الله سبحانه وتعالى: ولو أحيا لهم قصياً وسمعوا كلامه لتولوا عنه وهم معرضون.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول﴾ يعني أجيبوهما بالطاعة والانقياد لأمرهما ﴿إذا دعاكم﴾ يعني الرسول ﷺ. وإنما وجد الضمير في قوله تعالى إذا دعاكم لأن استجابة الرسول ﷺ استجابة لله تعالى وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد واستدل أكثر الفقهاء بهذه الآية على أن ظاهر الأمر للوجوب لأن كل من أمره الله ورسوله ﷺ بفعل فقد دعاه إليه وهذه الآية تدل على أنه لا بد من الإجابة في كل ما دعا الله ورسوله إليه (خ).

عن أبي سعيد بن المعلى قال: «كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه ثم أتيته فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي فقال ﷺ ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول إذ دعاكم» ثم ذكر الحديث عن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ خرج على أبي بن كعب وهو يصلي فقال رسول الله ﷺ يا أبيّ فالتفت أبيّ ولم يجبه وصلى أبي وخفف ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال السلام عليك يا رسول الله فقال ﷺ ما منعك يا أبي أن تجيبني إذ دعوتك فقال: يا رسول الله إني كنت في الصلاة فقال ﷺ أفلم تجد فيما أوحى الله إلي: استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم قال بلى ولا أعود إن شاء الله تعالى» وذكر الحديث أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

قيل هذه الإجابة مختصة بالنبي ﷺ فعلى هذا ليس لأحد أن يقطع صلاته لدعاء أحد آخر وقيل لو دعاه أحد لأمر مهم لا يحتمل التأخير فله أن يقطع صلاته.

وقوله تعالى: ﴿لما يحييكم﴾ يعني إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم. قال السدي: هو الإيمان، لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان. وقال قتادة: هو القرآن، لأنه حياة القلوب وفيه النجاة والعصمة في الدارين. وقال مجاهد: هوالحق وقال محمد بن إسحاق: هو الجهاد لأن الله أعزه به بعد الذل. وقيل: هو الشهادة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله. وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ومجاهد. وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإذنه وقد دلت البراهين العقلية على هذا القول لأن أحوال القلوب اعتقادات ودواعي وتلك الاعتقادات والدواعي لا بد أن تتقدمها الإرادة وتلك الإرادة لا بد لها من فاعل مختار وهو الله سبحانه وتعالي فثبت بذلك أن المتصرف في القلب كيف شاء هو الله تعالى (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت

فيهم ما انتفعوا بذلك، ﴿لتولَّوا عنه وهمْ مُعرِضُون﴾، لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره. وقيل: إنهم كانوا يقولون للنبيّ ﷺ: أحيي لنا قصيّاً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك بالنبوّة فنؤمن بك. فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ولو أسمعهم﴾ كلام قصي ﴿لتولّوا وهم معرضون﴾.

قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذينَ آمنُوا استجيبُوا للّهِ وللرّسولِ﴾، يقول: أجيبوهما بالطاعة، ﴿إذا دعاكم﴾، الرسول ﷺ، ﴿لِما يُحييكم﴾، أي: إلى ما يُحييكم. قال السدي: وهو الإيمان، لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان. وقال قتادة: هو القرآن فيه الحياة وبه النجاة والعصمة في الدارين. وقال مجاهد: هو الحق. وقال ابن إسحاق: هو الجهاد أعزّكم الله به بعد الذلّ. وقال القتيبي: بل الشهادة قال الله تعالى في الشهداء: ﴿بل أحياءٌ عند ربّهم يُرزقون﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وروينا أن النبي ﷺ مرّ على أُبيّ بن كعب رضي الله عنه وهو يصلّي فدعاه فعجّل أُبيّ في صلاته، ثم جاء فقال رسول الله: «ما منعك أن تجيبني إذْ دعوتُك»؟ قال: كنت في الصلاة، قال: «أليس يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبُوا لله وللرسول إذا دعاكم لِما يُحييكم﴾»؟ فقال: لا

رسول الله ﷺ يقول «إن قلوب بين آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء ثم قال رسول الله ﷺ اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك» عن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقلنا يا رسول الله قد آمنّا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال: نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء». أخرجه الترمذي وهذا الحديث من أحاديث الصفات، فيجب على المرء المسلم أن يمره على ما جاء مع الاعتقاد الحازم بتنزيه الله تعالى عن الجارحة والجسم. وقيل في معنى الآية: إن الله عز وجل يحول بين المرء وقلبه حتى لا يدري ما يصنع ولا يعقل شيئاً. وقيل: إن القوم لما دعوا إلى القتال والجهاد وكانوا في غاية الضعف والقلة خافت قلوبهم وضاقت صدورهم فقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الخوف أمناً والجبن جراءة.

وقوله تعالى: ﴿وأنه إليه تحشرون﴾ يعني في الآخرة فيجزي كل عامل بعمله فيثيب المحسن ويعاقب العاصي.

قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢٥﴾

﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾ لما أخبر الله عز وجل أنه يحول بين المرء وقلبه حذر من وقوع المرء في الفتن والمعنى واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تتعدى إليكم جميعاً وتصل إلى الصالح والطالح وأراد بالفتنة الابتلاء والاختبار وقيل: تقديره واتقوا فتنة إن لم تتقوها أصابتكم جميعاً الظالم وغير الظالم.

قال الحسن: نزلت هذه الآية في علي وعمار وطلحة والزبير. قال الزبير: لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما نرى أنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها يعني ما كان منهم في يوم الجمل. وقال السدي ومجاهد والضحاك وقتادة: هذا في قوم مخصوصين من أصحاب محمد ﷺ أصابتهم الفتنة يوم الجمل. وقال ابن عباس: أمر الله عز وجل المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب فيصيب الظالم وغير الظالم روى البغوي بسنده عن عدي بن عدي الكندي قال حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة

جرم يا رسول الله لا تدعوني إلّا أجبت وإن كنت مصلياً. قوله تعالى: ﴿ **واعْلَمُوا أنّ اللَّهَ يحولُ بينَ المَرْءِ وقَلْبِهِ** ﴾، قال سعيد بن جبير وعطاء: يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والإيمان. وقال الضحاك: يحول بين الكافر والطاعة، ويحول بين المؤمن والمعصية. وقال مجاهد: يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ولا يدري ما يعمل. وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلّا بإذنه. وقيل: هو أنّ القوم لمّا دُعُوا إلى القتال في حالة الضعف ساءت ظنونهم واختلجت صدورهم فقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه فيبدل الله الخوف أمناً والجبن جُرْأةً وشجاعة. ﴿ **وأنّه إليه تُحشرون** ﴾، فيجزيكم بأعمالكم. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أحمد بن الحسن الحيري أنا حاطب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن حمّاد ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثبِّتْ قلبي على دِينِك»، قالوا: يا رسول الله آمنّا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «القلوبُ بينَ أصبعين من أصابع الله يُقلّبها كيف يشاء».

﴿ **واتّقوا فتنةً** ﴾، اختباراً وبلاءً ﴿ **لا تُصيبنَّ** ﴾، قوله: ﴿ **لا تصيبنّ** ﴾ ليس بجزاء محض، ولو كان جزاءً لم تدخل فيه النون، لكنه نفي، وفيه طرف من الجزاء كقوله تعالى: ﴿ يا أيها النمل ادْخُلوا مسَاكِنَكم لا يَحطمَنَّكُمْ سليمانُ وجنودُه ﴾ [النمل: ١٨]، وتقديره واتقوا فتنة إنْ لم تتّقوها أصابتكم، فهو كقول القائل: انزل عن الدابّة لا تطرحك ولا تطرحنّك، فهذا جواب الأمر بلفظ النفي، معناه إن تنزل لا تطرحك. قال المفسّرون: نزلت هذه الآية

حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة» والذي ذكره ابن الأثير في جامع الأصول عن عدي بن عميرة الكندي أن النبي ﷺ قال: «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها» أخرجه أبو داود عن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه ولم يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا» أخرجه أبو داود. وقال ابن زيد: أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضاً (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي خير من الساعي من تشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذبه» فإن قلت ظاهر قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ يشمل الظالم وغير الظالم كما تقدم تفسيره فكيف يليق برحمة الله وكرمه أن يوصل الفتنة إلى من يذنب.

قلت: إنه تعالى مالك الملك وخالق الخلق وهم عبيده وفي ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فيحسن ذلك منه على سبيل المالكية أو لأنه تعالى علم اشتمال ذلك على أنواع المصلحة والله أعلم بمراده.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ فيه تحذير ووعيد لمن واقع الفتنة التي حذره الله منها.

وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

وقوله عز وجل: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ لما أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعة الله

في أصحاب رسول الله ﷺ ومعناه: اتقوا فتنة تصيب الظالم وغير الظالم. قال الحسن: نزلت في عليّ وعمّار وطلحة والزبير رضي الله عنهم. قال الزبير: لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيّون بها، يعني ما كان يوم الجمل. وقال السدي ومقاتل والضحاك وقتادة: هذا في قوم مخصوصين من أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم الفتنة يوم الجمل. وقال ابن عباس: أمر الله عزّ وجلّ المؤمنين أن لا يُقرّوا المُنكَر بين أظهرهم فيعمهم اللّهُ بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم. أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر الحارثي أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن سيف بن سليمان قال: سمعت عدي بن عدي الكندي يقول: حدّثني مولىً لنا أنه سمع جدّي يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله لا يُعذّبُ العامّةَ بعملِ الخاصّة حتى يَرَوا المنكرَ بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن يُنكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامّة والخاصّة». وقال ابن زيد: أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضاً. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكونُ فِتنٌ القاعدُ فيها خير من القائم، والقائم، فيها خير من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، مَن تشرّفَ لها تستشرفه، فمَن وجد ملجأ أو معاذاً فليَعُذْ به»: قوله: ﴿ لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة ﴾، يعني: العذاب، ﴿ واعْلَمُوا أنّ الله شديدُ العِقَاب ﴾.

قوله تعالى: ﴿ واذْكُروا إذ أنتم قليلٌ مستضعَفُونَ في الأرض ﴾، يقول: اذكروا يا معاشر المهاجرين إذْ أنتم

وطاعة رسوله وحذرهم من الفتنة ذكرهم نعمته عليهم. فقال تعالى: واذكروا يا معشر المؤمنين المهاجرين إذ أنتم قليل يعني في العدد مستضعفون في الأرض يعني في أرض مكة في ابتداء الإسلام ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ يعني كفار مكة قال عكرمة كفار العرب وقال وهب ابن منبه يعني فارس والروم ﴿فآواكم﴾ يعني إلى المدينة ﴿وأيدكم بنصره﴾ يعني وقواكم بالأنصار. وقال الكلبي: وقواكم يوم بدر بالملائكة ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ يعني الغنائم أحلها لكم ولم يحلها لأحد قبلكم ﴿لعلكم تشكرون﴾ يعني تشكرون الله على نعمه عليكم قوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾ قال الزهري والكلبي: نزلت هذه الآية في أبي لبابة هارون بن عبدالمنذر الأنصاري من بني عوف بن مالك وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام فأبى رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعيد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر وكان مناصحاً لهم لأن ماله وولده وعياله كان عندهم فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه يعني إنه الذبح فلا تفعلوا. قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ وشدّ نفسه على سارية من سواري المسجد. وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، قال: أما لو جاءني لاستغفرت له أما إذا فعل ما فعل فإني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرَّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له يا أبا لبابة قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني فجاء فحله بيده ثم قال أبو لبابة إن تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي فقال رسول الله ﷺ: يجزيك الثلث أن تصدق به فنزل فيه ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله

قليل في العدد مستضعفون في أرض مكة في ابتداء الإسلام، ﴿ تخافون أن يتخطّفكُمُ النّاس ﴾، يذهب بكم الناس، يعني: كفّار العرب. وقال عكرمة: كفّار مكة. وقال وهب: فارس والروم، ﴿ فآواكم ﴾، إلى المدينة، ﴿ وأيّدكم بنصره ﴾، أي: قوّاكم يوم بدر بالأنصار. وقال الكلبي: قوّاكم يوم بدر بالملائكة، ﴿ ورزقكمْ مِّنَ الطّيباتِ ﴾، يعني: الغنائم التي أحلّها لكم ولم يُحلّها لأحدٍ قبلكم، ﴿ لعلّكم تشكرُون ﴾.

﴿ يا أيّها الذين آمنُوا لا تَخُونوا اللّهَ والرّسولَ ﴾، قال السدي: كانوا يسمعون الشيءَ من رسول الله ﷺ فيغشونه، حتى يبلغ المشركين. وقال الزهري والكلبي: نزلت الآية في أبي لبابة هارون بن عبد المنذر الأنصاري من بني عوف، وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله ﷺ الصفح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، فأبى رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك إلّا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، وكان مناصحاً لهم لأن ماله وولده وعياله كانت عندهم، فبعثه رسول الله ﷺ فقالوا له: يا أبا لبابة ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده على حلقه أنه الذبح فلا تفعلوا، قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنّي قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق على وجهه ولم يأتِ رسول الله ﷺ وشدّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أبرح ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، قال: «أما لو جاءني لاستغفرتُ له فأما إذا فعل ما فعل فإني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه»، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحلّ نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلّني بيده، فجاء فحلّه بيده، ثم قال

والرسول﴾. وقال السدي: كانوا يسمعون السر من النبي ﷺ فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنزلت هذه الآية وقال جابر بن عبد الله: إن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبي ﷺ فقال لي إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا فقال النبي ﷺ لأصحابه إن أبا سفيان في مضوع كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا قال فكتب رجل من المنافقين إليه إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله عز وجل لا تخونوا الله والرسول ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ ومعنى الآية لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم ﴿وأنتم تعلمون﴾ يعني أنها أمانة وقيل: معناه وأنتم تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الخلق خيانة وأصل الخيانة من الخون وهو النقص لأن من خان شيئاً فقد نقصه والخيانة ضد الأمانة، وقيل في معنى الآية: لا تخونوا الله والرسول فإنكم إذا فعلتم ذلك فقد خنتم أماناتكم. وقال ابن عباس: معناه لا تخونوا الله بترك فرائضه ولا تخونوا الرسول بترك سنته ولا تخونوا أماناتكم قال ابن عباس هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله تعالى والأعمال التي ائتمن عليها العباد وقال قتادة: اعلموا أن دين الله أمانة فأدوا إلى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ومنه الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب.

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

وقوله عز وجل ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾. قيل: هذا مما نزل في أبي لبابة وذلك لأن أمواله وأولاده كانت في بني قريظة فلذلك قال ما قال خوفاً عليهم. وقيل: إنه عام في جميع الناس وذلك أنه لما كان الإقدام على الخيانة في الأمانة هو حب المال والولد نبّه الله سبحانه وتعالى بقوله: واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة على أنه يجب على العاقل أن يحذر من المضار المتولدة من حب المال والولد، لأن ذلك يشغل القلب ويصيره محجوباً عن خدمة المولى وهذا من أعظم الفتن وروى البغوي بسنده عن عائشة أن النبي ﷺ «أتى بصبي فقبله وقال أما إنهم مبخلة مجبنة وإنهم لمن ريحان الله» أخرج الترمذي عن عمر بن عبد العزيز قال زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم قال: «خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته وهو يقول إنكم لتبخلون وتجبنون و تجهلون وإنكم لمن ريحان الله»

أبو لبابة: يا رسول الله إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كله، فقال النبي ﷺ: «يجزيك الثلث فتصدّق به»، فنزلت فيه ﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾، ﴿ وتخونوا أماناتِكم ﴾، أي: ولا تخونوا أماناتكم، ﴿ وأنتم تعلمون ﴾، أنها أمانة. وقيل: وأنتم تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الحلق خيانة. قال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم. وقال ابن عباس: لا تخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سنّته وتخونوا أماناتكم. قال ابن عباس: هي ما يخفَى عن أعين الناس من فرائض الله، والأعمال التي ائتمن العباد عليها. قال قتادة: اعلموا أنّ دين الله أمانة فأدّوا إلى الله عزّ وجلّ ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده، ومَن كانت عليه أمانة فليؤدّها إلى مَن ائتمنه عليها.

﴿ واعْلَموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾، قيل: هذا أيضاً في أبي لبابة، وذلك أن أمواله وأولاده كانوا في بني قريظة، فقال ما قال خوفاً عليهم. وقيل: هذا في جميع الناس. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي إملاءً وأبو بكر محمد بن محمد بن الحسن الطوسي قالا: حدّثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفرايني أنا محمد بن

قال الترمذي: لا نعرف لعمر بن عبد العزيز سماعاً عن خولة. قوله، لمن ريحان الله: أي لمن رزق الله والريحان في اللغة الرزق.

وقوله تعالى: ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ يعني لمن أدى الأمانة ولم يخن وفيه تنبيه على أن سعادة الآخرة وهو ثواب الله أفضل من سعادة الدنيا وهو المال والولد.

وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله﴾ يعني بطاعته وترك معاصيه ﴿يجعل لكم فرقاناً﴾ يعني يجعل لكم نوراً وتوفيقاً في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل والفرقان أصله الفرق بين الشيئين لكنه أبلغ من أصله لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل والحجة والشبهة. قال مجاهد: يجعل لكم مخرجاً في الدنيا والآخرة، وقال مقاتل: مخرجاً في الدين من الشبهات وقال عكرمة: نجاة أي يفرق بينكم وبين ما تخافون وقال محمد بن إسحاق: فصلاً بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويطفىء باطل من خالفكم وقيل يفرق بينكم وبين الكفار بأن يظهر دينكم ويعليه ويبطل الكفر ويوهنه ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ يعني ويمح عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿ويغفر لكم﴾ يعني ويستر عليكم بأن لا يفضحكم في الدنيا ولا في الآخرة ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ لأنه هو الذي يفعل ذلك بكم فله الفضل العظيم وعلى غيركم من خلقه ومن كان كذلك فإنه إذا وعد بشيء وفى به قيل إنه يتفضل على الطائعين بقبول الطاعات ويتفضل على العاصين بغفران السيئات وقيل: معناه أن بيده الفضل العظيم فلا يطلب من عند غيره.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ لما ذكر الله المؤمنين نعمه عليهم بقوله تعالى: واذكروا إذ أنتم قليل ذكر نبيه ﷺ نعمه عليه فيما جرى عليه بمكة من قومه لأن هذه السورة مدنية وهذه الواقعة كانت بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة والمعنى واذكر يا محمد إذ يمكر بك الذين كفروا وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من

محمد بن زمويه حدّثنا يحيى بن محمد بن غالب حدّثنا ابن يحيى حدّثنا عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة أن النبي ﷺ أتي بصبي فقبّله وقال: «أما إنّهم مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ وإنّهم لَمِنْ ريحانِ اللّهِ عزّ وجلّ».

﴿ وأنّ اللّهَ عنده أجرٌ عظيم ﴾، لمَن نصح الله ورسوله وأدّى أمانته.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إن تتّقُوا الله ﴾، بطاعته وترك معصيته، ﴿ يجعلْ لكم فُرْقاناً ﴾، قال مجاهد: مخرجاً في الدنيا والآخرة. وقال مقاتل بن حيان: مخرجاً في الدين من الشبهات وقال عكرمة: نجاة أي يفرّق بينكم وبين ما تخافون. وقال الضحاك: بياناً. وقال ابن إسحق: فصلاً بين الحق والباطل يُظهر الله به حقكم ويطفىء باطل مَن خالفكم. والفرقان مصدر كالرجحان والنقصان. ﴿ ويُكفِّرْ عنكم سيئاتِكم ﴾، يمحُ عنكم ما سلف من ذنوبكم، ﴿ ويغفرْ لكم واللّهُ ذُو الفضل العظيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ يمكرُ بكَ الذين كفروا ﴾، هذه الآية معطوفة على قوله: ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل ﴾، واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا وإذ قالوا اللّهمّ، لأن هذه السورة مدنية وهذا المكر والقول إنما كانا بمكة، ولكن الله ذكرهم بالمدينة كقوله تعالى: ﴿ إلّا تنصروه فقدْ نصرَه اللّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠] وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير: أنّ قريشاً فرّقوا لمّا أسلمت الأنصار أن يتفاقم أمر رسول الله ﷺ فاجتمع نفر من كبارهم في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، وكانت رؤوسهم عيبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو سفيان وطعيمة بن عدي وشيبة بن ربيعة والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج وأمية بن خلف، فاعترضهم إبليس لعنه الله في صورة شيخ، فلما رأوه قالوا: مَن أنت؟ قال: شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منّي رأياً ونصحاً، قالوا: أدخل فدخل، فقال أبو

أهل التفسير قالوا جميعاً إن قريشاً فرقوا لما أسلمت الأنصار أن يتفاقم أمر رسول الله ﷺ ويظهر فاجتمع نفر من كبار قريش في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ وكان رؤوسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأبو سفيان وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأمية بن خلف، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ، فلما رأوه قالوا له: من أنت؟ قال: أنا شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً. فقالوا: ادخل. فدخل، فقال أبو البختري: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً وتحبسوه في بيت مقيداً وتشدوا وثاقه وتسدوا باب البيت غير كوة تلقون منها طعامه وشرابه وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء فصرخ عدو الله إبليس وهو الشيخ النجدي وقال: بئس الرأي رأيتم لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فيقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم فقالوا صدق الشيخ النجدي. فقام هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي، فقال: أما أنا فأرى أن تحملوه على بعير وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه. فقال إبليس اللعين: ما هذا لكم برأي تعتمدون إلى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم ألم تروا إلى حلاوة منطقه وطلاقة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه والله لئن فعلتم ذلك يذهب ويستميل قلوب قوم آخرين ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من بلادكم فقالوا: صدق الشيخ النجدي. فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره إني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شاباً نسيباً وسطاً فتياً ثم نعطي كل فتى سيفاً صارماً ثم يضربوه جميعاً ضربة رجل واحد فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها وأنهم إذا أرادوا ذلك. قالوا: العقل فتؤدي قريش ديته فقال إبليس اللعين: صدق هذا الفتى هو أجودكم رأياً، والقول ما قال لا أرى غيره فتفرقوا على قول أبي جهل وهم مجتمعون عليه فأتى جبريل عليه السلام

البختري: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً وتحبسوه في بيت وتشدّوا وثاقه وتسدّوا باب البيت غير كـــوة تلقون إليه طعامه وشرابه وتتربّصوا به ريب المنون حتى يهلك فيه، كما هلك من قبله من الشعراء، قال: فصرخ عدوّ الله الشيخ النجدي وقال: بئس الرأي رأيتم والله لئن حبستموه في بيت فخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم ويقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم، قالـوا: صدق الشيـخ النجدي، فقـال هشام بن عمـرو من بني عامر بن لؤي: أمّا أنا فأرى أن تحملوه على بعير تخرجوه من أظهركم فلا يضرّكم ما صنع ولا أين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه، فقال إبليس لعنه الله: ما هذا لكم برأي تعتمدون عليه، تعتمدون إلى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم ألم تروا إلى حلاوة منطقه وحلاوة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ذلك ليذهبنّ وليستميل قلوب قوم ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من بلادكم، قالوا: صدق الشيخ النجدي: فقال أبو جهل والله لأشيرنّ عليكم برأي ما أرى غيره إني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابّاً نسيباً وسيطاً فتيّاً ثم يُعطى كل فتىً منهم سيفاً صارماً، ثم يضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل كلها ولا أظن هذا الحيّ من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، وبأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فتؤدّي قريش ديّته، فقال إبليس: صدق هذا الفتى، وهو أجودكم رأياً، القول ما قال لا أرى رأياً غيره فتفرّقوا على قول أبي جهل وهم مُجمِعون له. فأتى جبريلُ النبيَّ ﷺ وأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، فأذن الله له عند ذلك بالخروج إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ عليّ بـن أبي طالب أن ينام في مضجعه وقال له: «اتّشح ببردتي هذه فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه»، ثم خرج النبي ﷺ فأخذ قبضة من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ: ﴿ إنّا جعلنا في أعناقــهم أغــلالاً ﴾ إلـى قوله: ﴿ فهم

النبي ﷺ فأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأذن الله عز وجل له عند ذلك بالخروج إلى المدينة «فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب أن يبيت في مضجعه وقال له: اتشح ببردتي فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه» ثم خرج رسول الله ﷺ، فأخذ قبضة من تراب وأخذ الله عز وجل أبصارهم عنه فخرج وجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ إلى قوله، فهم لا يبصرون. ومضى إلى الغار من ثور وهو أبو بكر وخلف علياً بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي قبلها وكانت الودائع توضع عنده لصدقه وأمانته. قالوا: وبات المشركون يحرسون علياً وهو على فراش رسول الله ﷺ يحسبون أنه النبي ﷺ فلما أصبحوا، ساروا إليه ليقتلوه فرأوه علياً فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري. فاقتفوا أثره وأرسلوا في طلبه، فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم يكن لنسج العنكبوت على بابه أثر فمكث في الغار ثلاثاً ثم خرج إلى المدينة فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ وأصل المكر احتيال في خفية ﴿ليثبتوك﴾ أي ليحبسوك ويوثقوك لأن كل من شد شيئاً وأوثقه فقد أثبته لأنه لا يقدر على الحركة ﴿أو يقتلوك﴾ يعني كما أشار عليهم أبو جهل ﴿أو يخرجوك﴾ يعني من مكة ﴿ويمكرون﴾ يعني ويحتالون ويدبرون في أمرك ﴿ويمكر الله﴾ يعني ويجازيهم الله جزاء مكرهم فسمى الجزاء مكر، لأنه في مقابلته. وقيل: معناه ويعاملهم الله معاملة مكرهم. والمكر: هو التدبير وهو من الله تعالى التدبير بالحق. والمعنى: أنهم احتالوا في إبطال أمر محمد ﷺ والله سبحانه وتعالى أظهره وقواه ونصره فضاع فعلهم وتدبيرهم وظهر فعل الله وتدبيره ﴿والله خير الماكرين﴾ فإن قلت كيف قال الله سبحانه وتعالى والله خير الماكرين ولا خير في مكرهم.

قلت: يحتمل أن يكون المراد والله أقوى الماكرين فوضع خبر موضع أقوى وفيه تنبيه على أن كل مكر يبطل بفعل الله. وقيل: يحتمل أن يكون المراد أن مكرهم فيه خير بزعمهم فقال سبحانه وتعالى في مقابلته: والله خير الماكرين. وقيل: ليس المراد التفضيل بل إن فعل الله خير مطلقاً.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ نزلت في النضر بن الحارث بن

لا يبصرون ﴾ [يٓس: ٨ و ٩]، ومضى إلى الغار من ثور هو وأبو بكر، وخلف علياً بمكة حتى يُؤدّي عنه الودائع التي كانت عنده وكانت الودائع تودع عنده ﷺ لصدقه وأمانته، وبات المشركون يحرسون علياً في فراش رسول الله ﷺ يحسبون أنه النبي ﷺ فلما أصبحوا ثاروا إليه فرأوا علياً رضي الله عنه، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فاقتصّوا أثره وأرسلوا في طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخله لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً قَدِمَ المدينة، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإذْ يمكرُ بِكَ الذين كفروا ﴾، ﴿ لِيُثْبِتوك ﴾، ليحبسوك ويسجنوك ويوثقوك، ﴿ أو يقتلُوك أو يُخرجُوك ويمكُرون ويمكرُ اللَّهُ ﴾، قال الضحاك: يصنعون ويصنع الله، والمكر التدبير وهو من الله التدبير بالحق. وقيل: يجازيهم جزاء المكر، ﴿ واللَّهُ خيرُ الماكرين ﴾.

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتُنا قالوا ﴾، يعني النضر بن الحارث، ﴿ قدْ سمعنَا لو نشاءُ لقلنا مثل هذا ﴾، وذلك أنه

علقمة من بني عبد الدار وذلك أنه كان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ويسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار وأحاديث العجم وكان يمر بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرؤون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون ويبكون فلما جاء مكة وجد النبي ﷺ قد أوحي إليه وهو يقرأ ويصلي. فقال النضر بن الحارث: قد سمعنا يعني مثل هذا الذي جاء به محمد لو نشاء لقلنا مثل هذا فذمهم الله بدفعهم الحق الذي لا شبهة فيه بادعائهم الباطل بقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا بعد التحدي وأبان عجزهم عن ذلك ولو قدروا ما تخلفوا عنه وهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة فبان بذلك كذبهم في قولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ يعني أخبار الماضين.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ نزلت في النضر بن الحرث أيضاً.

قال ابن عباس: لما قص رسول الله ﷺ شأن القرون الماضية، قال النضر بن الحرث: لو شئت لقلت مثل هذا فقال له عثمان بن مظعون: اتق الله فإن محمداً ﷺ يقول الحق قال وأنا أقول الحق. قال: فإن محمداً ﷺ يقول لا إله إلا الله. قال: وأنا أقول لا إله إلا الله. ولكن هذه بنات الله، يعني الأصنام، ثم قال: اللهم إن كان هذا هو الحق يعني القرآن الذي جاء به محمد ﷺ. وقيل: يعني إن كان الذي يقول محمد ﷺ من أمر التوحيد وادعاء النبوة وغير ذلك هو الحق فأمطر علينا حجارة من السماء يعني كما أمطرتها على قوم لوط أو ائتنا بعذاب أليم: يعني مثل ما عذبت به الأمم الماضية، في النضر بن الحرث نزل سأل سائل بعذاب واقع. قال عطاء: لقد نزل في النضر بن الحرث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر قال سعيد بن جبير: قتل رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثة من قريش صبرا طعيمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحرث وروى أنس بن مالك أن الذي قال ذلك أبو جهل (ق)

عن أنس قال: قال أبو جهل اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية فنزلت وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية فلما أخرجوه نزلت وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدونهم عن المسجد الحرام.

قوله عز وجل: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ اختلفوا في معنى هذه الآية فقال محمد بن إسحاق: هذه

كان يختلف تاجر إلى فارس والحيرة فيسمع أخبار رستم وإسفنديار، وأحاديث العجم ويمرّ باليهود والنصارى فيراهم يركعون ويسجدون ويقرؤون التوراة والإنجيل، فجاء إلى مكة فوجد رسول الله ﷺ يصلّي ويقرأ القرآن فقال النضر: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، ﴿ إنْ هذا إلّا أساطيرُ الأوّلين ﴾، أخبار الأمم الماضية وأسماؤهم وما سطّر الأوّلون في كتبهم. والأساطير: جمع أسطورة، وهي المكتوبة، من قولهم سطّرت أي كتبت.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ قالوا اللّهمّ إنْ كان هذا هو الحقَّ من عندِكَ ﴾، الآية نزلت في النضر بن الحارث من بني عبد الدار، قال ابن عباس: لمّا قصّ رسول الله ﷺ شأن القرون الماضية، قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا إنْ هذا إلّا أساطيرُ الأوّلين، أي: ما هذا إلّا ما سطّره الأوّلون في كتبهم، فقال له عثمان بن مظعون رضي الله عنه: اتّقِ الله فإن محمداً يقول الحق، قال: فأنا أقول الحق، قال عثمان: فإن محمداً يقول: لا إلّه إلّا الله»، قال: وأنا أقول لا إلّه إلّا الله، ولكن هذه بنات الله، يعني الأصنام، ثم قال: اللّهمّ إن كان هذا الذي يقول محمد هو الحق من عندك، ﴿ والحق ﴾ نصب بخبر كان، وهو عماد وأصله: ﴿ فأمطرْ علينا حجارةً منَ السماء ﴾، كما أمطرتها على قوم لوط، ﴿ أوِ ائتنا بعذابٍ أليم ﴾، أي: ببعض ما عذّبت به الأمم، وفيه نزل: ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ [المعارج: ١]، وقال عطاء: لقد نزل في النضر بن الحارث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر. قال سعيد بن جبير: قتل رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثةً صبراً من قريش: طُعيمة بن عدي وعقبة بن أبي مُعيط

الآية متصلة بما قبلها وهي حكاية عن المشركين وذلك أنهم قالوا إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أمة ونبيها معها فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ يذكره جـهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على أنفسهم وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ ثم قال تعالى رداً عليهم: وما لهم ألا يعذبهم الله وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون وهم يصدون عن المسجد الحرام. وقال آخرون: هذا كلام مستأنف يقول الله عز وجل إخباراً عن نفسه تعالى وتقدس وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، واختلفوا في معناه فقال الضحاك وجماعة: تأويلها: وما كان الله ليعذبهم وأنت يا محمد مقيم فيهم بين أظهرهم. قالوا: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو مقيم بمكة ثم لما خرج منها بقي بقية من المسلمين يستغفرون، فأنزل الله عز وجل وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ثم لما خرج أولئك المسلمون من بين أظهر الكافرين أذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم. وقال ابن عباس: لم يعذب الله قرية حتى يخرج نبيها منها والذين آمنوا معه ويلحق بحيث أمر فقال الله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون يعني المسلمين فلما خرجوا قال الله لهم ومالهم ألا يعذبهم الله، وقال بعضهم: هذا الاستغفار راجع إلى المشركين وذلك أنهم كانوا يقولون بعد فراغهم من الطواف غفرانك غفرانك. وقال زيد بن رومان: قالت قريش اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا غفرانك اللهم فقال الله تعالى وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون. وقال قتادة والسدي: معناه وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون أي لو استغفروا ولكنهم لم يكونوا مستغفرين ولو أقروا بالذنب واستغفروا الله لكانوا مؤمنين. وقيل: هذا دعاء لهم إلى الإسلام والاستغفار بهذه الكلمة، كالرجل يقول لعبده

والنضر بن الحارث وروى أنس رضي الله عنه أن الذي قاله أبو جهل لعنه الله. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي حدّثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن النضر ثنا عبيد الله بن معاذ ثنا أبي ثنا شعبة عن عبد الحميد صاحب الزيادي سمع أنس بن مالك قال: قال أبو جهل: اللَّهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطرْ علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿ **وما كان الله ليُعَذِّبَهُم وأنتَ فيهم وما كانَ اللَّهُ معذبهم وهم يستغفرون وما لهم ألاّ يعذِّبَهُم الله** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **وما كان الله ليُعذِّبَهم وأنت فيهم** ﴾، اختلفوا في معنى هذه الآية، فقال محمد بن إسحق: هذا حكاية عن المشركين أنهم قالوها وهي متصلة بالآية الأولى، وذلك أنهم كانوا يقولون إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفره، ولا يعذّب أمة ونبيّها فيها، فقال الله تعالى لنبيّه ﷺ يذكر جهالتهم وغرّتهم واستفتاحهم على أنفسهم: ﴿ **وإذْ قالوا اللّهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ منْ عندكَ فأمطر علينا حجارةً من السماء** ﴾ الآية، وقالوا: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم. ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾، ثم قال ردّاً عليهم: ﴿ **ومَا لهم ألاّ يعذبهم الله** ﴾؟ وإن كنت بين أظهرهم وَإن كانوا يستغفرون، وهم يصدّون عن المسجد الحرام. وقال الآخرون: هذا كلام مستأنف يقول الله عزّ وجلّ إخباراً عن نفسه: ﴿ **وما كان الله ليعذبهم** ﴾، واختلفوا في تأويلها فقال الضحّاك وجماعة: تأويلها وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم بين أظهرهم، قالوا: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو مقيم بمكة، خرج من بين أظهرهم وبقيت بها بقية من المسلمين يستغفرون، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وما كان الله مُعذِّبَهم وهم يستغفرون** ﴾، فخرج أولئك من بينهم فعذِّبوا وأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم الله. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لم يعذّب الله قرية حتى يخرج النبي منها والذين آمنوا ويلحق بحيث أمر. فقال: ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون** ﴾، يعني المسلمين فلما خرجوا قال الله تعالى: ﴿ **وما لهم ألاّ يعذبهم الله** ﴾، فعذّبهم الله يوم بدر. وقال أبو موسى الأشعري: كان فيكم أمانان وما كان الله ليعذبهم وأنت

لا أعاقبك. وأنت تطيعني أي أطعني حتى لا أعاقبك وقال مجاهد وعكرمة: وهم يستغفرون أي يسلمون. يعني: لو أسلموا لما عذبوا. وقال ابن عباس: وفيهم من سبق له من الله العناية أنه يؤمن ويستغفر مثل أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم. وقال مجاهد: وهم يستغفرون، أي وفي أصلابهم من يستغفر وقيل في معنى الآية: إن الكفار لما بالغوا وقالوا إن كان محمد محقاً في قوله فأمطر علينا حجارة من السماء أخبر الله سبحانه وتعالى أن محمداً محق في قوله وأنه مع ذلك لا يمطر على أعدائه ومنكري نبوته حجارة من السماء ما دام بين أظهرهم وذلك تعظيماً له ﷺ وأورد على هذا أنه إذا كانت إقامته مانعة من نزول العذاب بهم فكيف قال في غير هذه الآية قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم فالجواب أن المراد من العذاب الأول هو عذاب الاستئصال والمراد من العذاب الثاني وهو قوله سبحانه وتعالى يعذبهم الله بأيديكم هو عذاب القتل والسبي والأسر وذلك دون عذاب الاستئصال.

قال أهل المعاني: دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان سلامة من العذاب عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله أنزل عليّ أمانين لأمتي وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة» أخرجه الترمذي.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وقوله سبحانه وتعالى: **﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾** يعني أي شيء يمنعهم من أن يعذبهم يعني بعد خروجك من بين أظهرهم، لأنه سبحانه وتعالى بيَّن في الآية الأولى أنه لا يعذبهم وهو مقيم فيهم بين أظهرهم وبيَّن في هذه الآية أنه معذبهم. ثم اختلفوا في هذا العذاب فقيل: هو القتل والأسر يوم بدر. وقيل: أراد به عذاب الآخرة. وقيل: أراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال وأراد بالعذاب الثاني: العذاب بالسيف. وقيل: أراد بالعذاب الأول عذاب الدنيا وبهذا العذاب عذاب الآخرة.

فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، فأمّا النبي ﷺ فقد مضى والاستغفار كائن فيكم إلى يوم القيامة. وقال بعضهم: هذا الاستغفار كائن فيكم إلى يوم القيامة. وقال بعضهم: هذا الاستغفار راجع إلى المشركين وذلك أنهم كانوا يقولون بعد الطواف: غفرانك غفرانك. وقال يزيد بن رومان: قالت قريش إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللّهمّ، فقال الله عزّ وجلّ: **﴿ وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون ﴾**. وقال قتادة والسدي: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، أي: لو استغفروا ولكنهم لم يكونوا يستغفرون، ولو أنهم أقرّوا بالذنب واستغفروا لكانوا مؤمنين وقيل: هذا دعاء إلى الإسلام الاستغفار بهذه الكلمة كالرجل يقول لغيره لا أعاقبك وأنت تطيعني، أي: أطعني حتى لا أعاقبك. وقال مجاهد وعكرمة: وهم يستغفرون أي يسلمون. يقول: لو أسلموا لما عُذّبوا. وروى الوالبي عن ابن عباس: وفيهم مَن سبق له من الله أن يسلم ويؤمن ويستغفر، وذلك مثل أبي سفيان وصفوان بن أُميّة وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم. وروى عبد الوهاب عن مجاهد: وهم يستغفرون أي وفي أصلابهم مَن يستغفر.

قوله تعالى: **﴿ وما لهم ألّا يُعذِّبهم الله ﴾** أي: وما يمنعهم من أن يعذبوا، يريد بعد خروجك من بينهم، **﴿ وهم يصدُّون عن المسجد الحرام ﴾**، أي: يمنعون المؤمنين من الطواف بالبيت. وقيل: أراد بالعذاب الأول

وقال الحسن: الآية الأولى وهو قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم منسوخة بقوله وما لهم ألا يعذبهم الله وفيه بعد لأن الأخبار لا يدخلها النسخ ثم بين ما لأجله يعذبهم فقال تعالى: ﴿**وهم يصدون عن المسجد الحرام**﴾ يعني وهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالبيت وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت الحرام عام الحديبية ﴿**وما كانوا أولياءه**﴾ قال الحسن: كان المشركون يقولون نحن أولياء المسجد الحرام فرد الله عليهم بقوله وما كانوا أولياءه يعني ليسوا أولياء المسجد الحرام ﴿**إن أولياؤه إلا المتقون**﴾ يعني المؤمنين الذين يتقون الشرك ﴿**ولكن أكثرهم**﴾ يعني المشركين ﴿**لا يعلمون**﴾ ذلك قوله عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿**وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية**﴾ لما ذكر الله عز وجل أن الكفار ليسوا بأولياء البيت الحرام ذكر عقبة السبب في ذلك وهو أن صلاتهم عنده كانت مكاء وتصدية. والمكاء في اللغة: الصفير. يقال: مكا الطير يمكو إذا صفر والمكاء: اسم طير أبيض يكون بالحجاز له صفير. وقيل: هو طائر يألف الريف سمي بذلك لكثرة مكائه يعني صفيره.

والتصدية: التصفيق وفي أصله واشتقاقه قولان أحدهما: أنه من الصدى وهو الصوت الذي يرجع من الجبل كالمجيب للمتكلم ولا يرجع إلى شيء. الثاني: قال أبو عبيدة أصله تصددة فأبدلت الياء من الدال. قال الأزهري: والمكاء والتصدية، ليسا بصلاة، ولكن الله سبحانه وتعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية قال حسان بن ثابت:

صلاتهم التصدي والمكاء.

قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون. وقال مجاهد: كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي ﷺ في الطواف ويستهزؤون به ويدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون. فالمكاء: جعل الأصابع في الشدق، والتصدية: الصفير. وقال جعفر بن ربيعة: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله: إلا مكاء وتصدية، فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفيراً. وقال مقاتل: كان النبي ﷺ إذا دخل المسجد قام رجلان عن يمينه يصفران

عذاب الاستئصال، وأراد بقوله وما لهم أنْ لا يعذبهم الله أي: بالسيف. وقيل: أراد بالأول عذاب الدنيا، وبهذه الآية عذاب الآخرة. وقال الحسن: الآية الأولى وهي قوله: ﴿ **وما كان الله ليعذبهم** ﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿ **وما لهم ألّا يعذبهم الله** ﴾ ﴿ **وما كانوا أولياءه** ﴾، قال الحسن: كان المشركون يقولون: نحن أولياء المسجد الحرام، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿ **وما كانوا أولياءه** ﴾ أي: أولياء البيت، ﴿ **إنْ أولياؤه** ﴾ أي: ليس أولياء البيت، ﴿ **إلّا المتّقون** ﴾، يعني: المؤمنين الذين يتّقون الشرك، ﴿ **ولكنّ أكثرهم لا يعلمون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **وما كانَ صلاتُهم عندَ البيتِ إلّا مُكاءً وتَصْدِيَةً** ﴾، قال ابن عباس والحسن: المكاء: الصفير، وهي في اللغة اسم طائر أبيض يكون بالحجاز له صفير، كأنه قال: الأصوت مكاء، والتصدية التصفيق. قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفّرون ويصفّقون. قال مجاهد: كل نفر من بني عبد الدار يُعارضون النبي ﷺ في الطواف ويستهزؤون به ويُدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفّرون، فذلك المكاء. والتصدية:

ورجلان عن يساره يصفقان ليخلطوا على النبي ﷺ صلاته وهم من بني عبد الدار. فعلى قول ابن عباس كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم، وعلى قول غيره كان نوع أذى للنبي ﷺ، وقول ابن عباس أصح، لأن الله سبحانه وتعالى سمى ذلك صلاة.

فإن قلت كيف سماها صلاة وليس ذلك من جنس الصلاة؟

قلت: إنهم كانوا يعتقدون ذلك المكاء والتصدية صلاة فخرج ذلك على حسب معتقدهم وفيه وجه آخر وهو أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له فهو كقول العرب من كان السخاء عيبه فلا عيب له وقال سعيد بن جبير: التصدية صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين والصلاة فعلى هذا التصدية من الصد وهوالمنع وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فذوقوا العذاب**﴾ يعني عذاب القتل والأسر في الدنيا. وقيل: يقال لهم في الآخرة فذوقوا العذاب ﴿**بما كنتم تكفرون**﴾ يعني بسبب كفرهم في الدنيا.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى عبادة الكفار البدنية وهي المكاء والتصدية، ذكر عقبها عبادتهم المالية التي لا جدوى لها في الآخرة. وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث وحكيم بن حزام وأبي بن خلف وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب، وكلهم من قريش، فكان يطعم كل واحد منهم الجيش في كل يوم عشر جزر وأسلم من هؤلاء: العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وحكيم بن حزام. وقال الحكم بن عتبة: نزلت في أبي سفيان بن حرب حين أنفق على المشركين يوم أحد أربعين أوقية كل أوقية اثنان وأربعون مثقالاً. وقال ابن أبزي: استأجر أبو سفيان يوم أحد ألفين ليقاتل بهم رسول الله ﷺ سوى من استجاش من العرب. وقيل: استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من كنانة فقاتل بهم رسول الله ﷺ. وقيل: لما أصيب من أصيب من قريش يوم بدر ورجع أبو سفيان بعيره إلى مكة مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش قد أصيب أباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة.

التصفيق. ومنه الصدى. والمكاء: جعل الأصابع في الشدق. والتصدية: الصفر. ومنه الصدا الذي يسمعه المصوِّت في الجبل. قال جعفر بن ربيعة: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله عزّ وجلّ: ﴿ **إلاّ مكاءً وتصديةً** ﴾ **فجمع كفّيه ثم نفخ فيهما صفيراً.** قال مقاتل: كان النبي ﷺ **إذا صلّى في المسجد قام رجلان عن يمينه فيصفران ورجلان عن شماله فيصفّقان ليخلطوا على النبي ﷺ صلاته، وهم من بني عبد الدار.** قال سعيد بن جبير: **التصدية صدّهم المؤمنين عن المسجد وعن الدين، والصلاة وهي على هذا التأويل التصددة بدالين، فقلبت إحدى الدالين ياءً كما يقال تظنيت من الظن، وتقضى البازي إذا البازي كسر، أي تقضض البازي.** قال ابن الأنباري: **إنما سمّاه صلاة لأنهم أُمروا بالصلاة في المسجد الحرام فجعلوا ذلك صلاتهم.** ﴿ **فَذُوقُوا العذابَ بما كنتم تكفرون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **إنّ الذين كفروا يُنفقون أموالَهم لِيَصدُّوا عن سبيل الله** ﴾، **أي: ليصرفوا عن دين الله.** قال الكلبي ومقاتل: **نزلت في المُطْعِمين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ابن عبد شمس، ونبيه ومنبّه ابنا الحجّاج، وأبو البختري ابن هشام، والنضر بن الحـرث وحكيم بن حزام، وأُبيّ بن خلف وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، والعباس بن عبد المطلب، وكلهم من قريش وكان يطعم كل**

فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً. بمن أصيب منافقيهم نزلت إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله أي ليصرفوا الناس عن الإيمان بالله ورسوله وقيل ينفقون أموالهم على أمثالهم من المشركين ليتقووا بهم على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿فسينفقونها﴾ يعني أموالهم في ذلك الوجه ﴿ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ يعني ما أنفقوا من أموالهم يكون عليهم حسرة وندمة يوم القيامة لأن أموالهم تذهب ويغلبون ولا يظفرون بما يؤملون ﴿والذين كفروا﴾ يعني منهم لأن فيهم من أسلم ولهذا قال والذين كفروا يعني من المنفقين أموالهم ﴿إلى جهنم يحشرون﴾ يعني يساقون إلى النار.

لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ يعني ليفرق الله بين فريق الكفار وهم الفريق الخبيث وبين فريق المؤمنين وهم الفريق الطيب وهذا معنى قول ابن عباس فإنه قال: يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة وقال: ليميز العمل الخبيث من العمل الطيب فيجازي على العمل الخبيث النار وعلى العمل الطيب الجنة وقيل: المراد به إنفاق الكفار في سبيل الشيطان وإنفاق المؤمنين في سبيل الله ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾ يعني بعضه فوق بعض ﴿فيركمه جميعاً﴾ يعني فيجمعه جميعاً ويضم بعضه إلى بعض حتى يتراكم ﴿فيجعله في جهنم﴾ يعني الخبيث ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المنفقين في سبيل الشيطان أو إلى الخبيث ﴿هم الخاسرون﴾ يعني أنهم خسروا الدنيا والآخرة لأنهم اشتروا بأموالهم عذاب الآخرة.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿قل﴾ يعني قل يا محمد ﴿للذين كفروا إن ينتهوا﴾ يعني عن الشرك ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ يعني ما قد مضى من كفرهم وذنوبهم قبل الإسلام ﴿وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾ يعني في إهلاك أعدائه ونصر أوليائه. ومعنى الآية: إن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن الكفر ودخلوا في دين الإسلام والتزموا شرائعه غفر الله لهم ما قد سلف من كفرهم وشركهم وإن عادوا إلى الكفر وأصروا عليه فقد مضت سنة الأولين بإهلاك أعدائه ونصر أنبيائه وأوليائه وأجمع العلماء على أن الإسلام يجب ما قبله وإذا أسلم الكافر لم يلزمه شيء من قضاء العبادات البدنية والمالية. وهو ساعة إسلامه كيوم ولدته أمه يعني بذلك أنه ليس عليه ذنب.

قال يحيى بن معاذ الرازي: التوحيد لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر فأرجوا الله أن لا يعجز عن هدم ما بعده

واحد منهم كل يوم عشر جزر. وقال الحكم بن عيينة: نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين يوم أُحُد أربعين أوقية. قال الله تعالى: ﴿ فسيُنفقونَها ثم تكونُ عليهم حسرةً ﴾، يريد ما أنفقوا في الدنيا يصير حسرة عليهم في الآخرة، ﴿ ثم يُغْلَبُون ﴾، ولا يظفرون، ﴿ والذين كفروا ﴾، منهم، ﴿ إلى جهنّمَ يُحشرون ﴾، خصّ الكفّار لأن منهم مَن أسلم.

﴿ لِيَميزَ اللَّهُ الخبيث ﴾، في سبيل الشيطان، ﴿ منَ الطّيبِ ﴾، يعني: الكافر من المؤمن فينزل المؤمن الجنان والكافر النيران. وقال الكلبي: العمل الخبيث من العمل الصالح الطيب، فيثبت على الأعمال الصالحة الجنة، وعلى الأعمال الخبيثة النار. وقيل: يعني الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان من الإنفاق الطيب في سبيل

من ذنب ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ قال ابن عباس: حتى لا يكون بلاء ﴿ويكون الدين كله لله﴾ يعني تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره، وقال قتادة: حتى يقال لا إله إلا الله عليها قاتل نبي الله ﷺ وإليها عاد وقال محمد بن إسحاق في قوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله يعني لا يفتن مؤمن عن دينه ويكون التوحيد لله خالصاً ليس فيه شرك ويخلع ما دونه من الأنداد والشركاء ﴿فإن انتهوا﴾ يعني عن الشرك وإفتان المؤمنين وإيذائهم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ يعني فإن الله لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ونياتهم حتى يوصل إليهم ثوابهم ﴿وإن تولوا﴾ يعني وإن أعرضوا عن الإيمان وأصروا على الكفر وعادوا إلى قتال المؤمنين وإيذائهم ﴿فاعلموا﴾ يعني أيها المؤمنون ﴿أن الله مولاكم﴾ يعني أن الله وليكم وناصركم عليها وحافظكم ﴿نعم المولى ونعم النصير﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى هو نعم المولى فمن كان في حفظه ونصره وكفايته وكلاءته فهو له نعم المولى ونعم النصير.

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

قوله عز جل: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول﴾ الغنم الفوز بالشيء يقال يغنم غنماً فهو غانم واختلف العلماء هل الغنيمة والفيء اسمان لمسمى واحد أم يختلفان في التسمية فقال عطاء بن السائب: الغنيمة ما ظهر المسلمون عليه من أموال المشركين فأخذوه عنوة وأما الأرض فهي فيء.

الله. ﴿ ويجعل الخبيثَ بعْضَه على بعض ﴾، أي: فوق بعض، ﴿ فَيركمهُ جميعاً ﴾، أي: يجمعه. ومنه السحاب المركوم، وهو المجتمع الكثيف، فيجعله في جهنّمَ ﴿ أولئك هُمُ الخاسرون ﴾، ردّه إلى قوله: ﴿ إنّ الذين كفرُوا يُنفقونَ أموالَهم. . . أولئكَ همُ الخاسرون ﴾ الذين خسرت تجارتهم، لأنهم اشتروا بأموالهم عذاب الآخرة.

﴿ قلْ للذين كفروا إن ينتهوا ﴾، عن الشرك ﴿ يُغفرْ لهمْ ما قدْ سلفَ ﴾، أي: ما مضى من ذنوبهم قبل الإسلام، ﴿ وإن يعودُوا فقدْ مضتْ سُنّةُ الأوّلين ﴾، في نصر الله أنبيائه وأوليائه وإهلاك أعدائه. قال يحيـى بن معاذ الرازي: توحيدٌ لم يعجزْ عن هدم ما قبله من كفر أرجو أن لا يعجزَ عن هدم ما بعده من ذنب.

﴿ وقاتلوهم حتّى لا تكونَ فتنةٌ ﴾ أي: شرك قال الربيع حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ﴿ ويكونَ الدينُ كلُّه لله ﴾، أي: ويكون الدين خالصاً لله لا شرك فيه، ﴿ فإن انتهَوا ﴾، عن الكفر، ﴿ فإنّ اللّهَ بما يعملون بصير ﴾، قرأ يعقوب «تعمـلون» بالتاء وقرأ الآخرون بالياء.

﴿ وإن تولّوا ﴾، عن الإيمان وعادوا إلى قتال أهله، ﴿ فاعْلموا أنّ اللّهَ مولاَكم ﴾، ناصركم ومعينكم، ﴿ نِعْمَ المولى ونِعْمَ النّصير ﴾، أي: الناصر.

قوله تعالى: ﴿ واعْلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خُمُسَه ﴾ الآية، الغنيمة والفيء اسمان لما يصيبه المسلمون من أموال الكفّار، فذهب جماعة إلى أنهما واحد. وذهب قوم أنهما يختلفان، فالغنيمة ما أصابه المسلمون منهم عُنْوةً بقتال، والفيء ما كان عن صلح بغير قتال، فذكر الله عزّ وجلّ في هذه الآية حكم الغنيمة فقال: ﴿ فأنّ لله خُمُسَهُ وللرّسول ﴾، فذهب أكثر المفسّرين والفقهاء إلى أن قوله: ﴿ لله ﴾ افتتاح كلام على سبيل التبرّك وإضافة هذا المال إلى نفسه لشرفه، وليس المراد منه أنّ سهماً من الغنيمة لله منفرداً، فإن الدنيا والآخرة كلها

وقال سفيان الثوري: الغنيمة ما أصاب المسلمون من مال الكفار عنوة بقتال وفيه الخمس وأربعة أخماسه لمن شهد الوقعة. والفيء: ما صولحوا عليه بغير قتال وليس فيه خمس فهو لمن سمى الله. وقيل: الغنيمة ما أخذ من أموال الكفار عنوة عن قهر وغلبة، والفيء: ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب كالعشور والجزية وأموال الصلح والمهادنة. وقيل: إن الفيء والغنيمة معناهما واحد وهما اسمان لشيء واحد، والصحيح أنهما يختلفان فالفيء ما أخذ من أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب والغنيمة ما أخذ من أموالهم على سبيل القهر والغلبة بإيجاف خيل عليه وركاب فذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية حكم الغنيمة فقال تعالى: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ يعني من أي شيء كان حتى الخيط والمخيط فإن لله خمسه وللرسول. وقد ذكر أكثر المفسرين والفقهاء أن قوله لله افتتاح كلام على سبيل التبرك وإنما أضافه لنفسه تعالى لأنه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء وليس المراد منه أن سهماً منه لله منفرداً لأن الدنيا والآخرة كلها لله وهذا قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعي قالوا: سهم الله وسهم رسوله واحد والغنيمة تقسم خمسة أخماس أربعة أخماسها لمن قاتل عليها وأحرزها والخمس الباقي لخمسة أصناف كما ذكر الله عز وجل للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

وقال أبو العالية: يقسم خمس الخمس على ستة أسهم سهم لله عز وجل فيصرف إلى الكعبة القول الأول أصح أي إن خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله ﷺ كان له في حياته واليوم هو لمصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام وهذا قول الشافعي وأحمد. وروى الأعمش عن إبراهيم قال: كان أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح. وقال قتادة: هو للخليفة. وقال أبو حنيفة: سهم النبي ﷺ بعد موته مردود في الخمس فيقسم الخمس على الأربعة الأصناف المذكورين في الآية وهم ذوو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

لله عزّ وجلّ. وهو قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم والشعبي، قالوا: سَهْمُ الله وسهم الرسول واحد. والغنيمة تقسم خمسة أخماس، أربعة أخماسها لمَن قاتل عليها، والخمس لخمسة أصناف كما ذكر الله عزّ وجلّ، ﴿ وللرسول ولذي القُرْبَى واليتامَى والمساكين وابنِ السّبيل ﴾، قال بعضهم: يقسم الخمس على ستّة أسهم، وهو قول أبي العالية، سهم لله فيصرف إلى الكعبة. والأول أصحّ أن خمس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم سهم كان لرسول الله ﷺ في حياته واليوم هو لمصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام، وهو قول الشافعي رحمه الله، وروى الأعمش عن إبراهيم قال: كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يجعلان سهم النبيّ ﷺ في الكراع والسلاح. وقال قتادة: هو للخليفة بعده. وقال بعضهم: سهم رسول الله ﷺ مردود في الخمس والخمس لأربعة أصناف. قوله: ﴿ ولذي القربى ﴾ أراد أن سهماً من الخمس لذوي القربى وهم أقارب النبي ﷺ، واختلفوا فيهم فقال قوم: جميع قريش. وقال قوم: هم الذين لا تحلّ لهم الصدقة. وقال مجاهد وعلي بن الحسين: هم بنو هاشم. وقال الشافعي: هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس ولا لبني نوفل منه شيء، وإن كانوا إخوة، والدليل عليه ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنبأنا الربيع أنبأنا الشافعي أنبأنا الثقة عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن جبير بن مطعم عن أبيه قال: قسم رسول الله ﷺ ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب، ولم يعطِ منه أحداً من بني عبد شمس ولا بني نوفل شيئاً. وأخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا مطرف بن مازن عن معمر بن راشد عن ابن شهاب أخبرني محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: لمّا قسم رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطّلب أتيته أنا وعثمان بن عفّان فقلنا: يا رسول الله هؤلاء إخواننا من بني هاشم لا

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولذي القربى﴾ يعني أن سهماً من خمس الخمس لذوي القربى وهم أقارب رسول الله ﷺ واختلفوا فيهم فقال قوم هم جميع قريش وقال قوم هم الذين لا تحل لهم الصدقة وقال مجاهد وعلي بن الحسين: هم بنو هاشم. وقال الشافعي رحمه الله تعالى: هم بنو هاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس ولا لبني نوفل منه شيء وإن كانوا إخوة ويدل عليه ما روي عن جبير بن مطعم «قال جئت أنا وعثمان بن عفان إلى النبي ﷺ فقلت يا رسول الله أعطيت بني المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة فقال رسول الله ﷺ إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» وفي رواية: أعطيت بني المطلب من خمس الخمس وتركتنا وفي رواية قال جبير: ولم يقسم النبي ﷺ لبني عبد شمس ولا لبني نوفل شيئاً أخرجه البخاري وفي رواية أبي داود «أن جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان رسول الله ﷺ فيما يقسم من الخمس في بني هاشم وبني المطلب فقلت يا رسول الله قسمت لإخواننا بني المطلب ولم تعطنا شيئاً وقرابتنا وقرابتهم واحدة فقال رسول الله ﷺ: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» وفي رواية النسائي قال «لما كان يوم خيبر رفع رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى في بني هاشم وبني المطلب وترك بني نوفل وبني عبد شمس فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي ﷺ فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة فقال رسول الله ﷺ أنا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شيء واحد وشبك بين أصابعه» واختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم أم لا فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت فيعطي فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الأنثيين وهو قول مالك والشافعي وذهب أبو حنيفة وأصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت قالوا سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى مردود في الخمس فيقسم خمس الغنيمة على ثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل فيصرف إلى فقراء ذوي القربى مع هذه الأصناف دون أغنيائهم وحجة الجمهور أن الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى وكذا الخلفاء بعد رسول الله ﷺ كانوا يعطون ذوي القربى ولا يفضلون فقيراً على غني، لأن النبي ﷺ أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله وكذا الخلفاء بعده كانوا يعطونه وألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد قال ويفضل الذكر على الأنثى فيعطى الذكر سهمين والأنثى سهماً.

ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله منهم، أرأيت إخواننا من بني المطّلب أعطيتهم وتركتنا أو منعتنا، وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة، فقال رسول الله ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد هكذا وشبّكَ بين أصابعه». واختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم؟ فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت، وهو قول مالك والشافعي وذهب أصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت، وقالوا: سهم رسول الله ﷺ وسهم ذوي القربى مردُودَان في الخمس، وخمس الغنيمة لثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل. وقال بعضهم: يُعطى للفقراء منهم دون الأغنياء. والكتاب والسُّنّة يدلّان على ثبوته، والخلفاء بعد الرسول ﷺ كانوا يعطونه، ولا يُفضّل فقير على غني لأن النبي ﷺ والخلفاء بعده كانوا يعطون العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله، فألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة، غير أنه يعطي القريب والبعيد. وقال: يفضل الذَّكر على الأُنثى فيُعطي الرجل سهمين والأُنثى سهماً واحداً. قوله: ﴿ واليتامى ﴾ وهو جمع اليتيم، واليتيم الذي له سهم في الخمس هو الصغير المسلم الذي لا أب له إذا كان فقيراً، و﴿ المساكين ﴾ هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين، ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر البعيد عن ماله، فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة، للفارس منهم ثلاثة أسهم وللرّاجل سهم واحد، لِما أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن أنا عبد الله بن يوسف أنا سعيد بن الأعرابي ثنا سعد بن نصر ثنا أبو معاوية عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ أسهم

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿واليتامى﴾ جمع يتيم يعني ويعطى من خمس الخمس لليتامى، واليتيم الذي له سهم في الخمس هو الصغير المسلم الذي لا أب له فيعطى مع الحاجة إليه ﴿والمساكين﴾ وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين ﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر البعيد عن ماله فيعطى من خمس الخمس مع الحاجة فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم أربعة أخماسها الباقية بين الغانمين الذين شهدوا الواقعة وحازوا الغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه، ويعطى الراجل سهماً واحداً لما روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قسم في النفل للفرس سهمين وللرجل سهماً. وفي رواية نحوه بإسقاط لفظ النفل أخرجه البخاري ومسلم. وفي رواية أبي داود، أن رسول الله ﷺ أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم سهماً له وسهمين لفرسه وهذا قول أكثر أهل العلم وإليه ذهب الثوري والأوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق. وقال أبو حنيفة: للفارس سهمان وللراجل سهم ويرضخ للعبيد والنسوان والصبيان إذا حضروا القتال ويقسم العقار الذي استولى عليه المسلمون كالمنقول وعند أبي حنيفة يتخير الإمام في العقار بين أن يقسمه بينهم وبين أن يجعله وقفاً على المصالح وظاهر الآية يدل على أنه لا فرق بين العقار والمنقول ومن قتل من المسلمين مشركاً في القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة لما روي عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه» أخرجه الترمذي وأخرجه البخاري ومسلم في حديث طويل والسلب كل ما يكون على المقتول من ملبوس وسلاح والفرس الذي كان راكبه ويجوز للإمام أن ينفل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء وبلاء يكون منهم في الحرب يخصهم به من بين سائر الجيش ثم يجعلهم أسوة الجماعة في سائر الغنيمة (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى عامة الجيش.

عن حبيب بن سلمة الفهري، قال: شهدت رسول الله ﷺ نفل الربع في البدأة والثلث في الرجعة أخرجه أبو داود واختلف العلماء في أن النفل من أين يعطى فقال قوم من خمس الخمس من سهم رسول الله ﷺ وهو قول سعيد بن المسيب وبه قال الشافعي. وهذا معنى قول النبي ﷺ فيما رواه عبادة بن الصامت قال: أخذ رسول الله ﷺ يوم خيبر وبرة من جنب بعير فقال: يا أيها الناس إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلا الخمس والخمس

للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم، سهماً له وسهمين لفرسه. وهذا قول أكثر أهل العلماء وإليه ذهب الثّوري والأوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه للفارس سهمان وللراجل سهم واحد، ويُرخّص للعبيد والنسوان والصبيان إذا حضروا القتال، ويقسم العقار الذي استولى عليه المسلمون كالمنقول. وعند أبي حنيفة يتخيّر الإمام في العقار بين أن يقسمه بينهم وبين أن يجعله وقفاً على المصالح. وظاهر الآية لا يفرّق بين العقار والمنقول. ومَن قتل مشركاً في القتال يستحق سلبه من رأس الغنيمة، لِما رُوِيَ عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال يوم حُنين: «مَن قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه». والسلب كل ما يكون على المقتول من ملبوس وسلاح وفرسه الذي هو راكبه، ويجوز للإمام أن ينقل بعض الجيش من الغنيمة لزيادة عناء وبلاء يكون منهم في الحرب يخصّه به من بين سائر الجيش ويجعله أُسوة الجماعة في سائر الغنيمة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيـىٰ بن بكير ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان ينفل بعض مَن يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسم عامّة الجيش. ورُوِيَ عن حبيب بن سلمة الفهري قال: شهدت النبي ﷺ نفل الربع في البَداة والثلث في الرجعة. واختلفوا في أن النفل من أين يعطى، فقال قوم: من خمس الخمس منهم النبي ﷺ، وهو قول سعيد بن المسيب، وبه قال الشافعي، وهذا معنى قول النبي ﷺ: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلّا الخُمسَ والخُمسُ مردُودٌ فيكم». وقال قوم: هو من الأربعة الأخماس بعد إفراز الخمس كسهام الغزاة، وهو قول أحمد وإسحاق.

مردود عليكم أخرجه النسائي. وقال قوم: هو من الأربعة الأخماس بعد إقرار الخمس كسهام الغزاة وهو قول أحمد وإسحاق. وذهب قوم إلى أن النفل من رأس الغنيمة قبل التخميس كالسلب للقاتل وأما الفيء، وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب بأن صالحهم على ما يؤدونه، وكذلك الجزية وما أخذ من أموالهم إذا دخلوا دار الإسلام للتجارة أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له فهذا كله فيء ومال الفيء كان خالصاً لرسول الله ﷺ في مدة حياته. وقال عمر: إن الله سبحانه وتعالى قد خص نبيه ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يخص به أحداً غيره ثم قرأ عمر: وما أفاء الله على رسوله منهم الآية فكانت هذه لرسول الله ﷺ خالصة وكان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال ثم ما بقي يجعله مجعل مال الله في الكراع والسلاح واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله ﷺ فقال قوم هو للأئمة بعده وللإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة الذين أثبتت أسماؤهم في ديوان الجهاد لأنهم هم القائمون مقام النبي ﷺ في إرهاب العدو.

والقول الثاني: إنه لمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة فيعطون منه كفايتهم ثم بالأهم فالأهم من المصالح واختلف أهل العلم في تخميس الفيء فذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه إلى أنه يخمس وخمسه لأهل الخمس من الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمس بل يصرف جميعه مصرفاً واحداً ولجميع المسلمين فيه حق.

عن مالك بن أنس قال: ذكر عمر يوماً الفيء فقال ما أنا أحق بهذا الفيء منكم وما أحد منا أحق به الآخر إلا أنا على منازلنا من كتاب الله وقسمة رسول الله ﷺ وقدمه والرجل وبلاؤه والرجل وعياله والرجل وحاجته أخرجه أبو داود وأخرج البغوي بسنده عنه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: ما على وجه الأرض مسلم إلا له في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيمانكم وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن كنتم آمنتم بالله**﴾ يعني واعلموا أيها المؤمنون أن خمس الغنيمة مصروف إلى ما ذكر في هذه الآية من الأصناف فاقطعوا عنه أطماعكم واقنعوا بأربعة أخماس الغنيمة إن كنتم آمنتم بالله وصدقتم

وذهب بعضهم إلى أن النفل من رأس الغنيمة قبل الخمس كالسلب للقاتل. وأما الفيء وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفّار بغير إيجاف خيل ولا ركاب، بأن صالحهم على مال يؤدّونه ومال الجزية وما يؤخذ من أموالهم إذا دخلوا دار الإسلام للتجارة أو يموت واحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له، فهذا كله فيء، ومال الفيء كان خالصاً لرسول الله ﷺ في حياته. قال عمر رضي الله عنه: إنّ الله قدْ خصّ رسول الله ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحداً غيره، ثم قرأ: ﴿ ما أفاء الله على رسـوله منهـم ﴾ إلى قوله: ﴿ قـدير ﴾ [الحشر: ٦]، وكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ كان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله عزّ وجلّ. واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله ﷺ، فقال القوم: هو للأئمة بعده. وللشافعي فيه قولان، أحدهما للمقَاتِلة الذين أُثبتتْ أساميهم في ديوان الجهاد لأنهم القائمون مقام النبي ﷺ في إرهاب العدو. والقول الثاني: أنه لمصالح المسلمين ويُبدأ بالمقاتلة فيُعطون منهم كفايتهم، ثم بالأهم فالأهم من المصالح. واختلف أهل العلم في تخميس الفيء، فذهب الشافعي إلى أنه يخمس فخمسه لأهل الغنيمة على خمسة أسهم وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح. وذهب الأكثرون إلى أن الفيء لا يُخمّس بل مصرفُ جميعه واحد، ولجميع المسلمين فيه حق. أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري أنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنا محمد ابن زكريا العذافري أنا إسحاق الدبري ثنا عبد الرزّاق ثنا معمر عن الزهري عن مالك بن أوس بن الحدثان أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: ما على وجه الأرض مسلم إلاّ له في هذا الفيء حق، إلاّ ما ملكت أيمانكم. وأخبرنا أبو سعيد الطاهر أنبأنا جدّي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنبأنا محمد بن زكريا العذافري أنبأنا أبو إسحاق

بوحدانيته ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ يعني وآمنتم بالمنزل على عبدنا محمد ﷺ وهذه إضافة تشريف وتعظيم للنبي ﷺ والذي أنزله على عبده محمد ﷺ يسألونك عن الأنفال الآية ﴿يوم الفرقان﴾ يعني يوم بدر. قال ابن عباس: يوم الفرقان يوم بدر فرق الله عز وجل بين الحق والباطل ﴿يوم التقى الجمعان﴾ يعني جميع المؤمنين وجميع الكافرين وهو يوم بدر وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو لسبع عشرة من رمضان وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً والمشركون ما بين الألف والتسعمائة فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على سبعين وأسر منهم مثل ذلك ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يعني على نصركم أيها المؤمنون مع قلتكم وكثرة أعدائكم.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إذ أنتم﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم يا معشر المسلمين إذ أنتم ﴿بالعدوة الدنيا﴾ يعني بشفير الوادي الأدنى من المدينة والدنيا هنا تأنيث الأدنى ﴿وهم﴾ يعني المشركين ﴿بالعدوة القصوى﴾ يعني بشفير الوادي الأقصى من المدينة مما يلي مكة والقصوى تأنيث الأقصى ﴿والركب أسفل منكم﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه وهم غير قريش التي خرجوا لأجلها وكانوا في موضع أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر ﴿ولو تواعدتم﴾ يعني أنتم والمشركون ﴿لاختلفتم في الميعاد﴾ وذلك لأن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج

الدبري ثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن أيوب عن عكرمة بن خالد عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: قرأ عمر بن الخطاب: ﴿ إنّما الصدقاتُ للفقراء والمساكين﴾ حتى بلغ ﴿ عليم حكيم ﴾ [التوبة: ٦٠] فقال: هذه لهؤلاء ثم قرأ: ﴿ واعلموا أنّما غَنِمْتُم منْ شيء فأن لله خمسه ﴾ حتى بلغ ﴿ وابن السبيل ﴾، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ ﴿ ما أفاء اللّهُ على رسوله من أهل القرى ﴾ [الحشر: ٧] حتى بلغ ﴿ للفقراء ﴾ [الحشر: ٨] ﴿ والذين جاءُوا من بعدهم ﴾ [الحشر: ١٠] ثم قال: هذه استوعبت المسلمين عامّة فلئن عشت فليأتينّ الراعي وهو بسر وحمير فنصيبه منها لم يعرق فيها جبينه. قوله تعالى: ﴿ إنْ كنتُم آمنتُم بالله ﴾، قيل: أراد ﴿ **اعْلموا أنما غنمتم من شيء فأنَّ للّهِ خُمسَه وللرسول** ﴾ يأمر فيه بما يريد، فاقبلوه إن كنتم آمنتم بالله ﴿ **وما أنزلنا على عبدنا** ﴾، أي: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا، يعني: قوله: ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ [الأنفال: ١] ﴿ **يوم الفرقان** ﴾، يعني يوم بدر، فرّق الله بين الحق والباطل وهو، ﴿ **يوم التقى الجمعان** ﴾، حزب الله وحزب الشيطان، وكان يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾، على نصركم مع قلّتكم وكثرتهم.

﴿ **إذْ أنتم** ﴾، أي: إذ أنتم نزول يا معشر المسلمين، ﴿ **بالعُدْوَةِ الدنيا** ﴾، أي: بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة، والدنيا. تأنيث الأدنى، ﴿ **وهم** ﴾، يعني عدوّكم من المشركين، ﴿ **بالعُدْوَةِ القُصْوَى** ﴾ بشفير الوادي الأقصى من المدينة، والقصوى تأنيث الأقصى. قرأ ابن كثيرٍ وأهل البصرة «بالعِـدوة» بكسر العين فيهما والباقون

الكفار ليمنعوها من المسلمين فالتقوا على غير ميعاد والمعنى ولو تواعدتم أنتم والكفار على القتال لاختلفتم أنتم وهم لقلتكم وكثرة عدوكم ﴿**ولكن**﴾ يعني ولكن الله جمعكم على غير ميعاد ﴿**ليقضي الله أمراً كان مفعولاً**﴾ يعني من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه وأعداء دينه ﴿**ليهلك من هلك عن بينة**﴾ يعني ليموت من مات عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه ﴿**ويحيى من حي عن بينة**﴾ يعني ويعيش من عاش عن بينة رآها وعبرة شاهدها وحجة قامت عليه وقال محمد بن إسحاق: معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه ويؤمن من آمن على مثل ذلك لأن الهلاك هو الكفر والحياة هي الإيمان ونحوه قال قتادة ليضل من ضل على بينة ويهتدي من اهتدى على بينة ﴿**وإن الله لسميع عليم**﴾ يعني يسمع دعاءكم ويعلم نياتكم ولا تخفى عليه خافية.

قوله عز وجل: ﴿**إذ يريكهم الله**﴾ يعني: واذكر يا محمد نعمة الله عليك إذ يريك المشركين ﴿**في منامك**﴾ يعني في نومك ﴿**قليلاً**﴾ قال مجاهد: أراهم الله في منامه قليلاً فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك وكان ذلك تثبيتاً. وقال محمد بن إسحق: فكان ما أراه الله من ذلك نعمة من نعمه عليهم يشجعهم بها على عدوهم، فكف عنهم بها ما تخوف عليهم من ضعفهم لعلمه بما فيهم. وقيل: لما أرى الله النبي ﷺ كفار قريش في منامه قليلاً فأخبر بذلك أصحابه قالوا: رؤيا النبي ﷺ حق فصار ذلك سبباً لجراءتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم. وقال الحسن: إن هذه الإراءة كانت في اليقظة. والمراد من المنام، العين، لأنها موضع النوم ﴿**ولو أراكهم كثيراً لفشلتم**﴾ يعني لجبنتم والفشل ضعف مع جبن والمعنى ولو أراكهم كثيراً فذكرت ذلك لأصحابك لفشلوا وجبنوا عنهم ﴿**ولتنازعتم في الأمر**﴾ يعني اختلفتم في أمر الإقدام عليهم أو الإحجام عنهم وقيل معنى التنازع في الأمر الاختلاف الذي تكون معه مخاصمة ومجادلة ومجاذبة كل واحد إلى واحد إلى ناحية والمعنى: لاضطرب أمركم واختلفت كلمتكم ﴿**ولكن الله سلم**﴾ يعني: ولكن الله سلمكم من التنازع والمخالفة فيما بينكم. وقيل: معناه ولكن الله سلمكم من الهزيمة والفشل ﴿**إنه عليم بذات الصدور**﴾ يعني أنه تعالى يعلم ما يحصل في الصدور من الجراءة والجبن والصبر والجزع. وقال ابن عباس: معناه أنه عليم بما في صدوركم من الحب لله عز وجل: ﴿**وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً**﴾ يعني أن الله سبحانه

بضمّهما، وهما لغتان كالكسوة والكسوة والرشوة والرشوة. ﴿ **والركبُ** ﴾، يعني: العير يريد أبا سفيان وأصحابه، ﴿ **أسفل منكم** ﴾، أي: في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر، على ثلاثة أميال من بدر، ﴿ **ولو تواعدْتُم لاختلفتُم في الميعاد** ﴾، وذلك أن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفّار ليمنعوها، فالتقوا على غير ميعاد، فقال تعالى: ﴿ **ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد** ﴾، لقلتكم وكثرة عدوّكم، ﴿ **ولكنّ** ﴾ الله جمعكم على غير ميعاد، ﴿ **ليقضيَ اللّهُ أمراً كان مَفعُولاً** ﴾، من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه، ﴿ **لِيَهلكَ مَن هلَكَ عن بيّنة** ﴾، أي: ليموت مَن يموت على بيّنة رآها وعبرة عاينها وحجّة قامت عليه. ﴿**ويحيى مَنْ حيّ عنْ بيّنة** ﴾، ويعيش مَن يعيش على بيّنة لوعده: ﴿ وما كنّا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال محمد بن إسْحاق: معناه ليكفر مَن كفر بعد حجّة قامت عليه، ويؤمن مَن آمن على مثل ذلك، فالهلاك هو الكفر والحياة هي الإيمان. وقال قتادة: ليضلّ عن بيّنة ويهدي مَن اهتدى على بيّنة. قرأ أهل الحجاز وأبو بكر ويعقوب « **حيي** » بيائين مثل ﴿ خشي ﴾ [النساء: ٢٥، يّس: ١١، قّ: ٣٣، البيّنة: ٨] وقرأ الآخرون بياء واحدة مشدّدة لأنه مكتوب بياء واحدة. ﴿ **وإنّ الله لسميعٌ** ﴾، لدعائكم، ﴿ **عليمٌ** ﴾، بنيّاتكم.

قوله تعالى: ﴿ **إذْ يُريكَهُمُ اللّهُ** ﴾، يُريكَ يا محمد المشركين، ﴿ **في منامك** ﴾، أي: نومك. وقال الحسن: في منامك أي في عينك، لأن العين موضع النوم. ﴿ **قليلاً ولو أراكَهُمْ كثيراً لَفشِلْتُم** ﴾، لجبنتم ﴿ **ولتنازعتم** ﴾، أي: اختلفتم ﴿ **في الأمر** ﴾، أي: في الإحجام والإقدام، ﴿ **ولكن الله سلّم** ﴾، أي سلّمكم من المخالفة والفشل،

وتعالى قلل عدد المشركين في أعين المؤمنين يوم بدر لما التقوا في القتال ليتأكد في اليقظة ما رآه النبي ﷺ في منامه وأخبر به أصحابه قال ابن مسعود: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين قال: أراهم مائة فأسرنا رجلاً منهم فقلنا كم كنتم قال: كنا ألفاً. ويقللكم في أعينهم يعني ويقللكم يا معشر المؤمنين في أعين المشركين. قال السدي: قال ناس من المشركين إن العير قد انصرف فارجعوا فقال أبو جهل الآن إذ برز لكم محمد وأصحابه فلا ترجعوا حتى نستأصلهم إنما محمد وأصحابه أكلة جزور يعني لقلتهم في عينيه ثم قال: فلا تقتلوهم واربطوهم في الحبال يقوله من القدرة التي في نفسه والحكمة في تقليل المشركين في أعين المؤمنين تصديق رؤيا النبي ﷺ ولتقوى بذلك قلوب المؤمنين وتزداد جراءتهم عليه ولا يجبنوا عند قتالهم والحكمة في تقليل المؤمنين في أعين المشركين لئلا يهربوا وإذا استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب لقتالهم فيكون ذلك سبباً لظهور المؤمنين عليهم.

فإن قلت: كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل؟

قلت: ذلك ممكن في القدرة الإلهية فإن الله سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبي ﷺ والمعجزة من خوارق العادات فلا ينكر ذلك ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ يعني أمراً كان كائناً من إعلاء كلمة الإسلام ونصر أهله وإذلال كلمة الشرك وخذلان أهله فإن قلت: قد قال في الآية المتقدمة ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وقال في هذه الآية ليقضي الله أمراً كان مفعولاً فما معنى هذا التكرار؟

قلت: المقصود من ذكره في الآية المتقدمة ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه القهر والغلبة ليكون ذلك معجزة دالة على صدق رسول الله ﷺ والمقصود من ذكره في هذه الآية لأنه تعالى قلل عدد الفريقين في أعين بعضهم بعضاً للحكمة التي قضاها فلذلك قال ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ يعني في الآخرة فيجازى كل عامل على قدر عمله فالمحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أو يغفر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة﴾ يعني جماعة كافرة ﴿فاثبتوا﴾ يعني لقتالهم وهو أن يوطنوا

﴿ إنه عليمٌ بذات الصدور ﴾. قال ابن عباس: علم ما في صدوركم من الحب لله عزّ وجلّ.

﴿ وإذْ يُريكُموهم إذِ التقيتُم في أعينِكم قليلاً ﴾، قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ رأى في المنام أن العدو قليل قبل لقاء العدو، وأخبر أصحابه بما رأى، فلما التقوا ببدر قلّل الله المشركين في أعين المؤمنين. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قلّلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلاً فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً. ﴿ ويُقلِّلكم ﴾، يا معشر المؤمنين ﴿ في أعينهم ﴾، قال السدي: قال ناس من المشركين إن العير قد انصرفت فارجعُوا، فقال أبو جهل: الآن إذْ برزَ لكم محمد وأصحابه؟ فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم، إنما محمد وأصحابه أكَلَة جزور، فلا تقتلوهم واربطوهم بالحبال. يقوله من القدرة التي في نفسه. قال الكلبي: استقلّ بعضهم بعضاً ليجترؤوا على القتال، فقلّل المشركين في أعين المؤمنين لكي لا يجبنوا، وقلّل المؤمنين في أعين المشركين لكي لا يهربوا، ﴿ ليقضيَ اللّهُ أمراً ﴾ من إعلاءِ الإسلام وإعزاز أهله وإذلال الشرك وأهله. ﴿ كان مفعولاً ﴾ كائناً، ﴿ وإلى اللّهِ تُرجعُ الأمور ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لَقِيتُم فئةً ﴾ أي: جماعة كافرة ﴿ فاثبتُوا ﴾، لقتالهم، ﴿ واذكرُوا اللّهَ

أنفسهم على لقاء العدو وقتاله ولا يحدثوها بالتولي ﴿واذكروا الله كثيراً﴾ يعني كونوا ذاكرين الله عند لقاء عدوكم ذكراً كثيراً بقلوبكم وألسنتكم أمر الله عباده المؤمنين وأولياءه الصالحين بأن يذكروه في أشد الأحوال وذلك عند لقاء العدو وقتاله، وفيه تنبيه على أن الإنسان لا يجوز أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله. وقيل: المراد من هذا الذكر هو الدعاء بالنصر على العدو وذلك لا يحصل إلا بمعونة الله تعالى فأمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يسألوه النصر على العدو عند اللقاء ثم قال تعالى: ﴿لعلكم تفلحون﴾ يعني: وكونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفرة.

فإن قلت: ظاهر الآية يوجب الثبات على كل حال وذلك يوهم أنها ناسخة لآية التحرف والتحيز.

قلت المراد من الثبات هو الثبات عند المحاربة والمقاتلة في الجملة وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول هذا الثبات في المحاربة بل ربما كان الثبات لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز ثم قال تعالى مؤكداً لذلك ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ يعني في أمر الجهاد والثبات عند لقاء العدو ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا﴾ يعني: ولا تختلفوا فإن التنازع والاختلاف يوجب الفشل والضعف والجبن.

وقوله تعالى: ﴿وتذهب ريحكم﴾ يعني قوتكم. وقال مجاهد: نصرتكم. قال: وذهبت ريح أصحاب محمد ﷺ حين نازعوه يوم أحد. وقال السدي: جراءتكم وجدكم وقال مقاتل: حدتكم وقال الأخفش وأبو عبيدة: دولتكم. والريح هنا كناية في نفاذ الأمر وجريانه على المراد. تقول العرب: هبت ريح فلان إذا أقبل أمره على ما يريد وقال قتادة وابن زيد: هي ريح النصر ولم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله تعالى تضرب وجوه العدو، ومنه قول النبي ﷺ: نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور.

وعن النعمان بن مقرن قال: شهدت رسول الله ﷺ فكان إذا لم يقاتل من أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر أخرجه أبو داود.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿واصبروا﴾ يعني عند لقاء عدوكم ولا تنهزموا عنهم ﴿إن الله مع الصابرين﴾ يعني بالنصر والمعونة (ق)

عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال

كثيراً ﴾، أي: ادعوا الله بالنصر والظفر بهم، ﴿ **لعلّكم تفلحون** ﴾، أي: كونوا على رجاء الفلاح.

﴿ **وأطيعوا اللَّهَ ورسولَهُ ولا تنازعوا** ﴾، لا تختلفوا، ﴿ **فتفشلوا** ﴾، أي: تجبنُوا أو تضعفوا، ﴿ **وتذهبَ ريحُكم** ﴾، قال مجاهد: نُصرتكم. وقال السدي: جراءتكم وجدّكم. وقال مقاتل بن حيان: حدّتكم. وقال النضر بن شميل: قوّتكم. وقال الأخفش: دولتكم. والريح هاهنا كناية عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد، تقول العرب: هبّت ريح فلان إذا أقبل أمره على ما يريد. قال قتادة وابن زيد: هو ريح النصر لم يكن نصر قطّ إلّا بريح يبعثها الله عزّ وجلّ تضرب وجوه العدو. ومنه قول النبي ﷺ: «نُصرتُ بالصَّبَا وأهلكتْ عادُ بالدبور». وعن النعمان بن مقرن قال: شهدت مع رسول الله ﷺ فكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهبّ الرياح وينزل النصر. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **واصْبِرُوا إن اللَّهَ مع الصابرين** ﴾. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن محمد ثنا معاوية بن عمرو ثنا أبو إسحاق عن موسى بن عقبة عن سالم أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله وكان كاتباً له قال: كتب إليه عبد الله بن أبي أوفى فقرأته أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس فقال: «يا أيها الناس لا

السيوف، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً﴾ يعني فخراً وأشراً. وقيل: البطر: الطغيان في النعمة وذلك أن النعم إذا كثرت من الله تعالى على العبد فإن صرفها في المفاخرة على الأقران وكاثر بها أبناء الزمان وأنفقها في غير طاعة الرحمن فذلك هو البطر في النعم وإن صرفها في طاعة الله وابتغاء مرضاته فذلك شكرها، وهذا معنى قول الزجاج البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها ﴿ورئاء الناس﴾ الرياء إظهار الجميل ليراه الناس مع إبطال القبيح والفرق بين الرياء والنفاق أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر والرياء إظهار الطاعة مع إبطان المعصية ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ يعني ويمنعون الناس عن الدخول في دين الله نزلت هذه الآية في كفار قريش حين خرجوا إلى بدر ولهم فخر وبغي فقال رسول الله ﷺ اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني به.

قال ابن عباس: إن أبا سفيان لما رأى أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش أنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورحالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً وكان في بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق في كل عام قال فنقيم عليها ثلاثاً وننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا. زاد غيره قال: فلما وافوا بدراً سقوا كؤوس الحمام عوضاً عن الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم والمعنى لا

تتمنّوا لقاء العدو وسَلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السيوف». ثم قال: «اللّهمَّ مُنزّلَ الكتاب ومُجريَ السحاب وهَازمَ الأحزاب اهْزمْهُمْ وانصرْنا عليهم».

قوله تعالى: ﴿ ولا تكونوا كالذينَ خرجُوا منْ ديارِهم بطراً ﴾، فخراً وأشراً، ﴿ ورئاء الناسِ ﴾، قال الزجّاج: البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها، والرياء: إظهار الجميل لِيُرى وإبطان القبيح، ﴿ ويصدّون عن سبيل الله والله بما يعمَلون مُحيطٌ ﴾، نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغيٌ وفخرٌ، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمَّ هذه قريشٌ قدْ أقبلتْ بخيلائها وفخرها تُجادِلُك وتُكذّبُ رسولَك، اللّهمَّ فنصرُكَ الذي وعدتني»، قالوا: لمّا رأى أبو سفيان أنه قد أحرزَ عِيرَه أرسلَ إلى قريش أنكم إنّما خرجتُم لتمنعوا غيركم فقد نجّاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً، وكان بدرٌ موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام، فنقيمَ بها ثلاثاً فننحر الجزور ونُطعم الطعام ونُسقي الخمر وتعزف علينا القِيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً، فوافوها فسُقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأمرهم بإخلاص النيّة والحِسبة في نصر دينه ومؤازرة نبيّه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ وإذْ زيّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالهم ﴾، وكان تزيينه أن قريشاً لمّا اجتمعت للسير ذكرت الذي بينها

يكونن أمركم أيها المؤمنون رياء وسمعة ولا لالتماس ما عند الله ولكن أخلصوا لله عز وجل النية وقاتلوا حسبة في نصر دينكم ومؤازرة نبيكم ﷺ ولا تعملوا إلا لذلك ولا تطلبوا غيره.

وقوله تعالى: ﴿**والله بما يعملون محيط**﴾ فيه وعيد وتهديد يعني أنه تعالى عالم بجميع الأشياء لا يخفى عن علمه شيء لأنه محيط بأعمال العباد كلها فيجازي المحسنين ويعاقب المسيئين قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم**﴾ يعني اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم إذ زين الشيطان يريد إبليس للمشركين أعمالهم الخبيثة ﴿**وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم**﴾ قال بعضهم: كان تزيينه وسوسة ألقاها في قلوبهم من غير أن يتحول في صورة غير صورته. وقال جمهور المفسرين: تصور إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان تزيينه أن قريشاً لما أجمعت على المسير إلى بدر ذكرت الذي بينها وبين بكر بن الحرث من الحروب فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشرف بني كنانة، فقال: أنا جار لكم من أن يأتيكم من كنانة شيء تكرهونه فخرجوا سراحاً. وقال ابن عباس: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رأيته في صورة رجل من رجال بني مدلج سراقة بن مالك بن جعشم فقال للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين. وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، لعنه الله فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل ياسراقة أتزعم أنك جار لنا؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى الملائكة. وقوله: إني جار لكم، يعني مجير لكم من كنانة ﴿**فلما تراءت الفئتان**﴾ أي التقى الجمعان رأى إبليس الملائكة قد نزلوا من السماء فعلم عدو الله إبليس أنه لا طاقة له بهم ﴿**نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم**﴾ يعني رجع القهقرى وولى مدبراً هارباً على قفاه، وقال الكلبي: لما التقى الجمعان كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقة بن مالك بن جعشم وهو آخذ بيد الحرث بن هشام فنكص عدو الله إبليس على عقبيه فقال له الحرث: أفراراً من غير قتال؟ وجعل يمسكه فدفع في صدره وانطلق فانهزم الناس فلما قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقة. فبلغ ذلك سراقة فقال: بلغني أنكم تقولون أني هزمت الناس فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم. فقالوا: أما أتيتنا في يوم كذا وكذا فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان شيطاناً قال الحسن في قوله: ﴿**إني أرى ما لا ترون**﴾ قال: رأى إبليس جبريل عليه السلام معتجراً ببرد يمشي بين يدي النبي ﷺ وفي يده اللجام يقود

وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم فجاء إبليس في جند من الشياطين معه رايته فتبدّى لهم في صورة سُراقة بن مالك بن جعشم، ﴿ **وقال** ﴾، لهم ﴿ **لا غالب لكمُ اليومَ منَ الناسِ وإنّي جارٌ لكم** ﴾، أي: مُجير لكم من كنانة، ﴿ **فلما تراءتِ الفئتان** ﴾، أي: التقى الجمعان رأى إبليس أثر الملائكة، نزلوا من السماء وعلم أنه لا طاقة له بهم، ﴿ **نكصَ على عقبيه** ﴾، قال الضحاك: ولّى مدبراً. وقال النضر بن شميل: رجع القهقرى على قفاه هارباً. قال الكلبي: لمّا التقوا كان إبليس في صفّ المشركين على صورة سُراقة آخذٌ بيد الحارث بن هشام، فنكص على عقبيه، فقال له الحارث: أفراراً من غير قتال؟ فجعل يمسكه فدفع في صدره انطلق وانهزم الناس، فلما قَدِموا مكة قالوا: هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة، فقال: بلغني أنكم تقولون إني هزمت الناس، فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم، فقالوا: أما أتيتنا في يوم كذا؟ فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان، قال الحسن في قوله: ﴿ **وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون** ﴾، قال: رأى إبليس جبريل متعجّراً ببرد يمشي بين يدي النبي ﷺ، وفي يده اللجام يقود الفرس ما ركب بعد. وقال قتادة: كان إبليس يقول: إني أرى ما لا ترون وصدق. وقال: ﴿ **إني أخافُ اللّهَ** ﴾، وكذب والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة به ولا مِنعة

الفرس ما ركب. وقال قتادة: قال إبليس إني أرى ما لا ترون وصدق وقال: إني أخاف الله وكذب ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منفعة فأوردهم وأسلمهم وتلك عادة عدو الله إبليس لمن أطاعه إذ التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم وقيل إنه خاف أن يهلك فيمن هلك وقيل خاف أن يأخذه جبريل فيعرف حاله فلا يطيعوه وقيل معناه ﴿إني أخاف الله﴾ أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمر ربه وقيل لما رأى الملائكة قد نزلت من السماء خاف أن تكون القيامة ﴿والله شديد العقاب﴾ قيل معناه إني أخاف الله لأنه شديد العقاب فعلى هذا يكون من تمام قول إبليس. وقيل: تم كلامه عند قوله: إني أخاف الله. وقوله تعالى: والله شديد العقاب ابتداء كلام. يقول الله سبحانه وتعالى: والله شديد العقاب لمن خالف الله وكفر به. عن طلحة بن عبيد الله بن كرز أن رسول الله ﷺ قال: ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر فإنه قد رأى جبريل يزع الملائكة. أخرجه مالك في الموطأ. قوله: ولا أدحر هو بالدال والحاء المهملتين من الدحور، وهو الإبعاد والطرد مع الإهانة. وقوله: يزع الملائكة، أي يكفهم ويحبسهم لئلا يتقدم بعضهم على بعض. والوازع: هو الذي يتقدم ويتأخر في الصف ليصلحه.

فإن قلت: كيف يقدر إبليس على أن يتصور بصورة البشر وإذا تشكل بصورة البشر فكيف يسمى شيطاناً؟

قلت: إن الله عز وجل أعطاه قوة وأقدره على ذلك كما أعطى الملائكة قوة وأقدرهم على أن يتشكلوا بصورة البشر لكن النفس الباطنة لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إذ يقول المنافقون﴾ يعني من أهل المدينة ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وارتياب وهم قوم من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يقو الإسلام في قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج كفار قريش إلى حرب رسول الله ﷺ خرجوا معهم إلى بدر فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا ﴿غر هؤلاء دينهم﴾ يعني أن هؤلاء نفر

فأوردهم وأسلمهم، وذلك عادة عدوّ الله في مَن أطاعه إذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرّأ منهم. وقال عطاء: إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك. وقال الكلبي: خاف أن يأخذه جبريل عليه السلام ويُعرِّف حاله فلا يطيعوه. وقيل: معناه إني أخاف الله أي أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمره. ﴿والله شديدُ العقاب﴾. وقيل معناه: إني أخاف الله عليكم والله شديد العقاب. قيل: انقطع الكلام عند قوله أخاف الله ثم يقول الله: والله شديد العقاب. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن إبراهيم بن أبي عَلْيه عن طلحة بن عبد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال: «ما رُؤي الشيطانُ يوماً هو فيه أصغرَ ولا أدحرَ ولا أحقرَ ولا أغيظَ منه يوم عَرَفَة، وما ذاك إلّا لِمَ يرى من تنزّل الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العِظام، إلّا ما كان من يوم بدر»، فقيل: وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه قد رأى جبريل عليه السلام وهو ينزع الملائكة». هذا حديث مرسل.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴾، شك ونفاق، ﴿ غَرّ هؤلاء دِينُهم ﴾، يعني: غرّ المؤمنين دينهم هؤلاء قوم كانوا مستضعفين بمكة وقد أسلموا أو حبسهم أقرباؤهم من الهجرة، فلما خرجت قريش إلى بدر أخرجوهم كرهاً، فلما نظروا إلى قلّة المسلمين ارتابوا أو ارتدّوا، وقالوا: غرّ هؤلاء دينُهم فقتلوا

قليلون يقاتلون أضعافهم فقد غرهم دينهم الإسلام على ذلك وحملهم على قتل أنفسهم رجاء الثواب في الآخرة فقتلوا جميعاً يوم بدر. وقال مجاهد: إن فئة من قريش وهم قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب، فحبسهم ارتيابهم فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: غر هؤلاء دينهم ثم قال تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله﴾ يعني ومن يسلم أمره إلى الله ويثق بفضله ويعول على إحسانه ﴿فإن الله﴾ حافظه وناصره لأنه ﴿عزيز﴾ لا يغلبه شيء ﴿حكيم﴾ فيما قضى وحكم فيوصل الثواب إلى أوليائه والعقاب إلى أعدائه.

قوله عز وجل: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ يعني: ولو عاينت يا محمد وشهدت إذ تقبض الملائكة أرواح الذين كفروا عند الموت لرأيت أمراً عظيماً ومنظراً فظيعاً وعذاباً شديداً ينالهم في ذلك الوقت ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ اختلفوا في وقت هذا الضرب، فقيل: هو عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط من نار. وقيل: إن الذين قتلوا يوم بدر من المشركين كانت الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم. وقال ابن عباس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف وإذا ولوا أدبارهم ضربت الملائكة أدبارهم. وقال ابن جريج: يريد، ما أقبل من أجسادهم وأدبر يعني يضربون جميع أجسادهم ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ يعني وتقول لهم الملائكة عند القتل: ذوقوا عذاب الحريق. قيل: كان مع الملائكة مقامع من حديد محمية بالنار يضربون بها الكفار فتلتهب النار في جراحاتهم. وقال ابن عباس: تقول لهم الملائكة ذلك بعد الموت. وقال الحسن: هذا يوم القيامة تقول لهم الزبانية ذوقوا عذاب الحريق.

ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

جميعاً منهم قيس بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والمخزميان، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف الجمحي، والعاص بن منبّه بن الحجّاج. قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يتوكّلْ على الله ﴾، أي: ومَن يسلم أمره إلى الله ويثق به، ﴿ فإنّ الله عزيز ﴾، قوي يفعل بأعدائه ما يشاء، ﴿ حكيم ﴾ لا يسوّي بين وليّه وعدوّه.

﴿ ولو ترى ﴾، يا محمد، ﴿ إذْ يَتوفّى الذين كفروا الملائكةُ يضربون ﴾، أي: يقبضون أرواحهم. اختلفوا فيه، قيل: هذا عند الموت تضرب الملائكة وجوه الكفّار بسياط النار. وقيل: أراد الذين قتلوا من المشركين ببدر كانت الملائكة يضربون، ﴿ وجوهَهُمْ وأدْبارَهم ﴾، قال سعيد بن جبير ومجاهد: يريد أستاههم ولكن الله حيّ يكنّي. قال ابن عباس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف، وإذا ولّوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم. وقال ابن جريج: يريد ما أقبل منهم وما أدبر، أي: يضربون أجسادهم كلها، والمراد بالتوفّي القتل. ﴿ وذُوقُوا عذابَ الحريق ﴾، أي: وتقول لهم الملائكة ذوقوا عذاب الحريق. وقيل: كان مع الملائكة مقامع من حديد يضربون بها الكفّار، فتلتهب النار في جراحاتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ وذُوقُوا عذابَ الحريق ﴾. وقال الحسن: هذا يوم القيامة تقول لهم خَزَنَة جهنم: ذوقوا عذاب الحريق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يقولون لهم ذلك بعد الموت.

كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

﴿ذلك﴾ يعني الذي نزل بكم من القتل والضرب والحريق ﴿بما قدمت أيديكم﴾ يعني إنما حصل لكم ذلك بسبب ما كسبت أيديكم من الكفر والمعاصي.

فإن قلت: اليد ليست محلاً للكفر وإنما محله القلب لأن الكفر اعتقاد والاعتقاد محله القلب وظاهر الآية يقتضي أن فاعل هذا الكفر هي اليد وذلك ممتنع.

قلت: اليد هنا عبارة عن القدرة لأن اليد آلة العمل والقدرة هي المؤثرة في العمل فاليد كناية عن القدرة.

قوله تعالى: ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى لا يعذر أحداً من خلقه إلا بجرم اجترمه لأنه لا يظلم أحداً من خلقه وإنما نفى الظلم عن نفسه مع أنه يعذب الكافر على كفره والعاصي على عصيانه لأنه يتصرف في ملكه كيف شاء ومن كان كذلك استحال نسبة الظلم إليه فلا يتوهم متوهم أنه سبحانه وتعالى مع خلقه كفر الكافر وتعذيبه عليه ظالم فلهذا قال الله سبحانه وتعالى وأن الله ليس بظلام للعبيد لأنهم في ملكه وتحت قدرته فهو يتصرف فيهم كيف يشاء.

قوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون﴾ يعني أن عادة هؤلاء الكفار في كفرهم كعادة آل فرعون في كفرهم فجوزي هؤلاء بالقتل والأسر يوم بدر كما جوزي آل فرعون بالإغراق وأصل الدأب في اللغة إدامة العمل يقال فلان يدأب في كذا وكذا يداوم عليه ويتعب نفسه فيه ثم سميت العادة دأباً لأن الإنسان يداوم على عادته ويواظب عليها.

قال ابن عباس: معناه أن آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبي من الله تعالى فكذبوه فكذلك هؤلاء لما جاءهم محمد ﷺ بالصدق كذبوه فأنزل الله بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون ﴿والذين من قبلهم﴾ يعني من قبل آل فرعون ﴿كفروا بآيات الله﴾ يعني أن عادة الأمم السالفة هو كفرهم بآيات الله ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ يعني بسبب كفرهم وذنوبهم ﴿إن الله قوي﴾ يعني في أخذه وانتقامه ممن كفر به وكذب رسله ﴿شديد العقاب﴾ يعني لمن كفر به وكذب رسله ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ يعني: أن الله سبحانه وتعالى أنعم على أهل مكة بأن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وبعث إليهم محمداً ﷺ فقابلوا هذه النعمة بأن تركوا شكرها وكذبوا رسوله محمد ﷺ وغيَّروا ما بأنفسهم فسلبهم الله سبحانه وتعالى النعمة وأخذهم بالعقاب قال السدي: نعمة الله هو محمد ﷺ أنعم به على قريش فكفروا به وكذبوه فنقله الله تعالى إلى الأنصار ﴿وأن الله سميع﴾ يعني لأقوال خلقه لا يخفى عليه شيء من كلامهم ﴿عليم﴾ يعني بما في صدورهم من خير وشر، فيجازي كل واحد على عمله ﴿كدأب آل فرعون﴾ يعني أن هؤلاء الكفار الذين قتلوا يوم بدر غيروا نعمة الله عليهم كصنيع آل فرعون ﴿والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم﴾ يعني: أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة

﴿ ذلك ﴾، أي: ذلك الضرب الذي وقع بكم، **﴿ بما قدَّمتْ أيديكم ﴾**، أي: بما كسبت أيديكم، **﴿ وأنَّ اللَّهَ ليسَ بظلَّامٍ للعبيد ﴾**.

﴿ كَدَأْبِ آلِ فرعونَ ﴾، كفعل آل فرعون وصنيعهم وعادتهم، معناه: أن عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون. قال ابن عباس: هو أن آل فرعون أيقنوا أن موسى نبي من الله فكذّبوه، كذلك هؤلاء جاءهم محمد ﷺ بالصدق فكذّبوه، فأنزلِ الله بهم عقوبة كما أنزل بآل فرعون. **﴿ والذينَ منْ قبلِهم ﴾**، أي: **﴿ كفروا بآيات الله فأخذهم اللَّهُ بذنوبهم إنَّ الله قويٌّ شديد العقاب ﴾**.

وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ فكذلك أهلكنا كفار قريش بالسيف ﴿وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين﴾ يعني الأولين والآخرين، فإن قلت ما الفائدة في تكرير هذه الآية مرة ثانية؟.

قلت: فيها فوائد منها الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأول لأن الآية الأولى فيها ذكر أخذهم، وفي الآية الثانية ذكر إغراقهم، فهذه تفسير للأولى.

الفائدة الثانية: أنه ذكر في الآية الأولى أنهم كفروا بآيات الله وفي الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم ففي الآية الأولى إشارة إلى أنهم أنكروا آيات الله وجحدوها، وفي الآية الثانية إشارة إلى أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها.

الفائدة الثالثة: أن تكرير هذه القصة للتأكيد وفي قوله ﴿كذبوا بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

وقوله تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ يعني في علمه وحكمه ﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ والمعنى أن شر الدواب من الإنس الكفار المصرون على الكفر نزلت في يهود بني قريظة رهط كعب بن الأشرف ﴿الذين عاهدت منهم﴾ قيل: من صلة يعني الذين عاهدتهم وقيل: هي للتبعيض لأن المعاهدة مع بعض القوم وهم الرؤساء والأشراف ﴿ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ كان عاهد يهود بني قريظة أن لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه فنقضوا العهد وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال رسول الله ﷺ وأصحابه ثم قالوا نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد أيضاً ومالؤوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ ﴿وهم لا يتقون﴾ يعني أنهم لا يخافون الله في نقض العهد لأن عادة من يرجع إلى

﴿ ذلك بأنّ اللّهَ لم يكُ مُغيّراً نِّعْمةً أنعمها على قوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم ﴾، أراد أن الله تعالى لا يغيّر ما أنعم على قوم حتى يغيّروا هم ما بهم بالكفران وترك الشكر، فإذا فعلوا ذلك غيّر الله ما بهم، فسلبهم النعمة. وقال السدي: نعمة الله محمد ﷺ أنعم الله به على قريش وأهل مكة، فكذّبوه وكفروا به فنقله الله إلى الأنصار، ﴿ وأنّ اللّهَ سميعٌ عليم ﴾.

﴿ كَدأْبِ آلِ فرعونَ ﴾، كصنيع آل فرعون، ﴿ والذين من قبلهم ﴾، من كفّار الأمم، ﴿ كذّبوا بآياتِ ربِّهمْ فأهلكنَاهم بذنوبهم ﴾، أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالمسخ وبعضهم بالريح وبعضهم بالغرق، فكذلك أهلكنا كفّار بدر بالسيف لمّا كذّبوا بآيات ربّهم، ﴿ وأغْرَقْنَا آلَ فِرعونَ وكلٌّ كانُوا ظالمين ﴾، يعني: الأوّلين والآخرين.

﴿ إنّ شرَّ الدوابِّ عندَ اللّهِ الذينَ كفرُوا فهمْ لا يُؤمنون ﴾، قال الكلبي ومقاتل: يعني يهود بني قريظة منهم كعب بن الأشرف وأصحابه.

﴿ الذينَ عاهدتَّ مِنْهُم ﴾، يعني عاهدتهم: عاهدت معهم. وقيل: أدخل «من» لأن معناه أخذت منهم

دين وعقل وحزم آن يتقي نقض العهد حتى يسكن الناس إلى قوله ويثقون بكلامه فبين الله عز وجل أن من جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب ﴿فأما تثقفنهم في الحرب﴾ يعني فأما تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وتظفرن بهم في الحرب ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ قال ابن عباس: معناه فنكل بهم من ورائهم.

وقال سعيد بن جبير: أنذر بهم من خلفهم وأصل التشريد في اللغة التفريق مع اضطراب ومعنى الآية إنك إذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد فافعل بهم فعلاً من القتل والتنكيل تفرق به جمع كل ناقض للعهد حتى يخافك من وراءهم من أهل مكة واليمن ﴿لعلهم يذكرون﴾ يعني لعل ذلك النكال يمنعهم من نقض العهد ﴿وإما تخافن﴾ يعني وإما تعلمن يا محمد ﴿من قوم﴾ يعني معاهدين ﴿خيانة﴾ يعني نقضاً للعهد بما يظهر لك منهم من آثار الغدر كما ظهر من بني قريظة والنضير ﴿فانبذ﴾ أي فاطرح ﴿إليهم﴾ يعني عهدهم وارم به إليهم ﴿على سواء﴾ يعني على طريق ظاهر مستو يعني أعلمهم قبل حربك إياهم إنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم ينقض العهد سواء فلا يتوهمون أنك نقضت العهد أولاً بنصب الحرب معهم ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ يعني في نقض العهد عن سليم بن عمر عن رجل من حمير قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاءه رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدراً فإذا هو عمرو بن عنبسة فأرسل إليه معاوية فسأله فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء، فرجع معاوية» أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي عن سليم بن عامر نفسه بلا زيادة رجل من حمير وعنده الله أكبر مرة واحدة وفيه جاء على دابة أو فرس وأما حكم الآية فقال أهل العلم إذا ظهرت آثار نقض العهد ممن هادهم الإمام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض استغنى الإمام عن نبذ العهد وإعلامهم بالحرب وإن ظهرت الخيانة بأمارات تلوح وتتضح له من غير أمر مستفيض فحينئذ يجب على الإمام أن ينبذ إليهم العهد ويعلمهم بالحرب وذلك لأن قريظة كانوا قد عاهدوا النبي ﷺ ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على

العهد، ﴿ ثم ينقضون عهدَهم في كلِّ مرَّةٍ ﴾، وهم بنو قريظة نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا المشركين بالسلاح على قتال النبي ﷺ وأصحابه، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية، فنقضوا العهد ومالَؤُوا الكفّار على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة النبي ﷺ، ﴿ وهم لا يتّقون ﴾، لا يخافون الله تعالى في نقض العهد.

﴿ فإمّا تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾، تَجِدَنّهم، ﴿ في الحرب ﴾، قال مقاتل: إن أدركتهم بالحرب وأسرتهم، ﴿ فشرِّدْ بهم مَّن خَلْفَهم ﴾، قال ابن عباس: فنكّل بهم من ورائهم. وقال سعيد بن جبير: أنذر بهم من خلفهم. وأصل التشريد: التفريق والتبديد، معناه فرّق بهم جمع كل ناقض، أي: افعل بهؤلاء الذين نقضوا عهدك وجاؤوا لحربك فعلاً من القتل والتنكيل، يُفَرِّقُ منك ويخافك مَنْ خلفهم من أهل مكة واليمن، ﴿ لعلّهم يذّكّرون ﴾، يتذكّرون ويتّعظون ويعتبرون فلا ينقضون العهد.

﴿ وإمّا تَخافَنّ ﴾ أي: تعلمن يا محمد، ﴿ من قومٍ ﴾، معاهدين، ﴿ خيانةً ﴾، نقض عهد بما يظهر لكم من آثار الغدر كما ظهر من قريظة والنضير، ﴿ فانْبِذْ إليهم ﴾، فاطرح إليهم عهدهم، ﴿ على سواءٍ ﴾، يقول: أعلمهمْ قبلَ حربك إيّاهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواءً، فلا يتوهّموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب معهم، ﴿ إنّ اللّهَ لا يُحبّ الخائنين ﴾. أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أنا أبو سهل محمد بن عمر بن طرفة السجزي أنا أبو سليم الخطابي أنا أبو بكر محمد بن بكر بن محمد بن عبد الرزّاق بن داسة التمّار ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ثنا حفص بن عمر النمر ثنا شعبة عن أبي

رسول الله ﷺ فحصل لرسول الله ﷺ خوف الغدر به وبأصحابه فهاهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم على سواء ويعلمهم بالحرب وأما إذا ظهر نقض العهد ظهروا مقطوعاً به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم في ذمة رسول الله ﷺ فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمر الظهران وذلك على أربع فراسخ من مكة.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

وقوله تعالى: ﴿**ولا تحسبن**﴾ قرىء بالتاء على الخطاب للنبي ﷺ والمعنى ولا تحسبن يا محمد ﴿**الذين كفروا سبقوا**﴾ يعني فاتوا وانهزموا يوم بدر وقرىء بالياء على الغيبة ومعناه ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا يعني خلصوا من القتل والأسر يوم بدر ﴿**أنهم لا يعجزون**﴾ يعني أنهم بهذا السبق لا يعجزون الله من الانتقام منهم إما في الدنيا بالقتل وإما في الآخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبي ﷺ فيمن فاته من المشركين ولم ينتقم منهم فأعلمهم الله أنهم لا يعجزونه.

قوله عز وجل: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ الإعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة إليه وفي المراد بالقوة أقوال أحدها: أنها جميع أنواع الأسلحة والآلات التي تكون لكم قوة في الحرب على قتال عدوكم، الثاني: أنها الحصون والمعاقل الثالث: الرمي وقد جاءت مفسرة عن النبي ﷺ فيما رواه عقبة بن عامر قال «سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ثلاثاً» أخرجه مسلم (خ) عن أبي أسيد قال قال رسول الله ﷺ «يوم بدر حين صففنا لقريش إذا أكثبوكم» يعني غشوكم وفي رواية أكثروكم فارموهم واستبقوا نبلكم وفي رواية «إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل» (م) عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «ستفتح عليكم الروم

الفيض عن سليم بن عامر عن رجل من حمير قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس وهو يقول: الله أكبر الله أكبر وفاءً لا غدراً فنظر فإذا هو عمرو بن عنبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ولا يحلّها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم عهدهم على سواء». فرجع معاوية رضي الله عنه قوله:

﴿ **ولا يحسبنّ الذين كفروا سَبَقُوا** ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة وحفص «يحسبنّ» بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، ﴿ **سَبَقُوا** ﴾ أي: فاتُوا، نزلت في الذين انهزموا يوم بدر من المشركين، فمَن قرأ بالياء يقول: «لا يحسبنّ الذين كفروا» أنفسهم سابقين فائتين من عذابنا، ومَن قرأ بالتاء فعلى الخطاب. قرأ ابن عامر: «أنهم لا يُعْجِزُون»، بفتح الألف، أي: لأنهم لا يعجزون، ولا يفوتونني. وقرأ الآخرون بكسر الألف على الابتداء.

قوله تعالى: ﴿ **وأعِدُّوا لهم ما اسْتَطَعْتُم مِّن قُوّةٍ** ﴾، الإعداد: اتخاذ الشيء لوقت الحاجة. ﴿ **من قوة** ﴾، أي: من الآلات التي تكون لكم قوة عليهم من الخيل والسلاح. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغفّار بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان عن مسلم بن الحجّاج ثنا هارون بن معروف ثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن شفي أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: وهو على المنبر: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إنّ القوّةَ الرمي ألا إنّ القوّةَ الرمي ألا إنّ القوّةَ الرمي». وبهذا الإسناد قال:

ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه» (م) عن فقيم اللخمي قال قلت لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير يشق عليك فقال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانه قال قلت وما ذاك؟ قال سمعته يقول: «من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى» عن أبي نجيح السلمي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من بلغ بسهم فهو له درجة في الجنة» فبلغت يومئذ عشرة أسهم قال وسمعت رسول الله ﷺ يقول «من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر» أخرجه النسائي والترمذي بمعناه وعنده قال عدل رقبة محررة وأخرجه أبو داود أيضاً عن عقبة بن عامر بمعناه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله عز وجل ليدخلن بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه يحتسب في عمله الخير والرامي به والممد به» وفي رواية «ومنبله فارموا واركبوا وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا كل لهو باطل ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة تأديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه أي نبله إنهن من الحق ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها أو كفرها» أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي مختصر إلى نبله (خ)

عن سلمة بن الأكوع قال «مر النبي ﷺ على نفر من أسلم يتنضلون بالقوس فقال النبي ﷺ: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً ارموا وأنا مع بني فلان فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال النبي ﷺ: ما لكم لا ترمون؟ فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: ارموا وأنا معكم كلكم. القول الرابع: أن المراد بالقوة جميع ما يتقوى به في الحرب على العدو فكل ما هو آلة يستعان بها في الجهاد فهو من جملة القوة المأمور باستعدادها وقوله ﷺ «ألا أن القوة الرمي» لا ينفي كون غير الرمي من القوة فهو كقوله ﷺ «الحج عرفة» وقوله: «الندم توبة» فهذا لا ينفي اعتبار غيره بل يدل على أن هذا المذكور من أفضل المقصود وأجله فكذا هاهنا يحمل معنى الآية على الاستعداد للقتال في الحرب وجهاد العدو بجميع ما يمكن من الآلات كالرمي بالنبل والنشاب والسيف والدرع وتعليم الفروسية كل ذلك مأمور به إلا أنه من فروض الكفايات وقوله تعالى: ﴿ومن رباط الخيل﴾ يعني اقتناءها وربطها للغزو في سبيل الله والربط شد الفرس وغيره بالمكان للحفظ وسمي المكان الذي يخص بإقامة حفظة فيه رباطاً والمرابطة إقامة المسلمين بالثغور للحراسة فيها وربط الخيل الجهاد من أعظم ما يستعان به.

روي أن رجلاً قال لابن سيرين: إن فلاناً أوصى بثلث ماله للحصون فقال ابن سيرين: يشتري به الخيل ويربطها في سبيل الله. وقال عكرمة: القوة الحصون ومن رباط الخيل يعني الإناث ووجه هذا أن العرب تربط الأناث من الخيل

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله عزّ وجلّ فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه».
أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو نعيم ثنا عبد الرحمن بن الغسيل عن حمزة بن أبي أُسيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر حين صففنا لقريش وصفّوا لنا: «إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ثنا هشام الدستوائي عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن أبي نجيح السلمي قال: حاصرنا مع النبي ﷺ الطائف فسمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «مَن بلغ بسهم في سبيل الله فهو له درجة في الجنة»، قال: فبلغتِ يومئذ ستّة عشر سهماً. وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرّر». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن بشران أنا إسماعيل بن حمد الصفّار ثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبدالرزّاق أنا معمر عن يحيىٰ بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن عبد الله بن زيد بن الأزرق عن عقبة بن عامر الجهني عن النبي ﷺ قال: «إنّ الله يُدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثةً صانعه والممِدَّ به والرامي به في سبيل الله». ورُوِيَ عن خالد بن زيد عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ اللّهَ يُدخلُ بالسهم الواحد ثلاثةَ

بالأفنية للنسل. وروي أن خالد بن الوليد كان لا يركب في القتال إلا الإناث لقلة صهيلها. وعن ابن محيريز قال: كانت الصحابة يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل عند الشنات والغارات. وقيل: ربط الفحول أولى من الإناث لأنها أقوى على الكر والفر والعدو فكانت المحاربة عليها أولى من الإناث وقيل إن لفظ الخيل عام فيتناول الفحول والإناث فأي ذلك ربط بنية الغزاة كان في سبيل الله (ق) عن عروة بن الجعد البارقي أن رسول الله ﷺ قال «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة» (ق)

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» يعني حسنات (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «الخيل ثلاثة هي لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر، فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله زاد في رواية لأهل الإسلام فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان لها حسنات ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت له آثارها وأرواثها حسنات ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات فهي لذلك الرجل أجر ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك الرجل ستر ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر» وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: ما أنزل عليّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره الطيل الحبل الذي يشد به الفرس وقت الرعي واستنان الجري والشرف الشوط الذي تجري فيه الفرس وقوله تغنياً يعني استغناء بها عن الطلب لما في أيدي الناس أما حق ظهورها فهو أن يحمل عليها منقطعاً إلى أهله وأما حق رقابها فقيل: أراد به الإحسان إليها. وقيل: أراد به الحمل عليها فعبر بالرقبة عن الذات وقوله: نواء لأهل الإسلام النواء المعاداة يقال ناوأت الرجل مناوأة إذا عاديته.

وقوله تعالى: ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ يعني: تخوفون بتلك القوة وبذلك الرباط عدو الله وعدوكم يعني الكفار من أهل مكة وغيره. وقال ابن عباس: تحزنون به عدو الله وعدوكم وذلك لأن الكفار إذا علموا أن المسلمين متأهبون للجهاد مستعدون له مستكملون لجميع الأسلحة وآلات الحرب وإعداد الخيل مربوطة للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الإسلام بل يصير ذلك سبباً لدخول الكفار في الإسلام أو بذل الجزية للمسلمين.

نفرٍ في الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به ومُنْبِلَهُ وارْمُوا وارْكَبُوا، وإن ترموا أحبّ إليّ من أن تركبوا، كل شيء يلهو به الرجل باطل وإلّا رميَهُ بقوسه وتأديبَهُ فرسَهُ وملاعبتَهُ امرأتَه فإنّه من الحق. ومَن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه فإنّه نعمة تركها أو قال كفرها». قوله: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾، يعني: ربطها واقتناؤها للغزو. وقال عكرمة: القوة الحصون ومن رباط الخيل الإناث. ورُوِيَ عن خالد بن الوليد أنه كان لا يركب في القتال إلّا الإناث لقلّة صهيلها. وعن أبي محيريز قال: كان الصحابة رضي الله عنهم يستحبّون ذكور الخيل عند الصفوف وإناث الخيل عند الشنّات والغارات. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو نعيم ثنا زكريا عن عامر ثنا عروة البارقي أن النبي ﷺ قال: «الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجْرَ والمَغْنَم». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن حفص ثنا ابن المبارك ثنا طلحة بن أبي سعيد قال: سمعتُ سعيداً المقبري يحدّث أنه سمع أبا هريرة يقول: قال النبي ﷺ: «مَنِ احتبسَ فرساً في سبيلِ اللَّهِ إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإنّ شَبَعَهُ ورِيَّهُ ورَوْثَهُ وبوله في ميزانه يوم القيامة». أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنبأنا أبو إسحق الهاشمي أنبأنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة أنّ رسولَ

وقوله تعالى: ﴿وآخرين من دونهم﴾ يعني وترهبون آخرين من دونهم اختلف العلماء فيهم فقال مجاهد: هم بو قريظة، وقال السدي: هم فارس وقال ابن زيد هم المنافقون لقوله تعالى: ﴿لا تعلمونهم﴾ لأنهم معكم يقولون بألسنتهم لا إله إلا الله ﴿الله يعلمهم﴾ يعني أنهم منافقون وأورد على هذا القول أن المنافقين لا يقاتلون لإظهارهم كلمة الإسلام فكيف يخوفون بإعداد القوة ورباط الخيل. وأجيب عن هذا الإيراد أن المنافقين إذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة آلاتهم وأسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم ويحزنهم فكان في ذلك إرهابهم وقال الحسن: هم كفار الجن وصحح هذا القول الطبري قال: لأن الله تعالى قال لا تعلمونهم ولا شك بأن المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لعلمهم بأنهم مشركون ولأنهم حرب للمؤمنين أما الجن فلا يعلمونهم الله يعلمهم يعني يعلم أحوالهم وأماكنهم دونكم ويعضد هذا القول ما روي «أن النبي ﷺ قال هم الجن وأن الشيطان لا يخيل أحداً في داره فرس عتيق» ذكر هذا الحديث ابن الجوزي وغيره من المفسرين بغير إسناد وقال الحسن: صهيل الخيل يرهب الجن. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله﴾ قيل أراد به نفقة الجهاد والغزو وقيل هو أمر عام في كل وجوه الخير والطاعة فيدخل فيه نفقة الجهاد وغيره ﴿يوف إليكم﴾ يعني أجره في الآخرة ويعجل لكم عوضه في الدنيا ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ يعني وأنتم لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً قوله تبارك وتعالى:

۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ لما أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بإعداد القوة وما يرهب العدو أمرهم بعد ذلك أن يقبلوا منهم الصلح إن مالوا إليه وسألوه فقال تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم﴾ يعني مالوا إلى السلم يعني

الله ﷺ قال: «الخيل ثلاثة هي لرجل أجرٌ. وهي لرجل سِتْرٌ. وهي لرجل وِزْرٌ، فأمّا التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيلِ الله فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها ذلك فاستنّت شرفاً أو شرفين كانت آثارُها وأرواثُها حسنات له، ولو أنها مرّت بنهر فشربتْ منه ولم يُرِد أن يسقيها كان ذلك له حسنات، فهي لذلك الرجل أجر، وأمّا التي هي له سِتْرٌ فرجلٌ ربطها تغنياً وتعففاً ثم لم ينسَ حقّ الله في ظُهورها ولا رقابها فهي له سِتر، وأمّا التي هي له وِزْرٌ فرجلٌ ربطها فخراً ورياءً، ونواءً لأهل الإسلام فهي على ذلك وزر»، وسُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الحُمُرِ فقال: «ما أنزل عليَّ فيها شيء إلّا هذه الآية الجامعة الفاذّة»: ﴿ فَمَن يعملْ مثقالَ ذَرّةٍ خيراً يره، ومَنْ يعمل مِثْقال ذَرّةٍ شراً يَرَه ﴾ [الزلزلة: ٧ و٨] ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ ﴾، تُخوِّفون ﴿عَدُوَّ الله، وعدوَّكم وآخرين﴾، أي: وترهبون آخرين، ﴿ مِنْ دُونِهم لا تعلمونَهم الله يعلمُهم ﴾، قال مجاهد ومقاتل وقتادة: هم بنو قريظة. وقال السدي: هم أهل فارس. وقال الحسن وابن زيد: هم المنافقون، لا تعلمونهم لأنهم معكم يقولون لا إلّه إلّا الله. وقيل: هم كفّار الجن. ﴿ وما تُنفقوا من شيء في سبيلِ اللّهِ يُوفَ إليكم ﴾، يُوفَّى لكم أجره، ﴿ وأنتم لا تُظلمون ﴾، لا ينقص أجوركم.

قوله تعالى: ﴿ وإنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ ﴾، أي: مالوا إلى الصلح، ﴿ فاجْنَحْ لهَا ﴾، أي: مِلْ إليها وصالحهم.

المصالحة فاقبلوا منهم الصلح وهو قوله تعالى فاجنح لها أي مل إليها يعني إلى المصالحة. روي عن الحسن وقتادة إن هذه الآية منسوخة بآية السيف. وقيل: إنها غير منسوخة لكنها تتضمن الأمر بالصلح إذا كان فيه مصلحة ظاهرة فإن رأى الإمام أن يصالح أعداءه من الكفار وفيه قوة فلا يجوز أن يهادنهم سنة كاملة وإن كانت القوة للمشركين جاز أن يهادنهم عشر سنين ولا تجوز الزيادة عليها اقتداء برسول الله ﷺ فإنه صالح أهل مكة مدة عشر سنين ثم إنهم نقضوا العهد قبل انقضاء المدة.

وقوله تعالى: ﴿**وتوكل على الله**﴾ يعني فوض أمرك إلى الله فيما عقدته معهم ليكون عوناً لك في جميع أحوالك ﴿**إنه هو السميع**﴾ يعني لأقوالهم ﴿**العليم**﴾ يعني بأحوالهم: قوله عز وجل: ﴿**وإن يريدوا أن يخدعوك**﴾ يعني يغدروا بك قال مجاهد: يعني بني قريظة والمعنى وإن أرادوا بإظهار الصلح خديعتك لتكف عنهم ﴿**فإن حسبك الله**﴾ يعني فإن الله كافيك بنصره ومعونته ﴿**هو الذي أيدك بنصره**﴾ يعني هو الذي قواك وأعانك بنصره يوم بدر وفي سائر أيامك ﴿**وبالمؤمنين**﴾ يعني وأيدك بالمؤمنين يعني الأنصار.

فإن قلت: إذا كان الله قد أيده بنصره فأي حاجة إلى نصر المؤمنين حتى يقول وبالمؤمنين.

قلت: التأييد والنصر من الله عز وجل وحده لكنه يكون بأسباب باطنة غير معلومة وبأسباب ظاهرة معلومة فأما الذي يكون بالأسباب الباطنة فهو المراد بقوله «هو الذي أيدك بنصره» لأن أسبابه باطنة بغير وسائط معلومة وأما الذي يكون بالأسباب الظاهرة فهو المراد بقوله «وبالمؤمنين» لأن أسبابه ظاهرة بوسائط وهم المؤمنون والله سبحانه وتعالى هو مسبب الأسباب وهو الذي أقامهم لنصره ثم بيَّن كيف أيده بالمؤمنين فقال تعالى: ﴿**وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم**﴾ وذلك أن العرب كانت فيهم الحمية الشديدة والأنفة العظيمة والأنفس القوية والعصبية والانطواء على الضغينة من أدنى شيء حتى لو أن رجلاً من قبيلة لطم لطمة واحدة قاتل عنه أهل قبيلته حتى يدركوا ثأرهم لا يكاد يأتلف منهم قلبان فلما بعث رسول الله ﷺ فيهم وآمنوا به واتبعوه انقلبت تلك الحالة فائتلفت قلوبهم واستجمعت كلمتهم وزالت حمية الجاهلية من قلوبهم وأبدلت تلك الضغائن والتحاسد بالمودة والمحبة لله وفي الله واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصاراً لرسول الله ﷺ وأعواناً يقاتلون عنه ويحمونه وهم الأوس والخزرج وكانت بينهم في الجاهلية حروب عظيمة ومعاداة شديدة ثم زالت تلك الحروب وحصلت المحبة والألفة وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل وصار ذلك معجزة لرسول الله ﷺ ظاهرة باهرة دالة على صدقه ومنه قوله ﷺ: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي وفي الآية دليل على أن القلوب بيد الله يصرفها كيف شاء وأرادوا ذلك لأن تلك الألفة والمحبة إنما حصلت بسبب

رُوِيَ عن قتادة والحسن: أنّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة: ٥].
﴿ **وتوكّلْ على اللّهِ** ﴾! ثم بالله، ﴿ **إنّه هو السّميعُ العليم** ﴾.

﴿ **وإنْ يُريدُوا أنْ يخدعُوك** ﴾، يغدروا ويمكروا بك. قال مجاهد: يعني بني قريظة. ﴿ **فإنّ حَسْبَكَ اللّهُ** ﴾، كافيك الله، ﴿ **هو الذي أيّدكَ بنصرهِ وبالمؤمنين** ﴾، أي: بالأنصار.

﴿ **وألّفَ بينَ قلوبهم** ﴾، أي: بين الأوس والخزرج، كانت بينهم إحَن وتارات في الجاهلية فصيّرهم الله إخواناً بعد أن كانوا أعداء، ﴿ **لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألّفتَ بينَ قلوبهم ولكنّ اللّهَ ألّفَ بينَهم. إنّه عزيزٌ حكيم** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **يا أيها النبيُّ حَسْبُكَ اللّهُ ومَن اتبعكَ مِنَ المؤمنين** ﴾، قال سعيد بن جبير: أسلم مع رسول

الإيمان واتباع الرسول ﷺ ثم إنه سبحانه وتعالى ختم هذه الآية بقوله ﴿**إنه عزيز حكيم**﴾ يعني أنه تعالى قادر قاهر يمكنه التصرف في القلوب فيقلبها من العداوة إلى المحبة ومن النفرة إلى الألفة وكل ذلك على وجه الحكمة والصواب.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين**﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في إسلام عمر بن الخطاب قال سعيد بن جبير «أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت هذه الآية» فعلى هذا القول تكون الآية مكية كتبت في سورة مدنية بأمر رسول الله ﷺ. وقيل: إنها نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال فعلى هذا القول أراد بقوله تعالى: ﴿**ومن اتبعك من المؤمنين**﴾ يعني إلى غزوة بدر وقيل أراد بقوله ومن اتبعك من المؤمنين الأنصار وتكون الآية نزلت بالمدينة وقيل أراد جميع المهاجرين والأنصار، ومعنى الآية يا أيها النبي حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين وقيل معناه حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين.

قوله عز وجل: ﴿**يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال**﴾ يعني حثهم على قتال عدوهم.

والتحريض في اللغة: الحث على الشيء بكثرة التزين وتسهيل الخطب فيه كأنه في الأصل إزالة الحرض وهو الهلاك ﴿**إن يكن منكم عشرون**﴾ يعني رجلاً ﴿**صابرون**﴾ يعني عند اللقاء محتسبين أنفسهم ﴿**يغلبوا مائتين**﴾ يعني من عدوهم وظاهر لفظ الآية خبر ومعناه الأمر فكأنه تعالى قال إن يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا في قتال عدوهم حتى يغلبوا مائتين ويدل على أن المراد بهذا الخبر الأمر قوله «الآن خفف الله عنكم» لأن النسخ لا يدخل على الإخبار إنما يدخل على الأمر فدل ذلك على أن الله سبحانه وتعالى أوجب أولاً على المؤمنين هذا الحكم وإنما حسن هذا التكليف لأن الله وعدهم بالنصر ومن تكفل الله له بالنصر سهل عليه الثبات مع الأعداء ﴿**وإن يكن منكم مائة**﴾ يعني صابرة ﴿**يغلبوا ألفاً من الذين كفروا**﴾ فحاصله وجوب ثبات الواحد من المؤمنين في مقابلة العشرة من الكفار، ذلك ﴿**بأنهم قوم لا يفقهون**﴾ يعني: أن المشركين لا يقاتلون لطلب ثواب وخوف عقاب إنما يقاتلون حمية فإذا صدقتموهم في القتال فإنهم لا يثبتون معكم.

ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى

الله ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وستُّ نسوة، ثم أسلم عمر بن الخطاب فتمّ به الأربعون، فنزلت هذه الآية. واختلفوا في محل ﴿ مِنْ ﴾ فقال أكثر المفسّرين: محلّه خفض، عطفاً على الكاف في قوله: ﴿ **حَسْبُكَ اللَّهُ** ﴾ وحسب مَن اتّبعك، وقال بعضهم: هو رفع عطفاً على اسم الله معناه: حسبك الله ومتّبعوك من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿ **يا أيها النبي حرّضِ المؤمنينَ على القتال** ﴾، أي: حثّهم على القتال. ﴿ **إن يكنْ منكم عِشْرَون** ﴾، رجلاً، ﴿ **صابرون** ﴾، محتسبون، ﴿ **يغلبوا مائتين** ﴾، من عدوّهم يقهروهم، ﴿ **وإن يكن منكم مائةٌ** ﴾، صابرة محتسبة، ﴿ **يغلبوا ألفاً من الذين كفروا** ﴾، ذلك ﴿ **بأنهم قومٌ لا يفقهون** ﴾، أي: إن المشركين يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب ولا يثبتون إذا صدقتموهم القتال خشية أن يقتلوا، وهذا خبر بمعنى الأمر، وكان هذا يوم بدر فرض الله على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين، فثقلت على المؤمنين، فخفّف الله عنهم، فنزل:

ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾

﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله﴾ (خ)

عن ابن عباس: قال لما نزلت إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين كتب عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ولا عشرون من مائتين ثم نزلت الآن خفف الله عنكم الآية فكتب أن لا يفر مائة من مائتين. وفي رواية أخرى عنه قال: لما نزلت إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين شق ذلك على المسلمين فنزلت الآن خفف الله عنكم الآية فلما خفف الله عنهم من العدة نقص عنهم عن الصبر بقدر ما خفف عنهم فظاهر هذا أن قوله سبحانه وتعالى الآن خفف الله عنكم ناسخ لما تقدم من الآية الأولى وكان هذا الأمر يوم بدر فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين فثقل ذلك على المؤمنين فنزلت الآن خفف الله عنكم أيها المؤمنون وعلم أن فيكم ضعفاً يعني في قتال الواحد للعشرة فإن تكن منكم مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله فرد من العشرة إلى الاثنين فإذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا فأيما رجل فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فرّ **﴿والله مع الصابرين﴾** يعني بالنصر والمعونة.

قال سفيان: قال ابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك.

قوله تعالى: **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾** روي عن عبد الله ابن مسعود قال: لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى فقال رسول الله ﷺ: ما تقولن في هؤلاء فقال أبو بكر يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار. وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم مكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه، ومكني من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرمه عليهم ناراً فقال له العباس: قطعت رحمك فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبهم ثم دخل فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول ابن رواحة ثم خرج رسول الله ﷺ فقال: إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: فمن تبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال: إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ومثلك يا عمر مثل نوح قال: رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ومثلك يا عبد

﴿ الآنَ خَفَّفَ الله عنكم وعلمَ أنّ فيكم ضعفاً ﴾، أي: ضعفاً في الواحد عن قتال العشرة وفي المائة عن قتال الألف، وقرأ أبو جعفر: **﴿ ضعفاء ﴾** بفتح العين والمدّ على الجمع وقرأ الآخرون بسكون العين، **﴿ فإن يكن منكم مائة صابرة يغْلِبُوا مائتين ﴾**، من الكفّار، **﴿ وإنْ يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن اللّهِ والله مع الصابرين ﴾**، فردّ من العشرة إلى الاثنين فإن كان المسلمون على الشطر من عدوّهم لا يجوز لهم أن يفرّوا. وقال سفيان قال ابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا. قرأ أهل الكوفة: **﴿ وإنْ يكنْ منكم مائة ﴾**، بالياء فيهما وافق أهل البصرة في الأول والباقون بالتاء فيهما. وقرأ عاصم وحمزة **﴿ ضعفاء ﴾** بفتح الضاد ههنا وفي سورة الروم، والباقون بضمّها.

وقوله تعالى: **﴿ ما كان لنبيٍّ أنْ يكونَ له أسرى ﴾**، قرأ أبو جعفر وأهل البصرة: **﴿ تكون ﴾** بالتاء والباقون بالياء، وقرأ أبو جعفر: **﴿«أسارى»﴾**، والآخرون. **﴿ أسرى ﴾**، وروى الأعمش عن عمر بن مرّة عن أبي عبيدة عن

الله بن رواحة كمثل موسى قال: ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ثم قال رسول الله ﷺ: اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق قال عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله ﷺ وقال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: إلا سهيل بن بيضاء. قال ابن عباس قال عمر بن الخطاب: فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان فقلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله ﷺ: أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله ﷺ فأنزل الله عز وجل عليه: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ الآية خرج هذا الحديث الترمذي مختصراً وقال: في الحديث قصة وهي هذه القصة التي ذكرها البغوي. وأخرج مسلم في إفراده من حديث عمر بن الخطاب قال ابن عباس: لما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسارى فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب قال قلت: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه و تمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه وتمكنني من فلان ـ نسيب لعمر ـ فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر يبكيان فقلت يا رسول الله ﷺ أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال رسول الله ﷺ أبكي على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من نبي الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ إلى قوله ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ فأحل الله الغنيمة لهم ذكره الحميدي في مسنده عن عمر بن الخطاب من إفراد مسلم بزيادة فيه.

أما تفسير الآية، فقوله تعالى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى يعني ما كان ينبغي ولا يجب لنبي. وقال أبو عبيدة: معناه لم يكن لنبي ذلك فلا يكون لك يا محمد والمعنى ما كان لنبي أن يحبس كافراً قدر عليه وصار في يده أسيراً للفداء والمن، والأسرى جمع أسير وأسارى جمع الجمع ﴿حتى يثخن في الأرض﴾ الإثخان في كل شيء عبارة

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لمّا كان يوم بدر وجيء بالأسرى، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء»؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك فاستبقهم واستأذن بهم لعلّ الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفّار، وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كذّبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم، مكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، ومكّني من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وقال عبد الله بن رواحة يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم ناراً فقال له العباس قطعت رحمك، فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبهم، ثم دخل. قال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة، ثم خرج رسول الله ﷺ فقال: «إنّ الله تعالى ليليّن قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، ويشدّد قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: فمَن تبعني فإنه منّي ومَن عصاني فإنك غفور رحيم»، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال: ﴿ إنْ تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإن مثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿ ربِّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً ﴾ [نوح: ٢٦]، ومثلك يا عبد الله بن رواحة مثل موسى قال: ﴿ ربّنا اطمسْ على أموالهم واشْدُدْ على

عن قوته وشدته. يقال: أثخنه المرض إذ اشتدت قوته عليه والمعنى حتى يبالغ في قتال المشركين ويغلبهم ويقهرهم فإذا حصل ذلك فله أن يقدم على الأسر فيأسر الأسارى ﴿**تريدون عرض الدنيا**﴾ الخطاب لأصحاب النبي ﷺ يعني تريدون أيها المؤمنون عرض الدنيا بأخذكم الفداء من المشركين وإنما سمى منافع الدنيا عرضا لأنه لا ثبات لها ولا دوام فكأنها تعرض ثم تزول بخلاف منافع الآخرة فإنها دائمة الانقطاع لها، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**والله يريد الآخرة**﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم الدين لأنها دائمة بلا زوال ولا انقطاع ﴿**والله عزيز**﴾ لا يقهر ولا يغلب ﴿**حكيم**﴾ يعني في تدبير مصالح عباده. قال ابن عباس: كان ذلك يوم بدر والمؤمنون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله سبحانه وتعالى في الأسارى فأما مناً بعد وإما فداء فجعل الله نبيه ﷺ والمؤمنين بالخيار إن شاؤوا قتلوهم وإن شاؤوا استعبدوهم وإن شاؤوا فادوهم وإن شاؤوا أعتقوهم. قال الإمام فخر الدين: إن هذا الكلام يوهم أن قوله فأما مناً بعد وإما فداء يزيل حكم الآية التي نحن في تفسيرها وليس الأمر كذلك لأن كلتا الآيتين متوافقتان وكلتاهما تدلان على أنه لا بد من تقديم الإثخان ثم بعده أخذ الفداء. قال العلماء: كان الفداء لكل أسير أربعين أوقية والأوقية أربعون درهماً فيكون مجموع ذلك ألفاً وستمائة درهم. وقال قتادة: كان الفداء يومئذ لكل أسير أربعة آلاف درهم.

فصل

قد استدل بهذه الآية من يقدح في عصمة الأنبياء. وبيانه من وجوه:

الأول: أن قوله ماكان لنبي أن يكون له أسرى صريح في النهي عن أخذ الأسارى وقد وجد ذلك يوم بدر.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى أمر النبي ﷺ وقومه بقتل المشركين يوم بدر فلما لم يقتلوهم بل أسروهم دل ذلك على صدور الذنب منهم.

الوجه الثالث: أن النبي ﷺ حكم بأخذ الفداء وهو محرم وذلك ذنب.

الوجه الرابع: أن النبي ﷺ وأبابكر قعدا يبكيان لأجل أخذ الفداء وخوف العذاب وقرب نزوله.

والجواب عن الوجه الأول: أن قوله سبحانه وتعالى: ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض يدل على أنه كان الأسر مشروعاً ولكن بشرط الإثخان في الأرض وقد حصل لأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم قتلوا يوم بدر سبعين رجلاً من عظماء المشركين وصناديدهم وأسروا سبعين وليس من شرط الإثخان في الأرض قتل جميع الناس فدلت الآية على جواز الأسر بعد الإثخان وقد حصل.

قلوبهم ﴾ [يونس: ٨٨] الآية، ثم قال رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم عالة فلا يفلتنّ منهم أحد إلّا بفداء أو ضرب عنق»، قال عبد الله بن مسعود إلّا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلّا سهيل بن بيضاء». قال ابن عباس: قال عمر بن الخطاب فهوَى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلتُ، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أيّ شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة من رسول الله ﷺ»، وأنزل الله تعالى: ﴿ **ما كان لنبيٍّ أن يكونَ له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيباً** ﴾ فأحلّ الله الغنيمة لهم. بقوله: ﴿ **أسرى** ﴾ جمع أسير مثل قتلى وقتيل. قوله: ﴿ **حتى يُثخِنَ في الأرض** ﴾،

والجواب عن الوجه الثاني: أن الأمر بالقتل إنما كان مختصاً بالصحابة لإجماع المسلمين أن النبي ﷺ لم يؤمر بمباشرة قتال الكفار بنفسه وإذا ثبت أن الأمر بالقتل كان مختصاً بالصحابة كان الذنب صادراً منهم لا من النبي ﷺ.

والجواب عن الوجه الثالث: وهو أن النبي ﷺ حكم بأخذ الفداء وهو محرم فنقول لا نسلم أن أخذ الفداء كان محرماً وأما قوله سبحانه وتعالى تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ففيه عتاب لطيف على أخذ الفداء من الأسارى والمبادرة إليه ولا يدل على تحريم الفداء إذ لو كان حراماً في علم الله لمنعهم من أخذه مطلقاً.

والجواب عن الوجه الرابع: وهو أن النبي ﷺ وأبا بكر قعدا يبكيان يحتمل أن يكون لأجل أن بعض الصحابة لما خالف الأمر بالقتل واشتغل بالأسر استوجب بذلك الفعل العذاب فبكى النبي ﷺ خوفاً وإشفاقاً من نزول العذاب عليهم بسبب ذلك الفعل وهو الأسر وأخذ الفداء والله أعلم.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**﴾ قال ابن عباس: كانت الغنائم محرمة على الأنبياء والأمم فكانوا إذا أصابوا مغنماً جعلوه للقربان فكانت النار تنزل من السماء فتأكله فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في أخذ الغنائم والفداء فأنزل الله عز وجل: ﴿**لولا كتاب من الله سبق**﴾ يعني لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحل لكم الغنائم. ثم لمسكم **فيما** أخذتم عذاب عظيم وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحداً ممن شهد بدراً مع النبي ﷺ. وقال ابن جريج: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأنه لا يأخذ قوماً فعلوا بجهالة لمسكم يعني لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به عذاب عظيم قال محمد بن إسحاق: لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر بدراً إلا وأحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب فإنه أشار على رسول الله ﷺ بقتل الأسرى وسعد بن معاذ فإنه قال: يا رسول الله ﷺ كان

أي: ببالغ قتال المشركين وأسرهم، ﴿ **تُريدون** ﴾، أيها المؤمنون ﴿ **عَرَضَ الدنيا** ﴾، بأخذكم الفداء، ﴿ **واللَّهُ يُريدُ الآخرة** ﴾، يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصركم دين الله عزّ وجلّ، ﴿ **والله عزيزٌ حكيم** ﴾، وكان الفداء لكل أسير أربعين أُوقية، والأُوقية أربعون درهماً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتدّ سلطانهم أنزل الله في الأسارى: ﴿ **فإمّا مَنّاً بعدُ وإما فداء** ﴾ [محمد: ٤]، فجعل الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ والمؤمنين في أمر الأسارى بالخيار إن شاؤوا قتلوهم وإن شاؤوا أعتقوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادُوهم.

قوله تعالى: ﴿ **لولا كتابٌ منَ اللَّهِ سبقَ** ﴾، قال ابن عباس: كانت الغنائم حراماً على الأنبياء والأمم فكانوا إذا أصابوا شيئاً من الغنائم جعلوه للقربان، فكانت تنزل نار من السماء فتأكله، فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في الغنائم وأخذوا الفداء، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **لولا كتابٌ من الله سبق** ﴾ يعني لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحلّ لكم الغنائم. وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذّب أحداً ممّن شهد بدراً مع النبي ﷺ. وقال ابن جريج: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضلّ قوماً بعد إذْ هداهم حتى يُبيّنَ لهم ما يتّقون الآية، وأنه لا يأخذ قوماً فعلوا أشياء بجهالة. ﴿ **لمسّكم** ﴾، لنالكم وأصابكم، ﴿ **فيما أخذتُم** ﴾، من الفداء قبل أن تؤمروا به، ﴿ **عذابٌ عظيم** ﴾. قال ابن إسحاق: لم يكن من المؤمنين أحد ممّن أحضر إلّا حبّ

الإثخان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال فقال رسول الله ﷺ لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ.

وقوله تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ يعني قد أحلت لكم الغنائم وأخذ الفداء فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً.

روي أنه لما نزلت الآية الأولى كف أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزلت فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً فأحل الله الغنائم بهذه الآية لهذه الأمة وكانت قبل ذلك حراماً على جميع الأمم الماضية صح من حديث جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ولم تحل الغنائم لأحد قبلنا ثم أحل الله لنا الغنائم وذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ يعني وخافوا الله أن تعودوا وإن لم تفعلوا شيئاً من قبل أنفسكم قبل أن تؤمروا به واعلموا أن الله قد غفر لكم ما أقدمتم عليه من هذا الذنب ورحمكم وقيل في قوله واتقوا الله إشارة إلى المستقبل وقوله إن الله غفور رحيم إشارة إلى الحالة الماضية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم﴾ نزلن في العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة إلى بدر وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها إذ جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيئاً وبقيت العشرون أوقية معه فلما أسر أخذت منه، فكلم رسول الله ﷺ أن يحسب العشرين أوقية من فدائه فأبى رسول الله ﷺ

الغنائم إلّا عمر بن الخطاب فإنه أشار على رسول الله ﷺ بقتل الأسرى، وسعد بن معاذ قال: يا رسول الله كان الإثخان في القتل أحبّ إليّ من استيفاء الرجال، فقال رسول الله ﷺ: «لو نزل عذاب من السماء ما نجا منهم غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ».

فقال الله تعالى: ﴿ فكلوا ممّا غنِمتُم حلالاً طيباً واتّقوا اللّهَ إنّ اللّهَ غفورٌ رحيم ﴾، رُوِيَ أنه لمّا نزلت الآية الأولى كفّ أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عمّا أخذوا من الفداء فنزل: ﴿ فكلوا ممّا غنمتم ﴾ الآية. وروينا عن جابر رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «أُحلّتْ لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي»، أخبرنا حسّان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسين القطّان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزّاق أنبأنا معمر عن هشام ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحلّ الغنائمُ لأحد من قبلنا، ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيّبها لنا».

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها النبيّ قلْ لمَن في أيديكم من الأسرى ﴾، قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: « من الأسارى » بالألف والباقون بلا ألف، نزلت في العباس بن عبد المطلب وكان أُسِر يوم بدر، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا طعام أهل بدر وكان يوم بدر نوبته، وكان قد خرج بعشرين أُوقية من الذهب ليطعم بها الناس، فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا وبقيت العشرون أُوقية معه، فأُخذتْ منه في الحرب، فكلّم النبي ﷺ أن يحتسب العشرين أُوقية من

وقال: أما شيء خرجت به لتستعين به علينا فلا أتركه لك. وكلف فداء ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث فقال العباس: يا محمد تتركني أتكفف قريشاً ما بقيت. فقال رسول الله ﷺ: فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيدالله وللفضل وقثم يعني بنيه. فقال العباس: وما يدريك يا ابن أخي قال: أخبرني به ربي قال العباس: أشهد أنك لصادق وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله لم يطلع عليه أحد إلا الله وأمر ابني أخيه عقيل ونوفل بن الحارث فأسلما فذلك قوله سبحانه وتعالى: يا أيها النبي قل لمن في أيديكم ﴿من الأسرى﴾ يعني الذين أسرتموهم وأخذتم منهم الفداء ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خير﴾ يعني إيماناً وتصديقاً ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ يعني من الفداء ﴿ويغفر لكم﴾ يعني ما سلف منكم قبل الإيمان ﴿والله غفور﴾ يعني لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه ﴿رحيم﴾ يعني بأهل طاعته قال العباس: فأبدلني الله خيراً مما أخذ مني عشرين عبداً كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربي عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وإن يريدوا﴾ يعني الأسارى ﴿خيانتك﴾ يعني أن يكفروا بك ﴿فقد خانوا الله﴾ يعني فقد كفروا بالله ﴿من قبل﴾ وقيل معناه وإن نقضوا العهد ورجعوا إلى الكفر فقد خانوا الله بذلك ﴿فأمكن﴾ يعني فأمكن الله المؤمنين ﴿منهم﴾ ببدر حتى قتلوا منهم وأسروا منهم وهذا نهاية الإمكان وفيه بشارة للنبي ﷺ بأنه يتمكن من كل أحد يخونه أو ينقض عهده ﴿والله عليم﴾ يعني بما في بواطنهم وضمائرهم من إيمان وتصديق أو خيانة ونقض عهد ﴿حكيم﴾ يعني حكم بأنه يجازي كلاً بعمله الخير بالثواب والشر بالعقاب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ

فدائه فأبى وقال: «أما شيء خرجتَ تستعينُ به علينا فلا أتركه لك»، وكلّف فداء بني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال العباس: يا محمد تركتني أتكفّف قريشاً ما بقيت؟ فقال رسول الله ﷺ: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أُم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: إنّي لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم»، يعني الأربعة، فقال له العباس: وما يدريك؟ قال: «أخبرني به ربّي عزّ وجلّ»، قال العباس: أشهد أنك صادق! وقال: لا إله إلّا الله وإنك عبده ورسوله، ولم يطلع عليه أحد إلّا الله عزّ وجلّ، فذلك قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي قل لمَن في أيديكم من الأسرى ﴾ الذين أخذت منهم الفداء ﴿ إنْ يعلمِ اللّهُ في قلوبِكم خيراً ﴾، أي: إيماناً، ﴿ يؤتكم خيراً ممّا أُخِذَ منكم ﴾، من الفداء، ﴿ ويغفرْ لكم ﴾، ذنوبكم ﴿ والله غفورٌ رحيم ﴾، قال العباس رضي الله عنه: فأبدلني الله عنها عشرين عبداً كلّهم تاجر يضرب بمال كثير وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان عشرين أُوقية، وأعطاني زمزم وما أُحبّ أن لي بها جميع أموال مكة، أنا أنتظر المغفرة من ربّي عزّ وجلّ.

قوله: ﴿ وإنْ يُريدوا خيانتك ﴾، يعني الأسارى، ﴿ فقدْ خانُوا اللّهَ منْ قبلُ فأمكن منهم ﴾، ببدر، ﴿ والله عليم حكيم ﴾، قال ابن جريج: أراد بالخيانة الكفر، أي: إن كفروا بك فقد كفروا بالله من قبل فأمكن منهم المؤمنين ببدر حتى قتلوهم وأسروهم، وهذا تهديد لهم إن عادوا إلى قتال المؤمنين ومعاداتهم.

بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾

قوله عز وجل: ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله**﴾ يعني إن الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا بما جاءهم به وهاجروا يعني وهجروا ديارهم وقومهم في ذات الله عز وجل وابتغاء رضوان الله وهم المهاجرون الأولون وجاهدوا يعني وبذلوا أنفسهم في سبيل الله يعني في طاعة الله وابتغاء رضوانه ﴿**والذين آووا ونصروا**﴾ يعني آووا رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه من المهاجرين وأسكنوهم منازلهم ونصروا رسول الله ﷺ وهم الأنصار ﴿**أولئك**﴾ يعني المهاجرين والأنصار ﴿**بعضهم أولياء بعض**﴾ يعني في العون والنصر دون أقربائهم من الكفار وقال ابن عباس: في الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون أقربائهم وذوي أرحامهم وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالأرحام حيثما كانوا فصار ذلك منسوخاً بقوله تعالى وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله.

وقوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا ولم يهاجروا**﴾ يعني آمنوا وأقاموا بمكة ﴿**ما لكم من ولايتهم من شيء**﴾ يعني من الميراث ﴿**حتى يهاجروا**﴾ يعني إلى المدينة ﴿**وإن استنصروكم في الدين**﴾ يعني استنصركم الذين آمنوا ولم يهاجروا ﴿**فعليكم النصر**﴾ يعني فعليكم نصرهم وإعانتهم ﴿**إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾ أي عهد فلا تنصروهم عليهم ﴿**والله بما تعملون بصير والذين كفروا بعضهم أولياء بعض**﴾ يعني في النصر والمعونة وذلك أن كفار قريش كانوا معادين لليهود فلما بعث رسول الله ﷺ تعاونوا عليه جميعاً قال ابن عباس: يعني في الميراث وهو أن يرث الكفار بعضهم من بعض ﴿**إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**﴾ قال ابن عباس: إلا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم به، وقال ابن جريج إلا تتعاونوا وتتناصروا وقال ابن إسحاق: جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون من سواهم وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض ثم قال سبحانه وتعالى إلا تفعلوه وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمنين تكن فتنة في الأرض وفساد كبير فالفتنة في الأرض هي قوة الكفار والفساد الكبير هو ضعف المسلمين ﴿**والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً**﴾ يعني لا شك في إيمانهم ولا ريب لأنهم حققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذل النفس والمال في نصر الدين ﴿**لهم مغفرة**﴾ يعني لذنوبهم ﴿**ورزق كريم**﴾ يعني في الجنة.

قوله تعالى: ﴿ **إنّ الذين آمنوا وهاجروا** ﴾، أي: هجروا قومهم وديارهم، يعني المهاجرين من مكة، ﴿ **وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين ءاوَوْا** ﴾ رسول الله ﷺ والمهاجرين معه، أي: أسكنوهم منازلهم، ﴿ **ونصرُوا** ﴾ أي: نصروهم على أعدائهم وهم الأنصار رضي الله عنهم، ﴿ **أولئك بعضُهم أولياءُ بعض** ﴾، دون أقربائهم من الكفّار. قيل: في العون والنصرة. وقال ابن عباس: في الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة، فكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون ذوي الأرحام، وكان مَن آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة انقطعت الهجرة وتوارثوا بالأرحام حيث ما كانوا، وصار ذلك منسوخاً بقوله عزّ وجلّ: ﴿ وأُولوا الأرحامِ بعضُهم أوْلَى ببعضٍ في كتابِ الله ﴾ [الأنفال: ٧٥]، ﴿ **والذينَ آمنُوا ولم يهاجرُوا ما لكمْ مِّن ولايتهم من شيءٍ** ﴾، يعني في الميراث، ﴿ **حتى يُهاجروا** ﴾، قرأ حمزة ﴿ **ولايتهم** ﴾ بكسر الواو والباقون بالفتح، وهما واحد كالدلالة والدلالة. ﴿ **وإنِ استنصروكم في الدين** ﴾، أي: استنصركم المؤمنون الذين لم يهاجروا، ﴿ **فعليكم النّصرُ إلّا على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق** ﴾، عهد فلا تنصروهم عليهم، ﴿ **واللّهُ بما تعملون بصير** ﴾.

فإن قلت ما معنى هذا التكرار؟ قلت ليس فيه تكرار لأنه سبحانه وتعالى ذكر في الآية الأولى حكم ولاية المهاجرين والأنصار بعضهم بعضاً ثم ذكر في هذه الآية ما منَّ به عليهم من المغفرة والرزق الكريم وقيل إن إعادة الشيء مرة بعد أخرى تدل على مزيد الاهتمام به فلما ذكرهم أولاً ثم أعاد ذكرهم ثانياً دل ذلك على تعظيم شأنهم وعلو درجـاتهم وهذا هو الشرف العظيم لأنه تعالى ذكر في هذه الآية من وجوه المدح ثلاث أنواع:

أحدها: قوله أولئك هم المؤمنون حقاً وهذا يفيد الحصر وقوله سبحانه وتعالى حقاً يفيد المبالغة في وصفهم بكونهم محقين في طريق الدين وتحقيق هذا القول أن من فارق أهله وداره التي نشأ فيها وبذل النفس والمال كان مؤمناً حقاً.

النوع الثاني: قوله سبحانه وتعالى لهم مغفرة وتنكير لفظ المغفرة يدل على أن لهم مغفرة وأي مغفرة لا ينالها غيرهم والمعنى لهم مغفرة تامة كاملة ساترة لجميع ذنوبهم.

النوع الثالث: قوله سبحانه وتعالى ورزق كريم فكل شيء شرف وعظم في بابه قيل له كريم والمعنى أن لهم في الجنة رزقاً لا تلحقهم فيه غضاضة ولا تعب.

وقيل: إن المهاجرين كانوا على طبقات فمنهم من هاجر أولاً إلى المدينة وهم المهاجرون الأولون ومنهم من هاجر إلى أرض الحبشة ثم هاجر إلى المدينة فهم أصحاب الهجرتين ومنهم من هاجر بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة فذكر الله في الآية الأولى أصحاب الهجرة الأولى وذكر في الثانية أصحاب الهجرة الثانية، والله أعلم بمراده.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم**﴾ اختلفوا في قوله من بعد فقيل من بعد صلح الحديبية وهي الهجرة الثانية وقيل من نزول هذه الآية وقيل من بعد غزوة بدر والأصح أن المراد به أهل الهجرة الثانية لأنها بعد الهجرة الأولى لأن الهجرة انقطعت بعد فتح مكة لأنها صارت دار إسلام بعد الفتح ويدل عليه قوله ﷺ «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» أخرجاه في الصحيحين وقال الحسن الهجرة غير منقطعة.

ويجاب عن هذا بأن المراد منه الهجرة المخصوصة من مكة إلى المدنية فأما من كان من المؤمنين في بلد يخاف على إظهار دينه في كثرة الكفار وجب عليه أن يهاجر إلى بلد لا يخاف على إظهار دينه وقوله تعالى: ﴿**فأولئك منكم**﴾

﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ﴾، في العون والنصرة. وقال ابن عباس: في الميراث، أي: يرث المشركون بعضهم من بعض، ﴿ **إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض** ﴾، قال ابن عباس: ألّا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم به. وقال ابن جريج: ألّا تعاونوا وتناصروا. وقال ابن إسحاق: جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون مَن سواهم، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، ثم قال: ﴿ **إلّا تفعلوه** ﴾، وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمن ﴿ **تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبير** ﴾، فالفتنة في الأرض قوة الكفر، والفساد الكبير ضعف الإسلام.

﴿ **والذينَ آمنوا وهاجرُوا وجاهدُوا في سبيلِ اللّهِ والذينَ آوَوا ونصروا أولئك هُمُ المؤمنونَ حقاً** ﴾ لا مرية ولا ريب في إيمانهم. قيل: حقّقوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذلِ المال في الدين، ﴿ **لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم** ﴾، الجنة. فإن قيل: أي معنى في تكرار هذه الآية؟ قيل: المهاجرون كانوا على طبقات فكان بعضهم أهل الهجرة

يعني أنهم منكم وأنتم منهم لكن فيه دليل على أن مرتبة المهاجرين الأولين أشرف وأعظم من مرتبة المهاجرين المتأخرين بالهجرة لأن الله سبحانه وتعالى ألحق المهاجرين المتأخرين بالمهاجرين السابقين وجعلهم منهم وذلك معرض المدح والشرف ولولا أن المهاجرين الأولين أفضل وأشرف لما صح هذا الإلحاق.

وقوله تعالى: ﴿**وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾ قال ابن عباس: كانوا يتوارثون بالهجرة والإخاء حتى نزلت هذه الآية وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض أي في الميراث أي فبين بهذه الآية أن سبب القرابة أقوى وأولى من سبب الهجرة والإخاء ونسخ بهذه الآية ذلك التوارث وقوله في كتاب الله يعني في حكم الله وقيل أراد به في اللوح المحفوظ وقيل أراد به القرآن وهي أن قسمة المواريث مذكورة في سورة النساء من كتاب الله وهو القرآن وتمسك أصحاب الإمام أبي حنيفة بهذه الآية في توريث ذوي الأرحام.

وأجاب عنه الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه بأنه لما قال في كتاب الله كان معناه في حكم الله الذي بينه في سورة النساء فصارت هذه الآية مقيدة بالأحكام التي ذكرها في سورة النساء من قسمة المواريث وإعطاء أهل الفروض فروضهم وما بقي فللعصبات.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن الله بكل شيء عليم**﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بكل شيء لا تخفى عليه خافية والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الأولى وهم الذين هاجروا قبل الحديبية، وبعضهم أهل الهجرة الثانية وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية قبل فتح مكة، وكان بعضهم ذا هجرتين هجرة الحبشة والهجرة إلى المدينة، فالمراد من الآية الأولى الهجرة الأولى، ومن الثانية الهجرة الثانية.

قوله: ﴿ **والذين آمنوا من بعدُ وهاجرُوا وجاهدُوا معكم فأولئك منكم** ﴾ أي: معكم، يريد أنتم منهم وهم منكم، ﴿ **وأولوا الأرْحام بعضُهم أوْلَى ببعض** ﴾، وهذا نسخ التوارث بالهجرة وردّ الميراث إلى ذوي الأرحام. قوله: ﴿ **في كتابِ الله** ﴾، أي: في حكم الله عزّ وجلّ. وقيل: أراد بكتاب الله القرآن، يعني: القسمة التي بيّنها في سورة النساء، ﴿ **إنّ اللّهَ بكلّ شيءٍ عليمٌ** ﴾.

تفسير سورة التوبة

وهي مدنية بإجماعهم قال ابن الجوزي: سوى آيتين في آخرها لقد جاءكم رسول من أنفسكم فإنهما نزلتا بمكة وهي مائة وتسع وعشرون آية وقيل مائة وثلاثون آية وأربعة آلاف وثمان وسبعون كلمة وعشرة آلاف وأربعة وثمانون حرفاً ولهذه السورة أسماء عشرة التوبة وسورة براءة وهذان الاسمان مشهوران وهي المقشقشة قاله ابن عمر سميت بذلك لأنها تقشقش من النفاق أي تبرىء منه وهي المبعثرة لأنها تبعثر عن أخبار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها والفاضحة قاله ابن عباس لأنها فضحت المنافقين وسورة العذاب قاله حذيفة وهي المخزية لأن فيها خزي المنافقين وهي المدمدمة سميت بذلك لأن فيها هلاك المنافقين وهي المشردة سميت بذلك لأنها شردت جموع المنافقين وفرقتهم وهي المثيرة سميت بذلك لأنها أثارت مخازي المنافقين وكشفت عن أحوالهم وهتكت أستارهم.

عن سعيد بن جبير: قال قلت لابن عباس سورة التوبة فقال بل هي الفاضحة ما زالت تقول ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها قال قلت سورة الأنفال قال نزلت في بدر قال قلت سورة الحشر قال بل سورة بني النضير أخرجاه في الصحيحين.

(فصل في بيان سبب ترك كتابة التسمية في أول هذه السورة)

عن ابن عباس قال: قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال ما حملكم على ذلك؟ قال عثمان: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وإذا نزلت عليه الآية يقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها وظننت أنها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها أو من غيرها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال أخرجه أبو داود والترمذي، وقال حديث حسن. قال الزجاج: والشبه الذي بينهما في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نقضها وكان قتادة يقول: هما سورة

سُوْرَةِ التوْبَـــة

قال مقاتل: هذه السورة مدنية كلها إلاّ آيتين من آخر السورة. قال سعيد بن جبير: قلتُ لابن عباس سورة التوبة؟ قال: هي الفاضحة ما زالت تنزل فيهم حتى ظنوا أنها لم تبقِ أحداً منهم إلا ذكر فيها، قال: قلتُ: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بـدر، قال: قلتُ: سورة الحشر؟ قال: قل: سورة بني النضير. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحق أحمد بن محمد إبراهيم الثعلبي أنبأنا أبو الحسين علي بن محمد بن الحسين الجرجاني أنبأنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ أنبأنا أحمد بن علي بن المثنى ثنا عبيد الله القواريري ثنا يزيد بن

واحدة وقال محمد بن الحنفية: قلت لأبي يعني علي بن أبي طالب لم لم تكتبوا في براءة بسم الله الرحمن الرحيم قال يا بني إن براءة نزلت بالسيف وأن بسم الله الرحمن أمان وسئل سفيان بن عيينة عن هذا فقال لأن التسمية رحمة والرحمة أمان وهذه السورة نزلت في المنافقين وقال المبرد لم تفتتح هذه السورة الشريفة ببسم الله الرحمن الرحيم لأن التسمية افتتاح للخير وأول هذه السورة وعيد ونقض عهود فلذلك لم تفتتح بالتسمية وسئل أبي بن كعب عن هذا فقال إنها نزلت في آخر القرآن وكان رسول الله ﷺ يأمر في كل سورة بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم ولم يأمر في براءة بذلك فضمت إلى الأنفال لشبهها بها وقيل إن الصحابة اختلفوا في أن سورة الأنفال وسورة براءة هل هما سورة واحدة أم سورتان فقال بعضهم سورة واحدة لأنهما نزلتا في القتال ومجموعها معاً مائتان وخمس آيات فكانت هي السورة السابعة من السبع الطوال وقال بعضهم هما سورتان فلما حصل هذا الاختلاف بين الصحابة تركوا بينهما فرجة تنبيهاً على قول من يقول إنهما سورتان ولم يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم تنبيهاً على قول من يقول هما سورة واحدة أما التفسير فقوله تعالى:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾

﴿**براءة من الله ورسوله**﴾ يعني هذه براءة من الله ورسوله وأصل البراءة في اللغة انقطاع العصمة يقال برئت من فلان أبرأ براءة أي انقطعت بيننا العصمة ولم يبق بيننا علقة وقيل معناها التباعد مما تكره مجاورته قال المفسرون لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم وذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾ الآية ففعل رسول الله ﷺ ما أمر به ونبذ إليهم عهودهم قال الزجاج: أي قد برىء الله ورسوله من إعطائهم العهود والوفاء بها إذا نكثوا ﴿**إلى الذين عاهدتم من المشركين**﴾ الخطاب مع أصحاب النبي ﷺ وإن كان النبي ﷺ هو الذي عاهدهم وعاقدهم إلا أنه هو الذي عاقدهم وأصحابه بذلك راضون فكأنهم هم عقدوا وعاهدوا.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فسيحوا في الأرض**﴾ أي فسيروا في الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحداً من المشركين وأصل السياحة الضرب من الأرض والاتساع فيها والبعد عن مواضع العمارة قال ابن الأنباري: قوله فسيحوا

زريع ثنا عوف بن أبي جميلة الأعرابي حدّثني يزيد الفارسي حدّثني ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعثمان بن عفّان رضي الله عنه: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان: إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فإذا نزل عليه الشيء يدعو بعض مَن يكتب عنده فيقول: «ضعوا هذه الآية في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا بالمدنية»، وكانت براءة من آخر ما نزل، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنها منها فمن ثَمَّ قرنتُ بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتُها في السبع الطوال.

قوله تعالى: ﴿ **براءةٌ منَ اللَّهِ ورسولِهِ** ﴾، أي: هذه براءة من الله. وهي مصدر كالنشاة والدناءة. قال المفسّرون: لمّا خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمر الله عزّ وجلّ بنقض عهودهم، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإمّا تخافنّ من قومٍ خيانةً ﴾ [الأنفال: ٥٨] الآية. قال الزجّاج: براءة أي: قد برىء اللَّهُ ورسولُهُ من إعطائهم العهود والوفاء لهم بها إذا

فيه مضمر أي قل لهم فسيحوا وليس هذا من باب الأمر بل المقصود منه الإباحة والإطلاق والإعلام بحصول الأمان وزوال الخوف يعني سيحوا في الأرض وأنتم آمنون من القتل والقتال ﴿أربعة أشهر﴾ يعني مدة أربعة أشهر واختلف العلماء في هذا التأجيل وفي هؤلاء الذين برىء الله ورسوله إليهم من العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ فقال مجاهد: هذا التأجيل من الله للمشركين فمن كانت مدة عهده أقل من أربعة أشهر رفعه إلى أربعة أشهر ومن كانت مدته أكثر حطه إلى أربعة أشهر ومن كان عهده بغير أجل معلوم محدود حده بأربعة أشهر ثم هو بعد ذلك حربٌ لله ولرسوله يقتل حيث أدرك ويؤسر إلا أن يتوب ويرجع إلى الإيمان، وقيل: إن المقصود من هذا التأجيل أن يتفكروا ويحتاطوا لأنفسهم ويعلموا أنه ليس لهم بعد هذه المدة إلا الإسلام أو القتل فيصير هذا داعياً لهم إلى الدخول في الإسلام ولئلا ينسب المسلمون إلى الغدر ونكث العهد وكان ابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من ربيع الآخر.

فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحرم وذلك خمسون يوماً قال الزهري الأشهر الأربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لأن هذه الآية نزلت في شوال والقول الأول أصوب وعليه الأكثرون. وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة أشهر عهداً لمن كان له عهد دون الأربعة أشهر فأتم له الأربعة أشهر.

فأما من كان عهده أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر بإتمام عهده بقوله تعالى: ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ وقيل كان ابتداؤها في العاشر من ذي القعدة وآخرها العاشر من ربيع الأول لأن الحج في تلك السنة كان في العاشر من ذي القعدة بسبب النسيء ثم صار في السنة المقبلة في العاشر من ذي الحجة وفيها حج رسول الله ﷺ وقال «إن الزمان قد استدار» الحديث قال الحسن: أمر الله عز وجل رسول الله ﷺ بقتال من قاتله من المشركين فقال تعالى: ﴿قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ فكان لا يقاتل إلا من قاتله ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم وأجلهم أربعة أشهر فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر لا من كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد وكان الأجل لجميعهم

نكثوا، ﴿إلى الذينَ عاهدتُم مِّن المشركين﴾، الخطاب مع أصحاب النبي ﷺ وإن كان النبي ﷺ هو الذي عاهدهم وعاقدهم، لأنه وأصحابه راضون بذلك، فكأنهم عاقدوا وعاهدوا.

﴿فسيحوا في الأرض﴾، رجع من الخبر إلى الخطاب، أي: قلْ لهم سيحوا أي سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين أحداً من المسلمين، **﴿أربعة أشهر واعْلموا أنّكم غير مُعجِزي الله﴾**، أي: غير فائتين ولا سابقين، **﴿وأنّ اللّهَ مُخزي الكافرين﴾**، أي: مذلّهم بالقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة. واختلف العلماء في هذا التأجيل وفي هؤلاء الذي برىء الله ورسوله إليهم من العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ. فقال جماعة: هذا تأجيل من الله تعالى للمشركين، فمَن كانت مدّةُ عهده أقلَّ من أربعة أشهر رفعه إلى أربعة أشهر، ومَن كانت مدته أكثر من أربعة أشهر حطّه إلى أربعة أشهر، ومَن كانت مدة عهده بغير أجل محدود حدّه بأربعة أشهر، ثم هو حرب بعد ذلك لله ورسوله، فيُقتل حيث يُدرك ويؤثر، إلاّ أن يتوب، وابتداء هذا الأجل يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر، فأما مَن لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحُرُم، وذلك خمسون يوماً. وقال الزهري: الأشهر الأربعة شوّال وذو القعدة وذو الحجة والمحرّم، لأن هذه الآية نزلت في شوّال، والأول هو الأصوب وعليه الأكثرون، وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمَن كان له عهد دون أربعة أشهر فأتمّ له أربعة أشهر، فأمّا مَن كان له عهداً أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر بإتمام عهده بقوله تعالى: **﴿فأتِمُّوا إليهم عهدَهم إلى مُدّتِهم﴾** [التوبة: ٤]. قال الحسن: أمر الله عزّ وجلّ رسولَه ﷺ بقتال مَن قاتله من المشركين، فقال: **﴿قاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونَكم﴾** [البقرة: ١٩٠]، فكان لا يقاتل إلاّ مَن قاتله ثم أمره بقتال المشركين، والبراءة منهم، وأجلهم أربعة أشهر، فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر لا مَن كان له عهد قبل البرء ولا مَن لم يكن له عهد،

أربعة أشهر وأحل دماء جميعهم من أهل العهود وغيرهم بعد انقضاء الأجل وقال محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما: نزلت في أهل مكة وذلك أن رسول الله ﷺ عاهد قريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخل بنو بكر في عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة فنالت منهم وأعانتهم قريش بالسلاح فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى وقف على رسول الله ﷺ وقال:

لا هـم إنـي نـاشـد محمـداً ... حلـف أبينـا وأبيـه الأتلـدا
كنـت لنـا أبـاً وكنـا ولـدا ... ثمـت أسلمنـا ولـم ننـزع يـدا
فـانصـر هـداك الله نصـراً أبـدا ... وادع عبـاد الله يـأتـوا مـددا
فيهـم رسـول الله قـد تجـردا ... فـي فليـق كـالبحـر يجـري مـزبـدا
أبيـض مثـل الشمـس يسمـو صعـدا ... إن سيـم خسفـا وجهـه تـربـدا
إن قـريشـاً أخلفـوك المـوعـدا ... ونقضـوا ميثـاقـك المـؤكـدا
وزعمـوا أن لسـت تنجـى أحـداً ... وهـم أذل وأقـل عـددا
هـم بيتـونـا بـالحطيـم هجـدا ... وقتلـونـا ركعـاً وسجـدا

فقال رسول الله ﷺ: لانصرت إن لم أنصركم. وتجهز إلى مكة ففتحها سنة ثمان من الهجرة فلما كانت سنة تسع أراد رسول الله ﷺ أن يحج فقيل له المشركون يحضرون ويطوفون بالبيت عراة فقال: لا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك فبعث أبا بكر في تلك السنة أميراً على الموسم ليقيم للناس الحج وبعث معه أربعين آية من سورة براءة ليقرأها

فكان الأجل لجميعهم أربعة أشهر. وأحلّ دماء جميعهم من أهل العهد وغيرهم بعد انقضاء الأجل. وقيل: نزلت هذه قبل تبوك. قال محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما: نزلت في أهل مكة وذلك أن رسول الله ﷺ عاهد قريشاً عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخل بنو بكر في عهد قريش ثم عَدَتْ بنو بكر على خزاعة فنالت منها وأعانتهم قريش بالسلاح، فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى وقف على رسول الله ﷺ وقال:

لا هـمّ إنّي نـاشـدٌ مـحـمـداً ... حـلفَ أبـيـنـا وأبـيـه الأتـلـدا
فـانصـرْ هـداك الله نصـراً أبـداً ... وادعُ عـبـادَ الله يـأتـوا مـدداً
أبيض مثل الشمس يسمو صعداً ... إن سيم خسفـاً وجهـهُ تـربّـدا
هم بيّتونا بـالهجير هـجّـدا ... وقـتـلونـا ركّـعـاً وسـجّـدا
كـنـت لـنـا أبـاً وكـنّـا ولـداً ... ثـمت أسلمنا ولـم نـنـزع يـدا
فـيـهـم رسـولُ الله قـدْ تـجـرّدا ... في فَلَيقٍ كـالبحر يجري مُزْبدا
إن قـريشـاً أخلفـوك المـوعـدا ... ونـقـضـوا مـيـثـاقـك المـؤكـدا
وزعمـوا أن لستَ تنجي أحـداً ... وهـم أذلّ وأقـلّ عـدداً

فقال رسول الله ﷺ: «لا نصرتُ إنْ لم أنصركم»، وتجهّز إلى مكة سنة ثمانٍ من الهجرة، فلما كان سنة تسع أراد رسول الله ﷺ أن يحجّ ثم قال: «إنه يحضر المشركون فيطوفون عراة» فبعث أبا بكر تلك السنة أميراً على الموسم ليقيم للناس الحج، وبعث معه أربعين آية من صدر براءة ليقرأها على أهل الموسم، ثم بعث بعده علياً كرّم

على أهل الموسم ثم بعث بعده علياً على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة أن قد برئت ذمة الله ورسوله ﷺ من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنزل في شأني شيء فقال: لا ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنك معي على الحوض؟ قال: بلى يا رسول الله فسار أبو بكر أميراً على الحجاج وعلي بن أبي طالب يؤذن ببراءة فلما كان قبل التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس وحدثهم عن مناسكهم فأقام للناس الحج والعرب في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من أمر الحج حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأذن في الناس بالذي أمر به وقرأ عليهم أول سورة براءة وقال يزيد بن تبيع سألنا علياً بأي شيء بعثت في الحجة قال بعثت بأربع لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدته ومن يكون له عهده فأجله أربعة أشهر ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا في حج ثم حج النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع (ق). عن أبي هريرة أن أبا بكر بعثه في الحجة التي أمره رسول الله ﷺ عليها قبل حجة الوداع في رهط يؤذن في الناس يوم النحر أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفي رواية ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فأذن معنا في أهل منى ببراءة أن لا يحج بالبيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وفي رواية ويوم الحج الأكبر يوم النحر والحج الأكبر الحج وإنما قيل الحج الأكبر من أجل قول الناس للعمرة الحج الأصغر قال فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك فلم يحج في العام القابل الذي حج فيه حج فيه النبي ﷺ حجة الوداع مشرك وأنزل الله في العام الذي نبذ فيه أبو بكر إلى المشركين **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾** الآية.

(فصل)

قد يتوهم متوهم أن في بعث علي بن أبي طالب بقراءة أول براءة عزل أبي بكر عن الإمارة وتفضيله على أبي بكر وذلك جهل من هذا المتوهم ويدل على أن أبا بكر لم يزل أميراً على الموسم في تلك السنة أول حديث أبي هريرة المتقدم أن أبا بكر بعثه في رهط يؤذنون في الناس الحديث وفي لفظ أبو داود والنسائي قال بعثني أبو بكر فيمن يؤذن في يوم النحر بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان فقوله بعثني أبو بكر فيه دليل على أن أبا بكر كان هو الأمير على الناس وهو الذي أقام للناس حجهم وعلمهم مناسكهم وأجاب العلماء عن بعث رسول الله ﷺ علياً

الله وجهه على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة، وأمره أن يُؤذّن بمكة ومنى وعَرَفَة أن قد برئت ذمّة الله وذمّة رسوله ﷺ من كل مشرك لا يطوف بالبيت عريان، فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنزل في شأني شيء؟ قال: «لا ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلّا رجل من أهلي أمَا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنك صاحبي على الحوض»؟ قال: بلى يا رسول الله، فسار أبو بكر رضي الله عنه أميراً على الحج وعليّ رضي الله عنه ليُؤذّن ببراءة، فلما كان قبل يوم التروية بيوم خطب أبو بكر الناس وحدّثهم عن مناسكهم، وأقام للناس الحج والعرب في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من الحج، حتى إذا كان يوم النحر قام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه فأذّن في الناس بالذي أمر به وقرأ عليهم سورة براءة، وقال زيد بن تبيع: سألنا علياً بأيّ شيء بعثت في تلك الحجّة؟ قال: بُعثتُ بأربع لا يطوف بالبيت عريان ومَن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدته، ومَن لم يكن له مدة فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلّا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا. ثم حجّ النبي ﷺ سنة عشر حجّة الوداع. فإن قال قائل: كيف بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه ثم عزله وبعث علياً رضي الله عنه؟ قلنا: ذكر العلماء أن رسول الله ﷺ لم يعزل أبا بكر رضي الله عنه، وكان

ليؤذن في الناس ببراءة بأن عادة العرب جرت أن لا يتولى تقرير العهد ونقضه إلا سيد القبيلة وكبيرها أو رجل من أقاربه وكان علي بن أبي طالب أقرب إلى النبي ﷺ من أبي بكر لأنه ابن عمه ومن رهطه فبعثه النبي ﷺ ليؤذن عنه ببراءة إزاحة لهذه العلة لئلا يقولوا هذا على خلاف ما نعرفه من عادتنا في عقد العهود ونقضها وقيل لما خص أبا بكر بتوليته على الموسم خص علياً بتبليغ هذه الرسالة تطييباً لقلبه ورعاية لجانبه وقيل إنما بعث علياً في هذه الرسالة حتى يصلي خلف أبي بكر ويكون جارياً مجرى التنبيه على إمامة أبي بكر بعد رسول الله ﷺ لأن النبي ﷺ بعث أبا بكر أميراً على الحجاج وولاه الموسم وبعث علياً خلفه ليقرأ على الناس براءة فكان أبو بكر الإمام وعلي المؤتم وكان أبو بكر الخطيب وعلي المستمع وكان أبو بكر المتولي أمر الموسم والأمير على الناس ولم يكن ذلك لعلي فدل ذلك على تقديم أبي بكر على علي وفضله عليه والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ يعني أن هذا الإمهال ليس لعجز عنكم ولكن لمصلحة ولطف بكم ليتوب تائب وقيل: معناه فسيحوا في الأرض أربعة أشهر عالمين أنكم لا تعجزون الله بل هو يعجزكم ويأخذكم لأنكم في ملكه وقبضته وتحت قهره وسلطانه وقيل معناه إنما أمهلكم هذه المدة لأنه لا يخاف الفوت ولا يعجزه شيء ﴿وأن الله مخزي الكافرين﴾ يعني بالقتل والعذاب في الآخرة.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وأذان من الله ورسوله﴾ الأذان في اللغة الإعلام ومنه الأذان للصلاة لأنه إعلام بدخول وقتها والمعنى وإعلام صادر من الله ورسوله واصل ﴿إلى الناس يوم الحج الأكبر﴾ اختلفوا في يوم الحج الأكبر فروى عكرمة عن ابن عباس أنه يوم عرفة ويروى ذلك عن ابن عمر وابن الزبير وهو قول عطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب وعن علي بن أبي طالب قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر فقال: يوم النحر أخرجه الترمذي وقال ويروى موقوفاً عليه وهو أصح وعن عمر أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها فقال: أي يوم هذا، فقالوا يوم النحر فقال: هذا يوم الحج الأكبر أخرجه أبو داود ويروى ذلك عن عبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير والسدي.

أميراً وإنما بعث علياً رضي الله عنه لينادي بهذه الآيات، وكان السبب فيه أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلّا سيدهم أو رجل من رهطه، فبعث علياً رضي الله عنه إزاحة للعلّة لئلا يقولوا هذا خلاف ما نعرفه فينا في نقض العهد، والدليل على أن أبا بكر رضي الله عنه كان هو الأمير ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحاق ثنا يعقوب بن إبراهيم ثنا ابن أخي ابن شهاب عن عمّه أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في مؤذّنين يوم النحر نؤذّن بمنى ألّا لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف رسول الله ﷺ علياً فأمره أن يؤذّن ببراءة قال أبو هريرة: فأذّن معنا على أهل منى يوم النحر ألّا لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

﴿ وأذانٌ ﴾ عطف على قوله: ﴿ براءة ﴾ أي: إعلام. ومنه الأذان بالصلاة، يقال: أذنته فأذن أي أعلمته. وأصله من الأذن أي أوقعته في أُذنه، ﴿ مِنَ اللَّهِ ورسولهِ إلى النّاسِ يومَ الحجِ الأكبر ﴾، اختلفوا في يوم الحج الأكبر، روى عكرمة عن ابن عباس: أنه يوم عَرَفَة. ورُوِيَ ذلك عن عمر بن الخطاب وابن الزبير. وهو قول عطاء

وروى ابن جريج عن مجاهد أن يوم الحج الأكبر أيام منى كلها وكان سفيان الثوري يقول الحج الأكبر أيام منى كلها لأن اليوم قد يطلق ويراد به الحين والزمان كقولك يوم صفين ويوم الجمل لأن الحروب دامت في تلك الأيام ويطلق عليها يوم واحد وقال عبد الله بن الحرث بن نوفل: يوم الحج الأكبر الذي حج فيه رسول الله ﷺ وهو قول ابن سيرين لأنه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ولم يجتمع مثل ذلك قبله ولا بعده فعظم ذلك اليوم عند المؤمنين والكافرين. قال مجاهد: الحج الأكبر القرآن لأنه قرن بين الحج والعمرة، وقال الزهري والشعبي وعطاء: الحج الأكبر الحج والحج الأصغر العمرة وإنما قيل لها الأصغر لنقصان أعمالها عن الحج وقيل: سمي الحج الأكبر لموافقة حجة رسول الله ﷺ حجة الوداع وكان ذلك اليوم يوم الجمعة فودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم وذكر في خطبته أن الزمان قد استدار وأبطل النسيء وجميع أحكام الجاهلية.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ فيه حذف والتقدير وأذان من الله ورسوله بأن الله بريء من المشركين وإنما حذفت الباء لدلالة الكلام عليها وفي رفع رسوله وجوه الأول أنه رفع بالابتداء وخبره مضمر والتقدير أن الله بريء من المشركين ورسوله أيضاً بريء الثاني تقديره بريء الله ورسوله من المشركين الثالث إن الله في محل الرفع بالابتداء وبريء خبره ورسوله عطف على المبتدأ.

فإن قلت: لا فرق بين قوله براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتهم من المشركين وبين قوله إن الله بريء من المشركين ورسوله فما فائدة هذا التكرار قلت المقصود من الآية الأولى البراءة من العهد ومن الآية الثانية البراءة التي هي تفيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعيد والذي يدل على صحة هذا الفرق أنه قال في أولها براءة من الله ورسوله إلى يعني بريء إليهم وفي الثانية بريء منهم وقوله تعالى: ﴿فإن تبتم﴾ يعني فإن رجعتم عن شرككم وكفركم ﴿فهو خير لكم﴾ يعني من الإقامة على الشرك وهذا ترغيب من الله في التوبة والإقلاع عن الشكر الموجب لدخول النار ﴿وإن توليتم﴾ يعني أعرضتم عن الإيمان والتوبة من الشرك ﴿فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ فيه وعيد عظيم وإعلام لهم بأن الله سبحانه وتعالى قادر على إنزال العذاب بهم وهو قوله تعالى: ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ يعني في الآخرة ولفظ البشارة هنا إنما ورد على سبيل الاستهزاء. كما يقال: تحيتهم الضرب وإكرامهم الشتم قوله سبحانه وتعالى:

وطاوس ومجاهد وسعيد بن المسيب. وقال جماعة: هو يوم النحر. رُوِيَ عن يحيى بن الجزار قال: خرج عليّ رضي الله عنه يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبّانة فجاءه رجل وأخذ بلجام دابّته وسأله عن يوم الحجّ الأكبر، فقال: يومك هذا حلّ سبيلها. ويُروى ذلك عن عبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة. وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير والسدي. وروى ابن جريج عن مجاهد: يوم الحج الأكبر حين الحج أيام منى كلها. وكان سفيان الثوري يقول: يوم الحج الأكبر أيامُ منى كلها، مثل يوم صفّين ويوم الجمل ويوم بُعاث يُراد به الحين والزمان، لأن هذه الحروب دامت أياماً كثيرةً. وقال عبد الله بن الحارث بن نوفل: يوم الحج الأكبر الذي حجّ فيه رسول الله ﷺ. وهو قول ابن سيرين، لأنه اجتمع فيه حجّ المسلمين وعيد اليهود والنصارى والمشركين، ولم يجتمع قبله ولا بعده، واختلفوا في الحج الأكبر، فقال مجاهد: الحج الأكبر القِران، والحج الأصغر إفراد الحج. وقال الزهري والشعبي وعطاء: الحج الأكبر الحج، والحج الأصغر العمرة. قيل لها الأصغر لنقصان أعمالها. قوله تعالى: ﴿ أنّ اللَّهَ بريءٌ مِّنَ المشركين ورسولُهُ ﴾، أي ورسوله أيضاً بريء من المشركين. وقرأ يعقوب بنصب اللام أي: إنّ اللَّهَ ورسولَه بريءٌ، ﴿ فإنْ تُبْتُم ﴾، رجعتم من كفركم وأخلصتم التوحيد، ﴿ فهو خير لكم وإنْ توليتم ﴾، أعرضتم عن الإيمان، ﴿ فاعلموا أنّكم غيرَ مُعجِزِي اللَّهِ وبشّر الذينَ كفروا بعذابٍ أليم ﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

﴿**إلا الذين عاهدتم من المشركين**﴾ هذا الاستثناء راجع إلى قوله تعالى براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين يعني إلا من عهد الذين عاهدتم من المشركين وهم بنو ضمرة حي من كنانة أمر الله رسوله ﷺ بإتمام عهدهم إلى مدتهم وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر وكان السبب فيه أنهم لم ينقضوا العهد وهو قوله تعالى: ﴿**ثم لم ينقصوكم شيئاً**﴾ يعني من عهودهم التي عاهدتموهم عليها ﴿**ولم يظاهروا**﴾ يعني ولم يعاونوا ﴿**عليكم أحداً**﴾ يعني من عدوكم وقال صاحب الكشاف: وجهه أن يكون مستثنى قوله فسيحوا في الأرض لأن الكلام خطاب للمسلمين ومعناه براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فقولوا لهم: سيحوا في الأرض إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقصوكم ﴿**فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم**﴾ والاستثناء بمعنى الاستدراك كأنه قيل لهم بعد أن أمروا في الناكثين لكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم ولا تجروهم مجراهم ولا تجعلوا الوفي كالغادر ﴿**إن الله يحب المتقين**﴾ يعني أن قضية التقوى تقتضي أن لا يسوى بين القبيلتين يعني الوافي بالعهد والناكث له والغادر فيه.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فإذا انسلخ الأشهر الحرم**﴾ يعني فإذا انقضت الأشهر الحرم ومضت وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم. وقال مجاهد ومحمد بن إسحاق: هي شهور العهد سميت حرماً لحرمة نقض العهد فيها فمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر ومن لا عهد له فأجله إلى انقضاء المحرم وذلك خمسون يوماً وقيل إنما قال لها حرم لأن الله سبحانه وتعالى حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم.

فإن قلت: على هذا القول هذه المدة وهي الخمسون يوماً بعض الأشهر الحرم والله سبحانه وتعالى قال فإذا انسلخ الأشهر الحرم.

قلت: لما كان هذا القدر من الأشهر متصلاً بما مضى أطلق عليه اسم الجمع والمعنى فإذا مضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الحرم ﴿**فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**﴾ يعني في الحل والحرم وهذا

﴿ **إلّا الذينَ عاهدْتُم منَ المشركين** ﴾، هذا استثناء من قوله: ﴿ **براءةٌ من اللهِ ورسولِهِ إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ إلّا مَن عهد الذين عاهدتم من المشركين، وهم بنو ضمرة حيّ من كنانة، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإتمام عهدهم إلى مدتهم، وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر، وكان السبب فيه أنهم لم ينقضوا العهد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **ثمّ لم يَنْقُصُوكم شيئاً** ﴾، من عهدهم الذي عاهدتموهم عليه، ﴿ **ولم يُظاهِرُوا** ﴾. لم يعاونوا، ﴿ **عليكم أحداً** ﴾، من عدوّكم. وقرأ عطاء بن يسار: «لم ينقضوكم» بالضاد المعجمة من نقض العهد، ﴿ **فأتمُّوا إليهم عهدهم** ﴾، فأوفوا لهم بعهدهم، ﴿ **إلى مُدّتِهم** ﴾، إلى أجلهم الذي عاهدتموهم عليه، ﴿ **إنّ اللّهَ يُحبُّ المتّقين** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **فإذا انْسلخَ** ﴾، انقضى ومضى ﴿ **الأشهر الحُرُم** ﴾، قيل: هي الأشهر الأربعة رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرّم. وقال مجاهد وابن إسحاق: هي شهور العهد فمَن كان له عهد فعهده أربعة أشهر، ومَن لا عهد له فأجله إلى انقضاء المحرّم خمسون يوماً. وقيل لها حُرُمٌ لأن الله تعالى حرّم فيها على المؤمنين دماء

أمر إطلاق يعني اقتلوهم في أي وقت وأي مكان وجدتموهم ﴿وخذوهم﴾ يعني واسروهم ﴿واحصروهم﴾ أي واحبسوهم.

قال ابن عباس: يريد أن تحصنوا فاحصروهم وامنعوهم من الخروج. وقيل: امنعوهم من دخول مكة والتصرف في بلاد الإسلام ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ يعني على كل طريق والمرصد الوضع الذي يقعد فيه للعدو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته والمعنى كونوا لهم رصداً حتى تأخذوهم من أي وجه توجهوا. وقيل: معناه اقعدوا لهم بطريق مكة حتى لا يدخلوها ﴿فإن تابوا﴾ يعني من الشرك ورجعوا إلى الإيمان ﴿وأقاموا الصلاة﴾ يعني وأتموا أركان الصلاة المفروضة ﴿وآتوا الزكاة﴾ الواجبة عليهم طيبة بها أنفسهم ﴿فخلوا سبيلهم﴾ يعني إلى الدخول إلى مكة والتصرف في بلادهم ﴿إن الله غفور﴾ يعني لمن تاب ورجع من الشرك إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة ﴿رحيم﴾ يعني بأوليائه وأهل طاعته، وقال الحسن بن الفضل: نسخت هذه الآية كل آية فيها ذكر الإعراض عن المشركين والصبر على أذى الأعداء.

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ يعني وإن استأمنك يا محمد أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله الذي أنزل عليك وهو القرآن فأجره حتى يسمع كلام الله ويعرف ماله من الثواب إن آمن وما عليه من العقاب إن أصر على الكفر ﴿ثم أبلغه مأمنه﴾ يعني إن لم يسلم أبلغه إلى الموضع الذي يأمن فيه وهو دار قومه وإن قاتلك بعد ذلك وقدرت عليه فاقتله ﴿ذلك بأنهم

المشركين والتعرّض لهم. فإن قيل: هذا القدر بعض الأشهر الحُرُم والله تعالى يقول: ﴿ فإذا انسلخَ الأشهرُ الحُرم ﴾؟ قيل: لمّا كان هذا القدر متصلاً بما مضى أُطلق عليه اسم الجمع، ومعناه: مضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الحُرُم. قولـه: ﴿ فاقْتُلوا المشركينَ حيثُ وجدْتُموهم ﴾، في الحلّ والحرم، ﴿ وخُذوهم ﴾، وأسروهم، ﴿ واحْصُروهم ﴾، أي: احبسوهم. قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد إن تحصّنوا فاحصروهم، أي: امنعوهم من الخروج. وقيل: امنعوهم من الخروج. وقيل: امنعوهم من دخول مكة والتصرّف في بلاد الإسلام. ﴿ واقْعدُوا لهم كلَّ مرصد ﴾، أي: على كل طريق، والمرصد الموضع الذي يرقب فيه العدو من رصدت الشيء أرصده إذا ترقبته، يريد كونوا لهم رصداً لتأخذوهم من أيّ وجه توجهوا. وقيل: اقعدوا لهم بطريق مكة حتى لا يدخلوها، ﴿ فإنْ تابوا ﴾، من الشرك، ﴿ وأقاموا الصلاة، وآتَوُا الزكاةَ فخلّوا سبيلهم ﴾، يقول: دعوهم فليتصرفوا في أمصارهم ويدخلوا مكة، ﴿ إنّ اللّهَ غفورٌ ﴾، لمَن تاب، ﴿ رحيمٌ ﴾ به. وقال الحسين بن الفضل: هذه الآية نسخت كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء.

قوله تعالى: ﴿ وإنْ أحدٌ مِّنَ المشركين استجارَكَ ﴾، أي: وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرتُك بقتالهم وقتلهم، أي: استأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحُرُم ليسمع كلام الله. ﴿ فأجِرْهُ ﴾، فأعذه وآمنه، ﴿ حتى يسمع كلامَ اللّهِ ﴾، فيما له وعليه من الثواب والعقاب، ﴿ ثم أبْلِغْهُ مأمنه ﴾، أي: إن لم يسلم أبلغه مأمنه، أي:

قوم لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون دين الله وتوحيده فهم يحتاجون إلى سماع كلام الله عز وجل، قال الحسن: هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة **﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله﴾** هذا على وجه التعجيب ومعناه الجحد أي لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد ثم استثنى فقال سبحانه وتعالى: **﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾** قال ابن عباس: هم قريش.

وقال قتادة: هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية وقال السدي محمد بن عباد ومحمد بن إسحاق هم بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو الديل قبائل من بني بكر كانوا دخلوا في عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية، وقال مجاهد: هم أهل العهد من خزاعة **﴿فما استقاموا لكم﴾** يعني على العهد **﴿فاستقيموا لهم﴾** يعني ما أقاموا على العهد ثم إنهم لم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بني بكر على خزاعة فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم إما أن يسلموا وإما أن يلحقوا بأي بلاد شاؤوا فأسلموا بعد الأربعة الأشهر والصواب من ذلك قول من قال إنهم قبائل من بني بكر وهم خزيمة وبنو مدلج من ضمرة وبنو الديل وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية ولم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الديل من بني بكر فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة وإنما كان الصواب هذا القول لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وذلك قبل فتح مكة لأن بعد الفتح كيف يقول لشيء قد مضى فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم وإنما هم الذين قال الله عز وجل فيهم إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً كما نقصكم قريش ولم يظاهروا عليكم أحداً كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة وهم حلفاء رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: **﴿إن الله يحب المتقين﴾** يعني أنه سبحانه وتعالى يحب الذين يوفون بالعهد إذا عاهدوا ويتقون نقضه **﴿كيف وإن يظهروا عليكم﴾** قبل هذا مردود على الآية الأولى تقديره كيف يكون لهم عهد وإن يظهروا عليكم **﴿لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة﴾** قال الأخفش معناه، كيف لا تقتلونهم وهم إن يظهروا عليكم أي يظهروا بكم ويغلبوكم

الموضع الذي يأمن فيه وهو دار قومه، فإن قاتلك بعد ذلك فقدِرْتَ عليه فاقتله، **﴿ ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون ﴾**، أي: لا يعلمون دين الله وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام الله. قال الحسن: هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: **﴿ كيفَ يكونُ للمشركين عهدٌ عندَ اللهِ وعندَ رسولِهِ ﴾**، هذا على وجه التعجّب، ومعناه جحد، أي: لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون وينقضون العهد، ثم استثنى فقال جلّ وعلا **﴿ إلاّ الذين عاهدتُّم عندَ المسجدِ الحرامِ ﴾**، قال ابن عباس: هم قريش. وقال قتادة: هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية. قال الله تعالى: **﴿ فما اسْتَقاموا لكم ﴾**، أي: على العهد، **﴿ فاسْتَقِيمُوا لهم ﴾**، فلم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بني بكر على خزاعة، فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم إمّا أن يسلموا وإمّا أن يلحقوا بأيّ بلاد شاؤوا، فأسلموا قبل الأربعة الأشهر. قال السدي والكلبي وابن إسحاق: هم قبائل من بكر بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الديل، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية فلم يكن نقض العهد إلاّ قريش وبنو الديل من بني بكر، فأمر بإتمام العهد لمَن لم ينقض وهم بنو ضمرة. وهذا القول أقرب إلى الصواب لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكة، فكيف يقول لشيء قد مضى: **﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾** وإنما هم الذين قال عزّ وجلّ: **﴿ إلاّ الذين عاهدْتُّم مِّنَ المشركين ثمّ لمْ ينقصُوكم شيئاً ﴾** كما نقصكم قريش، ولم يظاهروا عليكم أحداً كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ. **﴿ إنّ الله يحبّ المتّقين ﴾**.

ويعلوا عليكم لا يرقبوا أي لا يحفظوا. وقيل: معناه لا ينتظروا. وقيل: معناه لا يراعوا فيكم إلاًّ. قال ابن عباس: يعني قرابة. وقيل: رحماً وهذا معنى قول ابن عباس أيضاً. وقال قتادة: الإل الحلف. وقال السدي: هو العهد وكذلك الذمة وإنما كرر للتأكيد أو لاختلاف اللفظين: وقال أبو مجلز ومجاهد: الإل هو الله عز وجل ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما سمع كلام مسيلمة الكذاب إن هذا الكلام لم يخرج من إل يعني من الله وعلى هذا القول يكون معنى الآية لا يرقبون الله فيكم ولا يحفظونه لا يراعونه ﴿ولا ذمة﴾ يعني ولا يحفظون عهداً ﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم﴾ يعني يطيعونكم بألسنتهم بخلاف ما في قلوبهم ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ فإن قلت إن الموصوفين بهذه الصفة كفار والكفر أخبث وأقبح من الفسق فكيف وصفهم بالفسق في معرض الذم وما الفائدة في قوله وأكثرهم فاسقون مع أن الكفار كلهم فاسقون.

قلت: قد يكون الكافر عدلاً في دينه وقد يكون فاسقاً خبيث الفسق في دينه فالمراد بوصفهم بكونهم فاسقين أنهم نقضوا العهد وبالغوا في العداوة فوصفهم بكونهم فاسقين مع كفرهم فيكون أبلغ في الذم وإنما قال أكثرهم ولم يقل كلهم فاسقون لأن منهم من وفى بالعهد ولم ينقضه وأكثرهم نقضوا العهد فلهذا قال سبحانه وتعالى وأكثرهم فاسقون.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ يعني استبدلوا بآيات القرآن والإيمان بها عرضاً قليلاً من متاع الدنيا وذلك أنهم نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ بسبب أكلة أطعمهم إياها أبو سفيان بن حرب فذمهم الله

قوله تعالى: ﴿ كيفَ وإنْ يظهرُوا عليكم ﴾، هذا مردود على الآية الأولى تقديره: كيف يكون لهم عهد عند الله وإن يظهروا عليكم، ﴿ لا يَرْقُبُوا فيكم إلاّ ولا ذِمّةً ﴾، قال الأخفش كيف لا تقتلونهم وهم إن يظهروا عليكم، أي: يظفروا بكم، لا يرقُبُوا: لا يحفظوا. وقال الضحاك: لا ينتظروا. وقال قطرب: لا يراعوا فيكم إلاّ. قال ابن عباس والضحاك: قرابةً. وقال يمان: رحماً. وقال قتادة الإلُّ: الحِلْفُ. وقال السدي: هو العهد. وكذلك الذمة إلاّ أنه كرّر لاختلاف اللفظين. وقال أبو مجلز ومجاهد: الإل هو الله عزّ وجلّ. وقال عبيد بن عمير: يقرأ جبير إلّ بالتشديد، يعني: عبد الله وفي الخبر أن ناساً قَدِمُوا على أبي بكر من قوم مسيلمة الكذّاب، فاستقرأهم أبو بكر كتاب مسيلمة فقرأوا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن هذا الكلام لم يخرج من إلّ، أي: من الله عزّ وجلّ. والدليل على هذا التأويل قراءة عكرمة «لا يرقبون في مؤمن إيلاً» بالياء، يعني الله عزّ وجلّ. مثل جبرائيل وميكائيل. ولا ذمة أي: عهداً. ﴿ يُرضونكم بأفواهِهم ﴾، أي: يطيعونكم بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم، ﴿ وتأبى قلوبُهم ﴾، الإيمان، ﴿ وأكثرُهم فاسقون ﴾، فإن قيل: هذا في المشركين وكلهم فاسقون فكيف قال: ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾؟ قيل: أراد بالفسق نقض العهد ههنا وكان في المشركين مَن وفى بعهده وأكثرهم نقضوا فلهذا قال: ﴿ وأكثرُهم فاسقون ﴾.

﴿ اشْتَرَوْا بآياتِ اللّهِ ثمناً قليلاً ﴾، وذلك أنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكلةٍ أطعمهم إيّاها أبو سفيان. قال مجاهد: أطعم أبو سفيان حلفاءه، ﴿ فصدُّوا عَن سبيله ﴾، فمنعوا الناس من الدخول في دين

بذلك. قال مجاهد: أطعم أبو سفيان حلفاءه وترك حلفاء رسول الله ﷺ ﴿**فصدوا عن سبيله**﴾ يعني منعوا الناس عن الدخول في دين الله قال ابن عباس: وذلك أن أهل الطائف أمدوهم بالأموال ليقووهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿**إنهم ساء ما كانوا يعملون**﴾ يعني من الشرك ونقضهم العهد ومنعهم الناس عن الدخول في دين الإسلام ﴿**لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة**﴾ يعني أن هؤلاء المشركين لا يراعون في مؤمن عهداً ولا ذمة إذا قدروا عليه قتلوه فلا تبقوا أنتم عليهم كما لم يبقوا عليكم إذا ظهروا عليكم ﴿**وأولئك هم المعتدون**﴾ يعني في نقض العهد.

قوله عز وجل: ﴿**فإن تابوا**﴾ يعني فإن رجعوا عن الشرك إلى الإيمان وعن نقض العهد إلى الوفاء به ﴿**وأقاموا الصلاة**﴾ يعني المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها ﴿**وآتوا الزكاة**﴾ يعني وبذلوا الزكاة المفروضة عليهم طيبة بها أنفسهم ﴿**فإخوانكم في الدين**﴾ يعني إذا فعلوا ذلك فهم إخوانكم في الدين لهم مالكم وعليهم ما عليكم ﴿**ونفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾ يعني ونبين حجج أدلتنا ونوضح بيان آياتنا لمن يعلم ذلك ويفهمه. قال ابن عباس: حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة وقال ابن مسعود: أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يزكِّ فلا صلاة له. وقال ابن زيد: افترضت الصلاة والزكاة جميعاً لم يفرق بينهما وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة. وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه يعني بذلك ما ذكره أبو بكر في حق منع الزكاة وهو قوله: والله لا أفرق بين شيئين جمع الله بينهما يعني الصلاة والزكاة (ق) يعني أبي هريرة قال لما توفي النبي ﷺ واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها. وفي رواية، عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق. عن أنس قال.

الله. وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن أهل الطائف أمدّوهم بالأموال ليقوّوهم على حرب رسول الله ﷺ، ﴿ **إنّهم ساء** ﴾ بئس ﴿ **ما كانوا يعملون** ﴾.

﴿ **لا يَرْقُبُونَ في مُؤمنٍ إلاّ ولا ذِمّةً** ﴾، يقول لا تبقوا عليهم أيها المؤمنون كما لا يبقون عليكم لو ظهروا، ﴿ **وأولئك هُمُ المعتدون** ﴾، بنقض العهد.

﴿ **فإنْ تابُوا** ﴾، من الشرك، ﴿ **وأقامُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ فإخوانُكم** ﴾، فهم إخوانكم، ﴿ **في الدِّين** ﴾، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، ﴿ **ونفصّلُ الآياتِ** ﴾، نبيّن الآيات ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾، قال ابن عباس: حرّمت هذه الآية دماء أهل القِبلة. قال ابن مسعود: أُمرتم بالصلاة والزكاة فمَن لم يزكِّ فلا صلاة له. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ثنا شعيب بن أبي حمزة عن الزهري ثنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: لمّا توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر رضي الله عنه بعده، وكفر مَن كفر من العرب قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أنْ أُقاتلَ النّاسَ حتى يقولوا لا إلّه إلاّ الله، فمَنْ قال لا إلّه إلاّ الله عَصَمَ منّي مالَهُ ونفسَهُ إلاّ بحقِهِ وحسابُه على الله»؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ مَن فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عنَاقاً كانوا يُؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلاّ رأيتُ أنّ الله شرح صدرَ أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عمرو بن عباس ثنا

قال رسول الله ﷺ: من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وإن نكثوا أيمانهم﴾ يعني وإن نقضوا عهودهم ﴿من بعد عهدهم﴾ يعني من بعد ما عاهدوكم عليه أن لا يقاتلوكم ولا يظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿وطعنوا في دينكم﴾ يعني وعابوا دينكم الذي أنتم عليه وقدحوا فيه وثلبوه.

وفي هذا دليل على أن الذمي إذا طعن في دين الإسلام وعابه ظاهراً لا يبقى له عهد والمراد بهؤلاء الذين نقضوا العهد كفار قريش وهو قوله تعالى: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ يعني رؤوس المشركين وقادتهم.

قال ابن عباس: نزلت في أبي سفيان بن حرب والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وأبي جهل وابنه عكرمة وسائر رؤساء قريش وهم الذين نقضوا عهدهم وهموا بإخراج الرسول وقيل أراد جميع الكفار وإنما ذكر الأئمة لأنهم الرؤساء والقادة ففي قتالهم قتال الأتباع، وقال مجاهد: هم فارس والروم وقال حذيفة بن اليمان: ما قوتل أهل هذه الآية بعد ولم يأت أهلها ولعل حذيفة أراد بذلك الذين يظهرون مع الدجال من اليهود فإنهم أئمة الكفر في ذلك الزمان والله أعلم بمراده.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ جمع يمين أي لا عهد لهم وقيل معناه إنهم لا وفاء لهم بالعهود وقرىء لا إيمان لهم بكسر الهمزة ومعناه لا دين لهم ولا تصديق وقيل هو من الأمان أي اقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تؤمنوهم ﴿لعلهم ينتهون﴾ أي لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم ويرجعوا عن الكفر إلى الإيمان ثم حض المؤمنين على جهاد الكفار وبين السبب في ذلك فقال تعالى: ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم﴾ يعني نقضوا عهودهم وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بني بكر على خزاعة ﴿وهموا بإخراج الرسول﴾ يعني من مكة حين اجتمعوا في

ابن مهدي ثنا منصور بن سعد عن ميمون بن سياه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صلّى صلاتَنا واستقبلَ قِبلتَنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذِمّةُ الله وذِمّةُ رسوله».

قوله تعالى: ﴿ وإن نكثُوا أيمانَهم ﴾، نقضوا عهودهم، ﴿ منْ بعدِ عهدِهم ﴾، عقدهم يعني مشركي قريش، ﴿ وطعنُوا ﴾، قدحوا، ﴿ في دينكم ﴾، وعابوه. فهذا دليل على أن الذمّي إذا طعن في دين الإسلام ظاهِراً لا يبقى له عهد، ﴿ فقاتِلُوا أئمّةَ الكفر ﴾، قرأ أهل الكوفة والشام: ﴿ أئمة ﴾ بهمزتين حيث كان، وقرأ الباقون بتليين الهمزة الثانية. وأئمة الكفر: رؤوس المشركين وقادتهم من أهل مكة. قال ابن عباس: نزلت في أبي سفيان بن حرب وأبي جهل بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وسائر رؤوساء قريش يومئذ الذين نقضوا العهد، وهم الذين همّوا بإخراج الرسول. وقال مجاهد: هم أهل فارس والروم. وقال حذيفة بن اليمان: ما قُوتِلَ أهلُ هذه الآية ولم يأتِ أهلُها بعد، ﴿ إنهم لا إيمان لهم ﴾، أي: لا عهود لهم، جمع يمين. قال قطرب: لا وفاء لهم بالعهد. وقرأ ابن عامر: «لا أيمان لهـم» بكسر الألف، أي: لا تصديق لهم ولا دين لهم. وقيل: هو من الأمان أي لا تؤمنوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، ﴿ لعلّهم ينتهون ﴾، أي: لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم. وقيل: عن الكفر، حضّ المسلمين على القتال.

دار الندوة ﴿وهم بدؤوكم﴾ يعني بالقتال ﴿أول مرة﴾ يعني يوم بدر وذلك أنهم قالوا لا ننصرف حتي نستأصل محمداً وأصحابه وقيل أراد به أنهم بدءوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ﴿أتخشونهم﴾ يعني أتخافوهم أيها المؤمنون فتتركون قتالهم ﴿فالله أحق أن تخشوه﴾ يعني في ترك القتال ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيده.

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾
وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ
هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ يريد بالتعذيب القتل يعني يقتلهم الله بأيديكم.

فإن قلت: كيف الجمع بين قوله يعذبهم الله بأيديكم وبين قوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم؟ قلت: المراد بقوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم عذاب الاستئصال يعني وما كان الله ليستأصلهم بالعذاب جميعاً وأنت فيهم والمراد بقوله: قاتلوهم، يعني الذين نقضوا العهد وبدءوا بالقتال فأمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين بقتال من قاتلهم أو نقض عهدهم.

والفرق بين العذابين، أن عذاب الاستئصال يتعدى إلى المذنب وغير المذنب وإلى المخالف والموافق، وعذاب القتل لا يتعدى إلا إلى المذنب المخالف وقوله تعالى: ﴿ويخزهم﴾ يعني ويذلهم بالقهر والأسر وينزل بهم الذل والهوان ﴿وينصركم عليهم﴾ يعني بأن يظفركم بهم ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ يعني ويبرىء داء قلوبهم مما كانوا ينالونه من الأذى منهم ومن المعلوم أن من طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه فإنه يفرح بذلك ويعظم سروره ويصير ذلك سبباً لقوة اليقين وثبات العزيمة. قال مجاهد والسدي: أراد صدور خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ حيث أعانت

فقال جلّ ذكره: ﴿ ألَا تقاتِلُون قوماً نكثُوا أيمانهم ﴾، نقضوا عهدهم، وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بني بكر على خزاعة. ﴿ وهمّوا بإخراج الرّسولِ ﴾، من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة، ﴿ وهم بدأوكم ﴾، بالقتال، ﴿ أوّل مرّة ﴾، يعني: يوم بدر، وذلك أنهم قالوا حين سَلِمَ العير: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه. وقال جماعة من المفسّرين: أراد أنهم بدأوا بقتال خُزاعةَ حلفاء رسول الله ﷺ، ﴿ أتخشونَهم ﴾، أتخافونهم فتتركون قتالهم، ﴿ فاللّهُ أحقُّ أن تخشوه ﴾، في ترك قتالهم، ﴿ إنْ كنتم مؤمنين ﴾.

﴿ قاتلوهم يُعذِّبْهُمُ اللّهُ بأيديكم ﴾، يقتلهم الله بـأيديكم، ﴿ ويُخْزِهِمْ ﴾، ويذلّهم بـالأسر والقهـر، ﴿ وينْصُرْكُم عليهم ويَشْفِ صُدورَ قومٍ ﴾، ويبرىء داء قلوب قوم، ﴿ مؤمنين ﴾، مما كانوا ينالونه من الأذى منهم. وقال مجاهد والسدي: أراد صُدُورَ خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ حيث أعانت قريش بني بكر عليهم، حتى نكأوا فيهم فشفى الله صدورهم من بني بكر بالنبي ﷺ وبالمؤمنين.

﴿ ويُذْهِبْ غيظَ قلوبهم ﴾، كَرْبَها ووَجْدَها بمعونة قريش بني بكر عليهم، ثم قال مستأنفاً: ﴿ ويتوبُ اللّهُ على مَن يشاءُ ﴾، فيهديه إلى الإسلام كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، واللّهُ عليمٌ

قريش بني بكر على خزاعة حتى قتلوا منهم ثم شفى الله صدور خزاعة من بني بكر حتى أخذوا ثأرهم منهم بالنبي ﷺ وأصحابه ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ يعني ويذهب وجد قلوبهم بما نالوه من بني بكر.

روي أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: ارفعوا السيف إلا خزاعة من بني بكر إلى العصر ذكره البغوي بغير سند. ثم قال تعالى: ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ هذا كلام مستأنف ليس له تعلق بالأول والمعنى ويهدي الله من يشاء إلى الإسلام فيمن عليه بالتوبة من الشرك والكفر ويهديه إلى الإسلام كما فعل بأبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو فهؤلاء كانوا من أئمة الكفر ورؤساء المشركين ثم منَّ الله عليهم بالإسلام يوم فتح مكة فأسلموا ﴿والله عليم﴾ يعني بسرائر عباده ومن سبقت له العناية الأزلية بالسعادة فيتوب عليه ويهديه إلى الإسلام ﴿حكيم﴾ يعني في جميع أفعاله قوله عز وجل: ﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾ هذا من الاستفهام المعترض في وسط الكلام ولذلك أدخلت فيه أم لتفرق بينه وبين الاستفهام المبتدأ والمعنى أظننتم أيها المؤمنون أن تتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ أراد بالعلم: المعلوم، لأن وجود الشيء يلزمه معلوم الوجود عند الله لا جرم جعل علم الله بوجوده كناية عن وجوده. قاله الإمام فخر الدين الرازي: ونقل الواحدي عن الزجاج أي العلم الذي يجازي عليه لأنه إنما يجازي على ما عملوا ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ قال الفراء: الوليجة: البطانة من المشركين يتخذونهم يفشون إليهم أسرارهم. وقال قتادة: وليجة، يعني خيانة. وقال الضحاك: خديعة. وقال عطاء: أولياء. يعني لا تتخذوا المشركين أولياء من دون الله ورسوله والمؤمنين. وقال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة والرجل يكون في القوم وليس منهم وليجة من الولوج فوليجة الرجل من يختصه بدخيلة أمره دون الناس. وقال الراغب: الوليجة كل ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من قولهم فلان وليجة في القوم إذا دخل فيهم وليس منهم والمقصود من هذا نهي المؤمنين عن موالاة المشركين وإن يفشوا إليهم أسرارهم ﴿والله خبير بما تعملون﴾ يعني من موالاة المشركين وإخلاص العمل لله وحده.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾ يعني به المسجد الحرام وقرىء مساجد الله

حكيم ﴾، رُوِيَ أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «ارفعوا السّيفَ إلاّ خزاعة من بني بكر إلى العصر».

قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُم ﴾، أظننتم ﴿ أن تُتْرَكُوا ﴾، قيل: هذا خطاب للمنافقين. وقيل: للمؤمنين الذين شقّ عليهم القتال، فقال: أم حسبتم أن تُتركوا فلا تؤمروا بالجهاد ولا تُمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب، ﴿ ولمّا يعلمِ اللَّهُ ﴾، ولم يرَ اللَّهُ ﴿ الذين جاهدُوا منكم ولم يتَّخِذُوا منْ دُونِ اللَّهِ ولا رسولِهِ ولا المؤمنين وَلِيجَةً ﴾، بطانةً وأولياءَ يُوالونَهم ويُفشون إليهم أسرارهم. وقال قتادة: وليجة خيانة. وقال الضحاك: خديعة. وقال عطاء: أولياء. وقال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون في القوم وليس منهم. ولِيجة الرجل: مَن يختصّ بدخيلة أمره دون الناس، يقال: هو وليجتي، وهم وليجتي للواحد والجمع. ﴿ واللَّهُ خبيرٌ بما تعملون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ما كانَ للمشركين أنْ يعمرُوا مساجدَ اللَّهِ ﴾ الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا أسر العباس يوم بدر عيّره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم، وأغلظ عليّ رضي الله عنه القول، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا؟ فقال له عليّ رضي الله عنه: ألكم محاسن؟ فقال نعم: إنّا لَنَعْمرُ المسجدَ الحرام ونحجبُ الكعبةَ ونُسقي الحاج، فأنزل الله عزّ وجلّ ردّاً على العباس: ﴿ ما كانَ للمشركين أنْ يعمرُوا مساجدَ الله ﴾، أي: ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله، أوجب على المسلمين منعهم من ذلك، لأن

على الجمع والمراد به المسجد الحرام أيضاً وإنما ذكر بلفظ الجمع لأنه قبلة المساجد كلها وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من رؤساء كفار قريش أسروا يوم بدر ومنهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يعيرونهم بالشرك وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بسبب قتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم. فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟ فقيل له: وهل لكم من محاسن؟ قال: نعم. نحن أفضل منكم نحن نعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني يعني الأسير فنزلت هذه الآية: ما كان للمشركين أي ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله أوجب الله على المسلمين منعهم من ذلك المساجد إنما تعمر لعبادة الله تعالى وحده فمن كان كافراً بالله فليس له أن يعمر مساجد الله واختلفوا في المراد بالعمارة على قولين أحدهما أن المراد بالعمارة العمارة المعروفة من بناء المساجد وتشييدها ومرمتها عند خرابها فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى ببناء مسجد لم تقبل وصيته والقول الثاني إن المراد بالعمارة دخول المسجد والقعود فيه فيمتنع الكافر من دخول المسجد بغير إذن مسلم حتى لو دخل بغير إذن مسلم عزر وإن دخل بإذن لم يعزر ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالإذن أن النبي ﷺ شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سواري المسجد وهو كافر والأولى تعظيم المساجد ومنعهم من دخولها.

وقوله تعالى: ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ يعني: لا يدخلون المساجد في حال كونهم شاهدين. وقيل: تقديره وهم شاهدون فلما حذفت وهم نصب. وقال ابن عباس: شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام وذلك أن كفار قريش كانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للأصنام فلم يزدادوا بذلك من الله إلا بعداً. وقال الحسن: إنهم لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شهادة عليهم بالكفر. وقال السدي: شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يسأل من أنت فيقول نصراني واليهودي يقول يهودي والمشرك يقول مشرك. وقال ابن عباس: في رواية عنه شاهدين على رسولهم بالكفر لأنه من

المساجد إنما تعمر لعبادة الله وحده، فمَن كان كافراً بالله فليس من شأنه أن يعمرها فذهب جماعة إلى أنّ المراد منه العمارة المعروفة من بناء المسجد ومرمته عند الخراب فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى به لا يمتثل. وحمل بعضهم العمارة ههنا على دخول المسجد والقعود فيه. قال الحسن: ما كان للمشركين أن يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام. قرأ ابن كثير وأهل البصرة: «مسـجد الله» على التوحيد، وأراد به المسجد الحرام، لقوله تعالى: ﴿ وعمارة المسجد الحرام ﴾ [التوبة: ١٩]، ولقوله تعالى: ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقرأ الآخرون: « مساجد الله » بالجمع والمراد منه أيضاً المسجد الحرام. قال الحسن: إنما قال مساجد لأنه قِبلة المساجد كلها. قال الفرّاء: ربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد، ألا ترى أن الرجل يركب البرذون فيقول: أخذت في ركوب البراذين، ويقال: فلان كثير الدرهم والدينار، يريد الدراهم والدنانير. قوله تعالى: ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾، أرادَ وهم شاهدون، فلما طرحت ﴿ وهم ﴾ نصبت، قال الحسن: لم يقولوا نحن كفّار ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر. وقال الضحاك عن ابن عباس: شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام، وذلك أن كفّار قريش كانوا نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة، كلما طافوا شوطاً سجدوا لأصنامهم، ولم يزداد بذلك من الله تعالى إلاّ بُعْداً. وقال السدي: شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يُسأل مَن أنت؟ فيقول: أنا نصراني، واليهودي يقول: أنا يهودي، ويقال للمشرك: ما دينك؟ فيقول: مشرك. قال الله تعالى: ﴿ أولئك حَبِطَتْ أعمالهمُ ﴾، لأنها لغير الله عزّ وجلّ، ﴿ وفي النار هُم خالدون ﴾.

أنفسهم ﴿**أولئك حبطت أعمالهم**﴾ يعني الأعمال التي عملوها في حال الكفر من أعمال البر مثل قرى الضيف وسقي الحاج وفك العاني لأنها لم تكن لله فلم يكن لها تأثير مع الكفر ﴿**وفي النار هم خالدون**﴾ يعني من مات منهم على كفره.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ لما بين الله عز وجل أن الكافر ليس له أن يعمر مساجد الله بين في هذه الآية من هو المستحق لعمارة المساجد وهو من آمن بالله فإن الإيمان بالله شرط فيمن يعمر المسجد لأن المسجد عبارة عن الموضع الذي يعبد الله فيه فمن لم يكن مؤمناً بالله امتنع أن يعمر موضعاً يعبد الله فيه واليوم الآخر يعني وآمن باليوم الآخر وأنه حق كائن لأن عمارة المسجد لأجل عبادة الله وجزاء أجره إنما يكون في الآخرة فمن أنكر الآخرة لم يعبد الله ولم يعمر له مسجداً.

فإن قلت لم لم يذكر الإيمان برسول الله مع أن الإيمان به شرط في صحة الإيمان.

قلت: إن الإيمان برسول الله ﷺ داخل في الإيمان بالله فإن من آمن بالله واليوم الآخر فقد آمن برسول الله لأن من جهته عرف الإيمان بالله واليوم الآخر لأنه هو الداعي إلى ذلك وقيل إن المشركين كانوا يقولون أن محمداً إنما ادعى النبوة طلباً للرياسة والملك فأخبر الله عز وجل أن محمداً ﷺ إنما دعا إلى الإيمان بالله واليوم الآخر لا لطلب الرياسة والملك فلذلك قال سبحانه وتعالى إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وترك ذكر الإيمان برسول الله ﷺ وقيل: إنه تبارك وتعالى قال بعد الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿**وأقام الصلاة وآتى الزكاة**﴾ وكان ذلك مما جاء به رسول الله ﷺ فمن أقام الصلاة وآتى الزكاة فقد آمن برسول الله ﷺ واعلم أن الاعتبار بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في عمارة المساجد أن الإنسان إذا عمر المسجد أقام الصلاة وآتى الزكاة لأن عمارة المسجد إنما تلزم لإقامة الصلاة فيه ولا يشتغل بعمارة المسجد إلا إذا كان مؤدياً للزكاة لأن الزكاة واجبة وعمارة المسجد نافلة ولا يشتغل الإنسان بالنافلة إلا بعد إكمال الفريضة الواجبة عليه.

وقوله تعالى: ﴿**ولم يخش إلا الله**﴾ يعني ولم يخف في الدين غير الله ولم يترك أمر الله لخشية الناس ﴿**فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**﴾ وعسى من الله واجب يعني وأولئك هم المهتدون المتمسكون بطاعة الله التي تؤدي إلى الجنة عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله عز وجل يقول إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» الآية أخرجه الترمذي. وقال حديث حسن (ق) عن أبي

قال تعالى: ﴿ **إنّما يَعْمُرُ مَساجِدَ الله مَنْ آمنَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ وأقام الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولم يخشَ إلاّ الله** ﴾ ولم يخفْ في الدين غيرَ الله ولم يترك أمر الله لخشية غيره، ﴿ **فعسى أولئكَ أن يكونوا مِنَ المُهتدين** ﴾، ﴿ **وعسى** ﴾ من الله واجب، أي: فأولئك هم المهتدون، والمهتدون هم المتمسكون بطاعة الله عزّ وجلّ التي تؤدّي إلى الجنّة. أخبرنا أبو عمر ومحمد بن عبد الرحمن النسوي ثنا أحمد بن الحسين الحيري ثنا محمد بن يعقوب ثنا أحمد بن الفرج الحجازي ثنا بقية ثنا أبو الحجّاج المهدي عن عمرو بن الحارث عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدُوا له بالإيمان» فإن الله قال: ﴿ **إنّما يَعْمُرُ مساجدَ اللّـه مَنْ آمن بالله واليومِ الآخرِ** ﴾. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا يزيد بن هارون ثنا محمد بن مطرف

هريرة أن النبي ﷺ قال: من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح النزل ما يهيأ للضيف عند نزوله بالقوم (ق)

عن عثمان بن عفان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله تعالى بنى الله له بيتاً في الجنة.

وفي رواية: بنى الله له في الجنة مثله. وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال من بنى لله مسجداً صغيراً كان أو كبيراً بنى الله له بيتاً في الجنة. أخرجه الترمذي عن عمرو بن عنبسة أن رسول الله ﷺ قال: من بنى لله مسجداً ليذكر الله فيه بنى الله له بيتاً في الجنة، أخرجه النسائي.

۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام﴾ الآية (م) عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر النبي ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. قال الآخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم فزجره عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبي ﷺ وهو يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله عز وجل أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر إلى آخرها.

وقيل: قال العباس حين أسروا يوم بدر لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج فأنزل الله هذه الآية وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك

عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ غَدَا إلى المسجدِ أو راحَ أعدّ الله له نُزلَه منَ الجنةِ كلّما غَدا أو رَاحَ». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان ثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو عاصم عن عبد الحميد بن جعفر حدّثني أبي عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان رضي الله عنه: أراد بناء المسجد فكره الناس ذلك وأحبّوا أن يدعه، فقال عثمان: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «مَنْ بَنى للّهِ مسجداً بَنى اللّهُ له بيتاً كهيئته في الجنة». أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسن القطان ثنا علي بن محمد الدار بجردي ثنا أبو عاصم بهذا الإسناد، وقال: (بنَى اللّهُ له بيتاً في الجنّة).

قوله: ﴿ أجعلتُم سقاية الحاجِّ ﴾، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي ثنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ثنا عبد الله بن حامد بن محمد الوزان ثنا أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله المنادي ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ثنا أبو توبة الربيع بن نافع الحلبي ثنا معاوية بن سلام عن زيد بن سلام عن أبي سلام ثنا النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أُسقي الحاجّ، وقال الآخر: ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أعمّر المسجد الحرام، وقال الآخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتما، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صلّيت دخلت فاستفتيت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه، ففعل فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ أجعلتم سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام ﴾، إلى قوله: ﴿ واللّهُ لا يهدي القومَ الظالمين ﴾.

بالله وإن الإيمان والجهاد مع نية خير مما هم عليه. وقال الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي: نزلت في علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن أبي شيبة افتخروا فقال طلحة أنا صاحب البيت بيدي مفاتيحه. وقال العباس: وأنا صاحب السقاية والقيامة عليها وقال ما أدري ما تقولون لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله هذه الآية ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ والسقاية مصدر كالرعاية والحماية وهي: سقي الحاج وكان العباس ابن عبد المطلب بيده سقاية الحاج وكان يليها في الجاهلية فلما جاء الإسلام وأسلم العباس أقره رسول الله ﷺ على ذلك وعمارة المسجد الحرام يعني بناؤه وتشييده ومرمته ﴿كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ فيه حذف تقديره كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر ﴿وجاهد في سبيل الله﴾ أي وكجهاد من جاهد في سبيل الله. وقيل: السقاية والعمارة بمعنى الساقي والعامر تقديره: أجعلتم ساقي الحاج وعامر المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ﴿لا يستوون عند الله﴾ يعني: لا يستوي حال هؤلاء الذين آمنوا بالله وجاهدوا في سبيل الله بحال من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو مقيم على شركه وكفره لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملاً إلا مع الإيمان به ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (خ) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها فقال اسقني فقال: يا رسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه قال اسقني فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يستقون ويعملون فيها فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح ثم قال لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذا يعني عاتقه (م)

عن بكر بن عبد الله المزني قال: كنت جالساً مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال مالي أرى بني عمكم

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال العباس حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنّا نعمّر المسجد الحرام، ونُسقي الحاجّ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا تنفعهم مع الشرك بالله، والإيمان بالله والجهاد مع النبي ﷺ خيرٌ مما هم عليه. وقال الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي: نزلت في عليّ بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة، افتخروا فقال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال علي: ما أدري ما تقولون لقد صلّيت إلى القبلة ستّة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿ أجعلتُم سقايةَ الحاجِّ ﴾، و﴿ سقاية ﴾ مصدر كالرعاية والحماية. قوله: ﴿ وعمارةَ المسجدِ الحرام كمَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخر ﴾، فيه اختصار تقديره: أجعلتم سقايةَ الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام كإيمان مَن آمن بالله وجهاد مَن جاهد في سبيل الله؟ وقيل: السقاية والعمارة بمعنى السَاقيُ العامر، وتقديره: أجعلتم ساقي الحاجّ وعامرَ المسجد الحرام كمَن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿ والعاقبةُ للتقوى ﴾ [طه: ١٣٢] أي: للمتّقين، يدلّ عليه قراءة عبد الله بن الزبير وأُبيّ بن كعب ﴿ أجعلتم سُقاةَ الحاجِّ وعَمَرَةَ المسجِدِ الحرام ﴾، على جمع الساقي والعامر، ﴿ كمَن آمن بالله واليوم الآخر وجاهدَ في سبيلِ الله لا يستوُون عندَ اللَّهِ واللَّهُ لا يهدي القومَ الظّالمين ﴾. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل حدّثني إسحاق بن إبراهيم ثنا أبو أسامة ثنا يحيىٰ بن مهلب عن حسين عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستقى، فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أُمك فأْتِ رسولَ الله ﷺ بشراب من عندها، فقال: «اسـقني»، فقال: يا رسول الله إنّهم يجعلون أيديهم فيه، قال: «اسقني»، فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها، فقال: «اعملوا فإنكم على عمل صالح»، ثم قال: «لولا الحبل على هذه»، وأشار إلى عاتقه. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن

يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل فقال ابن عباس الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل إنما قدم النبي ﷺ على راحلته وخلفه أسامة فاستسقي فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة فقال: أحسنتم أو أجملتم كذا فاصنعوا فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ النبيذ تمر ينقع في الماء غدوة ويشرب عشاء أو ينقع عشاء ويشرب غدوة وهذا حلال فإن غلى وحمض حرم. قوله عز وجل:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿**الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله**﴾ يعني أن من كان موصوفاً بهذه الصفات يعني الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس كان أعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام وإنما لم يذكر القسم المرجوح لبيان فضل القسم الراجح على الإطلاق على من سواهم والمراد بالدرجة المنزلة والرفعة عند الله في الآخرة ﴿**وأولئك**﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿**هم الفائزون**﴾ يعني بسعادة الدنيا والآخرة ﴿**يبشرهم ربهم**﴾ يعني يخبرهم ربهم والبشارة الخبر السار الذي يفرح الإنسان عند سماعه وتستنير بشرة وجهه عند سماعه ذلك الخبر السار ثم ذكر الخبر الذي يبشرهم به فقال تعالى: ﴿**برحمة منه ورضوان**﴾ وهذا أعظم البشارات لأن الرحمة والرضوان من الله عز وجل على العبد نهاية مقصوده ﴿**وجنات لهم فيها نعيم مقيم**﴾ يعني أن نعيم الجنة دائم غير منقطع أبداً ﴿**خالدين فيها**﴾ يعني في الجنان وفي النعيم ﴿**أبداً**﴾ يعني لا انقطاع له ﴿**إن الله عنده أجر عظيم**﴾ يعني لمن عمل بطاعته وجاهد في سبيله.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء**﴾ قال مجاهد: هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة وقال ابن عباس: لما أمر النبي ﷺ الناس بالهجرة إلى

عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان عن مسلم ابن الحجاج حدّثني محمد بن منهال الضرير ثنا يزيد بن زَريع ثنا حميد الطويل عن بكر بن عبد الله المزني قال: كنتُ جالساً مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمّكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ؟ أمِنْ حاجةٍ بكم؟ أمِنْ بُخلٍ؟ فقال ابن عباس: الحمد لله ما بنا حاجةٍ ولا بخل، قَدِمَ رسول الله ﷺ على راحلته وخلفه أسامة بن زيد فاستسقى فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة، وقال: أحسنتم وأجملتم كذا فاصنعوا، فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ **الذينَ آمنُوا وهاجَرُوا وجاهدُوا في سبيل الله بأموالِهم وأنفسِهم أعظمُ درجةً** ﴾ فضيلة، ﴿ **عندَ اللهِ** ﴾، من الذين افتخروا بسقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام. ﴿ **وأولئك هم الفائزون** ﴾، الناجون من النار.

﴿ **يُبَشّرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجنّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم** ﴾.

﴿ **خالدين فيها أبداً إنّ الله عنده أجرٌ عظيم** ﴾.

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء** ﴾، قال مجاهد: هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في

المدينة فمنهم من تعلق به أهله وأولاده يقولون ننشدك الله أن لا تضيعنا فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فأنزل الله هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم وأنزل يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء يعني بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة. قال بعضهم: حمل هذه الآية على ترك الهجرة مشكل لأن هذه السورة نزلت بعد الفتح وهي من آخر القرآن نزولاً والأقرب أن يقال إن الله سبحانه وتعالى لما أمر المؤمنين بالتبري من المشركين قالوا كيف يمكن أن يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه فذكر الله أن مقاطعة الرجل أهله وأقاربه في الدين واجبة فالمؤمن لا يوالي الكافر وإن كان أباه وأخاه وابنه وهو قوله تعالى: ﴿**إن استحبوا الكفر على الإيمان**﴾ يعني إن اختاروا الكفر وأقاموا عليه وتركوا الإيمان بالله ورسوله ﴿**ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون**﴾ يعني ومن يختار المقام معهم على الهجرة والجهاد فقد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله واختيار الكفار على المؤمنين ولما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا: لم يهاجروا إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا فأنزل الله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿**قل**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة ﴿**إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم**﴾ وقرىء على الجمع وعشيراتكم العشيرة هم الأدنون من أهل الإنسان الذين يعاشرونه دون غيرهم ﴿**وأموال اقترفتموها**﴾ يعني اكتسبتموها ﴿**وتجارة تخشون كسادها**﴾ يعني بفراقكم لها ﴿**ومساكن ترضونها**﴾ يعني تستوطنوها راضين بسكناها ﴿**أحب إليكم من الله ورسوله**﴾ يعني أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴿**وجهاد في**

قصة العباس وطلحة وامْتِنَاعِهِما من الهجرة. وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: قال: لمّا أمر النبي ﷺ الناس بالهجرة إلى المدينة فمنعهم مَن تعلّق به وأهله وولده يقولون ننشدك بالله أن لا تضيعنا. فيرقّ لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدّوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهى الله عن ولايتهم، فأنزل الله: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءَكم وإخوانَكم أولياءَ** ﴾ بطانةً وأصدقاءً فتفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة والجهاد، ﴿ **إن استحبّوا** ﴾، اختاروا ﴿ **الكفرَ على الإيمان ومَن يتولّهم منكم** ﴾، فيطلعهم على عورة المسلمين ويُؤثر المقام معهم على الهجرة والجهاد، ﴿ **فأولئكَ هُمُ الظالمون** ﴾، وكان في ذلك الوقت لا يُقبل الإيمان إلاّ من مهاجر، فهذا معنى قوله: ﴿ **فـأولئكَ هم الظالمون** ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ **قلْ** ﴾ يا محمد لهؤلاء المتخلّفين عن الهجرة، ﴿ **إن كان آباؤكم** ﴾، وذلك لمّا نزلت الآية الأولى قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إن نحنُ هاجرنا ضاعت أموالُنا وذهبت تجاراتنا وخُربتْ دورُنا وقطعنا أرحامنا، فنزل: ﴿ **قلْ إن كان آباؤكم** ﴾، ﴿ **وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجُكم وعشيرتُكم** ﴾، قرأ أبو بكر عن عاصم: « **عشيراتكم** » بالألف على الجمع، والآخرون بلا ألف عل التوحيد لأن العشيرة واقعة على الجمع، ويقوّي

سبيله﴾ فبين الله سبحانه وتعالى أنه يجب تحمل جميع المضار في الدنيا ليبقى الدين سليماً وأخبر أنه كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة في سبيل الله ﴿فتربصوا﴾ أي فانتظروا ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ يعني بقضائه وهذا أمر تهديد وتخويف وقال مجاهد ومقاتل يعني بفتح مكة ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يعني الخارجين عن طاعته، وفي هذا دليل على أنه إذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿لقد نصركم الله﴾ النصر المعونة على الأعداء بإظهار المسلمين عليهم ﴿في مواطن كثيرة﴾ يعني أماكن كثيرة والمراد بها غزوات رسول الله ﷺ وسراياه وبعوثه وكانت غزوات رسول الله ﷺ على ما ذكره في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة زاد بريدة في حديثه قاتل في ثمان منهم ويقال إن جميع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون وقيل: ثمانون وهو قوله تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ ﴿ويوم حنين﴾ يعني: ونصركم الله في يوم حنين أيضاً فأعلم الله سبحانه وتعالى أنه هو الذي يتولى نصر المؤمنين في كل موقف وموطن ومن يتولى الله نصره فلا غالب له وحنين اسم واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً. وقال عروة: هو إلى جنب ذي المجاز وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة أن رسول الله ﷺ فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان فخرج إلى حنين لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفاً عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وألفان من الطلقاء وقال عطاء: كانوا ستة عشر ألفاً. وقال الكلبي: كانوا عشرة آلاف وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قط وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف وكان على هوازن مالك بن عوف النصري وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار يقال له سلمة بن سلامة بن رقيش لن نغلب اليوم من قلة فساء رسول الله ﷺ كلامه ووكلوا إلى كلمة الرجل. وفي رواية: فلم يرض الله قوله ووكلهم إلى أنفسهم. وذكر ابن الجوزي عن سعيد بن المسيب، أن القائل لذلك أبو بكر الصديق. وحكى ابن جرير الطبري: أن القائل لذلك رسول الله ﷺ وإسناد هذه الكلمة إلى رسول الله ﷺ فيه بعد لأنه ﷺ كان في جميع أحواله متوكلاً على الله عز وجل لا يلتفت إلى كثرة عدد ولا إلى غيره بل نظره إلى ما

هذه القراءة أن أبا الحسن الأخفش قال: لا تكاد العرب تجمع العشيرة على العشيرات، إنما نجمعها على العشائر. ﴿ وأموالٌ اقترفتمُوها وتجارةٌ تخشَوْنَ كسادَها ومساكِنُ ترضونَها ﴾، أي: تستطيبونها يعني القصور والمنازل، ﴿ أحبَّ إليكم منَ الله ورسولِهِ وجهادٍ في سبيله فتربّصُوا ﴾، فانتظروا، ﴿ حتى يأتي الله بأمره ﴾، قال عطاء: بقضائه. وقال مجاهد ومقاتل: بفتح مكة وهذا أمر تهديد، ﴿ واللّهُ لا يهدي ﴾ لا يُوفّق ولا يُرشد ﴿ القومَ الفاسقين ﴾، الخارجون عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿ لقدْ نصرَكُم اللّهُ في مواطنَ ﴾، أي مشاهد، ﴿ كثيرةٍ ويَوْمَ حُنينٍ ﴾، وحنين وادٍ بين مكة والطائف، وقال عكرمة: إلى جنب ذي المجاز. وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة: أن رسول الله ﷺ فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان، ثم خرج إلى حُنين لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفاً، عشرة آلاف من المهاجرين وألفان من الطلقاء. قال عطاء كانوا ستّة عشر ألفاً. وقال الكلبي: كانوا عشرة آلاف، وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قطّ، والمشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف، وعلى هوازن مالك بن عوف النصري، وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل الثقفي، فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار يقال له سلمة بن وقش: لن نُغلبَ اليومَ عن قلّة فساء رسول الله ﷺ كلامه ووكّلوا إلى كلمة الرجل. وفي رواية: فلم يرضَ الله قوله، ووَكَلَهم إلى أنفسهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم المشركون وخلوا عن الذراري، ثم نادوا: يا حماة السواد اذكروا الفضائح، فتراجعوا وانكشف المسلمون. قال قتادة: وذكر لنا أن الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا. أخبرنا إسماعيل بن

يأتي من عند الله عز وجل من النصر والمعونة قالوا: فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم المشركون وخلوا عن الذراري ثم تنادوا: يا حماة السواد اذكروا الفضائح. فتراجعوا وانكشف المسلمون. وقال قتادة: ذكر لنا أن الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا (ق)

عن أبي إسحاق قال: جاء رجل إلى البراء فقال: أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة فقال أشهد على نبي الله ﷺ ما ولى ولكنه انطلق أخفاء من الناس وحسر إلى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برقش من نبل كأنها رجل من جراد فانكشفوا فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول: أنا النبي لاكذب أنا ابن عبد المطلب اللهم نصرك. زاد أبو خيثمة ثم وصفهم. قال البراء: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به وإن الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ. عن أبي إسحاق قال: قال رجل للبراء بن عازب يا أبا عمارة فررتم يوم حنين قال لا والله ما ولى رسول الله ﷺ ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤه حسراً ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم جمع هوازن وبنى نصر فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به فنزل ودعا واستنصر وقال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم صفهم وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: قال البراء إن هوازن كانوا قوماً رماة ولما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فأقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فأما رسول الله ﷺ فلم يفر.

عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا يحيىٰ بن يحيىٰ أخبرنا أبو خيثمة عن أبي إسحاق قال: قال رجل للبرّاء بن عازب يا أبا عمارة فررتم يوم حنين، قال: لا والله ما ولّى رسول الله ﷺ ولكنه خرج شبّان أصحابه وأخفاؤهم وهم حُسّرٌ ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح، فلقوا قوماً رُماة لا يكاد يسقط لهم سهم، جمع هوازن وبني نصر فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل واستنصر وقال: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطّلب، ثم صفّهم. ورواه محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق. وزاد قال: فما رُوِيَ مِنَ الناس يومئذ أشدَّ منه. ورواه زكريا عن أبي إسحاق. وزاد قال البراء: كنّا إذا احمرّ البأس نتّقي به وإن الشجاع منّا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ. وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: قال البراء: إن هوازن كانوا قوماً رماة وإنّا لمّا لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام، فأمّا رسول الله ﷺ فلم يفرّ. قال الكلبي: كان حول رسول الله ﷺ ثلثمائة من المسلمين وانْهزَمَ سائرُ الناس. وقال آخرون: لم يبقَ مع النبي ﷺ يومئذ غير العباس بن عبد المطّلب وأبو سفيان بن الحارث وأيمن ابن أُم أيمن، فقتل يومئذ بين يدي رسول الله ﷺ أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج قال: حدّثنا أبو طاهر أحمد بن عمرو بن سرج ثنا أبو وهب أخبرنا يونس عن ابن شهاب، قال: حدّثني كثير بن عباس بن عبد المطلب قال: قال عباس: شهدتُ مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمتُ أنا وأبو سفيان بن الحارث رسولَ الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفّار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يُركض بغلته قبلَ الكفّار، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفُّها إرادةً أن لا تسرع، وأبو سفيان

قوله: ولكنه انطلق اخفاء من الناس. الإخفاء: جمع خفيف وهم المسرعون من الناس الذين ليس لهم ما يعوقهم. والحسر: جمع حاسر وهو الذي لا درع عليه يقال إذا رمى القوم بأسرهم إلى جهة واحدة: رمينا رشقاً، والرجل من الجراد القطعة الكبيرة منه. وقوله: كنا إذا احمر البأس يعني إذا اشتد الحرب والبأس بالموحدة من تحت الشدة والخوف. وقال الكلبي: كان حول رسول الله ﷺ ثلثمائة من المسلمين وانهزم سائر الناس وقال غيره لم يبق مع النبي ﷺ يومئذ غير عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه أبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن قتل يوم حنين بين يدي رسول الله ﷺ وهذا أيمن أخو أسامة بن زيد لأمه أمهما بركاة مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته (م)

عن العباس بن عبد المطلب قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن فائة الجذامي فلما التقى المسلمون والكفار ولي المسلمون مدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار قال العباس وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ أي عباس ناد أصحاب السمرة فقال العباس، وكان رجلاً صيتاً: فقلت بأعلى صوتي أين أصحاب السمرة. قال: فوالله لكان عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها فقالوا لبيك لبيك. قال: فاقتتلوا والكفار والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحرث بن الخزرج. فقالوا: يا بني الحرث بن الخزرج يا بني الحرث بن الخزرج فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ هذا حين حمي الوطيس قال ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: انهزموا ورب محمد. قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً.

آخذ بركابه، فقال رسول الله ﷺ: «أيْ عباس نادِ أصحاب السَّمُرة»، فقال عباس: وكان رجلاً صيتاً فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله لكان عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفّار والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: «هذا حين حمي الوطيس»، ثم أخذ رسولُ الله ﷺ حصياتٍ فرمَى بهنّ وجوهَ الكفّار، ثم قال: «انهزموا وربِّ محمد»، فذهبتُ أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدّهم كليلاً، وأمرهم مدبراً، وقال سلمة بن الأكوع: غزونا مع رسول الله ﷺ حُنيناً قال: فلما غَشُوا رسولَ الله ﷺ نزلَ عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل وجوههم، فقال: «شاهت الوُجوه»، فما خلّى الله منهم إنساناً إلّا ملأ عينه تراباً بتلك القبضة، فولُّوا مُدْبِرين، فهزمهم الله عزّ وجلّ فقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين. قال سعيد بن جبير: أمدّ الله تعالى نبيّه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين. وفي الخبر: أن رجلاً من بني نضر يقال له شجرة، قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البلق والرجال الذين عليهم ثياب بيض، ما كنّا نراكم فيهم إلّا كهيئة الشامة وما كنّا قلنا إلا بأيديهم. فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: «تلك الملائكة». قال الزهري: وبلغني أن شيبة بن عثمان بن طلحة قال: استدبرتُ رسولَ الله ﷺ يوم حُنين وأنا أُريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة، وكانا قد قتلا يوم أُحُد، فأطلع اللّهُ رسولَهُ ﷺ على ما في نفسي فالتفتَ إليّ وضرب في صدري وقال أعيذك بالله يا شيبة، فارتعدتْ فرائصي فنظرت إليه وهو أحبّ إليّ من سمعي وبصري، فقلت: أشهد أنكَ رسول الله، وإن الله قد أطلعك على ما في نفسي، فلما هزم الله المشركين وولّوا مدبرين، انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم،

قوله حمي الوطيس، أي اشتد الحرب. قال الخطابي: هذه الكلمة لم تسمع قبل أن يقولها النبي ﷺ من العرب وهي ما اقتضبه وأنشأه. والوطيس في اللغة: التنور. وقوله: حدهم كليلاً يعني لا يقطع شيئاً (م)

عن سلمة بن الأكوع قال: غزونا مع رسول الله ﷺ حنيناً قال: فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن بغلته ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل به وجوههم. وقال: شاهت الوجوه فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله بذلك وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين أخرجه مسلم بزيادة فيه قال سعيد بن جبير: أمد الله نبيه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وروى أن رجلاً من بني نصر يقال له شجرة قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البالق والرجال عليهم ثياب بيض ما كنا نراهم فيكم إلا كهيئة الشامة وما كان قتلنا إلا بأيديهم فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: تلك الملائكة. وروي أن رجلاً من المشركين قال يوم حنين لما التقينا وأصحاب محمد لم يقفوا لنا حلب شاة أن كشفناهم فبينا نحن نسوقهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا. قال: فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها.

واختلفوا هل قاتلت الملائكة يوم حنين على قولين والصحيح أنها لم تقاتل إلا يوم بدر وإنما كانت الملائكة يوم حنين مدداً وعوناً. وذكر البغوي أن الزهري قال: بلغني أن شيبة بن عثمان قال استدبرت رسول الله ﷺ يوم حنين وأنا أريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة وكانا قد قتلا يوم أحد فأطلع الله رسوله على ما في نفسي فالتفت إليّ وضرب في صدري وقال أعيذك بالله يا شيبة فارعدت فرائصي فنظرت إليه وهو أحب إليّ من سمعي وبصري فقلت أشهد أنك رسول الله ﷺ قد أطلعك الله على ما في نفسي فلما هزم الله المشركين وولوا مدبرين انطلقوا إلى أوطاس

فبعث رسول الله رجلاً من الأشعريين يقال له أبو عامر وأمره على جيش المسلمين إلى أوطاس، فسار إليهم فاقتتلوا، وقيل: دريد بن الصمة، وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيالهم وهرب أميرهم مالك بن عوف النضري، فأتى الطائف فتحصَّنَ بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ. وقُتل أميرُ المسلمين أبو عامر. قال الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستّة آلاف سبي، ثم إن رسول الله ﷺ أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر، فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم، فأتى الجعرّانة فأحرم منها بعُمرة وقسّم فيها غنائم حنين، وأوطاس وتألّف أناساً منهم أبو سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس فأعطاهم، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان ثنا شعيب ثنا الزهري أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ أناساً من الأنصار قالوا لرسول الله ﷺ حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؟ قال أنس: فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبّة من أدم ولم يدع معهم أحداً غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما كان حديث بلغني عنكم»؟ فقال له فقهاؤهم أمّا ذُوو رأينا يا رسول الله، فلم يقولوا شيئاً، وأما أناسٌ منّا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يُعطي قريشاً ويترك الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: «إني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله ﷺ؟ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به» قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا، فقال لهم: «إنكم سترون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض». وقال يونس عن ابن شهاب: (فإنّي أُعطي رجالاً حديثي عهد بالكفر أتألفهم)، وقال: «فاصبروا حتى تلقَوُا اللّهَ ورسولَه فإنّي على الحوض»، قالوا: سنصبر. أخبرنا عبد الواحد بن

وبها عيالهم وأموالهم فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من الأشعريين يقال له أبو عامر وأمره على الجيش فسار إلى أوطاس فاقتتلوا بها وقتل دريد بن الصمة وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيال المشركين وهرب أميرهم مالك بن عوف النصري فأتى الطائف فتحصن بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ وقتل أبو عامر أمير المسلمين. قال الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف صبي ثم إن رسول الله ﷺ أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم وأتى الجعرانة فأحرم منها بعمرة وقسم بها غنائم حنين وأوطاس وتألف أناساً منهم أبو سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو والأقرع بن حابس فأعطاهم (ق). عن أنس بن مالك أن ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل فقالوا يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم قال أنس فحدث بذلك رسول الله ﷺ من قولهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم ولم يدع معهم غيرهم فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: حديث بلغني عنكم فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله لم يقولوا شيئاً وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم فقال له رسول الله ﷺ: فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم أفلا ترضون أن تذهب الناس بالأموال وترجعوا إلى رحالكم برسول الله ﷺ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به. قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا. قال: فإنكم ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض قالوا سنصبر زاد في رواية قال أنس فلم نصبر (ق) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمن قال: فما منعكم أن تجيبوا رسول الله كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله آمن قال لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا أترضون أن تذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبوا بالنبي إلى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم الأنصار شعار والناس دثار (م)

عن رافع بن خديج قال: أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن

أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا وهيب ثنا عمرو؛ بن يحيىٰ عن عباد بن تميم عن عبد الله يزيد بن عاصم قال: لمّا أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حُنين قسم في الناس في المؤلّفة قلوبهم ولم يعطِ الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذْ لم يصيبوا ما أصابه الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي وكنتم عالَةً فأغناكم الله بي»؟ كلما قال شيئاً قالوا: اللّهُ ورسولُه أَمَنْ قال: «ما يمنعكم أن تُجيبوا رسولَ الله ﷺ كلّما قال شيئاً»، قالوا: الله ورسوله أَمَنْ؟ قال: «لو شئتُم قلتُم كذا وكذا»، وكان من الأمر كذا وكذا لأشياء عددها، كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أَمَنْ؟ قال: «أَمَا ترْضَونَ أن يذهب الناس بالشِياه والغنم والبعير، وتذهبوا بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، الأنصار شِعارٌ والناسُ دِثار، إنكم ستلقون بعدي أَثَرَةً فاصْبرُوا حتى تلقوني على الحوض». أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا محمد بن أبي عمرو المكّي ثنا سفيان عن عمرو بن مسروق عن أبيه عن عباد بن رفاعة عن رافع بن خديج قال: أعطى رسولُ الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أُميّة وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل وأعطى

حابس كل إنسان مائة من الإبل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس:

أتجعـــل نهبـــي ونهـــب العبـ ـيـــد بيـــن عيينـــة والأقـــرع
فمـــا كـــان حصـــن ولا حـــابـــس يفـــوقـــان مـــرداس فـــي مجمـــع
ومـــا كنـــت دون امـــرىء منهمـــا ومـــن يخفـض اليـوم لا يـــرفـــع

قال: فأتم رسول الله ﷺ له مائة (خ) عن المسور ومروان أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد عليهم مالهم وسبيهم فقال لهم رسول الله ﷺ: إن معي من ترون وأحب الحديث إلي أصدقه فاختاروا إحدى الطائفتين إما المال وإما السبي وقد كنت استأنيت بكم.

وفي رواية: وقد كان رسول الله ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد عليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا إنا نختار سبينا فقام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك لهم فليفعل فقال الناس قد طيبنا ذلك لهم يا رسول الله. فقال لهم في ذلك: إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس فكلمتهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا فهذا الذي بلغنا من سبي هوازن وأنزل الله عز وجل في قصة حنين لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين ﴿**إذ أعجبتكم كثرتكم**﴾ يعني حين قلتم لن نغلب اليوم من قلة ﴿**فلم تغن عنكم**﴾ يعني كثرتكم ﴿**شيئاً**﴾ يعني أن

عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

فـمـا كـان حَـصـن ولا حـابـس يـفـوقـان مـرداس في مـجـمـع
تـجـعـل نـهـى ونـهـب الـعـبـ ـيـد بـيـن عـيـيـنـة والأقـرع
ومـا كنت دون امـرىء مـنـهـمـا ومَـن يخفض الـيـوم لا يـرفـع

قال: فأتمّ له رسول الله ﷺ مائة. وفي الحديث: أن ناساً من هوازن أقبلوا مسلمين بعد ذلك، فقالوا: يا رسول الله أنت خيرُ الناس وأبرُّ الناس، وقد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا سعيد بن عفير حدّثني الليث حدّثني عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير: أن مروان والمسور بن مخرمة أخبراه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يردّ إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن معي مَن ترون وأُحبّ» الحديث إلى أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال. قالوا فإنّا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ: «فأثنى على الله عزّ وجلّ بما هو أهله»، ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين وإني قد رأيت أن أردّ إليهم سبيهم، فمَن أحبّ منكم أن يطيب ذلك لهم فليفعل ومَن أحبّ أن يكون على حظ حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا، فليفعل» فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إنّا لا ندري مَن أذن منكم في ذلك ممّن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم فرجع الناس، فكلّمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا، فأنزل الله تعالى في قصة حنين ﴿ **لقدْ نصركم اللّهُ في مواطنَ كثيرة ويوم حنين إذْ أعجبتْكُم كثرتُكم** ﴾، حتى قلتم: لن نغلب اليوم من قلّة، ﴿ **فلم تُغن عنكم** ﴾، كثرتُكم، ﴿ **شيئاً** ﴾، يعني إن الظفر لا يكون بالكثرة، ﴿ **وضاقتْ عليكمُ الأرض بما رحبت** ﴾، أي برحبها وسعتها، ﴿ **ثم ولّيتم مدبرين** ﴾، منهزمين.

الظفر بالعدو ليس بكثرة العدد ولكن إنما يكون بنصر الله ومعونته ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾ يعني بسعتها وفضائها ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ يعني منهزمين.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ثم أنزل الله سكينته﴾ يعني بعد الهزيمة والسكينة والطمأنينة والأمنة، وهي فعلية من السكون وذلك أن الإنسان إذا خاف رجف فؤاده فلا يزال متحركاً وإذا أمن سكن فؤاده وثبت فلما كان الأمن موجباً للسكون جعل لفظ السكينة كناية عن الأمن.

وقوله تعالى: ﴿على رسوله وعلى المؤمنين﴾ إنما كان إنزال السكينة على المؤمنين لأن الرسول ﷺ ساكن القلب ليس عنده اضطراب كما حصل للمؤمنين من الهزيمة واضطراب في هذه الواقعة ثم من الله عليهم بإنزال السكينة عليهم حتى رجعوا إلى قتال عدوهم بعد الهزيمة ورسول الله ﷺ ثابت لم يفر ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ يعني الملائكة تثبيت المؤمنين وتشجيعهم وتخذيل المشركين وتجبينهم لا للقتال لأن الملائكة لم تقاتل إلا يوم بدر ﴿وعذب الذين كفروا﴾ يعني بالأسر والقتل وسبي العيال والأموال ﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ يعني في الدنيا ثم إذا أفضوا إلى الآخرة كان لهم عذاب أشد من ذلك العذاب وأعظم ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ يعني فيهديه إلى الإسلام كما فعل بمن بقي من هوازن حيث أسلموا وقدموا على رسول الله ﷺ تائبين فمَّن عليهم وأطلق سبيهم ﴿والله غفور﴾ إن تاب ﴿رحيم﴾ بعباده.

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾ قيل: أراد بالمشركين عبدة الأصنام دون غيرهم من أصناف الكفار. وقيل: بل أراد جميع أصناف الكفار عبدة الأصنام وغيرهم من اليهود والنصارى. والنجس: الشيء

﴿ ثم أنزل الله ﴾ بعد الهزيمة، ﴿ سكينته ﴾، يعني: الأمنَة والطمأنينة، وهي فعيلة من السكون ﴿ على رسولِه وعلى المؤمنينَ وأنزلَ جنوداً لم تروها ﴾، يعني: الملائكة. قيل: لا للقتال ولكن لتجبين الكفّار وتشجيع المسلمين، لأنه يُروى أن الملائكة لم يقاتلوا إلاّ يوم بدر، ﴿ وعذّبَ الذين كفروا ﴾، بالقتل والأسر وسبي العيال وسلب الأموال، ﴿ وذلك جزاءُ الكافرين ﴾.

﴿ ثمّ يتوبُ اللّهُ من بعدِ ذلكَ على مَن يشاءُ ﴾، فيهديه إلى الإسلام، ﴿ واللّهُ غفورٌ رحيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيّها الذين آمنوا إنّما المشركون نجس ﴾ الآية، قال الضحاك وأبو عبيدة: نجس قذر. وقيل: خبيث. وهو مصدر يستوي فيه الذكر والأنثى والتثنية والجمع، فأما النجس بكسر النون وسكون الجيم فلا يقال على الانفراد، إنما يقال: رِجْسٌ نَجْسٌ، فإذا أُفرد قيل: نَجِسٌ بفتح النون وكسر الجيم وأراد به نجاسة الحكم لَا نجاسة العين، سُمّوا نجساً على الذم. وقال قتادة: سمّاهم نجساً لأنهم يُجنبون فلا يغتسلون ويُحدثون فلا يتوضؤون. قوله تعالى: ﴿ فلا يقربُوا المسجدَ الحرامَ ﴾، أراد منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام، وأراد به الحرم وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ سبحانَ الذي أسرَى بعبدهِ ليلاً مِّنَ المسجد

القذر من الناس وغيرهم. وقيل: النجس الشيء الخبيث وأراد بهذه النجاسة نجاسة الحكم لا نجاسة العين. سموا نجساً على الذم لأن الفقهاء اتفقوا على طهارة أبدانهم. وقيل: هم أنجاس العين كالكلب والخنزير. حتى قال الحسن بن صالح: من مس مشركاً فليتوضأ. ويروى هذا عن الزيدية من الشيعة والقول الأول أصح وقال قتادة سماهم: نجساً لأنهم يجنبون فلا يغتسلون ويحدثون فلا يتوضؤون ﴿**فلا يقربوا المسجد الحرام**﴾ المراد: منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام ويؤكد هذا قوله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام أراد به الحرم لأنه أسرى به ﷺ من بيت أم هانىء. قال العلماء: وجملة بلاد الإسلام في حق الكفار ثلاثة أقسام أحدها: الحرم فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال ذمياً كان أو مستأمناً لظاهر هذه الآية وبه قال الشافعي وأحمد ومالك فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام في الحرم فلا يأذن له في دخول الحرم بل يخرج إليه بنفسه أو يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهدة حول الحرم القسم الثاني من بلاد الإسلام الحجاز وحده ما بين اليمامة واليمن ونجد والمدينة الشريفة قيل نصفها تهامي ونصفها حجازي. وقيل: كلها حجازي. وقال ابن الكلبي: حد الحجاز ما بين جبل طيء وطريق العراق سمي حجازاً لأنه حجز بين تهامة، ونجد. وقيل: لأنه حجز بين نجد والسراة. وقيل: لأنه حجز بين نجد وتهامة والشام. قال الحربي: وتبوك من الحجاز فيجوز للكفار دخول أرض الحجاز بالإذن ولكن لا يقيمون فيها أكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة أيام (م)

عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلماً زاد في رواية لغير مسلم وأوصى فقال أخرجوا المشركين من جزيرة العرب فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر في خلافته وأجل لمن يقدم تاجراً ثلاثاً. عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: لا يجتمع دينان في جزيرة العرب أخرجه مالك في الموطأ مرسلاً (م)

عن جابر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم. قال سعيد بن عبد العزيز: جزيرة العرب ما بين الوادي إلى أقصى اليمن إلى تخوم العراق إلى البحر وقال غيره حد جزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول ومن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام عرضاً والقسم الثالث سائر بلاد الإسلام فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة ولكن لا يدخلون المساجد إلا بإذن مسلم.

وقوله تعالى: ﴿**بعد عامهم هذا**﴾ يعني العام الذي حج فيه أبو بكر الصديق بالناس وفيه نادى على براءة وأن لا

الحرام ﴾ [الإسراء: ١]، وأراد به الحرم لأنه أسرى به من بيت أُم هانىء. قال الشيخ الإمام الأجلّ: وجملة بلاد الإسلام في حق الكفّار على ثلاثة أقسام: أحدها الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخله بحال ذميّاً كان أو مستأمناً لظاهر هذه الآية، وإذا جاء رسول من بلاد الكفّار إلى الإمام والإمام في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم بل يبعث إليه مَن يسمع رسالته خارج الحرم. وجوّز أهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم. والقسم الثاني من بلاد الإسلام: الحجاز فيجوز للكافر دخولها بالإذن ولكن لا يقيم فيها أكثر من مقام السفر وهو ثلاثة أيام، لِما رُوِيَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لئن عشتُ إن شاء الله تعالى لأخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدعَ فيها إلّا مسلماً». فمضى رسول الله ﷺ وأوصى فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»، فلم يتفرّغ لذلك أبو بكر رضي الله عنه، وأجلاهم عمر رضي الله عنه في خلافته، وأجلّ لمَن يقدم منهم تاجراً ثلاثاً. وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول، وأما العرض فمن جدّة وما وَالاَهَا من ساحل البحر إلى أطراف الشام. والقسم الثالث: سائر بلاد الإسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بذمّة أو أمان، ولكن لا يدخلون

يحج بعد العام مشرك وهو سنة تسع من الهجرة ﴿وإن خفتم عيلة﴾ يعني فقراً وفاقة وذلك أن أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يجلبون إلى مكة الطعام ويتجرون فلما منعوا من دخول الحرم خاف أهل مكة من الفقر وضيق العيش فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل وإن خفتم عيلة ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ قال عكرمة: فأغناهم الله بأن أنزل المطر مدراراً وكثر خيرهم وقال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة: عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها ﴿إن شاء﴾ قيل: إنما شرط المشيئة في الغنى المطلوب ليكون الإنسان دائم التضرع والابتهال إلى الله تعالى في طلب الخيرات ودفع الآفات وأن يقطع العبد أمله من كل أحد إلا من الله عز وجل فإنه هو القادر على كل شيء وقيل إن المقصود من ذكر هذا الشرط تعليم رعاية الأدب كما في قوله تبارك وتعالى لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴿إن الله عليم﴾ يعني بما يصلحكم ﴿حكيم﴾ يعني أنه تعالى لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة وصواب فمن حكمته أن منع المشركين من دخول الحرم وأوجب الجزية والذل والصغار على أهل الكتاب فقال تعالى:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ قال مجاهد: نزلت الآية حين أمر النبي ﷺ بقتال الروم فغزا بعد نزولها غزوة تبوك، وقال الكلبي: نزلت في قريظة والنضير من اليهود فصالحهم فكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين وهذا خطاب للنبي ﷺ وأصحابه المؤمنين والمعنى قاتلوا أيها المؤمنون القوم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

فإن قلت اليهود والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؟

قلت: إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين وذلك أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه، والنصارى يعتقدون

المساجد إلّا بإذن مسلم قوله: ﴿ بعدَ عامهم هذا ﴾، يعني: العام الذي حجّ فيه أبو بكر رضي الله عنه بالنّاس، ونادَى عليّ كرّم الله وجهه ببراءة، وهو سنة تسع من الهجرة. قوله: ﴿ وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً ﴾، وذلك أنّ أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتجرون، فلما مُنِعُوا من دخول الحرم خافُوا الفقر، وضيقَ العيش، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ وإن خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ فقراً وفاقةً. يُقال: عال يعيل عَيْلةً إذا افتقر، ﴿ فسوفَ يُغنيكُم اللَّهُ مِنْ فضْلِه إنْ شاءَ إنّ اللَّهَ عليمٌ حكيمٌ ﴾، قال عكرمة: فأغناهم الله عزّ وجلّ بأن أنزل عليهم المطر مدراراً فكثر خيرهم. وقال مقاتل: أسلم أهل جدّة وصنعاء وجريش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون. وقال الضحاك وقتادة: عوّضهم الله منها الجزية فأغناهم بها.

قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤمنونَ باللَّهِ ﴾، قال مجاهد: نزلت هذه الآية حين أُمر رسول الله ﷺ بقتال الروم، فغزا بعد نزولها غزوة تبوك. وقال الكلبي: نزلت في قريظة والنضير من اليهود، فصالحهم وكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام، وأول ذُلّ أصاب أهل الكتاب بأيدي المسلمين: قال الله تعالى: ﴿ قاتلوا الذين لا يُؤمنون باللَّهِ ولا باليوم الآخر ﴾، فإنْ قيل: أهل الكتاب مؤمنون بالله واليوم الآخر؟ قيل: لا يؤمنون كإيمان المؤمنين، فإنهم إذا قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله، لا يكون ذلك إيماناً بالله. ﴿ ولا يُحرِّمُونَ ما حرّمَ اللَّهُ ورسولُهُ ولا يَدِينُون دِينَ الحقّ ﴾، أي: لا يدينون الدين الحق، أضاف الاسم إلى الصفة. وقال قتادة: الحق هو الله، أي: لا يدينون

الحلول، ومن اعتقد ذلك فليس بمؤمن بالله. وقيل: من اعتقد أن عزيزاً ابن الله وأن المسيح ابن الله فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك بالله. وقيل: من كذب رسولاً من رسل الله فليس بمؤمن بالله واليهود والنصارى يكذبون أكثر الأنبياء فليسوا بمؤمنين بالله. وأما إيمانهم باليوم الآخر، فليس كإيمان المؤمنين، وذلك أنهم يعتقدون بعثة الأرواح دون الأجساد ويعتقدون أن أهل الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون ومن اعتقد ذلك فليس إيمانه كإيمان المؤمنين وإن زعم أنه مؤمن.

وقوله تعالى: **﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾** يعني: ولا يحرمون الخمر والخنزير. وقيل: معناه أنهم لا يحرمون ما حرم الله في القرآن ولا ما حرم رسوله في السنة. وقيل: معناه لا يعملون بما في التوراة والإنجيل بل حرفوهما وأتوا بأحكام من قبل أنفسهم **﴿ولا يدينون دين الحق﴾** يعني: ولا يعتقدون صحة الإسلام الذي هو دين الحق. وقيل: الحق هو الله تعالى ومعناه: ولا يدينون دين الله ودينه الإسلام وهو قوله تعالى إن الدين عند الله الإسلام وقيل معناه ولا يدينون دين أهل الحق وهم المسلمون ولا يطيعون الله كطاعتهم **﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾** يعني أعطوا الكتاب وهم اليهود والنصارى **﴿حتى يعطوا الجزية﴾** وهي ما يعطى المعاهد من أهل الكتاب على عهده وهي الخراج المضروب على رقابهم سميت جزية للاجتزاء بها في حقن دمائهم **﴿عن يد﴾** يعني عن قهر وغلبة يقال لكل من أعطى شيئاً كرهاً من غير طيب نفس أعطى عن يد وقال ابن عباس: يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم وقيل: يعطونها نقداً لانسيئة. وقيل: يعطونها مع إقرارهم بإنعام المسلمين عليهم بقبولها منهم **﴿وهم صاغرون﴾** من الصغار وهو الذل والإهانة يعني يعطون الجزية وهم أذلاء مقهورون وقال عكرمة: يعطون الجزية وهم قائمون والقابض جالس. وقال ابن عباس: تؤخذ الجزية من أحدهم وتوطأ عنقه وقال الكلبي: إذا أعطى يصفع قفاه وقال هو أن يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه ويقال له أدِّ حق الله يا عدو الله وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: الصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم.

دينَ الله، ودينه الإسلام. وقال أبو عبيدة: معناه ولا يطيعونَ الله تعالى طاعة أهل الحقّ. **﴿ مِنَ الذين أُوتُوا الكتابَ ﴾**، يعني: اليهود والنصارى. **﴿ حتَّى يعطُوا الجزية ﴾**، وهي الخراج المضروب على رقابهم، **﴿ عَنْ يَدٍ ﴾**، عن قهر وذلّ. قال أبو عبيدة: يقال لكل مَن أعطى شيئاً كرهاً من غير طيب نفس أعطاه عن يد. وقال ابن عباس: يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم. وقيل: عن يد أي نقد لا نسيئة. وقيل: عن إقرار بإنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية منهم، **﴿ وهم صَاغِرُون ﴾**، أذلاّء مقهورون. قال عكرمة: يعطون الجزية عن قِيام، والقابض جالس. وعن ابن عباس قال: تُؤخذ منه ويُوطأ عنقه، وقال الكلبي: إذا أعطى صفع في قفاه. وقيل: يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه، وقيل: يُلبّب ويُجرّ إلى موضع الإعطاء بعنف وقيل: إعطاؤه إيّاها هو الصغار. وقال الشافعي رحمه الله: الصغار هو جريان أحكام الإسلام عليهم، واتفقت الأمة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتابين، وهم اليهود والنصارى إذا لم يكونوا عرباً. واختلفوا في الكتابي العربي وفي غير أهل الكتاب من كفّار العجم، فذهب الشافعي إلى أنّ الجزية على الأديان لا على الأنساب فتؤخذ من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجماً، ولا تؤخذ من أهل الأوثان بحال، واحتجّ بأن النبي ﷺ أخذها من أكيد ردومة، وهو رجل من العرب يقال إنه من غسان، وأخذ من أهل ذمّة اليمن وعامّتهم عرب. وذهب مالك والأوزاعي إلى أنها تؤخذ من جميع الكفّار إلاّ المرتد، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: تُؤخذ من أهل الكتاب على العموم وتؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب. وقال أبو يوسف: لا تؤخذ من العربي كتابياً كان أو مشركاً وتُؤخذ من العجمي كتابياً كان أو مشركاً، وأما المجوس فاتفقت الصحابة رضي الله عنهم على أخذ الجزية منهم. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا

(فصل في بيان أحكام الآية)

اجتمعت الأمة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إذا لم يكونوا عرباً واختلفوا في أهل الكتاب العرب وفي غير أهل الكتاب من كفار العجم، فذهب الشافعي إلى أن الجزية على الأديان لا على الأنساب فتؤخذ من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجماً ولا تؤخذ من عبدة الأوثان بحال واحتج بما روي عن أنس: أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أكيد ردومة فأخذوه فأتوا به فحقن دمه وصالحه على الجزية أخرجه أبو داود وقال الشافعي: وهو رجل من العرب يقال إنه من غسان وأخذ من أهل ذمة اليمن وعامتهم عرب وذهب مالك والأوزاعي إلى أن الجزية تؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد. وقال أبو حنيفة: تؤخذ من أهل الكتاب على العموم وتؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب وقال أبو يوسف: لا تؤخذ من العربي كتابياً كان أو مشركاً وتؤخذ من العجمي كتابياً كان أو مشركاً وأما المجوس فاتفقت الصحابة على جواز الأخذ منهم ويدل عليه ما روي عن بجالة بن عبيدة ويقال عبدة: لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر. أخرجه البخاري عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال ما أدري كيف أصنع في أمرهم فقال عبد الرحمن بن عوف أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ: «يقول سنوابهم سنة أهل الكتاب» أخرجه مالك في الموطأ عن ابن شهاب قال بلغني أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس البحرين وأن عمر أخذها من مجوس فارس وأن عثمان بن عفان أخذها من البربر أخرجه مالك في الموطأ وفي امتناع عمر من أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن أن النبي ﷺ أخذها منهم دليل على أن رأي الصحابة كان على أنها لا تؤخذ من كل مشرك وإنما تؤخذ من أهل الكتاب واختلفوا في أن المجوس هل هم من أهل الكتاب. فروي عن علي بن أبي طالب أنه قال كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد أسرى على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائحهم ومناكحتهم بخلاف أهل الكتاب وأما من دخل في دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين فينظر فإن كانوا قد دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل فإنهم يقرون بالجزية وتحل مناكحتهم وذبائحهم وإن كانوا دخلوا فيه بعد النسخ بمجيء محمد ﷺ ونسخ شريعتهم بشريعته فإنهم لا يقرون بالجزية ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم ومن شككنا في أمرهم هل دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله يقرون بالجزية تغليباً لحقن الدم ولا تحل ذبائحهم ومناكحتهم تغليباً للتحريم ومنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبني تغلب أقرهم عمر على الجزية. وقال: لا تحل لنا ذبائحهم وأما الصابئة والسامرة

عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن عمرو بن دينار سمع بجالة بن عبيدة يقول: لم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم. فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سُنُّوا بهم سُنّة أهل الكتاب»، وفي امتناع عمر رضي الله عنه عن أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر، دليل على أن رأي الصحابة كان على أنها لا تُؤخذ من كل مشرك، وإنما تُؤخذ من أهل الكتاب.

واختلفوا في أن المجوس: هل هم من أهل الكتاب أم لا؟ فرُوِيَ عن علي رضي الله عنه قال: كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا يوماً، وقد أُسري على كتابهم، فرُفِعَ من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبائح المجوس ومناكحتهم بخلاف أهل الكتابين، أما مَن دخل في دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين نظر، إن دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل يُقَرُّون بالجزية وتحلّ مناكحتهم وذبائحهم، وإن دخلوا في دينهم بعد النسخ بمجيء

فسبيلهم سبيل أهل الكتاب فهم في أهل الكتاب كأهل البدع في المسلمين وأما قدر الجزية فأقلها دينار ولا يجوز أن ينقص عنه ويقبل الدينار من الغني والفقير والمتوسط ويدل عليه ما روي عن معاذ بن جبل: «أن رسول الله ﷺ لما وجهه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم أي محتلم ديناراً أو عدله من المغافرية ثياب تكون باليمن» أخرجه أبو داود فالنبي ﷺ أمره أن يأخذ من كل محتلم وهو البالغ ديناراً ولم يفرق بين الغني والفقير والمتوسط وفيه دليل على أنه لا تؤخذ الجزية من الصبيان والنساء وإنما تؤخذ من الأحرار البالغين وذهب قوم إلى أن على كل موسر أربعة دنانير وعى كل متوسط دينارين وعلى كل فقير ديناراً وهو قول أصحاب الرأي ويدل عليه ما روي عن أسلم أن عمر بن الخطاب ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهماً ومع ذلك أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام أخرجه مالك في الموطأ. قال أصحاب الشافعي: أقل الجزية دينار لا يزاد على الدينار إلا بالتراضي فإذا رضي أهل الذمة بالزيادة ضربنا على المتوسط دينارين وعلى الغني أربعة دنانير قال العلماء: إنما أقر أهل الكتاب على دينهم الباطل بخلاف أهل الشرك حرمة لآبائهم الذين انقرضوا على الدين من شريعة التوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل وأيضاً فإن بأيديهم كتباً قديمة فربما تفكروا فيها فيعرفون صدق محمد ﷺ وصحة نبوته فأمهلوا لهذا المعنى وليس المقصود من أخذ الجزية من أهل الكتاب إقرارهم على كفرهم بل المقصود من ذلك حقن دمائهم وإمهالهم رجاء أن يعرفوا الحق فيرجعوا إليه بأن يؤمنوا ويصدقوا إذا رأوا محاسن الإسلام وقوة دلائله وكثرة الداخلين فيه.

وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ الآية لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق بينه في هذه الآية فأخبر عنهم أنهم أثبتوا لله ولداً ومن جوز ذلك على الله فقد أشرك به لأنه لا فرق بين من يعبد صنماً وبين من يعبد المسيح فقد بان بهذا أنهم لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق وقد تقدم سبب أخذ الجزية منهم وإبقائهم على هذا الشرك وهو حرمة الكتب القديمة

محمد ﷺ لا يقرّون بالجزية لا تحلّ مناكحتهم وذبائحهم، ومَن شككنا في أمرهم أنهم دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله يقرّون بالجزية تغليباً لحقن الدم، ولا تحلّ مناكحتهم وذبائحهم تغليباً للتحريم، فمنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبني تغلب أقرّهم عمر رضي الله عنه على الجزية، وقال: لا تحلّ لنا ذبائحهم. وأما قدر الجزية فأقلّه دينار لا يجوز أن ينقص منه، ويقبل الدينار من الفقير والغني والوسط لِما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أنا أبو محمد عبد الجبّار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا محمود بن غِيلان ثنا عبد الرزاق أنا معمر أنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فأمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً وعدله مغافر. فالنبي ﷺ أمره أن يأخذ من كل حَالِم، أي بالغ ديناراً ولم يفصل بين الغني والفقير والوسط، وفيه دليل على أنها لا تجب على الصبيان وكذلك لا تجب على النسوان، إنما تُؤخذ من الأحرار العاقلين البالغين من الرجال. وذهب قوم إلى أنه على كل موسر أربعة دنانير، وعلى كل متوسط ديناران، وعلى كل فقير دينار، وهو قول أصحاب الرأي.

قوله تعالى: ﴿ وقالتِ اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللَّهِ وقالتِ النّصارَى المسيحُ ابنُ اللَّهِ ﴾، روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ جماعةٌ من اليهود سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله؟ فأنزل الله عزّ وجلّ:

التي بأيديهم ولعلهم يتفكرون فيها ويعرفون الحق فيرجعون إليه. روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله فأنزل الله هذه الآية. وقال عبيد بن عمير إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء وهو الذي قال إن الله فقير ونحن أغنياء فعلى هذين القولين القائل لهذه المقالة جماعة من اليهود أو واحد وإنما نسب ذلك إلى اليهود في وقالت اليهود جرياً على عادة العرب في إيقاع اسم الجماعة على الواحد تقول العرب فلان يركب الخيل وإنما يركب فرساً واحداً منها. وتقول العرب: فلان مجالس الملوك ولعله لم يجالس إلا واحداً منهم وروى عطية العوفي عن ابن عباس أنه قال: إنما قالت اليهود ذلك من أجل أن عزير كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله سبحانه وتعالى عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فدعا الله عزير وابتهل إليه أن يرد إليه التوراة فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله عز وجل نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت إليه فأذن في قومه وقال يا قوم قد أتاني الله التوراة وردها إليّ فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ما شاء الله ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان يعلمهم عزير على ما في التابوت فوجدوه مثله فقالوا ما أوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله. وقال الكلبي: إن بختنصر لما غزا بيت المقدس وظهر على بني إسرائيل وقتل من قرأ التوراة كان عزير إذ ذاك صغيراً فلم يقتله لصغره فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله لهم عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية بعدما أماته الله مائة سنة قال فأتى ملك بإناء فيه ماء فشرب منه فمثلت له التوراة في صدره فلما أتاهم قال أنا عزير فكذبوه وقالوا إن كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة فكتبها لهم من صدره ثم إن رجلاً منهم قال إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر حرفاً فقالوا إن الله لم يقذف التوراة في قلب عزير إلا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود: عزير ابن الله فعلى هذين القولين أن هذا القول كان فاشياً في اليهود جميعاً ثم إنه انقطع واندرس فأخبر الله تعالى به عنهم وأظهره عليهم ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك فإن

﴿ **وقالتِ اليهودُ عزيرٌ ابنُ الله** ﴾، قرأ عاصم والكسائي ويعقوب «عزير» بالتنوين والآخرون بغير تنوين، فمَن لم ينوّن قال: لأنه اسم أعجمي ويشبه اسماً مصغّراً، ومَن نوّن قال: لأنه اسم خفيف، فوجهه أن يصرف، وإن كان أعجمياً مثل نوح وهود ولوط. واختار أبو عبيدة التنوين وقال: لأن هذا ليس بمنسوب إلى أبيه، إنما هو كقولك زيد ابن الأمير وزيد ابن أخينا فعزيرٌ مبتدأ وما بعده خبر له. وقال عبيد بن عمير: إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء، وهو الذي قال: إن الله فقير ونحن أغنياء، وروى عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما قالت اليهود عزير ابن الله من أجل أن عزيراً كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم، فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق، فرفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، فدعا الله عزير وابتهل إليه أن يرد إليه الذي نسخ من صدورهم، فبينما هو يصلّي مبتهلاً إلى الله تعالى نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت إليه التوراة فأذن في قومه، وقال: يا قوم إن الله تعالى قد آتاني التوراة وردّها إليّ فعلّق بها الناس يعلمهم، فمكثوا ما شاء الله تعالى ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله، فقالوا: ما أُوتي عزير هذا إلّا أنه ابن الله. وقال الكلبي: إن بختنصر لما ظهر على بني إسرائيل وقتل مَن قرأ التوراة، وكان عزير إذ ذاك صغيراً فاستصغره فلم يقتله، فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم مَن يقرأ التوراة بعث الله عزيراً ليجدَ لهم التوراة وتكون لهم آية بعد مائة سنة، يقال: أتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة في صدره، فلما أتاهم قال: أنا عزير فكذّبوه وقالوا: إن كنت كما تزعم فأملِ

خبر الله عز وجل أصدق وأثبت من إنكارهم وأما قول النصارى المسيح ابن الله فكان السبب فيه أنهم كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى عليه السلام إحدى وثمانين سنة يصلون إلى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال بولص لليهود إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون إن دخلنا النار ودخلوا الجنة فإني سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ثم إنه عمد إلى فرس كان يقاتل عليه فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه ثم أتى إلى النصارى فقالوا له من أنت قال: أنا عدوكم بولص فقد نوديت من السماء أنه ليس لك توبة حتى تتنصر وقد تبت وأتيتكم فأدخلوه السكينة ونصروه وأدخلوه بيتاً منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الإنجيل ثم خرج وقال قد نوديت أن الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم ثم إنه عمد إلى ثلاثة رجال اسم الواحد منهم نسطور والآخر يعقوب والآخر ملكان فعلم نسطور أن عيسى ومريم والإله ثلاثة وعلم يعقوب أن عيسى ليس بإنسان ولكنه ابن الله وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ولا يزال فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم في الخلوة وقال له: أنت خالصتي وادع الناس لما علمتك وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد ثم قال لهم: إني رأيت عيسى في المنام وقد رضي عني وقال لكل واحد منهم: إني سأذبح نفسي تقرباً إلى عيسى ثم ذهب إلى المذبح فذبح نفسه وتفرق أولئك الثلاثة فذهب واحد إلى الروم وواحد إلى بيت المقدس والآخر إلى ناحية أخرى وأظهر كل واحد منهم مقالته ودعا الناس إليها فتبعه على ذلك طوائف من الناس فتفرقوا واختلفوا ووقع القتال فكان ذلك سبب قولهم المسيح ابن الله.

وقال الإمام فخر الدين الرازي، بعد أن حكى هذه الحكاية: والأقرب عندي أن يقال لعله ذكر لفظ الابن في الإنجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل في حق إبراهيم على سبيل التشريف فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية والجهال قبلوا ذلك منهم وفشا هذا المذهب الفاسد في أتباع عيسى عليه السلام والله أعلم بحقيقة

علينا التوراة، فكتبها لهم، ثم إن رجلاً قال: إن أبي حدّثني عن جدّي أن التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم، فانطلقوا معه حتى أخرجوها، فعارضوها بمـا كتب لهـم عزير فلم يجدوه غادر منها حرفاً، فقالوا: إن الله لم يقذف التـوراة في قلب رجل إلّا آمن، فعنـد ذلـك قـالت اليهـود: عـزيـرٌ ابن الله. وأمّـا النصارى فقـالـوا: المسيـح ابن الله، وكان السبب فيه أنهم كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعدما رُفع عيسى عليه السلام يصلّون إلى القِبلة ويصومون رمضان حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ثم قال لليهود: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا به والنار مصيرنا، فإني أحتال وأضلّهم حتى يدخلوا النار، وكان له فرس يقال له العقاب يقاتل عليه فعرقب فرسه وأظهر الندامة، ووضع على رأسه التراب، فقال له النصارى: مَن أنت؟ قال: بولص عدوّكم فنوديت من السماء ليست لك توبة إلّا أن تتنصّر وقد تبت، فأدخلوه الكنيسة، ودخل بيتاً سنة لا يخرج منه ليلاً ولا نهاراً حتى تعلّم الإنجيل، ثم خرج وقال: نوديت أن الله قبل توبتك، فصدّقوه وأحبّوه ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نسطوراً وعلّمه أن عيسى ومريم والإلّه كانوا ثلاثة، ثم توجّه إلى الروم وعلّمهم اللاّهوت والناسوت، وقال: لم يكن عيسى بإنس ولا بجسم ولكنه ابن الله، وعلّم ذلك رجلاً يقال له يعقوب، ثم دعا رجلاً يقال له ملكاً فقال له: إن الإلّه لم يزل ولا يزال عيسى فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً، وقال لكل واحد منهم أنت خالصتي، وقد رأيت عيسى في المنام فرضي عنّي وقال لكل واحد منهم: إني غداً أذبح نفسي، فادعُ الناس إلى نحلتك، ثم دخل المذبح فذبح نفسه وقال: إنما أفعل ذلك لمرضاة عيسى، فلما كان يوم ثالثه دعا كل واحد منهم الناس إلى نحلته، فتبع كلَّ واحد طائفة من الناس، فاختلفوا واقتتلوا فقال الله عزّ وجلّ: ﴿ **وقالتِ النّصارى المسيحُ ابنُ اللّهِ ذلك قولُهم بأفواهِهم** ﴾،

الحال ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ يعني أنهم يقولون ذلك القول بألسنتهم من غير علم يرجعون إليه قال أهل المعاني: لم يذكر الله قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلا كان ذلك القول زوراً وكذباً لا حقيقة له ﴿يضاهئون﴾ قال ابن عباس: يشابهون والمضاهاة المشابهة. وقال مجاهد: يواطؤون وقال الحسن: يوافقون ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ قال قتادة والسدي: معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم فقالوا: المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزير ابن الله. وقال مجاهد: معناه يضاهئون قول المشركين من قبل لأن المشركين كانوا يقولون: الملائكة بنات الله وقال الحسن: شبه الله كفر اليهود والنصارى بكفر الذين مضوا من الأمم الخالية الكافرة. وقال القتيبي: يريد أن من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أولوهم ﴿قاتلهم الله﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله وقال ابن جريج: قتلهم الله وقيل ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب أي حق أن يقال لهم هذا القول تعجباً من بشاعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلاً يتعجب منه قاتله الله ما أعجب فعله ﴿أنى يؤفكون﴾ يعني أنى يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل وإقامة الحجة بأن الله واحد أحد فجعلوا له ولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وهذا التعجب راجع إلى الخلق لأن الله سبحانه وتعالى لا يتعجب من شيء ولكن هذا الخطاب على عادة العرب في مخاطبتهم فالله سبحانه وتعالى عجب نبيه ﷺ من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ يعني اتخذ اليهود والنصارى علماءهم وقراءهم والأحبار العلماء من اليهود والرهبان أصحاب الصوامع من النصارى أرباباً من دون الله يعني أنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى وذلك أنهم أحلوا لهم أشياء وحرموا عليهم أشياء من قبل أنفسهم فأطاعوهم فيها فاتخذوهم كالأرباب لأنهم عبدوهم واعتقدوا فيهم الإلهية. عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾

يقولون بألسنتهم من غير علم. قال أهل المعاني: لم يذكر الله تعالى قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلّا كان ذلك زوراً. ﴿ يُضاهِؤونَ ﴾، قرأ عاصم بكسر الهاء مهموزاً، والآخرون بضمّ الهاء مهموزاً، وهما لغتان يقال: ضاهيته وضاهأته، ومعناهما واحد. قال ابن عباس رضي الله عنه: يشابهون. والمضاهاة المشابهة. وقال مجاهد: يوطّئون. وقال الحسن: يوافقون، ﴿ قولَ الذين كفرُوا مِنْ قبلُ ﴾، قال قتادة والسدي: ضاهت النصارى قول اليهود من قبل، فقالوا: المسيح ابن الله كما قالت اليهود من قبل عزير ابن الله. وقال مجاهد: يضاهؤون قول المشركين من قبل الذين كانوا يقولون اللّات والعُزّى ومناة بنات الله. وقال الحسن: شبّه كفرَهم بكفر الذين مضوا من الأمم الكافرة كما قال في مشركي العرب: ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ [البقرة: ١١٨]. وقال القتيبي: يريد أن مَن كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أوّلوهم، ﴿ قاتَلَهم اللّهُ ﴾، قال ابن عباس: لعنهم الله. وقال ابن جريج: أي: قتلهم الله. وقيل: ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى العجب، ﴿ أنى يُؤفكون ﴾، أي: يصرفون عن الحق بعد قيام الأدلّة عليه.

﴿ اتّخذُوا أحبارَهم ورُهبانَهم ﴾، أي: علماءهم وقرّاءهم، والأحبار العلماء وأحدها حبر، وحبر بكسر الحاء وفتحها، والرهبان من النصارى أصحاب الصوامع واحدها راهب، كصاحب وصحبان، ﴿ أرباباً ﴾، فإن قيل: إنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان؟ قلنا: معناه أنهم أطاعوهم في معصية الله واستحلّوا ما أحلّوا وحرّموا ما حرّموا،

فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب. قال عبد الله بن المبارك:

وهل بدل الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

﴿والمسيح ابن مريم﴾ يعني اتخذوه إلهاً وذلك لما اعتقدوا فيه النبوة والحلول اعتقدوا فيه الإلهية ﴿وما أمروا﴾ يعني وما أمروا في الكتب القديمة المنزلة عليهم على ألسنة أنبيائهم ﴿إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ لأنه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة لا غيره ﴿لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ أي تعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك في العبادة والأحكام وأن يكون له شريك في الإلهية يستحق التعظيم والإجلال.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿يريدون﴾ يعني يريد رؤساء اليهود والنصارى ﴿أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ يعني يريد هؤلاء إبطال دين الله الذي جاء به محمد ﷺ بتكذيبهم إياه. وقيل المراد: من النور الدلائل الدالة على صحة نبوته ﷺ وهي أمور أحدها المعجزات الباهرات الخارقة للعادة التي ظهرت على يد النبي ﷺ الدالة على صدقه وثانيها القرآن العظيم الذي نزل عليه من عند الله فهو معجزة له باقية على الأبد دالة على صدقه وثالثها أن دينه الذي أمر به هو دين الإسلام ليس فيه شيء سوى تعظيم الله والثناء عليه والانقياد لأمره ونهيه واتباع طاعته والأمر بعبادته والتبرىء من كل معبود سواه فهذه أمور نيرة ودلائل واضحة في صحة نبوة محمد ﷺ فمن أراد إبطال ذلك بكذب وتزوير فقد خاب سعيه وبطل عمله ثم إن الله سبحانه وتعالى وعد نبيه محمداً ﷺ بمزيد النصر وإعلاء الكلمة وإظهار الدين بقوله: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ يعني ويأبى الله إلا أن يعلي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث به رسوله محمداً ﷺ ولو كره ذلك الكافرون.

قوله عز وجل: ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾ يعني أن الله الذي يأبى إلا أن يتم نوره هو الذي أرسل رسوله يعني

فاتخذوهم كالأرباب. رُوِيَ عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي: «يا عديّ اطرحْ هذا الوثن من عنقك»، فطرحته فلما انتهيت إليه وهو يقرأ: ﴿ اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً مِّن دُونِ الله ﴾، حتى فرغ منها، قلت: إنّا لسنا نعبدهم، فقال: «أليس يُحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه ويحلّون ما حرّم الله فتستحلّونه»؟ قال: قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم». قال عبد الله بن المبارك:

وهلْ بدّلَ الدينَ إلاّ الملوك وأحبارُ سُوء ورهبانُها

﴿ والمسيحَ ابنَ مريمَ ﴾، أي: اتخذوه إلّهاً، ﴿ وما أُمرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلّهاً واحداً لا إلَه إلاّ هو سبحانه عمّا يُشركون ﴾.

﴿ يريدون أنْ يُطفِئوا نُورَ اللّهِ بأفواهِهم ﴾، أي: يبطلوا دين الله بألسنتهم وتكذيبهم إياه. وقال الكلبي: النور القرآن، أي: يريدون أن يردّوا القرآن بألسنتهم تكذيباً، ﴿ ويأبَى اللّهُ إلاّ أنْ يُتمّ نورَهُ ﴾، أي: يُعلي دينه ويُظهِر كلمته ويتمّ الحق الذي بعثَ به محمداً ﷺ، ﴿ ولو كَرِهَ الكافرون ﴾.

﴿ هو الذي أرسَلَ رسولَهُ ﴾، يعني: الذي يأبى إلاّ إتمام دينه هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ، ﴿ بالهدى ﴾، قيل: بالقرآن. وقيل: ببيان الفرائض، ﴿ ودينِ الحقّ ﴾، وهو الإسلام، ﴿ ليظهرَهُ ﴾، ليُعليه

محمداً ﷺ ﴿بالهدى﴾ يعني بالقرآن الذي أنزله عليه وجعله هادياً إليه ﴿ودين الحق﴾ يعني دين الإسلام ﴿ليظهره﴾ يعني ليعليه ﴿على الدين كله﴾ يعني على سائر الأديان وقال ابن عباس: الهاء في ليظهره عائدة إلى الرسول ﷺ والمعنى ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لا يخفى عليه شيء منها وقال غيره من المفسرين الهاء راجعة إلى الدين الحق والمعنى ليظهر دين الإسلام على الأديان كلها وهو ألا يعبد الله إلا به وقال أبو هريرة والضحاك ذلك عند نزول عيسى عليه السلام فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة في حديث نزول عيسى عليه السلام قال: قال النبي ﷺ ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام. عن المقداد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام إما بعز عزيز أو بذل ذليل إما أن يعزهم فيجعلهم من أهله فيعزوا به وإما أن يذلهم فيدينون له» أخرجه البغوي بغير سند (م) عن عائشة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت يا رسول الله إني كنت أظن حين أنزل الله تعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله إن ذلك تام قال إنه سيكون ذلك ما شاء الله ثم يبعث ريحاً طيبة تتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم» قال الشافعي: وقد أظهر الله دين رسوله ﷺ على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق وما خالفه من الأديان باطل وقال وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ودين الأميين فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالإسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمه فهذا هو ظهوره على الدين كله ﴿ولو كره المشركون﴾ قوله تعالى:

وينصره، ﴿ على الدِّين كله ﴾، على سائر الأديان كلها، ﴿ ولو كَرِهَ المشركون ﴾، واختلفوا في معنى هذه الآية، فقال ابن عباس: الهاء عائدة إلى رسول الله ﷺ أي: ليعلّمه شرائع الدين كلها فيُظهره عليها حتى لا يخفى عليه منها شيء. وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى دين الحق، وظهوره على الأديان هو أن لا يُدانَ الله تعالى إلّا به. وقال أبو هريرة والضحّاك: وذلك عند نزول عيسى ابن مريم لا يبقى أهل دين إلّا دخل في الإسلام. وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في نزول عيسى عليه السلام قال: «ويهلك في زمانه المللُ كلُّها إلّا الإسلام». وروى المقداد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ إلّا أدخله الله كلمة الإسلام إمّا بعزِّ عزيز أو ذُلِّ ذليلٍ»، إما يعزّهم الله فيجعلهم من أهلها أو يذلّهم فيدينون له. قلت: فيكون الدين كله لله. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب ثنا أبو جعفر محمد سليمان بن منصور ثنا أبو مسلم بن إبراهيم بن عبد الله البلخي ثنا أبو عاصم النبيل ثنا عبد الحميد هو ابن جعفر عن الأسود بن العلاء عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبدَ اللاتُ والعُزّى»، قالت: قلت يا رسول الله ما كنت أظن أن يكون ذلك بعدما أنزل الله تعالى: ﴿ هو الذي أرسل رسولَه بالهدَى ودينِ الحقِّ ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كره المشركون ﴾، ثم قال: «يكون ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله تعالى ريحاً طيبةً فتقبض مَن كان في قلبه مثقال ذرّة من خير، ثم يبقى مَن لا خير فيه، فيرجع الناس إلى دين آبائهم». قال الحسين بن الفضل: معنى الآية ليُظهِره على الدين كله بالحجج الواضحة. وقيل ليُظهِره على الأديان التي حول النبي ﷺ فيغلبها. قال الشافعي رحمه الله: فقد أظهر الله رسوله ﷺ على الأديان كلها بأن أبان لكل مَن سمعه أنه الحق، وما خالفه من الأديان باطل، وقال: وأظهره على الشرك دين أهل الكتاب ودين الأمّيين فقهر رسول الله ﷺ الأمّيين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً، وقتل أهل الكتاب وسبى، حتى دان بعضهم بالإسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمه، فهذا ظهوره على الدين كله، والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان**﴾ قد تقدم معنى الأحبار والرهبان وإن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وفي قوله سبحانه وتعالى: «إن كثيراً» دليل على أن الأقل من الأحبار والرهبان لم يأكلوا أموال الناس بالباطل ولعلهم الذين كانوا قبل بعث النبي ﷺ وعبر عن أخذ الأموال بالأكل في قوله تعالى: ﴿**ليأكلون أموال الناس بالباطل**﴾ لأن المقصود الأعظم من جمع المال الأكل فسمى الشيء باسم ما هو أعظم مقاصد واختلفوا في السبب الذي من أجله أكلوا أموال الناس **بالباطل** فقيل إنهم كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم في تخفيف الشرائع والمسامحة في الأحكام وقيل إنهم كانوا يكتبون بأيديهم كتباً يحرفونها ويبدلونها ويقولون هذه من عند الله ويأخذون بها ثمناً قليلاً وهي المآكل التي كانوا يصيبونها من سفلتهم على تغيير نعت النبي ﷺ وصفته في كتبه لأنهم كانوا يخافون لو آمنوا به وصدقوه لذهبت عنهم تلك المآكل وقيل إن التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على نعت النبي ﷺ وكان الأحبار والرهبان يذكرون في تأويلها وجوهاً فاسدة باطلة ويحرفون معانيها طلباً للرياسة وأخذ الأموال ومنع الناس عن الإيمان به وذلك قوله تعالى: ﴿**ويصدون عن سبيل الله**﴾ يعني ويمنعون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والدخول في دين الإسلام ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة**﴾ أصل الكنز في اللغة جعل المال بعضه على بعض وحفظه ومال مكنوز مجموع واختلفوا في المراد بهؤلاء الذين ذمهم الله بسبب كنز الذهب والفضة فقيل هم أهل الكتاب. قال معاوية بن أبي سفيان: لأن الله سبحانه وتعالى وصفهم بالحرص الشديد على أخذ أموال الناس بالباطل ثم وصفهم بالبخل الشديد وهو جمع المال ومنع إخراج الحقوق الواجبة منه. وقال ابن عباس: نزلت في مانعي الزكاة من المسلمين وذلك أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر قبح طريقة الأحبار والرهبان في الحرص على أخذ الأموال بالباطل حذر المسلمين من ذلك وذكر وعيد من جمع المال ومنع حقوق الله منه. وقال أبو ذر: نزلت في أهل الكتاب وفي المسلمين. ووجه هذا القول أن الله سبحانه وتعالى وصف أهل الكتاب بالحرص على أخذ أموال الناس بالباطل ثم ذكر بعده وعيد من جمع المال ومنع الحقوق الواجبة فيه سواء كان من أهل الكتاب أو من المسلمين (خ)

قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها الذين آمنُوا إن كثيراً من الأحبار والرُّهبان** ﴾، يعني: العلماء والقرّاء من أهل الكتاب، ﴿ **لَيأكُلُون أموالَ النّاسِ بالبَاطِلِ** ﴾، يـريد ليأخذون الرشا في أحكامهم ويُحرّفون كتاب الله ويكتبون بأيديهم كتباً يقولون هذه من عند الله، ويأخذون بها ثمناً قليلاً من سفلتهم، وهي المآكل التي يصيبونها منهم على تغيير نعت النبي ﷺ يخافون لو صدّقوه لذهبت عنهم تلك المآكل، ﴿ **ويصدُّون** ﴾، ويصرفون الناس، ﴿ **عنْ سبيل الله** ﴾، دين الله عزّ وجلّ، ﴿ **والذينَ يكنِزُونَ الذهبَ والفِضّةَ ولا يُنفقونَها في سبيل الله فبَشّرْهم بعذابٍ أليم** ﴾، قال ابن عمر رضي الله عنهما: كلّ مال تؤدّى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً وكلّ مال لا تُؤدّى زكاته فهو كنز، وإن لم يكن مدفوناً. ومثله عن ابن عباس. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغفار بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بـن محمد بن سفيان ثنا مسلم بـن الحجّاج حدّثني سويد بـن سعيد ثنا حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم أن أبا صالح بن زكوان أخبره أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ صاحب ذهبٍ ولا فِضّةٍ لا يُؤدّي منها حقّها إلاّ إذا كان يومُ القيامة صُفّحتْ له صفائحُ من نار فأُحمي عليها في نار جهنم فيُكوى بها جبينه وجنبُه وظهرُه كلما رُدّت أُعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد

عن زيد بن وهب قال: مررت بالربذة فإذا بأبي ذر فقلت: ما أنزلك هذا المنزل؟ قال: كنت في الشأم فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله**﴾ فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب. فقلت: نزلت فينا وفيهم فكان بيني وبينه في ذلك كلام فكتب إلى عثمان يشكوني فكتب إلي عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها فكثر عليّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك فذكرت ذلك لعثمان فقال إن شئت تنحيت فكنت قريباً فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ولو أمر على عبد حبشي لسمعت وأطعت واختلف العلماء في معنى الكنز فقيل هو كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد زكاته وروي عن ابن عمر: أنه قال له أعرابي أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**﴾ قال ابن عمر من كنزها فلم يؤد زكاتها ويل له هذا كان قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهراً للأموال. أخرجه البخاري. وفي رواية مالك عن عبد الله بن دينار قال: سمعت عبد الله بن عمر وهو يسأل عن الكنز ما هو فقال: هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة ورواه الطبري بسنده عن ابن عمر قال: كل مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً وكل مال لم تؤد زكاته فهو الكنز الذي ذكره الله في القرآن يكوى به صاحبه وإن لم يكن مدفوناً. وروي عن علي بن أبي طالب قال: أربعة آلاف فما فوقها كنز وما دونها نفقة. وقيل: الكنز كل ما فضل من المال عن حاجة صاحبه إليه. وروى الطبري بسنده عن أبي أمامة قال: توفي رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي ﷺ كية ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي ﷺ كيتان كان هذا في أول الإسلام قبل أن تفرض الزكاة فكان يجب على كل من فضل معه شيء من المال إخراجه لاحتياج غيره إليه فلما فرضت الزكاة نسخ ذلك الحكم.

عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية: والذين يكنزون الذهب والفضة، كبر على المسلمين فقال عمر: أنا أفرج عنكم. فانطلق فقال: يا نبي الله إنه كبر على أصحابك هذه الآية. فقال: إن الله لم يفرض الزكاة إلا لتطييب ما بقي من أموالكم وإنما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم. قال: فكبر عمر ثم قال له: ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته»

أخرجه أبو داود عن ثوبان قال «لما نزلت والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فقال بعض أصحابه أنزلت في الذهب والفضة فلو علمنا أي المال خيراً اتخذناه؟ فقال رسول الله ﷺ: أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن

فيرى سبيله إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار»، قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: «ولا صاحبَ إبلٍ لا يُؤدّي منها حقَّها ومن حقها حلبها يوم وِرْدِها إلاّ إذا كان يوم القيامة بُطِحَ لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤه بأخفافها وتعضّه بأفواهها، كلّما مرّ عليه أُوْلاها رُدّ عليه أُخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد، فيرى سبيله إمّا إلى الجنة وإما إلى النار»، قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال: «ولا صاحبَ بَقَرٍ ولا غنم لا يُؤدّي منها حقّها إلاّ إذاكان يوم القيامة بُطِحَ لها بقاع قرقرٍ لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباءَ تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلّما مرّ عليه أُوْلاها رُدّ عليه أُخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضي بين العباد فيرى سبيله إمّا إلى الجنة وإما إلى النار». وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاتَه مُثّل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يُطوّقه يوم القيامة فيأخذ بلِهْزِمَتَيْهِ، يعني: شِدْقيه، ثم يقول: أنا مالُك أنا كنزُك، ثم تلا: ﴿ ولا يحسبنّ الذينَ يَبْخلُون بما آتاهُم الله ﴾ [آل عمران: ١٨٠] الآية: ورُوِيَ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: كلّ مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز أُدِّيتْ منه الزكاة أو لم تُؤدَّ، وما دونها نفقة. وقيل: ما فضل عن الحاجة فهو كنز. أخبرنا إسماعيل بن

والصحيح من هذه الأقوال القول الأول وهو ما ذكرنا عن ابن عمر أن كل مال أديت زكاته فليس بكنز ولا يحرم على صاحبه اكتنازه وإن كثر وإن كان كل مال لم تؤد زكاته فصاحبه معاقب عليه وإن قل إذا كان مما تجب فيه الزكاة ويستحق على منع الزكاة الوعيد من الله إلا أن يتفضل الله عز وجل عليه بعفوه وغفرانه ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها في نار جهنم فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره كلما ردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقتضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل يا رسول الله فالإبل قال: ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها ومن حقها حلبها يوم ورودها إلا إذا كان يوم القيامة بطح له بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل يا رسول الله فالبقر والغنم قال ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا غضباء تنطحه بقرونها وتطؤه باظلافها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» أخرجه مسلم بزيادة فيه قوله كلما ردت أعيدت له هكذا هو في بعض نسخ صحيح مسلم ردت بضم الراء وفي بعضها بردت بالباء وهذا هو الصواب والرواية الأولى هي رواية الجمهور قوله حلبها هو بفتح اللام على المشهور وحكى إسكانها وهو ضعيف قوله بقاع قرقر هو المستوى من الأرض الواسع الأملس والعقصاء هي الشابة الملتوية القرنين وإنما استثناها لأنها لا تؤلم بنطحها وكذا الجلحاء وهي الشاة التي لا قن لها وكذا العضباء وهي الشاة المكسورة القرن (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «من أتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعني شدقيه ـ ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله سبحانه وتعالى ﴿ولا تحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيراً لهم﴾ الآية الشجاع الحية والأقرع صفة له بطول العمر لأن مَن طال عمره تمزق شعره وذهب وهي صفة أخبث الحيات والزبيبتان هما الزبدتان في الشدقين واللهزمتان عظمان ناتئان في اللحيين تحت الأذنين.

وقوله تعالى: **﴿ولا ينفقونها في سبيل الله﴾** يعني ولا يؤدون زكاتها وإنما قال ولا ينفقونها ولم يقل ينفقونهما لأنه رد الكناية إلى المال المكنوز وهي أعيان الذهب والفضة وقيل رد الكناية إلى الفضة لأنها أغلب أموال الناس

عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع ثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: «هم الأخسرون وربِّ الكعبة»، قال فجئت حتى جلست فلم أتقارّ أن قمت فقلت: يا رسول الله فداك أبي وأمّي مَنْ هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً إلّا مَن قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليلاً ما هــم» ورُوِيَ عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان يقول: مَن ترك بيضاء أو حمراء كُوِيَ به يوم القيامة. ورُوِيَ عن أبي أمامة قال: مات رجل من أهل الصفة فوُجِدَ في مِئزره دينار، فقال النبيّ ﷺ: «كيّةٌ»، ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال النبي ﷺ: «كيّتان». والقول الأول أصح أن الآية في منع الزكاة لا في جمع المال الحلال. قال النبي ﷺ: «نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح». ورُوِيَ عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا نزلت هذه الآية كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منّا يدع لولده شيئاً، فذكر عمر ذلك لرسول الله فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ لم يفرض الزكاة إلّا ليطيّب بها ما بقي من أموالكم». وسُئِلَ عمر رضي الله عنه عن هذه الآية فقال: كان ذلك قبل أن تنزل الزكاة فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال.

﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ يعني الكافرين الذين لا يؤدون زكاة أموالهم (ق)

عن أبي ذر قال: «انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال: هم الأخسرون ورب الكعبة قال فجئت حتى جلست فلم أتقار حتى قمت فقلت يا رسول الله فداك أبي وأمي من هم؟ قال: هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يده ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضي بين الناس» هذا لفظ مسلم وفرقه البخاري في موضعين.

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

وقوله تعالى: ﴿يوم يحمى عليها﴾ يعني الكنوز فتدخل النار فيوقد عليها حتى تبيض من شدة الحرارة ﴿في نار جهنم فتكوى بها جباههم﴾ يعني الكنوز جباه كانزيها ﴿وجيوبهم وظهورهم﴾ قال ابن عباس: لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حدته. قال بعض العلماء: إنما خص هذه الأعضاء، بالكي من بين سائر الأعضاء لأن الغني صاحب المال إذا أتاه السائل فطلب منه شيئاً تبدو منه آثار الكراهة والمنع فعند ذلك يقطب وجهه ويكلح وتجتمع أسارير وجهه فيتجعد جبينه ثم إن كرر السائل الطلب نأى بجانبه عنه ومال عن جهته وتركه جانباً ثم إن كرر الطلب وألح في السؤال ولاه ظهره وأعرض عنه واستقبل جهة أخرى وهي النهاية في الرد والغاية في المنع الدال على كراهية الإعطاء والبذل وهذا دأب ما نعى البر والإحسان. وعادة البخلاء فلذلك خص هذه الأعضاء الثلاثة بالكي يوم القيامة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم﴾ أي يقال لهم ذلك يوم القيامة ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أي فذوقوا عذاب ما كنزتم في الدنيا من الأموال ومنعتم حق الله منها (ق) عن الأحنف بن قيس قال: قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش إذ جاء رجل خشن الثياب خشن الجسد خشن الوجه فقام عليهم فقال بشر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفيه ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه يتزلزل قال فوضع القوم رؤوسهم فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً قال فأدبر فاتبعته حتى

وقال ابن عمر: ما أُبالي لو أن لي مثل أحد ذهباً أعلم عدده أزكّيه وأعمل بطاعة الله. قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا يُنفقونها في سبيلِ الله ﴾، قيل: لِمَ قال: ﴿ ولا ينفقونها ﴾ ولم يقل: ولا ينفقونهما. وقد ذكر الذهب والفضة جميعاً؟ قيل: أراد الكنوز وأعيان الذهب والفضة. وقيل: ردّ الكناية إلى الفضة لأنها أعمّ، كما قال تعالى: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنّها لكبيرة ﴾ [البقرة: ٤٥]، ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمّ، كقوله تعالى: ﴿ وإذا رَأَوْا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها ﴾ [الجمعة: ١١] ردّ الكناية إلى التجارة لأنها أعمّ، ﴿ فبشّرْهم بعذاب أليم ﴾. أي: أنذرهم.

﴿ يومَ يُحمَى عليها في نارِ جهنّم ﴾، أي: تدخل النار فيوقد عليها أي على الكنوز، ﴿ فتُكوَى بها ﴾، فتحرق بها، ﴿ جباهُهم ﴾، أي: جباه كانِزِيها، ﴿ وجنوبُهم وظهورُهم ﴾، رُوِيَ عن ابن مسعود قال: إنه لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حِدة. وسُئِلَ أبو

جلس إلى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم فقال: إن هؤلاء لا يعقلون شيئاً هذا لفظ مسلم وفيه زيادة لم أذكرها. وزاد البخاري قلت: [١] من هذا؟ قالوا: أبا ذر. قال: فقمت إليه فقلت ما شيء سمعتك تقول قبيل فقال ما قلت إلا شيئاً سمعته من نبيهم ﷺ.

قوله عز وجل ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ هي: المحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الآخر، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة، وهذه شهور السنة القمرية التي هي مبنية على سير القمر في المنازل وهي شهور العرب التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوماً والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس في الفلك دورة تامة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الحج والصوم تارة في الشتاء وتارة في الصيف. قال المفسرون: وسبب نزول هذه الآية من أجل النسيء الذي كانت العرب تفعله في الجاهلية فكان يقع حجهم تارة في وقته وتارة في المحرم وتارة في صفر وتارة في غيره من الشهور فأعلم الله عز وجل أن عدة الشهور سنة المسلمين التي يعتدون بها اثنا عشر شهراً على منازل القمر وسيره فيها وهو قوله تبارك وتعالى إن عدة الشهور عند الله يعني في علمه وحكمه اثنا عشر شهراً ﴿في كتاب الله﴾ يعني في اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه جميع أحوال الخلق وما يأتون وما يذرون. وقيل: أراد بكتاب الله القرآن لأن فيه آيات تدل على الحساب ومنازل القمر وقيل أراد بكتاب الله الحكم الذي أوجبه وأمر عباده بالأخذ به ﴿يوم خلق السموات والأرض﴾ يعني أن هذا الحكم حكم به وقضاه يوم خلق السموات والأرض أن السنة اثنا عشر شهراً ﴿منها﴾ يعني من الشهور ﴿أربعة حرم﴾ وهي رجب فرد وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثلاثة متوالية وإنما سميت حرماً لأن العرب في الجاهلية كانت تعظمها وتحرم فيها القتال حتى لو أن أحدهم لقي قاتل أبيه وابنه وأخيه في هذه الأربعة الأشهر لم يهجه ولما جاء الإسلام لم يزدها إلا حرمة وتعظيماً ولأن الحسنات والطاعات فيها تتضاعف وكذلك السيئات أيضاً أشد من غيرها فلا يجوز انتهاك حرمة الأشهر الحرم ﴿ذلك الدين القيم﴾ يعني ذلك الحساب المستقيم والعدد الصحيح المستوي فالدين هنا بمعنى الحساب ومنه قوله ﷺ: الكيس من دان نفسه. يعني: حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت. وقيل: أراد بالدين القيم الحكم الذي لا يغير ولا يبدل. والقيم هنا: بمعنى الدائم الذي لا يزول. فالواجب على المسلمين الأخذ بهذا الحساب والعدد في صومهم وحجهم وأعيادهم وبياعاتهم وأجل ديونهم وغير ذلك من سائر أحكام المسلمين المرتبة على الشهور (ق) عن أبي بكر

بكر الورّاق: لِمَ خَصّ الجباه والجنوب والظهور بالكيّ؟ قال: لأن الغني صاحب الكنز إذا رأى الفقير قبض جبهته، ورُوِيَ ما بين عينيه وولّاه ظهره وأعرض عنه كشحه. قوله تعالى: ﴿ هذا ما كنزتُم ﴾، أي: يقال لهم هذا ما كنزتم، ﴿ لأنفسكم فذُوقوا ما كنتم تكنِزُون ﴾، أي: تمنعون حقوق الله تعالى في أموالكم. وقال بعض الصحابة: هذه الآية في أهل الكتاب. وقال الأكثرون: هي عامّة في أهل الكتاب والمسلمين، وبه قال أبو ذرّ رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ إنّ عِدّةَ الشُّهور ﴾، أي: عدد الشهور، ﴿ عندَ اللّهِ اثنا عشرَ شهراً في كتاب الله ﴾، وهي المحرّم وصفر وربيع الأول وربيع الثاني وجُمادى الأول وجُمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوّال وذو القعدة وذو الحجة. وقوله: ﴿ في كتاب الله ﴾ أي: في حكم الله. وقيل: في اللوح المحفوظ. قرأ أبو جعفر اثنا عشر وتسعة عشر وإحدى عشر بسكون العين، وقرأ العامّة بفتحها، ﴿ يومَ خلقَ السّمواتِ والأرضَ ﴾، والمراد منه الشهور الهلالية وهي الشهور التي يعتدّ بها المسلمون في صيامهم وحجّهم وأعيادهم وسائر أمورهم، وبالشهور

---

(١) قوله وزاد البخاري الخ، هذه الزيادة لمسلم لا للبخاري اهـ من هامش.

أن النبي ﷺ قال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان أي شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال أليس ذا الحجة قلنا بلى قال أي بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلد الحرام؟ قلنا: بلى. قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس يوم النحر. قلنا: بلى. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ثم قال: ألا هل بلغت ألا هل بلغت قلنا نعم قال: اللهم اشهد.

وقوله تعالى: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ قيل: الكناية في فيهن ترجع إلى جميع الأشهر أي لا تظلموا أنفسكم في جميع أشهر السنة بفعل المعاصي وترك الطاعات لأن المقصود منع الإنسان من الإقدام على المعاصي والفساد مطلقاً في جميع الأوقات إلى الممات. وقيل: إن الكناية ترجع إلى الأشهر الحرم وهو قول أكثر المفسرين. وقال قتادة: العمل الصالح أعظم أجراً في الأشهر الحرم والظلم فيهن أعظم منه فيما سواهن وإن كان الظلم على كل حال عظيماً. وقال ابن عباس: لا تظلموا فيهن أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهن وقال محمد بن إسحاق بن يسار: لا تجعلوا حلالها حراماً ولا حرامها حلالاً كفعل أهل الشرك وهو النسيء. وقيل: إن الأنفس مجبولة بطبعها على الظلم والفساد والامتناع عنه على الإطلاق شاق على النفس لا جرم أن الله خص بعض الأوقات بمزيد التعظيم والاحترام ليمتنع الإنسان في تلك الأوقات من فعل الظلم والقبائح والمنكرات فربما تركها في باقي الأوقات فتصير هذه الأوقات الشريفة والأشهر المحرمة المعظمة سبباً لترك الظلم وفعل المعاصي في غيرها من الأشهر فهذا وجه الحكمة في تخصيص بعض الأشهر دون بعض بمزيد التشريف والتعظيم وكذلك الأمكنة أيضاً. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ يعني قاتلوا المشركين بأجمعكم مجتمعين على قتالهم كما أنهم يقاتلونكم على هذه الصفة والمعنى تعاونوا وتناصروا على قتالهم ولا تتخاذلوا ولا تتدابروا ولا تفشلوا ولا تجبنوا عن قتالهم وكونوا عباد الله مجتمعين متوافقين في مقاتلة أعدائكم من المشركين واختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم فقال قوم كان كبيراً حراماً ثم نسخ بقوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ يعني في الأشهر الحرم وفي غيرهن وهذا قول قتادة وعطاء الخراساني والزهري وسفيان الثوري. قالوا: لأن النبي ﷺ غزا هوازن بحنين وثقيفاً بالطائف

الشمسية تكون السنة ثلثمائة وخمسة وستّين يوماً وربع يوم، والهلالية تنقص عن ثلاث مائة وستّين يوماً بنقصان الأهلّة. والغالب أنها تكون ثلاثمائة يوماً وأربعة وخمسين يوماً، ﴿ منها أربعة حرم ﴾، من الشهور أربعة حرم وهي: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرّم، واحد فرد وثلاثة سرد، ﴿ ذلك الدِّينُ القيّم ﴾، أي: الحساب المستقيم، ﴿ فلا تظلِمُوا فيهنَّ أنفسَكم ﴾، قيل: قوله: ﴿ فيهنّ ﴾ ينصرف إلى جميع شهور السنة، أي: فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم بفعل المعصية وترك الطاعة. وقيل: ﴿ فيهنّ ﴾ أي: في الأشهر الحرم. قال قتادة: العمل الصالح أعظم أجراً في الأشهر الحرم والظلم فيهنّ أعظم من الظلم فيما سواهنّ، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً. وقال ابن عباس: فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهنّ. قال محمد بن إسحاق بن يسار: لا تجعلوا حلالها حراماً ولا حرامها حلالاً كفعل أهل الشرك وهو النسيء، ﴿ وقاتلوا المشركين كافّة ﴾، جميعاً عامّة، ﴿ كما يُقاتلونَكم كافّةً واعْلَمُوا أنّ اللّهَ مع المتقين ﴾، واختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحُرُم. فقال قوم: كان كبيراً ثم نسخ بقوله: ﴿ وقاتلوا المشركين كافّة ﴾ كأنه يقول فيهنّ وفي غيرهم. وهو قول قتادة وعطاء الخراساني

وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة. وقال آخرون: إنه غير منسوخ. قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح ما يحل للناس أن يغزو في الحرم ولا في الأشهر الحرم وما نسخت إلا أن يقاتلوا فيها ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يعني بالنصر والمعونة على أعدائه قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٣٧﴾

﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ النسيء: في اللغة، عبارة عن التأخير في الوقت ومنه النسيئة في البيع ومعنى النسيء المذكور في الآية هو تأخير شهر حرام إلى شهر آخر وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تعتقد حرمة الأشهر الحرم وتعظيمها وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم ﷺ وكانت عامة معايش العرب من الصيد والغارة فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية وربما وقعت حروب في بعض الأشهر الحرم فكانوا يكرهون تأخير حروبهم إلى الأشهر الحلال فنسؤوا يعني أخروا تحريم شهر إلى شهر آخر فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر فيستحلون المحرم ويحرمون صفر فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع الأول فكانوا يصنعون هكذا يؤخرون شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها وكانوا يحجون في كل شهر عامين فحجوا في الحجة عامين ثم حجوا في المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين وكذا باقي شهور السنة فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذي القعدة ثم حج رسول الله ﷺ في العام المقبل حجة الوداع فوافق حجة شهر ذي الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف بعرفة في اليوم التاسع وخطب الناس في اليوم العاشر بمنى وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السموات والأرض وهو قوله ﷺ: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض الحديث المتقدم. وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل في مستأنف الأيام واختلفوا في أول من نسأ النسيء. فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد: أول من نسأ النسيء، بنو مالك بن كنانة وكان يليه جنادة بن عوف بن أمية الكناني وقال الكلبي: أول من

والزهري وسفيان الثّوري، وقالوا: إن النبي ﷺ غَزَا هَوازن بحُنين وثقيفاً بالطائف وحاصرهم في شوّال وبعض ذي القعدة. وقال الآخرون: إنه غير منسوخ: قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح: ما يحلّ للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلّا أن يُقاتلُوا فيها: وما نسخت.

قوله تعالى: ﴿ إنّما النسيءُ زيادةٌ في الكفر ﴾، قيل: هو مصدر كالسعير والحريق. وقيل: هو مفعول كالجريح والقتيل، وهو من التأخير. ومنه النسيئة في البيع، يقال: أنسا الله في أجله أي أخّر، وهو ممدود مهموز عند أكثر القرّاء، وقرأ ورش عن نافع من طريق البخاري بتشديد الياء من غير همز، فقد قيل: أصله الهمزة فخفّف. وقيل: هو من النسيان على معنى المنسي أي المتروك. ومعنى النسيء هو تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملّة إبراهيم عليه السلام وكانت عامّة معايشهم من الصيد والغارة فكان يشقّ عليهم الكفّ عن ذلك ثلاثة أشهر على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم فنسؤوا أي: أخّروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخّرون تحريم المحرّم إلى صفر فيحرمون صفر ويستحلّون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخّروه إلى ربيع هكذا شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها. فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله عزّ وجلّ فيه وذلك بعد دهر طويل فخطب النبي ﷺ في حجّته، وبيّن ذلك كما أخبرنا عبد الواحد

فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان يقوم على الناس في الموسم فإذا همَّ الناس بالصدر قام فخطف الناس فيقول فيقول لامرد لما قضيت أنا الذي لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهراً يغيرون فيه فيقول: إن صفر في هذا العام حرام فإذا قال ذلك، حلّوا الأوتار، ونزعوا الأسنة، والأزجة من الرماح، وإن قال: حلال، عقدوا أوتار القسي، وركبوا الأسنة في الرماح، وأغاروا وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف: وهو الذي أدرك النبي ﷺ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو رجل من بني كنانة يقال له القلمس قال شاعرهم:

وفينا ناسيء الشهر القلمس

وكانوا يفعلون ذلك إذا اجتمعت العرب في الموسم وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن أول من سن

المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف الفريري ثنا محمد بن إسماعيل البخاري ثنا محمد بن سلام ثنا عبد الوهاب ثنا أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: «إنّ الزمان قد استدار كهيئتِهِ يومَ خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». وقال: «أيّ شهر هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، فقال: «أليس ذو الحجة»؟ قلنا: بلى، قال: «أيّ بلد هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، فقال: «أليس البلد الحرام»؟ قلنا: بلى، قال: «فأيّ يوم هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر»؟ قلنا: بلى، قال: «فإنّ دماءَكم وأموالكم»، قال محمد أحسبه قال: أعراضَكم عليكم حرامٌ كحُرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربَّكم فيسألونكم عن أعمالكم، ألاَ فلا ترجعوا بعد ضُلاّلاً يضرب بعضُكم رقابَ بعض، ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب فلعلّ بعضَ مَن يبلغه أن يكون أوعى له من بعض ما سمعه، ألا هل بلغتُ ألا هل بلّغت»؟ قالوا: وكان قد استمر النسيء بهم فكانوا ربما يحجّون في بعض السنين في شهر ويحجّون من قابل في شهر آخر. قال مجاهد: كانوا يحجّون في كل شهر عامين فحجّوا في شهر ذي الحجة عامين ثم حجّوا في المحرّم عامين ثم حجّوا في صفر عامين، وكذلك في الشهور، فوافقت أبي بكر رضي الله عنه قبل حجة الوداع السنة الثانية من ذي القعدة، ثم حجّ النبي ﷺ في العام القابل حجّة الوداع، فوافق حجة شهر الحج المشروع وهو ذو الحجة، فوقف بعَرَفَة اليوم التاسع وخطب اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر الحرم يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وأمرهم بالمحافظة عليه لئلا يتبدّل في مستأنف الأيام، واختلفوا في أول مَن نسأ النسيء، فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد: أول مَن نسأ النسيء بنو مالك بن كنانة وكانوا ثلاثة أبو تمام جنادة بن عوف بن أمية الكناني. وقال الكلبي: أول مَن فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة، وكان يقوم أميراً على الناس بالموسم فإذا هم الناس بالصدر قام فخطب الناس فقال: لا مردّ لما قضيت أنا الذي لا أُعاب ولا أُجاب، فيقول له المشركون: لبّيك، ثم يسألونه أن ينساهم شهراً يغيرون فيه. فيقول: فإن صفر العام حرام فإذا قال ذلك حلّوا الأوتار ونزعوا الأسنّة والأزجة، وإن قال حلال عقدوا الأوتار وشدّوا الأزجة وأغاروا. وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف، وهو الذي أدركه النبي ﷺ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو رجل بني كنانة يقال له القلمس، قال شاعرهم:

وفينا ناسيء الشهر القلمس

النسىء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف والذي صح من حديث أبي هريرة وعائشة أن عمرو بن لحي أول من سيب السوائب وقال فيه النبي ﷺ: رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار فهذا ما ورد في تفسير النسيء الذي ذكره الله في قوله تعالى إنما النسيء زيادة في الكفر يعني زيادة كفر على كفرهم وسبب هذه الزيادة أنهم أمروا بإيقاع كل فعل في وقته من الأشهر الحرم ثم إنهم بسبب أغراضهم الفاسدة أخروه إلى وقت آخر بسبب ذلك النسىء فأوقعوه في غير وقته من الأشهر الحرم فكان ذلك الفعل زيادة في كفرهم ﴿يضل به الذين كفروا﴾ وقرىء: يضل بفتح الياء وكسر الضاد ومعناه يضل الله به الطين كفروا أو يضل به الشيطان الذين كفروا بتزيين ذلك لهم وقيل يضل بالنسىء الذين كفروا وقرىء يضل بضم الياء وفتح الضاد ومعناه أن كبارهم أضلوهم وحملوهم عليه وقرىء يضل به الذين كفروا بضم الياء وكسر الضاد ومعناه يضل به الذين كفروا تابعيهم والآخذين بأفعالهم وهذا الوجه أقوى الوجهين في تفسير قراءة من قرأ يضل بضم الياء وكسر الضاد ﴿يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً﴾ يعني يحلون ذلك الإنساء عاماً ويحرمونه عاماً والمعنى يحلون الشهر المحرم عاماً فيجعلونه حلالاً ليغيروا فيه ويحرمونه عاماً فيجعلونه محرماً فلا يغيرون فيه ﴿ليواطئوا﴾ يعني ليوافقوا ﴿عدة ما حرم الله﴾ يعني أنهم ما أحلوا شهراً من المحرم إلا حرموا شهراً مكانه من الحلال ولم يحرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهراً من الحرام لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرم أربعة كما حرم الله فيكون ذلك موافقة في العدد لا في الحكم فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم﴾ قال ابن عباس: زين لهم الشيطان هذا العمل ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى لا يرشد من هو كافر أثيم لما سبق له في الأزل أنه من أهل النار.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ

وكانوا لا يفعلون ذلك إلاّ في ذي الحجة إذا اجتمعت العرب للموسم. وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن أول مَن سنّ النسيء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني زهير بن حرب ثنا جرير عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب، وهو يجرّ قُصبَهُ في النار». فهذا الذي ذكرنا هو النسيء الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿ إنّما النّسيء زيادةٌ في الكفر ﴾، يريد زيادة كفر على كفرهم، ﴿ يُضلّ به الذين كفرُوا ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «يضل» بضم الياء وفتح الضاد، كقوله تعالى: ﴿ زيّن لهم سوء أعمالهم ﴾، وقرأ يعقوب بضمّ الياء وكسر الضاد، وهي قراءة الحسن ومجاهد على معنى ﴿ يضل ﴾ به الذين كفروا الناس، وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الضاد لأنهم هم الضالّون لقوله: ﴿ يُحلُّونه ﴾، يعني النسيء، ﴿ عاماً ويُحرّمونه عاماً لِيوَاطِئُوا ﴾، أي: ليوافقوا، والمواطأة الموافقة، ﴿ عِدّةَ ما حرّمَ الله ﴾، يريد أنهم لم يحلّوا شهراً من الحرام إلاّ حرّموا مكانه شهراً من الحلال، ولم يحرّموا شهراً من الحلال إلاّ أحلّوا مكانه شهراً من الحرام، لئلا يكون الحرم أكثر من أربعة أشهر كما حرّم الله فيكون الموافقة في العدد، ﴿ فيحلّوا ما حرّم اللّهُ زُيّنَ لهم سوءُ أعمالهم ﴾، قال ابن عباس: يريد زيّن لهم الشيطان، ﴿ واللّهُ لا يهدي القومَ الكافرين ﴾.

لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ نزلت هذه الآية في الحث على غزوة تبوك وذلك أن النبي ﷺ لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزو الروم وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر حين طابت الظلال ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز وعدداً كثيراً وجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فشق عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم يعني قال لكم رسول الله ﷺ: انفروا في سبيل الله، أي اخرجوا إلى الجهاد. يقال: استنفر الإمام الناس إذا حثهم على الخروج إلى الجهاد ودعاهم إليه ومنه قوله ﷺ: «وإذا استنفرتم فانفروا».

والإثم النفير اثاقلتم أي تثاقلتم وتباطأتم عن الخروج إلى الغزو إلى الأرض يعني لزمتم أرضكم ومساكنكم وإنما استثقل ذلك الغزو لشدة الزمان وضيق الوقت وشدة الحر وبعد المسافة والحاجة إلى كثرة الاستعداد من العدد والزاد وكان ذلك الوقت وقت إدراك ثمار المدينة وطيب ظلالها وكان العدو كثيراً فاستثقل الناس تلك الغزوة فعاتبهم الله تعالى بقوله: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ يعني أرضيتم بخفض العيش وزهرة الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ يعني أن لذات الدنيا ونعيمها فان زائل ينفد عن قليل ونعيم الآخرة باق على الأبد فلهذا السبب كان متاع الدنيا قليلاً بالنسبة إلى نعيم الآخرة وفي الآية دليل على وجوب الجهاد في كل حال وفي كل وقت لأن الله سبحانه وتعالى نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر فلو لم يكن الجهاد واجباً لما عاتبهم على ذلك التثاقل ويؤكد هذا الوعيد المذكور الآية الآتية وهي قوله تعالى: ﴿إلا تنفروا﴾ يعني إن لم تنفروا أيها

قوله: ﴿ يا أيها الذينَ آمنُوا ما لكم إذا قيلَ لكمُ انفرُوا في سبيلِ اللّهِ اثّاقلتُم إلى الأرضِ ﴾ الآية، نزلت في الحثّ على غزوة تبوك، وذلك أن النبي ﷺ لمّا رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزوة الروم، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وشدّة من الحرّ حين طابت الثمار والظلال، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلاّ ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز هائلة وعدوّاً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم ولم يورِّها بغيرها ليتأهبوا أهبة عدوّهم، فشقّ عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنُوا ما لكم إذا قيل لكم ﴾ أي: قال لكم رسول الله ﷺ: ﴿ انفرُوا ﴾ اخرجوا في سبيل الله ﴿ اثّاقلتُم إلى الأرض ﴾ أي: لزمتم أرضكم ومساكنكم، ﴿ أرضيتُم بالحياةِ الدنيا من الآخرة ﴾، أي: بخفض الدنيا ودعتها من نعيم الآخرة. ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل ﴾، ثم أوعدهم على ترك الجهاد.

فقال تعالى: ﴿ إلّا تنفرُوا يُعذّبْكم عذاباً أليماً ﴾، في الآخرة. وقيل: هو احتباس المطر عنهم في الدنيا. وسأل نجدة بن نفيع ابن عباس عن هذه الآية، فقال: إن رسول الله ﷺ استنفر حيّاً من أحياء العرب فتثاقلوا عليه فأمسك عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم، ﴿ ويستبدِلْ قوماً غيركم ﴾ خيراً منكم وأطوع قال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس. وقيل: هم أهل اليمن، ﴿ ولا تضرُّوه شيئاً ﴾، بتركهم النفير. ﴿ واللّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إلّا تنصرُوه فقدْ نصرَه اللّهُ ﴾، هذا إعلام من الله عزّ وجلّ أنه المتكفّلُ بنصرِ رسوله وإعزاز دينه، أعانوه أو لم يعينوه وأنه قد نصره عند قلّة الأولياء وكثرة الأعداء، فكيف به اليوم وهو في كثرة من العَدَدِ والعُدَد،

المؤمنون إلى ما استنفركم رسول الله ﷺ إليه: ﴿يعذبكم عذاباً أليماً﴾ يعني في الآخرة لأن العذاب الأليم لا يكون إلا في الآخرة. وقيل: إن المراد به احتباس المطر في الدنيا. قال نجدة بن نفيع: سألت ابن عباس عن هذه الآية، فقال: استنفر رسول الله ﷺ حياً من أحياء العرب فتثاقلوا فأمسك الله تعالى عنهم المطر فكان ذلك عذابهم ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ يعني خيراً منكم وأطوع.

قال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس. وقيل: هم أهل اليمن نبه سبحانه وتعالى على أنه قد تكفل بنصرة نبيه ﷺ وإعزاز دينه فإن سارعوا معه إلى الخروج إلى حيث استنفروا حصلت النصرة بهم ووقع أجرهم على الله عز وجل وإن تثاقلوا وتخلفوا عنه حصلت النصرة بغيرهم وحصلت العتبى لهم لئلا يتوهموا أن إعزاز رسول الله ﷺ ونصرته لا تحصل إلا بهم وهو قوله تعالى ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ قيل: الضمير راجع إلى الله تعالى يعني ولا تضروا الله شيئاً لأنه غني عن العالمين وإنما تضرون أنفسكم بترككم الجهاد مع رسول الله ﷺ. وقيل: الضمير راجع إلى رسول الله ﷺ يعني: ولا تضروا محمداً ﷺ شيئاً فإن الله ناصره على أعدائه ولا يخذله ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يعني أنه تعالى قادر على كل شيء فهو ينصر نبيه ويعز دينه قال الحسن وعكرمة: هذه الآية منسوخة بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقال الجمهور هذه الآية محكمة لأنها خطاب لقوم استنفرهم رسول الله ﷺ فلم ينفروا كما نقل عن ابن عباس وعلى هذا التقدير فلا نسخ.

قوله عز وجل: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ يعني إلا تنصروا محمداً ﷺ أيها المؤمنون هذا خطاب لمن تثاقل عن الخروج معه إلى تبوك فأعلم الله عز وجل أنه هو المتكفل بنصر رسول الله ﷺ وإعزاز دينه وإعلاء كلمته أعانوه أو لم يعينوه وإنه قد نصره عند قلة الأولياء وكثرة الأعداء فكيف به اليوم وهو في كثرة من العدد والعدد ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ يعني أنه تعالى نصره في الوقت الذي أخرجه فيه كفار مكة من مكة حين مكروا به وأرادوا قتله ﴿ثاني اثنين﴾

﴿ إِذْ أخرجه الذين كفرُوا ﴾، من مكة حين مكروا به وأرادوا تبيينه وهمّوا بقتله، ﴿ ثاني اثنين ﴾ أي هو أحد الإثنين، والإثنان أحدهما رسول الله ﷺ والآخر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ﴿ إِذْ هما في الغار ﴾، وهو نقب في جبل ثور بمكة، ﴿ إِذْ يقولُ لصاحبه لا تحزنْ إنّ اللّهَ معنا ﴾، قال الشعبي: عاتب الله عزّ وجلّ أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه. أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمي أنبأنا محمد بن عبد الرحمن بن عثمان أنبأنا خيثمة بن سليمان ثنا عبد الله بن أحمد الدورقي ثنا سعيد بن سليمان عن علي بن هاشم عن كثير النواء عن جميع بن عمير قال: أتيت ابن عمر رضي الله عنه فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «أنت صاحبي في الغار وصاحبي على الحوض» قال الحسين بن الفضل: مَن قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نصَّ القرآن. وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً لا كافراً. وقوله عزّ وجلّ: ﴿ لا تحزنْ إنّ الله معنا ﴾ لم يكن حزن أبي بكر جُبْناً منه، وإنما كان إشفاقاً على رسول الله ﷺ. وقال: إن أُقتل فأنا رجل واحد وإن قتلت هلكت الأمة. ورُوِيَ أنه حين انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه فقال له رسول الله ﷺ: «ما لك يا أبا بكر»؟ قال: أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك، فلما انتهيا إلى الغار قال مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء الغار، فدخل فاستبرأه ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من عمر ومن آل عمر. أخبرنا أبو المظفر التميمي أنا محمد بن عبد الرحمن بن عثمان المعروف بابن أبي النصر أنا خيثمة بن سليمان ثنا أبو قلابة الرقاشي ثنا حيّان بن هلال ثنا همّام بن يحيىٰ ثنا ثابت البناني ثنا أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حدّثهم، قال: نظرتُ

يعني هو واحد اثنين وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر ﴿إذ هما في الغار﴾ يعني إذ رسول الله ﷺ وأبو بكر في الغار والغار نقب عظيم يكون في الجبل وهذا الغار في جبل ثور وهو قريب من مكة ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن﴾ يعني يقول رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق لا تحزن وذلك أن أبا بكر خاف من الطلب أن يعلموا بمكانهم فجزع من ذلك فقال له رسول الله ﷺ لا تحزن ﴿إن الله معنا﴾ يعني بالنصر والمعونة قال الشعبي: عاتب الله عز وجل أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر وقال الحسن بن الفضل: من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نص القرآن وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً ولا يكون كافراً.

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: أنت صاحبي على الحوض وصاحبي في الغار. أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن غريب (ق)

عن أبي بكر الصديق قال: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما. قال الشيخ محيي الدين النووي معناه: ثالثهما بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد وهو داخل في قوله سبحانه وتعالى أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفيه بيان عظيم على توكل النبي ﷺ حتى في هذا المقام وفيه فضيلة لأبي بكر وهي من أجل مناقبه والفضيلة من أوجه منها اللفظ الدال على أن الله ثالثهما ومنها بذله نفسه ومفارقته أهله وماله ورياسته في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وملازمته النبي ﷺ ومعاداة الناس فيها ومنها جعله نفسه وقاية عنه وغير ذلك.

روي عن عمر بن الخطاب أنه ذكر عنده أبو بكر فقال: وددت أن عملي كله مثل عمله يوماً واحداً من أيامه وليلة واحدة من لياليه أما فليلته ليلة سار مع رسول الله ﷺ إلى الغار فلما انتهيا إليه قال والله لا تدخله حتى أدخله قبلك فإن

إلى أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يا رسول الله لو أنّ أحدهم نظرَ تحت قدميه أبصرَنا، فقال: «يا أبا بكر ما ظنّك باثنين اللّهُ ثالثُهما». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ بن بكير ثنا الليث عن عقيل قال ابن شهاب فأخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبواي قطّ إلّا وهما يدينان الدين، ولم يمرّ علينا يوم إلّا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرةً وعشيّاً، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارّة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأُريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربّي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج، إنك تُكسب المعدم وتَصِل الرحم وتحمل الكَلّ وتقري الضيف وتُعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربّك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال: إن أبا بكر لا يخرجُ مثلهُ ولا يُخرج، أتخرجون رجلاً يُكسب المعدم ويصلُ الرحم ويحملُ الكَلّ ويُقرىء الضيف ويُعين على نوائب الحق، فلم تُكذّب قريشٌ بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة مرْ أبا بكر فليعبد ربّه في داره فليصلِّ فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به فإنّا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلّي فيه ويقرأ القرآن فيتقصّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً بكّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدِمَ عليهم، فقالوا: إنّا كنّا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربّه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن الصلاة والقراءة فيه، وإنّا خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانْهَهُ فإن أحبّ أن يقتصر على أن يعبد ربّه في داره فعل، وإن أبى إلّا أن يعلن بذلك فسله أن

كان فيه شيء أصابني دونك فدخله فكنسه ووجد في جانبه ثقباً فشق إزاره وسدها به وبقي منهما ثقبان فألقمهما رجليه ثم قال لرسول الله ﷺ ادخل فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجره ونام فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فقال: مالك يا أبا بكر فقال: لدغت فداك أبي وأمي فتفل عليه رسول الله ﷺ فذهب ما يجده ثم انتقض عليه وكان سبب موته وأما يومه فلما قبض ﷺ ارتدت العرب، وقالوا: لا نؤدي الزكاة فقال لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه فقلت يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم. قال: لي أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام أنه قد انقطع الوحي وتم الدين أينقص وأنا حي أخرجه في جامع الأصول ولم يرقم عليه علامة لأحد قال البغوي وروي أنه حين انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه. فقال له رسول الله ﷺ: مالك يا أبا بكر؟ فقال: أذكر الطلب فأمشي خلفك واذكر الرصد فأمشي بين يديك فلما انتهيا إلى الغار قال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء الغار فدخل فاستبرأه ثم قال انزل يا رسول الله فنزل وقال له: إن أقتل فأنا رجل واحد من المسلمين وإن قتلت هلكت الأمة.

(ذكر سياق حديث الهجرة وهو من أفراد البخاري)

عن عائشة قالت: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشياً فلما ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. فقال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار فارجع واعبد ربك ببلدك فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيق ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وفي رواية فأنفذت قريش

يردّ إليك ذمّتك، فإنّا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مُقرّين لأبي بكر الاستعلان، قالت عائشة رضي الله عنها: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن تُرجع إليَّ ذمّتي فإني لا أُحب أن تسمع العرب إني أخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أردّ إليك جوارك وأرضى بجوار الله، والنبي ﷺ يومئذ بمكة فقال النبي ﷺ للمسلمين: «إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرّتان»، فهاجر مَن هاجر قبل المدينة ورجع عامّة مَن كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهّز أبو بكر رضي الله عنه قبل المدينة فقال له رسول الله ﷺ: «على رَسْلِكَ فإنّي أرجو أن يؤذن لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجو بذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر، وهو الخبط أربعة أشهر قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلاّ أمر، قالت: فجاء رسول الله فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرج مَنْ عندك»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: «فإني قد أذن لي في الخروج»، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ: «بالثمن»، قالت عائشة رضي الله عنها فجهّزناهما أحثّ الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُمّيت ذات النِطاقين، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فمكثا فيه ثلاث

جوار ابن الدغنة وأمنوا أبا بكر وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره وليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر فلبث أبو بكر كذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه وكان أبو بكر رجلاً بكّاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر، فقال: قد علمت الذي عاهدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتي فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله والنبي ﷺ يومئذ بمكة فقال النبي ﷺ للمسلمين: إني رأيت دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة فقال له رسول الله ﷺ: على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر هو الخبط أربعة أشهر قال ابن شهاب: قال عروة قالت عائشة: فبينا نحن جلوس يوماً في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر قالت فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: اخرج من عندك. فقال أبو بكر إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: فإني قد أذن لي في الخروج قال أبو بكر الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ نعم. قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين فقال رسول الله ﷺ: بالثمن. قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما

ليالٍ يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة فلا يسمع أمراً يكتادان به إلّا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عبد بن هاديا خريتاً والخريتُ: الماهر بالهداية، قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفّار قريش فأمّناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم على طريق السواحل قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول جاءنا رسل كفّار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه ديّة كل واحد منهما لِمَن قتله أو أسره فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه، فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثتُ في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت فأهويت يدي

سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين قالت ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل حتى ينعق بهما عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هادياً خريتا والخريت الماهر بالهداية قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال فأتاهما صبح ثلاث فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الديلي فأخذ بهم طريق السواحل وفي رواية طريق الساحل. قال ابن شهاب: فأخبرني عبد الرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول: جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس. فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه قال سراقة فعرفت أنهم هم فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها فقمت وأهويت بيدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا فخرج الذي أكره فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكبر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذ الأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزآني ولم يسألاني إلا أن قال أخف عنا ما استطعت فسألته أن يكتب لي كتاب أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم ومضى رسول الله ﷺ قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشأم فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة فانقلبوا يوماً

إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أضرّهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت وأبو بكر رضي الله عنه يكثر الالتفات فساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تُخرج يديها فلما استوت قائمة إذا تربدّ بها غبار ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر النبي ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الديّة وأخبرتهم خبرَ ما يُريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني شيئاً إلاّ أن قالا: اخْفِ عنّا، فسألته أن يكتب لي كتابَ أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم ثم مضى رسول الله ﷺ. قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجّاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بياض، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرَج

بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على ظهر أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه فبصر رسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السارب فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرونه قال فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً فطفق من جاء من الأنصار لمن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته هذا إن شاء الله المنزل ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً فقال لا بل نهبه لك يا رسول الله فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويقول:

هـذا الحمـال لا حمـال خيبـر هـذا أبـر ربنـا وأطهـر

ويقول: اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة، فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي. قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت أخرجه البخاري بطوله.

(شرح غريب ألفاظ الحديث)

قولها: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين، يعني، أنهما كانا ينقادان إلى الطاعة، وبرك الغماد بفتح الباء من برك وكسر الغين المعجمة اسم موضع بينه وبين مكة خمس ليال مما يلي ساحل البحر إلى المدينة من بلاد غفار. وقيل: هو قليب ماء لبني ثعلبة. قوله: تكسب المعدوم فيه قولان: أحدهما: أنه لقوة سعده وحظه من الدنيا لا يتعذر عليه كسب كل شيء حتى المعدوم الذي يتعذر كسبه على غيره.

والقول الثاني: إنه يملك الشيء المعدوم المتعذر لمن لا يقدر عليه ففيه وصفة بالإحسان والكرم والكل ما يثقل حمله من حقوق الناس وصلة الأرحام والقيام بأمر العيال وإقراء الضيف ونوائب الحق ما ينوب الإنسان من المغارم وقضاء الحقوق لمن يقصده أنا لك جار أي حام وناصر ومدافع عنك والاستعلان إظهار المخفي. وقوله: فينقذف النساء عليه يعني يزدحمن عليه والذمة العهد والأمان وإخفاؤها نقضها. واللابة: الجبل. والحرة: الأرض التي تعلوها

رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة فينظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أوَوْا إلى بيوتهم أوفى رجلٌ من يهود على آطم من أطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدّكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرّة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً فطفق مَن جاء من الأنصار ممّن لم يرَ رسول الله ﷺ يحيّي أبا بكر حتى أصابت الشمسُ رسولَ الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلّل عليه بردائه فعرف الناسُ رسولَ الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسّسَ المسجد الذي أُسّس على التقوى، وصلّى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلّي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر لسهيل

حجارة سود. يقال: افعل الشيء على رسلك بكسر الراء أي على هينتك. والراحلة: البعير القوي على الحمل والسير، والظهيرة: وقت شدة الحر والنطاق: حبل أو نحوه تشد به المرأة وسطها وترفع ثوبها من تحته فتعطف طرفاً من أعلاه إلى أسفله لئلا يصل إلى الأرض. وقولها: ثقف لقن. يقال: ثقف الرجل ثقافة إذا صار حاذقاً فطناً واللقن السريع الفهم. والإدلاج: بتخفيف الدال سير أول الليل وبتشديدها سير آخره والمنحة الشاة ذات اللبن والرسل بكسر الراء وسكون السين هو اللبن يقال: نعق الراعي بالغنم إذا دعاها لتجتمع إليه. والغلس: ظلام آخر الليل. والخريت: تقدم شرحه في الحديث وهو الماهر بالهداية وأراد به هداية الطريق فهو الدليل. وقد غمس حلفاً يقال: غمس فلان حلفاً في آل فلان إذا أخذ بنصيب من عهدهم وحلفهم والأسودة الأشخاص. والأكمة: التل المرتفع من الأرض. يقال: قرب الفرس يقرب تقريباً إذا عدا عدواً دون الإسراع والكناية هي الجعبة التي تجعل فيها السهام والأزلام القداح التي كانوا يستقسمون بها عند طلب الحوائج كالفأل والعثان الغبار. يقال: ما رزأت فلاناً شيئاً أي ما أصبت منه شيئاً والمراد أنهم لم يأخذوا منه شيئاً وقوله أوفى أي أشرف وأطلع.

والأطم: البناء المرتفع كالحصن، وقوله: مبيضين هو بكسر الياء أي: هم ذو ثياب بيض والمربد الموضع يوضع فيه التمر كالبيدر. وقوله: هذا الحمال هو بالحاء المهملة يعني هذا الحمل والمحمول من اللبن أبر عند الله وأطهر وأبقى ذخراً وأدوم منفعة في الآخرة لأحمال خيبر يعني ما يحمل من خيبر من التمر والزبيب والطعام المحمول منها. والمعنى: أن ذلك الحمل الذي نحمله من اللبن لأجل عمارة المسجد أفضل عند الله مما يحمل من خيبر وقد روى هذا الجمال بالجيم من التجمل، والرواية الأولى أشهر وأكثر والله أعلم قال الزهري: لما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله سبحانه وتعالى زوجاً من حمام حتى باضتا في أسفل النقب ونسجت العنكبوت بيتاً. وقيل: أتت يمامة على فم الغار وقال النبي ﷺ: «اللهم أعم أبصارهم» فجعل الطلب يضربون يميناً وشمالاً حول الغار يقولون لو دخلا هذا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت ووجدت في بعض التفاسير شعراً وقد نسب إلى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وهو قوله:

قال النبي ولم يجزع يوقرني ... ونحن في سدف في ظلمة الغار
لا تخش شيئاً فإن الله ثالثنا ... وقد تكفل لي منه بإظهار
وإنما كيد من تخشى بوادره ... كيد الشياطين قد كادت لكفار
والله مهلكهم بما صنعوا ... وجاعل المنتهي منهم طم إلى النار

وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتّخذه مسجداً فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، ثم بناه مسجداً وطفق رسول الله ينقل معهم اللَّبِنَ في بنيانه ويقول وهو ينقل اللَّبن:

«هذا الحمال لا حمال خيبر ... هذا أبرر بنا وأطهر»

ويقول:

«اللّهمَّ إن الأجر أجر الآخرة ... فارحمِ الأنصار والمهاجرة»

فتمثّل بشعر رجل من المسلمين لم يسمَّ لي، قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثّل ببيت شعر تامّ غير هذه الأبيات. قال الزهري: لمّا دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله تعالى زوجاً من حمام حتى باضتا في أسفل النقب والعنكبوت حتى نسجت بيتاً، وفي القصة أنبت يمامة على فم الغار، وقال

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ يعني فأنزل الله الطمأنينة والسكون على رسول الله ﷺ وقال ابن عباس عن أبي بكر لأن النبي ﷺ كانت عليه السكينة من قبل ذلك.

(فصل في الوجوه المستنبطة من هذه الآية الدالة على فضل سيدي أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه)

منها أن النبي ﷺ لما اختفى في الغار من الكفار كان مطلعاً على باطن أبي بكر الصديق في سره وإعلانه وأنه من المؤمنين الصادقين الصديقين المخلصين فاختار صحبته في ذلك المكان المخوف لعمله بحاله. ومنها: أن هذه الهجرة كانت بإذن الله فخصّ الله بصحبة نبيه ﷺ أبا بكر دون غيره من أهله وعشيرته وهذا التخصيص يدل على شرف أبي بكر وفضله على غيره. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى عاتب أهل الأرض بقوله تعالى إلا تنصروه فقد نصره الله سوى أبي بكر الصديق وهذا دليل على فضله. ومنها: أن سيدنا أبا بكر رضي الله تعالى عنه لم يتخلف عن رسول الله ﷺ في سفر ولا حضر بل كان ملازماً له وهذا دليل على صدق محبته وصحة صحبته له ومنها مؤانسته للنبي ﷺ في الغار وبذل نفسه له وفي هذا دليل على فضله. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى جعله ثاني رسول الله ﷺ بقوله سبحانه وتعالى ثاني اثنين إذ هما في الغار وفي هذا نهاية الفضيلة لأبي بكر رضي الله تعالى عنه. وقد ذكر بعض العلماء أن أبا بكر كان ثاني رسول الله ﷺ في أكثر الأحوال ومنها أن النبي ﷺ دعا الخلق إلى الإيمان بالله فكان أبو بكر أول من آمن ثم دعا أبو بكر إلى الإيمان بالله ورسوله فاستجاب له عثمان وطلحة والزبير فآمنوا على يدي أبي بكر ثم حملهم إلى النبي ﷺ ومنها أن النبي ﷺ لم يقف في موقف من غزواته إلا وأبو بكر معه في ذلك الموقف ومنه أنه لما مرض ﷺ قام مقامه في الإمامة فكان ثانيه ومنها أنه ثانيه في تربته ﷺ وفي هذا دليل على فضل أبي بكر الصديق ومنها أن الله سبحانه وتعالى نص على صحبة أبي بكر دون غيره بقوله سبحانه وتعالى إذ يقول لصاحبه لا تحزن ومنها أن الله سبحانه وتعالى كان ثالثهما ومن كان الله معه دل على فضله وشرفه على غيره ومنها إنزال السكينة على أبي بكر واختصاصه بها دليل على فضله والله أعلم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ يعني: وأيد النبي ﷺ بإنزال الملائكة ليصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته. وقيل: ألقى الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا وقال مجاهد والكلبي: أعانه بالملائكة يوم بدر فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه نصره وصرف عنه كيد الأعداء وهو في الغار في حالة القلة والخوف ثم نصره بالملائكة يوم بدر ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ يعني كلمة الشرك فهي سفلى إلى يوم القيامة ﴿وكلمة الله هي

النبي ﷺ: «اللّهمَّ أعمِ أبصارهم عنّا» فجعل الطُّـلّب يضربون يميناً وشمالاً حول الغار يقولون: لو دخلا هذا الغار لتكسّر بيض الحمام وتفسّخ بيت العنكبوت. قوله عزّ وجلّ: ﴿ فأنزل اللَّهُ سكينتَهُ عليه ﴾، قيل: على النبي ﷺ. وقال ابن عباس: على أبي بكر رضي الله عنه، فإن النبي ﷺ كانت عليه السكينة من قبل، ﴿ وأيَّدَه بجنودٍ لم ترَوْهَا ﴾، وهم الملائكة نزلوا يصرفون وجوه الكفّار وأبصارهم عن رؤيته، وقيل: ألقوا الرعب في قلوب الكفّار حتى رجعوا: وقال مجاهد والكلبي: أعانه بالملائكة يوم بدر أخبر أنه صرف عنه كيد الأعداء في الغار ثم أظهر نصره بالملائكة يوم بدر، ﴿ وجعلَ كلمةَ الذينَ كفرُوا السفلى ﴾، وكلمتهم الشرك وهي السفلى إلى يوم القيامة، ﴿ وكلمةُ اللّهِ هي العُليَا ﴾، إلى يوم القيامة. قال ابن عباس: هي قول لا إله إلاّ الله. وقيل: كلمة الذين كفروا ما قدّروا بينهم في الكيد به ليقتلوه، وكلمة الله وَعْدُ الله أنه ناصره. وقرأ يعقوب: «وكلمـةَ الله» بنصب التاء على أنها معطوفة على المفعول الأول لجعل، وهو ﴿ كلمة الذين كفروا ﴾، والتقدير وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وجعل

العليا والله عزيز حكيم﴾ قال ابن عباس: هي كلمة لا إله إلا الله فهي باقية إلى يوم القيامة عالية. وقيل: إن كلمة الذين كفروا هي ما كانوا قدروها فيما بينهم من الكيد للنبي ﷺ ليقتلوه وكلمة الله هي ما وعده من النصر والظفر بهم فكان ما وعد الله سبحانه وتعالى حقاً وصدقاً.

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ يعني انفروا على الصفة التي يخفف عليكم الجهاد بها وعلى الصفة التي يثقل عليكم فيها وهذان الوصفان يدخل تحتها أقسام كثيرة فلهذا اختلفت عبارات المفسرين فيها. فقال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة: يعني شباباً وشيوخاً. وقال ابن عباس: نشاطاً وغير نشاط. وقال عطية العوفي: ركباناً ومشاة. وقال أبو صالح: خفافاً من المال يعني فقراء وثقالاً يعني أغنياء. وقال ابن زيد: الخفيف الذي لا ضيعة له والثقيل الذي له الضيعة يكره أن يدع ضيعته.

ويروى عن ابن عباس قال: خفافاً أهل اليسرة من المال وثقالاً أهل العسرة. وقيل: خفافاً يعني من السلاح مقلين منه وثقالاً يعني مستكثرين منه. وقيل: مشاغيل وغير مشاغيل. وقيل: أصحاء ومرضى. وقيل: عزاباً ومتأهلين. وقيل: خفافاً من الحاشية والأتباع وثقالاً مستكثرين منهم. وقيل: خفافاً يعني مسرعين في الخروج إلى الغزو ساعة سماع النفير وثقالاً يعني بعد التروي فيه والاستعداد له والصحيح أن هذا عام لأن هذه الأحوال كلها داخلة تحت قوله تعالى انفروا خفافاً وثقالاً يعني على أي حال كنتم فيهما.

فإن قلت: فعلى هذا يلزم الجهاد لكل أحد حتى المريض والزمن والفقير وليس الأمر كذلك فما معنى هذا الأمر.

قلت: من العلماء من حمله على الوجوب ثم إنه نسخ.

قال ابن عباس: نسخت هذه الآية بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة الآية. وقال السدي: نسخت بقوله: ليس على الضعفاء ولا على المرضى الآية ومنهم من حمل هذا الأمر على الندب. قال مجاهد: إن أبا أيوب الأنصاري شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف عن غزوة غزاها المسلمون بعده فقيل له في ذلك، فقال: سمعت الله عز وجل يقول انفروا خفافاً وثقالاً ولا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً وقال الزهري: خرج سعيد بن المسيب وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل صاحب ضر فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد أو حفظت المتاع. وقال صفوان بن عمرو: كنت والياً على حمص فلقيت شيخاً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل

كلمة الله هي العليا، فكلمة الله معطوفة على المفعول الأول والعليا معطوفة على المفعول الثاني. وقرأ الباقون «كلمةُ الله» بالرفع على الاستئناف كأنه تمّ الكلام عند قوله: ﴿ وجعلوا كلمة الذين كفروا السفلى ﴾، ثم ابتدأ فقال: ﴿ وكلمةُ الله هي العُليَا ﴾، على الابتداء والخبر، فكلمة الله مبتدأ والعليا خبره، ﴿ واللَّهُ عزيزٌ حكيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ انفرُوا خِفافاً وثِقالاً ﴾، قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعِكرمة: شُبّاناً وشُيوخاً. وعن ابن عباس: نشاطاً وغير نشاط. وقال عطية العوفي: ركباناً ومشاةً. وقال أبو صالح: خفافاً من المال، أي: فقراء، وثقالاً أي: أغنياء. وقال ابن زيد: الثقيل الذي له الضَيعة، فهو ثقيل يكره أن يدع ضيعته، والخفيف الذي لا ضيعة له. ويُروى عن ابن عباس قال: خفافاً أهل الميسرة من المال وثقالاً أهل العسرة. وقيل: خفافاً من السلاح،

دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت يا عم أنت معذور عند الله، فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً إلا أنه من يحبه يبتليه والصحيح. هو القول الأول أنها منسوخة وأن الجهاد من فروض الكفايات ويدل عليه أن هذه الآيات نزلت في غزوة تبوك وأن النبي ﷺ خلف في المدينة في تلك الغزوة النساء وبعض الرجال فدل ذلك على أن الجهاد من فروض الكفايات ليس على الأعيان والله أعلم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ فيه قولان الأول أن الجهاد إنما يجب على من له مال يتقوى به على تحصيل آلاف الجهاد ونفس سليمة قوية صالحة للجهاد فيجب عليه فرض الجهاد والقول الثاني أن من كان له مال وهو مريض أو مقعد أو ضعيف لا يصلح للحرب فعليه الجهاد بماله بأن يعطيه غيره ممن يصلح للجهاد فيغزو بماله فيكون مجاهداً بماله دون نفسه ﴿ذلكم﴾ يعني ذلكم الجهاد ﴿خير لكم﴾ يعني من القعود والتثاقل عنه. وقيل: معناه أن الجهاد خير حاصل لكم ثوابه ﴿إن كنتم تعلمون﴾ يعني أن ثواب الجهاد خير لكم من القعود عنه ثم نزل في المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قوله عز وجل:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ فيه إضمار تقديره لو كان ما تدعوهم إليه عرضاً يعني غنيمة سهلة قريبة التناول والعرض ما عرض لك من منافع الدنيا ومتاعها. يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر ﴿وسفراً قاصداً﴾ يعني سهلاً قريباً ﴿لاتبعوك﴾ يعني لخرجوا معك ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أي المسافة والشقة السفر البعيد، لأنه يشق على الإنسان سلوكها. ومعنى الآية: لو كان العرض قريباً والغنيمة سهلة والسفر قاصداً لاتبعوك طمعاً في تلك المنافع التي تحصل لهم ولكن لما كان السفر بعيداً وكانوا يستعظمون غزو الروم لاجرم أنهم تخلفوا لهذا السبب ثم أخبر الله سبحانه

أي: مقلّين منه، وثقالاً أي: مستكثرين منه. وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال مرّة الهمذاني. أصحّاء ومرضى. وقال يمان بن رباب عزّاباً ومتأهلين. وقيل: خفافاً من حاشيتكم وأتباعكم، وثقالاً مستكثرين بهم. وقيل: خفافاً مسرعين خارجين ساعة سماع النفير، وثقالاً بعد التروّي فيه الاستعداد له، ﴿ وجاهدُوا بأموالِكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾، قال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك على صاحب ضر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكنّي الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع. وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس: نُسخت هذه الآية بقوله: ﴿ وما كان المؤمنون ﴾ [التوبة: ١٢٢]، قال السدي: لمّا نزلت هذه الآية اشتدّ شأنها على الناس فنسخها الله تعالى وأنزل: ﴿ ليسَ على الضعفاء ولا على المرضَى ﴾ [التوبة: ٩١] الآية: ثم نزل في المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك:

﴿ لو كان عرضاً قريباً ﴾، واسم كان مضمر، أي: لو كان ما ندعوهم إليه عرضاً قريباً أي: غنيمة قريبة المتناول، ﴿ وسفراً قاصداً ﴾، أي قريباً هيّناً، ﴿ لاتبعوك ﴾، لخرجوا معك، ﴿ ولكنْ بَعُدَتْ عليهمُ الشُّقَّةُ ﴾،

وتعالى عنهم أنه إذا رجع النبي عليه السلام من هذا الجهاد يحلفون بالله وهو قوله تعالى: **﴿وسيحلفون بالله﴾** يعني المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة **﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾** يعني إلى هذه الغزوة **﴿يهلكون أنفسهم﴾** يعني بسبب هذه الأيمان الكاذبة والنفاق وفيه دليل على أن الأيمان الكاذبة تهلك صاحبها **﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾** يعني في أيمانهم وهو قولهم: لو استطعنا لخرجنا معكم لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

قوله عز وجل: **﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾** قال الطبري: هذا عتاب من الله عز وجل عاتب الله به نبيه محمداً ﷺ أي في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه من المنافقين حين شخص إلى تبوك لغزو الروم. والمعنى: عفا الله عنك يا محمد ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك إلى تبوك. قال عمرو بن ميمون الأودي: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر بشيء فيهما إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون وقال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف بدأه بالعفو قبل أن يعيره بالذنب.

(فصل)

استدل بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنوب من الأنبياء وبيانه من وجهين: أحدهما، أنه سبحانه وتعالى. قال: عفا الله عنك والعفو يستدعي سابقة الذنب الوجه الثاني أنه سبحانه وتعالى قال لم أذنت لهم وهذا استفهام معناه الإنكار.

والجواب عن الأول: إنا لا نسلم أن قوله تعالى عفا الله عنك يوجب صدور الذنب بل نقول إن ذلك يدل على المبالغة في التعظيم والتوقير فهو كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظماً له عفا الله عنك ما صنعت في أمري رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي وعافاك الله وغفر لك كل هذه الألفاظ في ابتداء الكلام وافتتاحه تدل على تعظيم المخاطب به قال علي بن الجهم يخاطب المتوكل:

عفـــا الله عنـــك إلا حـــرمـــة ... تعـــود بفضلـــك أن أبعـــدا
ألـــم تـــر عبـــداً عـــدا طـــوره ... ومـــولـــى عفـــا ورشيـــداً هـــدى
أقلنـــي أقـــالـــك مـــن لـــم يـــزل ... يقيـــل ويصـــرف عنـــك الـــردى

والجواب عن الثاني: أنه لا يجوز أن يكون المراد بقوله لم أذنت لهم الإنكار عليه وبيانه: إما أن يكون قد صدر عنه ذنب في هذه الواقعة أولاً فإن كان قد صدر عنه ذنب فذكر الذنب بعد العفو لا يليق. فقوله: عفا الله عنك، يدل على حصول العفو وبعد حصول العفو، يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه وإن لم يكن قد صدر عنه ذنب امتنع الإنكار عليه فثبت بهذا أن الإنكار يمتنع في حقه ﷺ

وقال القاضي عياض في كتابه الشفاء في الجواب عن قوله عفا الله عنك لم أذنت لهم: أنه أمر لم يتقدم للنبي ﷺ

أي: المسافة، والشقّة السفر البعيد لأنه يشقّ على الإنسان. وقيل: الشقّة الغاية التي يقصدونها، **﴿ وسيحلفون باللهِ لوِ استطعنا لخرجنا معكم يُهلِكون أنفسهم ﴾**، يعني باليمين الكاذبة، **﴿ والله يعلم إنّهم لكاذِبُون ﴾**، في أيمانهم لأنهم كانوا مستطيعين.

﴿ عفا اللّهُ عنكَ ﴾، قال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه الفدية من أسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون. قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل أن يُعيّره بالذنب. وقيل: إن الله عزّ وجلّ وقّره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له، كما يقول الرجل لمَن يخاطبه إذا كان كريماً عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي، ورضي الله عنك ألا زرتني. وقيل معناه: أدام الله لك العفو.

فيه من الله تعالى نهي فيعد معصية ولا عده تعالى عليه معصية بل لم يعده أهل العلم معاتبة وغلطوا من ذهب إلى ذلك قال نفطويه: وقد حاشاه الله من ذلك بل كان مخيراً في أمرين قالوا: وقد كان له أن يفعل ما يشاء فيما لم ينزل عليه فيه وحي فكيف وقد قال الله سبحانه وتعالى له فأذن لمن شئت منهم فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سرهم أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا وأنه لا حرج عليه فيما فعل وليس عفا هنا بمعنى غفر بل كما قال النبي ﷺ عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم تجب عليهم قط أي يلزمكم ذلك ونحوه للقشيري. قال: وإنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب قال ومعنى عفا الله عنك أي لم يلزمك ذنب. قال الداودي: إنها تكرمة. وقال مكي: هو استفتاح كلام مثل أصلحك الله وأعزك وحكى السمرقندي أن معناه عفاك الله. وقيل معناه: أدام الله لك العفو لم أذنت لهم يعني في التخلف عنك وهذا يحمل على ترك الأولى والأكمل لا سيما وهذه كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ يعني في اعتذارهم ﴿وتعلم الكاذبين﴾ يعني فيما يعتذرون به. قال ابن عباس: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت براءة.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ أي في أن يجاهدوا وإنما حسن هذا الحذف لظهوره ﴿والله عليم بالمتقين﴾ يعني الذين يتقون لمخالفته ويسارعون إلى طاعته ﴿إنما يستأذنك﴾ يعني في التخلف عن الجهاد معك يا محمد من غير عذر ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ وهم المنافقون لقوله ﴿وارتابت قلوبهم﴾ يعني شكت قلوبهم في الإيمان وإنما أضاف الشك والارتياب إلى القلب لأنه محل المعرفة والإيمان أيضاً فإذا داخله الشك كان ذلك نفاقاً ﴿فهم في ريبهم يترددون﴾ يعني أن المنافقين متحيرون لا مع الكفار ولا مع المؤمنين وقد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية. فقيل: إنها منسوخة بالآية التي في سورة النور وهي قوله سبحانه وتعالى إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم وقيل إنها محكمات كلها ووجه الجمع بين هذه الآيات أن المؤمنين كانوا يسارعون إلى طاعة الله وجهاد عدوهم من غير استئذان فإذا عرض لأحدهم عذراً استأذن في التخلف فكان رسول الله ﷺ مخيراً في الإذن لهم بقوله تعالى فأذن لمن شئت منهم وأما المنافقون فكانوا يستأذنون في التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بهذا الاستئذان لكونه بغير عذر.

۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ

﴿ لِمَ أذِنْتَ لهم ﴾، أي: في التخلّف عنك ﴿ حتّى يتبيّن لكَ الذينَ صدقوا ﴾، في أعذارهم، ﴿ وتعلمَ الكاذبين ﴾، فيها، أي: تعلم مَن لا عذر له. قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ.

﴿ لا يستأذِنُكَ الذينَ يُؤمنُون باللّهِ واليومِ الآخرِ أنْ يُجاهدُوا بأموالِهم وأنفسهم ﴾، أي: لا يستأذنك في التخلّف، ﴿ واللّهُ عليمٌ بالمتّقين ﴾.

﴿ إنّما يستأذِنُكَ الذينَ لا يُؤمنُون باللّهِ واليومِ الآخرِ وارْتَابَتْ قلوبُهم ﴾، أي شكّتْ ونافقت، ﴿ فهم في ريبهم يتردّدُون ﴾، يتحيّرون.

سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ولو أرادوا الخروج﴾ يعني إلى الغزو معكم ﴿لأعدوا له عدة﴾ لتهؤوا له بإعداد آلات السفر وآلات القتال من الكراع والسلاح ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ يعني خروجهم إلى الغزو معكم ﴿فثبطهم﴾ يعني منعهم وحبسهم عن الخروج معكم والمعنى أن الله سبحانه وتعالى كره خروج المنافقين مع النبي ﷺ فصرفهم عنه وهاهنا يتوجه سؤال وهو أن خروج المنافقين مع النبي ﷺ إما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فإن كان فيه مصلحة فلم قال: ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم، وإن كان فيه مفسدة. فلم عاتب نبيه ﷺ في أذنه لهم بالقعود والجواب عن السؤال أن خروجهم مع رسول الله ﷺ كان فيه مفسدة عظيمة بدليل أنه تعالى أخبر عن تلك المفسدة بقوله تعالى لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً، بقي فلم عاتب الله ورسوله ﷺ بقوله لم أذنت لهم فنقول إنه ﷺ أذن لهم قبل تمام الفحص وإكمال التأمل والتدبر في حالهم فلهذا السبب قال الله تعالى: لم أذنت لهم؟ وقيل إنما عاتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحي إليه في أمرهم بالقعود ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ معناه أنهم لما استأذنوه في القعود. قيل لهم: اقعدوا مع القاعدين وهم النساء والصبيان والمرضى وأهل الأعذار ثم اختلفوا في القائل من هو فقيل، قال بعضهم لبعض: اقعدوا مع القاعدين. وقيل: القائل هو رسول الله ﷺ وإنما قال ذلك لهم على سبيل الغضب لما استأذنوه في القعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين فاغتنموا ذلك وقعدوا وقيل إن القائل ذلك هو الله سبحانه وتعالى بأن ألقى في قلوبهم القعود لما كره انبعاثهم مع المسلمين إلى الجهاد ثم بيَّن سبحانه وتعالى ما في خروجهم من المفاسد فقال تعالى: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ يعني لو خرج هؤلاء المنافقون معكم إلى الغزو ما زادوكم إلا فساداً وشراً وأصل الخبال اضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون قال بعض النحاة: هذا من الاستثناء المنقطع والمعنى لو خرجوا فيكم ما زادوكم قوة لكن خبالاً والمراد به هنا الإفساد وإيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر وشدة السفر وكثرة العدوان وقوتهم ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ يعني ولأسرعوا فيكم وساروا بينكم بإلقاء النميمة والأحاديث الكاذبة فيكم ﴿يبغونكم الفتنة﴾ يعني يطلبون لكم ما تفتتنون به وذلك أنهم يقولون للمؤمنين لقد جمع لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وإنكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الأحاديث الكاذبة التي تجبن وقيل معناه يطلبون العيب والشر ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ قال مجاهد: يعني وفيكم عيون لهم يؤدون إليهم أخباركم وما يسمعون منكم وهم

﴿ ولو أرادوا الخروجَ ﴾، إلى الغزو، ﴿ لأعدُّوا لَهُ ﴾، أي: ليهيِّؤوا له، ﴿ عُدَّةً ﴾، أُهبة وقوة من السلاح والكِراع، ﴿ ولكنْ كَرِهَ اللَّهُ انبعاثهم ﴾، خروجهم، ﴿ فَثَبَّطَهم ﴾، منعهم وحبسهم عن الخروج، ﴿ وقيلَ اقْعُدُوا ﴾، في بيوتكم، ﴿ معَ القاعدين ﴾، يعني: مع المرضى والزَّمْنَى. وقيل: مَع النسوان والصبيان. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وقيل ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: اقعدوا. وقيل: أوحى إلى قلوبهم وأُلْهِمُوا أسباب الخذلان.

﴿ لو خرجُوا فيكم ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بالجهاد لغزوة تبوك فضرب رسول الله ﷺ عسكره على ثنيّة الوداع وضرب عبد الله بن أُبيّ على جدّة أسفل من ثنيّة الوداع، ولم يكن بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ تخلّف عند عبد الله بن أُبيّ فيمن تخلّف من المنافقين وأهل الريب، فأنزل الله تعالى يعزّي نبيّه ﷺ: ﴿ لو خرجوا ﴾ يعني المنافقون ﴿ فيكم ﴾ أي معكم، ﴿ ما زادُوكم إلّا خبالاً ﴾، أي: فساداً وشرّاً. ومعنى الفساد: إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، ﴿ ولأَوْضَعُوا ﴾، أسرعوا، ﴿ خِلالَكم ﴾، في وسطكم بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض. وقيل: ﴿ لأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ﴾ أي: أسرعوا

الجواسيس. وقال قتادة: وفيكم مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك أنهم يلقون إليهم أنواعاً من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم.

فإن قلت: كيف يجوز أن يكون في المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع للمنافقين؟

قلت: يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب من كبار المنافقين ورؤسائهم فإذا قالوا قولاً ربما أثر ذلك القول في قلوب ضعفة المؤمنين في بعض الأحوال ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وهذا وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ يعني لقد طلبوا صد أصحابك يا محمد عن الدين وردهم إلى الكفر وتخذيل الناس عنكم قيل هذا اليوم كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد حين انصرف بأصحابه عنكم ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ يعني وأجالوا فيك وفي أمرك وفي إبطال دينك الرأي وبالغوا في تخذيل الناس عنك وقصدهم تشتيت أمرك ﴿حتى جاء الحق﴾ يعني النصر والظفر ﴿وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ يعني ذلك.

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

قوله عز وجل: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ نزلت في الجد بن قيس وكان من المنافقين وذلك أن النبي ﷺ لما تجهز إلى غزوة تبوك قال للجد بن قيس: يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر يعني الروم تتخذ منهم سراري ووصفاء. فقال الجد: يا رسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرم بحب النساء وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ائذن لي في القعود ولا تفتني بهن وأعينك بمالي قال ابن عباس: اعتل الجد بن قيس ولم تكن

فيما يخلّ بكم. ﴿ يبغونكُم الفتنة ﴾، أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جُمع لكم كذا وكذا وإنكم مهزومون وسيظهر عليكم عدوّكم ونحو ذلك. وقال الكلبي: يبغونكم الفتنة يعني: العَنَتَ والشرَّ. وقال الضحاك: الفتنة الشرك، ويقال: بغيته الشرّ والخير أبغيه بغياً إذا التمستُه له، يعني: بغيت له. ﴿وفيكم سمّاعُون لهم﴾، قال مجاهد: معناه وفيكم مخبرون لهم يؤدّون إليهم ما يسمعون منكم، وهم الجواسيس. وقال قتادة: معناه وفيكم مطيعون لهم، أي: يستمعون كلامهم ويطيعونهم. ﴿ واللّهُ عليمٌ بالظالمين ﴾.

﴿ لقدْ ابْتغَوُا الفتنةَ مِن قبلُ ﴾، أي: طلبوا صدَّ أصحابك عن الدين وردّهم إلى الكفر، وتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم، كفعل عبد الله بن أُبيّ يوم أُحد حين انصرف عنك بأصحابه. ﴿ وقلّبوا لكَ الأمورَ ﴾، جالوا فيك في إبطال دينك الرأي، بالتخذيل عنك وتشتيت أمرك، ﴿ حتى جاءَ الحقُّ ﴾، النصر والظفر، ﴿ وظهر أمر الله ﴾، دين الله، ﴿ وهم كارِهُون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ومنهم مَنْ يقولُ ائذنْ لي ولا تفتِنّي ﴾، نزلت في جدّ بـن قيس المنافق، وذلك أن النبي ﷺ لمّا تجهّز لغزوة تبوك قال: يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر؟ يعني الروم، تتخذ منهم سراري ووصفاء، فقال جدّ: يا رسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر

له علة إلا النفاق فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك فأنزل الله عز وجل فيه ومنهم يعني ومن المنافقين من يقول ائذن لي يعني في التخلف والقعود في المدينة ولا تفتني يعني ببنات بني الأصفر وهم الروم ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ يعني أنهم وقعوا في الفتنة العظيمة وهي النفاق ومخالفة رسول الله ﷺ والقعود عنه ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ يعني يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم فيها.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم﴾ يعني إن تصبك يا محمد حسنة من نصر وغنيمة تحزن المنافقين ﴿وإن تصبك مصيبة﴾ يعني من هزيمة أو شدة ﴿يقولوا﴾ يعني المنافقين ﴿قد أخذنا أمرنا﴾ يعني أخذنا أمرنا بالجد والحزم في القعود عن الغزو ﴿من قبل﴾ يعني من قبل هذه المصيبة ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ يعني مسرورين لما نالك من المصيبة وسلامتهم منها ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ يعني قل يا محمد لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيبك من المصائب والمكروه لن يصيبنا إلا ما قدره الله لنا وعلينا وكتبه في اللوح المحفوظ لأن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروهاً نزل به أو يجلب لنفسه نفعاً أراده لم يقدر له ﴿هو مولانا﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى هو ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يعني في جميع أمورهم ﴿قل هل تربصون بنا﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين هل تنتظرون بنا أيها المنافقون ﴿إلا إحدى الحسنيين﴾ يعني إما النصر والغنيمة وإما الشهادة والمغفرة وذلك أن المسلم إذا ذهب إلى الغزو والجهاد في سبيل الله إما أن يغلب عدوه فيفوز بالنصر والغنيمة والأجر العظيم في الآخرة وإما أن يقتل في سبيل الله فتحصل له الشهادة وهي الغاية القصوى ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «تكفل الله وفي رواية تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ونحن نتربص بكم﴾ يعني ونحن ننتظر بكم إحدى السوأيين ﴿أن يصيبكم الله بعذاب

عنهنّ، ائذنْ لي في القعودِ ولا تفتني بهنّ وأعينُك بما لي. قال ابن عباس: اعتلّ جدّ بن قيس ولم تكن له علّة إلاّ النفاق، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال: أذنت لك فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ ومنهم ﴾ يعني من المنافقين ﴿ مَنْ يقولُ ائذنْ لي ﴾ في التخلّف ﴿ ولا تفتني ﴾ ببنات الأصفر. قال قتادة: ولا تؤثمني. ﴿ ألاَ في الفتنةِ سقطُوا ﴾، أي: في الشرك والإثم وقعوا بنفاقهم وخلافهم أمْرَ الله ورسوله، ﴿ وإنّ جهنّم لمحيطةٌ بالكافرين ﴾، مطيفة عليهم وجامعة لهم فيها.

﴿ إنْ تُصبْكَ حسنةٌ ﴾، نصرة وغنيمة، ﴿ تسؤهم ﴾، تُحزنُهم، يعني: المنافقين، ﴿ وإنْ تُصبْك مصيبةٌ ﴾، قتل وهزيمة، ﴿ يقولوا قدْ أخذنا أمْرَنا ﴾، حذَرَنا، أي: أخذنا بالحزم في القعود عن الغزو، ﴿ منْ قبلُ ﴾، أي: من قبلِ هذه المصيبة، ﴿ ويتولّوا ﴾، ويدبروا ﴿ وهمْ فَرِحُون ﴾، مسرورون بما نالك من المصيبة.

﴿ قلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ لن يُصيبنا إلاّ ما كتبَ اللّهُ لنا ﴾، أي: علينا في اللوح المحفوظ، ﴿ هو مولانا ﴾، ناصرنا وحافظنا. وقال الكلبي: هو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة، ﴿ وعلى الله فليتوكلِ المؤمنون ﴾.

﴿ قلْ هلْ تربّصُون بنا ﴾، تنتظِرون بنا أيها المنافقون، ﴿ إلاّ إحدى الحُسنيين ﴾، إما النصر والغنيمة أو الشهادة والمغفرة. وروينا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تكفّل الله لمَن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلاّ الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة. أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة».

﴿ ونحنُ نتربصُ بكم ﴾، إحدى السوأتين إمّا. ﴿ أنْ يُصيبَكم اللّهُ بعذابٍ من عندِه ﴾، فيهلككم كما أهلك الأمم

من عنده﴾ يعني فيهلككم كما أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية ﴿أو بأيدينا﴾ يعني أو يصيبكم بأيدي المؤمنين بأن يظفرنا بكم ويظهرنا عليكم ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ قال الحسن: فتربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً﴾ نزلت في الجد بن قيس المنافق وذلك أنه استأذن رسول الله ﷺ في القعود عنه وقال أنا أعطيكم مالي فأنزل الله عز وجل رداً عليه قل أي قل يا محمد لهذا المنافق وأمثاله في النفاق أنفقوا طوعاً أو كرهاً يعني أنفقوا طائعين من قبل أنفسكم أو مكرهين بالإنفاق بإلزام الله ورسوله إياكم بالإنفاق ﴿لن يتقبل منكم﴾ لأن هذا الإنفاق إنما وقع لغير الله وهذه الآية وإن كانت خاصة في إنفاق المنافقين فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فإنه لا يقبل منه ثم علل بسبب منع القبول بقوله ﴿إنكم﴾ أي لأنكم ﴿كنتم قوماً فاسقين﴾ والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي المانع من قبول نفقاتهم هو كفرهم بالله وبرسوله ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ جمع كسلان يعني متثاقلين في الإتيان إلى الصلاة وذلك لأنهم لا يرجون على فعلها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً فلذلك ذمهم مع فعلها ﴿ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ لأنهم كانوا يعتقدون الإنفاق في سبيل الله مغرماً ومنع ذلك الإنفاق مغنماً ﴿فلا تعجبك﴾ يا محمد ﴿أموالهم ولا أولادهم﴾ هذا الخطاب وإن كان مختصاً بالنبي ﷺ إلا أن المراد به جميع المؤمنين والمعنى فلا تعجبوا بأموال المنافقين وأولادهم والإعجاب السرور بالشيء مع نوع من الافتخار به مع الاعتقاد أنه ليس لغيره مثله وهذا يدل على استغراق النفس بذلك الشيء ويكون سبب انقطاعه عن الله عز وجل فيبنغي للإنسان أن لا يعجب بشيء من أمور الدنيا ولذاتها فإن العبد إذا كان من الله عز وجل في استدراج كثر ماله وولده فيكثر إعجابه بماله وولده فيبطر ويكفر بنعم الله عليه ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ فإن قلت كيف يكون المال والولد عذاباً في الدنيا وفيهما اللذة والسرور في الدنيا.

قلت: قال مجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير وتقديرها فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وقيل: إن سبب كون المال والولد عذاباً في الدنيا هو ما يحصل من المتاعب

الخالية، ﴿ أو بأيدينا ﴾، أو بأيدي المؤمنين إن أظهرتم ما في قلوبكم، ﴿ فتربصُوا إنّا معكم مُتربِّصُون ﴾، قال الحسن: فتربصوا مواعيد الشيطان إنّا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال مَن خالفه.

﴿ قلْ أنفقُوا طوعاً أو كَرْهاً ﴾، أمرٌ بمعنى الشرط والجزاء، أي: إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً. نزلت في جدّ بن قيس حين استأذن في القعود، قال أعينكم بمالي، يقول: إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً ﴿ لنْ يُتقبَّلَ منكم إنّكم ﴾، أي: لأنكم، ﴿ كنتم قوماً فاسقين ﴾.

﴿ وما مَنَعهم أن تُقبَلَ مِنهُم ﴾، قرأ حمزة والكسائي: « يقبل » بالياء لتقدّم الفعل، وقرأ الباقون بالتاء لأن الفعل مسند إلى جمع مؤنث وهو النفقات، فأنّث الفعل ليعلم أن الفاعل مؤنث، ﴿ نفقاتُهُمْ ﴾، صدقاتهم، ﴿ إلّا

والمشاق في تحصيلهما فإذا حصلا ازداد التعب وتحمل المشاق في حفظهما ويزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما، فعلى هذا القول، لا حاجة إلى التقديم والتأخير في نظم الآية وأورد على هذا القول بأن هذا التعذيب حاصل لكل أحد من بني آدم مؤمنهم وكافرهم فما فائدة تخصيص المنافقين بهذا التعذيب في الدنيا وأجيب عن هذا الإيراد بأن المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا العذاب وهو أن المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وإنه يثاب بالمصائب الحاصلة له في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذاباً في الدنيا وأما المنافق فإنه لا يعتقد كون الآخرة له وإنه ليس فيها ثواب فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والشدة والغم والحزن على المال والولد عذاباً عليه في الدنيا فثبت بهذا الاعتبار أن المال والولد عذاب على المنافقين في الدنيا دون المؤمنين. وقيل: إن تعذيبهم بهما في الدنيا أخذ الزكاة منهم والنفقة في سبيل الله غير مثابين على ذلك وربما قتل الولد في الغزو فلا يثاب الوالد المنافق على قتل ولده وذهاب ماله. وقيل: يعذبهم بالتعب في جمعه وحفظه والكره في إنفاقه والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده ثم يقدم في الآخرة على ملك لا يعذره ﴿وتزهق أنفسهم﴾ يعني وتخرج أنفسهم ﴿وهم كافرون﴾ والمعنى أنهم يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ويحلفون بالله﴾ يعني المنافقين ﴿إنهم لمنكم﴾ يعني على دينكم وملتكم ﴿وما هم منكم﴾ يعني أنهم كاذبون في أيمانهم ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ يعني أنهم يخافون أن تظهروا على ما هم عليه من النفاق ﴿لو

أنهم كفرُوا باللَّهِ وبرسولِهِ ﴾، أي: المانع من قبول نفقاتهم كفرهم، **﴿ ولا يأتونَ الصلاةَ إلّا وهم كُسَالَى ﴾**، متثاقلون لأنهم لا يرجون على أدائها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً، فإن قيل: كيف ذمَّ الكسلَ في الصلاة ولا صلاة لهم أصلاً؟ قيل: الذم واقع على الكفر الذي يبعث على الكسل، فإن الكفر مُكسل والإيمان منشّط، **﴿ ولا ينفقون إلّا وهم كَارِهُون ﴾**، لأنهم يعدّونها مغرماً ومنعها مغنماً.

﴿ فلا تُعجِبْكَ أموالُهم ولا أولادُهم ﴾، والإعجاب هو السرور بما يتعجب منه، يقول: لا تستحسن ما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد لأن العبد إذا كان من الله في استدراج كثّر الله ماله وولده، **﴿ إنّما يُريدُ اللَّهُ ليعذبَهم بها في الحياة الدنيا ﴾**، فإن قيل أيّ تعذيب في المال والولد وهم يتنعمون بها في الحياة الدنيا؟ قيل: قال مجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنّما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وقيل: التعذيب بالمصائب الواقعة في المال والولد. وقال الحسن: يعذبهم بها في الدنيا بأخذ الزكاة منها والنفقة في سبيل الله. وقيل: يعذبهم بالتعب في جمعه والوجل في حفظه والكره في إنفاقه، والحسرة على تخليفه عند مَن لا يُحْمِده، ثم يُقدم على مَلِكٍ يُعْذره. **﴿ وتَزْهَقَ أنفُسُهم ﴾**، أي: تخرج، **﴿ وهم كافرُون ﴾**، أي: يموتون على الكفر.

﴿ ويحلفون بالله إنّهم لمنكم ﴾، أي: على دينكم، **﴿ وما هم منكم ولكنّهم قومٌ يفرّقون ﴾**، يخافوا أن يُظهروا ما هم عليه.

﴿ لو يجِدُون مَلْجأً ﴾، حرزاً أو حصناً أو معقلاً. وقال عطاء: مهرباً وقيل: قوماً يأمنون فيهم. **﴿ أو**

يجدون ملجأ﴾ يعني حرزاً وحصناً ومعقلاً يلجؤون إليه وقيل لو وجدوا مهرباً لهربوا إليه وقيل لو يجدون قوماً يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا إليهم ولفارقوكم **﴿أو مغارات﴾** يعني غيراناً في الجبل جمع مغارة وهو الموضع الذي يغور فيه الإنسان أي يستتر **﴿أو مدخلاً﴾** يعني موضع دخول يدخلون فيه وهو السرب في الأرض كنفق اليربوع وقال الحسن: وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله ﷺ **﴿لولوا إليه﴾** والمعنى أنهم لو وجدوا مكاناً بهذه الصفة أو على أحد هذه الوجوه الثلاثة وهي شر الأمكنة وأضيقها لولوا إليه أي لرجعوا إليه وتحرزوا فيه **﴿وهم يجمحون﴾** يعني وهم يسرعون إلى ذلك المكان والمعنى أن المنافقين لشدة بغضهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين لو قدروا أن يهربوا منكم إلى أحد هذه الأمكنة لصاروا إليه لشدة بغضهم إياكم.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾** نزلت في ذي الخويصرة التميمي واسمه حرقوص بن زهير وهو أصل الخوارج (ق) عن أبي سعيد الخدري قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم فيئاً فأتاه ذو الخويصرة رجل من بني تميم فقال يا رسول الله اعدل فقال رسول الله ﷺ: ويلك من يعدل إذا لم أعدل وفي رواية: قد خبت وخسرت إن لم أعدل فقال عمر بن الخطاب: ائذن لي فيه فأضرب عنقه فقال رسول الله ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم» زاد في رواية «يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين» وفي رواية «من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» وقال الكلبي: قال رجل من المنافقين، يقال له أبو الجواظ لم تقسم بالسوية فنزلت هذه الآية، وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي ﷺ وهو

مَغَارَاتٍ ﴾، غِيرَاناً في الجبال جمع مغارة وهو الموضع الذي تغور فيه، أي تستتر. وقال عطاء: سراديب. **﴿ أو مُدَّخَلاً ﴾**، موضع دخول فيه، وهو من أدخل يدخل، وأصله: مدتخل مفتعل، من دخل يدخل. قال مجاهد: محرزاً. وقال قتادة: سرباً. وقال الكلبي: نفقاً في الأرض كنفق اليربوع. وقال الحسن: وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله ﷺ. وقرأ يعقوب: «مَدْخَلاً» بفتح الميم وتخفيف الدال، وهو أيضاً موضع الدخول، **﴿ لَوَلَّوا إليه ﴾**، لأدبروا إليه هرباً منكم، **﴿ وهم يَجْمَحُون ﴾**، يسرعون في إباءٍ ونفورٍ لا يردّ وجوهَهم شيء. ومعنى الآية: أنهم لو يجدون مخلصاً منكم ومهرباً لفارقوكم.

قوله تعالى: **﴿ ومنهم مَّن يَلْمِزُكَ في الصَّدَقَاتِ ﴾**، الآية نزلت في ذي الخويصرة التميمي واسمه حرقوص بن زهير أصل الخوارج. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً فَيْأً أتاه ذُو الخُويصرة وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول إعدل، فقال: «وَيْلَكَ فمَنْ يعدلُ إذا لم أعدلْ قد خبت وخسرت إن لم أكنْ أعدل»، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال له: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، يمرقون من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيّة ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد ثبق الفرث والدم آنيتهم، رجل أسود إحدى عضديه مثل يدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس». قال أبو سعيد: وأشهد إني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أني عليّ بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته. وقال الكلبي: قال رجل من المنافقين: يقال له أبو الجوط لرسول الله ﷺ: لم تُقسمْ بالسويّة، فأنزل الله تعالى: **﴿ ومنهم مَن يَلْمِزُكَ في الصَّدَقات ﴾** أي: يعيبك في أمرها وتفريقها ويطعن عليك

يقسم ذهباً وفضة فقال: يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل فما عدلت فقال نبي الله ﷺ ويلك فمن ذا يعدل بعدي وقال ابن زيد قال المنافقون والله ما يعطيها محمد إلا من أحب ولا يؤثرها إلا من يهواه فأنزل الله سبحانه وتعالى ومنهم من يلمزك في الصدقات يعني ومن المنافقين من يعيبك في قسم الصدقات وفي تفريقها ويطعن عليك في أمرها يقال همزه ولمزه بمعنى واحد أي عابه ﴿فإن أعطوا منها﴾ يعني من الصدقات ﴿رضوا﴾ يعني رضوا عنك في قسمتها ﴿وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ يعني وإن لم تعطهم منها عابوا عليك وسخطوا.

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

﴿ولو أنهم رضوا﴾ يعني ولو أن المنافقين الذين عابوا عليك رضوا بما قسم الله لهم وقنعوا ﴿ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله﴾ أي كافينا الله﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ يعني إليه ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ يعني في أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وعن غيرها من أموال الناس وجواب لو محذوف تقديره لكان خيراً لهم وأعود عليهم.

قوله عز وجل: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ الآية اعلم أن المنافقين لما لمزو رسول الله ﷺ وعابوه في قسم الصدقات بيَّن الله عز وجل في هذه الآية إن المستحقين للصدقات هؤلاء الأصناف الثمانية ومصرفها إليهم ولا تعلن لرسول الله ﷺ منها بشيء ولم يأخذ لنفسه منها شيئاً فلم يلمزونه ويعيبون عليه فلا مطعن لهم فيه بسبب قسم الصدقات. عن زياد بن الحرث الصدائي قال «أتيت رسول الله ﷺ فبايعته فأتاه رجل فقال أعطني من الصدقة فقال له رسول الله ﷺ: إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك» أخرجه أبو داود.

فيها. يُقال: لمزه وهمزه، أي: عابه، يعني أن المنافقين كانوا يقولون إن محمداً لا يعطي إلاّ مَن أحبّ. وقرأ يعقوب «يلمـزك» وكذلك يلمزون في الحجرات ﴿ ولا تلمزوا ﴾ [الحجرات: ١١] كل ذلك بضمّ الميم فيهنّ، وقرأ الباقون بكسر الميم فيهنّ وهما لغتان «يلمُـز ويلمِز» مثل يحسِر ويعكِف ويعكُف. وقال مجاهد: يلمزك أي يزورك يعني يختبرك. ﴿ فإن أُعطُوا منها رَضُوا وإنْ لَمْ يُعطَوْا منها إذا هم يَسْخَطون ﴾، قيل: إن أعطوا كثيراً فرحوا وإن أعطوا قليلاً سخطوا.

﴿ ولو أنّهم رَضُوا ما آتاهم اللَّهُ ورسولُهُ ﴾، أي: قنعوا بما قسم لهم الله ورسوله ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾، كافينا الله، ﴿ سيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ورسولُهُ ﴾، ما نحتاج إليه ﴿ إنّا إلى اللَّهِ رَاغِبُون ﴾، في أن يوسّع علينا من فضله، فيُغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس. وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف أي: لكان خيراً لهم وأعود عليهم.

قوله تعالى: ﴿ إنّما الصدقاتُ للفقراء والمساكين ﴾ الآية، بيّن الله تعالى في هذه الآية أهل الصدقات وجعلها الثمانية أصناف. ورُوِيَ عن زياد بن الحارث الصدائي قال: أتيت رسولَ الله ﷺ فبايعته، فأتاه رجل وقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله ﷺ: «إنّ الله لم يرضَ بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزّأها ثمانية أجزاء، فإن كنتَ من تلك الأجزاء أعطيتك حقك». قوله: ﴿ للفقراء والمساكين ﴾. فأحدُ أصناف الصدقة: الفقراءُ والثاني: المساكين، واختلف العلماء في صفة الفقير والمسكين، فقال ابن عباس والحسن

(فصل في بيان حكم هذه الآية وفيه مسائل)

المسألة الأولى: في بيان وجه الحكمة في إيجاب الزكاة على الأغنياء وصرفها إلى المحتاجين من الناس وذلك من وجوه، الوجه الأول أن المال محبوب بالطبع وسببه أن القدرة صفة من صفات الكمال محبوبة لذاتها والمال سبب لتحصيل تلك القدرة فكان المال محبوباً بالطبع فإذا استغرق القلب في حب المال اشتغل به عن حب الله عز وجل وعن الاشتغال بالطاعات المقربة إلى الله عز وجل فاقتضت الحكمة الإلهية إيجاب الزكاة في ذلك المال الذي هو سبب البعد عن الله فيصير سبباً للقرب من الله عز وجل بإخراج الزكاة منه. الوجه الثاني: إن كثرة المال توجب قسوة القلب وحب الدنيا والميل إلى شهواتها ولذاتها فأوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة ليقل ذلك المال الذي هو سبب لقساوة القلب. الوجه الثالث سبب وجوب الزكاة امتحان العبد المؤمن لأن التكاليف البدنية غير شاقة على العبد وإخراج المال مشق على النفس فأوجب الله عز وجل الزكاة على العباد ليمتحن بإخراج الزكاة أصحاب الأموال لتميز بذلك المطيع المخرج لها طيبة بها نفسه من العاصي المانع لها. الوجه الرابع أن المال مال الله والأغنياء خزان الله والفقراء عيال الله فأمر الله سبحانه وتعالى خزانه الذين هم أغنياء بدفع طائفة من ماله إلى عياله فيثيب العبد المؤمن المطيع المسارع إلى امتثال الأمر المشفق على عياله ويعاقب العبد العاصي المانع لعياله من ماله (ق)

عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: إن الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ وربما قال يعطي ما أمر به فيعطيه كاملاً موفراً طيبة به نفسه فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين. الوجه الخامس أن الفقراء ربما تعلقت قلوبهم بالأموال التي بأيدي الأغنياء فأوجب الله عز وجل نصيباً للفقراء في ذلك المال تطييباً لقلوبهم. الوجه السادس أن المال الفاضل عن حاجة الإنسان الأصلية إذا أمسك بقي معطلاً عن المقصود الذي لأجله خلق المال فأمر بدفع الزكاة إلى الفقراء حتى لا يصير ذلك المال معطلاً بالكلية.

المسألة الثانية: الآية تدل على أنه لا حق لأحد في الصدقات إلا هؤلاء الأصناف الثمانية وذلك مجمع عليه لأن كلمتي إنما تفيدان الحصر وذلك لأنها مركبة من إن وما فكلمة إن للإثبات وكلمة ما للنفي فعند اجتماعهما يفيدان الحكم المذكور وصرفه عما عداه فدل ذلك على أن الصدقات لا تصرف إلا إلى الأصناف الثمانية.

المسألة الثالثة: في بيان الأصناف الثمانية فالصنف الأول للفقراء والثاني للمساكين وهم المحتاجون الذين لا

ومجاهد وقتادة وعكرمة والزهري: الفقير الذي لا يسأل والمسكين الذي يسأل. وقال ابن عمر: ليس بفقير مَن جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة، ولكن مَن أنقى نفسه وثيابه لا يقدر على شيء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف، فذلك الفقير. وقال قتادة: الفقير المحتاج الزَّمِنُ، والمسكين الصحيح المحتاج، ورُوِيَ عن عكرمة أنه قال: الفقراء من المسلمين والمساكين من أهل الكتاب. وقال الشافعي: الفقير مَن لاَ مَالَ له ولا حِرْفَة تقع منه موقعاً زَمِناً كان أو غير زَمِن، والمسكين مَن كان له مال أو حِرفَة ولا يغنيه، سائلاً كان أو غير سائل. فالمسكين عِنده أحسن حالاً من الفقير لأن الله تعالى قال: ﴿ أمّا السفينةُ فكانتْ لمساكين ﴾ [الكهف: ٧٩] أثبت لهم ملكاً مع اسم المسكنة، وعند أصحاب الرأي الفقير أحسن حالاً من المسكين. وقال القتيبي: الفقير الذي له البلغة من العيش، والمسكين الذي لا شيء له. وقيل: الفقير مَن له المسكن والخادم، والمسكين مَن لا ملك له. وقالوا: كل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه وإن كان غنِياً عن غيره، قال الله تعالى: ﴿ أنتم الفقراء إلى الله ﴾ [فاطر: ١٥]، والمسكين المحتاج إلى كل شيء ألا ترى كيف حضّ على إطعامه، وجعل طعام الكفّارة له ولا فاقة أشدّ من الحاجة إلى سدّ الجوعة. وقال إبراهيم النخعي: الفقراء هم المهاجرون، والمساكين مَن لم يهاجروا من المسلمين. وفي الجملة

يفي خرجهم بدخلهم ثم اختلف العلماء في الفرق بين الفقير والمسكين فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والزهري: الفقير الذي لا يسأل والمسكين السائل وقال ابن عمر: ليس بفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة ولكن الفقير من أنقى نفسه وثيابه ولا يقدر على الشيء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف. وقال قتادة: الفقير المحتاج الزمن والمسكين الصحيح المحتاج وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: الفقير من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعاً زمناً كان أو غير زمن والمسكين من له مال أو حرفة ولكن لا تقع منه موقعاً لكفايته سائلاً كان أو غير سائل فالمسكين عنده أحسن حالاً من الفقير. وقال أبو حنيفة، وأصحاب الرأي: الفقير أحسن حالاً من المسكين ومن الناس من قال لا فرق بين الفقير والمسكين حجة الشافعي ومن وافقه أن الله سبحانه وتعالى حكم بصرف الصدقات إلى هؤلاء الأصناف الثمانية دفعاً لحاجتهم وتحصيلاً لمصلحتهم فبدأ بالفقر وإنما يبدأ بالأهم فالأهم فلو لم تكن حاجتهم أشد من حاجة المساكين لما بدأ بهم وأصل الفقير المكسور الفقار قال لبيد:

لمـــا رأى لبـــد النســـور تطـــايـــرت رفـــع القـــوادم كـــالفقيـــر الأعـــزل

قال ابن الأعرابي: الفقير في هذا البيت المكسور الفقار فثبت بهذا أن الفقير إنما سمي فقيراً لزمانته وحاجته الشديدة وتمنعه الزمانة من التقلب في الكسب ولأن النبي ﷺ كان يتعوذ من الفقر وقال «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة» رواه الترمذي من حديث أنس فلو كان المسكين أسوأ حالاً من الفقير لما تعوذ من الفقر وسأل المسكنة فثبت بهذا أن المسكين أحسن حالاً من الفقير ولأن الله سبحانه وتعالى قال أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأثبت لهم ملكاً مع اسم المسكنة لأن السفينة من سفن البحر تساوي دنانير كثيرة ولأن الغنى والفقر ضدان والمسكنة قسم ثالث بينهما فثبت بهذا أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين وحجة أبي حنيفة ومن وافقه على أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير قوله أو مسكيناً ذا متربة وصف المسكين بكونه ذا متربة وهو الذي لصق جلده بالتراب وهذا يدل على غاية الضر والشدة ولأن الله تعالى جعل الكفارات للمساكين فلو لم يكن المسكين أشد حاجة من غيره لما جعلها له واحتج أيضاً بقول الراعي:

أمـــا الفقيـــر الـــذي كـــانـــت حلـــوبتـــه وفـــق العيـــال فلـــم يتـــرك لـــه سبـــد

واحتج أيضاً بقول الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء أن الفقير الذي له ما يأكل والمسكين الذي لا شيء له وكذا

الفقر والمسكنة عبارتان عن الحاجة وضعف الحال، فالفقير المحتاج الذي كسرت الحاجة فِقَار ظهره، والمسكين الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم ثنا الربيع أنبأنا الشافعي أنبأنا سفيان بن عيينة عن هشام يعني ابن عروة عن أبيه عن عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا رسولَ الله فسألاه عن الصدقة فصعّد فيهما وصوّب، فقال: «إنْ شئتما أعطيتُكما ولا حظّ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب». واختلفوا في حدّ الغنى الذي يمنع أخذ الصدقة، فقال الأكثرون حدّه أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة، وهو قول مالك والشافعي. وقال أصحاب الرأي: حدّه أن يملك مائتي درهم. وقال قوم: مَن مَلَكَ خمسين درهماً لا تحلّ له الصدقة، لِما روينا عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سأل النّاسَ وله ما يُغنيه جاءَ يومَ القيامةِ ومسألتهُ في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح»، قيل: يا رسول الله وما يُغنيه؟ قال: «خمسون درهماً أو قيمتُها من الذهب». وهو قول الثّوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق. وقالوا لا يجوز أن يعطى الرجل من الزكاة أكثر من خمسين درهماً. وقيل: أربعون درهماً لِما رُوِيَ أنّ النبي ﷺ قال: «مَن سأل وله أُوقية أو عدلها فقد سأل إلحافاً». قوله تعالى: ﴿ **والعاملين عليها** ﴾. وهم السعاة

قال القتيبي: الفقير الذي له البلغة من العيش والمسكين الذي لا شيء له وقيل: الفقير الذي له المسكن والخادم والمسكين الذي لا ملك له وقيل: إن كل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه وإن كان غنياً عن غيره قال الله سبحانه وتعالى: أنتم الفقراء إلى الله فأثبت لهم اسم الفقر مع وجدان المال والجواب عن هذه الحجج أما قوله أو مسكيناً ذا متربة فهو حجة لمذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه لأنه قيد المسكين المذكور هنا بكونه ذا متربة فدل على أنه قد يوجد مسكين لا بهذه الصفة وإلا لم يبق لهذا القيد فائدة والجواب عن جعل الكفارات للمسكين أنه هو الفقير الذي لصق جلده بالتراب من شدة المسكنة والجواب عن الاستدلال ببيت الراعي إنه ذكر الفقير وجده فكل فقير أفرد بالاسم جاز إطلاق المسكين عليه فسقط الاستدلال به وأما الروايات المذكورة فهي معارضة بما تقدم من الروايات عن ابن عباس وغيره من المفسرين. وبالجملة أن الفقر والمسكنة عبارتان عن شدة الحاجة وضعف الحال فالفقير هو الذي كسرت الحاجة فقار ظهره والمسكين هو الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت. عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي» أخرجه النسائي وأبو داود وله في رواية أخرى «ولا لذي مرة قوي» عن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال «أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي ﷺ وهو في حجة الوداع وهو يقسم الصدقات فسألاه منها فرفع فينا النظر وخفضه فرآنا جلدين فقال إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب» أخرجه أبو داود والنسائي وأخرجه الشافعي ولفظه «أن رجلين أتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن الصدقة فقال: إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب» واختلف العلماء في حد الغنى الذي يمنع من أخذ الصدقة فقال الأكثرون حده أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة وهو قول مالك والشافعي. وقال أصحاب الرأي: حده أن يملك مائتي درهم. وقال قوم: من ملك خمسين درهماً أو قيمتها لا تحل له الصدقة لما روي عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجه خموش أو خدوش أو كدوح قيل يا رسول الله وما يغنيه قال: خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وهذا قول الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق. وقالوا: لا يجوز أن يعطى الرجل أكثر من خمسين درهماً من الزكاة وقيل: أربعين درهماً لما روي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف» أخرجه أبو داود وكانت الأوقية في ذلك الزمان أربعين درهماً الصنف الثالث قوله سبحانه وتعالى: ﴿والعاملين عليها﴾ وهم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها في جهتها فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور

الذين يتولّون قبض الصدقات من أهلها ووضعها في حقها، فيُعطون من مال الصدقة فقراءً كانوا أو أغنياءً، فيُعطَون مثل أجر عملهم. وقال الضحاك ومجاهد: لهم الثمن من الصدقة. ﴿والمؤلفةِ قلوبُهم﴾، فالصنف الرابع من المستحقّين للصدقة هم المؤلّفة قلوبهم، وهم قسمان قسم مسلمون وقسم كفّار، فأمّا المسلمون فقسمان قسم دخلوا في الإسلام ونيّتهم ضعيفة فيه، فكان النبي ﷺ يعطيهم تألّفاً كما أعطى عيينة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمي، وأسلموا ونيّتهم قوية في الإسلام وهم شرفاء في قومهم مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر، فكان يعطيهم تألّفاً لقومهم وترغيباً لأمثالهم في الإسلام، فهؤلاء يجوز للإمام أن يعطيهم من الخمس خمس الغنيمة، والفيء سهم النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يعطيهم من ذلك ولا يعطيهم من الصدقات. والقسم الثاني من مؤلّفة المسلمين أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم كفّار من موضع مُتناءٍ لا تبلغهم جيوش المسلمين إلّا بمؤنة كثيرة وهم لا يجاهدون، إمّا لضعف نيّتهم أو لضعف حالهم، فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة. وقيل: من سهم المؤلّفة ومنهم قوم بإزاء جماعة من مانعي الزكاة يأخذون منهم الزكاة يحملونها إلى الإمام فيعطيهم الإمام من سهم المؤلّفة من الصدقات. وقيل: من سهم سبيل الله. رُوِيَ أنّ عديّ بن

أعمالهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء وهذا قول ابن عمر وبه. قال الشافعي وقال مجاهد والضحاك: يعطون الثمن من الصدقات. وظاهر اللفظ مع مجاهد إلا أن الشافعي يقول: هو وأجرة عمل تتقدر بقدر العمل والصحيح أن الهاشمي والمطلبي لا يجوز أن يكون عاملاً على الصدقات لما روي عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً من بني مخزوم على الصدقة فأراد أبو رافع أن يتبعه فقال رسول الله ﷺ: «لا تحل لنا الصدقة وأن مولى القوم منهم» أخرجه الترمذي والنسائي الصنف الرابع قوله تعالى: ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ وهم قسمان: قسم مسلمون وقسم كفار فأما قسم المسلمين فقسمان القسم الأول هم قوم من أشراف العرب كان رسول الله ﷺ يعطيهم من الصدقات يتألفهم بذلك كما أعطى عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمي فهؤلاء أسلموا وكانت نيتهم ضعيفة فكان رسول الله ﷺ يعطيهم لتقوى رغبتهم في الإسلام وقوم أسلموا وكانت نيتهم قوية في الإسلام وهم أشراف قومهم مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر فكان رسول الله ﷺ يعطيهم تألفاً لقومهم وترغيباً لأمثالهم في الإسلام فيجوز للإمام أن يعطي أمثال هؤلاء من خمس خمس الغنيمة والفيء من سهم رسول الله ﷺ كان يعطيهم من ذلك ومن الصدقات أيضاً. القسم الثاني من مؤلفة المسلمين هم قوم من المسلمين يكونون بإزاء قوم كفار في موضع لا تبلغهم جيوش المسلمين إلا بكلفة كبيرة ومؤنة عظيمة وهؤلاء الذين بإزائهم من المسلمين لا يجاهدونهم لضعف نيتهم أو لضعف حالهم فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة وقيل من سهم المؤلفة قلوبهم ومن هؤلاء قوم بإزاء جماعة من مانعي الزكاة فيأخذون منهم الزكاة ويحملونها إلى الإمام فيعطيهم الإمام من سهم المؤلفة من الصدقات وقيل من سهم سبيل الله. روي أن عدي بن حاتم جاء أبا بكر بثلثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيراً وأما مؤلفة الكفار فهم قوم يخشى شرهم أو يرجى إسلامهم فيجوز للإمام أن يعطي من يخاف شره أو يرجو إسلامه فقد كان رسول الله ﷺ يعطيهم من خمس الخمس كما أعطى صفوان بن أمية لما كان يرى من ميله إلى الإسلام أما اليوم فقد أعز الله الإسلام وله الحمد على ذلك وأغناه عن أن يتألف عليه أحد من المشركين فلا يعطى مشرك تألفاً بحال وقد قال بهذا كثير من أهل العلم ورأوا أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط يروى ذلك عن ابن عمر وعكرمة وهو قول الشعبي وبه قال مالك والثوري وأصحاب الرأي وإسحاق بن راهويه. وقال قوم: سهمهم ثابت لم يسقط. يروى ذلك عن الحسن وهو

حاتم جاء إلى أبي بكر الصديق بثلاثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيراً. وأمّا الكفّار من المؤلّفة فهو مَن يُخشى سرّهُ منهم أو يُرجى إسلامه، فيريد الإمام أن يُعطي هذا حذراً من شرّه أو يُعطي ذلك ترغيباً به في الإسلام، فقد كان النبي ﷺ يعطيهم من خمس الخمس، كما أعطى صفوان بن أمية لِمَا كان يرى من ميله إلى الإسلام، أما اليوم فقد أعزّ الله الإسلام فله الحمد وأغناه أن يتألّف عليه رجالاً، فلا يُعطى مشركٌ تألّفاً بحال، وقد قال بهذا كثير من أهل العلم أن المؤلّفة منقطعة وسهمهم ساقط. رُوِيَ ذلك عن عكرمة، وهو قول الشعبي، وبه قال مالك والثّوري وأصحاب الرأي، وإسحاق بن راهويه، وقال قوم: سهمهم ثابت، يُروى ذلك عن الحسن، وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي وأبي ثور، وقال أحمد: يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك. قوله تعالى: ﴿ وفي الرِّقَاب ﴾، والصنف الخامس هم الرقاب وهم المُكاتبون لهم سهم من الصدقة هذا قول أكثر الفقهاء، وبه قال سعيد بن جبير والنخعي والزهري والليث بن سعد والشافعي. وقال جماعة: يشتري بسهم الرقاب عبيداً فيُعتقون. وهذا قول الحسن، وبه قال مالك وأحمد وإسحاق. قوله تعالى: ﴿ والغَارِمِينَ ﴾، والصنف السادس هم الغارمون وهم قسمان قسم أدانوا لأنفسهم في غير معصيته فإنهم يُعطَون من الصدقة إذا لم يكن لهم من المال ما يفي بديونهم، فإن كان عندهم وفاءٌ فلا يُعطون، وقسم أدانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فإنهم يُعطَون من مال الصدقة ما يقضون به ديونهم، وإن كانوا أغنياء. أخبرنا أبو الحسَن السرخسي أنبأنا زاهر بن أحمد أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «لا

قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي وأبي ثور وقال أحمد يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك الصنف الخامس قوله سبحانه وتعالى: ﴿وفي الرقاب﴾ قال الزجاج: فيه حذف تقديره وفي فك الرقاب وفي تفسير الرقاب أقوال الأول أن سهم الرقاب موضوع في المكاتبين فيدفع إليهم ليعتقوا به وهذا مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وهو قول أكثر الفقهاء منهم سعيد بن جبير والنخعي والزهري والليث بن سعد ويدل عليه أيضاً قوله تعالى وآتوهم من مال الله الذي آتاكم، القول الثاني وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق أن سهم الرقاب موضوع لعتق الرقاب فيشترى به عبيد ويعتقون ويدل عليه ما روي عن ابن عباس أنه قال لا بأس أن يعتق الرجل من الزكاة القول الثالث وهو قول أبي حنيفة وأصحابه أنه لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة لكن يعطي منها في عتق رقبة ويعان بها مكاتب لأن قوله في الرقاب يقتضي التبعيض. القول الرابع وهو قول الزهري أن سهم الرقاب نصفان نصف للمكاتبين ونصف يشترى به عبيد ممن صلوا وصاموا وقدم إسلامهم فيعتقون من الزكاة. قال أصحابنا: الأحوط في سهم الرقاب أن يدفع إلى السيد بإذن المكاتب ويدل عليه أنه سبحانه وتعالى أثبت الصدقات للأصناف الأربعة المتقدمة بلام الملك فقال: إنما الصدقات للفقراء. وقال: في الصنف الخامس وفي الرقاب فلا بد لهذا الفرق من فائدة وهي أن الأصناف الأربعة المتقدم ذكرها يدفع إليهم نصيبهم من الصدقات فيصرفون ذلك فيما شاؤوا وأما الرقاب فيوضع نصيبهم في تخليص رقابهم من الرق ولا يدفع إليهم ولا يمكنون من التصرف فيه وكذا القول في الغارمين فيصرف نصيبهم في قضاء ديونهم وفي الغزاة يصرف نصيبهم فيما يحتاجون إليه في الغزو وكذا ابن السبيل فيصرف إليه ما يحتاج إليه في سفره إلى بلوغ غرضه الصنف السادس قوله سبحانه وتعالى: ﴿والغارمين﴾ أصل الغرم في اللغة لزوم ما يشق عليه النفس وسمى الدين غرما لكونه شاقاً على الإنسان والمراد بالغارمين هنا المديونون وهم قسمان أدانوا لأنفسهم في غير معصية فيعطون من مال الصدقات بقدر ديونهم إذا لم يكن لهم مال يفي بديونهم فإن كان عندهم وفاء فلا يعطون وقسم أدانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فيعطون من مال الصدقات ما يقضون به دينهم وإن كانوا أغنياء لما روي عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة لغاز في سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل أسير إعانة أو لرجل كان له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني» أخرجه أبو داود مرسلاً لأن عطاء بن يسار

تَحِلُّ الصدقة لغني إلّا لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارمٍ، أو لرجلٍ اشتراها بماله، أو لرجلٍ له جارٌ مسكين فتصدّق على المساكين فأهدى المسكين للغني، أو لعاملٍ عليها». ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ متّصلاً بمعناه، أما مَن كان دينه في معصية الله وفساد فلا يُدفع شيء إليه.

وقوله تعالى: ﴿ وفي سبيلِ اللَّهِ ﴾، أراد بها الغزاة فلهم سهم من الصدقة، يُعطَون إذا أرادوا الخروج إلى الغزو، وما يستعينون به على أمر الغزو من النفقة والكسوة والسلاح والحمولة، وإن كانوا أغنياء، ولا يُعطى شيء منه في الحج عند أكثر أهل العلم. وقال قوم: يجوز أن يصرف سهم في سبيل الله إلى الحج. ويُروى ذلك عن ابن عباس، وهو قول الحسن وأحمد وإسحاق. قوله تعالى: ﴿وابن السبيل﴾، والصنف الثامن هم أبناء السبيل، فكل مَن يريد سفراً مباحاً ولم يكن له ما يقطع به المسافةُ يُعطى من الصدقة بقدر ما يقطع به تلك المسافة سواء كان له في البلد المنتقل إليه مال أو لم يكن. وقال قتادة: ابن السبيل هو الضيف. وقال فقهاء العراق: ابن السبيل الحاجّ المنقطع.

قوله تعالى: ﴿ فريضةً ﴾ أي: واجبةً ﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾، وهو نصب على القطع، وقيل: على المصدر، أي: فرض الله هذه الأشياء فريضةً، ﴿ واللَّهُ عليمٌ حكيم ﴾، اختلف أهل العلم والفقهاء في كيفية قسم الصدقات، وفي جواز صرفها إلى بعض الأصناف، فذهب جماعة إلى أنه لا يجوز صرف كلها إلى بعضهم مع وجود سائر الأصناف، وهو قول عكرمة وبه قال الشافعي، قال: يجب أن يقسم زكاة كل صنف من ماله على الموجودين من الأصناف الستّة

لم يدرك النبي ﷺ ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ متصلاً بمعناه أما من كان دينه في معصية فلا يعطى من الصدقات شيئاً الصنف السابع قوله تعالى: ﴿**وفي سبيل الله**﴾ يعني وفي النفقة في سبيل الله وأراد به الغزاة فلهم سهم من مال الصدقات فيعطون إذا أرادوا الخروج إلى الغزو ما يستعينون به على أمر الجهاد من النفقة والكسوة والسلاح والحمولة فيعطون ذلك وإن كانوا أغنياء لما تقدم من حديث عطاء وأبي سعيد الخدري ولا يعطى من سهم الله لمن أراد الحج عند أكثر أهل العلم وقال قوم يجوز أن يصرف سهم سبيل الله إلى الحج يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن وإليه ذهب أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وقال بعضهم: إن اللفظ عام فلا يجوز قصره على الغزاة فقط ولهذا أجاز بعض الفقهاء صرف سهم سبيل الله إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك قال لأن قوله وفي سبيل الله عام في الكل فلا يختص بصنف دون غيره والقول الأول هو الصحيح لإجماع الجمهور عليه. الصنف الثامن قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وابن السبيل**﴾ يعني المسافر من بلد إلى بلد والسبيل الطريق سمي المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق قال الشاعر:

أنـــا ابـــن الحـــرب ربتنـــي وليـــداً إلـــى أن شبـــت واكتهلـــت لـــداتـــي

فكل مريد سفراً مباحاً ولم يكن له ما يقطع به مسافة سفره يعطى من الصدقات ما يكفيه لمؤنة سفره سواء كان له مال في البلد الذي يقصده أو لم يكن له مال، وقال قتادة: ابن السبيل هو الضيف وقال فقهاء العراق: ابن السبيل هو الحاج المنقطع.

وقوله تعالى: ﴿**فريضة من الله**﴾ يعني أن هذه الأحكام التي ذكرها في الآية فريضة واجبة من الله وقيل فرض الله هذه الأشياء فريضة ﴿**والله عليم**﴾ يعني بمصالح عباده ﴿**حكيم**﴾ يعني فيما فرض لهم لا يدخل في تدبيره وحكمه نقض ولا خلل.

المسألة الرابعة: في أحكام متفرقة تتعلق بالزكاة اتفق العلماء على أن المراد بقوله إنما الصدقات للفقراء هي الزكاة المفروضة بدليل قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة واختلفوا في كيفية قسمتها وفي جواز صرفها كلها إلى بعض الأصناف دون بعض فذهب جماعة من الفقهاء إلى أنه لا يجوز صرفها كلها إلى بعض الأصناف مع وجود الباقين وهو قول عكرمة وإليه ذهب الشافعي قال: يجب أن يقسم زكاة ماله على الموجودين من الأصناف الستة الذين سماهم ثمانية أقسام قسمة على السواء لأن سهم المؤلفة ساقط وسهم العامل ساقط إذا قسم زكاته بنفسه ثم حصة كل صنف من

الذينَ سِهماتُهم ثابتة قسمةً على السواء، لأن سهم المؤلَّفة ساقط وسهم العامِل إذا قسمه بنفسه، ثم حصة كل صنف منهم لا يجوز أن تُصرَف إلى أقل من ثلاثة منهم إن وُجِدَ منهم ثلاثة أو أكثر، فلو فاوت بين أولئك الثلاث يجوز، فإن لم يوجد من بعض الأصناف إلّا واحد صرف حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج عن حدّ الاستحقاق، فإن انتهتْ حاجتُه وفضل شيء رَدّه إلى الباقين، وذهب جماعة إلى أنه لو صرف الكل إلى صنف واحد من هذه الأصناف أو إلى شخص واحد منهم يجوز، وإنّما سمّى الله تعالى هذه الأصناف الثمانية إعلاماً منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه الأصناف، إلّا إيجاباً لقسمها بينهم جميعاً. وهو قول عمر وابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير وعطاء، وإليه ذهب سفيان الثّوري وأصحاب الرأي، وبه قال أحمد، قال: يجوز أن يضعها في صنف واحد وتفريقها أولى. وقال إبراهيم: إن كان المال كثيراً يحتمل الأجزاء قسّمه على الأصناف، وإن كان قليلاً جاز وضعه في صنف واحد. وقال مالك: يتحرّى موضع الحاجة منهم ويُقدّم الأولى فالأولى من أهل الخلّة والحاجة، فإن رأى الخلّة في الفقراء في عام أكثر قدّمَهم، وإن رآها في عام في صنف آخر حوّلها إليهم، وكلّ مَن دُفِعَ إليه شيءٌ من الصدقة لا يزيد على قدر

الأصناف الستة لا يجوز أن تصرف إلى أقل من ثلاثة منهم إن وجد منه ثلاثة أو أكثر فلو فاوت بين أولئك الثلاثة جاز فإن لم يجد من بعض الأصناف إلا واحداً دفع حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج من حد الاستحقاق فإن انتهت حاجته وفضل شيء رده إلى الباقين وذهب جماعة من العلماء إلى أنه لو صرف الكل إلى صنف واحد من هذه الأصناف أو إلى شخص واحد منهم جاز لأن الله سبحانه وتعالى إنما سمى هذه الأصناف الثمانية إعلاماً منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه الثمانية إلا إيجاباً منه لقسمتها بينهم جميعاً وهذا قول عمر وابن عباس وبه قال سعيد بن جبير وعطاء وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي وأحمد بن حنبل. قال أحمد بن حنبل: يجوز أن يضعها في صنف واحد وتفريقها أولى. وقال إبراهيم النخعي: إن كان المال كثيراً يحتمل الإجزاء قسمه على الأصناف وإن كان قليلاً وضعه في صنف واحد. وقال مالك: يتحرى موضع الحاجة منهم ويقدم الأولى فالأولى من أهل الخلة والحاجة فإن رأى الخلة في الفقراء في عام قدمهم وإن رآها في صنف آخر في عام حولها إليهم وكل من دفع إليه شيئاً من الصدقة لا يزيد على قدر الاستحقاق فلا يزيد الفقير على قدر غناه وهو ما يحتاج إليه فإن حصل أدنى اسم الغني فلا يعطي بعده شيئاً وإن كان محترفاً لكنه لا يجد آلة حرفته فيعطي قدر ما يحصل به آلة حرفته فالاعتبار عند الإمام الشافعي رضي الله عنه ما يدفع الحاجة من غير حد. وقال أحمد بن حنبل: لا يعطي الفقير أكثر من خمسين درهماً وقال أبو حنيفة: أكره أن يعطى رجل واحد من الزكاة مائتي درهم فإن أعطيته أجزأ فإن أعطى من يظنه فقيراً فبان أنه غني فهل يجزىء فيه قولان ولا يجوز أن يعطي صدقته لمن تلزمه نفقته وبه قال مالك والثوري وأحمد وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يعطى والداً وإن علا ولا ولداً وإن سفل ولا زوجة ويعطي من عداهم وتحرم الصدقة على ذوي القربى وهم بو هاشم وبنو المطلب فلا يدفع إليهم من الزكاة شيء لقوله ﷺ: «إنا آل بيت لا تحل لنا الصدقة» وقال أبو حنيفة تحرم على بني هاشم ولا تحرم على بني المطلب دليلنا قوله ﷺ «إنا وبنو المطلب شيء واحد لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام» وتحرم الصدقة على موالي بني هاشم وبني المطلب لقوله ﷺ «مولى القوم منهم» وقال مالك لا تحرم واختلفوا في نقل الصدقة من بلد إلى بلد آخر مع وجود المستحقين في بلد المال فكرهه أكثر أهل العلم لتعلق قلوب فقراء ذلك البلد بذلك المال ولقوله ﷺ لمعاذ «وأعلمهم أن الله سبحانه وتعالى افترض عليهم صدقة من أغنيائهم وترد على فقرائهم» الحديث بطوله في الصحيحين واتفقوا على أنه إذا نقل المال إلى بلد آخر وأداه إلى فقراء ذلك البلد سقط عنه الفرض إلا ما حكى عن

الاستحقاق، فلا يزيد الفقير على قدر غناه، فإذا حصّل أدنى اسم الغني لا يُعطى بعده، فإن كان محترِفاً لكنه لا يجد آلة حِرفته فيُعطى قدر ما يحصل به آلة حِرفته ولا يُزاد على العامل على أجْر عمله، والمُكاتَبُ على قدر ما يُعتق به، والغارم على قدر دينه، والغازي على قدر نفقته للذهاب والرجوع والمقام في مغزاه وما يحتاج إليه من الفرس والسلاح، وابن السبيل على قدر إتيانه مقصده أو ماله. واختلفوا في نقل الصدقة عن بلد المال إلى موضع آخر مع وجود المستحقّين فيه، فكرهه أكثر أهل العلم لِما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّي أنبأنا أبو محمد عبد الجبّار بن محمد الجراحي ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا أبو كريب ثنا وكيع، ثنا زكريا إسحاق المكّي ثنا يحيىٰ بن عبد الله بن الصيفي عن أبي سعيد عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال: «إنّك تأتي قوماً أهل كتاب فادْعُهمْ إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعْلمهم أنّ الله قد فرض عليهم خمس صلواتٍ في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله قد فرض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم، واتّقِ دعوةَ المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب». فهذا يدلّ على أن صدقة أغنياء كل قوم تُردّ على فقراء ذلك القوم. واتفقوا على أنه إذا نقل من بلد إلى بلد آخر وادّعى سقط الفرض عن ذمّته، إلاّ ما حُكي عن عمر بن

عمر بن عبد العزيز فإنه رد صدقة حملت من خراسان إلى الشام فردها إلى مكانها من خراسان والله أعلم.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن﴾ نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ ويعيبونه ويقولون ما لا ينبغي فقال بعضهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد وهو من المنافقين بل نقول ما شئنا ثم نأتيه وننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن أي يسمع كل ما يقال له ويقبله وقيل معنى هو أذن أي ذو أذن سامعة، وقال محمد بن إسحاق: نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث وكان أزنم ثائر الشعر أحمر العينين أسقع الخدين مشوه الخلقة وقد قال فيه النبي: «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث» وكان ينم حديث النبي ﷺ إلى المنافقين. فقيل له: لا تفعل ذلك. فقال: إنما محمد أذن فمن حدثه شيئاً صدقه فنقول ما شئنا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا، فأنزل الله هذه الآية.

ومقصود المنافقين بقوله هو أذن أنه ليس بعيد غور بل هو سليم سريع الاغترار بكل ما يسمع فأجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿قل أذن خير لكم﴾ يعني هب أنه أذن لكنه أذن خير لكم كقولك رجل صدق وشاهد عدل والمعنى أنه مستمع خير وصلاح لا مستمع شر وفساد وقرىء أذن خير مرفوعين منونين ومعناه يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم ثم وصف الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ بقوله تعالى: ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ يعني أنه يصدق المؤمنين ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين وإنما عدي الإيمان بالله بالياء والإيمان للمؤمنين باللام لأن الإيمان بالله هو نقيض الكفر فلا يتعدى إلا بالياء فيقال: آمن بالله والإيمان للمؤمنين معناه تصديق المؤمنين فيما يقولونه فلا يقال إلا باللام ومنه قوله تعالى أنؤمن لك وقوله آمنتم له ﴿ورحمة﴾ أي هو رحمة ﴿للذين آمنوا منكم﴾ وإنما قال منكم لأن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون فبين الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله إنه رحمة

عبد العزيز رضي الله عنه أنه ردّ صدقة حُمِلت من خراسان إلى الشام إلى مكانها من خراسان.

﴿ ومِنْهُمُ الذينَ يُؤْذُونَ النَّبيَّ ويقولون هو أُذُنٌ ﴾، نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يُؤذُون النبي ﷺ، ويقولون ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنّا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد منهم: بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول، فإنّما محمدٌ أُذُنٌ، أي: أُذنٌ سامعة، يقال: فلان أُذن سامعة وأُذنة على وزن فعلة، إذا كان يسمع كل ما قيل له ويقبله. وأصله من أذن يأذن أذناً إذا استمع. وقيل هو أذن أي: ذو أُذن وأُذن سامعة وقال محمد بن إسحاق بن يسار: نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث، وكان رجلاً أزنم ثائر شعر الرأس أحمر العينين أسقع الخدّين مشوّه الخلقة، وقد قال النبي ﷺ: «مَن أحبَّ أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث»، وكان ينم حديث النبي ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن فمَن حدّثه شيئاً صدّقه ، فنقول ما شئنا ثم نأتيه ونحلف بالله فيصدقنا. فأنزل الله تعالى هذه الآية. قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُذُنُ خيرٍ لكم ﴾، قرأ العامّة بالإضافة، أي: مستمعُ خير وصلاح لكم، لا مستمع شرّ وفساد. وقرأ الأعشى والبرجمي عن أبي بكر: «أذن خيـر لكـم» مرفوعين منوّنين، يعني أن يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم، ثم كذّبهم فقال: ﴿ يُؤمنُ باللّهِ ﴾، أي: لا بل يؤمن بالله، ﴿ ويُؤمنُ للمؤمنين ﴾، أي: يصدق المؤمنين ويقبل منهم لا من المنافقين. يقال: أمنتـه وأمنت له بمعنى صـدقته.

للمؤمنين المخلصين لا للمنافقين وقيل في كونه ﷺ رحمة لأنه يجري أحكام الناس على الظاهر ولا ينقب عن أحوالهم ولا يهتك أسرارهم ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ يعني في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ قال قتادة والسدي: اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ثم وديعة بن ثابت فوقعوا في النبي ﷺ وقالوا إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير وكان عندهم غلام من الأنصار اسمه عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام من قولهم وقال والله إن ما يقول محمد حق وأنتم شر من الحمير ثم أتى النبي ﷺ وأخبره فدعاهم فسألهم فأنكروا وحلفوا أن عامراً كذاب وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبي ﷺ فجعل عامر يدعو ويقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب.

فأنزل الله هذه الآية. وقال مقاتل والكلبي: نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون ويحلفون، فأنزل الله هذه الآية. والمعنى: يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون ليرضوكم يعني فيما بلغكم عنهم من أذى رسول الله ﷺ ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ اختلفوا في معنى هذا الضمير إلى ماذا يعود فقيل: الضمير عائد على الله تعالى لأن في رضا الله رضا رسول الله ﷺ والمعنى والله ورسوله أحق أن يرضوه بالتوبة والإخلاص.

وقيل: يجوز أن يكون المراد يرضوهما فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر.

وقيل: معناه والله أحق أن يرضوه وكذلك رسوله: ﴿إن كانوا مؤمنين﴾ يعني إن كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعيده في الآخرة.

أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ألم يعلموا﴾ قال أهل المعاني ألم تعلم خطاب لمن علم شيئاً ثم نسيه أو أنكره فيقال له

﴿ ورحمةٌ ﴾، قرأ حمزة: «ورحمة» بالخفض على معنى أُذن خير لكم وأُذن رحمة، وقرأ الآخرون: «ورحمة» بالرفع، أي: هو أُذن خير وهو رحمة ﴿ للذين آمنُوا مِنْكم ﴾، لأنه كان سبب إيمان المؤمنين. ﴿ والذينَ يُؤذُونَ رسولَ اللّهِ لهمْ عذابٌ أليم ﴾.

﴿ يحلفُون باللّه لكم لِيرضُوكم ﴾، قال قتادة والسدي اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا في النبي ﷺ، وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شرٌّ من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس فحقّروه وقالوا هذه المقالة، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول محمد حق وأنتم شرّ من الحمير ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فدعاهم وسألهم رسول الله ﷺ، فحلفوا أنّ عامراً كذّاب. وحلف عامر أنهم كَذَبَة فصدّقهم النبي ﷺ، فجعل عامر يدعو ويقول: اللّهمّ صدِّق الصادقَ وكذِّب الكاذبَ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل والكلبي: نزلت في رهط من المنافقين تخلّفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون إليه ويحلفون، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ يحلفون بالله لكم لِيُرْضُوكم ﴾،﴿واللّهُ ورسولُه أحقُّ أن يُرضُوه إنْ كانُوا مؤمنين ﴾.

﴿ ألم يعلموا أنه مَن يُحَادِدِ اللّهَ ورسولَهُ ﴾، يخالف الله ورسوله أن يكونوا في جانب واحد من الله ورسوله،

ألم تعلم أنه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله ﷺ بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون إليه خاطب المنافقين بقوله ألم يعلموا يعني من شرائع الدين التي علمهم رسولنا ﴿**أنه من يحادد الله ورسوله**﴾ يعني أنه من يخالف الله ورسوله.

وأصل المحاداة في اللغة: المخالفة والمجانبة والمعادة. واشتقاقه: من الحد. يقال: حاد فلان فلاناً إذا صار في غير حده وخالفه في أمره. وقيل: معنى يحادد الله ورسوله أي يحارب الله ورسوله ويعاند الله ورسوله ﴿**فأن له نار جهنم**﴾ أي فحق أن له نار جهنم ﴿**خالداً فيها**﴾ يعني على الدوام ﴿**ذلك الخزي العظيم**﴾ يعني ذلك الخلود في نار جهنم هو الفضيحة العظيمة.

قوله عز جل: ﴿**يحذر المنافقون**﴾ يعني يخشى المنافقون ﴿**أن تنزل عليهم سورة**﴾ يعني على المؤمنين ﴿**تنبئهم**﴾ يعني تخبر المؤمنين ﴿**بما في قلوبهم**﴾ يعني بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين وذلك أن المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوء ويسترونه ويخافون الفضيحة ونزول القرآن في شأنهم.

قال قتادة: وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة يعني أنها فضحت المنافقين وبعثرت عن أخبارهم وأثارتها وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم.

وقال ابن عباس: أنزل الله ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضاً لأن أولادهم كانوا مؤمنين ﴿**قل استهزئوا**﴾ أمر تهديد فهو كقوله اعملوا ما شئتم ﴿**إن الله مخرج**﴾ أي مظهر ﴿**ما تحذرون**﴾ والمعنى أن الله سبحانه وتعالى يظهر إلى الوجود ما كان المنافقون يسترونه ويخفونه عن المؤمنين. قال ابن كيسان: نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها وتنكروا له في ليلة مظلمة فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بما قد أضمروا له وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم وكان معه عمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله ﷺ وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاهم عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة:

﴿ **فأنَّ له نارَ جهنَّمَ خالداً فيها ذلكَ الخِزيُ العظيم** ﴾، أي: الفضيحة العظيمة.

﴿ **يحذَرُ المنافقُون** ﴾، أي: يخشى المنافقون، ﴿ **أن تُنزَّلَ عليهم** ﴾، أي: تنزل على المؤمنين، ﴿**سُورةٌ تُنبئُهُم بما في قُلوبِهِم** ﴾، أي: بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين، كانوا يقولون فيما بينهم ويُسرّون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم. قال قتادة: هذه السورة تُسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة أثارت مخازيهم ومثالبهم. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة للمؤمنين لئلا يعيِّر بعضهم بعضاً لأنَّ أولادهم كانوا مؤمنين. ﴿ **قلِ استهزؤوا إنّ اللَّهَ مُخْرِجٌ** ﴾، مظهر ﴿ **ما تحذَرُون** ﴾، قال ابن كيسان: نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لمّا رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه، وتنكّروا له في ليلة مظلمة فأخبر جبريلُ رسولَ الله ﷺ بما قدّروا، وأمره أن يرسل إليهم مَن يضرب وجوه رواحلهم، وعمّار بن ياسر يقود برسول الله ﷺ راحلته وحذيفة يسوق به، فقال لحذيفة: «اضرب وجوه رواحلهم» فضربها حتى نحّاها، فلما نزل رسول الله ﷺ قال لحذيفة: «مَن عرفتَ من قوم»؟ قال: لم أعرف منهم أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «فإنهم فلان وفلان حتى عدّهم كلهم»، فقال حذيفة: ألَا تبعثُ إليهم فتقتلهم؟ فقال: «أكره أن تقول العرب لمّا ظفر محمد وأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيناهم الله بالدبيلة». أخبرنا إسماعيل بن

من عرفت من القوم؟ قال لم أعرف منهم أحداً يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: فإنهم فلان وفلان حتى عدَّهم كلهم فقال حذيفة هلا بعثت إليهم من يقتلهم فقال: أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله بالدبيلة (م)

عنْ قيس بن عباد قال: قلت لعمار: أرأيت قتالكم أرأيا رأيتموه فإن الرأي يخطىء ويصيب أم عهداً عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة وقال إن رسول الله ﷺ قال «إن في أمتي» قال شعبة وأحسبه قال حدثني حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ «إن في أمتي اثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم».

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ الآية وسبب نزولها على ما قال زيد بن أسلم أن رجلاً من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك: ما لقرائنا أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء؟ فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق ولأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه. قال زيد: قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه، يعني إلى المنافق، متعلقة بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة يقول إنما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله ﷺ: أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون» ما يزيده قال محمد بن إسحاق الذي قال هذه المقالة فيما بلغني هو وديعة بن ثابت أخو أمية بن زيد بن عمرو بن عوف.

وقال قتادة: «بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا يرجو هذا الرجل أن

عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا محمد بن المثنى ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن قتادة عن أبي نصرة عن قيس بن عبادة قال: قلنا لعمّار أرأيتكم قتالكم أرأياً رأيتموه؟ فإن الرأي يُخطىء ويصيب أو عهـداً عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عَهَدَ إلينا رسولُ الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافّة، وقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إنّ في أُمتي ـ قال شعبة وأحسبه قال: حدّثني حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: إن في أمتي ـ اثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم».

قوله تعالى: ﴿ ولئنْ سألتهم ليقولنّ إنّما كنّا نخوضُ ونلعبُ ﴾ الآية، وسبب نزول هذه الآية على ما قال الكلبي ومقاتل وقتادة: أن النبي ﷺ كان يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك. قيل: كانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك. وقيل: كانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن، وإنما هو قوله وكلامه، فأطلع الله نبيّه ﷺ على ذلك؛ فقال: «احبسوا على الركب»، فدعاهم وقال لهم: «قلتم كذا وكذا»، فقالوا: إنما كنّا نخوض ونلعب، أي كنّا نتحدّث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب. قال عمر:

يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه محمداً ﷺ على ذلك فقال نبي ﷺ احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم ما تسمعون» وقال الكلبي ومقاتل: «كان رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان منهم يستهزئان بالقرآن والرسول والثالث يضحك» قيل كانوا يقولون إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك.

وقيل: كانوا يقولون إن محمداً يزعم أنه أنزل في أصحابنا قرآن إنما هو قوله وكلامه فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك. فقال: احبسوا على الركب فدعاهم. وقال لهم: قلتم كذا وكذا فقالوا إنما كنا نخوض ونلعب، ومعنى الآية: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما كانوا يقولون فيما بينهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب يعني كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعله الركب يقطعون الطريق باللعب والحديث، وأصل الخوض: الدخول في مائع كالماء مع الطين كثر استعماله حتى صار يستعمل في كل دخول مع تلويث وأذى ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ فيه توبيخ وتقريع للمنافقين وإنكار عليهم والمعنى كيف تقدمون على إيقاع الاستهزاء بالله يعني بفرائض الله وحدوده وأحكامه والمراد بآياته كتابه وبرسوله محمد ﷺ فيحتمل أن المنافقين لما قالوا كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشام. قال بعض المسلمين: الله يعينه على ذلك فذكر بعض المنافقين كلاماً يشعر بالقدح في قدرة الله وإنما ذكروا ذلك على طريق الاستهزاء.

قوله عز وجل: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ يعني قل لهؤلاء المنافقين لا تعتذروا بالباطل.

ومعنى الاعتذار محو أثر الموجدة من قلب المعتذر إليه. وقيل: معنى العذر قطع اللائمة عن الجاني. قد كفرتم بعد إيمانكم: يعني الاستهزاء بالله كفر والإقدام عليه يوجب الكفر فلهذا قال سبحانه وتعالى لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم فإن قلت إن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فكيف قال قد كفرتم بعد إيمانكم.

قلت: معناه أظهرتم الكفر بعد ما كنتم قد أظهرتم الإيمان وذلك أن المنافقين كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الإيمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر قيل لهم قد كفرتم بعد إيمانكم. وقيل: معناه قد كفرتم عند المؤمنين بعد أن كنتم عندهم مؤمنين.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ ذكر المفسرون أن الطائفتين كانوا ثلاثة فالواحد طائفة والاثنان طائفة. والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فلهذا أطلق لفظ الطائفة على الواحد.

قال محمد بن إسحاق: الذي عفى عنه رجل واحد وهو مخشى بن حمير الأشجعي يقال إنه هو الذي كان

فلقد رأيت عبد الله بن أُبيّ يشتدّ قدّام رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول: إنّما كنّا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول له: ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون ﴾ ما يلتفت إليه ولا يزيده عليه. قوله: ﴿ قُلْ ﴾، أي: قل يا محمد للمنافقين، ﴿ أباللهِ وآياتِه ﴾، كتابه، ﴿ ورسولِه كنتُمْ تستهزؤون ﴾.

﴿ لا تعتذرُوا قد كفرتُم بعدَ إيمانِكم ﴾، فإن قيل كيف قال: أكفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين؟ قيل: معناه أظهرتم الكفر بعدما أظهرتم الإيمان. ﴿إن نَعْفُ عن طائفةٍ منكم ﴾، أي: نتب على طائفة منكم، وأراد بالطائفة واحداً، ﴿ نُعذِّبْ طَائفةً بأنهم كانُوا مُجرمين ﴾، بالاستهزاء، وقرأ عاصم: ﴿نعـف» بالنون وفتحها وضم الفاء، ﴿ نعذب ﴾ بالنون وكسر الذال، ﴿ طائفة ﴾ نصبٌ. وقرأ الآخرون: « يُعفَ » بالياء وضمها وفتح الفاء، « تعذَّبْ » بالتاء وفتح الذال، « طائفةٌ » رفعٌ على غير تسمية الفاعل. وقال محمد بن إسحاق الذي عُفي عنه رجل

يضحك ولا يخوض. وقيل: إنه كان يمشي مجانباً لهم وينكر بعض ما يسمع فكان ذنبه أخف فلما نزلت الآية تاب من نفاقه ورجع إلى الإسلام وقال: اللهم إني لا أزال أسمع آية تقرأ عني بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت، فأصيب يوم اليمامة ولم يعرف أحد من المسلمين مصرعه قوله سبحانه وتعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ يعني أنهم على أمر واحد ودين واحد مجتمعون على النفاق والأعمال الخبيثة كما يقول الإنسان لغيره أنا منك وأنت مني أي أمرنا واحد لا مباينة فيه ﴿يأمرون بالمنكر﴾ يعني يأمر بعضهم بعضاً بالشرك والمعصية وتكذيب الرسول ﷺ ﴿وينهون عن المعروف﴾ يعني عن الإيمان والطاعة وتصديق الرسول ﷺ ﴿ويقبضون أيديهم﴾ يعني عن الإنفاق في سبيل الله تعالى وفي كل خير ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ هذا الكلام لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأنا لو حملناه على النسيان الحقيقي لم يستحقوا ذماً عليه لأن النسيان ليس في وسع البشر دفعه وأيضاً فإن النسيان في حق الله محال فلا بد من التأويل وقد ذكروا فيه وجهين الأول معناه أنهم تركوا أمره حتى صاروا بمنزلة الناسين له فجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته فخرج على مزاوجة الكلام فهو كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾.

الوجه الثاني: أن النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله وعبادته ترك الذكر لأن من ترك شيئاً لم يذكره وقيل لما تركوا طاعة الله والإيمان به تركهم من توفيقه وهدايته في الدنيا ومن رحمته في العقبى ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ يعني هم الخارجون عن الطاعة.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار﴾ يقال: وعده بالخير وعداً، ووعده بالشر وعيداً. فالوعد يكون في الخير والشر ﴿نار جهنم خالدين فيها﴾ فيه حذف تقديره يصلونها خالدين يعني مقيمين فيها ﴿هي حسبهم﴾ يعني هي

واحد هو مخشي بن حمير الأشجعي، يقال هو الذي كان يضحك ولا يخوض، وكان يمشي مُجانِباً لهم وينكر بعض ما يسمع، فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه، وقال: اللّهمَّ إني لا أزال أسمع آية تقرأ عنّي بها تقشعرّ الجلود منها وتجب منها القلوب، اللّهمَّ اجعلْ وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفّنت أنا دفنت، فأُصيب يومَ اليمامة، فما أحد من المسلمين إلّا عرف مصرعه غيره.

قوله تعالى: ﴿ المُنافقون والمُنافِقاتُ بعضُهم مِّن بعضٍ ﴾، أي: هم على دين واحد. وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق، ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾، بالشرك والمعصية، ﴿ وينهون عن المعروف ﴾، أي عن الإيمان والطاعة، ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ أي: يمسكونَها عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ولا يبسطونها بخير، ﴿ نَسُوا الله فنسيَهم ﴾، تركوا طاعةَ الله فتركهم من توفيقه وهدايته في الدنيا ومن رحمته في الآخرة وتركهم في عذابه، ﴿ إنّ المنافقين هُمُ الفاسُقون ﴾.

﴿ وَعَدَ اللّهُ المُنافِقِينَ والمُنافقات والكُفّارَ نارَ جهنّمَ خالدينَ فيها هي حَسْبُهُمْ ﴾، كافيهم جزاءً على كفرهم، ﴿ ولعنهمُ اللّهُ ﴾، أبعدهم الله من رحمته، ﴿ ولهمْ عذابٌ مُّقيمٌ ﴾، دائم.

كافيتهم جزاء على كفرهم ونفاقهم وتركهم الإيمان والطاعة ﴿ولعنهم الله﴾ يعني وأبعدهم من رحمته وطردهم عن بابه ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أي دائم لا ينقطع.

فإن قلت قوله خالدين فيها بمعنى ولهم عذاب مقيم وهذا تكرار فما معناه؟ قلت ليس ذلك تكراراً.

وبيان الفرق من وجهين الأول أن معناه ولهم نوع آخر من العذاب المقيم سوى الصلي بالنار. ولقائل أن يقول: هذا التأويل مشكل لأنه سبحانه وتعالى قال في النار هي حسبهم وذلك يمنع من ضم شيء آخر إلى عذاب النار.

وأجيب عن هذا الإشكال بأن قوله هي حسبهم في الإيلام ولا يمتنع أن لا يحصل نوع آخر من العذاب من غير جنس النار كالزمهرير ونحوه ويكون ذلك زيادة في عذابهم.

الوجه الثاني: أن العذاب المقيم هو العذاب المعجل لهم في الدنيا وهو ما يقاسونه من خوف اطلاع المسلمين عليهم وما هم فيه من النفاق وكشف فضائحهم وهذا هو العذاب المقيم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿كالذين من قبلكم﴾ هذا رجوع عن الغيبة إلى خطاب الحضور والكاف في كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم، شبه فعل المنافقين بفعل الكفار الذين كانوا من قبلهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وقبض الأيدي عن فعل الخير والطاعة وقيل: إنه تعالى شبه المنافقين في عدو لهم عن طاعة الله واتباع أمره لأجل طلب الدنيا بمن قبلهم من الكفار ثم وصف الكفار بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فقال تعالى: ﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ يعني بطشاً ومنعة ﴿وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم﴾ يعني فتمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضاً عن الآخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق الله للإنسان وقدر له من خير كما يقال قسم له ﴿فاستمتعتم بخلاقكم﴾ وهذا خطاب للحاضرين يعني فتمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم ﴿كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ فإن قلت ما الفائدة في ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الأولين مرة ثم ذكره في حق المنافقين ثانياً ثم إعادة ذكره في حق الأولين ثالثاً.

قلت فائدته أنه يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضاهم بها وتركهم النظر فيما يصلحهم في الدار الآخرة ثم شبه حال المخاطبين من المنافقين والكفار بحال من تقدمهم ثم رجع إلى ذكر حال الأولين ثالثاً وهذا كما تريد أن تبكت بعض الظلمة على قبح ظلمة فتقول له أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويعذب بغير جرم فأنت تفعل مثل ما كان يفعل فالتكرير هنا للتأكيد وتقبيح فعلهم وفعل من شابههم في فعلهم.

وقوله تعالى: ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ معطوف على ما قبله ومستند إليه يعني وسلكتم في فعلكم مثل ما سلكوا في اتباع الباطل والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين ﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ يعني بطلت

﴿ **كالَّذِينَ مِن قبلِكُم** ﴾، أي: فعلتم كفعل الذين من قبلكم بالعُدول من أمر الله، فَلُعِنْتُم كما لُعِنُوا ﴿ **كانُوا أشدَّ منكم قُوَّةً** ﴾، بطْشاً ومنعةً، ﴿ **وأكثر أموالاً وأولاداً فاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِم** ﴾ فتمتعوا أو انتفعوا بخلاقهم بنصيبهم من الدنيا باتّباع الشهوات ورضوا به عوضاً عن الآخرة، ﴿ **فاسْتمتَعْتُم بخلاقِكم** ﴾، أيّها الكفّار والمنافقون، ﴿ **كما اسْتَمْتَعَ الذينَ من قبلِكُم بخِلاَقِهِم** ﴾، وسلكتُم سبيلهم، ﴿ **وخُضْتُم** ﴾ في الباطل والكذب على الله تعالى وتكذيب رُسله وبالاستهزاء بالمؤمنين، ﴿ **كالذي خَاضُوا** ﴾، أي: كما خاضوا. وقيل: كالذي يعني كالذين خاضُوا، وذلك أن الذي اسم ناقص، مثل (مَا ومَن) يُعبَّر به عن الواحد والجمع، نظيره قوله تعالى: ﴿ كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ [البقرة: ١٧] ثم قال: ﴿ ذهبَ اللَّهُ بنورهم ﴾ [البقرة: ١٧]، ﴿ **أولئك حَبِطَتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرة وأولئكَ هُمُ الخاسِرُون** ﴾، أي: كما حبطت أعمالهم وخسروا كذلك حبطتْ أعمالُكم وخسرتُم. أخبرنا عبد الواحد بن

أعمالهم ﴿في الدنيا والآخرة﴾ يعني أن أعمالهم لا تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة بل يعاقبون عليها ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾ والمعنى أنه كما بطلت أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون (ق). عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لاتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن» قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

﴿ألم يأتهم﴾ رجع من الخطاب إلى الغيبة يعني ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أي قد أتاهم ﴿نبأ﴾ يعني خبر ﴿الذين من قبلهم﴾ يعني الأمم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ثم ذكرهم فقال تعالى: ﴿قوم نوح﴾ يعني أنهم أهلكوا بالطوفان ﴿وعاد﴾ أهلكوا بالريح العقيم ﴿وثمود﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿وقوم إبراهيم﴾ أهلكوا بسلب النعمة وكان هلاك نمرود ببعوضة ﴿وأصحاب مدين﴾ وهم قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة ﴿والمؤتفكات﴾ يعني المنقلبات التي جعل الله عاليها سافلها وهي مدائن قوم لوط.

وإنما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الطوائف الستة، لأن آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن وكل ذلك قريب من أرض العرب، فكانوا يمرون عليهم ويعرفون أخبارهم ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ يعني بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها المنافقون والكفار فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ يعني بتعجيل العقوبة ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ يعني أن الذي استحقوه من العقوبة بسبب ظلمهم أنفسهم.

قوله عز وجل: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ لما وصف الله المنافقين بالأعمال الخبيثة

أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد بن عبد العزيز ثنا أبو عمر الصنعاني من اليمن عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَتَتْبَعُنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكم شِبْراً بشبرٍ وذِراعاً بِذِرَاعٍ حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لاتّبعتموهُم». قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمَن»؟ وفي رواية أبي هريرة: «فهل الناسُ إلّا هُمْ»، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سَمْتاً وهَدْياً تتبعون عملهم حِذْوَ القُذّةِ بالقُذّةِ غيرَ أني لا أدري أتعبدونَ العِجْلَ أمْ لا».

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يأتِهم ﴾، يعني المنافقين، ﴿ نَبَأُ ﴾، خبر، ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾، حين عصوا رُسلنا وخالفوا أمرنا كيف عذّبناهم وأهلكناهم ثم ذكرهم، فقال: ﴿ قوم نُوح ﴾، أُهلكوا بالطّوفان، ﴿ وعادٍ ﴾، أُهلِكوا

والأحوال الفاسدة ثم ذكر بعده ما أعد لهم من أنواع الوعيد في الدنيا والآخرة عقبه بذكر أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات في الدنيا والآخرة فقال تعالى: **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾** يعني الموالاة في الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة.

فإن قلت: إنه سبحانه وتعالى قال في وصف المنافقين: بعضهم من بعض وقال في وصف المؤمنين: بعضهم أولياء بعض فما الفائدة في ذلك.

قلت: لما كان نفاق الأتباع وكفرهم إنما حصل بتقليد المتبوعين وهم الرؤساء والأكابر وحصل بمقتضى الطبيعة أيضاً قال فيهم بعضهم من بعض ولما كانت الموافقة الحاصلة بين المؤمنين بتسديد الله وتوفيقه وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بأن بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الفائدة.

وقوله سبحانه وتعالى: **﴿يأمرون بالمعروف﴾** يعني بالإيمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف في الشرع من خير وبر وطاعة **﴿وينهون عن المنكر﴾** يعني عن الشرك والمعصية والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع وهذا في مقابلة ما وصف به المنافقون وضده **﴿ويقيمون الصلاة﴾** يعني الصلاة المفروضة ويتممون أركانها وحدودها **﴿ويؤتون الزكاة﴾** يعني الواجبة عليهم وهو في مقابلة ويقبضون أيديهم **﴿ويطيعون الله ورسوله﴾** يعني فيما يأمرهم به وهو في مقابلة نسوا الله فنسيهم **﴿أولئك﴾** يعني المؤمنين والمؤمنات الموصوفين بهذه الصفات **﴿سيرحمهم الله﴾** لما ذكر الله ما وعد به المنافقين من العذاب في نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين والمؤمنات من الرحمة والرضوان وما أعد لهم في الجنان والسين في قوله سيرحمهم الله للمبالغة والتوكيد **﴿إن الله عزيز حكيم﴾** وهذا يوجب المبالغة في الترغيب والترهيب لأن العزيز هو الذي لا يمتنع عليه شيء أراده فهو قادر على إيصال العقوبة لمن أراد والحكيم هو الذي يدبر عباده على ما يقتضيه العدل والإنصاف **﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾** لما ذكر الله في الآيات المتقدمة وعيد المنافقين وما أعد لهم في نار جهنم من العذاب ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية ما وعد به المؤمنين من الخير والثواب والمراد بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار البساتين التي يتحير في حسنها الناظر لأنه سبحانه وتعالى قال ومساكن طيبة في جنات عدن والمعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه فتكون مساكنهم في جنات عدن ومناظرهم الجنات التي هي البساتين فتكون جنات عدن هي المساكن التي يسكنونها والجنات الأخر هي البساتين التي يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه والفرق بينهما **﴿ومساكن طيبة﴾** يعني ومنازل يسكنونها طيبة **﴿في جنات عدن﴾** يعني في بساتين خلد وإقامة يقال عدن بالمكان إذا أقام به.

بالريح **﴿ وثمودَ ﴾**، بالرجفة، **﴿ وقومِ إبراهيمَ ﴾**، بسلب النعمة وهلاك نمرود، **﴿ وأصحابِ مَدْيَن ﴾**، يعني قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلّة، **﴿ والمُؤْتَفِكَاتِ ﴾** المنقلبات التي جعلنا عاليها سافلها وهم قوم لوط وقُراهم، **﴿ أتتهم رُسلهُم بالبيّناتِ ﴾**، فكذّبوهم وعصَوْهم كما فعلتم يا معشر الكفّار فاحذَرُوا تعجيلَ النِقْمة، **﴿ فما كانَ اللّهُ ليَظْلمَهُمْ ولكنْ كانُوا أنفسهم يظلمُون ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ والمؤمنُونَ والمُؤمِناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ﴾** في الدِّين واجتماع الكلمة والعون والنصرة. **﴿ يأمرُونَ بالمعرُوف ﴾**، بالإيمان والطاعة والخير، **﴿ ويَنْهوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾**، عن الشرك والمعصية وما لا يُعرف في الشرع، **﴿ ويُقيمُون الصّلاةَ ﴾**، المفروضة، **﴿ ويُؤْتُون الزكاةَ ويُطِيعُونَ اللّهَ ورسولَهُ أولئكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إنّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ ﴾**.

روى الطبري بسنده عن عمران بن حصين وأبي هريرة قال: «سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ومساكن طيبة في جنات عدن قال: قصر من لؤلؤة في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين» وفي رواية: كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لوناً من طعام وفي كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله أجمع» وروي بسنده عن أبي الدرداء قال: «قال رسول الله ﷺ عدن داره يعني دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهي مسكنه ولا يسكنها مع بني آدم غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء يقول الله عز وجل طوبى لمن دخلك» هكذا رواه الطبري فإن صحت هذه الرواية فلا بد من تأويلها فقوله عدن داره يعني دار الله وهو من باب حذف المضاف تقديره عدن دار أصفياء الله تعالى التي أعدها لأوليائه وأهل طاعته والمقربين من عباده.

عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» أخرجه البخاري ومسلم. وقال عبد الله بن مسعود: عدن بطنان الجنة يعني وسطها. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن في الجنة قصراً يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد. وقال عطاء بن السائب: عدن نهر في الجنة خيامه على حافتيه، وقال مقاتل والكلبي: عدن أعلى درجة في الجنة فيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهي مغطاة من حين خلقها الله حتى ينزلها أهلها وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الأبيض.

قال الإمام فخر الدين الرازي: حاصل هذا الكلام أن في جنات عدن قولين:

أحدهما: أنه اسم علم لموضع معين في الجنة وهذه الأخبار والآثار تقوي هذا القول قال صاحب الكشاف وعدن علم بدليل قوله «جنات عدن التي وعد الرحمن عباده» والقول الثاني إنه صفة للجنة.

قال الأزهري: العدن مأخوذ من قولك: عدن بالمكان إذا أقام به. يعدن عدواناً فبهذا الاشتقاق قالوا: الجنات كلها جنات عدن.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ورضوان من الله أكبر**﴾ يعني أن رضوان الله الذي ينزله عليهم أكبر من كل ما سلف ذكره من نعيم الجنة ﴿**ذلك هو الفوز العظيم**﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من نعيم الجنة والرضوان (ق)

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك

﴿ **وَعَدَ اللَّهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنْهارُ خَالِدينَ فيها ومَسَاكِنَ طيّبة** ﴾، منازل طيبة، ﴿ **في جنّاتِ عَدْنٍ** ﴾ أي: بساتين خلد وإقامة، يُقال: عدن بالمكـان إذا أقام به. قال ابن مسعود: هي بطنان الجنة، أي: وسطها. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن في الجنة قصراً يقال له عَدْنٌ حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلّا نبيٌّ أو صدّيق أو شهيدٌ. وقال الحسن: قصرٌ من ذهب لا يدخله إلّا نبيٌّ أو صدّيقٌ أو شهيدٌ أو حَكَمٌ عَدْلٌ. وقال عطاء بن السائب: عدن نهر في الجنة جنّاته على حافيته. وقال مقاتل والكلبي: عدن أعلى درجة في الجنة وفيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها، وهي مغطاة من حين خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها **الأنبياءُ والصِّدِّيقون والشهداءُ والصالحون، ومَن شاء الله، وفيها قصورُ الدُّرِ والياقوتِ والذهب، فتهبّ ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كُثْبَانُ المِسْكِ الأذْفَرِ الأبيض** ﴿ **ورِضْوَانٌ مَنَ اللَّهِ أكبرُ** ﴾. أي: رضا الله عنهم أكبر من

ربنا وسعديك والخير كله في يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأي شيء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبداً».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار﴾ يعني بالسيف والمحاربة والقتال ﴿والمنافقين﴾ يعني وجاهد المنافقين واختلفوا في صفة جهاد المنافقين وسبب هذا الاختلاف أن المنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام ولما كان الأمر كذلك لم تجز مجاهدته بالسيف والقتال لإظهاره الإسلام فقال ابن عباس: أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وإذهاب الرفق عنهم وهذا قول الضحاك أيضاً وقال ابن: مسعود بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه.

وقال الحسن وقتادة: بإقامة الحدود عليهم يعني إذا تعاطوا أسبابها وهذا القول فيه بعد لأن إقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لهذا تعلق بالنفاق وإنما قال الحسن وقتادة ذلك لأن غالب من كان يتعاطى أسباب الحدود فتقام عليهم في زمن النبي ﷺ المنافقون.

قال الطبري: وأولى الأقوال قول ابن مسعود لأن الجهاد عبارة عن بذل الجهد وقد دلت الآية على وجوب جهاد المنافقين وليس في الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلا بد من دليل آخر وقد دلت الدلائل المنفصلة أن الجهاد مع الكفار إنما يكون بالسيف ومع المنافقين بإظهار الحجة عليهم تارة وبترك الرفق بهم تارة وبالانتهار تارة وهذا هو قول ابن مسعود ﴿واغلظ عليهم﴾ يعني شدد عليهم بالجهاد والإرهاب ﴿ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ بمعنى أن جهنم مسكنهم وبئس المصير مصيرهم إليها.

فإن قلت كيف ترك النبي ﷺ المنافقين بين أظهر أصحابه مع علمه بهم وبحالهم.

ذلك النعيم الذي هم فيه، ﴿ **ذلك هو الفوزُ العظيم** ﴾. روينا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «يقول الله عزّ وجلّ لأهلِ الجنّةِ يا أهلَ الجنّة هلْ رضيتُم؟ فيقولون: ربَّنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك، فيقول: أفلا أعطيكم أفضلَ من ذلك فيقولُونَ: ربَّنا وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحِلُّ عليكم رِضْوَاني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

قوله تعالى: ﴿ **يا أيّها النّبيُّ جاهدِ الكُفّارَ** ﴾: بالسيف والقتل، ﴿ **والمُنافِقِينَ** ﴾، واختلفوا في صفة جهاد المنافقين، قال ابن مسعود: بيده فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه، وقال: لا تلق المنافقين إلّا بوجه مكفهر. وقال ابن عباس: باللسان وترك الرفق. وقال الضحاك: بتغليظ الكلام. وقال الحسن وقتادة: بإقامة الحدود عليهم. ﴿ **واغلُظْ عليهم ومأوَاهُم** ﴾ في الآخرة، ﴿ **جهنّمُ وبِئْسَ المصير** ﴾. قال عطاء: نسخت هذه الآية كلَّ شيء من العفو والصفح.

قلت: إنما أمر الله عز وجل نبيه سيدنا محمداً ﷺ بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام على إظهارها.

فأما من تكلم بالكفر في السر فإذا اطلع عليه أنكره ورجع عنه وقال: إني مسلم فإنه يحكم بإسلامه في الظاهر في حقن دمه وماله وولده وإن كان معتقداً غير ذلك في الباطن لأن الله سبحانه وتعالى أمر بإجراء الأحكام على الظواهر فلذلك أجرى النبي ﷺ المنافقين على ظواهرهم ووكل سرائرهم إلى الله سبحانه وتعالى لأنه العالم بأحوالهم وهو يجازيهم في الآخرة بما يستحقون.

قوله عز وجل: ﴿**يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم**﴾ اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية فقال عروة بن الزبير: نزلت في الجلاس بن سويد أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء. فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن شر من حمرنا هذه التي نحن عليها فقال مصعب: أما والله يا عدو الله لأخبرن النبي ﷺ بما قلت وخفت أن ينزل في القرآن أو أن تصيبني قارعة أو أن أخلط بخطيئته فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئته أو تصيبني قارعة ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس، فقال له: يا جلاس أقلت ما قال مصعب؟ فحلف ما قال، فأنزل الله عز وجل: يحلفون بالله ما قالوا، الآية.

وروي عن مجاهد ونحوه. وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل حجرة فقال: إنه سيأتينكم إنسان فينظر إليكم بعين الشيطان فإذا جاء فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا حتى تجاوز عنه فأنزل الله عز وجل: يحلفون بالله ما قالوا. ثم نعتهم جميعاً إلى آخر الآية.

وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار فظهر الغفاري على الجهني فقال عبد الله بن أبي بن سلول للأوس: انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله فحلف بالله ما قال فأنزل الله هذه الآية، هذه روايات الطبري.

وذكر البغوي عن الكلبي قال: نزلت في الجلاس بن سويد وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجساً وعابهم فقال الجلاس: لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس. فقال الجلاس: كذب يا رسول الله عليّ فأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله ولقد كذب على عامر

قوله تعالى: ﴿ **يحلِفُون بالله ما قالوا** ﴾، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلّموه»، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «عَلاَمَ تشتمني أنتَ وأصحابُك»؟ فانطلق الرجل وجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية. وقال الكلبي: نزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسمّاهم رجساً وعابهم، فقال جلاس: لئن كان محمد صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير فسمعه عامر بن قيس، فقال: أجل إنّ محمداً لصادقٌ وأنتم شرٌّ من الحمير، فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب عليّ يا رسول الله، وأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر، فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا إلّه إلّا هو هو ما قاله، ولقد كَذَبَ عليّ عامر، ثم قام عامر

ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قاله وما كذبت عليه ثم رفع عامر يده إلى السماء فقال: اللهم أنزل على نبيك تصديق الصادق منا فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون آمين فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ فإن يتوبوا يك خيراً لهم فقام الجلاس فقال: يا رسول الله أسمع الله قد عرض علي التوبة صدق عامر بن قيس فيما قاله لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه فتاب وحسنت توبته فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ يعني أظهروا كلمة الكفر بعد إسلامهم وتلك الكلمة هي سب النبي ﷺ فقيل: هي كلمة الجلاس بن سويد لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير وقيل هي كلمة عبد الله بن أبي بن سلول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وستأتي القصة في موضعها في سورة المنافقين إن شاء الله تعالى.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ قال مجاهد: همَّ الجلاس بقتل الذي سمع مقالته خشية أن يفشيها عليه وقيل همَّ عبد الله بن أبي بن سلول وكان همه قوله لئن رجعنا إلى المدينة فلم ينله وقيل: همَّ اثنا عشر رجلاً من المنافقين بقتل رسول الله ﷺ فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه فجاء جبريل عليه السلام فأخبره وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم فأرسل حذيفة لذلك.

وقال السدي: قال المنافقون إذا رجعنا إلى المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي بن سلول تاجاً فلم يصلوا إليه ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ يعني وما أنكروا على رسول الله ﷺ شيئاً إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله والمعنى أن المنافقين عملوا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر النبي ﷺ أن نقموا عليه وقيل إنهم بطروا النعمة فنقموا أشراً وبطراً وقال ابن قتيبة: معناه ليس ينقمون شيئاً ولا يتعرفون إلا الصنع وهذا كقول الشاعر:

ما نقم الناس من أمية إلا ... أنهم يحلمون إن غضبوا

وهذا ليس مما ينقم وإنما أراد أن الناس لا ينقمون عليهم شيئاً فهو كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنَّ فلول من قراع الكتائب

أي ليس فيهم عيب.

قال الكلبي: كانوا قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في ضنك من العيش فلما قدم النبي ﷺ استغنوا بالغنائم. فعلى هذا القول يكون الكلام عاماً. وقال عروة: كان الجلاس قتل له مولى فأمر له النبي ﷺ بديته فاستغنى. وقال قتادة: كانت لعبد الله بن أبي دية فأخرجها رسول الله ﷺ له. وقال عكرمة: إن مولى لبني عدي قتل رجلاً من الأنصار فقضى

فحلف بالله الذي لا إلَه إلاّ هو لقد قاله وما كذَبْتُ عليه، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللّهمّ أنزل على نبيّك تصديقَ الصادقِ منّا، فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون: «آمين». فنزل جبريل عليه السلام من السماء قبل أن يتفرقوا بهذه الآية، حتى بلغ: ﴿ فإن يتوبوا يكُ خيراً لهم ﴾، فقام الجلاس فقال: يا رسول الله أسمعُ اللَّهَ عزّ وجلّ قد عرضَ عليّ التوبة، صدقَ عامرُ بن قيس فيما قاله لقد قلتُه وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فقَبِلَ رسولُ الله ﷺ ذلك منه وحَسُنَتْ توبتُه. ﴿ولقدْ قالُوا كلمةَ الكُفْرِ وكفَرُوا بعدَ إسلامِهم﴾، أي: أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان والإسلام. وقيل: هي سبُّ النّبي ﷺ. وقيل: كلمة الكفر قول الجلاس: لئن كان محمد صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير. وقيل: كلمة الكفر قولهم: ﴿لئن رَّجعْنَا إلى المدينةِ لَيُخرِجَنّ الأعزُّ منها الأذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، وستأتي القصة في موضعها في سورة المنافقين، ﴿ وهَمّوا بما لَمْ ينالُوا ﴾، قال مجاهد: هَمّ المنافقون بقتل المسلم الذي سمع قولهم: لنحن شرٌّ من الحمير، لكي لا يفشيه. وقيل: هَمّ اثنا عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على العقبة في طريق

له النبي ﷺ بالدية اثني عشر ألفاً وفيه نزلت ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ يعني: فإن يتوبوا من كفرهم ونفاقهم يك ذلك خيراً لهم في العاجل والآجل ﴿وإن يتولوا﴾ يعني وإن يعرضوا عن الإيمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا﴾ يعني بالخزي والإذلال ﴿والآخرة﴾ أي ويعذبهم في الآخرة بالنار ﴿وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾ يعني وليس لهم أحد يمنعهم من عذاب الله أو ينصرهم في الدنيا والآخرة.

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ الآية.

روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي أمامة الباهلي قال: «جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه. ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله ﷺ: أمالك في رسول الله أسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت. ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالاً. قال: فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل وادياً من أوديتها وهي تنمو كما ينمو الدود فكان يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر ويصلي في غنمه سائر الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضاً حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان إذا كان يوم جمعة خرج فتلقى الناس يسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: ما فعل ثعلبة؟ فقالوا: يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنماً ما يسعها وادٍ. فقال رسول الله ﷺ: يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة. فأنزل الله سبحانه وتعالى آية

تبوك ليفتِكُوا برسول الله ﷺ، فجاء جبريل عليه السلام وأمره أن يرسل إليهم مَن يضرب وُجُوهَ رَوَاحِلِهِم، فأرسل حذيفة لذلك. وقال السدي: قالوا إذا قَدِمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أُبيّ تاجاً، فلم يصلوا إليه. ﴿ وما نَقَمُوا ﴾، وما كرهوا وما أنكروا منهم، ﴿ إلاّ أنْ أغْنَاهُمُ اللَّهُ ورسولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾. وذلك أن مولى الجلاس قُتل فأمر رسول الله ﷺ بديَته اثني عشر ألف درهم فاستغنى. وقال الكلبي: كانوا قبل قدوم النبيّ ﷺ في ضَنْكٍ من العيش، فلما قَدِمَ عليهم النبي ﷺ استغنوا بالغنائم. ﴿ فإن يَتُوبُوا ﴾ من نفاقهم وكفرهم ﴿ يَكُ خيراً لهم وإن يَتَوَلَّوا ﴾، يعرضوا عن الإيمان، ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عذاباً أليماً في الدنيا ﴾، بالخزي، ﴿ والآخرة ﴾، أي: وفي الآخرة بالنار، ﴿ وما لهم في الأرضِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نصير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ومنهم مَّنْ عاهَدَ اللَّهَ لئن آتانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ الآية. أخبرنا أبو سعيد الشريحي ثنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبد الله بن حامد الأصفهاني ثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم السمرقندي ثنا محمد بن نصر حدّثني أبو الأزهر أحمد بن الأزهر ثنا مروان بن محمد بن شعيب ثنا مُعَان بن رفاعة عن علي بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أدْعُ اللَّهَ أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليلٌ تُؤدّي شُكْرَهُ خيرٌ من كثير لا تُطيقه»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله أدْعُ اللَّهَ أن يرزقنِي مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «أمَا لَكَ في رسولِ الله أُسْوَةٌ حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردتُ أن تسير الجبال معي ذهباً وفضةً لَسارتْ»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله أدْعُ اللَّهَ أن يرزقني مالاً فوالذي بعثك بالحق لئن رزقني اللَّهُ مالاً لأعطينّ كلَّ ذِي حقٍّ حقّه، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمَّ ارْزُقْ ثعلبة

الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سليم ورجلاً من جهينة وكتب لهما أسنان الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما: مرا على ثعلبة بن حاطب ورجل من بني سليم فخذا صدقاتهما، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ فانطلقا وسمع بها السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالا: ما هذه عليك. قال: خذاها فإن نفسي بذلك طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال أروني كتابكما فقرأه ثم قال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيي. قالا: فأقبلا فلما رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يتكلما: يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة ثم دعا للسلمي بخير فأخبراه بالذي صنع ثعلبة فأنزل الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿**ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن**﴾ الآية إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك، فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله ﷺ: هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني، فلما أبى أن يقبل رسول الله ﷺ صدقته رجع إلى منزله وقبض رسول الله ﷺ فأتى أبا بكر فقال: اقبل صدقتي. فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ فأنا لا أقبلها. فقبض أبو بكر ولم يقبلها منه فلما ولي عمر أتاه فقال: اقبل صدقتي فقال: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر فأنا لا أقبلها منك فلم يقبلها. ثم ولي عثمان فأتاه فلم يقبلها منه وهلك في خلافة عثمان». وأخرجه الطبري أيضاً بسنده. قال بعض العلماء: إنما لم يقبل رسول الله ﷺ صدقة ثعلبة، لأن الله سبحانه وتعالى منعه من قبولها منه مجازاة له على إخلافه ما وعد الله عليه وإهانة له على قوله: إنما هي جزية أو أخت الجزية، فلما صدر هذا القول منه ردت صدقته عليه إهانة له وليعتبر غيره فيه فلا يمتنع من بذل الصدقة عن طيب نفس بإخراجها ويرى أنها واجبة عليه وأنه يثاب على إخراجها ويعاقب على منعها.

وقال ابن عباس: إن ثعلبة أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه ووصلت القرابة فمات ابن عم له فورث منه مالاً فلم يف بما عاهد الله عليه فأنزل الله فيه هذه

مالاً». قال: فاتخذ غنماً فَنَمتْ كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها، فنزل وادياً من أوديتها وهي تنمو كالدود، فكان يصلّي مع النبي ﷺ الظهر والعصر ويصلّي في غنمه سائر الصلوات، ثم كثُرتْ ونَمتْ حتى تباعد بها عن المدينة فصار لا يشهد إلاّ الجمعة، ثم كَثُرتْ فنَمَتْ فتباعد أيضاً حتى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة. فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقّى الناسَ يسألهم عن الأخبار، فذكره ﷺ ذات يوم فقال: «ما فعل ثعلبة»؟ قالوا: يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنماً يســعها وادٍ فقال رسول الله ﷺ: «يا وَيْحَ ثعلبةَ يا وَيحَ ثعلبة يا ويحَ ثعلبة». فأنزل الله آية الصدقات، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سليم ورجلاً من جُهينة وكتب لهما أسنان الصدقة، كيف يأخذان، وقال لهما: «مُرّا على ثعلبة بن حاطب، ورجلاً من بني سليم فخذا صدقاتهما»، فخرجا إلى ثعلبة حتى أتياه فسألاه الصدقة وأقرآه كتابَ رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلاّ جزية ما هذه إلاّ أُخت الجزية، انطلقا حتى تفرغا الصدقة ثمّ عُودا إليّ فانطلقا وسمع بهما السلمي خيّار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالوا: ما هذه عليك؟ قال: خذاه فإن نفسي بذلك طيبة، فمرّا على الناس فأخذا الصدقة، ثم رجعَا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما فقرأه، ثم قال: ما هذه إلاّ أُخت الجزية، إذهبا حتى أرى رأيـي، قال: فأقبلا فلمّا رآهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلّماه قال: «يا وَيْحَ ثعلبة يا وَيْحَ ثعلبة»، ثم دعا للمسلمين بخير، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ **ومنهم مَنْ عَاهَدَ الله لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِه** ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ [التوبة: ٧٧] وعند

الآية. وقال الحسن ومجاهد: نزلت في ثعلبة ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود فقالا لئن رزقنا الله من فضله لنصدقن فلما رزقهما الله بخلا به. وقال ابن السائب: إن حاطب بن أبي بلتعة[١] كان له مال بالشام فأبطأ عليه فجهد لذلك جهداً شديداً فحلف بالله لئن آتاني الله من فضله يعني ذلك المال لأصدقن منه ولأصلن فلما آتاه ذلك المال لم يف بما عاهد الله عليه فنزلت هذه الآية وحاصله أن ظاهر الآية يدل على أن بعض المنافقين عاهد الله لئن آتاه من فضله ليصدقن وليفعلن فيه أفعال الخير والبر والصلة فلما آتاه الله من فضله ما سأل لم يف بما عاهد الله عليه ومعنى الآية ومن المنافقين من أعطى الله عهداً لئن رزقنا من فضله بأن يوسع علينا في الرزق لنصدقن يعني لنتصدقن ولنخرجن من ذلك المال صدقته ﴿ولنكونن من الصالحين﴾ يعني: ولنعملن في ذلك المال ما يعمله أهل الصلاح بأموالهم من صلة الأرحام والإنفاق في سبيل الله وجميع وجوه البر والخير وإخراج الزكاة وإيصالها إلى أهلها والصالح ضد المفسد والمفسد هو الذي يبخل بما يلزمه في حكم الشرع. وقيل: إن المراد بقوله لنصدقن، إخراج الزكاة الواجبة. وقوله: ولنكونن من الصالحين إشارة إلى كل ما يفعله أهل الصلاح على الإطلاق من جميع أعمال البر والطاعة.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾ يعني فلما رزقهم الله لم يفعلوا من أعمال البر شيئاً ﴿وتولوا﴾ يعني عما عاهدوا الله عليه ﴿وهم معرضون﴾ يعني عن العهد.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾

رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبيَّ ﷺ فسأله أن يقبل منه الصدقة، فقال: «إن الله عزّ وجلّ منعني أن أقبل منك صدقتك»، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا عملك وقد أمرتُك فلم تطعني»، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته، رجع إلى منزله. وقُبض رسولُ الله ﷺ. ثم أتى أبا بكر فقال: اقبلْ صدقتي، فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسولُ الله ﷺ فأنا لا أقبلها فقُبض أبو بكر ولم يقبلها. فلمّا وَلِيَ عمرُ أتاه فقال: اقبلْ صدقتي، فقال: لم يقبلها منك رسولُ الله ولا أبو بكر فأنا لا أقبلها منك، فلم يقبلها. فلمّا وَلِيَ عثمان أتاه فلم يقبلها منه، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: أتى ثعلبة مجلساً من الأنصار فأشهدهم لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حقّ حقَّه وتصدّقت منه فوصلت الرحم وأحسنت إلى القرابة، فمات ابن عمّ له فورث منه مالاً فلم يفِ بما قال، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال الحسن ومجاهد: نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود وقالا: والله لئن رزقنا اللَّهُ مالاً لنصدّقنّ، فلما رزقهما الله عزّ وجلّ بَخِلَا به. فقوله عزّ وجلّ: ﴿ ومنهم ﴾ يعني: المنافقين ﴿ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِن فَضْله لَنصدّقنّ ﴾ ولنؤدينّ حقّ الله منه. ﴿ ولَنَكُونَنّ مِنَ الصَّالحين ﴾، نعمل بعمل أهل الصلاح فيه من صلة الرحم والنفقة في الخير.

﴿ فلمّا آتاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وتَوَلَّوا وهمْ مُعْرِضُون ﴾.

---

(١) قوله إن حاطب إلخ لم يذكر البغوي هذا القول وأصاب فإن حاط مهاجري بدري وفضل آل بدر لا يخفى ا هـ.

ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ يعني فأعقبهم الله نفاقاً بأن صيرهم منافقين يقال أعقبت فلاناً ندامة إذا صارت عاقبة أمره إلى ذلك وقيل معناه أنه سبحانه وتعالى عاقبهم بنفاق قلوبهم ﴿إلى يوم يلقونه﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى حرمهم التوبة إلى يوم القيامة فيوافونه على النفاق فيجازيهم عليه ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه﴾ يعني الصدقة والإنفاق في سبيله ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ يعني في قولهم لنصدقن ولنكونن من الصالحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خلة وفي رواية خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر» قال الشيخ محيي الدين النووي: هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلاً من حيث إن هذه الخصال قد توجد في المسلم المصدق الذي ليس فيه شك وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق مخلد في النار فإن إخوة يوسف عليه السلام جمعوا هذه الخصال وكذا قد يوجد لبعض السلف ولبعض العلماء بعض هذا أو كله. قال الشيخ: هذا ليس بحمد الله إشكالاً ولكن اختلف العلماء في معناه فالذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها يشبه المنافقين في هذه الخصال ويتخلق بأخلاقهم فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه وهذا موجود في صاحب هذه الخصال فيكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر ولم يرد النبي ﷺ بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار وقوله ﷺ كان منافقاً خالصاً معناه كان شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال قال بعض العلماء وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه فأما من ندر ذلك منه فليس ذلك حاصلاً فيه هذا هو المختار في معنى الحديث.

وقال جماعة من العلماء: المراد به المنافقون الذين كانوا في زمن النبي ﷺ فإنهم حدثوا في أيمانهم فكذبوا وائتمنوا على دينهم فخافوا ووعدوا في أمر الدين ونصره فأخلفوا وفجروا في خصوماتهم وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ورجع إليه الحسن البصري بعد أن كان على خلافه، وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر وروياه أيضاً عن النبي ﷺ قال القاضي عياض: وإليه مال أكثر أئمتنا. وحكى الخطابي قولاً آخر: إن معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال وحكى أيضاً عن بعضهم أن الحديث ورد في رجل بعينه منافق وكان النبي ﷺ لا يواجههم بصريح

﴿ فأَعْقَبَهُم ﴾، فأخلفهم، ﴿ نِفَاقاً في قلوبهم ﴾، أي: صيّر عاقبة أمرهم النفاق، يقال: أعقب فلاناً ندامةً إذا صيّر عاقبة أمره ذلك. وقيل: عاقبهم بنفاق قلوبهم. يُقال: عاقبتُه وأعقبته بمعنى واحد. ﴿ إلى يومِ يَلْقَوْنَه ﴾، يريد حرمهم التوبة إلى يوم القيامة، ﴿ بما أخلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وبما كانُوا يكذِبُون ﴾. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي ثنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطَّيْفسوني ثنا عبد الله بن عمر الجوهري ثنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر ثنا أبو سهيل نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المنافِقِ ثلاث: إذا حدّثَ كذبَ، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا ائتُمِنَ خان».

﴿ أَلَمْ يعلمُوا أنّ الله يعلمُ سِرَّهُمْ ونَجْوَاهُمْ ﴾، يعني: ما أضمروا في قلوبهم وما تناجوا به بينهم، ﴿ وأنَّ الله عَلَّامُ الغُيُوبِ ﴾.

القول فيقولا فلان منافق وإنما يشير إشارة كقوله ﷺ: «ما بال أقوام يفعلون كذا» والله أعلم. وقال الإمام فخر الدين الرازي: ظاهر هذه الآية يدل على أن نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ألم يعلموا**﴾ يعني هؤلاء المنافقين ﴿**أن الله يعلم سرهم**﴾ يعني ما تنطوي عليه صدورهم من النفاق ﴿**ونجواهم**﴾ يعني ويعلم ما يفاوض به بعضهم بعضاً فيما بينهم والنجوى هو الخفي من الكلام يكون بين القوم والمعنى أنهم يعلمون أن الله يعلم جميع أحوالهم لا يخفى عليه شيء منها ﴿**وأن الله علام الغيوب**﴾ وهذا مبالغاً في العلم يعني أن الله عالم بجميع الأشياء فكيف تخفى عليه أحوالهم.

قوله عز وجل: ﴿**الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات**﴾ الآية (ق) عن أبي مسعود البدري قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحمل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مراء وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغني عن صاع هذا فنزلت ﴿**الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم**﴾ الآية وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن رسول الله ﷺ حث على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال: يا رسول الله مالي ثمانية آلاف درهم جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالي فقال رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله في مال عبد الرحمن حتى أنه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين ألف درهم وتصدق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر وقال: يا رسول الله بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالي وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات فلمزهم المنافقون. فقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وإن الله ورسوله لغنيان عن صاع أبي عقيل ولكن أحب أن يذكر نفسه ليعطي من الصدقة فأنزل الله سبحانه وتعالى الذين يلمزون يعيبون المطوعين يعني المتبرعين من المؤمنين يعني عبد الرحمن بن عوف وعاصم بن عدي في الصدقات والتطوع التنفل بما ليس بواجب عليه ﴿**والذين لا يجدون إلا جهدهم**﴾ يعني أبا عقيل الأنصاري والجهد بالضم الطاقة وهي لغة أهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وقيل: الجهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة وقد يكون القليل من المال الذي يأتي به فيتصدق به أكثر موقعاً عند الله تعالى من الكثير الذي يأتي به فيتصدق به لأن الغني أخرج ذلك المال الكثير عن قدرة وهذا الفقير أخرج القليل إنما أخرجه عن ضعف وجهد وقد يؤثر المحتاج إلى المال غيره رجاء ما عند الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴿**فيسخرون منهم**﴾ يعني أن المنافقين كانوا يستهزئون بالمؤمنين في إنفاقهم المال في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله

﴿ **الذينَ يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِينَ مِنَ المُؤمنينَ في الصَّدَقَاتِ** ﴾ الآية. قال أهل التفسير: حثّ رسولُ الله ﷺ على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله مالي ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله، وأمسكتُ أربعة آلاف لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكت»، فبارك الله في ماله حتى أنه خلّف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستّين ألف درهم. وتصدّق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وِسْقٍ من تمر. وجاء أبو عقيل الأنصاري واسمه الحبحاب بصاع من تمر، وقال: يا رسول الله بتُّ ليلتي أجرّ بالجرير الماءَ حتى نِلتُ صاعين من تمرٍ فأمسكتُ أحدهما لأهلي وأتيتُك بالآخر فأمر رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقة، فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلّا رياءً وإن كان الله ورسوله لغنيّان عن صاع أبي عقيل، ولكنه أراد أن يُذكر فيمَن أعطى الصدقة، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **الذينَ يَلْمِزُونَ** ﴾ أي: يعيبون ﴿ **المُطَّوِّعِينَ مِنَ المؤمنينَ في الصدقات** ﴾ يعني: عبد الرحمن بن عوف وعاصماً.

ﷺ وهو قولهم لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنياً وكانوا يعيرون الفقير الذي يتصدق بالقليل ويقولون: إنه لفقير محتاج إليه فكان يتصدق به وجوابهم إن كل من يرجو ما عند الله من الخير والثواب يبذل الموجود لينال ذلك الثواب الموعود به وقوله سبحانه وتعالى: ﴿سخر الله منهم﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى جازاهم على سخريتهم ثم وصف ذلك وهو قوله تعالى: ﴿ولهم عذاب أليم﴾ يعني في الآخرة.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ قال المفسرون: لما نزلت الآيات المتقدمة في المنافقين وبان نفاقهم وظهر للمؤمنين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويقولون استغفر لنا فنزلت استغفر لهم أو لا تستغفر فلن يغفر الله لهم وإنما خص سبحانه وتعالى السبعين من العدد بالذكر لأن العرب كانت تستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله ﷺ لما صلى على عمه حمزة رضي الله تعالى عنه سبعين تكبيرة ولأن آحاد السبعين سبعة وهو عدد شريف فإن السموات والأرضين سبع والأيام سبع والأقاليم سبع والبحار سبع والنجوم السيارة سبع فلهذا خص الله تبارك وتعالى السبعين بالذكر للمبالغة في اليأس من طمع المغفرة لهم. قال الضحاك ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ إن الله قد رخص لي فسأزيدن على السبعين لعل الله أن يغفر لهم فأنزل الله سبحانه وتعالى سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم (ق) عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله يعني بن أبي بن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه فقال رسول الله ﷺ: إنما خيرني الله عز وجل فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيد على السبعين قال إنه منافق فصلى عليهم رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون زاد في رواية فترك الصلاة عليهم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ يعني أن هذا الفعل من الله وهو ترك العفو عنهم وترك المغفرة لهم من أجل أنهم اختاروا الكفر على الإيمان بالله ورسوله ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يعني والله لا يوافق للإيمان به وبرسوله من اختار الكفر والخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله.

قوله عز وجل: ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ يعني فرح المتخلفون عن غزوة تبوك والمخلف

﴿ والذينَ لا يجدُونَ إلاّ جُهْدَهُم ﴾، أي: طاقتهم، يعني: أبا عقيل. والجُهد: الطاقة، بالضم لغة قريش وأهل الحجاز. وقرأ الأعرج بالفتح. قال القتيبي: الجهد بالضمّ الطاقة وبالفتح المشقّة. ﴿ فيسخَرُونَ منهم ﴾، يستهزؤون منهم، ﴿ سَخِرَ اللَّهُ منهم ﴾، أي: جازاهم الله على السخرية، ﴿ ولهم عذابٌ أليم ﴾.

﴿ اسْتَغْفِرْ لهم أو لاَ تَسْتَغْفِر لهم ﴾، لفظ أمر معناه الخبر، تقديره: أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفرَ الله لهم، ﴿ إنْ تستغفرْ لهم سبعينَ مرّة فلن يغفرَ اللَّهُ لهم ﴾، وذكر السبعين في العدد للمبالغة في اليأس عن طمع المغفرة. قال الضحّاك: لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله قد رخّص لي فسأزيدنّ على السبعين لعلّ الله أن يغفر لهم»، فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ سواءٌ عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفرْ لهم لنْ يغفرَ الله

المتروك بمقعدهم يعني بقعودهم في المدينة خلاف رسول الله يعني بعده وعلى هذا المعنى خلاف بمعنى خلف فهو اسم للجهة المعينة لأن الإنسان إذا توجه إلى قدامه فمن تركه خلفه فقد تركه بعده وقيل معناه مخالفة لرسول الله ﷺ حين سار إلى تبوك وأقاموا بالمدينة لأن رسول الله ﷺ كان قد أمرهم بالخروج إلى الجهاد فاختاروا القعود مخالفة لرسول الله ﷺ وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله**﴾ والمعنى أنهم فرحوا بسبب التخلف وكرهوا الخروج إلى الجهاد وذلك أن الإنسان يميل بطبعه إلى إيثار الراحة والقعود مع الأهل والولد ويكره إتلاف النفس والمال وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وقالوا لا تنفروا في الحر**﴾ وكانت غزوة تبوك في شدة الحر فأجـاب الله عن هذا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون**﴾ يعني: قل يا محمد لهؤلاء الذين اختاروا الراحة والقعود خلافك عن الجهاد في الحر أن نار جهنم التي هي موعد في الآخرة أشد حراً من حر الدنيا لو كانوا يعلمون. قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف. فقال رجال: يا رسول الله الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفر في الحر فقال الله عز وجل قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فأمره الله تعالى بالخروج ﴿**فليضحكوا قليلاً**﴾ يعني فليضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فرحين قليلاً في الدنيا الفانية بمقعدهم خلافه ﴿**وليبكوا كثيراً**﴾ يعني مكان ضحكهم في الدنيا وهذا وإن ورد بصيغة الأمر إلا أن معناه الإخبار والمعنى: أنهم وإن فرحوا وضحكوا طول أعمارهم في الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم في الآخرة لأن الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفاني بالنسبة إلى الدائم الباقي قليل ﴿**جزاء بما كانوا يكسبون**﴾ يعني إن ذلك البكاء في الآخرة جزاء لهم على ضحكهم وأعمالهم الخبيثة في الدنيا (خ). عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»

وروى البغوي بسنده عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا أن تبكوا» فتباكوا فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو أن سفناً أجريت فيها لجرت».

لهم ﴾ [المنافقون: ٦]. ﴿ **ذلك بأنّهم كفرُوا باللّهِ ورسولِه واللّهُ لا يهدي القومَ الفاسقين** ﴾.

﴿ **فَرِحَ المُخلَّفُون** ﴾ عن غزوة تبوك والمخلف المتروك ﴿ **بمقعدهم** ﴾ أي بقعودهم ﴿ **خلافَ رسولِ الله** ﴾، قال أبو عبيدة: أي بعد رسول الله ﷺ: وقيل: مخالفة لرسول الله ﷺ حين سار وأقاموا، ﴿ **وكرهُوا أنْ يُجاهِدُوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تَنْفِرُوا في الحرِّ** ﴾، وكانت غزوة تبوك في شدّة الحرّ، ﴿ **قلْ نارُ جهنّمَ أشدُّ حرّاً لو كانُوا يفقهون** ﴾، يعلمون وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود.

﴿ **فليضْحكُوا قليلاً** ﴾، في الدنيا، ﴿ **وليبكُوا كثيراً** ﴾، في الآخرة، تقديره: فليضحكوا قليلاً وسيبكون كثيراً، ﴿ **جزاءً بما كانُوا يكسِبُون** ﴾، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنبأنا السيد أبو الحسين محمد بن الحسين العلوي قال: أنا عبد الله بن محمد الحسين الشرقي ثنا عبد الله بن هشيم ثنا يحيىٰ بن سعيد ثنا شعبة عن موسى بن أنس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتُم كثيراً». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة ثنا أبو طاهر محمد بن أحمد الحارث ثنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي ثنا عبد الله بن محمود ثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن عمران بن زيد الثعلبي ثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيّها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا أن تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول ثم تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرّح العيون فلو أن سُفُناً أجريتْ فيها لَجَرتْ».

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فإن رجعك الله﴾ يعني فإن ردك الله يا محمد من غزاتك هذه ﴿إلى طائفة منهم﴾ يعني إلى المتخلفين عنك وإنما قال منهم لأنه ليس كل من تخلف بالمدينة عن غزوة تبوك كان منافقاً مثل أصحاب الأعذار ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ يعني فاستأذنك المنافقون الذين تخلفوا عنك وتحقق نفاقهم في الخروج معك إلى غزوة أخرى ﴿فقل لن تخرجوا معي أبداً﴾ يعني فقل يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج وهم مقيمون على نفاقهم لن تخرجوا معي أبداً لا إلى غزوة ولا إلى سفر ﴿ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم﴾ يعني لأنكم ﴿رضيتم بالقعود أول مرة﴾ يعني أنكم رضيتم بالتخلف عن غزوة تبوك ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ يعني: مع المتخلفين من النساء والصبيان. وقيل: مع المرضى والزمنى. وقال ابن عباس: مع الذين تخلفوا بغير عذر. وقيل: مع المخالفين يقال صاحب خالف إذا كان مخالفاً كثير الخلاف وفي الآية دليل على أن الرجل إذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته لأن الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات.

قوله عز وجل: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ الآية، قال قتادة: بعث عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ وهو مريض ليأتيه قال فنهاه عمر عن ذلك فأتاه نبي الله ﷺ فلما دخل عليه نبي الله ﷺ قال: أهلكك حب اليهود فقال يا نبي الله إني لم أبعث إليك لتؤنبني ولكن بعثت إليك لتستغفر لي وسأله قميصه أن يكفن فيه فأعطاه إياه واستغفر له رسول الله ﷺ فمات فكفنه في قميصه ﷺ ونفث في جلده ودلاه في قبره فأنزل الله سبحانه وتعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره الآية (خ).

عن عمر بن الخطاب: قال لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دعى له رسول الله ﷺ ليصلي عليه فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه فقلت يا رسول الله أتصلي عليه فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه فقلت يا رسول الله أتصلي على ابن أبي بن سلول وقد قال يوم كذا كذا وكذا عدد عليه قوله فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أخر عني يا عمر فلما أكثرت عليه قال: إني خيرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم

قوله تعالى: ﴿ فإنْ رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾أي: ردّك يا محمد من غزوة تبوك، ﴿ إلى طائفةٍ منهم ﴾، يعني: من المخلفين، إنما قال طائفة منهم لأنه ليس كلّ مَن تخلّف من غزوة تبوك كان منافقاً، ﴿ فاستأذَنُوك للخُروج ﴾، معك في غزوة أُخرى، ﴿ فقلْ ﴾، لهم ﴿ لنْ تخرجُوا معي أبداً ﴾ في سفر، ﴿ ولنْ تقاتِلُوا معيَ عَدُوّاً إنّكم رَضِيتم بالقُعُودِ أوّلَ مَرّةٍ ﴾، في غزاة أخرى ﴿ فاقعدُوا مع الخَالِفين ﴾، أي: مع النساء والصبيان، وقيل: مع الزَّمْنَى والمرضَى. وقال ابن عباس: مع الذين تخلّفوا بغير عذر. وقيل: مع الخالفين قال الفرّاء: يقال صاحب خالف إذا كان مخالفاً. ﴿ ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ﴾ [التوبة: ٨٤]، قال أهل التفسير بعث عبد الله بن أُبيّ ابن سلول إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال له: «أهلكك حبُّ اليهود»؟ فقال: يا رسول الله إنّي لم أُبعَث إليك لتؤنّبني إنما بُعثتُ إليك لتستغفر لي وسأله أن يكفّنه في قميصه ويصلّي عليه. أخبرنا

انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إلى قوله وهم فاسقون قال فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ والله ورسوله أعلم. وأخرجه الترمذي وزاد فيه فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى (ق) عن جابر قال: أتى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بعد ما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث فيه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم. قال: وكان كسا عباساً قميصاً قال سفيان وقال أبو هارون: وكان على رسول الله ﷺ قميصان فقال له ابن عبد الله يا رسول الله ألبس عبد الله قميصك الذي يلي جلدك. قال سفيان: فيرون أن النبي ﷺ ألبس عبد الله قميصه مكافأة لما صنع وفي رواية عن جابر قال: لما كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي إياه فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه.

(فصل)

قد وقع في هذه الأحاديث التي تتضمن قصة موت عبد الله بن أبي بن سلول المنافق صورة اختلاف في الروايات ففي حديث ابن عمر المتقدم، أنه لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول أتى ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه وأن يصلي عليه فأعطاه قميصه وصلى عليه وفي حديث عمر بن الخطاب من إفراد البخاري أن رسول الله ﷺ دعى له ليصلي عليه. وفي حديث جابر: أن النبي ﷺ أتاه بعد ما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه. قميصه ووجه الجمع بين هذه الروايات أنه ﷺ أعطاه قميصه فكفن فيه ثم إنه ﷺ صلى عليه وليس في حديث جابر ذكر الصلاة عليه فالظاهر والله أعلم أنه صلى عليه أولاً كما في حديث عمر وابن عمر ثم إن رسول الله ﷺ أتاه ثانياً بعد ما أدخل حفرته فأخرجه منها ونزع عنه القميص الذي أعطاه وكفن فيه لينفث عليه من ريقه ثم إنه ﷺ ألبسه قميصه بيده الكريمة فعل هذا كله بعبد الله بن أبي تطييباً لقلب ابنه عبد الله فإنه كان صحابياً مسلماً صالحاً مخلصاً، وأما قول قتادة: إن رسول الله ﷺ عاده في مرضه وأنه سأله أن يستغفر له وأن يعطيه قميصه وأن يصلي عليه فأعطاه قميصه واستغفر له وصلى عليه ونفث في جلده ودلاه في حفرته فهذه جمل من القول ظاهرها الترتيب وما المراد بهذا الترتيب إلا توفيقاً بين الأحاديث فيكون قوله: ونفث في جلده ودلاه في قبره جملة منقطعة عما قبلها. يعني أنه ﷺ فعل ذلك بعد ما أعطاه القميص وبعد أن صلى عليه والله أعلم. وقال القرطبي في شرح صحيح مسلم له أن عبد الله بن أبي بن سلول كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم فلما ظهر النبي ﷺ وانصرف إليه الخزرج وغيرهم حسده وناصبه العداوة غير أن الإسلام غلب عليه فنافق وكان رأساً في المنافقين وأعظمهم نفاقاً وأشدهم كفراً وكان المنافقون كثيراً حتى لقد روى عن ابن عباس أنهم كانوا ثلثمائة رجل ومائة وسبعين امرأة وكان ولده عبد الله يعني ولد عبد الله بن أبي من فضلاء الصحابة وأصدقهم إسلاماً وأكثرهم عبادة وأشرحهم صدراً وكان أبر الناس بأبيه ومع ذلك فقد قال يوماً للنبي ﷺ: يا رسول الله إنك لتعلم أني من أبر الناس بأبي وإن أمرتني أن آتيك برأسه

عبد الواحد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ بن بكير حدّثني الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عبد الله بن عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أنه قال: لمّا مات عبد الله بن أُبيّ ابن سلول دعى له رسول الله ﷺ ليصلّي عليه لمّا قام رسول الله ﷺ وثبتُ إليه فقلت: يا رسول الله أتصلّي على ابن أُبيٍّ ابن سلول وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ عدّد عليه قوله فتبسّم رسولُ الله ﷺ وقال: «أخّرْ عنّي يا عمر» فلما أكثرت عليه قال: «إني خُيّرتُ فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها»، قال: فصلّى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يلبث إلّا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿ولا تصلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً ولا تَقُمْ على قبرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]، إلى قوله: ﴿وهم فاسقـون﴾

فعلت فقال رسول الله ﷺ: بل نعفو عنه وكان من أحرص الناس على إسلام أبيه وعلى أن ينتفع من بركات النبي ﷺ بشيء ولذلك لما مات أبوه سأل النبي ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فينال من بركته فأعطاه وسأله أن يصلي عليه فصلى عليه كل ذلك إكراماً لابنه عبد الله وإسعافاً له ولطلبته من قول عمر تصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه يحتمل أن يكون قبل نزول ولا تصل على أحد منهم مات أبداً. ويظهر من هذا السياق أن عمر وقع في خاطره أن الله نهاه عن الصلاة عليه فيكون هذا من قبيل الإلهام والتحديث الذي شهد له به النبي ﷺ.

ويحتمل أن يكون فهمه من سياق قوله: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وهذان التأويلان فيهما بعد. قال القرطبي: والذي يظهر لي، والله أعلم، أن البخاري ذكر هذا الحديث من رواية ابن عباس وساقه سياقة هي أبين من هذه وليس فيها هذا اللفظ فقال عن ابن عباس عن عمر لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دعى له رسول الله ﷺ فلما قام رسول الله ﷺ قال عمر: وثبت إليه الحديث، إلى قوله فصلى عليه ثم انصرف فلم يلبث إلا يسيراً حتى أنزلت عليه الآيتان من براءة. قال القرطبي: وهذا مساق حسن وتنزيل متقن ليس فيه شيء من الإشكال المتقدم فهو الأولى وقوله ﷺ: سأزيد على السبعين وعد بالزيادة وهو مخالف لما في حديث ابن عباس عن ابن عمر فإن فيه لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت وهذا تقييد لذلك الوعد المطلق فإن الأحاديث يفسر بعضها بعضاً ويقيد بعضها بعضاً فلذلك قال لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت فقد علم أنه لا يغفر له. وقوله ﷺ: إني خيرت مشكل مع قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وهذا يفهم منه النهي عن الاستغفار لمن مات كافراً وهو متقدم على الآية التي فيها التخيير والجواب عن هذا الإشكال أن المنهى عنه استغفاره لمن تحقق موته على الكفر والشرك. وأما استغفاره لأولئك المنافقين المخير فيهم فهو قد علم ﷺ أنه لا يقع ولا ينفع وغايته وإن وقع كان تطيبياً لقلوب الأحياء من قراباتهم فانفصل الاستغفار المنهى عنه من المخير فيه وارتفع الإشكال بحمد الله والله أعلم.

وقال الشيخ محيي الدين النووي: إنما أعطاه قميصه ليكفنه فيه تطيبياً لقلب ابنه عبد الله فإنه كان صحابياً صالحاً وقد سأل ذلك فأجابه إليه وقيل بل أعطاه مكافأة لعبد الله بن أبي المنافق الميت لأنه ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصاً وفي الحديث بيان مكارم أخلاق النبي ﷺ فقد علم ما كان من هذا المنافق من الإيذاء له وقابله بالحسنى وألبسه قميصه كفناً وصلى عليه واستغفر له قال الله سبحانه وتعالى وإنك لعلى خلق عظيم وقال البغوي: قال سفيان بن عيينة كانت له يد عند رسول الله ﷺ فأحب أن يكافئه بهاويروى أن النبي ﷺ كلم فيما فعل بعبد الله بن أبي فقال ﷺ: وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه. فيروى أنه أسلم ألف من قومه لما رأوه يتبرك بقميص النبي ﷺ.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولا تقم على قبره**﴾ يعني لا تقف عليه ولا تتول دفنه من قولهم قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره وناب عنه فيه ﴿**إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون**﴾ وهذا تعليل لسبب المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره ولما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله ﷺ على منافق ولا قام على قبره وبعدها.

فإن قلت: الفسق أدنى حالاً من الكفر ولما ذكر في تعليل هذا النهي كونه كافراً دخل تحته الفسق وغيره فما الفائدة في وصفه بكونه فاسقاً بعد ما وصفه بالكفر قلت إن الكافر قد يكون عدلاً في نفسه بأن يؤدي الأمانة ولا يضمر

[التوبة: ٨٤]. قال: فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ. والله ورسوله أعلم. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ثنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا علي بن عبد الله ثنا سفيان قال عمرو: سمعتُ جابر بن عبد الله قال: أتَى رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ أُبيّ بعدما أُدخل في حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث من ريقه وألبسه قميصه. فالله أعلم وكان كَسَا عبّاساً قَمِيصاً. قال سفيان: قال أبو

لأحد سوءاً وقد يكون خبيثاً في نفسه كثير الكذب والمكر والخداع وإضمار السوء للغير وهذا أمر مستقبح عند كل أحد ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله سبحانه وتعالى بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر.

قوله تعالى: ﴿**ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون**﴾ الكلام على هذه الآية في مقامين المقام الأول في وجه التكرار والحكمة فيه أن تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل أولاً وتأكيده وإرادة أن يكون المخاطب به على بال ولا يغفل عنه ولا ينساه وأن يعتقد أن العمل به مهم وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه وهو أن أشد الأشياء جذباً للقلوب والخواطر الاشتغال بالأموال والأولاد وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى وبالجملة فالتكرير يراد به التأييد والمبالغة في التحذير من ذلك الشيء الذي وقع الاهتمام به وقيل أيضاً إنما كرر هذا المعنى لأنه أراد بالآية الأولى قوماً من المنافقين كان لهم أموال وأولاد عند نزولها وبالآية الأخرى أقواماً آخرين منهم المقام الثاني في وجه بيان ما حصل من التفاوت في الألفاظ في هاتين الآيتين وذلك أنه قال سبحانه وتعالى في الآية الأولى فلا تعجبك بالفاء وقال هنا ولا تعجبك بالواو والفرق بينهما أنه عطف الآية الأولى على قوله ولا ينفقون إلا وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق لشدة المحبة للأموال والأولاد فحسن العطف عليه بالفاء في قوله فلا تعجبك وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها فلهذا أتى بحرف الواو وقال سبحانه وتعالى في الآية الأولى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم وأسقط حرف لاهنا قال سبحانه وتعالى وأولادهم والسبب فيه أن حرف لا دخل هناك لزيادة التأكيد فيدل على أنهم كانوا معجبين بكثرة الأموال والأولاد وكان إعجابهم بأولادهم أكثر وفي إسقاط حرف لاهنا دليل على أنه لا تفاوت بين الأمرين قال سبحانه وتعالى في الآية الأولى إنما يريد الله ليعذبهم بحرف اللام وقال سبحانه وتعالى هنا أن يعذبهم بحرف أن والفائدة فيه التنبيه على أن التعليل في أحكام الله محال وأنه أينما ورد حرف اللام فمعناه أن كقوله سبحانه وتعالى وما أمروا إلا ليعبدوا الله ومعناه وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله وقال تبارك وتعالى في الآية الأولى في الحياة الدنيا وقال تعالى هنا في الدنيا والفائدة في إسقاط لفظة الحياة التنبيه على أن الحياة الدنيا بلغت في الخسة إلى حيث أنها لا تستحق أن تذكر ولا تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيهاً على كمال دناءتها فهذه جمل في ذكر الفرق بين هذه الألفاظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

هريرة: وكان على رسول الله ﷺ قميصان فقال ابن عبد الله: يا رسول الله ألبسْ أبي قميصك الذي يلي جلدك، ورُوِيَ عن جابر قال: لمّا كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب فوجدوا قميص عبد الله بن أبيّ يقدّر عليه، فكساه النبيّ ﷺ، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه عبد الله. قال ابن عيينة: كان له عند النبي ﷺ يَدٌ فأحبَّ أن يُكافئه. ورُوِيَ أن النبي ﷺ كُلّم فيما فعل بعبدِ الله بنِ أُبيّ فقال ﷺ: «وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله شيئاً والله إني كنتُ أرجو أنْ يُسلم به ألف من قومه»، ورُوِيَ أنه أسلم به ألفٌ من قومه لمّا رأوه يتبرّك بقميص النبي ﷺ.

قوله: ﴿ **ولا تصلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً ولا تَقُمْ على قبره** ﴾، لا تقف عليه ولا تتولّ دفنه، من قولهم: قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره. ﴿ **إنّهم كفروا باللّهِ ورسولِهِ وماتُوا وهم فَاسِقُون** ﴾، فما صلّى النبيّ ﷺ بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى قُبِضَ.

قوله تعالى: ﴿ **ولا تُعْجِبْكَ أموالُهم وأولادُهم إنّما يريدُ اللّهُ أنْ يُعذِّبَهم بها في الدنيا وتزهقَ أنفسُهم وهم كافرون**.

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ
ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ
ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ
لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

قوله عز وجل: ﴿**وإذا أنزلت سورة**﴾ يحتمل أن يراد بالسورة بعضها لأن إطلاق لفظ الجمع على البعض جائز ويحتمل أن يراد جميع السورة، فعلى هذا المراد بالسورة براءة لأنها مشتملة على الأمر بالإيمان والأمر بالجهاد ﴿**أن**﴾ أي بأن ﴿**آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله**﴾.

فإن قلت: كيف يأمرهم بالإيمان مع كونهم مؤمنين فهو من باب تحصيل الحاصل قلت: معناه الأمر بالدوام على الإيمان والجهاد في المستقبل. وقيل: إن الأمر بالإيمان يتوجه على كل أحد في كل ساعة. وقيل: إن هذا الأمر وإن كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون والمعنى أن أخلصوا الإيمان بالله وجاهدوا مع رسوله وإنما قدم الأمر بالإيمان على الأمر بالجهاد لأن الجهاد بغير إيمان لا يفيد أصلاً فكأنه قيل للمنافقين: الواجب عليكم أن تؤمنوا بالله أولاً وتجاهدوا مع رسوله ثانياً حتى يفيدكم ذلك الجهاد فائدة يرجع عليكم نفعها في الدنيا والآخرة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**استأذنك أولو الطول منهم**﴾ قال ابن عباس: يعني أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال وقيل: هم رؤساء المنافقين وكبراؤهم وفي تخصيص أولى الطول بالذكر قولان: أحدهما أن الذم لهم ألزم لكونهم قادرين على أهبة السفر والجهاد.

والقول الثاني: إنما خص أولي الطول بالذكر لأن العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج إلى الاستئذان ﴿**وقالوا**﴾ يعني أولي الطول ﴿**ذرنا نكن مع القاعدين**﴾ يعني في البيوت مع النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى ﴿**رضوا بأن يكونوا مع الخوالف**﴾ قيل: الخوالف النساء اللواتي يتخلفن في البيوت فلا يخرجن منها، والمعنى رضوا بأن يكونوا في تخلفهم عن الجهاد كالنساء وقيل: خوالف جمع خالفة وهم أدنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه إذا كان دونهم ﴿**وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون**﴾ يعني: وختم على قلوب هؤلاء المنافقين فهم لايفقهون مراد الله في الأمر بالجهاد.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم**﴾ أي إن تخلف هؤلاء ولم

﴿ **وإذا أُنزلتْ سورةٌ أنْ آمنوا بالله وجاهدُوا معَ رسولِهِ استأذنَكَ أُولوا الطَّوْلِ منهم** ﴾، ذوو الغنى والسَّعة منهم في القعود والتخلّف، ﴿ **وقالوا ذَرْنَا نكنْ معَ القاعِدِين** ﴾، في رحالهم.

﴿ **رَضُوا بأنْ يكونُوا معَ الخَوالِف** ﴾، يعني: النساء. وقيل: مع أدنياء الناس وسَفَلَتهم. يقال: فلانٌ خَالِفَةُ قومه إذا كان دونهم. ﴿ **وطَبع على قُلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾.

﴿ **لكن الرسولُ والذينَ آمنُوا معه جاهدُوا بأموالِهم وأنفسِهم وأولئك لهم الخيراتُ** ﴾، يعني الحسنات، وقيل: الجواري الحِسَان في الجنة. قال الله تعالى: ﴿ فيهنَّ خيراتٌ حِسَان ﴾ [الرحمن: ٧٠]، جمع خيرة،

يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم يعني الرسول والمؤمنين ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة وقيل الحور لقوله فيهن خيرات حسان وهي جمع خيرة تخفيف خيرة ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي الفائزون بالمطالب.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها ذلك الفوز العظيم﴾ بيان لما لهم من الخيرات الأخروية.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾ يعني وجاء المعتذرون من أعراب البوادي إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه في التخلف عن الغزو معه. قال الضحاك: هم رهط عامر بن الطفيل جاؤوا إلى رسول الله ﷺ معتذرين إليه دفاعاً عن أنفسهم فقالوا يا نبي الله إن نحن غزونا معك تغير أعراب طيىء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا فقال لهم رسول الله ﷺ: قد أنبأني الله من أخباركم وسيغنى الله عنكم.

وقيل: هم نفر من بني غفار رهط خفاف بن إيماء بن رحضة. وقيل: هم من أسد وغطفان. وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم رسول الله ﷺ. وجاء المعذرون: أي المقصرون. يعني: أنهم قصروا ولم يبالغوا فيما اعتذروا به والمعذر من يرى أن له عذراً ولا عذر له. وقيل: إن الأصل في هذا اللفظ عند النحاة المعتذرون أدغمت التاء في الذال لقرب مخرجيهما والاعتذار في كلام العرب على قسمين يقال اعتذر إذا كذب في عذره ومنه قوله تعالى يعتذرون إليكم فرد الله عليهم بقوله قل لا تعتذروا فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه ويقال اعتذر إذا أتى بعذر صحيح ومنه قول لبيد:

ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر.

يعني فقد جاء بعذر صحيح. وقيل: هو من التعذير الذي هو التقصير. يقال: عذر تعذيراً إذا قصر ولم يبالغ فعلى هذا المعنى، يحتمل أنهم كانوا صادقين في اعتذارهم وأنهم كانوا كاذبين ومن المفسرين من قال: إنهم كانوا صادقين، بدليل أنه تعالى لما ذكرهم قال بعده ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ فلما فصل بينهم وميزهم عن الكاذبين دلّ ذلك على أنهم ليسوا كاذبين ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه لما قيل له هذا الكلام، قال: إن قوماً تكلفوا عذراً بباطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وتخلف آخرون لا لعذر ولا لشبهة عذر جرأة على الله تعالى فهم المراد بقوله وقعد الذين كذبوا الله ورسوله وهم منافقو الأعراب الذين ما جاؤوا وما اعتذروا وظهر بذلك أنهم

وحكي عن ابن عباس: أنَّ الخير لا يعلم معناه إلاّ الله كما قال جلّ ذكرهُ: ﴿ فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفي لهم من قُرَّةِ أعين ﴾ [السجدة: ١٧]. ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾.

﴿ أعدّ اللّهُ لهم جنّاتٍ تجري منْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ذلكَ الفوزُ العظيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وجاءَ المُعذِّرُونَ مِنَ الأعرابِ لِيُؤْذَنَ لهم ﴾ الآية، قرأ يعقوب ومجاهد: «المُعْـذِرُونَ» بالتخفيف وهم المبالغون في العذر، يقال في المثل لقد أُعذر مَن أنذر، أي بالغ في العذر مَن قدّم النذارة، وقرأ الآخرون « المعذِّرون » بالتشديد، أي: المقصرون، يقال: عَذَرَ أي: قصر، وقال الفرّاء: المعذرون المعتذرون أدغمت التاء في الذال ونُقلت حركة التاء إلى العين. وقال الضحاك: المعذرون هم رهط عامر بن الطفيل جاؤوا رسول الله ﷺ دفاعاً عن أنفسهم فقالوا: يا نبيّ الله إنْ نحنُ غزونا معك تغير أعراب طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قد أنبأني الله من أخباركم وسيغني الله عنكم». وقال ابن عباس: هم الذين تخلّفوا بعذر بإذن رسول الله ﷺ. ﴿ وقَعَدَ الذينَ كذَبُوا الله ورسوله ﴾، يعني المنافقين: قال أبو عمر بن العلاء:

كذبوا الله ورسوله يعني في ادعائهم الإيمان ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ يعني في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار وإنما قال منهم لأنه سبحانه وتعالى علم أن منهم من سيؤمن ويخلص في إيمانه فاستثناهم الله من المنافقين الذين أصروا على الكفر والنفاق وماتوا عليه.

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

قوله عز وجل ﴿ليس على الضعفاء﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد واعتذروا بأعذار باطلة عقبه بذكر أصحاب الأعذار الحقيقية الصحيحة وعذرهم وأخبر أن فرض الجهاد عنهم ساقط فقال سبحانه وتعالى: ليس على الضعفاء والضعيف هو الصحيح في بدنه العاجز عن الغزو وتحمل مشاق السفر والجهاد مثل الشيوخ والصبيان والنساء ومن خلق في أصل الخلقة ضعيفاً نحيفاً ويدل على أن هؤلاء الأصناف هم الضعفاء أن الله سبحانه وتعالى عطف عليهم المرضى فقال سبحانه وتعالى: ﴿ولا على المرضى﴾ والمعطوف مغاير للمعطوف عليه فأما المرضى فيدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة وكل من كان موصوفاً بمرض يمنعه من التمكن من الجهاد والسفر للغزو ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ يعني الفقراء العاجزين عن أهبة الغزو والجهاد، فلا يجدون الزاد والراحلة والسلاح ومؤنة السفر لأن العاجز عن نفقة الغزو معذور ﴿حرج﴾ أي ليس على هؤلاء الأصناف الثلاثة حرج أي إثم في التخلف عن الغزو. وقال الإمام فخر الدين الرازي: ليس في الآية أنه يحرم عليهم الخروج لأن الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة إما بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلاً ووبالاً عليهم فإن ذلك طاعة مقبولة ثم إنه تعالى شرط على الضعفاء في جواز التخلف عن الغزو شرطاً معيناً وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ ومعناه: أنهم إذا أقاموا في البلد احترزوا عن إفشاء الأراجيف وإثارة الفتن وسعوا في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو وقاموا بمصالح بيوتهم وأخلصوا الإيمان والعمل لله وتابعوا الرسول ﷺ فإن جملة هذه الأمور تجري مجرى النصح لله ورسوله ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي ليس على من أحسن فنصح لله ولرسوله في تخلفه عن الجهاد بعذر قد أباحه الشارع طريق يتطرق عليه فيعاقب عليه والمعنى أنه سد بإحسانه طريق العقاب عن نفسه ويستنبط من قوله ما على المحسنين من سبيل أن كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مخلصاً من قلبه ليس عليه سبيل في نفسه وماله إلا ما أباحه الشرع بدليل منفصل ﴿والله

كِلا الفريقين كان مسيئاً قوم تكلفوا عذراً بالباطل وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿ وجاء المُعذِّرون ﴾، وقوم تخلّفوا عن غير تكلّف عذر فقعدوا جرأةً على الله تعالى، وهم المنافقون فأوعدهم الله بقوله: ﴿ سَيُصيبُ الذين كفرُوا منهم عذابٌ أليمٌ ﴾، ثم ذكر أهل العذر.

فقال جلّ ذكره: ﴿ ليسَ على الضُّعفاءِ ﴾، قال ابن عباس يعني الزَّمْنَى والمشايخ والعجزة. وقيل: هم الصبيان وقيل: النسوان، ﴿ ولا على المرضَى ولا على الذينَ لا يجِدُونَ ما يُنفِقون ﴾، يعني الفقراء ﴿ حَرَجٌ ﴾، مأثم. وقيل: ضيق في القعود عن الغزو، ﴿ إذا نَصَحُوا للَّهِ ورسولِه ﴾، في مغيبهم وأخلصُوا الإيمان والعمل لله

غفور﴾ يعني لمن تخلف عن الجهاد بعذر ظاهر أباحه الشرع ﴿رحيم﴾ يعني: أنه تعالى رحيم بجميع عباده.

قال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو وأصحابه. وقال الضحاك: نزلت في عبد الله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر ولما ذكر الله عز وجل هذه الأقسام الثلاثة من المعذورين أتبعه بذكر قسم رابع وهو قوله تعالى: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك﴾ يعني ولا حرج ولا إثم في التخلف عنك على الذين إذا ما أتوك ﴿لتحملهم﴾ يعني يسألونك الحملان ليبلغوا إلى غزو عدوك وعدوهم والجهاد معك يا محمد. قال ابن إسحق: نزلت في البكائين وكانوا سبعة. ونقل الطبري عن محمد بن كعب وغيره قالوا: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يستحملونه فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فأنزل الله هذه الآية وهم سبعة نفر من بني عمرو بن عوف سالم بن عمير ومن بني واقف جرمي بن عمير ومن بني مازن ابن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بني المعلى سلمان بن صخر ومن بني حارثة عبد الرحمن بن زيد وهو الذي تصدق بعرضه فقبل الله منه ذلك ومن بني سلمة عمرو بن عنمة وعبد الله بن عمر المزني.

وقال البغوي: هم سبعة نفر سموا البكائين معقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وعلية بن زيد الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن عنمة، وعبد الله بن مغفل المزني. قال: أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن الله عز وجل قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا. فقال: لا أجد ما أحملكم عليه. وقال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة إخوة: معقل، وسويد، والنعمان بنو مقرن. وقيل: نزلت في العرباض بن سارية، ويحتمل أنها نزلت في كل ما ذكر.

قال ابن عباس: سألوه أن يحملهم على الدواب. وقيل: بل سألوه أن يحملهم على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة فقال النبي ﷺ: لا أجد ما أحملكم عليه، فولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين. فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع﴾ قال صاحب الكشاف: وكقولك تفيض دمعاً وهو أبلغ من يفيض دمعها لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض ومن البيان كقولك أفديك من رجل ﴿حزناً ألَّا يجدوا ما ينفقون﴾ يعني على أنفسهم في الجهاد ﴿إنما السبيل﴾ لما قال الله سبحانه وتعالى: ما على المحسنين من سبيل. قال تعالى في حق من يعتذر ولا عذر له إنما السبيل يعني إنما يتوجه الطريق بالعقوبة ﴿على الذين يستأذنك﴾ يا محمد في التخلف عنك والجهاد معك ﴿وهم أغنياء﴾ يعني قادرين على الخروج معك ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ يعني رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف وهم النساء والصبيان والقعود معهم ﴿وطبع الله على

وبايعُوا الرسول ﴿ ما على المُحْسِنينَ من سبيل ﴾، أي: من طريق بالعقوبة، ﴿ والله غفورٌ رحيم ﴾. قال قتادة: نزلت في زيد بن عمر وأصحابه. وقال الضحاك: نزلت في عبد الله ابن أُم مكتوم وكان ضرير البصر.

قوله تعالى: ﴿ ولا على الذين إذا ما أَتوك لتحملَهم ﴾، معناه أنه لا سبيل على الأوّلين ولا على هؤلاء الذين أتوك وهم سبعة نفر سُمّوا البكّائين: معقل بن يسار وصخر بن خنساء، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وعبلة بن زيد الأنصاري، وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة، وعبد الله بن مغفل المزني، أَتَوْا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنّ الله قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا. واختلفوا في قوله: ﴿ لِتَحْمِلَهم ﴾ قال ابن عباس: سألوه أن يحملهم على الدواب. وقيل: سألوه أن يحملهم على الخفاف المرقوعة والنِعال المخصوفة، ليغزوا معه فأجابهم النبي ﷺ كما أخبر الله عنه في قوله تعالى: ﴿ قُلْتَ لا أجدُ ما أحْمِلُكُم عليه تَوَلَّوا ﴾، وهم يبكون، فذلك قوله تعالى: ﴿ تولّوا وأعينُهم تفيضُ من الدمع حزناً ألَّا يجِدُوا ما يُنفِقُون ﴾.

قلوبهم﴾ يعني ختم عليها ﴿فهم لا يعلمون﴾ ما في الجهاد من الخير في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو وأما في الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذي لا ينقطع.

۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ
وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾
سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾ يعني يعتذر هؤلاء المنافقون المتخلفون عنك يا محمد إليك وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له ﷺ ويحتمل أنهم اعتذروا إليه وإلى المؤمنين فلهذا قال تعالى يعتذرون إليكم يعني بالأعذار الباطلة الكاذبة إذا رجعتم إليهم يعني من سفركم ﴿قل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿لا تعتذروا﴾ قال البغوي: روي أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين فقال الله تعالى قل لا تعتذروا ﴿لن نؤمن لكم﴾ يعني لن نصدقكم فيما اعتذرتم به ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ يعني قد أخبرنا الله فيما سلف من أخباركم ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ يعني في المستأنف أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه وقيل: يحتمل أنهم وعدوا بأن ينصروا المؤمنين في المستقبل فلهذا قال وسيرى الله عملكم ورسوله هل تفون بما قلتم أم لا ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم﴾ يعني فيخبركم ﴿بما كنتم تعملون﴾ لأنه هو المطلع على ما في ضمائركم في الخيانة والكذب وإخلاف الوعد.

قوله عز وجل: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم﴾ يعني إذا رجعتم من سفركم إليهم يعني إلى المتخلفين بالمدينة من المنافقين ﴿لتعرضوا عنهم﴾ يعني لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم ولا توبخوهم بسبب تخلفهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾ يعني فدعوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق. وقيل: يريد ترك الكلام يعني لا تكلموهم ولا تجالسوهم فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال لا تجالسوهم ولا تكلموهم قال أهل المعاني إن هؤلاء المنافقين طلبوا إعراض الصفح

﴿ إنّما السبيلُ ﴾، بالعقوبة، ﴿ على الذينَ يستأذِنونَكَ ﴾، في التخلّف ﴿ وهمْ أغنياءُ رَضُوا بأنْ يكونُوا مَعَ الخَوالِفِ ﴾. مع النساء والصبيان، ﴿ وطَبَعَ اللّهُ على قلوبِهم فهمْ لا يَعْلَمُون ﴾.

﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ﴾، يُروى أن المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعةً وثمانين نفراً، فلما رجع رسول الله ﷺ جاؤوا يعتذرون بالباطل. قال الله تعالى: ﴿ قلْ لا تعتذِروا لنْ نُؤمنَ لكم ﴾، لن نصدقكم، ﴿ قدْ نبَّأنا اللّهُ منْ أخبارِكم ﴾، فيما سلف، ﴿ وسَيَرَى الله عملَكُم ورسولُه ﴾، في المستأنف أتتُوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ﴿ ثمّ تردُّون إلى عالمِ الغيبِ والشّهادَةِ فيُنبّئُكم بما كنتُم تعملُون ﴾.

﴿سيَحْلِفُون بالله لكم إذا انقلبتُم إليهم﴾، إذا انصرفتم إليهم من غزوكم، ﴿لِتُعرِضُوا عنهم﴾، لتصفحوا عنهم

فأعطوا إعراض المقت ثم ذكر العلة في سبب الإعراض عنهم فقال تعالى: ﴿إنهم رجس﴾ يعني أن بواطنهم خبيثة نجسة وأعمالهم قبيحة ﴿ومأواهم﴾ يعني مسكنهم في الآخرة ﴿جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾ يعني من الأعمال الخبيثة في الدنيا. قال ابن عباس: نزلت في الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين فقال النبي: ﷺ لا تجالسوهم ولا تكلموهم. وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أبي حلف للنبي ﷺ الذي لا إله إلا هو أنه لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه فأنزل الله عز وجل هذه الآية والتي بعدها ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ يعني يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ يعني فإن رضيتم عنهم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى يعلم ما في قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم أبداً.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾ نزلت في سكان البادية يعني أن أهل البدو أشد كفراً ونفاقاً من أهل الحضر. قال أهل اللغة: يقال رجل عربي إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب. ورجل أعرابي إذا كان بدوياً يطلب مساقط الغيث والكلأ. ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب فمن استوطن القرى والمدن العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم الأعراب، فالأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح بذلك. والعربي إذا قيل له: يا أعرابي غضب والعرب أفضل من الأعراب، لأن المهاجرين والأنصار وعلماء الدين من العرب. والسبب في كون الأعراب أشد كفراً ونفاقاً بُعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿وأجدر﴾ يعني وأخلق وأحرى ﴿ألا يعلموا﴾ يعني بأن لا يعلموا ﴿حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ يعني الفرائض والسنن والأحكام ﴿والله عليم﴾ يعني بما في قلوب عباده ﴿رحيم﴾ فيما فرض من فرائضه وأحكامه ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً﴾ يعني لا يرجو على إنفاقه ثواباً ولا يخاف على إمساكه عقاباً إنما ينفق خوفاً أو رياء. والمغرم: التزام ما لا يلزم. والمعنى: أن من الأعراب من يعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة لأنه لا ينفق ذلك إلا خوفاً من المسلمين أو مرآة لهم ولم يرد بذلك الإنفاق وجه الله وثوابه ﴿ويتربص﴾ يعني: وينتظر ﴿بكم الدوائر﴾ يعني بالدوائر تقلب الزمان

ولا تؤنّبوهم، ﴿ فأعْرِضُوا عنهم ﴾، فدعوهم، وما اختاروا لأنفسهم من النفاق، ﴿ إنهم رِجْسٌ ﴾ نجس أي: إن عملَهم قبيح، ﴿ ومأواهُمْ ﴾، في الآخرة، ﴿ جهنّمُ جزاءً بما كانـوا يكْسِبُون ﴾. قـال ابن عباس: نـزلت في جدّ بـن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين، فقال النبي ﷺ حين قَدِمَ المدينة: «لا تُجالِسُوهم ولا تُكلّموهم». وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أُبيّ حَلَفَ للنبي ﷺ بالله الذي لا إلّه إلّا هو لا يتخلّف عنه بعدها، وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية:

﴿ يحلِفُون لكم لِتَرْضَوْا عنهم فإن تَرضَوْا عنهم فإن الله لا يَرضى عنِ القومِ الفاسقين ﴾.

﴿ الأعرابُ ﴾، أي: أهل البدو، ﴿ أشدُّ كفراً ونِفَاقاً ﴾، من أهل الحضر، ﴿ وأجْدَرُ ﴾، أي: أخلق وأحرى، ﴿ ألّا يعلموا حُدُودَ ما أنزلَ اللّهُ على رسوله ﴾، وذلك لبُعدهم عن سماع القرآن ومعرفة السُّنن، ﴿ والله عليم ﴾، بما في قلوب خلقه، ﴿ حكيمٌ ﴾، فيما فرض من فرائضه.

﴿ ومِنَ الأعْرَابِ مَنْ يتخذُ ما يُنفقُ مَغْرَماً ﴾. قال عطاء: لا يرجون على إعطائه ثواباً ولا يخافون على إمساكه عقاباً إنما ينفق خوفاً ورياءً. والمغرم التزام ما لا يلزم. ﴿ ويَتَرَبَّصُ ﴾، وينتظر، ﴿ بكم الدّوائرَ ﴾، يعني: صروف الزمان التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر. وقال يمان بن رباب: يعني ينقلب الزمان عليكم فيموت الرسول ويظهر

وصروفه التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر. قال يمان بن رباب: يعني تقلب الزمان فيموت الرسول وتظهر المشركون ﴿عليهم دائرة السوء﴾ يعني: بل يتقلب عليهم الزمان ويدور السوء والبلاء والحزن بهم ولا يرون في محمد ﷺ وأصحابه ودينه إلا ما يسوءهم ﴿والله سميع﴾ يعني لأقوالهم ﴿عليم﴾ يعني بما يخفون في ضمائرهم من النفاق والغش وإرادة السوء للمؤمنين نزلت هذه الآية في أعراب أسد وغطفان وتميم ثم استثنى الله عز وجل فقال تبارك وتعالى:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾.

قال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة. وقال الكلبي: هم أسلم وغفار وجهينة (ق).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أرأيتم إن كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيراً من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة فقال رجل: خابوا وخسروا. قال: نعم هم خير من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة».

وفي رواية «أن الأقرع بن حابس قال للنبي ﷺ: إنما تابعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة. فقال النبي ﷺ: أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال: وجهينة خيراً من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان قال خابوا وخسروا قال نعم» (ق) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها» زاد مسلم في رواية له: أما إني لم أقلها لكن الله قالها (ق).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله» وقوله سبحانه وتعالى: **﴿ويتخذ ما ينفق قربات عند الله﴾** جمع قربة أي يطلب بما ينفق القربة إلى الله تعالى: **﴿وصلوات الرسول﴾** يعني ويرغبون في دعاء النبي ﷺ وذلك أن رسول الله ﷺ كان يدعو للمتصدقين

المشركون، **﴿ عليهم دائرةُ السَّوْءِ ﴾**، عليهم يدور البلاء والحزن ولا يرون في محمد ودينه إلّا ما يكرهون وما يسوءهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «دائـرة السـوء» ههنا وفي سورة الفتح بضم السين، معناه: الضرّ والبلاء والمكروه. وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر. وقيل: بالفتح الردّة والفساد، وبالضمّ الضرّ والمكروه. **﴿ واللّهُ سميعٌ عليم ﴾**، نزلت في أعراب أسد وغطفان وتميم. ثم استثنى فقال:

﴿ ومِنَ الأعراب مَن يُؤمنُ بالله واليومِ الآخر ﴾، قال مجاهد: هم بنو مقرن من مُزينة. وقال الكلبي: أسلم وغفار وجُهينة. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن عبد الله الظاهري أنبأنا جدّي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري أنبأنا إسحاق بن إبراهيم الديري أنبأنا عبد الرزّاق ثنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أسلمُ وغفارُ وشيءٌ من جُهينة ومُزينة خيرٌ عندَ اللّهِ يومَ القيامة مِن تميمٍ وأسد بن خزيمة وهوازن وغطفان». **﴿ ويتّخِذُ ما يُنفق قُرُبات عند الله ﴾**، القربات جمع القربة، أي: يطلب القربة إلى الله تعالى، **﴿ وصَلَواتِ الرسولِ ﴾**، أي: دعاءه واستغفاره، قال عطاء: يرغبون في دعاء النبي ﷺ. **﴿ ألاَ إنّها**

بالخير والبركة ويستغفر لهم ومنه قوله ﷺ «اللهم صل على آل أبي أوفى» ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ يحتمل أن يعود الضمير في إنها إلى صلوات الرسول ويحتمل أن يعود إلى الإنفاق وكلاهما قربة لهم عند الله وهذه شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات عند الله وصلوات الرسول له مقبولة عند الله لأن الله سبحانه وتعالى أكد ذلك بحرف التنبيه وهو قوله تعالى ألا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى إنها قربة لهم ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ وهذه النعمة هي أقصى مرادهم ﴿إن الله غفور﴾ للمؤمنين المنفقين في سبيله ﴿رحيم﴾ يعني بهم حيث وفقهم لهذه الطاعة.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ اختلف العلماء في السابقين الأولين فقال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة: هم الذين صلوا إلى القبلتين. وقال عطاء بن أبي رباح: هم أهل بدر. وقال الشعبي: هم أهل بيعة الرضوان وكانت بيعة الرضوان بالحديبية. وقال محمد بن كعب القرظي هم جميع الصحابة لأنهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله ﷺ. قال حميد بن زياد: قلت يوماً لمحمد بن كعب القرظي ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما بينهم وأردت الفتن فقال: إن الله قد غفر لجميعهم محسنهم ومسيئهم وأوجب لهم الجنة في كتابه فقلت له في أي موضع أوجب لهم الجنة فقال سبحان الله ألا تقرأ والسابقون الأولون إلى آخر الآية فأوجب الله الجنة لجميع أصحاب النبي ﷺ زاد في رواية في قوله والذين اتبعوهم بإحسان قال شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أعمالهم الحسنة دون السيئة. قال حميد: فكأني لم أقرأ هذه الآية قط. واختلف العلماء في أول الناس إسلاماً بعد اتفاقهم على أن خديجة أول الخلق إسلاماً وأول من صلى مع رسول الله ﷺ فقال بعض العلماء أول من آمن بعد خديجة علي بن أبي طالب وهذا قول جابر بن عبد الله ثم اختلفوا في سنة وقت إسلامه فقيل: كان ابن عشر سنين. وقيل: أقل من ذلك. وقيل: أكثر. وقيل: كان بالغاً. والصحيح، أنه لم يكن بالغاً وقت إسلامه. وقال بعضهم: أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس والنخعي والشعبي وقال الزهري وعروة بن الزبير: أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول أول من أسلم من الرجال أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان

﴿قُرْبَةٌ لهم﴾. قرأ نافع برواية ورش قربة بضم الراء، والباقون بسكونها. ﴿سَيُدْخِلُهم اللَّهُ في رحمتِهِ﴾، في جنته، ﴿إنَّ اللَّهَ غفورٌ رحيم﴾.

﴿والسّابقُون الأوّلون مِنَ المهاجرينَ والأنصار﴾ رفعٌ، عطفاً على قوله: ﴿والسابقون﴾، واختلفوا في السابقين، قال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة: هم الذين صلّوا إلى القِبلتين. وقال عطاء بن أبي رباح: هم أهل بدر. وقال الشعبي: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، وكانت بيعة الرضوان بالحديبية. واختلفوا في أول مَن آمن برسول الله ﷺ بعد امرأته خديجة، مع اتفاقهم على أنّها أولُ مَن آمن برسول الله ﷺ. فقال بعضهم: أول مَن آمن وصلّى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو قول جابر، وبه قال مجاهد وابن إسحاق، أسلم وهو ابن عشر سنين. وقال بعضهم: أول مَن آمن بعد خديجة أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وهو قول ابن عباس وإبراهيم النخعي والشعبي. وقال بعضهم: أول مَن أسلم زيد بن حارثة، وهو قول الزهري وعروة بن الزبير، وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الأقوال فيقول: أول مَن أسلم من الرجال أبو بكر رضي الله عنه، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن العبيد زيد بن حارثة. قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، وكان رجلاً محبباً سهلاً وكان أنسب قريش وأعلمها بما كان فيها، وكان تاجراً ذَا خُلقٍ ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه

علي بن أبي طالب، ومن العبيد زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهم فهؤلاء الأربعة سباق الخلق إلى الإسلام. قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا الناس إلى الله ورسوله وكان رجلاً محبباً سهلاً وكان أنسب قريش لقريش وأعلمها بما كان فيها وكان رجلاً تاجراً وكان ذا خلق حسن ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لعلمه وحسن مجالسته فجعل يدعو إلى الإسلام من يثق به من قومه فأسلم على يديه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى النبي ﷺ فأسلموا على يده وصلوا معه فكان هؤلاء النفر الثمانية أول من سبق الناس إلى الإسلام ثم تتابع الناس بعدهم في الدخول إلى الإسلام وأما السابقون من الأنصار فهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة وهي العقبة الأولى وكانوا ستة نفر[1] أسعد بن زرارة وعوف بن مالك ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر وجابر بن عبد الله بن رباب ثم أصحاب العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثني عشر رجلاً ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلاً منهم البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة فهؤلاء سباق الأنصار ثم بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير إلى أهل المدينة يعلمهم القرآن فأسلم على يده خلق كثير من الرجال والنساء والصبيان من أهل المدينة وذلك قبل أن يهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وقيل: إن المراد بالسابقين الأولين من سبق إلى الهجرة والنصرة والذي يدل عليه أن الله سبحانه وتعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين بماذا سبقوا فبقي اللفظ مجملاً فلما قال تعالى من المهاجرين والأنصار ووصفهم بكونهم مهاجرين وأنصاراً وجب صرف اللفظ المجمل إليه وهو الهجرة والنصرة والذي يدل عليه أيضاً أن الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية من حيث إن الهجرة أمر شاق على النفس لمفارقة الوطن والعشيرة وكذلك النصرة فإنها مرتبة عالية ومنقبة شريفة لأنهم نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم فلذلك أثنى الله عز وجل عليهم ومدحهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار**﴾ .

قوله تعالى: ﴿**والذين اتبعوهم بإحسان**﴾ قيل: هم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين فعلى هذا القول، يكون الجميع من الصحابة. وقيل: هم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والأنصار في الإيمان والهجرة والنصرة إلى يوم القيامة وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار فيترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم (ق) عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران فلا أدري

وحُسْن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام مَن وثق به من قومه، فأسلم على يديـه فيما بلغني عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين أسلموا وصلّوا، فكان هؤلاء الثمانية نفرُ الذين سبقوا إلى الإسلام، ثم تتابع الناس في الدخول في الإسلام، أما السّابقون من الأنصار فهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكانوا ستّة في العقبة الأولى وسبعين في الثانية، والذين آمنوا حين قَدِمَ عليهم أبو زُرارة مُصعب بن عُمير يعلّمهم القرآن، فأسلم معه خلق كثير وجماعة من النساء والصبيان. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **والسّابقون الأوّلونَ مِنَ المهاجرين** ﴾، الذينَ هاجروا قومَهم وعشيرتَهم وفارقوا أوطانهم. ﴿ **والأنصارِ** ﴾ أي: ومن الأنصار، وهم الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل المدينة وآووا أصحابه، ﴿ **والذين اتَّبعُوهم بإحسان** ﴾. قيل: بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأوّلين. وقيل: هم الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة أو النصرة إلى يوم القيامة. وقال عطاء: هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار بالترحّم والدعاء. وقال أبو صخر حميد بن زيادة: أتيتُ محمد بن كعب القرظي فقلت له: ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة مُحسِنهم ومُسيئهم، فقلت: من أين تقول هذا؟

---

(١) قوله ستة نفر المعدود هنا خمسة والسادس عقبة بن عامر كما في المواهب.

أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً (ق) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحداً وفي رواية أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

أراد بالقرن في الحديث الأول أصحابه. والقرن الأمة من الناس يقارن بعضهم بعضاً واختلفوا في مدته من الزمان. فقيل: من عشر سنين إلى عشرين. وقيل: من مائة إلى مائة وعشرين سنة. والمد: المذكور في الحديث الثاني هو ربع صاع. والنصيف: نصفه. والمعنى: لو أن أحداً عمل مهما قدر عليه من أعمال البر والإنفاق في سبيل الله ما بلغ هذا القدر اليسير التافه من أعمال الصحابة وإنفاقهم لأنهم أنفقوا وبذلوا المجهود في وقت الحاجة. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ يعني رضي الله عن أعمالهم ورضوا عنه بما جازاهم عليها من الثواب وهذا اللفظ عام يدخل فيه كل الصحابة ﴿وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾ ذكر جماعة من المفسرين المتأخرين كالبغوي والواحدي وابن الجوزي أنهم من أعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وكانت منازلهم حول المدينة ويعني ومن هؤلاء الأعراب منافقون وما ذكروه مشكل لأن النبي ﷺ دعا لهؤلاء القبائل ومدحهم فإن صح نقل المفسرين فيحمل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾ على القليل لأن لفظة من للتبعيض ويحمل دعاء النبي ﷺ لهم على الأكثر والأغلب وبهذا يمكن الجمع بين قول المفسرين ودعاء النبي ﷺ لهم. وأما الطبري، فإنه أطلق القول ولم يعين أحداً من القبائل المذكورة بل قال في تفسير هذه الآية: من القوم الذين حول مدينتكم أيها المؤمنون من الأعراب منافقون ومن أهل مدينتكم أيضاً أمثالهم أقوام منافقون وقال البغوي: ﴿ومن أهل المدينة﴾ من الأوس والخزرج منافقون ﴿مردوا على النفاق﴾ فيه تقديم وتأخير تقديره وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق يعني مرنوا عليه يقال تمرد فلان على ربه إذا عتا وتجبر ومنه الشيطان المارد وتمرد في معصيته أي مرن وثبت عليها واعتادها ولم يتب منها قال ابن إسحاق: لجوا فيه وأبوا غيره. وقال ابن زيد: أقاموا عليه ولم يتوبوا منه ﴿لا تعلمهم﴾ يعني أنهم بلغوا في النفاق إلى حيث أنك لا تعلمهم يا محمد مع صفاء خاطرك واطلاعك على الأسرار ﴿نحن نعلمهم﴾ يعني لكن نحن نعلمهم لأنه لا تخفى علينا خافية وإن دقت ﴿سنعذبهم مرتين﴾ اختلف المفسرون في

قال: اقْرأْ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿ والسّابِقُون الأوّلونَ مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ ﴾ إلى أن قال: ﴿ رَضِيَ اللّهُ عنهم ورَضُوا عنه ﴾، وقال: ﴿ والذين اتّبعُوهم بإحسان ﴾، شرط في التابعين شريطة وهي أن يتّبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة. قال أبو صخر: فكأني لم أقرأ هذه الآية قطّ. ورُوِيَ أن النبي ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا أصحابي فوالذي نفسي بيدِهِ لو أنّ أحدَكم أنفقَ مثلَ أحدٍ ذهباً ما أدركَ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفه». ثم جمعهم الله عزّ وجلّ في الثواب فقال: ﴿ رَضِيَ اللّهُ عنهم ورَضُوا عنه وأعدّ لهم جنّاتٍ تَجري تَحتِهـا الأنهار ﴾، قرأ ابن كثير: «مِـن تحتها الأنهـار»، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة، ﴿ خالدين فيها أبداً ذلك الفوزُ العظيم ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وممّن حولكم مِّنَ الأعرابِ مُنَافِقُون ﴾، وهم من مُزينة وجُهينة وأشجع وأسلم وغفار كانت منازلهم حول المدينة، يقول: من هؤلاء الأعراب منافقون، ﴿ ومِنْ أهلِ المدينة ﴾، أي: ومن أهل المدينة من الأوس والخزرج قوم منافقون، ﴿ مَرَدُوا على النّفاقِ ﴾، أي: مرنوا على النفاق، يقال: تمرّد فلان على ربِّه أي:

العذاب الأول مع اتفاقهم على العذاب الثاني هو عذاب القبر بدليل قوله ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار في الآخرة فثبت بهذا أنه سبحانه وتعالى يعذب المنافقين ثلاث مرات مرة في الدنيا ومرة في القبر ومرة في الآخرة أما المرة الأولى وهي التي اختلفوا فيها فقال الكلبي والسدي «قام النبي ﷺ خطيباً في يوم جمعة فقال اخرج يا فلان فإنك منافق اخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج من المسجد أناساً وفضحهم» فهذا هو العذاب الأول.

والثاني: هو عذاب القبر فإن صح هذا القول فيحتمل أن يكون بعد أن أعلمه الله حالهم وسماهم له لأن الله سبحانه وتعالى قال لا تعلمهم نحن نعلمهم ثم بعد ذلك أعلمه بهم. وقال مجاهد: هذا العذاب الأول هو القتل والسبي وهذا القول ضعيف، لأن أحكام الإسلام في الظاهر كانت جارية على المنافقين فلم يقتلوا ولم يسبوا وعن مجاهد رواية أخرى أنهم عذبوا بالجوع مرتين. وقال قتادة: المرة الأولى هي الدبيلة في الدنيا وقد جاء تفسيرها في الحديث بأنها خراج من نار تظهر في أكتافهم حتى تنجم من صدورهم يعني تخرج من صدورهم. وقال ابن زيد: الأولى هي المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا والأخرى عذاب القبر. وقال ابن عباس: الأولى إقامة الحدود عليهم في الدنيا والأخرى عذاب القبر. وقال ابن إسحاق: الأولى هي ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه كرهاً غير حسبة والأخرى عذاب القبر. وقيل: إحداهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، والأخرى عذاب القبر. وقيل: الأولى إحراق مسجدهم مسجد الضرار، والأخرى إحراقهم بنار جهنم وهو قوله سبحانه وتعالى: ثم يردون إلى عذاب جهنم يخلدون فيه.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم قوم من المنافقين تابوا من نفاقهم وأخلصوا وحجة هذا القول أن قوله تعالى وآخرون عطف على قوله وممن حولكم من الأعراب منافقون والعطف موهم ويعضده ما نقله الطبري. عن ابن عباس أنه قال: هم الأعراب. والقول الثاني: وهو قول جمهور المفسرين إنها نزلت في جماعة من المسلمين من أهل المدينة تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك.

واختلف المفسرون في عددهم فروي عن ابن عباس أنهم كانوا عشرة منهم أبو لبابة وروي أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم كانوا ثمانية أحدهم أبو لبابة وقال قتادة والضحاك: كانوا سبعة

عتا: لجوا فيه وأبوا غيره. وقال ابن زيد: أقاموا عليه ولم يتوبوا، ﴿لا تعلمُهُمْ﴾، أنت يا محمد، ﴿نحنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مرّتَينِ﴾، اختلفوا في هذين العذابين، قال الكلبي والسدي: قام النبي ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «اخْرُجْ يا فلان فإنّك منافق، أخرجَ ناساً من المسجد وفضحهم، فهذا هو العذاب الأول. والثاني: عذاب القبر». وقال مجاهد: الأول القتل والسبي، والثاني عذاب القبر. وعنه رواية أخرى: عُذِّبُوا بالجوع مرتين. وقال قتادة: الدبيلة في الدنيا وعذاب القبر. وقال ابن زيد: الأولى المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا، والأخرى عذاب الآخر. وعن ابن عباس: الأولى إقامة الحدود عليهم، والأخرى في عذاب القبر. وقال ابن إسحاق: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسبة عذاب القبر. وقيل: أحدهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، والآخر عذاب القبر. وقيل: الأولى إحراق مسجد الضرار، والأخرى إحراقهم بنار جهنم. ﴿ثم يُرَدُّونَ إلى عذابٍ عظيمٍ﴾، أي: عذاب جهنم يخلدون فيه.

قوله تعالى: ﴿وآخَرُونَ﴾، أي: ومن أهل المدينة أو من الأعراب آخرون، ولا يرجع هذا إلى المنافقين، ﴿اعْتَرَفُوا﴾، أقرّوا، ﴿بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عملاً صالحاً﴾، وهو إقرارهم بذنوبهم وتوبتهم، ﴿وآخر سيئاً﴾، أي:

أحدهم أبو لبابة. وقيل: كانوا ثلاثة: أبو لبابة بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، وديعة بن حزام، وذلك أنهم كانوا تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ثم ندموا بعد ذلك وتابوا وقالوا أنكون في الظلال ومع النساء ورسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد واللأواء؟ فلما رجع رسول الله ﷺ من سفره وقرب من المدينة قالوا: والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقنا ويعذرنا فربطوا أنفسهم في سواري المسجد فلما رجع النبي ﷺ مرَّ بهم فرآهم فقال: من هؤلاء؟ فقالوا: هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم فقال رسول الله ﷺ: وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين. فأنزل الله عز وجل هذه الآية فأرسل رسول الله ﷺ إليهم فأطلقهم وعذرهم فلما أطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك خذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال رسول الله ﷺ: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً. فأنزل الله: خذ من أموالهم صدقة تطهرهم الآية. وقال قوم: نزلت هذه الآية في أبي لبابة خاصة واختلفوا في ذنبه الذي تاب منه فقال مجاهد: نزلت في أبي لبابة حين قال لبني قريظة: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقه فندم على ذلك وربط نفسه بسارية. وقال: والله لا أحل نفسي ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه، فأنزل الله هذه الآية فقيل له قد تيب عليك فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني فجاء رسول الله ﷺ فحله بيده فقال أبو لبابة: يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ فقال يجزيك الثلث يا أبا لبابة. قالوا جميعاً فأخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم وترك لهم الثلثين لأن الله سبحانه وتعالى قال: خذ من أموالهم ولم يقل خذ أموالهم. لأن لفظة «من» تقتضي التبعيض. وقال الحسن وقتادة: وهؤلاء سوى الثلاثة الذين تخلفوا وسيأتي خبرهم.

أما تفسير الآية: فقوله تعالى: وآخرون اعترفوا بذنوبهم قال أهل المعاني: الاعتراف عبارة عن الإقرار بالشيء ومعناه أنهم أقروا بذنبهم وفيه دقيقة وهي أنهم لم يعتذروا عن تخلفهم بأعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على أنفسهم بذنوبهم وندموا على ما فعلوا.

فإن قلت: الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا؟

قلت: مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة فإذا اقترن الاعتراف بالندم على الماضي من الذنب والعزم على تركه في المستقبل يكون ذلك الاعتراف والندم توبة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً**﴾ قيل: أراد بالعمل الصالح إقرارهم بالذنب وتوبتهم

بعمل آخر سيء، وضع الواو موضع الباء، كما يُقال: خلطتُ الماءَ واللبن، أي: باللبن. والعملُ السيء هو تخلّفهم عن رسول الله ﷺ، والعمل الصالح هو ندامتهم وربطهم أنفسهم بالسواري، وقيل: غزواتُهم مع النبي ﷺ، ﴿**عَسَى اللَّهُ أَنْ يتوبَ عليهمْ إنّ اللَّهَ غفورٌ رحيمٌ**﴾، نزلت هذه الآية في قوم تخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم نَدِمُوا على ذلك، وقالوا: يكونون في الظلال مع النساء ورسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد واللّأواء فلما قرب رسول الله ﷺ من المدينة قالوا: والله لَنُوثِقَنّ أنفسَنَا بالسواري فلا نُطلقها حتى يكونَ رسول الله ﷺ هو الذي يطلقنا، ويعذُرُنا فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد فلما رجع رسول الله ﷺ مرّ بهم فرآهم فقال: مَنْ هؤلاء؟ فقالوا: هؤلاء الذين تخلّفوا عنك فعاهدُوا اللّهَ عزّ وجلّ أن لا يُطلقوا أنفسَهم حتى تكون أنت تطلقهم وترضى عنهم، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أُومر بإطلاقهم، لأنهم رغبوا عنّي وتخلّفوا عن الغزو مع

منه والعمل السيىء هو تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ. وقيل: العمل الصالح هو خروجهم مع رسول الله ﷺ إلى سائر الغزوات والسيىء هو تخلفهم عنه في غزوة تبوك. وقيل: إن العمل الصالح يعم جميع أعمال البر والطاعة والسيىء ما كان ضده فعلى هذا تكون الآية في حق جميع المسلمين والحمل على العموم أولى وإن كان السبب مخصوصاً بمن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك.

وروى الطبري عن أبي عثمان قال ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله وآخرون اعترفوا بذنوبهم.

فإن قلت قد جعل كل واحد من العمل الصالح والسيىء مخلوطاً فما المخلوط به.

قلت: إن الخلط عبارة عن الجمع المطلق فأما قولك خلطته فإنما يحسن في الموضع الذي يمتزج كل واحد من الخليطين بالآخر ويتغير به عن صفته الأصلية كقولك خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن فتنوب الواو عن الباء فيكون معنى الآية على هذا خلطوا عملاً صالحاً بآخر ذكره غالب المفسرين وأنكره الإمام فخر الدين الرازي. وقال: اللائق بهذا الموضع الجمع المطلق لأن العمل الصالح والعمل السيىء إذا حصلا معاً بقي كل واحد منهما على حاله كما هو مذهبنا فإن عندنا القول بالإحباط باطل فالطاعة تبقى موجبة للمدح والثواب والمعصية تبقى موجبة للذم والعقاب فقوله سبحانه وتعالى خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيه تنبيه على نفي القول بالمحابطة وأنه بقي كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر فليس إلا الجمع المطلق. وقال الواحدي: العرب تقول خالطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن كما تقول جمعت زيداً وعمراً. والواو في الآية أحسن من الباء لأنه أريد معنى الجمع لا حقيقة الخلط. ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسيىء كما يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما وقوله سبحانه وتعالى: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ قال ابن عباس وجمهور المفسرين: عسى من الله واجب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى: فعسى الله أن يأتي بالفتح وقد فعل ذلك. وقال أهل المعاني: لفظة عسى هنا تفيد الطمع والإشفاق لأنه أبعد من الاتكال والإهمال.

وقيل: إن الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء بل كل ما يفعله على سبيل التفضل والتطول والإحسان فذكر

المسلمين، فأنزل الله هذه الآية فأرسل إليهم رسول الله ﷺ فأطلقهم وعذرهم، فلما أطلقوا قالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التي خلّفتْنَا عنك فتصدَّقْ بها وطهِّرْنَا واستغفرْ لنا فقال رسول الله ﷺ: «ما أُمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فأنزل الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صدقةً ﴾ [التوبة: ١٠٣] الآية، واختلفوا في عدد هؤلاء التائبين، فرُوِيَ عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانوا عشرة منهم أبو لبابة. ورَوَى عطية عنه: أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة. وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: كانوا ثمانية. وقال الضحاك وقتادة: كانوا سبعة. وقالوا جميعاً: أحدهم أبو لبابة. وقال قوم: نزلت في أبي لبابة خاصة. واختلفوا في ذنبه، قال مجاهد: نزلت في أبي لبابة حين قال لقريظة: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقه: وقال الزهري: نزلت في تخلّفه عن غزوة تبوك فربط نفسه بسارية، وقال: والله لا أحِلّ نفسي ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموتَ أو يتوبَ الله عليّ، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرَّ مغشيّاً عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقيل له: قد تِيْبَ عليك، فقال: والله لا أحلّ نفسي حتى يكونَ رسولُ الله ﷺ هو الذي يحلّني، فجاء النبي ﷺ فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: «يُجزيك يا أبا لبابة الثلث» قالوا جميعاً: فأخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم، وترك الثلثين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ خُذْ مِنْ أموالِهم ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولم يقل: خذ أموالهم. قال الحسن وقتادة: هؤلاء سوى الثلاثة الذين خُلِّفوا.

لفظة عسى التي هي للترجي والطمع حتى يكون العبد بين الترجي والإشفاق ولكن هو إلى نيل ما يرجوه منه أقرب لأنه ختم الآية بقوله ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وهذا يفيد إنجاز الوعد قوله سبحانه وتعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾. قال ابن عباس: لما أطلق رسول الله ﷺ أبا لبابة وصاحبيه انطلق أبو لبابة وصاحبه فأتوا بأموالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: خذ أموالنا وتصدق بها عنا وصل علينا يريدون استغفر لنا وطهرنا. فقال رسول الله ﷺ: لا آخذ شيئاً منها حتى أومر به، فأنزل الله عز وجل: خذ من أموالهم صدقة الآية، وهذا قول زيد بن أسلم وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك. ثم اختلف العلماء في المراد بهذه الصدقة فقال بعضهم: هو راجع إلى هؤلاء الذين تابوا وذلك أنهم بذلوا أموالهم صدقة فأوجب الله سبحانه وتعالى أخذها وصار ذلك معتبراً في كمال توبتهم لتكون جارية مجرى الكفارة. وأصحاب هذا القول يقولون ليس المراد بها الصدقة الواجبة. وقال بعضهم: إن الزكاة كانت واجبة عليهم فلما تابوا من تخلفهم عن الغزو وحسن إسلامهم وبذلوا الزكاة أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يأخذها منهم وقال بعضهم إن الآية كلام مبتدأ والمقصود منها إيجاب أخذها من الأغنياء ودفعها إلى الفقراء وهذا قول أكثر الفقهاء واستدلوا بها على إيجاب أخذ الزكاة.

أما حجة أصحاب القول الأول، فإنهم قالوا: إن الآيات لا بد وأن تكون منتظمة متناسبة فلو حملناها على أخذ الزكاة الواجبة، لم يبق لهذه الآية تعلق بما قبلها ولا بما بعدها، ولأن جمهور المفسرين ذكروا في سبب نزولها أنها نزلت في شأن التائبين وأما أصحاب القول الأخير فإنهم قالوا: المناسبة حاصلة أيضاً على هذا التقدير وذلك أنهم لما تابوا وأخلصوا وأقروا أن السبب الموجب للتخلف وحب المال أمروا بإخراج الزكاة التي هي طهرة فلما أخرجوها علمت صحة قولهم وصحة توبتهم. ولا يمنع من خصوص السبب عموم الحكم فإن قالوا: إن الزكاة قدر معلوم لا يبلغ ثلث المال وقد أخذ منهم ثلث أموالهم قلنا: لا يمنع هذا صحة ما قلناه لأنهم رضوا ببذل الثلث من أموالهم فلأن يكونوا راضين بإخراج الزكاة أولى. ثم في هذه الآية أحكام: الأول قوله سبحانه وتعالى: خذ من أموالهم صدقة، الخطاب فيه للنبي ﷺ أي خذ يا محمد من أموالهم صدقة فكان النبي ﷺ يأخذها منهم أيام حياته ثم أخذها من بعده الأئمة فيجوز للإمام أو نائبه أن يأخذ الزكاة من الأغنياء ويدفعها إلى الفقراء.

الحكم الثاني: قوله من أموالهم، ولفظة «من» تقتضي التبعيض وهذا البعض المأخوذ غير معلوم ولا مقدر بنص القرآن فلم يبق إلا الصدقة التي بيَّن رسول الله ﷺ قدرها وصفتها في أخذ الزكاة.

الحكم الثالث: ظاهر قوله خذ من أموالهم صدقة يفيد العموم فتجب الزكاة في جميع المال حتى في الديون وفي مال الركاز.

قوله تعالى: ﴿ **خُذْ مِنْ أموالِهم صدقةً تُطهِّرُهُمْ** ﴾، بها من ذنوبهم، ﴿ **وتُزَكِّيهِمْ بها** ﴾، أي ترفعهم من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين. وقيل: تنمّي أموالهم ﴿ **وصَلِّ عليهِمْ** ﴾، أي: أدْعُ لهم واستغفرْ لهم. وقيل: هو قول الساعي للمصدِّق إذا أخذ الصدقة منه: آجرَكَ اللَّهُ فيما أعطيتَ وبارَكَ لكَ فيما أبقيتَ. والصلاةُ في اللغة: الدعاء. ﴿ **إنّ صلاتَك** ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «صلاتَك» على التوحيد ونصب التاء ههنا، وفي سورة هود [٨٧] ﴿ أصلاتك﴾ وفي سورة المؤمنين [٢] ﴿ على صلاتهم ﴾ كلهنّ على التوحيد، وَافَقَهُما حفصٌ ههنا وفي سورة هود [٨٧]، وقرأ الآخرون بالجمع فيهنّ وكسر التاء هاهنا وفي سورة المؤمنين [٢]، ولا خلاف في التي في الأنعام [٩٢]: ﴿ وهُمْ على صلاتِهم يُحافظون ﴾ والتي في المعارج [٢٣]: ﴿ وهم على

الحكم الرابع: ظاهر قوله تطهرهم، أن الزكاة إنما وجبت لكونها طهرة من الآثام وصدور الآثام لا يمكن حصولها إلا من البالغ دون الصبي فوجب أن تجب الزكاة في مال البالغ دون الصبي وهذا قول أبي حنيفة ثم أجاب أصحاب الشافعي: بأنه لا يلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقاً.

وللعلماء في قوله سبحانه وتعالى تطهرهم أقوال:

الأول: أن معناه خذ يا محمد من أموالهم صدقة فإنك تطهرهم بأخذها من دنس الآثام.

القول الثاني: أن يكون تطهرهم متعلقاً بالصدقة تقديره خذ من أموالهم صدقة فإنها طهرة لهم وإنما حسن جعل الصدقة مطهرة لما جاء أن الصدقة من أوساخ الناس فإذا أخذ الصدقة فقد اندفعت تلك الأوساخ وكان ذلك الاندفاع جارياً مجرى التطهير: فعلى هذا القول يكون قوله سبحانه وتعالى وتزكيهم بها متقطعاً عن قوله تطهرهم ويكون التقدير: خذ يا محمد من أموالهم صدقة تطهرهم تلك الصدقة وتزكيهم أنت بها.

القول الثالث: أن تجعل التاء في قوله تطهرهم وتزكيهم ضمير المخاطب ويكون المعنى تطهرهم أنت يا محمد بأخذها منهم وتزكيهم أنت بواسطة تلك الصدقة.

القول الرابع: أن معناه تطهرهم من ذنوبهم وتزكيهم يعني ترفع منازلهم عن منازل المنافقين إلى منازل الأبرار المخلصين وقيل معنى وتزكيهم أي تنمي أموالهم ببركة أخذها منهم.

الحكم الخامس: قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وصل عليهم**﴾ يعني ادع لهم واستغفر لهم لأن أصل الصلاة في اللغة الدعاء. قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: السنة للإمام إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق فيقول: آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت. وقال بعضهم: يجب على الإمام أن يدعو للمتصدق. وقال بعضهم: يستحب ذلك. وقيل: يجب في صدقة الفرض ويستحب في صدقة التطوع. وقيل: يجب على الإمام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطي. وقال بعضهم: يستحب أن يقول اللهم صلِّ على فلان. ويدل عليه ما روي عن عبد الله بن أبي أوفى وكان من أصحاب الشجرة قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: اللهم صلِّ عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن صلاتك**﴾ وقرىء: صلواتك على الجمع ﴿**سكن لهم**﴾ يعني إن دعاءك رحمة لهم. وقال ابن عباس: طمأنينة لهم. وقيل: إن الله قد قبل منهم. وقال أبو عبيدة: تثبيت لقلوبهم. وقيل: إن السكن ما سكنت إليه النفس والمعنى إن صلواتك توجب سكون نفوسهم إليها والمعنى أن الله قد قبل توبتهم أو قبل زكاتهم

صلاتهم دائمون﴾ إنها جميعاً على التوحيد. ﴿ **سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾، أي: إن دعاءك رحمة لهم. قاله ابن عباس. وقيل: طمأنينة لهم وسكون لهم أن الله عزّ وجلّ قد قَبِلَ منهم. وقال أبو عبيدة: تثبيتٌ لقلوبهم. ﴿ **واللَّهُ سميعٌ عليمٌ** ﴾، واختلفوا في وجوب الدعاء على الإمام عند أخذ الصدقة. قال بعضهم: يجب. وقال بعضهم: يُستحب. وقال بعضهم: يجب في صدقة الفرض ويستحب في صدقة التطوّع. وقيل: يجب على الإمام ويستحبّ للفقير أن يدعو للمعطي. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم بن أبي إياس ثنا شعبة عن عمرو بن مرّة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوْفى وكان من أصحاب الشجرة قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أتاه قومُه بصدقةٍ قال: «اللّهمَّ صلِّ عليهم»، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللّهمَّ صلِّ على آل أبي أوْفى»، وقال ابن كيسان: ليس هذا في صدقة الفرض إنما هو لصدقة كفّارة اليمين. وقال عكرمة: هي صدقة الفرض، فلما نزلت توبة هؤلاء قال الذين لم يتوبوا من المتخلّفين: هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يُكَالَمُون ولا

﴿والله سميع﴾ يعني لأقوالهم أو لدعائك لهم ﴿عليم﴾ يعني بنياتهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ
ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ هذه صيغة استفهام إلا أن المقصود منه التقرير فبشر الله عز وجل هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ومعنى الآية ألم يعلم الذين تابوا أن الله تعالى يقبل التوبة الصادقة والصدقة الخالصة. وقيل: إن المراد بهذه الآية غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة وبذل الصدقات وذلك أنه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين: هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يكلمون ولا يجالسون فما بالهم اليوم فأنزل الله هذه الآية ترغيباً لهم في التوبة. وقوله سبحانه وتعالى عن عباده قيل: لا فرق بين عن عباده ومن عباده إذ لا فرق بين قولك أخذت هذا العلم عنك أو منك. وقيل: بينهما فرق ولعل عن في هذا الموضع أبلغ لأن فيه تبشيراً بقبول التوبة مع تسهيل سبيلها وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ويأخذ الصدقات﴾ يعني يقبلها ويثيب عليها وإنما ذكر لفظ الأخذ ترغيباً في بذل الصفقة وإعطائها الفقراء وقيل معنى أخذ الله الصدقات تضمنه الجزاء عليها.

ولما كان هو المجازي عليها والمثيب بها، أسند الأخذ إلى نفسه وإن كان الفقير أو السائل هو الآخذ لها وفي هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وأن الله تعالى يقبلها من عبده المتصدق (ق).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله» لفظ مسلم. وفي البخاري: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب». وفي رواية: «ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل» وأخرجه الترمذي ولفظه: «إن الله سبحانه وتعالى يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى اللقمة لتصير مثل جبل أحد» وتصديق ذلك في كتاب الله سبحانه وتعالى: ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويمحق الله الربا ويربى الصدقات. وقوله: من كسب طيب. أي: حلال. وذكر اليمين والكف في الحديث كناية عن قبول الصدقة وأن الله سبحانه وتعالى قد قبلها من المعطي، لأن من عادة الفقير أو السائل، أخذ الصدقة بكفه اليمين، فكأن المتصدق قد وضع صدقته في القبول والإثابة. وقوله: فتربو أي تكبر. يقال: ربا الشيء يربو إذا زاد وكبر. والفُلو: بضم الفاء وفتحها لغتان المهر أول ما يولد والفصيل ولد الناقة إلى أن ينفصل عنها.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾ تأكيد لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ وتبشير لهم بأن الله هو التواب الرحيم.

يُجَالَسُون، فما لهم؟ وذلك أن النبي ﷺ لمّا رجع إلى المدينة نهى المؤمنين عن مكالمة المنافقين ومجالستهم.

﴿ أَلَمْ يعلموا أنّ الله هو يَقْبَلُ التَّوبَةَ عن عبادِه ويأخُذُ الصَّدَقاتِ ﴾، أي: يقبلها، ﴿ وأنّ اللّهَ هو التوّابُ الرّحيمُ ﴾. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان أنبأنا الشافعي أنبأنا سفيان بن عيينة عن ابن عجلان عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة قال: سمعتُ أبا القاسم ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده ما من عبد يتصدّق بصدقةٍ من كسب طيّبٍ، ولا يقبلُ اللّهُ إلّا طيباً ولا يَصْعَدُ إلى السماءِ إلا طيّبٌ إلّا كأنما يضعها في يد الرحمن عزّ وجلّ فيُربّيها له كما يُربّي أحدكم فَلْوَه، حتى

قوله عز وجل: ﴿وقل﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء التائبين ﴿اعملوا﴾ يعني لله بطاعته وأداء فرائضه ﴿فسيرى الله عملكم﴾ فيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال اجتهدوا في العمل في المستقبل فإن الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها ﴿ورسوله والمؤمنون﴾ يعني ويرى رسول الله ﷺ والمؤمنون أعمالكم أيضاً.

أما رؤية رسول الله ﷺ فباطلاع الله إياه على أعمالكم. وأما رؤية المؤمنين، فبما يقذف الله عز وجل في قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المذنبين ﴿وستردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ يعني: وسترجعون يوم القيامة إلى من يعلم سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه شيء من بواطنكم وظواهركم ﴿فينبئكم﴾ أي فيخبركم ﴿بما كنتم تعملون﴾ يعني في الدنيا من خير أو شر فيجازيكم عن أعمالكم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وآخرون مرجون﴾ أي مؤخرون والإرجاء التأخير ﴿لأمر الله﴾ يعني لحكم الله فيهم قال بعضهم إن الله سبحانه وتعالى قسم المتخلفين على ثلاثة أقسام:

أولهم: المنافقون وهم الذين مردوا على النفاق واستمروا عليه.

والقسم الثاني: التائبون وهم الذين سارعوا إلى التوبة بعد ما اعترفوا بذنوبهم وهم أبو لبابة وأصحابه فقبل الله توبتهم.

والقسم الثالث: موقوفون ومؤخرون إلى أن يحكم الله تعالى فيهم وهم المراد بقوله: وآخرون مرجون لأمر الله. والفرق بين القسم الثاني والقسم الثالث، أن القسم الثاني سارعوا إلى التوبة فقبل الله توبتهم، والقسم الثالث توقفوا ولم يسارعوا إلى التوبة فأخر الله أمرهم.

نزلت هذه الآية في الثلاثة الذين تخلفوا وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وستأتي قصتهم عند قوله تعالى: وعلى الثلاثة الذين خلفوا وذلك أنهم لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه فوقفهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة ونهى الناس عن كلامهم وكانوا من أهل بدر، فجعل بعض الناس يقول هلكوا وبعضهم يقول: عسى الله أن يتوب عليهم ويغفر لهم وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿إما يعذبهم وإما يتوب

أنّ اللّقمةَ لتأتي يومَ القيامة وإنّها لمثلِ الجبلِ العظيم، ثم قرأ: ﴿ إنّ اللّهَ هو يقبلُ التوبةَ عنْ عبادِهِ ويأخُذُ الصدقاتِ ﴾.

قوله تعالى: **﴿ وقل اعْمَلُوا فسَيَرى اللّهُ عملَكُمْ ورَسُولُهُ والمؤمنُون، وسَتُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيبِ والشّهادَةِ فيُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُم تَعْمَلُون ﴾**، قال مجاهد: هذا وعيد لهم. قيل: رؤية للنبي ﷺ بإعلام الله تعالى إيّاه، ورؤية المؤمنين بإيقاع المحبة في قلوبهم لأهل الصلاح، والبغضة لأهل الفساد.

قوله تعالى: **﴿ وآخَرُونَ مُرْجَونَ لأمر اللّهِ إمّا يُعذِّبُهم وإمّا يتوبُ عليهم واللّهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾**. قرأ أهل المدينة والكوفة غير أبي بكر: «مرجـون» بغير همز، والآخرون بالهمز، والإرجاء: التأخير، مرجون: مؤخرون لأمر الله: لحكم الله عزّ وجلّ فيهم، وهم الثلاثة الذين تأتي قصتهم من بعدُ: كعب بن مالك وهلال بن أميّة ومرارة بن الربيع، لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه، فوقفهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم، حتى شقّهم القلق وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وكانوا من أهل بدر فجعل أُناسٌ يقولون: هلكوا وآخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم، فصاروا مرجئين لأمر الله لا يدرون أيعذبهم أم يرحمهم، حتى نزلت توبتهم بعد خمسين ليلة.

عليهم﴾ يعني أن أمرهم إلى الله تعالى إن شاء عذبهم بسبب تخلفهم وإن شاء غفر لهم وعفا عنهم ﴿والله عليم﴾ يعني بما في قلوبهم ﴿حكيم﴾ يعني بما يقضي عليهم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً﴾ نزلت في جماعة من المنافقين بنوا مسجداً يضارّون به مسجد قباء وكانوا اثني عشر رجلاً من أهل النفاق وديعة بن ثابت وخذام بن خالد ومن داره أخرج هذا المسجد وثعلبة بن حاطب وجارية بن عمرو وابناه مجمع وزيد ومعتب بن قشير وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف وأبو حبيبة بن الأزعر ونبتل بن الحرث وبجاد بن عثمان وبحزج بنوا هذا المسجد ضراراً يعني مضارة للمؤمنين وكفراً يعني ليكفروا فيه بالله ورسوله ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ لأنهم كانوا جميعاً يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة وكان يصلي بهم فيه مجمع بن جارية وكان شاباً يقرأ القرآن ولم يدر ما أرادوا ببنائه، فلما فرغوا من بنائه، أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا وتصلي فيه وتدعو لنا بالبركة فقال رسول الله ﷺ: إني على جناح سفر ولو قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا فيه.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله﴾ يعني أنهم بنوا هذا المسجد للضرار والكفر وبنوه إرصاداً يعني انتظاراً وإعداداً لمن حارب الله ورسوله ﴿من قبل﴾ يعني من قبل بناء هذا المسجد وهو أبو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وتنصر، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال له أبو عامر ما هذا الدين الذي جئت به؟ فقال له النبي ﷺ: جئت بالحنيفية دين إبراهيم. فقال أبو عامر: فأنا عليها. فقال النبي ﷺ: إنك لست عليها. قال أبو عامر: بلى ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها فقال النبي ﷺ: ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية. فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طويداً وحيداً غريباً فقال النبي ﷺ: آمين

قوله تعالى: ﴿ والذّينَ اتَّخَذُوا ﴾، قرأ: أهل المدينة والشام «الـذين» بلا واو وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الآخرون بالواو، ﴿ مسجداً ضِراراً ﴾، نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين بنوا مسجداً يضارّون به مسجدَ قباء، وكانوا اثني عشر رجلاً من أهل النفاق، وديعة بن ثابت وخذام بن خالد، ومن داره أخرج هذا المسجد، وثعلبة بن حاطب وحارثة بن عمرو، وابناه مجمع وزيد، ومعتب بن قشير وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف، وأبو حبيبة بن الأزعر ونبتل بن الحارث، وبحاد بن عثمان، ورجل يقال له بحذج، بنوا هذا المسجد ضراراً يعني مضارّة للمؤمنين، ﴿ وكُفْراً ﴾، بالله ورسوله، ﴿ وتَفْرِيقاً بينَ المؤمنين ﴾، لأنهم كانوا جميعاً يصلّون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلّي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة، وكان يصلّي بهم مجمع بن حارثة، فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهّز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة، والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنّا نحبّ أن تأتينا وتصلّي بنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني على جناح سفر ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلّينا لكم فيه». ﴿ وإرْصَاداً لمَنْ حاربَ اللّهَ ورسولَهُ مِنْ قبلُ﴾، أي: انتظار وإعداد لمَن حارب الله ورسوله. يقال: أرصدت له إذا عددت له. وهو أبو عامر الراهب وكان أبو عامر هذا رجلاً منهم وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، وكان قد ترهّب في الجاهلية وتنصّر ولبس المسوح، فلما قَدِمَ النبي ﷺ المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الذي جئتَ به؟ قال: «جئت بالحنيفية دين إبراهيم»، قال أبو عامر: فإنّا

وسماه الناس: أبا عامر الفاسق. فلما كان يوم أحد، قال أبو عامر الفاسق للنبي ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن، يئس أبو عامر وخرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء، فذلك وقوله: سبحانه وتعالى: ﴿وإرصاداً﴾ يعني انتظاراً لمن حارب الله ورسوله يعني أبا عامر الفاسق ليصلي فيه إذا رجع من الشام من قبل يعني أن أبا عامر الفاسق حارب الله ورسوله من قبل مسجد الضرار ﴿وليحلفن﴾ يعني الذين بنوا المسجد ﴿إن أردنا﴾ يعني ما أردنا ببنائه ﴿إلا الحسنى﴾ يعني إلا الفعلة الحسنى وهي: الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن الصلاة في مسجد قباء أو مسجد الرسول ﷺ ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ يعني في قيلهم وحلفهم.

روي أن النبي ﷺ لما انصرف من تبوك راجعاً نزل بذي أوان وهو موضع قريب من المدينة فأتاه المنافقون وسألوه أن يأتي مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فأنزل الله هذه الآية وأخبره خبر مسجد الضرار وما هموا به فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشياً فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه، فخرجوا مسرعين حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك: أنظروني حتى أخرج إليكم بنار، فدخل أهله فأخذ من سعف النخل فأشعله ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فأحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله وأمر رسول الله ﷺ أن يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة.

مات أبو عامر الراهب بالشام غريباً وحيداً. وروي أن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن

عليها، فقال له النبي ﷺ: «إنك لستَ عليها»، قال: بلى لكنّك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها، فقال النبي ﷺ: «ما فعلتُ ولكنّي جئتُ بها بيضاءَ نقية»، فقال أبو عامر: أماتَ الله الكاذبَ منّا طريداً وحيداً غريباً، فقال النبي ﷺ: «آمين». وسمّاه أبا عامر الفاسق، فلما كان يوم أُحُد قال أبو عامر لرسول الله ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلّا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنين، فلما انهزمت هوازن يئس وخرج هارباً إلى الشام فأرسل إلى المنافقين أنِ استعدّوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، وابْنُوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتِ بجندٍ من الروم، فأُخرج محمداً وأصحابه من المدينة، فبنوا مسجدَ الضرار إلى جنب مسجد قباء، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ ورسولَه من قَبْلُ ﴾، وهو أبو عامر الفاسق ليصلّي فيه إذا رجع من الشام. قوله: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ يرجع إلى أبي عامر يعني حارب الله ورسوله من قبل أي: من قبل بناء مسجد الضرار، ﴿ ولَيَحْلِفُنَّ إنْ أَرَدْنَا ﴾، ما أردنا ببنائه، ﴿ إلّا الحُسْنَى ﴾، إلّا الفعلة الحسنى وهو الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن السير إلى مسجد رسول الله ﷺ، ﴿ واللّهُ يشهدُ إنَّهم لكاذِبُون ﴾، في قولهم وحلفهم. رُوِيَ أنه لمّا انصرف رسول الله ﷺ من تبوك ونزل بذي أَوان موضع قريب من المدينة أتوه فسألوه إتيان مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن وأخبره الله تعالى خبر مسجد الضرار وما همّوا به، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشياً قاتل حمزة، وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه فاهدمُوه واحرقوه، فخرجوا سريعاً حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك: أنظروني حتى أخرج إليكم بنار من أهلي فدخل أهله فأخذ سعافاً من النخل وأشعل فيه ناراً، ثم خرجوا يشتدّون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه وتفرّق عنه أهله، وأمر النبي ﷺ أن يُتّخذ ذلك كناسة تلقى فيه الجيف والنتن والقمامة. ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيداً فريداً غريباً. ورُوِيَ أن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب

الخطاب في خلافته، فسألوه أن يأذن لمجمع بن جارية أن يؤمهم في مسجدهم. فقال: لا ولا نعمة عين أليس هو إمام مسجد الضرار؟ قال مجمع: يا أمير المؤمنين لا تعجل عليّ فوالله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم فيه وكنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً لا يقرؤون فصليت بهم ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله ولو أعلم ما في أنفسهم فعذره عمر فصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء.

قال عطاء: لما فتح الله على عمر بن الخطاب الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم أن لا يبنوا في موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر وقوله سبحانه وتعالى:

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (١٠٨)

﴿**لا تقم فيه أبداً**﴾ قال ابن عباس: معناه لا تصلّ فيه أبداً منع الله عز وجل نبيه ﷺ أن يصلي في مسجد الضرار ﴿**لمسجد أسس على التقوى**﴾ اللام فيه لام الابتداء. وقيل: لام القسم تقديره والله مسجد أسس يعني بني أصله ووضع أساسه على التقوى يعني على تقوى الله عز وجل ﴿**من أول يوم**﴾ يعني من أول يوم بني ووضع أساسه كان ذلك البناء على التقوى ﴿**أحق أن تقوم فيه**﴾ يعني مصلياً واختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى فقال عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري هو مسجد رسول الله ﷺ يعني مسجد المدينة ويدل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري قال: «دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت يا رسول الله أي المسجدين أسس على التقوى؟ قال فأخذ كفاً من حصى فضرب به الأرض ثم قال: هو مسجدكم هذا مسجد المدينة» أخرجه مسلم (ق).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي» (ق) عن عبد الله بن زيد قال قال رسول الله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال «إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة» أخرجه النسائي قوله رواتب يعني: ثوابت. يقال: رتب بالمكان إذا قام فيه وثبت. وفي رواية عن ابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة أنه مسجد قباء ويدل عليه سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين**﴾ ويدل على أنهم أهل قباء ما روي عن أبي

في خلافته ليأذن لمجمع بن حارثة فيؤمّهم في مسجدهم، فقال: لا ولا نعمت عين أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال له مجمع: يا أمير المؤمنين لا تعجّل عليّ فواللهِ لقد صلّيت فيه وإني لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو علمتُ ما صلّيتُ معهم فيه، كنتُ غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون القرآن فصلّيت ولا أُحبّ إلّا أنهم يتقرّبون إلى الله تعالى، ولم أعلم ما في أنفسهم فعذره عمر وصدّقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء. وقال عطاء لمّا فتح الله على عمر الأمصار: أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم أنْ لا يبنوا في مدينتهم مسجدين يضارّ أحدهما صاحبه.

قوله تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أبداً ﴾، قال ابن عباس: «لا تُصلِّ فيه» منعَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يصلّي في مسجد الضِّرار. ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقوَى ﴾، اللام لام الابتداء. وقيل: لام القسم، تقديره: والله لمسجدٌ أُسِّس أي: بُني أصله على التقوى، ﴿ مِنْ أَوّلِ يومٍ ﴾، أي: من أول يوم بُنِيَ ووُضِع أساسه، ﴿ أَحقُّ أنْ تقومَ فيهِ ﴾، مصلياً واختلفوا في المسجد الذي أُسِّس على التقوى، فقال ابن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري: هو مسجد المدينة مسجد الرسول ﷺ، والدليل عليه ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا محمد بن حاتم ثنا يحيىٰ بن

هريرة «قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت هذه الآية فيهم» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث غريب. هكذا ذكره صاحب جامع الأصول من رواية أبي داود والترمذي موقوفاً على أبي هريرة ورواه البغوي من طريق أبي داود مرفوعاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ومما يدل على فضل مسجد قباء ما روي عن ابن عمر قال: «كان النبي ﷺ يزور قباء أو يأتي قباء راكباً وماشياً» زاد في رواية فيصلي فيه ركعتين وفي رواية «أن رسول الله ﷺ كان يأتي مسجد قباء كل سبت راكباً وماشياً وكان ابن عمر يفعله» أخرج الرواية الأولى والزيادة البخاري ومسلم وأخرج الرواية الثانية البخاري عن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله ﷺ «من خرج حتى يأتي هذا المسجد مسجد قباء فيصلي فيه كان له كعدل عمرة» أخرجه النسائي عن أسد بن ظهير أن النبي ﷺ قال الصلاة في مسجد قباء كعمرة» أخرجه الترمذي.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ يعني من الأحداث والجنابات وسائر النجاسات وهذا قول أكثر المفسرين. قال عطاء: ولما كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة وروى الطبري بسنده عن عويمر بن ساعدة وكان من أهل بدر، قال: قال رسول الله ﷺ لأهل قباء «إني أسمع الله عز وجل قد أحسن عليكم الثناء في الطهور فما هذا الطهور» قالوا: يا رسول الله ما نعمل شيئاً إلا أن جيراناً لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا. وعن قتادة قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال لأهل قباء «إن الله سبحانه وتعالى قد أحسن عليكم بالثناء في الطهور فما تصنعون؟ قالوا: إنا نغسل عنا أثر الغائط والبول» وقال الإمام فخر الدين الرازي: المراد من هذه الطهارة الطهارة من الذنوب والمعاصي وهذا القول متعين لوجوه:

الأول: أن التطهر من الذنوب هو المؤثر في القرب من الله عز وجل واستحقاق ثوابه ومدحه.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والتفريق بينهم والكفر بالله وكون هؤلاء يعني أهل قباء بالضد من صفاتهم وما ذاك إلا لكونهم مبرئين من الكفر والمعاصي وهي الطهارة الباطنية.

سعيد عن حميد الخراط قال: سمعتُ أبا سلمة عبد الرحمن قال: مرّ بي عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري قال: فقلت له كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى؟ فقال: قال أبي: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول الله أيّ المسجدين الذي أُسِّسَ على التقوى. قال: فأخذ كفّاً من الحصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا مسجد المدينة»، قال: فقلت: أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره وأخبرنا أبو الحسن الشيرازي أنبأنا زاهر بن أحمد أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي أنبأنا أبو مصعب عن مالك عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي». وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء وهو رواية عطية عن ابن عباس وهو قول عروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا موسى بن إسماعيل ثنا عبد العزيز بن مسلم عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً، وكان عبد الله بن عمر يفعله، وزاد نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ فيصلّي فيه ركعتين. قوله تعالى: ﴿ فيه رجالٌ يُحبُّونَ أن يَتطهَّرُوا ﴾، من الأحداث والجنابات والنجاسات. وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة. أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز الفاشاني أنبأنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي أنبأنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي حدّثنا أبو داود

الوجه الثالث: أن طهارة الظاهر إنما يحصل لها أثر عند الله إذا حصلت الطهارة الباطنية من الكفر والمعاصي وقيل يحتمل أنه محمول على كلا الأمرين يعني طهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصي وطهارة الظاهر من الأحداث والنجاسات بالماء ﴿**والله يحب المطهرين**﴾ فيه مدح لهم وثناء عليهم والرضا عنهم بما اختاروه لأنفسهم من المداومة على محبة الطهارة.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان**﴾ يعني طلب ببنائه المسجد الذي بناه تقوى الله ورضاه. والمعنى: أن الباني لما بنى ذلك البناء كان قصده تقوى الله وطلب رضاه وثوابه ﴿**خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف** هار﴾ الشفا: هو الشفير وشفا كل شيء حرفه ومنه يقال: أشفى على كذا إذا دنا منه وقرب أن يقع فيه. والجرف: المكان الذي أكل الماء تحته فهو إلى السقوط قريب وقال أبو عبيد: الجرف هو الهوة وما يجرفه السيل من الأودية فينحفر بالماء فيبقى واهياً هار أي هائر وهو الساقط فهو من هار يهور فهو هائر وقيل: هو من هاريها إذا تهدم وسقط وهو الذي تداعى بعضه في أثر بعض كما يهار الرمل والشيء الرخو ﴿**فانهار به**﴾ يعني سقط بالباني ﴿**في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ والمعنى أن بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهله فيها. وهذا مثل ضربه الله تعالى للمسجدين مسجد الضرار ومسجد التقوى مسجد قباء أو مسجد الرسول ﷺ ومعنى المثل: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهو الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه خير أم من أسس دينه على أضعف القواعد وأقلها بقاء وثباتاً وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل بناء على غير أساس ثابت وهو شفا جرف هار وإذا كان كذلك كان أسرع إلى السقوط في نار جهنم ولأن الباني الأول قصد ببنائه تقوى الله ورضوانه فكان بناؤه أشرف البناء، والباني الثاني قصد ببنائه الكفر والنفاق وإضرار المسلمين فكان بناؤه أخسّ البناء وكانت عاقبته إلى نار جهنم.

سليمان بن الأشعث السجستاني أنا محمد بن العلاء حدّثنا معاوية بن هشام عن يونس بن الحارث عن إبراهيم بن أبي ميمونة عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء»: ﴿ **فيه رجالٌ يُحبّون أن يتطهّروا** ﴾، قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية. ﴿ **واللّهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِين** ﴾، أي المتطهرين.

﴿ **أفَمَنْ أسَّسَ بُنْيانَه** ﴾ قرأ نافع وابن عامر «أُسِّسَ» بضم الهمزة وكسر السين، ﴿ **بُنيانُه** ﴾ برفع النون فيهما جميعاً على غير تسمية الفاعل. وقرأ الآخرون «أسّس» بفتح الهمزة والسين «بنيانه» بنصب النون على تسمية الفاعل. ﴿ **على تقوى مِّنَ اللَّهِ ورِضْوَانٍ خيرٌ** ﴾، أي: على طلب التقوى ورضا الله تعالى خيرٌ ﴿ **أمْ مَّنْ أَسَّسَ بنيانه على شفَا** ﴾، أي: على شفير، ﴿ **جُرُفٍ** ﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر «جُـرْف» ساكنة الراء، وقرأ الباقون بضمّ الراء وهما لغتان، وهي البئر التي لم تطوَ، قال أبو عبيدة: هو الهوّة وما يجرفه السّيل من الأودية فيتجرف بالماء فيبقى واهياً، ﴿ **هَارٍ** ﴾، أي: هائر وهو الساقط يقال هار يهور فهو هائر، ثم يقلب فيقال: هار مثل شاك وشائك وعاق وعائق. وقيل: هو مَن هار بها إذا انهدم، ومعناه الساقط الذي يتداعى بعضه في إثر بعض كما ينهار الرمل والشيء الرخو. ﴿ **فانْهَارَ به** ﴾، أي: سقط بالباني ﴿ **في نارِ جهنَّمَ** ﴾، يريد بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهلها فيها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد صيّرهمُ النفاقُ إلى النار. ﴿ **واللّهُ لا يهدي القومَ الظالمين** ﴾، قال قتادة: والله ما تناهى أن وقع في النار، وذكر لنا أنه حفرت بقعة فيه، فرُؤِيَ الدخان يخرج

قال ابن عباس: صيرهم نفاقهم إلى النار. وقال قتادة: والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع في النار ولقد ذكر لنا أنه حفرت بقعة منه فرؤي الدخان يخرج منها. وقال جابر بن عبد الله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة﴾ يعني شكاً ونفاقاً **﴿في قلوبهم﴾** والمعنى: أن ذلك البنيان صار سبباً لحصول الريبة في قلوبهم، لأن المنافقين فرحوا ببناء مسجدهم، فلما أمر رسول الله ﷺ بتخريبه، ثقل ذلك عليهم وازدادوا غماً وحزناً وبغضاً لرسول الله ﷺ فكان سبب الريبة في قلوبهم. وقيل: إنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون في بنائه كما حبب العجل إلى بني إسرائيل فلما أمر رسول الله ﷺ بتخريبه، بقوا شاكّين مرتابين لأي سبب أمر بتخريبه. وقال السدي: لا يزال هدم بنيانهم ريبة أي حرارة وغيظاً في قلوبهم **﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾** أي تجعل قلوبهم قطعاً وتفرق أجزاء إما بالسيف وإما بالموت. والمعنى: أن هذه الريبة باقية في قلوبهم إلى أن يموتوا عليها **﴿والله عليم﴾** يعني بأحوالهم وأحوال جميع عباده **﴿حكيم﴾** يعني فيما حكم به عليهم. قوله عز وجل: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾** الآية قال محمد بن كعب القرظي: لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلاً قال عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. قال أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قالوا إذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل. فنزلت **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾** قال ابن عباس: بالجنة. قال أهل المعاني لا يجوز أن يشتري الله شيئاً هو له في الحقيقة لأن المشتري إنما يشتري ما لا يملك والأشياء كلها ملك الله عز وجل، ولهذا قال الحسن: أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا إياها لكن جرى هذا مجرى التلطف في الدعاء إلى الطاعة والجهاد، وذلك لأن المؤمن إذا قاتل في سبيل الله حتى يقتل أو أنفق ماله في سبيل الله عوّضه الله

منها، وقال جابر بن عبد الله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار.

﴿ لا يزالُ بُنيانُهُمُ الذي بَنَوْا رِيبَةً ﴾، أي: شكّاً ونفاقاً، **﴿ في قلوبهم ﴾**، يحسبون أنهم كانوا في بنائه مُحسنين كما حُبِّب العجل إلى قوم موسى. قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقال الكلبي: حسرة وندامة لأنهم ندموا على بنائه. وقال السدي: لا يزال هدم بنيانهم ريبةً وحزازةً وغيظاً في قلوبهم. **﴿ إلّا أنْ تَقَطَّعَ قلوبُهم ﴾**، أي: تتصدّع قلوبهم فيموتوا. وقرأ ابن عامر وأبو جعفر وحفص وحمزة «تقطع» بفتح التاء أي: تتقطع، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، وقرأ الآخرون «تقطع» بضمّ التاء من التقطيع، وقرأ يعقوب وحده «إلى أن» بتخفيف اللام على الغاية، وقرأ الباقون «إلّا أن» بتشديد اللام على الاستثناء، ويدلّ على قراءة يعقوب تفسير الضحاك وقتادة: لا يزالون في شكٍّ منه وندامة إلى أن يموتوا فحينئذ يستيقنوا. **﴿ واللّهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾**.

قوله تعالى: **﴿ إنّ اللّهَ اشترَى مِنَ المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم ﴾**، قال محمد بن كعب القرظي: لمّا بايعتِ الأنصارُ رسولَ الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً، قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «أشترط لربّي عزّ وجلّ أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما

الجنة في الآخرة جزاء لما فعل في الدنيا فجعل ذلك استبدالاً واشتراء فهذا معنى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة والمراد باشتراء الأموال إنفاقها في سبيل الله وفي جميع وجوه البر والطاعة ﴿**يقاتلون في سبيل الله**﴾ هذا تفسير لتلك المبايعة. وقيل: فيه معنى الأمر أي قاتلوا في سبيل الله ﴿**فيقتلون ويقتلون**﴾ يعني: فيقتلون أعداء الله ويقتلون في طاعته وسبيله ﴿**وعداً عليه حقاً**﴾ يعني ذلك الوعد بأن لهم الجنة وعداً على الله حقاً ﴿**في التوراة والإنجيل والقرآن**﴾ يعني أن هذا الوعد الذي وعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله قد أثبته في التوراة والإنجيل كما أثبته في القرآن وفيه دليل على أن الأمر بالجهاد موجود في جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل ﴿**ومن أوفى بعهده من الله**﴾ يعني لا أحد أوفى بالعهد من الله ﴿**فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به**﴾ فاستبشروا أيها المؤمنون بهذا البيع الذي بايعتم الله به ﴿**وذلك**﴾ يعني هذا البيع ﴿**هو الفوز العظيم**﴾ لأنه رابح في الآخرة. قال عمر بن الخطاب: إن الله بايعك وجعل الصفقتين لك وقال الحسن: اسمعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن وعنه قال: إن الله سبحانه وتعالى أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها. وقال قتادة: ثامَنهم فأغلى لهم.

التَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**التائبون**﴾ قال الفراء: استؤنف لفظ التائبون بالرفع لتمام الآية الأولى وانقطاع الكلام.

وقال الزجاج: التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر. والمعنى: التائبون إلى آخره لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا غير معاندين ولا قاصدين بترك الجهاد وهذا وجه حسن فكأنه وعد بالجنة جميع المؤمنين. كما قال تعالى: وكلا وعد الله الحسنى ومن جعله تابعاً للأول، كان الوعد بالجنة خاصاً بالمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات،

تمنعون منه أنفسَكم وأموالكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «الجنة»، قالوا: رَبِحَ البيعُ لا نقيلُ ولا نستقيل فنزلت: ﴿ **إنّ اللّهَ اشتَرى مِنَ المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهمُ الجنّةُ** ﴾، وقرأ الأعمش «بالجنة» ﴿ **يُقاتِلُونَ في سبيلِ الله فيقتُلُون ويُقتَلُون** ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «فيقتلون» بضم الياء وفتح التاء «ويقتلون» بفتح الياء وضم التاء على تقديم فعل المفعول على فعل الفاعل، يعني: يُقتل بعضهُم ويقتل الباقون، وقرأ الباقون «فيقتلون» بفتح الياء وضمّ التاء «ويقتلون» بضم الياء وفتح التاء على تقديم فعل الفاعل على ما فعل المفعول. والوجه أنهم يقتلون الكفّار أولاً ثم يستشهدون، هذا الوجه أظهر والقراءة به أكثر. ﴿ **وَعْداً عليهِ حقّاً** ﴾ أي: ثواب الجنّة لهم وعدٌ وحقٌّ ﴿ **في التوراة والإنجيل والقرآن** ﴾، يعني أنّ اللّهَ عزّ وجلّ وعدهم هذا الوعد وبيّنه في هذه الكتب، وفيه دليل على أن أهل المِلَل كلهم أُمروا بالجهاد على ثواب الجنة، ثم هنّأهم فقال: ﴿ **ومَنْ أوْفَى بعهدِه مِنَ اللّهِ فاستبشِرُوا** ﴾، فافرحوا ﴿ **ببيعِكُم الذي بايَعْتُم بهِ وذلكَ هو الفوزُ العظِيم** ﴾، قال عمر رضي الله عنه: إنّ الله عزّ وجلّ بايعك وجعل الصفقتين لك وقال قتادة: ثامَنَهُم اللّهُ عزّ وجلّ فأغْلَى لهم، وقال الحسن: اسعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن. وعنه أنه قال: إن الله أعطاك الدنيا فاشترِ الجنة ببعضها، ثم وصفهم فقال:

﴿ **التائِبُون** ﴾، قال الفرّاء: استُؤنِفَتْ بالرفع لتمام الآية وانقطاع الكلام. وقال الزجّاج: التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر المعنى التائبون إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً أي: مَن لم يجاهد غير معاند ولا قاصد لترك الجهاد،

فيكون رفع التائبون على المدح يعني المؤمنين المذكورين في قوله: إن الله اشترى. وأما التفسير: فقوله سبحانه وتعالى التائبون يعني الذين تابوا من الشرك وبرئوا من النفاق. وقيل: التائبون من كل معصية فيدخل فيه التوبة من الكفر والنفاق. وقيل: التائبون من جميع المعاصي، لأن لفظ التائبين لفظ عموم فيتناول الكل. واعلم أن التوبة المقبولة إنما تحصل بأمور أربعة: أولها احتراق القلب عند صدور المعصية، وثانيها الندم على فعلها فيما مضى، وثالثها العزم على تركها في المستقبل، ورابعها أن يكون الحامل له على التوبة طلب رضوان الله وعبوديته فإن كان غرضه بالتوبة تحصيل مدح الناس له ودفع مذمتهم فليس بمخلص في توبته. ﴿العابدون﴾ يعني المطيعين لله الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم وقيل هم الذين أتوا بالعبادة على أقصى وجوه التعظيم لله تعالى وهي أن تكون العبادة خالصة لله تعالى: ﴿الحامدون﴾ يعني الذين يحمدون الله تعالى على كل حال في السراء والضراء.

روى البغوي بغير سند عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة، الذين يحمدون الله في السراء والضراء. وقيل: هم الذين يحمدون الله ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا وأخرى ﴿السائحون﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: هم الصائمون. قال سفيان بن عيينة: إنما سمي الصائم سائحاً لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح. وقال الأزهري: قيل للصائم سائح لأن الذي يسيح في الأرض متعبداً لا زاد معه فكان ممسكاً عن الأكل وكذلك الصائم ممسك عن الأكل. وقيل: أصل السياحة استمرار الذهاب في الأرض كالماء الذي يسيح والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المنهي وقال عطاء: السائحون هم الغزاة المجاهدون في سبيل الله ويدل عليه ما روي عن عثمان بن مظعون قال قلت يا رسول الله ائذن لي في السياحة. فقال: إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ذكره البغوي بغير سند. وقال عكرمة: السائحون هم طلبة العلم لأنهم ينتقلون من بلد إلى بلد في طلبه وقيل إن السياحة لها أثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين أخلاقها لأن السائح لا بد أن يلقى أنواعاً من الضر والبؤس ولا بد له من الصبر عليها ويلقى العلماء والصالحين في سياحته فيستفيد منهم ويعود عليه من بركتهم ويرى العجائب وأثار قدرة الله تعالى فيتفكر في ذلك فيدله على وحدانية الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته ﴿الراكعون الساجدون﴾ يعني المصلين وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود، لأنهما معظم أركانها وبهما يتميز المصلي من غير المصلي بخلاف حالة القيام والقعود لأنهما حالة المصلي وغيره ﴿الآمرون بالمعروف﴾ يعني يأمرون الناس بالإيمان بالله وحده ﴿والناهون

لأنّ بعض المسلمين يُجزي عن بعض في الجهاد، فمَن كانت هذه صفته فله الجنة أيضاً، وهذا أحسن فكأنه وعدَ الجنّةَ لجميع المؤمنين، كما قال: ﴿ وكلاً وعَدَ اللَّهُ الحسنى ﴾ [النساء: ٩٥]، فمَن جعله تابعاً للأول فلهم الوعد بالجنة أيضاً، وإن كان الوعد بالجنة للمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات. قوله: ﴿ التائبون ﴾ أي: الذين تابوا من الشرك وبرؤوا من النفاق، ﴿ العابِدُون ﴾ المطيعون الذين أخلصوا العبادة لله عزّ وجلّ ﴿ الحامِدُون ﴾، الذين يحمدون الله على كل حال في السرّاء والضرّاء. وروينا عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «أول مَن يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمِدُون الله في السرّاء والضرّاء». ﴿ السّائحُون ﴾، قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: هم الصائمون. وقال سفيان بن عيينة: إنّما سُمّيَ الصائمُ سائحاً لتركه اللذّات كلها من المطعم والمشرب والنكاح. وقال عطاء: السائحون الغزاة المجاهدون في سبيل الله. رُوِيَ عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه ائذن لي في السياحة، فقال: (إن سياحة أُمتي الجهاد في سبيل الله). وقال عكرمة: السائحون هم طلبة العلم. ﴿ الرّاكِعُون الساجِدُون ﴾، يعني: المصلّين، ﴿ الآمِرُونَ بالمعرُوف ﴾، بالإيمان، ﴿ والناهُونَ عن المُنكرِ ﴾ عن الشرك. وقيل: المعروف السُّنّة والمنكر البدعة. ﴿ والحافِظُونَ لحدودِ اللَّهِ ﴾، القائمون بأوامر الله. وقال الحسن: أهل الوفاء ببيعة الله. ﴿ وبشّرِ المؤمنين ﴾.

عن المنكر﴾ يعني عن الشرك بالله. وقيل: إنهم يأمرون الناس بالحق في أديانهم واتباع الرشد والهدى والعمل الصالح وينهونهم عن كل قول وفعل نهى الله عباده عنه أو نهى عنه رسول الله ﷺ قال الحسن: أما أنهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من أهله ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه وأما دخول الواو في والناهون عن المنكر فإن العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله سبحانه وتعالى: وثامنهم كلبهم وقوله تعالى في صفة الجنة: وفتحت أبوابها. وقيل: فيه وجه آخر وهو أن الموصوفين بهذه الصفات الست هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، فعلى هذا يكون قوله تعالى التائبون إلى قوله الساجدون مبتدأ خبره الآمرون يعني هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴿والحافظون لحدود الله﴾ قال ابن عباس: يعني القائمين بطاعة الله وقال الحسن: الحافظون لفرائض الله وهم أهل الوفاء ببيعة الله. وقيل: هم المؤدون فرائض الله المنتهون إلى أمره ونهيه فلا يضيعون شيئاً من العمل الذي ألزمهم به ولا يرتكبون منهياً نهاهم عنه ﴿وبشر المؤمنين﴾ يعني بشر يا محمد المصدقين بما وعدهم الله به إذا وفوا الله تعالى بعهده فإنه موف لهم بما وعدهم من إدخال الجنة. وقيل: وبشر من فعل هذه الأفعال التسع وهو قوله تعالى التائبون إلى آخر الآية بأن له الجنة وإن لم يغز.

قوله عز وجل: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾ الآية واختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية فقال قوم: نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ والد علي وذلك أن النبي ﷺ أراد أن يستغفر له بعد موته فنهاه الله عن ذلك ويدل على ذلك ما روي عن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حزن «قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة: أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قالوا: أبو طالب آخر ما كلمهم أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى وأنزل الله في أبي طالب «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» أخرجاه في الصحيحين.

فإن قلت قد استبعد بعض العلماء نزول هذه الآية في شأن أبي طالب وذلك أن وفاته كانت بمكة أول الإسلام ونزول هذه السورة بالمدينة وهي من آخر القرآن نزولاً.

﴿ ما كان للنبيِّ والذينَ آمنُوا أنْ يستغفرُوا للمشركين ﴾، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، قال قوم: سبب نزولها ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهري حدّثني سعيد بن المسيب عن أبيه. قال: لمّا حضرتْ أبا طالب الوفاةُ جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أُمية بن المغيرة فقال: أيْ عمّ قلْ لا إله إلاّ الله كلمة أحاجُّ لكَ بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُميّة بن المغيرة: أترغب عن ملّة عبد المطّلب؟ فلم يزلْ رسولُ الله ﷺ يَعْرِضُها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: أنا على مِلّةِ عبد المطّلب، وأَبَى أنْ يقول: لا إله إلاّ الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنكَ»، فأنزل الله تعالى: ﴿ ما كانَ للنبيِّ والذينَ آمنُوا أن يستغفرُوا للمشركينَ ولو كانُوا أولي قُرْبَى مِنْ بعدِ مَا تبيّنَ لهم أنّهم أصحابُ الجَحِيم ﴾، وأنزل في أبي طالب: ﴿ إنّكَ لا تهدي مَن أحبَبْتَ ولكنَّ الله يهدي مَنْ يشاءُ ﴾ [القصص: ٥٦]. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني محمد بن حاتم بن ميمون ثنا يحيىٰ بن سعيد ثنا يزيد بن كيسان حدّثني أبو حازم

«قلت الذي نزل في أبي طالب قوله تعالى إنك لا تهدي من أحببت فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» كما في الحديث فيحتمل أنه ﷺ كان يستغفر له في بعض الأوقات إلى أن نزلت هذه الآية فمنع من الاستغفار والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (م).

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ لعمه عند الموت: «قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة فأبى فأنزل الله إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» الآية وفي رواية قال: «لولا تعيرني قريش يقولونْ إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله الآية» (ق).

«عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ وذكر عنده عمه طالب فقال «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه تغلى منه أم دماغه» وفي رواية: «يغلى منه دماغه من حرارة نعليه» (ق) عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ قال: «قلت يا رسول الله ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال: هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» وفي رواية قال قلت يا رسول الله إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل ينفعه ذلك قال «نعم وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح» وقال أبو هريرة وبريدة «لما قدم النبي ﷺ مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» الآية وروى الطبري بسنده عن بريدة: «أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قال وأكثر ظني أنه قال قبر أمه فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً فقلنا: يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت قال إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يؤذن لي فما رؤي باكياً أكثر من يومئذ».

وحكى ابن الجوزي «عن بريدة قال إن النبي ﷺ مر بقبر أمه فتوضأ وصلى ركعتين ثم بكى فبكى الناس لبكائه ثم انصرف إليهم فقالوا: ما أبكاك؟ قال: مررت بقبر أمي فصليت ركعتين ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها فنهيت فبكيت ثم عدت فصليت ركعتين فاستأذنت ربي أن أستغفر لها فزجرت زجراً فأبكاني ثم دعا براحلته فركبها فما سار إلا هنيهة حتى قامت الناقة لثقل الوحي فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى» الآية (ق) «عن أبي هريرة قال زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت» وقال قتادة قال النبي ﷺ: «لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه» فأنزل الله هذه الآية وروى الطبري بسنده عنه قال: «ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالذمم أفلا نستغفر لهم فقال

الأشجعي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله لعمّه أبي طالب: «قلْ لا إلَه إلاّ الله أشهدُ لكَ بها يوم القيامة» فقال: لولا أن تعيِّرني قريشٌ فيقولون إنّما حمله على ذلك الجزع لأقررتُ بها عينكَ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ إنّكَ لا تهدي مَن أحببتَ ولكنّ اللَّهَ يهدي مَنْ يشاءُ ﴾ [القصص: ٥٦]. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن يوسف حدّثني الليث عن يزيد بن الهاد عن عبد الله بن خباب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبيَّ ﷺ وذُكِرَ عنده عمُّه أبو طالب، فقال: «لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضَحْضَاح مِنَ النار يبلغُ كعبيه يغلي منه دماغه»، وقال أبو هريرة وبريدة: لمّا قَدِمَ رسول الله ﷺ مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت: ﴿ ما كان للنبيِّ والذينَ آمنُوا أنْ يستغفرُوا للمشركين ﴾ الآية. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر ثنا عبد الغافر بن محمد ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة

النبي ﷺ بلى والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه فأنزل الله عز وجل ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» الآية ثم عذر الله إبراهيم فقال تعالى وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه الآية عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت له أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية أخرجه النسائي والترمذي. وقال: حديث حسن وأخرجه الطبري. وقال فيه: فأنزل الله عز وجل وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه الآية ومعنى الآية ما كان ينبغي للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وليس لهم ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا يغفر للمشركين ولا يجوز أن يطلب منه ما لا يفعله ففيه النهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى لأن النهي عن الاستغفار للمشركين عام فيستوي فيه القريب والبعيد ثم ذكر عز وجل سبب المنع فقال تعالى: ﴿**من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم**﴾ يعني تبين لهم أنهم ماتوا على الشرك فهم من أصحاب الجحيم وأيضاً فقد قال تبارك وتعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به والله تعالى لا يخلف وعده أما قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

﴿**وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه**﴾ فمعناه وما كان طلب إبراهيم لأبيه المغفرة من الله إلا من أجل موعدة وعدها إبراهيم إياه أن يستغفر له رجاء إسلامه قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «لما أنزل الله خبراً عن إبراهيم» أنه قال سلام عليك سأستغفر لك ربي سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان فقلت أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال أولم يستغفر إبراهيم لأبيه فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فأنزل الله عز وجل: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم﴾ إلى قوله إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك» يعني أن إبراهيم ليس بقدوة في

أنبأنا محمد بن عبي عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال زار النبي ﷺ قبرَ أمِّه فبكى وأبكى مَن حوله فقال: «استأذنتُ ربّي عزّ وجلّ في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذِنَ لي فزوروا القبور، فإنها تُذكّر الموت» قال قتادة: قال النبيُّ ﷺ: «لأستغفرنَّ لأبي. كما استغفرَ إبراهيم لأبيه» فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ **ما كان للنبيّ والذينَ آمنُوا أنْ يستغفرُوا للمشركين ولو كانُوا أُولي قُرْبى مِنْ بعدِ ما تبيّنَ لهم أنّهم أصحابُ الجحيم** ﴾، وقال عليّ بــن أبي طالب رضي الله عنه: لمّا أنزل الله عزّ وجلّ خبراً عن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه: ﴿ سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لكَ ربّي ﴾ [مريم: ٤٧] سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان، فقلت له: تستغفر لهما وهما مشركان؟! فقال: أوَلم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فأتيت النبيَّ ﷺ فذكرتُ ذلك له فأنزلَ الله عزّ وجلّ: ﴿ قدْ كانَتْ لكم أُسْوَةٌ حسنةٌ في إبراهيم ﴾ [الممتحنة ٤]، إلى قوله: ﴿ إلّا قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستغفرنّ لك ﴾ [الممتحنة: ٤].

قوله تعالى: ﴿ **وما كانَ استغفارُ إبراهيم لأبيـه إلاّ عَنْ مَوعِدةٍ وعدَهَا إيّاه** ﴾، قال بعضهم: الهاء في إياه عائدة إلى إبراهيم عليه السلام. والوعد كان من أبيه، وذلك أن أباه كان وعده أن يسلم، فقال له إبراهيم: سأستغفر لك ربي يعني إذا أسلمتَ. وقال بعضهم: الهاء راجعة إلى الأب وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه. وهو قوله: ﴿ سأستغفرُ لكَ ربّي ﴾ [مريم: ٤٧]، يدلّ عليه قراءة الحسن: «وعدهـا أبـاه»، بالباء الموحدة، والدليل على أن الوعد من إبراهيم وكان الاستغفار في حال شرك الأب قوله تعالى: ﴿ قد كانتْ لكم أُسْوَةٌ حسنةٌ في

هذا الاستغفار لأنه إنما استغفر لأبيه وهو مشرك لمكان الوعد الذي وعده أن يسلم ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ فعلى هذا الهاء في إياه راجعة إلى إبراهيم والوعد كان من أبيه وذلك أن أبا إبراهيم وعد إبراهيم أن يسلم فقال إبراهيم: سأستغفر لك ربي يعني إذا أسلمت. وقيل: إن الهاء راجعة إلى الأب وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه. ويؤكد هذا قوله: سأستغفر لك ربي ويدل عليه أيضاً قراءة الحسن وعدها أباه بالباء الموحدة فلما تبين له أنه عدو لله، تبرأ منه يعني: فلما ظهر لإبراهيم وبان له أن أباه عدو لله يعني بموته على الكفر تبرأ منه عند ذلك وقيل يحتمل أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى إبراهيم أن أباه عدو له فتبرأ منه وقيل لما تبين له في الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة «أن النبي ﷺ. قال: يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي فيقول الله تبارك وتعالى إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» أخرجه البخاري زاد غيره فتبرأ منه والقترة غبرة يعلوها سواد والذيخ بذال معجمة ثم ياء مثناة من تحت ثم خاء معجمة هو ذكر الضباع والأنثى ذيخة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾ جاء في الحديث إن الأواه الخاشع المتضرع. وقال ابن مسعود: الأواه الكثير الدعاء وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو المؤمن التواب، وقال الحسن وقتادة: الأواه الرحيم بعباد الله وقال مجاهد: الأواه الموقن وقال كعب الأحبار: هو الذي يكثر التأوه وكان إبراهيم ﷺ يكثر أن يقول أوه من النار قبل أن لاينفع أوه وقال عقبة بن عامر: الأواه الكثير الذكر لله عز وجل وقال سعيد بن جبير هو المسبح وعنه أنه المعلم للخير. وقال عطاء: هو الراجع عما يكره الله الخائف من النار. وقال أبو عبيدة: هو المتأوه شفقاً وفرقاً المتضرع إيقاناً ولزوماً للطاعة. وقال الزجاج: انتظم في قول أبي عبيدة جميع ما قيل في الأواه وأصله من التأوه وهو

إبراهيم ﴾ [الممتحنة: ٤]، إلى أن قال: ﴿ إلاّ قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستغفرنّ لك ﴾ [الممتحنة: ٤]، فصرّح أن إبراهيم ليس بقدوة في الاستغفار، وإنما استغفر له وهو مشرك لمكان الوعد رجاء أن يسلم. ﴿ فلمّا تبيّنَ له أنّهُ عدوٌّ للّهِ ﴾، لموته على الكفر، ﴿ تبرأ منه ﴾، وقيل: فلما تّبين له في الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه أي: يتبرأ منه، وذلك ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسماعيل بن عبد الله حدّثني أخي عبد الحميد عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني؟! فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم عليه السلام: يا ربِّ إنّك وعدتني أن لا تخزيني يوم يُبعثون، فأيُّ خزيٍ أخزى مَنْ أبي فيقول الله إنّي حرّمتُ الجنّةَ على الكافرين، ثم يقال لإبراهيم: ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخٌ متلطّخ فيُؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» وفي رواية: يتبرأ منه يومئذ. قوله تعالى: ﴿ إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم ﴾، اختلفوا في معنى الأوّاه، جاء في الحديث «إنّ الأوّاه الخاشعُ المتضرّع». وقال عبد الله بن مسعود: الأوّاه الدعاء. وعن ابن عباس قال: هو المؤمن التوّاب. وقال الحسن وقتادة: الأوّاه الرحيم بعباد الله. وقال مجاهد: الأوّاه الموقن. وقال عكرمة: هو المستيقن بلغة الحبشة. وقال كعب الأحبار: هو الذي يكثر التأوّه، وكان إبراهيم عليه السلام يكثر أن يقول: أوه من النار. قبل أن لا ينفع أوه. وقيل: هو الذي يتأوّه من الذنوب. وقال عقبة بن عامر: الأوّاه الكثير الذكر لله تعالى. وعن سعيد بن جبير قال: الأوّاه المسبح. ورُوِيَ عنه: الأوّاه: المعلِّم للخير. وقال النخعي: هو الفقيه. وقال عطاء: هو الراجع عن كل ما يكره الله. وقال أيضاً: هو الخائف من النار. وقال أبو عبيدة: هو المتأوّه شَفَقاً وفَرَقاً المتضرّع يقيناً. يريد أن يكون تضرّعه على يقين الإجابة ولزوم الطاعة. قال الزجّاج:

أن يسمع للصدر صوت تنفس الصعداء والفعل منه أوه هو قول الرجل عند شدة خوفه وحزنه أوه والسبب فيه أن عند الحزن تحمي الروح داخل القلب ويشتد حرها فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق في القلب ليخف بعض ما به من الحزن والشدة وأما الحليم: فمعناه ظاهر وهو الصفوح عمن سبه أو أتاه بمكروه ثم يقابله بالإحسان واللطف كما فعل إبراهيم بأبيه حين قال لئن لم تنته لأرجمنك، فأجابه إبراهيم بقوله سلام عليك سأستغفر لك ربي. وقال ابن عباس: الحليم: السيد، وإنما وصف الله عز وجل إبراهيم عليه السلام بهذين الوصفين وهما شدة الرقة والخوف الوجل والشفقة على عباد الله ليبين سبحانه وتعالى أنه مع هذه الصفات الجميلة الحميدة تبرأ من أبيه لما ظهر له إصراره على الكفر فاقتدوا به أنتم في هذه الحالة أيضاً.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

وقوله سبحانه وتعالى: **﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم﴾** يعني: وما كان الله ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين بعد أن رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله وذلك أنه لما منع المؤمنين من الاستغفار للمشركين وكانوا قد استغفروا لهم قبل المنع خافوا ما صدر منهم فأعلمهم أن ذلك ليس بضائرهم **﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾** يعني ما يأتون وما يذرون وهو أن يقدم إليهم النهي عن ذلك الفعل فأما قبل النهي فلا حرج عليهم في فعله وقيل: إن جماعة من المسلمين كانوا قد ماتوا قبل النهي عن الاستغفار للمشركين فلما منعوا من ذلك وقع في قلوب المؤمنين خوف على من مات على ذلك فأنزل الله عز وجل هذه الآية وبين أنه لا يؤآخذهم بعمل إلا بعد أن يبين لهم ما يجب عليهم أن يتقوه ويتركوه. وقال مجاهد: بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامة. وقال الضحاك: وما كان الله ليعذب قوماً حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون. وقال مقاتل والكلبي: هذا في أمر المنسوخ وذلك أن قوماً قدموا على النبي ﷺ وأسلموا قبل تحريم الخمر وصرف القبلة إلى الكعبة ورجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة إلى الكعبة ولا علم لهم بذلك ثم قدموا بعد ذلك إلى المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت إلى الكعبة فقالوا: يا رسول الله ﷺ قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن على ضلال فأنزل الله عز وجل: **﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم﴾** يعني وما كان الله

قد انتظم في قول أبي عبيدة أكثر ما قيل في الأوّاه. وأصله من التأوّهِ وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفّس الصعداء، والفعل منه أوّه وتأوّه، والحليم الصفوح عمّن سبّه أو ناله بالمكروه، كما قال لأبيه عند وعيده، وقوله: ﴿ لئنْ لَمْ تنتهِ لأرجمنّك واهجرني مليّاً سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لكَ ربّي ﴾ [مريم: ٤٦ و٤٧]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الحليم السيد.

قوله تعالى: ﴿ وما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قوماً بعدَ إذْ هَدَاهُمْ ﴾، معناه: ما كان الله ليحكم عليكم بالضلالة بتركِ الأوامر باستغفاركم للمشركين، ﴿ حتّى يبيّن لهم ما يتّقون ﴾، يريد حتى يتقدّم إليكم بالنهي، فإذا بيّن ولم تأخذوا به فعند ذلك تَسْتَحِقُّون الضلال. قال مجاهد: بيان الله للمؤمنين في تركِ الاستغفار للمشركين خاصّة وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامّة، فافعلوا وذروا. وقال الضحّاك: ما كانَ اللَّهُ ليعذّبَ قوماً حتى يبيّن لهم ما يأتون وما يَذَرُون. وقال مقاتل والكلبي: هذا في المنسوخ وذلك أن قوماً قَدِموا على النبي ﷺ فأسلموا ولم تكن الخمر حراماً ولا القِبلة مصروفة إلى الكعبة، فرجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حُرّمت الخمر وصُرِفَت القِبلة، ولا علم لهم بذلك، ثم قَدِموا بعد ذلك المدينة فوجدوا الخمر قد حُرِّمت والقِبلة قد صُرِفت، فقالوا: يا رسول الله قد كنت على دين ونحن

ليبطل عمل قوم وقد عملوا بالمنسوخ حتى بين الناسخ ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عليم بما خالط نفوسكم من الخوف عندما نهاكم عن الاستغفار للمشركين ويعلم ما يبين لكم من أوامره ونواهيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾

﴿إن الله له ملك السموات والأرض﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى هو القادر على ملك السموات والأرض وما فيهما عبيده وملكه يحكم فيهم بما يشاء ﴿يحيي ويميت﴾ يعني أنه تعالى يحيي من يشاء على الإيمان ويميته عليه ويحيي من يشاء على الكفر ويميته عليه لا اعتراض لأحد عليه في حكمه وعبيده ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يعني أنه تعالى هو وليكم وناصركم ليس لكم غيره يمنعكم من عدوكم وينصركم عليهم.

قوله عز وجل: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ الآية تاب الله بمعنى تجاوز وصفح عن النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ومعنى توبته على النبي ﷺ: عدم مؤاخذته بإذنه للمنافقين بالتخلف في غزوة تبوك وهي كقوله سبحانه وتعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ فهو من باب ترك الأفضل لا أنه ذنب يوجب عقاباً. وقال أصحاب المعاني: هو مفتاح كلام للتبرك كقوله سبحانه وتعالى فأن لله خمسه. ومعنى هذا: أن ذكر النبي بالتوبة عليه

على غيره فنحن ضُلّال؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ وما كان اللَّهُ لِيُضِلَّ قوماً بعدَ إذْ هداهم ﴾، يعني: ما كان الله ليبطل عمل قوم قد علموا بالمنسوخ حتى يبيّن لهم الناسخ. ﴿ إنّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾، ثم عظّم نفسه فقال:

﴿ إنّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السمٰواتِ والأرضِ ﴾، يَحكم بما يشاء، ﴿ يُحيي ويُميتُ وما لكم من دُونِ اللَّهِ من وليٍّ ولا نَصِيرٍ ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ لقدْ تابَ الله على النبيِّ ﴾ الآية، تاب الله أي: تجاوز وصفح. ومعنى توبته على النبي ﷺ بإذنه للمنافقين بالتخلّف عنه. وقيل: افتتح الكلام به لأنه كان سبب توبتهم، فذكره معهم، كقوله تعالى: ﴿ فأنّ للَّهِ خُمُسَهُ وللرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٤١]، ونحوه: ﴿ والمهاجرينَ والأنصار الذينَ اتَّبَعُوهُ في ساعةِ العُسْرةِ ﴾، أي: في وقت العسرة، ولم يرد ساعةً بعينها، وكانت غزوة تبوك تُسمى غزوة العسرة، والجيش يسمى جيش العسرة، والعسرة الشدّة، وكانت عليهم عسرة في الظّهر والزاد والماء، قال الحسن: كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه يركب الرجل ساعةً ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان زادهم التمر المسوّس والشعير المتغيّر، وكان النفر منهم يخرجون ما معهم إلاّ الثمرات بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهما أخذ الثمرة فلاكَها حتى يجد طعمَها ثم يعطيها صاحبه فيمصّها، ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم، ولا يبقى من التمرة إلاّ النواة، فمضوا مع رسول الله ﷺ على صِدْقِهم ويقينهم. وقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع النبي ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب فيلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصدّيق: يا رسول الله إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً فادْعُ اللَّهَ. قال: «أتحبُّ ذلك»؟ قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أقلّتِ السماءُ فأظلّتْ ثم سَكبت، فملؤوا ما معهم من القِرَب، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. ﴿ مِنْ بعدِ ما كادَ يَزِيغُ ﴾ قرأ حمزة وحفص: «يزيـغ» بالياء لقوله: ﴿ كاد ﴾ ولمْ يقل: كادتْ.

تشريف للمهاجرين والأنصار في ضم توبتهم إلى توبة النبي ﷺ كما ضم اسم الرسول إلى اسم الله في قوله فإن لله خمسه وللرسول فهو تشريف له. وأما معنى: توبة الله على المهاجرين والأنصار، فلأجل ما وقع في قلوبهم من الميل إلى القعود عن غزوة تبوك لأنها كانت في وقت شديد وربما وقع في قلوب بعضهم أنا لا نقدر على قتال الروم وكيف لنا بالخلاص منهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم ما وقع في قلوبهم من هذه الخواطر والوساوس النفسانية. وقيل: إن الإنسان لا يخلو من زلات وتبعات في مدة عمره إما من باب الصغائر وإما من باب ترك الأفضل. ثم إن النبي ﷺ والمؤمنين معه لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه وصبروا على تلك الشدائد العظيمة التي حصلت لهم في ذلك السفر غفر الله لهم وتاب عليهم لأجل ما تحملوه من الشدائد العظيمة في تلك الغزوة مع النبي ﷺ وإنما ضم ذكر النبي ﷺ إلى ذكرهم تنبيهاً على عظم مراتبهم في الدين وأنهم قد بلغوا إلى الرتبة التي لأجلها ضم ذكر الرسول ﷺ إلى

وقرأ الآخرون بالتاء. والزيغ: الميل، أي: من بعد كادت تميل. ﴿ **قلوبُ فريقٍ منهم** ﴾، أي: قلوب بعضهم، ولم يُرِدِ الميلَ عن الدين بل أراد الميل إلى التخلّف والانصراف للشِّدَّة التي عليهم. قال الكلبي: هَمّ ناسٌ بالتخلّف ثم لحقوه. ﴿ **ثم تابَ عليهم** ﴾، فإن قيل: كيف أعاد ذكر التوبة وقد قال في أول الآية: ﴿ **لقد تاب الله على النبي** ﴾؟ قيل: ذكر التوبة في أول الآية قبل ذكر الذنب، وهو محض الفضل من الله عزّ وجلّ، فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة، والمراد منه قبولها. ﴿ **إنّه بِهِمْ رَؤُوفٌ رحيمٌ** ﴾. قال ابن عباس: مَن تاب الله عليه لم يعذّبه أبداً. قوله عزّ وجلّ: ﴿ وعلى الثلاثةِ الذينَ خُلِّفُوا ﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: خُلِّفُوا من غزوة تبوك. وقيل: خُلّفوا أي: أُرجىء أمرهم، عن توبة أبي لبابة وأصحابه، وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك الشاعر ومُرارة بن الربيع وهلال بن أمية كلهم من الأنصار. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ بن بكير ثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب من بنيه حين عَمِيَ قال: سمعتُ كعبَ بن مالك يحدّث حين تخلّف عن غزوة تبوك، قال كعب: لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قطّ إلّا في غزوة تبوك غير أنّي كنت تخلّفت عن غزوة بدر ولم يُعاتب أحداً تخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريدون عِيرَ قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبّ أنّ لي بها مشهد بدر وإن كانت بدرٌ أذكرَ في الناس منها، وكان من خبري حين تخلّفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قطّ حتى جمعتها في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلّا وَرّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ استقبل سفراً بعيداً ومفاوزَ وعدوّاً كثيراً فجَلَا للمسلمين أمرهم ليتأهّبُوا أُهْبَة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيّب إلّا ظنّ أنّ ذلك سيخفي له ما لم ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر، فتجهّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغْدُو لكي أتجهّز معهم فأرجع ولم أقضِ شيئاً وأقول في نفسي أنا قادر عليه إذا أردت، فلم يزل يتمادَى بي الأمرُ حتى اشتدّ بالناس الجِدُّ فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئاً. فقلت أتجهّز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أنْ فصلوا لأتجهّز فرجعت ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوت ثم رجعْتُ ولم أقضِ شيئاً فلم يزل ذلك يتمادَى بي حتى أسرعُوا أو تفارط الغزو، وفهممتُ أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلتُ، فلم يُقدّرْ لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفتُ فيهم أحزنني أني لا أرى لي أُسوة إلّا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممّن عَذَرَ اللّهُ من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو

ذكرهم ﴿الذين اتبعوه﴾ في تلك الغزوة من المهاجرين والأنصار وقد ذكر بعض العلماء أن النبي ﷺ سار إلى تبوك في سبعين ألفاً ما بين راكب وماش من المهاجرين والأنصار وغيرهم من سائر القبائل ﴿في ساعة العسرة﴾ يعني في وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها والعسرة الشدة والضيق وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش الذي سار فيه يسمى جيش العسرة لأنه كان عليهم عسرة في الظهر والزاد والماء قال الحسن كان العشرة: منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه بينهم يركب الرجل منهم ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون وما معهم إلا التمرات اليسيرة بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يخرجها من فيه ويعطيها صاحبه ثم يشرب عليها جرعة من الماء ويفعل صاحبه كذلك حتى تأتي على آخرهم ولا يبقى من التمرة إلا النواة فمضوا مع النبي ﷺ على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم. وقال عمر بن

جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك»؟ فقال رجلٌ من بني سلمة: يا رسول الله حبسه براده ونظره في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئسَ ما قلتَ والله يا رسول الله ما علمنا إلّا خيراً فسكتَ رسولُ الله ﷺ، بينا هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدّق بصاع التمر حين لمزه المنافقون، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجّه قافلاً من تبوك حضرني هَمِّي فطفقتُ أتذكّر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً واستعنتُ على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلّ قادماً زاح عنّي الباطلُ وعرفتُ أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعتُ صِدْقَهُ، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً وكان إذا قَدِمَ من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكّل سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلّمتُ عليه تبسّم تبسّم المغضب، ثم قال: تعالَ فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلّفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك»؟ فقلت: بلى يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيتُ جدلاً ولكنّي والله لقد علمت لئن حدّثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنّي ليوشكنّ الله أن يسخطك عليّ ولئن حدّثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ عليّ فيه ثقلاً، إنّي لأرجو فيه عفوَ اللّهِ لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى قطّ ولا أيسرَ منّي حين تخلّفتُ عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أمّا هذا فقد صدق، فَقُمْ حتى يقضيَ الله فيك»، فقمتُ وثارَ رجالٌ من بني سلمة فاتّبعوني فقالوا لي: واللّهِ ما علمناكَ كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت في أنْ لا تكونَ اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلّفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ، فوالله ما زالوا يؤنّبونني حتى أردت أن أرجع وأُكذّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: مَن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أُسوة حسنة فمضيتُ حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيّها الثلاثة من بين مَن تخلّف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلّمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هلْ حرّكَ شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا، ثم أصلّي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنّي، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمّي وأحبّ الناس إليّ فسلّمتُ عليه فوالله ما ردّ عليّ

الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، وحتى أن الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله قال أتحب ذلك قال: نعم فرفع يديه ﷺ فلم يرجعا حتى أرسل الله سحابة فمطرت فملأوا ما معهم من الأوعية ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر أسنده الطبري عن عمر.

قوله تعالى: ﴿من بعد ما كان يزيغ قلوب فريق منهم﴾ يعني من بعد ما قارب أن تميل قلوب بعضهم عن الحق من أجل المشقة والشدة التي نالتهم والزيغ في اللغة الميل. وقيل: همَّ بعضهم أن يفارق الرسول ﷺ عند تلك الشدة التي نالتهم لكنهم صبروا واحتسبوا وندموا على ما خطر في قلوبهم فلأجل ذلك قال تعالى: ﴿ثم تاب عليهم﴾ يعني أنه

السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أُحِبُّ اللَّهَ ورسولَه، فسكتَ فعدتُ له فنشدتُه فسكتَ فعدتُ له فنشدتُه فسكتَ فعدتُ له فقال: اللَّهُ ورسولُه أعلم، ففاضت عيناي وتولّيت حتى سوّرت الجدار، قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممّن قَدِمَ بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَن يدلّ على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أنّ صاحبَك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحقْ بنا نُواسِكَ، فقلتُ لما قرأته: وهذا أيضاً من البلاء، فتيمّمت به التنور فسجرته، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولٌ لرسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلتُ: أُطلّقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي إلحقي بأهلك وكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأةُ هلال بن أُمية رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أُمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أنْ أخدمه؟ قال: «لا ولكن لا يقربك»، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال كعب: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أُمية أن تخدمه فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول لي رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب، فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلمّا صلّيت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله فينا قد ضاقت عليّ نفسي وضاقتْ عليّ الأرضُ بما رَحُبَتْ سمعتُ صوتَ صارخٍ أوْفَى على جبلِ سلع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشرْ، فخررتُ لله ساجداً وعرفتُ أنه قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحبي مبشّرون، وركض رجل إلى فرس وسعى ساع من أسلم فأوْفَى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني نزعت له ثوبيَّ فكسوته إيَّاهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يُهنئونني بالتوبة ويقولون لي: لِيُهنكَ توبةُ اللَّهِ عليك قال كعب، حتى دخلتُ المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنّأني والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلّمتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يُبرق وجهه من السرور: «أبشر بخيرِ يومٍ مرّ عليكَ منذُ ولدتْك أُمك»! قال: قلت: أمِنْ عندكَ يا رسولَ الله أمْ مِنْ عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله»، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهُهُ كأنه قطعة قمر، وكنّا نعرف ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه قلت: يا رسول الله إنّ من توبتي أن انخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليكَ بعضَ

سبحانه وتعالى علم إخلاص نيتهم وصدق توبتهم فرزقهم الإنابة والتوبة.

فإن قلت قد ذكر التوبة أولاً ثم ذكرها ثانياً فما فائدة التكرار؟

قلت إنه سبحانه وتعالى ذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب تفضلاً منه وتطييباً لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيماً لشأنهم وليعلموا أنه سبحانه وتعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم ثم أتبعه بقوله ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ تأكيداً لذلك ومعنى الرؤوف في صفة الله تعالى أنه الرفيق بعباده لأنه لم يحملهم ما لا يطيقون من العبادات وبين الرؤوف والرحيم فرق لطيف وإن تقاربا في المعنى. قال الخطابي: قد تكون الرحمة مع الكراهة للمصلحة ولا تكاد الرأفة تكون مع الكراهة.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ هذا معطوف على ما قبله تقديره لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بين قبول توبتهم وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار وهم المرادون بقوله سبحانه وتعالى وآخرون مرجون لأمر الله وفي معنى خلفوا قولان: أحدهما أنهم خلفوا عن توبة أبي لبابة وأصحابه وذلك أنهم لم يخضعوا كما خضع أبو لبابة وأصحابه فتاب الله على أبي لبابة وأصحابه وأخر أمر هؤلاء الثلاثة مدة ثم تاب عليهم بعد ذلك والقول الثاني أنهم تخلفوا عن

مالك فهو خيرٌ لك»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، قال: فقلت: يا رسول الله إنّما نجّاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألاّ أُحدّث إلاّ صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، ووالله ما تعمّدت منذُ ذَكَرْتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله: ﴿ لقدْ تابَ اللّهُ على النبيِّ والمهاجرينَ والأنصار ﴾، إلى قوله: ﴿ وكونُوا معَ الصادقين ﴾ [التوبة: ١١٩]. وروى إسحاق بن راشد عن الزهري بهذا الإسناد عن كعب، قال: نهى رسول الله ﷺ عن كلامي وكلام صاحبي فلبثتُ كذلك حتى طال عليّ الأمر وما من شيء أهمّ إليّ من أن أموت ولا يُصلّي عليّ رسول الله ﷺ أو يموتَ رسولُ الله ﷺ فأكونَ من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلّي عليّ، وأنزل الله توبتنا على نبيّه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة وكانت أم سلمة مُحسِنة في شأني مُعينة في أمري، فقال رسول الله ﷺ: «يا أُمَّ سلمة تِيبَ على كعب»، قالت: أفلا أرسل إليه فأُبشّره؟ قال: «إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة»، حتى إذا صلّى ﷺ صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا.

قوله تعالى: ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقتْ عليهمُ الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾، اتّسعت، ﴿ وضاقتْ

غزوة تبوك ولم يخرجوا مع رسول الله فيها وأما حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، فقد روي عن ابن شهاب الزهري قال: أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال: وكان أعلم قومه وأوعاهم لأحاديث رسول الله ﷺ قال: سمعت كعب بن مالك بن عبد الله بن مالك بن كعب يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حتى تخلفت عنه في تلك الغزوة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حين جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً واستقبل عدواً كثيراً فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفي له ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً فأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم فيا ليتني فعلت ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً مما عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ فبينما هو كذلك، رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة فإذا هو أبو خيثمة وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ قادماً وكان إذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله عز وجل حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال لي تعالى فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك قال قلت يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر لقد

عليهم أنفسهم ﴾، غماً وهماً، **﴿ وظنّوا ﴾**، أي: تيقنوا، **﴿ أنْ لا ملجأ مِنَ الله ﴾**، لا مفزع من الله، **﴿ إلاّ إليهِ ثمّ تابَ عليهم لِيَتوبُوا ﴾**، أي: ليستقيموا على التوبة فإن توبتهم قد سبقت. **﴿ إنّ الله هو التوّابُ الرحيم ﴾**.

﴿يا أيّها الذينَ آمنوا اتَّقُوا اللّهَ وكونُوا معَ الصّادِقين ﴾، قال نافع: مع محمد وأصحابه. وقال سعيد بن جبير: مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن جريج: مع المهاجرين، لقوله تعالى: ﴿ للفقراءِ المهاجرين ﴾ [الحشر: ٨] إلى قوله: ﴿ أولئك هُمُ الصادقون ﴾ [الحشر: ٨]. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: مع الذين

أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله، وفي رواية عفو الله عز وجل، والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك قال فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي. قال: ثم قلت لهم هل لقي هذا أحد معي قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك قلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي قال فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدوا بدراً ففيهما أسوة قال فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال: فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فسلمت عليه فوالله مارد علي السلام فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلم أني أحب الله ورسوله قال: فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل عليّ كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك قال: فقلت حين قرأتها وهذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي وإذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها ولا تقربها قال وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك قال فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر قال فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خدام فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربنك فقالت إنه والله ما به حركة إلى شيء ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول لي رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب قال فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا. قال ثم صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل عنا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر قال فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء فرج قال وآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبي مبشرون وركض

صدقت نيّاتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك بإخلاص نيّة. وقيل: مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة. وكان ابن مسعود يقرأ: «وكونُوا مع الصادقين» وقال ابن مسعود: إن الكذب لا يصلح في جِدٍّ ولا هزل، ولا أن يعدّ أحدكم صبيّه شيئاً ثم لا ينجز له، اقرؤوا إن شئتم هذه الآية.

رجل إلى فرساً وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمل رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلا رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قال: قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: لا بل من عند الله. وكان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه حتى كان وجهه قطعة قمر قال وكنا نعرف ذلك منه قال فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله رسوله فقال رسول الله ﷺ أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قال فقلت فإني أمسك سهمي الذي بخيبر قال وقلت يا رسول الله إن الله إن أنجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت قال فوالله ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله، والله ما تعمدت كذبه منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي قال فأنزل الله عز وجل لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة حتى بلغ أنه بهم رؤوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى بلغ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قال كعب: والله ما أنعم الله عليهم الأرض بما رحبت حتى بلغ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا إن الله عز وجل قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله سبحانه وتعالى: سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه فبذلك قال الله عز وجل: وعلى الثلاثة الذين خلفوا وليس الذي ذكر مما خلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه وفي رواية ونهى النبي ﷺ عن كلامي وكلام صاحبي ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا فاجتنب الناس كلامنا فلبثت كذلك حتى طال علي الأمر فما من شيء أهم إلي من أن أموت فلا يصلي علي النبي ﷺ أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي علي ولا يسلم علي قال: وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله ﷺ عند أم سلمة. وكانت أم سلمة محسنة في شأني معتنية بأمري فقال رسول الله ﷺ: يا أم سلمة تيب على كعب بن مالك قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره قال: إذا يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليل حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر آذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا أخرجه البخاري ومسلم. (شرح غريب هذا الحديث).

قوله حين تواثقنا على الإسلام: التواثق تفاعل من الميثاق وهو العهد. والراحلة: الجمل أو الناقة القويان على

قوله تعالى: ﴿ **ما كانَ لأهلِ المدينةِ** ﴾ ظاهره خبر ومعناه نهي، كقوله تعالى: ﴿ وما كانَ لكم أنْ تُؤْذُوا رسولَ الله ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. ﴿ **ومَنْ حولَهم مِنَ الأعراب** ﴾، سكان البوادي مُزينة وجُهينة وأشجع وأسلم وغِفار. ﴿ **أنْ يتخلَّفوا عنْ رسول الله** ﴾، إذا غزا، ﴿ **ولا يَرْغَبُوا** ﴾، أي: ولا أن يرغبوا، ﴿ **بأنفسهم عن نفسِهِ** ﴾، في مصاحبته ومعاونته والجهاد معه. قال الحسن: لا يرغبوا بأنفسهم عن أن يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدَّعة،

الحمل والسفر. وقوله: ورى بغيرها يقال: ورى عن الشيء إذا أخفاه وأظهر غيره. والمفازة: البرية القفراء سميت بذلك تفاؤلاً بالفوز والنجاة منها قوله فجـلا هو بالتخفيف يعني كشف لهم مقصدهم وأظهره لهم والأهبة الجهاز وما يحتاج إليه المسافر قوله فأنا إليها صعر هو بالعين المهملة أي أميل والصعر الميل. قوله: وتفارط الغزو أي تباعد ما بيني وبين الجيش من المسافة وطفق مثل جعل والمغموص المعيب المشار إليه بالعيب. يقال: فلان ينظر في عطفيه إذا كان معجباً بنفسه ويقال: زال به السراب يزول إذا ظهر شخص الإنسان خيالاً فيه من بعد. والسراب: هو ما يظهر للإنسان في البرية في وقت الهاجرة كأنه ماء والمبيض بكسر الياء لابس البياض. قوله: كن أبا خيثمة معناه أنت أبو خيثمة وقيل معناه: اللهم اجعله أبا خيثمة أي لتوجد يا هذا الشخص أبا خيثمة حقيقة قوله الذي لمزه المنافقون يعني عابوه واحتقروه والقافل الراجع من سفره إلى وطنه قوله حضرني بثني البث أشد الحزن كأنه لشدته يظهر قوله زاح عني الباطل أي زال وذهب عني وأجمعت صدقه أي عزمت عليه لقد أعطيت جدلاً أي فصاحة وقوة في الكلام بحيث أخرج عن عهدة ما أردت بما أشاء من الكلام والمغضب بفتح الضاد هو الغضبان قوله فما زالوا يؤنبونني أي يلومونني أشد اللوم قوله حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي الأرض التي أعرف: معناه تغير علي كل شيء من الأرض وتوحشت عليّ وصارت كأنها أرض لا أعرفها وقوله فأما صاحباي فاستكانا يعني خضعا وسكنا قوله تسورت حائط أبي قتادة أي علوته وصعدت سوره وهو أعلاه والأنباط الفلاحون والزراعون وهم من العجم والروم والمضيعة مفعلة من الضياع والأطراح، وقوله فتيممت بها التنور فسجرته بها أي فقصدت بالصحيفة التي أرسل بها ملك غسان فأحرقتها في التنور وسلع جبل بالمدينة معروف وقوله وانطلقت أتأمم يعني أقصد رسول الله ﷺ. والفوج: الجماعة من الناس. يقال: برق وجهه إذا لمع وظهر عليه أمارات الفرح والسرور قوله أنخلع من مالي أي أخرج منه جميعه وأتصدق به كما يخلع الإنسان قميصه. قوله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني البلاء. والابتلاء: يكون في الخير وفي الشر وإذا أطلق كان في الشر غالباً فإذا أريد به الخير قيد به كما قيد هنا بقوله أحسن مما أبلاني أن أنعم على قوله أن لا أكون كذبته، هذا هو في جميع روايات الحديث بزيادة لفظ لا قال بعض العلماء لفظة لا زائدة ومعناه أن أكون كذبته وقوله فأهلك هو بكسر اللام وإرجاؤه أمرنا تأخيره وقوله في الرواية الأخرى يحطمكم الناس أي يطؤكم ويزدحمون عليكم وأصل الوطء الكسر وقوله سائر الليل يعني باقي الليل وقوله وآذن بتوبة الله علينا أي أعلم والأذان الإعلام والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ يعني بما اتسعت والرحب سعة المكان والمعنى أنه ضاق عليهم المكان بعد أن كان واسعاً ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ يعني من شدة الغم والحزن ومجانبة الناس إياهم وترك كلامهم ﴿وظنوا﴾ يعني وأيقنوا وعلموا ﴿أن لا ملجأ﴾ يعني لا مفزع ولا مفر ﴿من الله إلا إليه﴾ ولا عاصم من عذابه إلا هو ﴿ثم تاب عليهم﴾ فيه إضمار وحذف تقديره وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فرحمهم ثم تاب عليهم وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه وقوله ثم تاب عليهم تأكيد لقبول توبتهم لأنه قد ذكر توبتهم في قوله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ كما تقدم بيانه وأنه عطف على قوله ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ أي وتاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار أي وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا.

وقوله تعالى: ﴿ليتوبوا﴾ معناه: أن الله سبحانه وتعالى تاب عليهم في الماضي ليكون ذلك داعياً لهم إلى التوبة

ورسول الله ﷺ في مشقّة السفر ومقاساة التعب. ﴿ ذلك بأنّهم لا يُصيبهم ﴾، في سفرهم، ﴿ ظَمأ ﴾، عطش، ﴿ ولا نَصَبٌ ﴾، تعب، ﴿ ولا مَخْمَصَةٌ ﴾، مجاعة، ﴿ في سبيل اللّهِ ولا يَطَئونَ مَوْطِئاً ﴾، أرضاً، ﴿ يَغيظُ الكُفّار ﴾، وطؤهم إياه ﴿ ولاَ ينالُونَ من عدوٍّ نيْلاً ﴾، أي: لا يصيبون من عدوّهم قتلاً أو أسراً أو غنيمةً أو هزيمةً، ﴿ إلاّ كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ إنّ اللّهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنين ﴾. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله

في المستقبل فيرجعوا ويداوموا عليها وقيل إن أصل التوبة الرجوع ومعناه ثم تاب عليهم ليرجعوا إلى حالتهم الأولى يعني إلى عادتهم في الاختلاط بالناس ومكالمتهم فتسكن نفوسهم بذلك ﴿إن الله هو التواب﴾ يعني على عباده ﴿الرحيم﴾ بهم وفيه دليل على أن قبول التوبة بمحض الرحمة والكرم والفضل والإحسان وأنه لا يجب على الله تعالى شيء.

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ يعني في مخالفة الرسول ﷺ ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ يعني مع من صدق النبي ﷺ وأصحابه في الغزوات ولا تكونوا مع المتخلفين من المنافقين الذين قعدوا في البيوت وتركوا الغزو. وقال سعيد بن جبير: مع الصادقين يعني مع أبي بكر وعمر. قال ابن جريج: مع المهاجرين. وقال ابن عباس: مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك بإخلاص نية. وقيل: كونوا مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب وهم يعتذرون بالأعذار الباطلة الكاذبة وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق لأن الصدق يهدي إلى الجنة والكذب إلى الفجور كما ورد في الحديث. وقال ابن مسعود: الكذب لا يصلح في جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صاحبه شيئاً ثم لا ينجزه اقرأوا إن شئتم وكونوا مع الصادقين.

وروي أن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية على الأنصار في يوم السقيفة وذلك أن الأنصار قالوا: منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر: يا معشر الأنصار إن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه للفقراء المهاجرين إلى قوله أولئك هم الصادقون من هم قالت الأنصار: أنتم هم فقال أبو بكر: إن الله تعالى يقول: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم نحن الأمراء وأنتم الوزراء وقيل مع بمعنى من والمعنى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين قوله سبحانه وتعالى: ﴿ما كان لأهل المدينة﴾ يعني لساكني المدينة من المهاجرين والأنصار: ﴿ومن حولهم من الأعراب﴾ يعني سكان البوادي من مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وقيل: هو عام في كل الأعراب لأن اللفظ عام وحمله على العموم أولى ﴿أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ يعني إذا غزا وهذا ظاهر خبر ومعناه النهي أي ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ ﴿ولا يرغبوا﴾ يعني ولا أن يرغبوا ﴿بأنفسهم عن نفسه﴾ يعني ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم ما يختاره رسول الله ﷺ ويرضاه لنفسه ولا يختاروا لأنفسهم الخفض والدعة ويتركوا مصاحبته والجهاد معه في حال الشدة والمشقة وقال الحسن: لا يرغبوا بأنفسهم أن يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله ﷺ في مشقة السفر ومقاساة التعب ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم﴾ في سفرهم وغزواتهم ﴿ظمأ﴾ أي عطش ﴿ولا نصب﴾ أي تعب ﴿ولا مخمصة﴾ يعني مجاعة شديدة ﴿في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار﴾ يعني ولا يضعون قدماً على الأرض يكون ذلك القدم سبباً لغيظ الكفار وغمهم وحزنهم ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ يعني أسراً أو قتلاً أو هزيمة أو غنيمة أو نحو ذلك قليلاً كان أو كثيراً ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ يعني إلا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبله منهم ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى لا يدع محسناً من خلقه قد أحسن في عمله وأطاعه فيما أمره به أو نهاه عنه أن يجازيه على إحسانه وعمله الصالح وفي الآية دليل على أن من قصد معصية الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله من قصد معصية الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها سيئآت إلا أن يغفرها الله بفضله وكرمه واختلف العلماء في حكم هذه الآية. فقال قتادة: هذا الحكم خاص برسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يكن

النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا علي بن عبد الله حدّثنا الوليد بن مسلم حدّثنا يزيد بن أبي مريم حدّثنا عباية بن رفاعة قال: أدركني أبو عبس وأنا ذاهب إلى الجمعة فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنِ اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل اللَّهِ حرّمهما اللَّهُ على النار». واختلفوا في حكم هذه الآية، قال قتادة: هذه خاصّة لرسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلّف عنه إلاّ بعذر، فأمّا غيره من الأئمة والوُلاة فيجوز لمَن

لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر فأما غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المؤمنين أن يتخلف عنه إذا لم يكن للمسلمين إليه ضرورة. وقال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعي وابن المبارك وابن جابر وسعيداً يقولون في هذه الآية إنها لأول هذه الأمة وآخرها فعلى هذا تكون هذه الآية محكمة لم تنسخ. وقال ابن زيد: هذا حين كان أهل الإسلام قليلاً فلما كثروا نسخها الله عز وجل وأباح التخلف لمن شاء بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة ونقل الواحدي عن عطية أنه قال: وما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ إذا دعاهم وأمرهم. وقال: هذا هو الصحيح لأنه لا تتعين الطاعة والإجابة لرسول الله ﷺ إلا إذا أمر وكذا غيره من الأئمة والولاة قالوا إذا ندبوا أوعينوا لأنّ لو سوغنا للمندوب أن يتقاعد ولم يختص بذلك بعض دون بعض لأدى ذلك إلى تعطيل الجهاد والله أعلم.

وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

وقوله عز وجل: ﴿ولا ينفقون﴾ يعني في سبيل الله ﴿نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ يعني تمرة فما دونها أو أكثر منها حتى علاقة سوط ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ يعني ولا يجاوزون في مسيرهم وادياً مقبلين أو مدبرين فيه ﴿إلا كتب لهم﴾ يعني كتب الله لهم آثارهم وخطاهم ونفقاتهم ﴿ليجزيهم الله﴾ يعني يجازيهم ﴿أحسن ما كانوا يعملون﴾ قال الواحدي: معناه بأحسن ما كانوا يعملون. وقال الإمام فخر الدين الرازي: فيه وجهان: الأول: أن الأحسن من صفة أفعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله سبحانه وتعالى يجزيهم على الأحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح. والثاني: أن الأحسن صفة للجزاء أي يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل وهو الثواب وفي الآية دليل على فضل الجهاد وأنه من أحسن أعمال العباد (ق) عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها وفي رواية وما فيها (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديقاً برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني

شاء من المسلمين أن يتخلّف عنه إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة. وقال الوليد بن مسلم: سمعتُ الأوزاعي وابنَ المبارك وابنَ جابر وسعيدَ بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية: إنها لأوّل هذه الأمة وآخرها. وقال ابن زيد: هذا حين كان أهل الإسلام قليلاً فلما كثروا نسخها الله تعالى وأباحَ التخلّف لمَن يشاء، فقال: ﴿ **وما كان المؤمنون لينفِرُوا كافّة** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **ولا يُنفقُون نفقةً** ﴾، أي: في سبيل الله، ﴿ **صغيرةً ولا كبيرةً** ﴾، ولو علاقة سوط، ﴿ **ولا يقطعُون وادياً** ﴾، لا يجاوزون وادياً في مسيرهم مقبلين أو مدبرين. ﴿ **إلّا كُتِبَ لهم** ﴾، يعني: آثارهم وخطاهم، ﴿ **ليجزيَهمُ اللّهُ أحسنَ ما كانُوا يعملون** ﴾. رُوِيَ عن خزيم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أنفق نفقةً في سبيل الله كُتِبَ له سبعُمائةِ ضِعْفٍ» أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي حدّثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان حدّثنا مسلم بن الحجّاج حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي أنا جرير عن الأعمش عن أبي عمرو الشيباني عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاءنا رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل

والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فأقتل في سبيل الله ثم أغزو فأقتل ثم أغزوا فأقتل» لفظ مسلم وللبخاري بمعناه (ق).

عن أبي سعيد الخدري قال: «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال أي الناس أفضل قال مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله قال ثم من قال ثم رجل في شعب من الشعاب يعبد الله» وفي رواية «يتقي الله ويدع الناس من شره» (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» يعني حسنات (خ) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «ما أغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار» (م) عن أبي مسعود الأنصاري البدري قال: «جاء رجل بناقة مخطومة إلى رسول الله ﷺ فقال هذه في سبيل الله فقال رسول الله ﷺ لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة» عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف» أخرجه الترمذي والنسائي.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة**﴾ الآية. قال عكرمة: لما نزلت هذه الآية ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله قال ناس من المنافقين. هلك من تخلف فنزلت هذه الآية ومن كان المؤمنون لينفروا كافة. وقال ابن عباس: أنها ليست في الجهاد ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين أجدبت بلادهم فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويقبلوا بالإسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم فأنزل الله عز وجل الآية يخبر نبيه ﷺ أنهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم إذا رجعوا إليهم فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم**﴾ وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال: «كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم ويقولون للنبي ﷺ ما تأمرنا أن نفعله وأخبرنا عما نقول لعشائرنا إذا انطلقنا إليهم فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة فكانوا إذا أتوا قومهم نادوا أن من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى أن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان رسول الله ﷺ يخبرهم بما يحتاجون إليه من أمر الدين وأن ينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ويدعوهم إلى الإسلام وينذروهم ويبشروهم بالجنة وقال مجاهد: إن ناساً من أصحاب النبي ﷺ خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً ومن الحطب ما ينتفعون به

الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعُمائةِ ناقة كلها مخطومة» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا أبو معمر حدّثنا عبد الوارث حدّثنا الحسين حدّثني يحيىٰ بن أبي كثير حدّثني أبو سلمة حدّثني بشر بن سعيد حدّثني زيد بن خالد أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جهّز غازياً في سبيل الله فقدْ غزا، ومَن خَلَفَ غَازياً في سبيل الله في أهله بخير فقدْ غزا».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وما كانَ المؤمنُونَ لِيَنْفِرُوا كافّةً** ﴾، قال ابن عباس في رواية الكلبي: لمّا أنزل الله عزّ وجلّ عيوب المنافقين في غزوة تبوك كان النبي ﷺ يبعث السرايا فكان المسلمون ينفرون جميعاً إلى الغزو ويتركون النبي ﷺ وحده، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، وهذا نفي بمعنى النهي. قوله تعالى: ﴿ **فَلَوْلاَ نفرَ مِن كلِّ فرْقَةٍ منهم طائفةٌ** ﴾، أي: فهلاّ خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعةٌ ويبقى مع رسول الله ﷺ جماعةٌ، ﴿ **لِيَتفقّهُوا في**

ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم تحرجاً وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على رسول الله ﷺ فقال الله عز وجل ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يبتغون الخير وقعد طائفة ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ ليسمعوا ما أنزل الله ﴿ولينذروا قومهم﴾ من الناس ﴿إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ وقال ابن عباس: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا رسول الله ﷺ وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصبة يعني السرايا ولا يسيرون إلا بإذنه فإذا رجعت السرايا وقد نزل في بعضهم قرآن تعلمه القاعدون من رسول الله ﷺ وقالوا إن الله قد أنزل على نبيكم من بعدكم قرآناً وقد تعلمناه فمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم وتبعث سرايا أخرى فذلك قوله سبحانه وتعالى ليتفقهوا في الدين يقول ليتعملوا ما أنزل الله على نبيهم ويعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون نقل هذه الأقوال كلها الطبري وأما تفسير الآية فيمكن أن يقال إنها من بقية أحكام الجهاد ويمكن أن يقال إنها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد فعلى الاحتمال الأول فقد قيل: إن النبي ﷺ كان إذا خرج للغزو ولم يتخلف عنه إلا منافق أو صاحب عذر فلما بالغ الله في الكشف عن عيوب المنافقين وفضحهم في تخلفهم عن غزوة تبوك قال المؤمنون والله لا نتخلف عن شيء من الغزوات مع رسول الله ﷺ ولا عن سرية يبعثها فلما قدم المدينة وبعث السرايا نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوا رسول الله ﷺ وحده فنزلت هذه الآية فيكون المعنى ما كان ينبغي للمؤمنين ولا يجوز لهم أن ينفروا بكليتهم إلى الجهاد ويتركوا رسول الله ﷺ بل يجب أن ينقسموا إلى قسمين فطائفة يكونون مع رسول الله ﷺ وطائفة ينفرون إلى الجهاد لأن ذلك الوقت كانت الحاجة داعية إلى انقسام أصحاب رسول الله ﷺ إلى قسمين: قسم للجهاد، وقسم لتعلم العلم والتفقه في الدين، لأن الأحكام والشرائع كانت تتجدد شيئاً بعد شيء فالملازمون لرسول الله ﷺ يحفظون ما نزل من الأحكام وما تجدد من الشرائع فإذا قدم الغزاة أخبروهم بذلك فيكون معنى الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا يعني فهلاً نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد وقعد طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم الذين نفروا إلى الجهاد إذا رجعوا إليهم من غزوهم لعلهم يحذرون يعني مخالفة أمر الله وأمر رسوله وهذا معنى قول قتادة. وقيل: إن التفقه صفة للطائفة النافرة قال الحسن: ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ومعنى ذلك أن

الدِّين ﴾، يعني: فرقة القاعدين يتعلّمون القرآن والسُّنَنَ والفرائضَ والأحكام، فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما أُنزل بعدهم فتمكث السرايا يتعلمون ما نزل بعدهم وتبعث سرايا أُخر، فذلك قوله: **﴿ وليُنذِرُوا قومَهم ﴾**، وليعلموهم بالقرآن ويخوِّفوهم به، **﴿ إذا رَجَعُوا إليهم لعلّهم يَحذرُون ﴾**، أن يجهلُوا فلا يعملون بخلافه. وقال الحسن: هذا التفقّه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة، ومعناه: هلاَّ نفرَ فرقةٌ ليتفقهوا، أي: ليتبصروا بما يُريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين، ولينذروا قومَهم من الكفّار إذا رجعوا إليهم من الجهاد فيخبروهم بنصر الله ورسوله ﷺ والمؤمنين لعلّهم يحذرون أن يُعادُوا النبيَّ ﷺ، فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفّار. وقال الكلبي: لها وجه آخر وهو أن أحياء من بني أسد وخزيمة أصابتهم سنة شديدة فأقبلوا بالذراري حتى نزلوا المدينة فأفسدُوا طُرقها بالعذرات وأغلوا أسعارها فنزل قوله: **﴿ وما كان المؤمنون لينفِرُوا كافّةً فلولا نفرَ من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ﴾**، أي: لم يكن لهم أن ينفروا كافّة ولكن من كل قبيلة طائفة ليتفقهوا في الدين. وقال مجاهد: نزلت في ناس خرجوا في البوادي ابتغاء الخير من أهلها فأصابوا منهم معروفاً ودَعوا مَن وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلاّ وقد تركتم صاحبكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجاً، وأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، أي: هلاّ نَفَر من كل فرقة منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدين وليستمعوا ما أنزل بعدهم ولينذروا قومهم، يعني: الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ويدعوهم إلى الله، لعلّهم يحذرون بأس الله ونقمته،

الفرقة النافرة إذا شاهدوا نصر الله لهم على أعدائهم وأن الله يريد إعلاء دينه وتقوية نبيه ﷺ وأن الفئة القليلة قد غلبت جمعاً كثيراً، فإذا رجعوا من ذلك النفير إلى قومهم من الكفار، أنذروهم بما شاهدوا من دلائل النصر والفتح والظفر لهم لعلهم يحذرون فيتركوا الكفر والنفاق وأورد على هذا القول أن هذا النوع لا يعد تفقهاً في الدين ويمكن أن يجاب عنه بأنهم إذا علموا أن الله هو ناصرهم ومقويهم على عدوهم كان ذلك زيادة في إيمانهم فيكون ذلك فقهاً في الدين. وأما الاحتمال الثاني: وهو أن يقال إن هذه الآية كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد وهو ما ذكرناه عن مجاهد أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البوادي فأصابوا معروفاً ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم: ما نراكم إلا قد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجاً فأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية والمعنى هلا نفر من كل فرقة طائفة وقعد طائفة ليتفقهوا في الدين ويبلغوا ذلك إلى النافرين لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون يعني بأس الله ونقمته إذا خالفوا أمره في الآية دليل على أنه يجب أن يكون المقصود من العلم والتفقه دعوة الخلق إلى الحق وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم فكل من تفقه وتعلم بهذا القصد كان المنهج القويم والصراط المستقيم ومن عدل عنه وتعلم العلم لطلب الدنيا كان من الأخسرين أعمالاً الآية (ق).

عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم ويعطى الله ولم يزل أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة وحتى يأتي أمر الله» (ق).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا». عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد». أخرجه الترمذي وأصل الفقه في اللغة الفهم يقال فقه الرجل إذا فهم وفقه فقاهة إذا صار فقيهاً. وقيل: الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم وفي الاصطلاح الفقه عبارة عن العلم بأحكام الشرائع وأحكام الدين وذلك ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية ففرض العين معرفة أحكام الطهارة وأحكام الصلاة والصوم فعلى كل مكلف معرفة ذلك قال النبي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» ذكره البغوي بغير سند وكذلك كل عبادة وجبت على المكلف بحكم الشرع يجب عليه معرفة علمها مثل علم الزكاة إذا صار له مال يجب في مثله الزكاة وعلم أحكام الحج إذا وجب عليه.

وأما فرض الكفاية من الفقه، فهو أن يتعلم حتى يبلغ رتبة الاجتهاد ودرجة الفتيا وإذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعاً وإذا قام به من كل بلد واحد فتعلم حتى بلغ درجة الفتيا سقط الفرض عن الباقين وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث.

عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» أخرجه الترمذي مع زيادة

وقعدت طائفة يبتغون الخير. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن الطيسفوني حدّثنا عبد الله بن عمر الجوهري حدّثنا أحمد بن علي الكشمهيني حدّثنا علي بن حجر حدّثنا إسماعيل بن جعفر حدّثنا عبد الله بن أبي سعيد بن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين». أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال حدّثنا أبو العباس الأصمّ أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون النّاسَ معادنَ كمعادنِ الذهبِ والفضةِ، فخيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا». والفقه: هو معرفة أحكام الدين وهو ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين مثل علم الطهارة والصلاة والصوم فعلى كل مكلّف معرفته، قال النبي ﷺ: «طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم ومسلمةٍ»، وكذلك كل عبادة أوجبها الشرع على

فيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة» أخرجه الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة» أخرجه أبو داود.

الآية المحكمة هي التي لا اشتباه فيها ولا اختلاف في حكمها أو ما ليس بمنسوخ، والسنة القائمة هي المستمرة الدائمة التي العمل بها متصل لا يترك، والفريضة العادلة هي التي لا جور فيها ولا حيف في قضائها. قال الفضيل بن عياض: عالم عامل معلم يدعى عظيماً في ملكوت السموات. وأخرجه الترمذي موقوفاً وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة» قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار**﴾ أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب قال ابن عباس: مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها. وقال ابن عمر: هم الروم لأنهم كانوا مكان الشأم والشأم أقرب إلى المدينة من العراق. وقال بعضهم: هم الديلم. وقال ابن زيد: كان الذين يلونهم من الكفار العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم فأمروا بقتال أهل الكتاب وجهادهم حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد. ونقل عن بعض العلماء أنه قال: نزلت هذه الآية قبل الأمر بقتال المشركين كافة فلما نزلت: ﴿**وقاتلوا المشركين كافة**﴾ صارت ناسخة لقوله تعالى: ﴿**قاتلوا الذين يلونكم من الكفار**﴾ وقال المحققون من العلماء: لا وجه للنسخ، لأنه سبحانه وتعالى لما أمرهم بقتال المشركين كافة أرشدهم إلى الطريق الأصوب الأصلح وهو أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لأن قتالهم في دفعة واحدة لا يتصور، ولهذا السبب قاتل رسول الله ﷺ أولاً قومه، ثم انتقل منهم إلى قتال سائر العرب ثم انتقل إلي قتال أهل الكتاب وهم: قريظة، والنضير، وخيبر، وفدك، ثم انتقل إلى غزو الروم في الشأم فكان فتح الشأم في زمن الصحابة ثم إنهم انتقلوا إلى العراق ثم بعد ذلك إلى سائر الأمصار لأنه إذا قاتل الأقرب تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الأبعد.

كل واحد يجب عليه معرفتها ومعرفة علمها مثل علم الزكاة إن كان له مال، وعلم الحجّ إن وجب عليه. وأما فرض الكفاية هو أن يتعلّم حتى يبلغ درجة الاجتهاد ورتبة الفُتيا، فإذا قعد أهلُ بلد عن تعلّمه عصوا جميعاً وإذا قام من كل بلد واحد بتعلّمه سقط الفرض عن الآخرين، وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث، روى أبو أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلُ العَالِمِ على العابد كفضلي على أدناكم»، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد» قال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ يا أيها الذينَ آمنُوا قَاتِلُوا الذينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الكُفَّار ﴾ الآية، أُمِروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب، قال ابن عباس رضي الله عنهما مثل بني قريظة والنضير وخيبر ونحوها. وقيل: أراد بهم الروم لأنهم كانوا سكان الشام وكان الشام أقرب إلى المدينة من العراق، ﴿ وَلْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً ﴾، شِدّةً وحَمِيّة.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ يعني شدة وقوة وشجاعة والغلظة ضد الرقة. وقال الحسن: صبراً على جهادهم ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ يعني بالعون والنصرة.

قوله عز وجل: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾ يعني: وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن فمن المنافقين من يقول يعني يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه يعني السورة إيماناً يعني تصديقاً ويقيناً وإنما يقول ذلك المنافقون استهزاء وقيل: يقول ذلك المنافقون لبعض المؤمنين فقال سبحانه وتعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ يعني تصديقاً ويقيناً وقربة من الله، ومعنى الزيادة، ضم شيء إلى آخر من جنسه مما هو في صفته فالمؤمنون إذا أقروا بنزول سورة القرآن عن ثقة واعترفوا أنها من عند الله عز وجل زادهم ذلك القرار والاعتراف إيماناً وقد تقدم بسط الكلام على زيادة الإيمان في أول سورة الأنفال ﴿وهم يستبشرون﴾ يعني أن المؤمنين يفرحون بنزول القرآن شيئاً بعد شيء لأنهم كلما نزل ازدادوا إيماناً وذلك يوجب مزيد الثواب في الآخرة كما تحصل الزيادة في الإيمان بسبب نزول القرآن كذلك تحصل الزيادة في الكفر وهو قوله سبحانه ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك ونفاق سمي الشك في الدين مرضاً لأنه فساد في القلب يحتاج إلى علاج كالمرض في البدن إذا حصل يحتاج إلى العلاج ﴿فزادتهم﴾ يعني السورة من القرآن ﴿رجساً إلى رجسهم﴾ يعني كفراً إلى كفرهم وذلك أنهم كلما جحدوا نزول سورة أو استهزؤوا بها ازدادوا كفراً مع كفرهم الأول وسمي الكفر رجساً لأنه أقبح الأشياء وأصل الرجس في اللغة الشيء المستقذر ﴿وماتوا﴾ يعني هؤلاء المنافقين ﴿وهم كافرون﴾ يعني وهم جاحدون لما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ. قال مجاهد: في هذه الآية الإيمان يزيد وينقص وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه ويقول تعالوا حتى نزداد إيماناً. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إن الإيمان يبدو لمعة بيضاء في القلب وكلما ازدادا الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمعة سوداء في القلب وكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب كله، وأيم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود.

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ

قال الحسن: صبراً على جهادهم، ﴿ واعْلَمُوا أنّ اللّهَ معَ المتّقين ﴾، بالعون والنصرة.

قوله تعالى: ﴿ وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ فمنهُمْ مَّنْ يقولُ أيكم زادتْهُ هذهِ إيماناً ﴾، يقيناً. كان المنافقون يقولون هذا استهزاء، قال الله تعالى: ﴿ فأمّا الذينَ آمنُوا فزادتْهم إيماناً ﴾ يقيناً وتصديقاً، ﴿ وهم يستبشِرُون ﴾، يفرحون بنزول القرآن.

﴿ وأما الذين في قلوبهم مرضٌ ﴾، شكٌّ ونفاق، ﴿ فزادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ ﴾، أي: كفرهم فعند نزول كل سورة ينكرونها يزداد كفرهم بها. قال مجاهد: هذه الآية إشارة إلى الإيمان يزيد وينقص. وكان عمر: يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول تعالوا حتى نزداد إيماناً. وقال عليّ بـن أبي طالب: إن الإيمان يبدو لمعة بيضاء في القلب، فكلّما ازْدادَ الإيمانِ عِظَماً ازداد ذلك البياضُ حتى يبيضَ القلبُ كله، وإن النفاق يبدو لمعة سوداء في القلب فكلما ازدادَ النفاقُ ازدادَ السـوادُ حتى يسودّ القلبُ كله، وأيْمُ الله لـو شققتم عن قلب مؤمن لوجـدتموه أبيض ولـو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود. ﴿ وماتُوا وهُمْ كافرون ﴾.

صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أولا يرون﴾ قرىء ترون بالتاء على خطاب المؤمنين وقرىء بالياء على أنه خبر عن المنافقين المذكورين في قوله في قلوبهم مرض ﴿أنهم يفتنون﴾ يعني يبتلون ﴿في كل عام مرة أو مرتين﴾ يعني بالأمراض والشدائد. وقيل: بالقحط والجدب. وقيل: بالغزو والجهاد. وقيل: إنهم يفتضحون بإظهار نفاقهم. وقيل: إنهم ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون. وقيل إنهم ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين ﴿ثم لا يتوبون﴾ يعني من النفاق ونقض العهد ولا يرجعون إلى الله ﴿ولا هم يذكرون﴾ يعني ولا يتعظون بما يرون من صدق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ يعني فيها عيب المنافقين وتوبيخهم ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ يريدون بذلك الهرب يقول بعضهم لبعض إشارة ﴿هل يراكم من أحد﴾ يعني هل أحد من المؤمنين يراكم إن قمتم من مجلسكم فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحداً يراهم من المؤمنين أقاموا ولبثوا على تلك الحال ﴿ثم انصرفوا﴾ يعني عن الإيمان بتلك السورة النازلة. وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ما يكرهون ﴿صرف الله قلوبهم﴾ يعني عن الإيمان. وقال الزجاج: أضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ يعني لا يفقهون عن الله دينه ولا شيئاً فيه نفعهم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ هذا خطاب للعرب يعني: لقد جاءكم أيها العرب رسول من أنفسكم تعرفون نسبه وحسبه وأنه من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام قال ابن عباس ليس قبيلة من العرب إلا وقد ولدت النبي ﷺ وله فيهم نسب وقال جعفر بن محمد الصادق: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «إني خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح» هكذا ذكره الطبري وذكر البغوي بإسناد الثعلبي. عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء ما ولدني إلا نكاح كنكاح أهل الإسلام» قال قتادة: جعله الله من أنفسكم فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة. قال بعض العلماء في تفسير قول ابن عباس: ليس قبيلة من العرب إلا وقد ولدت النبي ﷺ، يعني: من مضرها وربيعتها ويمانها فأما ربيعة ومضر فهم من ولد معد بن عدنان وإليه تنسب قريش وهو منهم وأما نسبه إلى عرب اليمن وهم القحاطنة فإن آمنة لها نسب في الأنصار وإن كانت من قريش والأنصار أصلهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبأ فعلى هذا القول يكون المقصود من قوله: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم». ترغيب العرب في نصره والإيمان به فإنه تم شرفهم

قوله: ﴿ أَوَ لَا يَرَوْنَ ﴾، قرأ حمزة ويعقوب: « ترون » بالتاء على خطاب النبي والمؤمنين، وقرأ الآخرون بالياء خبر عن المنافقين المذكورين. ﴿ أنهم يُفتَنُونَ ﴾ يُبتلون ﴿ في كلِّ عامٍ مرّةً أو مرتين ﴾، بالأمراض والشدائد. وقال مجاهد: بالقحط والشدّة. وقال قتادة: بالغزو والجهاد. وقال مقاتل بن حيّان: يفضحون بإظهار نفاقهم. وقال عكرمة: ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون. وقال يمان: ينقضون عهدهم في السنة مرّةً أو مرتين. ﴿ ثمّ لَا يَتُوبُونَ ﴾، من نقض العهد ولا يرجعون إلى الله من النفاق، ﴿ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾، أي: لا يتّعظون بما يرون من تصديق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين.

﴿ وإذَا ما أُنزِلَتْ سُورةٌ ﴾، فيها عيب المنافقين وتوبيخهم، ﴿ نظرَ بعضُهم إلى بعض ﴾، يريدون الهرب

بشرفه وعزتهم بعزته وفخرهم بفخره وهو من عشيرتهم يعرفونه بالصدق والأمانة والصيانة والعفاف وطهارة النسب والأخلاق الحميدة. وقرأ ابن عباس والزهري: من أنفسكم بفتح الفاء. ومعناه: أنه من أشرفكم وأفضلكم (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت منه» (م) عن واثلة بن الأسقع قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم» عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ قال: قلت يا رسول الله إن قريشاً جلسوا يتذاكرون أحسابهم بينهم فقالوا مثلك كمثل نخلة في كدية من الأرض فقال رسول الله ﷺ «إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فريقهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» أخرجه الترمذي. وقيل إن قوله سبحانه وتعالى: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**﴾ عام فحمله على العموم أولى فيكون المعنى على هذا القول لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم يعني من جنسكم بشر مثلكم إذ لو كان من الملائكة لضعفت قوى البشر عن سماع كلامه والأخذ عنه.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**عزيز عليه ما عنتم**﴾ أي شديد عليه عنتكم يعني مكروهكم. وقيل: يشق عليه ضلالكم ﴿**حريص عليكم**﴾ حريص على إيمانكم وإيصال الخير إليكم وقال قتادة: حريص على هدايتكم وأن يهديكم الله ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ يعني أنه ﷺ رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين (ق).

عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي» وقد سماه الله رؤوفاً رحيماً. قال الحسن بن الفضل: لم يجمع الله سبحانه وتعالى لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا النبي ﷺ فسماه رؤوفاً رحيماً قال سبحانه وتعالى: ﴿**إن الله بالناس لرؤوف رحيم**﴾.

يقول بعضهم لبعض إشارة، ﴿ **هلْ يَراكم من أحدٍ** ﴾، أي: أحد من المؤمنين، إن قمتم فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحداً يراهم أقاموا وثبتوا، ﴿ **ثم انصَرَفُوا** ﴾، عن الإيمان بها. وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها، ﴿ **صرفَ اللَّهُ قلوبَهم** ﴾، عن الإيمان. قال أبو إسحاق الزجّاج: أضلّهمُ اللَّهُ مجازاةً على فعلهم ذلك، ﴿ **بأنهم قومٌ لا يفقهُون** ﴾، عن الله دينه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تقولوا إذا صلّيتم انصرفنا من الصلاة فإنّ قوماً انصرفُوا فصرفَ اللَّهُ قلوبَهم، ولكنْ قُولُوا قد قضينا الصلاة.

قوله تعالى: ﴿ **لقدْ جاءَكم رسولٌ من أنفسِكم** ﴾ تعرفون نسبه وحسبه، قال السدي: من العرب من بني إسماعيل. قال ابن عباس: ليس من العرب قبيلة إلاّ وقد ولدت النبي ﷺ، وله فيهم نسب. وقال جعفر بن محمد الصادق: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية من زمان آدم عليه السلام. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم أنا الثعلبي أنا عبد الله بن حامد حدّثنا حامد بن محمد أنا علي بن عبد العزيز حدّثنا محمد بن أبي نعيم حدّثنا هشيم حدّثني المدني يعني أبا معشر عن أبي الحويرث عن أبي عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء، ما ولدني إلاّ نكاح كنكاح الإسلام». وقرأ ابن عباس والزهري وابن محيصن « من أنفسكم » بفتح الفاء، أي: من أشرفكم وأفضلكم. ﴿ **عزيزٌ عليهِ** ﴾، شديد عليه، ﴿ **ما عَنِتّم** ﴾، قيل: ﴿ **ما** ﴾ صلة أي: عنتّكم، وهو دخول المشقّة والمضرّة عليكم. وقال القتيبي: ما أعنتكم وضرّكم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ضللتم. وقال الضحاك والكلبي: ما أتممتم. ﴿ **حريصٌ عليكم** ﴾، أي: على إيمانِكم وصلاحِكم. وقال قتادة: حريص عليكم أي على ضالّكم أن يهديه الله، ﴿ **بالمؤمنينَ**

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فإن تولوا﴾ يعني فإن أعرض هؤلاء الكفار والمنافقون عن الإيمان بالله ورسوله وناصبوك للحرب ﴿فقل حسبي الله﴾ يعني يكفيني الله وينصرني عليكم ﴿لا إله إلا هو عليه توكلت﴾ يعني لا على غيره وبه وثقت ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ إنما خص سبحانه وتعالى العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات فيدخل ما دونه في الذكر فيكون المعنى فهو رب العرش العظيم فما دونه أو يكون خصه بالذكر تشريفاً له كما يقال بيت الله، وروي عن أبي بن كعب أنه قال: هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر السورة آخر القرآن نزلا وفي رواية عنه أنه قال: أحدث القرآن عهداً بالله هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر الآيتين والله سبحانه وتعالى أعلم.

رؤُوفٌ رحيمٌ ﴾، قيل: رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين، ﴿ فإن تولَّوْا ﴾، إن أعرضوا عن الإيمان وناصبوك، ﴿ فقلْ حسبيَ اللَّهُ لا إلَه إلاّ هُوَ عليهِ توكّلتُ وهو ربُّ العرشِ العظيم ﴾. رُوِيَ عن أُبيّ بن كعب قال: آخر ما نـزل من القرآن هاتان الآيتان ﴿ لقدْ جاءَكم رسولٌ من أنفسِكم ﴾ إلى آخر السورة. وقال: هما أحدث الآيات بالله عهداً.

تفسير سورة يونس عليه الصلاة والسلام

نزلت بمكة إلا ثلاث آيات وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ إلى آخر الثلاثة آيات قاله ابن عباس وبه قال قتادة. وفي رواية أخرى: عن ابن عباس أن فيها من المدني قوله تعالى: ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به﴾ الآية، وقال مقاتل: هي مكية إلا آيتين وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ والتي تليها وهي مائة وتسع آيات وألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وتسعة آلاف وتسعة وتسعون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿الٓر﴾ قال ابن عباس والضحاك معناه أنا الله أرى وقال ابن عباس في رواية أخرى: عنه الٓر وحمٓ ونٓ حروف الرحمن مقطعة وبه قال سعيد بن جبير وسالم بن عبد الله وقال قتادة: الٓر اسم من أسماء القرآن وقيل هي اسم للسورة وقد تقدم الكلام في معنى الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما فيه كفاية ﴿تلك آيات الكتاب﴾ المراد في لفظ تلك الإشارة إلى الآيات الموجودة في هذه السورة ويكون التقدير تلك الآيات هي آيات الكتاب وهو القرآن الذي أنزله الله إليك يا محمد وذلك أن الله عز وجل وعده أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء ولا تغيره الدهور. وقيل: إن لفظة تلك للإشارة إلى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن. والمعنى: أن تلك الآيات هي آيات الكتاب الحكيم، وفيه قول آخر أن المراد بآيات الكتاب الكتب التي قبل القرآن حكاه الطبري عن قتادة. وروي عن مجاهد أنها التوراة والإنجيل فعلى هذا القول يكون التقدير أن الآيات المذكورة في هذه السورة هي الآيات المذكورة في التوراة أو الإنجيل والمراد من الآيات القصص المذكورة في هذه السورة وهذا وإن كان له وجه فهو ضعيف لأن التوراة والإنجيل

سُوْرَة يُونُس

سورة يونس عليه الصلاة والسلام مكيّة إلاّ ثلاث آيات من قوله: ﴿ فإنْ كنتَ في شكٍّ ممّا أنزلنا إليك ﴾ [٩٤ - ٩٦] إلى آخرها.

﴿ الٓر ﴾ و﴿ الٓمر ﴾ [الرعد: ١] قرأ أهل الحجاز والشام وحفص بفتح الراء وقرأ الآخرون بالإمالة، قال ابن عباس والضحاك: ﴿ الٓر ﴾ أنا الله أرى، و﴿ الٓمر ﴾ [الرعد: ١] أنا الله أعلم وأرى. وقال سعيد بن جبير: ﴿ الٓر ﴾ و﴿ حمٓ ﴾ [غافر: ١، فصّلت: ١، الزخرف: ١، الدخان: ١، الجاثية: ، الأحقاف: ١] و﴿ نٓ ﴾ [القلم: ١] حروف اسم الرحمن، وقد سبق الكلام في حروف التهجّي. ﴿ تِلْكَ آياتُ الكتابِ الحكيم ﴾، أي: هذا وأراد بالكتاب الحكيم القرآن. وقيل: أراد بها الآيات التي أنزلها من قبل ذلك، ولذلك قال: ﴿ تلك ﴾ وتلك إشارة إلى غائب مؤنث والحكيم المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام، فعيل بمعنى مفعل بدليل قوله:

لم يجر لهما ذكر قريب حتى يشار إليهما وقيل: إن المراد من الآيات حروف الهجاء التي منها الر سميت آيات لأنها افتتاح السور وسر القرآن ﴿الحكيم﴾ يعني المحكم الحلال والحرام والحدود والأحكام. فعيل: بمعنى مفعول. وقيل: الحكيم بمعنى الحاكم فعيل بمعنى فاعل لأن القرآن حاكم يميز بين الحق والباطل ويفصل الحلال من الحرام. وقيل: حكيم بمعنى المحكوم فيه فيعمل بمعنى مفعول. قال الحسن: حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى. وقيل: إن الحكيم هو الذي يفعل الحكمة والصواب فمن حيث إنه يدل على الأحكام صار كأنه هو الحكيم في نفسه.

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أكان للناس عجباً﴾ قال ابن عباس: سبب نزول هذه الآية أن الله عز وجل لما بعث محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك ومن أنكر منهم قال: الله أعظم من أن يكون له رسول بشر مثل محمد فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ الآية والهمزة في أكان همزة استفهام ومعناه الإنكار والتوبيخ والمعنى لا يكون ذلك عجباً ﴿أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ والعجب حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة. وقيل: العجب حالة تعتري الإنسان عند الجهل بسبب الشيء ولهذا قال بعض الحكماء: العجب ما لا يعرف سببه والمراد بالناس هنا أهل مكة وبالرجل محمد ﷺ منهم يعني من أهل مكة من قريش يعرفون نسبه وصدقه وأمانته ﴿أن أنذر الناس﴾ يعني خوفهم بعقاب الله تعالى إن أصروا على الكفر والمخالفة والإنذار إخبار مع تخويف كما أن البشارة إخبار مع سرور وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ اختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة في معنى قدم صدق. فقال ابن عباس: أجراً حسناً بما قدموا من أعمالم. وقال الضحاك: ثواب صدق. وقال مجاهد: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم. وقال الحسن: عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه. وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول يعني في اللوح المحفوظ. وقال زيد بن اسلم: هو شفاعة محمد ﷺ وهو

﴿ كتابٌ أُحكمتْ آياتُه ﴾ [هود: ١]، وقيل: هو بمعنى الحاكم، فعيل بمعنى فاعل دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأنزل معهم الكتابَ بالحق ليحكم بين الناس ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقيل: هو بمعنى المحكوم، فعيل بمعنى المفعول. قال الحسن: حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وحكم فيه بالجنة لمَن أطاعه وبالنار لمَن عصاه.

قوله تعالى: ﴿ أكانَ للناسِ عجباً ﴾، العجب حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة. وسبب نزول الآية أن الله عزّ وجلّ لمّا بعث محمداً ﷺ رسولاً، قال المشركون: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً. فقال تعالى: ﴿ أكانَ للناسِ ﴾ يعني: أهل مكة، الألِفُ فيه للتوبيخ، ﴿ عجباً أنْ أوْحَيْنا إلى رجل منهم ﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿ أن أنذرِ الناسَ ﴾، أي: أعلمهم مع التخويف، ﴿ وبشّر الذين آمنوا أنّ لهم قدَمَ صِدْقٍ عندَ ربِّهم ﴾، واختلفوا فيه، قال ابن عباس: أجراً حسناً بما قدّموا من أعمالهم. قال الضحاك: ثواب صدق. وقال الحسن: عمل

قول قتادة. وقيل: لهم منزلة رفيعة عند ربهم وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته كقوله مسجد الجامع وصلاة الأولى وحب الحصيد والفائدة في هذه الإضافة التنبيه على زيادة الفضل ومدح القدم لأن كل شيء أضيف إلى الصدق فهو ممدوح ومثله في مقعد صدق، وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم. يقال: لفلان قدم في الإسلام وقدم في الخير ولفلان عندي قدم صدق وقدم سوء. قال حسان بن ثابت:

لنـــا القـــدم العليـــا إليـــك وخلفنـــا لأولنـــا فـــي طـــاعـــة الله تـــابـــع

وقال الليث وأبو الهيثم القدم السابق والمعنى أنه قد سبق لهم عند الله خير قال ذو الرمة:

وأنـــت امـــرؤ مـــن أهـــل بيـــت ذؤابـــة لهـــم قـــدم معـــروفـــة ومفـــاخـــر

والسبب في إطلاق لفظ القدم على هذه المعاني أن السعي والسبق لا يحصل إلا بالقدم فسمي المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد. وقال ذو الرمة:

لكـــم قـــدم لا ينكـــر النـــاس أنهـــا مـع الحسـب العـادي طمت علـى البحـر

معناه لكم سابقة عظيمة لا ينكرها الناس وقال آخر:

صـــل لـــذي العـــرش واتخـــذ قـــدمـــاً تنجيـــك يـــوم العثـــار والـــزلـــل

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**قال الكافرون إن هذا لساحر مبين**﴾ وقرىء: لساحر مبين وفيه حذف تقديره أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم فلما جاءهم بالوحي وأنذرهم قال الكافرون: إن هذا لساحر، يعنون محمداً ﷺ، وإنما نسبوه إلى السحر لما أتاهم بالمعجزات الباهرات التي لا يقدر أحد من البشر أن يحصل مثلها، ومن قرأ السحر فإنهم عنوا به القرآن المنزل عليه وإنما نسبوه إلى السحر لأن فيه الإخبار بالبعث والنشور وكانوا ينكرون ذلك.

قوله عز وجل: ﴿**إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش**﴾ تقدم تفسير هذا في سورة الأعراف بما فيه كفاية.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**يدبر الأمر**﴾ قال مجاهد: يقضيه وحده. وقيل: معنى التدبير، تنزيل الأمور في مراتبها وعلى أحكام عواقبها. وقيل: إنه سبحانه وتعالى يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة وهو النظر في أدبار الأمور وعواقبها لئلا يدخل في الوجود ما لا ينبغي. وقيل: معناه إنه سبحانه وتعالى يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والأرض فلا يحدث حدث في العالم العلوي ولا في العالم السفلي إلا بإرادته وتدبيره وقضائه وحكمته ﴿**ما من شفيع إلا من بعد إذنه**﴾ يعني: لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن له في الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده وبموضع الصواب والحكمة في تدبيرهم فلا يجوز لأحد أن يسأله ما ليس له به علم فإذا أذن له في الشفاعة كان له أن يشفع فيمن يأذن له فيه وفيه رد على كفار قريش في قولهم: إن الأصنام تشفع لهم عند الله يوم القيامة

صالح أسلفوه يقدمون عليه. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: هو السعادة في الذكر الأول. وقال زيد بن أسلم: هو شفاعة الرسول ﷺ. وقال عطاء: مقام صدق لا زوال ولا بؤس فيه. وقيل: منزلة رفيعة. وأُضيف القدم إلى الصدق وهو نعته، كقولهم مسجد الجامع، وحبّ الحصيد، وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم يقال لفلان قدم في الإسلام، وله عندي قدم صدق وقدم سوء، وهو يؤنّث فيقال: قدم صالحة. ﴿ **قال الكافِرُون إنّ هذا لَساحِرٌ مُّبين** ﴾. قرأ نافع وأهل البصرة والشام: «لسحر» بغير ألف يعنون القرآن، وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة: «لساحر» بالألف يعنون محمداً ﷺ.

فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه لأن له التصرف المطلق في جميع العالم ﴿ذلكم الله ربكم﴾ يعني الذي خلق هذه الأشياء ودبرها هو ربكم وسيدكم لا رب لكم سواه ﴿فاعبدوه﴾ أي فاجعلوا عبادتكم له لا لغيره لأنه المستحق للعبادة بما أنعم عليكم من النعم العظيمة ﴿أفلا تذكرون﴾ يعني أفلا تتعظون وتعتبرون بهذه الدلائل والآيات التي تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ يعني إلى ربكم الذي خلق جميع المخلوقات مصيركم جميعاً أيها الناس يوم القيامة والمرجع بمعنى الرجوع ﴿وعد الله حقاً﴾ يعني وعدكم الله ذلك وعداً حقاً ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي يحييهم ابتداء ثم يميتهم ثم يحييهم وهذا معنى قول مجاهد فإنه قال يحييه ثم يميته ثم يحييه.

وفي هذه الآية دليل على إمكان الحشر والنشر والمعاد وصحة وقوعه ورد على منكري البعث ووقوعه، لأن القادر على خلق هذه الأجسام المؤلفة والأعضاء المركبة على غير مثال سبق، قادر على إعادتها بعد تفرقها بالموت والبلى، فيركب تلك الأجزاء المتفرقة تركيباً ثانياً ويخلق الإنسان الأول مرة أخرى وكما لم يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن في المرة الأولى لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى وإذا ثبت القول بصحة المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه إيصال الثواب للمطيع والعقاب للعاصي وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ يعني بالعدل لا ينقص من أجورهم شيئاً ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم﴾ هو ماء حار قد انتهى حره ﴿وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿هو الذي جعل الشمس ضياء﴾ يعني ذات ضياء ﴿والقمر نوراً﴾ يعني ذا نور.

واختلف العلماء أصحاب الكلام في أن الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض، والحق أنه عرض وهو كيفية مخصوصة فالنور اسم لأصل هذه الكيفية والضوء اسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية فلهذا خص

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّ رَبّكُمُ اللّهُ الذي خَلقَ السمواتِ والأرض في ستةِ أيّامٍ ثُمّ استوَى على العرشِ يُدبّرُ الأمرَ ﴾، يقضيه وحده، ﴿ ما مِن شفيعٍ إلاّ مِنْ بعدِ إذْنِهِ ﴾، معناه أن الشفعاء لا يشفعون إلاّ بإذنه، وهذا ردّ على النضر بن الحارث فإنه كان يقول: إذا كان يوم القيامة تشفعني اللات والعزّى. قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُم اللّهُ رَبُّكم ﴾، يعني: الذي فعل هذه الأشياء ربّكم لا ربّ لكم سواه، ﴿ فاعْبُدُوه أفلا تَذَكّرُون ﴾، تتعظون.

﴿ إليهِ مَرْجِعُكم جميعاً وَعْدَ اللّهِ حقّاً ﴾، صدقاً لا خلف فيه. نصب على المصدر، أي: وعدكم وعداً حقّاً ﴿ إنّه يبدأ الخلقَ ثم يعيده ﴾، أي: يُحييهم ابتداء ثم يُميتهم ثم يُحييهم، قراءة العامّة: «إنّـه» بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ أبو جعفر «أنه» بالفتح على معنى بأنه أو لأنه. ﴿ لِيَجزي الذينَ آمَنُوا وعمِلُوا الصّالِحَاتِ بالقِسْطِ ﴾، بالعدل، ﴿ والذينَ كفرُوا لهمْ شرابٌ من حَمِيمٍ ﴾، ماءٌ حارٌ انتهى حرُّه، ﴿ وعذابٌ أليم بما كانُوا يكفرون ﴾.

﴿ هو الذي جعلَ الشمسَ ضياءً ﴾، بالنهار، ﴿ والقمرَ نُوراً ﴾ بالليل. وقيل: جعل الشمس ذات ضياء، والقمرَ ذَا نُور. ﴿ وقدّرَه منازِلَ ﴾ أي: قدّر له يعني هيّأ له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها، ولم يقل: قدّرهما.

الشمس بالضياء لأنها أقوى وأكمل من النور وخص القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما لو تساويا لم يعرف الليل من النهار فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص بالقمر ﴿**وقدّره منازل**﴾ قيل: الضمير في وقدّره يرجع إلى الشمس والقمر والمعنى قدر لهما منازل أو قدر لسيرهما منازل لا يجاوزانهما في السير ولا يقصران عنهما وإنما وحد الضمير في وقدره للإيجاز أو اكتفى بذكر أحدهما دون الآخر فهو كقوله سبحانه وتعالى: ﴿**والله ورسوله أحق أن يرضوه**﴾ وقيل: الضمير في وقدره يرجع إلى القمر وحده لأن سير القمر في المنازل أسرع وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين وذلك لأن الشهور المعتبرة في الشرع مبنية على رؤية الأهلة والسنة المعتبرة في الشرع هي السنة القمرية لا الشمسية ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة: وهي الشرطين، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرغ الدلو المقدم، وفرغ الدلو المؤخر، وبطن الحوت، فهذه منازل القمر وهي مقسومة على اثني عشر برجاً وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، لكل برج منزلان وثلث منزل وينزل القمر كل ليلة منزلاً منهما إلى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين وإن كان تسعاً وعشرين اختفى ليلة واحدة ﴿**لتعلموا عدد السنين**﴾ يعني قدر هذه المنازل لتعلموا بها عدد السنين ووقت دخولها وانقضائها ﴿**والحساب**﴾ يعني: ولتعلموا حساب الشهور والأيام والساعات ونقصانها وزيادتها ﴿**ما خلق الله ذلك إلا بالحق**﴾ يعني للحق وإظهار قدرته ودلائل وحدانيته ولم يخلق ذلك باطلاً ولا عبثاً ﴿**يفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾ يعني يبين دلائل التوحيد بالبراهين القاطعة لقوم يستدلون بها على قدرة الله ووحدانيته ﴿**إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون**﴾ تقدم تفسير هذه الآية في نظائرها ﴿**إن الذين لا يرجون لقاءنا**﴾ يعني لا يخافون لقاءنا يوم القيامة فهم مكذبون بالثواب والعقاب والرجاء يكون بمعنى الخوف تقول العرب: فلان لا يرجو فلاناً بمعنى: لا يخافه، ومنه قوله سبحانه وتعالى ما لكم لا ترجون الله وقاراً ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

إذا لسعتـه النحـل لـم يـرج لسعهـا

قيل: تقدير المنازل ينصرف إليهما غير أنه اكتفى بذكر أحدهما، كما قال: ﴿ واللَّهُ ورسولُهُ أحقُّ أن يُرضوه ﴾ [التوبة: ٦٢]. وقيل: هو ينصرف إلى القمر خاصّة لأن القمر يُعرف به انقضاء الشهور والسنين لا بالشمس، ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً وأسماؤها الشرطين والبطين والثرياء والدبران، والهقعة والهنعة والذراع والنسر، والطوف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء، والسماك والغفر والزباني والإكليل والقلب، والشولة والنعايم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع، وسعد السعود وسعد الأخبية، وفرغ الدلو المقدّم وفرغ الدلو المؤخّر، وبطن الحوت، وهذه المنازل مقسومة على البروج، وهي اثنا عشر برجاً: الحمل والثور والجوزاء، والسرطان والأسد والسنبلة، والميزان والعقرب والقوس، والجدي والدلو والحوت، فلكل برج منزلان وثلث منزل، فينزل القمر كل ليلة منزلاً منها، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان تسعاً وعشرين فليلة واحدة، فيكون تلك المنازل ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يوماً وثلث يوم، فيكون انقضاء السنة مع انقضائها. قوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ ﴾، أي: قدر المنازل. ﴿ لتعلموا عددَ السنينَ ﴾ دخولهَا وانقضاءها، ﴿ والحِسَابَ ﴾، يعني: حساب الشهور والأيام والساعات. ﴿ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلكَ ﴾، ردّه إلى الخلق والتقدير ولولا ردُّه إلى الأعيان المذكورة لقال تلك، ﴿ إلاّ بالحقِّ ﴾، أي: لم يخلقه باطلاً بل إظهاراً لصنعه ودلالةً على قدرته. ﴿ يُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمُون ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو

أي لم يخفه. والرجاء يكون بمعنى الطمع، فيكون المعنى: لا يطمعون في ثوابنا ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ يعني: اختاروها وعملوا في طلبها فهم راضون بزينة الدنيا وزخرفها ﴿واطمأنوا بها﴾ يعني وسكنوا إليها مطمئنين فيها وهذه الطمأنينة التي حصلت في قلوب الكفار من الميل إلى الدنيا ولذاتها أزالت عن قلوبهم الوجل والخوف فإذا سمعوا الإنذار والتخويف لم يصل ذلك إلى قلوبهم ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ قيل المراد بالآيات أدلة التوحيد.

وقال ابن عباس: عن آياتنا يعني عن محمد ﷺ والقرآن؛ غافلون: أي معرضون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ يعني: من الكفر والتكذيب والأعمال الخبيثة.

قوله عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ يعني يهديهم ربهم إلى الجنان ثواباً لهم بإيمانهم وأعمالهم الصالحة وقال مجاهد: يهديهم على الصراط إلى الجنة: يجعل لهم نوراً يمشون به.

وقال قتادة: بلغنا أن المؤمن إذا خرج من قبره يصور له عمله في صورة حسنة فيقول له: من أنت فيقول: أنا عملك. فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة، والكافر بالضد، فلا يزال به عمله حتى يدخله النار وقال ابن الأنباري: يجوز أن يكون المعنى أن الله يزيدهم هداية بخصائص ولطائف وبصائر ينور بها قلوبهم ويزيل بها الشكوك عنهم ويجوز أن يكون المعنى ويثبتهم على الهداية وقيل معناه بإيمانهم يهديهم ربهم لدينه أي بتصديقهم هداهم ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ يعني بين أيديهم ينظرون إليها من أعالي أسرتهم وقصورهم فهو كقوله سبحانه وتعالى: ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ لم يرد به أنه تحتها وهي قاعدة عليه بل أراد بين يديها. وقيل: تجري بأمرهم ﴿في جنات النعيم﴾ يعني ذلك لهم جنات النعيم ﴿دعواهم فيها﴾ أي قولهم وكلامهم فيها. وقيل: الدعوى بمعنى الدعاء أي دعاؤهم فيها ﴿سبحانك اللهم﴾ وهي كلمة تنزيه لله تعالى من كل سوء ونقيصة. قال أهل التفسير: هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة

وحفص ويعقوب: «يفصل» بالياء، لقوله: ﴿ما خلق﴾ وقرأ الباقون: «نفصل» بالنون على التعظيم.

﴿ إنّ في اختِلافِ اللّيلِ والنّهارِ وما خلقَ اللّهُ في السّمٰواتِ والأرضِ لآيات لقومٍ يتّقون ﴾ يؤمنون.

﴿ إنّ الذين لا يرجون لقاءَنا ﴾، أي: لا يخافون عقابنا ولا يرجون ثوابنا، والرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع، ﴿ ورَضُوا بالحياةِ الدنيا ﴾، فاختاروها وعملوها، ﴿ واطْمَأَنُّوا بها ﴾، سكنوا إليها. ﴿ والذينَ هُمْ عن آياتِنا غافِلُون ﴾، أي: عن أدلّتنا غافلون لا يعتبرون. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عن آياتنا عن محمد ﷺ والقرآن غافلون معرضون.

﴿ أولئكَ مأوَاهُمُ النارُ بما كانُوا يكْسِبُون ﴾، من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿ إنّ الذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصّالحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهم بإيمانهم ﴾، فيه إضمار، أي: يرشدهم ربّهم بإيمانهم إلى جنة، ﴿ تجري من تحتِهِمُ الأنْهارُ ﴾، قال مجاهد: يهديهم على الصراط إلى الجنة يجعل لهم

والخدم في الطعام فإذا أرادوا الطعام قالوا: سبحانك اللهم فيأتونهم في الوقت بما يشتهون على الموائد كل مائدة ميل في ميل على كل مائدة سبعون ألف صحفة في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضاً فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله على ما أعطاهم فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿**وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**﴾ وقيل: إن المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال أهل الجنة بالتسبيح والتحميد والتقديس لله عز وجل والثناء عليه بما هو أهله وفي هذا الذكر والتحميد سرورهم وابتهاجهم وكمال لذتهم ويدل عليه ما روي عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وفي رواية التسبيح والحمد» أخرجه مسلم.

قوله جشاء أي يخرج ذلك الطعام جشاء وعرقاً.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وتحيتهم فيها سلام**﴾ يعني يحيي بعضهم بعضاً بالسلام. وقيل: تحييهم الملائكة بالسلام وقيل تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام ﴿**وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**﴾ قد ذكرنا أن جماعة من المفسرين حملوا التسبيح والتحميد على أحوال أهل الجنة بسبب المأكول والمشروب وأنهم إذا اشتهوا شيئاً قالوا: سبحانك اللهم فيحضر ذلك الشيء وإذا فرغوا منه. قالوا: الحمد لله رب العالمين فترفع الموائد عند ذلك وقال الزجاج: أعلم الله أهل الجنة يبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه. وقيل: إنهم يفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد. وقيل: إنهم يلهمون ذلك كما ذكر في الحديث قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولو يعجل الله للناس الشر**﴾ يعني ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر بما لهم فيه مضرة ومكروه في نفس أو مال. قال ابن عباس: هذا في قول الرجل لأهله وولده عند الغضب لعنكم الله لا بارك الله فيكم. وقال قتادة: هو دعاء الرجل على نفسه وماله وأهله وولده بما يكره أن يستجاب له فيه ﴿**استعجالهم بالخير**﴾ يعني كاستعجالهم بالخير وكما يحبون أن يعجل لهم إجابة دعائهم بالخير ﴿**لقضي إليهم أجلهم**﴾ يعني لفرغ من هلاكهم وماتوا جميعاً والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته والاستعجال طلب العجلة.

نوراً يمشون به. وقيل: يهديهم معناه يثيبهم ويجزيهم. وقيل: معناه بإيمانهم يهديهم ربّهم لدينه، أي: بتصديقهم هداهم تجري من تحتهم الأنهار أي: بين أيديهم، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ **قَدْ جعلَ ربُّكِ تحتكِ سريّاً** ﴾ [مريم: ٢٤] لم يُرد به أنه تحتها وهي قاعدة عليه، بل أراد بين يديها. وقيل: تجري من تحتهم أي: بأمرهم، ﴿ **في جنّاتِ النعيم** ﴾.

﴿ **دعْوَاهم** ﴾، أي: قولهم وكلامهم. وقيل: دعاؤهم. ﴿ **فيها سُبْحَانَكَ اللّهمّ** ﴾، وهي كلمة تنزيه، تنزّه الله من كل سوء. وروينا. «أن أهل الجنةُ يلهمون الحمدَ والتسبيح، كما يُلهمون النَّفَسَ». قال أهل التفسير: هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام فإذا أرادوا الطعام قالوا: سُبْحَانَكَ اللّهمَّ فأتوهم في الوقت بما يشتهون على الموائد، كل مائدة مِيلٌ في مِيل، على كل مائدة سبعون ألف صحفة، وفي كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضُها بعضاً فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله فذلك قولُه تعالى: ﴿ **وآخِرُ دَعْوَاهُم أنِ الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين** ﴾. قوله تعالى: ﴿ **وتحيّتُهم فيها سَلاَمٌ** ﴾ أي: يحيّ بعضهم بعضاً بالسلام وقيل: تحية الملائكة لهم بالسلام. وقيل: تأتيهم الملائكة من عند ربّهم بالسلام. ﴿ **وآخِرُ دَعْوَاهم أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين** ﴾، يريد يفتتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ولو يعجّلُ اللّهُ للناسِ الشرَّ استعجالَهم بالخير** ﴾، قال ابن عباس: هذا في قول الرجل

وقال ابن قتيبة: إن الناس عند الغضب والضجر قد يدعون على أنفسهم وأهلهم وأولادهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة وإعطاء السؤال يقال لو أجابهم الله إذا دعوه بالشر الذي يستعجلون به استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم يعني: لفرغ من هلاكهم ولكن الله عز وجل بفضله وكرمه يستجيب للداعي بالخير ولا يستجيب له في الشر. وقيل: إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فعلى هذا يكون المعنى ولو يعجل الله للكافرين العذاب كما عجل لهم خير الدنيا من المال والولد لعجل قضاء آجالهم ولهلكوا جميعاً ويدل على صحة هذا القول قوله سبحانه وتعالى: ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ يعني فندع الذين لا يخافون عقابنا ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت ﴿في طغيانهم﴾ يعني في تمردهم وعتوهم ﴿يعمهون﴾ يعني يترددون (ق).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «اللهم إني اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه فإنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة» قوله عز وجل:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وإذا مس الإنسان الضر﴾ أي الشدة والجهد والمراد بالإنسان في هذه الآية الكافر ﴿دعانا لجنبه﴾ أي على جنبه مضطجعاً ﴿أو قاعداً أو قائماً﴾ يريد جميع حالاته لأن الإنسان لا ينفك عن إحدى هذه الحالات الثلاث والمعنى أن المضرور لا يزال داعياً في جميع حالاته إلى أن ينكشف ضره سواء كان مضطجعاً أو قائماً أو قاعداً وهذا القول فيه بعد لأن ذكر الدعاء إلى هذه الأحوال أقرب من ذكر الضر ﴿فلما كشفنا عنه ضره﴾ يعني فلما أزلنا عنه ما نزل به من الضر

عند الغضب لأهله وولده: لعنكم الله ولا بارك الله فيكم. قال قتادة: هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره أن يستجاب. معناه لو يعجل الله الناس إجابة دعائهم في الشر والكروه استعجالهم بالخير، أي: كما يحبّون استعجالهم بالخير. ﴿ لَقُضِيَ إليهم أجلُهم ﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب: « لقَضَى » بفتح القاف والضاد، « أجلَهم » نصب، أي: لأهلك مَن دعى عليه وأماته. وقال الآخرون: ﴿ لقُضِي ﴾ بضم القاف وكسر الضاد﴿ أجلُهم ﴾ رفع، أي: لفرغ من هلاكهم ومَاتوا جميعاً. وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث حين قال: اللّهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، يدلّ عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿ فَنَذَرُ الذينَ لا يرجُونَ لقاءَنا ﴾، لا يخافون البعث والحساب، ﴿ في طُغْيَانِهم يعمَهُون ﴾. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران حدّثنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار أنبأنا أحمد بن منصور الزيادي حدّثنا عبد الرزّاق أنبأنا معمر عن همّام بن منبّه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ إنّي اتخذتُ عندك عهداً لن تُخْلِفْنِيه فإنّما أنا بشر فيصدر منّي ما يصدر من البشر، فأيّ المؤمنين آذنته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاةً وزكاةً وقُربةً تقرّبه بها إليك يوم القيامة».

قوله تعالى: ﴿ وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ ﴾، الجهد والشدّة، ﴿ دعانَا لِجَنْبِهِ ﴾، أي: على جنبه مضطجعاً،

ودفعنا عنه ﴿مر﴾ يعني على طريقته الأولى قبل مس الضر ﴿كأن لم يدعنا﴾ فيه حذف تقديره كأنه لم يدعنا وإنما أسقط الضمير على سبيل التخفيف ﴿إلى ضر مسه﴾ والمعنى أنه استمر على حالته الأولى قبل أن يمسه الضر ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء والضيق والفقر ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ يعني مثل ما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح كذلك زين للمسرفين والمزين هو الله سبحانه وتعالى لأنه مالك الملك والخلق كلهم عبيده يتصرف فيهم كيف يشاء وقيل المزين هو الشيطان وذلك بأقدار الله إياه على ذلك والمسرف هو المجاوز الحد في كل شيء وإنما سمي الكافر مسرفاً لأنه أتلف نفسه وضيعها في عبادة الأصنام وأتلف ماله وضيعه في البحائر والسوائب وما كانوا ينفقونه على الأصنام وسدنتها يعني خدامها. وقال ابن جريج: في قوله كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون يعني من الدعاء عند المصيبة وترك الشكر عند الرخاء. وقيل: كما زين لكم أعمالكم كذلك زين للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم. وبيان مقصود الآية أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء قليل الشكر عند حصول النعماء والرخاء فإذا مسه الضر أقبل على الدعاء والتضرع في جميع حالاته مجتهداً في الدعاء طالباً من الله إزالة ما نزل به من المحنة والبلاء فإذا كشف الله ذلك عنه أعرض عن الشكر ورجع إلى ما كان عليه أولاً وهذه حالة الغافل الضعيف اليقين فأما المؤمن العاقل فإنه بخلاف ذلك فيكون صابراً عند البلاء شاكر الله عند الرخاء والنعماء كثير التضرع والدعاء في جميع أوقات الراحة والرفاهية وهاهنا مقام أعلى من هذا وهو أن المؤمن إذا ابتلي ببلية أو نزل به مكروه يكون مع صبره على ذلك راضياً بقضاء الله غير معرض بالقلب عنه بل يكون شاكراً لله عز وجل في جميع أحواله وليعلم العبد المؤمن أن الله تبارك وتعالى مالك الملك على الإطلاق حكيم في جميع أفعاله وله التصرف في خلقه بما يشاء ويعلم أنه إن أبقاه على تلك المحنة فهو عدل وإن أزالها عنه فهو فضل.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم﴾ يعني أهلكنا الأمم الماضية من قبلكم يخوف بذلك كفار مكة ﴿لما ظلموا﴾ يعني لما أشركوا ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ يعني فكذبوهم ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ يعني: هذه الأمم برسلهم ويصدقوهم بما جاؤوا به من عند الله ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ يعني: كما أهلكنا الأمم الخالية لما كذبوا رسلهم كذلك نهلككم أيها المشركون بتكذيبكم محمداً ﷺ ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم﴾ الخطاب لأهل مكة الذين أرسل فيهم رسول الله ﷺ والمعنى ثم جعلناكم أيها الناس خلفاء في الأرض من بعد القرون الماضية الذين أهلكناهم ﴿لننظر كيف تعملون﴾ يعني خيراً أو شراً فنعاملكم على حسب أعمالكم والنظر هنا بمعنى العلم يريد لنختبر أعمالكم وهو يعلم ما يكون قبل أن يكون. قال أهل المعاني: معنى النظر، هو طلب العلم وجاز في وصف الله سبحانه وتعالى إظهاراً للعدل لأنه سبحانه وتعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون

﴿ أو قاعداً أو قائماً ﴾، يريد في جميع حالاته، لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات. ﴿ فلمّا كشفنَا ﴾، دفعنا ﴿ عنه ضُرَّهُ مـرَّ كأنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ ﴾، أي استمر على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء، كأنه لم يدعنا إلى ضُرٍّ مسّه أي: لم يطلب منّا كشف ضُرٍّ مسّه، ﴿ كذلك زُيِّن للمُسْرِفينَ ﴾ المجاوزين الحدَّ في الكفرِ والمعصية، ﴿ ما كانُوا يعمَلُون ﴾، من العصيان. قال ابن جريج: كذلك زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون من الدعاء عند البلاء وترك الشكر عند الرخاء. وقيل: معناه كما زَيّن لكم أعمالكم كذلك زيّن للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولقدْ أهلكنا القُرونَ مِن قبلِكم لمّا ظلمُوا ﴾ أشركوا، ﴿ وجاءَتهُم رُسلُهم بالبيّناتِ وما كانُوا لِيُؤمنُوا كذلك ﴾، أي: كما أهلكناهم بكفرهم، ﴿ نجزي ﴾، نعاقب ونهلك، ﴿ القومَ المُجرمين ﴾، الكافرين بتكذيبهم محمداً ﷺ، يُخوّف كفّار مكة بعذابِ الأمم الخالية المكذّبة.

منهم ليجازيهم بحسبه كقوله تبارك وتعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ذكره الواحدي والرازي (م) عن سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وأن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واحذروا فتنة النساء» أخرجه مسلم قوله فاتقوا الدنيا معناه احذروا فتنة الدنيا واحذروا فتنة النساء.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ يعني وإذا قرىء على هؤلاء المشركين آيات كتابنا الذي أنزلناه إليك يا محمد بينات يعني واضحات تدل على وحدانيتنا وصحة نبوتك ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ يعني قال هؤلاء المشركون الذين لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكراً للبعث فإنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ قال قتادة: قال ذلك مشركو مكة، وقال مقاتل: هم خمسة نفر عبد الله بن أمية المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر بن هشام، قال هؤلاء للنبي ﷺ: إن كنت تريد أن نؤمن بك فأت بقرآن غير هذا ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وإن لم ينزله الله عليك فقل أنت من عند نفسك أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ومكان حرام حلالاً ومكان حلال حراماً.

قال الإمام فخر الدين الرازي: اعلم أن إقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين: أحدهما، أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء وهو قولهم لو جئتنا بقرآن غير هذا القرآن أو بدلته لآمنا بك وغرضهم السخرية والاستهزاء. الثاني: أن يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان حتى أنه لو فعل ذلك علموا أنه كان كاذباً في قوله: إن هذا القرآن ينزل عليه من عند الله. ومعنى قوله: ائت بقرآن غير هذا أو بدله يحتمل أن يأتي بقرآن آخر مع وجود هذه القرآن والتبديل لا يكون إلا مع وجوده وهو أن يبدل بعض آياته بغيرها كما طلبوه ولما سألوا رسول الله ﷺ أمره الله أن يجيبهم بقوله ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء ﴿ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ يعني أن هذا الذي طلبتموه من التبديل ليس إليّ وما ينبغي لي أن أغيره من قبل نفسي ولم أومر به ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليّ﴾ يعني فيما آمركم به أو أنهاكم عنه وما أخبركم إلا ما يخبرني الله به وإن الذي أتيتكم به هو من عند الله لا من عندي ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ أي: قل لهم يا محمد إني أخشى من الله إن خالفت أمره أو غيرت أحكام كتابه أو بدلته فعصيته بذلك أن يعذبني بعذاب عظيم في يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت.

﴿ ثمّ جعلناكم خلائفَ ﴾، أي: خلفـاء، ﴿ في الأرضِ من بعدِهم ﴾، أي: من بعـد القرون التي أهلكناهم، ﴿ لِننْظُرَ كيفَ تعملُون ﴾، وهو أعلم بهم. وروينا عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا إنّ هذه الدنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ وإنّ اللّهَ مستخلفُكم فيها، فناظرٌ كيفَ تعملون».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيّنات ﴾، قال قتادة: يعني مُشركي مكة. وقال مقاتل: هم خمسة نفر عبد الله بـن أُميّة المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبيد الله بن أبي قيس العامري

قوله سبحانه وتعالى: ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله ﴿لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾ يعني لو شاء الله لم ينزل علي هذا القرآن ولم يأمرني بقراءته عليكم ﴿ولا أدراكم به﴾ قال ابن عباس: ولا أدراكم الله به ولا أعلمكم به ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله﴾ يعني فقد مكثت فيكم قبل أن يوحى إلي هذا القرآن مدة أربعين سنة لم آتكم بشيء ووجه هذا الاحتجاج أن كفار مكة كانوا قد شاهدوا رسول الله ﷺ قبل مبعثه وعلموا أحواله وأنه كان أمياً لم يطالع كتاباً ولا تعلم من أحد مدة عمره قبل الوحي وذلك أربعون سنة ثم بعد الأربعين جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس العلوم وأخبار الماضين وفيه من الأحكام والآداب ومكارم الأخلاق والفصاحة والبلاغة ما أعجز البلغاء والفصحاء عن معارضته فكل من له عقل سليم وفكر ثاقب يعلم أن هذا لم يحصل إلا بوحي من الله تعالى لا من عند نفسه وهو قوله ﴿أفلا تعلقون﴾ يعني أن هذا القرآن من عند الله أوحاه إليّ لا من قبل نفسي (ق) عن ابن عباس قال: أنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين ثم توفي ﷺ: وفي رواية أن رسول الله ﷺ أقام بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، وفي رواية أن النبي ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً وثمان سنين يوحى إليه وأقام بالمدينة عشراً أو توفي وهو ابن خمس وستين سنة أخرجاه في الصحيحين (ق) عن عائشة قالت: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة. أخرجاه في الصحيحين (م) عن أنس قال: قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة وأبو بكر وهو ابن ثلاث وستين وعمر وهو ابن ثلاث وستين أخرجه مسلم (ق).

عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال سمعت أنس بن مالك يصف رسول الله ﷺ يقول: كان ربعة من القوم ليس بالطويل البائن ولا بالقصير أزهر اللون ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم ليس بجعد قطط ولا سبط رجل أنزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه الوحي وبالمدينة عشراً وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء. أخرجاه في الصحيحين قال الشيخ محيي الدين النووي: ورد في عمره ﷺ ثلاث روايات إحداها أنه ﷺ توفي وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة ثلاث وستون سنة وهو أصحها وأشهرها رواها مسلم من حديث أنس وعائشة وابن عباس واتفق العلماء على أن أصحها ثلاث وستون سنة وتأولوا الباقي عليه فرواية ستين سنة اقتصر فيها على العقود وترك الكسر ورواية الخمس متأولة أيضاً بأنها حصل فيها اشتباه. قوله: يسمع الصوت، يعني صوت الهاتف من الملائكة ويرى الضوء يعني ضوء الملائكة أو نور آيات الله حتى رأى الملك بعينه وشافهه بالوحي من الله عز وجل وقوله ليس بالأبيض الأمهق المراد به الشديد البياض كلون الجص وهو كريه المنظر وربما توهم الناظر أنه برص. والمراد: أنه كان أزهر اللون بين البياض والحمرة.

والعاص بن عامر بن هشام. ﴿ قالَ الذينَ لا يَرجُون لقاءَنا ﴾، هم السابق ذكرهم قالوا للنبي ﷺ: إن كنت تريد أن نؤمن بك ﴿ إئتِ بقرآن غير هذا ﴾، ليس فيه ترك عبادة اللّاتِ والعُزّى ومَناة، وليس فيه عيبها، وإن لم ينزلها الله فقلْ أنت من عند نفسك، ﴿ أو بدِّلْهُ ﴾، فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة، أو مكان حراماً حلالاً أو مكان حلالاً حراماً، ﴿ قلْ ﴾ لهم يا محمد، ﴿ ما يكونُ لي أن أُبدِّلَه من تلقاء نفسي ﴾، من قِبَلِ نفسي ﴿ إنْ أتبعُ إلّا ما يُوحى إليّ ﴾، أي: ما أتبع إلّا ما يُوحي إليّ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿ إني أخافُ إنْ عصيتُ ربّي عذابَ يوم عظيم ﴾.

﴿ قلْ لو شاءَ الله ما تلوتُه عليكم ﴾، يعني: لو شاء الله ما أنزل القرآن عليّ. ﴿ ولا أدْراكم بهِ ﴾، أي: ولا أعلمكم الله. قرأ البزي عن ابن كثير: «ولأدراكم به» بالقصر به على الإنجاب، يريد ولا علّمكم به من غير قراءتي

قوله عز وجل: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ يعني فزعم أن له شريكاً وولداً والمعنى: أني لم أفتر على الله كذباً ولم أكذب عليه في قولي إن هذا القرآن من عند الله وأنتم قد افتريتم على الله الكذب فزعمتم أن له شريكاً وولداً والله تعالى منزه عن الشريك والولد وقيل: معناه إن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان أحد في الدنيا أظلم على نفسه مني من حيث إني أفتريته على الله ولما كان هذا القرآن من عند الله أوحاه إليّ وجب أن يقال ليس أحد في الدنيا أجهل ولا أظلم على نفسه منكم من حيث إنكم أنكرتم أن يكون هذا القرآن من عند الله فقد كذبتم بآياته وهو قوله تعالى: ﴿أو كذب بآياته﴾ يعني جحد بكون القرآن من عند الله وأنكر دلائل التوحيد ﴿إنه لا يفلح المجرمون﴾ يعني المشركون وهذا وعيد وتأكيد لما سبق.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ يعني: ويعبد هؤلاء المشركون الأصنام التي لا تضرهم إن عصوها وتركوا عبادتها ولا تنفعهم إن عبدوها لأنها حجارة وجماد لا تضر ولا تنفع وإن العبادة أعظم أنواع التعظيم فلا تليق إلا بمن يضر وينفع ويحيي ويميت وهذه الأصنام جماد وحجارة لا تضر ولا تنفع ﴿ويقولون هؤلاء﴾ يعني الأصنام التي يعبدونها ﴿شفعاؤنا عند الله﴾ قال أهل المعاني: توهموا أن عبادتها أشد من تعظيم الله من عبادتهم إياه وقالوا لسنا بأهل أن نعبد الله ولكن نشتغل بعبادة هذه الأصنام فإنها تكون شافعة لنا عند الله ومنه قوله سبحانه وتعالى إخباراً عنهم ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ وفي هذه الشفاعة قولان:

أحدهما: أنهم يزعمون أنها تشفع لهم في الآخرة قاله ابن جريج عن ابن عباس.

عليكم. وقرأ ابن عباس: «ولا أنذرتُكم بهِ»، من الإنذار. ﴿ فقدْ لبثتُ فيكم عُمراً ﴾، حيناً وهو أربعون سنة، ﴿ من قبله ﴾، من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء. ﴿ أفلاَ تعقِلُون ﴾، أنه ليس من قبلي، ولبث النبي ﷺ فيهم قبل الوحي أربعين سنة ثم أوحى الله إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستّين سنة، ورَوى أنسٌ: أنه أقام بمكة بعد الوحي عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ستّين سنة. والأول أشهر وأظهر.

قوله تعالى: ﴿ فمَنْ أظلمُ ممَّنِ افترى على اللَّهِ كذباً ﴾، فزعم أن له شريكاً أو ولداً ﴿ أو كذَّبَ بآياتِه ﴾، بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿ إنّه لا يُفلح المُجْرِمُون ﴾، لا ينجو المشركون.

﴿ ويعبدون من دونِ اللَّهِ ما لا يضرُّهم ﴾، إن عصوه وتركوا عبادته، ﴿ ولا ينفعهُم ﴾، إن عبدوه، يعني: الأصنام، ﴿ ويقولون هؤلاءِ شفعاؤنا عندَ اللَّهِ قلْ أتنبّئونَ اللَّهَ ﴾ أتخبرون الله، ﴿ بما لاَ يعلم ﴾، الله صحته، ومعنى الآية: أتخبرون الله أن له شريكاً وعنده شفيعاً بغير إذنه ولا يعلم الله لنفسه شريكاً، ﴿ في السمٰوات ولاَ في

والثاني: أنها تشفع لهم في الدنيا في إصلاح معايشهم قاله الحسن لأنهم كانوا لا يعتقدون بعثاً بعد الموت ﴿**قل**﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿**أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض**﴾ يعني: أتخبرون الله أن له شريكاً ولا يعلم الله لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض. وهذا على طريق الإلزام. المقصود: نفي علم الله بذلك الشفيع وأنه لا وجود له البتة لأنه لو كان موجوداً لعلمه الله وحيث لم يكن معلوماً لله وجب أن لا يكون موجوداً ومثل هذا مشهور في العرف فإن الإنسان إذا أراد نفي شيء حصل في نفسه يقول: ما علم الله ذلك مني مقصوده أنه ما حصل ذلك الشيء منه قط ولا وقع ﴿**سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن الشركاء والأضداد والأنداد وتعالى أن يكون له شريك في السموات والأرض ولا يعلمه.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا**﴾ يعني: فتفرقوا إلى مؤمن وكافر يعني كانوا جميعاً على الدين الحق وهو دين الإسلام ويدل على ذلك أن آدم عليه السلام وذريته كانوا على دين الإسلام إلى أن قتل قابيل هابيل ثم اختلفوا. وقيل: بقوا على ذلك إلى زمن نوح عليه السلام ثم اختلفوا فبعث الله نوحاً. وقيل: إنهم كانوا على دين الإسلام وقت خروج نوح ومن معه من السفينة ثم اختلفوا بعد ذلك وقيل كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحي. فعلى هذا القول، يكون المراد من الناس في قوله «وما كان الناس إلا أمة واحدة» العرب خاصة.

وقيل: كان الناس أمة واحدة في الكفر. وهذا القول منقول عن جماعة من المفسرين ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ وتقديره: أنه لا مطمع في أن يصير الناس على دين واحد فإنهم كانوا أولاً على الكفر وإنما أسلم بعضهم ففيه تسلية للنبي ﷺ. وقيل: كان الناس أمة واحدة. وليس في الآية ما يدل على أي دين كانوا من إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج. وقيل: معناه أنهم كانوا في أول الخلق على الفطرة السليمة الصحيحة ثم اختلفوا في الأديان وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» والمراد بالفطرة في الحديث، فطرة الإسلام. قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك**﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى جعل لكل أمة أجلاً وقضى بذلك في سابق الأزل، قال الكلبي: هي إمهال هذه الأمة وأنه لا يهلكهم بالعذاب ﴿**لقضي بينهم**﴾ يعني بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فصلاً بينهم ﴿**فيما فيه يختلفون**﴾ وقال الحسن: ولولا كلمة سبقت من ربك يعني مضت في حكمة الله أنه لا يقضي عليهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون يوم القيامة لقضى بينهم في الدنيا فأدخل المؤمنين الجنة بإيمانهم وأدخل

الأرض سُبْحَانَه وتعالَى عمّا يُشْرِكُون ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «تشـركون» بالتاء هاهنا وفي سورة النحل [١ و٣] موضعين، وفي سورة الروم [٣٣]، وقرأ الآخرون كلها بالياء.

قوله تعالى: ﴿ **وما كانَ الناسُ إلاّ أُمّةً واحدةً** ﴾، أي: على الإسلام. وقد ذكرنا الاختلاف فيه في سورة البقرة. ﴿ **فاختلفوا** ﴾، وتفرقوا إلى مؤمن وكافر، ﴿ **ولَوْلاَ كلمةٌ سبقتْ مِّن رَّبِّكَ** ﴾، بأن جعل لكل أُمّة أجلاً. وقال الكلبي: هي إمهال هذه الأمة وأنه لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا، ﴿ **لَقُضِيَ بينهم** ﴾، بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين، وكان ذلك فصلاً بينهم، ﴿ **فيما فيه يختلفون** ﴾، وقال الحسن: ولولا كلمة سبقت من ربّك مضت في حكمه أنه لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة، لقضي بينهم في الدنيا فأدخل المؤمن الجنّة والكافر النار، ولكنه سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة.

﴿ **ويقولُون** ﴾، يعني: أهل مكة، ﴿ **لولا أُنزلَ عليه** ﴾، أي: على محمد ﷺ، ﴿ **آيةٌ مِّن رَّبِّه** ﴾، على ما

الكافرين النار بكفرهم ولكن سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة وقيل سبق من الله أنه لا يؤاخذ أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه. وقيل: الكلمة التي سبقت من الله هي قوله: ﴿إن رحمتي سبقت غضبي﴾ ولولا رحمته، لعجل لهم العقوبة في الدنيا ولكن أخرهم برحمته إلى يوم القيامة ثم يقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون يعني في الدنيا ﴿ويقولون﴾ يعني كفار مكة ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ يعني هلا نزل على محمد ما نقترحه عليه من الآيات ﴿فقل﴾ أي: فقل لهم يا محمد ﴿إنما الغيب لله﴾ يعني إن الذي سألتمونيه هو من الغيب وإنما الغيب لله لا يعلم أحد ذلك إلا هو والمعنى لا يعلم أحد متى نزول الآية إلا هو ﴿فانتظروا﴾ يعني نزولها ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ وقيل معناه فانتظروا قضاء الله بيننا بإظهار المحق على المبطل إني معكم من المنتظرين قوله عز وجل: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ يعني رخاء ونعمة ﴿من بعد ضراء مستهم﴾ يعني من بعد شدة وبلاء وضيق في العيش أصابهم والمراد بالناس هنا: كفار مكة، وذلك أن الله سبحانه وتعالى حبس عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط، ثم إن الله سبحانه وتعالى رحمهم، فأنزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك الضر فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا إلى الفساد والكفر والمكر وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾ قال مجاهد: أي تكذيب واستهزاء وقال مقاتل وابن حيان: لا يقولون هذا رزق الله إنما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا. ويدل على صحة هذا القول ما روي عن زيد بن خالد الجهني قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف، أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: قال «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب» أخرجاه في الصحيحين. قوله: على أثر سماء كانت من الليل أي مطر كان قد وقع في الليل وسمي المطر سماء لأنه يقطر من السماء. والأنواء عند العرب: هي منازل القمر إذا طلع نجم سقط نظيره وكانوا يعتقدون في الجاهلية أنه لا بد عند ذلك من وجود مطر أو ريح كما يزعم المنجمون أيضاً فمن العرب من يجعل ذلك التأثير للطالع لأنه ناء أي ظهر وطلع ومنهم من ينسبه للغارب فنفى النبي عليه السلام صحة ذلك ونهى عنه وكفَّر معتقده إذا اعتقد أن النجم فاعل ذلك التأثير وأما من يجعله دليلاً، فهو جاهل بمعنى الدلالة. وأما من أسند ذلك إلى العادة التي يجوز انخرامها فقد كرهه قوم وحرمه قوم ومنهم من تأول الكفر بكفر نعمة الله والله أعلم وسمى تكذيبهم بآيات الله مكراً لأن المكر عبارة عن صرف الشيء عن وجهه الظاهر بنوع من الحيلة وكان كفار مكة يحتالون في دفع آيات الله بكل ما يقدرون عليه من المفاسد: ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ أي: قل لهم يا محمد الله أعجل عقوبة وأشد أخذاً وأقدر على الجزاء وإن عذابه في هلاكهم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق ولما قابلوا نعمة الله بالمكر، قابل مكرهم بمكر أشد منه وهو إمهالهم إلى يوم القيامة ﴿إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ يعني الحفظة الكرام

نقترحه، ﴿ فقلْ إنما الغيبُ لله ﴾، يعني: قل إنما سألتموني الغيب وإنما الغيب لله، لا يعلم أحد لِمَ لمْ يفعلْ ذلك ولا يعلمه إلاّ هو. وقيل: الغيب نزول الآية لا يعلم متى ينزل أحد غيره، ﴿ فانتظرُوا ﴾ نزولها ﴿ إني معكم منَ المنتظرين ﴾، وقيل: فانتظروا قضاء الله بيننا بالحق بإظهار المحقّ على المبطل.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا أَذَقْنا النّاس ﴾، يعني: الكفّار، ﴿ رحمةً منْ بعدِ ضَرّاء ﴾، أي: راحة ورخاء من بعد شدّة وبلاء. وقيل: القطر بعد القحط، ﴿ مسّتْهم ﴾، أي: أصابتهم، ﴿ إذا لهم مكرٌ في آياتِنَا ﴾، قال مجاهد: تكذيب واستهزاء وقال مقاتل بن حيان: لا يقولون هذا من رزق الله إنما يقولون سُقِينَا بِنَوْءِ كذا، وهو قوله: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ [الواقعة: ٨٢]. ﴿ قُلِ اللَّهُ أسرعُ مكراً ﴾، أعجل عقوبة وأشدّ أخذاً وأقدر على الجزاء، يريد عذابه في إهلاككم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق، ﴿ إنّ رُسلَنَا ﴾، حفظتنا، ﴿ يكتبُون

الكاتبين يكتبون ويحفظون عليهم الأعمال القبيحة السيئة إلى يوم القيامة حتى يفتضحوا بها ويجزون على مكرهم قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ يعني: هو الله الذي يسيركم يعني يحملكم في البر على ظهور الدواب وفي البحر على الفلك. وقيل: معناه هو الله الهادي لكم في السير في البر والبحر طلباً للمعاش أو هو المهيء لكم أسباب السير في البر والبحر **﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾** يعني: السفن. ولفظة الفلك: تطلق على الواحد والجمع وتقديراهما مختلفان فإن أريد بها الواحد كان كبناء قفل، وإن أريد بها الجمع كان كبناء أسد والمراد بها هنا الجمع لقوله تعالى: **﴿وجرين بهم﴾** يعني: وجرت السفن بركابها.

فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: قال صاحب الكشاف: المقصود منه المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم مزيد الإنكار والتقبيح وقال غيره إن مخاطبة الله لعباده على لسان نبيه ﷺ بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه أن يرده إلى الغائب. وقيل: إن الالتفات في الكلام من الغيبة إلى الحضور وبالعكس من فصيح كلام العرب **﴿بريح طيبة﴾** يعني وجرت السفن بريح طيبة ساكنة **﴿وفرحوا بها﴾** يعني وفرح ركبان تلك الفلك بتلك الريح الطيبة، لأن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود حصل له النفع التام والمسرة العظيمة بذلك **﴿جاءتها ريح عاصف﴾** قيل: إن الضمير في جاءتها يرجع إلى الريح فيكون المعنى: جاءت الريح الطيبة ريح عاصف فأقلبتها. وقيل: الضمير في جاءتها يرجع إلى الفلك. يعني: جاءت الفلك. ريح عاصف. يقال: ريح عاصف وعاصفة، ومعنى عصفت الريح: اشتدت. وأصل العصف: السرعة وإنما قال: عاصف، لأنه أراد به ذات عصوف أو لأجل أن لفظ الريح قد يذكر **﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾** يعني: وجاء ركبان السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من غوارب الماء في البحر وقيل: هو شدة حركة الماء واختلاطه **﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾** يعني: وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم وأحدق. وقيل: المراد من الظن اليقين أي وأيقنوا أنه الهلاك. وقيل: بل المراد منه المقاربة من الهلاك والدنو منه والإشراف عليه **﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾** يعني أنهم أخلصوا في الدعاء لله عز وجل ولم يدعوا أحداً سواه من آلهتهم وقيل في معنى هذا الإخلاص

ما تمكُرُون ﴾، قرأ روح عن يعقوب: «يمكرون» بالياء.

قوله تعالى: **﴿ هو الذي يُسيّركم ﴾**، يجريكم ويحملكم وقرأ أبو جعفر وابن عامر: «ينشركم» بالنون والشين من النشر وهو البسيط والبثّ، **﴿ في البرِّ ﴾**، على ظهور الدواب، **﴿ و ﴾** في **﴿ البحر ﴾**، على الفلك، **﴿ حتى إذا كنتم في الفُلْك ﴾**، أي: في السفن، تكون واحداً وجمعاً **﴿ وجَرَيْنَ بهم ﴾**، يعني: جرت السفن بالناس، رجع من الخطاب إلى الغيبة، **﴿ بريحٍ طيبةٍ ﴾** ليّنة، **﴿ وفرِحُوا بها ﴾**، أي: بالريح، **﴿ جاءتْها رِيحٌ ﴾**، أي: جاءت الفلك ريح، **﴿ عاصفٌ ﴾**، شديدة الهبوب، ولم يقل ريح عاصفة، لاختصاص الريح بالعصوف. وقيل: الريح يُذكّر ويؤنّث. **﴿ وجاءَهم ﴾**، يعني: ركبان السفينة، **﴿ الموجُ ﴾**، وهو حركة الماء واختلاطه، **﴿ منْ كلِّ مكانٍ

العلم الحقيقي لا إخلاص الإيمان لأنهم كانوا يعلمون حقيقة آنه لا ينجيهم من جميع الشدائد والبلايا إلا الله تعالى فكانوا إذا وقعوا في شدة وضر وبلاء أخلصوا لله الدعاء ﴿لئن أنجيتنا﴾ أي قائلين لئن أنجيتنا يا ربنا ﴿من هذه﴾ يعني من هذه الشدائد التي نحن فيها وهي الريح العاصفة والأمواج الشديدة ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ يعني من الشاكرين لك على إنعامك علينا بخلاصنا مما نحن فيه من هذه الشدة ﴿فلما أنجاهم﴾ يعني: فلما أنجى الله هؤلاء الذين ظنوا أنهم أحيط بهم من الشدة التي كانوا فيها ﴿إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ يعني أنهم أخلفوا الله ما وعدوه وبغوا في الأرض فتجاوزوا فيها إلى غير ما أمر الله به من الكفر والعمل بالمعاصي على ظهرها وأصل البغي مجاوزة الحد.

قال صاحب المفردات: البغي على ضربين، أحدهما محمود وهو مجاوزة العدل إلى الإحسان والفرض إلى التطوع.

والثاني مذموم وهو مجاوزة الحق إلى الباطل أو إلى الشبهة.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما معنى قوله بغير الحق والبغي لا يكون بحق قلت بلى قد يكون بحق وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقلع أشجارهم كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ يعني: إن وبال بغيكم راجع عليكم ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ قيل هو كلام مبتدأ، والمعنى: أن بغي بعضكم على بعض هو متاع الحياة الدنيا لا يصلح لزاد الآخرة وقيل هو كلام متصل بما قبله والمعنى يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم لا يتهيأ أن يبغي بعضكم على بعض إلا أياماً قليلة وهي مدة حياتكم مع قصرها في سرعة انقضائها. والبغي: من منكرات الذنوب العظام. قال بعضهم: لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي.

وقد نظم بعضهم هذا المعنى شعراً وكان المأمون يتمثل به فقال:

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة ... فارجع فخير مقال المرء أعدله
فلو بغى جبل يوماً على جبل ... لاندك منه أعاليه وأسفله

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ يعني يوم القيامة ﴿فننبئكم﴾ أي فنخبركم ﴿بما كنتم تعملون﴾ يعني في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا

﴿وظنّوا﴾، أيقنوا ﴿أنهم أُحيطَ بِهِم﴾، دنوا من الهلكة، أي: أحاط بهم الهلاك، ﴿دَعُوا اللّهَ مخلصِينَ لهُ الدِّين﴾، أي: أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحداً سوى الله. وقالوا: ﴿لئنْ أنجيتنا﴾، يا ربّنا، ﴿منْ هذه﴾، الريح العاصف، ﴿لنكونَنّ منَ الشّاكِرين﴾، لك بالإيمان والطاعة.

﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض﴾، يظلمون ويتجاوزون إلى غير أمر الله عزّ وجلّ في الأرض، ﴿بغيرِ الحقّ﴾، أي: بالقتال. ﴿يا أيّها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم﴾، لأن وباله راجع عليها، ثم ابتدأ فقال: ﴿متاعُ الحياةِ الدنيا﴾، أي: هذا متاع الحياة الدنيا، خبر ابتداء مضمر، كقوله: ﴿لم يَلْبَثُوا إلّا ساعةً من نهارٍ بلاغ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أي: هذا بلاغ. وقيل: هو كلام متصل، والبغي ابتداء ومتاع خبره، ومعناه: إنما بغيكم متاع الحياة الدنيا لا يصلح زاداً لمعادٍ لأنكم تستوجبون به غضب الله. وقرأ حفص «متـاع» بالنصب، أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ﴿ثم إلينا مَرْجِعُكم فننبئُكم بما كنتُم تعملون﴾.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا**﴾ يعني في فنائها وزوالها ﴿**كماء أنزلناه من السماء**﴾ يعني المطر ﴿**فاختلط به**﴾ أي بالمطر ﴿**نبات الأرض**﴾ قال ابن عباس: نبت بالماء من كل لون ﴿**مما يأكل الناس**﴾ يعني من الحبوب والثمار ﴿**والأنعام**﴾ يعني ومما يأكل الأنعام من الحشيش ونحوه ﴿**حتى إذا أخذت الأرض زخرفها**﴾ يعني حسنها ونضارتها وبهجتها وأظهرت ألوان زهرها من أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من الزهور ﴿**وازينت**﴾ أي وتزينت ﴿**وظن أهلها**﴾ يعني أهل تلك الأرض ﴿**أنهم قادرون عليها**﴾ يعني على جذاذها وقطافها وحصادها، رد الكناية إلى الأرض والمراد النبات إذ كان مفهوماً. وقيل: رده إلى الثمرة والغلة وقيل: إلى الزينة ﴿**أتاها أمرنا**﴾ أي قضاؤنا بهلاكها ﴿**ليلاً أو نهاراً**﴾ يعني في الليل أو النهار ﴿**فجعلناها حصيداً**﴾ يعني محصودة مقطوعة ﴿**كأن لم تغن بالأمس**﴾ يعني: كأن لم تكن تلك الأشجار والنبات والزروع نابتة قائمة على ظهر الأرض وأصله من غنى فلان بالمكان إذا أقام به وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمتشبثين بالدنيا الراغبين في زهرتها وحسنها وذلك أنه تعالى لما قال: يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا، أتبعه بهذا المثل لمن بغى في الأرض وتجبر فيها وركن إلى الدنيا وأعرض عن الآخرة لأن النبات في أول بروزه من الأرض ومبدأ خروجه يكون ضعيفاً فإذا نزل عليه المطر واختلط به قوي وحسن واكتسى كمال الرونق والزينة وهو المراد من قوله حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت يعني بالنبات والزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء وجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون حسن من حمرة وخضرة وصفرة وبياض ولا شك أن الأرض متى كانت على هذه الصفة فإنه يفرح بها صاحبها ويعظم رجاؤه في الانتفاع بها وبما فيها ثم إن الله سبحانه وتعالى أرسل على هذه الأرض صاعقة أو برداً أو ريحاً فجعلها حصيداً كأن لم تكن من قبل.

قال قتادة: إن المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون.

ووجه التمثيل، أن غاية هذه الحياة الدنيا التي ينتفع بها المرء كناية عن هذا النبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه، ولأن المتمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذاتها. وقيل: يحتمل أن يكون ضرب هذا المثل لمن ينكر المعاد والبعث بعد الموت وذلك، لأن الزرع إذا انتهى وتكامل في الحسن إلى الغاية القصوى أتته آفة فتلف بالكلية. ثم إن الله سبحانه وتعالى قادر على إعادته كما كان أول مرة فضرب الله سبحانه وتعالى هذا المثل ليدل على أن من قدر على إعادة ذلك النبات بعد التلف كان قادراً على إعادة الأموات أحياء في الآخرة ليجازيهم على أعمالهم فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنّما مَثَلُ الحياةِ الدنيا ﴾، في فنائها وزوالها، ﴿ كماءٍ أنزلناهُ مِنَ السماءِ فاختَلَطَ به ﴾، أي: بالمطر، ﴿ نباتُ الأرضِ ﴾، قال ابن عباس: نبت بالماء من كل لون، ﴿ ممّا يأكلُ الناسُ ﴾، من الحبوب والثمار، ﴿ والأنعام ﴾، من الحشيش، ﴿ حتى إذا أخذَتِ الأرضُ زُخرُفَها ﴾، حسنَها وبهجتَها وظهر الزهرُ أخضرُ ﴿ وازَّيَّنَتْ ﴾، أي: تزينت، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود: تزينت. ﴿ وظنَّ أهلُها أنهم قادُرون عليها ﴾، على جذاذِها وقطافِها وحصادِها، ردّ الكنايةَ إلى الأرض. والمراد: النبات إذ كان مفهوماً، وقيل: ردّها إلى الغلّة. وقيل: إلى الزينة. ﴿ أتاها أمرُنا ﴾، قضاؤنا، بإهلاكها، ﴿ ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً ﴾، أي: محصودة مقطوعة،

﴿**كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون**﴾ يعني: كما بينا لكم مثل الحياة الدنيا وعرفنا كم حكمها، كذلك نبين حججنا وأدلتنا لمن تفكر واعتبر ليكون ذلك سبباً موجباً لزوال الشك والشبهة من القلوب.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**والله يدعو إلى دار السلام**﴾ لما ذكر الله زهرة الحياة الدنيا وأنها فانية زائلة لا محالة دعا إلى داره والله يدعو إلى دار السلام.

قال قتادة: الله هو السلام وداره الجنة فعلى هذا السلام اسم من أسماء الله عز وجل ومعناه أنه سبحانه وتعالى سلم من جميع النقائص والعيوب والفناء والتغيير. وقيل: إنه سبحانه وتعالى يوصف بالسلام لأن الخلق سلموا من ظلمه. وقيل: إنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى ذي السلام أي لا يقدر على تخليص العاجزين من المكاره والآفات إلا هو.

وقيل: دار السلام اسم للجنة وهو جمع سلامة. والمعنى: أن من دخلها فقد سلم من جميع الآفات، كالموت والمرض والمصائب والحزن والغم والتعب والنكد. وقيل: سميت الجنة دار السلام لأن الله سبحانه وتعالى يسلم على أهلها أو تسلم الملائكة عليهم. قيل: إن من كمال رحمة الله وجوده وكرمه على عباده، أن دعاهم إلى جنته التي هي دار السلام.

وفيه دليل على أن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لأن العظيم لا يدعو إلا إلى عظيم ولا يصف إلا عظيماً، وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة في آيات كثيرة من كتابه: ﴿**ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ يعني: والله يهدي من يشاء من خلقه إلى صراطه المستقيم وهو دين الإسلام عم بالدعوة أولاً إظهاراً للحجة وخص بالدعوة ثانياً استغناء عن الخلق وإظهاراً للقدرة فحصلت المغايرة بين الدعوتين (خ).

عن جابر قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم وقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: إن لصاحبكم مثلاً فاضربوا له مثلاً فقالوا مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة» ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا أولوها يفقهها فإن العين نائمة والقلب يقظان فقال بعضهم الدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ومن عصى محمداً فقد عصى الله ومحمد فرق بين الناس وفي رواية: «خرج علينا رسول الله ﷺ فقال إني رأيت في المنام كأن جبريل عليه السلام عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً» وعن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً على كتفي الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب

﴿ **كأنْ لمْ تغنَ بالأمْس** ﴾، كأن لم تكن بالأمس، وأصله من غني بالمكان إذا أقام به. وقال قتادة: معناه إن المتشبّث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون. ﴿ **كذلكَ نُفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكّرُون** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ **واللَّهُ يَدْعُو إلى دارِ السلام** ﴾، قال قتادة: السلام هو الله وداره الجنة. وقيل: السلام بمعنى السلامة، سُمّيت الجنة دارَ السلام لأنّ مَن دخلها سَلِمَ من الآفات. وقيل: المراد بالسلام التحية سُمّيت الجنة دار السلام، لأنّ أهلها يحيّي بعضُهم بعضاً بالسلام والملائكة تسلّم عليهم. قال الله تعالى: ﴿ والملائكةُ يدخلُون عليهمْ مِّن كلِّ بابٍ سلامٌ عليكم ﴾ [الرعد: ٢٣ و٢٤]، وروينا عن جابر قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقالوا: إن لِصاحبكم هذا مثلاً فاضْرِبُوا له مثلاً، قال بعضُهم: إنه نائم، وقال بعضُهم إنّ العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنَى داراً وجعل فيها. مأدُبةً وبعث داعياً، فمَن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومَنْ لمْ يُجبِ الداعي لم يدخل الدار ولم يأكلْ من المأدبة، فقالوا أَوّلُوهَا له يفقهها، وقال بعضُهم: إنه نائم، وقال

ستور وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والأبواب التي على كتفي الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾

قوله عز وجل: ﴿للذين أحسنوا الحسنى﴾ قال ابن عباس: للذين شهدوا أن لا إله إلا الله الجنة. وقيل: معناه للذين أحسنوا عبادة الله في الدنيا من خلقه وأطاعوه فيما أمرهم ونهاهم عنه الحسنى، قال ابن الأنباري: الحسنى في اللغة، تأنيث الأحسن والعرب توقع هذه اللفظة على الخلة المحبوبة والخلصة المرغوب فيها. وقيل: معناه للذين أحسنوا المثوبة الحسنى ﴿وزيادة﴾ اختلف المفسرون في معنى هذه الحسنى وهذه الزيادة على أقوال:

القول الأول: إن الحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم وهذا قول جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وحذيفة وأبو موسى الأشعري وعبادة بن الصامت وهو قول الحسن وعكرمة والضحاك ومقاتل والسدي ويدل على صحة هذا القول المنقول والمعقول أما المنقول فما روي عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب قال فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» زاد في رواية «ثم تلا هذه الآية: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» أخرجه مسلم. وروى الطبري بسنده عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ في قوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال: الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم.

وعن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه وتعالى: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة. قال: الحسنى: الجنة وزيادة: قال النظر إلى وجه الله. وعن أبي موسى الأشعري قال: «إن كان يوم القيامة بعث الله إلى أهل الجنة منادياً ينادي هل أنجزكم الله ما وعدكم به فينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامات فيقولون نعم فيقول للذين أحسنوا الحسنى وزيادة النظر إلى وجه الرحمن تبارك وتعالى وفي رواية رفعها أبو موسى قال عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة» وذكره بمعناه. وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله لهم: هل بقي من حقكم شيء لم تعطوه قال: فيتجلى لهم عز وجل قال فيصغر عندهم كل شيء أعطوه ثم قال للذين أحسنوا

بعضهم: إن العينَ نائمةٌ والقلب يقظان، فقالوا: الدارُ الجنة والداعي محمد ﷺ، فمَن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومَن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرّقَ بين الناس. ﴿ ويهدي مَنْ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم ﴾، فالصراط المستقيم هو الإسلام عمَّ بالدعوة لإظهار الحجة، وخُصّ بالهداية استغناءً عن الخلق.

قوله تعالى: ﴿ للذين أحسَنُوا الحُسنَى وزيادة ﴾، أي: للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنَى، وهي الجنة وزيادة وهي النظر إلى وجه الله الكريم، هذا قول جماعة من الصحابة، منهم أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه وحذيفة وأبو موسى، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم، وهو قول الحسن وعكرمة وعطاء ومقاتل والضحاك والسدي. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن العباس الحميدي أنبأنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ أنبأنا أبو العباس محمد بن

الحسنى وزيادة قال الحسنى الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه ربهم» فهذه الأخبار والآثار قد دلت على أن المراد بهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى. وأما المعقول فنقول: إن الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف فانصرفت الى المعهود السابق وهو الجنة في قوله سبحانه وتعالى والله يدعو إلى دار السلام فثبت بهذا أن المراد من لفظة الحسنى هي الجنة وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الزيادة أمراً مغايراً لكل ما في الجنة من النعيم وإلا لزم التكرار وإذا كان كذلك وجب حمل هذه الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى ومما يؤكد ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ فأثبت لأهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهو حسن الوجوه وذلك من نعيم الجنة، والثاني النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى وآيات القرآن يفسر بعضها بعضاً فوجب حمل الحسنى على الجنة ونعيمها وحمل الزيادة على رؤية الله تبارك وتعالى. وقالت المعتزلة: لا يجوز حمل هذه الزيادة على الرؤية، لأن الدلائل العقلية دلت على أن رؤية الله سبحانه وتعالى ممتنعة، ولأن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه ورؤية الله ليست من جنس نعيم الجنة ولأن الأخبار التي تقدمت توجب التشبيه ولأن جماعة من المفسرين حملوا هذه الزيادة على غير الرؤية فانتفى ما قلتم.

أجاب أصحابنا عن هذه الاعتراضات بأن الدلائل العقلية قد دلت على إمكان وقوع رؤية الله تعالى في الآخرة وإذا لم يوجد في العقل ما يمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الأحاديث الصحيحة بإثبات الرؤية وجب المصير إليها وإجراؤها على ظواهرها من غير تشبيه ولا إحاطة.

وأجيب عن قولهم ولأن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه بأن المزيد عليه إذا كان بمقدار معين كانت الزيادة من جنسه وإذا لم يكن بمقدار معين وجب أن تكون الزيادة مخالفة له فالمذكور في الآية لفظ الحسنى وهي الجن ونعيمها غير مقدر بقدر معين فوجب أن الزيادة تكون شيئاً مغايراً لنعيم الجنة وذلك المغاير هو الرؤية.

وأجيب عن قولهم ولأن جماعة من المفسرين حملوا الزيادة على غير الرؤية بأنه معارض بقول جماعة من المفسرين: بأن الزيادة هي الرؤية والمثبت مقدم على النافي والله أعلم.

القول الثاني: في معنى هذه الزيادة ما روي عن علي بن أبي طالب أنه قال الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب.

القول الثالث: إن الحسنى واحدة الحسنات والزيادة التضعيف إلى تمام العشرة إلى سبعمائة.

قال ابن عباس: هو مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولدينا مزيد﴾ يقول يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله.

يعقوب الأصم إملاءً حدّثنا أبو بكر محمد بن إسحاق الصنعاني حدّثنا الأسود بن عامر حدّثنا حمّاد بن سلمة عن ثابت يعني البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صُهيب رضي الله عنه قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿ **للذين أحسنُوا الحُسنَى وزيادة** ﴾، قال: إذا دخلَ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ وأهلُ النّارِ النّارَ نادَى منادٍ: يا أهلَ الجنّةِ إنّ لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزَكُموه، قالوا: ما هذا الموعد؟ ألَمْ يثقّلْ موازيننا ويبيّضْ وجوهَنا ويدخلْنَا الجنّةَ ويُجِرْنَا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله عزّ وجلّ، قال: فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه. ورُوِيَ عن ابن عباس: أنّ الحُسنَى هي: أنّ الحسنة بمثلها والزيادة هي التضعيف عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. وقال مجاهد: الحُسنَى: حسنة مثل حسنة، والزيادة المغفرة والرضوان. ﴿ **ولا يَرْهَقُ** ﴾، لا يغشى ﴿ **وجوهَهُمْ قَتَرٌ** ﴾، غبار، جمع قترة. قال ابن عباس وقتادة: سواد الوجه، ﴿ **ولا ذِلّةٌ** ﴾، هَوَانٌ. قال قتادة: كآبة. قال ابن أبي ليلى: هذا بعد نظرهم إلى ربّهم. ﴿ **أولئكَ أصحابُ الجنّةِ هُمْ فيها خالدُون** ﴾.

قال قتادة: كان الحسن يقول: الزيادة الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

القول الرابع: إن الحسنى حسنة مثل حسنة والزيادة مغفرة من الله ورضوان قاله مجاهد.

القول الخامس: قول ابن زيد أن الحسنى هي الجنة والزيادة ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولا يرهق وجوههم**﴾ يعني ولا يغشى وجوه أهل الجنة ﴿**قتر**﴾ أي كآبة ولا كسوف ولا غبار.

وقال ابن عباس: هو سواد الوجوه ﴿**ولا ذلة**﴾ يعني ولا هوان. قال ابن أبي ليلى: هذا بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى: ﴿**أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**﴾ يعني أن هؤلاء الذين وصفت صفتهم هم أصحاب الجنة لا غيرهم وهم فيها مقيمون لا يخرجون منها أبداً.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها**﴾ اعلم أنه لما شرح الله سبحانه وتعالى أحوال المحسنين وما أعد لهم من الكرامة شرح في الآية حال من أقدم على السيئات والمراد بهم الكفار فقال سبحانه وتعالى: والذين كسبوا السيئات. يعني: والذين عملوا السيئات والمراد بها الكفر والمعاصي جزاء سيئة بمثلها يعني فلهم جزاء السيئة التي عملوها مثلها العقاب. والمقصود من هذا التقييد، التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئات لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة إلى العشرة إلى السبعمائة إلى أضعاف كثيرة وذلك تفضلاً منه وتكرماً. وأما السيئات، فإنه يجازي عليها بمثلها عدلاً منه سبحانه وتعالى: ﴿**وترهقهم ذلة**﴾ قال ابن عباس: يغشاهم ذل وشدة. وقيل: يغشاهم ذل وهوان لعقاب الله إياهم ﴿**ما لهم من الله من عاصم**﴾ يعني ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم ﴿**كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً**﴾ يعني كأنما ألبست وجوههم سواداً من الليل المظلم ﴿**أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ويوم نحشرهم جميعاً**﴾ الحشر الجمع من كل جانب وناحية إلى موضع واحد والمعنى ويوم نجمع الخلائق جميعاً لموقف الحساب وهو يوم القيامة ﴿**ثم نقول للذين أشركوا مكانكم**﴾ أي الزموا مكانكم واثبتوا فيه حتى تسألوا وفي هذا وعيد وتهديد للعابدين والمعبودين ﴿**أنتم وشركاؤكم**﴾ يعني أنتم أيها المشركون والأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله ﴿**فزيلنا بينهم**﴾ يعني: ففرقنا بين العابدين والمعبودين وميزنا بينهم وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا.

فإن قلت قوله سبحانه وتعالى فزيلنا بينهم جاء على لفظ الماضي بعد قوله ثم نقول للذين أشركوا وهو منتظر في المستقبل فما وجهه.

قلت: السبب فيه، أن الذي حكم الله فيه بأنه سيكون صار كالكائن الآن.

قوله: ﴿**وقال شركاؤهم**﴾ يعني الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله وإنما سماهم شركاءهم، لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم أو لأنه سبحانه وتعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله: مكانكم فقد صاروا شركاء في هذا الخطاب ﴿**ما كنتم إيانا تعبدون**﴾ تبرأ المعبودون من العابدين.

﴿ **والذين كَسَبُوا السّيئاتِ جزاءُ سيئةٍ بمثلها** ﴾، أي: لهم مثلها، كما قال: ﴿ **ومَن جاءَ بالسيئةِ فلا يُجزَى إلّا مثلَها** ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. ﴿ **وتَرْهَقُهُمْ ذِلةٌ ما لهمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عاصمٍ** ﴾، و﴿ **من** ﴾ صلة، أي: ما لهم من الله عاصم، ﴿ **كأنما أُغْشِيَتْ** ﴾، ألبست، ﴿ **وُجُوهُهُمْ قِطَعاً** ﴾، جمع قطعة، ﴿ **مِّنَ اللّيلِ مُظْلِماً** ﴾، نصبه على الحال دون النعت، ولذلك لم يقل: مظلمة، تقديره: قطعاً من الليل في حال ظلمته أو قطعاً من الليل المظلم. وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب: «قطعـاً» ساكنة الطاء، أي بعضاً، كقوله: ﴿ **بقطعٍ من الليل** ﴾ [هود: ٨١، الحجر: ٦٥]. ﴿ **أولئكَ أصحابُ النارِ هُمْ فيها خالدُون** ﴾.

فإن قلت: كيف صدر هذا الكلام من الأصنام وهي جماد لا روح فيها ولا عقل لها؟

قلت: يحتمل أن الله تعالى خلق لها في ذلك اليوم من الحياة والعقل والنطق حتى قدرت على هذا الكلام فإن قلت إذا أحياهم الله في ذلك اليوم فهل يفنيهم أو يبقيهم.

قلت: الكل محتمل ولا اعتراض على الله في شيء من أفعاله وأحوال القيامة غير معلومة إلا ما دل عليه الدليل من كتاب أو سنة.

فإن قلت: إن الأصنام قد أنكرت أن الكفار كانوا يعبدونها وقد كانوا يعبدونها؟

قلت: قد تقدمت هذه المسألة وجوابها في تفسير سورة الأنعام ونقول هنا قال مجاهد: تكون في يوم القيامة ساعة تكون فيها شدة تنصب لهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، فتقول الآلهة: والله ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ولا نعلم أنكم تعبدوننا فيقولون والله إياكم كنا نعبد فتقول لهم الآلهة.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾. والمعنى قد علم الله وكفى به شهيداً أما ما علمنا أنكم كنتم تعبدوننا وما كنا عن عبادتكم إيانا من دون لله إلا غافلين ما نشعر بذلك أما قوله سبحانه وتعالى: **﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾** فهو كالتتمة للآية المتقدمة والمعنى في ذلك المقام أو ذلك الموقف أو ذلك الوقت على معنى استعارة إطلاق اسم المكان على الزمان وفي قوله تبلوا قراءات قرىء بتاءين ولها معنيان أحدهما أنه من تلاه إذا تبعه أي تبع كل نفس ما أسلفت لأن العمل هو الذي يهدي النفس إلى الثواب أو العقاب.

الثاني: أن يكون من التلاوة والمعنى أن كل نفس تقرأ صحيفة عملها من خير أو شر. وقرىء: تبلو بالتاء المثناة والباء الموحدة ومعناه تخبر وتعلم. والبلو: الاختبار ومعناه: اختبارها ما أسلفت يعني: أنه إن قدم خيراً أو شراً قدم عليه وجوزي به **﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾** الرد: عبارة عن صرف الشيء إلى الموضع الذي جاء منه. والمعنى: وردوا إلى ما ظهر لهم من الله الذي هو مالكهم ومتولي أمرهم.

فإن قلت: قد قال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى «وأن الكافرين لا مولى لهم» فما الفرق؟

قوله تعالى: **﴿ ويومَ نحشُرهم جميعاً ثم نقولُ للذينَ أشركُوا مكانَكم ﴾**، أي: الزمُوا مكانَكم، **﴿ أنتم وشركاؤكم ﴾**، يعني: الأوثان، معناه. ثم نقول للذين أشركوا الزمُوا أنتم وشركاؤكم مكانكم ولا تبرحوا. **﴿ فزَيَّلْنَا ﴾** ميِّزنا وفرّقنا **﴿ بينهم ﴾**، أي: بين المشركين وشركائهم وقطعنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا وذلك حين يتبرأ كل معبود من دون الله ممّن عبده، **﴿ وقال شركاؤُهم ﴾**، يعني: الأصنام، **﴿ ما كنتم إيّانا تعبدون ﴾**، بطلبتنا فيقولون بلى كنّا نعبدكم فتقول الأصنام.

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إنْ كنّا عن عبادتِكم لغافلين ﴾، أي: ما كنّا عن عبادتكم إيّانا إلاّ غافلين، ما كنّا نسمع ولا نبصر ولا نعقل.

قال الله تعالى: **﴿ هُنالِكَ تَبْلُوا ﴾**، أي: تُختبر. وقيل: معناه تعلم وتقف عليه. وقرأ حمزة والكسائي

قلت: المولى في اللغة يطلق على المالك ويطلق على الناصر، فمعنى المولى هنا المالك ومعنى المولى هناك الناصر فحصل الفرق بين الآيتين ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ يعني وبطل وذهب ما كانوا يكذبون فيه في الدنيا وهو قولهم إن هذه الأصنام تشفع لنا.

قوله عز وجل: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من يرزقكم من السماء يعني المطر والأرض يعني النبات ﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ يعني ومن أعطاكم هذه الحواس التي تسمعون بها وتبصرون بها ﴿ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ يعني أنه تعالى يخرج الإنسان حياً من النطفة وهي ميتة وكذلك الطير من البيضة وكذلك يخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي ويخرج البيضة الميتة من الطائر الحي. وقيل: معناه أنه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والقول الأول أقرب إلى الحقيقة ﴿ومن يدبر الأمر﴾ يعني أن مدبر أمر السموات ومن فيها ومدبر أمر الأرض وما فيها هو الله تعالى وذلك قوله ﴿فسيقولون الله﴾ يعني أنهم يعترفون أن فاعل هذه الأشياء هو الله وإذا كانوا يقرون بذلك ﴿فقل﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿أفلا تتقون﴾ يعني: أفلا تخافون عقابه حيث تعبدون هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شيء من هذه الأمور ﴿فذلكم الله ربكم الحق﴾ يعني: فذلكم الذي يفعل هذه الأشياء ويقدر عليها هو الله ربكم الحق الذي يستحق العبادة لا هذه الأصنام ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ يعني: إذا ثبت بهذه البراهين الواضحة والدلائل القطعية أن الله هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالاً وباطلاً ﴿فأنى تصرفون﴾ يعني: إذا عرفتم هذا الأمر الظاهر الواضح فكيف تستخيرون العدول عن الحق إلى الضلال الباطل.

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿كذلك﴾ أي كما ثبت أنه ليس بعد الحق إلا الضلال ﴿حقت﴾ أي وجبت ﴿كلمة ربك﴾ في الأزل ﴿على

ويعقوب: تتلو بتاءين أي تقرأ، ﴿ كل نفس ﴾، صحيفتَها. وقيل: معناه تتبع كل نفس، ﴿ ما أسلفتْ ﴾، ما قدّمتْ من خير أو شر. وقيل: معناه تعاين، ﴿ وردُّوا إلى الله ﴾، إلى حكمه فيتفرّد فيهم بالحكم، ﴿ مولاهُمُ الحقِّ ﴾، الذي يتولّى ويملك أمرهم. فإن قيل: أليس قد قال: ﴿ وأن الكافرين لاَ مولى لهم ﴾ [محمد: ١١]. قيل: المولى هناك هو الناصر، وههنا بمعنى المالك، ﴿ وضلَّ عنهم ﴾، زال عنهم وبطل، ﴿ ما كانوا يفترون ﴾، في الدنيا من التكذيب.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يرزُقُكم مِّنَ السماءِ والأرض ﴾، أي: من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات، ﴿ أمْ من يملِكُ السّمعَ والأبصار ﴾، أي: من إعطائكم السمع والأبصار، ﴿ ومَنْ يُخرِجُ الحيَّ من الميت ويُخرِجُ الميت من الحيّ ﴾ يخرج الحيّ من النطفة والنطفة من الحيّ، ﴿ ومَنْ يُدبِّرُ الأمْرَ ﴾، أي: يقضي الأمر، ﴿ فَسَيَقُولُونَ الله ﴾، هو الذي يفعل هذه الأشياء، ﴿ فقل أفلا تتّقون ﴾، أفلا تخافون عقابه في شرككم، وقيل: أفلا تتّقون الشرك مع هذا الإقرار.

﴿ فذلِكُم اللّهُ ربُّكم ﴾، الذي يفعل هذه الأشياء هو ربّكم، ﴿ الحقُّ فماذا بعدَ الحقِّ إلاّ الضلالُ فأنّى تُصْرَفُون ﴾، أي: فأين تصرفون عن عبادته وأنتم مقرّون به.

﴿ كذلِكَ ﴾. قال الكلبي: هكذا، ﴿ حقّتْ ﴾، وجبتْ، ﴿ كلمةُ ربِّك ﴾، حكمه السابق، ﴿ على الذين

الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ قيل: المراد بكلمة الله قضاؤه عليهم في اللوح المحفوظ أنهم لا يؤمنون وقضاؤه لا يرد ولا يدفع **﴿قل هل من شركائكم﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين هل من شركائكم يعني هذه الأصنام التي تزعمون أنها آلهة **﴿من يبدأ الخلق﴾** يعني من يقدر على أن ينشىء الخلق على غير مثال سبق **﴿ثم يعيده﴾** أي ثم يعيده بعد الموت كهيئته أول مرة، وهذا السؤال استفهام إنكار **﴿قل﴾** أي: قل أنت يا محمد **﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾** يعني أن الله هو القادر على ابتداء الخلق وإعادته **﴿فأنى تؤفكون﴾** يعني فأنى تصرفون عن قصد السبيل والمراد من هذا التعجب من أحوالهم كيف تركوا هذا الأمر الواضح وعدلوا عنه إلى غيره **﴿قل﴾** أي قل يا محمد **﴿هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾** يعني هل من هذه الأصنام من يقدر علي أن يرشد إلى الحق فإذا قالوا لا ولا بد لهم من ذل **﴿قل﴾** أي قل لهم أنت يا محمد **﴿الله يهدي للحق﴾** يعني أن الله هو الذي يرشد إلى الحق لا غيره **﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى﴾** يعني أن الله هو الذي يهدي إلى الحق فهو أحق بالاتباع لا هذه الأصنام التي لا تهتدي إلا أن تهدي.

فإن قلت: الأصنام جماد لا تتصور هدايتها ولا أن تهدي فكيف قال إلا أن يهدي.

قلت: ذكر العلماء عن هذا السؤال وجوهاً.

الأول: أن معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال من مكان إلى مكان فيكون المعنى أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان آخر إلا أن تحمل وتنقل، فبين سبحانه وتعالى بها عجز الأصنام.

الوجه الثاني: أن ذكر الهداية في حق الأصنام على وجه المجاز وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنها بما يعبر به عمن يسمع ويعقل ويعلم ووصفها بهذه الصفة وإن كان الأمر ليس كذلك.

الوجه الثالث: يحتمل أن يكون المراد من قوله هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده الأصنام، والمراد من

فسَقُوا ﴾، كفروا، **﴿ أنهم لا يُؤْمنُون ﴾**، قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر «كلمـاتُ ربِّك» بالجمع ههنا موضعين وفي المؤمن [٦]، والآخرون على التوحيد.

قوله: **﴿ قُلْ هلْ مِنْ شُركائِكم ﴾**، أوثانكم **﴿ مَن يَبْـدَؤُا الخلقَ ﴾**، ينشىء الخلق من غير أصل ولا مثال، **﴿ ثمّ يُعيدُه ﴾**، ثم يحييه من الموت كهيئته، فإن أجابوك وإلا فـ **﴿ قُلْ ﴾** أنت، **﴿ الله يَبْـدَؤُا الخلقَ ثم يُعيدُهُ فأنّى تُؤفَكُون ﴾**، أي: تصرفون عن قصف السبيل.

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُركائِكمْ مَن يهدي ﴾، يرشد، **﴿ إلى الحقِّ ﴾**، فإذا قالوا لا ولا بدَّ لهم من ذلك، **﴿ قُلِ اللّهُ يهدي للحقِّ ﴾**، أي إلى الحق، **﴿ أفمنْ يهدي إلى الحقِّ أحقُّ أن يُتَّبَع أمَّن لا يَهدي ﴾**، قرأ حمزة والكسائي ساكنة الهاء، خفيفة الدال، وقرأ الآخرون بتشديد الدال ثم قرأ أبو جعفر وقالون بسكون الهاء، وأبو عمرو يروم الهاء بين الفتح والسكون، وقرأ حفص بفتح الياء وكسر الياء، وأبو بكر بكسرهما، والباقون بفتحهما، ومعناه: يهدي في جميعها. فمَن خالف الدال قال: يقال هديته فهُدي، أي: اهتدى، ومَن شدّد الدال أدغم التاء في الدال، ثم أبو عمرو يروم على مذهبه في إيثار التخفيف، ومَن سكّن الهاء تركها على حالتها كما فعل في «تعدوا» و**﴿ يخصمون ﴾** [يّس: ٤٩]، ومَن فتح الهاء نقل فتحة الهاء المدغمة إلى الهاء، ومَن كسر الهاء فلالتقاء الساكنين، وقال: الجزم يُحرِّكُ إلى الكسر، ومَن كسر الياء مع الهاء أتبع الكـسر إلى الكسرة، قوله تعالى: **﴿ إلاّ أنْ يُهدَى ﴾**، معنى الآية:

قوله هل من شركائكم من يهدي إلى الحق رؤساء الكفر والضلالة فالله سبحانه وتعالى هدى الخلق إلى الدين بما ظهر من الدلائل الدالة على وحدانيته وأما رؤساء الكفر والضلالة فإنهم لا يقدرون على هداية غيرهم إلا إذا هداهم الله إلى الحق فكان اتباع دين الله والتمسك بهدايته أولى من اتباع غيره.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ قال الزجاج: فما لكم كلام تام كأنه قيل لهم: أي شيء لكم في عبادة هذه الأصنام. ثم قال: كيف تحكمون؟ يعني: على أي حال تحكمون. وقيل: معناه كيف تقضون لأنفسكم بالجور حين تزعمون أن مع الله شريكاً وقيل معناه بئسما حكمتم إذ جعلتم لله شريكاً من ليس بيده منفعة ولا مضرة ولا هداية.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً﴾ يعني: وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ما لا علم لهم بحقيقته وصحته بل هم في شك منه وريبة وقيل المراد بالأكثر الكل لأن جميع المشركين يتبعون الظن في دعواهم أن الأصنام تشفع لهم وقيل المراد بالأكثر الرؤساء ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ يعني أن الشك لا يغني عن اليقين شيئاً ولا يقوم مقامه وقيل في الآية إن قولهم إن الأصنام آلهة وإنها تشفع لهم ظن منهم لم يرد به كتاب ولا يعني أنها لا تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ يعني من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق اليقين.

قوله تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ يعني وما كان ينبغي لهذا القرآن أن يختلق ويفتعل لأن معنى الافتراء الاختلاق والمعنى ليس وصف القرآن وصف شيء ممكن أن يفترى به على الله لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر وذلك أن كفار مكة زعموا أن محمداً ﷺ أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق فأخبر الله عز وجل أن هذا القرآن وحي أنزله الله عليه وأنه مبرأ عن الافتراء والكذب وأنه لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى.

الله الذي يهدي إلى الحق أحقّ بالاتباع أم الصنم الذي لا يهتدي إلاّ أن يُهدَى. فإن قيل: كيف قال: ﴿ إلاّ أنْ يُهدَى ﴾، والصنم لا يتصور أن يهتدي ولا أن يُهدَى؟ قيل: معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال، أي: أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان إلاّ أن تُحمل وتُنقل، بيّن به عجز الأصنام. وجواب آخر وهو: أن ذكر الهداية على وجه المجاز، وذلك أن المشركين لمّا اتخذوا الأصنام آلهةً وأنزلوها منزلة مَن يسمع ويعقل عبّر عنها بما يُعبّر عمّن يعلم ويعقل، ووُصِفَتْ بصفة مَن يعقل. ﴿ فما لَكُمْ كيفَ تَحْكُمون ﴾، كيف تقضون حين زعمتم أن لله شريكاً.

قوله تعالى: ﴿ وما يتبع أكثرهم إلاّ ظَنّاً ﴾، منهم يقولون: إن الأصنام آلهة وإنها تشفع لهم في الآخرة ظنّاً منهم، لم يَرِدْ بِهِ كتابٌ ولا رسول، وأراد بالأكثر جميع مَن يقول ذلك، ﴿ إنّ الظنّ لا يُغني مِنَ الحقّ شيئاً ﴾، أي: لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئاً. وقيل: يقوم مقام العلم، ﴿ إنّ اللّهَ عليمٌ بما يفعلون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وما كانَ هذا القرآنُ أنْ يُفترَى مِنْ دُونِ الله ﴾، قال الفرّاء: معناه وما ينبغي لمثل هذا القرآن

ثم ذكر سبحانه وتعالى ما يؤكد هذا بقوله: ﴿**ولكن تصديق الذي بين يديه**﴾ يعني ولكن الله أنزل هذا القرآن مصدقاً لما قبله من الكتب التي أنزلها على أنبيائه كالتوراة والإنجيل. وتقرير هذا، أن محمداً ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يجتمع بأحد من العلماء، ثم إنه ﷺ أتى بهذا القرآن العظيم المعجز وفيه أخبار الأولين وقصص الماضين وكل ذلك موافق لما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة قبله ولو لم يكن كذلك لقدحوا فيه لعداوة أهل الكتاب له ولما لم يقدح فيه أحد من أهل الكتاب علم بذلك أن ما فيه من القصص والأخبار مطابقة لما في التوراة والإنجيل مع القطع بأنه ما علم ما فيها فثبت بذلك أنه وحي من الله أنزله عليه وأنه مصدق لما بين يديه وأنه معجزة له ﷺ. وقيل في معنى قوله: ولكن تصديق الذي بين يديه يعني من أخبار الغيوب الآتية، فإنها جاءت على وفق ما أخبر ﴿**وتفصيل الكتاب**﴾ يعني وتبيين ما في الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام ﴿**لا ريب فيه من رب العالمين**﴾ يعني أن هذا القرآن لا شك فيه أنه من رب العالمين وأنه ليس مفترى على الله وأنه لا يقدر أحد من البشر على الإتيان بمثله وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أم يقولون افتراه**﴾ يعني أم يقول هؤلاء المشركون افترى محمد هذا القرآن وخلقه من قبل نفسه وهو استفهام إنكار وقيل أم بمعنى الواو أي ويقولون افتراه ﴿**قل**﴾ أي: قل لهم يا محمد إن كان الأمر كما تقولون ﴿**فأتوا بسورة مثله**﴾ يعني بسورة شبيهة به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فأنتم عرب مثلي في الفصاحة والبلاغة.

فإن قلت: قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة فأتوا بسورة من مثله وقال سبحانه وتعالى هنا فأتوا بسورة مثله فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما.

قلت لما كان محمد ﷺ أمياً لم يقرأ ولم يكتب وأتى بهذا القرآن العظيم كان معجزاً في نفسه فقيل لهم فأتوا بسورة من مثله يعني: مع إنسان أمي مثل محمد ﷺ يساويه في عدم الكتابة والقراءة.

وأما قوله سبحانه وتعالى: فأتوا بسورة مثله أي فأتوا بسورة تساوي سور القرآن في الفصاحة والبلاغة وهو المراد بقوله فأتوا بسورة مثله يعني أن السورة في نفسها معجزة فإن الخلق لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه وهو المراد من قوله: ﴿**وادعوا من استطعتم من دون الله**﴾ يعني وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ يعني في قولكم إن محمداً افتراه ثم قال تعالى: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه**﴾ يعني القرآن. أي: كذبوا بما لم يعلموه. قال عطاء: يريد أنه ليس خلق يحيط بجميع علوم القرآن. وقيل: معناه بل كذبوا بما في القرآن من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب وغيرها مما لم يحيطوا بعلمه، لأنهم كانوا ينكرون ذلك كله. وقيل: إنهم لما سمعوا ما في القرآن من القصص وأخبار الأمم الخالية ولم يكونوا سمعوها قبل ذلك أنكروها لجهلهم فرد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه لأن القرآن العظيم مشتمل على علوم كثيرة لا يقدر أحد على

أنْ يُفتَرى من دون الله، كقوله تعالى: ﴿ وما كان لنبي أن يَغُلّ ﴾ [آل عمران: ١٦١]، وقيل: ﴿ أنْ ﴾ بمعنى اللام، أي: وما كان هذا القرآنُ لِيُفترَى من دُونِ اللّهِ. قوله: ﴿ **ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يَدَيْهِ** ﴾، أي: بين يدي القرآن من التوراة والإنجيل. وقيل: تصديق الذي بين يدي القرآن من القيامة والبعث، ﴿ **وتفصيل الكتابِ** ﴾، تبيين ما في الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام، ﴿ **لَا رَيْبَ فيهِ مِن رَّبِّ العالمين** ﴾.

﴿ **أمْ يقولُون** ﴾، قال أبو عبيدة: ﴿ **أم** ﴾ بمعنى الواو، أي: ويقولون، ﴿ **افْتَراهُ** ﴾، اختلق محمد القرآن من قِبَلِ نفسه، ﴿ **قلْ فأتُوا بسورةٍ مِّثْلِهِ** ﴾ شبه القرآن ﴿ **وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتم** ﴾، ممّن تعبدون، ﴿ **مِن دُونِ اللّهِ** ﴾ لِيُعِينُوكم على ذلك، ﴿ **إن كنتُم صادِقين** ﴾، أن محمداً افتراه ثم قال:

﴿ **بلْ كذّبوا بما لم يُحيطُوا بعلمه** ﴾، يعني: القرآن، كذبوا به ولم يحيطوا بعلمه، ﴿ **ولمّا يأتِهم تأويلُهُ** ﴾،

استيعابها وتحصيلها ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ يعني أنهم كذبوا به ولم يأتهم بعد بيان ما يؤول إليه ذلك الوعيد الذي توعدهم الله في القرآن به من العقوبة. والمعنى: أنهم لم يعلموا ما تؤول إليه عاقبة أمرهم. وقيل: معناه أنهم لم يعلموه تنزيلاً ولا علموه تأويلاً فكذبوا به وذلك لأنهم جهلوا القرآن وعلمه وعلم تأويله ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ يعني كما كذب هؤلاء بالقرآن كذلك كذب الأمم الماضية أنبياءهم فيما وعدوهم به ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي: فانظر يا محمد كيف كان عاقبة من ظلم من الأمم كذلك تكون عاقبة من كذبك من قومك ففيه تسلية للنبي ﷺ وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لكل فرد من الناس.

والمعنى: فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله.

قوله عز وجل: ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ يعني ومن قومك يا محمد من سيؤمن بالقرآن ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ لعلم الله السابق فيه أنه لا يؤمن ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ يعني الذين لا يؤمنون.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وإن كذبوك﴾ يعني وإن كذبك قومك يا محمد ﴿فقل﴾ أي فقل لهم ﴿لي عملي﴾ يعني الطاعة وجزاء ثوابها ﴿ولكم عملكم﴾ يعني الشرك وجزاء عقابه ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ قيل: المراد منه الزجر والرجوع. وقال مقاتل والكلبي: هذه الآية منسوخة بآية السيف. قال الإمام فخر الدين الرازي: وهو بعيد لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً الحكم المنسوخ. ومدلول الآية: اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلاً.

قوله تعالى: ﴿ومنهم﴾ يعني ومن هؤلاء المشركين ﴿من يستمعون إليك﴾ يعني بأسماعهم الظاهرة ولا ينفعهم ذلك لشدة بغضهم وعداوتهم لك ﴿أفأنت تسمع الصم﴾ يعني كما أنك لا تقدر على إسماع الصم فكذلك لا تقدر على إسماع من أصم الله سمع قلبه ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما

أي: عاقبة ما وعد الله في القرآن، أنه يؤول إليه أمرهم من العقوبة، يريد أنهم لم يعلموا ما يؤول إليه عاقبة أمرهم. ﴿ كذلِكَ كذَّبَ الذينَ مِن قبلهم ﴾، أي: كما كذب هؤلاء الكفّار بالقرآن كذلك كذب الذين من قبلهم من كفّار الأمم الخالية، ﴿ فانْظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ الظالمين ﴾، آخر أمر المشركين بالهلاك.

﴿ ومنهم مَن يُؤمنُ بهِ ﴾، أي: من قومك مَن يؤمن بالقرآن، ﴿ ومنهم مَّن لَّا يُؤمنُ بهِ ﴾، لعلم الله السابق فيهم، ﴿ وربُّك أعلمُ بالمفسدين ﴾، الذين لا يُؤمنُون.

﴿ وإنْ كذَّبُوك ﴾، يا محمد، ﴿ فقلْ لي عملي ﴾، وجزاؤه، ﴿ ولكم عملُكم ﴾، وجزاؤه، ﴿ أنتُم بريئُون مما أعملُ وأنا بريءٌ مما تعملُون ﴾، هذا كقوله تعالى: ﴿ لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم ﴾ [القصص: ٥٥، الشورى: ١٥] ﴿ لكم دينُكم وليَ دين ﴾ [الكافرون: ٦]. قال الكلبي ومقاتل: هذه الآية منسوخة بآية الجهاد، ثم أخبر أن التوفيق للإيمان به لا بغيره.

يسمعون ولم يوفقهم لذلك فهم بمنزلة الجهال إذا لم ينتفعوا بما لم يسمعوا وهم أيضاً كالصم الذين لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه لعدم التوفيق ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ يعني بأبصارهم الظاهرة ﴿أفأنت تهدي العمي﴾ يريد عمي القلوب ﴿ولو كانوا لا يبصرون﴾ لأن الله أعمى بصائر قلوبهم فلا يبصرون شيئاً من الهدى وفي هذا تسلية من الله عز وجل لنبيه ﷺ يقول الله عز وجل إنك لا تقدر أن تسمع من سلبته السمع ولا تقدر أن تهدي من سلبته البصر ولا تقدر أن توفق للإيمان من حكمت عليه أن لا يؤمن ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ .

قال العلماء: لما حكم الله عز وجل على أهل الشقوة بالشقاوة لقضائه وقدره السابق فيهم أخبر في هذه الآية أن تقدير الشقاوة عليهم ما كان ظلماً منه لأنه يتصرف في ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيدة وكل من تصرف في ملكه لا يكون ظالماً وإنما قال ولكن الناس أنفسهم يظلمون لأن الفعل منسوب إليهم بسبب الكسب وإن كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ويوم يحشرهم﴾ يعني: واذكر يا محمد يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحساب. وأصل الحشر: إخراج الجماعة وإزعاجهم من مكانهم ﴿كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار﴾ يعني كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من النهار. وقيل: معناه كأنهم لم يلبثوا في قبورهم إلا قدر ساعة من النهار. والوجه الأول أولى، لأن حال المؤمن والكافر سواء في عدم المعرفة بمقدار لبثهم في القبور إلى وقت الحشر، فتعين حمله على أمر يختص بحال الكافر وهو أنهم لما لم ينتفعوا بأعمارهم في الدنيا استقلوها. والمؤمن لما انتفع بعمره في الدنيا لم يستقله. وسبب استقلال الكفار: مدة مقامهم في الدنيا أنهم لما ضيعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص على مافيها ولم يعملوا بطاعة الله فيها كان وجود ذلك كالعدم فلذلك استقلوه. وقيل: إنهم لما شاهدوا أهوال يوم القيامة وطال عليهم ذلك، استقلوا مدة مقامهم في الدنيا، لأن مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جداً ﴿يتعارفون بينهم﴾ يعني: يعرف بعضهم بعضاً إذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون في الدنيا ثم تنقطع المعرفة بينهم إذا عاينوا أهوال يوم القيامة، وفي بعض الآثار: أن الإنسان يوم القيامة يعرف من بجنبه ولا يقدر أن يكلمه هيبة وخشية، وقيل: إن أحوال يوم القيامة مختلفة ففي بعضها يعرف بعضهم بعضاً وفي بعضها ينكر بعضهم بعضاً لهول ما يعاينون في ذلك

فقال: ﴿ ومنهم مَنْ يستمعُون إليك ﴾ بأسماعهم الظاهرة فلا ينفعهم، ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾، يريد صمم القلب، ﴿ ولو كانُوا لا يعقِلُون ﴾.

﴿ ومنهمْ مَنْ يَنْظُرُ إليكَ ﴾، بأبصارهم الظاهرة، ﴿ أَفَأَنْتَ تهدي العُمْيَ ﴾، يريد عمى القلب، ﴿ ولـو كانُـوا لا يُبْصِرُون ﴾، وهذا تسلية من الله عزّ وجلّ لنبيّه ﷺ، يقول: إنك لا تقدر أن تُسمعَ مَن سلبتُه السمعَ ولا أن تهديَ مَن سلبتُه البصرَ ولا أن تُوفّق للإيمان من حكمتُ عليه أن لا يُؤمن.

﴿ إنّ اللّهَ لا يظلمُ الناسَ شيئاً ﴾، لأنه في جميع أفعاله مُتفضّل عادل، ﴿ ولكنّ الناسَ أنفسَهم يظلِمُون ﴾، بالكفر والمعصية. قرأ حمزة والكسائي: «ولكنِ الناسُ» بتخفيف نون «لكن» ورفع «الناس»، وقرأ الباقون «ولكنّ الناس» بتشديد نون «لكن» ونصب «الناس».

قوله تعالى: ﴿ ويومَ يحشرُهم ﴾، قرأ حفص بالياء والآخرون بالنون، ﴿ كأن لَّمْ يَلْبَثُوا إلَّا ساعةً مِّنَ النّهار ﴾، قال الضحاك: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلّا ساعة من النهار. وقال ابن عباس: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلّا قدر ساعة من النهار، ﴿ يَتَعَارَفُونَ بينهم ﴾، يعرف بعضُهم بعضاً حين بُعثوا من القبور كمعرفتهم في الدنيا، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة. وفي بعض الآثار: أن الإنسان يعرف يوم القيامة مَنْ بجنبه ولا يُكلمه هيبةً

اليوم ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ يعني أن من باع آخرته الباقية بدنياه الفانية قد خسر لأنه أثر الفاني على الباقي ﴿وما كانوا مهتدين﴾ يعني إلى ما يصلحهم وينجيهم من هذا الخسار.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وإما نرينك﴾ يعني يا محمد ﴿بعض الذي نعدهم﴾ يعني ما نعدهم به من العذاب في الدنيا فذاك ﴿أو نتوفينك﴾ قبل أن نريك ذلك الوعد في الدنيا فإنك ستراه في الآخرة وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿فإلينا مرجعهم﴾ يعني في الآخرة وفيه دليل على أن الله يري رسول الله ﷺ أنواعاً من عذاب الكافرين وذلهم وخزيهم في حال حياته في الدنيا وقد أراه ذلك في يوم بدر وغيره من الأيام وسير به ما أعد لهم من العذاب في الآخرة بسبب كفرهم وتكذيبهم ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ فيه وعيد وتهديد لهم يعني أنه سبحانه وتعالى شاهد على أفعالهم التي فعلوها في الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة.

قوله عز وجل: ﴿ولكل أمة رسول﴾ لما بيَّن الله عز وجل حال محمد ﷺ مع قومه بيَّن أن حال الأنبياء مع أممهم كذلك فقال تعالى: ولكل أمة، يعني قد خلت وتقدمت قبلكم، رسول يعني: مبعوثاً إليهم يدعو إلى الله وإلى طاعته والإيمان به ﴿فإذا جاء رسولهم﴾ في هذا الكلام إضمار تقديره، فإذا جاءهم رسولهم وبلغهم ما أرسل به إليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون ﴿قضي بينهم بالقسط﴾ يعني حكم بينهم بالعدل وفي وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان: أحدهما: أنه في الدنيا وذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى كل أمة رسولاً لتبليغ الرسالة وإقامة الحجة وإزالة العذر فإذا كذبوا رسلهم وخالفوا أمر الله قضى بينهم، وبين رسلهم في الدنيا فيهلك الكافرين وينجي رسلهم والمؤمنين ويكون ذلك عدلاً لا ظلماً لأن قبل مجيء الرسول لا يكون ثواباً ولا عقاباً.

القول الثاني: إن وقت القضاء في الآخرة وذلك أن الله إذا جمع الأمم يوم القيامة للحساب والقضاء بينهم

وخشية. ﴿ قدْ خَسِرَ الذينَ كذَّبوا بلقاءِ اللَّهِ وما كانُوا مُهتدين ﴾، والمراد من الخسران: خسران النفس، ولا شيء أعظم منه.

قوله تعالى: ﴿ وإمّا نُرِيَنّكَ بعضَ الذي نَعِدُهم ﴾، يا محمد في حياتِك مِنَ العذاب، ﴿ أو نَتَوفَّينَكَ ﴾، قبل تعذيبهم، ﴿ فإلينا مَرْجِعُهم ﴾ في الآخرة، ﴿ ثمّ اللَّهُ شهيدٌ على ما يفعلون ﴾، فيجزيهم به، ﴿ ثم ﴾ بمعنى الواو، تقديره: والله شهيدٌ. قال مجاهد: فكان البعض الذي أراه قتلهم ببدر، وسائر أنواع العذاب بعد موتهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولكلِّ أمةٍ ﴾، خلت، ﴿ رسولٌ فإذا جاءَ رسولُهم ﴾، وكذبوه، ﴿ قُضِيَ بينهم بالقسطِ ﴾، أي عُذِّبوا في الدنيا وأُهلكوا بالعذاب، يعني: قبل مجيء الرسول، لا ثواب ولا عقاب. وقال مجاهد ومقاتل: فإذا جاء رسولهم الذي أُرسل إليهم يوم القيامة قُضِيَ بينه وبينهم بالقسط، ﴿ وهم لا يُظلمون ﴾، لا يعذبون بغير ذنب ولا يُؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يُزاد على سيئاتهم.

﴿ ويقولُون ﴾، أي: المشركون، ﴿ مَتى هذا الوَعْدُ ﴾ الذي تعِدنا يا محمد من العذاب. وقيل: قيام

والفصل بين المؤمن والكافر والطائع والعاصي جيء بالرسل لتشهد عليهم. والمراد من ذلك، المبالغة في إظهار العدل، وهو قوله تعالى: ﴿وهم لا يظلمون﴾ يعني من جزاء أعمالهم شيئاً ولكن يجازي كل أحد على قدر عمله. وقيل: معناه أنهم لا يعذبون بغير ذنب ولا يؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم ﴿ويقولون﴾ يعني هؤلاء الكفار ﴿متى هذا الوعد﴾ يعني الذي تعدنا به يا محمد من نزول العذاب وقيل قيام الساعة، وإنما قالوا ذلك على وجه التكذيب والاستبعاد ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني فيما تعدونا به، وإنما قالوا بلفظ الجمع لأن كل أمة قالت لرسولها كذلك أو يكون المعنى: إن كنتم صادقين أنت وأتباعك يا محمد أوذكروه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ﴿قل﴾ أي: قل لهم يا محمد ﴿لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾ يعني لا أملك لنفسي دفع ضر أو جلب نفع ولا أقدر على ذلك ﴿إلا ما شاء الله﴾ يعني أن أقدر عليه أو أملكه. والمعنى: أن إنزال العذاب على الأعداء وإظهار النصر للأولياء وعلم قيام الساعة لا يقدر عليه إلا الله فتعيين الوقت إلى الله سبحانه وتعالى بحسب مشيئته ثم إذا حضر ذلك الوقت الذي وقته الله لحدوث هذه الأشياء فإنه يحدث لا محالة وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿لكل أمة أجل﴾ أي مدة مضروبة ووقت معين ﴿إذا جاء أجلهم﴾ يعني إذا انقضت مدة أعمارهم ﴿فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ يعني لا يتأخرون عن ذلك الأجل الذي أجل لهم ولا يتقدمونه ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ﴿أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً﴾ يعني ليلاً يقال بات يفعل كذا إذا فعل بالليل والسبب فيه إن الإنسان في الليل لا يكون إلا في البيت غالباً فجعل الله هذه اللفظة كناية عن الليل ﴿أو نهاراً﴾ يعني في النهار ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ يعني ما الذي يستعجلون من نزول العذاب وقد وقعوا فيه وحقيقة المعنى أنهم كانوا يستعجلون نزول العذاب كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ فأجابهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ يعني أي شيء يعلم المجرمون ما يطلبون ويستعجلون كما يقول الرجل لغيره وقد فعل فعلاً قبيحاً ماذا جنيت على نفسك.

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ
تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ

الساعة، ﴿ إنْ كنتُم صادقين ﴾، أنتَ يا محمدُ وأتباعُك.

﴿ قُل لَّآ أمْلِكُ لنفسي ﴾، لا أقدر لها على شيء، ﴿ ضراً ولا نَفْعاً ﴾، أي: دفع ضر ولا جلب نفع، ﴿ إلّا ما شاءَ اللّهُ ﴾، أن أملكه، ﴿ لكلِّ أُمّةٍ أجلٌ ﴾، مدة مضروبة، ﴿ إذا جاءَ أجلُهم ﴾، وقت فناء أعمارهم، ﴿ فلا يستأخِرُونَ ساعةً ولا يستقدِمُون ﴾، أي: لا يتأخرون ولا يتقدمون.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أرأيتُم إنْ أتاكم عذابُه بياتاً ﴾، ليلاً، ﴿ أو نهاراً ماذا يستعجلُ منه المجرمون ﴾، أي: ماذا يستعجل من الله المشركون. وقيل: ماذا يستعجل من العذاب المجرمون، وقد وقعوا فيه. وحقيقة المعنى: أنهم كانوا يستعجلون العذاب، فيقولون: ﴿ اللّهمَّ إنْ كان هذا هو الحقَّ من عندكَ فأمطرْ علينا حجارةً مِّنَ السماءِ أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فيقول الله تعالى: ﴿ ما يستعجلُ ﴾ يعني: ليس يعلم المجرمون ماذا يستعجلون ويطلبون، كالرجل يقول لغيره وقد فعل قبيحاً ماذا جنيت على نفسك.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾

﴿أثمّ إذا ما وقع﴾ يعني إذا ما نزل العذاب ووقع ﴿آمنتم به﴾ يعني آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس وقيل معناه صدقتم بالعذاب عند نزوله ودخلت همزة الاستفهام على ثم للتوبيخ والتقريع ﴿آلآن﴾ فيه إضمار تقديره يقال لهم آلآن تؤمنون أي حين وقوع العذاب ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ يعني تكذيباً واستهزاء ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ يعني ظلموا أنفسهم بسبب شركهم وكفرهم بالله ﴿ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾ يعني في الدنيا من الأعمال.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو﴾ يعني ويستخبرونك يا محمد أحق ما تعدنا به من نزول العذاب وقيام الساعة ﴿قل إي وربي﴾ أي قل لهم يا محمد نعم وربي ﴿إنه لحق﴾ يعني إن الذي أعدكم به حق، لا شك فيه ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ يعني بفائتين من العذاب لأن من عجز عن شيء فقد فاته ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت﴾ يعني أشركت ﴿ما في الأرض﴾ يعني من شيء ﴿لافتدت به﴾ يعني يوم القيامة. والافتداء: بمعنى البذل لما ينجو به من العذاب إلا أنه لا ينفعه الفداء ولا يقبل منه ﴿وأسرّوا الندامة﴾ يعني يوم القيامة، وإنما جاء بلفظ الماضي والقيامة من الأمور المستقبلة، لأن أحوال يوم القيامة لما كانت واجبة الوقوع، جعل الله مستقبلها كالماضي والإسرار يكون بمعنى الإخفاء وبمعنى الإظهار فهو من الأضداد، فلهذا اختلفوا في قوله: وأسروا الندامة. فقال أبو عبيدة: معناه وأظهروا الندامة لأن ذلك اليوم ليس يوم تصبر وتصنع. وقيل: معناه أخفوا، يعني أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء والأتباع خوفاً من ملامتهم إياهم وتعبيرهم لهم ﴿لما رأوا العذاب﴾ يعني: حين عاينوا العذاب وأبصروه ﴿وقضي بينهم بالقسط﴾ يعني وحكم بينهم بالعدل قيل بين المؤمن والكافر وقيل: بين الرؤساء والأتباع. وقيل: بين الكفار لاحتمال أن بعضهم قد ظلم بعضاً فيؤخذ للمظلوم من الظالم وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وهم لا يظلمون﴾ يعني في الحكم لهم وعليهم بأن يخفف من عذاب المظلوم ويشدد في عذاب الظالم ﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض﴾ يعني أن كل

﴿ أثُمَّ إذا مَا وَقَعَ ﴾، قيل: معناه أهنالك، وحينئذ، وليس بحرف عطف، ﴿ إذا ما وقع ﴾ نزل العذاب، ﴿ آمنتُم به ﴾، أي بالله في وقت اليأس. وقيل: آمنتم به أي صدقتم بالعذاب وقت نزوله، ﴿ آلآنْ ﴾، فيه إضمار، أي: يقال: لكم آلآن تُؤمنون حين وقع العذاب؟ ﴿ وقَدْ كُنْتُم بهِ تستعجِلُون ﴾، تكذيباً واستهزاءً، قرأ ورش عن نـافع «آلآن» بحذف الهمزة التي بعد اللام الساكنة وإلقاء حركتها على اللام، ويمدّ الهمزة الأولى على وزن عالان، وكذلك الحرف الآخر، وروى زمعة بن صالح « الان » على مثل علان بغير مدّ ولا همزة بعد اللام، وقرأ الباقون « الان » بهمزة ممدودة في الأول وإثبات همزة بعد اللام، وكذلك قالون وإسماعيل عن نافع.

﴿ ثم قيلَ للذين ظلمُوا ﴾، أشركوا، ﴿ ذوقُوا عذابَ الخُلْدِ هلْ تُجزَوْنَ إلّا بما كنتم تكسِبُون ﴾، في الدنيا.

﴿ ويَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾، أي: يستخبرونك يا محمد، ﴿ أحقٌّ هُوَ ﴾، أي ما تعدنا من العذاب وقيام الساعة، ﴿ قُلْ إيْ وربِّي ﴾، أي: نعم وربِّي، ﴿ إنّه لحقٌّ ﴾، لا شك فيه، ﴿ وما أنْتُم بمعجزِين ﴾، أي: بفائتين من العذاب، لأن مَن عجز عن شيء فقدْ فاته.

﴿ ولو أنّ لكلِّ نفسٍ ظلمتْ ﴾، أي: أشركت، ﴿ ما في الأرضِ لافْتَدَتْ بهِ ﴾، يوم القيامة، والافتداء ههنا بذل ما ينجو به من العذاب. ﴿ وأسرُّوا النّدامَة ﴾، قال أبو عبيدة: معناه أظهرُوا الندامة لأنه ليس ذلك اليوم يوم

شيء في السموات والأرض لله ملك له لا يشركه فيه غيره فليس للكافر شيء يفتدي به من عذاب الله يوم القيامة لأن الأشياء كلها لله وهو أيضاً ملك لله فكيف يفتدي من هو مملوك لغيره بشيء لا يملكه ﴿ألا إن وعد الله حق﴾ يعني ما وعد الله به على لسان نبيه ﷺ من ثواب الطائع وعقاب العاصي حق لا شك فيه ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يعني حقيقة ذلك ﴿هو يحيي ويميت﴾ يعني الذي يملك ما في السموات والأرض قادر على الإحياء والإماتة لا يتعذر عليه شيء مما أراد ﴿وإليه ترجعون﴾ يعني بعد الموت للجزاء قوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم﴾ قيل: أراد بالناس قريشاً. وقيل: هو على العموم وهو الأصح وهو اختيار الطبري قد جاءتكم موعظة من ربكم يعني القرآن والوعظ زجر مقترن بتخويف. وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب. وقيل: الموعظة، ما يدعو إلى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة.

والقرآن داع إلى كل خير وصلاح بهذا الطريق ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ يعني أن القرآن ذو شفاء لما في القلوب من داء الجهل وذلك لأن داء الجهل أضر للقلب من داء المرض للبدن.

وأمراض القلب هي: الأخلاق الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة.

فالقرآن مزيل لهذه الأمراض كلها، لأن فيه الوعظ والزجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الدواء والشفاء لهذه الأمراض القلبية، وإنما خص الصدر بالذكر، لأنه موضع القلب وغلافه وهو أعز موضع في بدن الإنسان لمكان القلب فيه ﴿وهدى﴾ يعني وهو هدى من الضلالة ﴿ورحمة للمؤمنين﴾ يعني ونعمة على المؤمنين لأنهم هم الذين انتفعوا بالقرآن دون غيرهم ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ الباء في بفضل الله متعلقة بمضمر استغنى عن ذكره لدلالة ما تقدم عليه وهو قوله قد جاءتكم موعظة من ربكم. والفضل هنا: بمعنى الإفضال ويكون معنى الآية على هذا يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهو القرآن بإفضال الله عليكم ورحمته بكم

تصبّر وتصنّع. وقيل: معناه أخفوا أي أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء خوفاً من ملامتهم وتعبيرهم، ﴿ لمّا رَأَوُا العذابَ وقُضِيَ بينهمْ بالقِسْطِ ﴾، فرغ من عذابهم، ﴿ وهم لا يُظلمون ﴾.

﴿ ألَا إنّ للّهِ ما في السمٰواتِ والأرضِ ألَا إنّ وَعْدَ اللّهِ حقٌّ ولكنّ أكثرَهم لا يعلمُون ﴾.

﴿ هو يحيي ويُميتُ وإليهِ تُرجَعُون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يا أيها النّاسُ قدْ جاءَتْكم موعظةٌ ﴾، تذكرة، ﴿ مِن ربِّكم وشفاءٌ لِّما في الصّدورِ ﴾، أي: دواء لما في الصدور من داء الجهل. وقيل: لما في الصدور أي شفاء لعمى القلوب، والصدر موضع القلب وهو أعزّ موضع في الإنسان لجوار القلب، ﴿ وهُدىً ﴾، من الضلالة، ﴿ ورحمةٌ للمؤمنين ﴾، والرحمة هي النعمة على المحتاج، فإنه لو أهدى ملك إلى ملك شيئاً لا يقال قد رحمه، وإن كان ذلك نعمة فإنه لم يضعها في محتاج.

وإرادته الخير لكم ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فبذلك فليفرحوا﴾ أشار بذلك إلى القرآن لأن المراد بالموعظة والشفاء: القرآن فترك اللفظ وأشار إلى المعنى وقيل: فبذلك فليفرحوا إشارة إلى معنى الفضل والرحمة والمعنى فبذلك التطول والإنعام فليفرحوا قال الواحدي الفاء في قوله تعالى: فليفرحوا زائدة كقول الشاعر:

فـإذا هلكـت فعند ذلـك فاجزعـي

فالفاء في قوله فاجزعي، زائدة.

وقال صاحب الكشاف في معنى الآية بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك. فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير إيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط فكأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما، والفرح: لذة في القلب بإدراك المحبوب والمشتهى. يقال: فرحت بكذا إذا أدركت المأمول ولذلك أكثر ما يستعمل الفرح في اللذات البدنية الدنيوية واستعمل هنا فيما يرغب فيه من الخيرات ومعنى الآية ليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته أي ما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالإيمان وسكون النفس إليه ﴿هو خير مما يجمعون﴾ يعني من متاع الدنيا ولذاتها الفانية هذا مذهب أهل المعاني في هذه الآية.

وأما مذهب المفسرين فغير هذا، فإن ابن عباس والحسن وقتادة قالوا: فضل الله الإسلام ورحمته القرآن وقال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله.

وقال ابن عمر: فضل الله الإسلام ورحمته تزيينه في قلوبنا. وقيل: فضل الله الإسلام ورحمته الجنة. وقيل: فضل الله القرآن ورحمته السنن. فعلى هذا الباء في بفضل الله تتعلق بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته ﴿قل﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة ﴿أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق﴾ يعني من زرع وضرع وغيرهما وعبر عما في الأرض بالإنزال لأن جميع ما في الأرض من خير ورزق فإنما هو من بركات السماء ﴿فجعلتم منه﴾ يعني من ذلك الرزق ﴿حراماً وحلالاً﴾ يعني ما حرموه على أنفسهم في الجاهلية من الحرث والأنعام، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي.

قال الضحاك: وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ ﴿قل آلله أذن لكم﴾ يعني: قل لهم يا محمد آلله أذن لكم في هذا التحريم والتحليل ﴿أم على الله تفترون﴾ يعني بل أنتم كاذبون على الله في

قوله تعالى: ﴿ قلْ بفضلِ اللّهِ وبرحمتِهِ ﴾، قال مجاهد وقتادة: فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن. وقال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله. وقال ابن عمر: فضل الله: الإسلام، رحمته: تزيينه في القلب. وقال خالد بن معدان: فضل الله: الإسلام، ورحمته: السُّنَن. وقيل: فضل الله: الإيمان، ورحمته: الجنة. ﴿ فبذلك فَلْيَفْرَحُوا ﴾، أي: ليفرح المؤمنون أن جعلهم الله من أهله، ﴿ هـو خيرٌ مما يجمعُون ﴾، أي: مما يجمعه الكفّار من الأموال. وقيل: كلاهما خبر عن الكفّار. وقيل: عن المؤمنين وقرأ أبو جعفر وابن عامر: «فليفرحُـوا» بالياء وتجمعون بالتاء وقرأ يعقوب كلاهما بالتاء ووجه هذه القراءة أن المراد بـذلك فليفرح المؤمنون فهو خير مما يجمعونه من الأموال مختلف عنه خطاباً للمؤمنين.

﴿ قلْ ﴾ يا محمد لكفّار مكة، ﴿ أرأيْتُم ما أنزلَ الله لكمْ مِّن رِّزْقٍ ﴾، عبّر عن الخلق بالإنزال لأن ما في الأرض من خير، فما أنزل الله من رزق من زرع وضرع، ﴿ فجعلتُم منه حراماً وحلالاً ﴾، هو ما حرّموا من الحرث ومن الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة الحامي. قال الضحاك: هو قوله تعالى: ﴿ وجعلوا للّهِ ممّا ذَرَأَ مِنَ الحرثِ

ادعائكم أن الله أمرنا بهذا ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ يعني: إذا لقوه يوم القيامة أيحسبون أنه لا يؤاخذهم ولا يجازيهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والوعيد العظيم لمن يفتري على الله الكذب ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ يعني ببعثة الرسل وإنزال الكتب لبيان الحلال والحرام ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ يعني: لا يشكرون الله على ذلك الفضل والإحسان.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن﴾ الخطاب للنبي ﷺ وحده والشأن الخطب والحال والأمر الذي يتفق ويصلح ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور والجمع الشؤون تقول العرب ما شأن فلان أي ما ماله.

والشأن اسم إذا كان بمعنى الخطب والحال ويكون مصدراً إذا كان معناه القصد والذي في هذه الآية يجوز أن يكون المراد به الاسم. قال ابن عباس: معناه، وما تكون يا محمد في شأن يريد من أعمال البر؟ وقال الحسن: في شأن من شؤون الدنيا وحوائجك ويجوز أن يكون المراد منه القصد يعني قصد الشيء وما تتلو منه من قرآن. اختلفوا في الضمير في منه إلى ماذا يعود فقيل: يعود إلى الشأن إذ تلاوة القرآن شأن من شؤون رسول الله ﷺ بل هو أعظم شؤونه، فعلى هذا يكون داخلاً تحت قوله تعالى: وما تكون في شأن إلا أنه سبحانه وتعالى خصه بالذكر لشرفه وعلو مرتبته. وقيل: إنه راجع إلى القرآن لأنه قد تقدم ذكره في قوله سبحانه وتعالى قل بفضل الله وبرحمته، فعلى هذا يكون المعنى وما تتلو من القرآن من قرآن يعني من سورة وشيء منه لأن لفظ القرآن يطلق على جميعه وعلى بعضه. وقيل: الضمير في منه راجع إلى الله والمعنى وما تتلو من الله من قرآن نازل عليك.

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تعملون من عمل﴾ فإنه خطاب للنبي ﷺ وأمته داخلون فيه ومرادون به، لأن من المعلوم أنه إذا خوطب رئيس قوم وكبيرهم، كان القوم داخلين في ذلك الخطاب. ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ولا تعملون من عمل على صيغة الجمع فدل على أنهم داخلون في الخطابين الأولين وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾ يعني شاهدين لأعمالكم وذلك لأن الله سبحانه وتعالى شاهد على كل شيء وعالم بكل شيء لأنه لا محدث ولا خالق ولا موجد إلا الله تعالى فكل ما يدخل في الوجود من أحوال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة داخل في علمه وهو شاهد عليه ﴿إذ تفيضون فيه﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى شاهد عليكم حين تدخلون وتخوضون في ذلك العمل.

والأنعام نصيباً﴾ [الأنعام: ١٣٦]. ﴿قلْ آللَّهُ أذِنَ لكُمْ﴾، في هذا التحريم والتحليل، ﴿أمْ﴾، بل، ﴿على الله تَفْتَرُون﴾، وهو قولهم: ﴿والله أمَرَنَا بِها﴾ [الأعراف: ٢٨].

﴿وما ظنُّ الذينَ يفترُونَ على اللَّهِ الكذبَ يومَ القيامةِ﴾، أيحسبون أنّ الله لا يؤاخذهم به ولا يعاقبهم عليه، ﴿إنّ اللَّهَ لذُو فضلٍ على الناسِ ولكنّ أكثرَهم لا يشكرُون﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وما تكُونُ﴾، يا محمد، ﴿في شأنٍ﴾، عمل من الأعمال، وجمعه شُؤون، ﴿وما تَتْلُوا منه﴾، من الله، ﴿مِنْ قرآن﴾، نازل، وقيل: منه أي من الشأن من قرآن، نزل فيه ثم خاطبه وأُمته فقال: ﴿ولا

والإفاضة: الدخول في العمل على جهة الانتصاب إليه والانبساط فيه. وقال ابن الأنباري: معناه إذ تدفعون فيه وتبسطون في ذكره. وقيل: الإفاضة: الدفع بكثرة. وقال الزجاج: تنشرون فيه. يقال: أفاض القوم في الحديث، إذا انتشروا فيه ﴿وما يعزب عن ربك﴾ يعني: وما يبعد ويغيب عن ربك يا محمد من عمل خلقه شيء لأنه عالم به وشاهد عليه. وأصل العزوب: البعد. يقال منه كلام عازب إذا كان بعيد المطلب ﴿من مثقال ذرة﴾ يعني وزن ذرة والمثقال: الوزن. والذرّة: النملة الصغيرة الحمراء وهي خفيفة الوزن جداً ﴿في الأرض ولا في السماء﴾ فإن قلت: لمَ قدم ذكر الأرض على السماء هنا وقدم ذكر السماء على الأرض في سورة سبأ وما فائدة ذلك؟ قلت: كان حق السماء أن تقدم على الأرض كما في سورة سبأ إلا أنه تعالى لما ذكر في هذه الآية شهادته على أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ثم وصل ذلك بقوله وما يعزب عن ربك حسن تقديم الأرض على السماء في هذا الموضع لهذه الفائدة ﴿ولا أصغر من ذلك﴾ يعني من الذرة ﴿ولا أكبر﴾ يعني منها ﴿إلا في كتاب مبين﴾ يعني في اللوح المحفوظ.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ اعلم أننا نحتاج أولاً في تفسير هذه الآية أن نبين من يستحق اسم الولاية ومن هو الولي فنقول: اختلف العلماء فيمن يستحق هذا الاسم فقال ابن عباس في هذه الآية هم الذين يذكر الله لرؤيتهم وروى الطبري بسنده عن سعيد بن جبير مرسلاً قال: «سئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله فقال هم الذين إذ رؤوا ذكر الله» وقال ابن زيد: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ولن يتقبل الإيمان إلا بالتقوى.

وقال قوم: هم المتحابون في الله. ويدل على ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا بشهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم؟. قال: هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتقاطعونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس. وقرأ هذه الآية: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» أخرجه أبو داود.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» أخرجه مسلم.

عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء» أخرجه الترمذي.

وروى البغوي بسنده عن أبي مالك الأشعري. قال: كنت عند النبي ﷺ فقال: «إن لله عبيداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة. قال: وفي ناحية القوم أعرابي، فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال: حدثنا يا رسول الله عنهم من هم؟ قال: فرأيت في وجه رسول الله ﷺ البشر فقال هم عباد من عباد

تعملُون مِنْ عملٍ إلاّ كنّا عليكم شُهوداً إذْ تُفيضُون فيه ﴾، أي: تدخلون وتخوضون فيه، الهاء عائدة إلى العمل، والإفاضة: الدخول في العمل. وقال ابن الأنباري: تندفعون فيه. وقيل: تكثرون. والإفاضة: الدفع بكثرة، **﴿ ومَا يَعْزُبُ عن ربِّكَ﴾**، يغيب عن ربك، وقرأ الكسائي «يعزب» بكسر الزي، وكذلك في سورة سبأ [٣]، وقرأ الآخرون بضمّها وهما لغتان. **﴿ مِنْ مِّثْقالِ ذَرّةٍ ﴾**، أي: مثقال ذرّة، و**﴿ من ﴾** صلة والذرّة هي النملة الحمراء الصغيرة. **﴿ في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ﴾**، أي: من الذرّة، **﴿ ولا أكبر ﴾** قرأ حمزة ويعقوب برفع الراء فيهما عطفاً على موضع المثقال قبل دخول **﴿ من ﴾**، وقرأ الآخرون بنصبهما، أراد للكسر عطفاً على الذرّة في الكسر. **﴿ إلاّ في كتابٍ مبين ﴾**. وهو اللوح المحفوظ.

الله ومن بلدان شتى وقبائل شتى لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ولا دنيا يتبادلون بها يتحابون بروح الله يجعل وجوههم نوراً ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن، يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون». ويروى عن النبي ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى إن أوليائي من عبادي الذين يذكرون بذكري وأذكر بذكرهم» هكذا ذكره البغوي بغير سند، وروى الطبري بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء قيل من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» الغبطة نوع من الحسد إلا أن الحسد مذموم والغبطة محمودة والفرق بين الحسد والغبطة أن الحاسد يتمنى زوال ما على المحسود من النعمة ونحوها والغبطة هي أن يتمنى الغابط مثل تلك النعمة التي هي على المغبوط من غير زوال عنه.

وقال أبو بكر الأصم: أولياء الله هم الذين تولى الله هدايتهم وتولوا القيام بحق العبودية لله والدعوة إليه.

وأصل الولي من الولاء وهو القرب والنصرة فولي الله هو الذي يتقرب إلى الله بكل ما افترض عليه ويكون مشتغلاً بالله مستغرق القلب في معرفة نور جلال الله فإن رأى رأى دلائل قدرة الله وإن سمع سمع آيات الله وإن نطق نطق بالثناء على الله وإن تحرك تحرك في طاعة الله وإن اجتهد اجتهد فيما يقربه إلى الله لا يفتر عن ذكر الله ولا يرى بقلبه غير الله، فهذه صفة أولياء الله وإذا كان العبد كذلك كان الله وليه وناصره ومعينه قال الله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾.

وقال المتكلمون: ولي الله من كان آتياً بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ويكون آتياً بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة وإليه الإشارة بقوله ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ وهو أن الإيمان مبني على جميع الاعتقاد والعمل ومقام التقوى هو أن يتقي العبد كل ما نهى الله عنه وقوله سبحانه وتعالى: لا خوف عليهم، يعني في الآخرة إذ خاف غيرهم ولا هم يحزنون يعني على شيء فاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها.

قال بعض المحققين: زوال الخوف والحزن عنهم إنما يحصل لهم في الآخرة لأن الدنيا لا تخلو من هم وغم وأنكاد وحزن.

قال بعض العارفين: إن الولاية عبارة عن القرب من الله ودوام الاشتغال بالله وإذا كان العبد بهذه الحالة فلا

قوله تعالى: ﴿ **ألاَ إنّ أولياءَ الله لا خوفٌ عليهمْ ولا همْ يَحْزَنُون** ﴾، اختلفوا فيمَن يستحق هذا الاسم. قال بعضهم: هم الذين ذكرهم الله، فقال:

﴿ **الذينَ آمنُوا وكانُوا يتّقُون** ﴾، وقال قوم: هم المتحابّون في الله. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفّار حدّثنا أحمد بن منصور الرمادي حدّثنا عبد الرزّاق أنا معمر عن أبي حسين عن شهر بن حوشب عن أبي مالك الأشعري قال: كنت عند النبي ﷺ فقال: «**إنّ للّهِ عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيّون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة**»، قال: وفي ناحية القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال: حدّثنا يا رسول الله عنهم مَن هم؟ قال: فرأيتُ في وجه النبي ﷺ البشرَ فقال: «**هُمْ عبادٌ مِن عبادِ اللّهِ من بلدانٍ شتّى لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ولا دنيا يتبادلون بها يتحابّون بروح الله يجعل الله وجوههم نوراً ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدّام الرحمن، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون**»، ورواه عبد الله بن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام قال: حدّثنا شهر بن حوشب حدّثني عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ سُئِلَ مَن أولياء الله؟ فقال: الذين

يخاف من شيء ولا يحزن على شيء لأن مقام الولاية والمعرفة منعه من أن يخاف أو يحزن.

وأما قوله سبحانه وتعالى ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فقد تقدم تفسيره وأنه صفة لأولياء الله.

لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ اختلفوا في هذه البشرى، فروي عن عبادة بن الصامت قال «سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى لهم البشرى في الحياة الدنيا قال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له» أخرجه الترمذي.

وله عن رجل من أهل مصر قال «سألت أبا الدرداء عن هذه الآية لهم البشرى في الحياة الدنيا قال: ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها وقال ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» قال الترمذي حديث حسن (خ).

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» لفظ البخاري ومسلم «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤياأصدقكم حديثاً ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة والرؤيا ثلاث: الرؤيا الصالحة بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، قال بعض العلماء: ووجه هذا القول إنا إذا حملنا قوله تبارك وتعالى لهم البشرى على الرؤيا الصالحة الصادقة فظاهر هذا النص يقتضي أن لا تحمل هذه الحالة إلا لهم، وذلك لأن ولي الله هو الذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله عز وجل ومن كان كذلك فإنه عند النوم لا يبقى في قلبه غير ذكر الله ومعرفته ومن المعلوم أن معرفة الله في القلب لا تفيد إلا الحق والصدق فإذا رأى الولي رؤيا أو رؤيت له كانت تلك الرؤيا بشرى من الله عز وجل لهذا الولي.

قال الخطابي: في هذه الأحاديث توكيد لأمر الرؤيا وتحقيق منزلتها وإنما كانت جزءاً من أجزاء النبوة في حق الأنبياء دون غيرهم وكان الأنبياء عليهم السلام يوحى إليهم في منامهم كما يوحى إليهم في اليقظة، قال الخطابي: قال بعض العلماء معنى الحديث أن الرؤيا تأتي على موافقة النبوة لا أنها جزء من النبوة وقال الخطابي وغيره في معنى قوله ـ الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة: أقام النبي ﷺ في النبوة ثلاثاً وعشرين سنة على الصحيح وكان قبل ذلك بستة أشهر يرى في المنام الوحي فهي جزء من ستة وأربعين جزءاً وقيل إن المنام لعل أن يكون فيه إخبار بغيب

إذا رُؤوا ذُكِرَ الله. ويُروَى عن النبي ﷺ: قال الله تعالى: «إن أوليائي من عبادي الذين يُذْكَرُون بذكري وأُذْكَرُ بذكرِهم».

﴿ لهم البُشْرَى في الحياة الدنيا وفي الآخرةِ ﴾، اختلفوا في هذه البشرى، روي عن عبادة بن الصامت قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ لهم البُشْرَى في الحياة الدنيا ﴾، قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف حدّثنا محمد بن إسماعيل حدّثنا أبو اليمان حدّثنا شعيب عن الزهري حدّثني سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لمْ يبقَ من النبوّةِ إلّا المبشرات»، قالوا: وما المبشّرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة». وقيل: البشرى في الدنيا

وهو أحد مراتب النبوة وهو يسير في جانب النبوة لأنه لا يجوز أن يبعث الله بعد محمد ﷺ نبياً يشرع الشرائع ويبين الأحكام ولا يخبر بغيب أبداً.

فإذا وقع لأحد في المنام الإخبار بغيب يكون هذا القدر جزءاً من النبوة لا أنه نبي، وإذا وقع ذلك لأحد في المنام يكون صدقاً والله أعلم.

وقيل في تفسير الآية: إن المراد بالبشرى في الحياة الدنيا هي الثناء الحسن وفي الآخرة الجنة ويدل على ذلك ما روي عن أبي ذر قال «قيل لرسول الله ﷺ أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال تلك عاجل بشرى المؤمن» أخرجه مسلم قال الشيخ محيي الدين النووي قال العلماء معنى هذا البشرى المعجلة له بالخير، وهي دليل للبشرى المؤخرة له في الآخرة بقوله بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار وهذه البشرى المعجلة دليل على رضا الله عنه ومحبته له وتحبيبه إلى الخلق كما قال ثم يوضع له القبول في الأرض هذا كله إذا حمده الناس من غير تعرض منه لحمدهم وإلا فالتعرض مذموم قال بعض المحققين: إذا اشتغل العبد بالله عز وجل استنار قلبه وامتلأ نوراً فيفيض من ذلك النور الذي في قلبه على وجهه فتظهر عليه آثار الخشوع والخضوع يحبه الناس ويثنون عليه فتلك عاجل بشراه بمحبة الله له ورضوانه عليه وقال الزهري وقتادة في تفسير البشرى: هي نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ وقال عطاء عن ابن عباس البشرى في الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة وفي الآخرة بعد خروج نفس المؤمن يعرج بها إلى الله تعالى ويبشر برضوان الله تعالى وقال الحسن هي ما بشر الله به المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**لا تبديل لكلمات الله**﴾ يعني لا خلف لوعد الله الذي وعد به أولياءه وأهل طاعته في كتابه وعلى ألسنة رسله ولا تغيير لذلك الوعد ﴿**ذلك هو الفوز العظيم**﴾ يعني ما وعدهم به في الآخرة ﴿**ولا يحزنك قولهم**﴾ يقول الله لنبيه محمد ﷺ ولا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين لك ولا يغمك تخويفهم إياك ﴿**إن العزة لله جميعاً**﴾ يعني أن القهر والغلبة والقدرة لله جميعاً هو المنفرد بها دون غيره وهو ناصرك عليهم والمنتقم لك منهم.

هي الثناء الحسن وفي الآخرة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرزّاق بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي حدّثنا علي بن الجعد أنا شعبة عن أبي عمران الجوفي قال: سمعتُ عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذرّ يا رسول الله الرجل يعمل لنفسه ويحبّه الناس؟ قال: «تلكَ عاجِلُ بُشْرَى المؤمن». وأخرج مسلم بن الحجّاج هذا الحديث عن يحيى بن يحيى عن حمّاد بن زيد عن أبي عمران، وقال: «ويحمده الناس عليه» وقال الزهري وقتادة: هي نزول الملائكة بالبشارة من الله تعالى عند الموت، قال الله تعالى: ﴿ تتنزّل عليهم الملائكة أنْ لا تخافُوا ولا تحزنوا وأَبْشِرُوا بالجنة التي كنتُم تُوعَدُون ﴾ [فصّلت: ٣٠]. وقال عطاء عن ابن عباس: البشرى في الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة، وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن مَن يعرج بها إلى الله ويُبشّر برضوان الله. وقال الحسن: هي ما بشّر الله المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه، كقوله: ﴿ وبَشِّرِ الذينَ آمنُوا وعملوا الصالحات ﴾ [البقرة: ٢٥]، ﴿ وبَشِّرِ المؤمنين ﴾ [البقرة: ٢٢٣. التوبة: ١١٢، يونس: ٨٧، الصفّ: ١٣] ﴿ وأَبْشِرُوا بالجنة ﴾ [فصّلت: ٣٠]. وقيل: بشّرهم في الدنيا بالكتاب والرسول أنهم أولياء الله، ويبشّرهم في القبور وفي كتب أعمالهم بالجنة. ﴿ لا تبديلَ لكلمات الله ﴾، لا تغيّر لقوله: «ولا خُلْفَ لوعدِه». ﴿ **ذلكَ هُوَ الفَوْزُ العظيم** ﴾.

﴿ **ولا يَحْزُنْكَ قولُهم** ﴾، يعني: قول المشركين، قرأ نافع «ولا يُحزِنك» بضم الياء وكسر الزاي، وقرأ

وقال سعيد بن المسيب: إن العزة لله جميعاً فيعز من يشاء وهذا كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ولا منافاة بين الآيتين فإن عزة الرسول ﷺ وعزة المؤمنين بإعزاز الله إياهم فثبت بذلك أن العزة لله جميعاً وهو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء. وقيل إن المشركين كانوا يتعززون بكثرة أموالهم وأولادهم وعبيدهم فأخبر الله سبحانه وتعالى أن جميع ذلك لله وفي ملكه فهو قادر على أن يسلبهم جميع ذلك ويذلهم بعد العز ﴿هو السميع﴾ لأقوالكم ودعائكم ﴿العليم﴾ بجميع أحوالكم لا تخفى عليه خافية.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض﴾ ألا كلمة تنبيه معناه أنه لا ملك لأحد في السموات ولا في الأرض إلا الله عز وجل فهو يملك من في السموات ومن في الأرض.

فإن قلت قال سبحانه وتعالى في الآية التي قبل هذه ألا إن لله ما في السموات بلفظة ما وقال سبحانه وتعالى في هذه الآية بلفظة من فما فائدة ذلك؟ قلت إن لفظة ما تدل على ما لا يعقل ولفظة من تدل على من يعقل فمجموع الآيتين يدل على أن الله عز وجل يملك جميع من في السموات ومن في الأرض من العقلاء وغيرهم وهم عبيده وفي ملكه.

وقيل: إن لفظة من لمن يعقل فيكون المراد بمن في السموات الملائكة والعقلاء ومن في الأرض الإنس والجن وهم العقلاء أيضاً وإنما خصهم بالذكر لشرفهم وإذا كان هؤلاء العقلاء المميزون في ملكه وتحت قدرته فالجمادات بطريق الأولى أن يكونوا في ملكه إذا ثبت هذا فتكون الأصنام التي يعبدها المشركون أيضاً في ملكه وتحت قبضته وقدرته ويكون ذلك قدحاً في جعل الأصنام شركاء لله معبودة دونه ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ لفظة ما استفهاميه معناه وأي شيء يتبع الذي يدعون من دون الله شركاء والمقصود تقبيح فعلهم يعني أنهم ليسوا على شيء

الآخرون «يَحزُنك» بفتح الياء وضم الزاي، وهما لغتان، يقال: حزنه الشيء يحزنه وأحزنه، تمّ الكلام ههنا ثم ابتدأ، فقال: ﴿ إنّ العِزَّةَ للَّهِ ﴾، يعني الغلبة والقدرة لله ﴿ جميعاً ﴾ هو ناصرك وناصر دينك والمنتقم منهم قال سعيد بن المسيب: إنّ العزّةَ للَّهِ جميعاً يعني: أن الله يعزّ مَن يشاء، كما قال في آية أخرى: ﴿ ولِلَّهِ العِزّةُ ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون: ٨]، وعزّة الرسول والمؤمنين بالله فهي كلها لله، ﴿ هو السميعُ العليمُ ﴾.

﴿ ألاَ إنّ للَّهِ مَن في السمٰواتِ ومَن في الأرض وما يَتّبعُ الذينَ يدعُون من دُونِ الله شُركاءَ ﴾، هو إمّا استفهام معناه: وأيّ شيء يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟ وقيل: وما يتبعون حقيقة لأنهم يعبدونها على ظن أنهم شركاء فيشفعون لنا وليس على ما يظنون. ﴿ إنْ يتّبعُونَ إلاّ الظنَّ ﴾، يظنون أنها تُقرّبهم إلى الله، ﴿ وإنْ هم إلاّ يخرصُون ﴾، يكذبون.

لأنهم يعبدونها على أنها شركاء لله تشفع لهم وليس الأمر على ما يظنون وهو قوله سبحانه وتعالى: **﴿إن يتبعون إلا الظن﴾** يعني أن فعلهم ذلك ظن منهم أنها تشفع لهم وأنها تقربهم إلى الله وذلك ظن منهم لا حقيقة له **﴿وإن هم إلا يخرصون﴾** يعني إن هم إلا يكذبون في دعواهم ذلك.

قوله عز وجل: **﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾** يعني هو الله ربكم الذي خلق لكم الليل راحة لتسكنوا فيه وليزول التعب والكلال بالسكون فيه، وأصل السكون الثبوت بعد الحركة والنهار مبصراً وجعل النهار مضيئاً لتهتدوا فيه لحوائجكم وأسباب معايشكم وأضاف الإبصار إلى النهار وإنما يبصر فيه وليس النهار مما يبصر ولكن لما كان مفهوماً من كلام العرب معناه خاطبهم بلغتهم وما يفهمونه قال جرير:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم

فأضاف النوم إلى الليل ووصفه به وإنما عنى نفسه وأنه لم يكن نائماً هو ولا بعيره وهذا من باب نقل الاسم من المسبب إلى السبب قال قطرب تقول العرب أظلم الليل وأبصر النهار بمعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء.

قوله تعالى: **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾** يعني يسمعون سمع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك أن الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الإله المعبود المنفرد بالوحدانية في الوجود **﴿قالوا﴾** يعني المشركين **﴿اتخذ الله ولداً﴾** يعني به قولهم الملائكة بنات الله **﴿سبحانه﴾** نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد **﴿هو الغني﴾** يعني أنه سبحانه وتعالى هو الغني عن جميع خلقه فكيف يليق بجلاله اتخاذ الولد وإنما يتخذ الولد من هو محتاج إليه والله تعالى هو الغني المطلق وجميع الأشياء محتاجة إليه وهو غني عنها **﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾** يعني أنه مالك ما في السموات وما في الأرض وكلهم عبيده وفي قبضته وتصرفه وهو محدثهم وخالقهم.

ولما نزّه الله سبحانه وتعالى نفسه عن اتخاذ الولد عطف على من قال ذلك بالإنكار والتوبيخ والتقريع فقال سبحانه وتعالى: **﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾** يعني أنه لا حجة عندكم على هذا القول البتة ثم بالغ في الإنكار عليهم بقوله تعالى: **﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾** يعني أتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون إليه ما لا تجوز إضافته إليه جهلاً منكم بما تقولون بغير حجة ولا برهان **﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب﴾** أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يختلقون على الله الكذب فيقولون على الله الباطل ويزعمون أن له ولداً **﴿لا يفلحون﴾** يعني لا يسعدون وإن اغتروا بطول السلامة والبقاء في النعمة.

والمعنى أن قائل هذا القول لا ينجح في سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر قال الزجاج هذا وقف قام يعني قوله لا يفلحون ثم ابتدأ فقال تعالى: **﴿متاع في الدنيا﴾** وفيه إضمار تقديره لهم متاع في الدنيا يتمتعون به مدة أعمارهم

﴿ هو الذي جعل لكم الليلَ لتسكنُوا فيه والنّهارَ مبصراً ﴾، مضيئاً يُبصر فيه، كقولهم: ليل نائم وعيشةٌ راضيةٌ قال قُطرب: تقول العرب: أظلم الليل وأضاء النهار وأبصر، أي: صار ذا ظلمة وضياء وبصر، **﴿ إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعُون ﴾**، سمعَ الاعتبار أنـه مما لا يقدر عليه إلاّ عالم قادر.

﴿ قالوا ﴾، يعني: المشركين، **﴿ اتّخذَ اللّهُ ولداً ﴾**، وهو قولهم الملائكة بنات الله، **﴿ سبحانه هـو الغني ﴾**، عن خلقه، **﴿ له ما في السمٰواتِ وما في الأرض ﴾**، عبيداً وملكاً، **﴿ إنْ عندَكم ﴾**، ما عندكم، **﴿ مِن سُلطانٍ ﴾**، حجّة وبرهان، و**﴿ من ﴾** صلة تقديره ما عندكم سلطان، **﴿ بهذا أتقولُون على اللّهِ ما لَا تعلمون ﴾**.

﴿ قلْ إنّ الذينَ يفترُونَ على اللّهِ الكذبَ لا يُفلِحُون ﴾، لا ينجون، وقيل: لا يبقون في الدنيا ولكن.

وانقضاء آجالهم في الدنيا وهي أيام يسيرة بالنسبة إلى طول مقامهم في العذاب وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثم إلينا مرجعهم﴾ يعني بعد الموت ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ يعني ذلك العذاب بسبب ما كانوا يجحدون في الدنيا من نعمة الله عليهم ويصفونه بما لا يليق بجلاله.

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿واتل عليهم نبأ نوح﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة أحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد شرع بعد ذلك في بيان قصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ليكون في ذلك لرسول الله ﷺ أسوة بمن سلف من الأنبياء وتسلية له ليخف عليه ما يلقى من أذى قومه وأن الكفار من قومه إذا سمعوا هذه القصص وما جرى لكفار الأمم الماضية من العذاب والهلاك في الدنيا كان ذلك سبباً لخوف قلوبهم وداعياً لهم إلى الإيمان.

ولما كان قوم نوح أول الأمم هلاكاً وأعظمهم كفراً وجحوداً ذكر الله قصتهم وأنه أهلكهم بالغرق ليصير ذلك موعظة وعبرة لكفار قريش، فقال سبحانه وتعالى واتل عليهم نبأ نوح يعني واقرأ على قومك يا محمد خبر قوم نوح ﴿إذ قال لقومه يا قوم﴾ وهو بنو قابيل ﴿إن كان كبر﴾ يعني ثقل ﴿عليكم مقامي﴾ يعني فيكم ﴿وتذكيري بآيات الله﴾ يعني: ووعظي إياكم بآيات الله: وقيل: معناه إن كان ثقل وشق عليكم طول مقامي فيكم وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أقام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى ويذكرهم بآيات الله وهو قوله وتذكيري بآيات الله يعني ووعظي بآيات الله وحججه وبيناته فعزمتم على قتلي وطردي ﴿فعلى الله توكلت﴾ يعني فهو حسبي وثقتي

﴿ متاعٌ ﴾، قليل يتمتعون به وبلاغ ينتفعون به إلى انقضاء آجالهم و﴿ متاع ﴾ رفع بإضمار، أي: هو متاع، ﴿ في الدنيا ثم إلينا مَرْجِعُهم ثمّ نُذِيقُهُمُ العذابَ الشديدَ بما كانُوا يكفرُون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ واتلُ عليهمْ نبأَ نوح ﴾، أي: اقرأ يا محمد على أهل مكة خبر نوح ﴿ إذْ قالَ لقومِهِ ﴾، وهم ولد قابيل، ﴿ يا قوم إنْ كانَ كَبُرَ عليكم ﴾، عَظُم وثَقُلَ عليكم، ﴿ مقامي ﴾ طول عمري ومكثي فيكم ﴿ وتَذْكِيري ﴾، ووَعْظي إيّاكم ﴿ بآياتِ الله ﴾، بحججه وبيّناته فعزمتم على قتلي وطردي ﴿ فعلى اللّهِ توكلتُ فأجمعُوا أمركم ﴾، أي: أحكموا أمركم واعْزِمُوا عليه، ﴿ وشركاءَكم ﴾، أي: وادعوا شركاءَكم أي آلهتكم فاستعينوا بها لتجتمع معكم. وقال الزجّاج: معناه فأجمعوا أمركم مع شركائكم، فلما ترك (مع) انتصب. وقرأ يعقوب: «وشـركاؤكم» رفعٌ، أي: فأجمعوا أمركم أنتم وشركاؤكم. وقرأ رُوَيْسٌ عن يعقوب «فاجْمَعُـوا» بوصل الألف وفتح الميم، والوجه من جمع يجمع، والمراد فاجمعوا ذوي أمركم، فحُذف المضافُ وأُقيم المضاف إليه مقامه، والمعنى: اجْمَعُوا رؤساءكم، ﴿ ثم لا يكنْ أمرُكم عليكم غُمّة ﴾، أي: خفيّاً مبهماً، من قولهم: غُمّ الهلال على الناس، أي: أشكل عليهم وخفي، ﴿ ثمّ اقْضُوا إليّ ﴾، أي: أمْضُوا ما في أنفسكم وافرغوا منه، يقال: قضى فلان إذا مات ومضى وقضى دينه إذا فرغ منه. وقيل: معناه توجهوا إليّ بالقتل والمكروه. وقيل: فاقضوا ما أنتم قاضون، وهذا مثل قول السَّحَرَة لفرعون: ﴿ فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ ﴾ [طه: ٧٢]، أي: اعمل ما أنت عامل، ﴿ ولا

﴿فأجمعوا أمركم﴾ يعني فأحكموا أمركم واعزموا عليه، قال الفراء: الإجماع الإعداد والعزيمة على الأمر قال ابن الأنباري: المراد من الأمر هنا وجوه كيدهم ومكرهم فالتقدير لا تدعوا من أمركم شيئاً إلا أحضرتموه ﴿وشركاءكم﴾ يعني وادعوا شركاءكم يعني آلهتكم فاستعينوا بها لتجمع معكم وتعينكم على مطلوبكم وإنما حثهم على الاستعانة بالأصنام بناء على مذهبهم واعتقادهم أنها تضر وتنفع مع اعتقاده أنها جماد لا تضر ولا تنفع فهو كالتبكيت والتوبيخ لهم ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ يعني لا يكن أمركم عليكم خفياً مبهماً ولكن ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً من قولهم غم الهلال فهو مغموم إذا خفي والتبس على الناس ﴿ثم اقضوا﴾ ثم امضوا ﴿إليّ﴾ بما في أنفسكم من مكروه وما توعدوني به من قتل وطرد وافرغوا منه تقول العرب قضى فلان إذا مات ومضى وقيل معناه ثم اقضوا ما أنتم قاضون ﴿ولا تنظرون﴾ أي: ولا تؤخروني ولا تمهلوني بعد إعلامكم إياي ما أنتم عليه وهذا الكلام من نوح عليه السلام على طريق التعجيز لهم أخبر الله عز وجل عن نوح عليه السلام أنه كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله وأنه كان واثقاً بنصره غير خائف من كيدهم علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس لهم نفع ولا ضر وإن مكرهم لا يصل إليه ﴿فإن توليتم﴾ يعني فإن أعرضتم عن قولي وقبول نصحي ﴿فما سألتكم من أجر﴾ يعني من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فإذا لم يأخذ على تبليغ الدعوة إلى الله شيئاً كان أقوى تأثيراً في النفس ﴿إن أجري إلا على الله﴾ أي: ما ثوابي وجزائي على تبليغ الرسالة إلا على الله ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ يعني أني أمرت بدين الإسلام وأنا ماض فيه غير تارك له سواء قبلتموه أم لم تقبلوه وقيل معناه وأمرت أن أكون من المستسلمين لأمر الله ولكل مكروه يصل إليّ منكم لأجل هذه الدعوة ﴿فكذبوه﴾ يعني فكذبوا نوحاً عليه السلام ﴿فنجيناه ومن معه في الفلك﴾ يعني في السفينة ﴿وجعلناهم خلائف﴾ يعني وجعلنا الذين نجيناهم معه في الفلك سكان الأرض بعد الهالكين ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ أي فانظر يا محمد أو يا أيها الإنسان كيف كان آخر أمر من أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ
أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا

﴿ تُنْظِرُون ﴾، ولا تؤخرون وهذا على طريق التعجيز، أخبر الله عن نوح أنه كان واثقاً بنصر الله تعالى غير خائف من كيد قومه، علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس إليهم نفع ولا ضرّ إلاّ أن يشاء الله.

﴿ فإنْ توليتُم ﴾ أعرضتم عن قولي وقبول نصحي، ﴿ فما سألتُكم ﴾، على تبليغ الرسالة والدعوة، ﴿ مِنْ أجرٍ ﴾، من جعل وعوض، ﴿ إن أجرِيَ ﴾، ما أجري وثوابي، ﴿ إلاّ على اللهِ وأُمِرْتُ أن أكون مِنَ المسلمين ﴾، أي: من المؤمنين. وقيل: من المستسلمين لأمر الله.

﴿ فكذّبوه ﴾، يعني نوحاً ﴿ فنجّيناهُ ومَن معه في الفُلْكِ وجعلناهم خلائفَ ﴾، أي: جعلنا الذين معه في الفلك سكان الأرض خلفاء عن الهالكين. ﴿ وأغرقْنا الذينَ كذَّبوا بآياتِنا فانظرْ كيف كانَ عاقبةُ المنذرين ﴾، أي: آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا.

﴿نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠﴾

﴿ثم بعثنا من بعده﴾ يعني من بعد نوح ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ لم يسم هنا من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعد نوح هود وصالح وغيرهما من الرسل ﴿فجاؤوهم بالبينات﴾ يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات التي تدل على صدقهم ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ يعني أن أولئك الأقوام والأمم التي جاءتهم الرسل جروا على منهاج قوم نوح في التكذيب ولم يزجرهم ما جاءتهم به الرسل ولم يرجعوا عما هم فيه من الكفر والتكذيب ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ يعني مثل إغراقنا قوم نوح بسبب تكذيبهم نوحاً كذلك نختم على قلوب من اعتدى وسلك سبيلهم في التكذيب.

قوله عز وجل: ﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ يعني من بعد الرسل ﴿موسى وهارون إلى فرعون وملئه﴾ يعني أشراف قومه ﴿بآياتنا فاستكبروا﴾ يعني عن الإيمان بما جاء به موسى وهارون ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ يعني مستكسبين للإثم ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ يعني فلما جاء فرعون وقومه الحق الذي جاء به موسى من عند الله ﴿قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ يعني أن هذا الذي جاء به موسى سحر مبين يعرفه كل أحد ﴿قال موسى أتقولون للحق لمّا جاءكم أسحر هذا﴾ فيه حذف تقديره أتقولون للحق لما جاءكم هو سحر أسحر هذا فحذف السحر الأول اكتفاء بدلالة الكلام عليه ثم قال أسحر هذا وهو استفهام على سبيل الإنكار يعني أنه ليس بسحر ثم احتج على صحة قوله فقال ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ يعني حاصل السحر تمويه وتخييل وصاحب ذلك لا يفلح أبداً ﴿قالوا﴾ يعني قال قوم فرعون لموسى ﴿أجئتنا لتلفتنا﴾ يعني لتصرفنا وتلوينا ﴿عما وجدنا عليه آباءنا﴾ يعني من الدين ﴿وتكون لكما الكبرياء﴾ يعني الملك والسلطان ﴿في الأرض﴾ يعني في أرض مصر والخطاب لموسى وهارون.

قال الزجاج: سمي الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾ يعني بمصدقين ﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم﴾ يعني أن فرعون أراد أن يعارض معجزة موسى بأنواع من التلبيس ليظهر أن ما

﴿ ثمّ بعثنا مِنْ بعدِه رُسلاً ﴾، أي: من بعد نوح رسلاً. ﴿ إلى قومهم فجاءُوهم بالبيِّناتِ ﴾، بالدلالات الواضحات، ﴿ فما كانوا لِيُؤْمِنُوا بما كَذَّبُوا بِهِ مِن قبل ﴾، أي: بما كذب به قوم نوح من قبل، ﴿ كذلك نطبع ﴾، أي: نختم، ﴿ على قلوبِ المُعتدين ﴾.

﴿ ثُمّ بعثْنَا مِنْ بعدِهم موسى وهارونَ إلى فرعونَ ومَلَئِهِ ﴾، يعني: أشراف قومه، ﴿ بآياتِنا فاستكبرُوا وكانوا قوماً مجرمين ﴾.

﴿ فلما جاءَهم ﴾، يعني: جاء فرعون وقومه، ﴿ الحقُّ من عندِنا قالوا إنَّ هذا لسحرٌ مبين ﴾.

﴿ قالَ موسى أتقولُونَ للحقِّ لمَّا جاءَكم أسِحْرٌ هذا ﴾، تقدير الكلام أتقولون للحقِّ لمّا جاءَكم سحر أسحر هذا فحذف السحر الأول اكتفاءً بدلالة الكلام عليه. ﴿ ولا يُفلِحُ السَّاحِرُون ﴾.

﴿ قالوا ﴾، يعني: فرعون وقومه لموسى، ﴿ أجئتنا لِتَلْفِتَنَا ﴾، لتصرفنا، وقال قتادة: لتلوينا، ﴿ عمّا وجدْنَا عليه آباءَنا وتكون لكما الكبرياء ﴾، الملك والسلطان، ﴿ في الأرض ﴾. أرض مصر وقرأ أبو بكر: «ويكون» بالياء، ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾، بمصدّقين.

أتى به موسى سحر ﴿فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ إنما أمرهم موسى بإلقاء ما معهم من الحبال والعصي التي فيها سحرهم ليظهر الحق ويبطل الباطل ويتبين أن ما أتوا به فاسد.

فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

﴿فلما ألقوا﴾ يعني ما معهم من الحبال والعصي ﴿قال موسى ما جئتم به السحر﴾ يعني الذي جئتم به هو السحر الباطل وهذا على سبيل التوبيخ لهم ﴿إن الله سيبطله﴾ يعني يكمله ويظهر فضيحة صاحبه ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ يعني لا يقويه ولا يكمله ولا يحسنه ﴿ويحق الله الحق﴾ يعني ويظهر الله الحق ويقويه ويعليه ﴿بكلماته﴾ يعني وعده الصادق لموسى أنه يظهره وقيل بما سبق من قضائه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة ﴿ولو كره المجرمون﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ لما ذكر الله عز وجل ما أتى به موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة الباهرة أخبر الله سبحانه وتعالى أنه مع مشاهدة هذه المعجزات ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه وإنما ذكر الله عز وجل هذا تسلية لنبيه محمد ﷺ لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به واستمرارهم على الكفر والتكذيب فبين الله سبحانه وتعالى أن له أسوة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأن الذي جاء به موسى عليه السلام من المعجزات كان أمراً عظيماً ومع ذلك فما آمن معه إلا ذرية.

والذرية: اسم يقع على القليل من القوم، قال ابن عباس: الذرية القليل وقيل المراد به التصغير وقلة العدد واختلفوا في هاء الكناية في قومه فقيل إنها راجعة إلى موسى وأراد بهم قوم موسى وهم بنو إسرائيل الذين كانوا معه بمصر من أولاده. قال مجاهد: هم أولاد يعقوب الذين أرسل إليهم موسى هلك الآباء وبقي الأبناء وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة في بني إسرائيل إذا ولدت ابناً وهبته لقبطية خوفاً عليه من

﴿ وقالَ فرعونُ ائتوني بكلِّ ساحرٍ عليم ﴾.

﴿ فلمّا جاءَ السَّحَرَةُ قال لهم موسى ألقُوا ما أنتُمْ مُلْقونَ ﴾.

﴿ فلمّا ألقَوْا قال موسى ما جئتُمْ بهِ السِّحْرُ ﴾، قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: « آلسحر » بقطع الألف والمدّ على الاستفهام، و﴿ ما ﴾ في هذه القراءة للاستفهام وليست بموصولة، وهي مبتدأة و﴿ جئتُم به ﴾ خبرها، والمعنى: أيُّ شيء جئتم به؟ وقوله: « آلسحر » بدل عنها، وقرأ الباقون ما جئتم به السحر بوصل الألف من غير مدّ، و ﴿ ما ﴾ في هذه القراءة موصولة بمعنى الذي و﴿ جئتم به ﴾، صلتها وهي مع الصلة في موضع الرفع بالابتداء، وقوله: ﴿ السحر ﴾ خبره أي الذي جئتم به السحر، وتقوّي هذه القراءة قراءة ابن مسعود ﴿ ما جئتُم بهِ سحرٌ ﴾ بغير الألف واللام. ﴿ إنّ اللّهَ سيُبْطِلُه إنّ اللّهَ لا يُصلِحُ عملَ المفسدين ﴾.

﴿ ويُحِقُّ اللّهُ الحقَّ بكلماتِه ﴾، بآياته، ﴿ ولو كَرِهَ المجرمون ﴾.

﴿ فما آمنَ لموسى ﴾، لم يصدّق موسى مع ما آتاهم به من الآيات، ﴿ إلاّ ذريّةٌ من قومِهِ ﴾، اختلفوا في الهاء التي في ﴿ قومه ﴾، قيل: هي راجعة إلى موسى، وأراد بهم مؤمني بني إسرائيل الذين كانوا بمصر وخرجوا

القتل فنشؤوا بين القبط فلما كان اليوم الذي غلب موسى فيه السحرة آمنوا به، وقال ابن عباس: ذرية من قومه يعني من بني إسرائيل. وقيل: إنها راجعة إلى فرعون يعني إلا ذرية من قوم فرعون.

روى عطية عن ابن عباس قال: هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطة ابنته.

قال الفراء: سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط من آل فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل فكان الرجل يتبع أمه وأخواله في الإيمان وذلك كما يقال لأولاد فارس الذين دخلوا إلى اليمن الأبناء لأن أمهاتهم من غير جنس الآباء ﴿على خوف من فرعون وملئهم﴾ الملأ: الأشراف فعلى هذا يكون معنى الآية على خوف من فرعون ومن أشرافهم، وهم ملأ الذرية لأنه كان آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل وقيل أراد بالملأ ملأ فرعون وإنما قال سبحانه وتعالى وملئهم بالجمع وفرعون واحد على سبيل التفخيم له ﴿أن يفتنهم﴾ أي يصرفهم ويصدهم عن الإيمان وإنما قال أن يفتنهم ولم يقل أن يفتنوهم لأن قوم فرعون كانوا على مراده وتابعين لأمره ﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾ يعني أنه لغالب قهار متكبر فيها ﴿وإنه لمن المسرفين﴾ يعني من المجاوزين الحد لأنه كان عبداً فادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبني إسرائيل.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

﴿وقال موسى﴾ يعني لقومه ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا﴾ يعني. فيه فثقوا ولأمره فسلموا فإنه ناصر

معه. قال مجاهد: كانوا أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل هلك الآباء وبقي الأبناء. وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى فرعون. وروى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هم ناس يسير من قوم فرعون آمنوا أمنهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنة وماشطة ابنته. وعن ابن عباس رواية أخرى: أنهم كانوا سبعين ألف بيت من القبط من آل فرعون، وأُمهاتهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله. وقيل: هم قوم نجوا من قتل فرعون، وذلك أن فرعون لمّا أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة، من بني إسرائيل إذا ولدت ابناً وهبته لقبطية خوفاً من القتل، فنشئوا عند القبط، وأسلموا في اليوم الذي غلبت السَّحَرة، قال الفرّاء: سُمّوا ذريّة لأن آباءهم كانوا من القبط وأُمهاتهم من بني إسرائيل، كما يقال لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن الأبناء، لأن أُمهاتهم من غير جنس آبائهم، ﴿ على خوف من فرعون وملئهم ﴾، قيل: أراد بفرعون آل فرعون، أي: على خوف من آل فرعون وملئهم، كما قال: ﴿ واسئل القرية ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهل القرية. وقيل: إنما قال: ﴿ وملئهم ﴾ وفرعون واحد لأن الملك إذا ذكر يُفهَم منه هو وأصحابه، كما يُقال قَدِمَ الخليفة يُراد هو ومَن معه. وقيل: أراد ملأ الذريّة، فإن ملأهم كانوا من قوم فرعون. ﴿ أنْ يفتِنَهم ﴾. أي: يصرفهم عن دينهم ولم يقل يفتنوهم لأنه أخبر عن فرعون وكان قومه على مثل ما كان عليه فرعون، ﴿ وإنّ فرعونَ لعالٍ ﴾، لمتكبّر، ﴿ في الأرض وإنّه لمن المسرفين ﴾، المجاوزين الحدّ لأنه كان عبداً فادّعى الربوبيّة.

﴿ وقال موسى ﴾، لمؤمني قومه، ﴿ يا قوم إنْ كنتُمْ آمنتُمْ باللّهِ فعليه توكّلُوا إنْ كنتُمْ مسلمين ﴾.

أوليائه ومهلك أعدائه ﴿إن كنتم مسلمين﴾ يعني إن كنتم مستسلمين لأمره قيل إنما أعيد قوله إن كنتم مسلمين بعد قوله إن كنتم آمنتم بالله لإرادة إن كنتم موصوفين بالإيمان القلبي وبالإسلام الظاهري ودلت الآية على أن التوكل على الله والتفويض لأمره من كمال الإيمان وأن من كان يؤمن بالله فلا يتوكل إلا على الله لا على غيره ﴿فقالوا﴾ يعني قال قوم موسى مجيبين له ﴿على الله توكلنا﴾ يعني عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ يعني لا تظهرهم علينا ولا تهلكنا بذنوبهم فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغياناً وكفراً وقال مجاهد: لا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق لما عذبوا ويظنوا أنهم خير منا فيفتتنوا بذلك وقيل معناه لا تسلطهم علينا فيفتنونا ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ يعني وخلصنا برحمتك من أيدي قوم فرعون الكافرين لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الأعمال الشاقة قوله عز وجل: ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه﴾ هارون ﴿أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً﴾ يعني اتخذا لقومكما بمصر بيوتاً للصلاة فيها يقال تبوأ فلان لنفسه بيتاً إذا اتخذه مباءة أي وطناً والمعنى اجعلا بمصر لقومكما بيوتاً ترجعون إليها للصلاة والعبادة ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ اختلف أهل التفسير في معنى هذه البيوت والقبلة فمنهم من قال أراد بالبيوت المساجد التي يصلى فيها وفسروا القبلة بالجانب الذي يستقبل في الصلاة فعلى هذا يكون معنى الكلام واجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لأجل الصلاة وقيل معناه اجعلوا بيوتكم إلى القبلة.

واختلفوا في هذه القبلة، وظاهر القرآن لا يدل على تعيينها إلا أنه قد نقل عن ابن عباس أنه قال: كانت الكعبة قبلة لموسى وهارون، وهو قول مجاهد أيضاً قال ابن عباس: قالت بنو إسرائيل لموسى لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فأذن الله لهم أن يصلوا في بيوتهم وأن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة وقيل كانت القبلة إلى جهة المقدس. وقيل: أراد مطلق البيوت وعلى هذا يكون معنى قوله واجعلوا بيوتكم قبلة أي مقابلة يعني يقابل بعضها بعضاً وقيل معناه واجعلوا في بيوتكم قبلة تصلون إليها.

فإن قلت: إنه سبحانه وتعالى خص موسى وهرون بالخطاب في أول الآية بقوله سبحانه وتعالى: وأخيه أن تبوآ لقومكما ثم إنه عم بهذا الخطاب فقال تعالى: واجعلوا بيوتكم قبلة فما السبب فيه.

قلت: إنه سبحانه وتعالى أمر موسى وهارون بأن يتبوءا لقومهما بيوتاً للعبادة وذلك مما يخص به الأنبياء فخصا بالخطاب لذلك.

ثم لما كانت العبادة عامة تجب على الكافة عمَّ بالخطاب الجميع فقال تعالى: واجعلوا بيوتكم قبلة ﴿وأقيموا

﴿ فقالوا على اللَّهِ توكّلنا ﴾، اعتمدنا، ثم دعوا فقالوا: ﴿ ربَّنا لا تجعلْنَا فتنةً للقوم الظالمين ﴾، أي: لا تُظهِرْهُم علينا ولا تُهلكنا بأيديهم، فيظنّوا أنّا لم نكن على الحق فيزدادوا طغياناً. وقال مجاهد: لا تعذبنا بعذابٍ من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على الحق لما عُذِّبوا ويظنوا أنهم خير منّا فيُفتتنوا.

﴿ ونجِّنا برحمتِكَ مِنَ القومِ الكافرين ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيهِ ﴾، هارون، ﴿ أنْ تبوّآ لقومِكُما بمصرَ بُيُوتاً ﴾ يقال: بَوّأ فلان لنفسه بيتاً ومضجعاً إذا اتخذه، وبوّأتُه أنا إذا اتخذتُه له، ﴿ واجْعَلُوا بيوتَكم قِبْلَةً ﴾، قال أكثر المفسّرين: كانت بنو إسرائيل لا يصلّون إلاّ في كنائسهم وبِيَعِهم، وكانت ظاهر، فلما أُرسل موسى أمر فرعون بتخريبها ومنعهم من الصلاة فأُمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلّوا فيها خوفاً من فرعون، هذا قول إبراهيم وعكرمة عن ابن عباس. وقال مجاهد: خاف موسى ومَن معه من فرعون أن يصلّوا في الكنائس الجامعة، فأُمروا في بيوتهم مساجد مستقبلة

الصلاة﴾ يعني في بيوتكم وذلك حين خاف موسى ومن آمن معه من بني إسرائيل من فرعون وقومه إذا صلوا في الكنائس والبيع الجامعة أن يؤذهم فأمرهم الله سبحانه وتعالى أن يصلوا في بيوتهم خفية من فرعون وقومه، وقيل: كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا في الكنائس الجامعة وكانت ظاهرة فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريب تلك الكنائس ومنعهم من الصلاة فيها فأمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفاً من فرعون.

وقيل: إن الله سبحانه وتعالى لما أرسل موسى وهارون وأظهرهما على فرعون أمرهم باتخاذ المساجد ظاهرة على رغم الأعداء وتكفل لهم بصونهم من شرهم وهو قوله سبحانه وتعالى: **﴿وبشر المؤمنين﴾** يعني بأنه لا يصل إليهم مكروه.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾** لما أتى موسى عليه السلام بالمعجزات الباهرات ورأى أن القوم مصرون على الكفر والعناد والإنكار لما جاء به أخذ في الدعاء عليهم ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولاً سبب إقدامه على الجرائم التي كانت سبب إصراره على ما يوجب الدعاء عليه.

ولما كان سبب كفرهم وعنادهم هو حب الدنيا وزينتها لا جرم أن موسى لما أخذ في الدعاء قدم هذه المقالة فقال **﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾** والزينة عبارة عما يتزين به اللباس والدواب والغلمان وأثاث البيت الفاخر والأشياء الجميلة والمال ما زاد على هذه الأشياء من الصامت ونحوه ثم قال تبارك وتعالى: **﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾** اختلفوا في هذه اللام فقال الفراء: هي لام كي فعلى هذا يكون المعنى ربنا إنك جعلت هذه الأموال سبباً لضلالهم لأنهم بطروا وطغوا في الأرض واستكبروا عن الإيمان.

وقال الأخفش: إنما هي لما يؤول إليه الأمر والمعنى إنك أتيت فرعون وملأه زينة في الحياة الدنيا فضلوا فعلى هذا هي لام العاقبة يعني فكان عاقبتهم الضلال، وقال ابن الأنباري: هي لام الدعاء وهي لام مكسورة تحزم المستقبل ويفتتح بها الكلام فيكون المعنى ربنا إنك ابتليتهم بالضلال عن سبيلك **﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾** الطمس: إزالة أثر الشيء بالمحو. ومعنى اطمس على أموالهم أزل صورها وهيئاتها. وقال مجاهد: أهلكها وقال أكثر المفسرين: امسخها وغيرها عن هيئتها، قال قتادة: بلغنا أن أموالهم وحروثهم وزروعهم وجواهرهم صارت حجارة، وقال محمد بن كعب القرظي: صارت صورهم حجارة وكان الرجل مع أهله في فراشه فصارا حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجراً وهذا فيه ضعف لأن موسى عليه السلام دعا على أموالهم ولم يدع على أنفسهم بالمسخ. وقال ابن عباس: بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً. وقيل إن عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شيء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وهي حجارة. قال

الكعبة، يصلّون فيها سرّاً. معناه واجعلوا وجوه بيوتكم إلى القِبلة. وروى ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الكعبة قِبْلَةَ موسى ومَن معه. **﴿ وأقيموا الصلاة وبشِّرِ المؤمنين ﴾**، يا محمد.

قوله تعالى: **﴿ وقال موسى ربَّنا إنّك آتيتَ فرعونَ وملأهُ زِينةً ﴾**، من متاع الدنيا، **﴿ وأموالاً في الحياةِ الدّنيا ربَّنا لِيُضِلُّوا عن سَبيلِكَ ﴾**، اختلفوا في هذه اللام، قيل: هي لامُ كي، معناه: آتيتهم كي تفتنهم فيضلّوا ويضلّوا عن سبيلك، كقوله: ﴿ لأسقيناهم ماءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فيه ﴾ [الجن: ١٦] وقيل: هي لام العاقبة يعني: ليضلّوا فيكون عاقبة أمرهم **الضلال**، كقوله: ﴿ فالْتَقَطَهُ آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدوّاً وحَزَناً ﴾ [القصص: ٨]. قوله: **﴿ ربَّنا اطْمِسْ على أموالِهم ﴾**، قال مجاهد: أهلكها، والطمس: المحو. وقال قتادة: صارت أموالهم وحروثهم وزروعهم

السدي: مسخ الله أموالهم حجارة النخل والثمار والدقيق والأطعمة وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع التي أوتيها موسى عليه السلام ﴿**واشدد على قلوبهم**﴾ يعني اربط على قلوبهم واطبع عليها وقسها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان؛ قال الواحدي: وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى يفعل ذلك لمن يشاء ولولا ذلك لما جسر موسى عليه السلام على هذا السؤال ﴿**فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم**﴾ يعني الغرق قاله ابن عباس وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه: قال موسى قبل أن يأتي فرعون ربنا اشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فاستجاب الله له دعاءه فحال بين فرعون وبين الإيمان حتى أدركه الغرق فلم ينفعه الإيمان.

قال بعض العلماء: إنما دعا عليهم موسى بهذا الدعاء لما علم أن سابق قضاء الله وقدره فيهم أنهم لا يؤمنون وذلك أن الله سبحانه وتعالى كتب عليهم في الأزل أنهم لا يؤمنون فوافق دعاء موسى ما قدر وقضى عليهم.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

﴿**قال**﴾ الله عز وجل لموسى وهارون ﴿**قد أجيبت دعوتكما**﴾ إنما نسب الدعاء إليهما وأن الداعي هو موسى وحده لأن هارون عليه السلام كان يؤمن والتأمين دعاء لأنه طلب وسؤال أيضاً ومعناه اللهم استجب فصار بذلك شريك موسى في الدعاء فلذلك قال تعالى قد أجيب دعوتكما ﴿**فاستقيما**﴾ يعني على تبليغ الرسالة وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم العذاب ﴿**ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون**﴾ يعني ولا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي فإن وعدي لا خلف فيه ووعيدي نازل بفرعون وقومه فلا تستعجلا.

قيل: كان بين دعاء موسى عليه السلام وبين الإجابة أربعون سنة.

قال الإمام فخر الدين الرازي: واعلم أن هذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى وهارون كما أن قوله لئن أشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه.

وجواهرهم كلها حجارة، وقال محمد بن كعب: جعل صورهم حجارة، وكان الرجل مع أهله في فراشه فصارا حجرين والمرأة قائمة تخبز فصارت حجراً. قال ابن عباس رضي الله عنه: بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً. ودعا عمر بـن عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة والجوزة مشقوقة وإنها لحجر. قال السدي: مسخ الله أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة، فكانت إحدى الآيات التسع ﴿ **واشْدُدْ على قلوبهم** ﴾، أي: أقسها واطبعْ عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، ﴿ **فلا يُؤمنوا** ﴾، قيل: هو نصب بجواب الدعاء بالفاء. وقيل: هو عطف على قوله: ﴿ **لِيضلّوا** ﴾ أي: ليضلّوا فلا يؤمنوا. وقال الفرّاء: هو دعاء محله جزم، فكأنه قال: اللّهمَّ فلا يؤمنوا، ﴿ **حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ** ﴾، وهو الغرق. قال السدي: معناه أمتْهم على الكفر.

﴿ **قالَ** ﴾ الله تعالى لموسى وهارون، ﴿ **قدْ أُجِيبَتْ دعوتُكما** ﴾، إنما نسب إليهما والدعاء كان من موسى لأنه رُوِيَ أن موسى كان يدعو وهارون يؤمن، والتأمين دعاء. وفي بعض القصص: كان بين دعاء موسى وإجابته أربعون سنة. ﴿ **فاسْتَقِيمَا** ﴾، على الرسالة والدعوة وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم العذاب ﴿ **ولا تتّبِعانِّ** ﴾، نهي بالنون

قوله عز وجل: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ أي: وقطعنا ببني إسرائيل البحر وعبرناهم إياه حتى جاوزوه وعبروه ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده﴾ يعني لحقهم وأدركهم ﴿بغياً وعدواً﴾ أي ظلماً وعدواناً وقيل البغي طلب الاستعلاء بغير حق والعدو الظلم وقيل بغياً في القول وعدواً في الفعل.

قال أهل التفسير: اجتمع يعقوب وبنوه إلى يوسف وهم اثنان وسبعون وخرجوا مع موسى من مصر وهم ستمائة ألف وذلك أنه لما أجاب الله دعاء موسى وهارون أمرهما بالخروج ببني إسرائيل من مصر في الوقت الذي أمرهما أن يخرجا فيه بهم ويسر لهم أسباب الخروج وكان فرعون غافلاً فلما سمع بخروجهم ومفارقتهم مملكته خرج بجنوده في طلبهم فلما أدركهم قالوا لموسى أين المخلص والمخرج البحر أمامنا وفرعون وراءنا وقد كنا نلقى من فرعون البلاء العظيم فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وكشف الله عن وجه الأرض وأيبس لهم البحر فلحقهم فرعون وكان على حصان أدهم وكان معه في عسكره ثمانمائة ألف حصانٍ على لون حصانه سوى سائر الألوان وكان مقدمهم جبريل وكان على فرس أنثى وديق وميكائيل بسوقهم حتى لا يشد منهم أحد فلما خرج آخر بني إسرائيل من البحر دنا جبريل بفرسه فلما وجد الحصان ريح الأنثى لم يملك فرعون من أمره شيئاً فنزل البحر وتبعه جنوده حتى إذا اكتملوا جميعاً في البحر وهمّ أولهم بالخروج التطم البحر عليهم فلما أدرك فرعون الغرق أتى بكلمة الإخلاص ظناً منه أنها تنجيه من الهلاك وهو قوله تعالى: ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال﴾ يعني فرعون ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ قال ابن عباس: لم يقبل الله إيمانه عند نزول العذاب به وقد كان في مهل.

قال العلماء: إيمانه غير مقبول وذلك أن الإيمان والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبولين ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾.

وقيل: إنه قال هذه الكلمة ليتوصل بها إلى دفع ما نزل به من البلية الحاضرة، ولم يكن قصده بها الإقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية لا جرم لم ينفعه ما قال في ذلك الوقت.

وقيل: إن فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع الخالق سبحانه وتعالى، فلهذا قال آمنت أنه لا إله إلا

الثقيلة، ومحله جزم، يقال في الواحد لا تتبعنَ بفتح النون لالتقاء الساكنين وبكسر النون في التثنية لهذه العلّة. وقرأ ابن عامر بتخفيف النون. وقد اختلفت الروايات عنه فيه فبعضهم روى عنه ﴿ تتبعان ﴾ بتخيف التاء الثانية وفتح الباء وتشديد النون. وبعضهم روى عنه ﴿ تَتّبِعان ﴾ بتشديد التاء الثانية وكسر الباء وتخفيف النون، وبعضهم روى عنه كقرّاء الجماعة. والوجه في تخفيف النون، أن نون التأكيد تثقّل وتخفّف. ﴿ سبيلَ الذينَ لا يعلمُون ﴾، يعني: ولا تسلكا سبيل الذين يجهلون حقيقة وَعْدي، فإن وعدي لا خُلْفَ فيه، ووعيدي نازل بفرعونَ وقومِه.

﴿ وجَاوَزْنَا ببني إسرائيل البحرَ ﴾، عبرنا بهم ﴿ فأَتْبَعَهُمْ ﴾، لحقهم وأدركهم، ﴿ فرعونُ وجنودُه ﴾، يقال: أتبعه وتَبِعه إذا أدركه ولحقه، واتّبعه بالتشديد إذا سار خلفه واقتدى به. وقيل: هما واحد. ﴿ بغياً وعَدْواً ﴾، أي: ظلماً واعتداءً. وقيل: بغياً في القول وعدواً في الفعل. وكان البحر قد انفلق لموسى وقومه، فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر هابوا دخوله فتقدمهم جبريل على فرس وديق وخاض البحر، فاقتحمت الخيول خلفه، فلما دخل آخرهم وهمّ أولهم أن يخرج انطبق عليهم الماء. وقوله تعالى: ﴿ حتى إذا أدْرَكَه الغرقُ ﴾، أي: غمره الماء وقَرُبَ هلاكه، ﴿ قال آمنتُ أنّه ﴾، قرأ حمزة والكسائي « إنه » بكسر الألف أي: آمنت وقلت إنه. وقرأ الآخرون «أنـه» بالفتح على وقوع آمنت عليها، وإضمار حرف الجرّ، أي: آمنتُ بأنّه، فحذف الباء، وأوصل الفعل بنفسه، فهو في

الذي آمنت به بنو إسرائيل فلم ينفعه ذلك لحصول الشك في إيمانه ولما رجع فرعون إلى الإيمان والتوبة حين أغلق بابهما بحضور الموت ومعاينة الملائكة قيل له.

﴿ءَآلْئَٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ يعني آلآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية، والمخاطب لفرعون بهذا هو جبريل عليه السلام وقيل الملائكة. وقيل: إن القائل لذلك هو الله تعالى عرف فرعون قبح صنعه وما كان عليه من الفساد في الأرض ويدل على هذا القول قوله سبحانه وتعالى فاليوم ننجيك ببدنك، والقول الأول أشهر ويعضده ما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «لما أغرق الله فرعون قال آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن. وفي رواية أخرى عنه عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ذكر أحدهما عن النبي ﷺ أنه ذكر أن جبريل عليه السلام جعل يدس في فيّ فرعون الطين خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله أو خشية أن يرحمه الله أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

(فصل: في الكلام على هذا الحديث)

لأنه في الظاهر مشكل فيحتاج إلى بيان وإيضاح فنقول قد ورد هذا الحديث على طريقين مختلفين عن ابن عباس، ففي الطريق الأول عن ابن زيد بن جدعان وهو وإن كان قد ضعفه يحيى بن معين وغيره فإنه كان شيخاً نبيلاً صدوقاً ولكنه كان سيىء الحفظ ويغلط وقد احتمل الناس حديثه وإنما يخشى من حديثه إذا لم يتابع عليه أو خالفه فيه الثقات وكلاهما منتف في هذا الحديث لأن في الطريق الآخر شعبة عن عدي بن ثابت عن سعيد بن جبير وهذا الإسناد على شرط البخاري، ورواه أيضاً شعبة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير وعطاء بن السائب ثقة قد أخرج له مسلم فهو على شرط مسلم وإن كان عطاء قد تكلم فيه من قبل اختلاطه فإنما يخاف منه ما انفرد به أو خولف فيه وكلاهما منتف فقد علم بهذا أن لهذا الحديث أصلاً وأن رواته ثقات ليس فيهم متهم وإن كان فيهم من هو سيىء الحفظ فقد تابعه عليه غيره.

فإن قلت ففي الحديث الثاني شك في رفعه إنما هو جزم بأن أحد الرجلين رفعه وشك شعبة في تعيينه هل هو عطاء بن السائب أو عدي بن ثابت وكلاهما ثقة فإذا رفعه أحدهما وشك في تعيينه لم يكن هذا علة في الحديث وقوله من حال البحر أي من طين البحر كما في الرواية الأخرى.

(فصل)

ووجه إشكاله ما اعترض به الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره فقال: هل يصح أن جبريل أخذ يملأ فمه بالطين

موضع النصب. ﴿ لا إلٰه إلّا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا مِن المسلمين ﴾، فدسّ جبريل في فِيْهِ مِنْ حمأة البحر. وقال: ﴿ آلآنَ وقدْ عصيتَ قَبْلُ وكنتَ مِنَ المُفسدين ﴾. ورُوِيَ عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لمّا أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إلٰه إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل عليه السلام: يا محمد فلو رأيتني وأنا

لئلا يتوب غضباً عليه والجواب الأقرب أنه لا يصح لأن في تلك الحالة، إما أن يقال: التكليف هل كان ثابتاً أم لا فإن كان ثابتاً لا يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة وإن كان التكليف زائلاً عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى لهذا الذي نسب إلى جبريل فائدة وأيضاً لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر وأيضاً فكيف يليق بجلال الله أن يأمر جبريل بأن يمنعه من الإيمان.

ولو قيل: إن جبريل فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله فهذا يبطله قول جبريل وما نتنزل إلا بأمر ربك فهذا وجه الإشكال الذي أورده الإمام على هذا الحديث في كلام أكثر من هذا، والجواب عن هذا الاعتراض أن الحديث قد ثبت عن النبي ﷺ فلا اعتراض عليه لأحد.

وأما قول الإمام: إن التكليف هل كان ثابتاً في تلك الحالة أم لا فإن كان ثابتاً لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة فإن هذا القول لا يستقيم على أصل المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله وأن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهذا قول أهل السنة المثبتين للقدر، فإنهم يقولون إن الله يحول بين الكافر والإيمان ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ وقوله تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه قلب أفئدتهم مثل تركهم الإيمان به أول مرة، وهكذا فعل بفرعون منعه من الإيمان عند الموت جزاء على تركه الإيمان أولاً فدس الطين في فم فرعون من جنس الطبع والختم على القلب ومنع الإيمان وصون الكافر عنه وذلك جزاء على كفره السابق وهذا قول طائفة من المثبتين للقدر القائلين بخلق الأفعال لله.

ومن المنكرين لخلق الأفعال من اعترف أيضاً أن الله سبحانه وتعالى يفعل هذا عقوبة للعبد على كفره السابق فيحسن منه أن يضله ويطبع على قلبه ويمنعه من الإيمان.

فأما قصة جبريل عليه السلام مع فرعون فإنها من هذا الباب فإن غاية ما يقال فيه إن الله سبحانه وتعالى منع فرعون من الإيمان وحال بينه وبينه عقوبة له على كفره السابق ورده للإيمان لما جاءه.

وأما فعل جبريل من دس الطين في فيه فإنما فعل ذلك بأمر الله لا من تلقاء نفسه.

فأما قول الإمام لم يجز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل يجب عليه أن يعينه عليها وعلى كل طاعة هذا إذا كان تكليف جبريل كتكليفنا يجب عليه ما يجب علينا.

وأما إذا كان جبريل إنما يفعل ما أمره الله به والله سبحانه وتعالى هو الذي منع فرعون من الإيمان وجبريل منفذ لأمر الله فكيف لا يجوز له منع من منعه الله من التوبة وكيف يجب عليه إعانة من لم يعنه الله بل قد حكم عليه وأخبر عنه أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم حين لا ينفعه الإيمان.

وقد يقال: إن جبريل عليه السلام إما أن يتصرف بأمر الله فلا يفعل إلا ما أمر الله به وإما أن يفعل ما يشاء من

آخد من حال البحر فأدسّه في فِيْهِ مخافةَ أن تدركه الرحمة». فلما أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه قالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيراً كأنّه ثور فرآه بنو إسرائيل فمن ذلك الوقت لا يقبل الماءُ مَيْتاً أبداً، فذلك قوله:

﴿ فاليومَ نُنجِيكَ ﴾، أي: نُلقيك على نجوة من الأرض وهي المكان المرتفع، وقرأ يعقوب «نُنجيــك» بالتخفيف، ﴿ ببدنِكَ ﴾، بجسدك لا روح فيه. وقيل: ببدنك: بدرعك، وكان له درع مشهور مرصّع بالجواهر،

تلقاء نفسه لا بأمر الله وعلى هذين التقديرين فلا يجب عليه إعانة فرعون على التوبة ولا يحرم عليه منعه منها لأنه إنما يجب عليه فعل ما أمر به ويحرم عليه فعل ما نهي عنه والله سبحانه وتعالى لم يخبر أنه أمره بإعانة فرعون ولا حرم عليه منعه من التوبة وليست الملائكة مكلفين كتكليفنا.

وقوله وإن كان التكليف زائلاً عن فرعون في ذلك الوقت فحينئذ لا يبقى هذا الذي نسب إلى جبريل فائدة فجوابه أن يقال إن للناس في تعليل أفعال الله قولين أحدهما أن أفعاله لا تعلل وعلى هذا التقدير فلا يريد هذا السؤال أصلاً وقد زال الإشكال.

والقول الثاني: إن أفعاله تبارك وتعالى لها غاية بحسب المصالح لأجلها فعلها وكذا أوامره ونواهيه لها غاية محمودة محبوبة لأجلها أمر بها ونهى عنها وعلى هذا التقدير قد يقال لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وقد علم جبريل أنه ممن حقت عليه كلمة العذاب وأن إيمانه لا ينفعه دس الطين في فيه لتحقق معاينته للموت فلا تكون تلك الكلمة نافعة له وأنه وإن كان قالها في وقت لا ينفعه فدس الطين في فيه تحقيقاً لهذا المنع والفائدة فيه تعجيل ما قد قضي عليه وسد الباب عند سداً محكماً بحيث لا يبقى للرحمة فيه منفذ ولا يبقى من عمره زمن يتسع للإيمان فإن موسى عليه السلام لما دعا ربه بأن فرعون لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم والإيمان عند رؤية العذاب غير نافع أجاب الله دعاءه.

فلما قال فرعون تلك الكلمة عند معاينة الغرق استعجل جبريل فدس الطين في فيه لييأس من الحياة ولا تنفعه تلك الكلمة وتتحقق إجابة الدعوة التي وعد الله موسى بقوله قد أجيبت دعوتكما فيكون سعي جبريل في تكميل ما سبق في حكم الله أنه يفعله فيكون سعي جبريل في مرضاة الله سبحانه وتعالى منفذاً لما أمره به وقدره وقضاه على فرعون.

وأما قوله: لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر والرضا بالكفر كفر، فجوابه ما تقدم من أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وجبريل إنما يتصرف بأمر الله ولا يفعل إلا ما أمره الله به وإذا كان جبريل قد فعل ما أمره الله به ونفذه فإنما رضي بالأمر لا بالمأمور به فأي كفر يكون هنا وأيضاً فإن الرضا بالكفر إنما يكون كفراً في حقنا لأنا مأمورون بإزالته بحسب الإمكان فإذا أقررنا الكافر على كفره ورضينا به كان كفراً في حقنا لمخالفتنا ما أمرنا به.

وأما من ليس مأموراً كأمرنا ولا مكلفاً كتكليفنا بل يفعل ما يأمره به ربه فإنه إذا نفذ ما أمره به لم يكن راضياً بالكفر ولا يكون كفراً في حقه وعلى هذا التقدير فإن جبريل لما دس الطين في في فرعون كان ساخطاً لكفره غير راض به والله سبحانه وتعالى خالق أفعال العباد خيرها وشرها وهو غير راض بالكفر فغاية أمر جبريل مع فرعون أن يكون منفذاً لقضاء الله وقدره في فرعون من الكفر وهو ساخط له غير راض به وقوله كيف يليق بجلال الله أن يأمر جبريل بأن يمنعه من الإيمان فجوابه أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وأما قوله وإن قيل إن جبريل إنما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله فجوابه أنه إنما فعل ذلك بأمر الله منفذاً لأمر الله والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك﴾ أي نلقيك على نجوة من الأرض وهي المكان المرتفع.

فرأوه في درعه فصدّقوا أنه موسى. ﴿ لتكونَ لِمَنْ خلْفَك آيةً ﴾، عِبرةً وعظةً، ﴿ وإنّ كثيراً من الناس عنْ آياتِنَا لغَافِلُون ﴾.

﴿ ولقدْ بَوَّأْنَا بني إسرائيلَ ﴾ أنزلنا بني إسرائيل بعد هلاك فرعون، ﴿ مُبَوَّأَ صدقٍ ﴾، منزل صدق، يعني: مصر. وقيل: الأردن وفلسطين وهي الأرض المقدسة التي كتب الله ميراثاً لإبراهيم وذريته. قال الضحاك: هي مصر والشام، ﴿ ورزَقْناهم منَ الطيباتِ ﴾، الحلالات، ﴿ فما اختلفُوا ﴾ يعني اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ في

قال أهل التفسير: لما أغرق الله سبحانه وتعالى فرعون وقومه أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه فقالت بنو إسرائيل ما مات فرعون وإنما قالوا ذلك لعظمته عندهم وما حصل في قلوبهم من الرعب لأجله فأمر الله عز وجل البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيراً كأنه ثور فرآه بنو إسرائيل فعرفوه فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتاً أبداً، ومعنى قوله ببدنك يعني نلقيك وأنت جسد لا روح فيه وقيل هذا الخطاب على سبيل التهكم والاستهزاء كأنه قيل له ننجيك ولكن هذه النجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك.

وقيل: أراد بالبدن الدرع وكان لفرعون درع من ذهب مرصع بالجواهر، يعرف به فلما رأوه في درعه ذلك عرفوه ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ يعني عبرة وموعظة، وذلك أنهم ادعوا أن مثل فرعون لا يموت أبداً فأظهره الله لهم حتى يشاهدوه وهو ميت لتزول الشبهة من قلوبهم ويعتبروا به لأنه كان في غاية العظمة فصار إلى نهاية الخسة والذلة ملقى على الأرض لا يهابه أحد ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ قوله عز وجل: ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق﴾ يعني أسكناهم مكان صدق وأنزلناهم منزل صدق بعد خروجهم من البحر وإغراق عدوهم فرعون.

والمعنى: أنزلناهم منزلاً محموداً صالحاً وإنما وصف المكان بالصدق لأن عادة العرب إذا مدحت شيئاً أضافته إلى الصدق تقول العرب: هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه أن الشيء إذا كان كاملاً صالحاً، لا بد أن يصدق الظن فيه وفي المراد بالمكان الذي بوءوا قولان أحدهما أنه مصر فيكون المراد: إن الله أورث بني إسرائيل جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه من ناطق وصامت وزرع وغيره.

والقول الثاني: إنه أرض الشام والقدس والأردن لأنها بلاد الخصب والخير والبركة ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ يعني تلك المنافع والخيرات التي رزقهم الله تعالى: ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾ يعني فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل حتى جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك أنهم كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مقرين به مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوباً عندهم فلما بعث الله محمداً ﷺ واختلفوا فيه فآمن به بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه وكفر به بعضهم بغياً وحسداً.

فعلى هذا المعنى يكون المراد من العلم المعلوم والمعنى فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذي كانوا يعلمونه حقاً فوضع العلم مكان العلوم وقيل المراد من العلم القرآن النازل على محمد ﷺ وإنما سماه علماً لأنه سبب العلم وتسمية السبب بالمسبب مجاز مشهور وفي كون القرآن سبباً لحدوث الاختلاف وجهان:

الأول: أن اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد ﷺ وصفته ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين، فلما بعث كذبوه بغياً وحسداً وإيثاراً لبقاء الرياسة لهم فآمن به طائفة قليلة وكفر به غالبهم.

والوجه الثاني: أن اليهود كانوا على دين واحد قبل نزول القرآن فلما نزل على محمد ﷺ آمن به طائفة وكفر به آخرون.

وقوله تعالى: ﴿إن ربك﴾ يعني يا محمد ﴿يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ يعني من أمرك وأمر نبوتك في الدنيا فيدخل من آمن بك الجنة ومن كفر بك وجحد نبوتك النار قوله سبحانه وتعالى:

تصديقه وأنه نبي، ﴿ حتى جاءهُمُ العلمُ ﴾، يعني: القرآن والبيان بأنّه رسولُ الله صدق ودينُه حق. وقيل: حتى جاءهم معلومهم وهو محمد ﷺ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه، فالعلم بمعنى المعلوم كما يقال للمخلوق: خَلْقٌ، قال الله تعالى: ﴿ هذا خلقُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ١١]، ويقال: هذا الدرهم ضَرْبُ الأمير، أي: مضروبُه. ﴿ **إنّ ربَّكَ يقضي بينهم يومَ القيامةِ فيما كانُوا فيه يختلِفُون** ﴾، من الدين.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ الشك في موضع اللغة خلاف اليقين والشك اعتدال النقيضين عند الإنسان لوجود أمارتين أو لعدم الأمارة والشك ضرب من الجهل وهو أخص منه فكل شك جهل وليس كل جهل شكاً فإذا قيل فلان شك في هذا الأمر فمعناه توقف فيه حتى يتبين له فيه الصواب أو خلافه وظاهر هذا الخطاب في قوله فإن كنت في شك أنه للنبي ﷺ والمعنى فإن كنت يا محمد في شك مما أنزلنا إليك يعني من حقيقة ما أخبرناك به وأنزلناه يعني القرآن ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ يعني علماء أهل الكتاب يخبرونك أنك مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وأنك نبي يعرفونك بصفتك عندهم وقد توجه هاهنا سؤال واعتراض وهو أن يقال هل شك النبي ﷺ فيما أنزل عليه أو في نبوته حتى يسأل أهل الكتاب عن ذلك وإذا كان شاكاً في نبوة نفسه كان غيره أولى بالشك منه.

قلت: الجواب عن هذا السؤال والاعتراض ما قاله القاضي عياض في كتابه الشفاء فإنه أورد هذا السؤال، ثم قال: احذر ثبت الله قلبك أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من إثبات شك النبي ﷺ فيما أوحي إليه فإنه من البشر فمثل هذا لا يجوز عليه ﷺ جملة بل قال ابن عباس: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل. ونحوه عن سعيد بن جبير والحسن البصري. وحكي عن قتادة أنه قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال «ما أشك ولا أسأل» وعامة المفسرين على هذا، ثم كلام القاضي عياض رحمه الله ثم اختلفوا في معنى الآية ومن المخاطب بهذا الخطاب

قوله تعالى: ﴿ فإن كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليكَ ﴾، يعني: القرآن ﴿ فاسألِ الذينَ يَقْرَءُونَ الكتابَ من قَبْلِكَ ﴾، فيخبرونك أنك مكتوب عندهم في التوراة. قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ والمراد به غيره على عادة العرب فإنهم يخاطبون الرجل ويريدون به غيره، كقوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي اتقِ الله ﴾ [الأحزاب: ١]، خاطب للنبي ﷺ والمراد به المؤمنون بدليل أنه قال: ﴿ إنّ اللّهَ كانَ بما تعملون خبيراً ﴾ [النساء: ٩٤]، ولم يقل: بما تعمل وقال: ﴿ يا أيها النبي إذا طلّقتم النساء ﴾ [الطلاق: ١]، وقيل: كان الناسِ على عهد النبي ﷺ بين مصدّق ومكذّب وشاكٍّ فهذا الخطاب مع أهل الشك معناه: إن كنت أيها الإنسان في شكٍّ مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان رسولنا محمد، فاسألِ الذين يقرؤون الكتابَ من قبلك. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني مَن آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه فسيشهدون على صدق محمد ﷺ ويخبرونك بنبوّته. قال الفرّاء: علم الله سبحانه وتعالى أن رسوله غير شاكٍّ لكنه ذكره على عادة العرب يقول الواحد منهم لعبد: إن كنت عبدي فأطعني، ويقول لولده: افعل كذا وكذا إنْ كنتَ ابني، ولا يكون بذلك على وجه الشك. ﴿ لقدْ جاءَكَ الحقُّ مِن رَّبِّكَ فلا تكوننَّ مِنَ المُمترين ﴾، من الشاكّين.

﴿ ولا تكوننّ مِنَ الذين كذَّبُوا بآياتِ اللّهِ فتكونَ مِنَ الخاسِرِين ﴾، وهذا كله خطاب مع النبي ﷺ والمراد منه غيره.

على قولين أحدهما أن الخطاب للنبي ﷺ في الظاهر والمراد به غيره فهو كقوله لئن أشركت ليحبطن عملك ومعلوم أن النبي ﷺ لم يشرك فثبت أن المراد به غيره ومن أمثلة العرب:

إياك أعني واسمعي يا جارة. فعلى هذا يكون معنى الآية قل يا محمد، يا أيها الإنسان الشاك إن كنت في شك مما أنزلنا إليك على لسان رسولنا محمد ﷺ فاسأل الذين يقرؤون الكتاب يخبروك بصحته ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى في آخر هذه السورة قل يا أيها الناس إن كنتم في شك في ديني الآية فبين أن المذكور في هذه الآية على سبيل الرمز هو المذكور في تلك الآية على سبيل التصريح وأيضاً لو كان النبي ﷺ شاكاً في بنوته لكان غيره أولى بالشك في نبوته وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية معاذ الله من ذلك وقيل إن الله سبحانه وتعالى علم أن النبي ﷺ لم يشك قط فيكون المراد بهذا التهييج فإنه ﷺ إذا سمع هذا الكلام يقول لا أشك يارب ولا أسأل أهل الكتاب بل أكتفي بما أنزلته علي من الدلائل الظاهرة. وقال الزجاج: إن الله خاطب الرسول ﷺ في قوله فإن كنت في شك وهو شامل للخلق فهو كقوله يا أيها النبي إذا طلقتم النساء وهذا وجه حسن لكن فيه بعد وهو أن يقال متى كان الرسول ﷺ داخلاً في هذا الخطاب كان الاعتراض موجوداً والسؤال وارداً، وقيل: إن لفظة إن في قوله فإن كنت في شك للنفي ومعناه وما أنت في شك موجوداً والسؤال وارداً وقيل إن لفظه إن في قوله فإن كنت في شك للنفي ومعناه وما أنت في شك مما أنزلنا إليك حتى تسأل فلا تسأل ولئن سألت لازددت يقيناً.

والقول الثاني: إن هذا الخطاب ليس هو للنبي ﷺ البتة ووجه هذا القول إن الناس كانوا في زمنه على ثلاث فرق فرقة له مصدقون وبه مؤمنون وفرقة على الضد من ذلك والفرقة الثالثة المتوقفون في أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله عز وجل بهذا الخطاب، فقال: تمجد وتعالى: فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد ﷺ فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وإنما وحد الله الضمير في قوله فإن كنت وهو يريد الجمع لأنه خطاب

قوله تعالى: ﴿ إنّ الذينَ حَقّتْ عليهم ﴾، وجبتْ عليهم، ﴿ كلمةُ ربِّك ﴾، قيل: لعنته. وقال قتادة: سخطه. وقيل: الكلمة هي قوله: هؤلاء في النار ولا أُبالي. ﴿ لا يُؤمنون ﴾.

﴿ ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ ﴾، دلالة، ﴿ حتى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾، قال الأخفش: أنث فعل كل لأنه مضاف إلى المؤنث وهي قوله: آية، ولفظ كل للمذكّر والمؤنّث سواء.

قوله تعالى: ﴿ فلولا كانتْ ﴾، فهلّا كانت، ﴿ قريةٌ ﴾، ومعناه: فلم تكن قرية لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد، أي: أهل قرية، ﴿ آمنتْ ﴾، عند معاينة العذاب، ﴿ فَنَفَعَها إيمانُها ﴾، في حال اليأس، ﴿ إلّا قومَ يُونُسَ ﴾، فإنهم نفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، ﴿ وقوم ﴾ نصبٌ على الاستثناء المنقطع، تقديره: ولكن قوم يونس، ﴿ لمّا آمنُوا كشفنا عنهم عذابَ الخِزي في الحياة الدنيا ومتَّعْناهم إلى حين ﴾ وهو وقت انقضاء آجالهم واختلفوا في أنهم هل رأوا العذاب عياناً أم لا؟ فقال بعضهم: رأوا دليل العذاب؟ والأكثرون على أنهم رأوا العذاب عياناً بدليل قوله: ﴿ كَشَفْنَا عنهم عذابَ الخزي ﴾ والكشف يكون بعد الوقوع أو إذا قَرُب. (وقصة الآية) على ما ذكر عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم: أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإيمان فدعاهم فأبوا، فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، فأخبرهم بذلك، فقالوا: إنّا لم نجرّب عليه كذباً فانظرُوا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم، فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشّاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل. وقال وهب: غامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً فهبط حتى غشى مدينتهم

لجنس الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ لم يرد في الآية إنساناً بعينه بل أراد الجمع واختلفوا في المسؤول عنه في قوله تعالى: ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ من هم فقال المحققون من أهل التفسير: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه لأنهم هم الموثوق بأخبارهم.

وقيل: المراد كل أهل الكتاب سواء مؤمنهم وكافرهم لأن المقصود من هذا السؤال الإخبار بصحة نبوة محمد ﷺ أو أنه مكتوب عندهم صفته ونعته فإذا أخبروا بذلك فقد حصل المقصود والأول أصح. وقال الضحاك يعني أهل التقوى وأهل الإيمان من أهل الكتاب ممن أدرك النبي ﷺ ﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ هذا كلام مبتدأ منقطع عما قبله وفيه معنى القسم تقديره أقسم لقد جاءك الحق اليقين من الخير بأنك رسول الله حقاً وأن أهل الكتاب يعلمون صحة ذلك ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ يعني من الشاكين في صحة ما أنزلنا إليك ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ يعني بدلائله وبراهينه الواضحة ﴿فتكون من الخاسرين﴾ يعني الذين خسروا أنفسهم.

واعلم أن هذا كله على ما تقدم من أن ظاهره خطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره ممن عنده شك وارتياب فإن النبي ﷺ لم يشك ولم يرتب ولم يكذب بآيات الله فثبت بهذا أن المراد به غيره والله أعلم.

قوله سبحانه وتعالى ﴿إن الذين حقت عليهم﴾ يعني وجبت عليهم ﴿كلمة ربك﴾ يعني حكم ربك وهو قوله سبحانه وتعالى: وخلقت هؤلاء للنار ولا أبالي وقال قتادة: سخط ربك وقيل لعنة ربك وقيل هو ما قدره عليهم وقضاه في الأزل ﴿لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية﴾ فإنهم لا يؤمنون بها ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ فحينئذ لا ينفعهم شيء قوله سبحانه وتعالى: ﴿فلولا﴾ يعني فهلا ﴿كانت قرية﴾ وقيل معناه فما كانت قرية وقيل لم تكن قرية لأن في الاستفهام معنى الجحة والمراد هل كانت قرية ﴿آمنت﴾ يعني عند معاينة العذاب ﴿فنفعها إيمانها﴾ يعني في حال اليأس ﴿إلا قوم يونس﴾ هذا استثناء منقطع يعني لكن قوم يونس فإنهم آمنوا فنفعهم إيمانهم في ذلك الوقت وهو قوله ﴿لما آمنوا﴾ يعني لما أخلصوا الإيمان ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ يعني إلى وقت انقضاء آجالهم واختلفوا في قوم يونس هل رأوا العذاب عياناً أم لا فقال بعضهم رأوا دليل العذاب فآمنوا؛ وقال الأكثرون إنهم رأوا العذاب عياناً بدليل قوله كشفنا عنهم عذاب الخزي والكشف لا يكون إلا بعد الوقوع أو إذا قرب وقوعه.

(ذكر القصة في ذلك)

على ما ذكره عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم قالوا: إن قوم يونس كانوا بقرية نينوى من أرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك فأرسل الله سبحانه وتعالى إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان بالله

واسودّت سطوحهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس نبيّهم فلم يجدوه، وقذف الله في قلوبهم التوبة فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، ولبسوا المُسوح وأظهروا الإيمان والتوبة، وأخلصوا النيّة وفرّقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام فحنّ بعضُها إلى بعض، وعلتِ الأصواتُ واختلطتْ أصواتُها بأصواتهم، وعجُّوا وتضرعوا إلى الله عزّ وجلّ، وقالوا: آمنّا بما جاء به يونس، فرحمهم ربّهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعدما أضلّهم، وذلك يوم عاشوراء وكان يونس قد خرج فأقام ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم يرَ شيئاً، وكان مَنْ كذّب ولم يكن له بيّنة قتل، فقال يونس: كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتهم؟ فانطلق عاتباً على ربّه مغاضباً لقومه فأتى البحر فإذا قوم يركبون سفينة فعرفوه فحملوه بغير أجْر، فلما دخلها وتوسّطت بهم ولججت، ووقفت السفينة لا ترجع ولا تتقدم، قال أهل السفينة: إن لسفينتنا لشأناً، قال يونس: قد عرفت شأنها ركبها رجل ذو خطيئة عظيمة، قالوا: ومَن هو؟ قال: أنا اقذفوني في البحر، قالوا: ما كنّا لنطرحك من بيننا حتى نعذر في شأنك،

وترك عبادة الأصنام فدعاهم فأبوا عليه فقيل له أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث فأخبرهم بذلك فقالوا إنا لم نجرب عليه كذباً قط فانظروا فإن بات فيكم الليلة فليس بشيء وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم فلما كان جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم. قال ابن عباس: إن العذاب كان أهبط على قوم يونس حتى لم يكن بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل فلما دعوا كشف الله عنهم ذلك.

وقال مقاتل: قدر ميل، وقال سعيد بن جبير: غشي قوم يونس العذاب كما يغشى الثوب القبر، وقال وهب: غامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت أسطحتهم فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك فطلبوا نبيهم يونس عليه السلام فلم يجدوه فقذف الله سبحانه وتعالى في قلوبهم فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم فلبسوا المسوح وأظهروا الإسلام والتوبة وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن البعض إلى البعض فحن الأولاد إلى الأمهات والأمهات إلى الأولاد وعلت الأصوات وعجوا جميعاً إلى الله وتضرعوا إليه وقالوا آمنا بما جاء به يونس وتابوا إلى الله وأخلصوا النية فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب بعد ما أظلهم وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء وكان يوم الجمعة.

قال ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم فيما بينهم حتى أن كان الرجل ليأتي إلى الحجر وقد وضع أساس بنيانه عليه فيقلعه فيرده.

وروى الطبري بسنده عن أبي الجلد خيلان قال: لما غشي قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا له إنه قد نزل بنا العذاب فما ترى قال قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا إله إلا أنت فقالوها فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا إلى حين.

وقال الفضيل بن عياض: إنهم قالوا اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم وأجل فافعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله، قال: وخرج يونس وجعل ينتظر العذاب فلم ير شيئاً فقيل له ارجع إلى قومك قال وكيف أرجع إليهم فيجدوني كذاباً وكان من كذب ولا بينة له قال فانصرف عنهم مغاضباً فالتقمه الحوت وستأتي القصة في

واستَهَمُوا فاقترعُوا ثلاثَ مرات فأحصَّ سهمه، والحوت عند رجل السفينة فاغراً فاه ينتظر أمر ربِّه فيه، فقال يونس: إنكم والله لتهلكنّ جميعاً ولتطرحنني فيه، فقذفوه فيه وانطلقوا وأخذه الحوت. ورُوِيَ: أن الله تعالى أوحى إلى حوت عظيم حتى قصد السفينة، فلما رآه أهل السفينة مثل الجبل العظيم وقد فغر فاه ينظر إلى مَن في السفينة كأنه يطلب شيئاً خافوا منه ولما رآه يونس زجّ نفسه في الماء. وعن ابن عباس: أنه خرج مُغاضباً لقومه فأتى بحر الروم فإذا سفينة مشحونة، فركبها فلما لججت السفينة، تكفّأت حتى كادوا أن يغرقوا، فقال الملاّحون: ههنا رجل عاصٍ أو عبد آبق، وهكذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري، ومن رسمنا أن نقترع في مثل هذا فمَن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة بما فيها، فاقترعوا ثلاثَ مراتَ فوقعت القرعة في كلها على يونس، فقال يونس: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق، فألقى نفسه في الماء فابتلعه حوت، ثم جاء حوت آخر أكبر منه وابتلع هذا الحوت، وأوحى الله إلى الحوت لا تؤذي منه شعرة فإني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعاماً لك. ورُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نُودي إنّا لم نجعل يونس لك قوتاً إنما جعلنا بطنك له حرزاً ومسجداً. ورُوِيَ: أنه قام قبل القرعة فقال: أنا العبد العاصي والآبق، قالوا: مَن أنت؟ قال: أنا يونس بن متّى، فعرفوه فقالوا: لا نلقيك يا رسول الله ولكن نُساهِمْ فخرجتِ القرعةُ عليه فألقى نفسه في الماء، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ابتلعه الحوت فأهوى به إلى قرار الأرض السابعة، وكان في بطنه أربعين ليلة فسمح تسبيح الحصى،

سورة والصافات إن شاء الله تعالى فإن قلت كيف كشف العذاب عن قوم يونس بعد ما نزل بهم وقبل توبتهم ولم يكشف العذاب عن فرعون حين آمن ولم يقبل توبته.

قلت: أجاب العلماء عن هذا بأجوبة:

أحدها: أن ذلك كان خاصاً بقوم يونس والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

الجواب الثاني: أن فرعون ما آمن إلا بعد ما باشر العذاب وهو وقت اليأس من الحياة وقوم يونس دنا منهم العذاب ولم ينزل بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية.

الجواب الثالث: أن الله عز وجل علم صدق نياتهم في التوبة فقبل توبتهم بخلاف فرعون فإنه ما صدق في إيمانهم ولا أخلص فلم يقبل منه إيمانه والله أعلم.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً**﴾ يقول الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ ولو شاء ربك يا محمد لآمن بك وصدقك من في الأرض كلهم جميعاً ولكن لم يشأ أن يصدقك ويؤمن بك إلا من سبقت له السعادة في الأزل قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن به جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله عز وجل أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له من السعادة في الذكر الأول ولم يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول وفي هذا تسلية للنبي ﷺ لأنه كان حريصاً على إيمانهم كلهم فأخبره الله أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له العناية الأزلية فلا تتعب نفسك على إيمانهم وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾ يعني ليس إيمانهم إليك حتى تكرههم عليه أو تحرص عليه إنما إيمان المؤمن وإضلال الكافر بمشيئتنا وقضائنا وقدرنا ليس

فنادى في الظلمات: أن لا إلَه إلاّ أنت سبحانَك إني كنتُ مِنَ الظالمين، فأجاب الله له فأمر الحوت، فنبذه على ساحل البحر وهو كالفرخ الممعّط، فأنبت الله عليه شجرةً من يقطين، وهو الدباء، فجعل يستظلّ تحتها ووكّل به وعلة يشرب من لبنها فيبست الشجرة، فبكى عليها فأوحى الله إليه تبكي على شجرة يبست ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون وأردت أن أُهلكهم، فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى، فقال: مَن أنت يا غلام؟ قال: من قوم يونس، قال: إذا رجعتَ إليهم فأخبرهم أني لقيت يونس، فقال الغلام: قد تعلم أنه إن لم تكن لي بيّنة قُتلت، قال يونس عليه السلام: تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة، فقال له الغلام: فمرْهما، فقال يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم، فرجع الغلام، فقال للملك: إني لقيت يونس فأمر الملك بقتله، فقال: إنّ لي بيّنة فأرسلوا معي فأتى البقعة والشجرة، فقال: أنشدكما هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم، فرجع القوم مذعورين، وقالوا للملك: شهد له الشجرة والأرض، فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان منّي. فأقام لهم أمرهم ذلك الغلامُ أربعين سنة.

قوله تعالى: ﴿ **ولو شاء ربُّك** ﴾، يا محمد، ﴿ **لآمَنَ مَنْ في الأرض كلُّهُمْ جميعاً أفأنت تُكْرِهُ الناسَ حتّى يكونُوا مؤمنين** ﴾، هذه تسلية للنبي ﷺ وذلك أنه كان حريصاً على أن يؤمن جميع الناس، فأخبره الله جلّ ذكره: أنه

ذلك لأحد سوانا ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ يعني وما كان ينبغي لنفس خلقها الله تعالى أن تؤمن وتصدق إلا بقضاء الله لها بالإيمان فإن هدايتها إلى الله وهو الهادي المضل.

وقال ابن عباس: معنى بإذن الله، بأمر الله، وقال عطاء: بمشيئة الله قوله تعالى: ﴿ويجعل﴾ قرىء بالنون على سبيل التعظيم أي ونجعل نحن وقرىء بالياء ومعناه ويجعل الله ﴿الرجس﴾ يعني العذاب، وقال ابن عباس: يعني السخط ﴿على الذين لا يعقلون﴾ يعني لا يفهمون عن الله أمره ونهيه.

قوله عز وجل: ﴿قل انظروا﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسألونك الآيات انظروا يعني انظروا بقلوبكم نظر اعتبار وتفكر وتدبر ﴿ماذا في السموات والأرض﴾ يعني: ماذا خلق الله في السموات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته ففي السموات الشمس والقمر وهما دليلان على النهار والليل والنجوم سخرها طالعة وغاربة وإنزال المطر من السماء وفي الأرض الجبال والبحار والمعادن والأنهار والأشجار والنبات كل ذلك آية دالة على وحدانية الله تعالى وأنه خالقها كما قال الشاعر:

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل علـــى أنـــه واحـــد

﴿وما تغني الآيات والنذر﴾ يعني الرسل ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ وهذا في حق أقوام علم الله أنهم لا يؤمنون لما سبق لهم في الأزل من الشقاء.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن
كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ
وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿فهل ينتظرون﴾ يعني مشركي مكة ﴿إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ يعني من مضى من قبلهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل قال قتادة يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود.

لا يؤمن إلاّ مَن سبق له السعادة، ولا يضلّ إلاّ مَن سبق له من الله الشقاوة.

﴿ وما كانَ لنفسٍ ﴾، وما ينبغي لنفس. وقيل: ما كانت نفس، ﴿ أن تُؤمنَ إلاّ بإذنِ اللّهِ ﴾، قال ابن عباس: بأمر الله. وقال عطاء: بمشيئة الله. وقيل: بعلم الله. ﴿ ويجعلُ الرِّجْسَ ﴾، قرأ أبو بكر: « ونجعل » بالنون، والباقون بالياء، أي: ويجعل الله الرجسَ أي: العذاب وهو الرجز، ﴿ على الذينَ لا يعقلُون ﴾، عن الله أمره ونهيه.

﴿ قُلِ انظرُوا ﴾، أي: قلْ للمشركين الذين يسألونك الآيات انظروا، ﴿ ماذا في السمٰواتِ والأرضِ ﴾، من الآيات والدلائل والعِبَر ففي السمٰوات الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وفي الأرض الجبال والبحار والأنهار والأشجار وغيرها، ﴿ وما تُغني الآياتُ والنُّذرُ ﴾، الرسل، ﴿ عن قومٍ يُؤمنُون ﴾، وهذا في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون.

﴿ فهلْ ينتظِرُون ﴾، يعني: مشركي مكة، ﴿ إلاّ مثلَ أيّامِ الذينَ خلَوْا ﴾، مضوا، ﴿ من قبلهم ﴾، من

والعرب تسمي العذاب أياماً والنعم أياماً كقوله تعالى وذكرهم بأيام الله والمعنى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك يا محمد إلا يوماً يعاينون فيه العذاب مثل ما فعلنا بالأمم السالفة المكذبة أهلكناهم جميعاً فإن كانوا ينتظرون ذلك العذاب فـ ﴿قل فانتظروا﴾ يعني: قل لهم يا محمد فانتظروا العذاب ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ يعني: هلاككم، قال الربيع بن أنس: خوفهم عذابه ونقمته ثم أخبرهم أنه إذا وقع ذلك بهم أنجى الله رسله والذين آمنوا معهم من ذلك العذاب وهو قوله تعالى: ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾ يعني من العذاب والهلاك ﴿كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين﴾ يعني كما أنجينا رسلنا، والذين آمنوا معهم من الهلاك كذلك ننجيك يا محمد والذين آمنوا معك وصدقوك من الهلاك والعذاب.

قال بعض المتكلمين: المراد بقوله حقاً علينا الوجوب لأن تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب واجب وأجيب عن هذا بأنه حق واجب من حيث الوعد والحكم لا أنه واجب بسبب الاستحقاق لأنه قد ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيئاً.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿قل يا أيها الناس﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلتك إليهم فشكوا في أمرك ولم يؤمنوا بك ﴿إن كنتم في شك من ديني﴾ يعني الذي أدعوكم إليه وإنما حصل الشك لبعضهم في أمره ﷺ لما رأى الآيات التي كانت تظهر على يد النبي ﷺ فحصل له الاضطراب والشك فقال إن كنتم في شك من ديني الذي أدعوكم إليه فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه لأنه دين إبراهيم عليه السلام وأنتم من ذريته وتعرفونه ولا تشكون فيه وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في عبادتكم لهذه الأصنام التي لا أصل لها البتة فإن أصررتم على ما أنتم عليه ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ يعني هذه الأوثان وإنما وجب تقديم هذا النفي لأن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا تليق لأخس الأشياء وهي الحجارة التي لا تنفع لمن عبدها ولا تضر لمن تركها ولكن تليق العبادة لمن بيده النفع والضر وهو قادر على الإماتة والإحياء وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ والحكمة في وصف الله سبحانه وتعالى في هذا المقام بهذه الصفة أن المراد أن الذي يستحق العبادة أعبده أنا وأنتم هو الذي خلقكم أولاً ولم تكونوا شيئاً ثم يميتكم ثانياً ثم يحييكم بعد الموت ثالثاً، فاكتفى بذكر الوفاة تنبيهاً على الباقي، وقيل: لما كان الموت أشد الأشياء على النفس ذكر في هذ المقام ليكون أقوى في الزجر والردع وقيل إنهم لما استعجلوا بطلب العذاب أجابهم بقوله ولكن أعبد الله الذي هو قادر على إهلاككم ونصري عليكم ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ يعني وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بما جاء من عنده قيل لما ذكر العبادة وهي من أعمال الجوارح أتبعها بذكر الإيمان لأنه من أعمال القلوب ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً﴾ الواو في قوله وأن أقم واو عطف معناه وأمرت أن أقيم وجهي يعني أقم نفسك على دين الاسلام حنيفاً يعني مستقيماً عليه غير معوج عنه إلى دين آخر، وقيل معناه أقم عملك على

مكذِّبي الأمم، قال قتادة: يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود. والعرب تسمّي العذاب أياماً والنِّعَم أياماً، كقوله: ﴿ وذكِّرهم بأيام الله ﴾ [إبراهيم: ٥]، وكل ما مضى عليك من خير وشر فهو أيام، ﴿ قلْ فانتظِرُوا إني معكم من المنتظِرين ﴾.

﴿ ثم نُنجّي رُسلَنَا ﴾، قرأ يعقوب «نُنجـي» خفيف مختلف عنه، ﴿ والذينَ آمنُوا ﴾، معهم عند نزول العذاب معناه نجينا مستقبل بمعنى الماضي، ﴿ كذلك ﴾، كما نجّيناهم، ﴿ حقّاً ﴾، واجباً، ﴿ علينا نُنْجِ المؤمنين ﴾، قرأ الكسائي وحفص ويعقوب « ننجي » بالتخفيف والآخرون بالتشديد، ونجا وأنجى بمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿ قلْ يا أيها الناس إنْ كنتُمْ في شكٍّ مِّن دِيني ﴾، الذي أدعوكم إليه، فإن قيل: كيف قال إن كنتم في شكٍّ وهم كانوا يعتقدون بطلان ما جاء به؟ قيل: كان فيهم شاكّون فهم المراد بالآية، أو أنهم لمّا رأوا

الدين الحنيفي وقيل راد بقوله وأن أقم وجهك للدين صرف نفسه بكليته إلى طلب الدين الحنيفي غير مائل عنه ﴿**ولا تكونن من المشركين**﴾ يعني ولا تكونن ممن يشرك في عبادة ربه غيره فيهلك وقيل إن النهي عن عبادة الأوثان قد تقدم في الآية المتقدمة فوجب حمل هذا النهي على معنى زائد وهو أن من عرف الله عز وجل وعرف جميع أسمائه وصفاته وأنه المستحق للعبادة لا غيره فلا ينبغي له أن يلتفت إلى غيره بالكلية وهذا هو الذي تسميه أصحاب القلوب بالشكر الخفي ﴿**ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك**﴾ يعني إن عبدته ودعوته ﴿**ولا يضرك**﴾ يعني إن تركت عبادته ﴿**فإن فعلت**﴾ يعني ما نهيتك عنه فعبدت غيري أو طلبت النفع ودفع الضر من غيري ﴿**فإنك إذاً من الظالمين**﴾ يعني لنفسك لأنك وضعت العبادة في غير موضعها وهذا الخطاب وإن كان في الظاهر للنبي ﷺ فالمراد به غيره لأنه ﷺ لم يدع من دون الله شيئاً البتة فيكون المعنى ولا تدع أيها الإنسان من دون الله ما لا ينفعك، الآية.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**وإن يمسسك الله بضر**﴾ يعني وإن يصبك الله بشدة وبلاء ﴿**فلا كاشف له**﴾ يعني لذلك الضر الذي أنزل بك ﴿**إلا هو**﴾ لا غيره ﴿**وإن يردك بخير**﴾ يعني بسعة ورخاء ﴿**فلا راد لفضله**﴾ يعني فلا دافع لرزقه ﴿**يصيب به**﴾ يعني: بكل واحد من الضر والخير ﴿**من يشاء من عباده**﴾ قيل إن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الأوثان وبين أنها لا تقدر على نفع ولا ضر بين تعالى أنه هو القادر على ذلك كله، وأن جميع الكائنات محتاجة إليه وجميع الممكنات مستندة إليه لأنه هو القادر على كل شيء وأنه ذو الجود والكرم والرحمة ولهذا المعنى ختم الآية بقوله ﴿**وهو الغفور الرحيم**﴾ وفي الآية لطيفة أخرى وهي أن الله سبحانه وتعالى رجح جانب الخير على جانب الشر وذلك أنه تعالى لما ذكر إمساس الضر بين أنه لا كاشف له إلا هو وذلك يدل على أنه سبحانه وتعالى يزيل جميع المضار ويكشفها لأن الاستثناء من النفي إثبات.

ولما ذكر الخير قال فيه فلا راد لفضله يعني أن جميع الخيرات منه فلا يقدر أحد على ردها لأنه هو الذي يفيض

الآيات اضطربوا وشكّوا في أمرهم وأمر النبي ﷺ. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **فلا أعبدُ الذينَ تعبدُون مِنْ دُونِ اللّهِ** ﴾، من الأوثان، ﴿ **ولكنْ أعبدُ اللّهَ الذي يتوفّاكم** ﴾، يُميتكم ويقبض أرواحكم، ﴿ **وأُمرتُ أن أكونَ مِنَ المؤمنين** ﴾.

قوله: ﴿ **وأنْ أَقِمْ وجهَكَ للدِّينِ حنيفاً** ﴾، قال ابن عباس: عملك. وقيل: استقم على الدين حنيفاً. ﴿ **ولا تكونَنَّ مِنَ المشركين** ﴾.

﴿ **ولا تَدْعُ** ﴾، ولا تعبد، ﴿ **مِنْ دُونِ اللّهِ ما لَا ينفعُك** ﴾، إن أطعته، ﴿ **ولا يضرُّك** ﴾، إن عصيته، ﴿ **فإنْ فعلتَ** ﴾، فعبدت غيرَ اللّهِ، ﴿ **فإنّك إذاً مِّنَ الظالمين** ﴾، الضارّين لأنفسهم الواضعين العبادة في غير موضعها.

﴿ **وإنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بضُرٍّ** ﴾، أي: يصبك بشدّة وبلاء، ﴿ **فلا كاشفَ له** ﴾، فلا دافع له، ﴿ **إلّا هُوَ وإنْ يُرِدْكَ بخيرٍ** ﴾، رخاء ونعمة وسِعة، ﴿ **فلا رادّ لِفضْلِهِ** ﴾، فلا مانع لرزقه، ﴿ **يُصيبُ بهِ** ﴾، بكل واحد من الضرّ والخير، ﴿ **مَنْ يشاءُ من عبادِهِ وهو الغفُورُ الرحيمُ** ﴾.

جميع الخيرات على عباده وعضده بقوله وهو الغفور يعني الساتر لذنوب عباده الرحيم يعني بهم.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾** يعني القرآن والإسلام وقيل الحق هو محمد ﷺ جاء بالحق من الله عز وجل **﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾** لأن نفع ذلك يرجع إليه **﴿ومن ضل فإنما يضل عليها﴾** أي على نفسه لأن وباله راجع إليه فمن حكم الله له بالاهتداء في الأزل انتفع ومن حكم عليه بالضلال ضل ولم ينتفع بشيء أبداً **﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾** يعني وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم وقال ابن عباس: هذه الآية منسوخة بآية السيف **﴿واتبع ما يوحى إليك﴾** يعني الأمر الذي يوحيه الله إليك يا محمد **﴿واصبر﴾** يعني على أذى من خالفك من كفار مكة وهم قومك **﴿حتى يحكم الله﴾** يعني ينصرك عليهم بإظهار دينك **﴿وهو خير الحاكمين﴾** يعني أنه سبحانه وتعالى حكم بنصر نبيه وإظهار دينه وبقتل المشركين وأخذ الجزية من أهل الكتاب، وفيها ذلهم وصغارهم والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه.

﴿ قلْ يا أيها الناسُ قدْ جاءَكُم الحقُّ مِن ربِّكم ﴾، يعني: القرآن والإسلام، **﴿ فمَن اهْتَدى فإنّما يهتدي لنفسِهِ ومَن ضَلَّ فإنّما يَضِلُّ عليها ﴾**، أي: على نفسه وباله وعليه، **﴿ وما أنا عليكمْ بوكيلٍ ﴾**، بكفيل أحفظ أعمالكم. قال ابن عباس: نسختها آية القتال.

﴿ واتَّبِعْ ما يُوحَى إليكَ واصْبِرْ حتى يحكمَ اللهُ ﴾، بنصرك وقهر عدوِّك وإظهار دينه، **﴿ وهو خيرُ الحاكمين ﴾**، فحكم بقتال المشركين وبالجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يَدٍ وهم صاغرون.

تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام

وهي مكية في قول ابن عباس وبه قال الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة وفي رواية عن ابن عباس أنها مكية غير آية وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ وعن قتادة نحوه وقال مقاتل: هي مكية إلا قوله سبحانه فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وقوله أولئك يؤمنون به وقوله سبحانه وتعالى إن الحسنات يذهبن السيئات وهي مائة وثلاث وعشرون آية وألف وستمائة كلمة وتسعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفاً عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن غريب. وفي رواية غيره قال قلت «يا رسول الله عجل إليك الشيب قال شيبتني هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية»، قال بعض العلماء: سبب شيبه ﷺ من هذه السور المذكورة في الحديث لما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنة والنار والله أعلم بمراد رسول الله ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾

قوله عز وجل: ﴿الر كتاب أحكمت آياته﴾ قال ابن عباس: لم ينسخها كتاب كما نسخت هي الكتب والشرائع ﴿ثم فصلت﴾ يعني بينت وقال الحسن: أحكمت آياته بالأمر والنهي وفصلت بالثواب والعقاب وفي رواية عنه بالعكس، قال: أحكمت بالثواب والعقاب وفصلت بالأمر والنهي، وقال قتادة: أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بعلمه فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فيها وقيل: أحكمها الله فليس فيها تناقض ثم فصلها وبينها وقيل معناه نظمت آياته نظماً رصيناً محكماً بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم الذي ليس فيه خلل ثم فصلت آياته سورة سورة وقيل إن آيات هذا الكتاب دالة على التوحيد وصحة النبوة والمعاد وأحوال القيامة وكل ذلك لا يدخله النسخ ثم فصلت بدلائل الأحكام والمواعظ والقصص والإخبار عن المغيبات، وقال مجاهد: فصلت بمعنى فسرت وثم في قوله ثم فصلت ليست هي للتراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل فإن قلت كيف عم الآيات هنا بالأحكام وخص بعضها في قوله منه آيات محكمات.

قلت: إن الإحكام الذي عم به هنا غير الذي خص به هناك فمعنى الإحكام العام هنا أنه لا يتطرق إلى آياته التناقض والفساد كأحكام البناء فإن هذا الكتاب نسخ جميع الكتب المتقدمة عليه والمراد بالإحكام الخاص المذكور

سُورَة هُـــودْ

مكية إلّا قوله: ﴿ وأقِمِ الصلاةَ طَرَفي النَّهارِ ﴾ [١١٤]، وهي مائة وثلاث وعشرون آية.

﴿ آلر كِتَابٌ ﴾، أي: هذا كتاب، ﴿ أُحْكِمَتْ آياتُه ﴾، قال ابن عباس: لم ينسخ بكتاب كما نسخت الكتب

في قوله منه آيات محكمات أن بعض آياته منسوخة نسخها بآيات منه أيضاً لم ينسخها غيره وقيل أحكمت آياته أي معظم آياته محكمة وإن كان قد دخل النسخ على البعض فأجرى الكل على البعض لأن الحكم للغالب وإجراء الكل على البعض مستعمل في كلامهم تقول أكلت طعام زيد وإنما أكلت بعضه.

وقوله تعالى: ﴿من لدن حكيم﴾ يعني أحكمت آيات الكتاب من عند حكيم في جميع أفعاله ﴿خبير﴾ يعني بأحوال عباده وما يصلحهم.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ هذا مفعول له معناه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله والمراد بالعبادة التوحيد وخلع الأنداد والأصنام وما كانوا يعبدون والرجوع إلى الله تعالى وإلى عبادته والدخول في دين الإسلام ﴿إنني لكم منه﴾ أي: قل لهم يا محمد إنني لكم من عند الله ﴿نذير﴾ ينذركم عقابه إن ثبتم على كفركم ولم ترجعوا عنه ﴿وبشير﴾ يعني وأبشر بالثواب الجزيل لمن آمن بالله ورسوله وأطاع وأخلص العمل لله وحده ﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ اختلفوا في بيان الفرق بين هذين المرتبتين فقيل معناه اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم ارجعوا إليه لأن الاستغفار هو طلب الغفر وهو الستر والتوبة الرجوع عما كان فيه من شرك أو معصية إلى خلاف ذلك فلهذا السبب قدم الاستغفار على التوبة وقيل معناه استغفروا ربكم لسالف ذنوبكم ثم توبوا إليه في المستقبل وقال الفراء: ثم هنا بمعنى الواو لأن الاستغفار والتوبة بمعنى واحد فذكرهما للتأكيد ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ يعني إنكم إذا فعلتم ما أمرتم به من الاستغفار والتوبة وأخلصتم العبادة لله عز وجل بسط عليكم من الدنيا وأسباب الرزق ما تعيشون به في أمن وسعة وخير، قال بعضهم: المتاع الحسن هو الرضا بالميسور والصبر على المقدور ﴿إلى أجل مسمى﴾ يعني يمتعكم متاعاً حسناً إلى حين الموت ووقت انقضاء آجالكم.

فإن قلت قد ورد في الحديث «إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وقد يضيق على الرجل في بعض أوقاته حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله فكيف الجمع بين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى.

والشرائع به، ﴿ ثم فُصِّلَتْ ﴾، بُيِّنت بالأحكام والحلال والحرام. وقال الحسن: أُحكمت بالأمر والنهي، ثم فُصِّلت بالوعد والوعيد. قال قتادة: أُحكمت أحكمها الله فليس فيها اختلاف ولا تناقض. وقال مجاهد: فُصِّلَتْ أي: فُسِّرت. وقيل: فُصِّلَتْ أي: أُنزلت شيئاً فشيئاً، ﴿ مِنْ لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ ﴾.

﴿ ألاّ تعبدُوا إلاّ اللّهَ ﴾، أي: في ذلك الكتاب أنْ لا تعبدوا إلاّ الله، ويكون محل (أن) رفعاً. وقيل: محله خفض تقديره: بأن لا تعبدوا إلاّ الله، ﴿ إنني لكم منه ﴾ أي: من الله ﴿ نذيرٌ ﴾، للعاصين، ﴿ وبشيرٌ ﴾. للمطيعين.

﴿ وأنِ ﴾، عطف على الأول، ﴿ استغفرُوا ربَّكم ثم تُوبُوا إليه ﴾، أي: ارجعوا إليه بالطاعة. قال الفرّاء:

قلت أما قوله ﷺ «الدنيا سجن المؤمن» فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فإنه في سجن في الدنيا حتى يفضي إلى ذلك المعد له وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من العذاب الأليم الدائم الذي لا ينقطع فهو في الدنيا في جنة حتى يفضي إلى ما أعد الله له في الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الأوقات فإنما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشة حسنة لأنه راض عن الله في جميع أحواله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ أي ويعط كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة، قال أبو العالية: من كثرت طاعاته في الدنيا زادت حسناته ودرجاته في الجنة لأن الدرجات تكون على قدر الأعمال، وقال ابن عباس: من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة ومن زادت سيئاته دخل النار ومن استوت حسناته وسيئاته كان من الأعراف ثم يدخلون الجنة. وقال ابن مسعود: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فإن عوقب بالسيئة التي عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من حسناته العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود: هلك من غلبت آحاده أعشاره وقيل معنى الآية من عمل لله وفقه الله في المستقبل لطاعته ﴿وإن تولوا﴾ يعني وإن أعرضوا عما جئتم به من الهدى ﴿فإني أخاف عليكم﴾ أي: فقل لهم يا محمد إني أخاف عليكم ﴿عذاب يوم كبير﴾ يعني: عذاب النار في الآخرة ﴿إلى الله مرجعكم﴾ يعني في الآخرة فيثيب المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ يعني من إيصال الرزق إليكم في الدنيا وثوابكم وعقابكم في الآخرة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ قال ابن عباس: نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر وكان يلقى رسول الله ﷺ بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره فنزلت ألا إنهم يثنون صدورهم يعني يخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة من ثنيت الثوب إذا طويته. وقال عبد الله بن شداد بن الهاد: نزلت في بعض المنافقين كان إذا مر برسول الله ﷺ ثنى صدره

﴿ ثم ﴾ هنا بمعنى الواو، أي: وتوبوا إليه، لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هي الاستغفار. وقيل: أن استغفروا إليه في المستأنف ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً حسناً ﴾، يعيشكم عيشاً حسناً في خفض ودعة وأمن وسعة. قال بعضهم: العيش الحسن هو الرضى بالميسور والصبر على المقدور. ﴿ إلى أجلٍ مسمًّى ﴾، إلى حين الموت، ﴿ وَيُؤتِ كلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾، أي: ويؤت كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة. وقال أبو العالية: مَن كثرت طاعته في الدنيا زادت درجاته في الآخرة في الجنّة ، لأن الدرجات تكون بالأعمال. وقال ابن عباس: مَن زادت حسناته على سيآته دخل الجنة، ومَن زادت سيآته على حسناته دخل النار، ومَن استوت حسناته وسيآته كان من الأعراف، ثم يدخل الجنة بعد. وقيل: يؤتِ كلّ ذي فضل فضله يعني: مَن عمل لله عزّ وجلّ وفّقه الله فيما يستقبل على طاعته. ﴿ وإنْ تَوَلّوا ﴾، أعرضوا، ﴿ فإني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبير ﴾، وهو يوم القيامة.

﴿ إلى اللّهِ مَرْجِعُكم وهو على كلِّ شيءٍ قدير ﴾.

قوله تعالى: ﴿ ألَا إنهم يَثْنُونَ صدورَهم ﴾، قال ابن عباس: نزلت في الأخنس بن شُريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر، يلقى رسول الله ﷺ بما يحبّ وينطوي بقلبه على ما يكره، قوله: ﴿ يثنون صدورهم ﴾ أي: يُخفون ما في صدورهم من الشحناء والعداوة. وقال عبد الله بن شدّاد: نزلت هذه الآية في بعض المنافقين كان إذا مَرَّ برسول الله ﷺ ثنى صدره وحنى ظهره وطأطأ رأسه وغطّى وجهه كي لا يراه النبي ﷺ . وقال قتادة: كانوا يحنون صدورهم كي لا يسمعوا كتاب الله تعالى ولا ذكره. وقيل: كان الرجل من الكفّار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه. ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي. وقال السدي: يثنون أي: يعرضون بقلوبهم، من قولهم:

وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يراه رسول الله ﷺ. وقال قتادة: كانوا يحنون صدورهم كي لا يسمعوا كتاب الله تعالى ولا ذكره وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما في قلبي، وقال السدي: يثنون صدورهم أي يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عناني **﴿ليستخفوا منه﴾** يعني من رسول الله ﷺ وقال مجاهد من الله عز وجل إن استطاعوا **﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾** يعني يغطون رؤوسهم بثيابهم **﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾** ومعنى الآية على ما قاله الأزهري: إن الذين أضمروا عداوة رسول الله ﷺ لا يخفى علينا حالهم في كل حال وقد نقل عن ابن عباس غير هذا التفسير وهو ما أخرجه البخاري في إفراده عن محمد بن عياش بن جعفر المخزومي أنه سمع ابن عباس يقرأ: ألا إنهم يثنون صدورهم، قال: فسألته عنها فقال كل أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

وقوله سبحانه وتعالى: **﴿وما من دابة في الأرض﴾** الدابة اسم لكل حيوان دب على وجه الأرض وأطلق لفظ الدابة على كل ذي أربع من الحيوان على سبيل العرف والمراد منه الإطلاق فيدخل الآدمي وغيره من جميع الحيوانات **﴿إلا على الله رزقها﴾** يعني هو المتكفل برزقها فضلاً منه لا على سبيل الوجوب فهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق وقيل إن لفظة على بمعنى أي من الله رزقها وقال مجاهد ما جاءها من رزق فمن الله وربما لم يرزقها فتموت جوعاً **﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾** قال ابن عباس: مستقرها المكان الذي تأوي في ليل أو نهار ومستودعها المكان الذي تدفن فيه بعد الموت، وقال ابن مسعود: مستقرها أرحام الأمهات والمستودع المكان الذي تموت فيه وقيل المستقر الجنة أو النار والمستودع القبر **﴿كل في كتاب مبين﴾** أي كل ذلك مثبت في اللوح المحفوظ قبل خلقها قوله عز وجل: **﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾** يعني قبل خلق السموات والأرض قال كعب خلق الله ياقوتة خضراء ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم وضع

ثنيت عناني. وقيل: يعطفون، ومنه ثنى الثوب. وقرأ ابن عباس: «يثنوني» على وزن يحلو لي جعل الفعل للصدور ومعناه المبالغة في الثني. **﴿ لِيَسْتَخْفُوا منه ﴾**، أي: من رسول الله ﷺ. وقال مجاهد: ليستخفوا من الله إن استطاعوا، **﴿ ألَا حين يستغشون ثيابَهم ﴾**، يغطّون رؤوسهم بثيابهم، **﴿ يعلمُ ما يُسرّون وما يُعلنون إنّه عليمٌ بذاتِ الصدور ﴾**، قال الأزهري: معنى الآية من أولها إلى آخرها: إن الذين أضمروا عداوة رسول الله ﷺ لا يخفى علينا حالهم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحسن بن محمد بن صباح ثنا حجّاج قال: قال ابن جريج أخبرني محمد بن عباد بن جعفر أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: **﴿ ألَا إنّهم يَثْنُون صدورَهم ﴾**، فقال: سألته عنها فقال: كان أُناس يستحيون أن يتخلّوا فيفضوا إلى السّماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم.

قوله تعالى: **﴿ وما مِنْ دابّةٍ في الأرض ﴾**، أي: ليس دابّة، **﴿ من ﴾** صلة، والدابّة: كل حيوان يدبّ على وجه الأرض. وقوله: **﴿ إلّا على اللّهِ رِزْقُها ﴾**، أي: هو المتكفّل بذلك فضلاً وهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق. وقيل: على بمعنى من أي: من الله رزقها. وقال مجاهد: ما جاءها من رزق فمن الله عزّ وجلّ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً. **﴿ ويعلمُ مستقرَّها ومستودَعها ﴾**، قال ابن مقسم: ويُروَى ذلك عن ابن عباس مستقرّها

العرش على الماء. قال ضمرة: إن الله سبحانه وتعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وخلق القلم فكتب به ما خلق وما هو خالق وما هو كائن من خلقه إلى يوم القيامة ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيئاً من خلقه.

وقال سعيد بن جبير سئل ابن عباس عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ على أي شيء كان الماء قال: على متن الريح، وقال وهب بن منبه: إن العرش كان قبل أن يخلق الله السموات والأرض ثم قبض الله قبضة من صفاء الماء ثم فتح القبضة فارتفع دخان ثم قضاهن سبع سموات في يومين ثم أخذ سبحانه وتعالى طينة من الماء فوضعها مكان البيت ثم دحا الأرض منها ثم خلق الأقوات في يومين والسموات في يومين والأرض في يومين ثم فرغ آخر الخلق وفي اليوم السابع. قال بعض العلماء: وفي خلق جميع الأشياء وجعلها على الماء ما يدل على كمال القدرة لأن البناء الضعيف إذا لم يكن له أساس على أرض صلبة لم يثبت فكيف بهذا الخلق العظيم وهو العرش والسموات والأرض على الماء فهذا يدل على كمال قدرة الله تعالى (خ) عن عمران بن حصين قال «دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتى ناس من بني تميم فقال اقبلوا البشرى يا بني تميم فقالوا بشرتنا فاعطنا مرتين فتغير وجهه ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم قالوا قبلنا يا رسول الله ثم قالوا جئنا لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان قال كان الله سبحانه وتعالى ولم يكن معه شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء ثم أتاني رجل فقال يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت فانطلقت أطلبها فإذا السراب يقطع دونها وايم الله لوددت أنها ذهبت ولم أقم» عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال «كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء وخلق عرشه على الماء» أخرجه الترمذي، وقال قال أحمد: يريد بالعماء أنه ليس معه شيء قال أبو بكر البيهقي: في كتاب الأسماء والصفات له قوله ﷺ «كان الله ولم يكن شيء قبله، يعني لا الماء ولا العرش ولا غيرهما وقوله «وكان عرشه على الماء» يعني وخلق الماء وخلق العرش على الماء ثم كتب في الذكر كل شيء، وقوله في عماء وجدته في كتاب عماء مقيداً بالمد فإن كان في الأصل ممدوداً فمعناه سحاب رقيق ويريد بقوله في عماء أي فوق سحاب مدبراً له وعالياً عليه كما قال سبحانه وتعالى «أأمنتم من في السماء» يعني من فوق السماء وقال تعالى: ﴿لأصلبنكم في جذوع النخل﴾ يعني على جذوعها وقوله ﴿ما فوقه هواء﴾ أي ما فوق السحاب هواء وكذلك قوله ﴿وما تحته هواء﴾ أي ما تحت السحاب هواء وقد قيل إن ذلك العمى مقصور والعمى إذا كان مقصوراً فمعناه لا شيء ثابت لأنه مما عمى عن الخلق لكونه غير شيء فكأنه قال في جوابه كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شيء غيره ثم قال ما فوقه هواء وما تحته هواء أي ليس فوق العمى الذي هو لا شيء موجود هواء ولا تحته هواء لأن ذلك إن كان غير شيء فليس يثبت له هواء بوجه والله أعلم وقال الهروي صاحب الغريبين: قال بعض أهل العلم معناه أين كان عرش ربنا فحذف المضاف اختصاراً كقوله واسأل

المكان الذي تأوي إليه وتستقرّ فيه ليلاً ونهاراً، ومستودعها: الموضع الذي تدفن فيه إذا ماتت. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: المستقر أرحام الأمهات والمستودع المكان الذي تموت فيه. وقال عطاء: المستقر أرحام الأمهات والمستودع أصلاب الآباء. ورواه سعيد بن جبير وعليّ بن طلحة وعكرمة عن ابن عباس. وقيل: المستقر الجنة أو النار والمستودع القبر، لقوله تعالى في صفة الجنة والنار: ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً ﴾ [الفرقان: ٧٦].
﴿ كلٌّ في كتابٍ مبين ﴾، أي: كلٌّ مثبت في اللوح المحفوظ قبل أن خلقها.

قوله تعالى: ﴿ وهو الذي خلقَ السمٰواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ وكانَ عرشُه على الماءِ ﴾، قبل أن خلق السماءَ والأرض وكان ذلك الماء على متن الريح. قال كعب: خلق الله عزّ وجلّ ياقوتةً خضراء ثم نظر إليها بالهيبة

القرية ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ هذا آخر كلام البيهقي، وقال ابن الأثير: العماء في اللغة السحاب الرقيق وقيل: الكثيف وقيل: هو الضباب ولا بد في الحديث من حذف مضاف، تقديره أين كان عرش ربنا فحذف ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ وحكي عن بعضهم في العمى المقصور أنه قال هو كل أمر لا يدركه الفطن، وقال الأزهري: قال أبو عبيد إنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم وإلا فلا ندري كيف كان ذلك العماء قال الأزهري: فنحن نؤمن به ولا نكيف صفته (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» وفي رواية «فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض وكان عرشه على الماء بخمسين ألف سنة» قوله فرغ يريد إتمام خلق المقادير لا أنه كان مشغولاً ففرغ منه لأن الله سبحانه وتعالى لا يشغله شأن عن شأن فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ليبلوكم﴾ يعني ليختبركم وهو أعلم بكم منكم ﴿أيكم أحسن عملاً﴾ يعني بطاعة الله وأورع عن محارم الله ﴿ولئن قلت﴾ يعني ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكفار من قومك ﴿إنكم مبعوثون من بعد الموت﴾ يعني للحساب والجزاء ﴿ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ يعنون القرآن.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ يعني إلى أجل محدود وأصل الأمة في اللغة الجماعة من الناس فكأنه قال سبحانه وتعالى إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى ﴿ليقولن ما يحبسه﴾ يعني: أي شيء يحبس العذاب وإنما يقولون ذلك استعجالاً بالعذاب واستهزاء يعنون أنه ليس بشيء قال الله عز وجل: ﴿ألا يوم يأتيهم﴾ يعني العذاب ﴿ليس مصروفاً عنهم﴾ أي لا يصرفه عنهم شيء ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ يعني ونزل بهم وبال استهزائهم.

فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح، فجعل الماء على متنها ثم وضع العرش على الماء. وقال ضمرة: إن الله تعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السمٰوات والأرض، وخلق القلم فكتب به ما هو خالق وما هو كائن من خلقه، ثم إن ذلك الكتاب سبّح الله ومجّده ألف عام قبل أن يخلق شيئاً من خلقه. ﴿ لِيَبْلُوكُمْ ﴾، ليختبركم وهو أعلم، ﴿ أيكم أحسنُ عملاً ﴾، عمل بطاعة الله وأورع عن محارم الله تعالى. ﴿ ولَئِنْ قلتَ ﴾، يا محمد، ﴿ إنّكم مبعوثون من بعد الموتِ لَيَقُولَنَّ الذين كفرُوا إنْ هذا إلاّ سحرٌ مبين ﴾، يعنون القرآن. وقرأ حمزة والكسائي: « ساحر » يعنون محمداً ﷺ.

﴿ ولئِنْ أخَّرْنا عنهمُ العذاب إلى أُمّةٍ معدودةٍ ﴾، إلى أجل محدود، وأصل الأُمة الجماعة، فكأنه قال: إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى ﴿ لَيَقُولُنّ ما يَحْبِسُه ﴾، أي: أيُّ شيء يحبسه؟ يقولونه استعجالاً للعذاب واستهزاءً،

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة﴾ يعني: رخاء وسعة في الرزق والعيش وبسطنا عليه من الدنيا ﴿ثم نزعناها منه﴾ يعني سلبناه ذلك كله وأصابته المصائب فاجتاحته وذهبت به ﴿إنه ليؤوس كفور﴾ يعني يظل قانطاً من رحمة الله آيساً من كل خير كفور أي جحود لنعمتنا عليه أولاً قليل الشكر لربه قال بعضهم: يا ابن آدم إذا كانت بك نعمة من الله من أمن وسعة وعافية فاشكرها ولا تجحدها فإن نزعت عنك فينبغي لك أن تصبر ولا تيأس من رحمة الله فإنه العواد على عباده بالخير وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾ يعني ولئن نحن أنعمنا على الإنسان وبسطنا عليه من العيش ﴿ليقولن﴾ يعني الذي أصابه الخير والسعة ﴿ذهب السيئات عني﴾ يعني ذهب الشدائد والعسر والضيق وإنما قال ذلك غرة بالله عز وجل وجرأة عليه لأنه لم يضف الأشياء كلها إلى الله وإنما أضافها إلى العوائد فلهذا ذمه الله تعالى فقال ﴿إنه لفرح فخور﴾ أي إنه أشر بطر والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المراد والمشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب وذلك منهي عنه ثم استثنى فقال تبارك وتعالى: ﴿إلا الذين صبروا، وعملوا الصالحات﴾ قال الفراء: هذا استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فإنهم ليسوا كذلك فإنهم إن نالتهم شدة صبروا وإن نالتهم نعمة شكروا عليها ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿لهم مغفرة﴾ يعني لذنوبهم ﴿وأجر كبير﴾ يعني الجنة.

قوله عز وجل: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ الخطاب للنبي ﷺ يقول الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ فلعلك يا محمد تارك بعض ما يوحى إليك ربك أن تبلغه إلى من أمرك أن تبلغ ذلك إليه ﴿وضائق به صدرك﴾ يعني ويضيق صدرك بما يوحى إليك فلا تبلغه إياهم وذلك أن كفار مكة قالوا ائت بقرآن غير هذا ليس فيه سب آلهتنا فهم النبي ﷺ أن يترك ذكر آلهتهم ظاهراً فأنزل الله عز وجل فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك يعني من ذكر آلهتهم هذا ما ذكره المفسرون في معنى هذه الآية وأجمع المسلمون على أنه ﷺ فيما كان طريقه البلاغ فإنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منه بخلاف ما هو به لا خطأ ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً وأنه ﷺ بلغ جميع ما أنزل الله عليه إلى أمته ولم يكتم منه شيئاً وأجمعوا على أنه لا يجوز على رسول الله ﷺ خيانة في الوحي والإنذار ولا يترك بعض ما أوحي إليه لقول أحد لأن تجويز ذلك يؤدي إلى الشك في أداء الشرائع والتكاليف لأن المقصود من إرسال الرسول التبليغ إلى من أرسل إليه فإذا لم يحصل ذلك فقد فاتت فائدة الرسالة والنبي ﷺ معصوم من ذلك كله وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد بقوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك شيئاً آخر سوى ما ذكره المفسرون.

يعنون أنه ليس بشيء. قال الله تعالى: ﴿ ألاَ يومَ يأتيهم ﴾، يعني: العذاب، ﴿ ليسَ مصروفاً عنهم ﴾، لا يكون مصروفاً عنهم، ﴿ وحَاقَ بهم ﴾، نزل بهم، ﴿ ما كانُوا به يستهزؤون ﴾، أي: وبال استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿ ولَئِنْ أذقْنا الإنسان منّا رحمةً ﴾، نعمة وسعة، ﴿ ثمّ نزعنَاها منه ﴾، أي: سلبناها منه، ﴿ إنه لَيَئُوسٌ ﴾، قنوط في الشدة، ﴿ كفورٌ ﴾ النعمة.

﴿ ولئن أذقْناه نعماءَ بعد ضرّاءَ مَسّتْهُ ﴾، بعد بلاء أصابه، ﴿ لَيَقُولَنَّ ذهبَ السيئاتُ عنّي ﴾، زالت الشدائد عنّي، ﴿ إنه لَفَرِحٌ فخورٌ ﴾، أشر بطر، والفرح لذّة في القلب بنيل المشتهى والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب وذلك منهيٌّ عنه.

﴿ إلاّ الذين صبرُوا ﴾، قال الفرّاء: هذا استثناء منقطع معناه: لكنّ الذين صبرُوا ﴿ وعملوا الصالحات ﴾، فإنهم إن نالتهم شدّة صبروا وإن نالوا نعمة شكروا، ﴿ أولئك لهم مغفرةٌ ﴾، لذنوبهم، ﴿ وأجرٌ كبير ﴾، وهو الجنة.

وللعلماء في ذلك أجوبة:

أحدها: قال ابن الأنباري: قد علم الله سبحانه وتعالى أن النبي ﷺ لا يترك شيئاً مما يوحى إليه إشفاقاً من موجدة أحد وغضبه ولكن الله تعالى أكد على رسول الله ﷺ في متابعة الإبلاغ من الله سبحانه وتعالى كما قال: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية.

الثاني: أن هذا من حثه سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ وتحريضه على أداء ما أنزله إليه والله سبحانه وتعالى من وراء ذلك في عصمته مما يخافه ويخشاه.

الثالث: أن الكفار كانوا يستهزئون بالقرآن ويضحكون منه ويتهاونون به وكان رسول الله ﷺ يضيق صدره لذلك وأن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويستهزئون به فأمره الله سبحانه وتعالى بتبليغ ما أوحي إليه وأن لا يلتفت إلى استهزائهم وأن تحمل هذا الضرر أهون من كتم شيء من الوحي، والمقصود من هذا الكلام التنبيه على هذه الدقيقة لأن الإنسان إذا علم أن كل واحد من طرفي الفعل والترك مشتمل على ضرر عظيم ثم علم أن الضرر في باب الترك أعظم سهل عليه الإقدام على الفعل، وقيل: إن الله سبحانه وتعالى مع علمه بأن رسول الله ﷺ لا يترك شيئاً من الوحي هيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة باستهزائهم وردهم إلى قبول قوله بقوله: ﴿فعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم مخافة ردهم واستهزائهم به وضائق به صدرك أي بأن تتلوه عليهم ﴿أن يقولوا﴾ يعني مخافة أن يقولوا ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾ يعني يستغني به وينفقه ﴿أو جاء معه ملك﴾ يعني يشهد بصدقه وقائل هذه المقالة هو عبد الله بن أمية المخزومي.

والمعنى أنهم قالوا لرسول الله ﷺ إن كانت صادقاً في قولك بأنك رسول الله الذي تصفه بالقدرة على كل شيء وأنت عزيز عنده مع أنك فقير فهلا أنزل عليك ما تستغني به أنت وأصحابك وهل أنزل عليك ملكاً يشهد لك بالرسالة فتزول الشبهة في أمرك فأخبر الله عز وجل أنه ﷺ نذير بقوله عز وجل: ﴿إنما أنت نذير﴾ تنذر بالعقاب لمن خالفك وعصى أمرك وتبشر بالثواب لمن أطاعك وآمن بك وصدقك ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى حافظ يحفظ أقوالهم وأعمالهم فيجازيهم عليها يوم القيامة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿أم يقولون افتراه﴾ يعني بل يقول كفار مكة اختلقه يعني ما أوحي إليه من القرآن ﴿قل﴾

﴿ فلعلّكَ ﴾، يا محمد، ﴿ تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليك ﴾، فلا تبلغه إياهم. وذلك أن كفّار مكّة لمّا قالوا: ﴿ ائتِ بقرآن غير هذا ﴾ [يونس: ١٥] ليس فيه سبّ آلهتنا همَّ النبيُّ ﷺ أن يدعَ آلهتَهم ظاهراً، فأنزل الله تعالى: ﴿ فلعلّك تاركٌ بعض ما يُوحَى إليك ﴾ يعني: سبّ الآلهة، ﴿ وضائقٌ بهِ صَدْرُك ﴾، أي: فلعلّك يضيق صدرك ﴿ أنْ يقولوا ﴾، أي: لأن يقولوا، ﴿ لولا أُنزلَ عليه كَنْزٌ ﴾ ينفقه ﴿ أو جاءَ معه مَلَكٌ ﴾، يصدقه، قاله عبد الله بن أميّة المخزومي. قال الله تعالى: ﴿ إنّما أنتَ نذيرٌ ﴾ ليس عليك إلّا البلاغ، ﴿ واللّهُ على كلِّ شيءٍ وكيلٌ ﴾، حافظ.

﴿ أم يقولون افتراه ﴾، بل يقولون اختلقه، ﴿ قلْ فأتُوا بعشرِ سُوَرٍ مثلِهِ مُفترياتٍ ﴾، فإن قيلَ: قد قال في

أي قل لهم يا محمد ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ لما قالوا له افتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسك وليس هو من عند الله تحداهم وأرخى لهم العنان وفاوضهم على مثل دعواهم فقال ﷺ هبوا أني اختلقته من عند نفسي ولم يوح إلي شيء وأن الأمر كما قلتم وأنتم عرب مثلي من أهل الفصاحة وفرسان البلاغة وأصحاب اللسان فأتوا أنتم بكلام مثل هذا الكلام الذي جئتكم به مختلق من عند أنفسكم فإنكم تقدرون على مثل ما أقدر عليه من الكلام فلهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ في مقابلة قولهم افتراه.

فإن قلت قد تحداهم بأن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك وعجزوا عنه فكيف قالوا فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ومن عجز عن سورة واحدة فهو عن العشرة أعجز.

قلت: قد قال بعضهم إن سورة هود نزلت قبل سورة يونس، وأنه تحداهم أولاً بعشر سور فلما عجزوا تحداهم بسورة يونس وأنكر المبرد هذا القول وقال: إن سورة يونس نزلت أولاً، قال: ومعنى قوله في سورة يونس فأتوا بسورة مثله يعني مثله في الإخبار عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد وفي قوله في سورة هود فأتوا بعشر سور مثله يعني في مجرد الفصاحة والبلاغة من غير خبر عن غيب ولا ذكر حكم ولا وعد ولا وعيد فلما تحداهم بهذا الكلام أمره بأن يقول لهم ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ حتى يعينوكم على ذلك ﴿إن كنتم صادقين﴾ يعني في قولكم إنه مفترى ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ اعلم أنه لما اشتملت الآية المتقدمة على أمرين وخطابين:

أحدهما: أمر وخطاب للنبي ﷺ وهو قوله سبحانه وتعالى قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات. **والثاني**: أمر وخطاب للكفار وهو قوله تعالى وادعوا من استطعتم من دون الله ثم أتبعه بقوله تبارك وتعالى فإن لم يستجيبوا لكم احتمل أن يكون المراد أن الكفار لم يستجيبوا في المعارضة لعجزهم عنها واحتمل أن يكون المراد أن من يدعون من دون الله لم يستجيبوا للكفار في المعارضة فلهذا السبب اختلف المفسرون في معنى الآية على قولين أحدهما أنه خطاب للنبي ﷺ والمؤمنين وذلك أن النبي ﷺ والمؤمنين معه كانوا يتحدون الكفار بالمعارضة ليتبين عجزهم فلما عجزوا عن المعارضة قال الله سبحانه وتعالى لنبيه والمؤمنين فإن لم يستجيبوا لكم فيما دعوتموهم إليه من المعارضة وعجزوا عنه ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ يعني فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه وازدادوا يقيناً وثباتاً لأنهم كانوا عالمين بأنه منزل من عند الله، وقيل: الخطاب في قوله فإن لم يستجيبوا لكم للنبي ﷺ وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له ﷺ.

القول الثاني: أن قوله سبحانه وتعالى فإن لم يستجيبوا لكم خطاب مع الكفار وذلك أنه سبحانه وتعالى لما قال في الآية المتقدمة وادعوا من استطعتم من دون الله قال الله عز وجل في هذه الآية فإن لم يستجيبوا لكم أيها الكفار ولم

سورة يونس [٣٨]: ﴿ فأتوا بسورةٍ مثلِهِ ﴾، وقد عجزوا عنه فكيف قال: ﴿ فأتوا بعشرِ سورٍ ﴾، فهو كرجل يقول لآخر: أعطني درهماً فيعجز، فيقول: أعطني درهماً فيعجز، فيقول: أعطني عشرة دراهم؟ الجواب: قد قيل: سورة هود نزلت أولاً، وأنكر المبرّد هذا، وقال: بل نزلت سورة يونس أولاً، وقال: معنى قوله في سورة يونس [٣٨]: ﴿ فأتوا بسورةٍ مثلِهِ ﴾، أي: مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، فعجزوا فقال لهم في سورة هود: إن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور مثله من غير خبر ولا وعد ولا وعيد، وإنما هي مجرد البلاغة، ﴿ وادْعُوا مَنِ استطعتُم ﴾، واستعينوا بمَن استطعتم، ﴿ مِنْ دُونِ اللّٰه إنْ كنتُم صادقين ﴾.

﴿ فإن لم يستجيبُوا لكم ﴾، يا أصحاب محمد. وقيل: لفظه جمع والمراد به الرسول ﷺ وحده.

يعينوكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأنه ليس مفترى على الله بل هو أنزله على رسول الله ﷺ ﴿وأن لا إله إلا هو﴾ يعني الذي أنزل القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو لا من تدعون من دونه ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ فيه معنى الأمر أي أسلموا وأخلصوا لله العبادة وإن حملنا معنى الآية على أنه خطاب مع المؤمنين كان معنى قوله فهل أنتم مسلمون الترغيب أي دوموا على ما أنتم عليه من الإسلام.

قوله عز وجل: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ يعني بعمله الذي يعمله من أعمال البر نزلت في كل من عمل عملاً يبتغي به غير الله عز وجل: ﴿نوف إليهم أعمالهم فيها﴾ يعني أجور أعمالهم التي عملوها لطلب الدنيا وذلك أن الله سبحانه وتعالى يوسع عليهم في الرزق ويدفع عنهم المكاره في الدنيا ونحو ذلك ﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ يعني أنهم لا ينقصون من أجور أعمالهم التي عملوها لطلب الدنيا بل يعطون أجور أعمالهم كاملة موفرة.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾

﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها﴾ يعني وبطل ما عملوا في الدنيا من أعمال البر ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ لأنه لغير الله واختلف المفسرون في المعنى بهذه الآية فروى قتادة عن أنس أنها في اليهود والنصارى وعن الحسن مثله، وقال الضحاك: من عمل عملاً صالحاً في غير تقوى يعني من أهل الشرك أعطي على ذلك أجراً في الدنيا وهو أن يصل رحماً أو يعطي سائلاً أو يرحم مضطراً أو نحو هذا من أعمال البر فيجعل الله له ثواب عمله في الدنيا يوسع عليه في المعيشة والرزق ويقر عينه فيما خوله ويدفع عنه المكاره في الدنيا وليس له في الآخرة نصيب ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار الآية وهذه حالة الكافر في الآخرة وقيل نزلت في المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع رسول الله ﷺ الغنائم لأنهم كانوا لا يرجون ثواب الآخرة وقيل إن حمل الآية على العموم أولى فيندرج الكافر والمنافق الذي هذه صفته والمؤمن الذي يأتي

﴿ فاعلموا ﴾، قيل: هذا خطاب مع المؤمنين. وقيل: مع المشركين، ﴿ أنما أُنزِلَ بعلمِ الله ﴾، يعني: القرآن. وقيل: أنزله وفيه علمه، ﴿ وأنْ لا إله إلاّ هو ﴾ أي: فاعلموا أن لا إله إلاّ هو، ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾، لفظه استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا.

قوله تعالى: ﴿ مَن كانَ يُريدُ الحياةَ الدنيا ﴾، أي: مَن كان يريد بعلمه الحياة الدنيا، ﴿ وزينَتها ﴾، نزلت في كل مَن عمل عملاً يريد به غير الله عزّ وجلّ ﴿ نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها ﴾، أي: نُوَفِّ لهم أُجور أعمالهم في الدنيا بسِعَة الرزق ودفع المكاره وما أشبهها. ﴿ وهم فيها لا يُبْخَسُون ﴾، أي: في الدنيا لا ينقص حظهم.

﴿ أولئك الذين ليسَ لهم في الآخرةِ إلاّ النارُ وحَبِطَ ما صنَعُوا فيها ﴾، أي: في الدنيا، ﴿ وباطلٌ ﴾، مَاحِقٌ، ﴿ ما كانوا يَعْمَلُونَ ﴾، اختلفوا في المعنى بهذه الآية، فقال مجاهد: أهل الرياء. وروينا أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ»، قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء». وقيل: هذا في الكفّار، وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وإرادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا ويُثاب عليها في الآخرة. وروينا عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله عزّ وجلّ لا يظلم المؤمنَ حسنةً، يُثاب عليها الرزق

بالطاعات وأعمال البر على وجه الرياء والسمعة قال مجاهد في هذه الآية هم أهل الرياء وهذا القول مشكل لأن قوله سبحانه وتعالى أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار لا يليق بحال المؤمن إلا إذا قلنا إن تلك الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة لما كانت لغير الله استحق فاعلها الوعيد الشديد وهو عذاب النار ويدل على هذا ما روي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله تبارك وتعالى: «**﴿أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**» أخرجه مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار» أخرجه الترمذي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعني ريحها أخرجه أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «تعوذوا بالله من جب الحزن قالوا يا رسول الله وما جب الحزن قال واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم ألف مرة قيل يا رسول الله من يدخله قال القراء المراؤون بأعمالهم» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب قال البغوي وروينا أن النبي ﷺ قال «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا يا رسول الله ﷺ وما الشرك الأصغر قال الرياء» أخرجه بغير سند والرياء هو أن يظهر الإنسان الأعمال الصالحة ليحمده الناس عليها أو ليعتقدوا فيه الصلاح أو ليقصدوه بالعطاء فهذا العمل هو الذي لغير الله نعوذ بالله من الخذلان قال البغوي وقيل هذا في الكفار يعني قوله من كان يريد الحياة وزينتها أما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة وإرادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وروينا عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيراً» أخرجه البغوي بغير سند.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾** لما ذكر الله سبحانه وتعالى: في الآية المتقدمة الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ذكر في هذه الآية من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة فقال سبحانه وتعالى أفمن كان على بينة من ربه أي كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم في الآخرة إلا النار وإنما حذف هذا الجواب لظهوره ودلالة الكلام عليه وقيل معناه أفمن كان على بينة من ربه وهو النبي ﷺ وأصحابه كمن هو في ضلالة وكفر والمراد بالبينة الدين الذي أمر الله به نبيه ﷺ وقيل المراد بالبينة اليقين يعني أنه على يقين من ربه أنه على الحق **﴿ويتلوه شاهد منه﴾** يعني ويتبعه من يشهد له بصدقه واختلفوا في الشاهد من هو، فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر المفسرين: أنه جبريل عليه السلام يريد أن جبريل يتبع النبي ﷺ ويؤيده ويسدده ويقويه وقال الحسن وقتادة هو لسان النبي ﷺ وروي عن محمد بن الحنفية قال قلت لأبي يعني علي بن أبي طالب رضي الله تعالى: عنه أنت التالي؟ قال: وما تعني بالتالي؟ قلت: قوله سبحانه وتعالى ويتلوه شاهد منه قال وددت أني

في الدنيا ويُجزى به في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكنْ له حسنة يُعطى بها خيراً».

قوله تعالى: **﴿ أفمنْ كانَ على بيّنةٍ ﴾**، بيان، **﴿ من ربِّه ﴾**، قيل: في الآية حذف ومعناه: أفمَن كان على بيّنة من ربّه كمَن يريد الحياة الدنيا وزينتها أو مَن كان على بيّنة من ربّه كمَن هو في الضلالة والجهالة، والمراد بالذي هو على بيّنة من ربّه النبيّ ﷺ، **﴿ ويتْلوهُ شاهدٌ منه ﴾**، أي: يتبعه مَن يشهد له بصدقه. واختلفوا في هذا الشاهد، فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر أهل التفسير: إنه جبريل عليه السلام. وقال الحسن وقتادة: هو لسان رسول الله ﷺ. وروى ابن جريج عن مجاهد قال: هو ملك يحفظه ويسدده. وقال الحسين بن الفضل: هو القرآن ونظمه وإعجازه. وقيل: هو عليّ بـن أبي طالب رضي الله عنه. قال علي: ما من

هو ولكنه لسان رسول الله ﷺ ووجه هذا القول إن اللسان لما كان يعرف عما في الجنان ويظهره جعل كالشاهد له لأن اللسان هو آلة الفصل والبيان وبه يتلى القرآن وقال مجاهد الشاهد هو ملك يحفظ النبي ﷺ ويسدده وقال الحسين بن الفضل: الشاهد هو القرآن لأن إعجازه وبلاغته وحسن نظامه يشهد للنبي ﷺ بنبوته ولأنه أعظم معجزاته الباقية على طول الدهر، وقال الحسين بن علي وابن زيد: الشاهد منه هو محمد ﷺ ووجه هذا القول أن من نظر إلى النبي ﷺ بعين العقل والبصيرة علم أنه ليس بكذاب ولا ساحر ولا كاهن ولا مجنون، وقال جابر بن عبد الله قال علي بن أبي طالب: ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه الآية والآيتان فقال له رجل وأنت أي آية نزلت فيك فقال على ما تقرأ الآية التي في هود ويتلوه شاهد منه فعلى هذا القول يكون الشاهد علي بن أبي طالب وقوله يعني من النبي ﷺ والمراد تشريف هذا الشاهد وهو علي لاتصاله بالنبي ﷺ وقيل يتلوه شاهد منه يعني الإنجيل وهو اختيار الفراء والمعنى أن الإنجيل يتلو القرآن في التصديق بنبوة محمد ﷺ والأمر بالإيمان به وإن كان قد نزل قبل القرآن.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ومن قبله﴾ يعني ومن قبل نزول القرآن وإرسال محمد ﷺ ﴿كتاب موسى﴾ يعني التوراة ﴿إماماً ورحمة﴾ يعني أنه كان إماماً لهم يرجعون إليه في أمور الدين والأحكام والشرائع وكونه رحمة لأنه الهادي من الضلال وذلك سبب حصول الرحمة وقوله تعالى: ﴿أولئك يؤمنون به﴾ يعني أن الذين وصفهم الله بأنهم على بينة من ربهم هم المشار إليهم بقوله أولئك يؤمنون به يعني بمحمد ﷺ وقيل أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ومن يكفر به﴾ يعني بمحمد ﷺ ﴿من الأحزاب﴾ يعني من جميع الكفار وأصحاب الأديان المختلفة فتدخل فيه اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وغيرهم والأحزاب الفرق الذين تحزبوا وتجمعوا على مخالفة الأنبياء ﴿فالنار موعده﴾ يعني في الآخرة روى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» قال سعيد بن جبير: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله عز وجل حتى بلغني هذا الحديث لا يسمع بي أحد من هذه الأمة الحديث، قال سعيد: فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ قال فالأحزاب أهل الملل كلها ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك﴾ فيه قولان أحدهما أن معناه فلا تك في شك من صحة هذا الدين ومن كون القرآن نازلاً من عند الله فعلى هذا القول يكون متعلقاً بما قبله من قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه﴾ والقول الثاني: إنه راجع إلى قوله ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ يعني فلا تك في شك من أن النار موعد من كفر من الأحزاب والخطاب في قوله ﴿فلا تك في مرية﴾ للنبي ﷺ والمراد به غيره لأن النبي ﷺ لم يشك قط ويعضد هذا القول سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولكن

رجل من قريش إلّا وقد نزلت فيه آية من القرآن، فقال له رجل: وأنت أيُّ شيءٍ نزل فيك؟ قال: ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾. وقيل: شاهد منه هو الإنجيل. ﴿ ومِن قبلِهِ ﴾، أي: ومن قبل مجيء محمد ﷺ. وقيل: من قبل نزول القرآن. ﴿ كتابُ موسى ﴾، أي: كان كتاب موسى، ﴿ إماماً ورحمةً ﴾، لمَن اتّبعها، يعني التوراة وهي مصدِّقة للقرآن شاهدة للنبي ﷺ، ﴿ أولئكَ يُؤمنُونَ بهِ ﴾، يعني أصحاب محمد ﷺ. وقيل: أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب، ﴿ ومَن يكفرْ بهِ ﴾ أي: بمحمد ﷺ. وقيل: بالقرآن، ﴿ مِنَ الأحزابِ ﴾، من الكفّار من أهل المِلَل كلها، ﴿ فالنارُ موعِدُه ﴾، أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزّاق أنا معمر عن همّام بن منبّه ثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم يموتُ ولم يؤمنْ بالذي

أكثر الناس لا يؤمنون﴾ يعني لا يصدقون بما أوحينا إليك أو من آن موعد الكفار النار.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله عز وجل: **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾** يعني أي الناس أشد تعدياً ممن اختلق على الله كذباً فكذب عليه وزعم أن له شريكاً أو ولداً وفي الآية دليل على أن الكذب على الله من أعظم أنواع الظلم لأن قوله تعالى: **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾** ورد في معرض المبالغة **﴿أولئك﴾** يعني المفترين على الكذب **﴿يعرضون على ربهم﴾** يعني يوم القيامة فيسألهم عن أعمالهم في الدنيا **﴿ويقول الأشهاد﴾** يعني الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم، قاله مجاهد وقال ابن عباس: هم الأنبياء والرسل وبه قال الضحاك وقال قتادة: الأشهاد الخلق كلهم **﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾** يعني: في الدنيا وهذه الفضيحة تكون في الآخرة لكل من كذب على الله **﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾** يعني يقول الله ذلك يوم القيامة فيلعنهم ويطردهم من رحمته (ق). عن صفوان بن محرز المازني قال: بينما ابن عمر يطوف بالبيت إذ عرض له رجل فقال يا أبا عبد الرحمن أخبرني ما سمعت من رسول الله ﷺ في النجوى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا وكذا فيقول أعرف رب أعرف مرتين فيقول سترتها عليه في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته» وفي رواية «ثم تطوى صحيفة حسناته» وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد وفي رواية «فينادى بهم على رؤوس الأشهاد من الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» قوله سبحانه وتعالى: **﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾** هذه الآية متصلة بما قبلها والمعنى ألا لعنة الله على الظالمين ثم وصفهم فقال الذين يصدون عن سبيل الله يعني يمنعون الناس من الدخول في دين الله الذي هو دين الإسلام **﴿ويبغونها عوجاً﴾** يعني ويطلبون إلقاء الشبهات في قلوب الناس وتعويج الدلائل الدالة على صحة دين الإسلام **﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾** يعني وهم مع صدهم عن سبيل الله يجحدون البعث بعد الموت وينكرونه **﴿أولئك﴾** يعني من هذه صفتهم **﴿لم يكونوا معجزين في الأرض﴾** قال ابن

أُرسلتُ به إلّا كان من أصحاب النار». قوله تعالى: **﴿ فلا تكُ في مريةٍ منه ﴾**، أي: في شكٍّ منه، **﴿ إنّه الحقُّ مِن ربِّك ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يؤمِنُون ﴾**.

﴿ ومَنْ أظلمُ ممّنِ افترى على الله كذباً ﴾، فزعم أن له ولداً أو شريكاً، أي: لا أحد أظلم منه، **﴿ أولئك ﴾**، يعني: الكاذبين والمكذبين، **﴿ يُعرَضُونَ على ربِّهم ﴾**، فيسألهم عن أعمالهم، **﴿ ويقولُ الأشهاد ﴾**، يعني: الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم، قاله مجاهد. وعن ابن عباس رضي الله عنهما. إنهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو قول الضحاك. وقال قتادة: الخلائق كلهم. وروينا عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «إنّ الله يُدني المؤمن فيضع عليه كَنَفَهُ ويستره، فيقول: أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرفُ ذنبَ كذا؟ فيقول: نعم أيْ ربِّ، حتى إذا قرّرَهُ بذنوبهِ ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتُها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطَى كتابَ حسناته». وأما الكفّار والمنافقون فينادي بهم على رؤوس الخلائق، **﴿ هؤلاءِ الذينَ كَذَبُوا على ربِّهم ألا لعنةُ اللهِ على الظالمين ﴾**.

عباس يعني سابقين وقيل هاربين وقيل فائتين في الأرض والمعنى أنهم لا يعجزون الله إذا أرادهم بالعذاب والانتقام منهم ولكنهم في قبضته وملكه لا يقدرون على الامتناع منه إذا طلبهم ﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ يعني وما كان لهؤلاء المشركين من أنصار يمنعونهم من دون الله إذا أراد بهم سوءاً وعذاباً ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ يعني في الآخرة يزاد عذابهم بسبب صدهم عن سبيل الله وإنكارهم البعث بعد الموت ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ قال قتادة صموا عن سماع الحق فلا يسمعون خيراً فينتفعون به ولا يبصرون خيراً فيأخذون به.

وقال ابن عباس أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أحال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فإنه قال ما كانوا يستطيعون السمع وهي طاعته وما كانوا يبصرون وأما في الآخرة فإنه قال لا يستطيعون خاشعة أبصارهم.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾

﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ يعني أن هؤلاء الذين هذه صفتهم هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ يعني وبطل كذبهم وإفكهم وفريتهم على الله وادعاؤهم أن الملائكة والأصنام تشفع لهم ﴿لا جرم﴾ يعني حقاً وقال الفراء لا محالة ﴿أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ لأنهم باعوا منازلهم في الجنة واشتروا عوضها منازل في النار وهذا هو الخسران المبين.

قوله عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم﴾ لما ذكر الله عز وجل أحوال الكفار في

﴿ الذين يصدُّونَ عَن سبيلِ الله ﴾، يمنعون عن دين الله، ﴿ ويبغونها عِوَجاً وهم بالآخرة هم كافرون ﴾.

﴿ أولئكَ لم يكونُوا معجِزين ﴾، قال ابن عباس: سابقين. قال قتادة: هاربين. وقال مقاتل: فائتين. ﴿ في الأرض وما كان لهم مِن دُونِ الله منْ أولياءَ ﴾، يعني أنصاراً وأعواناً يحفظونهم من عذابنا، ﴿ يُضاعفُ لهمُ العذابُ ﴾، أي: يُزاد في عذابهم. قيل: يضاعف العذاب عليهم لإضلالهم الغير واقتداء الأتباع بهم. قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب: « يُضعّف » مشدّدة العين بغير ألف. وقرأ الباقون: «يضـاعف» بالألف مخفّفة العين. ﴿ ما كانُوا يستطيعُون السمعَ وما كانُوا يُبصِرُون ﴾، الهُدَى. قال قتادة: صُمٌّ عن سماع الحق فلا يسمعونه، وما كانوا يبصرون الهُدَى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخبر الله عزّ وجلّ أنه حالَ بين أهل الشركِ وبين طاعته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا قال: ما كانوا يستطيعون السمعَ وهو طاعتُه، وفي الآخرة قال: فلا يستطيعون، خاشعة أبصارهم.

﴿ أولئكَ الذينَ خَسِرُوا أنفسَهم ﴾، غَبَنُوا أنفسهم، ﴿ وضلَّ عنهم مَّا كانوا يَفْتَرُون ﴾، يزعمون من شفاعة الملائكة والأصنام.

﴿ لا جَرَمَ ﴾، أي: حقاً. وقيل: بلى. وقال الفرّاء: لا محالة، ﴿ أنهم في الآخرةِ هُمُ الأخْسَرُون ﴾، يعني: من غيرهم، وإن كان الكل في الخسار.

الدنيا وخسرانهم في الآخرة أتبعه بذكر أحوال المؤمنين في الدنيا وربحهم في الآخرة والإخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب ولفظ الإخبات يتعدى بإلى وباللام فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه وإذا قلت أخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إشارة إلى جميع أعمال الجوارح وقوله وأخبتوا إشارة إلى أعمال القلوب وهي الخضوع والخشوع لله عز وجل يعني أن هذه الأعمال الصالحة لا تنفع في الآخرة إلا بحصول أعمال القلب وهي الخشوع والخضوع فإذا فسرنا الإخبات بالطمأنينة كان معنى الكلام يأتون بالأعمال الصالحة مطمئنين إلى صدق وعد الله بالثواب والجزاء على تلك الأعمال أو يكونون مطمئنين إلى ذكره سبحانه وتعالى وإذا فسرنا الإخبات بالخشوع والخضوع كان معناه أنهم يأتون بالأعمال الصالحة خائفين وجلين أن لا تكون مقبولة وهو الخشوع والخضوع ﴿أولئك﴾ يعني الذين هذه صفتهم ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أخبر عن حالهم في الآخرة بأنهم من أهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الهدى والحق ومن الصمم عن سماعه وذكر أحوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ضرب لهم مثلاً فقال تبارك وتعالى مثل الفريقين يعني فريق المؤمنين وفريق الكافرين كالأعمى وهو الذي لا يهتدي لرشده والأصم وهو الذي لا يسمع شيئاً البتة، والبصير وهو الذي يبصر الأشياء على ماهيتها، والسميع وهو الذي يسمع الأصوات ويجيب الداعي فمثل المؤمنين كمثل الذي يسمع ويبصر وهو الكامل في نفسه ومثل الكافر كمثل الذي لا يسمع ولا يبصر وهو الناقص في نفسه ﴿هل يستويان مثلاً﴾ قال الفراء لم يقل هل يستوون لأن الأعمى والأصم في حيز كأنهما واحد وهما من وصف الكافر والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد وهما من وصف المؤمن ﴿أفلا تذكرون﴾ يعني فتتعظون.

قوله عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين﴾ يعني أن نوحاً عليه السلام قال لقومه حين أرسله الله إليهم إني لكم أيها القوم نذير مبين يعني بين النذارة أخوف بالعقاب من خالف أمر الله وعبد غيره؛ وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ يعني مؤلم موجع قال ابن عباس: بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة فكان عمره ألفاً وخمسين سنة.

﴿ إنّ الذين آمنُوا وعملُوا الصالحاتِ وأَخْبَتُوا ﴾، قال ابن عباس: خافوا. وقال قتادة: أنابوا. وقال مجاهد: اطمأنوا. وقيل: خشعوا. وقوله: ﴿ إلى ربِّهم ﴾، أي: لربهم، ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾.

﴿ مثل الفريقين ﴾، المؤمن والكافر، ﴿ كالأعمى والأصمِّ والبصير والسميع هل يستوِيَانِ مثلاً ﴾، قال الفرّاء: لم يقل هل يستوون، لأن الأعمى والأصم في حيّز كأنهما واحد لأنهما من وصف الكافر، والبصير والسميع في حيّز كأنهما واحد لأنهما من وصف المؤمن، ﴿ أفلا تذكّرُون ﴾، أي: تتّعظون.

قوله تعالى: ﴿ ولقدْ أرْسَلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذيرٌ مبين ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب «إنـي» بفتح الهمزة أي: بأني، وقرأ الباقون بكسرها، أي: فقال إني، لأن في الإرسال معنى القول: إني لكم نذير مبين.

﴿ أنْ لا تعبُدُوا إلاّ اللّهَ إني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ أليم ﴾، أي: مؤلم. قال ابن عباس: بعث نوح بعد أربعين سنة ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان ستّين سنة، وكان عمره ألفاً وخمسين سنة. وقال مقاتل: بعث وهو ابن مائة سنة. وقيل: بُعث وهو ابن خمسين سنة. وقيل: بعث وهو ابن مائتين وخمسين

وقال مقاتل: بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ يعني الأشراف والرؤساء من قوم نوح ﴿ما نراك﴾ يا نوح ﴿إلا بشراً مثلنا﴾ يعني آدمياً مثلنا لا فضل لك علينا لأن التفاوت الحاصل بين آحاد البشر يمتنع اشتهاره إلى حيث يصير الواحد منهم واجب الطاعة على جميع العالم وإنما قالوا هذه المقالة وتمسكوا بهذه الشبهة جهلاً منهم لأن من حق الرسول أن يباشر الأمة بالدعوة إلى الله تعالى بإقامة الدليل والبرهان على ذلك ويظهر المعجزة الدالة على صدقه ولا يأتي ذلك إلا من آحاد البشر وهو من اختصه الله بكرامته وشرفه بنبوته وأرسله إلى عباده ثم قال سبحانه وتعالى إخباراً عن قوم نوح ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾ يعني سفلتنا والرذل الدون من كل شيء قيل هم الحاكة والأساكفة وأصحاب الصنائع الخسيسة وإنما قالوا ذلك جهلاً منهم أيضاً لأن الرفعة في الدين ومتابعة الرسول لا تكون بالشرف ولا بالمال والمناصب العالية بل للفقراء الخاملين وهم أتباع الرسل ولا يضرهم خسة صنائعهم إذا حسنت سيرتهم في الدين ﴿بادي الرأي﴾ يعني أنهم اتبعوك في أول الرأي من غير تثبت وتفكر في أمرك، ولو تفكروا ما اتبعوك.

وقيل: معناه ظاهر الرأي، يعني أنهم اتبعوك ظاهراً من غير أن تفكروا باطناً ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ يعني بالمال والشرف والجاه وهذا القول أيضاً جهل منهم لأن الفضيلة المعتبرة عند الله بالإيمان والطاعة لا بالشرف والرياسة ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ قيل الخطاب لنوح ومن آمن معه من قومه وقيل هو لنوح وحده فعلى هذا يكون الخطاب بلفظ الجمع للواحد على سبيل التعظيم ﴿قال﴾ يعني نوحاً ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ يعني

سنة، ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة قال الله تعالى: ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً ﴾ [العنكبوت: ١٤] أي: فلبث فيهم داعياً.

﴿ فقال الملأ الذينَ كفروا مِن قومهِ ﴾: والملأ هم الأشراف والرؤساء. ﴿ وما نَراكَ ﴾، يا نوح، ﴿ إلّا بشراً ﴾، آدمياً، ﴿ مِثْلَنا وما نَراكَ اتَّبعَكَ إلّا الذينَ هُمْ أراذِلُنا ﴾، سَفلتُنا، والرذل: الدون من كل شيء، والجمع: أرْذُل، ثم يجمع على أراذل، مثل كلب وأكلب وأكالب، وقال في سورة الشعراء [١١١]: ﴿ واتّبعك الأرْذَلُـون ﴾ يعني: السفلة. وقال عكرمة: الحاكة والأساكفة، ﴿ بادِيَ الرأيِ ﴾، قرأ أبو عمرو «بـادىء» بالهمز، أي: أول الرأي يريدون أنهم اتّبعوك في أول الرأي من غير رويّة وتفكّر، ولو تفكّروا لم يتّبعوك. وقرأ الآخرون بغير همز، أي ظاهر الرأي من قولهم: بدأ الشيء إذا ظهر معناه اتّبعوك ظاهراً من غير أن يتدبّروا ويتفكّروا باطناً. قال مجاهد: رأي العين، ﴿ وما نَرى لكُم علينا مِن فَضْلٍ بلْ نظنكم كاذبين ﴾.

﴿ قال ﴾، نوح، ﴿ يا قومِ أرأيْتُمْ إنْ كُنْتُ على بيّنةٍ ﴾، بيان، ﴿ مِن رَّبي وآتاني رحمةً ﴾، أي: هدى

على بيان ويقين من ربي بالذي أنذرتكم به ﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ يعني هدياً ومعرفة ونبوة ﴿فعميت عليكم﴾ يعني خفيت وألبست عليكم ﴿أنلزمكموها﴾ الهاء عائدة إلى الرحمة والمعنى أنلزمكم أيها القوم قبول الرحمة يعني أنا لا نقدر أن نلزمكم ذلك من عند أنفسنا ﴿وأنتم لها كارهون﴾ وهذا استفهام معناه الإنكار أي لا أقدر على ذلك والذي أقدر عليه أن أدعوكم إلى الله وليس لي أن أضطركم إلى ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبي ﷺ لألزمها قومه ولكنه لم يملك ذلك ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً﴾ يعني لا أسألكم ولا أطلب منكم على تبليغ الرسالة جعلاً ﴿إن أجري إلا على الله وما أنا بطادر الذين آمنوا﴾ وذلك أنهم طلبوا من نوح أن يطرد الذين آمنوا وهم الأرذلون في زعمهم فقال ما يجوز لي ذلك لأنهم يعتقدون ﴿إنهم ملاقو ربهم﴾ فلا أطردهم ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ يعني عظمة الله ووحدانيته وربوبيته وقيل معناه إنكم تجهلون أن هؤلاء المؤمنين خير منكم ﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾ يعني من يمنعني من عذاب الله إن طردتهم عني لأنهم مؤمنون مخلصون ﴿أفلا تذكرون﴾ يعني فتتعظون.

وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن
يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا
فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ
ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا
مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ هذا عطف على قوله لا أسألكم عليه مالاً والمعنى لا أسألكم عليه مالاً ولا أقول لكم عندي خزائن الله يعني التي لا يفنيها شيء فأدعوكم إلى اتباعي عليها لأعطيكم منها وقال ابن الأنباري الخزائن هنا بمعنى غيوب الله وما هو منطو عن الخلق وإنما وجب أن يكون هذا جواباً من نوح عليه السلام لهم لأنهم قالوا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وادعوا أن المؤمنين إنما اتبعوه في ظاهر ما يرى منهم وهم في الحقيقة غير متبعين له فقال مجيباً لهم ولا أقول لكم عندي خزائن الله التي لا يعلم منها ما ينطوي عليه عباده وما

ومعرفة، ﴿ مِنْ عنـده فعُمِّيَتْ عليكم ﴾، أي: خفيت والتبست عليكم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: «فعُمِّيـت» عليكم بضمّ العين وتشديد الميم، أي: شُبِّهت ولبست عليكم. ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوها ﴾، أي: أنلزمكم البيِّنة والرحمة، ﴿ وأنتم لها كارِهُون ﴾، لا تريدونها. قال قتادة: لو قدر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يُلزموا قومَهم لألزموا، ولكن لم يقدروا.

قوله: ﴿ ويا قومِ لا أسألُكُمْ عليهِ مالاً ﴾، أي: على الوحي وتبليغ الرسالة، كناية عن غير مذكور، ﴿ إنْ أجْرِي ﴾، ما ثوابي، ﴿ إلاّ على اللّهِ وما أنا بطاردِ الذينَ آمَنُوا ﴾، هذا دليل على أنهم طلبوا منه طرد المؤمنين، ﴿ إنهمْ مُلاقُوا ربِّهم ﴾، أي: صائرون إلى ربّهم في المعاد فيجزي من طردهم، ﴿ ولكنّي أراكم قوماً تجهلون ﴾.

﴿ ويا قومِ مَن ينصُرُني مِنَ اللّهِ ﴾، مَن يمنعني من عذاب الله، ﴿ إنْ طردتُهم أفلا تَذَكَّرون ﴾، تتّعظون.

﴿ ولا أقولُ لكم عندي خزائِنُ اللّهِ ﴾، فآتي منها ما تطلبون، ﴿ ولا أعلمُ الغيبَ ﴾، فأخبركم بما تريدون. وقيل: إنهم لمّا قالوا لِنُوح إن الذين آمنُوا بِكَ إنما اتّبعوك في ظاهر ما ترى منهم، قال نوح مُجيباً لهم: لا أقول لكم

يظهرونه إلا هو وإنما قيل للغيوب خزائن لغموضها عن الناس.واستتارها عنهم والقول الأول أولى ليحصل الفرق بين قوله ولا أقول لكم عندي خزائن الله وبين قوله ﴿ولا أعلم الغيب﴾ يعني ولا أدعي علم ما يغيب عني مما يسرونه في نفوسهم فسبيل قبول إيمانهم في الظاهر ولا يعلم ما في ضمائرهم إلا الله ﴿ولا أقول إني ملك﴾ وهذا جواب لقولهم ما نراك إلا بشراً مثلنا أي لا أدعي أني من الملائكة بل أنا بشر مثلكم أدعوكم إلى الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم.

(فصل)

استدل بعضهم بهذه الآية على تفضيل الملائكة على الأنبياء قال لأن نوحاً عليه السلام قال ولا أقول إني ملك لأن الإنسان إذا قال أنا لا أدعي كذا وكذا لا يحسن إلا إذا كان ذلك الشيء أشرف وأفضل من أحوال ذلك القائل فلما قال نوح عليه السلام هذه المقالة وجب أن يكون الملك أفضل منه والجواب أن نوحاً عليه السلام إنما قال هذه المقالة في مقابلة قولهم ما نراك إلا بشراً مثلنا لما كان في ظنهم أن الرسل لا يكونون من البشر إنما يكونون من الملائكة فأعلمهم أن هذا ظن باطل وأن الرسل إلى البشر إنما يكونون من البشر فلهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ولا أقول إني ملك﴾ ولم يرد أن درجة الملائكة أفضل من درجة الأنبياء والله أعلم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم﴾ يعني تحتقر وتستصغر أعينكم يعني المؤمنين وذلك لما قالوا إنهم أراذلنا من الرذالة وهي الخسة ﴿لن يؤتيهم الله خيراً﴾ يعني توفيقاً وهداية وإيماناً وأجراً ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ يعني من الخير والشر ﴿إني إذاً لمن الظالمين﴾ يعني إن طردتهم مكذباً لظاهرهم ومبطلاً لإيمانهم يعني أني إن فعلت هذا فأكون قد ظلمتهم وأنا لا أفعله فما أنا من الظالمين ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا﴾ يعني خاصمتنا ﴿فأكثرت جدالنا﴾ يعني خصومتنا ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ يعني من العذاب ﴿إن كنت من الصادقين﴾ يعني في دعواك أنك رسول الله إلينا ﴿قال إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾ يعني قال نوح لقومه حين استعجلوه بإنزال العذاب إن ذلك ليس إليّ إنما هو إلى الله ينزله متى شاء وعلى من يشاء إن أراد إنزال العذاب بكم ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ يعني وما أنتم بفائتين إن أراد الله نزول العذاب بكم ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم﴾ يعني ولا ينفعكم إنذاري وتحذيري إياكم عقوبته ونزول العذاب بكم ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ يعني يضلكم وقيل يهلككم وهذا معنى وليس بتفسير لأن الإغواء

عندي خزائن غيوب الله التي يعلم منها ما يضمر الناس، ولا أعلم الغيب فأعلم ما يسرّونه في نفوسهم، فسبيلي قبول ما ظهر من إيمانهم، ﴿ ولا أقولُ إنّي مَلَكٌ ﴾، هذا جواب قولهم: ﴿ وما نراكَ إلاّ بشراً مثلَنا ﴾. ﴿ ولا أقول للذينَ تزدري أعينُكم ﴾، أي: تحتقرهم وتستصغرهم أعينكم، يعني: المؤمنين، وذلك أنهم قالوا: هم أراذلنا، ﴿ لن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خيراً ﴾ أي: توفيقاً وإيماناً وأجراً، ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾، من الخير والشر منّي، ﴿ إني إذاً لَمِنَ الظالمين ﴾، لو قلتُ هذا.

﴿ قالوا يا نوحُ قدْ جادلْتَنا ﴾، خاصمتنا، ﴿ فأكثرتَ جدالَنا فأْتِنا بما تَعِدُنَا ﴾، من العذاب ﴿ إنْ كنتَ مِنَ الصادقين ﴾.

﴿ قال إنّما يأتيكم بهِ اللّهُ إنْ شاء ﴾، يعني: بالعذاب، ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾، بِفائِتِين.

﴿ ولا ينفعُكم نُصحي ﴾، أي نصيحتي، ﴿ إنْ أردتُ أنْ أنصحَ لكم إن كانَ اللّهُ يريد أنْ يُغْوِيكم ﴾، يضلّكم، ﴿ هو ربُّكم ﴾، له الحكم والأمر ﴿ وإليه تُرجَعُون ﴾، فيجزيكم بأعمالكم.

﴿ أمْ يقولُون افتراه ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: يعني نوحاً عليه السلام. وقال مقاتل: يعني

يؤدي إلى الهلاك ﴿هو ربكم﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى هو يملككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه ﴿وإليه ترجعون﴾ يعني في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي اختلقه وجاء به من عند نفسه والضمير يعود إلى الوحي الذي جاءهم به ﴿قل إن افتريته﴾ أي اختلقته ﴿فعلي إجرامي﴾ أي إثم إجرامي والإجرام اقتراف السيئة واكتسابها يقال جرم وأجرم بمعنى أنه اكتسب الذنب وافتعله ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ يعني من الكفر والتكذيب وأكثر المفسرين على أن هذا من محاورة نوح قومه فهي من قصة نوح عليه السلام وقال مقاتل «أم يقولون» يعني المشركين من كفار مكة افتراه يعني محمداً ﷺ اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون هذه الآية معترضة في قصة نوح ثم رجع إلى القصة فقال سبحانه وتعالى: ﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ قال ابن عباس إن قوم نوح كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط فيلفونه في لبد ويلقونه في بيت يظنون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله ويروي أن شيخاً منهم جاء متكئاً على عصاه ومعه ابنه فقال يا بني لا يغرنك هذا الشيخ المجنون فقال يا أبت أمكني من العصا فأخذه من أبيه وضرب بها نوحاً عليه السلام حتى شجه شجة منكرة فأوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴿فلا تبتئس﴾ يعني فلا تحزن عليهم فإني مهلكهم ﴿بما كانوا يفعلون﴾ يعني بسبب كفرهم وأفعالهم فحينئذ دعا نوح عليه السلام عليهم فقال «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» وحكى محمد بن إسحاق عن عبدالله بن عمير الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يبسطون نوحاً فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون حتى تمادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهو ينتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتي قرن إلا كان أنحس من الذي قبله ولقد كان يأتي القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً فلا يقبلون منه شيئاً فشكا نوح إلى الله عز وجل فقال يا رب «إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً» الآيات حتى بلغ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه.

وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا

محمداً ﷺ. ﴿ قُلْ إنِ افتريتُه فعليّ إجْرامي ﴾، أي: إثمي ووبال جُرْمي. والإجرام: كسب الذنب. ﴿ وأنا بريءٌ ممّا تُجْرِمُون ﴾، لا أؤاخذُ بذنوبكم.

قوله تعالى: ﴿ وأُوحي إلى نوحٍ أنه لن يُؤمنَ من قومِكَ إلاّ مَن قدْ آمَنَ ﴾، روى الضحاك عن ابن عباس: أن قوم نوح عليه السلام كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط، فيلقونه في لبد ويلقونه في قعر بيت يظنون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله عزّ وجلّ. رُوِيَ أنّ شيخاً منهم جاء يتوكأ على عصا ومعه ابنه فقال يا بني لا يغرّنّك هذا الشيخ المجنون، فقال له: يا أبتِ أمكنّي من العصا فأخذ العصا من أبيه فضرب نوحاً حتى شجّه شجّة منكرة، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ﴿ أنّه لن يُؤمنَ مِن قومِك إلاّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾، ﴿ فلا تَبْتَئِسْ ﴾، فلا تحزن، ﴿ بما كانوا يفعلون ﴾ فإنّي مهلكهم ولا منقذ منهم فحينئذ دعا نوح عليهم: ﴿ فقال ربِّ لا تذرْ على الأرض منَ الكافرين ديّاراً ﴾ [نوح: ٢٦]. وحكى محمد بن إسحاق عن عبيد بن عمير الليثي أنه بلغه: أنهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: ربِّ اغفرْ لقومي فإنّهم لا يعلمون، حتى إذا تمادوا في المعصية واشتدّ عليه منهم البلاء، وانتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتي قرن إلاّ كان أخبث من الذي قبله حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً، فشكا إلى الله تعالى فقال: ﴿ ربِّ إنّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً ﴾ [نوح: ٥] إلى أن قال: ﴿ربِّ لا تذرْ على الأرضِ منَ الكافرين ديّاراً ﴾ [نوح: ٢٦]، فأوحى الله تعالى إليه:

مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿واصنع الفلك﴾ يعني السفينة والفلك لفظ يطلق على الواحد والجمع ﴿بأعيننا﴾ قال ابن عباس بمرأى منا وقيل بعلمنا وقيل بحفظنا ﴿ووحينا﴾ يعني بأمرنا ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ يعني بالطوفان والمعنى ولا تخاطبني في إمهال الكفار فإني قد حكمت بإغراقهم وقيل ولا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك واعلة فإنهما هالكان مع القوم وقيل إن جبريل أتى نوحاً فقال له إن ربك يأمرك أن تصنع الفلك فقال كيف أصنعها ولست نجاراً فقال إن ربك يقول اصنع فإنك بأعيننا فأخذ القدوم وجعل ينجر ولا يخطىء فصنعها مثل جؤجؤ الطير وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ويصنع الفلك﴾ يعني كما أمره الله سبحانه وتعالى قال أهل السير لما أمر الله سبحانه وتعالى نوحاً بعمل السفينة أقبل على عملها ولها عن قومه وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيىء القار وكل ما يحتاج إليه في عمل الفلك وجعل قومه يمرون وهو في عمله فيسخرون منه ويقولون يا نوح قد صرت نجاراً بعد النبوة وأعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم ولد قال البغوي وزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً والذراع إلى المنكب وأن يجعله ثلاث طباق سفلى ووسطى وعليا وأن يجعل فيه كوى فصنعه نوح كما أمره الله سبحانه وتعالى وقال ابن عباس اتخذ نوح السفينة في سنتين فكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً وطولها في السماء ثلاثين ذراعاً وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام وركب هو ومن معه في البطن الأعلى وجعل معه ما يحتاج إليه من الزاد وغيره قال قتادة وكان بابها في عرضها، وروي عن الحسن: أنه كان طولها ألف ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع والقول الأول أشهر وهو أن طولها ثلثمائة ذراع وقال زيد بن أسلم: مكث نوح مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها ومائة سنة يصنع الفلك، وقال كعب الأحبار: عمل نوح عليه السلام السفينة في ثلاثين سنة وروي أنها ثلاثة أطباق الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى للإنس والطبقة العليا للطير فلما كثرت رواث الدواب أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ومسح على الخنزير فوقع منه الفأر فأقبلوا على الروث فأكلوه فلما أفسد الفأر في السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها أوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة وهي القطة والقط فأقبلا على الفأر فأكلاه.

﴿ واصنعِ الفُلْكَ بأعْيُنِنا ﴾، قال ابن عباس: بمرأىً منّا. وقال مقاتل: بعلمنا. وقيل: بحفظنا. ﴿ ووَحْيِنَا ﴾، أي: بأمرنا. ﴿ ولا تُخاطبني في الذين ظلمُوا إنّهم مُغرقون ﴾، بالطوفان قيل معناه لا تخاطبني في إمهال الكفّار، فإني حكمت بإغراقهم. وقيل: لا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك وَاعِلة فإنهما هالكان مع القوم. وفي القصةِ أن جبريل أتى نوحاً عليه السلام فقال: إن ربّك عزّ وجلّ يأمرك أن تصنع الفلك، فقال: كيف أصنع ولستُ بنجارٍ؟ فقال: إن ربّك يقول اصنع فإنك بعيني، فأخذ القدّوم وجعل يصنع ولا يخطىء. وقيل: أوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر.

قوله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الفُلْكَ ﴾ فلما أمره الله تعالى أن يصنع الفلك أقبل نوح عليه السلام على عمل الفلك ولَهَا عن قومه، وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيـىء عدّة الفلك من القارّ وغيره، وجعل قومه يمرّون به وهو في عمله ويسخرون منه، ويقولون: يا نوح قد صرت نجّاراً بعد النبوّة؟ وأعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم ولد. وزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج، وأن يصنعه من أزور وأن يطليه بالقار من داخله

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وكلما مر عليه ملأ من قومه﴾ أي جماعة من قومه ﴿سخروا منه﴾ يعني استهزؤوا به وذلك أنهم قالوا إن هذا الذي كان يزعم أنه نبي قد صار نجاراً وقيل قالوا يا نوح ماذا تصنع قال أصنع بيتاً يمشي على الماء فضحكوا منه ﴿قال﴾ يعني نوحاً لقومه ﴿إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾ يعني إن تستجهلونا في صنعنا فإنا نستجهلكم لتعرضكم لما يوجب سخط الله وعذابه، فإن قلت السخرية لا تليق بمنصب النبوة فكيف قال نوح عليه السلام إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون.

قلت إنما سمي هذا الفعل سخرية على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ والمعنى إنا نرى غب سخريتكم بنا إذا نزل بكم العذاب وهو قوله تعالى:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فسوف تعلمون﴾ يعني فسترون ﴿من يأتيه﴾ يعني أينا يأتيه نحن أو أنتم ﴿عذاب يخزيه﴾ يعني يهينه ﴿ويحل عليه عذاب مقيم﴾ يعني في الآخرة فالمراد بالعذاب الأول عذاب الدنيا وهو الغرق والمراد بالعذاب الثاني عذاب الآخرة وعذاب النار الذي لا انقطاع له.

وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً، والذراع إلى المنكب، وأن يجعله ثلاثة أطباق سفلى ووسطى وعليا ويجعل فيه كوى، ففعله نوح كما أمره الله عزّ وجلّ. وقال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في سنتين وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومَن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد. وقال قتادة: كان بابها في عرضها. ورُوِيَ عن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ستّ مائة ذراع. والمعروف هو الأول أن طولها ثلثمائة ذراع. وعن زيد بن أسلم قال: مكث نوح عليه السلام مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها، ومائة سنة يعمل الفلك. وقيل: غرس الشجر أربعين سنة وجفّفه أربعين سنة. وعن كعب الأحبار أن نوحاً عمل السفينة في ثلاثين سنة، ورُوِيَ أنها كانت ثلاث طبقات، الطبقة السفلى للدواب والوحوش، والطبقة الوسطى فيها الإنس، والطبقة العليا فيها الطير، فلما كثرت أرواث الدواب شكا ذلك إلى الله عزّ وجلّ فأوحى الله إلى نوح أنِ اغْمِزْ ذنبَ الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث فأكلاه، فلما وقع الفار بجوف السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها، أوحى الله تعالى إليه أن اضربْ بين عيني الأسد فضرب فخرج من مِنخره سِنّور وسِنّورة، فأقبلا على الفار فأكلاه. قوله تعالى: ﴿ وكلّما مرَّ عليه ملأٌ من قومه سخرُوا منه ﴾، وذلك أنهم كانوا يقولون: إنّ هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجّاراً. ورُوِيَ أنهم كانوا يقولون له: يا نوح ماذا تصنع؟ فيقول: أصنع بيتاً يمشي على الماء، فيضحكون منه، ﴿ قال إنْ تسخرُوا مِنّا فإنّا نسخرُ مِنْكم ﴾، إذا عاينتم عذاب الله، ﴿ كما تَسْخَرُون ﴾، فإن قيل: كيف تجوز السخرية من النبي؟ قيل: هذا على ازدواج الكلام، يعني إن تستجهلوني فإني أستجهلكم إذا نزل العذاب بكم. وقيل: معناه إن تسخروا منّا فسترون عاقبة سخريتكم.

﴿ فسوفَ تعلمُون مَن يأتيهِ عذابٌ يُخزيهِ ﴾، يهينه، ﴿ ويَحِلُّ عليهِ ﴾، يجب عليه، ﴿ عذابٌ مقيم ﴾، دائم.

وقوله عز وجل: ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور﴾ يعني وغلى والفور الغليان وفارت القدر إذا غلت.

والتنور: فارسي معرب لا تعرف له العرب اسماً غير هذا فلذلك جاء في القرآن بهذا اللفظ فخوطبوا بما يعرفون وقيل إن لفظ التنور جاء هكذا بكل لفظ عربي وعجمي وقيل إن لفظ التنور أصله أعجمي فتكلمت به العرب فصار عربياً مثل الديباج ونحوه واختلفوا في المراد بهذا التنور، فقال عكرمة والزهري: هو وجه الأرض وذلك أنه قيل لنوح عليه السلام إذا رأيت الماء قد فار على وجه الأرض فاركب السفينة فعلى هذا يكون قد جعل فوران التنور علامة لنوح على هذا الأمر العظيم وقال علي: فار التنور أي طلع الفجر ونور الصبح شبه نور الصبح بخروج النار من التنور، وقال الحسن ومجاهد والشعبي: إن التنور هو الذي يخبز فيه، وهو قول أكثر المفسرين ورواية عن ابن عباس، أيضاً وهذا القول أصح لأن اللفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه.

فإن قلت الألف واللام في لفظ التنور للعهد وليس هاهنا معهود سابق عند السامع فوجب حمله على غيره وهو شدة الأمر والمعنى إذا رأيت الماء يشتد نبوعه ويقوى فانج بنفسك ومن معك.

قلت: لا يبعد أن يكون ذلك التنور معلوماً عند نوح عليه السلام، قال الحسن كان تنوراً من حجارة وكانت حواء تخبز فيه ثم صار إلى نوح وقيل له إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك واختلفوا في موضع التنور فقال مجاهد نبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فأخبرته وكان ذلك في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة، قال الشعبي: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان فوران التنور علامة لنوح عليه السلام، وقال مقاتل: كان ذلك التنور تنور آدم وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة وروي عن ابن عباس أنه كان بالهند قال: والفوران الغليان ﴿قلنا احمل فيها﴾ يعني: قلنا لنوح احمل في السفينة ﴿من كل زوجين اثنين﴾ الزوجان كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر كالذكر والأنثى يقال

﴿حتى إذا جاءَ أمرُنا﴾، عذابنا، ﴿وفارَ التَّنُّورُ﴾، اختلفوا في التنور، قال عكرمة والزهري: هو وجه الأرض، وذلك أنه قيل لنوح: إذا رأيتَ الماء، فارَ على وجه الأرض فاركبِ السفينة. ورُوِيَ عن علي رضي الله عنه أنه قال: فار التنّور أي: طلع الفجر ونور الصبح. وقال الحسن ومجاهد والشعبي: إنه التنور الذي يُخبَز فيه، وهو قول أكثر المفسِّرين. ورواية عطية عن ابن عباس قال الحسن: كان تنّوراً من حجارة، كانت حوّاء تخبز فيه فصار إلى نوح عليه السلام، فقيل لنوح: إذا رأيتَ الماءَ يفور من التنّور فاركبِ السفينة أنتَ وأصحابُك. واختلفوا في موضعه، قال مجاهد والشعبي: كان في ناحية الكوفة. وكان الشعبي يحلف: ما فار التنّور إلّا من ناحية الكوفة. وقال: اتخذ نوح السفينة في جوفْ مسجد الكوفة. وكان التنّور على يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان فورانُ الماء منه عَلَماً لنوح عليه السلام. وقال مقاتل: كان ذلك تنّور آدم وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة. ورُوِيَ عن ابن عباس: أنه كان بالهند. والفوران: الغليان. قوله تعالى: ﴿قلنا احْمِلْ فيها﴾، أي: في السفينة، ﴿مِنْ كل زوجين اثنين﴾، الزوجان: كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر، يقال لكل واحد منهما زوج، يقال: زوج خفّ وزوج نعل، والمراد بالزوجين هنا: الذكر والأنثى. قرأ حفص ههنا وفي سورة المؤمنين [٢٧]: «مِن كُلٍّ» بالتنوين أي: من كل صنف زوجين اثنين، ذكره تأكيداً. وفي القصة: أن نوحاً عليه الصلاة والسلام قال: يا ربِّ كيفَ أحمل من كل زوجين اثنين؟ فحشر الله إليه الوحوشَ والسباعَ والهوامَّ والطير، فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى، فيحملها في السفينة، ﴿وأهْلَكَ﴾، أي: واحملْ أهلكَ، أي: ولدك

لكل واحد منهما زوج والمعنى من كل صنف زوجين ذكراً أو أنثى فحشر الله سبحانه وتعالى إليه الحيوان من الدواب والسباع والطير فجعل نوح يضرب بيديه في كل جنس منها فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى فيجعلهما في السفينة **﴿وأهلك﴾** أي واحمل أهلك وولدك وعيالك **﴿إلا من سبق عليه القول﴾** يعني بإهلاك وأراد به امرأته واعلة وولده كنعان **﴿ومن آمن﴾** يعني واحمل معك من آمن بك من قومك **﴿وما آمن معه إلا قليل﴾** اختلفوا في عدد من حمل نوح معه في السفينة فقال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي لم يكن في السفينة إلا ثمانين: نفر نوح وامرأته وثلاثة بنين له وهم سام وحام ويافث ونساؤهم؛ وقال الأعمش: كانوا سبعة نوحاً وبنيه وثلاث كنائن له. وقال محمد بن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم وهم نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة نفر آمنوا بنوح وأزواجهم جميعاً، وقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين نفراً رجلاً وامرأة وقال ابن عباس كان في السفينة ثمانون رجلاً أحدهم جرهم، قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله عز وجل: **﴿وما آمن معه إلا قليل﴾** فوصفهم الله سبحانه وتعالى بالقلة ولم يحدد عدداً بمقدار فلا ينبغي أن يجاوز في ذلك حد الله سبحانه وتعالى إذ لم يرد ذلك في كتاب ولا خبر صحيح عن رسول الله ﷺ قال مقاتل: حمل نوح معه جسد آدم عليه السلام فجعله معترضاً بين الرجال والنساء وقصد نوحاً جميع الدواب والطيور ليحملها قال ابن عباس: أول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار فلما أراد أن يدخل الحمار أدخل صدره فتعلق إبليس بذنبه فلم تنتقل رجلاه وجعل نوح يقول له ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال له أدخل وإن كان الشيطان معك كلمة ذلت على لسانه فلما قالها نوح خلى سبيل الحمار فدخل الحمار ودخل الشيطان معه فقال له نوح ماذا أدخلك عليّ يا عدو الله قال ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك قال اخرج عني يا عدو الله.

قال: لا بد من أن تحملني معك فكان فيما يزعمون على ظهر السفينة، هكذا نقله البغوي وقال الإمام فخر الدين الرازي: وأما الذي يروى أن إبليس دخل السفينة فبعيد لأنه من الجن وهو جسم ناري أو هوائي فكيف يفر من الغرق وأيضاً فإن كتاب الله لم يدل على ذلك ولم يرد فيه خبر صحيح فالأولى ترك الخوض فيه، قال البغوي: وروي عن

وعيالك، **﴿ إلاّ مَنْ سبقَ عليهِ القولُ ﴾**، بالهلاك يعني امرأته وَاعِلة وابنه كنعان، **﴿ ومَنْ آمنَ ﴾** يعني: واحمل مَن آمن بك، كما قال الله تعالى: **﴿ وما آمنَ معه إلاّ قليلٌ ﴾**، واختلفوا في عددهم، قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي: لم يكن في السفينة إلاّ ثمانية، نوح وامرأته وثلاثة بنين، له سام وحام ويافث، ونساؤهم، وقال الأعمش: كانوا سبعة نوح وثلاثة بنين له، وثلاث كنائن له. وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم، نوح وبنوه سام وحام ويافث وستّة أناس ممّن كان آمن به وأزواجهم جميعاً. وقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين نفراً رجلاً وامرأةً وبنيه الثلاثة ونسائهم، فجميعهم ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان في سفينة نوح ثمانون رجلاً أحدهم جرهم. قال مقاتل: حمل نوح معه جسد آدم فجعله معترضاً بين الرجال والنساء وقصد نوحاً جميعُ الدواب والطيور ليحملها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما حمل نوح الدرّة وآخر ما حمل الحمار، فلما دخل الحمار ودخل صدره تعلّق إبليس بذنبه، فلم يستقل رجلاه فجعل نوح يقول ويحك ادخل فنهض فلم تستطع، حتى قال نوح: ويحك ادْخلْ وإن كان الشيطان معك كلمة زلّت على لسانه، فلما قالها نوح خلّى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه، فقال له نوح: ما أدخلك عليَّ يا عدوّ الله؟ قال: ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك، قال: اخرج عنّي يا عدوّ الله، فقال: ما لك بدّ من أن تحملني معك، فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك. ورُوِيَ عن بعضهم: أن الحيّة والعقرب أتيا نوحاً فقالتا: احملنا، فقال: إنكما سبب الضرّ والبلاء، فلا أحملكما، فقالتا له: احملنا ونحن نضمن لك أن لا نضر أحداً ذكرك فمَن قرأ حين خاف مضرّتهما سلام على

بعضهم أن الحية والعقرب أتيا نوحاً عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال إنكما سبب البلاء فلا أحملكما فقالتا احملنا فنحن نضمن لك أن لا نضر أحداً ذكرك فمن قرأ حين يخاف مضرتهما سلام على نوح في العالمين لم تضراه وقال الحسن لم يحمل نوح معه في السفينة إلا ما يلد ويبيض وأما ما سوى ذلك مما يتولد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيئاً.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وقال اركبوا فيها**﴾ يعني وقال نوح لمن حمل معه اركبوا في السفينة ﴿**بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم**﴾ يعني بسم الله اجراؤها وإرساؤها قال الضحاك كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال بسم الله فتجري وكان إذا أراد أن ترسو يعني تقف قال بسم الله فترسو أي تقف وهذا تعليم من الله لعباده أنه من أراد أمراً فلا ينبغي له أن يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت الشروع حتى يكون ذلك سبباً للنجاح والفلاح في سائر الأمور ﴿**وهي تجري بهم في موج كالجبال**﴾ الموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح، شبهه سبحانه وتعالى بالجبال في عظمه هوارتفاعه على الماء قال العلماء: بالسير أرسل الله المطر أربعين يوماً وليلة وخرج الماء من الأرض فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ يعني: صار إناء نصفين نصفاً من السماء ونصفاً من الأرض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعاً وقيل خمسة عشر ذراعاً حتى أغرق كل شيء.

نوح في العالمين ما ضرّتاه. قال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلّا ما يلد ويبيض، فأما ما يتولّد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض والذباب فلم يحمل منها شيء.

﴿ **وقالَ اركَبُوا فيها** ﴾، أي: وقال لهم نوح اركبوا فيها أي في السفينة، ﴿ **بسم اللهِ مَجْرَاهَا ومُرْسَاهَا** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «مَجْراها» بفتح الميم «ومُرساها» بضمها، وقرأ محمد بن محيصن «مَجْريها ومَرْساها» بفتح الميمين من جرت ورست، أي: بسم الله جريها ورسوها، وهما مصدران. وقرأ الآخرون: «مُجراها ومُرساها» بضم الميمين من أجريت وأرسيت، أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها وهما أيضاً مصدران، كقوله: ﴿ أنزلني مُنزلاً مباركاً ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، ﴿ وأدْخلني مُدخلَ صِدقٍ وأخرجني مُخرجَ صدق ﴾ [الإسراء: ٨٠]، والمراد منها الإنزال والإدخال والإخراج. ﴿ **إنّ ربّي لغفورٌ رحيم** ﴾، قال الضحاك: قال نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال: بسم الله، جرت وإذا أراد أن يرسوَ قال: بسم الله رست.

﴿ **وهي تجري بهم في موج كالجبال** ﴾، والموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح، شبّهه بالجبال في عظمه وارتفاعه على الماء. ﴿ **ونادَى نوحٌ ابْنَه** ﴾، كنعان، وقال عبيد بن عمير: سام وكان كافراً، ﴿ **وكان في معزل** ﴾، عنه لم يركب السفينة، ﴿ **يا بُنيّ اركبْ معنا** ﴾، قرأ نافع وابن عامر وحمزة والبزّي عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم ويعقوب: «اركب» بإظهار الباء والآخرون يدغمونها في الميم، ﴿ **ولا تكن معَ الكافرين** ﴾، فتهلك.

﴿ **قال** ﴾ له ابنه ﴿ **سآوي** ﴾، سأصير وألتجىء، ﴿ **إلى جبل يعصمُني من الماء** ﴾، يمنعني من الغرق،

وروي أنه لما كثر الماء في الشكك خافت أم الصبي على ولدها من الغرق وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلحقها الماء فارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما لحقها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء إلى رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بهما الماء فأغرقهما فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي **﴿ونادى نوح ابنه﴾** يعني كنعان وكان كافراً **﴿وكان في معزل﴾** يعني عن نوح لم يركب معه **﴿يا بني اركب معنا﴾** يعني في السفينة **﴿ولا تكن مع الكافرين﴾** يعني فتهلك معهم **﴿قال﴾** يعني قال كنعان **﴿سآوي﴾** يعني سألتجىء وأصير **﴿إلى جبل يعصمني﴾** يعني يمنعني **﴿من الماء قال﴾** يعني قال له نوح **﴿لا عاصم﴾** يعني لا مانع **﴿اليوم من أمر الله﴾** يعني من عذابه **﴿إلا من رحم﴾** يعني إلا من رحمه الله فينجيه من الغرق **﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾** يعني كنعان.

﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وقيل﴾ يعني بعد ما تناهى الطوفان وأغرق الله قوم نوح **﴿يا أرض ابلعي ماءك﴾** أي اشربيه **﴿ويا سماء أقلعي﴾** أي أمسكي **﴿وغيض الماء﴾** أي نقص ونضب يقال غاض الماء إذا نقص وذهب **﴿وقضي الأمر﴾** يعني وفرغ من الأمر وهو هلاك قوم نوح **﴿واستوت﴾** يعني واستقرت السفينة **﴿على الجودي﴾** وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل **﴿وقيل بعداً﴾** يعني هلاكاً **﴿للقوم الظالمين﴾** قال العلماء: بالسير لما استقرت السفينة بعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفة فلم يرجع إليه فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين، فعلم نوح أن الماء قد ذهب فدعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت وطوق الحمامة بالخضرة التي في عنقها ودعا لها بالأمان فمن ثم تألف البيوت وروي أن نوحاً عليه السلام ركب السفينة لعشر بقين من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت الحرام وقد رفعه الله من الغرق وبقي موضعه فطافت السفينة به سبعاً وأودع الحجر الأسود جبل أبي قبيس وهبط نوح ومن معه في السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح عليه السلام وأمر جميع من معه بصيامه شكراً لله تعالى وبنوا قرية بقرب الجبل فسميت سوق ثمانين فهي أول قرية عمرت على وجه الأرض بعد الطوفان، وقيل: إنه لم ينج أحد من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق وكان الماء يصل إلى حجزته وسبب نجاته من الهلاك أن نوحاً عليه

﴿ قال ﴾ له نوح **﴿ لا عاصِمَ اليومَ من أمرِ الله ﴾**، أي: من عذاب الله، **﴿ إلاّ مَن رَّحِمَ ﴾**، قيل: **﴿ من ﴾** في محل ارفع، أي لا مانع من عذاب الله إلاّ الله الراحم. وقيل: **﴿ من ﴾** في محل النصب، معناه لا معصوم إلاّ من رحمه الله، كقوله: **﴿ في عِيشَةٍ راضية ﴾** [الحاقة: ٢١، القارعة: ٧] أي: مرضية، **﴿ وحال بينهما الموجُ فكان ﴾**، فصار، **﴿ من المغرقين ﴾**، ويُروى: أن الماء علا على رؤوس الجبال قدر أربعين ذراعاً. وقيل: خمسة عشر ذراعاً. ويُروى: أنه لما كثر الماء في السكك خشيت أُم الصبي عليه وكانت تحبّه حبّاً شديداً فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أُم الصبي.

﴿ وقيل ﴾، يعني بعدما تناهى أمر الطوفان. **﴿ يا أرضُ ابلعي ﴾**، اشربي، **﴿ماءَك ويا سماءُ أقلعي ﴾**، أمسكي، **﴿وغِيْضَ الماءُ﴾**، نقص ونضب، يقال: غاض الماء يغيض غيضاً إذا نقص، وغاضه الله أي أنقصه،

السلام احتاج إلى خشب ساج لأجل السفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج بن عنق من الشام إلى نوح فنجاه الله من الغرق لذلك.

فإن قلت: كيف اقتضت الحكمة الإلهية والكرم العظيم إغراق من لم يبلغوا الحلم من الأطفال ولم يدخلوا تحت التكليف بذنوب غيرهم.

قلت: ذكر بعض المفسرين أن الله عز وجل أعقم أرحام نسائهم أربعين سنة فلم يولد لهم ولد تلك المدة وهذا الجواب ليس بقوي لأنه يرد عليه إغراق جميع الدواب والهوام والطير وغير ذلك من الحيوان ويرد على ذلك أيضاً إهلاك أطفال الأمم الكافرة مع آبائهم غير قوم نوح.

والجواب الشافي عن هذا كله أن الله سبحانه وتعالى متصرف في خلقه وهو المالك المطلق يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

قوله عز وجل: ﴿**ونادى نوح ربه**﴾ أي دعاه وسأله ﴿**فقال رب إن ابني من أهلي**﴾ يعني وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي ﴿**وإن وعدك الحق**﴾ يعني الصدق الذي لا خلف فيه ﴿**وأنت أحكم الحاكمين**﴾ يعني أنك حكمت لقوم بالنجاة وحكمت على قوم بالهلاك ﴿**قال**﴾ يعني قال الله تعالى: ﴿**يا نوح إنه**﴾ يعني هذا الابن الذي سألتني نجاته ﴿**ليس من أهلك**﴾ اختلف علماء التفسير: هل كان هذا الولد ابن نوح لصلبه أم لا فقال الحسن ومجاهد كان ولد حدث من غير نوح ولم يعلم به فلذلك قال إنه ليس من أهلك، وقال محمد بن جعفر الباقر: كان ابن امرأة نوح وكان يعلمه نوح ولذلك قال من أهلي ولم يقل مني. وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر المفسرين: إنه ابن نوح من صلبه، وهذا القول هو الصحيح والقولان الأولان ضعيفان بل باطلان ويدل على صحة هذا نقل الجمهور لما صح عن ابن عباس أنه قال: ما بغت امرأة نبي قط ولأن الله سبحانه وتعالى نص عليه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ونادى نوح ابنه**﴾ ونوح ﷺ أيضاً نص عليه بقوله «يا بني اركب معنا» وهذا نص في الدلالة وصرف الكلام عن الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة لا يجوز وإنما خالف هذا الظاهر من خالفه لأنه استبعد أن يكون ولد نبي كافراً وهذا خطأ ممن قاله لأن الله سبحانه وتعالى خلق خلقه فريق في الجنة وهم المؤمنون وفريق في السعير وهم الكفار والله سبحانه وتعالى يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم فإن الله سبحانه وتعالى أخرج قابيل من

﴿ **وَقُضِيَ الأمرُ** ﴾ فرغ من الأمر وهو هلاك القوم ﴿ **واستوتْ** ﴾، يعني السفينة استقرت، ﴿ **على الجُودي** ﴾، وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل، ﴿ **وقيلَ بُعْداً** ﴾، هلاكاً، ﴿ **للقوم الظالمين** ﴾، ورُوِيَ أن نوحاً عليه السلام بعث الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث حمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين، فعلم نوح أن الماء قد نضب، فقيل إنه دعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت، وطوّق الحمامة الخضرة التي في عنقها ودعا لها بالأمان، فمن ثم تألف البيوت، ورُوِيَ: أن نوحاً ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستّة أشهر، ومرّت بالبيت فطافت به سبعاً وقدْ رفعَه الله من الغرق وبقي موضعه، وهبطوا به يوم عاشوراء فصام نوح وأمر جميع مَن معه بالصوم شكراً لله عزّ وجلّ. وقيل: ما نجا من الكفّار من الغرق غير عوج بن عنق كان الماء إلى حجزته، وكان سبب نجاته أن نوحاً احتاج إلى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج إليه من الشام، فنجّاه الله تعالى من الغرق لذلك.

قوله تعالى: ﴿ **ونادَى نوحُ ربَّه فقال ربِّ إنّ ابني من أهلي** ﴾، أوَ قدْ وعدتني أن تنجيني وأهلي؟ ﴿ **وإنّ وَعْدَكَ الحقُّ** ﴾، لا خلف فيه، ﴿ **وأنتَ أحْكَمُ الحاكمين** ﴾، حكمت على قوم بالنجاة وعلى قوم بالهلاك.

صلب آدم عليه السلام وهو نبي وكان قابيل كافراً وأخرج إبراهيم من صلب آزر وهو نبي وكان آزر كافراً فكذلك أخرج كنعان وهو كافر من صلب نوح وهو نبي فهو المتصرف في خلقه كيف يشاء.

فإن قلت: فعلى هذا كيف ناداه نوح فقال: اركب معنا وسأل له النجاة مع قوله رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً قلت: قد ذكر بعضهم أن نوحاً عليه الصلاة والسلام لم يعلم بكون ابنه كان كافراً فلذلك ناداه وعلى تقدير أنه يعلم كفره إنما حمله على أن ناداه رقة لأبوة ولعله إذا رأى تلك الأهوال أن يسلم فينجيه الله بذلك من الغرق فأجابه الله عز وجل بقوله إنه ليس من أهلك يعني أنه ليس من أهل دينك لأن أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما.

ولما حكمت الشريعة برفع حكم النسب في كثير من الأحكام بين المسلم والكافر قال الله سبحانه وتعالى لنوح: إنه ليس من أهلك ﴿**إنه عمل غير صالح**﴾ قرأ الكسائي ويعقوب: عَمِلَ بكسر الميم وفتح اللام غير بفتح الراء على عود الفعل على الابن ومعناه أنه عمل الشرك والكفر والتكذيب وكل هذا غير صالح، وقرأ الباقون من القراء: عمَلٌ بفتح الميم ورفع اللام مع التنوين وغير بضم الراء ومعناه إن سؤالك إياي أن أنجيه من الغرق عمل غير صالح لأن طلب نجاة الكفار بعد ما حكم عليه بالهلاك بعيد فلهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿**إنه عمل غير صالح**﴾ ويجوز أن يعود الضمير في إنه على ابن نوح أيضاً ويكون التقدير على هذه القراءة إن ابنك ذو عمل أو صاحب عمل غير صالح فحذف المضاف كما قالت الخنساء: فإنما هي إقبال وإدبار.

قال الواحدي، وهذا قول أبي إسحاق يعني الزجاج وأبي بكر بن الأنباري وأبي علي الفارسي قال أبو علي: ويجوز أن يكون ابن نوح عمل عملاً غير صالح فجعلت نفسه ذلك العمل لكثرة ذلك منه، كما يقال الشعر زهير والعلم فلان إذا كثر منه فعلى هذا لا حذف ﴿**فلا تسألن ما ليس لك به علم**﴾ وذلك أن نوحاً عليه السلام سأل ربه إنجاء ولده من الغرق وهو من كمال شفقة الوالد على ولده وهو لا يعلم أن ذلك محظور لإصرار ولده على الكفر فنهاه الله سبحانه وتعالى عن مثل هذه المسألة وأعلمه أن ذلك لا يجوز فكان المعنى فلا تسألن ما ليس لك به علم بجواز مسألته ﴿**إني أعظك**﴾ يعني أنهاك ﴿**أن تكون من الجاهلين**﴾ يعني لمثل هذا السؤال.

﴿ **قال** ﴾ اللَّهُ عزّ وجلّ ﴿ **يا نوحُ إنّه ليس مِنْ أهلِكَ إنّه عملٌ غيرُ صالح** ﴾، قرأ الكسائي ويعقوب: «عمِـلَ» بكسر الميم وفتح اللام «غيـرَ» بنصب الراء على الفعل، أي: عمل الشرك والتكذيب. وقرأ الآخرون بفتح الميم ورفع اللام تنوينه، ﴿ **غير** ﴾ برفع الراء معناه: أن سؤالك إيّاي أن أنجيه بعمل غير صالح، ﴿ **فلا تَسْأَلْن** ﴾، يا نوح، ﴿ **ما ليسَ لكَ بهِ عِلْمٌ** ﴾، قرأ أهل الحجاز والشام « فلا تسألني » بفتح اللام وتشديد النون، ويكسرون النون غير ابن كثير فإنه يفتحها. وقرأ الآخرون بجزم اللام وكسر النون خفيفة، ويُثبت أبو جعفر وأبو عمرو وورش الياء في الوصل دون الوقف، وأثبتها يعقوب في الحالين، ﴿ **إني أعظُكَ أن تكون من الجاهلين** ﴾، واختلفوا في هذا الابن، قال مجاهد والحسن: كان ولد حدث من غير نوح، ولم يعلم بذلك نوح، ولذلك قال: ﴿ **ما ليس لك به علم** ﴾ وقرأ الحسن ﴿ فخانتاهما ﴾ [التحريم: ١٠]، وقال أبو جعفر الباقر: كان ابن امرأته وكان يعلّمه نوح ولذلك قال: ﴿ **من أهلي** ﴾ ولم يقل منّي. وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثرون: إنه كان ابن نوح عليه السلام من صلبه. وقال ابن عباس: ما بغت امرأة نبيّ قطّ. وقوله: ﴿ **إنّه ليسَ من أهلك** ﴾ أي: من أهل الدين. وقوله: ﴿ فخانتاهما ﴾[التحريم: ١٠] أي: في الدين والعمل لا في الفراش. وقوله: ﴿ **إني أعظُكَ أن تكونَ مِنَ الجاهلين** ﴾، يعني: تدعو بهلاك الكفّار ثم تسأل نجاة كافر.

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ
ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿قال﴾ يعني: قال نوح **﴿رب إني أعوذ بك﴾** يعني: ألجأ إليك وأعتذر إليك **﴿أن أسألك ما ليس لي به علم﴾** يعني: إنك أنت علام الغيوب وأنا لا أعلم ما غاب عني فأعتذر إليك من مسألتي ما ليس لي به علم **﴿وإلا تغفر لي﴾** يعني: جهلي وإقدامي على سؤال ما ليس لي به علم **﴿وترحمني﴾** يعني برحمتك التي وسعت كل شيء **﴿أكن من الخاسرين﴾**.

(فصل وقد استدل بهذه الآيات من لا يرى عصمة الأنبياء)

وبيانه أن قوله إنه عمل غير صالح المراد منه السؤال وهو محظور فلهذا نهاه عنه بقوله فلا تسألن ما ليس لك به علم، وقوله سبحانه وتعالى: **﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾** يدل على أن ذلك السؤال كان جهلاً ففيه زجر وتهديد وطلب المغفرة والرحمة له يدل على صدور الذنب منه.

والجواب أن الله عز وجل كان قد وعد نوحاً عليه السلام بأن ينجيه وأهله فأخذ نوح ظاهر اللفظ واتبع التأويل بمقتضى هذا الظاهر ولم يعلم ما غاب عنه ولم يشك في وعد الله سبحانه وتعالى فأقدم على هذا السؤال لهذا السبب فعاتبه الله عز وجل على سؤاله ما ليس له به علم وبين له أنه ليس من أهله الذي وعده بنجاتهم لكفره وعمله الذي هو غير صالح وأعلمه الله سبحانه وتعالى أنه مغرق مع الذين ظلموا ونهاه عن مخاطبته فيهم فأشفق نوح من إقدامه على سؤال ربه فيما لم يؤذن له فيه فخاف نوح من ذلك الهلاك فلجأ إلى ربه عز وجل وخشع له وعاذ به وسأل المغفرة والرحمة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وليس في الآيات ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح عليه السلام سوى تأويله وإقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه وهذا ليس بذنب ولا معصية والله أعلم.

قوله سبحانه وتعالى: **﴿قيل يا نوح اهبط﴾** أي انزل من السفينة أو من الجبل إلى الأرض **﴿بسلام﴾** أي بأمن وسلامة **﴿منا وبركات عليك﴾** البركة هي ثبوت الخير ونماؤه وزيادته، وقيل: المراد بالبركة هنا أن الله سبحانه وتعالى جعل ذريته هم الباقين إلى يوم القيامة فكل العالم من ذرية أولاده الثلاثة ولم يعقب من كان معه في السفينة غيرهم **﴿وعلى أمم ممن معك﴾** يعني: وعلى ذرية أمم ممن كانوا معك في السفينة، والمعنى وبركات عليك وعلى قرون

﴿ قال ﴾ نوح **﴿ ربِّ إنّي أعوذُ بِكَ أنْ أسألَكَ ما ليسَ لي بِهِ علمٌ وإلاّ تغفرْ لي وترحمني أكُنْ مِّنَ الخاسرين ﴾**.

﴿ قيلَ يا نوحُ اهْبِطْ ﴾ انزل من السفينة، **﴿ بسلامٍ مِّنّا ﴾**، أي بأمن وسلامة منّا، **﴿وبركات عليك﴾**، البركة هي ثبوت الخير ومنه بروك البعير. وقيل: البركة ههنا هي أن الله تعالى جعل ذريّته، هُمُ الباقين إلى يوم القيامة، **﴿ وعلى أمم مِّمَّنْ مَّعَكَ ﴾**، أي: على ذريّة أُمم ممّن كان معك في السفينة، يعني على قرون تجيء بعدك من ذريّة مَن معك في السفينة، يعني: من ولدك وهم المؤمنون، قال محمد بن كعب القرظي: دخل فيه كل مؤمن إلى يوم

تجيء من بعدك من ذرية أولادك وهم المؤمنون. قال محمد بن كعب القرظي: دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة ﴿وأمم سنمتعهم﴾ هذا ابتداء كلام أي وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم يعني في الدنيا إلى منتهى آجالهم ﴿ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ يعني في الآخرة ﴿تلك من أنباء الغيب﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ يعني أن هذه القصة التي أخبرناك يا محمد من قصة نوح وخبر قومه من أنباء الغيب يعني من أخبار الغيب ﴿نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ يعني من قبل نزول القرآن عليك.

فإن قلت إن قصة نوح كانت مشهورة معروفة في العالم فكيف قال ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا.

قلت: يحتمل أن يكون كانوا يعلمونها مجملة فنزل القرآن بتفصيلها وبيانها.

وجواب آخر وهو أنه ﷺ كان أمياً لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته فصح قوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل نزول القرآن بها ﴿فاصبر﴾ يا محمد على أذى مشركي قومك كما صبر نوح على أذى قومه ﴿إن العاقبة﴾ يعني النصر والظفر على الأعداء والفوز بالسعادة الأخروية يعني للمؤمنين.

قوله عز وجل: ﴿وإلى عاد﴾ يعني وأرسلنا إلى عاد ﴿أخاهم هوداً﴾ يعني أخاهم في النسب لا في الدين ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ يعني وحدوا الله ولا تشركوا معه شيئاً في العبادة ﴿ما لكم من إله غيره﴾ يعني أنه تعالى هو إلهكم لا هذه الأصنام التي تعبدونها فإنها حجارة لا تضر ولا تنفع ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ يعني ما أنتم إلا كاذبون في عبادتكم غيره.

يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾

﴿يا قوم لا أسألكم عليه﴾ يعني على تبليغ الرسالة ﴿أجراً﴾ يعني جعلاً آخذه منكم ﴿وان أجري﴾ يعني ما ثوابي ﴿إلا على الذي فطرني﴾ يعني: خلقني فإنه هو الذي رزقني في الدنيا ويثيبني في الآخرة ﴿أفلا تعقلون﴾ يعني فتتعظون

القيامة. ﴿ وأُمَم سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾، هذا ابتداء، أي: أُمم سنمتّعهم في الدنيا. ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنا عذابٌ أليمٌ ﴾، وهم الكافرون وأهل الشقاوة.

﴿ تلكَ مِنْ أنباءِ الغيب ﴾، من أخبار الغيب، ﴿ نُوحيها إليك ما كنتَ تعلمها أنتَ ولا قومُكَ مِن قبلِ هذا ﴾، من قبل نزول القرآن، ﴿ فاصْبِرْ ﴾، على القيام بأمر الله وتبليغ الرسالة وما تلقى من أذى الكفّار كما صبر نوح، ﴿ إنَّ العاقبةَ ﴾ آخر الأمر بالسعادة والنصرة ﴿ للمتَّقين ﴾، لأهل التقوى.

قوله تعالى: ﴿ وإلى عادٍ ﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد، ﴿ أخاهم هوداً ﴾، في النسب لا في الدين، ﴿ قال يا قومِ اعبدُوا الله ﴾، وحّدُوا الله ﴿ ما لكم من إلَهٍ غيرُهُ إنْ أنتم إلاّ مُفْتَرُون ﴾، ما أنتم في إشراككم إلاّ كاذبون.

﴿ يا قومِ لا أسئلُكم عليه ﴾، أي: على تبليغ الرسالة، ﴿ أجراً ﴾، جَعْلًا، ﴿ إنْ أجْري ﴾، ما ثوابي، ﴿ إلاّ على الذي فطرني ﴾، خلقني، ﴿ أفلا تَعْقِلُون ﴾.

﴿**ويا قوم استغفروا ربكم**﴾ أي آمنوا به فالاستغفار هنا بمعنى الإيمان لأنه هو المطلوب أولاً ﴿**ثم توبوا إليه**﴾ يعني من شرككم وعبادتكم غيره ومن سالف ذنوبكم ﴿**يرسل السماء عليكم مدراراً**﴾ يعني: ينزل المطر عليكم متتابعاً مرة بعد مرة في أوقات الحاجة إليه وذلك أن بلادهم كانت مخصبة كثيرة الخير والنعم فأمسك الله عنهم المطر مدة ثلاث سنين فأجدبت بلادهم وقحطت بسبب كفرهم فأخبرهم هود عليه السلام أنهم إن آمنوا بالله وصدقوه أرسل الله إليهم المطر فأحيا به بلادهم كما كانت أول مرة ﴿**ويزدكم قوة إلى قوتكم**﴾ يعني شدة مع شدتكم، وقيل: معناه أنكم إن آمنتم يقوِّكم بالأموال والأولاد وذلك أنه سبحانه وتعالى أعقم أرحام نسائهم فلم تلد فقال لهم هود عليه السلام إن آمنتم أرسل الله المطر فتزدادون مالاً ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت عليه فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة الأبدان ﴿**ولا تتولوا مجرمين**﴾ يعني ولا تعرضوا عن قبول قولي ونصحي حال كونكم مشركين ﴿**قالوا يا هود ما جئتنا ببينة**﴾ أي ببرهان وحجة واضحة على صحة ما تقول ﴿**وما نحن بتاركي ألهتنا عن قولك**﴾ يعني وما نترك عبادة آلهتنا لأجل قولك ﴿**وما نحن لك بمؤمنين**﴾ يعني بمصدقين ﴿**إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء**﴾ يعني إنك يا هود لست تتعاطى ما تتعاطاه من مخالفتنا وسب آلهتنا إلا أن بعض آلهتنا أصابك بخبل وجنون لأنك سببتهم فانتقموا منك بذلك ولا نحمل أمرك إلا على هذا ﴿**قال**﴾ يعني قال هود مجيباً لهم ﴿**إني أشهد الله**﴾ يعني على نفسي واشهدوا يعني واشهدوا أنتم أيضاً علي: ﴿**أني بريء مما تشركون من دونه**﴾ يعني هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها ﴿**فكيدوني جميعاً**﴾ يعني احتالوا في كيدي وضري أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضر وتنفع فإنها لا تضر ولا تنفع ﴿**ثم لا تنظرون**﴾ يعني ثم لا تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه السلام وذلك أنه كان وحيداً في قومه فما قال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت إلا لثقته بالله عز وجل وتوكله عليه وهو قوله تعالى: ﴿**إني توكلت على الله ربي وربكم**﴾ يعني أنه فوض أمره إلى الله واعتمد عليه ﴿**ما من دابة**﴾ يعني تدب على الأرض ويدخل في هذا جميع بني آدم والحيوان لأنهم يدبون على الأرض ﴿**إلا هو آخذ**

﴿ **ويا قومِ استغفرُوا ربَّكم** ﴾، أي: آمنوا به، الإســتغفار ههنا بمعنى الإيمان، ﴿ **ثم تُوبُوا إليه** ﴾، من عبادة غيره ومن سالف ذنوبكم، ﴿ **يُرْسِلِ السماءَ عليكم مِّدْرَاراً** ﴾، أي: يرسل المطر عليكم متتابعاً مرة بعد أخرى في أوقات الحاجة، ﴿ **ويَزِدْكُم قُوَّةً إلى قُوَّتِكم** ﴾، أي: شدّة مع شدّتكم. وذلك أن الله عزّ وجلّ حبس عنهم المطر ثلاث سنين وأعقم أرحام نسائهم فلم يلدن، فقال لهم هود عليه السلام: إن آمنتم أرسل الله عليكم المطر فتزدادون مالاً ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت، فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد. وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة في البدن. ﴿ **ولا تتولَّوا مُجرمين** ﴾، أي: لا تدبروا مشركين.

﴿ **قالوا يا هودُ ما جئتنا ببيِّنةٍ** ﴾، أي: ببرهان وحجة واضحة على ما تقول، ﴿ **وما نحنُ بتارِكِي آلِهتِنَا عن قولِكَ** ﴾، أي: بقولك، ﴿ **وما نحنُ لكَ بمؤمنين** ﴾، بمصدّقين.

﴿ **إن نقولُ إلاّ اعتراكَ بعضُ آلِهتِنَا بسوءٍ** ﴾، يعني: ليست تتعاطى ما نتعاطاه من مخالفتنا وسبّ آلهتنا إلاّ أن بعض آلهتنا اعتراك أي: أصابك بسوء بخبل وجنون، وذلك أنك سببت آلهتنا فانتقموا منك بالتخبيل لا نحمل أمرك إلاّ على هذا، ﴿ **قال** ﴾، لهم هود، ﴿ **إني أُشْهِدُ اللَّهَ** ﴾، على نفسي، ﴿ **واشْهَدُوا** ﴾، يا قوم ﴿ **إني بريءٌ ممّا تُشركون** ﴾.

﴿ **مِنْ دُونِهِ** ﴾، يعني: الأوثان، ﴿ **فَكِيدُوني جميعاً** ﴾، فاحتالوا في مكركم وضرّي أنتم وأوثانكم، ﴿ **ثم لا تُنْظِرون** ﴾، لا تؤخّرون ولا تمهلون.

بناصيتها﴾ يعني أنه تعالى هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته، والناصية: مقدم الرأس وسمي الشعر الذي عليه ناصية للمجاورة قيل: إنما خصَّ الناصية بالذكر لأن العرب تستعمل ذلك كثيراً في كلامهم فإذا وصفوا إنساناً بالذلة مع غيره يقولون ناصية فلان بيد فلان وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته ليمنوا عليه ويعتدوا بذلك فخراً عليه فخاطبهم الله سبحانه وتعالى بما يعرفون من كلامهم ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ يعني إن ربي وإن كان قادراً وأنتم في قبضته كالعبد الذليل فإنه سبحانه وتعالى لا يظلمكم ولا يعمل إلا بالإحسان والإنصاف والعدل فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه، وقيل معناه أن دين ربي هو الصراط المستقيم وقيل فيه إضمار تقديره إن ربي يحملكم على صراط مستقيم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾

﴿فإن تولوا﴾ يعني تتولوا بمعنى تعرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم ﴿فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾ يعني أني لم يقع مني تقصير في تبليغ ما أرسلت به إليكم إنما التقصير منكم في قبول ذلك ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾ يعني أنكم إن أعرضتم عن الإيمان وقبول ما أرسلت به إليكم يهلككم الله ويستبدل بكم قوماً غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه فيه إشارة إلى عذاب الاستئصال فهو وعيد وتهديد ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ يعني بتوليكم إنما تضرون أنفسكم بذلك وقيل لا تنقصونه شيئاً إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى حافظ لكل شيء فيحفظني من أن تنالوني بسوء.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولما جاء أمرنا﴾ يعني بإهلاكهم وعذابهم ﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿برحمة منا﴾ وذلك أن العذاب إذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ يعني الريح التي أهلكت بها عاد وذلك أن الله سبحانه وتعالى

﴿إني توكلتُ﴾ أي: اعتمدتُ ﴿على اللهِ ربّي وربِّكُمْ ما مِنْ دَابّةٍ إلاّ هـو آخذٌ بناصِيتِها﴾ قال الضحاك: مُحييها ومُميتها. قال الفرّاء: مالكها والقادر عليها. وقال بعض العلماء: آخذ بناصيتها لا تتوجّه إلاّ حيث يلهمها. وقال القتيبي: يقهرها، لأن مَن أخذت بناصيته فقد قهرته. وقيل: إنما خصّ الناصية بالذكر لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنساناً بالذلّة، فتقول: ناصية فلان بيد فلان، وكانوا إذا أسروا إنساناً وأرادوا إطلاقه والمَنَّ عليه جزّوا ناصيته ليعتدّوا بذلك فخراً عليه، فخاطبهم الله بما يعرفون. ﴿إنَّ ربّي على صراطٍ مستقيم﴾، يعني: إن ربي وإن كان قادراً عليهم فإنه لا يظلمهم ولا يعمل إلاّ بالإحسان والعدل، فيجازي المُحسِن بإحسانه والمسيء بعصيانه. وقيل: معناه إن دين ربّي صراط مستقيم. وقيل: فيه إضمار، أي: إن ربّي يحثّكم ويحملكم على صراط مستقيم.

﴿فإنْ تولّوا﴾، أي: تتولّوا، يعني: تعرضوا عمّا دعوتُكم إليه، ﴿فقد أبلغتُكم ما أُرسلتُ به إليكم ويَسْتَخْلِفُ ربّي قوماً غيرَكم﴾، أي: إن أعرضتم يهلككم الله عزّ وجلّ ويستبدل قوماً غيركم أطوع منكم يوحّدُونه ويعبدونه، ﴿ولا تَضُرُّونَه شيئاً﴾، بتولّيكم وإعراضكم إنما تضرّون أنفسكم. وقيل: لا تنقصونه شيئاً إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء، ﴿إنَّ ربّي على كلِّ شيءٍ حفيظٌ﴾، أي: لكل شيء حافظ، يحفظني من أن تنالوني بسوء.

أرسل على عاد ريحاً شديدة غليظة سبع ليال وثمانية أيام حسوماً وهي الأيام النحسات فأهلكتهم جميعاً وأنجى الله المؤمنين جميعاً فلم تضرهم شيئاً، وقيل: المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة وهذا هو الصحيح ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى أنه تعالى كما أنجاهم من عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظاً لأنه أعظم من عذاب الدنيا ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله﴾ لما فرغ من ذكر قصة عاد خاطب أمة محمد ﷺ فقال وتلك عاد رده إلى القبيلة وفيه إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بها ثم وصف حالهم بقوله تعالى جحدوا بآيات ربهم يعني المعجزات التي أتى بها هود عليه السلام وعصوا رسله يعني هوداً وحده إنما أتى به بلفظ الجمع إما للتعظيم أو لأن من كذب برسول فقد كذب كل الرسل ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ يعني أن السفلة منهم اتبعوا الرؤساء والمراد من الجبار الرفيع في نفسه المتمرد على الله والعنيد المعاند الذي لا يقبل الحق ولا يتبعه.

وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ يعني أردفوا لعنة تتبعهم وتلحقهم وتنصرف معهم واللعنة الطرد والإبعاد من رحمة الله ﴿ويوم القيامة﴾ يعني وفي يوم القيامة أيضاً تتبعهم اللعنة كما تتبعهم في الدنيا، ثم ذكر سبحانه وتعالى السبب الذي استحقوا به هذه اللعنة فقال سبحانه وتعالى: ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾ أي كفروا بربهم ﴿ألا بعداً لعاد﴾ يعني هلاكاً لهم وقيل بعداً عن الرحمة.

فإن قلت: اللعنة معناها الإبعاد والهلاك فما الفائدة في قوله ألا بعداً لعاد لأن الثاني هو الأول بعينه.

قوله تعالى: ﴿ ولمّا جاءَ أمرُنا ﴾، عذابنا، ﴿ نجّينَا هوداً والذينَ آمنُوا معه ﴾، وكانوا أربعة آلاف. ﴿ برحمةٍ ﴾ بنعمة ﴿ منّا ونجّيناهم مِّنْ عذابٍ غليظٍ ﴾، وهو الريح التي أهلك بها عاداً، وقيل: العذاب الغليظ: عذاب يوم القيامة، أي: كما نجّيناهم في الدنيا من العذاب كذلك نجّيناهم في الآخرة.

﴿ وتِلْكَ عادٌ ﴾، ردّه إلى القبيلة، ﴿ جَحدُوا بآياتِ ربِّهم وعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾، يعني: هوداً وَحْدَهُ، ذكره بلفظ الجمع لأن مَن كذّب رسولاً واحداً كان كمَن كذّب جميع الرسل، ﴿ واتّبعُوا أمرَ كلّ جبّارٍ عنيدٍ ﴾ أي: واتبع السُّفَلَة والسقّاط أهل التكبّر والعناد. والجبّار: المتكبّر، والعنيد: الذي لا يقبل الحق، يقال: عَنَدَ الرجلُ يعند عنوداً إذا أبى أن يقبل الشيء وإن عرفه. وقال أبو عبيدة: العنيد والعاند والعنود والمعاند المعارض لك بالخلاف.

﴿ وأُتْبِعُوا في هذِهِ الدّنيا لعنةً ﴾، أي: أردفوا لعنة تلحقهم وتنصرف معهم، واللعنة: هي الإبعاد والطرد عن الرحمة، ﴿ ويومَ القيامة ﴾، أي: وفي يوم القيامة أيضاً لعنوا كما لعنوا في الدنيا والآخرة، ﴿ ألا إنّ عاداً كفرُوا ربَّهم ﴾، أي: بربّهم، يقال: كفرته وكفرت به، كما يقال: شكرتُه وشكرتُ له ونصحتُه ونصحتُ له. ﴿ ألا بُعْداً لعادٍ قوم هُودٍ ﴾، قيل: بعداً من رحمة الله. وقيل: هلاكاً. والبعد له معنيان: أحدهما ضدّ القرب، يقال: منه بَعُدَ

قلت: الفائدة فيه أن التكرار بعبارتين مختلفتين يدل على نهاية التأكيد وأنهم كانوا مستحقين له ﴿قوم هود﴾ عطف بيان لعاد.

فإن قلت: هذا البيان حاصل مفهوم فما الفائدة في قوله قوم هود؟

قلت: إن عاداً كانوا قبيلتين عاد الأولى القديمة التي هم قوم هود وعاد الثانية وهم إرم ذات العماد وهم العماليق فأتى بقوله قوم هود ليزول الاشتباه وجواب آخر وهو أن المبالغة في التنصيص تدل على تقوية التأكيد.

قوله عز وجل: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ يعني وأرسلنا إلى ثمود وهم سكان الحجر أخاهم صالحاً يعني في النسب لا في الدين ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي وحدوا الله وخصوه بالعبادة ﴿ما لكم من إله غيره﴾ يعني هو إلهكم المستحق للعبادة لا هذه الأصنام ثم ذكر سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ يعني أنه هو ابتدأ خلقكم من الأرض وذلك أنهم من بني آدم وآدم خلق من الأرض ﴿واستعمركم فيها﴾ يعني وجعلكم عمارها وسكانها، وقال الضحاك: أطال أعماركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة وكذلك كان قوم عاد وقال مجاهد: أعمركم من العمرى أي جعلها لكم ما عشتم ﴿فاستغفروه﴾ يعني: من ذنوبكم ﴿ثم توبوا إليه﴾ يعني من الشرك ﴿إن ربي قريب﴾ يعني من المؤمنين ﴿مجيب﴾ لدعائهم ﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾ يعني: قبل هذا القول الذي جئت به والمعنى إنا كنا نرجو أن تكون فينا سيداً لأنه كان من قبيلتهم وكان يعين ضعيفهم ويغني فقيرهم، وقيل: معناه أنا كنا نطمع أن تعود إلى ديننا فلما أظهر دعاءهم إلى الله وعاب الأصنام انقطع رجاؤهم منه ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾ يعني الآلهة ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه﴾ يعني من عبادة الله ﴿مريب﴾ يعني انا مرتابون في قولك من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس ووقوعها في التهمة ﴿قال﴾ يعني قال صالح مجيباً لقومه ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ يعني على يقين وبرهان ﴿وآتاني منه

يبعُدُ بُعْداً، والآخر: بمعنى الهلاك، يقال: منه بَعدَ يبعِدُ بُعْداً، والآخر: بمعنى الهلاك، يقال: منه بَعدَ يبعِدُ بَعَداً وبَعُداً.

قوله تعالى: ﴿ وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً ﴾، أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً في النسب لا في الدين، ﴿ قالَ يا قومِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحّدُوا اللّهَ عزّ وجلّ، ﴿ ما لكمْ مِّنْ إلَهٍ غيرُهُ هو أنشأكم ﴾، ابتدأ خلقَكُم، ﴿ مِّنَ الأرضِ ﴾، وذلك أنهم من آدم وآدم خُلق من الأرض، ﴿ واسْتَعْمَرَكم فيها ﴾، أي: جعلكم عُمّارَها وسُكّانَها. وقال الضحّاك: أطال عمركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة إلى ألف سنة، وكذلك قوم عاد. وقال مجاهد: أعمركم من العُمري، أي: جعلها لكم ما عشتم. وقال قتادة: أسكنكم فيها. ﴿ فاسْتَغْفِرُوه ثمّ تُوبُوا إليه إنّ ربِّي قريبٌ ﴾، من المؤمنين، ﴿ مُّجيبٌ ﴾ لدعائهم.

﴿ قالوا ﴾، يعني ثمود، ﴿ يا صالحُ قدْ كنتَ فينا مرجُوّاً قبلَ هذا ﴾، القول، أي: كنّا نرجو أن تكون سيّداً فينا. وقيل: كنّا نرجو أن تعود إلى ديننا، وذلك أنهم كانوا يرجون رجوعه إلى دين عشيرته، فلما أظهر دعاءهم إلى الله عزّ وجلّ وترك الأصنام زعموا أن رجاءهم انقطع عنه، فقالوا: ﴿ أتنهانا أن نعبدَ ما يعبُدُ آباؤُنا ﴾، من الآلهة، ﴿ وإنّنا لفي شكٍّ مِّمّا تدعونَا إليه مُريب ﴾، موقع للريبة والتهمة، يقال: أربتُه إرابةً إذا فعلتُ به فعلاً يوجب له الريبة.

﴿ قالَ يا قومِ أرأيتُم إنْ كنتُ على بَيِّنَةٍ مِنْ ربِّي وآتاني منه رحمةً ﴾، نبوّة وحكمة، ﴿ فَمَنْ ينصُرني مِنَ

رحمة﴾ يعني نبوة وحكمة ﴿فمن ينصرني من الله﴾ أي فمن يمنعني من عذاب الله ﴿إن عصيته﴾ يعني إن خالفت أمره ﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾ قال ابن عباس معناه غير خسارة في خسارتكم وقال الحسن بن الفضل: لم يكن صالح في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير وإنما المعنى فما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إلى الخسارة.

وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ وذلك أن قومه طلبوا أن يخرج لهم ناقة من صخرة كانت هناك أشاروا إليها فدعا الله عز وجل فأخرج لهم من تلك الصخرة ناقة عشراء ثم ولدت فصيلاً يشبهها وقوله ناقة الله إضافة تشريف كبيت الله وعبدالله فكانت هذه الناقة لهم آية ومعجزة دالة على صدق صالح عليه السلام ﴿فذروها تأكل﴾ يعني من العشب والنبات ﴿في أرض الله﴾ يعني فليس عليكم مؤنتها ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ يعني يعقر ﴿فيأخذكم﴾ يعني إن قتلتموها ﴿عذاب قريب﴾ يعني في الدنيا ﴿فعقروها﴾ يعني فخالفوا أمر ربهم فعقروها ﴿فقال﴾ يعني فقال لهم صالح ﴿تمتعوا﴾ يعني عيشوا ﴿في داركم﴾ أي في بلدكم ﴿ثلاثة أيام﴾ يعني ثم تهلكون ﴿ذلك﴾ يعني العذاب الذي أوعدهم به بعد ثلاثة أيام ﴿وعد غير مكذوب﴾ أي هو غير كذب روى أنه قال لهم يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون في اليوم الأول ووجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة وفي اليوم الثالث مسودة فكان كما قال وأتاهم العذاب في اليوم الرابع وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿فلما جاء أمرنا﴾ يعني العذاب ﴿نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ أي

﴿اللهِ﴾، أي: مَن يمنعني من عذاب الله، ﴿إنْ عصيتُه فما تَزيدُونني غيرَ تَخْسِير﴾، قال ابن عباس: معناه ما تزيدونني غير بصارة في خسارتكم. قال الحسين بن الفضل: لم يكن صالح عليه السلام في خسارة حتى قال فما تزيدونني غيرتخسير، وإنما المعنى ما تزيدونني بما تقولون من الفحش إلاّ نسبتي إيّاكم إلى الخسارة، والتفسيق والتفجير في اللغة هو: النسبة إلى الفسق والفجور، وكذلك التخسير هو: النسبة إلى الخسران.

﴿ ويا قومِ هذهِ ناقةُ اللّهِ لكم آية﴾، نصب على الحال والقطع، وذلك أن قوماً طلبوا منه أن يخرج ناقةً عشراء من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة فدعا صالح عليه السلام فخرجت منها ناقة وولدت في الحال ولداً مثلها، وقد بينّاه في سورة الأعراف. فهذا معنى قوله: ﴿ هذه ناقةُ اللّهِ لكم آيةً فَذَرُوهَا تأكلُ في أرضِ اللّهِ ﴾، من العشب والنبات فليست عليكم مؤنتها، ﴿ ولا تَمَسُّوهَا بسوء ﴾، ولا تصيبوها بعقر، ﴿ فيأخُذَكم ﴾، إن قتلتموها، ﴿ عذابٌ قريبٌ ﴾.

﴿ فعقَرُوها فقال ﴾، لهم صالح، ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾، عيشوا، ﴿ في دارِكم ﴾، أي: في دياركم، ﴿ ثلاثةَ أيام ﴾، ثم تهلكون، ﴿ ذلك وَعْدٌ غيرُ مكذُوب ﴾، أي: غير كذب. رُوِيَ أنه قال لهم: يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتُصبحون اليوم الأول ووجوهكم مصفرّة، وفي اليوم الثاني محمرّة، وفي اليوم الثالث مسودّة، فكان كما قال، وأتاهم العذاب اليوم الرابع.

قوله تعالى: ﴿ فلمّا جاءَ أمرُنا نجّينا صالحاً والذينَ آمنوا معه برحمةٍ منّا ﴾، بنعمة منّا، ﴿ ومِنْ خِزْيِ

بنعمة منا بأن هديناهم إلى الإيمان فآمنوا ﴿ومن خزي يومئذ﴾ يعني ونجيناهم من عذاب يومئذ سمي خزياً لأن فيه خزي الكافرين ﴿إن ربك﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني إن ربك يا محمد ﴿هو القوي﴾ يعني هو القادر على إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ﴿العزيز﴾ يعني القاهر الذي لا يغلبه شيء ثم أخبر عن عذاب قوم صالح فقال سبحانه وتعالى: ﴿وأخذ الذين ظلموا﴾ يعني أنفسهم بالكفر ﴿الصيحة﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعاً وقيل أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا جميعاً ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ يعني صرعى هلكى.

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ يعني كأن لم يقيموا في تلك الديار ولم يسكنوها مدة من الدهر يقال غنيت بالمكان إذا أتيته أقمت به ﴿ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾ وهذه القصص قد تقدمت مستوفاة في تفسير سورة الأعراف.

قوله عز وجل: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ أراد بالرسل الملائكة واختلفوا في عددهم، فقال ابن عباس وعطاء: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقال الضحاك: كانوا تسعة وقال مقاتل كانوا اثني عشر ملكاً، وقال محمد بن كعب القرظي: كان جبريل ومعه سبعة أملاك وقال السدي: كانوا أحد عشر ملكاً على صور الغلمان الحسان الوجوه وقول ابن عباس: هو الأولى لأن أقل الجمع ثلاثة وقوله رسلنا جمع فيحمل على الأقل وما بعده غير مقطوع به بالبشرى يعني بالبشارة بإسحاق ويعقوب وقيل: بإهلاك قوم لوط ﴿قالوا سلاماً﴾ يعني أن الملائكة سلموا سلاماً ﴿قال﴾ يعني لهم إبراهيم ﴿سلام﴾ أي عليكم أو أمركم سلام ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ يعني: مشوياً والمحنوذ هو المشوي على الحجارة المحماة في حفرة من الأرض وهو من فعل أهل البادية وكان سميناً يسيل منه

يومئذٍ﴾، أي: من عذابه، وهو أنه قرأ أبو جعفر ونافع والكسائي ﴿ خزي يومَئذ ﴾ ﴿ وعذاب يومَئذ ﴾ [المعارج ١١] بفتح الميم. وقرأ الباقون بالكسر. ﴿ **إنّ رَبَّكَ هو القوي العزيز** ﴾.

﴿ **وأخذَ الذينَ ظلَموا** ﴾، كفروا، ﴿ **الصيحةُ** ﴾، وذلك أنّ جبريل عليه السلام صاح عليهم صيحة واحدة فهلكوا جميعاً. وقيل: أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم. وإنما قال: ﴿ **أخذ** ﴾ والصيحة مؤنثة لأن الصيحة بمعنى الصياح. ﴿ **فأصبحُوا في دِيارِهم جاثمين** ﴾، صَرْعَى هلكَى.

﴿ **كأنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها** ﴾، يقيموا ويكونوا، ﴿ **ألا إنّ ثموداً كفرُوا ربَّهم ألا بُعْداً لثمودَ** ﴾، قرأ حمزة وحفص ويعقوب: «ثمود» غير منوّن، وكذلك في سورة الفرقان [٣٨] والعنكبوت [٣٨] والنجم [٥١] وافق أبو بكر في النجم، وقرأ الباقون بالتنوين، وقرأ الكسائي «لثمود» بخفض الدال والتنوين، والباقون بنصب الدال، فمَن جرّه فلأنه اسم مذكّر، ومَن لم يجرّه جعله اسماً للقبيلة.

قوله تعالى: ﴿ **ولقدْ جاءتْ رُسُلنا إبراهيم بالبُشْرَى** ﴾، أراد بالرسل الملائكة عليهم السلام. واختلفوا في

الودك قال قتادة: كان عامة مال إبراهيم عليه السلام البقر، وقيل: مكث إبراهيم عليه السلام خمس عشرة ليلة لم يأته ضيف فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا يأكل إلا معه فلما جاءت الملائكة رأى أضيافاً لم ير مثلهم قط فعجل قراهم وجاءهم بعجل سمين مشوي ﴿فلما رأى أيديهم﴾ يعني أيدي الأضياف ﴿لا تصل إليه﴾ يعني إلى العجل المشوي ﴿نكرهم﴾ يعني أنكرهم وأنكر حالهم وإنما أنكر حالهم لامتناعهم من الطعام ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ يعني ووقع في قلبه خوف منهم والوجوس هو رعب القلب وإنما خاف إبراهيم ﷺ منهم لأنه كان ينزل ناحية من الناس فخاف أن ينزلوا به مكروهاً لامتناعهم من طعامه ولم يعرف أنهم ملائكة وقيل إن إبراهيم عرف أنهم ملائكة لما قدمه إليهم لمعلمه أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولأنه خافهم ولو عرف أنهم ملائكة وإنما خاف أن يكونوا نزلوا بعذاب قومه فخاف من ذلك والأقرب أن إبراهيم عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة في أول الأمر ويدل على صحة هذا أنه عليه السلام قدم إليهم الطعام ولو عرف أنهم ملائكة لما خافهم فلما رأت الملائكة خوف إبراهيم عليه السلام ﴿قالوا لا تخف﴾ يا إبراهيم ﴿إنا﴾ ملائكة الله ﴿أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته﴾ يعني سارة زوجة إبراهيم وهي ابنة هاران بن ناحوراء وهي ابنة عم إبراهيم ﴿قائمة﴾ يعني من وراء الستر تسمع كلامهم، وقيل: كانت قائمة في خدمة الرسل وإبراهيم جالس معهم ﴿فضحكت﴾ أصل الضحك انبساط الوجه من سرور يحصل للنفس ولظهور الأسنان عنده سميت مقدمات الأسنان الضواحك ويستعمل في السرور المجرد وفي التعجب المجرد أيضاً وللعلماء في تفسير هذا الضحك قولان أحدهما أنه الضحك المعروف وعليه أكثر المفسرين ثم اختلفوا في سبب هذا الضحك فقال السدي لما قرب إبراهيم الطعام إلى أضيافه فلم يأكلوا خاف إبراهيم منهم فقال ألا تأكلون فقالوا إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن قال فإن له ثمناً قالوا وما ثمنه قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة وقالت يا عجباً لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا، وقال قتادة: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم، وقال مقاتل والكلبي: ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه وخواصه وقيل: ضحكت من زوال الخوف عنها وعن إبراهيم وذلك أنها خافت لخوفه فحين قالوا لا تخف ضحكت سروراً وقيل ضحكت سروراً

عددهم، فقال ابن عباس وعطاء: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقال الضحّاك: كانوا تسعة. وقال مقاتل: كانوا اثني عشر مَلَكاً. وقال محمد بن كعب: كان جبريل ومعه سبعة. وقال السدي: كانوا أحد عشر مَلَكاً على صورة الغلمان الوضّاء وجوههم، بالبشرى بالبشارة بإسحق ويعقوب. وقيل: بإهلاك قوم لوط. ﴿ قالوا سلاماً ﴾، أي: سلّموا سلاماً، ﴿ قال ﴾ إبراهيم ﴿ سلامٌ ﴾، أي: عليكم سلام: وقيل: هو رفع على الحكاية، كقوله تعالى: ﴿ وقولُوا حِطّةٌ ﴾ [البقرة: ٥٨، الأعراف: ١٦١]، وقرأ حمزة والكسائي «سِلْم» ههنا وفي سورة الذاريات [٢٥] بكسر السين بلا ألف. وقيل: هو بمعنى السلام. كما يقال: حِل وحَلال وحِرم وحَرام. وقيل: هو بمعنى الصلح، أي: نحن سلم أي صلح لكم غير حرب. ﴿ فما لبثَ أن جاءَ بعجلٍ حَنِيذٍ ﴾، والحنيذ المحنوذ وهو المشوي على الحجارة في خَدٍّ من الأرض، وكان سميناً يسيل دسماً، كما قال في موضع آخر: ﴿ فجاء بِعِجْلٍ سمين ﴾ [الذاريات: ٢٦]: قال قتادة: كان عامّة مال إبراهيم البقر.

﴿ فلمّا رأى أيديهم لا تصلُ إليه ﴾، أي: إلى العجل، ﴿ نَكِرَهم ﴾، أنكرهم، ﴿ وأوْجَسَ ﴾، أضمر، ﴿ منهم خِيفَةً ﴾، خوفاً. قال مقاتل: وقع في قلبه، وأصل الوجوس: الدخول، كان الخوف دخل قلبه. وقال قتادة: وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف لم يأكل من طعامهم ظنّوا أنه لم يأتِ بخيرٍ وإنما جاء بشر. ﴿ قالُوا لَا تخفْ ﴾، يا إبراهيم، ﴿ إنّا ﴾ ملائكة الله ﴿ أُرْسِلْنَا إلى قومِ لُوطٍ ﴾.

بالبشارة، وقال ابن عباس ووهب: ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها فعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره فبشّرناها بإسحاق فضحكت يعني تعجباً من ذلك وقيل إنها قالت لإبراهيم أضمم إليك ابن أخيك لوطاً فإن العذاب نازل بقومه فلما جاءت الرسل وبشّرت بعذابهم سُرت سارة بذلك وضحكت لموافقة ما ظنت.

القول الثاني: في معنى قوله فضحكت قال عكرمة ومجاهد أي حاضت في الوقت وأنكر بعض أهل اللغة ذلك، قال الراغب: وقول من قال حاضت ليس ذلك تفسيراً لقوله فضحكت كما تصوره بعض المفسرين فقال ضحكت بمعنى حاضت وإنما ذكر ذلك تنصيصاً لحالها فإن جعل ذلك أمارة لما بشرت به بحيضها في الوقت لتعلم أن حملها ليس بمنكر لأن المرأة ما دامت تحيض فإنها تحمل وقال الفراء: ضحكت بمعنى حاضت لم نسمعه من ثقة، وقال الزجاج: ليس بشيء ضحكت بمعنى حاضت، وقال ابن الأنباري: قد أنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت وقد عرفه غيرهم وأنشد:

تضحـــك الضبـــع لقتلـــى هـــذيـــل وتـــرى الـــذئـــب بهـــا يستهـــل

قال: أراد أنها تحيض فرحاً وقال الليث في هذه الآية فضحكت أي طمثت وحكى الأزهري عن بعضهم في قوله فضحكت أي حاضت قال: ويقال أصله من ضحاك الطلعة إذا انشقت، قال: وقال الأخطل فيه بمعنى الحيض:

تضحـــك الضبـــع مـــن دمـــاء سليـــم إذ رأتهـــا علـــى الحـــراب تمـــور

وقال في المحكم: ضحكت المرأة حاضت وبه فسر بعضهم قوله سبحانه وتعالى فضحكت فبشرناها بإسحاق وضحكت الأرنب ضحكاً يعني حاضت حيضاً قال:

وضحـــك الأرنـــب فـــوق الصفـــا كمثـــل دم الخـــوف يـــوم اللقـــا

يعني الحيض فيما زعم بعضهم وأجاب عن هذا من أنكر أن يكون الضحك بمعنى الحيض، قال: كان ابن دريد يقول من شاهد الضبع عند كشرها علم أنها تحيض وإنما أراد الشاعر تكشر لأكل اللحوم وهذا سهو منه لأنه جعل

﴿ وامرأتُهُ ﴾ سارة بنت هاران بن أحور وهي ابنة عمّ إبراهيم. ﴿ قائمةٌ ﴾ من وراء الستر تسمع كلامهم. وقيل: كانت قائمة تخدم الرُّسل وإبراهيم جالس معهم. ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾، قال مجاهد وعكرمة: ضحكتْ أي: حاضت في الوقت، تقول العرب: ضحكت الأرنب، أي: حاضت. والأكثرون على أن المراد منه الضحك المعروف. واختلفوا في سبب ضحكها، فقيل: ضحكت لزوال الخوف عنها وعن إبراهيم حين قالوا لا تخف. وقال السدي: لما قرّب إبراهيم الطعام إليهم فلم يأكلوا خاف إبراهيم وظنهم لصوصاً فقال لهم: ألا تأكلون؟ قالوا: إنّا لا نأكل طعاماً إلّا بثمن، قال إبراهيم: فإن له ثمناً، قالوا وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل عليهم الصلاة والسلام، وقال: حقّ لهذا أن يتخذه ربُّه خليلاً، فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة، وقالت: يا عجباً لأضيافنا إنّا نخدمهم بأنفسنا تكرمةً لهم وهم لا يأكلون طعامنا. وقال قتادة: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم. وقال مقاتل والكلبي: ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة في بيته وهو فيما بين خدمه وحشمه. وقيل: ضحكت سروراً بالبشارة. وقال ابن عباس ووهب: ضحكت تعجّباً من أن يكون لها ولد على كبر سنّها وسنّ زوجها. وعلى هذا القول تكون الآية على التقديم والتأخير، تقديره: وامرأتُه قائمةٌ فبشّرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب. فضحكتْ، وقالت: يا ويلتي أأَلِدُ وأنا عجوزٌ؟ قوله تعالى: ﴿ فبشَّرناها بإسحقَ ومِنْ وراءِ إسحقَ ﴾، أي: من بعد إسحق، ﴿ يعقوبَ ﴾، أراد به ولداً

كشرها حيضاً، وقيل: معناه أنها تستبشر بالقتلى فتهز بعضها على بعض فجعل هزيزها ضحكاً، وقيل: لأنها تسر بهم فجعل سرورها ضحكاً.

فإن قلت أي القولين أصح في معنى الضحك قلت إن الله عز وجل حكى عنها أنها ضحكت وكلا القولين محتمل في معنى الضحك فالله أعلم أي ذلك كان وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ يعني: ومن بعد إسحاق يعقوب وهو ولد الولد فبشرت سارة بأنها تعيش حتى ترى ولد ولدها فلما بشرت بالولد صكت وجهها أي ضربت وجهها وهو من صنيع النساء وعادتهن وإنما فعلت ذلك تعجباً.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿قالت يا ويلتا﴾ نداء ندبة وأصلها يا ويلتاه وهي كلمة يستعملها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه مثل يا عجباه ﴿أألد وأنا عجوز﴾ وكانت بنت تسعين سنة في قول ابن إسحاق، وقال مجاهد: كانت بنت تسع وتسعين سنة ﴿وهذا بعلي﴾ يعني زوجي والبعل هو المستعلي على غيره ولما كان زوج المرأة مستعلياً عليها قائماً بأمرها سمي بعلاً لذلك ﴿شيخاً﴾ وكان سن إبراهيم يومئذ مائة وعشرين سنة في قول محمد بن إسحاق وقال مجاهد مائة سنة وكان بين الولادة والبشارة سنة ﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ لم تنكر قدرة الله سبحانه وتعالى وإنما تعجبت من كون الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يولد لهما ﴿قالوا﴾ يعني قالت الملائكة لسارة ﴿أتعجبين من أمر الله﴾ معناه لا تعجبي من ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء فإذا أراد شيئاً كان سريعاً ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ يعني: بيت إبراهيم عليه السلام وهذا على معنى الدعاء من الملائكة لهم بالخير والبركة وفيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته ﴿إنه حميد﴾ يعني: هو المحمود الذي يحمد على أفعاله كلها وهو المستحق لأن يحمد في السراء والضراء والشدة والرخاء فهو محمود على كل حال ﴿مجيد﴾ ومعناه المنيع الذي لا يرام، وقال الخطابي: المجيد الواسع الكرم، وأصل المجد في كلامهم: السعة يقال رجل ماجد إذا كان سخياً كريماً واسع العطاء وقيل الماجد هو ذو الشرف والكرم قوله سبحانه وتعالى:

لولد فبشّرت أنها تعيش حتى ترى ولد ولدها قرأ ابن عامر وحمزة وحفص ويعقوب بنصب الباء، أي: من وراء إسحق يعقوب. وقيل: بإضمار فعل، أي: ووهبنا له يعقوب. وقرأ الباقون بالرفع على حذف حرف الصفة. وقيل: ومن بعد إسحق يحدث يعقوب، فلما بشّرت بالولد ضحكت فصكّت وجهها، أي: ضربت وجهها تعجّباً.

﴿ قالَتْ يا وَيْلَتَـا ﴾، نداء ندبة وهي كلمة يقولها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه، أي: يا عجباً. والأصل يا ويلتاه. ﴿ أَأَلِدُ وأنا عجوزٌ ﴾، وكانت ابنة تسعين سنة في قول ابن إسحق. وقال مجاهد: تسعاً وتسعين سنة. ﴿ وهذا بَعْلِي ﴾، أي: زوجي، سُمّي بذلك لأنّه قيّم أمرها، ﴿ شيخاً ﴾؛ نصب على الحال، وكان سنُّ إبراهيم مائة وعشرين سنة في قول ابن إسحق. وقال مجاهد: مائة سنة، وكان بين البشارة والولادة سنة، ﴿ إنَّ هذا لَشيءٌ عجيبٌ ﴾.

﴿ قالوا ﴾، يعني الملائكة، ﴿ أتعجبينَ من أمرِ اللّهِ ﴾، معناه لا تعجبي من أمر الله، فإنَّ اللّهَ عَزّ وجلّ إذا أراد شيئاً كان. ﴿ رحمةُ اللّهِ وبركاتُه عليكم أهلَ البيتِ ﴾، أي: بيت إبراهيم عليه السلام. قيل: هذا على معنى الدعاء معنى الخير والرحمة والنعمة. والبركاتُ جمع البركة، وهي ثبوت الخير. وفيه دليل على أن الأزواج من أهل البيت. ﴿ إنّه حَمِيدٌ مجيدٌ ﴾، فالحميد: المحمود في أفعاله، والمجيد: الكريم، وأصل المجد الرّفعة.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ يعني: الفزع والخوف الذي حصل له عند امتناع الملائكة من الأكل ﴿وجاءته البشرى﴾ يعني زال عنه الخوف بسبب البشرى التي جاءته وهي البشارة بالولد ﴿يجادلنا﴾ فيه إضمار تقديره أخذ يجادلنا أو جعل يجادلنا ويخاصمنا وقيل معناه يكلمنا ويسألنا ﴿في قوم لوط﴾ لأن العبد لا يقدر أن يخاصم ربه وقال جمهور المفسرين: معناه يجادل رسلنا في قوم لوط وكانت مجادلة إبراهيم مع الملائكة أن قال لهم أرأيتم لو كان في مدائن قوم لوط خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فما زال كذلك حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرأيتم لو كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا قال إبراهيم فإن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا أمرأته كانت من الغابرين وقيل إنما طلب إبراهيم تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون أو يرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي، قال ابن جريج: كان في قرى قوم لوط أربعة آلاف مقاتل ﴿إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾ تقدم تفسيره في سورة التوبة فعند ذلك قالت الملائكة لإبراهيم ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ يعني أعرض عن هذا المقال واترك هذا الجدال ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ يعني: إن ربك قد حكم بعذابهم فهو نازل بهم وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ يعني أن العذاب الذي نزل بهم غير مصروف ولا مدفوع عنهم.

وقوله عز وجل: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً﴾ يعني: هؤلاء الملائكة الذين كانوا عند إبراهيم وكانوا على صورة غلمان مرد حسان الوجوه ﴿سيء بهم﴾ يعني أحزن لوط بمجيئهم إليه وساء ظنه بقومه ﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ قال الأزهري: الذي يوضع موضع الطاقة والأصل فيه أن البعير يذرع بيديه في سيره ذرعاً على قدر سعة خطوه فإذا حمل

﴿ فلمّا ذهبَ عن إبراهيمَ الرَّوْعُ ﴾، الخوف، ﴿ وجاءَتْهُ البُشْرَى ﴾، بإسحق ويعقوب، ﴿ يُجادِلُنَا في قومِ لوطٍ ﴾، فيه إضمار، أي: أخذ وظل يجادلنا. قيل: معناه يكلمنا لأن إبراهيم عليه السلام لا يجادل ربَّه عزّ وجلّ إنما يسأله ويطلب إليه. وقال عامّة أهل التفسير: معناه يجادل رسلنا وكانت مجادلته أنه قال للملائكة أرأيتم لو كان في مدائن لوط خمسون من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: أو أربعون؟ قالوا: لا، قال: أو ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسةً، قالوا: لا، قال: أرأيتُم إنْ كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال لهم إبراهيم عند ذلك: إن فيها لوطاً، قالوا: نحن أعلم بمَن فيها، لننجينّه وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين، فذلك قوله إخباراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ يُجادِلُنا في قوم لوط ﴾.

﴿ إنَّ إبراهيمَ لحليمٌ أوّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾، قال ابن جريج: وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف فقالت الرسل عند ذلك لإبراهيم:

﴿ يا إبراهيمُ أعرضْ عن هذا ﴾، أي: أعرض عن هذا المقال ودعْ عنك الجدال، ﴿ إنه قدْ جاءَ أمرُ ربِّكَ ﴾، أي، عذاب ربّك وحكم ربّك، ﴿ وإنَّهم آتيهم ﴾، نازل بهم، ﴿ عذابٌ غيرُ مردُودٍ ﴾، أي: غير مصروف عنهم.

قوله تعالى: ﴿ ولمّا جاءَتْ رسلُنا ﴾، يعني: هؤلاء الملائكة، ﴿ لوطاً ﴾، على صورة غلمان مرد حِسان

عليه أكثر من طوقه ضاق ذرعه من ذلك وضعف ومد عنقه فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة والمعنى وضاق بهم ذرعاً إذا لم يجد من المكروه في ذلك الأمر مخلصاً، وقال غيره: معناه ضاق بهم قلباً وصدراً ولا يعرف أصله إلا أن يقال إن الذرع كناية عن الوسع، والعرب تقول: ليس هذا في يدي يعنون ليس هذا في وسعي لأن الذراع من اليد ويقال ضاق فلان ذرعاً بكذا إذا وقع في مكروه ولا يطيق الخروج منه وذلك أن لوطاً عليه السلام لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه وخاف أن يقصدوهم بمكروه أو فاحشة وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم ﴿وقال﴾ يعني لوطاً ﴿هذا يوم عصيب﴾ أي: شديد كأنه قد عصب به الشر والبلاء أي شد به مأخوذ من العصابة التي تشد بها الرأس، قال قتادة والسدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوا لوطاً نصف النهار وهو يعمل في أرض له وقيل أنه كان يحتطب وقد قال الله سبحانه وتعالى للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فاستضافوه فانطلق بهم فلما مشى ساعة قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرهم قال أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً يقول ذلك أربع مرات فمضوا معه حتى دخلوا منزله وقيل: إنه لما حمل الحطب ومعه الملائكة مر على جماعة من قومه فتغامزوا فيما بينهم فقال لوط إن قومي شر خلق الله تعالى، فقال جبريل: هذه واحدة فمر على جماعة أخرى فتغامزوا فقال مثله ثم مر على جماعة أخرى ففعلوا ذلك وقال لوط مثل ما قال أولاً حتى قال ذلك أربع مرات وكلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة اشهدوا وقيل إن الملائكة جاءوا إلى بيت لوط فوجدوه في داره فدخلوا عليه ولم يعلم أحد بمجيئهم إلا أهل بيت لوط فخرجت امرأته الخبيثة فأخبرت قومها وقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط ولا أحسن منهم.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ قال ابن عباس وقتادة يسرعون إليه وقال مجاهد يهرولون، وقال الحسن: الإهراع

الوجوه، ﴿ سِيءَ بهم ﴾، أي: حزن لوط بمجيئهم سؤته فسيء، كما يقال: سررته فسُرّ. ﴿ وضاقَ بهم ذَرْعاً ﴾، أي: قلباً. يقال: ضاق ذرع فلان بكذا إذا وقع في مكروه لا يطيق الخروج منه، وذلك أن لوطاً عليه السلام لمّا نظر إلى حُسْن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه أن يقصدوهم بالفاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم. ﴿ وقالَ هذا يومٌ عصيبٌ ﴾، أي: شديد كأنه عصب به الشر والبلاء، أي: شدَّ. قال قتادة والسدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام نحو قرية قوم لوط فأتوا لوطاً نصف النهار وهو في أرض له يعمل فيها. وقيل: إنه كان يحتطب. وقد قال الله تعالى للملائكة: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطاً أربع شهادات، فاستضافوه فانطلق بهم، فلما مشى بهم ساعة قال لهم: ما بلغكم أمر أهل هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشرّ قرية في الأرض عملاً يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله. ورُوِيَ: أنه حمل الحطب وتبعته الملائكة فمرّ على جماعة من قومه فغمزوا فيما بينهم، فقال لوط: إن قومي شرّ خلق الله، ثم مرّ على قوم آخرين، فغمزوا، فقال مثله، ثم مرّ بقوم فقال مثله، ثم مرّ بقوم آخرين، فقال مثله، فكان كلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة: اشهدوا حتى أتى منزله. ورُوِيَ: أن الملائكة جاؤوا إلى بيت لوط فوجدوه في داره ولم يعلم بذلك أحد إلاّ أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، وقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيتُ مثل وجوههم قطّ.

﴿ وجاءَه قومُه يهرعُون إليه ﴾، قال ابن عباس وقتادة: يسرعون إليه. وقال مجاهد: يهرولون، وقال الحسن:

هو مشي بين مشيين وقال شمر هو بين الهرولة والخبب والجمز ﴿ومن قبل﴾ يعنى ومن قبل مجيء الرسل إليهم قيل ومن قبل مجيئهم إلى لوط ﴿كانوا يعملون السيئات﴾ يعني الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهي إتيان الرجال في أدبارهم ﴿قال﴾ يعني: قال لوط لقومه حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان من بني آدم ﴿يا قوم هؤلاء بناتي﴾ يعني أزوجكم إياهن وقى أضيافه ببناته قيل إنه كان في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة تزويج المرأة المسلمة بالكافر، وقال الحسن بن الفضل: عرض بناته عليهم بشرط الإسلام، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: أراد ببناته نساء قومه وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبي أبو أمته وهو كالوالد لهم وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب إن شاء الله تعالى والدليل عليه أن بنات لوط كانتا إثنتين وليستا بكافيتين للجماعة وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الأنبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار وقيل إنما قال ذلك لوط على سبيل الدفع لقومه لا على سبيل التحقيق وفي قوله ﴿هن أطهر لكم﴾ سؤال وهو أن يقال أن قوله هن أطهر لكم من باب أفعل التفضيل فيقتضي أن يكون الذي يطلبونه من الرجال طاهراً ومعلوم أنه محرم فاسد نجس لا طهارة فيه البتة فكيف قال هن أطهر لكم والجواب عن هذا السؤال إن هذا جار مجرى قوله ذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم ومعلوم أن شجرة الزقوم لا خير فيها وكقوله ﷺ لما قال يوم أحد اعل هبل قال الله أعلى وأجل إذ لا مماثلة بين الله عز وجل والصنم وإنما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظائر كثيرة.

وقوله ﴿فاتقوا الله﴾ يعني خافوه وراقبوه واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان ﴿ولا تخزون في ضيفي﴾ يعني ولا تسوءوني في أضيافي ولا تفضحوني معهم ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ أي صالح سديد عاقل، وقال عكرمة: رجل يقول لا إله إلا الله، وقال محمد بن إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ينهى عن هذا الفعل القبيح ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ يعني ليس لنا بهن حاجة ولا لنا فيهن شهوة وقيل معناه ليست بناتك لنا بأزواج ولا مستحقين نكاحهن وقيل معناه مالنا في بناتك من حاجة لأنك دعوتنا إلى نكاحهن بشرط الإيمان ولا نريد ذلك ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ يعني من إتيان الرجال في أدبارهم فعند ذلك ﴿قال﴾ لوط عليه السلام ﴿لو أن لي بكم قوة﴾ أي لو أني أقدر أن أتقوى عليكم ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ يعني أو أنضم إلى عشيرة يمنعوني منكم، وجواب لو محذوف تقديره لو وجدت قوة لقاتلتكم أو لوجدت عشيرة لانضممت إليهم قال أبو هريرة: ما بعث الله نبياً بعده إلا في

مشى بين مشيتين، قال شمر بن عطية: بين الهرولة والجمز. ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾، أي: من قبل مجيئهم إلى لوط، ﴿ كانُوا يعملُون السيآتِ ﴾، كانوا يأتون الرجال في أدبارهم. ﴿ قال ﴾، لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنّوا أنهم غلمان، ﴿ يا قوم هؤلاء بناتي هُنَّ أطهرُ لكم ﴾، يعني: بالتزويج، وفي أضيافه ببناته، وكان في ذلك الوقت، تزويج المسلمة من الكافر جائزاً كما زوّج النبي ﷺ ابنته من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين. وقال الحسين بن فضل: عرض بناته عليهم بشرط الإسلام. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: قوله: ﴿ بناتي هُنَّ أطهرُ لكم ﴾، أراد نساءهم وأضاف إلى نفسه لأنّ كلّ نبي أبو أُمته. وفي قراءة أُبيّ بن كعب: ﴿ النبيُّ أوْلَى بالمؤمنينَ مِنْ أنفسهم وأزواجهُ أُمهاتُهم ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهو أب لهم. وقيل: ذكر ذلك على سبيل الدفع لا على التحقيق، فلم يرضوا هذا القول. ﴿ فاتّقوا اللّهَ ولا تُخزونِ في ضيفي ﴾، أي: خافوا اللّهَ ولا تخزونِ في ضيفي، أي: لا تَسُوؤُني ولا تفضحُوني في أضيافي. ﴿ أليسَ مِنْكُم رجلٌ رَّشيدٌ ﴾، صالح سديد. وقال عكرمة: رجل يقول لا إلّه إلاّ الله. وقال ابن إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

﴿ قالوا لقدْ علمتَ ﴾، يا لوط، ﴿ مَا لَنا في بناتِكَ مِنْ حقٍّ ﴾، أي: لسن أزواجاً لنا فنستحقهنّ بالنكاح. وقيل: معناه مَا لَنا فيهنّ من حاجة وشهوة. ﴿ وإنّك لتعلمُ ما نُريد ﴾، من إتيان الرجال.

منعة من عشيرته (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته» قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله: المراد بالركن الشديد هو الله عز وجل فإنه أشد الأركان وأقواها وأمنعها ومعنى الحديث أن لوطاً عليه السلام لما خاف على أضيافه ولم تكن له عشيرة تمنعهم من الظالمين ضاق ذرعه واشتد حزنه عليهم فغلب ذلك عليه فقال في تلك الحال لو أن لي بكم قوة في الدفع بنفسي أو آوي إلى عشيرة تمنع لمنعتكم وقصد لوط إظهار العذر عند أضيافه وأنه لو استطاع لدفع المكروه عنهم ومعنى باقي الحديث فيما يتعلق بيوسف عليه السلام يأتي في موضعه من سورة يوسف إن شاء الله تعالى، قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وجعل يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وقومه يعالجون سور الدار فلما رأت الملائكة ما لقي لوط بسببهم.

قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾

﴿قالوا يا لوط﴾ ركنك شديد ﴿إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ يعني بمكروه فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه عز وجل في عقوبتهم فأذن له فتحول إلى صورته التي يكون فيها ونشر جناحيه وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حبك مثل المرجان كأنه كالثلج بياضاً وقدماه إلى الخضرة فضرب بجناحيه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء في بيت لوط أسحر قوم في الأرض قد سحرونا وجعلوا يقولون يا لوط كما أنت

﴿ قال ﴾، لهم لوط عند ذلك: ﴿ لو أن لي بكم قوّة ﴾، أراد قوة البدن والقوة بالأتباع، ﴿ أو آوي إلى رُكنٍ شديدٍ ﴾، أي: أنضم إلى عشيرة مانعة. وجواب ﴿ لو ﴾ مضمر أي لقتلناكم وحملنا بينكم وبينهم، قال أبو هريرة: ما بعث الله بعده نبيّاً إلّا في منعة من عشيرته. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنبأنا أبو اليمان أنبأنا شعيب بن أبي حمزة أنبأنا أبو الزناد عن الأعرج أن النبيَّ ﷺ قال: «يغفرُ اللَّهُ للوطٍ إنْ كانَ ليَأوي إلى رُكنٍ شديدٍ» قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّرَ الجدار، فلما رأتِ الملائكة ما يلقى لوطٌ بسببهم.

﴿ قالوُا يا لوطُ ﴾، إن رُكنك لشديد، ﴿ إنَّا رُسلُ ربِّك لنْ يصلوُا إليك ﴾، فافتح الباب ودعنا وإيَّاهم، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربَّه عزّ وجلّ في عقوبتهم، فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وعليه وشاح من دُرٍّ منظوم، وهو بُراق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حبك مثل المرجان كأنه الثلج بياضاً وقدماه إلى الخضر، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعمى أبصارهم، فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون: النجاء النجاء، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض سحرونا، وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى تصبح فسترى ما تلقى منّا غداً يوعدونه، فقالت الملائكة: لا تخف إنّا أُرسِلْنَا لإهلاكهم، فقال لوط للملائكة: متى موعد إهلاكهم؟ فقالوا: الصبح، قال: أريد أسرع من ذلك فلو أهلكتموهم الآن، فقالوا: ﴿ أليس الصبحُ بقريب ﴾ ثم قالوا: ﴿ فأسْرِ ﴾، يا لوط، ﴿ بأهلِكَ ﴾، قرأ أهل الحجاز «فاسْرِ وأنِ اسْرِ» بوصل

حتى تصبح وسترى ما تلقى منا غداً يوعدونه بذلك ﴿**فأسر بأهلك**﴾ يعني ببيتك ﴿**بقطع من الليل**﴾ قال ابن عباس: بطائفة من الليل، وقال الضحاك: لبقية من الليل، وقال قتادة: بعد مضي أوله وقيل أنه السحر الأول ﴿**ولا يلتفت منكم أحد**﴾ يعني ولا يلتفت منكم أحد إلى ورائه ولا ينظر إلى خلفه ﴿**إلا امرأتك**﴾ فإنها من الملتفتات فتهلك مع من هلك من قومها وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إنه مصيبها ما أصابهم**﴾ فقال لوط: متى يكون هذا العذاب قالوا ﴿**إن موعدهم الصبح**﴾ قال لوط إنه بعيد أريد أسرع من ذلك فقالوا له ﴿**أليس الصبح بقريب**﴾ فلما خرج لوط من قريته أخذ أهله معه وأمرهم ألا يلتفت منهم أحد فقبلوا منه إلا امرأته فإنها لما سمعت هذه العذاب وهو نازل بهم التفتت وصاحت وا قوماه فأخذتها حجارة فأهلكتها معهم ﴿**فلما جاء أمرنا**﴾ يعني أمرنا بالعذاب ﴿**جعلنا عاليها سافلها**﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط وهي خمس مدائن أكبرها سدوم وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة ويقال كان فيها أربعمائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف فرفع جبريل المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب لم يكفأ لهم إناء ولم ينتبه لهم نائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها ﴿**وأمطرنا عليها**﴾ يعني على شذاذها ومن كان خارجاً عنها من مسافريها وقيل بعد ما قلبها أمطر عليهم ﴿**حجارة من سجيل**﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير: معناه سنك كل فارسي معرب لأن العرب تكلمت بشيء من الفارسي صارت لغة للعرب ولا يضاف إلى الفارسي مثل قوله سندس وإستبرق ونحو ذلك فكل هذه ألفاظ فارسية تكلمت بها العرب واستعملتها في ألفاظهم فصارت عربية، قال قتادة وعكرمة: السجيل الطين دليله قوله في موضع آخر حجارة من طين. وقال مجاهد: أولها حجر وآخرها طين، وقال الحسن: أصل الحجارة طين فشدت، وقال الضحاك: يعني الآجر وقيل: السجيل

الألف حيث وقع في القرآن مَن سرى يسري، وقرأ الباقون بقطع الألف من أسرى يسري، ومعناهما واحد وهو المسير بالليل. ﴿**بقطع مِّنَ الليلِ**﴾، قال ابن عباس: بطائفة من الليل. وقال الضحاك: ببقية. وقال قتادة: بعد مضي أوله. وقيل: إنه السحر الأول. ﴿ **ولا يلتفتْ منكم أحدٌ إلاّ امرأتَك** ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو « مرأتُك » برفع التاء على الاستثناء من الالتفات، أي: لا يلتفت منكم أحدٌ إلاّ امرأتُك فإنها تلتفت فتهلك وكان لوط قد أخرجها معه، ونهى مَن معه ممّن أسرى بهم أن يلتفت سوى زوجته فإنها لما سمعت هدّة العذاب التفتت، وقالت: يا قوماه فأدركها حجر فقتلها. وقرأ الآخرون بنصب التاء على الاستثناء من الإسراء أي: فأسْر بأهلك إلاّ امرأتك فلا تَسْرِ بها وخلفها مع قومها، فإنّ هَوَاهَا إليهم، وتصديقه قراءة ابن مسعود: « فأسْر بأهلك بقطع من الليل إلاّ امرأتك ولا يلتفتْ منكم أحد ». ﴿ **إنّه مُصيبُها ما أصابهم** ﴾، من العذاب، ﴿ **إنَّ موعدَهُمُ الصُّبْحُ** ﴾، أي: موعد هلاكهم وقت الصبح، فقال لوط: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿ **أليسَ الصُّبْحُ بقريبٍ** ﴾.

قوله: ﴿ **فلما جاء أمرُنا** ﴾ عذابُنا، ﴿ **جعلنَا عاليهَا سافلَها** ﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات وهي خمس مدائن، وفيها أربعمائة ألف. وقيل: أربعة آلاف ألف، فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة، ونباح الكلاب، فلم يُكفأ لهم إناءٌ ولم ينتبه نائمٌ، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها. ﴿ **وأمطرنَا عليها** ﴾، أي على شذّاذها ومُسافريها. وقيل: بعدما قلبها أمطر عليها، ﴿ **حجارةً مِّن سِجّيل** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير (سنك كل) فارسي معرب. وقال قتادة وعكرمة: السجّيل الطين، دليله قوله عزّ وجلّ: ﴿ لنُرْسِلَ عليهم حجارةً من طين ﴾ [الذاريات: ٣٣]، قال مجاهد: أولها حجر وآخرها طين. وقال الحسن: كان أصل الحجارة طيناً فشددت. وقال الضحاك: يعني الآجر. وقيل: السجّيل اسم السماء الدنيا. وقيل: هو جبال في السماء، قال الله تعالى: ﴿ وينزِّلُ من السماءِ مِنْ جبالٍ فيها مِنْ بَرَدٍ ﴾ [النور: ٤٣]. قوله تعالى: ﴿ **منضُودٍ** ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما متتابع يتبع بعضها بعضاً مفعول من

اسم سماء الدنيا، وقيل: هو جبل في سماء الدنيا ﴿منضود﴾ قال ابن عباس: متتابع يتبع بعضها بعضاً مفعول من النضد وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿مسومة عند ربك﴾ صفة للحجارة يعني معلمة قال ابن جريج: عليها سيما لا تشاكل حجارة الأرض، وقال قتادة وعكرمة: عليها خطوط حمر على هيئة الجزع وقال الحسن والسدي: كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم، وقيل: كان مكتوباً عليها أي على كل حجر اسم صاحبه الذي يرمى به ﴿وما هي﴾ يعني تلك الحجارة ﴿من الظالمين﴾ يعني مشركي مكة ﴿ببعيد﴾ قال قتادة وعكرمة: يعني ظالمي هذه الآمة والله ما أجار الله منها ظالماً بعد وفي بعض الآثار ما من ظالم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة، وقيل: إن الحجارة اتبعت شذاذ قوم لوط حتى إن واحداً منهم دخل الحرم فوجد الحجر معلقاً في السماء أربعين يوماً حتى خرج ذلك الرجل من الحرم فسقط عليه الحجر فأهلكه.

قوله عز وجل: ﴿وإلى مدين﴾ يعني وأرسلنا إلى مدين ﴿أخاهم شعيباً﴾ مدين اسم لابن إبراهيم الخليل عليه السلام ثم صار إسماً للقبيلة من أولاده وقيل هو اسم مدينة بناها مدين بن إبراهيم فعلى هذا يكون التقدير وأرسلنا إلى أهل مدين فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ يعني وحِّدوا الله ولا تعبدوا معه غيره كانت عادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يبدءون بالأهم فالأهم ولما كانت الدعوة إلى توحيد الله وعبادته أهم الأشياء قال شعيب إعبدوا الله مالكم من إله غيره ثم بعد الدعوة إلى التوحيد شرع فيما هم فيه ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في الكيل والوزن دعاهم إلى ترك هذه العادة القبيحة وهي تطفيف الكيل والوزن فقال ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ النقص في الكيل والوزن على وجهين أحدهما: أن يكون الاستنقاص من قبلهم فيكيلون ويزنون للغير ناقصاً، والوجه الآخر: هو استيفاء الكيل والوزن لأنفسهم زائداً عن حقهم فيكون نقصاً في مال الغير وكلا الوجهين مذموم فلهذا نهاهم شعيب عن ذلك بقوله ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴿إني أراكم بخير﴾ قال ابن عباس: كانوا موسرين في نعمة وقال مجاهد: كانوا في خصب وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحصول النقمة إن لم يتوبوا ولم يؤمنوا وهو قوله: ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ يعني: يحيط بكم فيهلككم جميعاً وهو

النضد، وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض.

﴿ مُسوّمةً ﴾، من نعت الحجارة وهي نصب على الحال، ومعناها معلّمة: قال ابن جريج: عليها سيما لا تشاكل كل حجارة الأرض. وقال قتادة وعكرمة: عليها خطوط حمر على هيئة الجزع. وقال الحسن والسدي: كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم. وقيل: مكتوب على كل حجر اسم مَن رمى به. ﴿ عِنْدَ ربِّكَ وما هي ﴾، يعني: تلك الحجارة، ﴿ مِنَ الظالمين ﴾، أي: من مشركي مكة، ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾، وقال قتادة وعكرمة: يعني ظالمي هذه الأمة والله ما أجار الله منها ظالماً بعدُ. وفي بعض الآثار: «مَا مِنْ ظالمٍ إلّا وهو بعرضِ حجرٍ يسقط عليه من ساعة إلى ساعة». ورُوِيَ: أن الحجر اتّبع شذّاذهم ومُسافِريهم أين كانوا في البلاد، ودخل رجل منهم الحرم فكان الحجر

عذاب الاستئصال في الدنيا أو حذرهم عذاب الآخرة ومنه قوله سبحانه وتعالى وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان﴾ أي أتموهما ولا تطففوا فيهما ﴿بالقسط﴾ أي بالعدل، وقيل: بتقويم لسان الميزان وتعديل المكيال ﴿ولا تبخسوا الناس﴾ أي: ولا تنقصوا الناس ﴿أشياءهم﴾ يعني أموالهم فإن قلت قد وقع التكرار في هذه القصة من ثلاثة أوجه لأنه قال ولا تنقصوا المكيال والميزان، ثم قال: أوفوا المكيال والميزان وهذا عين الأول ثم قال ولا تبخسوا الناس أشياءهم وهذا عين ما تقدم فما الفائدة في هذا التكرار.

قلت: إن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح وهو تطفيف الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم احتيج في المنع منه إلى المبالغة في التأكيد والتكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالتأكيد فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل ولأن قوله ولا تنقصوا المكيال والميزان نهى عن التنقيص وقوله أوفوا المكيال والميزان أمر بإيفاء العدل وهذا غير الأول ومغاير له ولقائل أن يقول النهي ضد الأمر فالتكرار لازم على هذا الوجه قلنا الجواب عن هذا قد يجوز أن ينهى عن التنقيص ولا يأمر بإيفاء الكيل والوزن فلهذا جمع بينهما فهو كقولك صل رحمك ولا تقطعها فتريد المبالغة في الأمر والنهي وأما قوله ثانياً ولا تبخسوا الناس أشياءهم فليس بتكرير أيضاً لأنه سبحانه وتعالى لما خصص النهي عن التنقيص والأمر بإيفاء الحق في الكيل والوزن عمم الحكم في جميع الأشياء التي يجب إيفاء الحق فيها فيدخل فيه الكيل والوزن والزرع وغير ذلك فظهر بهذا البيان فائدة التكرار والله أعلم؟ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ يعني بتنقيص الكيل والوزن ومنع الناس حقوقهم.

بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

﴿بقيت الله خير لكم﴾ قال ابن عباس يعني ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد بقية الله يعني طاعة الله خير لكم وقيل بقية الله يعني ما أبقاه لكم من الثواب في الآخرة

معلقاً في السماء أربعين يوماً حتى خرج فأصابه فأهلكه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإلى مَدْيَنَ ﴾، أي: وأرسلنا إلى ولد مدين، ﴿ أخاهم شعيباً قال يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لكم مِنْ إلَهٍ غيرُهُ ولا تَنْقُصُوا المكيالَ والميزانَ ﴾، أي: لا تبخسوا، وهم كانوا يُطفِّفون مع شركهم، ﴿ إني أراكم بخيرٍ ﴾، قال ابن عباس: موسرين في نعمة. وقال مجاهد: في خصب وسعة فحذّرهم زوال النعمة، وغلاء السعر وحلول النقمة، إن لم يتوبوا. ﴿ وإني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ مُحِيطٍ ﴾، يحيط بكم فيهلككم.

﴿ ويا قوم أوفُوا المكيالَ والميزانَ ﴾، أتمّوهما، ﴿ بالقِسْطِ ﴾، بالعدل. وقيل: بتقويم لسان الميزان، ﴿ ولا تَبْخَسُوا ﴾، لا تنقصوا، ﴿ الناسَ أشياءَهم ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفْسِدين ﴾.

﴿ بقيّتُ اللّهِ خيرٌ لكم إن كُنتُمْ مُؤْمنين ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خيرٌ مما تأخذونه بالتطفيف. وقال مجاهد: بقيت الله أي طاعة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين

خير لكم مما يحصل لكم في الدنيا من المال الحرام ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني مصدقين بما قلت لكم وأمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ يعني أحفظ أعمالكم قال بعضهم إنما قال لهم شعيب ذلك لأنه لم يؤمر بقتالهم ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ يعني من الأصنام ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ يعني من الزيادة والنقصان، قال ابن عباس: كان شعيب كثير الصلاة فلذلك قالوا هذا وقيل إنهم كانوا يمرون به فيرونه يصلي فيستهزئون به ويقولون هذه المقالة، وقال الأعمش: أقراءتك لأن الصلاة تطلق على القراءة والدعاء وقيل المراد بالصلاة هنا الدين يعني أدينك يأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وأن نفعل في أموالنا ما نشاء وذلك أنهم كانوا ينقصون الدراهم والدنانير فكان شعيب عليه السلام ينهاهم عن ذلك ويخبرهم أنه محرم عليهم وإنما ذكر الصلاة لأنها من أعظم شعائر الدين ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ قال ابن عباس: أرادوا السفيه الغاوي لأن العرب قد تصف الشيء بضده فيقولون للديغ سليم وللفلاة المهلكة مفازة، وقيل: هو على حقيقته وإنما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية، وقيل: معناه إنك لأنت الحليم الرشيد في زعمك وقيل هو على بابه من الصحة ومعناه إنك يا شعيب فينا حليم رشيد فلا يحمل بك شق عصا قومك ومخالفتهم في دينهم ﴿قال﴾ يعني قال لهم شعيب ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ يعني: على بصيرة وهداية وبيان ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾ يعني حلالاً قيل كان شعيب كثير المال الحلال والنعمة وقيل الرزق الحسن ما أتاه الله من العلم والهداية والنبوة والمعرفة وجواب إن الشرطية محذوف تقديره أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني المال الحلال والهداية والمعرفة والنبوة فهل يسعني مع هذه النعمة أن أخون في وحيه أو أن أخالف أمره أو أتبع الضلال أو أبخس الناس أشياءهم، وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم ذلك أنهم قالوا له إنك لأنت الحليم الرشيد والمعنى فكيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربه وله عليه نعم كثيرة وقوله: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ قال صاحب الكشاف يقول خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده ويقال الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفني إلى الماء يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صداراً ومنه قوله ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ أي أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم. قال الإمام فخر الدين الرازي: وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا فيها بأنه حليم رشيد وذلك يدل على كمال العقل وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الأصوب الأصلح فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلي فاعلموا أن الذي اخترته لنفسي هو أصوب الطرق وأصلحها وهو الدعوة إلى توحيد الله وترك البخس والنقصان فأنا مواظب عليها غير تارك لها فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق وأشرفها لا

أن ما عندكم من رزق الله وعطائه. ﴿ وما أنا عليكم بحفيظٍ ﴾، بوكيل. وقيل: إنما قال ذلك لأنه لم يؤمر بقتالهم.

﴿ قالوا يا شعيبُ أصلاتُك تأْمُرُكَ أنْ نتركَ ما يعبدُ آباؤنَا ﴾، من الأوثان. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة. لذلك قالوا هذا. وقال الأعمش: يعني أقراءتك. ﴿ أو أنْ نفعلَ في أموالِنا ما نشاء ﴾ أو أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء من الزيادة والنقصان، وقيل: كان شعيب عليه السلام قد نهاهم عن قطع الدنانير والدراهم، زعم أنه محرّم عليهم فقالوا: أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء من قطعها. ﴿ إنَّك لأنتَ الحليمُ الرشيدُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرادوا السفيه الغاوي، والعرب تصف الشيء بضدّه فتقول: للديغ سليم وللفلاة مفازة. وقيل: قالوه على وجه الاستهزاء. وقيل: معناه الحليم الرشيد بزعمك. وقيل: هو على الصحة أي إنك يا شعيب فينا حليم رشيد لا يحمل بك شقّ عصا قومك ومخالفة دينهم، وهذا كما قال قوم صالح عليه السلام: ﴿ قَدْ كنتَ فينا مَرْجُواً قبل هذا ﴾ [هود: ٦٢].

﴿ قالَ يا قومِ أرأيتم إن كنتُ على بيّنةٍ ﴾، بصيرة وبيان، ﴿ من ربّي ورَزقني منه رِزْقاً حسناً ﴾، حلالاً.

ما أنتم عليه وقال الزجاج: معناه إني لست أنهاكم عن شيء وأدخل فيه إنما أختار لكم لنفسي وقال ابن الأنباري بين أن الذي يدعوهم إليه من اتباع طاعة الله وترك البخس والتطفيف هو ما يرتضيه لنفسه وهو لا ينطوي إلا عليه فكان هذا محض النصيحة لهم ﴿إن أريد﴾ يعني ما أريد فيما آمركم به وإنهاكم عنه ﴿إلا الإصلاح﴾ يعني فيما بيني وبينكم ﴿ما استطعت﴾ يعني ما استطعت إلا الإصلاح وهو الإبلاغ والإنذار فقط ولا أستطيع إجباركم على الطاعة لأن ذلك إلى الله فإنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ التوفيق تسهيل سبيل الخير والطاعة على العبد ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى فلذلك قال تعالى: ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ ﴿عليه توكلت﴾ يعني على الله اعتمدت في جميع أموري ﴿وإليه أنيب﴾ يعني وإليه أرجع فيما ينزل من النوائب وقيل إليه أرجع في معادي روي أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيباً قال ذلك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته قومه.

وقوله تعالى: ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي﴾ أي لا يحملنكم خلافي وعداوتي ﴿أن يصيبكم﴾ يعني عذاب العاجلة على كفركم وأفعالكم الخبيثة ﴿مثل ما أصاب قوم نوح﴾ يعني الغرق ﴿أو قوم هود﴾ يعني الريح التي أهلكتهم ﴿أو قوم صالح﴾ يعني ما أصابهم من الصيحة حتى هلكوا جميعاً ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ وذلك أنهم كانوا حديثي عهد بهلاكهم وقيل معناه وما ديار قوم لوط منكم ببعيد وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم.

وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾

﴿واستغفروا ربكم﴾ يعني من عبادة الأصنام ﴿ثم توبوا إليه﴾ يعني من البخس والنقصان في الكيل والوزن ﴿إن ربي رحيم﴾ يعني بعباده إذا تابوا واستغفروا ﴿ودود﴾ قال ابن عباس: الودود المحبّ لعباده المؤمنين فهو من قولهم وددت الرجل أوده إذا أحببته، وقيل: يحتمل أن يكون ودود فعول بمعنى مفعول ومعناه أن عباده الصالحين يودونه

وقيل: كثيراً. وكان شعيب عليه السلام كثير المال. وقيل: الرزق الحسن: العلم والمعرفة. ﴿ وما أُريدُ أنْ أُخالِفَكم إلى ما أنْهاكُم عنه ﴾، أي: ما أريد أن أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه. ﴿ إنْ أُريد ﴾، ما أُريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿ إلاّ الإصلا حَ ما استطعتُ وما توفيقي إلاّ بالله ﴾، والتوفيق: تسهيل سبيل الخير والطاعة. ﴿ عليهِ توكّلتُ ﴾، اعتمدتُ، ﴿ وإليه أُنيب ﴾، أرجع فيما ينزل بي من النوائب. وقيل: في المعاد.

﴿ ويا قومِ لا يجْرِمَنَّكم ﴾، لا يحملنّكم، ﴿ شِقَاقي ﴾، خلافي ﴿ أنْ يُصيبكم ﴾، أي: على فعل ما أنهاكم عنه، ﴿ مِثلَ ما أصابَ قومَ نوحٍ ﴾، من الغرق، ﴿ أو قومِ هُودٍ ﴾، من الريح، ﴿ أو قومَ صالحٍ ﴾، من الصيحة، ﴿ وما قومُ لُوطٍ منكم ببعيدٍ ﴾، وذلكم أنهم كانوا حديثي عهد بهلاك قوم لوط. وقيل معناه وما دار قوم لوط منكم ببعيد، وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط.

﴿ واستغفِروا ربَّكم ثمّ تُوبوا إليه إنّ ربّي رحيمٌ وَدُودٌ ﴾، والودود له معنيان أحدهما أنه محبّ للمؤمنين، وقيل: هو بمعنى الودود أي محبوب للمؤمنين. وجاء في الخبر: إن شعيباً عليه السلام كان خطيب الأنبياء عليهم السلام.

ويحبونه لكثرة إفضاله وإحسانه إليهم. وقال الحليمي: هو الوّاد لأهل طاعته أي الراضي عنهم بأعمالهم والمحسن إليهم لأجلها والمادح لهم بها، وقال أبو سليمان الخطابي: وقد يكون معناه من تودد إلى خلقه **﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾** يعني ما نفهم ما تدعونا إليه وذلك أن الله سبحانه وتعالى ختم على قلوبهم فصارت لا تعي ولا تفهم ما ينفعها وإن كانوا في الظاهر يسمعون ويفهمون **﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾** قال ابن عباس وقتادة: كان أعمى، قال الزجاج: ويقال إن حمير كانوا يسمون المكفوف ضعيفاً وقال الحسن وأبو روق ومقاتل: يعني ذليلاً، قال أبو روق: إن الله سبحانه وتعالى لم يبعث نبياً أعمى ولا نبياً به زمانة، وقيل: كان ضعيف البصر وقيل المراد بالضعف العجز عن الكسب والتصرف وقيل هو الذي يتعذر عليه المنع عن نفسه ويدل على صحة هذا القول ما بعده وهو قوله **﴿ولولا رهطك﴾** يعني جماعتك وعشيرتك قيل الرهط ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة **﴿لرجمناك﴾** يعني لقتلناك بالحجارة والرجم بالحجارة أسوأ القتلات وشرها، وقيل: معناه لشتمناك وأغلظنا لك القول **﴿وما أنت علينا بعزيز﴾** يعني بكريم وقيل بممتنع منا والمقصود من هذا الكلام وحاصله أنهم بينوا لشعيب عليه السلام أنه لا حرمة له عندهم ولا في صدورهم وأنهم إنما لم يقتلوه ولم يسمعوه الكلام الغليظ الفاحش لأجل احترامهم رهطه وعشيرته وذلك لأنهم كانوا على دينهم وملتهم ولما قالوا لشعيب عليه السلام هذه المقالة أجابهم بقوله **﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾** يعني أهيب عندكم من الله وأمنع حتى تركتم قتلي لمكان رهطي عندكم فالأولى أن تحفظوني في الله ولأجل الله لا لرهطي لأن الله أعز وأعظم **﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾** يعني ونبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه كالشيء الملقى الذي لا يلتفت إليه **﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾** يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأحوالكم جميعاً لا يخفى عليه منها شيء فيجازيكم بها يوم القيامة **﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم﴾** يعني على تؤدتكم وتمكنكم من أعمالكم وقيل المكانة الحالة والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بعناية المكنة والقدرة من الشر **﴿إني عامل﴾** يعني ما أقدر عليه من الطاعة والخير وهذا الأمر في قوله اعملوا فيه وعيد وتهديد عظيم ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: **﴿سوف تعلمون﴾** أينا الجاني على نفسه المخطىء في فعله.

فإن قلت أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في قوله سوف تعلمون.

قلت إدخال الفاء في قوله: فسوف تعلمون، وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزعها في قوله سوف تعلمون وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر كأنهم قالوا فما يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال سوف تعلمون يعني عاقبة ذلك فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلادة كما هو عادة بلغاء العرب وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه والمعنى سوف تعلمون **﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾** يعني بسبب عمله السيء أو أينا الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه **﴿ومن هو كاذب﴾** يعني فيما

﴿ قالوا يا شعيبُ ما نَفْقَهُ ﴾، ما نفهم، **﴿ كثيراً ممّا تقول وإنّا لَنَراكَ فينا ضَعِيفاً ﴾**، وذلك أنه كان ضرير البصر، فأرادوا ضعف البصر، **﴿ ولولا رَهْطُكَ ﴾**، عشيرتَك وكان في منعة من قومه، **﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾**، لَقَتَلْنَاكَ. والرجم: أقبح القتل. **﴿ وما أنت علينَا ﴾**، عندنا، **﴿ بعزيز ﴾**.

﴿ قالَ يا قوم أَرَهْطِي أعزّ عليكمْ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أمكان رهطي أهيب عندكم من الله، أي: إن تركتم قتلي لمكان رهطي فالأولى أن تحفظوني في الله. **﴿ واتخذتُموه وراءَكم ظِهْرِيّاً ﴾**، أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه، **﴿ إنَّ ربّي بما تعملُونَ محيطٌ ﴾**.

﴿ ويا قوم اعملُوا على مكانَتِكم ﴾، أي: على تؤدتكم وتمكّنكم. يقال: فلان يعمل على مكانته إذا عمل على تؤدة وتمكّن. **﴿ إنّ عَامِلٌ ﴾**، على تمكّني، **﴿ سوف تعلمون ﴾**، أَيُنا الجاني على نفسه والمخطىء في فعله،

يدعيه ﴿وارتقبوا﴾ يعني وانتظروا العاقبة ما يؤول إليه أمري وأمركم ﴿إني معكم رقيب﴾ أي منتظر، والرقيب بمعنى المراقب.

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

﴿ولما جاء أمرنا﴾ يعني بعذابهم وإهلاكهم ﴿نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ يعني بفضل منا بأن هديناهم للإيمان ووفقناهم للطاعة ﴿وأخذت الذين ظلموا﴾ يعني ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس ﴿الصيحة﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم وماتوا جميعاً، وقيل: أتتهم صيحة واحدة من السماء فماتوا جميعاً ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ يعني ميتين وهو إستعارة من قولهم جثم الطير إذا قعد ولطأ بالأرض ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ يعني كأن لم يقيموا بديارهم مدة من الدهر مأخوذ من قولهم غني بالمكان إذا أقام فيه مستغنياً به عن غيره ﴿ألا بعداً﴾ يعني هلاكاً ﴿لمدين كما بعدت ثمود﴾ قال ابن عباس «لم تعذب أمتان قط بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم» قوله عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ يعي بحججنا والبراهين التي أعطيناه الدالة على صدقه ونبوته ﴿وسلطان مبين﴾ يعني ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقة أيضاً قال بعض المفسرين المحققين سميت الحجة سلطاناً لأن صاحب الحجة يقهر من لا حجة معه كالسلطان يقهر غيره، وقال الزجاج: السلطان هو الحجة وسمي السلطان سلطاناً لأنه حجة الله في الأرض ﴿إلى فرعون وملئه﴾ يعني أتباعه وأشراف قومه ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ يعني ما هو عليه من الكفر وترك الإيمان بما جاءهم به موسى ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ يعني وما طريق فرعون وما هو عليه بسديد ولا حميد العاقبة ولا يدعو إلى خير ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾ يعني كما تقدم قومه فأدخلهم البحر في الدنيا كذلك يتقدم قومه يوم القيامة فيدخلهم النار ويدخل هو أمامهم، والمعنى كما كان قدوتهم في الضلال والكفر في الدنيا فكذلك هو قدوتهم وإمامهم في النار ﴿وبئس الورد المورود﴾ يعني: وبئس الدخل المدخول فيه وقيل شبه الله تعالى فرعون في

فذلك قوله: ﴿ مَنْ يأتيه عذابٌ يُخْزِيه ﴾ يذلّه ﴿ ومَنْ هو كاذبٌ ﴾، قيل: ﴿ من ﴾ في محل النصب، أي: فسوف تعلمون الكاذب. وقيل: محله رفع، تقديره: ومَن هو كاذب يعلم كذبه ويذوق وبال أمره. ﴿ وارْتَقِبُوا ﴾، وانتظرُوا العذابَ ﴿ إنّي معكم رقيبٌ ﴾، منتظر.

﴿ ولمّا جاءَ أمرُنا نجّينا شعيباً والذين آمنُوا معه برحمةٍ منّا وأخذَتِ الذينَ ظلمُوا الصيحة ﴾، قيل: إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم. وقيل: أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم. ﴿ فأصبحُوا في دِيَارِهم جاثمين ﴾، ميّتين.

﴿ كأنْ لم يَغْنَوْا ﴾ أي: كأن لم يقيموا ولم يكونوا ﴿ فيها ألا بُعْداً ﴾، هلاكاً، ﴿ لِمَدْيَنَ كما بَعِدَتْ ﴾، هلكتْ ﴿ ثمودُ ﴾.

تقدمه على قومه إلى النار بمن يتقدم على الوارد إلى الماء وشبه أتباعه بالواردين بعده ولما كان ورود الماء محموداً عند الواردين لأنه يكسر العطش قال في حق فرعون وأتباعه فأوردهم النار وبئس الورد المورود لأن الأصل فيه قصد الماء واستعمل في ورود النار على سبيل الفظاعة ﴿وأتبعوا في هذه﴾ يعني في هذه الدنيا ﴿لعنة﴾ يعني طرداً وبعداً عن الرحمة ﴿ويوم القيامة﴾ يعني وأتبعوا لعنة أخرى يوم القيامة مع اللعنة التي حصلت لهم في الدنيا ﴿بئس الرفد المرفود﴾ يعني بئس العون المعان وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعنة في الآخرة وقيل معناه بئس العطاء المعطى وذلك أنه ترادف عليهم لعنتان لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى﴾ يعني من أخبار أهل القرى وهم الأمم السالفة والقرون الماضية ﴿نقصّه عليك﴾ يعني نخبرك به يا محمد لتخبر قومك أخبارهم لعلهم يعتبرون بهم فيرجعوا عن كفرهم أو ينزل بهم مثل ما نزل بهم من العذاب ﴿منها﴾ يعني من القرى التي أهلكنا أهلها ﴿قائم وحصيد﴾ يعني منها عامر ومنها خراب وقيل منها قائم يعني الحيطان بغير سقوف ومنها ما قد محي أثره بالكلية شبهها الله تعالى بالزرع الذي بعضه قائم على سوقه وبعضهم قد حصد وذهب أثره والحصيد بمعنى المحصود ﴿وما ظلمناهم﴾ يعني بالعذاب والإهلاك ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ يعني بالكفر والمعاصي ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك﴾ يعني بعذابهم أي لم تنفعهم أصنامهم ولم تدفع عنهم العذاب ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ يعني غير تخسير وقيل غير تدمير.

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾

﴿وكذلك أخذ ربك﴾ يعني وهكذا أخذ ربك ﴿إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ الضمير في وهي عائد على القرى

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولقدْ أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مُّبين ﴾، حجة بيِّنة.

﴿ إلى فرعونَ ومَلَئِهِ فاتَّبعُوا أمْرَ فرعونَ وما أمْرُ فرعونَ برشيدٍ ﴾، بسديد.

﴿ يَقْدُمُ قومَهُ ﴾، يتقدمهم، ﴿ يومَ القيامةِ فأوْرَدَهم ﴾ فأدخلهم ﴿ النّارَ وبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ ﴾، أي: بئس المدخل والمدخول فيه.

﴿ وأُتْبِعُوا في هذه ﴾، أي: في هذه الدنيا، ﴿ لعنةً ويومَ القيامةِ بئسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ ﴾، أي: العون المعان. وقيل: العطاء المعطى، وذلك أنهم ترادفت عليهم اللعنتان، لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة.

﴿ ذلك من أنباءِ القُرَى نَقُصُّهُ عليكَ منها قائمٌ ﴾، عامر، ﴿ وحصيدٌ ﴾، خراب. وقيل: منها قائم بقيت الحيطان وسقطت السقوف. وحصيد أي: انمحى أثره. وقال مقاتل: قائم يرى له أثر وحصيد لا يُرى له أثر، وحصيد بمعنى محصود.

﴿وما ظلمناهم﴾، بالعذاب والهلاك، ﴿ولكنْ ظَلَمُوا أنفسهم﴾، بـالكفر والمعصيـة. ﴿فما أغنتْ عنهم آلهتُهم التي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِنْ شيءٍ لمّا جاءَ أمْرُ ربِّك ﴾، عذاب ربك، ﴿ وما زادُوهم غيرَ تتبيب ﴾، أي: غير تخسير، وقيل: تدمير.

﴿ وكذلِكَ ﴾، وهكذا، ﴿ أخْذُ ربِّكَ إذا أخذ القُرَى وهي ظالمة إنّ أخذَه أليمٌ شديدٌ ﴾. أخبرنا عبد الواحد

والمراد أهلها ﴿إن أخذه أليم شديد﴾ (ق) عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد» فالآية الكريمة في الحديث دليل على أن من أقدم على ظلم فإنه يجب أن يتدارك ذلك بالتوبة والإنابة ورد الحقوق إلى أهلها إن كان الظلم للغير لئلا يقع في هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن أن هذه الآية حكمها مختص بظالمي الأمم الماضية بل هو عام في كل ظالم ويعضده الحديث والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿إن في ذلك لآية﴾ يعني ما ذكر من عذاب الأمم الحالية وإهلاكهم لعبرة وموعظة ﴿لمن خاف عذاب الآخرة﴾ يعني أن إهلاك أولئك عبرة يعتبر بها وموعظة يتعظ بها من كان يخشى الله ويخاف عذابه في الآخرة لأنه إذا نظر ما أحل الله بأولئك الكفار في الدنيا من أليم عذابه وعظيم عقابه وهو كالأنموذج مما أعد لهم في الآخرة اعتبر به فيكون زيادة في خوفه وخشيته من الله ﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾ يعني يوم القيامة تجمع فيه الخلائق من الأولين والآخرين للحساب والوقوف بين يدي رب العالمين ﴿وذلك يوم مشهود﴾ يعني يشهده أهل السماء وأهل الأرض ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ يعني وما نؤخر ذلك اليوم وهو يوم القيامة إلا إلى وقت معلوم محدود وذلك الوقت لا يعلمه أحد إلا الله تعالى: ﴿يوم يأت﴾ يعني ذلك اليوم ﴿لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ قيل: إن جميع الخلائق يسكتون في ذلك اليوم فلا يتكلم أحد فيه إلا بإذن الله تعالى.

فإن قلت كيف وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه وتعالى: ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ وقوله إخباراً عن محاجة الكفار «والله ربنا ما كنا مشركين» والأخبار أيضاً تدل على الكلام في ذلك اليوم.

قلت: يوم القيامة يوم طويل وله أحوال مختلفة وفيه أهوال عظيمة ففي بعض الأحوال لا يقدرون على الكلام لشدة الأهوال وفي بعض الأحوال يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون وفي بعضها تخفف عنهم تلك الأهوال فيحاجون ويجادلون وينكرون، وقيل: المراد من قوله لا تكلم نفس إلا بإذنه الشفاعة يعني لا تشفع نفس لنفس شيئاً إلا أن يأذن الله لها في الشفاعة ﴿فمنهم﴾ يعني فمن أهل الموقف ﴿شقي وسعيد﴾ الشقاوة خلاف السعادة والسعادة هي معاونة الأمور الإلهية للإنسان ومساعدته على فعل الخير والصلاح وتيسيره لها ثم السعادة على ضربين سعادة دنيوية وسعادة أخروية وهي السعادة القصوى لأن نهايتها الجنة وكذلك الشقاوة على ضربين أيضاً شقاوة دنيوية وشقاوة أخروية وهي

المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا صدقة بن الفضل أنبأنا أبو معاوية أنبأنا يزيد بن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ لَيُملي للظالِمِ حتى إذا أخذه لم يفْلتهُ»، قال: ثم قرأ: ﴿ وكذلك أخْذُ ربِّكَ إذا أخذَ القُرَى وهي ظالمة ﴾ الآية.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنَّ في ذلك لآية ﴾، لعبرة، ﴿ لمنْ خافَ عذابَ الآخرةِ ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿ وذلك يومٌ مشهودٌ ﴾، أي: يشهده أهل السماء والأرض.

﴿وَمَا يُؤَخِّرُهُ﴾، أي: وما نُؤخِّر ذلك اليوم، فلا نقيم عليكم القيامة. وقرأ يعقوب، وما يُؤخّره باليـاء، ﴿إلاّ لأجلٍ مَّعدُودٍ﴾، معلوم عند الله.

﴿ يومَ يأتِ ﴾، بإثباتِ الياء وحذفها، ﴿ لا تَكلَّمُ ﴾، أي: لا تتكلم ﴿ نفسٌ إلاّ بإذنه فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ ﴾، أي: فمنهم مَن سبقت له الشقاوة ومنهم مَن سبقت له السعادة. أخبرنا أبو سعيد بن عبد الله بن أحمد الطاهري أنبأنا جدي أبو سهل بن عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أنبأنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري أنبأنا إسحق بن إبراهيم بن عباد الدبري أنبأنا عبد الرزّاق أنا معمر عن منصور عن سعيد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن

الشقاوة القصوى لأن نهايتها النار فالشقي من سبق له الشقاوة في الأزل والسعيد من سبقت له السعادة في الأزل (ق).

عن علي بن أبي طالب قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس وجعل ينكت بمخصرته ثم قال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسيصير لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصير لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾ الآية. بقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة الشريفة ومدفنهم والمخصرة كالسوط والعصا ونحو ذلك مما يمسكه بيده الإنسان والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق ضرب الشيء بتلك المخصرة أو باليد ونحو ذلك حتى يؤثر فيه واستدل بعض العلماء بهذه الآية وهذا الحديث على أن أهل الموقف قسمان شقي وسعيد لا ثالث لهما وظاهر الآية والحديث يدل على ذلك لكن بقي قسم آخر مسكوت عنه وهو من استوت حسناته وسيئاته وهم أصحاب الأعراف في قول والأطفال والمجانين الذين لا حسنات لهم ولا سيئات فهؤلاء مسكوت عنهم فهم تحت مشيئة الله عز وجل يوم القيامة يحكم فيهم بما يشاء وتخصيص هذين القسمين بالذكر لا يدل على نفي القسم الثالث ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها﴾ أي في النار من العذاب والهوان ﴿زفير وشهيق﴾ أصل الزفير ترديد النفس في الصدر حتى تنتفخ منه الضلوع والشهيق رد النفس إلى الصدر أو الزفير مده وإخراجه من الصدر وقال ابن عباس: الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف، وقال الضحاك ومقاتل: الزفير أول صوت الحمار والشهيق آخره إذا رده إلى صدره وقال أبو العالية: الزفير في الحلق والشهيق في الجوف.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

﴿خالدين فيها﴾ يعني لابثين مقيمين في النار ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ قال الضحاك: يعني مادامت سموات الجنة والنار وأرضهما ولا بد لأهل الجنة وأهل النار من سماء تظلهم وأرض تقلهم فكل ما علاك فأظلك فهو سماء وكل ما استقر عليه قدمك فهو أرض وقال أهل المعاني هذه عبارة عن التأبيد وذلك على عادة العرب فإنهم يقولون لا آتيك ما دامت السموات والأرض وما اختلف الليل والنهار يريدون بذلك التأبيد.

عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: خرجنا على جنازة فبينا نحن بالبقيع إذْ خرجَ رسولُ الله ﷺ وبيده مِخصرة فجاء فجلس ثم نكتَ بها الأرض ساعة، ثم قال: «ما من نفسٍ منفوسةٍ إلاّ قدْ كُتِبَ مكانُها من الجنة أو النار، إلاّ وقدْ كُتِبَتْ شقيّة أو سعيدة»، قال: فقال رجل: أفلا نتّكل على كتابنا يا رسول الله وندع العمل؟ قال: «لا، ولكن اعْملُوا فكلٌّ ميسّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أما أهل الشقاء فسييسّرون لعمل أهل الشقاء، وأما أهل السعادة فسييسّرون لعمل أهل السعادة»، قال: ثم تلا: ﴿ فأما مَن أعطَى واتّقَى وصدَّقَ بالحسنى فسنيسّره لليُسرى، وأما مَنْ بخلَ واستغنَى وكذّب بالحسنى فسنيسّره للعسرى ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

قوله: ﴿ فأمّا الذين شَقُوا ففي النّارِ لهمْ فيها زَفيرٌ وشهيق ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف. وقال الضحاك ومقاتل: الزفير أول نهيق الحمار، والشهيق آخره إذا ردّده في جوفه. وقال أبو العالية: الزفير في الحلق والشهيق في الصدر.

﴿ خالدين فيها ﴾، لابثين مقيمين فيها، ﴿ ما دَامَتِ السّمٰوٰتُ والأرض ﴾، قال الضحاك: ما دامت سمٰوات الجنة والنار وأرضها، وكل ما علاكَ وأظلّكَ فهو سماء، وكل ما استقرت عليه قدمك فهو أرض. وقال أهل

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إلا ما شاء ربك﴾ اختلف العلماء في معنى هذين الإستثناءين فقال ابن عباس والضحاك: الإستثناء الأول المذكور في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها فيكون استثناء من غير الجنس لأن الذين أخرجوا من النار سعداء في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الأشقياء ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله سبحانه وتعالى يخرج قوماً من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة» وفي رواية «إن الله يخرج ناساً من النار فيدخلهم الجنة» أخرجه البخاري ومسلم، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «يخرج من النار قوم بعد ما مسهم منها سفع فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين» وفي رواية «ليصيبن أقواماً سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة لهم ثم يدخلهم الله الجنة بفضله ورحمته فيقال لهم الجهنميون» (خ) عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال «يخرج قوم من النار بشفاعة محمد فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين» وأما الاستثناء الثاني المذكور في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبث هؤلاء في النار قبل دخولهم الجنة فعلى هذا القول يكون معنى الآية فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك أن يخرجهم منها فيدخلهم الجنة ﴿إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ أن يدخله النار أولاً ثم يخرجه منها فيدخله الجنة فحاصل هذا القول إن الاستثناءين يرجع كل واحد منهما إلى قوم مخصوصين هم في الحقيقة سعداء أصابوا ذنوباً استوجبوا بها عقوبة يسيرة في النار ثم يخرجون منها فيدخلون الجنة لأن إجماع الأمة على أن من دخل الجنة لا يخرج منها أبداً وقيل إن الاستثناءين يرجعان إلى الفريقين السعداء والأشقياء وهو مدة تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ وهو ما بين الموت إلى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيكون المعنى خالدين في الجنة والنار إلا هذا المقدار، وقيل: معنى إلا ما شاء ربك سوى ما شاء ربك فيكون المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من الزيادة على ذلك وهو كقولك لفلان علي ألف إلا ألفين أي سوى ألفين وقيل إلا بمعنى الواو بمعنى وقد شاء ربك خلود هؤلاء في النار وخلود هؤلاء في الجنة فهو كقوله تمجدو تعالى لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا أي ولا الذين ظلموا وقيل معناه ولو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لم يشأ لأنه حكم لهم

المعاني: هذا عبارة عن التأييد على عادة العرب، يقولون لا آتيك ما دامت السمٰواتُ والأرض، ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار، يعنون أبداً قوله: ﴿ إلاّ ما شاءَ رَبُّك ﴾، اختلفوا في هذين الاستثنائين، فقال بعضُهم: الاستثناء في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها، ثم يخرجهم منها فيكون ذلك استثناء من غير الجنس، لأن الذين أُخرجوا من النار سعداء استثناهم الله من جملة الأشقياء، وهذا كما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا حفص بـن عمر ثنا هشام عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لَيُصِيبَنَّ أقواماً سفعٌ من النار بذنوب أصابوها، عقوبة ثم يدخلها الله الجنة بفضل رحمته، فيقال لهم الجهنميون». وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي قال: أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أخبرنا يحيىٰ عن الحسن بن ذكوان أنبأنا أبو رجاء حدّثني عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يخرج قومٌ من النار بشفاعةِ محمدٍ فيدخلون الجنة ويسمّون الجهنميين». وأمّا الاستثناء في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبثهم في النار قبل دخول الجنة. وقيل: إلى ما شاء ربّك من الفريقين من تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ ما بين الموت والبعث، قبل مصيرهم إلى الجنة أو النار يعني هم خالدون في الجنة أو النار لا هذا المقدار. وقيل: معنى إلاّ ما شاء ربك سوى ما شاء ربّك، معناه خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض سوى ما شاء الله من الزيادة على قدر مدة بقاء السمٰوات والأرض، وذلك هو الخلود فيها، كما تقول: لفلانٍ عليّ ألف إلاّ الألفين، أي: سوى الألفين اللتين تقدمتا. وقيل: إلاّ بمعنى الواو،

بالخلود فيها، قال الفراء: هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله كقوله والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك وعزمه أن يضربه فهذه الأقوال في معنى الاستثناء ترجع إلى الفريقين والصحيح هو القول الأول ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿**إن ربك فعال لما يريد**﴾ يعني من إخراج من أراد من النار وإدخالهم الجنة فهذا على الإجمال في حال الفريقين فأما على التفصيل فقوله إلا ما شاء ربك في جانب الأشقياء يرجع إلى الزفير والشهيق وتقريره أن يفيد حصول الزفير والشهيق مع خلود لأنه إذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل فيه هذا المجموع والاستثناء في جانب السعداء يكون بمعنى الزيادة يعني إلا ماشاء ربك من الزيادة لهم من النعيم بعد الخلود، وقيل: إن الاستثناء الأول في جانب الأشقياء معناه إلا ما شاء ربك من أن يخرجهم من حرّ النار إلى البرد والزمهرير وفي جانب السعداء معناه إلا ما شاء ربك أن يرفع بعضهم إلى منازل أعلى منازل الجنان ودرجاتها والقول الأول هو المختار ويدل على خلود أهل الجنة في الجنة أن الأمة مجتمعة على من دخل الجنة لا يخرج منها بل هو خالد فيها.

وقوله سبحانه وتعالى في جانب السعداء ﴿**عطاء غير مجذوذ**﴾ يعني غير مقطوع قال ابن زيد: أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذي يشاء لأهل الجنة فقال تعالى عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار وروي عن ابن مسعود أنه قال «ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً» وعن أبي هريرة نحوه، وهذا إن صح عن ابن مسعود وأبي هريرة: فمحمول عند أهل السنة على إخلاء أماكن المؤمنين الذين استحقوا النار من النار بعد إخراجهم منها لأنه ثبت بالدليل الصحيح القاطع إخراج جميع الموحدين وخلود الكفار فيها أو يكون محمولاً على إخراج الكفار من حر النار إلى برد الزمهرير ليزدادوا عذاباً فوق عذابهم والله أعلم.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء**﴾ يعني فلا تك في شك يا محمد في هذه الأصنام التي

أي: وقد شاء ربُّك خلود هؤلاء في النار وهؤلاء في الجنة، كقوله: ﴿ لئلا يكونَ للناسِ عليكم حُجَّةٌ إلّا الذين ظلموا ﴾ [البقرة: ١٥٠]، أي: ولا الذين ظلموا. وقيل: معناه ولو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لا يشاء لأنه حكم لهم بالخلود. وقال الفرّاء: هذا استثناء استثناه الله ولا يفعله، كقولك: والله لأضربنّك إلّا أن أرى غير ذلك وعزيمتك أن تضربه. ﴿ إنّ ربَّكَ فعّالٌ لِّمَا يُريد ﴾.

﴿ وأمّا الذينَ سُعِدُوا ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص «سُعِدُوا» بضم السين وكسر العين، أي: رُزقوا السعادة، وسعد وأسعد بمعنى واحد. وقرأ الآخرون بفتح السين قياساً على ﴿ شَقُوا ﴾ [هود: ١٠٦]. ﴿ ففي الجنّةِ خالدين فيها ما دامتِ السمٰواتُ والأرضُ إلّا ما شاءَ ربُّك ﴾، قال الضحاك: إلّا ما مكثوا في النار حتى أدخلوا الجنة. قال قتادة: الله أعلم بثنياه. ﴿ عطاءً غير مَجْذُوذٍ ﴾، أي: غير مقطوع. قال ابن زيد: أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنة، فقال: ﴿ عطاءً غير مَجْذُوذ ﴾، لم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليأتينّ على جهنّم زمان ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً. وعن أبي هريرة رضي الله عنه مثله. ومعناه عند أهل السُّنّة إن ثبت: أن لا يبقى فيها أحد من أهل الإيمان. وأما مواضع الكفّار فممتلئة أبداً.

﴿ فلا تَكُ في مِرْيَةٍ ﴾، في شكٍّ، ﴿ ممّا يعبد هؤلاء ﴾، أنهم ضُلّال، ﴿ ما يعبدُون إلّا كما يعبد ﴾، فيه

يعبدها هؤلاء الكفار فإنها لا تضر ولا تنفع ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾ يعني أنه ليس لهم في عبادة هذه الأصنام مستند إلا أنهم رأوا آباءهم يعبدونها فعبدوها مثلهم ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ يعني وإنا مع عبادتهم هذه الأصنام نرزقهم الرزق الذي قدرناه لهم من غير نقص فيه ويحتمل أن يكون المراد من توفية نصيبهم يعني من العذاب الذي قدر لهم في الآخرة كاملاً موفراً غير ناقص.

قوله عز وجل: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ يعني التوراة ﴿فاختلف فيه﴾ يعني في الكتاب فمنهم مصدق به ومكذب به كما فعل قومك يا محمد بالقرآن ففيه تسلية للنبي ﷺ ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ يعني بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لكان الذي يستحقونه من تعجيل العقوبة في الدنيا على كفرهم وتكذيبهم وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿لقضي بينهم﴾ يعني لعذبوا في الحال وفرغ من عذابهم وإهلاكهم ﴿وإنهم لفي شك منه﴾ يعني من القرآن ونزوله عليك يا محمد ﴿مريب﴾ يعني أنهم قد وقعوا في الريب والتهمة ﴿وإن كلًّا﴾ يعني من الفريقين المختلفين المصدق والمكذب ﴿لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ اللام لام القسم تقديره والله ليوفينهم جزاء أعمالهم في القيامة فيجازي المصدق على تصديقه الجنة ويجازي المكذب على تكذيبه النار ﴿إنه بما يعملون خبير﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده وإن دقت ففيه وعد للمحسنين المصدقين وفيه وعيد وتهديد للمكذبين الكافرين.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ يعني فاستقم يا محمد على دين ربك

إضمار، أي: كما كان يعبد، ﴿ آباؤُهُمْ مِّن قبلُ وإنّا لموفُّوهم نصيبَهم ﴾ حظهم من الجزاء. ﴿ غير منقوصٍ ﴾.

﴿ ولقدْ آتينا موسى الكتابَ ﴾، التوراة، ﴿فاخْتُلِفَ فيه﴾ فمن مصدّق به ومكذّب كما فعل قومك بالقرآن، يُعزّي نبيّه ﷺ ﴿ ولولاَ كلمةٌ سبقتْ مِن ربِّك ﴾ في تأخير العذاب عنهم، ﴿ لَقُضي بينهم ﴾، أي: لعُذّبوا في الحال وفُرغ من عذابهم وإهلاكهم، ﴿ وإنَّهم لفي شكٍّ منه مُريبٍ ﴾، موقع في الريبة والتّهمة.

﴿ وإنَّ كلًّا ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر: «وإنْ كلًّا»، ساكنة النون على تخفيف إن الثقيلة، والباقون بتشديدها، «لمّا» مشدّد هنا وفي يّس [٣٢]، والطارق [٤]، ابن عامر وعاصم وحمزة، وافق أبو جعفر ههنا، وفي الطارق وفي الزخرف [٣٠]، بالتشديد عاصم وحمزة، والباقون بالتخفيف، فمَن شدّد قال: الأصل فيه «وإنّ كلا لمن ما، فوصلت من الجارّة بما، فانقلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت إحداهنّ، فبقيت لما بالتشديد، و﴿ ما ﴾ ههنا بمعنى مَنْ، هو اسم لجماعة من الناس، كما قال تعالى: ﴿فانكِحُوا مَا طَابَ لكم﴾ [النساء: ٣]، أي، ما طاب لكم، والمعنى: وإنّ كلًّا لمن جماعة ليوفينّهم. ومَن قرأ بالتخفيف قال: «ما» صلة زيدت بين اللامين ليفصل بينهما كراهة اجتماعهما، والمعنى: وإن كلًّا ليوفينّهم. وقيل: ﴿ ما ﴾ بمعنى مَنْ، تقدير: لمَن ليوفينّهم، واللام في ﴿ لما ﴾ لام التأكيد التي تدخل على خبر إن، وفي ليوفينّهم لام القسم، والقسم مضمر تقديره والله، ﴿ ليوفينّهم ربُّك أعمالهم ﴾، أي: جزاء أعمالهم، ﴿ إنه بما يعملون خبير ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فاسْتَقِمْ كما أُمرْتَ ﴾، أي: استقم على دين ربّك والعمل به والدعاء إليه كما أُمرتَ،

والعمل به والدعاء إليه كما أمرك ربك والأمر في فاستقم للتأكيد لأن النبي ﷺ كان على الاستقامة لم يزل عليها كقولك للقائم قم حتى آتيك أي دُم على ما أنت عليه من القيام حتى آتيك ﴿ومن تاب معك﴾ يعني ومن آمن معك من أمتك فليستقيموا أيضاً على دين الله والعمل بطاعته قال عمر بن الخطاب: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ منه روغان الثعلب (م). عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال «قل آمنت بالله ثم استقم» ﴿ولا تطغوا﴾ يعني ولا تجاوزوا أمري إلى غيره ولا تعصوني وقيل معناه ولا تغلوا في الدين فتجاوزوا ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها قال ابن عباس: ما نزلت آية على رسول الله ﷺ هي أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال شيبتني هود وأخواتها (خ) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» قوله: إن الدين يسر، اليسر ضد العسر وأراد به التسهيل في الدين وترك التشدد فإن هذا الدين مع يسره وسهولته قوي فلن يغالب ولن يقاوى فسددوا أي اقصدوا السداد من الأمور وهو الصواب وقاربوا أي اطلبوا المقاربة وهي القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشياً والمراد منه اعملوا أطراف النهار وقتاً وقتاً والدلجة سير الليل والمراد منه اعملوا بالنهار واعملوا بالليل أيضاً وقوله شيء من الدلجة إشارة إلى تقليله.

وقوله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ قال ابن عباس: ولا تميلوا والركون هو المحبة والميل بالقلب، وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم، وقال السدي: لا تداهنوا الظلمة، وعن عكرمة لا تطيعوهم، وقيل: معناه ولا تسكنوا إلى الذين ظلموا ﴿فتمسكم النار﴾ يعني فتصيبكم النار بحرها ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ يعني أعواناً وأنصاراً يمنعونكم من عذابه ﴿ثم لا تنصرون﴾ يعني ثم لا تجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله غداً في

﴿ ومَنْ تابَ معكَ ﴾، أي: مَن آمن معك فليستقيموا، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب. أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضي أنا أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان أنا والدي إملاءً ثنا أبو بكر محمد بن إسحق ثنا محمد بن العلاء بن كريب ثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلتُ، يا رسول الله قلْ لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قلْ آمنتُ باللَّهِ ثم استقم». ﴿ ولا تَطْغَوْا ﴾ لا تجاوزوا أمري ولا تعصوني. وقيل: معناه ولا تغلوا فتزيدوا على ما أمرتُ ونهيتُ. ﴿ إنَّه بما تعملُون بصيرٌ ﴾، لا يخفى عليه من أعمالكم شيء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشدُّ عليه من هذه الآية، ولذلك قال: «شيَّبتني هودٌ وأخواتُها». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد السلام بن مظهر ثنا عمرو بن علي عن معن بن محمد الغفاري عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الدين يُسْرٌ ولنْ يشادَّ هذا الدينَ أحدٌ إلّا غلبه، فسدِّدُوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلْجةِ».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولا تَرْكَنُوا إلى الذينَ ظلمُوا ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولا تميلوا. والركون: هو المحبّة والميل بالقلب. وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم. قال السدي: لا تداهنوا الظلمة. وعن عكرمة: لا تطيعوهم. وقيل: لا تسكنوا إلى الذين ظلموا. ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ﴾، فتصيبكم، ﴿ النارُ وما لكمْ مِّن دُونِ اللَّهِ من أولياءَ ﴾، أي: أعوان يمنعونكم من عذابه، ﴿ ثمّ لا تُنصَرُون ﴾.

القيامة ففيه وعيد لمن ركن إلى الظلمة أو رضي بأعمالهم أو أحبهم فكيف حال الظلمة في أنفسهم نعوذ بالله من الظلم.

قوله عز وجل: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ سبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذي عن أبي اليسر قال «أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلت إن في البيت تمراً هو أطيب منه فدخلت معي فأهويت إليها فقبلتها فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً فلم أصبر فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً فلم أصبر فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال أخلفت غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة حتى ظن أنه من أهل النار قال وأطرق رسول الله ﷺ طويلاً حتى أوحى الله إليه وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إلى قوله ذلك ذكرى للذاكرين.

قال أبو اليسر: فأتيته فقرأها رسول الله ﷺ فقال أصحابه يا رسول الله ألهذا خاصة أم للناس عامة قال بل للناس عامة» قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وقيس بن الربيع ضعّفه وكيع وغيره وأبو اليسر هو كعب بن عمرو (ق). عن عبد الله بن مسعود «أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فنزلت ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾ الآية فقال الرجل يا رسول الله ألي هذه الآية قال لمن عمل بها من أمتي وفي رواية فقال رجل من القوم يا نبي الله هذه له خاصة قال بل للناس كافة» عن معاذ بن جبل قال «أتى النبي ﷺ رجل فقال يا رسول الله أرأيت رجلاً لقي امرأة وليس بينهما معرفة فليس يأتي الرجل إلى امرأته شيئاً إلا قد أتى هو إليها إلا أنه لم يجامعها قال فأنزل الله عز وجل ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ فأمره النبي ﷺ أن يتوضأ ويصلي قال معاذ فقلت يا رسول الله أهي له خاصة أم للمؤمنين عامة؟ فقال: بل للمؤمنين عامة» أخرجه الترمذي وقال هذا الحديث ليس بمتصل لأن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ.

أما التفسير فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ يعني صلاة الغداة والعشي وقال مجاهد: طرفي النهار يعني صلاة الصبح والظهر والعصر ﴿وزلفاً من الليل﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء، وقال مقاتل: صلاة الصبح

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وأقمِ الصلاةَ طَرَفي النَّهارِ ﴾، أي: الغداة والعشي. قال مجاهد: طرفا النهار صلاة الصّبح والظهر والعصر. ﴿ وزُلَفاً مِّنَ الليلِ ﴾، صلاة المغرب والعشاء. وقال مقاتل: صلاة الفجر والظهر طرف، وصلاة العصر والمغرب طرف، وزلفاً من الليل يعني صلاة العشاء. وقال الحسن: طرفا النهار والصبح والعصر، وزُلَفاً من الليل المغرب والعشاء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: طرفا النهار الغداة والعشي، يعني صلاة الصبح والمغرب. قوله: ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ أي ساعته واحدتها زلفة وقرأ أبو جعفر « زُلُفاً » بضم اللام. ﴿ إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ ﴾، يعني: إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات ورُوِيَ أنها نزلت في أبي اليسر وهو كعب بن عمرو الأنصاري، قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلتُ لها إن في البيت تمراً أطيب منه، فدخلت معي في البيت، فأهويتُ عليها فقبّلتها، ثم ندمتُ فأتيتُ أبا بكر رضي الله عنه فذكرت ذلك له فقال: استرْ على نفسك وتُبْ ولا تخبر أحداً، فأتيتُ عمر رضي الله عنه فذكرت ذلك له، فقال: استرْ على نفسك وتبْ ولا تخبر أحداً، فلم أصبر فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «أخلفتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلّا تلك الساعة، حتى ظن أنه من أهل النار»؟ فأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه: ﴿ وأقمِ الصلاةَ طرفي النهار وزُلفاً من الليلِ ﴾ الآية، فقرأها رسول الله ﷺ فقال أصحاب رسول الله ﷺ: ألهذا خاصةً أم للناس عامّةً؟ قال: «بلْ للناس عامّةً». أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف

والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفاً من الليل يعني صلاة العشاء وقال الحسن طرفي النهار الصبح والعصر وزلفاً من الليل المغرب والعشاء وقال ابن عباس طرفي النهار الغداة والعشي يعني صلاة الصبح والمغرب قال الإمام فخر الدين الرازي: كثرت المذاهب في تفسير طرفي النهار والأشهر أن الصلاة التي في طرفي النهار هي الفجر والعصر وذلك لأن أحد طرفي النهار هو طلوع الشمس والثاني هو غروبها فالطرف الأول هو صلاة الفجر والطرف الثاني لا يجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخلة تحت قوله تعالى ﴿وزلفاً من الليل﴾ فوجب حمل الطرف الثاني على صلاة العصر ﴿**وزلفاً من الليل**﴾ يعني وأقم الصلاة في زلف من الليل وهي ساعاته واحدتها زلفة وأصل الزلفة المنزلة والمراد بها صلاة المغرب والعشاء ﴿**إن الحسنات يذهبن السيئات**﴾ يعني إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات ويكفرنها (م) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن زاد في رواية ما لم تغش الكبائر» وزاد في رواية أخرى «ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر» (ق) عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء قالوا لا قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا» (خ) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات» قال الحسن وما يبقى من الدرن.

قال العلماء: الصغائر من الذنوب تكفرها الأعمال الصالحات مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك من أعمال البر وأما الكبائر من الذنوب فلا يكفرها إلا التوبة النصوح ولها ثلاث شرائط: **الشرط الأول**: الإقلاع عن الذنب بالكلية.

الثاني: الندم على فعله.

الثالث: العزم التام أن لا يعود إليه في المستقبل، فإذا حصلت هذه الشرائط صحت التوبة وكانت مقبولة إن شاء الله تعالى، وقال مجاهد في تفسير الحسنات إنها قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والقول الأول أصح أنها الصلوات الخمس وهو قول ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب ومجاهد في إحدى الروايتين عنه والقرظي والضحاك وجمهور المفسرين ﴿**ذلك**﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من الاستقامة والتوبة وقيل هو إشارة إلى القرآن ﴿**ذكرى للذاكرين**﴾ يعني عظة للمؤمنين المطيعين ﴿**واصبر**﴾ الخطاب للنبي ﷺ يعني واصبر يا محمد على أذى قومك

ثنا محمد بن إسماعيل أنبأنا قتيبة بن سعيد ثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى ﴿ **وأقم الصلاةَ طرفي النهار وزُلفاً من الليل إنّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السيئاتِ** ﴾، قال الرجل: يا رسول الله ألـي هـذا؟ «لجميـع أمتي كلهم». وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجّاج حدّثني أبو طاهر وهارون بن سعيد الأيلي قالا: حدّثنا ابن وهب عن أبي صخر أن عمر بن إسحق مولى زائدة حدّثه عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلواتُ الخمس والجمعةُ إلى الجمعة ورمضانُ إلى رمضان مكفّراتٌ لما بينهنّ إذا اجتُنبتِ الكبائر». وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنا محمد الحسين بن أحمد المخلدي أنبأنا أبو العباس محمد بن إسحـق أنبأنا قتيبة أنبأنا الليث وبكر بن مضر عن ابن الهادي عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتُم لو أن نهراً ببابِ أحدكم يغتسلُ فيه كلَّ يوم خمساً هل يبقى من درنه شيء»؟ قالوا: لا يبقى من درنـه شيء، قال: «فـذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمس، يمحو الله بهنّ الخطايا». قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ذلك** ﴾، أي: ذلك الذي ذكرنا. وقيل: هو

وما تلقاه منهم، وقيل معناه واصبر على الصلاة ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ يعني أعمالهم، قال ابن عباس: يعني المصلين.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فلولا كان من القرون﴾ يعني فهلا كان من القرون التي أهلكناهم ﴿من قبلكم﴾ يعني يا أمة محمد ﴿أولو بقية﴾ يعني أولوا تمييز وطاعة وخير يقال فلان ذو بقية إذا كان فيه خير وقيل معناه أولوا بقية من خير يقال فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة ﴿ينهون عن الفساد في الأرض﴾ يعني يقومون بالنهي عن الفساد في الأرض والآية للتقريع والتوبيخ يعني لم يكن فيهم من فيه خير ينهى عن الفساد عن الأرض فلذلك أهلكناهم ﴿إلا قليلاً﴾ هذا استثناء منقطع معناه لكن قليلاً ﴿ممن أنجينا منهم﴾ يعني من آمن الأمم الماضية وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد في الأرض ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ يعني واتبع الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ما تنعموا فيه والترف التنعم والمعنى أنهم اتبعوا ما تعودوا به من النعم وإيثار اللذات على الآخرة ونعيمها ﴿وكانوا مجرمين﴾ يعني كافرين ﴿وما كان ربك﴾ يعني وما كان ربك يا محمد ﴿ليهلك القرى بظلم﴾ يعني لا يهلكهم بظلم منه ﴿وأهلها مصلحون﴾ يعني: في أعمالهم ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات، وقيل: في معنى الآية وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعني يعامل بعضهم بعضاً بالصلاح والسداد والمراد من الهلاك عذاب الاستئصال في الدنيا أما عذاب الآخرة فهو لازم لهم ولهذا قال بعض الفقهاء إن حقوق الله مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على التضييق والتشديد قوله عز وجل: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة

إشارة إلى القرآن، ﴿ ذكرى ﴾ عِظة ﴿ للذاكرين ﴾ أي لمَن ذكره.

﴿ واصْبِرْ ﴾ يا محمد على ما تلقى من الأذى. وقيل: على الصلاة، نظيره ﴿ وأمـرْ أهلك بالصّلاةِ واصْطَبِرْ عليها ﴾ [طه: ١٣٢]. ﴿ فإنّ الله لا يُضيعُ أجرَ المُحْسنين ﴾، في أعمالهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني المصلّين.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ فلولا ﴾ فهلّا، ﴿ كانَ مِنَ القُرونِ ﴾، التي أهلكناهم، ﴿ مِنْ قبلِكم ﴾، الآية للتوبيخ ﴿ أُولُوا بقيّةٍ ﴾، أي: أُولوا تمييز. وقيل: أُولوا طاعة. وقيل: أُولوا خير. يقال: فلان ذو بقيّة إذا كان فيه خير. معناه: فهلّا كان من القرون من قبلكم مَن فيه خير ينهى عن الفساد في الأرض؟ وقيل: معناه أُولوا بقية من خير. يقال: فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة. ﴿ يَنْهَوْنَ عن الفسادِ في الأرض ﴾، أي يقومون بالنهي عن الفساد، ومعناه جحداً، أي: لم يكن فيهم أُولوا بقية. ﴿ إلّا قليلاً ﴾، هذا استثناء منقطع معناه: لكن قليلاً، ﴿ ممّن أنجينا منهم ﴾، وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد في الأرض. ﴿ واتّبَعَ الذينَ ظلَمُوا ما أُتْرِفُوا ﴾، نعِمُوا، ﴿ فيه ﴾، والمترَفُ: المُنعَم. وقال مقاتل بن حيان: خُوّلوا. وقال الفرّاء: عُودُوا من النعيم واللذّات وإيثار الدنيا أي: واتبع الذين ظلموا ما عودوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا على الآخرة. ﴿ وكانوا مجرمين ﴾، كافرين.

واحدة﴾ يعني كلهم على دين واحد وشريعة واحدة ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ يعني على أديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل أهل دين من هذه الأديان قد اختلفوا في دينهم أيضاً اختلافاً كثيراً لا ينضبط عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال «تفرق اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين والنصارى مثل ذلك وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة» أخرجه أبو داود والترمذي بنحوه عن معاوية قال «قام فينا رسول الله ﷺ فقال: ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة» أخرجه أبو داود قال الخطابي: قوله ﷺ «وستفترق أمتي» فيه دلالة على أن هذه الفرق غير خارجة من الملة والدين إذ جعلهم من أمته وقال غيره المراد بهذه الفرق أهل البدع والأهواء الذين تفرقوا واختلفوا وظهروا بعده كالخوارج والقدرية والمعتزلة والرافضة وغيرهم من أهل البدع والأهواء والمراد بالواحدة هي فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إلا من رحم ربك﴾ يعني لكن من رحم ربك فمنّ عليه بالهداية والتوفيق إلى الحق، وهداه إلى الدين القويم والصراط المستقيم فهم لا يختلفون ﴿ولذلك خلقهم﴾ قال الحسن وعطاء وللاختلاف خلقهم.

قال أشهب: سألت مالك بن أنس عن هذه الآية فقال خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: وللرحمة خلقهم يعني الذين يرحمهم.

وقال الفراء: خلق أهل الرحمة للرحمة وخلق أهل الاختلاف للاختلاف، وقيل: خلق الله عز وجل أهل الرحمة للرحمة لئلا يختلفوا وخلق أهل العذاب لأن يختلفوا وخلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً فحاصل الآية أن الله خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين، وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف ومصيرهم إلى النار وحكم على بعضهم بالرحمة وهم أهل الاتفاق ومصيرهم إلى الجنة ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ وهذا صريح بأن الله سبحانه وتعالى خلق أقواماً للجنة وللرحمة فهداهم ووفقهم لأعمال أهل الجنة وخلق أقواماً للضلالة والنار فخذلهم ومنعهم من الهداية.

﴿ وما كانَ ربُّك لِيُهلكَ القُرَى بظلم ﴾، أي: لا يهلكهم بشركهم، ﴿ وأهْلُها مُصْلحُون ﴾، فيما بينهم يتعاطون الأنصاف ولا يظلم بعضهم بعضاً وإنما يهلكهم إذا تظالموا. وقيل: لا يهلكهم بظلم منه وهم مصلحون في أعمالهم، ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو شاءَ ربُّك لجعلَ الناسَ ﴾، كلهم. ﴿ أمةً واحدة ﴾، على دين واحد. ﴿ ولا يزالُون مُختلفين ﴾ على أديان شتى من بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك.

﴿ إلاّ مَن رَّحِمَ ربُّك ﴾، معناه: لكن مَن رحم ربك فهداهم إلى الحق، فهم لا يختلفون. ﴿ ولذلك خلقَهم ﴾، قال الحسن وعطاء: وللاختلاف خلقهم. وقال أشهب: سألتُ مالكاً عن هذه الآية، فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير. وقال أبو عبيدة: الذي أختاره فقول مَن قال: خلق فريقاً لرحمته وفريقاً لعذابه. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحّاك: وللرحمة خلقهم، يعني الذين رحمهم. وقال الفرّاء: خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف. ومحصول الآية أن أهل الباطل مختلفون وأهل الحق متّفقون فخلق الله أهل الحق للاتفاق وأهل الباطل للاختلاف. ﴿ وتمتْ كلمةُ ربِّك ﴾، وتمّ حكم ربِّك، ﴿ لأملأنَّ جهنَّمَ مِنَ الجنّةِ والنَّاسِ أجمعين ﴾.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة قصص الأمم الماضية والقرون الحالية وما جرى لهم مع أنبيائهم خاطب نبيه ﷺ بقوله وكلاً نقص عليك يا محمد من أنباء الرسل يعني من أخبار الرسل وما جرى لهم مع قومهم ما نثبت به فؤادك يعني ما نقوي به قلبك لتصبر على أذى قومك وتتأسى بالرسل الذين خلوا من قبلك وذلك لأن النبي ﷺ إذا سمع هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء مع أتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه ﴿**وجاءك**﴾ يا محمد ﴿**في هذه الحق**﴾ اختلفوا في هذا الضمير إلى ماذا يعود فقيل معناه وجاءك في هذه الدنيا الحق وفيه بعد لأنه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير إليها وقيل في هذه الآية وقيل في هذه السورة وهو الأقرب وهو قول الأكثرين فإن قلت جاءه الحق في سورة القرآن فلم خص هذه السورة بالذكر قلت لا يلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر أن لا يكون قد جاءه الحق في غيرها من السور بل القرآن كله حق وصدق وإنما خصها بالذكر تشريفاً لها ﴿**وموعظة وذكرى للمؤمنين**﴾ أي وهذه السورة موعظة يتعظ بها المؤمنون إذا تذكروا أحوال الأمم الماضية وما نزل بهم ﴿**وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم**﴾ فيه وعيد وتهديد يعني اعملوا ما أنتم عاملون فستعلمون عاقبة ذلك العمل فهو كقوله: إعملوا ما شئتم ﴿**إنا عاملون**﴾ يعني ما أمرنا به ربنا ﴿**وانتظروا**﴾ يعني ما يعدكم به الشيطان ﴿**إنا منتظرون**﴾ يعني ما يحل بكم من نقمة الله وعذابه إما في الدنيا وإما في الآخرة ﴿**ولله غيب السموات والأرض**﴾ يعني يعلم ما غاب عن العباد فيهما يعني أن علمه سبحانه وتعالى نافذ في جميع الأشياء خفيها وجليها وحاضرها ومعدومها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿**إليه يرجع الأمر كله**﴾ يعني إلى الله يرجع أمر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة ﴿**فاعبده**﴾ يعني أن من كان كذلك كان مستحقاً للعبادة لا غيره فاعبده ولا تشتغل بعبادة غيره ﴿**وتوكل عليه**﴾ يعني وثق به في جميع أمورك فإنه

﴿ **وكلاًّ نقصُّ عليك من أنباءِ الرسل ما نُثبِّتُ به فُؤَادَكَ** ﴾، معناه: وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل، أي: من أخبارهم وأخبار أُممهم نقصُّها عليك لنثبِّتَ به فؤادك، لنزيدك يقيناً ونقوّي قلبك، وذلك أنّ النبي ﷺ إذا سمعها كان في ذلك تقوية لقلبه على الصبر لأذى قومه. ﴿ **وجاءَكَ في هذهِ الحقُّ** ﴾، قال الحسن وقتادة: في هذه الدنيا. وقال غيرهما: في هذه السورة. وهذا قول الأكثرين، خصّ هذه السورة تشريفاً، وإن كان قد جاءه الحقُّ في جميع السور. ﴿ **ومَوْعِظَةٌ** ﴾، أي: وجاءتك موعظة، ﴿ **وذكرى للمؤمنين** ﴾.

﴿ **وقلْ للذين لا يُؤمنون اعْمَلُوا على مكانَتِكم** ﴾، أمرُ تهديدٍ ووعيد، ﴿ **إنّا عامِلُون** ﴾.

﴿ **وانتظِرُوا** ﴾، ما يحلّ بنا من رحمة الله، ﴿ **إنّا منتظِرُون** ﴾، ما يحلّ بكم من نقمة الله.

﴿ **وللّهِ غيبُ السـموات والأرض** ﴾ أي: ما غاب عن العباد فيهما، ﴿ **وإليه يرجع الأمرُ كله** ﴾، في المعاد. قرأ نافع وحفص ﴿ **يُرجَع** ﴾ بضمّ الياء وفتح الجيم: أي: يرد. وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الجيم، أي: يعود الأمر كله إليه حتى لا يكون للخلق أمر. ﴿ **فاعْبُدْهُ وتوكّلْ عليه** ﴾، وثق به، ﴿ **وما رَبُّك بغافلٍ عمّا تعملون** ﴾، قرأ أهل المدينة والشام وحفص ويعقوب: «تعمـلون» بالتاء ههنا وفي آخر سورة النمل [٩٣]، وقرأ الآخرون بالياء فيهما. قال كعب: خاتمة التوراة خاتمة سورة هود. أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني أنبأنا أبو

يكفيك ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ قال أهل التفسير هذا خطاب للنبي ﷺ ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم والمعنى أنه سبحانه وتعالى يحفظ على العباد أعمالهم لا يخفى عليه منها شيء فيجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

قال كعب الأحبار: خاتمة التوراة خاتمة سورة هود والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

القاسم علي بن أحمد الخزاعي أنبأنا أبو سعيد الهيثم بن كليب حدّثنا أبو عيسى الترمذي ثنا أبو كُريب محمد بن العلاء ثنا معاوية بن هشام عن شيبان عن أبي إسحق عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله قد شبت، فقال ﷺ: «شيّبتني هودُ والواقعةُ والمرسلاتُ وعمَّ يتساءلونَ وإذا الشمسُ كُوِّرتْ». ويُروَى: «شيبتني هودُ وأخواتها من المفصل».

تفسير سورة يوسف عليه الصلاة السلام

وهي مكية بإجماعهم وهي مائة وإحدى عشرة آية وألف وستمائة كلمة وسبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفاً.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وفي سبب نزولها قولان: **أحدهما** روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما أنزل القرآن على رسول الله ﷺ تلاه عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل ﴿الله نزل أحسن﴾ الحديث فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى: **﴿الر تلك آيات الكتاب المبين﴾** إلى قوله تعالى: **﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾**.

القول الثاني: رواه الضحاك عن ابن عباس قال: سألت اليهود النبي ﷺ فقالوا حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فأنزل الله عز وجل ﴿الرٓ تلك آيات الكتاب المبين﴾ الآيات الكريمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

قوله عز وجل: **﴿الر﴾** تقدم تفسيره في أول سورة يونس عليه الصلاة والسلام **﴿تلك﴾** إشارة إلى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت إليك في هذه السورة المسماة بالر هذه **﴿آيات الكتاب المبين﴾** وهو القرآن أي البين حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وقال قتادة: مبين بينه الله ببركته وهداه ورشده فهذا من بان أي ظهر، وقال الزجاج: مبين الحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر وقيل إنه يبين فيه قصص الأولين وشرح أحوال المتقدمين **﴿إنا أنزلناه﴾** يعني هذا الكتاب **﴿قرآناً عربياً﴾** أي أنزلناه بلغتكم لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه وقيل لما قالت اليهود لمشركي مكة سلوا محمداً ﷺ عن أمر يعقوب وقصة يوسف وكانت عند اليهود بالعبرانية فأنزل الله هذه السورة وذكر فيها قصة يوسف بالعربية لتفهمها العرب ويعرفوا معانيها والتقدير إنا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه عربياً فعلى هذا القول يجوز إطلاق اسم القرآن على بعضه لأنه اسم جنس يقع على الكل والبعض واختلف العلماء هل يمكن أن يقال في القرآن شيء بغير العربية، فقال أبو عبيدة: من زعم أن في القرآن لساناً غير

سُورَةُ يُوسُف

سورة يوسف عليه السلام مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية.

﴿ الٓر تِلْكَ آياتُ الكتابِ المُبينِ ﴾، أي: البيّن حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه. قال قتادة: مبين والله بركته وهداه ورشده، فهذا من بان أي: ظهر. وقال الزجّاج: مبيّنٌ الحَقَّ من الباطل والحلال من الحرام، فهذا من أبان بمعنى أظهر.

العربية فقد قال بغير الحق وأعظم على الله القول واحتج بهذه الآية إنا أنزلناه قرآناً عربياً. وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة: أن فيه من غير لسان العربية مثل سجيل والمشكاة واليم واستبرق ونحو ذلك وهذا هو الصحيح المختار لأن هؤلاء أعلم من أبي عبيدة بلسان العرب وكلا القولين صواب إن شاء الله تعالى ووجه الجمع بينهما أن هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وإن كانت غير عربية في الأصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم وصارت لهم لغة، فظهر بهذا البيان صحة القولين وأمكن الجمع بينهما ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ يعني تفهمون أيها العرب لأنه نازل بلغتكم قوله تعالى: ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص**﴾ الأصل في معنى القصص اتباع الخبر بعضه بعضاً والقاص هو الذي يأتي بالخبر على وجهه وأصله في اللغة من قص الأثر إذا تتبعه وإنما سميت الحكاية قصة لأن الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً والمعنى نحن نبين لك يا محمد أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان وقيل المراد منه قصة يوسف عليه الصلاة والسلام خاصة وإنما سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد اللقاء وغير ذلك من الفوائد المذكورة في هذه السورة الشريفة. قال خالد بن معدان: سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة. قال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها.

وقوله تعالى: ﴿**بما أوحينا إليك**﴾ يعنى بإيحائنا إليك يا محمد ﴿**هذا القرآن وإن كنت**﴾ أي وقد كنت ﴿**من قبله**﴾ يعني من قبل وحينا إليك ﴿**لمن الغافلين**﴾ يعني عن هذه القصة وما فيها من العجائب قال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل: ﴿**الله نزل أحسن الحديث**﴾ فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى: ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص**﴾ فقالوا يا رسول الله لو ذكرتنا فأنزل الله عز وجل: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**﴾ قوله عز وجل:

﴿ **إنَّا أنزلناه** ﴾، يعني الكتاب، ﴿ **قرآناً عربياً لعلّكم تعقِلُون** ﴾، أي: أنزلناه بلغتكم لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه.

﴿ **نحنُ نقصُّ عليك** ﴾، أي: نقرأ، ﴿ **أحسنَ القَصَصِ** ﴾، والقاصّ هو الذي يتبع الآثار ويأتي بالخبر على وجهه، معناه: نبيّن لك أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان. وقيل: المراد منه قصة يوسف عليه السلام خاصة، سمّاها أحسن القصص لِمَا فيها من العِبَر والحِكَم والنكت والفوائد التي تصلح للدِّين والدنيا، من سِيَرِ الملوكِ والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء. وحُسْن التجاوز عنهم بعد الالتقاء وغير ذلك من الفوائد: قال خالد بن معدان: سورة يوسف وسورة مريم عليهم السلام يتفكّه بهما أهل الجنّة في الجنّة. وقال ابن عطاء: لا يسمع سورة يوسف عليه السلام محزون إلّا استراح إليها. قوله عزّ وجلّ: ﴿ **بما أوحينا إليك** ﴾ (ما) المصدر، أي: بإيحائنا إليك، ﴿ **هذا القرآن وإنْ كنتَ**﴾، وقد كنت، ﴿**من قبله**﴾، أي: من قبل وحينا، ﴿ **لَمِنَ الغافلين** ﴾، لمن الساهين عن هذه القصة لا تعلمها. قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: يا رسول الله لو حدّثتنا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ اللَّهُ نزّلَ أحسنَ الحديثِ ﴾ [الزّمر: ٢٣] فقالوا: يا رسول الله لو قصصتَ علينا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ **نحنُ نقصُّ عليك أحسنَ القَصَص** ﴾، فقالوا: يا رسول الله لو ذكرتنا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ أَلَمْ يأنِ لِلذينَ آمنُوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكر الله ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾

﴿إذ قال يوسف لأبيه﴾ أي اذكر يا محمد لقومك قول يوسف لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم صلى الله عليه وعليهم أجمعين (خ) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ويوسف اسم عبري ولذلك لا يجري فيه الصرف وقيل هو عربي سئل أبو الحسن الأقطع عن يوسف فقال الأسف أشد الحزن والأسيف العبد واجتمعا في يوسف فسمي به ﴿يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ معناه قال أهل التفسير: رأى يوسف في منامه كأن أحد عشر كوكباً نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر وكان النجوم في التأويل إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس أبوه والقمر أمه في قول قتادة، وقال السدي: القمر خالته لأن أمه راحيل كانت قد ماتت. وقال قتادة وابن جريج: القمر أبوه والشمس أمه لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكر وكان يوسف عليه السلام ابن اثنتي عشرة سنة، وقيل: سبع عشرة سنة وقيل سبع سنين وأراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره وقيل أراد به حقيقة السجود لأنه كان في ذلك الزمان التحية فيما بينهم السجود.

فإن قلت: إن الكواكب جماد لا تعقل فكيف عبر عنها بكناية من يعقل في قوله رأيتهم ولم يقل رأيتها وقوله: ساجدين ولم يقل ساجدات.

قلت: لما أخبرنا عنها بفعل من يعقل وهو السجود كنى عنها بكناية من يعقل فهو كقوله ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ وقيل إن الفلاسفة والمنجمين يزعمون أن الكواكب أحياء نواطق حساسة فيجوز أن يعبر عنها بكناية من يعقل وهذا القول ليس بشيء والأول أصح فإن قلت قد قال ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر﴾ ثم أعاد لفظ الرؤيا ثانياً فقال ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾ فما فائدة هذا التكرار.

قلت: معنى الرؤيا الأولى أنه رأى أجرام الكواكب والشمس والقمر ومعنى الرؤيا الثانية أنه أخبر بسجودها له وقال بعضهم.

معناه أنه لمَّا قال: ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر﴾، فكأنه قيل له: وكيف رأيت؟ قال: ﴿رأيتهم

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إِذْ قالَ يُوسُفُ لأبيه ﴾، أي: اذكر إذْ قال يوسف لأبيه، ويوسف اسم عبري، ولذلك لا يجري عليه الصرف. وقيل: هو عربي، سُئِلَ أبو الحسن الأقطع عن يوسف، فقال: الأسف في اللغة الحزن، والأسيف العبد، واجتمع في يوسف عليه السلام فسُمّي به. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل قال: قال عبد الله بن محمد ثنا عبد الصمد عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم». ﴿ يا أبتِ ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عمر «يـا أبـت» بفتح التاء في جميع القرآن على تقدير: يا أبتاه، والوجه أن أصله يا أبتا بالألف وهي بدل عن ياء الإضافة، فحذفت الألف كما تحذف التاء فبقيت الفتحة تدلّ على الألف كما تبقى الكسرة تدلّ على الياء عند حذف الياء، وقرأ الآخرون «يـا أبـت» بكسر التاء في كل القرآن والوجه أن أصله: يا أبتي، فحذفت الياء تخفيفاً واكتفاءً بالكسرة لأن باب النداء حذف يدلّ على ذلك قوله: ﴿ يا عبادِ فاتّقون ﴾ [الزّمر: ١٦]، وقرأ الآخرون: «يـا أبـت» بكسر التاء

لي ساجدين﴾ وإنما أفرد الشمس والقمر بالذكر وإن كانا من جملة الكواكب للدلالة على فضلهما وشرفهما على سائر الكواكب قال أهل التفسير: إن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان شديد الحب ليوسف عليه الصلاة والسلام فحسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب، فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له فلهذا ﴿قال﴾ يعقوب ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ يعني لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾ أي: فيحتالوا في إهلاكك فأمره بكتمان رؤياه عن إخوته لأن رؤيا الأنبياء وحي وحق واللام في فيكيدوا لك كيداً تأكيداً للصلة كقولك: نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ يعني أنه بيّن العداوة، لأن عداوته قديمة فهم إن أقدموا على الكيد كان ذلك مضافاً إلى تزيين الشيطان ووسوسته (ق) عن أبي قتادة قال: كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول «الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من الشيطان فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا من يحب وإذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثاً وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فإنها لن تضره» (خ). عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنها من الله فليحمد الله عليها وليحدِّث بها وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن شرِّها ولا يذكرها لأحد فإنها لن تضره» (م) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً وليتحول عن جنبه الذي كان عليه» عن أبي رزين العقيلي قال: قال رسول الله ﷺ «رؤيا المؤمن جزء من أربعين وفي رواية جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة وهي على رجل طائر ما لم يحدث بها فإذا حدث بها سقطت قال وأحسبه قال ولا يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً» أخرجه الترمذي، ولأبي داود نحوه قال الشيخ محيي الدين النووي قال المازري مذهب أهل السنة في حقيقة الرؤيا أن الله تعالى يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة فإذا خلق هذه الاعتقادات فكأنه جعلها علماً على أمور أخر يجعلها في ثاني الحال والجميع خلق الله تعالى ولكن يخلق الرؤيا والاعتقادات التي يجعلها علماً على ما سر بغير حضرة الشيطان فإذا خلق ما هو علم على ما يضر يكون بحضرة الشيطان فينسب إلى الشيطان مجازاً وإن كان لا فعل له في

لأن أصله: يا أبت والجزم يحرّك إلى الكسر. ﴿ إني رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً ﴾، أي نجماً من نجوم السماء ونصب الكواكب على التفسير، ﴿ والشمس والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين ﴾ ولم يقل رأيتها إليَّ ساجدات، والهاء والميم والياء والنون من كنايات مَن يعقل، لأنه لمّا أخبر عنها بفعل مَن عبّر عنها بكناية مَن يعقل كقوله تعالى: ﴿ يا أيها النمل ادْخُلوا مساكِنَكم ﴾ [النمل: ١٨] وكان النجوم في التأويل أخواته، كانوا أحد عشر رجلاً يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس أبوه والقمر أمه. قال قتادة وقال السدي: القمر خالته لأن أمه راحيل كانت قد ماتت. وقال ابن جريج القمر أبوه والشمس أمه لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكّر، وكان يوسف عليه السلام ابن اثنتي عشرة سنة حين رأى هذه الرؤيا. وقيل: رآها ليلة الجمعة ليلة القدر فلما قصّها على أبيه.

﴿ قال يا بُنيَّ لا تَقْصُصْ رُؤياكَ على إخْوَتِك ﴾، وذلك أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي فعلم يعقوب أن أخوته إذا سمعوها حسدوه فأمرها بالكتمان، ﴿ فيكيدوا لك كيداً ﴾، فيحتالوا في إهلاكك لأنهم لا يعلمون تأويلها فيحسدونك واللام في قوله ﴿ لك ﴾ صلة، كقوله تعالى: ﴿ لربهم يرهبون ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقيل: هو مثل قولهم نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك. ﴿ إنَّ الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين ﴾، أي: زين لهم الشيطان ويحملهم على الكيد لعداوته القديمة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنبأنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنبأنا شعبة عن عبد ربه بن سعيد قال: سمعت أبا سلمة قال: كنتُ أرى الرؤيا

الحقيقة فهذا معنى قول النبي ﷺ «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»، لا على أن الشيطان يفعل شيئاً والرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه، وقال غيره: إضافة الرؤيا المحبوبة إلى الله تعالى إضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وإن كانتا جميعاً من خلق الله وتدبيره وإرادته ولا فعل للشيطان فيها ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب إذا رأى الرجل في منامه ما يحب أن يحدث به من يحب وإذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شرها وليتفل ثلاثاً وليتحول إلى جنبه الآخر فإنها لا تضره فإن الله تعالى جعل هذه الأسباب سبباً لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سبباً لوقاية المال وغيره من البلاء والله أعلم.

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ يعني يقول يعقوب ليوسف عليه الصلاة والسلام أي وكما رفع منزلتك بهذه الرؤيا الشريفة العظيمة كذلك يجتبيك ربك يعني يصطفيك ربك واجتباء الله تعالى العبد تخصيصه إياه بفيض إلٰهي تحصل له منه أنواع الكرامات بلا سعي من العبد وذلك مختص بالأنبياء أو ببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ يعني به تعبير الرؤيا سمي تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه، يعني يعلمك تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتعبير الرؤيا. وقال الزجاج: تأويل أحاديث الأنبياء والأمم السالفة والكتب المنزلة.

وقال ابن زيد: يعلمك العلم والحكمة ﴿ويتم نعمته عليك﴾ يعني بالنبوة، قاله ابن عباس لأن منصب النبوة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الأنبياء فهذا من إتمام النعمة عليهم، لأن جميع الخلق دونهم في الرتب والمناصب ﴿وعلى آل يعقوب﴾ المراد بآل يعقوب أولاده فإنهم كانوا أنبياء وهو المراد من إتمام النعمة عليهم ﴿كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق﴾ بأن جعلهما نبيين وهو المراد من إتمام النعمة عليهما وقيل: المراد

فتهمّني حتى سمعتُ أبا قتادة يقول: كنت أرى الرؤيا فتمرضني، حتى سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «الرؤيا الصالحة من الله تعالى، والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدّث به إلاّ مَن يحبّ، وإذا رأى ما يكره فليتعوّذ بالله من شرّها، ومن شرّ الشيطان وليتفل ثلاثاً ولا يحدّث بها أحداً فإنها لنْ تضرّ». وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنبأنا أبو القاسم البغوي ثنا علي بن الجعد أنبأنا شعبة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن أبي رزين العقيلي قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من أربعين أو ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة وهي على الرجل طائر ما لم يحدّث بها فإذا حدّث بها وقعت»، وأحسبه قال: «لا تحدّث بها إلاّ حبيباً أو لبيباً».

قوله عزّ وجلّ: ﴿ وكذلكَ يجتبيك ربُّك ﴾، يصطفيك بقول يعقوب ليوسف عليه السلام، أي: كما رفع منزلتك بهذه الرؤيا، فكذلك يصفيك ربُّك، ﴿ ويعلّمُك من تأويلِ الأحاديث ﴾، يريد تعبير الرؤيا سُمّي تأويلاً لأنه يـؤول أمره إلى ما رأى في منامه والتأويل ما يـؤل إليه عاقبة الأمر، ﴿ ويتمّ نعمتَه عليك ﴾، يعني: بالنبوّة، ﴿ وعلى آلِ يعقوب ﴾، أي: على أولاده فإنّ أولاده كلهم كانوا أنبياء، ﴿ كما أتمّها على أبويك من قبلُ إبراهيم وإسحق ﴾، فجعلهما نبيّين، ﴿ إنّ ربَّك عليمٌ حكيم ﴾، وقيل: المراد من إتمام النعمة على إبراهيم الخلّة. وقيل: إنجاؤه من الذبح. وقيل: بإخراج يعقوب والأسباط من صلبه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين رؤيا

من إتمام النعمة على إبراهيم ﷺ بأن خلصه الله من النار واتخذه خليلاً والمراد من إتمام النعمة على إسحاق بأن خلصه الله من الذبح وهذا على قول من يقول إن إسحاق هو الذبيح وليس بشيء والقول الأول هو الأصح بأن إتمام النعمة عليهما بالنبوة لأنه لا أعظم من منصب النبوة فهو من أعظم النعم على العبد ﴿إن ربك عليم﴾ يعني بمصالح خلقه ﴿حكيم﴾ يعني أنه تعالى لا يفعل شيئاً إلا بحكمة، وقيل: إنه تعالى حكم بوضع النبوة في بيت إبراهيم ﷺ قال ابن عباس رضي الله عنهما كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصر واجتماعه بأبويه وإخوته أربعون سنة وهذا قول أكثر المفسرين، وقال الحسن البصري: كان بينهما ثمانون سنة فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا ما رضي أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه.

قوله عز وجل: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته﴾ يعني في خبره وخبر إخوته وأسماؤهم روبيل وهو أكبرهم وشمعون ولاوى ويهوذا وزبولول ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب وولد يعقوب من سريتين إسم إحداهما زلفة والأخرى بلهة أربعة أولاد وأسماؤهم دان ونفتالي وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين فهؤلاء بنو ليعقوب وهم الأسباط، وعددهم اثنا عشر نفراً ﴿آيات للسائلين﴾ وذلك أن اليهود لما سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من أرض كنعان إلى أرض مصر ذكر قصة يوسف مع إخوته فوجدوها موافقة لما في التوراة فعجبوا منه فعلى هذا تكون هذه القصة دالة على نبوة رسول الله ﷺ لأنه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء والأحبار، ولم يأخذ عن أحد منهم شيئاً فدل ذلك على أن ما أتي به وحي سماوي وعلم قدسي أوحاه الله إليه وشرفه به، ومعنى آيات للسائلين أي عبرة للمعتبرين فإن هذه القصة تشتمل على أنواع من العبر والمواعظ والحكم ومنها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ومنها حسد إخوته له وما آل إليه أمرهم من الحسد ومنها صبر يوسف على إخوته وبلواه مثل إلقائه في الجب وبيعه عبداً وسجنه بعد ذلك وما آل

يوسف هذه وبين تحقيقها بمصير أبويه وإخوته إليه أربعون سنة، وهو قول أكثر أهل التفسير. وقال الحسن البصري: كان بينهما ثمانون سنة. فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا: ما رضي أن تسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه فبغوه وحسدوه.

يقول الله تعالى: ﴿ لقدْ كانَ في يوسفَ وإخوتِهِ ﴾، أي: في خبره وخبر إخوته. وأسماؤهم روبيل وقيل روبين بالنون وهو أكبرهم شمعون ولاوى ويهوذا وزبالون وقيل زبلون وآشر وأُمهم ليا بنت لابان وهي ابنة خال يعقوب عليه السلام، ولد له من سريّتين له اسم إحداهما زلفة والأخرى يلهمة أربعة أولاد، دان ونفتالي، وقيل: نفتولي وجادو أشير، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب عليه السلام أُختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين. وقيل: وابن يامين، فكان بنو يعقوب عليه السلام اثني عشر رجلاً. ﴿ آيات ﴾، قرأ ابن كثير « آية » على التوحيد أي عظة وعبرة. وقيل: عجب، وقرأ الآخرون: «آيـات» على الجمع. ﴿ للسائلين ﴾، وذلك أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام. وقيل: سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعان إلى مصر. فذكر لهم قصة يوسف جميعهـا، فوجـدوها مـوافقة لمـا في التوراة فتعجبـوا منها. فهـذا معنى قولـه: ﴿ آياتٌ للسـائلين ﴾. أي: دلالة نبوّة رسول الله ﷺ. وقيل: آيات للسائلين ولمَن لم يسأل، كقوله: ﴿ سواء للسائلين ﴾ [فصّلت: ١٠]، وقيل: معناه عبرة للمعتبرين، فإنها تشتمل على حسد إخوة يوسف وما آل إليه أمرهم في الحسد وتشتمل على رؤياه، وما حقّق الله منها، وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة وعلى الرقّ وعلى اللّبث في السجن، وما آل إليه أمره من الملك، وتشتمل على حزن يعقوب وصبره على فراق يوسف وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد وغير ذلك من الآيات.

إليه أمره من الملك ومنها ما تشتمل عليه من حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل إليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التي إذا فكر فيها الإنسان اعتبر واتعظ.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿**إذ قالوا**﴾ يعني إخوة يوسف ﴿**ليوسف**﴾ اللام فيه لام القسم تقديره والله ليوسف ﴿**وأخوه**﴾ يعني بنيامين وهما من أم واحدة ﴿**أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة**﴾ إنما قالوا هذه المقالة حسداً منهم ليوسف وأخيه لما رأوا من ميل يعقوب إليه وكثرة شفقته عليه والعصبة الجماعة وكانوا عشرة، قال الفراء: العصبة هي العشرة فما زاد وقيل هي ما بين الواحد إلى العشرة وقيل ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقال مجاهد: هي ما بين العشرة إلى خمسة عشر وقيل إلى الأربعين وقيل الأصل فيه أن كل جماعة يتعصب بعضهم ببعض يسمون عصبة والعصبة لا واحد لها من لفظها كالرهط والنفر ﴿**إن أبانا لفي ضلال مبين**﴾ يعني لفي خطأ بين في إيثاره حب يوسف علينا مع صغره لا نفع فيه ونحن عصبة ننفعه ونقوم بمصالحه من أمر دنياه وإصلاح أمر مواشيه وليس المراد من ذكر هذا الضلال الضلال عن الدين إذ لو أرادوا ذلك لكفروا به ولكن أرادوا به الخطأ في أمر الدنيا وما يصلحها يقول نحن أنفع له من يوسف فهو مخطىء في صرف محبته إليه لأنا أكبر منه سناً وأشد قوة وأكثر منفعة وغاب عنهم المقصود الأعظم وهو أن يعقوب عليه الصلاة والسلام ما فضل يوسف وأخاه على سائر الإخوة إلا في المحبة المحضة ومحبة القلب ليس في وسع البشر دفعها ويحتمل أن يعقوب إنما خص يوسف بمزيد المحبة والشفقة لأن أمه ماتت وهو صغير ولأنه رأى فيه من آيات الرشد والنجابة ما لم يره في سائر إخوته فإن قلت الذي فعله إخوة يوسف بيوسف هو محض الحسد والحسد من أمهات الكبائر وكذلك نسبة أبيهم إلى الضلال هو محض العقوق وهو من الكبائر أيضاً وكل ذلك قادح في عصمة الأنبياء فما الجواب عنه.

قلت: هذه الأفعال إنما صدرت من إخوة يوسف قبل ثبوت النبوة لهم والمعتبر في عصمة الأنبياء هو وقت حصول النبوة لا قبلها، وقيل: كانوا وقت هذه الأفعال مراهقين غير بالغين ولا تكليف عليهم قبل البلوغ فعلى هذا لم تكن هذه الأفعال قادحة في عصمة الأنبياء.

قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف ﴿**اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم**﴾ لما قوي الحسد وبلغ النهاية قال إخوة يوسف فيما بينهم لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقين إما القتل مرة

﴿ **إِذْ قالوا لَيُوسُفُ** ﴾، اللام فيه جواب القسم تقديره: والله ليوسف، ﴿ **وأخوه** ﴾، بنيامين، ﴿ **أحبُّ إلى أبينا منّا** ﴾، كان يوسف وأخوه بنيامين من أم واحدة، وكان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف عليه السلام، وكان إخوته يرون منه من الميل إليه ما لا يرونه مع أنفسهم فقالوا هذه المقالة، ﴿ **ونحنُ عُصْبَةٌ** ﴾، أي: جماعة وكانوا عشرة. قال الفرّاء: العصبة هي العشرة فما زاد. وقيل: العصبة ما بين الواحد إلى العشرة. وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة. وقال مجاهد: ما بين العشرة إلى خمسة عشر. وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين. وقيل: جماعة يتعصّب بعضها لبعض لا واحد لها من لفظها كالنفر والرهط. ﴿ **إنّ أبانَا لَفِي ضلالٍ مبين** ﴾، أي خطأ بيّن أمر إيثاره يوسف وأخاه علينا، وليس المراد من هذا الضلال الضلال عن الدين ولو أرادوه لكفروا به، بل المراد منه الخطأ في تدبير أمر الدنيا يقولون نحن أنفع في أمر الدنيا وإصلاح أمر معاشه ورعي مواشيه من يوسف، فنحن أولى بالمحبة منه فهو مخطىء في صرف محبته إليه.

واحدة أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه بأن تفترسه الأسد والسباع أو يموت في تلك الأرض البعيدة ثم ذكروا العلة في ذلك وهي قوله يخل لكم وجه أبيكم والمعنى أنه قد شغله حب يوسف عنكم فإذا فعلتم ذلك بيوسف أقبل يعقوب بوجهه عليكم وصرف محبته إليكم ﴿وتكونوا من بعده﴾ يعني من بعد قتل يوسف أو إبعاده عن أبيه ﴿قوماً صالحين﴾ يعني: تائبين فتوبوا إلى الله يعف عنكم فتكونوا قوماً صالحين وذلك أنهم لما علموا أن الذي عزموا عليه من الذنوب والكبائر قالوا نتوب إلى الله من هذا الفعل ونكون من الصالحين في المستقبل، وقال مقاتل: معناه يصلح لكم أمركم فيما بينكم وبين أبيكم فإن قلت كيف يليق أن تصدر هذه الأفعال منهم وهم أنبياء.

قلت: الجواب ما تقدم أنهم لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت حتى تكون هذه الأفعال قادحة في عصمة الأنبياء وإنما أقدموا على هذه الأفعال قبل النبوة وقيل إن الذي أشار بقتل يوسف كان أجنبياً شاوروه في ذلك فأشار عليهم بقتله.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف﴾ يعني قال قائل من إخوة يوسف وهو يهوذا، وقال قتادة: هو روبيل وهو ابن خالته وكان أكبرهم سناً وأحسنهم رأياً فيه فنهاهم عن قتله، وقال: القتل كبيرة عظيمة والأصح أن قائل هذه المقالة هو يهوذا لأنه كان أقربهم إليه سناً ﴿وألقوه في غيابت الجب﴾ يعني ألقوه في أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيئاً وغيبه عن النظر والجب البئر الكبيرة غير مطوية سمي بذلك لأنه جب أي قطع ولم يطو وأفاد ذكر القيامة مع ذكر الجب أن المشير أشار بطرحه في موضع من الجب مظلم لا يراه أحد واختلفوا في مكان ذلك الجب، فقال قتادة: هو بئر ببيت المقدس، وقال وهب: هو في أرض الأردن وقال مقاتل هو في أرض الأردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وإنما عينوا ذلك الجب للعلة التي ذكروها وهي قولهم ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ وذلك أن هذا الجب كان معروفاً يرد عليه كثير من المسافرين، والالتقاط أخذ الشيء من الطريق أو من حيث لا يحتسب، ومنه اللقطة بعض

﴿ اقتلوا يوسف ﴾، اختلفوا في قائل هذا القول، فقال وهب: قاله شمعون. وقال كعب: قاله دان. وقال مقاتل: روبيل ﴿ مبينٌ اقتلوا ﴾ بضم التنوين، قرأها ابن كثير ونافع والكسائي، وقرأ الباقون «مبين اقتلوا» بكسر التنوين. ﴿ أو اطْرَحُوه أرضاً ﴾، أي: إلى أرض تبعد عن أبيه. وقيل: في أرض تأكله السِّباع، ﴿ يخلُ لكم ﴾، يخلص لكم ويصف لكم. ﴿ وجهُ أبيكم ﴾، عن شغله بيوسف، ﴿ وتكونُوا من بعده ﴾، من بعد قتل يوسف، ﴿ قوماً صالحين ﴾، تائبين أي: توبوا بعد ما فعلتم هذا يعفُ الله عنكم. وقال مقاتل: صالحين يصلح أمركم فيما بينكم وبين أبيكم.

﴿ قالَ قائلٌ منهم لا تقتلُوا يُوسفَ ﴾ وهو يهوذا، وقال قتادة: روبيل، وكان ابن خالة يوسف، وكان أكبرهم سنّاً وأحسنهم رأياً فيه. والأول أصحّ أنه يهوذا، نهاهم عن قتله وقال: القتل كبيرة عظيمة. ﴿ وألْقُوه في غيابتِ الجُبِّ ﴾، قرأ أبو علي جعفر ونافع غيابات الجب، الجمع في الحرفين، وقرأ الباقون غيابت الجبّ على الواحد، أي: في أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر عنك الشيء وغيّبه والجبّ البئر غير المطويّة لأنه جب، أي: قطع ولم يطوَ ﴿ يلتقطْه ﴾، يأخذه، والالتقاط أخذ الشيء من حيث لا يحتسبه الإنسان، ﴿ بعضُ السَّيّارةِ ﴾، أي بعض المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى فتستريحوا منه، ﴿ إنْ كنتُم فاعلين ﴾، أي: إن عزمتم على فعلكم وهم كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا أنبياء بعد. وقيل: لم يكونوا بالغين وليس بصحيح بدليل أنهم قالوا: ﴿ وتكونوا

السيارة يعني يأخذه بعض المسافرين فيذهب به إلى ناحية أخرى فتستريحون منه ﴿إن كنتم فاعلين﴾ فيه إشارة إلى ترك الفعل فكأنه قال لا تفعلوا شيئاً من ذلك وإن عزمتم على هذ الفعل فافعلوا هذا القدر إن كنتم فاعلين ذلك.

قال البغوي: كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا أنبياء إلا بعده وقيل لم يكونوا بالغين وليس بصحيح بدليل أنهم قالوا وتكونوا من بعده قوماً صالحين وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين والصغير لا ذنب له. قال محمد بن إسحاق: اشتمل فعلهم هذا على جرائم كثيرة من قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالأمانة وترك العهد والكذب مع أبيهم وعفا الله عن ذلك كله حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى وقال بعض أهل العلم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعاً وكل ذلك كان قبل أن نبأهم الله فلما أجمعوا على التفريق بين يوسف وبين والده بضرب من الحيل ﴿قالوا﴾ يعني: قال إخوة يوسف ليعقوب ﴿يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف﴾ بدؤوا بالإنكار عليه في ترك إرسال يوسف معهم كأنهم قالوا: أتخافنا عليه إذا أرسلته معنا ﴿وإنا له لناصحون﴾ المراد بالنصح هنا القيام بالمصلحة، وقيل: البر والعطف والمعنى وإنا لعاطفون عليه قائمون بمصلحته وبحفظه، وقال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير وذلك أنهم قالوا لأبيهم أرسله معنا فقال يعقوب إني ليحزنني أن تذهبوا به فحينئذ قالوا: مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ثم قالوا.

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

﴿أرسله معنا غداً﴾ يعني إلى الصحراء ﴿يرتع﴾ الرتع هو الاتساع في الملاذ يقال رتع فلان في ماله إذا أنفقه في

من بعده قوماً صالحين ﴾، ﴿ وقالوا يا أبانا استغفرْ لنا ذنوبنا ﴾ [يوسف: ٩٧] والصغير لا ذنب له. وقال محمد بن إسحق: اشتمل فعلهم على جرائم من قطعية الرحم وعقوق الوالدين وقلّة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة وترك العهد والكذب مع أبيهم، وعفا الله عنهم ذلك كله حتى لا ييأس أحدٌ من رحمة الله. وقال بعض أهل العلم: إنهم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة لهم، ولو فعلوا لهلكوا أجمعون، وكلّ ذلك كان قبل أن أنبأهم الله تعالى. وسُئِلَ أبو عمرو بن العلاء: كيف قالوا ﴿ نلعب ﴾ وهم أنبياء؟ قال: كان ذلك قبل أن نبّأهم الله تعالى، فلما أجمعوا على التفريق بينه وبين والده بضروب من الحيل.

﴿ قالوا ﴾، ليعقوب، ﴿ يا أبانا مَا لكَ لَا تأمنّا على يوسف ﴾، قرأ أبو جعفر: «تأمنّـا» بلا شمّة، وهو رواية عن نافع، وقرأ الباقون: «تأمنّـا» بإشمام الضمة في النون الأولى المدغمة، وهو إشارة إلى الضمة من غير إمحاض ليعلم أن أصله لا تأمنُنا بنونين على تفعلنا، فأُدغمتِ النون الأولى في الثانية، بدؤوا بالإنكار عليه في ترك إرساله معهم كأنهم قالوا: إنك لا ترسله معنا أتخافنا علينا؟ ﴿ وإنّا له لنَاصِحُون ﴾، قال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير وذلك أنهم قالوا لأبيهم: ﴿ أرْسِلْه معنا ﴾ فقال أبوهم: إني ليحـزنني أن تذهبوا به، فحينئذ قالوا: ﴿ يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون ﴾، النصح ههنا هو القيام بالمصلحة. وقيل: البرّ والعطف، إنّا عاطفون عليه قائمون بمصلحته نحفظه حتى نردّه إليك.

﴿ أرْسِلْهُ معنَا غداً ﴾، إلى الصحراء، ﴿ يرتعْ ويلعبْ ﴾، قرأ أبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما وجزم العين

شهواته والأصل في الرتع أكل البهائم في الخصب زمن الربيع ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير ﴿ويلعب﴾ اللعب معروف وقال الراغب: يقال لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً سئل أبو عمرو بن العلاء كيف قالوا نلعب وهم الأنبياء فقال كم يكونوا يومئذ أنبياء ويحتمل أن يكون المراد باللعب هنا الإقدام على المباحات لأجل إنشراح الصدر ومنه قوله ﷺ لجابر رضي الله عنه «هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك» وأيضاً فإن لعبهم كان الاستباق وهو غرض صحيح مباح لما فيه من المحاربة والإقدام على الأقران والحرب بدليل قوله نستبق وإنما سموه لعباً لأنه في صورة اللعب وقيل في معنى نرتع ونلعب نتنعم ونأكل ونلهو وننشط ﴿وإنا له لحافظون﴾ يعني نجتهد في حفظه غاية الاجتهاد حتى نرده إليك سالماً ﴿قال﴾ يعني قال لهم يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ أي: ذهابكم به والحزن هنا ألم القلب بفراق المحبوب ومعنى الآية أنه لما طلبوا منه أن يرسل معهم يوسف عليه الصلاة والسلام اعتذر يعقوب عليه الصلاة والسلام بعذرين أحدهما أن ذهابهم به ومفارقته إياه يحزنه لأنه كان لا يقدر أن يصبر عنه ساعة والثاني قوله ﴿وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ يعني إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم وذلك أن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان رأى في المنام أن ذئباً شد على يوسف عليه الصلاة والسلام فكان يعقوب يخاف عليه من ذلك وقيل كانت الذئاب في أرضهم كثيرة ﴿قالوا﴾ يعني قال إخوة يوسف مجيبين ليعقوب ﴿لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ أي جماعة عشرة رجال ﴿إنا إذاً لخاسرون﴾ يعني عجزة ضعفاء وقيل إنهم خافوا أن يدعو عليهم يعقوب بالخسار والبوار وقيل معناه إنا إذا لم نقدر على حفظ أخينا فكيف نقدر على حفظ مواشينا فنحن إذاً خاسرون.

قوله عز وجل ﴿فلما ذهبوا به﴾ فيه إضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب﴾ يعني وعزموا على أن يلقوه في غيابة الجب.

ذكر قصة ذهابهم بيوسف عليه الصلاة والسلام

قال وهب، وغيره من أهل السير والأخبار: إن إخوة يوسف قالوا له أما تشتاق أن تخرج معنا إلى مواشينا فنصيد ونستبق قال بلى قالوا له أنسأل أباك أن يرسلك معنا، قال يوسف: افعلوا فدخلوا بجماعتهم على يعقوب، فقالوا: يا أبانا إن يوسف قد أحب أن يخرج معنا إلى مواشينا فقال يعقوب: ما تقول يا بني؟ قال: نعم يا أبت إني أرى من إخوتي اللين واللطف فأحب أن تأذن لي، وكان يعقوب يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له وأرسله معهم فلما خرجوا به من عند يعقوب جعلوا يحملونه على رقابهم ويعقوب ينظر إليهم فلما بعدوا عنه وصاروا إلى الصحراء وألقوه على الأرض

في « نرتع »، وقرأ يعقوب: « نرتع » بالنون، «ويلعب» بالياء، وقرأ أهل الكوفة بالياء فيهما وجزم العين في «يرتع» يعني يوسف، وقرأ الآخرون « نرتع » بالنون «ويلعب» بالياء. والرتع هو الاتّساع في الملاذ. يقال: رتع فلان في ماله إذا أنفقه في شهواته، يريد ونتنعم ونأكل ونشرب ونلهو وننشط. وقرأ أهل الحجاز: «يرتع» بكسر العين وهو يفتعل من الرعي، ثم ابن كثير قرأ بالنون فيهما أي: نتحارس ويحفظ بعضُنا بعضاً. وقرأ أبو جعفر ونافع بالياء إخباراً عن يوسف، أي: يرعى الماشية كما نرعى نحن. ﴿ وإنّا له لحافظُون ﴾.

﴿ قال ﴾ لهم يعقوب، ﴿ إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾، أي: يحزنني ذهابكم به، والحزن ههنا: ألم القلب بفراق المحبوب، ﴿ وأخافُ أنْ يأكله الذئبُ وأنتُم عنه غافِلُون ﴾، وذلك أن يعقوب كان رأى في المنام أن ذئباً شدّ على يوسف، فكان يخاف من ذلك، فمن ثَمّ قال: أخاف أن يأكله الذئب. قرأ ابن كثير وإسماعيل وقَالُونُ عن نافع وعاصم وابن عامر: «الذئب» بالهمزة، وكذلك أبو عمرو إذا لم يدرج، وحمزة إذا لم يقف، وقرأ الكسائي وورش عن نافع، وأبو عمرو وفي الدرج، وحمزة في الوقف، « الذيب » بترك الهمزة في الهمز، أنه هو الأصل لأنه من

وأظهروا له ما في أنفسهم من العداوة وأغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعل كلما جاء إلى واحد منهم واستغاث به ضربه فلما فطن لما عزموا عليه من قتله جعل ينادي يا أبتاه يا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من إخوته لأحزنك ذلك وأبكاك يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك وجعل يبكي بكاء شديداً فأخذه روبيل وجلد به الأرض ثم جثم على صدره وأراد قتله، فقال له يوسف: مهلاً يا أخي لا تقتلني، فقال له: يا ابن راحيل أنت صاحب الأحلام قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ولوى عنقه، فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله فيّ و حلّ بيني وبين من يريد قتلي فأدركته رحمة الإخوة ورق له فقال يهوذا يا إخوتي ما على هذا عاهدتموني ألا أدلكم على ما هو أهون لكم وأرفق به فقالوا وما هو قال تلقونه في هذا الجبّ إما أن يموت أو يلتقطه بعض السيارة فانطلقوا به إلى بئر هناك على غير الطريق واسع الأسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه في البئر فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يا إخوتاه ردوا عليّ قميصي لأستتر به في الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال إني لم أر شيئاً فألقوه فيها ثم قال لهم يا إخوتاه أتدعوني فيها فريداً وحيداً وقيل جعلوه في دلو ثم أرسلوه فيها، فلما بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة كانت في البئر فقام عليها وقيل نزل عليه ملك فحل يديه وأخرج له صخرة من البئر فأجلسه عليها، وقيل إنهم لما ألقوه في الجب جعل يبكي فنادوه فظن أنها رحمة أدركته فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وقيل إن يعقوب لما بعثه مع أخوته أخرج له قميص إبراهيم الذي كساه الله إياه من الجنة حين ألقي في النار فجعله يعقوب في قصبة فضة وجعلها في عنق يوسف فألبسه الملك إياه حين ألقي في الجب فأضاء له الجب. وقال الحسن: لما ألقي يوسف في الجب عذب ماؤه فكان يكفيه عن الطعام والشراب ودخل عليه جبريل فأنس به فلما أمسى نهض جبريل ليذهب فقال له إنك إذا خرجت استوحشت فقال له إذا رهبت شيئاً فقل يا صريخ المستصرخين ويا غوث المستغيثين ويا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري فلما قالها يوسف حفته الملائكة واستأنس في الجب، وقال محمد بن مسلم الطائفي: لما ألقي يوسف في الجب قال: يا شاهداً غير غائب ويا قريباً غير بعيد ويا غالباً غير مغلوب اجعل لي فرجاً مما أنا فيه فما بات فيه واختلفوا في قدر عمر يوسف يوم ألقي في الجب فقال الضحاك ست سنين وقال الحسن: اثنتا عشرة سنة، وقال ابن السائب: سبع عشرة سنة، وقيل: ثمان عشرة سنة، وقيل: مكث في الجب ثلاثة أيام وكان إخوته يرعون حوله وكان يهوذا يأتيه بالطعام فذلك قوله تعالى: ﴿وأوحينا إليهم لتنبئنهم بأمرهم هذا﴾ يعني لتخبرن إخوتك قال أكثر المفسرين: إن الله أوحى إليه وحياً حقيقة فبعث إليه جبريل يؤنسه ويبشره بالخروج ويخبره أنه سينبئهم بما فعلوا

قولهم: تذابتِ الريح إذا جاءت من كل وجه، ويجمع الذئب أذؤباً وذئاباً بالهمز، والوجه في ترك الهمز أن الهمزة خففت فقلبت ياءً لسكونها وإنكسار ما قبلها.

﴿ قالوا لئن أكله الذِّئبُ ونحنُ عُصْبةٌ ﴾، عشرة، ﴿ إنَّا إذاً لخاسِرُون ﴾، عجزة ضعفاء.

﴿ فلمّا ذهبُوا بهِ وأجمعُوا ﴾، أي: عزموا، ﴿ أنْ يجعلُوه ﴾، يلقوه، ﴿في غيابَتِ الجُبِّ وأوْحَينا إليه ﴾، هذه الواو زائدة تقديره: أوحينا إليه، كقوله تعالى: ﴿ فلما أسْلَما وتلّه للجبين وناديناه ﴾ [الصّافات: ١٠٣ و١٠٤] أي: ناديناه: ﴿ لتنبِّئنّهم بأمرِهم هذا وهم لا يشعُرون ﴾، أي: أوحينا إلى يوسف عليه السلام لتصدقنّ رؤياك ولتخبرنّ إخوتك بصنيعهم هذا وهم لا يشعرون بوحي الله وإعلامه إيّاه ذلك. قاله مجاهد، وقيل: معناه: وهم لا يشعرون يوم تخبرهم أنك يوسف، وذلك حين دخلوا عليه فعرفهم وهم منكرون، وذكر وهب وغيره أنهم أخذوا يوسف عليه السلام بغاية الإكرام وجعلوا يحملونه، فلما برزوا إلى البرية ألقوه وجعلوا يضربونه فإذا ضربه واحد منهم استغاث بالآخر فضربه الآخر، فجعل لا يرى منهم رحيماً فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح يا أبتاه لو تعلم ما يصنع

ويجازيهم عليه هذا قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا هل كان بالغاً في ذلك الوقت أو كان صبياً صغيراً فقال بعضهم إنه كان بالغاً وكان عمره خمس عشرة سن وقال آخرون بل كان صغيراً إلا أن الله عز وجل أكمل عقله ورشده وجعله صالحاً لقبول الوحي والنبوة كما قال في حق عيسى عليه الصلاة والسلام.

فإن قلت كيف جعله نبياً في ذلك الوقت ولم يكن أحد يبلغه رسالة ربه لأن فائدة النبوة والرسالة تبليغها إلى من أرسل إليه.

قلت: لا يمتنع أن الله يشرفه بالوحي ويكرمه بالنبوة والرسالة في ذلك الوقت، وفائدة ذلك تطييب قلبه وإزالة الهمّ والغمّ والوحشة عنه ثم بعد ذلك يأمره بتبليغ الرسالة في وقتها وقيل إن المراد من قوله وأوحينا إليه وحي إلهام كما في قوله تعالى وأوحى ربك إلى النحل وأوحينا إلى أم موسى والقول الأول أولى وقوله تعالى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ يعني بإيحائنا إليك وأنت في البئر بأنك ستخبرهم بصنيعهم هذا، والفائدة في إخفاء ذلك الوحي أنهم إذا عرفوه فربما ازداد حسدهم له. وقيل: إن الله تعالى أوحى إلى يوسف لتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون بأنك أنت يوسف والمقصود من ذلك تقوية قلب يوسف عليه الصلاة السلام وأنه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستولياً عليهم ويصيرون تحت أمره وقهره قوله تعالى:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وجاؤوا أباهم عشاء يبكون﴾ قال المفسرون: لما طرحوا يوسف في الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليكونوا في الظلمة أجرأ على الاعتذار بالكذب فلما قربوا من منزل يعقوب جعلوا يبكون ويصرخون فسمع أصواتهم ففزع من ذلك وخرج إليهم فلما رآهم قال بالله سألتكم يا بني هل أصابكم شيء في غنمكم قالوا لا قال فما أصابكم وأين يوسف ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ قال ابن عباس: يعني ننتضل، وقال الزجاج: يسابق بعضنا بعضاً في الرمي

بابنك بنو الإماء، فلما كادوا أن يقتلوه قال لهم يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه، فانطلقوا به إلى الجُبِّ ليطرحوه فيه، وكان ابن اثنتي عشرة سنة. وقيل: ثمانية عشرة سنة، فجاؤوا به إلى بئر على غير الطريق واسعة الأسفل ضيقة الرأس. قال مُقاتل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام. قال كعب: بين مدين ومصر. وقال وهب بأرض الأردن. وقال قتادة: هي بئر بيت المقدس فجعلوا يدلّونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال: يا إخوتاه رُدّوا عليّ القميص أتوارى به في الجبّ، فقالوا: ادعُ الشمسَ والقمرَ والكواكِبَ تواريك، قال: إني لم أرَ شيئاً، فألقوه فيها. وقيل: جعلوه في دلو وأرسلوه فيها حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها. وقيل: إنهم لمّا ألقوه فيها جعل يبكي فنادوه فظنّ أن رحمةً أدركتهم، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه، فمنعهم يهوذا وكان يهوذا يأتيه بالطعام، وبقي فيها ثلاثَ ليالٍ، ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا ﴾. والأكثرون على أن الله تعالى أوحى إليه بهذا وبعث إليه جبريل عليه السلام يؤنسه ويبشّره بالخروج، ويخبره أنه ينبئهم بما فعلوه ويجازيهم عليه وهم لا يشعرون. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثم إنهم ذبحوا أسخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف عليه السلام.

﴿ وجاؤوا أباهم عِشَاءً يبكُون ﴾، قال أهل المعاني: جاؤوا في ظلمة العشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار

الأصل في السبق الرمي بالسهم وهو التناضل أيضاً وسمي المتراميان بذلك يقال تسابقا واستبقا إذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أبعد سهماً. وقال السدي: يعني نشتد ونعدو والمعنى نستبق على الأقدام ليتبين أينا أسرع عدواً وأخف حركة، وقال مقاتل: نتصيد والمعنى نستبق إلى الصيد ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ يعني عند ثيابنا ﴿فأكله الذئب﴾ يعني في حال استباقنا وغفلتنا عنه ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ يعني وما أنت بمصدق لنا ﴿ولو كنا صادقين﴾ يعني في قولنا والمعنى إنا وإن كنا صادقين لكنك لا تصدق لنا قولاً لشدة محبتك ليوسف فإنك تتهمنا في قولنا هذا وقيل معناه إنا وإن كنا صادقين فإنك لا تصدقنا لأنه لم تظهر عندك أمارة تدل على صدقنا ﴿وجاؤوا على قميصه﴾ يعني قميص يوسف ﴿بدم كذب﴾ أي مكذوب فيه قال ابن عباس: إنهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف ثم جاؤوا أباهم وفي القصة أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه، فقال يعقوب لهم: كيف أكله الذئب ولم يشقّ قميصه فاتهمهم بذلك، وقيل إنهم أتوه بذئب وقالوا هذا أكله فقال يعقوب: أيها الذئب أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي؟ فأنطقه الله عز وجل وقال والله ما أكلته ولا رأيت ولدك قط ولا يحل لنا أن نأكل لحوم الأنبياء، فقال يعقوب فكيف وقعت بأرض كنعان فقال جئت لصلة الرحم وهي قرابة لي فأخذوني وأتوا بي إليك فأطلقه يعقوب ولما ذكر إخوة يوسف ليعقوب هذا الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم، ﴿قال﴾ يعقوب ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ يعني بل زينت لكم أنفسكم أمراً، وأصل التسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه، وقال صاحب الكشاف: سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء أي سهلت لكم أنفسكم أمراً عظيماً ركبتموه من يوسف وهوّنتموه في أنفسكم وأعينكم فعلى هذا يكون معنى قوله بل رد لقولهم فأكله الذئب كأنه قال ليس الأمر كما تقولون أكله الذئب بل سولت لكم أنفسكم أمراً آخر غير ما تصفون ﴿فصبر جميل﴾ أي: فشأني صبر جميل، وقيل: معناه فصبري صبر جميل والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه ولا جزع. وقيل: من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا تزكين نفسك ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ يعني: من القول الكذب، وقيل: معناه والله المستعان على حمل ما تصفون.

بالكذب. ورُوِيَ أن يعقوب عليه السلام سمع صياحهم وعويلهم فخرج وقال: ما لكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا. قال: فما أصابكم وأين يوسف؟؟.

﴿ قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبِقُ ﴾، أي: نترامى وننتضل، وقال السدي: نشتدّ على أقدامنا. ﴿ وتركْنَا يوسفَ عندَ متاعِنَا ﴾، أي: عند ثيابنا وأقمشتنا. ﴿فأكلَه الذِّئبُ وما أنت بمؤمنٍ لنا ﴾، بمصدّق لنا، ﴿ ولو كُنّا ﴾، وإن كنّا، ﴿ صادقين ﴾، فإن قيل: كيف قالوا ليعقوب أنت لا تصدق الصادقَ؟ قيل: معناه إنك تتهمنا في هذا الأمر لأنك خفتنا عليه في الابتداء واتهمتنا في حقه. وقيل معناه لا تصدقنا لأنه لا دليل على صدقنا وإن كنّا صادقين عند الله.

﴿ وجاءُوا على قميصِه بدمٍ كذبٍ ﴾، أي: بدم كذب لأنه لم يكن دم يوسف. وقيل: بدم مكذوب فيه، فوضع المصدر موضع الاسم. وفي القصة: إنهم لطّخوا القميص بالدم ولم يشقّوه، فقال يعقوب عليه السلام: كيف أكله الذئب ولم يشقّ قميصه فاتهمهم، ﴿ قالَ بلْ سوّلتْ ﴾، زيّنت، ﴿ لكم أنفسُكم أمراً فصبرٌ جميل ﴾، معناه: فأمري صبر جميل أو فعلي صبرٌ جميل. وقيل: فصبر جميل أختاره. والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه ولا جزع. ﴿ واللَّهُ المستعانُ على ما تصفون ﴾، أي: أستعين بالله على الصبر، على ما تكذبون. وفي القصة: أنهم جاؤُوا بذئب وقالوا هذا الذي أكله فقال له يعقوب يا ذئب أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي فأنطقه الله عزّ وجلّ، فقال: تالله ما رأيت وجه ابنك قطّ، قال: كيف وقعت بأرض كنعان؟ قال: جئت لصلة قرابة فصادني هؤلاء فمكث يوسف في البئر ثلاثة أيام.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وجاءت سيارة﴾ وهم القوم المسافرون سمّوا سيارة لمسيرهم في الأرض، وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطؤوا الطريق فنزلوا قريباً من الجب الذي كان فيه يوسف وكان في قفرة بعيدة من العمارة ترده الرعاة والمارة وكان ماؤه ملحاً فلما ألقي يوسف فيه عذب فلما نزلوا أرسلوا رجلاً من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء فذلك قوله عز وجل: ﴿فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه﴾ قال والوارد هو الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيىء الأرشية والدلاء يقال أدليت الدلو إذا أرسلتها في البئر ودلوتها إذا أخرجتها قال فتعلق يوسف عليه الصلاة والسلام بالحبال وكان يوسف عليه السلام أحسن ما يكون من الغلمان وذكر البغوي بسند متصل أن النبي ﷺ قال «أعطي يوسف شطر الحسن ويقال إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت قد أعطيت سدس الحسن قال محمد بن إسحاق: ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن، وحكى الثعلبي عن كعب الأحبار، قال: كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان إذا تبسم رأيت النور من ضواحكه وإذا تكلم رأيت شعاع النور في ثناياه، ولا يستطيع أحد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه الصلاة والسلام يوم خلقه الله وصورته قبل أن يصيب الخطيئة. قالوا فلما خرج يوسف ورآه مالك بن ذعر كأحسن ما يكون من الغلمان قال يعني الوارد وهو مالك بن ذعر ﴿يا بشراي﴾ يعني يقول الوارد لأصحابه أبشروا ﴿هذا غلام﴾ وقرىء يا بشرى بغير إضافة ومعناه أن الوارد نادى رجلاً من أصحابه اسمه بشرى كما تقول يا زيد ويقال ان جدران البئر بكت على يوسف حين خرج منها ﴿وأسروه بضاعة﴾ قال مجاهد أسره: مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين كانوا معهم وقالوا إنه بضاعة استبضعناه لبعض أهل المال إلى مصر وإنما قالوا ذلك خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه، وقيل: إن إخوة يوسف أسروا شأن يوسف يعني أنهم أخفوا أمر

﴿ وجاءت سيّارة ﴾، وهم القوم المسافرون سُمّوا سيارة لأنهم يسيرون في الأرض كانت رفقة من مدين تريد مصر، فأخطأوا الطريق فنزلوا قريباً من الجبّ، وكان الجبّ في قفر بعيد من العمران للرعاة والمارّة، وكان ماؤه صالحاً فعذب حين أُلقي يوسف عليه السلام فيه، فلما نزلوا أرسلوا رجلاً من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر، لطلب الماء فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ فأَرْسَلُوا واردهم ﴾ والوارد الذي يتقدّم الرفقة إلى الماء فيهيىء الأرشية والدلاء ﴿ فأدْلَى دلوَه ﴾، أي: أرسلها في البئر، يقال: أدليتُ الدلو إذا أرسلتها في البئر، ودلوتها إذا أخرجتها، فتعلّق يوسف بالحبل فلما خرج إذا هو بغلام أحسنِ ما يكون، قال النبي ﷺ: «أُعطيَ يوسفُ شطر الحُسْن» ويقال: إنه ورث ذلك الجمال من جدّته سارة، وكانت قد أُعطيت سُدسَ الحُسنِ. وقال ابن إسحق ذهب يوسف وأمه بثلثي الحُسْن فلما رآه مالك بن ذعر، ﴿ قال يا بُشْرَى ﴾، قرأ الأكثرون هكذا بالألف وفتح الياء، والوجه أن بشراي مضافة إلى ياء المتكلم وهو منادى مضاف فموضعه نصب، وقرأ الكوفيون: «يا بشرى» بغير ياء الإضافة على فعل، وأمال الراء حمزة والكسائي وفتحها عاصم والوجه في إفرادها عن ياء المتكلم هو أن بشرى نكرة ههنا فناداها كما تنادي النكرات نحو قولك: يا راجلاً ويا راكباً إذا جعلت النداء شائعاً فيكون موضعه نصباً مع التنوين إلّا أن فعلى لا سبيل إليها للتنوين، ويجوز أن تكون بشرى منادى تُعرَف بالقصد نحو يا رجل يريد نادى المستقي رجلاً من أصحابه اسمه بشرى فتكون بشرى في موضع رفع. وقيل: بشّر المستقي أصحابه يقول: أبشروا، ﴿ هذا غلامٌ ﴾ وروى ابن مجاهد عن أبيه: أن جدران البئر كانت تبكي على يوسف حين أُخرج منها. ﴿ وأسرُّوه ﴾، أي: أخفوه،

يوسف وكونه أخاً لهم بل قالوا هو عبد لنا أبق وصدقهم يوسف على ذلك لأنهم توعدوه بالقتل سراً من مالك ابن ذعر وأصحابه والقول الأول أصح لأن مالك بن ذعر هو الذي أسره بضاعة وأصحابه ﴿والله عليم بما يعملون﴾ يعني من إرادة إهلاك يوسف فجعل ذلك سبباً لنجاته وتحقيقاً لرؤياه أن يصير ملك مصر بعد أن كان عبداً قال أصحاب الأخبار: إن يهوذا كان يأتي يوسف بالطعام فأتاه فلم يجده في الجب فأخبر إخوته بذلك فطلبوه فإذا هم بمالك بن ذعر وأصحابه نزولاً قريباً من البئر فأتوهم فإذا يوسف عندهم فقالوا لهم هذا عبدنا أبق منا ويقال إنهم هددوا يوسف حتى يكتم حاله ولا يعرفها وقال لهم مثل قولهم ثم إنهم باعوه منهم فذلك قوله تعالى:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وشروه﴾ أي باعوه وقد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشيء بمعنى بعته وإنما وجب حمل هذا الشراء على البيع لأن الضمير في وشروه وفي وكانوا فيه من الزاهدين يرجع إلى شيء واحد وذلك أن إخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل إن الضمير في وشروه يعود على مالك بن ذعر وأصحابه فعلى هذا القول يكون لفظ الشراء على بابه ﴿بثمن بخس﴾ قال الحسن والضحاك ومقاتل والسدي: بخس أي حرام لأن ثمن الحر حرام ويسمى الحرام بخساً لأنه مبخوس البركة يعني منقوصها وقال ابن مسعود وابن عباس: بخس أي زيوف ناقصة العيار وقال قتادة: بخس أي ظلم والظلم نقصان الحق يقال ظلمه إذا نقصه حقه وقال عكرمة والشعبي: بخس أي قليل وعلى الأقوال كلها فالبخس في اللغة هو نقص الشيء على سبيل الظلم والبخس والباخس الشيء الطفيف ﴿دراهم معدودة﴾ فيه إشارة إلى قلة تلك الدراهم لأنهم في ذلك الزمان ما كانوا يزنون أقل من أربعين درهماً إنما كانوا يأخذون ما دونها عدداً فإذا بلغت أربعين درهماً وهي أوقية وزنوها واختلفوا في عدد تلك الدراهم فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة: كانت عشرين درهماً فاقتسموها درهمين درهمين فعلى هذا القول لم يأخذ أخوه من أمه وأبيه شيئاً منها، وقال مجاهد: كانت اثنين وعشرين درهماً فعلى هذا أخذ أخوه منها درهمين لأنهم كانوا أحد عشر أخاً وقال عكرمة كانت أربعين درهماً ﴿وكانوا

﴿ بضاعةً ﴾، قال مجاهد: أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجّار الذين معهم وقالوا هذه بضاعة استبضعها بعض أهل الماء في مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه المشاركة. وقيل: أراد أن إخوة يوسف أسرّوا شأن يوسف وقالوا هذا عبد لنا أبِقَ منّا. قال الله تعالى: ﴿ واللَّهُ عليمٌ بما يعملون ﴾، فأتى يهوذا يوسف بالطعام فلم يجده في البئر فأخبر بذلك إخوته فطلبوه فإذا هم بمالك وأصحابه نزول فأتوهم فإذا هم بيوسف، فقالوا: هذا عبد آبق منّا. ويقال: إنهم هدّدوا يوسف حتى لا يعرف حاله. وقال مثل قولهم، ثم باعوه، فذلك قوله عزّ وجلّ:

﴿ وشروه ﴾، أي: باعوه، ﴿ بثمنٍ بَخْسٍ ﴾، قال الضحاك ومقاتل والسدي: حرام لأن ثمن الحرِّ حرام، وسُمّي الحرام بخساً لأنه مبخوس البركة. وعن ابن عباس وابن مسعود: بخس أي زيوف. وقال عكرمة والشعبي: بثمن قليل. ﴿ دراهمَ ﴾، بدل من الثمن، ﴿ معدودةٍ ﴾، ذكر العدد عبارة عن قلّتها. وقيل: إنما قال معدودة لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان أقل من أربعين درهماً، وإنما كانوا يعدّونها عدّاً فإذا بلغت أُوقية وزنوها. واختلفوا في عدد تلك الدراهم، فقال ابن عباس وابن مسعود وقتادة: عشرون درهماً فاقتسموها درهمين درهمين. قال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً. وقال عكرمة: أربعون درهماً. ﴿ وكانوا ﴾، يعني: إخوة يوسف، ﴿ فيه ﴾، أي: في يوسف ﴿ من الزاهدين ﴾ لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله. وقيل: كانوا في الثمن من الزاهدين لأنهم لم

فيه من الزاهدين﴾ يعني وكان إخوة يوسف في يوسف من الزاهدين وأصل الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا إذا لم يكن له فيه رغبة والضمير في قوله وكانوا فيه من الزاهدين إن قلنا إنه يرجع إلى أخوة يوسف كان وجه زهدهم فيه أنهم حسدوه وأرادوا إبعاده عنهم ولم يكن قصدهم تحصيل الثمن وإن قلنا إن قوله وشروه وكانوا فيه من الزاهدين يرجع إلى معنى واحد وهو أن الذين شروه كانوا فيه من الزاهدين كان وجه زهدهم فيه إظهار قلة الرغبة فيه ليشتروه بثمن بخس قليل.

ويحتمل أن يقال: إن إخوته لما قالوا إنه عبدنا وقد أبق أظهر المشتري قلة الرغبة فيه لهذا السبب قال أصحاب الأخبار ثم إن مالك بن ذعر وأصحابه لما اشتروا يوسف انطلقوا به إلى مصر وتبعهم إخوته يقولون استوثقوا منه لا يأبق منكم فذهبوا به حتى قدموا مصر فعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس، وكان قطفير صاحب أمر الملك وكان على خزائن مصر وكان يسمى العزيز وكان الملك بمصر ونواحيها اسمه الريان بن الوليد بن شروان وكان من العماليق، وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن بيوسف واتبعه على دينه ثم مات ويوسف عليه الصلاة والسلام حي. قال ابن عباس: لما دخلوا مصر لقي قطفير مالك بن ذعر فاشترى يوسف منه بعشرين ديناراً وزوج نعل وثوبين أبيضين، وقال وهب بن منبه: قدمت السيارة بيوسف مصر ودخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهباً ووزنه فضة ووزنه مسكاً وحريراً وكان وزنه أربعمائة رطل وكان عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة أو سبع عشرة سنة فابتاعه قطفير بهذا الثمن فذلك قوله تعالى: ﴿وقال الذي اشتراه من مصر﴾ يعني قطفير من أهل مصر ﴿لامرأته﴾ وكان اسمها راعيل وقيل زليخا ﴿أكرمي مثواه﴾ يعني أكرمي منزله ومقامه عندك والمثوى موضع الإقامة وقيل أكرميه في المطعم والملبس والمقام ﴿عسى أن ينفعنا﴾ يعني إن أردنا بيعه بعناه بربح أو يكفينا بعض أمورنا ومصالحنا إذا قوي وبلغ ﴿أو نتخذه ولداً﴾ يعني نتبناه وكان حصوراً ليس له ولد، قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة العزيز في يوسف حيث قال لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وابنة شعيب في موسى حيث قالت لأبيها استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين وأبو بكر في عمر استخلفه بعده ﴿وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض﴾ يعني

يكن قصدهم تحصيل الثمن إنما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه، ثم انطلق مالك بن ذعر وأصحابه بيوسف، فتبعهم إخوته يقولون: استوثقوا منه لا يأبق، قال: فذهبوا به حتى قدِموا مصر، وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس. وقال: إطفير صاحب أمر الملك، وكان على خزائن مصر يسمى العزيز، وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريّان بن الوليد بن شروان من العمالقة. وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتّبع يوسف على دينه، ثم مات ويوسف حيٌّ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا دخلوا مصر تلقّى قطفير مالك بن ذعر فابتاع منه يوسف بعشرين ديناراً وزوج نعل وثوبين أبيضين. وقال وهب بن منبّه: قَدِمَت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع، فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهباً ووزنه فضّةً ووزنه مِسكاً وحريراً، وكان وزنه أربعمائة رطل، وهو ابن ثلاث عشرة سنة فابتاعه قطفير من مالك بن ذعر بهذا الثمن، فذلك قوله تعالى:

﴿ وقالَ الذي اشتراه من مصرَ لامرأتِهِ ﴾، واسمها راعيل. وقيل: زليخا، ﴿ أكرمي مثواه ﴾، أي: منزله ومقامه، والمثوى: موضع الإقامة. وقيل: أكرميه في المطعم والملبس والمقام. وقال قتادة وابن جريج: منزلته. ﴿ عسى أن ينفعَنا ﴾. أي: نبيعه بالربح إن أردنا البيع أو يكفينا إذا بلغ بعض أمورنا، ﴿ أو نتّخذَه ولداً ﴾، أي: نتبنّاه. قال ابن مسعود رضي الله عنه: أفرسُ الناس ثلاثة العزيز في يوسف حيث قال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا، وابنة شعيب عليه السلام حيث قالت لأبيها في موسى عليه السلام: يا أبتِ استأجِرْه، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه. ﴿ وكذلك مكّنّا ليوسفَ في الأرض ﴾، أي: في أرض مصر، أي: كما أنقذنا يوسف من

كما مننا على يوسف بأن أنقذناه من القتل وأخرجناه من الجب كذلك مكناه في الأرض يعني أرض مصر فجعلناه على خزائنها ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ أي مكنا له في الأرض لكي نعلمه من تأويل الأحاديث يعني عبارة الرؤيا وتفسيرها ﴿والله غالب على أمره﴾ قيل الكناية في أمره راجعة إلى الله تعالى ومعناه والله غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا دافع لأمره ولا راد لقضائه ولا يغلبه شيء وقيل هي راجعة إلى يوسف ومعناه أن الله مستولٍ على أمر يوسف بالتدبير والإحاطة لا يكله إلى أحد سواه حتى يبلغ منتهى ما علمه فيه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعني ما هو صانع بيوسف وما يريد منه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ولما بلغ أشده﴾ يعني منتهى شبابه وشدته وقوته، وقال مجاهد: ثلاثة وثلاثون سنة، وقال الضحاك: عشرون سنة وقال السدي: ثلاثون سنة، وقال الكلبي: الأشد ما بين ثمان عشرة إلى ثلاثين سنة وسئل مالك عن الأشد فقال: هو الحلم ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ يعني آتينا يوسف بعد بلوغ الأشد نبوة وفقهاً في الدين وقيل حكماً يعني إصابة في القول وعلماً بتأويل الرؤيا وقيل الفرق بين الحكيم والعالم أن العالم هو الذي يعلم الأشياء بحقائقها والحكيم هو الذي يعمل بما يوجبه العلم وقيل الحكمة حبس النفس عن هواها وصونها عما لا ينبغي والعلم هو العلم النظري ﴿وكذلك﴾ يعني وكما أنعمنا على يوسف بهذه النعم كلها كذلك ﴿نجزي المحسنين﴾ قال ابن عباس: يعني المؤمنين وعنه أيضاً المهتدين، وقال الضحاك: يعني الصابرين على النوائب كما صبر يوسف ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ يعني أن امرأة العزيز طلبت من يوسف الفعل القبيح ودعته إلى نفسها ليواقعها ﴿وغلقت الأبواب﴾ أي أطبقتها وكانت سبعة لأن مثل هذا الفعل لا يكون إلا في ستر وخفية أو أنها أغلقتها لشدة خوفها ﴿وقالت هيت لك﴾ أي هلم وأقبل، قال أبو

القتل وأخرجناه من الجب، كذلك مكّنّا له في الأرض فجعلناه على خزائنها. ﴿ ولِنُعَلِّمَه مِنْ تأْويلِ الأحاديث ﴾، أي: مكّنّا له في الأرض لكي نعلّمه من تأويل الأحاديث، وهي عبارة عن الرؤيا. ﴿ واللَّهُ غالبٌ على أمره ﴾، قيل: الهاء في أمره كناية عن الله تعالى، يقول: إن الله غالب على أمره يفعل ما يشاء لا يغلبه شيء ولا يردُّ عليه حكم رادّ. وقيل: هي راجعة إلى يوسف عليه السلام معناه: إن الله مستولٍ على أمر يوسف بالتدبير والحياطة لَا يَكِلُه إلى أحد حتى يبلغه منتهى علمه فيه. ﴿ ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾، ما الله به صانع.

﴿ ولمّا بلغَ أَشُدَّهُ ﴾، منتهى شبابه وشدّته وقوّته ومعرفته. قال مجاهد: هم ثلاثاً وثلاثين سنة. وقال السدي: ثلاثين سنة. وقال الضحاك: عشرين سنة. وقال الكلبي: الأشدّ ما بين ثمانية عشرة سنة إلى ثلاثين سنة. وسئل مالك رحمه الله عن الأشد قال: هو الحلم. ﴿ آتيناه حُكماً وعِلْماً ﴾، فالحكم النبوّة والعلم الفقه في الدين. وقيل: حكماً يعني إصابة في القول، وعلماً بتأويل الرؤيا: وقيل: الفرق بين الحكيم والعالم، أن العالم هو الذي يعلم الأشياء والحكيم الذي يعمل بما يوجبه العلم. ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المؤمنين. وعنه أيضاً المهتدين: وقال الضحاك: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام.

﴿ وراودتْه التي هو في بيتِها عنْ نفسِه ﴾، يعني: امرأة العزيز. والمراودةُ: طلب الفعل، والمراد ههنا أنها دعته إلى نفسها ليواقعها، ﴿ وغلّقتِ الأبوابَ ﴾، أي: أطبقتها وكانت سبعة، ﴿ وقالتْ هَيْتَ لكَ ﴾، أي: هلمَّ وأقبل، قرأ أهل الكوفة والبصرة: «هَيْتَ لـك» بفتح الهاء والتاء جميعاً، وقرأ أهل المدينة والشام: «هيـت» بكسر الهاء وفتح التاء، وقرأ ابن كثير: «هَيـتُ» بفتح الهاء وضمّ التاء، والوجه أن في هذه الكلمة ثلاث لغات

عبيدة: كان الكسائي يقول هي لغة لأهل حوران رفعت إلى الحجاز معناها تعال، وقال عكرمة أيضاً بالحورانية: هلم، وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية وهي كلمة حث وإقبال على الشيء وقيل هي بالعبرانية وأصلها هيتالج أي تعال فعربت فقيل هيت لك فمن قال إنها بغير لغة العرب يقول إن العرب وافقت أصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنور ولغة العرب الترك في الغساق ولغة العرب الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فإن العرب إذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وقرىء هئت لك بكسر الهاء مع الهمزة ومعناها تهيأت لك ﴿قال﴾ يعني يوسف ﴿معاذ الله﴾ أي أعوذ بالله وأعتصم به وألجأ إليه فيما دعوتني إليه ﴿إنه ربي﴾ يعني أن العزيز قطفير سيدي ﴿أحسن مثواي﴾ أي أكرم منزلتي فلا أخونه وقيل إن الهاء في إنه ربي راجعة إلى الله تعالى والمعنى يقول إن الله ربي أحسن مثواي يعني أنه آواني ومن بلاء الجب نجاني ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ يعني إن فعلت هذا الفعل فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون، وقيل: معناه أنه لا يسعد الزناة.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ولقد همَّت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ الآية، هذه الآية الكريمة مما يجب الاعتناء بها والبحث عنها والكلام عليها في مقامين الأول في ذكر أقوال المفسرين في هذه الآية قال المفسرون: الهمّ هم المقاربة من الفعل من غير دخول فيه، وقيل: الهم مصدر هممت بالشيء إذا أردته وحدثتك نفسك به وقاربته من غير دخول فيه فمعنى قوله ولقد همَّت به أي أرادته وقصدته فكان همها به عزمها على المعصية والزنا، وقال الزمخشري: همَّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه قال الشاعر وهو عمرو بن ضابىء البرجمي:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله

وقوله: ولقد همَّت به: معناه ولقد همت بمخالطته وهم بها أي وهم بمخالطتها لولا أن رأى برهان ربه جوابه

هيتَ وهِيتَ وهَيتُ والكل بمعنى هلمّ وقرأ السلمي وقتادة: «هِيْتُ لك» بكسر الهاء وضمّ التاء مهموزاً على مثال جئت، يعني تهيأتُ لك، وأنكره أبو عمرو الكسائي، وقالا: لم يحكَ هذا عن العَرب. والأول هو المعروف عند العرب. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أقرأني النبي ﷺ: ﴿ هيت لك ﴾: قال أبو عبيدة كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى الحجاز معناها تعالَ. وقال عكرمة: هي أيضاً بالحورانية هلمّ. وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية وهي كلمة حثّ وإقبال على الشيء: قال أبو عبيدة: إن العرب لا تثني ﴿هيت﴾ ولا تجمع وتؤنّث وإنها صورة واحدة في كل حال. ﴿ قال ﴾، يوسف لها عند ذلك، ﴿ مَعَاذَ الله ﴾، أي: أعوذ بالله وأعتصم بالله مما دعوتني إليه، ﴿ إنه ربِّي ﴾ يريد أن زوجك قطفير سيدي ﴿ أحسن مثواي ﴾، أي: أكرم منزلي هذا قول أكثر المفسّرين. وقيل: الهاء راجعة إلى الله تعالى يريد أن الله تعالى ربّي أحسن مثوايَ أي آواني ومن بلاء الجب عافاني. ﴿ إنه لا يُفلحُ الظالمون ﴾، يعني: إن فعلت هذا فخنته في أهله بعد ما أكرم مثواي فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون. وقيل: لا يفلح الظالمون أي لا يسعد الزناة.

﴿ ولقدْ هَمّتْ بِهِ وهمَّ بِها ﴾، والهمُّ هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه، فهمُّها: عزمُها على المعصية والزنا، وأمّا همُّه: فرُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حلّ الهميان وجلس منها مجلس الخائن. وعن مجاهد قال: حلّ سراويله وجعل يعالج ثيابه. وهذا قول أكثر المتقدمين مثل سعيد بن جبير والحسن. وقال

محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لخالطها قال البغوي وأما همه بها فروي عن ابن عباس أنه قال حلّ الهميان وجلس منها مجلس الخائن، وقال مجاهد: حل سراويله وجعل يعالج ثيابه، وهذا قول أكثر المفسرين منهم سعيد بن جبير والحسن وقال الضحاك: جرى الشيطان بينهما فضرب بيده إلى جيد يوسف وبيده الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما، قال أبو عبيدة القاسم بن سلام: وقد أنكر قوم هذا القول قال البغوي: والقول ما قاله قدماء هذه الأمة وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء من غير علم، قال السدي وابن إسحاق: لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها فقالت: يا يوسف ما أحسن شعرك، قال: هو أول ما ينتثر عن جسدي، قالت: ما أحسن عينيك، قال: هي أول ما يسيل على خدي في قبري، قالت: ما أحسن وجهك، قال: هو للتراب يأكله. وقيل: إنها قالت له إن فراش الحرير مبسوط قم فاقض حاجتي قال: إذن يذهب نصيبي من الجنة. فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل وهي امرأة حسناء جميلة حتى لان لها لما يرى من كلفها به فهم بها ثم إن الله تدارك عبده يوسف بالبرهان الذي ذكره وسيأتي الكلام على تفسير البرهان الذي رآه يوسف عليه الصلاة والسلام فهذا ما قاله المفسرون في هذه الآية أما المقام الثاني في تنزيه يوسف عليه الصلاة والسلام عن هذه الرذيلة وبيان عصمته من هذه الخطيئة التي ينسب إليها. قال بعض المحققين: الهم همان فهم ثابت وهو ما كان معه عزم وقصد وعقيدة رضا مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة في القلب وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف فالعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل به ويدل على صحة هذا ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة واحدة وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له عشرة» لفظ مسلم وللبخاري بمعناه (ق).

الضحاك: جرى الشيطان فيما بينهما فضرب بإحدى يديه إلى جيد يوسف وباليد الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قد أنكر قوم هذا القول، وقالوا: هذا لا يليق بحال الأنبياء، والقول ما قال متقدّموا هذه الأمة، وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء من غير علم. وقال السدي وابن إسحق: لمّا أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عليه السلام عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوّقه إلى نفسها، فقالت يا يوسف ما أحسن شعرك، قال: هو أول ما ينتثر من جسدي، قالت: ما أحسن عينيك، قال: هي أول ما تسيل على وجهي في قبري، قالت: ما أحسن وجهك، قال: هو للتراب يأكله، وقيل: إنها قالت إن فراش الحرير مبسوط فقم فاقضِ حاجتي، قال: إذاً يذهب نصيبي من الجنة، فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة وهو شابّ يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل، وهي امرأة حسناء جميلة حتى لأن لها مما يرى من كلفها به، وهمّ بها ثم إن الله تعالى تدارك عبده ونبيّه بالبرهان الذي ذكره وزَعم بعض المتأخرين: أن هذا لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام، وقال: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ ولقدْ هَمّتْ به ﴾، ثم ابتدأ الخبر عن يوسف عليه السلام فقال: ﴿ وهمّ بها لولا أنْ رأى بُرْهان رَبِّه ﴾، على التقديم والتأخير، أي: لولا أن رأى برهان ربّه لهمَّ بها، ولكنه رأى البرهان فلم يهمّ، وأنكره النحاة، وقالوا: إن العرب لا تُؤخّر «لـولا» عن الفعل، فلا تقول: لقد قمت لولا زيد، وهو يريد لولا زيدٌ لَقُمْتُ. وقيل: همّت بيوسف أن يفترشها، وهمّ بها يوسفَ أي: تمنى أن تكون له زوجة. وهذا التأويل وأمثاله غير مرضية لمخالفتها أقاويل القدماء من العلماء الذين أخذ عنهم الدين والعِلم. وقال بعضهم: إن القدر الذي فعله يوسف عليه السلام كان من الصغائر والصغائر تجوز على الأنبياء عليهم السلام. ورُوِيَ أن يوسف عليه السلام لمّا دخل على الملك حين خرج من السجن وأقرّت المرأة، قال يوسف: ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ [يوسف: ٥٢] قال له

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل قال «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هم بها وعملها كتبها الله له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ومن همّ بسيئة ولم يعملها كتبها الله له عنده حسنة وإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عليه سيئة واحدة» زاد في رواية أو محاها «ولن يهلك على الله إلا هالك» قال القاضي عياض في كتابه الشفاء فعلى مذهب كثير من الفقهاء المحدثين إن هم النفس لا يؤاخذ به وليس سيئة وذكر الحديث المتقدم فلا معصية في هم يوسف إذن وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فإن الهم إذا وطنت عليه النفس كان سيئة وأما مالم لم توطن عليه النفس من همومها وخواطرها فهو المعفو عنه هذا هو الحق فيكون إن شاء الله هم يوسف من هذا ويكون قوله وما أبرىء نفسي الآية أي ما أبرئها من هذا الهم أو يكون ذلك على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لما زكي قبل وبرىء فكيف وحكى أبو حاتم عن عبيدة أن يوسف عليه الصلاة والسلام لم يهم وأن الكلام فيه تقديم وتأخير أي ولقد همت به ولولا أن أري برهان ربه لهمّ بها وقال تعالى حاكياً عن المرأة ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وقال تعالى: كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، وقال تعالى: وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله الآية وقيل في قوله وهم بها أي بزجرها ووعظها وقيل هم بها أي همه امتناعه وقيل هم بها أي نظر إليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله كان قبل نبوته وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة زليخا حتى نبأه الله فألقى عله هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسه هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله، وأما الإمام فخر الدين فذكر في هذا المقام كلاماً طويلاً مبسوطاً وأنا أذكر بعضه ملخصاً، فأقول قال الإمام فخر الدين الرازي: إن يوسف عليه الصلاة والسلام كان بريئاً من العمل الباطل والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب فإن الدلائل قد دلت على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا يلتفت إلى ما نقله بعض المفسرين عن الأئمة المتقدمين فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموها وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والاستغفار كما ذكر عن آدم عليه السلام في قوله ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقال في حق داود عليه الصلاة والسلام فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فلم يحك عنه شيئاً من ذلك في هذه

جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟ فقال يوسف عند ذلك: ﴿ وما أبرىء نفسي ﴾ [يوسف: ٥٣] الآية. وقال الحسن البصري: إن الله تعالى لم يذكر ذنوب الأنبياء عليهم السلام في القرآن ليعيّرهم، ولكن ذكرها ليبيّن موضع النعمة عليهم، ولئلا ييأس أحد من رحمته. وقيل: إنه ابتلاهم بالذنوب ليتفرّد بالطهارة والعزّة، ويلقاه جميع الخلق يوم القيامة على انكسار المعصية. وقيل: ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء الرحمة وترك الإياس من المغفرة والعفو. وقال بعض أهل الحقائق: الهمّ همّان همّ ثابتٌ وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضى، مثل همّ امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به، وهمّ عارضٌ وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم، مثل همّ يوسف عليه السلام، والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل. أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد محمش الزيادي ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان ثنا أحمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزّاق ثنا معمر عن همّام بن منبّه قال: حدّثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال اللّه عزّ وجلّ إذا تحدّث عبدي بأنْ يعملَ حسنةً فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها، وإذا تحدّث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها سيئة». قوله عزّ وجلّ: ﴿ لولا أنْ رأى بُرْهَانَ رَبِّه ﴾، اختلفوا في ذلك البرهان، قال قتادة وأكثر المفسّرين: إنه رأى صورة يعقوب وهو يقول له: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في الأنبياء. وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عليه السلام عاضّاً على أصبعه. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: مثل له يعقوب

الواقعة لأنه لو صدر منه شيء لأتبعه بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله ذلك عنه في كتابه كما ذكر عن غيره من الأنبياء وحيث لم يحك عنه شيئاً علمنا براءته مما قيل فيه ولم يصدر عنه شيء كما نقله أصحاب الأخبار ويدل على ذلك أيضاً أن كل من كان له تعلق بهذه الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام عما نسب إليه واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف والمرأة وزوجها والنسوة واللاتي قطعن أيديهن والمولود الذي شهد على القميص شهدوا ببراءته والله تعالى شهد ببراءته من الذنب أيضاً. أما بيان أن يوسف ادعى براءته مما نسب إليه فقوله هي راودتني عن نفسي، وقوله: رب السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه. وأما بيان أن المرأة اعترفت ببراءة يوسف ونزاهته فقولها: أنا راودته عن نفسه فاستعصم، وقولها: الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين. وأما بيان أن زوج المرأة اعترف أيضاً ببراءة يوسف فقوله: إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين. وأما شهادة المولود ببراءته فقوله: وشهد شاهد من أهلها الآية وأما شهادة الله له بذلك فقوله تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ومن كان كذلك فليس للشيطان عليه سلطان بدليل قوله لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين وبطل بهذا قول من قال إن الشيطان جرى بينهما حتى أخذ بجيده وجيد المرأة حتى جمع بينهما فإنه قول منكر لا يجوز لأحد أن يقول ذلك. وأما ما روي عن ابن عباس: إنه جلس منها مجلس الخائن فحاش ابن عباس أن يقول مثل هذا عن يوسف عليه الصلاة والسلام ولعل بعض أصحاب القصص وأصحاب الأخبار وضعوه عن ابن عباس، وكذلك ما روي عن مجاهد وغيره أيضاً فإنه لا يكاد يصح بسند صحيح وبطل ذلك كله وثبت ما بيناه من براءة يوسف عليه الصلاة والسلام من هذه الرذيلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وما صدر من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

فإن قلت: فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله عز وجل لولا أن رأى برهان ربه فائدة.

قلت: فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين أحدهما: أنه تعالى أعلم يوسف أنه لو همّ بدفعها لقتلته فأعلمه بالبرهان أن الامتناع من ضربتها أولى صوناً للنفس عن الهلاك الوجه، الثاني: أنه عليه الصلاة والسلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه لتعلقت به فكان في ذلك أن يتمزق ثوبه من قدام وكان في علم الله أن الشاهد يشهد بأنه ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن وإذا تمزق من خلف كانت هي الخائنة فأعلمه الله بالبرهان هذا المعنى فلم يشتغل

عليه السلام فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقال السدي: نودي يا يوسف تواقعها إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جوف السماء لا يطاق ومثلك إن تواقعها مثله إذا مات ووقع في الأرض لا يستطيع أن يدفع نفسه، ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق ومثلك إن واقعتها مثل الثور يموت فيدخل النمل في أصل قرنيه لا يستطيع أن يدفعه عن نفسه. عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وهمّ بها ﴾ قال: حلّ سراويله وقعد منها مقعد الرجل من امرأته فإذا بكفٍّ قد بدت بينهما بلا مِعصَم ولا عضد مكتوب عليها ﴿ وإنّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ [الانفطار: ١٠ و١١ و١٢]، فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد فظهرت تلك الكفّ مكتوباً عليها: ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ [الإسراء: ٣٢] فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فظهر ورأى تلك الكفّ مكتوباً عليها: ﴿ واتقوا يوماً ترجعُون فيه إلى الله ﴾ [البقرة: ٢٨١] فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فقال الله عزّ وجلّ لجبريل عليه السلام أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحطّ جبريل عليه السلام عاضّاً على أصبعه، يقول: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء ورُوِيَ أنه مسحه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله. وقال محمد بن كعب القرظي: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت حين همّ بها فرأى كتاباً في

بدفعها عن نفسه بل ولى هارباً فأثبت بذلك الشاهد حجة له لا عليه وأما تفسير البرهان على ما ذكره المفسرون في قوله تعالى ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ فقال قتادة وأكثر المفسرين: إن يوسف رأى صورة يعقوب عليه السلام وهو يقول له يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء. وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضاً على أصبعه، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله وقال السدي نودي يا يوسف أتواقعها إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جو السماء لا يطاق عليه وإن مثلك إن واقعتها كمثله إذا وقع على الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق ومثلك إن واقعتها كمثله إذا مات ودخل النمل في قرنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه وقيل إنه رأى معصماً بلا عضد عليه مكتوب ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ فولى هارباً ثم رجع فعاد المعصم وعليه مكتوب ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾ فولى هارباً ثم عاد فرأى ذلك الكف وعليه مكتوب ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ الآية ثم عاد فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام أدرك عبدي يوسف قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عاضاً على أصبعه يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله من الأنبياء وقيل إنه مسه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله قال محمد بن كعب القرظي رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت فرأى كتاباً في حائط فيه ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾ وفي رواية عن ابن عباس أنه رأى مثال ذلك الملك، وعن علي بن الحسين قال: كان في البيت صنم فقامت المرأة إليه وسترته بثوب فقال لها يوسف عليه السلام لم فعلت هذا قالت استحييت منه أن يراني على معصية فقال لها يوسف أتستحيين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه شيئاً فأنا أحق أن أستحيي من ربي فهرب فذلك قوله لولا أن رأى برهان ربه أما المحققون فقد فسروا البرهان بوجوه الأول، قال جعفر بن محمد الصادق: البرهان هو النبوة التي جعلها الله تعالى في قلبه حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل الثاني البرهان حجة الله عز وجل على العبد في تحريم الزنا والعلم بما على الزاني من العقاب الثالث أن الله عز وجل طهر نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الأخلاق الذميمة والأفعال الرذيلة وجبلهم على الأخلاق الشريفة الطاهرة المقدسة فتلك الأخلاق الطاهرة الشريفة تحجزهم عن فعل ما لا يليق فعله ﴿**كذلك**﴾ يعني كما رأيناه البرهان كذلك ﴿**لنصرف عنه السوء**﴾ يعني الإثم ﴿**والفحشاء**﴾ يعني الزنا، وقيل: السوء مقدمات الفحشاء وقيل السوء الثناء القبيح فصرف الله عنه ذلك كله وجعله من عباده المخلصين وهو قوله ﴿**إنه**﴾ يعني يوسف ﴿**من عبادنا المخلصين**﴾ قرىء بفتح اللام ومعناه أنه من عبادنا الذين اصطفيناهم بالنبوة واخترناهم على غيرهم وقرىء بكسر اللام ومعناه أنه من عبادنا الذين أخلصوا الطاعة لله عز وجل.

حائط البيت: ﴿ لا تقربُوا الزنا إنّه كان فاحشةً وساءَ سبيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وروى عطية عن ابن عباس: في البرهان أنه رأى مثال الملك. وقال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما: البرهان النبوّة التي أودعها الله في صدره حالت بينه وبين ما يسخط الله عزّ وجلّ. وعن علي بن الحسين قال: كان في البيت صنم فقامت المرأة وسترته بثوب، فقال لها يوسف: لِمَ فعلتِ هذا؟ فقالت: استحييتُ منه أن يراني على المعصية، فقال يوسف: أتستحين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه؟ فأنا أحقُّ أن أستحي من ربّي وهرب قوله عزّ وجلّ: ﴿ **لولا أن رأى برهانَ ربِّه** ﴾ جواب لَولا محذوف تقديره: لولا أن رأى برهان ربِّهِ لواقع المعصية. ﴿ **كذلكَ لِنَصْرِفَ عنه السّوءَ والفحشاءَ** ﴾، فالسوءُ الإثم. وقيل: السوء القبيح والفحشاء: الزنا. ﴿ **إنَّه مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ** ﴾، قرأ أهل المدينة والكوفة: «المخلصين» بفتح اللام حيث كان إذا لم يكن بعده ذكر الدِّين، زاد الكوفيون ﴿ **مخلصاً** ﴾ في سورة مريم [٥١] عليها السلام ففتحوا. ومعنى ﴿ **المخلَصين** ﴾ المختارين للنبوّة، دليله: ﴿ إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ [صّ: ٤٦]، وقرأ الآخرون بكسر اللام، أي: المخلِصين لله الطاعة والعبادة.

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا
إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ
مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿**واستبقا الباب**﴾ وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما رأى البرهان قام هارباً مبادراً إلى الباب وتبعته المرأة لتمسك عليه الباب حتى لا يخرج والمسابقة طلب السبق فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلقت بقميصه من خلفه وجذبته إليها حتى لا يخرج فذلك قوله عز وجل: ﴿**وقدت قميصه من دبر**﴾ يعني شقته من خلف فغلبها يوسف فخرج وخرجت معه ﴿**وألفيا سيدها لدى الباب**﴾ يعني فلما خرجا وجدا زوج المرأة قطفير وهو العزيز عند الباب جالساً مع ابن عم المرأة فلما رأته المرأة هابته وخافت التهمة فسبقت يوسف بالقول ﴿**قالت**﴾ يعني لزوجها ﴿**ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً**﴾ يعني الفاحشة ثم خافت عليه أن يقتله وذلك لشدة حبها له فقالت ﴿**إلا أن يسجن**﴾ أي يحبس في السجن ويمنع التصرف ﴿**أو عذاب أليم**﴾ يعني الضرب بالسياط وإنما بدأت بذكر السجن دون العذاب لأن الحب لا يشتهي إيلام المحبوب وإنما أرادت أن يسجن عندها يوماً أو يومين ولم ترد السجن الطويل وهذه لطيفة فافهمها فلما سمع يوسف مقالتها أراد أن يبرهن عن نفسه ﴿**قال**﴾ يعني يوسف ﴿**هي راودتني عن نفسي**﴾ يعني طلبت مني الفحشاء فأبيت وفررت وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام ما كان يريد أن يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج إلى إزالة هذه التهمة عن نفسه فقال هي راودتني عن نفسي ﴿**وشهد شاهد من أهلها**﴾ يعني وحكم حاكم من أهل المرأة واختلفوا في ذلك الشاهد، فقال سعيد بن جبير والضحاك: كان صبياً في المهد فأنطقه الله عز وجل وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة وابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم» ذكره البغوي بغير سند والذي جاء في الصحيحين «ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وابن المرأة» وقصتهم مخرجة في الصحيح قيل كان هذا الصبي شاهد يوسف ابن خال المرأة. وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: لم يكن صبياً ولكنه كان رجلاً حكيماً ذا رأي،

﴿**واسْتَبَقَا البابَ**﴾، وذلك أن يوسف لمّا رأى البرهان قام مُبادِراً إلى باب البيت هارباً وتبعته المرأة لتمسك الباب حتى لا يخرج يوسف، فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلّقت بقميصه من الخلف فجذبته إليها حتى لا يخرج. ﴿**وقَدَّتْ قميصَه**﴾ أي: فشقّته ﴿**مِنْ دُبُرٍ**﴾، أي: من خلف، فلما خرجا لقيا العزيز، وهو قوله: ﴿**وألفَيا سَيِّدَها لَدَى البابِ**﴾، أي: وجدا زوج المرأة قطفير عند الباب جالساً مع ابن عمّ لراعيل فلما رأته هابته و﴿**قالتْ**﴾ سابقةً بالقول لزوجها: ﴿**ما جَزاءُ مَنْ أرادَ بأهلِكَ سُوءاً**﴾، يعني: الزنا، ثم خافت عليه أن يقتله فقالت: ﴿**إلاّ أنْ يُسْجَن**﴾، أي: يحبس، ﴿**أو عذابٌ أليمٌ**﴾، أي: ضرب بالسِّياط، فلما سمع يوسف مقالتها.

﴿**قال هِيَ رَاوَدتْني عن نفسي**﴾، يعني: طلبت مني الفاحشة فأبيت وفررت منها. وقيل: ما كان يريد يوسف أن يذكرها، فلما قالت المرأة ما جزاء مَن أراد بأهلك سوءاً ذكره، فقالت: هي راودتني عن نفسي. ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ**﴾، وحكم حاكم، ﴿**من أهلها**﴾، اختلفوا في ذلك الشاهد، فقال سعيد بن جبير والضحاك: كان صبياً في المهد أنطقه الله عزّ وجلّ، وهو رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «تكلّم في المهد أربعة وهم صغار، ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام». وقيل: كان ذلك الصبي ابن خال المرأة. وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: لم يكن صبياً ولكنه كان رجلاً

وقال السدي: هو ابن عم المرأة فحكم فقال ﴿إن كان قميصه قد من قبل﴾ أي من قدام ﴿فصدقت وهو من الكاذبين﴾.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وإن كان قميصه قد من دبر﴾ أي من خلف ﴿فكذبت وهو من الصادقين﴾ وإنما كان هذا الشاهد من أهل المرأة ليكون أقوى من نفي التهمة عن يوسف عليه الصلاة والسلام ونفي التهمة عنه من وجوه منها أنه كان في الظاهر مملوك هذه المرأة والمملوك لا يبسط يديه إلى سيدته ومنها أنهم شاهدوا يوسف يعدو هارباً منها والطالب لا يهرب ومنها أنهم رأوا المرأة قد تزينت بأكمل الوجوه فكان إلحاق التهمة بها أولى ومنها أنهم عرفوا يوسف في المدة الطويلة فلم يروا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذه الحالة فكان مجموع هذه العلامات دلالة على صدقه مع شهادة الشاهد له بصدقه أيضاً ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾ يعني فلما رأى قطفير زوج المرأة قميص يوسف عليه الصلاة والسلام قد من خلفه عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿قال﴾ يعني قال لها زوجها قطفير ﴿إنه﴾ يعني هذا الصنيع ﴿من كيدكن﴾ يعني من حيلكن ومكركن ﴿إن كيدكن عظيم﴾ فإن قلت كيف وصف كيد النساء بالعظيم مع قوله تعالى وخلق الإنسان ضعيفاً وهلا كان مكر الرجال أعظم من مكر النساء.

قلت أما كون الإنسان خلق ضعيفاً فهو بالنسبة إلى خلق ما هو أعظم منه كخلق الملائكة والسموات والأرض والجبال ونحو ذلك وأما عظم كيد النساء ومكرهن في هذا الباب فهو أعظم من كيد جميع البشر لأن لهن من المكر والحيل والكيد في إتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال في هذا الباب، وقيل: إن قوله إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم من قول الشاهد وذلك أنه لما ثبت عنده خيانة المرأة وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام قال هذه المقالة ﴿يوسف﴾ يعني يا يوسف ﴿أعرض عن هذا﴾ يعني اترك هذا الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يفشو ويشيع وينتشر بين الناس وقيل

حكيماً ذا رأي. قال السدي: هو ابن عمّ راعيل فحكم فقال: ﴿ إنْ كان قميصُه قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾، أي: من قدّام، ﴿ فصدقتْ وهو من الكاذبين ﴾.

﴿ وإنْ كانَ قميصُه قُدَّ مِن دُبُرٍ فكذبتْ وهو مِنَ الصادقين ﴾.

﴿ فلمّا رأى ﴾، قطفير، ﴿ قميصَه قُدّ مِن دُبُرٍ ﴾ عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام، ﴿ قال ﴾ لها ﴿ إنّـه ﴾، أي: إن هذا الصنيع، ﴿ مِنْ كَيْدِكُنَّ إنّ كَيْدَكُنَّ عظيم ﴾، وقيل: إن هذا من قول الشاهد ثم أقبل قطفير على يوسف فقال:

﴿ يـــوسف ﴾، أي: يـا يوسفُ، ﴿ أعرضْ عن هذا ﴾ أي: عن هذا الحديث فلا تذكره لأحد حتى لا يشيع. وقيل: معناه لا تكترث به فقد بانَ عذرُك وبراءتُك، ثم قال لامرأته: ﴿ واستغفري لذنْبِك ﴾، أي: توبي إلى الله، ﴿ إنّكِ كنتِ مِنَ الخاطئين ﴾، من المذنبين. وقيل: إن هذا من قول الشاهد ليوسف ولراعيل، وأراد بقوله واستغفري لذنبك، أي سَلِي زوجك أن لا يعاقبك ويصفح عنك، إنك كنتِ من الخاطئين، من المذنبين حتى راودتِ شاباً عن نفسه وخنتِ زوجك، فلما استعصم كذبت عليه، وإنما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات،

معناه يا يوسف لا تكترث بهذا الأمر ولا تهتم به فقد بان عذرك وبراءتك ثم التفت إلى المرأة فقال لها ﴿واستغفري لذنبك﴾ يعني توبي إلى الله مما رميت يوسف به من الخطيئة وهو بريء منها وقيل إن هذا من قول الشاهد يقول للمرأة سلي زوجك أن يصفح عنك ولا يعاقبك بسبب ذنبك ﴿إنك كنت من الخاطئين﴾ يعني من المذنبين حين خنت زوجك ورميت يوسف بالتهمة وهو بريء وإنما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات تغليباً لجنس الرجال على النساء وقيل إنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد الخبر عن كل ما يفعل هذا الفعل تقديره إنك كنت من القوم الخاطئين فهو كقوله وكانت من القانتين.

قوله عز وجل: ﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾ يعني وقال جماعة من النساء وكنَّ خمساً وقيل كن أربعاً وذلك لما شاع خبر يوسف والمرأة في مدينة مصر وقيل هي مدينة عين الشمس وتحدثت النساء فيما بينهن بذلك وهن امرأة حاجب الملك وامرأة صاحب دوابه وامرأة خبازه وامرأة ساقيه وامرأة صابح سجنه وقيل نسوة من أشراف مصر امرأة العزيز يعني زليخا تراود فتاها عن نفسه يعني تراود عبدها الكنعاني عن نفسه لأنها تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها والفتى الشاب الحديث السن ﴿قد شغفها حباً﴾ يعني قد علقها حباً والشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب والمعنى أن حبه دخل الجلدة حتى أصاب القلب وقيل إن حبه قد أحاط بقلبها كإحاطة الشغاف بالقلب قال الكلبي حجب حبه قلبها حتى لا تعقل شيئاً سواه ﴿إنا لنراها في ضلال مبين﴾ يعني في خطأ بيّن ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر وأحبت فتاها.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾

﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ يعني فلما سمعت زليخا بقولهن وما تحدثن به إنما سمى قولهن ذلك مكراً لأنهن طلبن بذلك رؤية يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله فقصدن أن يرينه وقيل إن امرأة العزيز أفشت إليهن سرها

لأنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد به الخبر عمَّن يفعل ذلك، تقديره: من القوم الخاطئين، كقوله تعالى: ﴿وكانَتْ من القانتين﴾ [التحريم: ١٢] بيانه قوله تعالى: ﴿إنها كانَتْ من قومٍ كافرين﴾ [النمل: ٤٣].

قوله عزّ وجلّ: ﴿وقال نسوةٌ في المدينة﴾ الآية، يقول: شاع أمرُ يوسف والمرأة في المدينة مدينة مصر. وقيل: مدينة عين الشمس، وتحدّثت النساء بذلك وقلنَ وهنّ خمسة نسوة، امرأة حاجب الملك، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة الخبّاز، وامرأة الساقي، وامرأة صاحب السجن، قاله مقاتل. وقيل: هنّ نسوة من أشراف مصر، ﴿امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ فَتَاهَا﴾، أي: عبدها الكنعاني، ﴿عَنْ نفسِهِ﴾، أي: تطلب من عبدها الفاحشة، ﴿قَدْ شَغَفَها حُبّاً﴾، أي: علقها حبّاً. قال الكلبي: حجب حبُّه قلبَها حتى لا تعقل سواه. وقيل: أحبته حتى دخل حبه شغاف قلبها، أي: داخل قلبها. قال السدي: الشغاف جلدة رقيقة على القلب، يقول دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب. وقرأ الشعبي والأعرج: «شعفها» بالعين غير المعجمة، معناه: ذهب الحب بها كل مذهب. ومنه شعف الجبال وهو رؤوسها. ﴿إنّا لَنَراها في ضلالٍ مبين﴾، أي: خطأ ظاهر. وقيل: إنها تركت ما يكون على أمثالها من العفاف والستر.

﴿فلمّا سمعتْ﴾، راعيل، ﴿بمكرِهنّ﴾، بقولهنّ وحديثهنّ، قاله قتادة والسدي. وقال ابن إسحاق: إنما قلنَ ذلك مكراً بها لتريهنّ يوسف، وكان وصف لهنّ حسنُه وجماله. وقيل: إنها أفشت إليهنّ ذلك، فلذلك سمّاه مكراً. ﴿أرسَلَتْ إليهنّ﴾، قال وهب: اتخذت مأدبة ودعت أربعين امرأة منهنّ هؤلاء اللاتي عيّرنها.

واستكتمتهن فأفشين ذلك عليها فلذلك سماه مكراً ﴿أرسلت إليهن﴾ يعني أنها لما سمعت بأنهن يلمنها على محبتها ليوسف أرادت أن تقيم عذرها عندهن قال وهب اتخذت مائدة يعني صنعت لهن وليمة وضيافة ودعت أربعين امرأة من أشراف مدينتها فيهن هؤلاء اللاتي عيرنها ﴿وأعتدت لهن متكأ﴾ يعني ووضعت لهن نمارق ومساند يتكئن عليها، وقال ابن عباس وابن جبير والحسن وقتادة ومجاهد: متكأ يعني طعاماً وإنما سمي الطعام متكأ لأن كل من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسائد يجلس ويتكىء عليها فسمي الطعام متكأ على الاستعارة ويقال: اتكأنا عند فلان أي طعمنا عنده المتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث ولذلك جاء النهي عنه في الحديث وهو قوله ﷺ «لا آكل متكئاً» وقيل المتكأ الأترج وقيل هو كل شيء يقطع بالسكين أو يحز بها ويقال إن المرأة زينت البيت بألوان الفاكهة والأطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتي عيرنها بحب يوسف ﴿وآتت كل واحدة منهن سكيناً﴾ يعني وأعطت كل واحدة من النساء سكيناً لتأكل بها وكان من عادتهم أن يأكلن اللحم والفواكه بالسكين ﴿وقالت اخرج عليهن﴾ يعني وقالت زليخا ليوسف اخرج على النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واختبأته في مكان آخر ﴿فلما رأينه﴾ يعني النسوة ﴿أكبرنه﴾ يعني أعظمنه ودهشن عند رؤيته وكان يوسف قد أعطي شطر الحسن، وقال عكرمة: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم وروى أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «رأيت ليلة أسري بي إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر» ذكره البغوي بغير سند، وقال إسحاق بن أبي فروة: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران ويقال إنه ورث حسن آدم يوم خلقه الله عز وجل قبل أن يخرج من الجنة وقال أبو العالية هالهن أمره وبهتن إليه وفي رواية عن ابن عباس قال أكبرنه أي حضن ونحوه، عن مجاهد والضحاك قال: حضن من الفرج وأنكر أكثر أهل اللغة هذا القول. قال الزجاج: هذه اللفظة ليست معروفة في اللغة والهاء في أكبرنه تمنع من هذا لأنه لا يجوز أن يقال النساء قد حضنه لأن حضن لا يتعدى إلى مفعول قال الأزهري إن صحت هذه اللفظة فلها مخرج وذلك أن المرأة إذا حاضت أول ما تحيض فقد خرجت من حد الصغار إلى حد الكبار فيقال لها أكبرت أي حاضت على هذا المعنى فإن صحت الرواية عن ابن عباس، سلمنا له وجعلنا الهاء في قوله أكبرنه هاء الوقف لا هاء الكناية، وقيل: إن المرأة إذا خافت أو فزعت فربما أسقطت ولدها وتحيض فإن كان ثم حيض فربما كان من فزعهن وما هالهن من أمر يوسف حين رأينه قال الإمام

﴿ وأَعْتَدَتْ ﴾، أي: أعدّت، ﴿ لهنّ متكأً ﴾، أي: ما يتكأ عليه. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد: متكأً أي: طعاماً سمّاه متكأً لأن أهل الطعام إذا جلسوا يتّكئون على الوسائد، فسمّى الطعام متّكأً على الاستعارة. يقال: اتّكأنا عند فلان أي: طعمنا. ويقال: المتّكأ ما اتّكأت عليه للشراب أو الحديث أو الطعام، ويقرأ في الشواذ متكاً بسكون التاء. واختلفوا في معناه، فقال ابن عباس: هو الأترج. وقد رُوِيَ عن مجاهد مثله. وقيل: هو الأترج بالحبشة. وقال الضحاك: هو الربا ورد. وقال عكرمة: هو كل شيء يُقطع بالسكّين. وقال أبو زيد الأنصاري: كلّ ما يُجزّ بالسكين فهو عند العرب متك، والمتك والبتك بالميم والباء: القطع، فزيّنت المأدبة بألوان الفواكهة والأطعمة، ووضعت الوسائد ودعت النسوة. ﴿ وآتَتْ ﴾، أعطت، ﴿ كلَّ واحدةٍ منهنّ سِكّيناً ﴾، فكنّ يأكلنَ اللحم حزّاً بالسكين. ﴿ وقالت ﴾، ليوسف، ﴿ اخْرُجْ عليهنّ ﴾، وذلك أنها كانت أجلسته في مكان آخر، فخرج عليهنّ يوسف. قال عكرمة: كان فضل يوسف على سائر الناس في الحُسْن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم. ورُوِيَ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أُسريَ بي إلى السماء يوسفَ كالقمر ليلة البدر». قال إسحق بن أبي فروة: كان يوسف إذا سار في أزقّة مصر يُرى تلألأ وجهه على الجدران. ﴿ فلمّا رأيْنَهُ أكْبَرْنَهُ ﴾، أعظمنه، قال أبو العالية: هالَهُنّ أمرُه وبُهِتْنَ. وقيل: أكبرنَه أي: حضن لأجله من جماله. ولا

فخر الدين الرازي: وعندي أنه يحتمل وجهاً آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة آثار الخضوع والإخبات وشاهدن فيه مهابة وهيبة ملكية وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان ذلك الجمال العظيم مقروناً بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وأعظمنه ووقع الرعب والمهابة في قلوبهن قال وحمل الآية على هذا الوجه أولى ﴿وقطعن أيديهن﴾ يعني: وجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين التي معهن وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج ولم يجدن الألم لدهشتهن وشغل قلوبهن بيوسف قال مجاهد فما أحسسن إلا بالدم، وقال قتادة: أبن أيديهن حتى ألقينها والأصح أنه كان قطعاً من غير إبانة، قال وهب: مات جماعة منهن ﴿وقلن﴾ يعني النسوة ﴿حاش لله ما هذا بشراً﴾ أي معاذ الله أن يكون هذا بشراً ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ يعني على الله والمقصود من هذا إثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف لأنه قد ركز في النفوس أن لاشيء أحسن من الملك فلذلك وصفته بكونه ملكاً وقيل لما كان الملك مطهراً من بواعث الشهوة وجميع الآفات والحوادث التي تحصل للبشر وصفن يوسف بذلك.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه﴾ يعني قالت امرأة العزيز للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته فذلكن الذي لمتنني في محبته وإنما قالت ذلك لإقامة عذرها عندهن حين قلن إن امرأة العزيز قد شغفها فتاها الكنعاني حباً وإنما قالت فذلكن الذي الخ بعد ما قام من المجلس وذهب وقال صاحب الكشاف قالت فذلكن ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعا لمنزلته في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتن به ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعاني تقول هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم لمتنني فيه ثم إن امرأة العزيز صرحت بما فعلت فقالت ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ يعني فامتنع من ذلك الفعل الذي طلبته منه وإنما صرحت بذلك لأنها علمت أنه لا ملامة عليها منهن وأنهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ثم إن امرأة العزيز قالت ﴿ولئن لم يفعل ما آمره﴾ يعني وإن لم يطاوعني فيما دعوته إليه ﴿ليسجنن﴾ أي ليعاقبن بالسجن والحبس ﴿وليكوناً من الصاغرين﴾ يعني: من الأذلاء المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك إليه فاختار يوسف السجن على المعصية حين

يصحّ. ﴿ وقطّعنَ ﴾، أي: حززن بالسكاكين التي معهنّ، ﴿أيْدِيهُنَّ﴾، وهنّ يحسبن أنهنّ يقطعن الأترج، ولم يجدن الألم لشغل قلوبهنّ بيوسف. قال مجاهد: فما أحسسن إلّا بالدم. وقال قتادة: إنهنّ أبنّ أيديهنّ حتى ألقينها. والأصحّ كان قطعاً بلا إبانة، وقال وهب: ماتت جماعة منهنّ. ﴿ وقُلْنَ حاشَ لِلّه ما هذا بشراً ﴾، أي: معاذ الله أن يكون هذا بشراً. حاشا الله بإثبات الألف في الحرفين، قرأهما أبو عمرو في الوصل على الأصل، وقرأ الآخرون بحذف الألف في الحرفين لكثرة دورها على الألسن وإتباع الكذب. وقوله: ﴿ ما هذا بشراً ﴾ نصب بنزع حرف الصفة، أي: ببشر، ﴿ إنْ هذا ﴾، أي: ما هذا، ﴿ إلاّ مَلَكٌ ﴾، من الملائكة، ﴿ كريمٌ ﴾، على الله.

﴿ قالت ﴾، يعني راعيل، ﴿ فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنّني فيه ﴾، أي: في حبه، ثم صرّحت بما فعلت، فقالت: ﴿ ولقدْ رَاودتُه عن نفسِهِ فاسْتَعْصَمَ ﴾، أي: امتنع، وإنما صرّحت به لأنها علمت أن لا ملامة عليها منهنّ وقد

توعدته المرأة بذلك ﴿قال رب﴾ أي يا رب ﴿السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه﴾ قيل: إن الدعاء كان منها خاصة وإنما أضافه إليهن جميعاً خروجاً من التصريح إلى التعريض، وقيل: إنهن جميعاً دعونه إلى أنفسهن، وقيل: إنهن لما قلن له أطع مولاتك صحت إضافة الدعاء إليهن جميعاً أو لأنه كان بحضرتهن قال بعضهم أو لم يقل السجن أحب إليّ لم يبتل بالسجن والأولى بالعبد أن يسأل الله العافية ﴿وإلا تصرف عني كيدهن﴾ يعني ما أردن مني ﴿أصب إليهن﴾ أي أمل إليهن يقال صبا فلان إلى كذا إذا مال إليه واشتاقه ﴿وأكن من الجاهلين﴾ يعني من المذنبين وقيل معناه أكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل، وفيه دليل على أن من ارتكب ذنباً إنما يرتكبه عن جهالة ﴿فاستجاب له ربه﴾ يعني فأجاب الله تعالى دعاء يوسف ﴿فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع﴾ يعني لدعاء يوسف وغيره ﴿العليم﴾ يعني بحاله وفي الآية دليل على أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما أظلته البلية بكيد النساء ومطالبتهن إياه بما لا يليق بحاله لجأ إلى الله وفزع إلى الدعاء رغبة إلى الله ليكشف عنه ما نزل به من ذلك الأمر مع الاعتراف بأنه إن لم يعصمه من المعصية وقع فيها فدل ذلك على أنه لا يقدر أحد عن الانصراف عن المعصية إلا بعصمة الله ولطفه به.

قوله عز وجل: ﴿ثم بدا لهم﴾ يعني للعزيز وأصحابه في الرأي وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الإعراض وكتم الحال وذلك أن المرأة قالت لزوجها إن ذلك العبد العبراني قد فضحني عند الناس يخبرهم بأني قد راودته عن نفسه فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر إلى الناس وإما أن تحبسه فرأى حبسه ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ يعني الدالة على صدق يوسف وبراءته من قد القميص وكلام الطفل وقطع النساء أيديهن وذهاب عقولهن عند رؤيته

أصابهنّ ما أصابها من رؤيته، فقلن له: أطع مولاتك. فقالتْ راعيل: ﴿ ولَئِنْ لم يفعلْ ما آمُرُهُ ﴾، ولئن لم يطاوعني فيما دعوته إليه، ﴿ لَيُسْجَنَنَّ ﴾، أي: ليعاقبنّ بالحبس، ﴿ وليكونا مِنَ الصَّاغِرين ﴾، من الأذلّاء. ونون التوكيد تثقّل وتخفّف، والوقف على قوله: ﴿ ليسجننّ ﴾ بالنون لأنها مشدّدة، وعلى قوله: ﴿ وليكونا ﴾ بالألف لأنها مخفّفة، وهي شُبهة نون الإعراب في الأسماء، كقوله: رأيت رجلاً، وإذا وقفت: رأيت رجلاً بالألف، ومثله: ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ [العلق: ١٥]. فاختار يوسف عليه السلام السجن على المعصية حين توعّدته المرأة.

﴿ قال ربِّ ﴾، أي: يا رب، ﴿ السجنُ أحبُّ إليّ مما يدعونني إليه ﴾، قيل: كان الدعاء منها خاصّة، ولكنه أضاف إليهنّ خروجاً من التصريح إلى التعريض. وقيل: إنهنّ جميعاً دعونه إلى أنفسهنّ. وقرأ يعقوب وحده: بفتح السين. وقرأ الآخرون بكسرها. واتفقوا على كسر السين في قوله: ﴿ دخل معه السجن ﴾ [يوسف: ٣٦]. وقيل: لو لم يقل السجن أحبّ إليّ لم يبتلِ بالسجن، والأولى بالمرء أن يسأل الله العافية. قوله تعالى: ﴿ وإلّا تَصْرِفْ عنّي كيدَهُنّ أصبُ إليهنّ ﴾، أمِلْ إليهنّ وأُتابعهنّ، يقال: صبا فلان إلى كذا يصبوا صبواً وصُبُوّاً وصَبْوَةً إذا مال واشتاق إليه. ﴿ وأَكُنْ مِن الجاهلين ﴾، فيه دليل على أن المؤمن إذا ارتكب ذنباً يرتكبه عن جهالة.

﴿ فاستجابَ له ربُّه فصرفَ عنه كيدَهُنّ إنّه هو السميعُ العليمُ ﴾، السميع لدعائه العليم بمكرهنّ.

﴿ ثمّ بَدَا لهم ﴾، يعني للعزيز وأصحابه في الرأي وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الأمر بالإعراض. ثم بدا لهم أن يحبسوه. ﴿ مِنْ بعدِ مَا رأَوا الآياتِ ﴾، الدالّة على براءة يوسف من قدّ القميص وكلام الطفل وقطع النساء أيديهنّ وذهاب عقولهنّ. ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حتّى حينٍ ﴾، إلى مدّة يرون فيه رأيهم. وقال عطاء: إلى أن تنقطع مقالة الناس. قال عكرمة: سبع سنين. وقال الكلبي: خمس سنين. قال السدي: وذلك أن المرأة قالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يخبرهم أني راودتُه عن نفسه، فإما أن تأذن لي أن أخرج فأعتذر إلى الناس، وإما أن تحبسه، فحبسهُ وذُكر أن الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيراً ليوسف عليه السلام من

﴿ليسجننه﴾ أي ليحبسن يوسف في السجن ﴿حتى حين﴾ يعني إلى مدة يرون رأيهم فيها، وقال عطاء: إلى أن تنقطع مقالة الناس، وقال عكرمة: إلى سبع سنين، وقال الكلبي: خمس سنين فحبسه، قال السدي: جعل الله ذلك الحبس تطهيراً ليوسف من همه بالمرأة.

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ وهما غلامان كانا للوليد بن شروان العمليق ملك مصر الأكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه وكان قد غضب عليهما الملك فحبسهما، وكان السبب في ذلك أن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالاً على أن يسما الملك في طعامه وشرابه فأجابا إلى ذلك ثم إن الساقي ندم فرجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم فقال للساقي اشرب فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فأبى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر الملك بحبسهما فحبسا مع يوسف وكان يوسف لما دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول إني أعبر الأحلام فقال أحد الغلامين لصاحبه هلم فلنجرب هذا الغلام العبراني فتراءيا له رؤيا فسألاه من غير أن يكونا قد رأيا شيئاً قال ابن مسعود ما رأيا شيئاً إنما تحالما ليجربا يوسف وقال بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا أنهما غلامان للملك وقد حبسهما وقد رأيا رؤيا قد غمتهما فقال يوسف قصا علي ما رأيتما فقصا عليه ما رأياه فذلك قوله تعالى: ﴿قال أحدهما﴾ وهو صاحب شراب الملك ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ يعني عنباً سمي العنب خمراً باسم ما يؤول إليه يقال فلان يطبخ الآجر أي يطبخ اللبن حتى يصير آجراً، وقيل: الخمر العنب بلغة عمان وذلك أنه قال إني رأيت في المنام كأني في بستان وإذا فيه أصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد عنب فجنيتها وكان كأس الملك في يدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه ﴿وقال الآخر﴾ وهو صاحب طعام الملك ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي

همّه بالمرأة. قال ابن عباس: عثر يوسف ثلاث عثرات حين همّ بها فسجن، وحين قال اذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال للإخوة إنكم لسارقون، فقالوا: إنْ يسرق فقد سرق أخ له من قبل.

قوله تعالى: ﴿ ودخلَ معه السجنَ فتيان ﴾، وهما غلامان كانا للريّان بن الوليد بن شروان العمليق ملك مصر الأكبر، أحدهما خبّازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه، غضب الملك عليهما فحبسهما. وكان السبب فيه أن جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله فضمنوا لهذين مالاً ليَسُمّا الملك في طعامه وشرابه فأجاباهم، ثم إن الساقي نكل عنه، وقَبِلَ الخبّاز الرشوة فسمّ الطعام، فلما أحضر الطعام والشراب، قال الساقي: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخبّاز لا تشرب فإن الشراب مسموم، فقال الملك للساقي: اشرب فشربه فلم يضرّه، وقال للخبّاز: كُلْ من طعام، فأبى فجرّب ذلك الطعام على دابّة فأكلته فهلكت، فأمر الملك بحبسهما وكان يوسف حين دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول إني أُعبّر الأحلام، فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلمّ فلنجرّب هذا العبراني، فتراءيا له فسألاه من غير أن يكونا رأيَا شيئاً، قال ابن مسعود ما رأيَا شيئاً وإنما تحالَما ليجرّبَا يوسف، وقال قوم: بل كانا رأيَا حقيقة، فرآهما يوسف وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما، فذكرا أنهما غلامان للملك وقد حبسهما، وقد رأيا رؤياً قد غمّتهما، فقال يوسف: قُصّا عليّ ما رأيتُما، فقصّا عليه ﴿ قال أحدُهما ﴾، وهو صاحب الشراب، ﴿ إني أراني أعصرُ خمراً ﴾، أي: عنباً سُمّي العنب خمراً باسم ما يـؤل إليه، كمايقال فلان

خبزاً تأكل الطير منه﴾ وذلك أنه قال إني رأيت في المنام كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وسباع الطير تنهش منها ﴿نبئنا بتأويله﴾ أي أخبرنا بتفسير ما رأينا وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ يعني من العالمين بعبارة الرؤيا والإحسان هنا بمعنى العلم، وسئل الضحاك ما كان إحسانه فقال: كان إذا مرض إنسان في الحبس عاده وقام عليه وإذا ضاق على أحد وسع عليه وإذا احتاج أحد جمع له شيئاً وكان مع هذا يجتهد في العبادة يصوم النهار ويقوم الليل كله للصلاة. وقيل: إنه لما دخل السجن وجد فيه قوماً اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسليهم ويقول إصبروا وأبشروا فقالوا بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا في جوارك فمن أين أنت قال أنا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم فقال له صاحب السجن يا فتى والله لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأرفق بك وأحسن جوارك واختر أي بيوت السجن شئت وقيل إن الفتيين لما رأيا يوسف قالا إنا قد أحببناك منذ رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما بالله أن لا تحباني فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ من ذلك بلاء وأحبني أبي فألقيت في الجب وأحبتني امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه رؤياهما كره يوسف أن يعبرها لهما حين سألاه لما علم ما في ذلك من المكروه لأحدهما وأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره من إظهار المعجزة والنبوة والدعاء إلى التوحيد وقيل إنه عليه السلام أراد أن يبين لهما أن درجته في العلم أعلى وأعظم مما اعتقدا فيه وذلك أنهما طلبا منه علم التعبير ولا شك أن هذا العلم مبني على الظن والتخمين فأراد أن يعلمهما أنه يمكنه الإخبار عن المغيبات على سبيل القطع واليقين وذلك مما يعجز الخلق عنه وإذا قدر على الإخبار عن الغيوب كان أقدر على تعبير الرؤيا بطريق الأولى. وقيل: إنما عدل عن تعبير رؤياهما إلى إظهار المعجزة لأنه علم أن أحدهما سيصلب فأراد أن يدخله في الإسلام ويخلصه من الكفر ودخول النار فأظهر له المعجزة لهذا السبب.

يطبخ الآجر أي يطبخ اللَّبنِ للآجر. وقيل: الخمر العنب بلغة عمان، وذلك أنه قال إني رأيتُ كأني في بستان، فإذا أنا بأصل حَبْلة عليها ثلاث عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه. ﴿ وقال الآخر ﴾، وهو الخبّاز ﴿ إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطيرُ منه ﴾، وذلك أنه قال: إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سِلال فيها الخبز والألوان من الأطعمة وسِباع الطير ينهش وينهبن منه. ﴿ نبِّئنا بتأويلِهِ ﴾، أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يـؤل إليه أمر هذه الرؤيا. ﴿ إنّا نَراكَ مِنَ المُحسِنين ﴾، أي: العالِمين بعبارة الرؤيا، والإحسان بمعنى العلم. ورُوِيَ أن الضحاك بن مُزاحم سُئِلَ عن قوله: ﴿ إنّا نَراكَ من المحسنين ﴾، ما كان إحسانه؟ قال: كان إذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه، وإذا ضاق عليه المجلس وسّع له وإذا احتاج إلى شيء جمع له شيئاً، وكان مع هذا يجتهد في العبادة، ويقوم الليل كله للصلاة. وقيل: إنه لمّا دخل السجن وجد فيه قوماً قد اشتدّ بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم، فجعل يُسلّيهم وجعل يقول: أبشروا واصبروا تؤجروا، فيقولون بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك، لقد بُورِكَ لنا في جِوارِكَ فمَن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف بن صفيّ الله يعقوب بن ذبيح الله إسحق بن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: يا فتى والله لو استطعت لخلّيت سبيلك، ولكن سأحسِن جِوارك فتمكّن في أيّ بيوت السجن حيث شئت. ورُوِيَ أن الفتيين لمّا رأيا يوسف قالا له: لقد أحببناك حين رأيناك، فقال لهما يوسف: أنشدكما بالله أن لا تحبّاني فوالله ما أحبّني أحد قط إلّا دخل عليّ من حبّه بلاء، لقد أحبّتني عمتي فدخل عليّ بلاء، لقد أحبّني أبي فألقيت في الجبّ، وأحبّتني امرأة العزيز فحُبست، فلما قصّا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبّر لهما ما سألاه لِمَا علم في ذلك من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره في إظهار المعجزة والدعاء إلى التوحيد.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله﴾ قيل: أراد به في النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما إلا أخبرتكما خبره في اليقظة، وقيل: أراد به اليقظة يقول لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه يعني تطعمانه وتأكلانه إلا نبأتكما بتأويله يعني أخبرتكما بقدره ولونه والوقت الذي يصل إليكما فيه ﴿قبل أن يأتيكما﴾ يعني قبل أن يصل إليكما وأي طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم وهذا مثل معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام حيث قال وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم فقالا ليوسف عليه الصلاة والسلام هذا من علم العرافين والكهنة فمن أين لك هذا العلم؟ فقال ما أنا بكاهن ولا عراف وإنما ذلك إشارة إلى المعجزة والعلم الذي أخبرهما به ﴿ذلكما مما علمني ربي﴾ يعني أن هذا الذي أخبرتكما به وحي من الله أوحاه إليّ وعلم علمنيه ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ فإن قلت ظاهر قوله اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله أنه عليه الصلاة والسلام كان داخلاً في هذه الملة ثم تركها وليس الأمر كذلك لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من حين ولدوا وظهروا إلى الوجود هم على التوحيد فما معنى هذا الترك في قوله تركت.

قلت الجواب من وجهين: **الأول**: أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء والالتفات إليه بالمرة وليس من شرطه أن يكون قد كان داخلاً فيه ثم تركه ورجع عنه.

والوجه الثاني: وهو الأقرب أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما كان عند العزيز وهو كافر وجميع من عنده كذلك وقد كان بينهم وكان يوسف على التوحيد والإيمان الصحيح صح قوله إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ فترك ملتهم وأعرض عنهم ولم يوافقهم على ما كانوا عليه وتكرير لفظة هم في قوله وهم بالآخرة هم كافرون للتوكيد لشدة إنكارهم للمعاد وقوله ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ لما ادعى يوسف عليه السلام النبوة وأظهر المعجزة أظهر أنه من أهل بيت النبوة وأن آباءه كلهم كانوا أنبياء وقيل لما كان إبراهيم وإسحاق ويعقوب مشهورين بالنبوة والرسالة ولهم الدرجة العليا في الدنيا عند الخلق والمنزلة الرفيعة في الآخرة أظهر يوسف عليه الصلاة والسلام أنه من أولادهم وأنه من أهل بيت النبوة ليسمعوا قوله ويطيعوا أمره فيما يدعوهم إليه من التوحيد ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾ معناه أن الله سبحانه وتعالى لما اختارنا لنبوته واصطفانا لرسالته وعصمنا من الشرك فما كان ينبغي لنا أن نشرك به مع جميع هذه الاختصاصات التي اختصّنا بها. قال الواحدي: لفظة من في قوله

﴿ قال لا يأتيكما طعام تُرزقَانِهِ ﴾، قيل: أراد به في النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما، ﴿ إلاَّ نبّأتكما بتأويلِهِ ﴾، في اليقظة، وقيل: أراد به في اليقظة يقول لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه، تُطعمانه وتأكلانه إلاّ نبّأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذي يصل فيه إليكما، ﴿ قبل أنْ يأتيكُما ﴾، قبل أن يصل إليكُما، وأيّ طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم، فهذا مثل معجزة عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿ وأنبئكم بما تأكلُون وما تدّخِرُون في بيوتكم ﴾ [آل عمران: ٤٩]. فقالا: هذا من فعل العرّافين والكهنة، فمن أين لك هذا العلم؟ فقال: ما أنا بكاهن وإنّما ﴿ ذلِكُمَا ﴾، العلم، ﴿ ممّا علّمني ربّي أنّي تركتُ مِلّةَ قومٍ لا يُؤمِنُونَ باللّهِ وهمْ بالآخرةِ همْ كافرون ﴾، وتكرار ﴿ هم ﴾ على التأكيد.

من شيء زائدة مؤكدة كقولك ما جاءني من أحد، وقال صاحب الكشاف: ما كان لنا ما صح لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله من شيء أي شيء كان من ملك أو جني أو أنسي فضلاً أن نشرك به صنماً لا يسمع ولا يبصر ﴿ذلك من فضل الله﴾ يعني ذلك التوحيد وعدم الإشراك والعلم الذي رزقنا من فضل الله ﴿علينا وعلى الناس﴾ يعني بما نصب لهم من الأدلة الدالة على وحدانيته وبين لهم طريق الهداية إليه فكل ذلك من فضل الله على عباده ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ يعني أن أكثرهم لا يشكرون الله على هذه النعم التي أنعم بها عليهم لأنهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهما إلى الإسلام فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾

﴿يا صاحبي السجن﴾ يريد يا صاحبيَّ في السجن فأضافهما إلى السجن كما تقول يا سارق الليلة لأن الليلة مسروق فيها غير مسروقة ويجوز أن يريد يا ساكني السجن كقوله أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴿أأرباب متفرقون﴾ يعني أآلهة شتى من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وغير ذلك وصغير وكبير ومتوسط متباينون في الصفة وهي مع ذلك لا تضر ولا تنفع ﴿خير أم الله الواحد القهار﴾ يعني أن هذه الأصنام أعظم صفة في المدح واستحقاق اسم الإلهية والعبادة أم الله الواحد القهار، قال الخطابي: الواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده وقيل هو المنقطع عن القرين والمعدوم الشريك والنظير وليس هو كسائر الآحاد من الأجسام المؤلفة لأن ذلك قد يكثر بانضمام بعضها إلى بعض والواحد ليس كذلك فهو الله الواحد الذي لا مثل له ولا يشبهه شيء من خلقه القهار، قال الخطابي: القهار هو الذي قهر الجبابرة من خلقه بالعقوبة وقهر الخلق كلهم بالموت، وقال غيره: القهار هو الذي قهر كل شيء وذلله فاستسلم وانقاد وذل له، والمعنى أن هذه الأصنام التي تعبدونها ذليلة مقهورة إذ أراد الإنسان كسرها وإهانتها قدر عليه والله هو الواحد في ملكه القهار لعباده الذي لا يغلبه شيء وهو الغالب لكل شيء سبحانه وتعالى ثم بين عجز الأصنام وأنها لا شيء البتة فقال ﴿ما تعبدون من دونه﴾ يعني من دون الله وإنما قال تعبدون بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية في المخاطبة لأنه أراد جميع من في السجن من المشركين ﴿إلا أسماء سميتموها﴾ يعني سميتموها آلهة وأرباباً وهي حجارة جمادات خالية عن المعنى لا حقيقة لها ﴿أنتم وآباؤكم﴾ يعني من قبلكم سموها آلة ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ يعني

﴿ واتَّبعتُ مِلَّةَ آبائي إبراهيمَ وإسحق ويعقوبَ ﴾، أظهر أنه من أولاد الأنبياء ﴿ ما كان لَنَا ﴾، ما ينبغي لنا، ﴿ أن نشركَ باللَّهِ مِنْ شيءٍ ﴾، معناه: أن الله قد عصمنا من الشرك، ﴿ ذلكَ ﴾، التوحيد والعلم، ﴿مِنْ فضلِ اللَّهِ علينا وعلى الناسِ ﴾، ما بيّن لهم من الهدى، ﴿ ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون ﴾، ثم دعاهما إلى الإسلام فقال:

﴿ يا صاحِبَيِ السجنِ ﴾، جعلهما صاحبي السجن لكونهما فيه، كما يقال لسكان الجنّة أصحاب الجنة ولسكان النار أصحاب النار، ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتفرِّقُون ﴾، أي: آلهة شتّى هذا من ذهب وهذا من فضة، وهذا من حديد وهذا أعلى وهذا أوسط وهذا أدنى، متباينون لا تضرّ ولا تنفع، ﴿ خيرٌ أم اللَّهُ الواحدُ القهّارُ ﴾، الذي لا ثاني له، القهّار: الغالب على الكل، ثم بيّن عجز الأصنام فقال:

أن تسمية الأصنام آلهة لا حجة لكم بها ولا برهان ولا أمر الله بها وذلك أنهم كانوا يقولون إن الله أمرنا بهذه التسمية فرد الله عليهم بقوله: ﴿ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله﴾ يعني أن الحكم والقضاء والأمر والنهي لله تعالى لا شريك له في ذلك ﴿أمر أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ لأنه هو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي سميتموها آلهة ﴿ذلك الدين القيم﴾ يعني عبادة الله هي الدين المستقيم ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ذلك.

ولما فرغ يوسف عليه الصلاة والسلام من الدعاء إلى الله وعبادته رجع إلى تعبير رؤياهما فقال ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً﴾ يعني أن صاحب شراب الملك يرجع إلى منزلته ويسقي الملك خمراً كما كان يسقيه أولاً والعناقيد الثلاثة هي ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعو به الملك ويرده إلى منزلته التي كان عليها ﴿وأما الآخر فيصلب﴾ يعني صاحب طعام الملك والسلال الثلاث ثلاثة أيام ثم يدعو به الملك فيصلبه ﴿فتأكل الطير من رأسه﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه فلما سمعا قول يوسف عليه الصلاة والسلام قالا ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب قال يوسف ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ يعني فرغ من الأمر الذي سألتما عنه ووجب حكم الله عليكما بالذي أخبرتكما به رأيتما شيئاً أم لم تريا ﴿وقال﴾ يعني يوسف ﴿للذي ظن﴾ يعني علم وتحقق فالظن بمعنى العلم ﴿أنه ناج منهما﴾ يعني ساقي الملك ﴿اذكرني عند ربك﴾ يعني سيدك وهو الملك الأكبر فقل له إن في السجن غلاماً محبوساً مظلوماً طال حبسه ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ في هاء الكناية في فأنساه إلى من تعود قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى الساقي وهو قول عامة المفسرين والمعنى فأنسى الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك قالوا لأن صرف وسوسة الشيطان إلى ذلك الرجل الساقي حتى أنساه ذكر يوسف أولى من صرفها إلى يوسف.

والقول الثاني: وهو قول أكثر المفسرين أن هاء الكناية ترجع إلى يوسف، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه عز وجل حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق مثله في دفع الضرر وتلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فإن الاستعانة بالمخلوق في دفع الضرر جائزة إلا أنه لما كان مقام يوسف أعلى المقامات ورتبته أشرف المراتب وهي منصب النبوة والرسالة لا جرم صار يوسف مؤاخذاً بهذا القدر فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

فإن قلت كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى أنساه ذكر ربه.

قلت بشغل الخاطر وإلقاء الوسوسة فإنه قد صح في الحديث «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» فأما النسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر وإزالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه.

فقال: ﴿ ما تعبدُونَ من دُونه ﴾، أي: من دون الله، وإنما ذُكر بلفظ الجمع وقد ابتدأ الخطاب للاثنين لأنه أراد جميعَ أهل السجن، وكلَّ مَن هو على مثل حالهما من أهل الشرك، ﴿ إلاّ أسماءً سمّيتُموها ﴾، آلهةً وأرباباً خالية عن المعنى لا حقيقة لتلك الأسماء، ﴿ أنتُم وآباؤُكم ما أنزلَ اللّهُ بها مِنْ سُلطانٍ ﴾، حجة وبرهان، ﴿ إنِ الحكمُ ﴾، ما القضاء والأمر والنهي، ﴿ إلاّ لِلّهِ أمرَ ألاّ تعبُدوا إلاّ إيّاه ذَلكَ الدِّينُ القيّمُ ﴾، أي: المستقيم، ﴿ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمُون ﴾، ثم فسَّر رؤياهما فقال:

فقال: ﴿ يا صاحِبَي السجنِ أمّا أحدُكما ﴾، وهو صاحب الشراب، ﴿ فيسقي ربَّه ﴾، يعني الملك ﴿ خمراً ﴾، والعناقيد الثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعوه الملك بعد الثلاثة أيام، ويُردّ إلى منزلته التي كان عليها، ﴿ وأما الآخرُ ﴾، يعني: صاحب الطعام فيدعوه الملك بعد ثلاثة أيام، والسِلال الثلاث الثلاثة أيام يبقى في السجن، ثم يُخرجه فيأمر به، ﴿ فيُصلبُ فتأكلُ الطيرُ من رأسِه ﴾، قال ابن مسعود: لمّا سَمِعَا قولَ يوسفَ قالا: ما رأينا شيئاً إنّما كنّا نلعب، قال يوسف: ﴿ قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان ﴾، أي: فُرِغَ من الأمر الذي عنه تسألان،

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾.

اختلفوا في قدر البضع فقال مجاهد هو ما بين الثلاث إلى السبع وقال قتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع، وقال ابن عباس هو ما دون العشرة وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين وكان يوسف قد لبث قبلها في السجن خمس سنين فجملة ذلك اثنتا عشرة سنة وقال وهب: أصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف في السجن سبع سنين.

وقال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك قال له يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال يا رب أنسى قلبي ذكرك كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبي ﷺ «رحم الله يوسف لولا كلمته التي قالها ما لبث في السجن ما لبث» يعني قوله اذكرني عند ربك ثم بكى الحسن وقال نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس ذكره الثعلبي مرسلاً وبغير سند وقيل إن جبريل دخل على يوسف في السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يوسف يا أخا المنذرين مالي أراك بين الخاطئين فقال له جبريل يا طاهر بن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك ما استحييت مني أن أستغثت بالآدميين فوعزتي وجلالي لألبثنك في السجن بضع سنين قال يوسف وهو في ذلك عني راض قال نعم قال إذن لا أبالي وقال كعب قال جبريل ليوسف يقول الله عز وجل لك من خلقك قال الله قال فمن رزقك قال الله قال فمن حببك إلى أبيك قال الله قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن صرفك عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استغثت بآدمي مثلك قالوا فلما انقضت سبع سنين. قال الكلبي: وهذه السبع سوى الخمس سنين التي كانت قبل ذلك ودنا فرج يوسف وأراد الله عز وجل إخراجه من السجن رأى ملك مصر الأكبر رؤيا عجيبة هالته وذلك أن رأى في منامه سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم

ووجب حكم الله عليكما الذي أخبرتُكما به، رأيتُما أو لم ترَيا.

﴿ وقال ﴾، يعني: يوسف عند ذلك، ﴿ للذي ظنّ ﴾، علم ﴿ أنه ناجٍ منهما ﴾، وهو الساقي، ﴿ اذْكُرْني عندَ ربِّك ﴾، يعني: سيد الملك، وقل له إن في السجن غلاماً محبوساً ظلماً طال حبسه، ﴿ فأنساهُ الشيطانُ ذِكرَ ربِّه ﴾، قيل: أنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف للملك تقديره: فأنساه الشيطان ذكره لربه. وقال ابن عباس وعليه الأكثرون: أنسى الشيطانُ يوسفَ ذكرَ ربِّه حين ابتغى الفرج، من غيره واستعان بمخلوق، وتلك غفلة عرضت ليوسف من الشيطان. ﴿ فَلَبِثَ ﴾، فمكث، ﴿ في السجن بِضْعَ سِنين ﴾، واختلفوا في معنى البِضع، فقال مجاهد: ما بين الثلاث إلى السبع. وقال قتادة: ما بين الثلاث إلى التسع. وقال ابن عباس: ما دون العشرة. وأكثر المفسّرين على أن البِضع في هذه الآية سبع سنين، وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة. وقال وهب: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وتُرك يوسف في السجن سبع سنين، وعذّب بختنصر فحول في السِّباع سبع سنين. قال مالك بن دينار: لمّا قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك، قيل له: يا يوسف اتخذتَ من دوني وكيلا لأطيلنّ حبسَك، فبكى يوسف، وقال: يا رب أنْسى قلبي كثرةُ البلوى فقلتُ كلمةً ولن أعود. وقال الحسن: دخل جبريل على يوسف في السجن، فلما رآه يوسف عرفه فقال له: يا أخي المنذرين ما لي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: يا طاهر الطاهرين يقرأ عليك السلام ربُّ العالمين، ويقول لك: أما استحييت منّي أن استشفعتَ بالآدميين، فوعزّتي وجلالي لألبثنّك في السجن بضع سنين، فقال يوسف: وهو في ذلك عني راضٍ؟ قال: نعم، قال: إذاً لا أبالي. وقال كعب: قال جبريل ليوسف إن الله تعالى يقول: مَن خلقك؟ قال: الله، قال: فمَن حبّبكَ إلى أبيك؟ قال: الله، قال: فمَن نجّاك من كرب البئر؟ قال: الله، قال: فمَن علّمك تأويلَ الرؤيا؟ قال: الله، قال: فمَن صرف عنك السوء والفحشاء؟ قال: الله، قال: فكيف استشفعت بآدمي مثلك؟ فلما انقضت سبع سنين.

خرج عقيبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال فابتلع العجاف السمان ودخلن في بطونهن ولم ير منهن شيء ولم يتبين على العجاف منها شيء ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبع سنبلات أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتها شيء فجمع السحرة والكهنة والمعبرين وقص عليهم رؤياه التي رآها فذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات أيها الملأ أفتوني في رؤياي﴾ يعني يا أيها الأشراف أخبروني بتأويل رؤياي ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾ يعني: إن كنتم تحسنون علم العبارة وتفسيرها وعلم التعبير مختص بتفسير الرؤيا وسمي هذا العلم تعبيراً لأن المفسر للرؤيا عابر من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها وهذا أخص من التأويل لأن التأويل يقال فيه وفي غيره.

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قالوا﴾ يعني قال جماعة الملأ وهم السحرة والكهنة والمعبرون مجيبين للملك ﴿أضغاث أحلام﴾ يعني أخلاط مشتبهة واحدها ضغث وأصله الحزمة المختلطة من أنواع الحشيش والأحلام جمع حلم وهو الرؤيا التي يراها الإنسان في منامه ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ لما جعل الله هذه الرؤيا سبباً لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن وذلك أن الملك لما رآها قلق واضطرب وذلك لأنه قد شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوي الكامل حتى قهره وغلبه فأراد أن يعرف تأويل ذلك فجمع سحرته وكهنته ومعبريه وأخبرهم بما رأى في منامه وسألهم عن

قال الكلبي: وهذا السبع سوى الخمسة التي كانت قبل ذلك، ودَنَا فرجُ يوسف رأى ملك مصر الأكبر رؤياً عجيبةً هالته وذلك أنه رأى سبع بقرات سِمَان خرجت من البحر ثم خرج عقبهنّ سبع بقرات عِجاف في غاية الهزال، فابتلعت العجاف السمان فدخلن في بطونهنّ، ولم يـرَ منهنّ شيئاً ولم يتبيّن على العِجاف منها شيء، ثم رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبّها وسبعاً أخرى يابسات قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ولم يبقَ من خضرتها شيء، فجمع السَّحَرَة والكهنة والحادة والمعبّرين وقصّ عليهم رؤياه.

فذلك قوله تعالى: ﴿ وقالَ الملكُ إني أرى سبعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكُلُهُنَّ سبعٌ عِجافٌ وسبعَ سُنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابساتٍ ﴾، فقال لهم: ﴿ يا أيّها الملأ أفتوني في رُؤياي إن كُنْتُمْ للرُّؤيا تَعْبُرُون ﴾.

﴿ قالوا أضغاثُ أحلامٍ ﴾ أخلاط أحلام مشتبهة أهاويلَ واحدها ضغث، وأصله الحزمة من أنواع الحشيش، والأحلام جمع الحلم، وهو الرؤيا، والفعل منه حلمت أحلم بفتح اللام في الماضي وضمّها في الغابر حلماً

تأويلها فأعجز الله بقدرته جماعة الكهنة والمعبرين عن تأويل هذه الرؤيا ومنعهم عن الجواب ليكون ذلك سبباً لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن فذلك قوله تعالى: ﴿وقال الذي نجا منهما﴾ يعني وقال الساقي الذي نجا من السجن والقتل بعد هلاك صاحبه الخباز ﴿وادكر بعد أمة﴾ يعني أنه تذكر قول يوسف اذكرني عند ربك بعد أمة يعني بعد حين وهو سبع سنين وسمي الحين من الزمان أمة لأنه جماعة الأيام والأمة الجماعة ﴿أنا أنبئكم﴾ يعني أخبركم ﴿بتأويله﴾ وقوله أنا أنبئكم بلفظ الجمع إما أنه أراد به الملك مع جماعة السحرة والكهنة والمعبرين أو أراد به الملك وحده وخاطبه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وذلك أن الفتى الساقي جثا بين يدي الملك وقال إن في السجن رجلاً عالماً يعبر الرؤيا ﴿فأرسلون﴾ فيه اختصار تقديره فأرسلني أيها الملك فأرسله فأتى السجن قال ابن عباس ولم يكن السجن في المدينة ﴿يوسف﴾ أي يا يوسف ﴿أيها الصديق﴾ إنما سماه صديقاً لأنه لم يجرب عليه كذباً قط والصديق الكثير الصدق والذي ل يكذب قط وقيل سماه صديقاً لأنه صدق في تعبيره رؤياه التي رآها في السجن ﴿أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ فإن الملك رأى هذه الرؤيا ﴿لعلي أرجع إلى الناس﴾ يعني أرجع بتأويل هذه الرؤيا إلى الملك وجماعته ﴿لعلهم يعلمون﴾ يعني بتأويل هذه الرؤيا وقيل لعلهم يعلمون منزلتك في العلم ﴿قال﴾ يعني يوسف معبراً لتلك الرؤيا أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبة وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله تعالى: ﴿تزرعون﴾ وهذا خبر بمعنى الأمر أي ازرعوا ﴿سبع سنين دأباً﴾ يعني عادتكم في الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد ﴿فما حصدتم فذروه في سنبله﴾ إنما أمرهم بترك ما حصدوه من الحنطة في سنبله لئلا يفسد ويقع في السوس وذلك أبقى له على طول الزمان ﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾ يعني ادرسوا قليلاً من الحنطة للأكل بقدر الحاجة وأمرهم بحفظ الأكثر لوقت الحاجة أيضاً وهو وقت السنين المجدبة وهو قوله ﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ يعني من بعد السنين المخصبة ﴿سبع شداد﴾ يعني سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس ﴿يأكلن﴾ يعني يفنين ﴿ما قدمتم لهن﴾ يعني يؤكل فيهن كل ما أعددتم وادخرتم لهن من الطعام وإنما أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسع في الكلام ﴿إلا قليلاً مما

وحلماً، مثقّلاً ومخفّفاً. ﴿ وما نحنُ بتأويلِ الأحْلامِ بعالِمين ﴾.

﴿ وقالَ الذي نَجَا ﴾، من القتل، ﴿ مِنْهُما ﴾، من الفتيين وهو الساقي، ﴿ وادَّكَرَ ﴾، أي: تذكّر قول يوسف اذكرني عندَ ربِّك، ﴿ بعدَ أُمّةٍ ﴾، أي: بعد حين وهو سبع سنين. ﴿أنا أُنَبِّئُكم بتأويلِهِ﴾، وذلك أن الغلام جثا بين يدي الملك، وقال: إن في السجن رجلاً يعبر الرؤيا، ﴿ فأرْسِلُون ﴾، وفيه اختصار تقديره: فأرسلني أيها الملك إليه، فأرسله فأتى السجن. قال ابن عباس: ولم يكن السجن في المدينة.

فقال: ﴿ يوسف ﴾، يعني يا يوسف، ﴿ أيُّها الصِّدِّيق ﴾، والصديق الكثير الصدق، ﴿ أفْتِنَا في سبع بقراتٍ سِمانٍ يأكُلُهُنَّ سبعٌ عجافٌ وسبعِ سُنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَر يابساتٍ ﴾، فإن الملك رأى هذه الرؤيا. ﴿ لعلّي أرجعُ إلى الناس ﴾، أهل مصر، ﴿ لَعلّهم يعلَمُون ﴾، تأويل الرؤيا. وقيل: لعلّهم يعلمون منزلتك في العلم، فقال لهم يوسف معبّراً ومعلّماً: أمّا البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخاصيب، والبقرات العِجاف والسنبلات، فالسنون المجدبة، فذلك قوله تعالى إخباراً عن يوسف.

﴿ قال تزرعُون سبعَ سنينَ دَأَباً ﴾، هذا خبر بمعنى الأمر، يعني: ازرعُوا سبعَ سنين على عادتكم في الزراعة، والدأب: العادة. وقيل: بجدٍّ واجتهاد. وقرأ عاصم برواية حفص: ﴿ دَأَباً ﴾ بفتح الهمزة، وهما لغتان، يقال: دأبت في الأمر أدأب دَأْباً ودَأَباً إذا اجتهد فيه. ﴿ فما حصدتُّم فَذَرُوهُ في سُنْبُلِهِ ﴾، أمرهم بترك الحنطة في

تحصنون﴾ يعني تحرزون وتدخرون للبذر، والإحصان الإحراز وهو إبقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع.

ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ يعني من بعد هذه السنين المجدبة ﴿عام فيه يغاث الناس﴾ أي يمطرون من الغيث الذي هو المطر، وقيل: هو من قولهم استغثت بفلان فأغاثني من الغوث ﴿وفيه يعصرون﴾ يعني يعصرون العنب خمراً والزيتون زيتاً والسمسم دهناً أراد به كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار، وقيل يعصرون معناه ينجون من الكرب والشدة والجدب.

قوله عز وجل: ﴿وقال الملك ائتوني به﴾ وذلك أن الساقي لما رجع إلى الملك وأخبره بفتيا يوسف وما عبر برؤياه استحسنه الملك وعرف أن الذي قاله كائن لا محالة فقال ائتوني به حتى أبصر هذا الرجل الذي قد عبر رؤياي بهذه العبارة فرجع الساقي إلى يوسف وقال له أجب الملك فذلك قوله تعالى: ﴿فلما جاءه الرسول﴾ فأبى أن يخرج معه حتى تظهر براءته للملك ولا يراه بعين النقص ﴿قال﴾ يعني قال يوسف للرسول ﴿ارجع إلى ربك﴾ يعني إلى سيدك وهو الملك ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدباً واحتراماً لها (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي» أخرجه الترمذي، وزاد فيه «ثم قرأ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن» هذا الحديث فيه بيان فضل يوسف عليه الصلاة والسلام وبيان قوة صبره وثباته والمراد بالداعي رسول الملك الذي جاءه من عنده فلم يخرج معه مبادراً إلى الراحة ومفارقة ما هو فيه من الضيق والسجن الطويل فلبث في السجن وراسل

السنبلة لتكون أبقى على الزمان ولا تفسد، ﴿ إلّا قليلاً ممّا تأكلون ﴾، أي: تدرسون قليلاً للأكل، أمرهم بحفظ الأكثر والأكل بقدر الحاجة.

﴿ ثمّ يأتي منْ بعد ذَلِكَ سبعٌ شِدَادٌ ﴾. سمّى السنين المجدبة شداداً لشدّتها على الناس، ﴿ يأْكُلْنَ ﴾، أي: يفنين ويُهلكن، ﴿ ما قدّمتم لهنّ ﴾، أي: يؤكلهنّ فيهنّ ما أعددتم لهنّ من الطعام أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسّع ﴿ إلّا قليلاً ممّا تُحْصِنُون ﴾ تُحرِزُونَ وتدّخرون للبَذْر.

﴿ ثمّ يأتي منْ بعدِ ذلك عامٌ فيه يُغاثُ الناس ﴾، أي: يمطرون من الغيث، وهو المطر. وقيل: ينقذون من قول العرب استغثت فلاناً فأغاثني، ﴿ وفيه يَعْصِرُون ﴾، قرأ حمزة والكسائي: «تعصـرون»، بالتاء لأن الكلام كله على الخطاب، وقرأ الآخرون بالياء ردّاً إلى الناس، ومعناه: يعصرون العنب خمراً والزيتون زيتاً والسمسم دهناً وأراد به كثرة النعيم والخير. وقال أبو عبيدة: يعصرون أي ينجون من الكروب والجدب والعصر والعصرة النجا والملجا.

﴿ وقالَ الملكُ ائتوني به ﴾، وذلك أن الساقي لمّا رجع إلى الملك وأخبره بما أفتاه به يوسف من تأويل رؤياه، وعرف الملك أن الذي قاله كائن، قال: ائتوني به، ﴿ فلمّا جاءَه الرسولُ ﴾، وقال له: أجب الملك أبى أن

الملك في كشف أمره الذي سجن بسببه لتظهر براءته عند الملك وغيره فأثنى رسول الله ﷺ على يوسف عليه الصلاة والسلام وبين فضيلته وحسن صبره على المحنة والبلاء وقوله: ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ يعني أن الله تعالى عالم بصنيعهن وما احتلن في هذه الواقعة من الحيل العظيمة فرجع الرسول من عند يوسف إلى الملك بهذه الرسالة فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن و ﴿قال﴾ لهن ﴿ما خطبكن﴾ أي شأنكن وأمركن ﴿إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ إنما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب، والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وحدها وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب ﴿قلن﴾ يعني النسوة جميعاً مجيبات للملك ﴿حاش لله﴾ يعني معاذ الله ﴿ما علمنا عليه من سوء﴾ يعني من خيانة في شيء من الأشياء ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾ يعني ظهر وتبين وقيل إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فعزرنها وقيل خافت أن يشهد عليها فأقرت فقالت ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ يعني في قوله هي راودتني عن نفسي.

واختلفوا في قوله ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ على قولين:

أحدهما: أنه من قول المرأة ووجه هذا القول أن هذا كلام متصل بما قبله وهو قول المرأة الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، ثم قالت: ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب والمعنى ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه في حال غيبته وهو في السجن ولم أكذب عليه بل قلت أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين وإن كنت قد قلت فيه ما قلت في حضرته، ثم بالغت في تأكيد هذا القول فقالت ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ يعني أني لما أقدمت على هذا الكيد والمكر لا جرم أني افتضحت لأن الله لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين.

والقول الثاني: أنه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وهذا قول الأكثرين من المفسرين والعلماء ووجه هذا القول أنه لا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة عليه فعلى هذا يكون معنى الآية أنه لما بلغ يوسف قول المرأة أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين قال يوسف ذلك أي الذي فعلت من ردي رسول الملك إليه ليعلم يعني العزيز أني لم أخنه في زوجته بالغيب يعني في حال غيبته، فيكون هذا من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه من غير تمييز بين الكلامين لمعرفة السامعين لذلك مع غموض فيه لأنه ذكر كلام إنسان ثم أتبعه بكلام إنسان آخر من غير فصل بين الكلامين ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ هذا من قول الملأ، فماذا تأمرون من قول فرعون ومثله قوله تعالى: ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ هذا من قول بلقيس ﴿وكذلك يفعلون﴾ من قوله عز وجل تصديقاً لها وعلى هذا القول اختلفوا أين كان يوسف حين قال هذه المقالة على قولين أحدهما أنه

يخرج مع الرسول حتى تظهر براءته ثم، ﴿ قال ﴾، للرسول، ﴿ ارْجِعْ إلى ربِّك ﴾، يعني: سيدك الملك، ﴿ فاسْأَلْهُ ما بالُ النسوة اللاّتي قطَّعْنَ أيدِيهنَّ ﴾، ولم يصرِّح بذكر امرأة العزيز أدباً واحتراماً، قال النبي ﷺ: «لو لبثتُ في السجن طولَ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي» ﴿ إنَّ ربِّي بكيدِهنَّ عليم ﴾، أي: إن الله بصنيعهنّ عالم، وإنما أرادَ يوسف بذكرهنّ بعد طول المدة حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة والخيانة، ويصير إليه بعدَ زوال الشك عن أمره، فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوةَ وامرأة العزيز.

﴿ قال ﴾، لهنّ، ﴿ ما خَطْبُكُنَّ ﴾، ما شأنكنّ وأمركنّ، ﴿ إذْ راوَدْتُنَّ يوسفَ عن نفسِه ﴾، خاطبهنّ والمراد امرأة العزيز، وقيل: إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهنّ جميعاً ﴿ قُلْنَ حاشَ لِلَّه ﴾ معاذَ الله، ﴿ ما علِمْنا عليهِ من سُوءٍ ﴾، خيانة، ﴿ قالتِ امرأةُ العزيز الآن حَصْحَصَ الحقُّ ﴾ ظهر وتبيَّن. وقيل: إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فقررنها فأقرّت، وقيل: خافت أن يشهدن عليها فأقرّت وقالت: ﴿ أنا راودتُه عن نفسِهِ وإنّه لَمِنَ الصَّادِقين ﴾، في قوله: هي راودتني عن نفسي، فلما سمع ذلك يوسف قال:

كان في السجن وذلك أنه لما رجع إليه رسول الملك وهو في السجن وأخبره بجواب امرأة العزيز للملك قال حينئذ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وهذه رواية أبي صالح عن ابن عباس وبه قال ابن جريج.

والقول الثاني: إنه قال هذه المقالة عند حضوره عند الملك وهذه رواية عطاء عن ابن عباس فإن قلت فعلى هذا القول كيف خاطبهم بلفظة ذلك وهي إشارة للغائب مع حضوره عندهم.

قلت قال ابن الأنباري قال اللغويون هذا وذلك يصلحان في هذا الموضع لقرب الخبر من أصحابه فصار كالمشاهد الذي يشار إليه بهذا وقيل ذلك إشارة إلى ما فعله يقول ذلك الذي فعلته من ردي الرسول ليعلم أني لم أخنه بالغيب أي لم أخن العزيز في حال غيبته؛ ثم ختم هذا الكلام بقوله وأن الله لا يهدي كيد الخائنين يعني أني لو كنت خائناً لما خلصني الله من هذه الورطة التي وقعت فيها لأن الله لا يهدي أي لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين واختلفوا في قوله.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾

﴿وما أبرىء نفسي﴾ من قول من؟ على قولين أيضاً:

أحدهما: أنه من قول المرأة وهذا التفسير على قول من قال إن قوله ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب من قول المرأة فعلى هذا يكون المعنى وما أبريء نفسي من مراودتي يوسف عن نفسه وكذبي عليه.

والقول الثاني: وهو الأصح وعليه أكثر المفسرين أنه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وذلك أنه لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين هممت بها فقال يوسف عند ذلك وما أبرىء نفسي وهذه رواية عن ابن عباس أيضاً وهو قول الأكثرين وقال الحسن إن يوسف لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب خاف أن يكون قد زكى نفسه فقال وما أبرىء نفسي لأن الله تعالى قال فلا تزكوا أنفسكم، ففي قوله وما أبرىء نفسي هضم للنفس وانكسار وتواضع لله عز وجل فإن رؤية النفس في مقام العصمة والتزكية ذنب عظيم فأراد إزالة ذلك عن نفسه فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين **﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾** والسوء لفظ جامع لكل ما يهم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية والسيئة الفعلة القبيحة.

﴿ ذلك ﴾ أي: ذلك الذي فعلت من ردّي رسول الملك إليه، **﴿ ليعلم ﴾**، العزيز، **﴿ إني لم أخُنْهُ ﴾**في زوجته، **﴿ بالغيب ﴾**، أي: في حال غيبته، **﴿ وإنّ اللَّهَ لا يهدي كيدَ الخائنين ﴾**، بقوله ذلك ليعلم من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه من غير تميّز لمعرفة السامعين. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقدم، معناه: ارجع إلى ربِّك فاسأله ما بال النسوة اللاّتي قطّعن أيدِيَهنَّ إنّ ربّي بكيدهنّ عليمٌ ذلك ليعلم أني لم أخنْه بالغيب، قيل: لمّا قال يوسف هذه المقالة، قال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ فقال يوسف عند ذلك: وما أبرىء نفسي. قال السدي: إنما قالت له امرأة العزيز: ولا حين حللت سراويلك يا يوسف؟ فقال يوسف:

﴿ وما أُبرىء نفسي ﴾، من الخطأ والزّلل فأزكّيها، **﴿ إنَّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوءِ ﴾**، بالمعصية **﴿ إلاّ ما رَحِمَ ربّي ﴾**، أي: إلاّ مَن رحم ربّي فعصمه، و**﴿ ما ﴾** بمعنى من، كقوله تعالى: **﴿ فانكِحُوا ما طابَ لكم ﴾** [النساء: ٣] أي: مَنْ طاب لكم، وهم الملائكة عصمهم الله عزّ وجلّ فلم يركّبْ فيهم الشهوة. وقيل: إلّا ما رحم ربّي إشارة إلى حالة العصمة عند رؤية البرهان. **﴿ إنّ ربّي غفورٌ رحيم ﴾**، فلما تبيّن للملك عذر يوسف عليه

واختلفوا في النفس الأمارة بالسوء ما هي فالذي عليه أكثر المحققين من المتكلمين وغيرهم أن النفس الإنسانية واحدة ولها صفات: منها الأمارة بالسوء، ومنها اللوامة، ومنها المطمئنة فهذه الثلاث المراتب هي صفات لنفس واحدة فإذا دعت النفس إلى شهواها مالت إليها فهي النفس الأمارة بالسوء فإذا فعلتها أتت النفس اللوامة فلامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات ويحصل عند ذلك الندامة على ذلك الفعل القبيح وهذا من صفات النفس المطمئنة، وقيل: إن النفس أمارة بالسوء بطبعها فإذا تزكت وصفت من أخلاقها الذميمة صارت مطمئنة.

وقوله ﴿**إلا ما رحم ربي**﴾ قال ابن عباس: معناه إلا من عصم ربي فتكون ما بمعنى من فهو كقوله ﴿**ما طاب لكم من النساء**﴾ يعني من طاب لكم وقيل هذا استثناء منقطع معناه لكن من رحم ربي فعصمه من متابعة النفس الأمارة بالسوء ﴿**إن ربي غفور**﴾ يعني غفور لذنوب عباده ﴿**رحيم**﴾ بهم.

قوله تعالى: ﴿**وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي**﴾ وذلك أنه لما تبين للملك عذر يوسف وعرف أمانته وعلمه طلب حضوره إليه فقال ائتوني به يعني بيوسف أستخلصه لنفسي أي أجعله خالصاً لنفسي والاستخلاص طلب خلوص الشيء من جميع شوائب الاشتراك وإنما طلب الملك أن يستخلص يوسف لنفسه، لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة العزيزة ولا يشاركهم فيها أحد من الناس وإنما قال الملك ذلك لما عظم اعتقاده في يوسف لما علم من غزارة علم يوسف وحسن صبره وإحسانه إلى أهل السجن وحسن أدبه وثباته على المحن كلها فلهذا حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله تعالى أمراً هيأ أسبابه فألهم الملك ذلك فقال ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴿**فلما كلمه**﴾ فيه اختصار تقديره فلما جاء الرسول إلى يوسف فقال له أجب الملك الآن بلا معاودة فأجابه.

روي أن يوسف لما قام ليخرج من السجن دعا لأهله فقال اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار في كل بلد، فلما خرج من السجن كتب على بابه هذا بيت البلواء وقبر الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً حسنة ثم قصد باب الملك.

قال وهب: فلما وقف بباب الملك قال: حسبي ربي من دنياي وحسبي ربي من خلقه عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك ثم دخل الدار فلما أبصر الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره فلما

السلام وعرف أمانته وعلمه اشتاق لرؤيته وكلامه، وذلك معنى قوله تعالى إخباراً عنه.

﴿ **وقال الملك ائتوني بِهِ أستخلِصْهُ لنفسي** ﴾، أي: أجعله خالصاً لنفسي، ﴿ **فلمّا كلّمه** ﴾، فيه اختصار تقديره: فجاء الرسول يوسف فقال له: أجب الملك الآن. رُوِيَ أنه قام ودعا لأهل السجن فقال: اللّهمَّ عطّف عليهم قلوب الأخيار ولا تَعْمِ عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار في كل بلد، فلما خرج من السجن كتب على بابه هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء، ثم اغتسل وتنظّف من درن السجن ولبس ثياباً حسنةً وقصد الملك. قال وهب: فلما وقف بباب الملك قال: حسبي ربِّي من دنياي وحسبي ربي من خلقه عزَّ جارُه وجلّ ثناؤُه ولا إلّه غيره، ثم دخل الدار فلما دخل على الملك قال: اللّهمّ إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره، فلما نظر إليه الملك سلّم عليه يوسف بالعربية فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمّي إسماعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال له: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان آبائي ولم يعرف الملك هذين اللسانين. قال وهب: وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلما تكلم بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان وزاد عليه بلسان العربية والعبرانية، فأعجب الملك ما رأى منه مع حداثة سنّه، وكان يوسف يومئذ ابن ثمانين سنة، فأجلسه و﴿ **قالَ إنّك اليومَ لدينا مكينٌ** ﴾، المكانة في الجاه، ﴿ **أمينٌ** ﴾، أي: صادق ورُوِيَ أنّ الملك قال له: إنّي أُحب

نظر إليه الملك سلم يوسف عليه بالعربية فقال له الملك ما هذا اللسان؟ قال لسان عمي إسماعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال له وما هذا اللسان أيضاً قال يوسف هذا لسان آبائي قال وهب وكان الملك يتكلم بسبعين لغة فلم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجاباه يوسف وزاد عليه بالعربية والعبرانية فلما رأى الملك منه ذلك أعجبه ما رأى مع حداثة سن يوسف عليه السلام وكان له من العمر يومئذ ثلاثون سنة فأجلسه إلى جنبه فذلك قوله تعالى فلما كلمه يعني فلما كلم الملك يوسف لأن مجالس الملوك لا يحسن لأحد أن يبدأ بالكلام فيها وإنما يبدأ فيها بالكلام وقيل معناه فلما كلم يوسف الملك قال الساقي أيها الملك هذا الذي علم تأويل الملك رؤياك مع عجز السحرة والكهنة عنها فأقبل عليه الملك و ﴿**قال إنك اليوم لدينا مكين أمين**﴾ يقال: اتخذ فلان عند فلان مكانة أي منزلة وهي الحالة التي يتمكن بها صاحبها مما يريد، وقيل: المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفت أمانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت إليه وقوله مكين أمين كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا.

روي أن الملك قال ليوسف عليه الصلاة والسلام أحب أن أسمع تأويل رؤياي منك شفاهاً فقال: نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سمان شهب غر حسان غير عجاف كشف لك عنهن النيل فطلعن من شاطئه تشخب أخلافهن لبناً فبينما أنت تنظر إليهن وقد أعجبك حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا يبسه فخرج من حمأته سبع بقرات عجاف شعث غبر ملصقات البطون ليس لهما ضروع ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع فاختلطن بالسمان فافترسن السمان فافترس السبع فأكلن لحومهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن ومشمشن مخهن فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل ثم لم يظهر منهن سمن ولا زيادة بعد أكلهن إذ سبع سنبلات خضر طريات ناعمات ممتلئات حباً وماء وإلى جانبهن سبع أخر سود يابسات في منبت واحد عروقهن في الثرى والماء فبينا أنت تقول في نفسك أي شيء هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن في الثرى والماء.

إذ هبت الريح فذرت أوراق اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار فأحرقتهن فصرن سوداً فهذا ما رأيت أيها الملك ثم انتبهت مذعوراً فقال الملك والله ما أخطأت منها شيئاً فما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجباً فما هو بأعجب مما سمعت منك وما ترى في تأويل رؤياي أيها الصديق؟ قال يوسف عليه الصلاة والسلام: أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة وتجعل ما يتحصل من ذلك الطعام في الخزائن بقصبه وسنبله

أن أسمع رؤياي منك شفاهاً، فقال له يوسف: نعم أيها الملك رأيت سبع بقرات سِمان شُهب غرٍّ حِسَانٍ، كشفَ لك عنهنَّ النيلُ فطلعنَ عليك من شاطئه تشخب أخلافهنّ لبناً فبينما أنت تنظر إليهنّ ويعجبك حُسنهنّ إذْ نضبَ النيلُ فغار ماؤه وبدا يبسه، فخرج من حمأته سبع بقراتٍ عجافٍ شُعثٍ غُبرٍ مُتقلّصات البطون، ليس لهنّ ضروع ولا أخلاف، ولهنّ أنياب وأضراس وأكفّ كأكفّ الكلاب، وخراطيم كخراطيم السِّباع، فافترسن السِّمان افتراس السبع فأكلن لحومهنّ ومزّقنَ جلودهنّ، وحطمنَ عظامهنّ وتمشّشن مخّهنّ، فبينما أنت تنظر وتتعجب إذا سبع سنابل خضر وسبع أُخر سود في منبت واحد عروقهنّ في الثرى والماء، فبينما أنت تقول في نفسك أيّ شيء هؤلاء؟ خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد وأُصولهنّ في الماء أذْهبتْ ريحٌ فذرَت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهنّ النار، فاحترقن فصرن سوداً فهذا ما رأيت؟! فانتبهتَ من نومك مذعوراً، فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجيبة بأعجب مما سمعت منك فما ترى في رؤياي أيها الصديق؟ فقال يوسف عليه السلام: أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتجعل الطعام في الخزائن بقصبه وسنبله ليكون القصب والسنبل عَلَفاً للدواب والحبَّ طعاماً للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم

فإنه أبقى له فيكون ذلك القصب والسنبل علفاً للدواب وتأمر الناس فليرفعوا الخمس من زروعهم أيضاً فيكفيك ذلك الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها وتأتيك الخلق من سائر النواحي للميرة ويجتمع عندك من الكنوز والأموال ما لا يجتمع لأحد قبلك فقال الملك: ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبيعه لي ويكفيني العمل فيه فعند ذلك.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾

﴿قال﴾ يعني يوسف ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ يعني على خزائن الطعام والأموال، وأراد بالأرض أرض مصر أي اجعلني على خزائن أرضك التي تحت يدك، وقال الربيع بن أنس اجعلني على خزائن خراج مصر ودخلها ﴿إني حفيظ عليم﴾ أي حفيظ الخزائن عليم بوجوه مصالحها وقيل معناه إني حاسب كاتب وقيل حفيظ لما استودعتني عليم بما وليتني وقيل حفيظ للحساب عليم أعلم لغة من يأتيني، وقال الكلبي: حفيظ بتقديره في السنين المخصبة للسنين المجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع فقال الملك عند ذلك ومن أحق بذلك منك وولّاه ذلك، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة».

فإن قلت كيف طلب يوسف علي الصلاة والسلام الإمارة والولاية مع ما ورد من النهي عنها مع كراهية طلبها لما صح من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال لي رسول الله ﷺ «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أتيتها من غير مسألة أعنت عليها» أخرجاه في الصحيحين.

قلت إنما يكره طلب الإمارة إذا لم يتعين عليه طلبها فإذا تعين عليه طلبها وجب ذلك عليه ولا كراهية فيه فأما يوسف عليه الصلاة والسلام فكان عليه طلب الإمارة لأنه مرسل من الله تعالى والرسول أعلم بمصالح الأمة من غيره وإذا كان مكلفاً برعاية المصالح ولا يمكنه ذلك إلا بطلب الإمارة وجب عليه طلبها، وقيل إنه علم أنه سيحصل قحط وشدة إما بطريق الوحي من الله أو بغيره وربما أفضى ذلك إلى هلاك معظم الخلق، وكان في طلب الإمارة إيصال الخير والراحة إلى المستحقين وجب عليه طلب الأمارة لهذا السبب.

الخُمسَ فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر من حولها، ويأتيك الخلق من النواحي للميرة فتبيع منهم الطعام وتأخذ ثمنه فيجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد، فقال الملك: ومَن لي بهذا ومَن يجمعه ويبيعه ويكفيني الشغل فيه؟.

فـ ﴿ قال ﴾، يوسف، ﴿ اجْعَلْني على خزائنِ الأرض ﴾، الخزائن جمع خزانة وأراد خزائن الطعام والأموال، والأرض أرض مصر، أي: خزائن أرضك. على خراج مصر ودخله، ﴿ إني حفيظٌ عليمٌ ﴾، أي: حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها. وقيل: حفيظ عليم، أي: كاتب حاسب. وقيل: حفيظ لما استودعتني عليم بما ولّيتني. وقيل: حفيظ للحساب عليم بالألسن أعلم لغة من يأتيني. وقال الكلبي: حفيظ بتقديره في السنين المجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع، فقال له الملك: ومَن أحقّ به منك؟! فولّاه ذلك وقال له: إنّك اليوم لدينا مكين، ذو مكانة ومنزلة، أمين على الخزائن. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحق الثعلبي أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد الفنجوي ثنا مخلد بن جعفر البقرجي ثنا الحسن بن عوية ثنا إسماعيل بن عيسى ثنا إسحق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخّره لذلك سنة فأقام في بيته سنة مع الملك»، وبإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا انصرمت السنة من اليوم الذي سأل الإمارة دعاه الملك فتوجّه وقلّده بسيفه ووضع له سريراً من ذهب مكلّل

فإن قلت كيف مدح يوسف نفسه بقوله إني حفيظ عليم والله تعالى يقول فلا تزكوا أنفسكم.

قلت إنما يكره تزكية النفس إذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوسل به إلى غير ما يحل فهذا القدر المذموم في تزكية النفس.

أما إذا قصد بتزكية النفس ومدحها إيصال الخير والنفع إلى الغير فلا يكره ذلك ولا يحرم بل يجب عليه ذلك مثاله أن يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به فإنه يجب عليه أن يقول أنا عالم، ولما كان الملك قد علم من يوسف أنه عالم بمصالح الدين ولم يعلم أنه عالم بمصالح الدنيا نبهه يوسف بقوله إني حفيظ عليم على أنه عالم بما يحتاج إليه في مصالح الدنيا أيضاً مع كمال علمه بمصالح الدين.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله عز وجل: **﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾** وكذلك إشارة إلى ما تقدم، يعني وكما أنعمنا على يوسف بأن أنجيناه من الجب وخلصناه من السجن وزيناه في عين الملك حتى قربه وأدنى منزلته كذلك مكنا له في الأرض يعني أرض مصر؛ ومعنى التمكين هو أن لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وإليه الإشارة بقوله **﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾** لأنه تفسير للتمكين.

قال ابن عباس وغيره لما انقضت السنة من يوم سأل يوسف الإمارة دعاه الملك فتوجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع ووضع له عليه ثلاثون

بالدرّ والياقوت، وضرب عليه حلّة من إستبرق، وطول السرير ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرة أذرع عليه ثلاثون فراشاً وستّون مفرمة، ثم أمر أن يخرج فخرج متوجاً ولونه كالثلج ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه فانطلق حتى جلس على السرير، ودانت له الملوك ودخل الملك بيته وفوّض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عمّا كان عليه وجعل يوسف مكانه. قال ابن إسحق: وقال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلّم سلطانه كله إليه وجعل أمره وقضاءه نافذاً، قالوا: ثم إن قطفير هلك في تلك الليالي فزوّج الملك ليوسف راعيل امرأة قطفير، فلما دخل عليها قال أليس هذا خيراً مما كنت تريدين منّي؟ فقالت: أيها الصديق لا تلمني فإني امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعلك الله في حُسنك وجمالك وهيئتك فغلبتني نفسي وقويت عليّ شهوتي ولم أتمالك عقلي في محبتي فيك، فقرب منها يوسف فوجدها عذراء فأصابها فولدت له ولدين أفرائيم بن يوسف وميشا بن يوسف. واستوثق ليوسف ملك مصر فأقام فيهم العدل وأحبّه الرجال والنساء، فذلك قوله تعالى:

﴿ وكذلك مَكّنّا ليوسفَ في الأرض ﴾، يعني: أرض مصر ملّكناه، **﴿ يتبوّأ ﴾**، أي: ينزل أيَّ، **﴿ منها حيث يشاءُ ﴾**، ويصنع فيها ما يشاء. قرأ ابن كثير وحده: «نشاء» بالنون ردّاً على قوله: **﴿ مكّنّا ﴾** وقرأ الآخرون بالياء ردّاً على قوله **﴿ يتبوّأ ﴾**. **﴿ نصيب برحمتنا ﴾**، أي: بنعمتنا، **﴿ مَن نشاءُ ولا نُضيعُ أجرَ المحسنين ﴾**، قال ابن عباس ووهب: يعني الصابرين. قال مجاهد وغيره: فلم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس، فهذا في أمر الدنيا.

فراشاً وستون مارياً وضرب له عليه كلة من إستبرق وأمره أن يخرج فخرج متوجاً لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فيه من صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت ليوسف الملوك وفوض الملك الأكبر إليه ملكه وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه.

قال ابن إسحاق قال ابن زيد وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلمها إلى يوسف وسلم له سلطانه كله وجعل أمره وقضاءه نافذاً في مملكته قالوا ثم هلك قطفير عزيز مصر في تلك الليالي فزوج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه فلما دخل يوسف عليها قال لها أليس هذا خيراً مما كنت تريدين قالت له أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي وعصمك الله قالوا فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له ولدين ذكرين إفرائيم وميشا وهما ابنا يوسف منها واستوثق ليوسف ملك مصر وأقام فيه العدل وأحبه الرجال والنساء فلما اطمأن يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام أحسن التدبير فبنى الحصون والبيوت الكثيرة وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة وأنفق المال بالمعروف حتى خلت السنين المخصبة ودخلت السنين المجدبة بهول وشدة لم ير الناس مثله، وقيل: إنه دبر في طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار فلما دخلت سنين القحط كان أول من أصابه الجوع الملك فجاع نصف النهار فنادى يا يوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول أوان القحط فهلك في السنة الأولى من أول سنين القحط كل ما أعدوه في السنين المخصبة فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف فباعهم في السنة الأولى بالنقود حتى لم يبق بمصر درهم ولا دينار إلا أخذه منهم وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق بمصر في أيدي الناس منها شيء وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي والأنعام حتى لم تبق دابة ولا ماشية إلا احتوى عليها كلها وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والجواري حتى لم يبق بأيدي الناس عبد ولا أمة وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى أتى عليها كلها وباعهم في السنة السادسة بأولادهم، حتى استرقهم وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة إلا ملكه فصاروا جميعهم عبيداً ليوسف عليه الصلاة والسلام فقال أهل مصر ما رأينا كاليوم ملكاً أجمل ولا أعظم من

﴿ ولأجرُ الآخرة ﴾، ثواب الآخرة، ﴿ خيرٌ للذينَ آمنُوا وكانوا يتَّقُون ﴾، فلما اطمأن يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام بأحسن التدبير، وبنى الحصون والبيوت الكثيرة، وجمع فيها الطعام السنين المجدبة، وأنفق بالمعروف حتى خلت السنون المخصبة ودخلت السنون المجدبة بهول لم يعهد الناس بمثله. ورُوِيَ أنه كان قد دبّر في طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار، فلما دخلت سنة القحط كان أول مَن أخذه الجوع هو الملك في نصف الليل فنادى يا يوسف الجوع، فقال يوسف: هذا أوان القحط، ففي السنة الأولى من سنين الجدب هلك كل شيء أعدّوه في السنين المخصبة، فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام، فباعهم في أول سنة بالنقود حتى لم يبقَ بمصر دينار ولا درهم إلّا قبضه، وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبقَ في أيدي الناس منها شيء، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق في يد أحد عبد ولا أمة، وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار والدُّور حتى احتوى عليها، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم حتى استرقّهم، وباعهم في السنة السابعة برِقابهم حت استرقّهم، ولم يبق بمصر حرّ ولا حرّة إلّا صار عبداً له، فقال الناس: ما رأينا يوماً كاليوم ملكاً أجلّ ولا أعظم من هذا، ثم قال يوسف للملك: كيف رأيت صنع ربي فيما خوّلني فما ترى في ذلك؟ فقال له الملك: الرأي رأيك والأمر إليك ونحن لك تَبَع، قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددْتُ عليهم أملاكهم. ورُوِيَ أن يوسف كان لا يشبع من طعام في تلك الأيام، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟ فقال:

يوسف فقال يوسف للملك كيف رأيت صنع الله بي فيما خولني فما ترى في هؤلاء قال الملك الرأي رأيك ونحن لك تبع قال فإني أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم وقيل إن يوسف كان لا يشبع من الطعام في تلك الأيام فقيل له أتجوع وبيدك خزائن الأرض فقال أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع وأمر يوسف طباخي الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار.

قال مجاهد: ولم يزل يوسف يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف به حتى أسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله سبحانه وتعالى: وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ يعني نختص بنعمتنا وهي النبوة من نشاء يعني من عبادنا ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ قال ابن عباس يعني الصابرين ﴿ولأجر الآخرة﴾ يعني ولثواب الآخرة ﴿خير﴾ يعني أفضل من أجر الدنيا ﴿للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ يعني يتقون ما نهى الله عنه وفيه دليل على أن الذي أعد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام في الآخرة من الأجر والثواب الجزيل أفضل مما أعطاه الله في الدنيا من الملك قوله تعالى: .

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾ قال العلماء: لما اشتد القحط وعظم البلاء وعم ذلك جميع البلاد حتى وصل إلى بلاد الشام قصد الناس مصر من كل مكان للميرة وكان يوسف لا يعطي أحداً أكثر من حمل بعير وإن كان عظيماً تقسيطاً ومساواة بين الناس ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه إلى مصر للميرة وأمسك عنده بنيامين أخا يوسف لأمه وأبيه وأرسل عشرة فذلك قوله تعالى وجاء إخوة يوسف وكانوا عشرة وكان مسكنهم بالعربات من أرض فلسطين والعربات ثغور الشام وكانوا أهل بادية وإبل وشياه فدعاهم يعقوب عليه الصلاة والسلام وقال بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام فتجهزوا له واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون إليه من الطعام فخرجوا حتى قدموا مصر فدخلوا على يوسف فعرفهم.

قال ابن عباس: ومجاهد بأول نظرة نظر إليهم عرفهم، وقال الحسن: لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه وهم له منكرون يعني لم يعرفوه.

أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع، وأمر يوسف عليه السلام طبّاخي الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين، فمن ثَمّ جعل الملوك غداءهم نصف النهار. قال: وقصد النّاسُ مصرَ من كل النواحي يمتارون الطعام فجعل يوسف لا يمكّن أحداً منهم، وإن كان عظيماً أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس، وتزاحم الناس عليه فأصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب الناس في سائر البلاد من القحط والشدّة، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس فأرسل بنيه إلى مصر للميرة وأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه.

فذلك قوله تعالى: ﴿ وجاءَ إخوةُ يوسف ﴾ وكانوا عشرة، وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين، بغور الشام، وكانوا أهل بادية وإبل وشاة، فدعاهم يعقوب عليه السلام وقال: يا بني بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهّزوا له فاذهبُوا لِتَشْتَرُوا منه الطعام، فأرسلهم فقدِمُوا مصرَ، ﴿ فدخلُوا عليه ﴾، على يوسف، ﴿ فعَرَفهم ﴾، يوسف عليه السلام. قال ابن عباس ومجاهد: وعرفهم بأول ما نظر إليهم، وقال الحسن: لم يعرفهم حتى تعرّفوا إليه، ﴿ وهم له مُنكِرُون ﴾، أي: لم يعرفوه. قال ابن عباس: وكان بين أن قذفوه في البئر وبين أن

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين أن قذفوه في الجب وبين دخولهم عليه مدة أربعين سنة فلذلك أنكروه وقال عطاء: إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وكان على رأسه تاج الملك وقيل لأنه كان قد لبس زي ملوك مصر عليه ثياب حرير وفي عنقه طوق من ذهب وكل واحد من هذه الأسباب مانع من حصول المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه، وقيل إن العرفان إنما يقع في القلب بخلق الله تعالى له فيه وإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق ذلك العرفان في تلك الساعة في قلوبهم تحقيقاً لما أخبر أنه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون فكان ذلك معجزة ليوسف عليه الصلاة والسلام فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية كلمهم بلسانهم فقال لهم أخبروني من أنتم وما أمركم فإني قد أنكرت حالكم قالوا: نحن قوم من أرض الشام رعاة قد أصابنا من الجهد ما أصاب الناس فجئنا نمتار؟ قال يوسف لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادي قالوا: لا والله ما نحن بجواسيس إنما نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق يقال له يعقوب نبي من أنبياء الله تعالى قال وكم أنتم؟ قالوا كنا اثني عشر فذهب أخ لنا معنا إلى البرية فهلك فيها وكان أحبنا إلى أبينا قال: فكم أنتم الآن، قالوا: عشرة قال: وأين الآخر قالوا هو عند أبينا لأنه أخو الذي هلك لأمه فأبونا يتسلى به قال فمن يعلم أن الذي تقولون حق قالوا أيها الملك إننا ببلاد غربة لا يعرفنا فيها أحد قال فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين فأنا راض بذلك منكم قالوا إن أبانا يحزن لفراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني به فاقترعوا فيما بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف فخلفوه عنده فذلك قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ يقال: جهزت القوم تجهيزاً إذا تكلفت لهم جهاز سفرهم وهو ما يحتاجون إليه في وجوههم والجهاز بفتح الجيم هي اللغة الفصيحة الجيدة وعليها الأكثرون من أهل اللغة وكسر الجيم لغة ليست

دخلوا عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه. وقال عطاء: إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وعلى رأسه تاج الملك. وقيل: لأنه كان بزيّ ملوك مصر عليه ثياب من حرير وفي عنقه طوق من ذهب، فلما نظر إليهم يوسف وكلّموه بالعبرانية، قال لهم: أخبروني مَن أنتم وما أمركم فإني أنكرت شأنكم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار، فقال: لعلّكم جئتم تنظرون عورة بلادي، قالوا: لا والله ما نحن بجواسيس إنّما نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبي من أنبياء الله، فقال: وكم أنتم؟ قالوا: كنّا اثني عشر فذهب أخ لنا معنا إلى البرية فهلك فيها وكان أحبّنا إلى أبينا، قال: فكم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: وأين الآخر؟ قالوا: عند أبينا لأنه أخو الذي هلك من أمه، فأبونا يتسلّى به، فقال: فمَن يعلم أن الذي تقولون حق وصدق؟ قالوا: أيها الملك إنّا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد من أهلها، فقال لهم يوسف: فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، وأنا أرضى بذلك، قالوا: فإن أبانا يحزن على فراقه وسنراود عنه أباه، قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم الذي من أبيكم، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأياً في يوسف، فخلّفوه عنده. فذلك قوله عزّ وجلّ:

﴿ ولمّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِم ﴾، أي: حمل لكل واحد بعيراً بعدّتهم، ﴿ قال ائتوني بأخٍ لكم منْ أبيكم ﴾، يعني بنيامين، ﴿ ألَا تَرَوْنَ أني أوفي الكيلَ ﴾. أي: أُتمّه ولا أبخس الناس شيئاً فأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم

بجيدة. قال ابن عباس: حمل لكل واحد منهم بعيراً من الطعام وأكرمهم في النزول وأحسن ضيافتهم وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم ﴿قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ يعني الذي خلفتموه عنده وهو بنيامين ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل﴾ يعني أني أتمه ولا أبخس منه شيئاً وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم أكرمكم بذلك ﴿وأنا خير المنزلين﴾ يعني خير المضيفين لأنه كان قد أحسن ضيافتهم مدة إقامتهم عنده قال الإمام فخر الدين الرازي: هذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين إنه اتهمهم ونسبهم إلى أنهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به أن يقول لهم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين، وأيضاً يبعد من يوسف عليه الصلاة والسلام مع كونه صديقاً أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون مع أنه يعرف براءتهم من هذه التهمة لأن البهتان لا يليق بالصديق ثم قال يوسف ﴿فإن لم تأتوني به﴾ يعني بأخيكم الذي من أبيكم ﴿فلا كيل لكم عندي﴾ يعني لست أكيل لكم طعاماً ﴿ولا تقربون﴾ يعني ولا ترجعوا ولا تقربوا بلادي وهذا هو نهاية التخويف والترهيب لأنهم كانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام ولا يمكنهم تحصيله إلا من عنده فإذا منعهم من العود كان قد ضيق عليهم فعند ذلك ﴿قالوا﴾ يعني إخوة يوسف ﴿سنراود عنه أباه﴾ يعني سنجتهد ونحتال حتى ننزعه من عنده ﴿وإنا لفاعلون﴾ يعني ما أمرتنا به.

قوله عز وجل: ﴿وقال لفتيانه﴾ يعني: وقال يوسف لفتيانه وهم غلمانه وأتباعه ﴿اجعلوا بضاعتهم في رحالهم﴾ أراد بالبضاعة ثمن الطعام الذي أعطوه ليوسف وكانت دراهم وحكى الضحاك عن ابن عباس أنها كانت النعال والأدم والرحال جمع رحل وهي الأوعية التي يحمل فيها الطعام وغيره ﴿لعلهم يعرفونها﴾ يعني يعرفون بضاعتهم ﴿إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ يعني إذا رجعوا إلى أهلهم ﴿لعلهم يرجعون﴾ إلينا واختلفوا في السبب الذي من أجله رد يوسف عليه الصلاة والسلام عليهم بضاعتهم فقيل إنهم إذا فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم علموا أن ذلك من كرم يوسف وسخائه فيبعثهم ذلك على الرجوع إليه سريعاً وقيل إنه خاف أن لا يكون عند أبيه شيء آخر من المال لأن الزمان كان زمان قحط وشدة، وقيل: إنه رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته لؤم لشدة حاجتهم إليه وقيل أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم فيه لوم ولا عيب، وقيل أراد أن يريهم بره وكرمه وإحسانه إليهم في رد بضاعتهم ليكون ذلك أدعى إلى العود إليه، وقيل: إنما فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم وأمانتهم تحملهم على رد البضاعة إليه إذا

وأكرم منزلتكم وأُحسِن إليكم، ﴿ وأنا خيرُ المُنْزِلين ﴾، قال مجاهد: أي خير المضيفين. وكان قد أحسن ضيافتهم.

﴿ فإنْ لم تأتوني به فلاَ كيلَ لكم عندي ﴾، أي: ليس لكم عندي طعام أكيله، ﴿ ولا تقربون ﴾، أي: لا تقربوا داري وبلادي بعد ذلك وهو جزم على النهي.

﴿ قالوا سَنُرَاوِد عنه أباه ﴾، أي: نطلبه ونسأله أن يرسله معنا، ﴿ وإنّا لَفَاعِلُون ﴾، ما أمرتنا به.

﴿ وقالَ لفتيانِهِ ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «لفتيانــه» بالألف والنون، وقرأ الباقون: «لفتيته» بالتاء من غير ألف، يريد لغلمانه، وهما لغتان مثل الصبيان والصبية، ﴿ اجْعَلُوا بضاعتهم ﴾، ثمنَ طعامهم وكانت بدراهم. وقال الضحاك عن ابن عباس: كانت النِعال والأدم. وقيل: كانت ثمانية جرب من سويق المقل. والأول أصحّ ﴿ في رِحَالِهِمْ ﴾، أوعيتهم، وهي جمع رحل، ﴿ لعلّهم يعرِفُونَها إذا انقلبُوا ﴾، انصرفوا، ﴿ إلى أهلِهِمْ لعلّهم يَرْجِعُون ﴾، واختلفوا في السبب الذي فعله يوسف من أجله، قيل: أراد أن يُريهم كرمه في ردّ البضاعة وتقديم الضمان في البرّ والإحسان ليكون أدعى لهم إلى العود لعلّهم يعرفونها أي كرامتهم علينا. وقيل: رأى لؤماً أخذ الطعام من أبيه وإخوته مع حاجتهم إليه فردّه عليهم من حيث لا يعلمون تكرّماً. وقال الكلبي: تخوّف أن لا

وجدوها في رحالهم لأنهم أنبياء وأولاد أنبياء وقيل أراد برد البضاعة إليهم أن يكون ذلك عوناً لأبيه ولإخوته على شدة الزمان.

فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا﴾ إنا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلاً من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته فقال لهم يعقوب إذا رجعتم إلى ملك مصر فاقرؤوا عليه مني السلام وقولوا له إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا ثم قال لهم أين شمعون قالوا ارتهنه ملك مصر عنده وأخبروه بالقصة ثم قالوا يا أبانا ﴿منع منا الكيل﴾ وفيه قولان:

أحدهما: أنهم لما أخبروا يوسف بأخيهم من أبيهم طلبوا منه الطعام لأبيهم وأخيهم المتخلف عند أبيهم فمنعهم من ذلك حتى يحضر فقولهم منع منا الكيل إشارة إليه وأراد بالكيل الطعام لأنه يكال.

والقول الثاني: إنه سيمنع منا الكيل في المستقبل وهو إشارة إلى قول يوسف فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون وقال الحسن يمنع منا الكيل إن لم نحمل معنا أخانا وهو قوله تعالى إخباراً عنهم ﴿فأرسل معنا أخانا﴾ يعني بنيامين ﴿نكتل﴾ قرىء بالياء يعني يكتل لنفسه وقرىء بالنون يعني نكتل نحن جميعاً وإياه معنا ﴿وإنا له لحافظون﴾ يعني نرده إليك فلما قالوا ليعقوب هذه المقالة (قال) يعني يعقوب ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ يعني كيف آمنكم على ولدي بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم وإنكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه في يوسف وضمنتم لي حفظه وقلتم وإنا له لحافظون فما فعلتم فلما لم يحصل الأمان والحفظ هنالك فكيف يحصل هاهنا ثم قال ﴿فالله خير حافظاً﴾ يعني أن حفظ الله خير من حفظكم له ففيه التفويض إلى الله تعالى والاعتماد عليه في جميع الأمور ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ وظاهر هذا الكلام يدل على أنه أرسله معهم، وإنما أرسله معهم وقد شاهد ما فعلوا بيوسف لأنه لم يشاهد فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما كان بينهم وبين يوسف أو أن يعقوب شاهد منهم الخير والصلاح لما كبروا فأرسله معهم أو أن شدة القحط وضيق الوقت أحوجه إلى ذلك.

يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى. وقيل: فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة نفياً للغلط ولا يستحلّون إمساكها.

﴿ فلمّا رَجَعُوا إلى أبيهم قالوا يا أبَانَا ﴾، إنّا قَدِمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فأقرؤوه منّي السلام، وقولوا له: إنّ أبانا يصلّي عليك ويدعو لك بما أوليتنا، ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: ارتهنه ملك مصر وأخبروه بالقصة، فقال لهم: ولِمَ أخبرتموه؟ قالوا: إنه أخذنا وقال: أنتم جواسيس حيث كلّمناه بلسان العبرانية، وقصُّوا عليه القصة، وقالوا: يا أبانا ﴿ مُنِعَ مِنّا الكيلُ ﴾، قال الحسن: معناه يمنع منّا الكيل إن لم تحمل أخانا معنا. وقيل: معناه أعطى باسم كل واحد منّا حمل ويمنع منّا الكيل لبنيامين، والمراد بالكيل الطعام لأنه كان يكال، ﴿ فأرْسِلْ مَعَنَا أخانا ﴾، بنيامين، ﴿ نَكْتَلْ ﴾ قرأ حمزة والكسائي: « يكتل » بالياء، يعني: يكيل لنفسه كما نحن نكتال، وقرأ الآخرون: «نكتـل» بالنون، يعني: نكتل نحن وهو الطعام. وقيل: نكتل له، ﴿ وإنّا له لَحافِظُون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ولما فتحوا متاعهم﴾ يعني الذي حملوه من مصر فيحتمل أن يكون المراد به الطعام أو أوعية الطعام ﴿وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾ يعني أنهم وجدوا في متاعهم ثمن الطعام الذي كانوا قد أعطوه ليوسف قد رد عليهم ودس في متاعهم ﴿قالوا يا أبانا ما نبغي﴾ يعني ماذا نبغي وأي شيء نطلب وذلك أنهم كانوا قد ذكروا ليعقوب إحسان ملك مصر إليهم وحثوا يعقوب على إرسال بنيامين معهم فلما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم قالوا أي شيء نطلب من الكلام بعد هذا العيان من الإحسان والإكرام أوفى لنا الكيل ورد علينا الثمن، وأرادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا﴾ يقال مار أهله يميرهم ميراً إذا حمل لهم الطعام وجلبه من بلد آخر إليهم والمعنى إنا نشتري لأهلنا الطعام ونحمله إليهم ﴿ونحفظ أخانا﴾ يعني بنيامين مما تخاف عليه حتى رده إليك ﴿ونزداد كيل بعير﴾ يعني ونزداد لأجل أخينا على أحمالنا حمل بعير من الطعام ﴿ذلك كيل يسير﴾ يعني إن ذلك الحمل الذي نزداد من الطعام هين على الملك لأنه قد أحسن إلينا وأكرمنا بأكثر من ذلك وقيل معناه أن الذي حملناه معنا كيل يسير قليل لا يكفينا وأهلنا.

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

﴿قال﴾ يعني قال لهم يعقوب ﴿لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾ يعني لن أرسل معكم بنيامين حتى

﴿ قالَ هلْ آمَنُكُمْ عليهِ إلاّ كما أَمِنْتُكُمْ على أخيه ﴾، يوسف ﴿ مِنْ قبلُ ﴾، أي: كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بيوسف ما فعلتم؟ ﴿ فاللَّهُ خيرٌ حافظاً ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «حافظاً» بالألف على التفسير، كما يقال هو خير رجلاً، وقرأ الآخرون: «حفظاً» بغير ألف على المصدر، يعني: خيركم حفظاً، يقول: حفظه خير من حفظكم. ﴿ وهو أرحمُ الراحمين ﴾.

﴿ ولمّا فَتَحُوا متاعَهُم ﴾، الذي حملوه من مصر، ﴿ وجدوا بِضَاعَتَهم ﴾، ثم الطعام، ﴿ رُدَّتْ إليهمْ قالُوا يا أبانَا ما نَبْغِي ﴾، أي: ماذا نبغي وأيّ شيء نطلب؟ وذلك أنهم ذكروا ليعقوب عليه السلام إحسان الملك إليهم وحثّوه على إرسال بنيامين معهم، فلما فتحوا المتاع ووجدوا البضاعة، قالوا: يا أبانا ما نبغي، ﴿ هذهِ بضاعَتُنَا رُدّتْ إلينا ﴾، أيُّ شيء نطلب بالكلام فهذا هو العيان من الإحسان والإكرام، أوْفى لنا الكيلَ ورَدَّ علينا الثمن، أرادوا تطييب نفس أبيهم، ﴿ ونميرُ أهلَنا ﴾، أي: نشتري لهم الطعام فنحمله إليهم. يقال: مارَ أهله يمير ميراً إذا حمل إليهم الطعام من بلد آخر. ومثله امتار يمتار امتياراً. ﴿ ونحفظُ أخَانَا ﴾ بنيامين، أي: مما تخاف عليه. ﴿ ونزدَادُ ﴾، على أحمالنا، ﴿ كيلَ بعيرٍ ﴾، أي: حمل بعير يكال لنا من أجله، لأنه كان يعطي باسم كل رجل حمل بعير، ﴿ ذلكَ كيلٌ يسير ﴾، أي: ما حملناه قليل لا يفينا وأهلنا. وقيل: معناه نزداد كيل بعير ذلك كيل يسير لا مؤنة فيه ولا مشقّة. وقال مجاهد: البعير هاهنا الحمار كيل بعير، أي: حمل حمار، وهي لغة، يقال للحمار: بعير. وهم كانوا أصحاب حمر. والأول أصحّ أنه البعير المعروف.

﴿ قال ﴾ لهم يعقوب، ﴿ لنْ أُرْسِلَهُ معكم حتى تُؤْتُون ﴾، تعطون ﴿ موثقاً ﴾، أي: ميثاقاً وعهداً، ﴿ من

تؤتون عهد الله وميثاقه والموثق العهد المؤكد باليمين، وقيل هو المؤكد بإشهاد الله عليه ﴿لتأتنني به﴾ دخلت اللام هنا لأجل اليمين وتقديره حتى تحلفوا بالله لتأتنني به ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ قال مجاهد: إلا أن تهلكوا جميعاً فيكون عذراً لكم عندي، لأن العرب تقول أحيط بفلان إن هلك أو قارب هلاكه.

وقال قتادة: إلا أن تغلبوا جميع فلا تقدروا على الرجوع ﴿فلما آتوه موثقهم﴾ يعني فلما أعطوه عهدهم وحلفوا له ﴿قال الله على ما نقول وكيل﴾ يعني قال يعقوب الله شاهد على ما نقول كأن الشاهد وكيل بمعنى أنه موكول إليه هذا العهد، وقيل وكيل بمعنى حافظ.

قال كعب الأحبار: لما قال يعقوب «فالله خير حافظاً» قال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما بعد ما توكلت علي وفوضت أمرك إليّ» وذلك أنه لما اشتد بهم الأمر وضاق عليهم الوقت وجهدوا أشد الجهد لم يجد يعقوب بداً من إرسال بنيامين معهم فأرسله معهم متوكلاً على الله ومفوضاً أمره إليه.

قوله عز وجل إخباراً عن يعقوب ﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ وذلك أنهم لما خرجوا من عند يعقوب قاصدين مصر قال لهم يا بني لا تدخلوا يعني مدينة مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب، وقال السدي: أراد الطرق لا الأبواب يعني من طرق متفرقة وإنما أمرهم بذلك لأنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا قد أعطوا جمالاً وقوة وامتداد قامة وكانوا أولاد رجل واحد فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم المدينة لئلا يصابوا بالعين فإن العين حق، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين (ق).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن العين حق» زاد البخاري «ونهى عن الوشم» (م) عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغتسلوا» عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت «كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين» أخرجه أبو داود.

قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى: قال المازري: أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقال العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد عقولهم أن كل معنى يكون مخالفاً في نفسه ولا يؤدي إلى قلب حقيقة ولا إفساد دليل فإنه من مجوزات العقول وإذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وإنكاره وقيل لا بد من فرق بين تكذيبهم بهذا وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة قال وقد زعم بعض الطبائعيين مثبتين للعين تأثيراً أن العين تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد قالوا ولا يمتنع هذا كما لا يمتنع انبعاث قوة سمية من الأفعى والعقرب تتصل بالملدوغ فيهلك وإن كان غير محسوس لنا فكذا العين، قال المازري: وهذا غير مسلم لأنا بينا في كتب علم الكلام أنه لا فاعل إلا الله تعالى وبينا فساد القول بالطبائع وبينا أن المحدث لا يفعل في غيره شيئاً، فإذا تقرر هذا بطل ما قالوه ثم تقول هذا المنبعث من العين إما جوهر وإما عرض فباطل أن يكون عرضاً لأنه

الله ﴾، والعهد الموثق: المؤكّد بالقسم. وقيل: المؤكد بالقسم. وقيل: المؤكد بإشهاد الله على نفسه ﴿ لتأتنّني به ﴾، وأدخل اللام فيه لأن معنى الكلام اليمين، ﴿ إلاّ أنْ يُحاطَ بكم ﴾، قال مجاهد: إلاّ أن تهلكوا جميعاً. وقال قتادة: إلاّ أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك. وفي القصة: أن الأخوة ضاق الأمر عليهم وجهدوا أشدّ الجهد، فلم يجد يعقوب بدّاً من إرسال بنيامين معهم. ﴿ فلمّا أتَوْهُ مَوْثِقَهم ﴾، أعطوه عهودهم، ﴿ قال ﴾، يعني: يعقوب، ﴿ الله على ما نقولُ وكيلٌ ﴾، شاهد. وقيل: حافظ. قال كعب: لمّا قال يعقوب فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، قال الله عزّ وجلّ: وعزّتي لأردنّ عليك كليهما بعدما توكّلتَ عليّ.

﴿ وقالَ ﴾، لهم يعقوب لمّا أرادوا الخروج من عنده، ﴿ يا بنيَّ لا تدخلُوا من بابٍ واحدٍ وادْخُلوا من أبوابٍ

لا يقبل الانتقال وباطل أن يكون جوهراً لأن الجواهر متجانسة فليس بعضها بأن يكون مفسداً لبعض بأولى من عكسه فبطل ما قالوه وأقرب طريقة قالها من ينتحل الإسلام منهم إن قالوا لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من عين العائن لتتصل بالمعين فتتخلل مسام جسمه فيخلق الله عز وجل الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السموم عادة أجراها الله عز وجل وليست ضرورة ولا طبيعية ألجأ الفعل إليها قال ومذهب أهل السنة أن المعين إنما يفسد ويهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالى أجرى الله تعالى العادة بأن يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص شخصاً آخر، وهل ثم جواهر أم لا فهذا من مجوزات العقول لا يقطع فيه بواحد من الأمرين وإنما يقطع بنفي الفعل عنها وإضافته إلى الله تعالى فمن قطع من أطباء الإسلام بانبعاث الجواهر فقد أخطأ في قطعه وإنما هو من الجائزات هذا ما يتعلق بعلم الأصول وأما ما يتعلق بعلم الفقه فإن الشرع قد ورد بالوضوء لهذا الأمر في حديث سهل بن حنيف لما أصيب بالعين عند اغتساله رواه مالك في الموطأ.

وأما صفة وضوء العائن فمذكور في كتب شرح الحديث ومعروف عند العلماء فيطلب من هناك فليس هذا موضعه والله أعلم.

وقال وهب بن منبه: في قوله ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ أنه خاف أن يغتالوا لما ظهر لهم في أرض مصر من التهمة حكاه ابن الجوزي عنه وقيل إن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان قد علم أن ملك مصر هو ولده يوسف عليه الصلاة والسلام إلا أن الله تعالى لم يأذن له في إظهاره ذلك فلما بعث أبناءه إليه قال لهم: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى أخيه يوسف في وقت الخلوة قبل إخوته والقول الأول أصح أنه خاف عليهم من العين ثم رجع إلى علمه وفوض أمره إلى الله تعالى بقوله: ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ يعني إن كان الله قد قضى عليكم بقضاء فهو يصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين فإن المقدور كائن ولا ينفع حذر من قدر ﴿إن الحكم إلا لله﴾ يعني وما الحكم إلا لله وحده لا شريك له فيه وهذا تفويض من يعقوب في أموره كلها إلى الله تعالى: ﴿عليه توكلت﴾ يعني عليه اعتمدت في أموري كلها لا على غيره ﴿وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ يعني من الأبواب المتفرقة وكان لمدينة مصر وقيل مدينة الفرماء أربعة أبواب فدخلوا من أبوابها كلها ﴿ما كان يغني عنهم من الله من شيء﴾ وهذا تصديق من الله سبحانه وتعالى ليعقوب فيما قال وما أغني عنكم من الله من شيء ﴿إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ هذا استثناء منقطع ليس من الأول في شيء ومعناه لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها وهو أنه أشفق عليهم إشفاق الآباء على الأبناء وذلك أنه خاف عليهم من العين أو خاف عليهم حسد أهل مصر أو خاف أن لا يردوا عليه فأشفق من هذا كله أو بعضه ﴿وأنه﴾ يعني يعقوب

مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾، وذلك أنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا أعطوا جمالاً وقوّةً وامتداد قامة، وكانوا ولد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرّقوا في دخولهم لئلا يُصابوا بالعين، فإن العين حق، وجاء في الأثر: «إنّ العينَ تُدخلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القدرَ». وعن إبراهيم النخعي أنه قال ذلك لأنه كان يرجو أن يروا يوسف في التفرّق. والأول أصح. ثم قال: **﴿ وما أغني عنكم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شيء ﴾**، معناه: إن كان الله قضى فيكم قضاء فيصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين، فإن المقدور كائن والحذر لا ينفع عن القدر، **﴿ إن الحُكم ﴾**، ما الحكم، **﴿ إلاّ للهِ ﴾**، هذا تفويض يعقوب أموره إلى الله، **﴿ عليهِ توكّلتُ ﴾**، اعتمدتُ، **﴿ وعليهِ فليتوكل المتوكِّلون ﴾**.

﴿ ولمّا دخلُوا من حيثُ أمرهم أبوهم ﴾ أي: من الأبواب المتفرّقة. وقيل: كانت المدينة مدينة الفرماء ولها أربعة أبواب، فدخلوها من أبوابها، **﴿ ما كانَ يُغني ﴾**، يدفع **﴿ عنهم منَ اللَّهِ من شيء ﴾**، صَدقَ اللَّهُ تعالى يعقوبَ فيما قال، **﴿ إلاّ حاجةً ﴾**، مراداً، **﴿ في نفس يعقوبَ قَضَاهَا ﴾**، أشفق عليهم إشفاق الآباء على أبنائهم وجرى

﴿لذو علم﴾ يعني صاحب علم ﴿لما علمناه﴾ يعني لتعليمنا إياه ذلك العلم، وقيل: معناه وإنه لذو علم للشيء الذي علمناه والمعنى أنا لما علمناه هذه الأشياء حصل له العلم بتلك الأشياء، وقيل: إنه لذو حفظ لما علمناه وقيل إنه كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل، وقيل: إنه لعامل بما علمناه قال سفيان من لا يعمل بما يعلم لا يكون عالماً ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعني لا يعلمون ما كان يعلم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم وقال ابن عباس: لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه﴾ قال المفسرون: لما دخل إخوة يوسف على يوسف قالوا أيها الملك هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي ثم أنزلهم وأكرم نزلهم ثم إنه أضافهم وأجلس كل اثنين على مائدة فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه فقال لهم يوسف لقد بقي هذا وحده فقالوا كان له أخ فهلك قال لهم فأنا أجلسه معي فأخذه فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك وقال كل اثنين منكم ينامان على فراش واحد فبقي بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام عندي على فراشي فنام بنيامين مع يوسف على فراشه فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح فلما أصبح قال لهم إني أرى هذا الرجل وحيداً ليس معه ثان وسأضمه إليّ فيكون معي في منزلي ثم إنه أنزلهم وأجرى عليهم الطعام فقال روبيل ما رأينا مثل هذا فذلك قوله آوى إليه أخاه يعني ضمه وأنزله معه في منزله فلما خلا به قال له يوسف ما اسمك قال بنيامين قال وما بنيامين قال ابن المشكل وذلك أنه لما ولدته أمه هلكت قال وما اسم أمك قال راحيل قال فهل لك من ولد قال عشر بنين قال فهل لك من أخ لأمك قال كان لي أخ فهلك قال يوسف

الأمر عليه، ﴿ وإنّه ﴾، يعني: يعقوب عليه السلام، ﴿ لَذُو علمٍ ﴾، يعني: كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل، ﴿ لِمَا عَلَّمناهُ ﴾، أي: لتعليمنا إيّاه. وقيل: إنه لعامل بما علم. قال سفيان: مَن لا يعمل بما يعلم لا يكون عالماً. وقيل: إنه لذو حفظ لِمَا علّمناه، ﴿ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمُون ﴾، ما يعلم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم. وقال ابن عباس: لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه.

﴿ ولمّا دخلُوا على يوسفَ ﴾، قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به، فقال: أحسنتم وأصبتم، وستجدون جزاء ذلك عندي، ثم أنزلهم فأكرم منزلتهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لأجلسني معه، فقال يوسف: لقد بقي أخوكم هذا وحيداً فأجلسه معه على مائدته فجعل يُواكله فلمّا كان الليل أمر لهم بمثل، وقال: لِيَنَم كلّ أخوين منكم على مثال، فبقي بنيامين وحده، فقال يوسف: هذا ينام معي على فراشي، فنام معه فجعل يوسف يضمّه إليه ويشمّ ريحه حتى أصبح، وجعل روبين يقول: ما رأينا مثل هذا، فلما أصبح، قال لهم: إني أرى هذا الرجل ليس معه ثانٍ فسأضمّه إليّ فيكون منزله معي، ثم أنزلهم منزلاً وأجرى عليهم الطعام، وأنزل أخاه لأمه، فذلك قوله تعالى: ﴿ آوى إليه أخاه ﴾، أي: ضمّ إليه أخاه فلما خلا به قال: ما اسمك؟ قال: بنيامين، قال: وما بنيامين؟ قال: ابن المثكل، وذلك أنه لمّا ولد هلكت أُمه قال: وما اسم أُمك؟ قال: راحيل، قال: راحيل بنتُ مَن؟ قال: راحيل بنت لاوى، قال: فهل لك من ولد؟ قال: نعم عشرة بنين، قال: فهل لك من أخ لأمك، قال: كان لي أخ فهلك، قال يوسف: أتحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك، فقال بنيامين: ومَن يجد أخاً مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا

أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال بنيامين ومن يجد أخاً مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه الصلاة والسلام وقام إليه وعانقه و ﴿قال﴾ له ﴿إني أنا أخوك﴾ يعني يوسف ﴿فلا تبتئس﴾ يعني لا تحزن وقال أهل اللغة تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس ﴿بما كانوا يعملون﴾ يعني فلا تحزن بشيء فعلوه بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا ونجانا من الهلاك وجمع بيننا، وقيل: إن يوسف صفح عن إخوته وصفا لهم فأراد أن يجعل قلب أخيه بنيامين مثل قلبه صافياً عليهم ثم قال يوسف لأخيه بنيامين لا تعلم إخوتك بشيء مما أعلمتك به ثم إنه أوفى لإخوته الكيل وزاد لكل واحد حمل بعير ولبنيامين حمل بعير باسمه ثم أمر بسقاية الملك فجعلت في رحل أخيه بنيامين، قال السدي: وهو لا يشعر وقال كعب: لما قال له يوسف إني أنا أخوك قال بنيامين أنا لا أفارقك فقال يوسف قد علمت اغتمام والدي عليّ فإذا حبستك عندي ازداد غمه ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى ما لا يحمد قال لا أبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقك قال فإني أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليكم بالسرقة ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك قال فافعل ما شئت فذلك قوله عز وجل:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه﴾ وهي المشربة التي كان الملك يشرب فيها، قال ابن عباس: كانت من زبرجد، وقال ابن إسحاق كانت من فضة وقيل من ذهب، وقال عكرمة: كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر جعلها يوسف مكيالاً لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها والسقاية والصواع اسم لإناء واحد وجعلت في وعاء طعام أخيه بنيامين ثم ارتحلوا راجعين إلى بلادهم فأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلاً وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم أرسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم ﴿ثم أذن مؤذن﴾ يعني نادى مناد وأعلم معلم.

راحيل، فبكى يوسف عند ذلك وقام إليه وعانقه، وقال: ﴿ قال إنّي أنا أخوكَ فلا تَبْتَئِسْ ﴾، أي: لا تحزن، ﴿ بما كانُوا يعملون﴾، بشيء فعلوه بنا فيما مضى، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا، ولا تُعلِمهم شيئاً مما أعلمتك، ثم أوفى يوسف لأخوته الكيل وحمل لهم بعيراً بعيراً ولبنيامين بعيراً باسمه، ثم أمر بسقاية الملك فجعلت في رحل بنيامين.
قال السدي: جعلت السقاية في رحل أخيه، والأخ لا يشعر، وقال كعب: لمّا قال له يوسف إني أنا أخوك، قال بنيامين: أنا لا أفارقك، فقال يوسف: قد علمت اغتمام والدي بي وإذا حبستك ازداد غمّه ولا يمكنني هذا إلّا بعد أن أُشهِّرك بأمر فظيع وأنسبك إلى ما لا يحمل، قال: لا أُبالي فافعل ما بدا لك فإني لا أفارقكَ، قال: فإني أدسُّ صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بالسرقة ليُهيّأ لي ردّك بعد تسريحك، وقال: فافعل كما تريد.

فذلك قوله تعالى: ﴿ فلمّا جهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ في رحلِ أخيهِ ﴾، وهي المشربة التي كان الملك يشرب منها. قال ابن عباس: كانت من زبرجد. وقال ابن إسحق: كانت من فضة. وقيل: من ذهب، وقال عكرمة: كانت مشربة من فضة مرصّعة بالجواهر، جعلها يوسف مكيالاً لئلا يُكال بغيرها، وكان يشرب منها. والسقاية والصواع واحد، جعلت في وعاء طعام بنيامين، ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلاً. وقيل: حتى خرجوا من العمارة، ثم بعث من خلفهم مَن استوقفهم وحبسهم. ﴿ ثم أذّن مُؤذِّنٌ ﴾، نادى مُنادٍ، ﴿ أيتُها العِيرُ ﴾،

والأذان في اللغة الإعلام ﴿أيتها العير﴾ وهي القافلة التي في الأحمال، وقال مجاهد: العير الحمير والبغال، وقال أبو الهيثم: كل ما سير عليه من الإبل والحمير والبغال فهي عير وقول من قال إنها الإبل خاصة باطل وقيل العير الإبل التي تحمل عليها الأحمال سميت بذلك لأنها تعير أي تذهب وتجيء وقيل هي قافلة الحمير ثم كثر ذلك في الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير وقوله أيتها العير أراد أصحاب العير ﴿إنكم لسارقون﴾ فقفوا والسرقة أخذ ما ليس له أخذه في خفاء.

فإن قلت هل كان هذا النداء بأمر يوسف أم لا فإن كان بأمره فكيف يليق بيوسف مع علو منصبه وشريف رتبته من النبوة والرسالة أن يتهم أقواماً وينسبهم إلى السرقة كذباً مع علمه ببراءتهم من ذلك وإن كان ذلك النداء بغير أمره فهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة التي نسبوا إليها.

قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة:

أحدها: أن يوسف لما أظهر لأخيه أنه أخوه قال لست أفارقك قال لا سبيل إلى ذلك إلا بتدبير حيلة أنسبك فيها إلى ما يليق قال رضيت بذلك فعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام بل قد رضي به فلا يكون ذنباً.

الثاني: أن يكون المعنى إنكم لسارقون ليوسف من أبيه إلا أنهم ما أظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفي المعاريض مندوحة عن الكذب.

الثالث: يحتمل أن يكون المنادي ربما قال ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير لا يكون كذباً.

الرابع: ليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف وهو الأقرب إلى ظاهر الحال لأنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك أحد غيرهم وغلب على ظنهم أنهم هم الذين أخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ قال أصحاب الأخبار لما وصل الرسل إلى إخوة يوسف قالوا لهم ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ونوف إليكم الكيل ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك قالوا فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى قالوا وأقبلوا عليهم أي عطفوا على المؤذن وأصحابه ماذا أي ما الذي تفقدون والفقدان ضد الوجود ﴿قالوا﴾ يعني المؤذن وأصحابه ﴿نفقد صواع الملك﴾ الصاع الإناء الذي يكال به وجمعه أصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان ﴿ولمن جاء به﴾ يعني بالصواع ﴿حمل بعير﴾ يعني من الطعام ﴿وأنا به زعيم﴾ أي كفيل قال الكلبي الزعيم هو الكفيل بلسان أهل اليمن وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم وقد حكم رسول الله ﷺ بها في قوله «الحميل غارم» والحميل الكفيل.

وهي القافلة التي فيها الأحمال. قال مجاهد: كانت العير حميراً. وقال الفرّاء: كانوا أصحاب إبل. ﴿ إِنَّكم لَسَارِقُون ﴾، قفوا. قال: قالوه من غير أمر يوسف. وقيل: قالوه بأمره، وكان هفوة منه. وقيل: قالوه على تأويل أنهم سرقوا يوسف من أبيه، فلما انتهى إليهم الرسول، قال لهم: ألم نكرم ضيافتكم ونُحسِن منزلتكم ونوفِّكم كيلكم ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى، قالوا: وما ذاك؟ قالوا: سقاية الملك فقدناها، ولا نَتَّهِمْ عليها غيركم.

فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ قالُوا وأقبلُوا عليهم ﴾، عطفوا على المؤذّن وأصحابه، ﴿ ماذا تَفْقِدُون ﴾، ما الذي ضلّ عنكم. والفقدان: ضدّ الوجدان.

﴿ قالوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الملكِ لِمَنْ جاء به حِمْلُ بعيرٍ ﴾، من الطعام، ﴿ وأنا بهِ زعيمٌ ﴾، كفيل يقوله المؤذّن.

﴿ قالوا ﴾، يعني: إخوة يوسف، ﴿ تَاللَّهِ ﴾ أي: والله، وخصّت هذه الكلمة بأن أُبدلت الواو فيها بالتاء في

فإن قلت كيف تصح هذه الكفالة مع أن السارق لا يستحق شيئاً.

قلت لم يكونوا سراقاً في الحقيقة فيحمل ذلك على مثل رد الضائع فيكون جعالة أو لعل مثل هذه الكفالة كانت جائزة عندهم في ذلك الزمان فيحمل عليه ﴿قالوا﴾ يعني إخوة يوسف ﴿تالله﴾ التاء بدل من الواو ولا تدخل إلا على اسم الله في اليمين خاصة تقديره والله ﴿لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ قال المفسرون: إن أخوة يوسف حلفوا على أمرين:

أحدهما: أنهم ما جاؤوا لأجل الفساد في الأرض والثاني أنهم ما جاؤوا سارقين وإنما قالوا هذه المقالة لأنه كان قد ظهر من أحوالهم ما يدل على صدقهم وهو أنهم كانوا مواظبين على أنواع الخير والطاعة والبر حتى بلغ من أمرهم أنهم شدوا أفواه دوابهم لئلا تؤذي زرع الناس ومن كانت هذه صفته فالفساد في حقه ممتنع.

وأما الثاني: وهو أنهم ما كانوا سارقين فلأنهم قد كانوا ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم ولم يستحلوا أخذها ومن كانت هذه صفته فليس بسارق فلأجل ذلك قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين فلما تبينت براءتهم من هذه التهمة ﴿قالوا﴾ يعني أصحاب يوسف وهو المنادي وأصحابه ﴿فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾ يعني فما جزاء السارق إن كنتم كاذبين في قولكم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين.

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

﴿قالوا﴾ يعني إخوة يوسف ﴿جزاؤه من وجد في رحله﴾ يعني جزاء السارق الذي وجد في رحله أن يسلم برقبته إلى المسروق منه فيسترقه سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق وكان في حكم ملك مصر أن يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق وكان هذا في شرعهم في ذلك الزمان يجري مجرى القطع في شرعنا فأراد يوسف أن يأخذ بحكم أبيه في السارق فلذلك رد الحكم إليهم، والمعنى أن جزاء السارق أن يستعبد سنة جزاء له على جرمه وسرقته ﴿فهو جزاؤه﴾ يعني هذا الجزاء جزاؤه ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ يعني مثل هذا الجزاء وهو أن يسترقّ السارق سنة نجزي الظالمين ثم قيل إن هذا الكلام من بقية كلام إخوة يوسف وقيل هو من كلام أصحاب يوسف فعلى هذا إن

اليمين دون سائر أسماء الله تعالى. ﴿ لقدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ في الأرض ﴾، لنسرق في أرض مصر، فإن قيل: كيف قالوا لقد علمتم؟ ومن أين علموا ذلك؟ قيل: قالوا قد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، فإنّا منذ قطعنا هذا الطريق لم نَرْزَأ أحداً شيئاً فاسألوا عنّا مَن مررنا به، هل ضررنا أحداً. وقيل: لأنهم ردّوا البضاعة التي جعلت في رِحالهم، قالوا: فلو كنّا سارقين ما رددناها. وقيل: قالوا ذلك لأنهم كانوا معروفين بأنهم لا يتناولون ما ليس لهم، وكانوا إذا دخلوا مصر كمّموا أفواه دوابّهم كيلا تتناول شيئاً من حروث الناس، ﴿ وما كنّا سارقين ﴾.

﴿ قالوا ﴾، يعني: المنادي وأصحابه ﴿ فما جزاؤُهُ ﴾، يعني: ما جزاء السارق، ﴿ إنْ كنتم كاذبين ﴾، في قولكم وما كنّا سارقين.

﴿ قالوا ﴾، يعني: أخوة يوسف، ﴿ جزاؤُه مَنْ وُجِدَ في رحلِهِ فهو جزاؤُه ﴾، أي: فالسارق جزاؤه أن يُسلّم السارق بسرقته إلى المسروق منه فيسترقّه سنة، وكان ذلك سُنّة آل يعقوب في حكم السارق، وكان حكم ملك مصر

إخوة يوسف لما قالوا جزاء السارق أن يسترق سنة قال أصحاب يوسف كذلك نجزي الظالمين يعني السارقين.

قوله عز وجل: ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾ قال أهل التفسير إن إخوة يوسف لما أقروا أن جزاء السارق أن يسترق سنة قال أصحاب يوسف لا بد من تفتيش رحالكم فردوهم إلى يوسف فأمر بتفتيشها بين يديه فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه لإزالة التهمة فجعل يفتش أوعيتهم واحداً واحداً.

قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر وعاء إلا استغفر تأثماً مما قذفهم به حتى لم يبق إلا رحل بنيامين قال ما أظن هذا أخذ شيئاً قال إخوته والله لا نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى: ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ إنما أنّث الكناية لأنه ردها إلى السقاية، وقيل: إن الصواع يذكر ويؤنث فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوة يوسف رؤوسهم من الحياء وأقبلوا على بنيامين يلومونه ويقولون له ما صنعت بنا فضحتنا وسودت وجوهنا يا بني راحيل ما زال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصواع، فقال بنيامين: بل بنو راحيل ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية إن الذي وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم قالوا فأخذ بنيامين رقيقاً، وقيل: إن المنادي وأصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحل بنيامين فأخذه برقبته وردوه إلى يوسف ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ يعني ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف وهو إشارة إلى الحكم الذي ذكره إخوة يوسف باسترقاق السارق أي مثل ذلك الحكم الذي ذكره إخوة يوسف حكمنا ليوسف ولفظ الكيد مستعار للحيلة والخديعة وهذا في حق الله عز وجل محال فيجب تأويل هذه اللفظة بما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى فنقول الكيد هنا جزاء الكيد يعني كما فعلوا بيوسف بأن حكموا أن جزاء السارق أن يسترق كذلك ألهمنا يوسف حتى دس الصواع في رحل أخيه ليضمه إليه على ما حكم به إخوته، وقال ابن الأعرابي: الكيد التدبير بالباطل وبحق فعلى هذا يكون المعنى كذلك دبرنا ليوسف وقيل: صنعنا ليوسف، وقال ابن الأنباري: كدنا وقع خبراً من الله عز وجل عليّ خلاف معناه في أوصاف المخلوقين فإنه إذا أخبر به

أن يُضرَب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده، فردّ الحكم إليهم ليتمكّن من حبسه عنده على حكمهم. ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾، الفاعلين ما ليس لهم فعله من سرقة مال الغير، فقال الرسول عند ذلك: لا بدّ من تفتيش أمتعتكم، فأخذ في تفتيشها. ورُوِيَ أنه ردّهم إلى يوسف فأمر بتفتيش أوعيتهم بين يديه.

﴿ فبدَأ بأوعيتِهم ﴾، لإزالة التّهمة، ﴿ قبلَ وِعاءِ أخيه ﴾، فكان يفتش أوعيتهم واحداً واحداً. قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر في وعاء إلّا استغفر الله تأثّماً مما قذفهم به حتى إذا لم يبقَ إلّا رَحْل بنيامين، قال: ما أظن هذا أخذه، فقال إخوته: والله لا نترك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا، فلما فتحوا متاعه استخرجوه منه، فذلك قوله تعالى: ﴿ ثم استخرجَها مِنْ وِعاءِ أخيهِ ﴾، وإنما أنّث الكناية في قوله استخرجها، والصُّوَاع مذكّر، بدليل قوله: ﴿ ولِمَن جاء به حمل بعير ﴾ [يوسف: ٧٢] لأنه ردّ الكناية ههنا إلى السقاية. وقيل: الصواع يذكّر ويؤنّث، فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا على بنيامين وقالوا: ما الذي صنعت فضحتنا وسوّدت وجوهنا يا بني راحيل؟ ما يزال لنا منكم البلاء متى أخذت هذا الصواع، فقال بنيامين: بل بنو راحيل لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية والله قد وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم، فأخذوا بنيامين رقيقاً. وقيل: إن ذلك الرحل أخذ برقبته وردّه إلى يوسف كما يرد السراق، ﴿ كذلِكَ كِدْنَا ليوسفَ ﴾، والكيد ههنا جزاء الكيد، يعني: كما فعلوا في الابتداء بيوسف من الكيد فعلنا بهم. وقد قال يعقوب عليه السلام ليوسف: ﴿ فيكيدُوا لكَ كيداً ﴾ [يوسف: ٥]، فكدنا ليوسف في

عن مخلوق كان تحته احتيال وهو في موضع فعل الله معرى من المعاني المذمومة ويخلص بأنه وقع بمن يكيده تدبير ما يريده به من حيث لا يشعر ولا يقدر على دفعه فهو من الله مشيئة بالذي يكون من أجل أن المخلوق إذا كاد المخلوق في ستر عنه ما ينويه ويضمره له من الذي يقع به من الكيد فهو من الله تعالى أستر إذ هو ما ختم به عاقبته والذي وقع بإخوة يوسف من كيد الله هو ما انتهى إليه شأن يوسف من ارتفاع المنزلة وتمام النعمة وحيث جرى الأمر على غير ما قدر من إهلاكه وخلوص أبيهم له بعده وكل ذا جرى بتدبير الله تعالى وخفي لطفه سماه كيداً لأنه أشبه كيد المخلوقين فعلى هذا يكون كيد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام عائداً إلى جميع ما أعطاه الله وأنعم به عليه على خلاف تدبيره وإخوته من غير أن يشعروا بذلك وقوله تعالى: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ يعني في حكم الملك وقضائه لأنه كان في حكم الملك أن السارق يضرب ويغرم ضعفي قيمة المسروق يعني في حكم الملك وقضائه فلم يتمكن يوسف من حبس أخيه عنده في حكم الملك فالله تعالى ألهم يوسف ما دبره حتى وجد السبيل إلى ذلك ﴿إلا أن يشاء الله﴾ يعني أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته حتى جرى الأمر على وفق المراد ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ يعني بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته وفي هذه الآية دلالة على أن العلم الشريف أشرف المقامات وأعلى الدرجات لأن الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته على إخوته بالعلم وبما ألهمه على وجه الهداية والصواب في الأمور كلها ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ قال ابن عباس: فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى فوق كل عالم لأنه هو الغني بعلمه عن التعليم وفي الآية دليل على أن إخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم، قال ابن الأنباري: يجب أن يتهم العالم نفسه ويستشعر التواضع لمواهب ربه تعالى ولا يطمع نفسه في الغلبة لأنه لا يخلو عالم من عالم فوقه.

۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿قالوا﴾ يعني إخوة يوسف ﴿إن يسرق﴾ يعني بنيامين الصواع ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعني يوسف ظاهر الآية يقتضي أن إخوة يوسف قالوا للملك إن هذا الأمر ليس بغريب منه فإن أخاه الذي هلك كان سارقاً

أمرهم. والكيد من الخلق: الحيلة، ومن الله: التدبير بالحق. وقيل: كذباً ألهمنا. وقيل: دبرنا. وقيل: أردنا. ومعناه: صنعنا ليوسف حتى ضمّ أخاه إلى نفسه، وحال بينه وبين إخوته. ﴿ ما كان لِيَأْخُذَ أخاه ﴾ فيضمّه إلى نفسه، ﴿في دينِ الملكِ﴾، أي: في حكمه. قال قتادة وقال ابن عباس: في سلطانه. ﴿إلاّ أن يشاءَ الله﴾، يعني: إن يوسف لم يكن يتمكّن من حبس أخيه في حكم الملك لولا ما كِدْنَا له بلطفنا حتى وجد السبيل إلى ذلك، وهو ما أُجري على ألسنة الإخوة أن جزاء السارق الاسترقاق، فحصل مراد يوسف بمشيئة الله تعالى. ﴿ نرفعُ درجاتٍ مَّنْ نشاءُ ﴾، بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته. وقرأ يعقوب «يرفع» و«يشاء» بالياء فيهما، وإضافة درجات إلى ﴿ من ﴾ في هذه السورة. والوجه أن الفعل فيهما مسند إلى الله تعالى، وقد تقدّم ذكره في قوله: ﴿ إلاّ أن يشاءَ اللّهُ ﴾ أي: يرفع الله درجات مَن يشاء. وقرأ الباقون بالنون فيهما، إلاّ أن الكوفيين قرؤوا: «درجات» بالتنوين، ومَنْ سِواهم بالإضافة، أي: نرفع به نحن، والواقع أيضاً هو الله تعالى: ﴿ وفوقَ كلِّ ذِي علمٍ عليمٌ ﴾. قال ابن عباس: فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى، فإن الله تعالى فوق كل عالم.

﴿ قالوا إنْ يَسْرِقْ فقدْ سَرقَ أَخٌ له من قبل ﴾، يريدون أخاً له من أمه يعنون به يوسف، واختلفوا في السرقة

أيضاً وكان غرضهم من هذا الكلام أنّا لسنا على طريقته ولا على سيرته بل هذا وأخوه كان على هذه الطريقة وهذه السيرة لأنهما من أم أخرى غير أمنا.

واختلفوا في السرقة التي نسبوها إلى يوسف عليه الصلاة والسلام فقال سعيد بن جبير وقتادة: وكان لجده أبي أمه صنم وكان يعبده فأخذه يوسف وكسره وألقاه في الطريق لئلا يعبده، وقال مجاهد: إن يوسف جاءه سائل يوماً فأخذ بيضة من البيت فناولها له، وقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير الذي كان في بيت يعقوب فأعطاها سائلاً، وقال وهب: كان يخبىء الطعام من المائدة للفقراء.

وذكر محمد بن إسحاق: إن يوسف كان عند عمته ابنة إسحاق بعد موت أمه راحيل فحضنته عمته وأحبته حباً شديداً فلما ترعرع وكبر وقعت محبة يعقوب عليه فأحبه فقال لأخته يا أختاه سلمي إلي يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة واحدة فقالت لا أعطيكه فقال لها والله ما أنا بتاركه عندك فقالت دعه عندي أياماً أنظر إليه لعل ذلك يسليني عنه ففعل ذلك فعمدت إلى منطقة كانت لإسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكانت أكبر أولاد إسحاق فكانت عندها فشدت المنطقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت لقد فقدت منطقة إسحاق ففتشوا أهل البيت فوجدوها مع يوسف فقالت إنه لسلم لي يعني يوسف فقال يعقوب إن كان قد فعل فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت فلذلك قال إخوة يوسف إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل يعنون هذه السرقة قال ابن الأنباري: وليس في هذه الأفعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها تشبه السرقة فعيروه بها عند الغضب **﴿فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم﴾** في هاء الكناية ثلاثة أقوال: **أحدها**: أن الضمير يرجع إلى الكلمة التي بعدها وهي قوله تعالى **﴿قال﴾** يعني يوسف **﴿أنتم شر مكاناً﴾** روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس والثاني أن الضمير يرجع إلى الكلمة التي قالوها في حقه وهي قولهم فقد سرق أخ له من قبل وهذا معنى قول أبي صالح عن ابن عباس، فعلى هذا القول يكون المعنى فأسر يوسف جواب الكلمة التي قالوها في حقه ولم يجبهم عليها والثالث أن الضمير يرجع إلى الحجة فيكون المعنى على هذا القول فأسر يوسف الاحتجاج عليهم في ادعائهم عليه السرقة ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً يعني منزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة لأنه لم يكن من يوسف سرقة في الحقيقة وخيانتكم حقيقة **﴿والله أعلم بما تصفون﴾** يعني بحقيقة ما تقولون.

قوله عز وجل: **﴿قالوا﴾** يعني إخوة يوسف **﴿يا أيها العزيز﴾** يخاطبون بذلك الملك **﴿إنه له أباً شيخاً كبيراً﴾** قال أصحاب الأخبار والسير إن يوسف عليه الصلاة والسلام لما استخرج الصواع من رحل أخيه بنيامين نقره وأدناه إلى

التي وصفوا بها يوسف، فقال سعيد بن جبير وقتادة: كان لجدّه ابن أمه صنم يعبده فأخذه سرّاً وكسره وألقاه في الطريق لئلا يعبد. وقال مجاهد: إن يوسف جاءه سائل يوماً فأخذ بيضة من البيت فناولها السائل. وقال سفيان بن عيينة: أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فأعطاها سائلاً. وقال وهب: كان يخبّىء الطعام من المائدة للفقراء. وذكر محمد بن إسحق: أن يوسف كان عند عمّته ابنة إسحق بعد موت أُمه راحيل، فحضنته عمّته وأحبّته حبّاً شديداً، فلما ترعرع وقعت محبة يعقوب عليه، فأتاها وقال: يا أُختاه سلّمي إليّ يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عنّي ساعة، قالت: لا والله، فقال: والله ما أنا بتاركه، فقالت: دعه عندي أياماً أنظر إليه لعلّ ذلك يسلّيني عنه، ففعل ذلك فعمدت إلى منطقة لإسحق كانوا يتوارثونها بالكبر، فكانت عندها لأنهـا كانـت أكبر ولد إسحق، فحزمت المنطقة على يوسف تحت ثيابه وهو صغير، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحق اكشفوا أهل البيت فكشفوا فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لَسُلَّم لي، فقال يعقوب: إن كان فعل ذلك فهو سلّم لك، فأمسكتهُ حتى ماتت، فذلك الذي قال إخوة يوسف: **﴿ إنْ يَسْرِقْ فقدْ سَرقَ أخٌ له من قبلُ ﴾**، **﴿ فأسَرّها ﴾**، أضمرها **﴿ يوسفُ**

أذنه ثم قال إن صواعي هذا يخبرني أنكم اثنا عشر رجلاً لأب واحد وإنكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه قال بنيامين أيها الملك سل صواعك هذا من جعله في رحلي فنقره ثم قال إن صواعي غضبان وهو يقول كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت قالوا فغضب روبيل لذلك وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء وكان إذا صاح ألقت كل حامل حملها إذا سمعت صوته وكان من هذا إذا مسه أحد من ولد يعقوب يسكن غضبه وكان أقوى الإخوة وأشدهم، وقيل: كانت هذه صفة شمعون بن يعقوب، وقيل: إنه قال لإخوته كم عدد الأسواق بمصر قالوا عشرة قال اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق فدخلوا على يوسف فقال روبيل أيها الملك لتردن علينا أخانا أو لأصيحن صيحة لا يبقى بمصر امرأة حامل إلا وضعت ولدها وقامت كل شعرة في جسد روبيل حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم إلى جنب هذا فمسه أو خذ بيده فأتى له فلما مسه سكن غضبه فقال لإخوته: من مسني منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال روبيل إن هذا بذر من بذر يعقوب وقيل إنه غضب ثانياً فقام إليه يوسف فوكزه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الأرض وقال أنتم يا معشر العبرانيين تزعمون أن لا أحد أشد منكم فلما رأوا ما نزل بهم ورأوا أن لا سبيل إلى تخليصه خضفوا وذلوا وقالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً يعني في السن ويحتمل أن يكون كبيراً في القدر لأنه نبي من أولاد الأنبياء **﴿فخذ أحدنا مكانه﴾** يعني بدلاً عنه لأنه يحبه ويتسلى به عن أخيه الهالك **﴿إنا نراك من المحسنين﴾** يعني في أفعالك كلها وقيل من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة إلينا وقيل إن رددت بنيامين إلينا وأخذت أحدنا مكانه كنت من المحسنين.

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ

في نفسه ولم يُبدِهَا لهم ﴾، وإنما أتت الكناية لأنه عيّن بها الكلمة وهي قوله: **﴿ قال أنتم شرٌّ مكاناً ﴾**، ذكرها سرّاً في نفسه ولم يصرّح بها، يريد أنتم شر مكاناً أي منزلاً عند الله ممّن رميتموه بالسرقة في صنيعكم بيوسف، لأنه لم يكن من يوسف سرقة حقيقية وخيانتكم حقيقة، **﴿ والله أعلمُ بما تَصفُون ﴾**. تقولون.

﴿ قالوا يا أيُّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً ﴾. في القصة أنهم غضبوا غضباً شديداً لهذه الحالة، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يُطاقوا، وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وإذا صاح ألقت كل امرأة حامل سمعت صوته ولدها، وكان مع هذا إذا مسّه أحد من ولد يعقوب سكن غضبه. وقيل: كان هذا صفة شمعون من ولد يعقوب. ورُوِيَ أنه قال لإخوته: كم عدد الأسواق بمصر؟ فقالوا عشرة، فقال: اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك، أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق، فدخلوا على يوسف فقال روبيل: لتردنّ علينا أخانا أو لأصيحنّ صيحة لا تُبقي بمصر امرأة حامل إلاّ ألقت ولدها وقامت كل شعرة في جسد روبيل فخرجت من ثيابه، فقال يوسف لابن له صغير: قم إلى جنب روبيل فمسّه. ورُوِيَ: خذ بيده فأتني به، فذهب الغلام فمسّه فسكن غضبه. فقال روبيل: إن ههنـا لبذراً من بذر يعقوب، فقال يوسف: مَنْ يعقوب؟ ورُوِيَ أنه غضب ثانياً فقام إليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه، فوقع على الأرض وقال: أنتم يا معشر العبرانيين تظنون أن لا أحد أشدّ منكم؟ فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلّوا وقالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً يحبه، **﴿ فَخُذْ أحدَنا مكانَه ﴾**، بدلاً منه، **﴿ إنّا نَراكَ مِنَ المحسنين ﴾**، في أفعالك. وقيل: من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحُسْن الضيافة وردّ البضاعة. وقيل: يعنون إن فعلت ذلك كنت من المحسنين.

خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾

﴿قال معاذ الله﴾ يعني: قال يوسف أعوذ بالله معاذاً ﴿أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ لم يقل سرق تحرزاً عن الكذب لأنه يعلم أخاه ليس بسارق ﴿إنا إذاً لظالمون﴾ يعني إن أخذنا بريئاً بذنب غيره فإن قلت كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذه الأعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه أيضاً عنده مع علمه بشدة وجد أبيه عليه ففيه ما فيه من العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة وكيف يجوز ليوسف مع علو منصبه من النبوة والرسالة أن يزور على إخوته ويروج عليهم مثل هذا مع ما فيه من الإيذاء لهم فكيف يليق به هذا كله قلت قد ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة كثيرة وأحسنها وأصحها أنه إنما فعل ذلك بأمر الله تعالى له لا عن أمره وإنما أمره الله بذلك ليزيد بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه الماضين ولله تعالى أسرار لا يعلمها أحد من خلقه فهو المتصرف في خلقه بما يشاء وهو الذي أخفى خبر يوسف عن يعقوب في طول هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد أن يدبره فيهم والله أعلم بأحوال عباده.

قوله عز وجل: ﴿فلما استيأسوا منه﴾ يعني أيسوا من يوسف أن يجيبهم لما سألوه، وقيل: أيسوا من أخيهم أن يرد عليهم، وقال أبو عبيدة: استيأسوا أي استيقنوا أن الأخ لا يرد إليهم ﴿خلصوا نجياً﴾ يعني خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون ليس فيهم غيرهم ﴿قال كبيرهم﴾ يعني في العقل والعلم لا في السن، قال ابن عباس: الكبير يهوذا وكان أعقلهم وقال مجاهد هو شمعون وكانت له الرئاسة على إخوته، وقال قتادة والسدي والضحاك: هو روبيل وكان أكبرهم سناً وأحسنهم رأياً في يوسف لأنه نهاهم عن قتله ﴿ألم تعلموا أن أباكم﴾ يعني يعقوب ﴿قد أخذ عليكم موثقاً﴾ يعني عهداً ﴿من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ يعني قصرتم في أمر يوسف حتى ضيعتموه ﴿فلن أبرح الأرض﴾ يعني الأرض التي أنا فيها وهي أرض مصر والمعنى فلن أخرج من أرض مصر ولا أفارقها على هذه الصورة

﴿ قال ﴾، يوسف، ﴿ معاذَ اللَّهِ ﴾ أعوذ بالله، ﴿ أَنْ نأخذ إلاَّ مَنْ وَجَدْنا متاعنا عندَه ﴾، ولم يقل إلاّ مَن سرق تحرّزاً من الكذب، ﴿ إنّا إذاً لظالِمُون ﴾، إن أخذنا بريئاً بمجرم.

﴿ فلمّا استيأَسُوا منه ﴾، أي: أيسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما سألوه. وقال أبو عبيدة: استيأسوا استيقنوا أن الأخ لا يُردّ إليهم. ﴿ خَلَصُوا نَجِيّاً ﴾، أي: خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم. والنجي يصلح للجماعة كما قال ههنا ويصلح للواحد كقوله: ﴿ وقرّبناه نجيّاً ﴾ [مريم: ٥٢]، وإنما جاز للواحد والجمع لأنه مصدر جعل نعتاً كالعدل والزور، ومثله النجوى يكون اسماً ومصدراً، قال الله تعالى: ﴿ وإذْ هُمْ نجوى ﴾ [الإسراء: ٤٧]، أي: متناجون. وقال: ﴿ ما يكونُ مِنْ نجوىً ثلاثة ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال في المصدر: ﴿ إنّما النجوى مِنَ الشيطان ﴾ [المجادلة: ١٠]. ﴿ قالَ كبيرُهم ﴾، يعني: في العقل والعلم لا في السن. قال ابن عباس والكلبي: هو يهوذا وهو أعقلهم. وقال مجاهد: هو شمعون، وكانت له الرئاسة على إخوته. وقال قتادة والسدي والضحاك: هو روبيل، وكان أكبرهم في السن، وهو الذي نهى الإخوة عن قتل يوسف. ﴿ ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم مَوْثِقاً ﴾، عهداً. ﴿ مِنَ الله ومِنْ قَبْلُ مَا فرّطْتُم ﴾ قصّرتم ﴿ في يوسف ﴾ واختلفوا في محل ﴿ ما ﴾ قيل: هو نصب بإيقاع العلم عليه، يعني: ألم تعلموا من قبل تفريطكم في يوسف. وقيل: وهو في محل الرفع على الابتداء وتمّ الكلام عند قوله: ﴿ من الله ﴾ ثم قال: ﴿ ومن قبل ﴾ هذا تفريطكم في يوسف.

﴿حتى يأذن لي أبي﴾ يعني في الخروج من أرض مصر فيدعوني إليه ﴿أو يحكم الله لي﴾ برد أخي عليّ أو بخروجي معكم وترك أخي أو يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم حتى أسترد أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأنه يحكم بالحق والعدل والإنصاف، والمراد من هذا الكلام الالتجاء إلى الله تعالى في إقامة عذره عند والده يعقوب عليه الصلاة والسلام.

ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

﴿ارجعوا إلى أبيكم﴾ يعني يقول الأخ الكبير الذي عز على الإقامة بمصر لإخوته الباقين ارجعوا إلى أبيكم يعقوب ﴿فقولوا﴾ له ﴿يا أبانا إن ابنك سرق﴾ إنما قالوا هذه المقالة ونسبوه إلى السرقة لأنهم شاهدوا الصواع وقد أخرج من متاع بنيامين فغلب على ظنهم أنه سرق فلذلك نسبوه إلى السرقة في ظاهر الأمر لا في حقيقة الحال ويدل على أنهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ يعني ولم نقل ذلك إلا بعد أن رأينا إخراج الصواع وقد أخرج من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء إلا بما علمناه وهذه ليست بشهادة إنما هو خبر عن صنيع ابنك أنه سرق بزعمهم فيكون المعنى أن ابنك سرق في زعم الملك وأصحابه لا أنّا نشهد عليه بالسرقة: وقرأ ابن عباس والضحاك: سرق بضم السين وكسر الراء وتشديدها أي نسب إلى السرقة واتهم بها وهذه القراءة لا تحتاج إلى تأويل ومعناها أن القوم نسبوه إلى السرقة إلا أن هذه القراءة ليست مشهورة فلا تقوم بها حجة والقراءة الصحيحة المشهورة هي الأولى وقوله وما شهدنا إلا بما علمنا يعني وما قلنا هذا إلا بما علمنا فيما رأينا إخراج الصواع من متاعه، وقيل: معناه ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء إلا بما عملناه وليست هذه شهادة وإنما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم. وقيل: قال لهم يعقوب هب أنه سرق فما يدري هذا الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته إلا بقولكم قالوا ما شهدنا عنده أن السارق يسترق إلا بما علمنا من الحكم وكان الحكم كذلك عند الأنبياء قبله ويعقوب وبنيه.

وأورد على هذا القول كيف جاز ليعقوب إخفاء هذا الحكم حتى ينكر على بنيه ذلك.

وأجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون ذلك الحكم كان مخصوصاً بما إذا كان المسروق منه مسلماً فلهذا أنكر عليهم

وقيل: ﴿ ما ﴾ صلة أي: ومن قبل هذا فرطتم في يوسف ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأرضَ ﴾، التي أنا بها وهي مصر ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾، بالخروج منهــا يدعوني، ﴿ أو يحكمَ الله لي ﴾، بردّ أخي إليّ أو بخروجي وترك أخي. وقيل: أو يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم وأستردّ أخي، ﴿ وهو خيرُ الحاكمين ﴾، أعدل مَن فصل بين الناس.

﴿ ارجعوا إلى أبيكم ﴾، يقول الأخ المحتبس بمصر لإخوته ارجعوا إلى أبيكم، ﴿ فقولوا يا أبانا إنّ ابنَك ﴾، بنيامين، ﴿ سَرَقَ ﴾، وقرأ ابن عباس والضحاك بضم السين وكسر الراء وتشديدها، يعني: نُسب إلى السرقة، كما يقال خوّنته أي نسبته إلى الخيانة، ﴿ وما شهِدْنا إلاّ بما علمنا ﴾، يعني: ما قلنا هذا إلاّ بما علمنا فإنّا رأينا إخراج الصواع من متاعه. وقيل: معناه وما شهدنا إلاّ بما علمنا أي ما كانت منّا شهادة في عمرنا على شيء إلاّ بما علمنا، وليست هذه شهادة منّا إنما هو خبر عن صنيع ابنك زعمهم. وقيل: قال لهم يعقوب عليه السلام: ما يدري هذا الرجل أن السارق يُؤخذ بسرقته إلاّ بقولكم، فقالوا: ما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترقّ إلاّ بما علمنا، وكان الحكم ذلك عند يعقوب وبنيه. ﴿ وما كنّا للغيب حافظين ﴾، قال مجاهد وقتادة: ما كنّا نعلم إن ابنك سيسرق ويصير أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه منه سبيل. وعن ابن عباس: ما كنّا لليله ونهاره

إعلام الملك بهذا الحكم لظنه أنه كافر ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ قال مجاهد وقتادة: يعني ما كنا نعلم أن ابنك سرق ويصير أمرنا إلى هذا ولو عملنا ذلك ما ذهبنا به معنا وإنما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه منه سبيل، وقال ابن عباس: ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين وقيل معناه إن حقيقة الحال غير معلومة لنا فإن الغيب لا يعلمه إلا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لا نعلم بذلك ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ يعني واسأل أهل القرية إلا أن حذف المضاف للإيجاز ومثل هذا النوع من المجاز مشهور في كلام العرب والمراد بالقرية مصر، وقال ابن عباس: هي قرية من قرى مصر كان قد جرى فيها حديث السرقة والتفتيش ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ يعني واسأل القافلة التي كنا فيها وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب ﴿وإنا لصادقون﴾ يعني فيما قلناه وإنما أمرهم أخوهم الذي أقام بمصر بهذه المقالة مبالغة في إزالة التهمة عن أنفسهم عند أبيهم لأنهم كانوا متهمين عنده بسبب واقعة يوسف ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ فيه اختصار تقديره فرجعوا إلى أبيهم فأخبروه بما جرى لهم في سفرهم ذلك وبما قال لهم كبيرهم وأمرهم أن يقولوه لأبيهم فعند ذلك قال لهم يعقوب بل سولت يعني بل زينت لكم أنفسكم أمراً وهو حمل أخيكم معكم إلى مصر لطلب نفع عاجل فآل أمركم إلى ما آل، وقيل: معناه بل خيلت لكم أنفسكم أنه سرق ما سرق ﴿فصبر جميل﴾ تقدم تفسيره في أول السورة.

وقوله ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ يعني بيوسف وبنيامين والأخ الثالث الذي أقام بمصر وإنما قال يعقوب هذه المقالة لأنه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله عز وجل لأنه إذا اشتد البلاء وعظم كان أسرع إلى الفرج، وقيل: إن يعقوب علم بما يجري عليه وعلى بنيه من أول الأمر وهو رؤيا يوسف وقوله «يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً» فلما تناهى الأمر قال عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ﴿إنه هو العليم﴾ يعني بحزني ووجدي عليهم ﴿الحكيم﴾ فيما يدبره ويقضيه.

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ

ومجيئه وذهابه حافظين. وقال عكرمة: وما كنّا للغيب حافظين فلعلّها دُسّت بالليل في رحله.

﴿ واسألِ القرية التي كنّا فيها ﴾، أي: أهلَ القرية وهي مصر. قال ابن عباس: هي قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها إلى مصر. ﴿ والعيرَ التي أقبلنا فيها ﴾، أي: القافلة التي كنّا فيها. وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب. قال ابن إسحق: عرف الأخ المحتبس بمصر أن إخوته أهل تهمة عند أبيهم لِما كانوا صنعوا في أمر يوسف فأمرهم أن يقولوا هذه المقالة لأبيهم. ﴿ وإنّا لصادِقُون ﴾، فإن قيل: كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذا بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه مع علمه بشدّة وجد أبيه عليه؟ وقيل معنى العقوق: قطيعة الرحم وقلّة الشفقة؟ قيل: قد أكثر الناس فيه، والصحيح أنه عمل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى، أمره به ليزيد في بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر ويُلحقه في الدرجة بآبائه الماضين. وقيل: إنه لم يُظهِر نفسه لأخوته لأنه لم يأمن أن يدبّروا في أمره تدبيراً فيكتموه عن أبيه. والأول أصح.

﴿ قالَ بلْ سَوّلَتْ لكم ﴾، زيّنت، ﴿ أنفسُكم أمراً ﴾، وفيه اختصار معناه: فرجعوا إلى أبيهم وذكروا لأبيهم ما قال كبيرهم، فقال يعقوب: بل سوّلتْ لكم أنفُسكم أمراً، أي: حمل أخيكم إلى مصر لطلب نفع عاجل، ﴿ فصبرٌ جميلٌ عسَى اللَّهُ أنْ يأتيني بهم جميعاً ﴾، يعني: يوسف وبنيامين وأخاهم المقيم بمصر، ﴿ إنَّه هو العليمُ ﴾، بحزني ووجدي على فقدهم، ﴿ الحكيمُ ﴾، في تدبير خلقه.

تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿وتولى عنهم﴾ يعني وأعرض يعقوب عن بنيه حين بلغوه خبر بنيامين فحينئذ تناهى حزنه واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فعند ذلك أعرض عنهم ﴿وقال يا أسفا على يوسف﴾ الأسف أشد الحزن وإنما جدد حزنه على يوسف عند وجود هذه الواقعة لأن الحزن القديم إذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب وأعظم لهيجان الحزن الأول كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبراً جيداً جدد حزنه على أخيه مالك:

يقـول أتبكـي كـل قبـر رأيتـه   لقـد ثـوى بيـن اللـوى والـدكـادك
فقلـت لـه إن الأسـى يبعـث الأسـى   فـدعنـي فهـذا كلـه قبـر مـالـك

فأجاب بأن الحزن يجدد الحزن، وقيل: إن يوسف وبنيامين لما كانا من أم واحدة كان يعقوب يتسلى عن يوسف ببنيامين فلما حصل فراق بنيامين زاد حزنه عليه ووجده وجدد حزنه على يوسف لأن يوسف كان أصل المصيبة، وقد اعترض بعض الجهال على يعقوب عليه السلام في قوله يا أسفا على يوسف فقال هذه شكاية وإظهار جزع فلا يليق بعلو منصبه ذلك وليس الأمر كما قال هذا الجاهل المعترض لأن يعقوب عليه الصلاة والسلام شكا إلى الله لا منه فقوله يا أسفا على يوسف معناه يا رب ارحم أسفي على يوسف وقد ذكر ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال: نداء يعقوب بالأسف في اللفظ من المجاز يعني به غير المظهر في اللفظ وتلخيصه يا إلهي ارحم أسفي أو أنت رائي أسفي أو هذا أسفي فنادى الأسف في اللفظ والمنادى سواه في المعنى ولا مأثم إذ لم ينطلق اللسان بكلام مؤثم لأنه لم يشك إلا إلى ربه عز وجل فلما كان قوله يا أسفاً على يوسف شكوى إلى ربه كان غير ملوم في شكواه وقيل إن يعقوب لما عظمت مصيبته واشتد بلاؤه وقويت محنته قال يا أسفا على يوسف أي أشكو إلى الله شدة أسفي على يوسف ولم يشكه إلى أحد من الخلق بدليل قوله إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ أي عمي من شدة الحزن على يوسف قال مقاتل لم يبصر شيئاً ست سنين، وقيل: إنه ضعف بصره من كثرة البكاء وذلك أن الدمع يكثر عند غلبة البكاء فتصير العين كأنها بيضاء من ذلك الماء الخارج من العين ﴿فهو كظيم﴾ أي مكظوم وهو الممتلىء من الحزن الممسك عليه لا يبثه، قال قتادة: وهو الذي يردد حزنه في جوفه ولم يقل إلا خيراً، وقال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقيا ثمانون سنة لم تجف عينا يعقوب وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله منه. وقال ثابت البناني ووهب بن منبه والسدي: إن جبريل عليه الصلاة والسلام دخل على يوسف وهو في السجن فقال هل تعرفني أيها الصديق قال يوسف أرى صورة طاهرة قال إني رسول رب العالمين وأنا الروح

قوله تعالى: ﴿ وتولّى عنهم ﴾، وذلك أن يعقوب عليه السلام لمّا بلغه خبر بنيامين تناهى حزنه وبلغ جهده، وهيّج حزنه على يوسف فأعرض عنهم، ﴿ وقالَ يا أسَفَا ﴾، يا حزنا، ﴿ على يوسف ﴾، والأسفُ أشدُّ الحزن، ﴿ وابيضتْ عيناه من الحُزن ﴾، يعني: عُمِيَ بصره. قال مقاتل: لم يبصر بهما ستّ سنين، ﴿ فهو كظيم ﴾، أي: مكظوم مملوء من الحزن مُمسِك عليه لا يبثّـه. وقال قتادة: تردّد حزنه في جوفه ولم يقل إلاّ خيراً. قال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانون عاماً لا تجفّ عينا يعقوب وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب.

﴿ قالوا ﴾، يعني: أولاد يعقوب، ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَؤُ تذكرُ يوسفَ ﴾، أي: لا تزال تذكر يوسف، لا تفتر من حبه،

الأمين فقال يوسف فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين وأمين رب العالمين قال ألم تعلم يا يوسف أن الله يطهر الأرض بطهر النبيين وأن الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأرضين وأن الله قد طهر بك الأرض والسجن وما حوله يا أطهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين قال يوسف كيف لي بإسم الصديقين وتعدني من الصالحين المخلصين الطاهرين وقد أدخلت مدخل المذنبين قال له إنه لم يفتتن قلبك ولم تطع سيدتك في معصية ربك فلذلك سماك الله من الصديقين وعدك من المخلصين وألحقك بآبائك الصالحين قال يوسف فهل لك علم من يعقوب أيها الروح الأمين قال نعم قد ذهب بصره وابتلاه الله بالحزن عليك فهو كظيم ووهب له الصبر الجميل قال فما قدر حزنه قال حزن سبعين ثكلاء قال فما له من الأجر يا جبريل قال أجر مائة شهيد قال أفتراني لاقيه قال نعم فطابت نفس يوسف وقال ما أبالي مما لقيت إن رأيته.

قوله عز وجل: ﴿قالوا﴾ يعني إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام لأبيهم ﴿تالله تفتأ تذكر يوسف﴾ يعني لا تزال تذكر يوسف ولا تفتر عن حبه يقال ما فتىء يفعل كذا أي ما زال ولا محذوفة في جواب القسم لأن موضعها معلوم فحذفت للتخفيف كقول امرىء القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعداً وقوله ﴿حتى تكون حرضاً﴾ قال ابن عباس يعني دنفاً وقال مجاهد الحرض ما دون الموت يعني قريباً من الموت، وقال ابن إسحاق: يعني فاسداً لا عقل له والحرض الذي فسد جسمه وعقله وقيل ذائباً من الهم وأصل الحرض الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو الهم ومعنى الآية حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل يعني لا تنتفع بنفسك من شدة الحزن والهم والأسف ﴿أو تكون من الهالكين﴾ يعني من الأموات.

فإن قلت كيف حلفوا على شيء لم يعلموا حقيقته قطعاً؟.

قلت: إنهم بنوا الأمر على الأغلب الظاهر أي نقوله ظناً منا أن الأمر يصير إلى ذلك ﴿قال﴾ يعني يعقوب عند ما

يقال: ما فتىء يفعل كذا أي: ما زال يفعل، و(لا) محذوفة من قوله: ﴿ تفتؤ ﴾ يقال: ما فتىء يفعل كذا أي: ما زال، كقول امرىء القيس:

فقلتُ يمينُ الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي: لا أبرح. ﴿ حتى تكونَ حَرَضاً ﴾، قال ابن عباس: دفناً. وقال مجاهد: الحرض ما دون الموت، يعني: قريباً من الموت. وقال ابن إسحق: فاسداً لا عقل لك، والحرض: الذي فسد جسمه وعقله. وقيل: ذائباً من الهمّ. ومعنى الآية: حتى تكون دَنِفَ الجسم مخبول العقل. وأصل الحرض: الفساد في الجسم، والعقل من الحزن والهرم، أو العشق أو الهمّ، يقال: رجل حرض وامرأة حرض، ورجلان وامرأتان حرض، ورجال ونساء كذلك، يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكّر والمؤنّث، لأنه مصدر وُضع موضع الاسم. ﴿ أو تكونَ من الهالكين ﴾، أي: من الميّتين.

﴿ قال ﴾ يعقوب عليه السلام عند ذلك لمّا رأى غِلظتهم ﴿ إنّما أشكو بَثّي وحُزني إلى اللّهِ ﴾، والبثّ أشدّ الحزن، سُمّي بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يثبته أي يُظهره، قال الحسن: بثّي أي: حاجتي. ورُوِيَ أنه دخل على يعقوب جارٌ له وقال: يا يعقوب ما الذي غيّر حالك ما لي أراك قد تهشّمت وفنيت ولم تبلغ من السنّ ما بلغ أبوك؟ قال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من همّ يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يا ربّ خطيئة أخطأتها فاغفرْها لي، فقال: قد غفرتها لك، فكان بعد ذلك إذا سُئِلَ قال: إنما أشكو بثّي

رأى قولهم له وغلظتهم عليه ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ أصل البث إثارة الشيء وتفريقه وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والشر، قال ابن قتيبة: البث أشد الحزن وذلك لأن الإنسان إذا ستر الحزن وكتمه كان هماً فإذا ذكره لغيره كان بثاً فالبث أشد الحزن والحزن الهم فعلى هذا يكون المعنى إنما أشكو حزني العظيم وحزني القليل إلى الله لا إليكم.

قال ابن الجوزي: روى الحاكم أبو عبد الله في صحيحه من حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال «كان ليعقوب أخ مؤاخ فقال له ذات يوم يا يعقوب ما الذي أذهب بصرك وما الذي قوس ظهرك قال أما الذي أذهب بصري فالبكاء على يوسف وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين فأتاه جبريل فقال يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك أما تستحي أن تشكو إلى غيري فقال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله فقال جبريل الله أعلم بما تشكو» وقيل: إنه دخل على يعقوب جار له فقال له يا يعقوب مالي أراك قد تهشمت بالضعف وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك فقال هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من هم يوسف فأوحى الله إليه يا يعقوب أتشكوني إلى خلقي فقال يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لي قال قد غفرتها لك فكان بعد ذلك إذا سئل يقول إنما أشكو بثي وحزني إلى الله تعالى وقيل إن الله أوحى إليه وعزتي وجلالي لا أكشف ما بك حتى تدعوني فعند ذلك قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله تعالى ثم قال أي رب أما ترحم الشيخ الكبير أذهبت بصري وقوست ظهري فاردد على ريحانتي أشممها شمة قبل أن أموت ثم اصنع ما شئت فأتاه جبريل فقال يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك أبشر فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك أتدري لم وجدت عليك لأنكم ذبحتم شاة فقام على بابكم فلان المسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئاً وإن أحب عبادي إلي الأنبياء ثم المساكين إصنع طعاماً وادع إليه المساكين فصنع طعاماً ثم قال من كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب وكان بعد ذلك إذا تغدى أمر منادياً ينادي من أراد أن يتغدى فليأت آل يعقوب وإذا أفطر أمر أن ينادي من أراد أن يفطر فليأت آل يعقوب فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين، وقال وهب بن منبه أوحى الله تعالى إلى يعقوب أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة قال يا رب لا قال لأنك شويت عناقاً وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه وقيل إن سبب ابتلاء يعقوب أنه ذبح عجلاً بين يدي أمه وهي تخور فلم يرحمها.

فإن قلت هل في هذه الروايات ما يقدح في عصمة الأنبياء؟

وحزني إلى الله ورُوِيَ أنه قيل له: يا يعقوب ما الذي أذهب بصرك وقوّس ظهرك؟ فقال: أذهب بصري بكائي على يوسف، وقوّس ظهري حزني على أخيه. فأوحى الله إليه: أتشكوني، فوعزّتي وجلالي لا أكشف ما بك حتى تدعوني، فعند ذلك قال: إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله، فأوحى الله إليه: وعزّتي وجلالي لو كانا ميّتين لأخرجتهما لك، وإنّما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه منها شيء، وإن أحبّ خلقي إليّ الأنبياء، ثم المساكين فاصنع طعاماً وادعُ إليه المساكين، فصنع طعاماً ثم قال: مَن كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب. ورُوِيَ أنه كان بعد ذلك إذا تغدّى أمر مَن ينادي: مَن أراد الغداء فليأتِ يعقوب، وإذا أفطر أمر مَن ينادي: مَن أراد أن يفطر فليأت يعقوب، فكان يتغدّى ويتعشى مع المساكين. وعن وهب بن منبّه قال: لمّا أوحى الله تعالى إلى يعقوب: أتدري لِمَ عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة؟ قال: لا، لأنك قد شويت عناقاً وقتّرت على جارك، وأكلت ولم تطعمه. ورُوِي أن سـبب ابتلاء يعقوب أنه ذبح عجلاً بين يدي أُمه وهي تخور. وقال وهب والسدي وغيرهما: أتى جبريل إلى يوسف في السجن فقال: هل تعرفني أيها الصديق؟ قال: أرى صورة طاهرة وريحاً طيبة، قال: إني رسول ربّ العالمين وأنا الروح الأمين، قال: فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيّبين ورأس المقرّبين وأمين ربّ العالمين؟ قال: ألم تعلم يا يوسف أن الله تعالى يطهّر البيوت بطُهْر النبيين، وأن

قلت: لا وإنما عوقب يعقوب بهذا لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين وإنما يطلب من الأنبياء من الأعمال على قدر منصبهم وشريف رتبتهم ويعقوب عليه الصلاة والسلام من أهل بيت النبوة والرسالة ومع ذلك فقد ابتلى الله كل واحد من أنبيائه بمحنة فصبر وفوض أمره إلى الله فإبراهيم عليه الصلاة والسلام ألقي في النار فصبر ولم يشك إلى أحد وإسماعيل ابتلي بالذبح فصبر وفوض أمره إلى الله وإسحاق ابتلي بالعمى فصبر ولم يشك إلى أحد ويعقوب ابتلي بفقده ولده يوسف وبعده بنيامين ثم عمي بعد ذلك أو ضعف بصره من كثرة البكاء على فقدهما وهو مع ذلك صابر لم يشك إلى أحد شيئاً مما نزل به وإنما كانت شكايته إلى الله عز وجل بدليل قوله إنما أشكو بثي وحزني إلى الله فاستوجب بذلك المدح العظيم والثناء الجميل في الدنيا والدرجات العلى في الآخرة مع من سلف من أبويه إبراهيم وإسحاق عليهما الصلاة والسلام.

وأما دمع العين وحزن القلب فلا يستوجب به ذماً ولا عقوبة لأن ذلك ليس إلى اختيار الإنسان فلا يدخل تحت التكليف بدليل أن النبي ﷺ بكى على ولده إبراهيم عند موته وقال «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن وما نقول إلا ما يرضي ربنا» فهذا القدر لا يقدر الإنسان على دفعه عن نفسه فصار مباحاً لا حرج فيه على أحد من الناس وقوله ﴿**وأعلم من الله ما لا تعلمون**﴾ يعني أنه تعالى من رحمته وإحسانه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب وفيه إشارة إلى أنه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه إليه وروى أن ملك الموت زار يعقوب فقال له يعقوب أيها الملك الطيب ريحه الحسن صورته الكريم على ربه هل قبضت روح ابني يوسف في الأرواح فقال لا فطابت نفس يعقوب وطمع في رؤيته فلذلك قال وأعلم من الله ما لا تعلمون وقيل معناه وأعلم أن رؤيا يوسف حق وصدق وإني وأنتم سنسجد له وقال السدي لما

الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأراضين، وأن الله تعالى قد طهّر بك السجن وما حوله يا طاهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين، قال: كيف لي باسم الصديقين وتعدّني من المخلصين الطاهرين، وقد أُدخلت مدخل المذنبين وسُمّيت باسم الفاسقين؟ قال جبريل: لأنه لم يفتن قلبك ولم تُطِعْ سيدتك في معصية ربِّك لذلك سمّاك الله في الصديقين، وعدّك من المخلصين، وألحقك بآبائك الصالحين، قال يوسف: هل لك علم بيعقوب أيها الروح الأمين؟ قال: نعم، وهبه الله الصبر الجميل وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم، قال: فكم قدّر حزنه؟ قال: حزن سبعين ثكلى، قال: فما زاد له من الأجْر يا جبريل؟ قال: أجْر مائة شهيد، قال: أفتراني لاقيه؟ قال: نعم، فطابت نفسه، وقال: ما أبالي بما لقيت إن رأيته. قوله تعالى: ﴿ **وأعلمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تعلمُون** ﴾، يعني: أعلم من حياة يوسف ما لا تعلمون، رُوِيَ أن ملك الموت زار يعقوب فقال له: أيها الملك الطيب ريحه، الحَسَن صورته، هل قبضت روح ولدي في الأرواح؟ قال: لا، فسكن يعقوب وطمع في رؤيته، وقال: وأعلم أن رؤيا يوسف صادقة وإني وأنتم سنسجد له. وقال السدي: لمّا أخبره ولده بسيرة الملك أحسّت نفس يعقوب وطمع وقال لعلّه يوسف، فقال: يا بَنِيَّ اذهبُوا فتحسَّسُوا من يوسف أخيه. ورُوِيَ عن عبد الله بن زيد بن أبي فروة: أن يعقوب عليه السلام كتب كتاباً إلى يوسف عليه السلام حين حبس بنيامين: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر أما بعد فإنّا أهل بيت وُكِّلَ بِنَا البلاءُ أمّا جدّي إبراهيم فشدّتْ يداه ورجلاه وأُلقي في النار، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فشدّتْ يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحبّ أولادي إليّ فذهب به إخوته إلى البريّة ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، فقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي من البكاء عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أُمه، وكنت أتسلّى به وإنك حبسته وزعمت أنه سرق، وإنّا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته إليّ وإلاّ دعوتُ عليك دعوةً تدرك السابع من ولدك، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء وعِيلَ صبره، فأظهر نفسه على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

أخبره بنوه بسيرة ملك مصر وكمال حاله في جميع أقواله وأفعاله أحسست نفس يعقوب وطمع أن يكون هو يوسف فعند ذلك قال يعني يعقوب.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿**يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه**﴾ التحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل إن التحسس بالحاء يكون في الخير وبالجيم يكون في الشر ومنه الجاسوس وهو الذي يطلب الكشف عن عورات الناس قال ابن عباس التمسوا قال ابن الأنباري يقال تحسست عن فلان ولا يقال من فلان وقال هنا من يوسف وأخيه لأنه أقيم من مقام عن قال ويجوز أن يقال من للتبعيض ويكون المعنى تحسسوا خبراً من أخبار يوسف وأخيه، روي عن عبد الله بن يزيد عن أبي فروة أن يعقوب كتب كتاباً إلى يوسف عليهما الصلاة والسلام حين حبس عنده بنيامين: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى ملك مصر أما بعد فإنا أهل بيت وكل بنا البلاء أما جدي إبراهيم فشدت يداه ورجلاه وألقي في النار فجعلها الله برداً وسلاماً وأما أبي فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إليّ فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي ثم كان لي ابن آخر وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به وإنك حبسته وزعمت أنه سرق وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً فإن رددته إليّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلما قرأ يوسف كتاب أبيه اشتد بكاؤه وعيل صبره وأظهر نفسه لإخوته على ما سنذكره إن شاء الله تعالى فذلك قوله تعالى يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴿**ولا تيأسوا**﴾ أي ولا تقنطوا ﴿**من روح الله**﴾ يعني من رحمة الله وقيل من فضل الله وقيل من فرج الله ﴿**إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾ يعني أن المؤمن على خير يرجوه من الله فيصبر عند البلاء فينال به خيراً ويحمد عند الرخاء فينال به خيراً والكافر بضد ذلك.

قوله تعالى: ﴿**فلما دخلوا عليه**﴾ فيه حذف واختصار تقديره فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر فلما دخلوا عليه يعني على يوسف ﴿**قالوا يا أيها العزيز**﴾ يعنون يا أيها الملك والعزيز القادر الممتنع وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ ﴿**مسنا وأهلنا الضر**﴾ أي الشدة والفقر والجوع وأرادوا بأهلهم من خلفهم ومن وراءهم من العيال ﴿**وجئنا ببضاعة مزجاة**﴾ أي ببضاعة رديئة كاسدة لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجوز من البائع.

﴿ **يا بَنِيّ اذهبُوا فتحسَّسُوا** ﴾، تخبّروا واطلبوا الخير، ﴿ **مِنْ يوسفَ وأخيهِ** ﴾، والتحسُّس بالحاء والجيم لا يبعد أحدهما من الآخر، إلاّ أن التحسّس بالحاء في الخير وبالجيم في الشرّ، والتحسّس هو طلب الشيء بالحاسّة. قال ابن عباس: معناه التمسوا ﴿ **ولا تيأسُوا** ﴾، ولا تقنطوا ﴿ **مِن رَّوْحِ اللّهِ** ﴾، أي: من الرحمة: وقيل: من فرج الله. ﴿ **إنّه لا يَيْأَسُ من رَّوْحِ الله إلاّ القومُ الكافرون** ﴾.

﴿ **فلمّا دخلُوا عليه** ﴾، وفيه إضمار تقديره: فخرجوا راجعين إلى مصر حتى وصلوا إليها فدخلوا عليه، ﴿ **قالوا يا أيّها العزيزُ مَسّنَا وأهلَنَا الضُّرُّ** ﴾، أي: الشدّة والجوع، ﴿ **وجئنا ببضاعةٍ مُزْجَاةٍ** ﴾، أي: قليلة رديئة كاسدة لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجوّز من البائع فيها، وأصر الإزجاء السوق والدفع. وقيل: للبضاعة مزجاة لأنها

وأصل الإزجاء في اللغة: الدفع قليلاً قليلاً والتزجية دفع الشيء لينساق كتزجية الريح السحاب ومنه قول الشاعر:

وحاجــة غيــر مزجـاة من الحـاج

يعني هي قليلة يسيرة يمكن دفعها وسوقها لقلة الاعتناء بها وإنما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة إما لنقصانها أو لرداءتها أو لمجموعهما فلذلك اختلفت عبارات المفسرين في معنى هذه البضاعة المزجاة، فقال ابن عباس: كانت دراهم رديئة زيوفاً وقيل كانت خلق الغرائر والحبال، وقيل: كانت من متاع الأعراب من الصوف والأقط، وقال الكلبي ومقاتل: كانت حبة الخضراء وقيل كانت سويق المقل وقيل كانت الأدم والنعال، وقال الزجاج: سميت هذه البضاعة القليلة الرديئة مزجاة من قولهم: فلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالقليل من العيش والمعنى جئنا ببضاعة مزجاة لندافع بها الزمان وليست مما يتسع بها، وقيل: إنما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن يدفعها **﴿فأوف لنا الكيل﴾** يعني أعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافي والمعنى إنا نريد أن تقيم لنا الزائد مقام الناقص والجيد مقام الرديء **﴿وتصدق علينا﴾** يعني وتفضل علينا بما بين الثمين الجيد والرديء ولا تنقصنا، هذا قول أكثر المفسرين قال ابن الأنباري: وكان الذي يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة وليس به واختلف العلماء هل كانت الصدقة حلالاً للأنبياء قبل نبينا أم لا فقال سفيان بن عيينة: إن الصدقة كانت حلالاً للأنبياء قبل محمد ﷺ واستدل بهذه الآية وأنكر جمهور العلماء ذلك وقالوا إن حال الأنبياء كلهم واحد في تحريم الصدقة عليهم لأنهم ممنوعون من الخضوع للمخلوقين والأخذ منهم، والصدقة أوساخ الناس فلا تحل لهم لأنهم مستغنون بالله عمن سواه.

وأجيب عن قوله وتصدق علينا أنهم طلبوا منه أن يجريهم على عادتهم من المسامحة وإيفاء الكيل ونحو ذلك مما كان يفعل بهم من الكرامة وحسن الضيافة لا نفس الصدقة وكره الحسن ومجاهد أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علينا لأن الصدقة لا تكون إلا ممن يبتغي الثواب وروي أن الحسن سمع رجلاً يقول اللهم تصدق عليّ فقال إن الله لا يتصدق إنما يتصدق من يبغي الثواب قل اللهم أعطني وتفضل عليّ، وقال ابن جريج والضحاك وتصدق علينا يعني برد أخينا علينا **﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾** يعني بالثواب الجـزيل وقال الضحاك لم يقولوا إن الله يجزيك لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن **﴿قال﴾** يعني قال يوسف لإخوته **﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾** وقد اختلفوا في السبب الذي من أجله حمل يوسف وهيجه على هذا القول، فقال ابن إسحاق: ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته رقة

غير نافقة، وإنما تجوز على دفع مَن أخذها. واختلفوا فيها، فقال ابن عباس: كانت دراهم رديئة زيوفاً. وقيل: كانت خلق الغرائر والحِبال. وقيل: كانت من متاع الأعراب من الصوف والأقط. وقال الكلبي ومقاتل: كانت الحبّة الخضراء. وقيل: كانت سويق المقل. وقيل: كانت الأدم والنِعال. **﴿ فأَوْفِ لَنا الكَيْلَ ﴾**، أي: أعطنا ما كنت تعطينا قبل بالثمن الجيد الوافي **﴿ وتصدّقْ علينا ﴾**، أي: تفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والرديء ولا تنقصنا. هذا قول أكثر المفسّرين، وقال ابن جريج والضحاك: وتصدّق علينا بردّ أخينا إلينا. **﴿ إنّ اللّهَ يجزي ﴾**، يثيب، **﴿ المتصدِّقين ﴾**، وقال الضحاك: لم يقول إن الله يجزيك لأنهم يعلموا أنه مؤمن. وسُئِلَ سفيان بن عيينة: هل حُرِّمَت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبيّنا عليه الصلاة والسلام؟ فقال سفيان: ألم تسمع قوله تعالى: **﴿ وتصدّقْ علينا إنّ الله يجزي المتصدقين ﴾**، يريد أن الصدقة كانت حلالاً لهم. ورُوِيَ أن الحسن سمع رجلاً يقول: اللّهمّ تصدّق عليّ، فقال: إن الله لا يتصدّق وإنما يتصدّق على مَن يبغي الثواب، قل: اللّهمّ أعطني أو تفضل عليّ.

على إخوته فباح بالذي كان يكتم، وقيل: إنه أخرج لهم نسخة الكتاب الذي كتبوه ببيعه من مالك وفي آخره وكتبه يهوذا فلما قرؤوا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا يا أيها الملك إنه كان لنا عبد فبعناه منه فغاظ ذلك يوسف وقال: إنكم تستحقون العقوبة وأمر بقتلهم فلما ذهبوا بهم ليقتلوهم قال يهوذا كان يعقوب يبكي ويحزن لفقد واحد منا فكيف إذا أتاه الخبر بقتل بنيه كلهم ثم قالوا إن كنت فاعلاً ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وكذا فذلك حين أدركته الرقة عليهم والرحمة فبكى وقال هذا القول، وقيل: إن يوسف لما قرأ كتاب أبيه لم يتمالك أن بكى وقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وهذا استفهام يفيد تعظيم أمر هذه الواقعة ومعناه ما أعظم ما ارتكبتم من أمر يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه من قطيعة الرحم وتفريقه من أبيه وهذا كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت ولم يرد بهذا نفس الاستفهام ولكنه أراد تفظيع الأمر وتعظيمه ويجوز أن يكون المعنى هل علمتم عقبى ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم الله إياهما من المكروه.

واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى: ﴿**وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**﴾ فإن قلت الذي فعلوه بيوسف معلوم ظاهر فما الذي فعلوه بأخيه من المكروه حتى يقول لهم هذه المقالة فإنهم لم يسعوا في حبسه ولا أرادوا ذلك.

قلت: إنهم لما فرقوا بينه وبين أخيه يوسف نغصوا عليه عيشه وكانوا يؤذونه كلما ذكر يوسف، وقيل: إنهم قالوا له لما اتهم بأخذ الصواع ما رأينا منكم يا بني راحيل خيراً ﴿**إذ أنتم جاهلون**﴾ هذا يجري مجرى العذر لهم يعني أنكم أقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر حال كونكم جاهلين وهو وقت الصبا وحالة الجهل وقيل جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف.

قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

قوله عز وجل: ﴿**قالوا أئنك لأنت يوسف**﴾ قرىء على سبيل الاستفهام وحجة هذه القراءة قال ابن عباس لما

﴿ **قالَ هلْ علمتُم ما فعلتُم بيوسفَ وأخيهِ إذ أنتُم جَاهِلُون** ﴾، اختلفوا في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول، قال ابن إسحق: ذكر لي أنهم لما كلّموه بهذا الكلام أدركته الرقّة فارفضّ دمعه فباح بالذي كان يكتمه. وقال الكلبي: إنما قال ذلك حين حكى لإخوته أن مالك بن ذعر قال إني وجدت غلاماً في بئر من حاله كيت وكيت، فابتعته بكذا درهماً فقالوا: أيها الملك، نحن بعنا ذلك الغلام، فغاظ يوسف ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم، فولّى يهوذا وهو يقول كان يعقوب يحزن ويبكي لفقد واحد منّا حتى كفّ بصره، فكيف إذا أتاه قتل بنيه كلهم؟ ثم قالوا له: إن فعلت ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وكذا، فذلك حين رحمهم وبكى، وقال ذلك القول. وقيل: قاله حين قرأ كتاب أبيه الذي كتب إليه فلم يتمالك البكاء، فقال: هل علمتُم ما فعلتُم بيوسف وأخيه إذْ فرّقتُم بينهما، وصنعتُم ما صنعتُم إذ أنتُم جاهلون بما يـؤل إليه أمر يوسف؟ وقيل: مذنبون وعاصون. وقال الحسن: إذ أنتم شبّان ومعكم جهل الشباب. فإن قيل: كيف قال ما فعلتم بيوسف وأخيه وما كان منهم إلى أخيه شيء وهم لـم يسعوا في حبسه؟ قيل: قد قالوا له في الصاع ما رأينا منكم يا بني راحيل خيراً. وقيل: لِمَا كانا من أم واحدة كانوا يؤذونه من بعد فقد يوسف.

﴿ **قالوا أئنكَ لأنتَ يوسفُ** ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر: « إنّك » على الخبر، وقرأ الآخرون على الاستفهام.

قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه تبسم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ تشبه ثنايا يوسف فشبهوه بيوسف فقالوا استفهاماً أئنك لأنت يوسف؟، وقرىء على الخبر وحجته ما قال ابن عباس أيضاً في رواية أخرى عنه: إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج على رأسه وكان له في قرنه علامة تشبه الشامة وكان ليعقوب مثلها ولإسحاق مثلها ولسارة مثلها فعرفوه بها وقالوا أنت يوسف، وقيل: قالوه على سبيل التوهم ولم يعرفوه حتى ﴿قال أنا يوسف﴾ قال بعض العلماء إنما أظهر الاسم في قوله أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيماً لما نزل به من ظلم إخوته له وما عوضه الله من النصر والظفر والملك فكأنه قال أنا يوسف المظلوم الذي ظلمتموني وقصدتم قتلي بأن ألقيتموني في الجب ثم بعتموني بأبخس الأثمان ثم صرت إلى ما ترون فكانت تحت ظهور الاسم هذه المعاني كلها ولهذا قال ﴿وهذا أخي﴾ وهم يعرفونه لأنه قصد به أيضاً وهذا أخي المظلوم كما ظلمتموني ثم صرت أنا وهو إلى ما ترون وهو قوله: ﴿قد منَّ الله علينا﴾ بأن جمع بيننا وقيل منَّ علينا بكل عز وخير في الدنيا والآخرة، وقيل: منَّ علينا بالسلامة في ديننا ودنيانا ﴿إنه من يتق ويصبر﴾ يعني يتقي الزنا ويصبر على العزوبة قاله ابن عباس، وقال مجاهد: يتقي المعصية ويصبر على السجن، وقيل: يتقي الله بأداء فرائضه ويصبر عما حرم الله ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ يعني أجر من كان هذا حاله ﴿قالوا﴾ يعني قال إخوة يوسف معتذرين إليه مما صدر منهم في حقه ﴿تالله لقد آثرك الله علينا﴾ أي اختارك وفضلك علينا يقال آثرك الله إيثاراً أي اختارك ويستعار الأثر للفضل والإيثار للتفضيل والمعنى لقد فضلك الله علينا بالعلم والعقل وقال الضحاك عن ابن عباس بالملك وقال أبو صالح عنه بالصبر وقيل بالحلم والصفح علينا وقيل بالحسن وسائر الفضائل التي أعطاها الله عز وجل له دون إخوته وقيل فضله عليهم بالنبوة وأورد على هذا القول بأن إخوته كانوا أنبياء أيضاً فليس له عليهم فضل في ذلك وأجيب عنه بأن يوسف فضل عليهم بالرسالة مع النبوة فكان أفضل منهم بهذا الاعتبار لأن من جمعت له النوبة والرسالة كان أفضل ممن خص بالنبوة فقط ﴿وإن كنا لخاطئين﴾ يعني وما كنا في صنعنا بك إلا خاطئين ولهذا اختير لفظ الخاطىء على المخطىء والفرق بينهما أن يقال خطىء خطأ إذا تعمد وأخطأ إذا كان غير متعمد وقيل يجوز أن يكون آثر لفظ خاطئين على مخطئين لموافقة رؤوس الآي لأن خاطئين أشبه بما قبلها ﴿قال﴾ يعني يوسف ﴿لا تثريب عليكم﴾ يعني لا تعيير ولا توبيخ عليكم ومنه قوله ﷺ «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يوبخها ولا يثرب» أي لا يعيرها بالزنا بعد إقامة الحد عليها وفي محل قوله ﴿اليوم﴾ قولان أحدهما أنه يرجع إلى ما قبله فيكون التقدير لا تثريب عليكم اليوم والمعنى أن هذا اليوم هو يوم التثريب والتقريع والتوبيخ وأنا لا أقرعكم اليوم ولا أوبخكم ولا أثرب عليكم، فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم اليوم ويبتدىء بقوله ﴿يغفر الله لكم﴾.

قال ابن إسحاق: كان يوسف يتكلم من وراء ستر فلما قال يوسف: هل علمتم ما فعلتم، كشف عنهم الغطاء ورفع الحجاب، فعرفوه. وقال الضحاك عن أبي عباس: لمّا قال هذا القول تبسّم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ المنظوم فشبّهوه بيوسف، فقالوا استفهاماً أئنك لأنت يوسف؟ وقال عطاء عن ابن عباس: إن أخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان له في قرنه علامة وكان ليعقوب مثلها ولإسحق مثلها ولسارة مثلها شبه الشامة، فعرفوه فقالوا: أئنك لأنت يوسف، وقيل: قالوه على التوهّم حتى، ﴿ قالَ أنا يوسفُ وهذا أخي ﴾، بنيامين، ﴿ قَدْ مَنّ الله علينَا ﴾، أنعمَ الله علينا بأن جمع بيننا ﴿ إنَّه مَنْ يتّقِ ﴾، بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، ﴿ ويصبرْ ﴾، عمّا حرّم الله عزّ وجلّ عليه. قال ابن عباس: يتّقي الزنا ويصبر عن العزوبة. وقال مجاهد: يتّقي المعصية ويصبر على السجن، ﴿ فإنّ الله لا يضيعُ أجرَ المحسنين ﴾.

﴿ قالوا ﴾، معتذرين، ﴿ تَاللّهِ لقدْ آثَرَكَ الله علينَا ﴾، أي: اختارك الله وفضّلك علينا، ﴿ وإن كنّا

والقول الثاني: أن اليوم متعلق بقوله يغفر الله لكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم ويبتدىء باليوم يغفر الله لكم كأنه لما نفى عنهم التوبيخ والتقريع بقوله لا تثريب عليكم بشرهم بقوله اليوم يغفر الله لكم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ ولما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن حال أبيه فقال ما حال أبي بعدي؟ قالوا ذهب بصره من كثرة البكاء عليك فأعطاهم قميصه وقال.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

﴿اذهبوا بقميصي هذا﴾ قال الضحاك كان هذا القميص من نسج الجنة، وقال مجاهد: أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه وكان ذلك القميص قميص إبراهيم وذلك أنه لما جرد من ثيابه وألقي في النار عرياناً أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه فكان ذلك القميص عند إبراهيم، فلما مات ورثه إسحاق فلما مات ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في قصبة من فضة وسد رأسها وجعلها في عنق يوسف كالتعاويذ لما كان يخاف عليه من العين وكانت لا تفارقه فلما ألقي يوسف في البئر عرياناً أتاه جبريل وأخرج ذلك القميص وألبسه إياه فلما كان هذا الوقت جاءه جبريل فأمره أن يرسل هذا القميص إلى أبيه لأن فيه ريح الجنة فلا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفي في الوقت فدفع ذلك القميص يوسف إلى إخوته وقال اذهبوا بقميصي هذا ﴿فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ قال المحققون: إن علم يوسف أن إلقاء ذلك القميص على وجه يعقوب يوجب رد البصر كان بوحي الله إليه ذلك ويمكن أن يقال إن يوسف لما علم أن أباه قد عمي من كثرة البكاء عليه وضيق الصدر بعث إليه قميصه ليجد ريحه فيزول بكاؤه وينشرح صدره ويفرح قلبه فعند ذلك يزول الضعف ويقوى البصر فهذا القدر تمكن معرفته من جهة العقل وقوله ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ قال الكلبي: كانوا نحواً من سبعين إنساناً، وقال مسروق: كانوا ثلاثة وسبعين ما بين رجل وامرأة ﴿ولما فصلت العير﴾ يعني خرجت من مصر وقيل من عريش مصر متوجهين إلى أرض كنعان ﴿قال أبوهم﴾

لخاطئين ﴾، أي: وما صنيعنا بك إلّا مخطئين مذنبين. يقال: خطىء خطأ إذا تعمّد، وأخطأ إذا كان غير متعمّد.

﴿ قال ﴾، يوسف وكان حليماً، **﴿ لا تثريبَ عليكُم اليومَ ﴾**، لا تعيير عليكم ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم، **﴿ يغفرُ الله لكم وهو أرحمُ الراحمين ﴾**، فلما عرّفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهبت عيناه من البكاء فأعطاهم قميصه، ثم قال:

﴿ اذهبُوا بقميصي هذا فألقوه على وجهِ أبي يأتِ بصيراً ﴾، أي: يعد مبصراً. وقيل: بصيراً لأنه كان قد دعاه. قال الحسن: لم يعلم أنه يعود بصيراً إلّا بعد أن أعلمه الله عزّ وجلّ. قال الضحاك: كان ذلك القميص من نسج الجنة. وعن مجاهد قال: أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه، وكان ذلك القميص قميص إبراهيم عليه السلام، وذلك أنه جرّد من ثيابه وأُلقي في النار عرياناً فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إيّاه فكان ذلك القميص عند إبراهيم عليه السلام، فلما مات ورثه إسحق، فلما مات ورثه يعقوب، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في قصبة وسدّ رأسها وعلّقها في عنقه لما كان يخاف عليه من العين، وكان لا يفارقه فلما أُلقي في البئر عرياناً جاءه جبريل عليه السلام وعلى يوسف ذلك التعويذ فأخرج القميص منه وألبسه إيّاه، ففي هذا الوقت جاء جبريل عليه السلام إلى يوسف عليه السلام وقال له: أرسل إلى أبيك ذلك القميص، فإن فيه ريح الجنة لا يقع على

يعني: قال يعقوب لولد ولده ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ قيل: إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير، وقال مجاهد: أصابت يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام، وقال ابن عباس: من مسيرة ثمان ليال وقال الحسن كان بينهما ثمانون فرسخاً، وقيل: هبت ريح فاحتملت ريح القميص إلى يعقوب فوجد يعقوب ريح الجنة فعلم أنه ليس في الأرض من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص فعلم بذلك أنه من ريح يوسف فلذلك قال: إني لأجد ريح يوسف ﴿لولا أن تفندون﴾ أصل التفنيد من الفند وهو ضعف الرأي وقال ابن الأنباري أفند الرجل إذا خرف وفند إذا جهل ونسب ذلك إليه وقال الأصمعي: إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو الفنيد والفند فيكون المعنى لولا أن تفندوني أي تنسبوني إلى الخرف وقيل تسفهوني وقيل: تلوموني وقيل تجهلوني وهو قول ابن عباس، وقال الضحاك تهرموني فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله ﴿قالوا﴾ يعني أولاد أولاد يعقوب وأهله الذين عنده لأن أولاده لصلبه كانوا غائبين عنه ﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ يعني من ذكر يوسف ولا تنساه لأنه كان عندهم أن يوسف قد مات وهلك ويرون أن يعقوب قد لهج بذكره فلذلك قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم من ذكره والضلال الذهاب عن طريق الصواب.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

﴿فلما أن جاء البشير﴾ وهو المبشر بخبر يوسف، قال ابن مسعود: جاء البشير بين يدي العير قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنهما هو يهوذا، قال السدي: قال يهوذا أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب وأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره أنه حي فأفرحه كما أحزنته. قال ابن عباس: حمله يهوذا وخرج به حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى أتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخاً ﴿ألقاه على

سقيم ولا مُبتلي إلاّ عُوفي، فدفع يوسف ذلك القميص إلى إخوته وقال: ألقوه على وجه أبي يأتِ بصيراً، ﴿ وأتوني بأهلِكم أجمعين ﴾.

﴿ ولمّا فَصلَتِ العِيْرُ ﴾، أي خرجت من عريش مصر متوجّهة إلى كنعان ﴿ قالَ أبُوهُمْ ﴾، أي: قال يعقوب لولد ولده، ﴿ إني لأجِدُ رِيحَ يوسفَ ﴾، رُوِيَ أن ريح الصبا استأذنت ربّها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير. قال مجاهد: أصاب يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام. وحُكِيَ عن ابن عباس: من مسيرة ثمان ليالٍ. وقال الحسن: كان بينهما ثمانون فرسخاً. وقيل: هبّت ريح الصبا فصفقت القميص فاحتملت ريح القميص إلى يعقوب فوجد ريح الجنة فعلم أن ليس في الأرض من ريح الجنة إلاّ ما كان من ذلك القميص، فلذلك قال: إني لأجد ريح يوسف قبل البشير. ﴿ لولاَ أن تُفَنِّدُون ﴾، تسفهوني، وعن ابن عباس: تجهلوني. وقال الضحاك: تهزموني فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله. وقيل: تضعفوني. وقال أبو عبيدة: تضلّلوني. وأصل الفند: الفساد.

﴿ قالوا ﴾، يعني أولاد أولاده، ﴿ تاللهِ إنّك لفي ضلالِكَ القديم ﴾، لفي خطئك السابق من ذكر ليوسف لا تنساه، والضلال هو الذهاب عن الطريق الصواب، فإن عندهم أن يوسف قد مات ويرون يعقوب قد لهج بذكره.

﴿ فلمّا أنْ جاءَ البشيرُ ﴾، وهو المبشّر عن يوسف، قال ابن مسعود: جاء البشير بين يدي العير. قال ابن

وجهه﴾ يعني فألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب ﴿فارتد بصيراً﴾ يعني فرجع بصيراً بعد ما كان قد عمي وعادت إليه قوته بعد الضعف وسروره بعد الحزن ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ يعني من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا، وروي أن يعقوب قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال يعقوب ما أصنع بالملك على أي دين تركته؟ قال على دين الإسلام قال الآن تمت النعمة.

قوله تعالى: ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا﴾ يعني قال أولاد يعقوب حين وصلوا إليه وأخذوا يعتذرون إليه مما صنعوا به وبيوسف استغفر لنا أي اطلب لنا غفر ذنوبنا من الله ﴿إنا كنا خاطئين﴾ يعني في صنيعنا ﴿قال سوف أستغفر لكم ربي﴾ قال أكثر المفسرين: إن يعقوب أخر الدعاء والاستغفار لهم إلى وقت السحر لأنه أشرف الأوقات وهو الوقت الذي يقول الله فيه هل من داع فأستجيب له فلما انتهى يعقوب إلى وقت السحر قام إلى الصلاة متوجهاً إلى الله تعالى فلما فرغ رفع يديه إلى الله تعالى وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لأولادي ما أتوا إلى أخيهم يوسف فأوحى الله إليه أني قد غفرت لك ولهم أجمعين قال عكرمة عن ابن عباس: إنه أخر الاستغفار لهم إلى ليلة الجمعة لأنها أشرف الأوقات قال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة نيفاً وعشرين سنة وقال طاوس أخر الاستغفار إلى وقت السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وقال الشعبي سوف أستغفر لكم ربي قال حتى أسأل يوسف فإن كان قد عفا عنكم أستغفر لكم ربي ﴿إنه هو الغفور﴾ يعني لذنوب عباده ﴿الرحيم﴾ بجميع خلقه قال عطاء الخراساني طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منه إلى الشيوخ ألا ترى إلى قول يوسف لإخوته لا تثريب عليكم الآية وقول يعقوب سوف أستغفر لكم ربي، قال أصحاب الأخبار إن يوسف عليه الصلاة والسلام بعث مع إخوته إلى

عباس: هو يهوذا قال: أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب فأنا أذهب إليه اليوم بالقميص فأُخبره أن ولده حيّ فأُفرحه كما أحزنته. قال ابن عباس: حمله يهوذا وخرج حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوفِ أكلها حتى أتى أباه، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً. وقيل: البشير مالك بن ذعر. ﴿ **ألقاه على وجهِهِ** ﴾، يعني: ألقى البشيرُ قميصَ يوسف على وجه يعقوب، ﴿ **فارتدَّ بصيراً** ﴾. فعاد بصيراً بعدما كان أعمى وعادت إليه قوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن. ﴿ **قال** ﴾، يعني: يعقوب عليه السلام، ﴿ **ألم أقلْ لكم إني أعلمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُون** ﴾، من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا. ورُوِيَ أنه قال للبشير: كيف تركت يوسف؟ قال: إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك على أيّ دين تركتَه؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمّت النعمة.

﴿ **قالوا يا أبانَا استغفرْ لنا ذنوبَنا إنَّا كنَّا خاطئين** ﴾، مذنبين.

﴿ **قال سوفَ أستغفرُ لكم ربِّي** ﴾، قال أكثر المفسّرين: أخّر الدعاء إلى السّحر وهو الوقت الذي يقول الله تعالى: هل داعٍ فأستجيب له. فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسّحر، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عزّ وجلّ وقال: اللّهمَّ اغفر لي جزعي على يوسف وقلّة صبري عنه واغفرْ لأولادي ما أتوا إلى أخيهم يوسف، فأوحى الله تعالى إليه إنّي قد غفرتُ لك ولهم أجمعين. وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: سوف أستغفرُ لكم ربّي يعني ليلة الجمعة. قال وهب: كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيّف وعشرين سنة. وقال طاوس: أخّر الدعاء إلى السّحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء. وعن الشعبي قال: سوف أستغفرُ لكم ربّي، قال: أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفرْ لكم ربّي ﴿ **إنّه هو الغفورُ الرحيم** ﴾، رُوِيَ أن يوسف كان قد بعث مع البشير إلى يعقوب مائتي راحلة جهازاً كثيراً ليأتوا بيعقوب وأهله وأولاده، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر فخرجوا وهم اثنان وسبعون من بين رجل وامرأة. وقال مسروق: كانوا ثلاثة وتسعين، فلما دنا من مصر كلّم يوسف الملك الذي فوقه

أبيه مائتي راحلة وجهازاً كثيراً ليأتوه بيعقوب وجميع أهله إلى مصر فلما أتوه تجهز يعقوب للخروج إلى مصر فجمع أهله وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الأكبر يعني ملك مصر وعرفه بمجيء أبيه وأهله فخرج يوسف ومعه الملك في أربعة آلاف من الجند وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب عليه الصلاة والسلام وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يد ابنه يهوذا فلما نظر إلى الخيل والناس قال يايهوذا هذا فرعون مصر قال لا بل هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد من صاحبه أراد يوسف أن يبدأ يعقوب بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يا مذهب الأحزان، وقيل: إنهما نزلا وتعانقا وفعلا كما يفعل الوالد بولده والولد بوالده وبكيا، وقيل: إن يوسف قال لأبيه يا أبت بكيت حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا قال بلى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك فذلك قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿**فلما دخلوا على يوسف آوى إليه**﴾ يعني ضم إليه ﴿**أبويه**﴾ قال أكثر المفسرين: هو أبوه يعقوب وخالته ليا وكانت أمه قد ماتت في نفاس بنيامين وقال الحسن هما أبوه وأمه وكانت حية بعد، وقيل: إن الله أحياها ونشرها من قبرها حتى تسجد ليوسف تحقيقاً لرؤياه والأول أصح ﴿**وقال ادخلوا مصر**﴾ قيل المراد بالدخول الأول في قوله فلما دخلوا على يوسف أرض مصر وذلك حين استقبلهم ثم قال ادخلوا مصر يعني البلد وقيل إنه أراد بالدخول الأول دخولهم مصر وأراد بالدخول الثاني الاستيطان بها أي أدخلوا مصر مستوطنين فيهما ﴿**إن شاء الله آمنين**﴾ قيل إن هذا الاستثناء عائد إلى الأمن لا إلى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله وقيل إنه عائد إلى الدخول فعلى هذا يكون قد قال ذلك لهم قبل أن يدخلوا مصر، وقيل: إن هذا الاستثناء يرجع إلى الاستغفار فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير تقديره سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله وقيل إن الناس كانوا يخافون من ملوك مصر فلا يدخلها أحد إلا بجوارهم فقال لهم يوسف ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأهليكم إن شاء الله فعلى هذا يكون قوله إن شاء الله للتبرك فهو كقوله ﷺ «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» مع علمه أنه لاحق بهم ﴿**ورفع أبويه على العرش**﴾ يعني على

فخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجنود وركب أهل مصر معهما يتلقّون يعقوب، وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا هذا فرعون مصر، قال: لا هذا ابنك، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدأ بالسلام، فقال جبريل: لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام، فقال يعقوب: السلام عليك يا مُذهِب الأحزان. ورُوِيَ أنهما نزلا وتعانقا. وقال الثوري: لمّا التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا، فقال يوسف: يا أبت بكيتَ حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى يا بني ولكن فارقتك وأنت صغير، فخشيتُ أن يُسلَب دينك فيُحال بيني وبينك.

فذلك قوله: ﴿ **فلمّا دخلوا على يوسفَ آوى إليه** ﴾، أي: ضمّ إليه، ﴿ **أبويه** ﴾، قال أكثر المفسّرين: هو أبوه وخالته ليّا، وكانت أمه راحيل قد ماتت في نفاس بنيامين. وقيل: هو أبوه وأمه وكانت حيّة. وفي بعض التفاسير

السرير الذي كان يجلس عليه يوسف والرفع النقل إلى لعلو ﴿وخروا له سجداً﴾ يعني يعقوب وخالته ليا وإخوته وكانت تحية الناس يومئذ السجود وهو الانحناء والتواضع ولم يرد به حقيقة السجود من وضع الجبهة على الأرض على سبيل العبادة.

فإن قلت كيف استجاز يوسف عليه السلام أن يسجد له أبوه وهو أكبر منه وأعلى منصباً في النبوة والشيخوخة؟ قلت: يحتمل أن الله تعالى أمر بذلك لتحقيق رؤياه، ثم في معنى هذا السجود قولان: أحدهما أنه كان انحناء على سبيل التحية كما تقدم فلا إشكال فيه، والقول الثاني أنه كان حقيقة السجود وهو وضع الجبهة على الأرض وهو مشكل لأن السجود على هذه الصورة لا ينبغي أن يكون إلا لله تعالى، وأجيب عن هذا الإشكال بأن السجود كان في الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر له وإنما كان يوسف كالقبلة كما سجد الملائكة لآدم ويدل على صحة هذا التأويل قوله ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وظاهر هذا يدل على أنهم لما صعدوا على السرير خروا سجداً لله تعالى ولو كان ليوسف لكان قبل الصعود لأن ذلك أبلغ في التواضع.

فإن قلت يدفع صحة هذا التأويل قوله «رأيتهم لي ساجدين» وقوله «خروا له سجداً» فإن الضمير يرجع إلى أقرب المذكورات وهو يوسف عليه الصلاة والسلام.

قلت: يحتمل أن يكون المعنى وخروا لله سجداً لأجل يوسف واجتماعهم به وقيل يحتمل أن الله أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية وهي أن إخوة يوسف ربما احتملتهم الأنفة والتكبر عن السجود ليوسف فلما رأوا أن أباهم قد سجد له سجدوا له أيضاً فتكون هذه السجدة على سبيل التحية والتواضع لا على سبيل العبادة وكان ذلك جائزاً في ذلك الزمان فلما جاء الإسلام نسخت هذه الفعلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ﴿وقال﴾ يعني وقال يوسف عند ما رأى ذلك ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ يعني هذا تصديق الرؤيا التي رأيت في حال الصغر ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ يعني في اليقظة واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها فقال سلمان الفارسي وعبد الله بن شداد أربعون سنة، وقال أبو صالح عن ابن عباس: اثنتان وعشرون سنة، وقال سعيد بن جبير وعكرمة والسدي: ست وثلاثون سنة، وقال قتادة: خمس وثلاثون سنة، وقال عبد الله بن سودون: سبعون سنة، وقال الفضيل بن عياض: ثمانون سنة، حكى هذه الأقوال كلها ابن الجوزي وزاد غيره عن الحسن: أن يوسف كان عمره حين ألقي في الجب سبع عشرة سنة وأقام في العبودية والسجن والملك مدة ثمانين سنة وأقام مع أبيه وإخوته وأقاربه مدة ثلاث وعشرين سنة وتوفاه الله وهو ابن مائة وعشرين سنة وقوله ﴿وقد أحسن بي﴾ يعني أنعم عليّ يقال أحسن بي وإليّ بمعنى واحد ﴿إذ أخرجني من السجن﴾

أن الله عزّ وجلّ أحيا أُمه حتى جاءت مع يعقوب إلى مصر. ﴿ وقالَ ادْخُلُوا مصرَ إنْ شاءَ اللهُ آمنين ﴾، فإن قيل: فقد قال فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه فكيف قال ادخلوا مصر بعدما أخبر أنهم دخلوها؟ وما وجه هذا الاستثناء وقد حصل الدخول؟ قيل: إن يوسف إنما قال لهم هذا القول حين تلقّاهم قبل دخولهم مصر. وفي الآية تقديم وتأخير، والاستثناء يرجع إلى الاستغفار وهو من قول يعقوب لبنيه سوف أستغفر لكم ربّي إن شاء الله. وقيل: الاستثناء يرجع إلى الأمن من الجواز لأنهم كانُوا لَا يدخلون مصر قبله إلّا بجواز من ملوكهم، يقول: آمنين من الجواز إن شاء الله، كما قال: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ الله آمنين ﴾ [الفتح: ٢٧]. وقيل: ﴿ إنْ ﴾ ههنا بمعنى إذ، يريد إذ شاء الله، كقوله تعالى: ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتُم مؤمنين ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، أي: إذْ كنتم مؤمنين.

﴿ ورَفَعَ أبويهِ على العرشِ ﴾، أي: على السرير، أجلسهما. والرفع: هو النقل إلى العلو. ﴿ وخرُّوا له

إنما ذكر إنعام الله عليه في إخراجه من السجن وإن كان الجب أصعب منه استعمالاً للأدب والكرم لئلا يخجل إخوته بعد أن قال لهم لا تثريب عليكم اليوم ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن كانت أعظم من إخراجه من الجب وسبب ذلك أن خروجه من الجب كان سبباً لحصوله في العبودية والرق وخروجه من السجن كان سبباً لوصوله إلى الملك وقيل إن دخوله الجب كان لحسد إخوته ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من أعظم نعمه عليه ﴿**وجاء بكم من البدو**﴾ يعني من البادية وأصل البدو هو البسيط من الأرض يبدو الشخص فيه من بعد يعني يظهر والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية ﴿**من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي**﴾ يعني أفسد ما بيننا بسبب الحسد وأصل النزغ دخول في أمر لافساده واستدل بهذه الآية من يرى بطلان الجبر من المبتدعة قالوا لأن يوسف أضاف الإحسان إلى الله وأضاف النزغ إلى الشيطان ولو كان من فعل الله لوجب أن ينسب إليه كما في الإحسان والنعم، والجواب عن هذا الاستدلال أن إسناد الفعل إلى الشيطان وإضافته إليه على سبيل المجاز وإن كان ظاهر اللفظ يقتضي إضافة الفعل إلى الشيطان لا على الحقيقة لأن الفاعل المطلق المختار هو الله تعالى في الحقيقة «قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» فثبت بذلك أن الكل من عند الله وبقضائه وقدره ليس للشيطان فيه مدخل إلا بإلقاء الوسوسة والتحريش لإفساد ذات البين وذلك بإقدار الله إياه على ذلك ﴿**إن ربي لطيف لما يشاء**﴾ يعني أنه تعالى ذو لطف عالم بدقائق الأمور وخفياتها.

قال صاحب المفردات: وقد يعبر باللطف عما تدركه الحاسة ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه وأن يكون لمعرفه بدقائق الأمور وأن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم، وقوله: إن ربي لطيف لما يشاء، أي حسن الاستخراج تنبيهاً على ما أوصل إلى يوسف حين ألقاه إخوته في الجب.

وقيل إن اجتماع يوسف بأبيه وإخوته بعد طول الفرقة وحسد إخوته له وإزالة ذلك مع طيب الأنفس وشدة المحبة كان من لطف الله بهم حيث جعل ذلك كله لأن الله تعالى إذا أراد أمراً هيأ أسبابه ﴿**إنه هو العليم**﴾ يعني بمصالح عباده ﴿**الحكيم**﴾ في جميع أفعاله.

قال أصحاب الأخبار والتواريخ: إن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام عند يوسف بمصر أربعاً وعشرين سنة في

سُجّدا ﴾، يعني: يعقوب وخالته وإخوته وكانت تحية الناس يومئذ السجود، ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض، وإنما هو الانحناء والتواضع. وقيل: وضعوا الجِباه على الأرض وكان ذلك على طريق التحية والتعظيم، لا على طريق العبادة. وكان ذلك جائزاً في الأمم السالفة فنسخ في هذه الشريعة. ورُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: معناه خرّوا لله عزّ وجلّ سُجّداً بين يدي يوسف. والأول أصح. ﴿ **وقالَ** ﴾، يوسف عند ذلك، ﴿ **يا أَبتِ هذا تأويلُ رُؤيايَ مِنْ قبلُ قدْ جَعَلَها ربِّي حقّاً**﴾، هو قوله: ﴿ إنّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين ﴾ [يوسف: ٤]. ﴿ **وقَدْ أحسنَ بي** ﴾، ربّي، أي: أنعم عليّ، ﴿ **إذْ أخرجني من السجن** ﴾، ولم يقل من الجب مع كونه أشد بلاءً من السجن استعمالاً للكرم لكيلا يُخجِل إخوته بعدما قال لهم: ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ [يوسف: ٩٢]، ولأنه نعمة الله عليه في إخراجه من السجن أعظم، لأنه بعد الخروج من الجبّ صار إلى العبودية والرقّ، وبعد الخروج من السجن صار إلى المُلْك، ولأن وقوعه في البئر كان لحسد إخوته وفي السجن كان مكافأة من الله تعالى لزلّة كانت منه. ﴿ **وجاءَ بِكُم مِّنَ البَدْوِ** ﴾، والبدو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشي بماشيتهم، وكانوا أهل بادية ومواشي، يقال بدَا يبدُو إذا صار إلى البادية. ﴿ **مِنْ بَعْدِ أنْ نَّزَغَ** ﴾، أفسد، ﴿ **الشيطانُ بيني وبينَ إخوتي** ﴾، بالحسد والبغض، ﴿ **إنّ ربّي لطيفٌ** ﴾، أي: ذُو لُطف، ﴿ **لِما يشاءُ** ﴾، وقيل: معناه لِمَن يشاء. وحقيقة اللطيف الذي يوصل الإحسان إلى غيره بالرفق ﴿ **إنّه هو العليمُ الحكيمُ** ﴾، قال أهل التاريخ: أقام يعقوب

أهنأ عيش وأنعم بال وأحسن حال فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند قبر أبيه إسحاق في الأرض المقدسة بالشام فلما مات يعقوب عليه السلام بمصر فعل يوسف ما أمره به أبوه فحمل جسده في تابوت من ساج حتى قدم به الشام فوافق ذلك موت العيص أخي يعقوب وكانا قد ولدا في بطن واحد فدفنا في قبر واحد وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين سنة فلما دفن يوسف أباه وعمه رجع إلى مصر.

قالوا لما جمع الله شمل يوسف عليه الصلاة والسلام بأبيه وإخوته علم أن نعيم الدنيا زائل سريع الفناء لا يدوم فسأل الله حسن العاقبة والخاتمة الصالحة فقال:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾

﴿رب﴾ أي يا رب ﴿قد آتيتني من الملك﴾ يعني من ملك مصر ومن هنا للتبعيض لأنه لم يؤت ملك مصر كله بل كان فوقه ملك آخر والملك عبارة عن الاتساع في المقدور لمن له السياسة والتدبير ﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ يعني تعبير الرؤيا ﴿فاطر السموات والأرض﴾ يعني خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق.

وأصل الفطر الشق يقال فطر ناب البعير إذا شق وظهر وفطر الله الخلق أوجده وأبدعه ﴿أنت وليي﴾ يعني معيني ومتولي أمري ﴿في الدنيا والآخرة توفني مسلماً﴾ أي اقبضني إليك مسلماً.

واختلفوا هل هو طلب للوفاة في الحال أم لا على قولين:

أحدهما: أنه سأل الله الوفاة في الحال، قال قتادة: لم يسأل نبي من الأنبياء الموت إلا يوسف قال أصحاب هذا القول وإنه لم يأت عليه أسبوع حتى توفي.

والقول الثاني: أنه سأل الوفاة على الإسلام ولم يتمن الموت في الحال قال الحسن إنه عاش بعد هذه سنين كثيرة فعلى هذا القول يكون معنى الآية توفني إذا توفيتني على الإسلام فهو طلب لأن يجعل الله وفاته على الإسلام

بمصر عند يوسف أربعاً وعشرين سنة في أغبط حال وأهنأ عيش، ثم مات بمصر فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق، ففعل يوسف ذلك، ومضى به حتى دفنه بالشام، ثم انصرف إلى مصر. وقال سعيد بن جبير: نُقل يعقوبُ عليه السلام في تابوت من ساج إلى بيت المقدس، فوافق ذلك موت العيص فَدُفِنَا في قبر واحد، وكانا وُلِدَا في بطن واحد، وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين سنة، فلما جمع الله تعالى ليوسف شمله على أنّ نعيم الدنيا لا يدوم سأل الله تعالى حُسنَ العاقبة، فقال:

فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتيتني مِنَ المُلْكِ﴾، يعني: ملك مصر، والمُلْك: اتّساع المقدور لمَن له السياسة والتدبير. ﴿وعلّمتني من تأويلِ الأحاديثِ﴾، يعني: تعبير الرؤيا. ﴿فَاطِرَ﴾، أي: يا فاطر، ﴿السمٰواتِ والأرضِ﴾، أي: خالقهما ﴿أنتَ وليّي﴾، أي: مُعيني ومتولّي أمري، ﴿في الدنيا والآخرة توفّني مسلماً﴾، يقول: اقبضني إليك مسلماً، ﴿وألحقني بالصالحين﴾، يريد بآبائي النبيّين. قال قتادة: لم يسأل نبيٌّ من الأنبياء الموت إلاّ يوسف. وفي القصة: لمّا جمع الله شمله وأوصل إليه أبويه وأهله اشتاق إلى ربِّه عزّ وجلّ فقال هذه المقالة. قال الحسن: عاش بعد هذا سنين كثيرة. وقال غيره: لمّا قال هذا القول لم يمضِ عليه أسبوع حتى توفي. واختلفوا في مدة غيبة يوسف عن أبيه، فقال الكلبي: اثنتان وعشرون سنة. وقيل: أربعون سنة. وقال الحسن: ألقي يوسف في

وليس في اللفظ ما يدل على أنه طلب الوفاة في الحال، قال بعض العلماء وكلا القولين محتمل لأن اللفظ صالح للأمرين ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل أن يتمنى الموت لعلمه أن الدنيا ولذاتها فانية زائلة سريعة الذهاب وأن نعيم الآخرة باق دائم لا نفاذ له ولا زوال ولا يمنع من هذا قوله ﷺ «لا يتمن أحدكم الموت لضر نزل به» فإن تمني الموت عند وجود الضر ونزول البلاء مكروه والصبر عليه أولى وقوله: ﴿وألحقني بالصالحين﴾ أراد به بدرجة آبائه وهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام قال علماء التاريخ عاش يوسف مائة وعشرين سنة وفي التوراة مائة وعشر سنين وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد أفرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب وقيل عاش بعد أبيه ستين سنة وقيل أكثر.

ولما مات يوسف عليه الصلاة والسلام دفنوه في النيل في صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر وذلك أنه لما مات يوسف تشاحن الناس فيه فطلب كل أهل محلة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته حتى هموا أن يقتتلوا ثم رأوا أن يدفنوه في النيل بحيث يجري الماء عليه ويتفرق عنه وتصل بركته إلى جميعهم وقال عكرمة إنه دفن في الجانب الأيمن من النيل فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب وأجدب الجانب الأيمن فدفنوه في وسط النيل وقدروه بسلسلة فأخصب الجانبان فبقي إلى أن أخرجه موسى عليه الصلاة والسلام وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام في الأرض المقدسة.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

قوله عز وجل: ﴿ذلك﴾ يعني الذي ذكرت لك يا محمد من قصة يوسف وما جرى له مع إخوته، ثم إنه صار إلى الملك بعد الرق ﴿من أنباء الغيب﴾ يعني أخبار الغيب ﴿نوحيه إليك﴾ يعني الذي أخبرناك به من أخبار يوسف وحي أوحيناه إليك يا محمد وفي هذه الآية دليل قاطع على صحة نبوة محمد ﷺ لأنه كان رجلاً أمياً لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر إلى بلد آخر غير بلده الذي أنشأ فيه ﷺ وأنه نشأ بين أمة أمية مثله، ثم إنه ﷺ أتى بهذه القصة

الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد لقاء يعقوب ثلاثاً وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة. وفي التوراة مات وهو ابن مائة وعشر سنين وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد أفرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب المبتلى عليه السلام. وقيل: عاش يوسف بعد أبيه ستّين سنة. وقيل: أكثر. واختلفتِ الأقاويل فيه. وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، فدفنوه في النيل في صندوق من رخام، وذلك أنه لمّا مات تشاحّ الناس فيه فطلب أهل كل محلّة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته، حتى همُّوا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه في النيل حيث يتفرّق الماء بمصر ليجري الماء عليه وتصل بركته إلي جميعهم. وقال عكرمة: دفن في الجانب الأيمن من النيل، فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر، فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر، فدفنوه في وسطه. وقدّروا ذلك بسلسلة فأخصب الجانبان جميعاً إلى أن أخرجه موسى فدفنه بقرب آبائه بالشام.

﴿ ذلكَ ﴾، الذي ذكرتُ، ﴿ من أنباءِ الغيبِ نُوحيه إليكَ وما كُنْتَ لديهِمْ ﴾، أي: ما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب، ﴿ إذْ أجمعُوا أمرَهم ﴾، أي: عزَمُوا على إلقاء يوسف في الجب، ﴿ وهم يمكرُون ﴾، بيوسف.

الطويلة على أحسن ترتيب وأبين معان وأفصح عبارة فعلم بذلك أن الذي أتى به هو وحي إلهي ونور قدسي سماوي فهو معجزة له قائمة إلى آخر الدهر.

وقوله تعالى: **﴿وما كنت لديهم﴾** يعني وما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب **﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾** يعني حين عزموا على إلقاء يوسف ﷺ في الجب **﴿وهم يمكرون﴾** يعني بيوسف **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾** الخطاب للنبي ﷺ والمعنى وما أكثر الناس يا محمد لو حرصت على إيمانهم بمؤمنين وذلك أن اليهود وقريشاً سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فلما أخبرهم بها على وفق ما عندهم في التوراة لم يسلموا فحزن رسول الله ﷺ لذلك فقيل له إنهم لا يؤمنون ولو حرصت على إيمانهم ففيه تسلية له **﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾** يعني على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله من أجر يعني أجراً وجعلا على ذلك **﴿إن هو﴾** أي ما هو يعني القرآن **﴿إلا ذكر﴾** يعني عظة وتذكيراً **﴿للعالمين وكأين من آية﴾** يعني وكم من آية دالة على التوحيد **﴿في السموات والأرض يمرون عليها﴾** يعني لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها **﴿وهم عنها معرضون﴾** أي لا يلتفتون إليها والمعنى ليس إعراضهم عن هذه الآيات الظاهرة الدالة على وحدانية الله تعالى بأعجب من إعراضهم عنك يا محمد **﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾** يعني أن من إيمانهم أنهم إذا سئلوا من خلق السموات والأرض قالوا الله وإذا قيل لهم من ينزل المطر قالوا الله وهم مع ذلك يعبدون الأصنام.

وفي رواية عن ابن عباس: إنهم يقرون أن الله خالقهم فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره فذلك شركهم، وفي رواية أخرى عنه أيضاً أنها نزلت في تلبية مشركي العرب وذلك أنهم كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، وقال عطاء هذا في الدعاء وذلك أن الكفار نسوا ربهم في الرخاء فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء.

﴿ وما أكثرُ الناسِ ﴾، يا محمد، **﴿ ولو حَرَصْتَ بمؤمنين ﴾**، على إيمانهم. ورُوِيَ أن اليهود وقريشاً سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فلما أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا، فحزن النبي ﷺ ولذلك، فقيل لهم: إنهم لا يؤمنون وإن حَرَصْتَ على إيمانهم.

﴿ وما تسألُهم عليهِ ﴾، أي: على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله تعالى، **﴿ مِنْ أجْرٍ ﴾**، جُعْلٍ وجزاءٍ، **﴿ إنْ هُوَ ﴾**، ما هو يعني القرآن، **﴿ إلاّ ذِكرٌ ﴾**، عِظة وتذكير، **﴿ للعالمين ﴾**.

﴿ وكأيِّنْ ﴾، وكم، **﴿ مِّنْ آيةٍ ﴾**، عِبرةٍ ودَلالةٍ، **﴿ في السمٰواتِ والأرضِ يَمرُّونَ عليها وهم عنها مُعْرِضُون ﴾**، لا يتفكّرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿ وما يُؤمنُ أكثرُهم باللّهِ إلاّ وهُمْ مُّشرِكُون ﴾، فكان من إيمانهم إذا سُئِلُوا: مَن خلق السمٰواتِ والأرض؟ قالوا: الله، وإذا قيل لهم: مَن ينزّل القطرَ؟ قالوا: الله، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون. وعن ابن عباس أنه قال: إنها نزلت في تلبية المشركين من العرب كانوا يقولون في تلبيتهم: لَبّيك اللّهمّ لبّيك لبّيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك تملكه وما ملك. وقال عطاء: هذا في الدعاء وذلك أن الكفّار نسوا ربّهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء، كما قال الله تعالى: ﴿ وظنّوا أنهم أُحيطَ بهم دَعَوُا اللّهَ مُخلصينَ له الدِّين ﴾ [يونس: ٢٢] الآية: ﴿ فإذا رَكِبُوا في الفُلْكِ دَعَوُا اللّهَ مخلصين له الدِّينَ فلما نجّاهم إلى البرّ إذا هُمْ يُشْرِكُون ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وغير ذلك من الآيات.

أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ
أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا
رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ يعني عقوبة مجللة تعمهم وقال مجاهد عذاب يغشاهم، وقال قتادة: وقيعة وقال الضحاك يعني الصواعق والقوارع ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾ يعني فجأة ﴿وهم لا يشعرون﴾ يعني بقيامها قال ابن عباس: تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم ﴿قل﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿هذه سبيلي﴾ يعني طريقي التي ﴿أدعو﴾ إليها وهي توحيد الله عز وجل ودين الإسلام وسمي الدين سبيلاً لأنه الطريق المؤدي إلى الله عز وجل وإلى الثواب والجنة ﴿إلى الله﴾ يعني إلى توحيد الله والإيمان به ﴿على بصيرة﴾ يعني على يقين ومعرفة والبصيرة هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل ﴿أنا ومن اتبعني﴾ يعني من آمن بي وصدق بما جئت به أيضاً يدعو إلى الله، وهذا قول الكلبي وابن زيد قال: حق على من اتبعه وآمن به أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن وقيل تم الكلام عند قوله أدعو إلى الله ثم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعني بعدي أنا على بصيرة ومن اتبعني أيضاً على بصيرة قال ابن عباس إن محمداً ﷺ وأصحابه كانوا على أحسن طريقة وأفضل هداية وهم معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن.

وقال ابن مسعود: ومن كان مستناً فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة وأبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه محمد ﷺ ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطريقهم فهؤلاء كانوا على الصراط المستقيم.

وقوله ﴿سبحان الله﴾ أي وقل سبحان الله يعني تنزيهاً له عما لا يليق بجلاله من جميع العيوب والنقائص والشركاء الأضداد والأنداد ﴿وما أنا من المشركين﴾ يعني وقل يا محمد وما أنا من المشركين الذين أشركوا بالله غيره.

﴿ أفأمِنوا أنْ تأتِيهم غاشِيةٌ مِّن عذابِ اللّهِ ﴾، أي: عقوبة مجلّلة. قال مجاهد: عذاب يغشاهم، نظيره قوله تعالى: ﴿ يومَ يغشاهُمُ العذابُ مِنْ فَوقِهِم ﴾ [العنكبوت: ٥٥] الآية. قال قتادة: وقيعة. وقال الضحاك: يعني الصواعق والقوارع. ﴿ أو تأتِيهمُ الساعة بَغْتَةً ﴾، فجأة، ﴿ وهُمْ لا يَشْعُرون ﴾، بقيامها. قال ابن عباس: تهيج بالناس وهم في أسواقهم.

﴿ قُلْ ﴾، يا محمد، ﴿ هذهِ ﴾، الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها، ﴿ سَبيلي ﴾، سُنّتي ومنهاجي. وقال مقاتل: ديني، نظيره قوله: ﴿ ادْعُ إلى سبيل ربِّك ﴾ [النحل: ١٢٥] أي: إلى دينه. ﴿ أدعُوا إلى اللّهِ على بصيرةٍ ﴾، على يقين. والبصيرة: هي المعرفة التي يميِّز بها بين الحق والباطل، ﴿ أنا ومَن اتّبعني ﴾، أي: ومَن آمن بي وصدّقني أيضاً يدعو إلى الله. هذا قول الكلبي وابن زيد. قال: حق على مَن اتّبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكّرون بالقرآن. وقيل: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ ادعُوا إلى اللّهِ ﴾ ثم استأنف: ﴿ على بصيرةٍ أنا ومَن اتّبعني ﴾، يقول: إني على بصيرة من ربّي وكلّ مَن اتّبعني. قال ابن عباس: يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية، معدن العلم وكنز الإيمان وجند الرحمن. قال عبد الله بن مسعود: مَن كان مُسْتَنّاً فليستنّ بمَن قد ماتَ، فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرّها قلوباً وأعقمها علماً وأقلّها تكلّفاً، اختارهم الله لصحبة نبيّه ولإقامة دينه، فاعرفُوا لهم فضلهم، واتّبعوهم على آثرهم

قوله عز وجل: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ يعني وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالاً مثلك ولم يكونوا ملائكة ﴿نوحي إليهم﴾ هذا جواب لأهل مكة حيث قالوا هلا بعث الله ملكاً والمعنى كيف تعجبوا من إرسالنا إياك يا محمد وسائر الرسل الذين كانوا من قبلك بشر مثلك حالهم كحالك ﴿ومن أهل القرى﴾ يعني من أهل الأمصار والمدن لا من أهل البوادي لأن أهل الأمصار أفضل وأعلم وأكمل عقلاً من أهل البوادي، قال الحسن: لم يبعث نبي من بدو ولا من الجن ولا من النساء، وقيل: إنما لم يبعث الله نبياً من البادية لغلظهم وجفائهم ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ يعني هؤلاء المشركين المكذبين ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ يعني كانت عاقبتهم الهلاك لما كذبوا رسلنا فليعتبر هؤلاء بهم وما حل بهم من عذابنا ﴿ولدار الآخرة خير للذين اتقوا﴾ يعني فعلنا هذا بأوليائنا وأهل طاعتنا إذ أنجيناهم عند نزول العذاب بالأمم المكذبة وما في الدار الآخرة خير لهم يعني الجنة لأنها خير من الدنيا وإنما أضاف الدار إلى الآخرة وإن كانت في الآخرة لأن العرب تضيف الشيء إلى نفسه كقولهم حق اليقين والحق هو اليقين نفسه ﴿أفلا تعقلون﴾ يعني يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنون.

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله عز وجل: ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ قال صاحب الكشاف: حتى متعلقة بمحذوف دلَّ عليه الكلام كأنه قيل وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فتراخى نصرهم حتى إذا استيأس الرسل عن النصر، وقال الواحدي: حتى هنا حرف من حروف الابتداء يستأنف بعدها والمعنى حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قرأ أهل الكوفة وهم عاصم وحمزة والكسائي كذبوا بالتخفيف ووجه هذه القراءة على ما قاله الواحدي أن معناه ظن الأمم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إياهم وإهلاك أعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد، وقال أهل المعاني كذبوا من قولهم كذبتك الحديث أي لم أصدقك ومنه قوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله قال أبو علي والضمير في قوله وظنوا على هذه القراءة للمرسل إليهم والتقدير وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إياهم وإهلاك أعدائهم وهذا معنى قول ابن

وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسِيَرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. قوله تعالى: ﴿ وسُبْحانَ اللَّهِ ﴾، أي: وقلْ سبحانَ اللَّهِ تنزيهاً له عمّا أشركوا به. ﴿ وَمَا أَنا مِنَ المشركين ﴾.

﴿ وما أرسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾، يا محمد، ﴿ إلاّ رجالاً ﴾، ملائكة، ﴿ نُوحي إليهم ﴾، قرأ أبو جعفر وحفص: «نُوحِـي» بالنون وكسر الحاء، وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء. ﴿ مِنْ أهلِ القُرَى ﴾، يعني: من أهل الأمصار دون أهل البوادي لأن أهل الأمصار أعقل من أهل البوادي لغلظهم وجفائهم. ﴿ أفلَمْ يسيرُوا في الأرضِ ﴾، يعني: هؤلاء المشركين المكذّبين، ﴿ فينظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ ﴾، آخر أمر، ﴿ الذينَ مِنْ قبلِهِم ﴾، يعني: الأمم المكذّبة فيعتبروا، ﴿ ولَدَارُ الآخرةِ خيرٌ لِلذينَ اتّقَوْا ﴾، يقول: ﴿ خيرٌ للذينَ اتّقَوا ﴾، يقول جلّ ذكرُه هذا فعلنا بأهلِ طاعتِنا أن ننجيهم عند نزول العذابِ، وما في الدار الآخرة خير لهم، فترك ما ذكرنا اكتفاء بدلالة الكلام عليه. قوله: ﴿ ولَدَارُ الآخرةِ ﴾، قيل: معناه ولدار الحال الآخرة خيرٌ. وقيل: هو إضافة الشيء إلى نفسه، كقوله: ﴿ إنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وكقولهم: يوم الخميس وربيع الآخر. ﴿ أفلا تعقِلُون ﴾، فتؤمنُون.

﴿حتّى إذا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وظَنُّوا أنهم قد كُذِّبُوا جاءهُم نصرُنا﴾، اختلف القُرّاء في قوله: ﴿كُذِّبُـوا﴾ فقرأ أهـل

عباس إنهم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب وإنما ظنوا ذلك لما شاهدوا من امهال الله إياهم ولا يمتنع حمل الضمير في ظنوا على المرسل إليهم وإن لم يتقدم لهم ذكر لأن ذكر الرسل يدل على ذكر المرسل إليهم وإن شئت قلت إن ذكرهم جرى في قوله أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم أي مكذبي الرسل والظن هنا على معنى التوهم والحسبان وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال: حتى إذا استيأس الرسل من قومهم الإجابة وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا من نصرهم وإهلاك من كذبهم وقيل معناه وتيقن الرسل أنهم قد كذبوا في وعد قومهم إياهم الإيمان أي وعدوا أن يؤمنوا ثم لم يؤمنوا وقال صاحب الكشاف وظنوا أنهم قد كذبوا أي كذبتهم أنفسهم حتى حدثتهم بأنهم لا ينصرون أو رجاؤهم كقولهم رجاء صادق ورجاء كاذب والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة وانتظار النصر من الله تعالى وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب، وعن ابن عباس: وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله به من النصر قال وكانوا بشراً وتلا قوله وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله. قال صاحب الكشاف: فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه الطبيعة البشرية وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجانبين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم وأنه متعال عن خلف الميعاد وحكى الواحدي عن ابن الأنباري أنه قال هذا غير معول عليه من جهتين إحداهما أن التفسير ليس عن ابن عباس لكنه من متأول تأول عليه والأخرى أن قوله جاءهم نصرنا دال على أن أهل الكفر ظنوا ما لا يجوز مثله واستضعفوا رسل الله ونصر الله للرسل ولو كان الظن للرسل كان ذلك منهم خطأً عظيماً ولا يستحقون ظفراً ولا نصراً وتبرئة الأنبياء وتطهيرهم واجب علينا إذا وجدنا إلى ذلك سبيلاً وقرأ الباقون وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وظنوا أنهم قد كذبوا بالتشديد ووجه ظاهر وهو أن معناه حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنوا يعني وأيقنوا يعني الرسل أن الأمم قد كذبوهم تكذيباً لا يرجى بعده إيمانهم فالظن بمعنى اليقين وهذا معنى قول قتادة وقال بعضهم معناه حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم وظنوا أن من قد آمن بهم من قومهم قد فارقوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء واستبطؤوا النصر أتاهم النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى الحسبان والتكذيب مظنون من جهة من آمن بهم يعني وظنوا بالرسل ظن حسبان أن ربهم قد كذبهم في وعد الظفر والنصر لإبطائه وتأخره عنهم ولطول البلاء بهم لا أنهم كذبوهم في كونهم رسلاً وقيل إن هذا التكذيب لم يحصل من أتباعهم المؤمنين لأنه لو حصل لكان نوع كفر ولكن الرسل ظنت بهم ذلك لبطء النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى اليقين والتكذيب المتيقن هو من جهة الكفار وعلى القولين جميعاً فالكناية في وظنوا للرسل (خ) عن عروة بن الزبير: أنه سأل عائشة عن قوله تعالى حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا

الكوفة وأبو جعفر: «كَـذبوا» بالتخفيف، وكانت عائشة تنكر هذه القراءة. وقرأ الآخرون بالتشديد، فمَن شدّده قال: معناه حتى إذا استيأس، الرسلُ من إيمان قومهم وظنّوا أيْ أيقنوا يعني الرسل أنّ الأمم قد كذّبوهم تكذيباً لا يُرجى بعد إيمانهم، والظنّ بمعنى اليقين: وهذا معنى قول قتادة. وقال بعضهم: معناه حتى إذا استيأسَ الرسلُ ممّن كذّبهم من قومهم أن يُصدِّقوهم، وظنّوا أن مَن آمن بهم من قومهم قد كذبوهم وارتدّوا عن دينهم لشدّة المحنة والبلاء عليهم استبطاءَ النصرَ. ومَنْ قرأ بالتخفيف قال: معناه حتى إذا استيأسَ الرسلُ من إيمان قومهم وظنّوا أي: ظنّ قومُهم أن الرسل قد كذبتهم في وعيد العقاب. ورُوِيَ عن ابن عباس: أن معناه ضعف قلوبهم، يعني: وظنّت الرسل أنهم قد كذبوا فيما وعدوا من النصر، وكانوا بشراً فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم قد أُخلِفُوا، ثم تلا: ﴿ حتى يقولَ الرسولُ والذينَ آمنوا معه متَى نصرُ اللّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٤] جاءَهم أي: الرسل نصرُنا. ﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ﴾، قرأ العامّة بنونين، أي: نحن ننجي مَن نشاء. وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب بنون واحدة مضمومة وتشديد

أو كذبوا، قالت: بل كذبهم قومهم فقلت والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم وما هو بالظن فقالت يا عروة أجل لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها قد كذبوا فقالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك من ربهم قلت فما هذه الآية قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنوا أن أتباعهم كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك. وفي رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة قال: قال ابن عباس حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا خفيفة قال ذهب لها هنالك وتلا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب قال فلقيت عروة بن الزبير وذكرت ذلك له فقال قالت عائشة معاذ الله والله ما وعد الله ورسوله من شيء قط إلا علم أنه كائن قبل أن يموت ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا أن يكون معهم من قومهم من يكذبوهم فكانت تقرؤها وظنوا أنهم قد كذبوا مثقلة.

وقوله تعالى: ﴿**جاءهم نصرنا**﴾ يعني جاء نصر الله النبيين ﴿**فنجي من نشاء**﴾ من عبادنا يعني عند نزول العذاب بالكافرين فننجي المؤمنين المطيعين ﴿**ولا يرد بأسنا**﴾ يعني عذابنا ﴿**عن القوم المجرمين**﴾ يعني المشركين قوله تعالى: ﴿**لقدكان في قصصهم**﴾ يعني في خبر يوسف وإخوته ﴿**عبرة**﴾ أي موعظة ﴿**لأولي الألباب**﴾ يعني يتعظ بها أولو الألباب والعقول الصحيحة ومعناه الاعتبار والعبرة الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد والمراد من التأمل والتفكر ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه وإخراجه من السجن وتمليكه مصر بعد العبودية وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع لقادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته وإظهار دينه وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب فكانت معجزة لمحمد ﷺ، وقيل: إن الله تعالى قال في أول هذه السورة نحن نقص عليك أحسن القصص وقال في آخرها لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب فدل على هذه القصة من أحسن القصص وإن فيها عبرة لمن اعتبرها ﴿**ما كان حديثاً يفترى**﴾ يعني ما كان هذا القرآن حديثاً يفتري ويختلق لأن الذي جاء به من عند الله وهو محمد ﷺ لا يصح منه أن يفتريه أو يختلقه لأنه لم يقرأ الكتب ولم يخلط العلماء ثم إنه جاء بهذا القرآن المعجز فدل ذلك على صدقه وأنه ليس بمفتر ﴿**ولكن تصديق الذي بين يديه**﴾ يعني ولكن كان تصديق الذي بين يديه من الكتب الإلهية المنزلة من السماء من التوراة والإنجيل وفيه إشارة إلى أن هذه القصة وردت على وجه الموافق لما في التوراة من ذكر قصة يوسف ﴿**وتفصيل كل شيء**﴾ يعني أن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد تفصيل كل شيء تحتاج إليه من الحلال والحرام والحدود والأحكام والقصص والمواعظ والأمثال وغير ذلك مما يحتاج إليه العباد في أمر دينهم ودنياهم ﴿**وهدى**﴾ يعني إلى كل خير ﴿**ورحمة**﴾ يعني أنزلناه رحمة ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون به والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

تم الجزء الثالث من تفسير الخازن ويليه الجزء الرابع وأوله: تفسير سورة الرعد

الجيم وفتح الياء على ما لم يسمَّ فاعله، لأنها مكتوبة في المصحف بنون واحدة مضمومة، فيكون محل «مَـنْ» رفعاً على هذه القراءة، وعلى القراءة الأولى يكون نصباً، فَنُجِّيَ مَنْ نشاءُ عند نزول العذاب، وهم المؤمنون المطيعون. ﴿ **ولاَ يُردُّ بأسُنا** ﴾، عذابُنا، ﴿ **عَنِ القومِ المجرمين** ﴾، أي: المشركين.

﴿ **لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ** ﴾، أي: في خبر يوسف وإخوته، ﴿ **عِبْرَةٌ** ﴾ عِظة، ﴿ **لأُولي الألبابِ مَا كانَ** ﴾، يعني: القرآن، ﴿ **حديثاً يُفترَى** ﴾، أي: يُختلق، ﴿ **ولكنْ تصديقَ الذي** ﴾، أي: ولكنْ كان تصديقَ الذي، ﴿ **بينَ يديهِ** ﴾، من التوراة والإنجيل، ﴿ **وتفصيلَ كلِّ شيءٍ** ﴾، مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والأمر والنهي، ﴿ **وهُدًى ورحمةً** ﴾، بياناً ونعمةً، ﴿ **لقومٍ يُؤمنُون** ﴾.

تمّ الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث وأوله سورة الرعد

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
(قرآن كريم)

تفسير سورة الرعد

قال ابن الجوزي: اختلفوا في نزولها على قولين: أحدهما أنها مكية، رواه أبو طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة. وروى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية إلا آيتين إحداهما قوله ﴿**ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة**﴾ والأخرى قوله ﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلاً**﴾. والقول الثاني أنها مدنية رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وبه قال جابر بن زيد وروي عن ابن عباس أنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة، وهما قوله ﴿**ولو أن قرآناً سيرت به الجبال**﴾ إلى آخر الآيتين وقال بعضهم: المدني منها قوله ﴿**هو الذي يريكم البرق**﴾ إلى قوله ﴿**دعوة الحق**﴾ وهي ثلاث وقيل خمس وأربعون آية وثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

قوله عز وجل ﴿**الٓمٓر**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه أنا الله أعلم وأرى. وروى عطاء عنه أنه قال: إن معناه أنا الله الملك الرحمن ﴿**تلك آيات الكتاب**﴾ الإشارة بتلك إلى آيات السورة المسماة بالمرّ، والمراد بالكتاب السورة أي آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ثم قال تعالى: ﴿**والذي أنزل إليك من ربك الحق**﴾ يعني من القرآن كله هو الحق الذي لا مزيد عليه، وقيل المراد بالإشارة في قوله: تلك الأخبار والقصص أي الأخبار والقصص التي قصصتها عليك يا محمد هي آيات التوراة والإنجيل والكتب الإلهية القديمة المنزلة، والذي أنزل إليك يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك يا محمد من ربك الحق أي هو الحق فاعتصم به وقال ابن عباس وقتادة: أراد بآيات الكتاب القرآن، والمعنى: هذه آيات الكتاب الذي هو القرآن ثم قال: والذي أنزل إليك من ربك الحق، يعني: وهذا القرآن

سُوْرَة الرَّعْدِ

مكية إلا قوله: ﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ [٣١]، وقوله: ﴿ ويقول الذين كفروا لَسْتَ مرسلاً ﴾ [٤٣]، وهي ثلاث وأربعون آية.

﴿ **الٓمٓر** ﴾ قال ابن عباس: معناه أنا الله أعلم وأرى، ﴿ **تلك آياتُ الكتاب** ﴾، يعني: تلك الأخبار التي قصصتُها عليك آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة، ﴿ **والذي أنزل إليك** ﴾، يعني: وهذا القرآن الذي أنزل إليك، ﴿ **من ربِّك الحقّ** ﴾، أي: هو الحق فاعتصم به، فيكون محل الذي رفع على الابتداء والحق خبره، وقيل:

الذي أنزل إليك من ربك هو الحق لا شك فيه ولا تناقض ﴿**ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**﴾ يعني مشركي مكة نزلت هذه الآية في الرد عليهم حين قالوا إن محمداً يقوله من تلقاء نفسه، ثم ذكر من دلائل ربوبيته وعجائب قدرته ما يدل على وحدانيته فقال تعالى: ﴿**الله الذي رفع السموات بغير عمد**﴾ جمع عمود وهي الأساطين والدعائم التي تكون تحت السقف وفي قوله: ﴿**ترونها**﴾ قولان أحدهما أن الرؤية ترجع إلى السماء يعني: وأنتم ترون السموات مرفوعة بغير عمد من تحتها يعني ليس من دونهما دعامة تدعمها ولا من فوقها علاقة تمسكها، والمراد نفي العمد بالكلية. قال إياس بن معاوية: السماء مقبية على الأرض مثل القبة، وهذا قول الحسن وقتادة وجمهور المفسرين، وإحدى الروايتين عن ابن عباس. والقول الثاني: إن الرؤية ترجع إلى العمد، والمعنى أن لها عمداً ولكن لا ترونها أنتم، ومن قال بهذا القول يقول: إن عمدها على جبل قاف، وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا، والسماء عليه مثل القبة، وهذا قول مجاهد وعكرمة والرواية الأخرى عن ابن عباس، والقول الأول أصح، وقوله تعالى ﴿**ثم استوى على العرش**﴾ تقدم تفسيره والكلام عليه في سورة الأعراف بما فيه كفاية ﴿**وسخر الشمس والقمر**﴾ يعني ذللهما لمنافع خلقه فهما مقهوران، يجريان على ما يريد ﴿**كلٌ يجري لأجل مسمى**﴾ يعني إلى وقت معلوم، وهو وقت فناء الدنيا وزوالها. وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما يعني أنهما يجريان في منازلهما ودرجاتهما إلى غاية ينتهيان إليها ولا يجاوزانها، وتحقيقه أن الله تعالى جعل لكل واحد من الشمس والقمر سيراً خاصاً إلى جهة بمقدار خاص من السرعة والبطء في الحركة، ﴿**يدبر الأمر**﴾ يعني أنه تعالى يدبر أمر العالم العلوي والسفلي، ويصرفه ويقضيه بمشيئته، وحكمته، على أكمل الأحوال لا يشغله شأن عن شأن، وقيل: يدبر الأمر بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة، ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة، لأن جميع العالم محتاجون إلى تدبيره ورحمته، داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته ﴿**يفصل الآيات**﴾ يعني أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته. وقيل. إن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان: **الأول**: الموجودات المشاهدة، وهي خلق السموات والأرض وما فيهما من العجائب وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم وهذا قد تقدم ذكره. والقسم **الثاني**: الموجودات الحادثة في العالم، وهي الموت بعد الحياة والفقر بعد الغنى والضعف بعد القوة إلى غير ذلك من أحوال هذا العالم، وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع وكمال قدرته ﴿**لعلكم بلقاء ربكم توقنون**﴾ يعني أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته لكي توقنوا، وتصدقوا بلقائه والمصير إليه بعد الموت لأن من قدر على إيجاد الإنسان بعد عدمه قادر على

محله خفض يعني تلك آيات الكتاب وآيات الذي أنزل إليك، ثم ابتدأ الحق يعني ذلك الحق، وقال ابن عباس: أراد بالكتاب القرآن، ومعناه هذه آيات الكتاب يعني القرآن، ثم قال: وهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناس لا يؤمنون ﴾، قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة حين قالوا: إن محمداً يقوله من تلقاء نفسه، فردّ قولهم ثم بين دلائل ربوبيته، فقال عَزّ من قائل:

﴿ **الله الذي رفع السمواتِ بغيرِ عمدٍ ترونها** ﴾، يعني: السواري واحدها عمود مثل أديم وأدم وعمد أيضاً جمعه مثل رسول ورُسل، ومعناه نفي العمد أصلاً وهو الأصح يعني ليس من دونها دعامة تدعمها ولا فوقها علاقة تمسكها. قال إياس بن معاوية: السماء مقبية على الأرض مثل القبة. وقيل: ترونها راجعة إلى العمد، معناه: لها عمد ولكن لا ترونها، وزعم: أن عمدها جبل قاف وهو محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبـة. ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾، علاً عليه، ﴿ **وسخّر الشمسَ والقمرَ** ﴾، **ذلّلهما لمنافع خلقه فهما مقهوران**، ﴿ **كلٌ يجري** ﴾، أي: **يجريان على ما يريد الله عزّ وجلّ**، ﴿ **لأجلٍ مسمى** ﴾، أي: إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا. وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما ينتهيان إليها ولا يجاوزانها، ﴿ **يُدبِّر الأمرَ** ﴾، يقضيه وحده، ﴿ **يُفصّل**

إيجاده وإحيائه بعد موته، واليقين صفة من صفات العلم، وهو فوق المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك، يقال منه استيقن وأيقن بمعنى علم. قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

﴿وهو الذي مد الأرض﴾ لما ذكر الدلالة على وحدانيته وكمال قدرته وهي رفع السموات بغير عمد، وذكر أحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الأرضية، فقال: وهو الذي مد الأرض أي بسطها على وجه الماء، وقيل: كانت الأرض مجتمعة فمدها من تحت البيت الحرام، وهذا القول إنما يصح إذا قيل إن الأرض منسطحة كالأكف، وعند أصحاب الهيئة: الأرض كرة، ويمكن أن يقال: إن الكرة إذا كانت كبيرة عظيمة فكل قطعة منها تشاهد ممدودة كالسطح الكبير العظيم، فحصل الجمع ومع ذلك فالله تعالى قد أخبر أنه مد الأرض، وأنه دحاها وبسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى أصدق قيلاً وأبين دليلاً من أصحاب الهيئة ﴿وجعل فيها﴾. يعني في الأرض ﴿رواسي﴾ يعني جبالاً ثابتة، يقال: رسا الشيء يرسو إذا ثبت وأرساه غير أثبته قال ابن عباس: كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض ﴿وأنهاراً﴾، يعني وجعل في الأرض أنهاراً جارية لمنافع الخلق ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ يعني صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلواً وحامضاً ﴿يغشي الليل النهار﴾، يعني يلبس النهار ظلمة الليل ويلبس الليل ضوء النهار ﴿إن في ذلك﴾ يعني الذي تقدم ذكره من عجائب صنعته وغرائب قدرته الدالة على وحدانيته ﴿لآيات﴾ أي دلالات ﴿لقوم يتفكرون﴾ يعني فيستدلون بالصنعة على الصانع، وبالسبب على المسبب، والفكر هو تصرف القلب في طلب الأشياء، وقال صاحب المفردات: الفكر قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكر جريان تلك القوة بحسب

الآيات﴾، يبين الدلالات، **﴿لعلّكم بلقاء ربكم تُوقنون﴾**، لكي توقنوا بوعده وتصدقوه.

﴿وهو الذي مدّ الأرضَ﴾، بسطها، **﴿وجعلَ فيها رَواسي﴾**، جبالاً ثابتة، واحدتها: راسية، قال ابن عباس: كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض، **﴿وأنهاراً﴾**، أي: وجعل فيها أنهاراً. **﴿ومن كلِّ الثمراتِ جعلَ فيها زوجين اثنين﴾**، أي: صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلواً وحامضاً، **﴿يغشي الليلَ النهارَ﴾**، أي: يلبس النهار بظلمة الليل ويلبس الليل بضوء النهار، **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**، فيستدلون والتفكر تصرف القلب في طلب معاني الأشياء.

﴿وفي الأرض قطعٌ متجاورات﴾، متقاربات يقرب بعضها من بعض وهي مختلفة هذه طيبة تنبت وهذه سبخة لا تنبت، وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع، **﴿وجناتٌ﴾** أي: بساتين، **﴿من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ﴾**، رفعها كلها ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب عطفاً على الجنات، وجرها الآخرون نسقاً على

نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب ولهذا روي «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله» إذ كان الله منزلها أن يوصف بصورة. وقال بعض الأدباء: الفكر مقلوب عن الفرك لأنه يستعمل في طلب المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها. قوله عز وجل **﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾** يعني متقاربات بعضها من بعض، وهي مختلفة في الطبائع فهذه طيبة تنبت وهذه سبخة لا تنبت، وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع **﴿وجنات﴾** يعني بساتين والجنة كل بستان ذي شجر من نخيل وأعناب وغير ذلك، سمي جنة لأنه يستر بأشجاره الأرض وإليه الإشارة بقوله **﴿من أعناب وزرع ونخيل صنوان﴾** جمع صنو وهي النخلات يجتمعن من أصل واحد، ومنه قوله ﷺ في عمه العباس «عم الرجل صنو أبيه» يعني أنهما من أصل واحد **﴿وغير صنوان﴾** هي النخلة المنفردة بأصلها فالصنوان المجتمع، وغير الصنوان المتفرق **﴿يسقى بماء واحد﴾** يعني أشجار الجنات وزروعها، والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام، وقيل: في حده جوهر سيال به قوام الأرواح؛ **﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾** يعني في الطعم ما بين الحلو والحامض والعفص وغير ذلك من الطعام. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ «في قوله تعالى: **﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾** قال: الدقل والنرسيان والحلو والحامض» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب. قال مجاهد: هذا كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد، وقال الحسن: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن فسطحها فصارت قطعاً متجاورات، وأنزل على وجهها ماء السماء فتخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها، وتخرج هذه نباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد فلو كان الماء قليلاً. قيل: إنما هذا من قبل الماء كذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو، ولا تسمع. وقال الحسن: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال الله تعالى **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾** وقوله تعالى **﴿إن في ذلك﴾** يعني الذي ذكر **﴿لآيات لقوم يعقلون﴾**

الأعناب، والصنوان جمع صنو وهو النخلات يجتمعهن أصل واحد، **﴿ وغير صنوان ﴾**، هي النخلة المنفردة بأصلها. وقال أهل التفسير: صنوان مجتمع وغير صنوان متفرق نظيره من الكلام قنوان جمع قنو، ومنه قول النبي ﷺ في العباس: «إنّ عمَّ الرجل صنو أبيـه» ولا فرق في الصنوان والقنوان بين الثنية والجمع إلا في الإعراب وذلك أن النون في التثنية مكسورة غير منوّنة وفي الجمع منوّنة، **﴿ يُسقى بماءٍ واحد ﴾**، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب **﴿ يسقى ﴾** بالياء أي يسقى ذلك كله بماء واحد، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى: **﴿ وجناتٍ ﴾** ولقوله تعالى من بعد **﴿ ونفضل بعضها على بعض ﴾**، ولم يقل بعضه والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام، **﴿ ونُفضل بعضَها على بعضٍ في الأكل ﴾**، في الثمر والطعم، قرأ حمزة والكسائي «ويفضـل» بالياء، لقوله تعالى: **﴿ يُدبر الأمرَ يُفصّل الآيات ﴾**. وقرأ الآخرون بالنون على معنى ونحن نفضل بعضها على بعض في الأكل، وجاء في الحديث: «ونفضل بعضها على بعض في الأكل»، قال الفارسي: كجيد التمر والدقل والحلو والحامض. قال مجاهد: كمثل بني آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد. قال الحسن: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن عزّ وجلّ فسطحها فصارت قطعاً متجاورةً فينزل عليها المطر من السماء فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها، وكلٌ يُسقَى بماء واحد، كذلك الناس خلقوا من آدم عليه السلام فينزل من السماء تذكرة فترقّ قلوب فتخشع وتقسو قلوب فتلهو، قال الحسن: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: **﴿ ونُنزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾** [الإسراء: ٨٢]. **﴿ إنّ في ذلك ﴾** الذي ذكرت **﴿ لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾**.

يعني فيتدبرون ويتفكرون في الآيات الدالة على وحدانيته. قوله تعالى ﴿**وإن تعجب فعجب قولهم**﴾ العجب تبعيد النفس رؤية المستبعد في العادة، وقيل: العجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب ولهذا قال بعض الحكماء: العجب ما لا يعرف سببه ولهذا قيل: العجب في حق الله محال لأنه تعالى علّام الغيوب لا تخفى عليه خافية، والخطاب في الآية للنبي ﷺ ومعناه وإنك يا محمد إن تعجب من تكذيبهم إياك بعد أن كنت عندهم تعرف بالصادق الأمين فعجب أمرهم، وقيل: معناه وإن تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع إقرارهم بأن الله تعالى خالق السموات والأرض، وهو يضر وينفع وقد رأوا من قدرة الله وما ضرب لهم به الأمثال ما رأوا فعجب قولهم. وقيل وإنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة والبعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله فعجب قولهم، وذلك أن المشركين كانوا ينكرون البعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله، وقد تقرر في النفوس أن الإعادة أهون من الابتداء فهذا موضع التعجب وهو قولهم ﴿**أئذا كنا تراباً**﴾ يعني بعد الموت ﴿**أئنا لفي خلق جديد**﴾ يعني نعاد خلقاً جديداً بعد الموت كما كنا قبله ثم إن الله تعالى قال في حقهم ﴿**أولئك الذين كفروا بربهم**﴾ وفيه دليل على أن كل من أنكر البعث بعد الموت فهو كافر بالله تعالى، لأن من أنكر البعث بعد الموت فقد أنكر القدرة، وأن الله على كل شيء قدير، ومن أنكر ذلك فهو كافر ﴿**وأولئك الأغلال في أعناقهم**﴾ يعني يوم القيامة، والأغلال جمع غل وهو طوق من حديد يُجعل في العنق. وقيل أراد بالأغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما يقاد الأسير ذليلاً بالغل ﴿**وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ يعني أنهم مقيمون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون. ﴿**ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة**﴾ الاستعجال طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته، والمراد بالسيئة هنا هي العقوبة وبالحسنة العافية، وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاء منهم، وهو قولهم «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» ﴿**وقد خلت من قبلهم المثلات**﴾ يعني وقد مضت في الأمم المكذبة العقوبات بسبب تكذيبهم رسلهم، والمثلة بفتح الميم وضم الثاء المثلثة نقمة تنزل

﴿ **وإنْ تعجبْ فعجبٌ قولهم** ﴾، العجب تغير النفس برؤية المستبعد في العادة والخطاب لرسول الله ﷺ، ومعناه إنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة مع إقرارهم بابتداء الخلق فعجب أمرهم وكان المشركون ينكرون البعث مع إقرارهم بابتداء الخلق من الله تعالى، وقد تقرر في القلوب أن الإعادة أهون من الابتداء، فهذا موضع العجب، وقيل: معناه وإن تعجب من تكذيب المشركين واتخاذهم ما لا يضر ولا ينفع آلهةً يعبدونها وهم قدْ رأوا من قدرة الله تعالى ما ضرب لهم به الأمثال فعجب قولهم، أي: فتعجب أيضاً من قولهم، ﴿ **أئذَا كنا تراباً** ﴾، بعد الموت، ﴿ **أئنا لفي خلق جديد** ﴾، أي: نعاد خلقاً جديداً كما كنا قبل الموت، قرأ نافع والكسائي ويعقوب ﴿ **أئذا** ﴾ مستفهماً (إنـا) بتركـه على الخبر ضده أبو جعفر وابن عامر، وكذلك في ﴿ سبحان ﴾ [٤٩، ٩٨] في موضعين والمؤمنون [٨٢] وآلم السجدة [١٠]، وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما وفي الصافات [١٦ ـ ٥٣] في موضعين هكذا إلا أن أبا جعفر يوافق نافعاً في أول الصافات فيقدم الاستفهام ويعقوب لا يستفهم الثانية أئذا متنا إنّا لمدينون، قال الله تعالى: ﴿ **أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم** ﴾، يوم القيامة ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾.

قوله: ﴿ **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة** ﴾، الاستعجال طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته والسيئة ههنا هي العقوبة والحسنة العافية، وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاءً منهم يقولون: اللّهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. ﴿ **وقدْ خلَتْ من قبلهم المَثُلَاتُ** ﴾، أي: مضت من قبلهم في الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها العقوبات، والمثلات جمع المثلة

بالإنسان فيجعل مثلاً ليرتدع غيره به، وذلك كالنكال وجمعه مثلات بفتح الميم وضمها مع ضم الثاء فيهما لغتان **﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾** قال ابن عباس: معناه إنه لذو تجاوزٍ عن المشركين إذا آمنوا **﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾** يعني للمصرين على الشرك الذي ماتوا عليه. وقال مجاهد: إنه لذو تجاوز عن شركهم في تأخير العذاب عنهم، وإنه لشديد العقاب إذا عاقب. قوله تعالى **﴿ويقول الذين كفروا﴾** يعني من أهل مكة **﴿لولا﴾** أي هلاّ **﴿أنزل عليه﴾** يعني على محمد ﷺ **﴿آية من ربه﴾** يعني مثل عصى موسى وناقة صالح ذلك لأنهم لم يقنعوا بما رأوا من الآيات التي جاء بها النبي ﷺ **﴿إنما أنت منذر﴾** أي ليس عليك يا محمد غير الإنذار والتخويف، وليس لك من الآيات شيء **﴿ولكل قوم هاد﴾** قال ابن عباس: الهادي هو الله، وهذا قول سعيد ابن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك والنخعي، والمعنى إنما عليك الإنذار يا محمد والهادي هو الله يهدي من يشاء. وقال عكرمة في رواية أخرى عنه وأبو الضحى: الهادي هو رسول الله ﷺ المعنى: إنما أنت منذر وأنت هاد، وقال الحسن وقتادة وابن زيد: يعني ولكل قوم نبي يهديهم وقال أبو العالية: الهادي هو العمل الصالح. وقال أبو صالح: الهادي هو القائد إلى الخير لا إلى الشر. قوله عز وجل:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ لما سألوا رسول الله ﷺ الآيات أخبرهم الله عز وجل عن عظيم قدرته، وكمال علمه وأنه عالم بما تحمل كل أنثى يعني من ذكر أو أنثى سويّ الخلق أو ناقص الخلق واحداً أو اثنين أو أكثر **﴿وما تغيض﴾** يعني وما تنقص **﴿الأرحام وما تزداد﴾** قال أهل التفسير: غيض الأرحام الحيض على الحمل فإذا حاضت الحامل كان ذلك نقصاناً في الولد لأن دم الحيض هو غذاء الولد في الرحم، فإذا خرج الدم نقص الغذاء فينقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم، والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم، وقيل: إذا حاضت المرأة في وقت حملها ينقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرة فإن رأت خمسة أيام دماً، وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان في الغذاء زيادة في مدة الحمل. وقيل: النقصان السقط والزيادة

بفتح الميم وضم الثاء مثل صدقة وصدقات. **﴿ وإنّ ربك لَذُو مغفرةٍ للناس على ظلمهم وإنّ ربك لشديدُ العقاب ﴾**.

﴿ ويقول الذين كفروا لَوْلاَ أنزل عليه ﴾، أي: على محمد ﷺ **﴿ آيـةٌ من ربِّه ﴾**، أي: علامة وحجة على نبوته، قال الله تعالى: **﴿ إنما أنت منذر ﴾**، مُخوِّف، **﴿ ولكل قوم هادٍ ﴾**، أي: لكل قوم نبي يدعوهم إلى الله تعالى، وقال الكلبي: داعٍ يدعوهم إلى الحق أو إلى الضلالة. وقال عكرمة: الهادي محمد ﷺ يقول إنما أنت منذر وأنت هاد لكل قوم أي داعٍ، وقال سعيد بن جبير: الهادي هو الله تعالى.

قوله تعالى: **﴿ اللَّهُ يعلمُ ما تحمل كل أنثى ﴾**، من ذكر أو أُنثى سوى الخلق أو ناقص الخلق واحداً أو اثنين أو أكثر **﴿ وما تغيض الأرحام ﴾**، أي ما تنقص **﴿ وما تزداد ﴾**، قال أهل التفسير: غيض الأرحام الحيض على الحمل، فإذا حاضت الحامل كان نقصاناً في الولد لأن دم الحيض غذاء الوالد في الرحم فإذا أهرقت الدم ينقص

تمام الخلق. وقال الحسن: غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر فأقل مدة الحمل ستة أشهر وقد يولد لهذه المدة ويعيش. واختلفوا في أكثره فقال قوم: أكثر مدة الحمل سنتان، وهو قول عائشة، وبه قال أبو حنيفة وقيل: إن الضحاك ولد لسنتين. وقال جماعة: أكثرها أربع سنين وإليه ذهب الشافعي. وقال حماد بن أبي سلمة: إنما سمي هرم بن حيان هرماً لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين، وعند مالك أن أكثر مدة الحمل خمس سنين **﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾** يعني بتقدير واحد لا يجاوزه، ولا ينقص منه. وقيل: إنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على أكمل الوجوه. وقيل: معناه إنه تعالى خصص كل حادثة من الحوادث بوقت معين وحالة معينة وذلك بمشيئته الأزلية وإرادته وتقديره الذي لا يقدر عليه غيره **﴿عالم الغيب والشهادة﴾** يعني أنه تعالى يعلم ما غاب عن خلقه، وما يشاهدونه. وقيل: الغيب هو المعدوم والشاهد هو الموجود. وقيل: الغيب ما غاب عن الحس والشاهد ما حضر في الحس **﴿الكبير﴾** أي العظيم الذي يصغر كل كبير بالإضافة إلى عظمته وكبريائه فهو يعود إلى معنى كبر قدرته، وأنه تعالى المستحق لصفات الكمال **﴿المتعال﴾** يعني المنزه عن صفات النقص المتعالي عن الخلق، وفيه دليل على أنه تعالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة وتنزيهه عن جميع النقائص. قوله تعالى **﴿سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به﴾** أي مستو منكم من أخفى القول وكتمه ومن أظهره وأعلنه، والمعنى أنه قد استوى في علم الله تعالى المسرّ بالقول والجاهر به **﴿ومن هو مستخف بالليل﴾** أي مستتر بظلمته **﴿وسارب بالنهار﴾** أي ذاهب بالنهار في سربه ظاهر. والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق. وقال القتيبي: السارب المتصرف في حوائجه. قال ابن عباس في هذه الآية: هو صاحب ريبة مستخف بالليل، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم. وقيل: مستخف بالليل ظاهر من قولهم خفيت الشيء إذا أظهرته، وأخفيته إذا كتمته وسارب بالنهار أي متوارٍ دخل في السرب مستخفياً، ومعنى الآية: سواء ما أضمرت به القلوب أو نطقت به الألسن، وسواء من أقدم على القبائح مستتراً في ظلمات الليل أو أتى بها ظاهراً في النهار فان علمه تعالى محيط بالكل **﴿له معقبات﴾** يعني: لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار، فإذا صعدت

الغذاء فينتقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقته باستمساك الدم. وقيل: إذا حاضت ينتقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهراً فإن رأت خمسة أيام دماً وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام فالنقصان في الغذاء والزيادة في المدة. وقال الحسن: غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر. وقيل: النقصان والسقط والزيادة تمام الخلق، وأقل مدة الحمل ستة أشهر، فقد يُولد المولود لهذه المدة ويعيش، واختلفوا في أكثرها فقال قوم: أكثرها سنتان وهو قول عائشة رضي الله عنها، وبهِ قال أبو حنيفة رحمه الله، وذهب جماعة إلى أن أكثرها أربع سنين وإليه ذهب الشافعي رحمه الله، قال حماد بن سلمة: إنما سمي هرم بن سنان هرماً لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين. **﴿ وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار ﴾**، أي: بتقدير وحدّ لا يجاوزه ولا يقصر عنه.

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير ﴾، الذي كل شيء دونه. **﴿ المتعال ﴾**، المستعلي على كل شيء بقدرته.

قوله تعالى: **﴿ سواءٌ منكم من أسرّ القولَ ومن جهر به ﴾**، أي: يستوي في علم الله المسرّ بالقول والجاهر به، **﴿ ومن هو مستخفٍ بالليل ﴾**، أي: مستتر بظلمة الليل، **﴿ وساربٌ بالنهار ﴾**، أي: ذاهب في سربه ظاهر، والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق، قال القتيبي: سارب بالنهار أي متصرِّف في حوائجه، قال ابن عباس: هو صاحب ريبة مستخف بالليل فإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم، وقيل: مستخف بالليل أي ظاهر من قولهم خفيت الشيء إذا أظهرته وأخفيته إذا كتمته، وسارب بالنهار أي متوارٍ داخل في سرب.

﴿ له معقباتٌ ﴾، أي: لله تعالى ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل والنهار فإذا صعدت ملائكة الليل جاء في عقبها

ملائكة الليل عقبتها ملائكة النهار والتعقيب العود بعد البدء وإنما ذكر معقبات بلفظ التأنيث، وإن كان الملائكة ذكوراً لأن واحدها معقب، وجمعها معقبة ثم جمع المعقبة معقبات. كما قيل أبناوات سعد ورجالات بكر (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يتعقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم، وهو أعلم بهم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون. وقيل: إن مع كل واحد من بني آدم ملكين ملك عن يمينه، وهو صاحب الحسنات وملك عن شمال وهو كاتب السيئات وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل العبد حسنة كتبها له بعشر أمثالها، وإذا عمل سيئة قال صاحب الشمال لصاحب اليمين أكتبها عليه فيقول: انظره لعله يتوب أو يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات، فإن هو تاب منها وإلا قال: اكتبها عليه سيئة واحدة وملك موكل بناصية العبد فإذا تواضع العبد لله عز وجل رفعه بها، وإن تجبر على الله عز وجل وضعه بها وملك موكل بعينيه يحفظهما من الأذى وملك موكل بفيه لا يدعه يدخل فيه شيء من الهوام يؤذيه فهؤلاء خمسة أملاك موكلون بالعبد في ليله وخمسة غيرهم في نهاره، فانظر إلى عظمة الله تعالى وقدرته وكمال شفقته عليك أيها العبد المسكين. وهو قوله تعالى ﴿**من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله**﴾ يعني: يحفظون العبد من بين يديه ومن وراء ظهره، ومعنى من أمر الله بأمر الله وإذنه ما لم يجيء القدر فإذا جاء خلوا عنه. وقيل: معناه إنهم يحفظونه، بما أمر الله به من الحفظ له. قال مجاهد: ما من عبد إلا وملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما من شيء يأتيه يؤذيه إلا قال له الملك وراءك، إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه. وقال كعب الأحبار: لولا أن الله تعالى وكلَّ بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن. وقال ابن جريج: معنى يحفظونه أي يحفظون عليه الحسنات والسيئات، وهذا على قول من يقول:

ملائكة النهار وإذا صعدت ملائكة النهار جاء في عقبها ملائكة الليل، والتعقيب: العود بعد البدء وإنما ذكر بلفظ التأنيث لأن واحدها معقب، وجمعه معقبة ثم جمع الجمع معقبات كما قيل أبناوات سعد ورجالات بكر. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»: قوله تعالى: ﴿ **من بين يديه ومن خلفه** ﴾، يعني: من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار ومن خلفه من وراء ظهره، ﴿ **يحفظونه من أمر الله** ﴾، يعني: بأمر الله، أي: يحفظونه بإذن الله ما لم يجيء القدر، فإذا جاء القدر خلوا عنه. وقيل: يحفظونه من أمر الله أي مما أمر الله به من الحفظ عنه. قال مجاهد: ما من عبد إلا وبه ملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منهم شيء يأتيه يريده إلّا قال وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه، قال كعب الأحبار: لولا أن الله عزّ وجلّ وكّل بكم ملائكة يذبّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفكم الجن. وقال عكرمة: الآية في الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم. وقيل: الآية في الملكين القاعدين عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات، كما قال الله تعالى: ﴿ **إذْ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ [قٓ: ١٧]، وقال ابن جريج: معنى يحفظونه أي يحفظون عليه من أمر الله يعني الحسنات والسيئات. وقيل: الهاء في له راجعة إلى رسول الله ﷺ. روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال: له معقبات يعني لمحمد ﷺ حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، يعني من شر الجن وطوارق الليل والنهار. وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت هذه الآيات في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وكانت قصتهما على ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

إن الآية في الملكين القاعدين عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات، وقال عكرمة: الآية في الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم، ومن خلفهم والضمير في قوله له راجع إلى النبي ﷺ قال ابن عباس في معنى هذه الآية: لمحمد ﷺ حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من شر الجن وطوارق الليل والنهار. وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت هذه الآية في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة، وهما من بني عامر بن زيد وكانت قصتهما على ما رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قال: «أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهما من بني عامر بن زيد على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه فدخل المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر، وكان من أجمل الناس وكان أعور فقال: يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك، فقال: دعه فان يرد الله به خيراً يهده فأقبل حتى قام على رسول الله ﷺ وقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ قال: لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين. قال: تجعل الأمر لي بعدك؟ قال ليس ذلك لي إنما ذلك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء. قال: فتجعلني على الوبر وأنت على المدر؟ قال: لا قال: فما تجعل لي؟ قال: أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها. قال: أوليس ذلك لي اليوم قم معي أكلمك فقام معه رسول الله ﷺ، وكان عامر قد أوصى إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف، فجعل عامر يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه ودار أربد من خلف رسول الله ﷺ ليضربه، فاخترط شبراً من سيفه ثم حبسه الله تعالى عليه فلم يقدر على سله، وجعل عامر يومىء إليه فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما صنع بسيفه، فقال: اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة في يوم صحو قائظ فأحرقته فولى عامر هارباً وقال: يا محمد دعوت ربك فقتل أربد، والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً وشباباً مرداً. فقال النبي ﷺ: يمنعني الله من ذلك وابنا قيلة يريد الأوس والخزرج، فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم إليه سلاحه، فخرج له خراج في أصل أذنه أخذه منه مثل النار فاشتد عليه فقال غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، ثم ركب فرسه وجعل يركض في الصحراء، ويقول: ادن يا ملك الموت وجعل يقول الشعر، ويقول لئن أبصرت محمداً وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذتهما برمحي فأرسل الله إليه ملكاً فلطمه، فأرداه في التراب ثم عاد فركب جواده حتى مات على

أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة وهما عامريان يريدان رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه، فدخلا المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور وكان من أجلّ الناس، فقال رجل: يا رسول الله، هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك، فقال: دعه فإن يرد الله به خيراً يهذه فأقبل حتى قام عليه، فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ قال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين»، قال: تجعل لي الأمر بعدك، قال: «ليس ذلك إليّ إنما ذلك إلى الله عزّ وجلّ يجعله حيث يشاء»، قال: فتجعلني على الوبر وأنت على المدر، قال: «لا»، قال: فماذا تجعل لي؟ قال: «أجعل لك أعنّة الخيل تغزو عليها»، قال: أو ليس ذلك لي اليوم قم معي أكلمك، فقام معه رسول الله ﷺ وكان عامر أوصى إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف، فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه فدار أربد خلف النبي ﷺ ليضربه بالسيف فاخترط من سيفه شبراً ثم حبسه الله عنه فلم يقدر على سلّه وجعل عامر يومىء إليه فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما صنع بسيفه، فقال: «اللّهمَّ اكفنيهما بما شئت، فأرسل الله على أربد صاعقة في يوم صحو قائظ فأحرقته وولّى عامر هارباً وقال: يا محمد دعوت ربك فقتل أربد والله لامـلأنها عليك خيلاً جرداً وفتياناً مرداً، فقال النبي ﷺ: «يمنعك الله تعالى من ذلك»، وابنا قيلة، يريد الأوس والخزرج، فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضمّ عليه سلاحه وقد تغير لونه فجعل يركض في الصحراء، ويقول: ابرز يا ملك الموت، ويقول الشعر ويقول واللاّت لئن أبصرت محمداً وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذتهما برمحي، فأرسل الله ملكاً فلطمه بجناحه فأرداه في التراب وخرجت على ركبتيه في الوقت غدّة

ظهره، وأجاب الله عز وجل دعاء رسول الله ﷺ في عامر بن الطفيل فمات بالطعن، وأربد بن ربيعة مات بالصاعقة وأنزل الله عز وجل في شأن هذه القصة سواء منكم من أسر القول، ومن جهر به إلى قوله له معقبات من بين يديه، ومن خلفه يعني لرسول الله ﷺ معقبات يحفظونه من بين يديه، ومن خلفه من أمر الله أي بأمر الله وقيل: إن تلك المعقبات من أمر الله، وفيه تقديم وتأخير تقديره له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، وقوله ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾ خطاب لهذين عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة، يعني لا يغير ما بقوم من العافية والنعمة التي أنعم بها عليهم ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ يعني: من الحالة الجميلة فيعصون ربهم، ويجحدون نعمه عليهم فعند ذلك تحل نقمته بهم، وهو قوله تعالى ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً﴾ يعني هلاكاً وعذاباً ﴿فلا مرد له﴾ يعني لا يقدر أحد أن يرد ما أنزل الله بهم من قضائه وقدره ﴿وما لهم من دونه من وال﴾ يعني وليس لهم من دون الله من وال يلي أمرهم ونصرهم ويمنع العذاب عنهم قوله عز وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾

﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ لما خوف الله عز وجل عباده بقوله: وإذا أراد الله بقوم سوءاً ذكر في هذه الآية من عظيم قدرته ما يشبه النعم من وجه يشبه العذاب من وجه، فقال تعالى: هو الذي يعني هو الذي يريكم البرق والبرق معروف، وهو لمعان يظهر من خلال السحاب وفي كونه خوفاً وطمعاً وجوه: **الأول** إن عند لمعان البرق يخاف من الصواعق، ويطمع في نزول المطر. **الثاني**: أنه يخاف من البرق من يتضرر بالمطر كالمسافر ومن في جرينه يعني بيدره التمر والزبيب والقمح ونحو ذلك، ويطمع فيه من له في نزول المطر نفع كالزارع ونحوه. **الثالث**: أن المطر يخاف منه إذا كان في غير مكانه وزمانه، ويطمع فيه إذا كان في مكانه وزمانه فان من البلاد ما إذا أمطرت قحطت وإذا لم تمطر أخصبت ﴿وينشىء السحاب الثقال﴾ يعني المطر. يقال: أنشأ الله السحابة فنشأت أي أبداها فبدت والسحاب جمع سحابة، والسحاب غربال الماء، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل: السحاب الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء. ولهذا قيل: سحاب جهام وهو الخالي من الماء وأصل السحب الجر وسمي السحاب سحاباً إما لجر الريح له

عظيمة، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول: غدّة كغدّة البعير وموت في بيت سلولية، ثم دعا بفرسه فركبه ثم أجراه حتى مات على ظهره فأجاب الله دعاء رسول الله ﷺ فقتل عامر بالطعن وأربد بالصاعقة، وأنزل الله عزّ وجلّ في هذه القصة قوله: ﴿ **سواء منكم مَن أسرّ القول ومَن جهر به ومَن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه** ﴾، يعني لرسول الله ﷺ معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله، يعني تلك المعقبات من أمر الله، وفيه تقديم وتأخير، وقال لهذين: ﴿ **إنّ اللّه لا يُغيّر ما بقوم** ﴾، من العافية والنعمة، ﴿ **حتى يُغيّروا ما بأنفسهم** ﴾، من الحال الجميلة فيعصوا ربهم، ﴿ **وإذا أراد الله بقوم سوءاً** ﴾، أي: عذاباً وهلاكاً ﴿ **فلا مردّ له** ﴾ أي: لا رادّ له، ﴿ **وما لهم من دونه من والٍ** ﴾، أي: ملجأ يلجؤون إليه، وقيل: والٍ يلي أمرهم ويمنع العذاب عنهم.

قوله: ﴿ **هو الذي يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً** ﴾، قيل: خوفاً من الصاعقة طمعاً في نفع المطر، وقيل: الخوف للمسافر يخاف منه الأذى أو المشقّة والطمع للمقيم يرجو منه البركة والمنفعة. وقيل: الخوف من المطر في غير مكانه وأبانه والطمع إذا كان في مكانه وأبانه ومن البلدان ما إذا مطروا قحطوا وإذا لم يمطروا أخصبوا. ﴿ **وينشىء**

أو لجره الماء أو لانجراره في سيره ﴿ويسبح الرعد بحمده﴾ أكثر المفسرين على أن الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب، والصوت المسموع منه تسبيحه. وأورد على هذا القول ما عطف عليه. وهو قوله ﴿والملائكة من خيفته﴾ وإذا كان المعطوف مغايراً للمعطوف عليه وجب أن يكون غيره. وأجيب عنه أنه لا يبعد أن يكون الرعد اسماً لملك من الملائكة وإنما أفرده بالذكر تشريفاً له على غيره من الملائكة، فهو كقوله: وملائكته وجبريل وميكال. قال ابن عباس: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو قال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوقه بها حيث يشاء الله» قالوا فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: «زجره السحاب حتى تنتهي حيث أمرت» قالوا صدقت. أخرجه الترمذي مع زيادة فيه. المخاريق: جمع مخراق، وهو في الأصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً، وأراد به هنا آلة تزجر بها الملائكة السحاب. وقد جاء تفسيره في حديث آخر وهو صوت[1] من نور تزجر الملائكة به السحاب، قال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير. فإن أصابه صاعقة فعلي ديته، وكان عبد الله بن الزبير إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته وكان يقول إن الوعيد لأهل الأرض شديد. وفي بعض الأخبار أن الله تعالى يقول: «لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد» وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال: الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر، وإن بحور الماء في نقرة إبهامه، وإنه يسبح الله فإذا سبح لا يبقى ملك في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر، وقيل: إن الرعد اسم لصوت الملك الموكل بالسحاب، ومع ذلك فإن صوت الرعد يسبح الله عز وجل لأن التسبيح والتقديس عبارة عن تنزيه لله عز وجل عن جميع النقائص، ووجود هذا الصوت المسموع من الرعد وحدوثه دليل على وجود موجود خالق قادر متعال عن جميع النقائص، وإن لم يكن ذلك في الحقيقة تسبيحاً ومنه قوله: وإن من شيء إلا يسبح بحمده وقيل المراد من تسبيح الرعد أن من سمعه سبح الله فلهذا المعنى أضيف التسبيح إليه، وقوله والملائكة من خيفته يعني ويسبح الملائكة من خيفة الله عز وجل وهيبته وخشيته،

السحاب الثقال﴾، بالمطر. يقال: أنشأ الله السحابة فنشأت أي أبداها فبدت، والسحب جمع واحدتها سحابة، قال علي رضي الله عنه: السحاب غربال الماء.

﴿ويسبّحُ الرعدُ بحمده﴾، أكثر المفسّرين على أن الرعد اسم ملك يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه، قال ابن عباس: مَن سمع صوت الرعد فقال سبحان الذي يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعلى ديته وعن عبد الله بن الزبير: أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث وقال سبحان مَن يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا الوعيد لأهل الأرض شديد، وفي بعض الأخبار يقول الله تعالى: «لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أُسمعهم صوت الرعد» وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر وأن بحور الماء في نقرة إبهامه وأنه يسبّح الله تعالى فإذا سبّح لا يبقى ملك في السماء إلّا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر. **﴿والملائكة من خيفته﴾**، أي: تسبّح الملائكة من خيفة الله عزّ وجلّ وخشيته. وقيل: أراد بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد جعل الله تعالى له أعواناً فهم خائفون خاضعون طائعون. قوله تعالى: **﴿ويرسلُ الصواعق﴾**، جمع صاعقة وهي العذاب المُهلِك ينزل من البرق فيحرق مَن يصيبه، **﴿فيصيبُ بها مَن يشاء﴾**، كما أصاب أربد بن ربيعة قال محمد بن علي الباقر: الصاعقة تصيب المسلم

---

(١) قوله صوت لعله سوط كما يقتضيه السياق اهـ مصححة.

وقيل: المراد بهذه الملائكة أعوان السحاب جعل الله عز وجل مع الملك الموكل بالسحاب أعواناً من الملائكة، وهم خائفون خاضعون طائعون. وقيل: المراد بهم جميع الملائكة وحمله على العموم أولى ﴿ويرسل الصواعق﴾ جمع صاعقة، وهي العذاب النازل من البرق فيحترق من تصيبه وقيل: هي الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء الثلاثة تنشأ منها ﴿فيصيب بها﴾ يعني بالصواعق ﴿من يشاء﴾ يعني فيهلك بها كما أصاب أربد بن ربيعة. قال محمد الباقر: الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر ﴿وهم يجادلون في الله﴾ يعني يخاصمون في الله. وقيل: المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله نزلت في شأن أربد بن ربيعة حين قال للنبي ﷺ: مم ربك أمن درأم من ياقوت أم من ذهب فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته. وسئل الحسن عن قوله: ويرسل الصواعق الآية فقال: كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ نفراً من أصحابه يدعونه إلى الله، وإلى رسوله فقال لهم: أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني إليه، هل هو من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس؟ فاستعظم القوم كلامه فانصرفوا إلى النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلاً أكفر قلباً ولا أعتى على الله منه. فقال: ارجعوا إليه فرجعوا فلم يزدهم على مقالته الأولى شيئاً بل قال: أأجيب محمداً إلى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ما زادنا على مقالته الأولى شيئاً بل أخبث. فقال: ارجعوا إليه فرجعوا إليه فبينما هم عنده يدعونه وينازعونه، وهو لا يزيدهم على مقالته شيئاً إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم، فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر، وهم جلوس عنده فرجعوا ليخبروا النبي ﷺ فلما رجعوا استقبلهم نفر من أصحاب النبي ﷺ فقالوا لهم: احترق صاحبكم قالوا: من أين علمتم ذلك؟ قالوا قد أوحى الله إلى النبي ﷺ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله. واختلفوا في هذه الواو، فقيل: واو الحال فيكون المعنى فيصيب بها من يشاء في حال جداله في الله وذلك أن أربد لما جادل في الله، أهلكه الله بالصاعقة، وقيل: إنها واو الاستئناف فيكون المعنى أنه تعالى لما تمم ذكر الدلائل قال: بعد ذلك وهم يجادلون في الله ﴿وهو شديد المحال﴾ أي شديد الأخذ بالعقوبة، من قولهم يمحل به محلاً إذا أراد به سوءاً، وقيل: هو من قولهم يمحل به إذا سعى به إلى السلطان وعرضه للهلاك وتمحل إذا تكلف استعمال الحيلة، واجتهد فيه فيكون المعنى أنه سبحانه وتعالى شديد المحال بأعدائه حتى يهلكهم بطريق لا يعرفونه ولا يتوقعونه. وقيل: المحل من المحول وهو الحيلة، والميم زائدة ثم اختلفت عبارات المفسرين في معنى قوله

وغير المسلم ولا تصيب الذاكر، ﴿ وهم يجادلون ﴾، يخاصمون، ﴿ في الله ﴾، نزلت في شأن أربد بن ربيعة حيث قال للنبي ﷺ: ممَّ ربك أمن دُرّ أم من ياقوت أم من ذهب؟ فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته. وسُئل الحسن عن قوله عزّ وجلّ: ﴿ ويرسل الصواعق ﴾ الآية، قال: كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ نفراً يدعونه إلى الله ورسوله فقال لهم: أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني إليه ممَّ هو من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس، فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله ما رأينا رجلاً أكفر قلباً ولا أعتى على الله منه، فقال: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه فجعل لا يزيدهم على مثل مقالته الأولى، وقال: أُجيب محمداً إلى رب لا أراه ولا أعرفه فانصرفوا وقالوا: يا رسول الله ما زادنا على مقالته الأولى وأخبث فقال: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه فبينما هم جلوس عنده ينازعونه ويدعونه وهو يقول هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤوسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق الكافر وهم جلوس، فجاؤوا يسعون ليخبروا رسول الله ﷺ فاستقبلهم قوم من أصحاب النبي ﷺ فقالوا لهم: احترق صاحبكم، فقالوا: من أين علمتم؟ فقالوا: أوحى الله إلى النبي ﷺ ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها مَن يشاء وهم يجادلون في الله ﴾، ﴿ وهو شديد المحال ﴾، قال علي رضي الله

شديد المحال فقال الحسن: معناه شديد النقمة. وقال مجاهد وقتادة: شديد القوة. وقال ابن عباس: شديد الحول. وقيل شديد العقوبة وقيل معناه شديد الجدال. وذلك أنه لما أخبر عنهم أنهم يجادلون في الله أخبر أنه أشد جدالاً منهم. قوله تعالى:

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

﴿**له دعوة الحق**﴾ يعني لله دعوة الصدق، قال على دعوة الحق التوحيد، وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله. قال صاحب الكشاف دعوة الحق فيها وجهان أحدهما أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل كما تضاف الكلمة إليه في قولك كلمة الحق. للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به، وأنها بمعزل من الباطل؛ والمعنى أن الله تعالى يدعى فيستجيب الدعوة ويعطي الداعي سؤله إن كان مصلحة له فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقاً بأن يوجه إليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا نفع فيه ولا جدوى فيرد دعاءه. الثاني أن تضاف إلى الحق الذي هو الله على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب، وعن الحسن: الله هو الحق وكل دعاء إليه دعوة الحق. فإن قلت: ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبلهما. قلت: أما على قصة أربد فظاهر لأن إصابته بالصاعقة كانت بدعوة رسول الله ﷺ فإنه دعا عليه وعلى صاحبه عامر بن الطفيل فأجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق، وأما على قوله وهم يجادلون في الله فوعيد للكفار على مجادلتهم رسول الله ﷺ، وإجابة دعائه إن دعا عليهم. وقيل في معنى الآية: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله تعالى ﴿**والذين يدعون من دونه**﴾ يعني والذين يدعونهم آلهة من دون الله، وهي الأصنام التي يعبدونها ﴿**لا يستجيبون لهم بشيء**﴾ يعني لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضرر إن دعوهم ﴿**إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه**﴾ يعني إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه، يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه، ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب دعاءه أو يبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم. وقيل: شبههم في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطهما ناشراً أصابعه فلم تلق

عنه: شديد الأخذ. وقال ابن عباس: شديد الحول. وقال الحسن: شديد الحقد. وقال مجاهد: شديد القوة. وقال أبو عبيدة: شديد العقوبة. وقيل: شديد المكر. والمحال والمماحلة المماكرة والمغالبة.

﴿ **له دعوةُ الحق** ﴾ أي: لله دعوة الصدق. قال رضي الله عنه: دعوة الحق التوحيد. وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلاّ الله. وقيل: الدعاء بالإخلاص والدعاء الخالص لا يكون إلاّ لله عزّ وجلّ. ﴿ **والذين يدعون من دونه** ﴾، أي: يعبدون الأصنام من دون الله تعالى. ﴿ **لا يستجيبون لهم بشيء** ﴾، أي: لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر، ﴿ **إلاّ كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه** ﴾، أي: إلاّ كباسط كفّيه ليقبض على الماء

كفاه منه شيئاً، ولم يبلغ طلبته من شربه وقيل إن القابض على الماء ناشراً أصابعه لا يكون في يده منه شيء، ولا يبلغ إلى فيه منه شيء كذلك الذي يدعو الأصنام لأنها لا تضر ولا تنفع ولا يفيده منها شيء. وقيل شبه: بالرجل العطشان الذي يرى الماء من بعيد بعينيه، فهو يشير بكفيه إلى الماء ويدعوه بلسانه فلا يأتيه أبداً هذا معنى قول مجاهد، وعن عطاء كالعطشان الجالس على شفير البئر وهو يمد يديه إلى البئر فلا هو يبلغ إلى قعر البئر ليخرج الماء، ولا الماء يرتفع إليه فلا ينفعه بسطه الكف إلى الماء ودعاؤه له، ولا هو يبلغ فاه كذلك الذي يدعون الأصنام لا ينفعهم ذلك. وقال ابن عباس: كالعطشان إذا بسط كفيه في الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما من الماء ولا يبلغ الماء فاه مادام باسط كفيه، وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ودعائهم الأصنام حين لا ينفعهم البتة ثم ختم هذا بقوله ﴿**وما دعاء الكافرين**﴾ يعني أصنامهم ﴿**إلا في ضلال**﴾ يعني يضل عنهم إذا احتاجوا إليه، قال ابن عباس في هذه الآية أصواتهم محجوبة عن الله تعالى. قوله عز وجل ﴿**ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾ في معنى هذا السجود قولان: **أحدهما** أن المراد منه السجود على الحقيقة وهو وضع الجبهة على الأرض، ثم على هذا القول ففي معنى الآية وجهان **أحدهما** أن اللفظ وإن كان عاماً إلا أن المراد منه الخصوص، فقوله: ولله يسجد من في السموات يعني الملائكة ومن في الأرض من الإنس يعني المؤمنين طوعاً وكرهاً، يعني من المؤمنين من يسجد لله طوعاً وهم المؤمنون المخلصون لله العبادة، وكرهاً يعني المنافقين الداخلين في المؤمنين وليسوا منهم فان سجودهم لله على كره منهم، لأنهم لا يرجون على سجودهم ثواباً ولا يخافون على تركه عقاباً بل سجودهم وعبادتهم خوف من المؤمنين. **الوجه الثاني**: هو حمل اللفظ على العموم، وعلى هذا ففي اللفظ إشكال، وهو أن جميع الملائكة والمؤمنين من الجن والإنس يسجدون لله طوعاً، ومنهم من يسجد كرهاً كما تقدم وأما الكفار من الجن والإنس، فلا يسجدون لله البتة فهذا وجه الإشكال. والجواب عنه أن المعنى أنه يجب على كل من في السموات ومن في الأرض أن يسجد لله، فعبر بالوجوب عن الوقوع والحصول. وجواب آخر وهو أن يكون المراد من هذا السجود هو الاعتراف بالعظمة والعبودية، وكل من في السموات من ملك ومن في الأرض من إنس وجن، فإنهم يقرون لله بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾. **والقول الثاني**: في معنى هذا السجود هو الانقياد والخضوع وترك الامتناع فكل من في السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى، وهذا الاعتبار لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل فهم خاضعون منقادون له. وقوله تعالى ﴿**وظلالهم بالغدو والآصال**﴾ الغدوة والغداة أول النهار، وقيل: إلى نصف النهار والغدو بالضم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس والآصال جمع أصل، وهو العشية والآصال العشايا

والقابض على الماء لا يكون في يده شيء ولا يبلغ إلى فِيْه منه شيء، كذلك الذي يدعو الأصنام وهي لا تضرّ ولا تنفع لا يكون بيده شيء. وقيل: معناه كالرجل العطشان الجالس على شفير بئر يمدّ يده إلى البئر فلا يبلغ قعر البئر إلى الماء ولا يرتفع إليه الماء فلا ينفعه بسط الكفّ إلى الماء ودعاؤه له، ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الأصنام لا ينفعهم نداؤها ودعاؤها، وهي لا تقدر على شيء، وعن ابن عباس: كالعطشان إذا بسط كفّيه إلى الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما الماء ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسطاً كفّيه، مثلٌ ضربه الله لخيبة الكفار. ﴿ **وما دعاءُ الكافرين** ﴾، أصنامهم، ﴿ **إلّا في ضلال** ﴾، يضلّ عنهم إذا احتاجوا إليه كما قال: ﴿ وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ [الأنعام: ٢٤، الأعراف: ٥٣، يونس: ٣٠، هود: ٢١، النحل: ٨٧، القصص: ٧٥] وما كانوا يدعون وقال الضحاك عن ابن عباس: وما دعاء الكافرين ربهم إلّا في ضلال لأن أصواتهم محجوبة عن الله تعالى.

﴿ **ولله يسجد مَن في السمٰوات والأرض طوعاً** ﴾، يعني: الملائكة والمؤمنين، ﴿ **وكَرْهاً** ﴾، يعني: المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسيف. ﴿ **وظلالهم** ﴾، يعني: ظلال الساجدين طوعاً وكرهاً

جمع عشية وهي ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. قال المفسرون: إن ظل كل شخص يسجد لله ظل المؤمن والكافر. وقال مجاهد: ظل المؤمن يسجد لله طوعاً وهو طائع وظل الكافر يسجد لله كرهاً، وهو كاره. وقال الزجاج: جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله. قال ابن الأنباري: ولا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولاً وأفهاماً تسجد بها وتخشع كما جعل للجبال أفهاماً حتى سبحت لله مع داود، وقيل: المراد بسجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب آخر، وطولها وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ونزولها، وإنما خص الغدو والآصال بالذكر لأن الظلال تعظم، وتكثر في هذين الوقتين، وقيل: لأنهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما.

فصل

وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة، فيسن للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة والله أعلم. قوله تعالى ﴿**قل من رب السموات والأرض**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله من رب السموات والأرض، يعني من مالك السموات والأرض، ومن مدبرهما وخالقهما فسيقولون: الله لأنهم مقرون بأن الله خالق السموات وما فيها، والأرض، وما فيها فإن أجابوك بذلك فقل: أنت يا محمد الله رب السموات والأرض. وقيل: لما قال هذه المقالة للمشركين عطفوا عليه وقالوا أجب أنت فأمره الله أن يجيبهم بقوله ﴿**قل الله**﴾ أي قل يا محمد ﴿**الله**﴾ وقيل: إنما جاء السؤال والجواب من جهة واحدة لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء، فلما لم ينكروا ذلك وأجاب النبي ﷺ بقوله الله فكأنهم قالوا ذلك أيضاً ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الأصنام بقوله ﴿**قل**﴾ أي قل يا محمد للمشركين ﴿**أفاتخذتم من دونه**﴾ يعني من دون الله ﴿**أولياء**﴾ يعني الأصنام والولي الناصر، والمعنى توليتم غير رب السموات والأرض واتخذتموهم أنصاراً يعني الأصنام ﴿**لا يملكون**﴾ يعني وهم لا يملكون ﴿**لأنفسهم نفعاً ولا ضراً**﴾ فكيف لغيرهم. ثم ضرب الله مثلاً للمشركين الذين يعبدون الأصنام وللمؤمنين الذين يعبدون الله. فقال تعالى ﴿**قل هل يستوي الأعمى والبصير**﴾ قال ابن عباس: يعني المشرك والمؤمن ﴿**أم هل تستوي الظلمات والنور**﴾ يعني الشرك والإيمان والمعنى كما لا يستوي الأعمى والبصير كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن وكما لا تستوي الظلمات والنور كذلك لا يستوي الكفر والإيمان، وإنما شبه الكافر بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدي سبيلاً، كذلك الكافر لا يهتدي سبيلاً ﴿**أم جعلوا لله شركاء**﴾ هذا استفهام إنكار يعني جعلوا لله شركاء ﴿**خلقوا كخلقه**﴾ يعني خلقوا سموات وأرضين وشمساً وقمراً وجبالاً وبحاراً وجناً وإنساً ﴿**فتشابه الخلق عليهم**﴾ من هذا الوجه، والمعنى

تسجد لله عزّ وجلّ طوعاً. قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره. ﴿ **بالغدوّ والآصال** ﴾، يعني إذا سجد بالغدو والعشي يسجد معه ظله، والآصال: جمع الأصل والأصل جمع الأصيل وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس. وقيل: ظلالهم أي: أشخاصهم بالغدو والآصال بالبكر والعشايا. وقيل: سجود الظل تذليله لما أُريد له.

قوله تعالى: ﴿ **قلْ مَنْ ربُّ السمٰواتِ والأرض** ﴾، أي خالقهما ومدبرهما فسيقولون الله، إنهم يقرّون بأن الله خالقهم وخالق السمٰوات والأرض إذا أجابوك فقل أنت أيضاً يا محمد: الله. ورُوِيَ أنه لمّا قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا: أجب أنت، فأمره الله عزّ وجلّ فقال: ﴿ **قلْ** ﴾، أنت يا محمد، ﴿ **الله** ﴾، ثم قال الله لهم إلزاماً للحجة: ﴿ **قلْ أفاتخذتم من دُونه أولياءَ** ﴾، معناه: إنكم مع إقراركم بأن الله خالق السمٰوات والأرض اتخذتم من دونه أولياء فعبدتموها من دون الله، يعني: الأصنام، وهم ﴿ **لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضَرّاً** ﴾، فكيف يملكون لكم؟ ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿ **قلْ هلْ يستوي الأعمى والبصير** ﴾، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، ﴿ **أمْ هلْ**

هل رأوا غير الله خلق شيئاً فاشتبه عليهم خلق الله بخلق غيره، وقيل: إنه تعالى وبخهم بقوله أم جعلوا لله شركاء خلقوا خلقاً مثل خلقه فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم، وهذا استفهام إنكاري أي ليس الأمر كذلك حتى يشتبه عليهم الأمر، بل إذا تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الأشياء والشركاء مخلوقون له أيضاً لا يخلقون شيئاً حتى يشتبه خلق الله بخلق الشركاء، وإذا كان الأمر كذلك فقد لزمتهم الحجة، وهو قوله تعالى ﴿**قل الله خالق كل شيء**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الله خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقاً، وقوله الله خالق كل شيء من العموم الذي يراد به الخصوص لأن الله تعالى خلق كل شيء وهو غير مخلوق ﴿**وهو الواحد**﴾ يعني والله تعالى هو الواحد المنفرد بخلق الأشياء كلها ﴿**القهار**﴾ لعباده حتى يدخلهم تحت قضائه وقدره وإرادته. وقوله عز وجل: ﴿**أنزل من السماء ماء**﴾ لما شبه الله عز وجل الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير وشبه الكفر بالظلمات، والإيمان بالنور ضرب لذلك مثلاً فقال تعالى: أنزل من السماء ماء يعني المطر ﴿**فسالت أودية بقدرها**﴾ أودية جمع واد وهو المفرج بين الجبلين يسيل فيها الماء وقوله: فسالت أودية فيه اتساع، وحذف تقديره فسال في الوادي فهو كما يقال جري النهر والمراد جرى الماء في النهر فحذف في لدلالة الكلام عليه بقدرها. قال مجاهد بمثلها وقال ابن جريج: الصغير بقدره والكبير بقدره، وقيل: بمقدار مائها وإنما نكر أودية لأن المطر إذا نزل لا يعم جميع الأرض، ولا يسيل في كل الأودية بل ينزل في أرض دون أرض ويسيل في واد دون وادٍ. فلهذا السبب جاء هذا بالتنكير. وقال ابن عباس: أنزل من السماء ماء يعني قرآناً وهذا مثل ضربه الله تعالى فسالت أودية بقدرها يريد بالأودية القلوب شبه نزول القرآن الجامع للهدى والنور، والبيان بنزول المطر لأن المطر إذا نزل عمّ نفعه وكذلك نزول القرآن وشبه القلوب بالأودية، لأن الأودية يستكن فيها الماء وكذلك القلوب يستكن فيها الإيمان والعرفان ببركة نزول القرآن فيها، وهذا خاص بالمؤمنين لأنهم الذين انتفعوا بنزول القرآن (ق) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء نفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فتعلم، وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله، وغيره في معنى هذا الحديث وشرحه أما الكلأ فباغمز يقع على الرطب واليابس من الحشيش، وأما قوله وكان منها أجادب فالجيم والدال المهملة والباء الموحدة كذا في الصحيحين، وهي الأرض التي لا تنبت الكلأ جمع جدب على غير قياس وقياسه

تستوي﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «يستوي» بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء لأنه لا حائل بين الفعل والمؤنث. ﴿**الظلمات والنور**﴾، أي: كما لا يستوي الظلمات والنور لا يستوي الكفر والإيمان. ﴿**أم جعلوا**﴾، أي: جعلوا، ﴿**لله شركاءَ خلقوا كخلقه فتشابه به الخلقُ عليهم**﴾، أي: اشتبه ما خلقوه بما خلقه الله تعالى فلا يدرون ما خلق الله وما خلق آلهتهم ﴿**قلِ اللّهُ خالقُ كلِّ شيءٍ وهو الواحدُ القهارُ**﴾، ثم ضرب الله تعالى مثلين للحق والباطل.

فقال عزّ وجلّ: ﴿**أنزل**﴾ يعني الله عزّ وجلّ، ﴿**من السماء ماءً**﴾، يعني المطر، ﴿**فسالتْ**﴾، من ذلك الماء، ﴿**أوديةٌ بقدرها**﴾، أي: في الصغر والكبر، ﴿**فاحتمل السيلُ**﴾، الذي حدث من ذلك الماء، ﴿**زبداً رابياً**﴾، الزبد الخبث الذي يظهر على وجه الماء، وكذلك على وجه القدر، رابياً أي عالياً مرتفعاً فوق الماء فالماء الصافي الباقي هو الحق، والذاهبِ الزائل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية هو الباطل. وقيل: قوله أنزل من السماء ماء هذا مثل للقرآن والأودية مثل للقلوب يريد ينزل القرآن، فتحتمل منه القلوب على قدر اليقين والعقل

أجدب، والجدب ضد الخصب. وقال الخطابي: هي التي تمسك الماء ولم يسرع فيه النضوب وفي رواية الهروي أخاذات بالخاء المعجمة والذال المعجمة جمع آخاذة وهي الغدير الذي يمسك الماء، وقوله: ورعوا كذا هو في صحيح مسلم من الرعي، ووقع في صحيح البخاري وزرعوا بزيادة زاي من الزرع والقيعان بكسر القاف جمع قاع وهو المستوي من الأرض، وقوله: فذلك مثل من فقه في دين الله يروى بضم القاف وهو المشهور وروي بكسرها ومعناه فهم الأحكام وأما معنى الحديث ومقصوده فهو أن النبي ﷺ ضرب مثلاً لما جاء به من الهدى، والعلم بالأرض التي أصابها المطر. قال العلماء: والأرض ثلاثة أنواع وكذلك الناس لأنهم منها خلقوا، فالنوع الأول من أنواع الأرض الطيبة التي تنتفع بالمطر فتنبت به العشب فينتفع الناس به والدواب بالشرب والرعي وغير ذلك وكذلك النوع الأول من الناس من يبلغه الهدى من غير ذلك من العلم فيحيا به قلبه ويحفظه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع به وينفع غيره. قال مسروق: صحبت أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كالأخاذات لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم. النوع الثاني من أنواع الأرض: أرض لا تقبل الانتفاع في نفسها لكن فيها فائدة لغيرها، وهي إمساك الماء لغيرها لينتفع به الناس والدواب وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة، لكن ليس لهم أفهام ثاقبة فيبقى ما عندهم من العلم حتى يجيء المحتاج إليه المتعطش لما عندهم من العلم فيأخذه منهم فينتفع به هو وغيره، النوع الثالث: من أنواع الأرض أرض سبخة لا تنبت مرعى ولا تمسك ماء كذلك النوع الثالث من الناس ليس لهم قلوب حافظة، ولا أفهام ثاقبة فإذا بلغهم شيء من العلم لا ينتفعون به في أنفسهم ولا ينفعون غيرهم والله أعلم. وقوله تعالى ﴿**فاحتمل السيل زبداً**﴾ الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة، كالحبب وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها والمعنى فاحتمل السيل الذي حدث من ذلك الماء زبداً ﴿**رابياً**﴾ يعني عالياً مرتفعاً فوق الماء طافياً عليه، وهاهنا تم المثل ثم ابتدأ بمثل آخر فقال تعالى ﴿**ومما يوقدون عليه في النار**﴾ الايقاد جعل الحطب في النار لتتقد تلك النار تحت الشيء ليذوب ﴿**ابتغاء حلية**﴾ يعني لطلب زينة، والضمير في قوله عليه يعود على الذهب والفضة، وإن لم يكونا مذكورين لأن الحلية لا تطلب إلا منهما ﴿**أو متاع**﴾ يعني أو لطلب متاع آخر مما ينتفع به كالحديد والنحاس والرصاص ونحوه مما يذاب وتتخذ منه الأواني وغيرها مما ينتفع له، والمتاع كل ما ويتمتع به. ويقال لكل ما ينتفع به في البيت كالطبق والقدر ونحو ذلك من الأواني: متاع ﴿**زبد مثله**﴾ يعني أن ذلك الذي يوقد عليه في النار إذا أذيب، فله أيضاً زبد مثل زبد الماء فالصافي من الماء ومن هذه الجواهر هو الذي ينتفع به وهو مثل الحق. والزبد من الماء ومن هذه الجواهر هو الذي لا ينتفع به، وهو مثل الباطل وهو قوله تعالى ﴿**كذلك يضرب الله الحق والباطل**﴾ فالحق هو الجوهر الصافي الثابت، والباطل هو الزبد الطافي الذي لا ينتفع به وهو قوله ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء**﴾ يعني

والشك والجهل، فهذا أحد المثلين والمثل الآخر قوله عزّ وجلّ: ﴿ **ومما يُوقدون عليه في النار** ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿ **يوقدون** ﴾ بالياء لقوله تعالى: ﴿ **ما ينفع الناس** ﴾، ولا مخاطبة ههنا، قرأ الآخرون بالتاء «ومما توقدون»، أي: ومن الذي توقدون عليه النار، والإيقاد جعل النار تحت الشيء ليذوب، ﴿ **ابتغاءَ حِلْيةٍ** ﴾، أي لطلب زينة، وأراد الذهب والفضة لأن الحلية تطلب منهما، ﴿ **أو متاع** ﴾ أي: طلب متاع وهو ما ينتفع به، وذلك مثل الحديد والنحاس والرصاص، والصفر تُذاب فيُتّخذ منها الأواني وغيرها مما ينتفع بها، ﴿ **زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحقَّ والباطل**﴾، أي: إذا أُذيب فله أيضاً زبد مثل زبد الماء، فالباقي الصافي من هذه الجواهر مثل الحق، والزبد الذي لا ينتفع به مثل الباطل، ﴿ **فأمّا الزبد** ﴾، الذي علا السيل والفلز، ﴿ **فيذهب جفاءً** ﴾ أي: ضائعاً باطلاً، والجفاء ما رمى به الوادي من الزبد والقدر إلى جنباته، يقال: جفا الوادي وأجفأ إذا ألقى غثاءه، وأجفأت القدر وجفأت إذا غلت وألقت زبدها، فإذا سكنت لم يبقَ فيها شيء، معناه: إن الباطل وإن علا في وقت

ضائعاً باطلاً والجفاء ما رمى به الوادي من الزبد إلى جوانبه. وقيل: الجفاء المتفرق يقال جفأت الريح الغيم إذا فرقته والمعنى أن الباطل وإن علا في وقت فإنه يضمحل ويذهب ﴿وأما ما ينفع الناس﴾ يعني الماء الصافي والجوهر الجيد من هذه الأجسام التي تذاب ﴿فيمكث في الأرض﴾ يعني يثبت ويبقى ولا يذهب ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ قال أهل التفسير والمعاني: هذا مثل ضربه الله للحق والباطل. فالباطل وإن علا على الحق في بعض الأوقات والأحوال، فإن الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافي الذي ينتفع به، وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذي هو الكدر، وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض كذلك الحق والباطل. فالباطل وإن علا في وقت فإنه يذهب هو وأهله، والحق يظهر هو وأهله. وقيل: هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالإيمان كمثل الماء الصافي الذي ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كالزبد الذي لا ينتفع به البتة. وقيل: هذا مثل ضربه الله للنور الذي يحصل في قلوب العباد على ما قسم لها في الأزل لأن الوادي إذا سال كنس كل شيء فيه من النجاسات والمستقذرات، كذلك إذا سال وادي قلب العبد بالنور الذي قسم له على قدر إيمانه ومعرفته كنس كل ظلمة وغفلة فيه، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض يعني يذهب البواطل وهي الأخلاق المذمومة، وتبقى الحقائق وهي الأخلاق الحميدة كذلك يضرب الله الأمثال.

وقوله تعالى:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾

﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾ قيل: اللام في للذين متعلقة بيضرب والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذي استجابوا لربهم يعني أجابوه إلى ما دعاهم إليه من توحيده والإيمان به وبرسوله وللكافرين الذين لم يستجيبوا، فعلى هذا يكون قوله كذلك يضرب الله الأمثال ثم للفريقين من المؤمنين والكافرين وقيل تم الكلام عند

فإنه يضمحل. وقيل: جُفَاءً أي: متفرقاً. يقال: جفأت الريح الغيم إذا فرّقته وذهبت به، ﴿ وأمّا ما ينفع الناس ﴾، يعني: الماء والفلز من الذهب والفضة والصفر والنحاس، ﴿ فيمكث في الأرض ﴾، أي: يبقى ولا يذهب، ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾، جعل الله هذا مثالاً للحق والباطل، يعني: أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع الحق كالماء والفلز يبقى في القلوب. وقيل: هذا تسلية للمؤمنين، يعني: أن أمر المشركين كالزبد يرى في الصورة شيئاً وليس له حقيقة، وأمر المؤمنين كالماء المستقر في مكانه له البقاء والثبات.

قوله تعالى: ﴿ للذين استجابوا ﴾، أجابوا، ﴿ لربِّهم ﴾، فأطاعوه، ﴿ الحُسْنَى ﴾ الجنة، ﴿ والذين لم يستجيبوا له لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ﴾، أي: لبذلوا ذلك يوم القيامة افتداءً من النار، ﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾. قال إبراهيم النخعي: سوء الحساب أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر له من شيء، ﴿ ومأواهم ﴾ في الآخرة ﴿ جهنَّمُ وبئسَ المِهَاد ﴾، الفراش، أي: بئس ما مهد لهم.

قوله تعالى: ﴿ أفمن يعلم أن ما أُنزل إليك منْ ربِّك الحقُّ ﴾، فيؤمن به ويعمل بما فيه، ﴿ كمن هو أعمى ﴾، عنه لا يعلمه ولا يعمل به، قيل: نزلت في حمزة وأبي جهل. وقيل: في عمار وأبي جهل، فالأول حمزة

قوله كذلك يضرب الله الأمثال ثم استأنف بقوله للذين استجابوا لربهم الحسنى. قال ابن عباس وجمهور المفسرين: يعني الجنة. وقيل: الحسنى هي المنفعة العظمى في الحسن وهي المنفعة الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع ﴿**والذين لم يستجيبوا له**﴾ يعني الكبار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه ﴿**لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به**﴾ يعني لبذلوا ذلك كله فداء لأنفسهم من عذاب النار يوم القيامة ﴿**أولئك**﴾ يعني الذين لم يستجيبوا لربهم ﴿**لهم سوء الحساب**﴾ قال إبراهيم النخعي: سوء الحساب أن يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شيء ﴿**ومأواهم**﴾ يعني في الآخرة ﴿**جهنم وبئس المهاد**﴾ يعني وبئس ما مهد لهم في الآخرة، وقيل: المهاد الفراش يعني وبئس الفراش يفرش لهم في جهنم. قوله تعالى ﴿**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق**﴾ يعني فيؤمن به ويعمل بما فيه ﴿**كمن هو أعمى**﴾ يعني أعمى البصيرة، لا أعمى البصر وهو الكافر فلا يؤمن بالقرآن ولا يعمل بما فيه قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وأبي جهل بن هشام. وقيل: نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل فالأول هو حمزة أو عمار والثاني هو أبو جهل وحمل الآية على العموم أولى، وإن كان السبب مخصوصاً، والمعنى: لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصر الحق ولا يتبعه وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدي لرشد، وربما وقع في مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لا يهتديان للرشد وهما واقعان في المهلكة ﴿**إنما يتذكر أولو الألباب**﴾ يعني إنما يتعظ ذوو العقول السليمة الصحيحة، وهم الذين ينتفعون

أو عمار والثاني أبو جهل، وهو الأعمى، أي: لا يستوي مَن يبصر الحق ويتبعه ومَن لا يبصره ولا يتبعه. ﴿ **إنّما يتذكر** ﴾ يتعظ، ﴿ **أُولوا الألباب** ﴾. ذوو العقول.

﴿ **الذين يُوفون بعهد الله** ﴾، بما أمرهم الله تعالى به وفرضه عليهم فلا يخالفونه، ﴿ **ولا ينقضون الميثاق** ﴾، وقيل: أراد العهد الذي أخذه على ذرية آدم عليه السلام حين أخرجهم من صلبه.

﴿ **والذين يصلون ما أمر الله به أن يُوصل** ﴾، قيل: أراد به الإيمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرقون بينهما، والأكثرون على أنه أراد به صلة الرحم. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا ابن أبي شيبة ثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن أبي سلمة أن عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال يعني عبد الرحمن سمعتُ رسولَ الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عزّ وجلّ: «أنا اللّهُ وأنا الرحمن خلقتُ الرحم وشققت لها من اسمي فمَن وصلها وصلتُه ومَن قطعها بتتُّه» أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا ابن أبي أُويس قال: حدّثني سليمان بن بلال عن معاوية بن أبي مزرد عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن، فقال: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألاَ ترضين أن أصل مَن وصلك وأقطع مَن قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذاك لك»، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فهل عسيتُم إن توليتم أن تُفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ [محمد: ٢٢]. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أبو منصور السمعاني أنبأنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا مسلم بن إبراهيم ثنا كثير بن عبد الله اليشكري ثنا الحسن بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة تحت العرش يوم القيامة: القرآن يحاج العباد، له ظهر وبطن، والأمانة، والرحم تنادي ألاَ مَنْ وصلني وصله الله مَن قطعني قطعه الله». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أبو منصور السمعاني أنا أبو جعفر الرياني أنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الله بن صالح حدّثني الليث بن سعد حدّثني عقيل عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أحبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصلْ رحمه». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا

بالمواعظ والأذكار. قوله عز وجل ﴿**الذين يوفون بعهد الله**﴾ يعني الذي عاهدهم عليه وهو القيام بما أمرهم به، وفرضه عليهم وأصل العهد حفظ الشيء، ومراعاته حالاً بعد حال وقيل أراد بالعهد ما أخذه على أولاد آدم حين أخرجهم من صلبه، وأخذ عليهم العهد والميثاق ﴿**ولا ينقضون الميثاق**﴾ بل يوفون به فهو توكيد لقوله الذين يوفون بعهد الله ﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل**﴾ قال ابن عباس: يريد الإيمان بجميع الكتب والرسل يعني يصل بينهم بالإيمان ولا يفرق بين أحد منهم والأكثرون على أن المراد به صلة الرحم عن عبد الرحمن بن عوف. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «قال الله تبارك وتعالى: **أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته**» أخرجه أبو داود والترمذي (ق). عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «**الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله**» (خ) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من سره أن يبسط له في رزقه وأن يُنسأ له في أثره فليصل رحمه**» صلة الرحم مبرة الأهل والأقارب والإحسان إليهم وضده القطع، قوله: وان ينسأ له في أثره الأثر هنا الأجل سمي الأجل أثراً لأنه تابع للحياة وسابقها. ومعنى ينسأ: يؤخر والمراد به تأخير الأجل. وهو على وجهين: أحدهما أن يبارك الله في عمره فكأنما قد زاد فيه. والثاني أن يزيده في عمره زيادة حقيقية والله يفعل ما يشاء (ق) عن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال «**لا يدخل الجنة قاطع**» في رواية سفيان يعني «**قاطع رحم**» (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «**ليس الواصل بالمكافىء الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها**» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فان صلة الرحم محبة في الأهل ومثراة في المال ومنسأة في الأثر**» أخرجه الترمذي. وقوله تعالى: ﴿**ويخشون ربهم**﴾ يعني أنهم مع وفائهم بعهد الله وميثاقه والقيام بما أمر الله به من صلة الرحم يخشون ربهم، والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ﴿**ويخافون سوء الحساب**﴾ تقدم معناه.

وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ

عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ثنا علي بن الجعد ثنا شعبة عن عيينة بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي يحدّث عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب أحرى أن يعجّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدّخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم». أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسين بن بشرَان أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنةَ قاطعُ رحم». أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ثنا أحمد بن إسحاق الصيدلاني أنا أبو نصر أحمد بن محمد بن نصر ثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ثنا عمرو بن عثمان قال سمعت موسى بن طلحة يذكر عن أبي أيوب الأنصاري أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ في مسير له فقال: أخبرني بما يقرّبني من الجنة ويباعدني من النار، قال ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم»، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا يعلى وأبو نعيم قالا: ثنا قطرة عن مجاهد عن عبد الله بن عمر وقال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»، رواه محمد بن إسماعيل عن محمد بن كثير عن سفيان عن قطر وقال: إذا قطعت رحمه وصلها. قوله تعالى: ﴿ **ويخشون ربَّهم ويخافون سُوءَ الحساب** ﴾.

أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

﴿والذين صبروا﴾ يعني على طاعة الله وقال ابن عباس: على أمر الله. وقال عطاء: على المصائب والنوائب. وقيل: صبروا عن الشهوات وعن المعاصي وقيل: حمله على العموم أولى فيدخل فيه الصبر على جميع النوائب والمأمورات من سائر العبادات والطاعات، وجميع أعمال البر وترك جميع المنهيات فيدخل فيه ترك جميع المعاصي من الحسد والحقد والغيبة، وغير ذلك من المنهيات، ويدخل فيه الصبر عن المباحات مثل جميع الشهوات والصبر على ما نزل به من الأمراض والمصائب، وأصل الصبر حبس النفس عما يقتضيه العقل أو الشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه فالصبر لفظ عام يدخل تحته جميع ما ذكر، وإنما قيّد الصبر بقوله ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾ لأن الصبر ينقسم إلى نوعين: الأول الصبر المذموم وهو أن الإنسان قد يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على ما تحمل من النوازل وقد يصبر لئلا يعاب على الجزع، وقد يصبر لئلا تشمت به الأعداء، وكل هذه الأمور وإن كان ظاهرها الصبر فليس ذلك داخلاً تحت قوله: ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾ لأنها لغير الله تعالى. النوع الثاني: الصبر المحمود وهو أن يكون الإنسان صابراً لله تعالى راضياً بما نزل به من الله طالباً في ذلك الصبر ثواب الله محتسباً أجره على الله فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله ابتغاء وجه ربهم يعني صبروا على ما نزل بهم تعظيماً لله وطلب رضوانه ﴿وأقاموا الصلاة﴾ يعني الصلاة المفروضة. وقيل: حمله على العموم أولى فيدخل صلاة الفرض والنفل والمراد بإقامتها إتمام أركانها وهيئآتها ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ قال الحسن: المراد به الزكاة المفروضة فإن لم يتهم بترك أداء الزكاة فالأولى أن يؤديها سراً، وإن كان متهماً بترك أداء الزكاة فالأولى أن يؤديها علانية. وقيل: إن المراد بالسر ما يخرج من الزكاة بنفسه والمراد بالعلانية ما يؤديه إلى الإمام. وقيل: المراد بالسر صدقة التطوع والمراد بالعلانية الزكاة الواجبة وحمله

﴿ والذين صبروا ﴾، على طاعة الله، وقال ابن عباس: على أمر الله عزّ وجلّ. وقال عطاء: على المصائب والنوائب. وقيل: عن الشهوات. وقيل: عن المعاصي. ﴿ ابتغاءَ وجهِ ربِّهم ﴾، طلب تعظيمه أن يخالفوه، ﴿ وأقاموا الصلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً وعلانية ﴾، يعني يؤدون الزكاة، ﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾، رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يدفعون بالصالح من العمل السيءَ من العمل، وهو معنى قوله: ﴿ إنَّ الحسناتِ يُذهبنَ السيئات ﴾ [هود: ١١٤]، وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عملتَ سيئةً فاعملْ بجنبها حسنةً تمحها، السرُّ بالسر والعلانيَةُ بالعلانية». أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة حدّثني يزيد بن أبي حبيب حدّثنا أبو الخير أنه سمع عقبة بن عامر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكّت عنه حلقة ثم عمل أخرى فانفكّت أخرى حتى يخرج إلى الأرض». وقال ابن كيسان: معنى

على العموم أولى ﴿ويدرؤون بالحسنة السيئة﴾ قال ابن عباس: يدفعون بالعمل الصالح العمل السيء، وهو معنى قوله: «إن الحسنات يذهبن السيئات» ويدل على صحة هذا التأويل ما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال «إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية» وروى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل أخرى فانفكت أخرى حتى خرج إلى الأرض» وقال ابن كيسان: يدفعون الذنب بالتوبة وقيل: لا يكافئون الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير وقال القتيبي معناه إذا سفه عليهم حلموا والسفه السيئة والحلم الحسنة، وقال قتادة: ردوا عليهم رداً معروفاً. وقال الحسن: إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا وإذا قطعوا وصلوا. قال عبد الله بن المبارك: هذه ثمان خلال مشيرة إلى أبواب الجنة الثمانية قلت إنما هي تسع خلال فيحتمل أنه عد خلتين بواحدة ولما ذكر الله عز وجل هذه الخلال من أعمال البر، ذكر بعدها ما أعد للعاملين بها من الثواب فقال تعالى ﴿أولئك﴾ يعني من أتى بهذه الأعمال ﴿لهم عقبى الدار﴾ يعني الجنة والمعنى إن عاقبتهم دار الثواب ﴿جنَّات عدن﴾ بدل من عقبى الدار يعني بساتين إقامة يقال عدن بالمكان إذا أقام به ﴿يدخلونها﴾ يعني الدار التي تقدم وصفها ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ يعني ومن صدق من آبائهم بما صدقوا به، وإن لم يعمل بأعمالهم قاله ابن عباس. وقال الزجاج: إن الإنسان لا ينتفع بغير أعماله الصالحة فعلى قول ابن عباس: معنى صلح صدق وآمن ووحد، وعلى قول الزجاج معناه أصلح في عمله قال الواحدي والصحيح: ما قاله ابن عباس لأن الله تعالى جعل ثواب المطيع سروره بما يراه في أهله حيث بشره بدخوله الجنة مع هؤلاء، فدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع العامل الآتي بالأعمال الصالحة، ولو كان دخولهم الجنة بأعمالهم الصالحة، لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به إذ كل من كان صالحاً في عمله، فهو يدخل الجنة. قال الإمام فخر الدين الرازي: قوله تعالى وأزواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة، ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه وروي أنه لما كبرت سودة أراد النبي ﷺ طلاقها فسألته أن لا يفعل، ووهبت يومها لعائشة فأمسكها رجاء أن تحشر في جملة أزواجه فهو كالدليل على ما ذكرناه. وقوله تعالى ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ يعني من أبواب الجنة. وقيل من أبواب القصور، قال ابن عباس: يريد به التحية من الله والتحف والهدايا ﴿سلام عليكم﴾ يعني يقولون: سلام عليكم فأضمر القول

الآية يدفعون الذنب بالتوبة. وقيل: لا يكافئون الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير. وقال القتيبي: معناه إذا سفه عليهم حلموا، فالسفه: السيئة، والحلم: الحسنة. وقال قتادة: ردّوا عليهم معروفاً نظيره قوله تعالى: ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقال الحسن: إذا حُرِمُوا أعطوا وإذا ظُلِمُوا عَفُوا وإذا قُطِعُوا وصلوا. قال عبد الله بن المبارك: هذه ثمان خلال مشيرة إلى ثمانية أبواب الجنة ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾، يعني الجنة، أي: عاقبتهم دار الثواب. ثم بيّن ذلك فقال:

﴿ جناتُ عدن ﴾، بساتين إقامة، ﴿ يدخلونها ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾، قيل: من أبواب الجنة. وقيل: من أبواب القصور.

﴿ سلام عليكم ﴾، أي: يقولون سلام عليكم. وقيل: يقولون سلمكم الله من الآفات التي تخافون منها قال مقاتل: يدخلون عليهم في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث كرات معهم الهدايا والتحف من الله عزّ وجلّ، يقولون سلام عليكم، ﴿ بما صبرتم فَنِعْمَ عُقْبى الدار ﴾، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن بقية بن الوليد حدّثني أرطاة بن المنذر قال: سمعت رجلاً من مشيخة الجند قال

هاهنا لدلالة الكلام عليه ﴿بما صبرتم﴾ يعني يقولون لهم: سلمكم الله من الآفات التي كنتم تخافونها في الدنيا وأدخلكم بما صبرتم في دار الدنيا على الطاعات، وترك المحرمات الجنة وقيل: إن السلام قول والصبر فعل ولا يكون القول ثواباً للفعل، فعلى هذا يكون قوله: سلام عليكم دعاء من الملائكة لهم يعني سلمكم الله بما صبرتم. قال مقاتل: إن الملائكة يدخلون عليهم في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم الهدايا والتحف من الله تعالى. يقولون: سلام عليكم بما صبرتم، وروى البغوي بسنده عن أبي أمامة موقوفاً عليه قال: «إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك من ملائكة الله يستأذن فيقوم أدنى الخدم إلى الباب فإذا بالملك يستأذن فيقول: للذي يليه ملك يستأذن. ويقول الآخر: كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا له فيقول أقربهم إلى المؤمن ائذنوا له ويقول الذي يليه ائذنوا له وكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له، فيدخل فيسلم ثم ينصرف» ﴿فنعم عقبى الدار﴾ يعني فنعم العقبى عقبى الدار. وقيل: معناه فنعم عقبى الدار ما أنتم فيه ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ لما ذكر الله أحوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات والخيرات ذكر بعده أحوال الأشقياء، وما لهم من العقوبات فقال تعالى ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ ونقض العهد ضد الوفاء به، وهذا من صفة الكفار لأنهم هم الذين نقضوا عهد الله يعني خالفوا أمره، ومعنى من بعد ميثاقه من بعد ما أوثقوه على أنفسهم بالاعتراف والقبول ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ يعني ما بينهم وبين المؤمنين من الرحم والقرابة ﴿ويفسدون في الأرض﴾ يعني بالكفر والمعاصي ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفته ﴿لهم اللَّعنة﴾ يعني الطرد عن رحمة الله يوم القيامة ﴿ولهم سوء الدار﴾ يعني النار لأن منقلب الناس في العرف إلى دورهم، ومنازلهم، فالمؤمنون لهم عقبى الدار وهي الجنة، والكفار لهم سوء الدار وهي النار. قوله تعالى ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ يعني يوسع على من يشاء من عباده فيغنيه من فضله، ويضيق على من يشاء من عباده فيفقره ويقتر عليه، وهذا أمر اقتضته حكمة الله ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾ يعني مشركي مكة لما بسط الله عليهم الرزق أشروا وبطروا، والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المشتهى. وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا والركون إليها حرام ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة﴾ يعني بالنسبة إلى الآخرة ﴿إلا متاع﴾ أي قليل ذاهب. قال الكلبي: المتاع مثل السكرجة والقصعة والقدر ينتفع بها في الدنيا ثم تذهب كذلك الحياة لأنها ذاهبة لا بقاء لها ﴿ويقول الذين كفروا﴾ يعني من أهل مكة

أبو الحجاج يقول: جلست إلى أبي أمامة فقال: إن المؤمن لا يكون متكئاً على أريكته إذا أُدخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين بـاب مبوّب فيقبل مَلَك من ملائكة الله فيستأذن فيقوم أدنى الخدم إلى الباب فإذا هو بالمَلَك يستأذن فيقول للذي يليه ملك يستأذن ويقول الذي بينه للذي يليه ملك يستأذن كذلك حتى يبلغ المؤمن، فيقول: ائذنوا له، فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا له، ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا له كذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيُفتح له فيدخل فيسلّم ثم ينصرف.

﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾، هذا في الكفّار. ﴿ ويقطعون ما أمرَ الله به أنْ يُوصل ﴾، أي: يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض. وقيل: يقطعون الرحم، ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾، أي: يعملون بالمعاصي، ﴿ أولئك لهم اللعنة ولهم سُوءُ الدار ﴾، يعني: النار، وقيل: سوء المنقلب لأن منقلب الناس دُورُهم.

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرزقَ لمَن يشاء ويَقْدِر ﴾، أي: يوسع على مَن يشاء ويضيق على مَن يشاء، ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾، يعني: مشركي مكة أشروا وبطروا، والفرح لذة في القلب بنيل المشتهى، وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا حرام. ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ متاع ﴾ أي: قليل ذاهب. قال الكلبي: كمثل السكرجة والقصعة والقدح والقدر ينتفع بها ثم تذهب.

﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ يعني هلا أنزل على محمد آية ومعجزة مثل معجزة موسى وعيسى ﴿قل﴾ أي قل لهم يا محمد: ﴿إن الله يضل من يشاء﴾ فلا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات إن لم يهده الله عز وجل وهو قوله ﴿ويهدي إليه من أناب﴾ يعني ويرشد إلى دينه والإيمان به من أناب بقلبه ورجع إليه بكليته ﴿الذين آمنوا﴾ بدل من قوله من أناب ﴿وتطمئن قلوبهم﴾ يعني وتسكن قلوبهم ﴿بذكر الله﴾ قال مقاتل: بالقرآن لأنه طمأنينة لقلوب المؤمنين والطمأنينة والسكون إنما تكون بقوة اليقين، والاضطراب إنما يكون بالشك ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ يعني بذكره تسكن قلوب المؤمنين ويستقر اليقين فيها. وقال ابن عباس: هذا في الحلف وذلك أن المسلم إذا حلف بالله على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه. فإن قلت أليس قد قال الله تبارك وتعالى في أول سورة الأنفال ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ والوجل استشعار الخوف، وحصول الاضطراب وهو ضد الطمأنينة فكيف وصفهم بالوجل والطمأنينة وهل يمكن الجمع بينهما في حال واحد. قلت: إنما يكون الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة، إنما تكون عند الوعد والثواب فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه وعقابه وتطمئن إذا ذكرت فضل الله ورحمته وكرمه وإحسانه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٣١﴾

﴿الذين آمنوا أو عملوا الصالحات طوبى لهم﴾ اختلف العلماء في تفسير طوبى فقال ابن عباس: فرح لهم وقرة

﴿ ويقول الذين كفروا ﴾، من أهل مكة، ﴿ لولا أنزل عليه آيةٌ من ربه قلْ إنّ الله يضُل مَن يشاء ويهدي إليه مَن أناب ﴾ أي: يهدي إليه مَن يشاء بالإنابة. وقيل: يرشد إلى دينه مَن يرجع إليه بقلبه.

﴿ الذين آمنوا ﴾، في محل النصب بدل من قوله: ﴿ من أناب ﴾، ﴿ وتطمئن ﴾، تسكن، ﴿ قلوبهم بذكر الله ﴾، قال مقاتل: بالقرآن، والسكون يكون باليقين، والاضطراب يكون بالشك، ﴿ ألا بذكر الله تـطمئنُّ القلوب ﴾، تسكن قلوب المؤمنين ويستقر فيها اليقين، قال ابن عباس: هذا في الحلف، يقول: إذا حلف المسلم بالله على شيء تسكن قلوب المؤمنين إليه، فإن قيل: أليس قد قال الله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر اللَّهُ وَجِلَتْ قلوبُهم ﴾ [الأنفال: ٢]، فكيف تكون الطمأنينة والوَجَل في حالة واحدة؟ قيل: الوَجَل عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب، فالقلوب توجل إذا ذكرت وعيد الله وشدّة حسابه، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله وكرمه.

﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾، ابتداءٌ، وقوله: ﴿ طوبى لهم ﴾ خبرهُ، واختلفوا في تفسير ﴿ طوبى ﴾ رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما: فَرَحٌ لهم وقُرّةُ عين. وقال عكرمة: نِعْمَ ما لهم. وقال قتادة: حسنى لهم. وقال معمر عن قتادة: هذه كلمة عربية يقول الرجل للرجل طوبى لك أي أصبت خيراً. وقال إبراهيم: خير لهم وكرامة. قال الفرّاء: أصله من الطيب والواو فيه لضمة الطاء وفيه لغتان، تقول العرب: طوباك وطوبى لك أي لهم الطيب. ﴿ وحُسْنُ مَآب ﴾ أي: حسن المنقلب. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحبشية.

أعين. وقال عكرمة: نعمى لهم. وقال قتادة: حسن لهم وفي رواية أخرى، عنه إن هذه الكلمة عربية يقول الرجل للرجل: طوبى لك أي أصبت خيراً. وقال إبراهيم النخعي خير لهم وكرامة. وقال الزجاج: طوبى من الطيب وقيل تأويلها الحال المستطابة لهم وهو كل ما استطابه هؤلاء في الجنة من بقاء بلا فناء وعز بلا ذل وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم. قال الأزهري: تقول طوبى لك وطوباك لحن لا تقوله العرب وهو قول أكثر النحويين. وقال سعيد بن جبير: طوبى اسم الجنة بالحبشية وروي عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي الدرداء أن طوبى اسم شجرة في الجنة تظلل الجنان كلها. وقال عبيد ابن عمير: هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي ﷺ وفي كل دار وغرفة في الجنة منها غصن لم يخلق الله لوناً ولا زهرة إلا وفيها منه إلا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة إلا وفيها منها ينبع من أصلها عينان: الكافور والسلسبيل. وقال مقاتل: كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله بأنواع التسبيح وروي عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن طوبى فقال: «هي شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه. قال: «طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة» هكذا ذكر البغوي هذين الحديثين بغير سند، وروي بسنده موقوفاً عن أبي هريرة قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرؤوا إن شئتم وظل ممدود» فبلغ ذلك كعب الأحبار فقال: صدق والذي أنزل التوراة على موسى والقرآن على محمد لو أن رجلاً ركب فرساً أو حقة أو جذعة، ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرماً إن الله غرسها بيده، ونفخ فيها من روحه وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة، وما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة. فقال البغوي وبهذا الإسناد عن عبد الله بن المبارك عن الأشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: «إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله لها تفتقي لعبدي عما يشاء فتفتق له عن فرس مسرجة بلجامها وهيئتها كما يشاء وتفتق له عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما

وقال الربيع: هو البستان بلغة الهند. ورُوِيَ عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي الدرداء قال: طوبى شجرة في الجنة تظل الجنان كلها. وقال عبيد بن عمير: هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي ﷺ، وفي كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لوناً ولا زهرةً إلّا وفيها منها إلّا السواد، ولم يخلق الله تعالى فاكهة ولا ثمرة إلّا وفيها منها، ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل. وقال مقاتل: كل ورقة منها تُظِلُّ أمة عليها ملك يسبّح الله عزّ وجلّ بأنواع التسبيح. ورُوِيَ عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ ما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة ظلها مسيرة مائة سنة، ثيابُ أهل الجنة تخرج من أكمامها». وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه: «طوبى شجرةٌ غرسها الله تعالى بيده، ونفخ فيها من روحه، تنبت الحلي والحلل وإن أغصانها لَتُرى من وراء سُور الجنة». أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن إسماعيل بن أبي خالد عن زياد مولى بني مخزوم أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه: إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وظل ممدود ﴾ [الواقعة: ٣٠] فبلغ ذلك كعباً فقال: صدق والذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام والقرآن على محمد ﷺ، لو أن رجلاً ركب حقّة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هَرِماً، إن الله تعالى غرسها بيده ونفخ فيها من روحه، وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة، ما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة. وبهذا الإسناد عن عبد الله بن المبارك عن معمر عن الأشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوبى، يقول الله عزّ وجلّ لها تفتقي لعبدي عمّا شاء فتفتّقتْ له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء وتفتّقت له عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما شاء وعن الثياب.

يشاء وعن الثياب» (ق) عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» (ق) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها» (ق) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة» زاد البخاري في روايته «واقرؤوا إن شئتم وظل ممدود». وقوله تعالى ﴿وحسن مآب﴾ يعني ولهم حسن منقلب ومرجع ينقلبون ويرجعون إليه في الآخرة وهي الجنة. قوله عز وجل: ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم﴾ يعني كما أرسلناك يا محمد إلى هذه الأمة كذلك أرسلنا أنبياء قبلك إلى أمم قد خلت ومضت ﴿لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك﴾ يعني لتقرأ على أمتك الذي أوحينا إليك من القرآن وشرائع الدين ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج: هذه الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية وذلك أن سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «اكتب بسم الله الرّحمٰن الرّحيم» فقالوا: لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب اكتب كما نكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن يعني أنهم ينكرونه ويجحدونه والمعروف أن الآية مكية. وسبب نزولها أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحجر يدعو ويقول في دعائه: «يا الله يا رحمن» فرجع أبو جهل إلى المشركين وقال: إن محمداً يدعو إلهين يدعو الله ويدعو إلهاً آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمٰن إلا رحمٰن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰن أيّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ «اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمٰن» فقال الله تعالى ﴿قل﴾ أي قل يا محمد إن الرحمٰن الذي أنكرتم معرفته ﴿هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت﴾ يعني عليه اعتمدت في أموري كلها ﴿وإليه متاب﴾ يعني وإليه توبتي ورجوعي. قوله تعالى ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال﴾ الآية نزلت في نفر من مشركي قريش منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية، جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا خلف النبي ﷺ فأتاهم وقيل: إنه مر بهم وهم جلوس فدعاهم إلى الله عز وجل فقال له عبد الله بن أبي أمية إن سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فادفعها عنا حتى تتفتح فإنها أرض ضيقة لمزارعنا واجعل لنا فيها أنهاراً وعيوناً لنغرس الأشجار، ونزرع ونتخذ

قوله تعالى: ﴿ كذلك أرسلناك في أمة ﴾ أي: كما أرسلنا الأنبياء إلى الأمم أرسلناك إلى هذه الأمة، ﴿ قدْ خلتْ ﴾، مضت، ﴿ من قبلها أُممٌ لتتلوا ﴾، لتقرأ، ﴿ عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن ﴾، قال قتادة ومقاتل وابن جريج: الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية، وذلك أن سهيل بن عمرو لمّا جاء إلى النبي ﷺ واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله ﷺ لعلي: «اكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم»، قالوا: لا نعرف الرحمن إلّا صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، اكتب كما كنت تكتب باسمك اللّهمّ، فهذا معنى قوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن ﴾، والمعروف أن الآية مكية وسبب نزولها أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحِجْر يدعُو يا الله يا رحمن، فرجع إلى المشركين فقال: إن محمداً يدعو إلٰهين يدعو الله ويدعو إلٰهاً آخر يسمى الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ [الإسراء: ١١٠]. وروى الضحاك عن ابن عباس: أنها نزلت في كفّار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: «اسجدوا للرحمن»، قالوا: وما الرحمن؟ قال الله تعالى: ﴿ قل ﴾، لهم يا محمد إن الرحمن الذي أنكرتم معرفته، ﴿ هو ربي لا إلٰه إلّا هو عليه توكلت ﴾، اعتمدتُ ﴿ وإليه متاب ﴾، أي: توبتي ومرجعي.

قوله: ﴿ ولو أن قرآناً سُيّرتْ به الجبال ﴾، الآية نزلت في نفر من مشركي مكة منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية جلسوا خلف الكعبة فأرسلوا إلى النبي ﷺ فأتاهم فقال له عبد الله بن أبي أمية إن سرّك أن

البساتين فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود، حيث سخر له الجبال تسير معه أو سخر لنا الريح لنركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا، ونرجع في يومنا كما سخرت لسليمان كما زعمت فلست بأهون على ربك من سليمان أو أحي لنا جدك قصياً أو من شئت من موتانا لنسأله عن أمرك أحق أو باطل فإن عيسى كان يحيي الموتى ولست بأهون على الله من عيسى فأنزل الله هذه الآية **﴿ولو أن قرآنا سيِّرت به الجبال﴾** فأذهبت عن وجه الأرض **﴿أو قطِّعت به الأرض﴾** يعني شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً **﴿أو كلِّم به الموتى﴾** فأحياها واختلفوا في جواب لو فقال قوم جواب لو محذوف، وإنما حذف اكتفاء بمعرفة السامع مراده وتقديره ولو أن قرآناً فعل به كذا وكذا لكان هذا القرآن فهو كقول الشاعر:

فأقسم لو شيء أتانا رسوله ... سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أراد: لو شيء أتانا رسوله سواك لرددناه، وهذا معنى قول قتادة فإنه قال معناه لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقال آخرون: جواب لو تقدم تقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن، ولم يؤمنوا به لما سبق في علمنا فيهم كما قال: «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا» ثم قال تعالى **﴿بل لله الأمر جميعاً﴾** يعني في هذه الأشياء، وفي غيرها إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل **﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾** قال أكثر المفسرين: معناه أفلم يعلم؟ قال الكلبي: هذه لغة النخع وقيل هي لغة هوازن واختلف أهل اللغة في هذه اللفظة فقال الليث وأبو عبيد ألم ييأس ألم يعلم واستدلوا لهذه اللغة بقول الشاعر:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ... ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

يعني ألم تعلموا. واستدلوا عليه أيضاً بقول شاعر آخر:

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه ... وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فأذهبها عنّا حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة لمزارعنا، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً لنغرس فيها الأشجار ونزرع، ونتخذ البساتين فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود عليه السلام حيث سخر له الجبال تسبّح معه، أو سخّر لنا الريح فنركبها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع في يومنا فقد سخّرت الريح لسليمان كما زعمت، ولست بأهون على ربك من سليمان أو أحيِ لنا جدّك قصيّاً أو مَن شئت من آبائنا وموتانا لنسأله عن أمرك أحق ما تقول أم باطل، فإن عيسى كان يحيي الموتى ولست بأهون على الله منه فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿ ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال ﴾** فأذهبت عن وجه الأرض، **﴿ أو قُطِّعتْ به الأرضُ ﴾**، أي: شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً **﴿ أو كلم به الموتى ﴾** واختلفوا في جواب لو فقال قوم جوابه محذوف اكتفاء بمعرفة السامعين مراده وتقديره لكان هذا القرآن كقول الشاعر:

فاقسم لو شيء أتانا رسوله ... سواك ولكن لم نجد لك مدفعاً

أراد لرددناه، وهذا معنى قول قتادة قال: لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم. وقال الآخرون: جواب لو مقدم وتقدير الكلام: وهم يكفرون بالرحمن **﴿ ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال ﴾**، كأنه قال: لو سُيِّرت به الجبال **﴿ أو قطعت به الأرض أو كلّم به الموتى ﴾** لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا، لِما سبق من علمنا فيهم كما قال: **﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا لِيُؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾**

يعني ألم يعلم الأقوام. قال قطرب: يئس بمعنى علم لغة للعرب. قالوا: ووجه هذه اللغة أنه إنما وقع اليأس في مكان العلم لأن علمك بالشيء ويقينك به ييئسك من غيره. وقيل: لم يرد أن اليأس في موضع كلام العرب للعلم وإنما قصد أن يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضي أن يحصل العلم بانتفائه فإذن معنى يأسهم يقتضي حصول العلم. وقال الكسائي ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت قال وهذا الحرف في القرآن من اليأس المعروف لا من العلم وذلك أن المشركين لما طالبوا رسول الله ﷺ بهذه الآيات اشرأبَّ المسلمون لذلك وأرادوا أن يظهر لهم آية ليجتمعوا على الإيمان، فقال الله تعالى: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء ويعلموا علماً يقيناً ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ يعني من غير ظهور آية. وقال الزجاج: القول عندي أن معناه أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء لأن الله لو يشاء لهدى الناس جميعاً. وحاصله أن في معنى الآية قولين: أحدهما أن يئس بمعنى علم. والقول الثاني: أنه من اليأس المعروف وتقدير القولين ما تقدم وتمسك أهل السنة بقوله أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً على أن الله لم يشأ هداية جميع الخلائق ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا﴾ يعني من الكفر والأعمال الخبيثة ﴿قارعة﴾ أي نازلة وداهية تقرعهم بأنواع البلايا أحياناً مرة بالجدب، ومرة بالسلب ومرة بالقتل والأسر. وقال ابن عباس: أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثها إليهم ﴿أو تحل﴾ يعني السرايا أو البلية ﴿قريباً من دارهم﴾ وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ يعني النصر والفتح وظهور رسول الله ﷺ ودينه وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لأن الله يجمعهم فيه فيجازيهم بأعمالهم ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ والغرض منه تشجيع قلب النبي ﷺ وإزالة الحزن عنه لعلمه بأن الله لا يخلف الميعاد. قوله عز وجل:

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ

[الأنعام: ١١١]، ثم قال: ﴿ بل لله الأمرُ جميعاً ﴾، أي: في هذه الأشياء إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، ﴿ أفلمْ ييأسِ الذين آمنوا ﴾، قال أكثر المفسرين: معناه أفلم يعلم. قال الكلبي: هي لغة النخع. وقيل: هي لغة هوازن، يدلّ عليه قراءة ابن عباس: (أفلم يتبين الذين آمنوا)، وأنكر الفراء أن يكون ذلك بمعنى العلم وزعم أنه لم يسمع أحداً من العرب يقول يئست بمعنى علمت، ولكن معنى العلم فيه مضمر، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ لما سمعوا هذا من المشركين طمعوا في أن يفعل الله ما سألوا فيؤمنوا فنزل: ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ يعني: الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من إيمان هؤلاء، أي لم ييأسوا علماً وكل مَن علم شيئاً يئس من خلافه، يقول: ألم ييئسهم العلم، ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناسَ جميعاً ولا يزال الذين كفروا تُصيبهم بما صنعوا ﴾، من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿ قارعةٌ ﴾ أي: نازلة وداهية تقرعهم من أنواع البلاء أحياناً بالجدب وأحياناً بالسلب وأحياناً بالقتل والأسر، وقال ابن عباس: أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثهم إليهم، ﴿ أو تحلّ ﴾، يعني: السرية أو القارعة، ﴿ قريباً من دارهم ﴾، وقيل: أو تحل أي تنزل أنت يا محمد بنفسك قريباً من ديارهم، ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾، قيل: يوم القيامة. وقيل: الفتح والنصر وظهور رسول الله ﷺ ودينه. ﴿ إن الله لا يُخلفُ الميعاد ﴾، وكان الكفار يسألون هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله تسلية لنبيّه ﷺ:

أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك﴾ وذلك أن كفار مكة إنما سألوا هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء، فأنزل الله هذه الآية تسلية للنبي ﷺ والمعنى أنهم إنما طلبوا منك هذه الآيات على سبيل الاستهزاء، وكذلك قد استهزىء برسل من قبلك ﴿فأمليت للذين كفروا﴾ يعني فأمهلتهم وأطلت لهم المدة ﴿ثم أخذتهم﴾ يعني بالعذاب بعد الإمهال فعذبتهم في الدنيا بالقحط والقتل والأسر وفي الآخرة بالنار ﴿فكيف كان عقاب﴾ يعني فكيف كان عقابي لهم ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ يعني أفمن هو حافظها ورازقها وعالم بها وبما عملت من خير وشر ويجازيها بما كسبت فيثيبها إن أحسنت، ويعاقبها إن أساءت وجوابه محذوف، وتقديره كمن ليس بقائم بل هو عاجز عن نفسه ومن كان عاجزاً عن نفسه فهو عن غيره أعجز وهي الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ يعني وهو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي جعلوها لله شركاء ﴿قل سموهم﴾ يعني له. وقيل: صفوهم بما يستحقون ثم انظروا هل هي أهل لأن تعبد ﴿أم تنبئونه﴾ يعني أم تخبرون الله ﴿بما لا يعلم في الأرض﴾ يعني أنه لا يعلم أن لنفسه شريكاً من خلقه وكيف يكون المخلوق شريكاً للخالق وهو العالم بما في السموات والأرض ولو كان لعلمه والمراد من ذلك نفي العلم بأن يكون له شريك ﴿أم بظاهر من القول﴾ يعني أنهم يتعلقون بظاهر من القول مسموع وهو في الحقيقة باطل لا أصل له وقيل: معناه بل بظن من القول لا يعلمون حقيقته ﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾ قال ابن عباس: زين لهم الشيطان الكفر وإنما فسر المكر بالكفر لأن مكرهم برسول الله ﷺ كفر منهم والمزين في الحقيقة هو الله تعالى لأنه هو الفاعل المختار على الإطلاق لا يقدر أحد أن يتصرف في الوجود إلا بإذنه فتزيين الشيطان إلقاء الوسوسة فقط، ولا يقدر على إضلال أحد وهدايته إلا الله تعالى ويدل على هذا سياق الآية وهو قوله: ومن يضلل الله فما له من هاد، وقوله ﴿وصدوا عن السبيل﴾ قرئ بضم الصاد ومعناه صرفوا عن سبيل الدين والرشد والهداية ومنعوا من ذلك والصاد

﴿ ولقد استُهزِىء برسل من قبلك ﴾، كما استهزؤوا بك، ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾، أمهلتهم وأطلت لهم المدة، ومنه الملوان وهما الليل والنهار، ﴿ ثم أخذتهم ﴾ عاقبتهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار، ﴿ فكيف كان عقاب ﴾، أي: عقابي لهم.

﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾، أي: حافظها ورازقها وعالم بها ومُجازيها بما عملت، وجوابه محذوف تقديره: كمَن ليس بقائم بل عاجز عن نفسه، ﴿ وجعلوا لله شركاء قلْ سَمّوهم ﴾ بيِّنوا أسماءهم. وقيل: صفوهم ثم انظروا هَلْ هي أهل لأن تُعبد؟ ﴿ أم تنبئونه ﴾ أي: تخبرون الله ﴿ بما لا يعلم في الأرض ﴾، فإنه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا في الأرض إلَهاً غيره، ﴿ أم بظاهر ﴾ يعني: أم تتعلقون بظاهر، ﴿ من القول ﴾، مسموع وهو في الحقيقة باطل لا أصل له. وقيل: بزائل من القول قال الشاعر:

وعيّرني الواشون أني أُحبها ... وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

أي: زائل، ﴿ بل زُين للذين كفروا مكرُهم ﴾، كيدهم. وقال مجاهد: شركهم وكذبهم على الله، ﴿وصدّوا عن السبيل﴾، أي: صرفوا عن الدين، قرأ أهل الكوفة ويعقوب ﴿وصدّوا﴾ وفي حَم المؤمن [٣٧] ﴿ وصُدّ ﴾ بضم الصاد فيهما وقرأ الآخرون بالفتح لقوله تعالى: ﴿ إنّ الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله ﴾

المانع لهم هو الله تعالى، وقرئ وصدوا بفتح الصاد ومعناه أنهم صدوا عن سبيل الله غيرهم أي عن الإيمان ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ الوقف عليه بسكون الدال وحذف الياء في قراءة أكثر القراء ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ يعني بالقتل والأسر ونحو ذلك مما فيه غيظهم ﴿ولعذاب الآخرة أشق﴾ يعني أشد وأغلظ لأن المشقة غلظ الأمر على النفس وشدته مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذي هو الصدع ﴿وما لهم من الله﴾ يعني من عذاب الله ﴿من واق﴾ يعني من مانع يمنعهم من عذابه قوله تعالى ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفة الجنة التي وعد المتقون ﴿تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم﴾ لا ينقطع أبداً ﴿وظلها﴾ يعني أنه دائم لا ينقطع أبداً وليس في الجنة شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع، ولا يزول وفي الآية رد على جهم وأصحابه فإنهم يقولون: إن نعيم الجنة يفنى وينقطع وفي الآية دليل على أن حركات أهل الجنة لا تنتهي إلى سكون دائم. كما يقول أبو الهذيل واستدل القاضي عبد الجبار المعتزلي بهذه الآية على أن الجنة لم تخلق بعد. قال: ووجه الدليل أنها لو كانت مخلوقة لوجب أن تفنى وينقطع أكلها لقوله تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ فوجب أن لا تكون الجنة مخلوقة لقوله: أكلها دائم يعني لا ينقطع قال ولا ينكر أن تكون في السموات جنات كثيرة تتمتع بها الملائكة، ومن يعد حياً من الأنبياء والشهداء وغيرهم على ما روي إلا أن الذي نذهب إليه أن جنة الخلد لم تخلق بعد. والجواب عن هذا أن حاصل دليلهم مركب من آيتين: إحداهما: قوله تعالى: كل شيء هالك إلا وجهه، والأخرى قوله: أكلها دائم وظلها، فإذا أدخلنا التخصيص على هذين العمومين سقط دليلهم فنخص هذين الدليلين بالدلائل الدالة على أن الجنة مخلوقة. منها قوله تعالى: وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين. وقوله تعالى ﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ يعني أن عاقبة أهل التقوى هي الجنة ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ يعني في الآخرة. قوله عز وجل ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك﴾ في المراد بالكتاب هنا قولان: أحدهما أنه القرآن والذين أتوه المسلمون وهم أصحاب رسول الله ﷺ والمراد أنهم يفرحون بما يتجدد من الأحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت بتجدد نزول القرآن ﴿ومن الأحزاب﴾ يعني الجماعات الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ من الكفار واليهود والنصارى ﴿من ينكر بعضه﴾ وهذا قول الحسن وقتادة. فإن قلت: إن الأحزاب من المشركين وغيرهم من أهل الكتاب ينكرون القرآن كله فكيف قال ومن الأحزاب

[الحج: ٢٥]، وقوله: ﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ﴾ [النحل: ٨٨، محمد: ١]. ﴿ ومَن يضلل اللَّهُ ﴾، بخذلانه إيّاه، ﴿ فما له من هادٍ ﴾.

﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾، بالقتل والأسر، ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾، أشد، ﴿ وما لهم من الله من واقٍ ﴾، مانع يمنعهم من العذاب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ مثل الجنة التي وُعد المتقون ﴾ أي: صفة الجنة، كقوله تعالى: ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الصفة العليا، ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾، أي: صفة الجنة التي وعد المتقون أن الأنهار تجري من تحتها. وقيل: مثل صلة مجازها الجنة التي وُعد المتقون تجري من تحتها الأنهار. ﴿ أُكُلُها دائمٌ ﴾ أي: لا ينقطع ثمرها ونعيمها، ﴿ وظلها ﴾، أي: ظلها ظليل لا يزول وهو ردّ على الجهمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يفنى. ﴿ تلك عقبى ﴾ أي: عاقبة ﴿ الذين اتقوا ﴾ يعني: الجنة، ﴿ وعُقبى الكافرين النار ﴾.

قوله تعالى: ﴿ والذين آتيناهم الكتابَ ﴾ يعني: القرآن وهم أصحاب محمد ﷺ ﴿ يفرحون بما أُنزل إليك ﴾ من القرآن، ﴿ ومن الأحزاب ﴾ يعني: الكفّار الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ وهم اليهود والنصارى، ﴿ ومَن ينكر بعضَه ﴾، هذا قول مجاهد وقتادة. وقال الآخرون: كان ذكر الرحمن قليلاً في القرآن في الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكره في القرآن مع كثر ذكره في التوراة، فلما كرر الله ذكره في القرآن

من ينكر بعضه. قلت: إن الأحزاب لا ينكرون القرآن بجملته لأنه قد ورد فيه آيات دالاّت على توحيد الله وإثبات قدرته وعلمه وحكمته، وهم لا ينكرون ذلك أبداً والقول الثاني أن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل والمراد بأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ومن أسلم من النصارى، وهم ثمانون رجلاً أربعون من نجران وثلاثون من الحبشة وعشرة ممن سواهم فرحوا بالقرآن لكونهم آمنوا به وصدقوه، ومن الأحزاب يعني بقية أهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين من ينكر بعضه. وقيل: كان ذكر الرحمن قليلاً في القرآن في الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن معه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كرر الله تعالى ذكر لفظة الرحمن في القرآن فرحوا بذلك فأنزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب يعني مشركي مكة من ينكر بعضه وذلك لمّا كتب رسول الله ﷺ كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه بسم الله الرحمٰن الرحيم فقالوا ما نعرف الرحمٰن إلا رحمٰن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله ﴿وهم يكفرون بالرحمٰن قل هو ربي﴾ وإنما قال ومن الأحزاب من ينكر بعضه لأنهم كانوا لا ينكرون الله وينكرون الرحمٰن ﴿قل﴾ أي قل يا محمد ﴿إنما أمرت أن أعبد الله﴾ يعني وحده ﴿ولا أشرك به﴾ شيئاً ﴿إليه أدعو﴾ أي إلى الله وإلى الإيمان به أدعو الناس ﴿وإليه مآب﴾ يعني مرجعي يوم القيامة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ أي كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلغاتهم، أنزلنا إليك يا محمد هذا الكتاب وهو القرآن عربياً بلسانك ولسان قومك. وإنما سمي القرآن حكماً لأن فيه جميع التكاليف والأحكام والحلال والحرام والنقض والإبرام، فلما كان القرآن سبباً للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة، وقيل إن الله لما حكم على جميع الخلق بقبول القرآن والعمل بمقتضاه سماه حكماً لذلك المعنى ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ قال جمهور المفسرين: إن المشركين دعوا رسول الله ﷺ إلى ملة آبائهم فتوعده الله على اتباع أهوائهم في ذلك. وقال ابن السائب: المراد به متابعة آبائهم في الصلاة لبيت المقدس ﴿بعد ما جاءك من العلم﴾ يعني بأنك على الحق، وأن قبلتك الكعبة هي الحق.

فرحوا به فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أُنزل إليك ومن الأحزاب مَن ينكر بعضه ﴾، يعني: مشركي مكة حين كتب رسول الله ﷺ في كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ [الأنبياء: ٣٦] ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ [الرعد: ٣٠]، وإنما قال ﴿ بعضه ﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون ذكر الله وينكرون ذكر الرحمن. ﴿ قلْ ﴾، يا محمد، ﴿ إنما أُمرتُ أن أعبدَ الله ولا أُشركَ به إليه أدعوا إليه مآب ﴾، أي: مرجعي.

﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾، يقول كما أنزلنا إليك الكتاب يا محمد فأنكره الأحزاب كذلك أنزلنا إليك الحكم والدين عربياً، نسب إلى العرب لأنه نزل بلغتهم فكذب به الأحزاب. وقيل: نظم الآية كما أنزل الكتب على الرسل بلغاتهم فكذلك أنزلنا عليك الكتاب حكماً عربياً. ﴿ ولئن اتبعت أهواءَهم ﴾، في الملّة. وقيل: في القبلة، ﴿ بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من وليّ ولا واقٍ ﴾، يعني: من ناصر ولا حافظ.

قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ﴾، رُوِيَ أن اليهـود، وقيل: إن المشركين قالوا إن هذا الرجل

وقيل: ظاهر الخطاب فيه للنبي ﷺ والمراد به غيره وقيل: هو حث للنبي ﷺ على تبليغ الرسالة والقيام بما أمر به ويتضمن ذلك تحذير غيره من المكلفين لأن من هو أرفع منزلة وأعظم قدراً وأعلى مرتبة إذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الأولى ﴿ما لك من الله من ولي ولا واق﴾ يعني من ناصر ولا حافظ قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾ روي أن اليهود، وقيل المشركين، قالوا: إن هذا الرجل يعنون النبي ﷺ، ليس له همة إلا في النساء فعابوا عليه ذلك وقالوا لو كان كما يزعم أنه رسول الله لكان مشتغلاً بالزهد وترك الدنيا فأجاب الله عز وجل عن هذه الشبهة، وعما عابوه به بقوله عز وجل ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك يا محمد ﴿وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ فإنه قد كان لسليمان عليه الصلاة والسلام ثلثمائة امرأة حرة وسبعمائة امرأة سرية فلم يقدح ذلك في نبوته وكان لأبيه داود عليه الصلاة والسلام مائة امرأة فلم يقدح ذلك أيضاً في نبوته فكيف يعيبون عليك ذلك، ويجعلونه قادحاً في نبوتك والمعنى: ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك يأكلون ويشربون وينكحون، وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ هذا جواب لعبد الله بن أبي أمية، وغيره من المشركين الذين سألوا رسول الله ﷺ، الآيات واقترحوا عليه أن يريهم المعجزات، وتقدير هذا الجواب أن المعجزة الواحدة كافية في إثبات النبوة وقد أتاهم رسول الله ﷺ بمعجزات كثيرة يعجز عن مثلها البشر، فما لهم أن يقترحوا عليه شيئاً، وإتيان الرسول بمعجزات ليس إليه بل هو مفوض إلى مشيئة الله عز وجل فإن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها ﴿لكل أجل كتاب﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم فلما استبطئوا ذلك، وقد كانوا يستعجلون نزوله أخبر الله عز وجل أن لكل قضاء قضاه كتاباً قد كتبه فيه ووقتاً يقع فيه لا يتقدم ولا يتأخر. والمعنى: أن لكل أجل أجله الله كتاباً قد أثبته فيه، وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره لكل كتاب أجل ومدة والمعنى أن الكتب المنزلة لكل كتاب منها وقت ينزل فيه ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ وذلك أنهم لما اعترضوا على رسول الله فقالوا: إن محمداً يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمرهم بخلافه غداً، وما سبب ذلك إلا أنه يقوله من تلقاء نفسه، أجاب الله عن هذا الاعتراض بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت. قال سعيد بن جبير وقتادة: يمحو الله ما شاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدله، وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن حذيفة بن أسيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصورهما وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء فيكتب الملك، ثم يقول يا رب أجله فيقول: ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول: الملك يا رب رزقه فيقول: ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك الصحيفة، فلا يزيد على أمر ولا ينقص» أخرجه مسلم (ق) عن ابن مسعود رضي الله

ليست له همّة إلاّ في النساء فأنزل الله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾، وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾، هذا جواب عبد الله بن أبي أمية. ثم قال: ﴿ لكلِ أجلٍ كتاب ﴾، يقول لكل أمر قضاه الله كتاب قد كتبه فيه. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره أي: لكل كتاب أجل ومدة أي: الكتب المنزلة لكل واحد منها وقت ينزل فيه.

﴿يمحوا الله ما يشاء ويُثبت ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمر وعاصم ويعقوب ﴿ ويثبت ﴾ بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد. واختلفوا في معنى الآية فقال سعيد بن جبير وقتادة: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه. وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة. وروينا عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقيٌ أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: إيْ ربِّ أذَكَر أم أُنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تُطوى الصحف فلا يُزاد فيها ولا ينقص». وعن عمرو بن مسعود أنهما قالا: يمحو

تعالى عنه، قال حدثنا رسول الله ﷺ: وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه نطفة أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح، فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها». فإن قلت: هذا الحديث والذي قبله صريح بأن الآجال والأرزاق مقدرة، وكذا السعادة والشقاوة لا تتغير عما قدره الله وعلمه في الأزل فيستحيل زيادتها ونقصانها، وكذلك يستحيل أن ينقلب السعيد شقياً أو الشقي سعيداً، وقد صح في فضل صلة الرحم أن صلة الرحم تزيد في العمر فكيف الجمع بين هذه الأحاديث، وبين قوله تعالى: يمحو الله ما يشاء ويثبت؟. قلت: قد تكرر بالدلائل القطعية أن الله عالم الآجال والأرزاق وغيرها. وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه فإذا علم الله أن زيداً يموت في وقت معين استحال أن يموت قبله أو بعده وهو قوله تعالى ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ فدل ذلك على أن الآجال لا تزيد ولا تنقص. وأجاب العلماء عما ورد في الحديث في فضل صلة الرحم من أنها تزيد في العمر بأجوبة الصحيح منها: أن هذه الزيادة تكون بالبركة في عمره بالتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع وغير ذلك. والجواب الثاني: منها أنها بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة في اللوح المحفوظ أن عمر زيد مثلاً ستون سنة، إلا أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له أربعون سنة، وقد علم الله في الأزل ما سيقع من ذلك، وهو معنى قوله تعالى: يمحو الله ما يشاء ويثبت أي بالنسبة لما يظهر للمخلوقين من تصوير الزيادة. وأما انقلاب الشقي سعيداً أو السعيد شقياً فيتصور في الظاهر أيضاً لأن الكافر قد يسلم فينقلب من الشقاوة إلى السعادة، وكذا العاصي ونحوه وقد يتوب فينقلب من الشقاوة إلى السعادة وقد يرتد المسلم، والعياذ بالله تعالى، فيموت على ردته فينقلب من السعادة إلى الشقاوة، والأصل في هذا الاعتبار بالخاتمة عند الموت وما يختم الله به له وهو المراد من علم الله الأزلي الذي لا يتغير ولا يتبدل. والله أعلم. وأصل المحو: إذهاب أثر الكتابة وضده الإثبات فمن العلماء من حمل الآية على ظاهرها فجعلها عامة في كل شيء يقتضيه ظاهر اللفظ، فيزيد الله ما يشاء في الرزق والأجل. وكذا القول في السعادة والشقاوة والإيمان بالله والكفر. ونقل نحو هذا عن عمر وابن مسعود فإنهما قالا: يمحو السعادة والشقاوة ويمحو الرزق والأجل ويثبت ما يشاء. وروي عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني من أهل السعادة والمغفرة فأثبتني فيها وإن كنت كتبتني من أهل الشقاوة فامحني منها وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب وروي مثله عن ابن مسعود وقد ورد في بعض الآثار «أن الرجل يكون قد بقي من عمره

السعادة والشقاوة أيضاً ويمحو الرزق والأجل ويثبت ما يشاء. رُوِيَ عن عمر أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللّهمّ إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها وإن كنت كتبتني على الشقاوة فامحني، وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أُمّ الكتاب. ومثله عن ابن مسعود، وفي بعض الآثار: أن الرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فترد إلى ثلاثة أيام، والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فتمدّ إلى ثلاثين سنة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو منصور السمعاني ثنا أبو جعفر الرياني ثنا حميد بن زنجويه ثنا عبد الله بن صالح حدّثني الليث بن سعد حدّثني زياد بن محمد الأنصاري عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله عزّ وجلّ في آخر ثلاث ساعات يبقين من الليل فينظر في الساعة الأولى منهنّ في أُمّ الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت». وقيل: معنى الآية إن الحَفَظَة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحَفَظَة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب.

ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمد إلى ثلاثين سنة» هكذا ذكر البغوي بغير سند. وروي بسنده عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ «ينزل الله تبارك وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل فينظر في الساعة الأولى منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت» ومن العلماء من حمل معنى الآية على الخصوص في بعض الأشياء دون بعض فقال: المراد بالمحو والإثبات نسخ الحكم المتقدم وإثبات حكم آخر عوضاً عن الحكم المتقدم، وقيل: إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب، ولا عقاب مثل قول القائل أكلت، شربت، دخلت، خرجت، ونحو ذلك من الكلام، وهو صادق فيه ويثبت ما فيه ثواب وعقاب. وهذا قول الضحاك. وقال الكلبي: يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب. وقال ابن عباس: هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله فهو الذي يمحو والذي يثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يموت، وهو في طاعته فهو الذي يثبت، وقال الحسن: يمحو الله ما يشاء يعني من جاء أجله فيذهبه ويثبت من لم يجىء أجله وقال سعيد بن جبير يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت ما يشاء منها فلا يغفرها. وقال عكرمة: يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات. وقال السدي: يمحو الله ما يشاء يعني القمر ويثبت الشمس. وقال الربيع: هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه وأمسكه، ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه، وقيل: إن الله يثبت في أول كل سنة حكمها فإذا مضت السنة محاه وأثبت حكماً آخر للسنة المستقبلة وقيل: يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة. وقيل: هو في المحن والمصائب فهي مثبتة في الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة. وقيل: إن الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء لا اعتراض لأحد عليه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. فان قلت مذهب أهل السنة أن المقادير سابقة وقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فكيف يستقيم مع هذا المحو والإثبات. قلت: المحو والإثبات مما جف به القلم وسبق به القدر فلا يمحو شيئاً ولا يثبت شيئاً إلا ما سبق به علمه في الأزل وعليه يترتب القضاء والقدر.

مسألة: استدلت الرافضة على مذهبهم في البداء بهذه الآية: قالوا: إن البداء جائز على الله وهو أن يعتقد شيئاً ثم يظهر له خلاف ما اعتقده وتمسكوا بقوله ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ والجواب عن هذه المسألة أن هذا مذهب باطل ظاهر الفساد لأن علم الله قديم أزلي، وهو من لوازم ذاته المخصوصة، وما كان كذلك كان دخول التغيير والتبديل فيه محالاً كذا ذكره الإمام فخر الدين الرازي في تفسير هذه الآية. وقوله تعالى ﴿**وعنده أم الكتاب**﴾ يعني أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل، وسمي اللوح المحفوظ أم الكتاب لأن جميع الأشياء مثبتة فيه ومنه تنسخ

مثل قوله: أكلت شربت دخلت خرجت ونحوها من كلام هو صادق فيه ويثبت ما فيه ثواب وعقاب، هذا قول الضحاك والكلبي. وقال الكلبي: يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، وقال عطية عن ابن عباس: هو الرجل يعمل بطاعة الله عزّ وجلّ ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو والذي يثبت الرجل يعمل بطاعة الله فيموت وهو في طاعة الله عزّ وجلّ فهو الذي يثبت. وقال الحسن: ﴿ **يمحو الله ما يشاء** ﴾ أي مَن جاء أجله يذهب به ويثبت مَن لم يجيء أجله إلى يوم أجله. وعن سعيد بن جبير قال: ﴿ **يمحو الله ما يشاء** ﴾ من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها. وقال عكرمة: ﴿ **يمحو الله ما يشاء** ﴾ من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات، كما قال الله تعالى: ﴿ **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ [الفرقان: ٧٠]. وقال السدي: ﴿ **يمحو الله ما يشاء** ﴾ يعني القمر ﴿ **ويثبت** ﴾ يعني الشمس بيانه قوله تعالى: ﴿ **فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ [الإسراء: ١٢] وقال الربيع: هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم فمَن أراد موته محاه فأمسكه ومَن أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه، بيانه قوله عزّ وجلّ: ﴿ **الله يتوفّى الأنفس حين موتها** ﴾ [الزمر: ٤٢] الآية. ﴿ **وعنده أُمُّ الكتاب** ﴾، أي: أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي لا يبدل

الكتب المنزلة، وقيل: إن العلوم كلها تنسب إليه وتتولد منه، قال ابن عباس: هما كتابان كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت ما يشاء وأم الكتاب الذي لا يغير شيء منها وروى عطية عن ابن عباس قال: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة، لله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، وسأل ابن عباس كعباً عن أم الكتاب فقال: علم الله ما هو خالق وما خلقه وما هم عاملون.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وإن ما نرينك﴾ يعني يا محمد ﴿بعض الذي نعدهم﴾ يعني من العذاب ﴿أو نتوفينك﴾ يعني قبل أن نريك ذلك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ يعني ليس عليك إلا تبليغ الرسالة إليهم والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ ﴿وعلينا الحساب﴾ يعني وعلينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم. قوله عز وجل: ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ يعني أو لم ير كفار مكة الذين سألوا محمداً ﷺ الآيات أنا نأتي الأرض يعني أرض الشرك ننقصها من أطرافها. قال أكثر المفسرين: المراد منه فتح دار الشرك فإن ما زاد في دار الإسلام فقد نقص في دار الشرك والمعنى أو لم يروا أنا نأتي الأرض فنفتحها لمحمد ﷺ أرضاً بعد أرض حوالى أراضيهم أفلا يعتبرون، فيتعظون وهذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة من المفسرين: وذلك أن المسلمين إذا استولوا على بلاد الكفار قهراً وتخريباً كان ذلك نقصاناً في ديارهم، وزيادة في ديار المسلمين، وقوتهم وكان ذلك من أقوى الدلائل على أن الله تعالى ينصر عبده ويعز جنده ويظهر دينه، وينجز له ما وعده. وقيل: هو خراب الأرض والمعنى أو لم يروا أنا نأتي الأرض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون أن نفعل بهم مثل ذلك، وقال مجاهد: هو خراب الأرض وقبض أهلها. وعن عكرمة والشعبي نحوه وهذا القول قريب من الأول وقال عطاء وجماعة من المفسرين نقصانها موت العلماء وذهب الفقهاء (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، وفي رواية من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا» قال الحسن قال عبد الله بن مسعود: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار، وقال عبد الله أيضاً:

ولا يغير. وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: هما كتابان، كتاب سوى أم الكتاب يمحو منه ما يشاء ويثبت، وأم الكتاب الذي لا يغيّر منه شيء. وعن عطاء عن ابن عباس قال: إن لله تعالى لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفّتان من ياقوت لله في كل يوم فيه ثلثمائة وستون لحظة ﴿ يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾. وسأل ابن عباس كعباً عن أم الكتاب فقال: علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون.

﴿ وإمّا نُرينّك بعضَ الذي نعِدهم ﴾، من العذاب قبل وفاتك، ﴿ أو نتوفينّك ﴾، قبل ذلك، ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾، ليس عليك إلا ذلك، ﴿ وعلينا الحساب ﴾، الجزاء يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ أو لم يرَوْا ﴾ يعني: أهل مكة الذين يسألون محمداً ﷺ الآيات، ﴿ أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾، أكثر المفسرين على أن المراد منه فتح ديار الشرك، فإن ما زاد في ديار الإسلام فقد نقص من ديار الشرك، يقول: ﴿ أو لم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ فنفتحها لمحمد أرضاً بعد أرض حوالي أرضهم، أفلا يعتبرون؟ هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة. وقال قوم: هو خراب الأرض معناه أو لم يروا أنّا نأتي

عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله، وقال سليمان: لايزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر فإذا هلك الأول ولم يتعلم الآخر هلك الناس. وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك العلماء. فعلى هذا القول فالمراد بالأطراف العلماء، والأشراف من الناس: حكى الجوهري عن ثعلب قال: الأطراف الأشراف. واستدل الواحدي لهذه اللغة بقول الفرزدق:

واسأل بنا وبكم إذا وردت مني ... أطراف كل قبيلة من يتبع

قال: يريد أشراف كل قبيلة. قال الواحدي: والتفسير على القول الأول أولى لأن هذا وإن صح فلا يليق بهذا الموضع. قال الإمام فخر الدين الرازي: ويمكن أن يقال أيضاً إن هذا الوجه لا يليق بهذا الموضع وتقديره أن يقال: أو لم يروا أن كل ما يحدث في الدنيا من الاختلاف خراب بعد عمارة وموت بعد حياة وذل بعد عز ونقص بعد كمال وإذا كانت هذه التغييرات مشاهدة محسوسة فما الذي يؤمنهم أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكفرة، فيجعلهم ذليلين بعدما كانوا عزيزين ومقهورين بعد أن كانوا قاهرين، وعلى هذا الوجه أيضاً يجوز إيصال الكلام بما قبله. وقوله تعالى **﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾** يعني لا رادّ لحكمه ولا ناقض لقضائه، والمعقب هو الذي يعقب غيره بالرد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق: معقب، لأنه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب. والمعنى: والله يحكم نافذاً حكمه خالياً من المدافع والمعارض والمنازع لا يتعقب حكمه أحد غيره بتغيير، ولا نقض **﴿وهو سريع الحساب﴾** قال ابن عباس: يريد سريع الانتقام ممن حاسبه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم، ومجازاة المؤمنين بإيصال الثواب إليهم، وقد تقدم بسط الكلام في معنى سريع الحساب قبل هذا **﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾** يعني من قبل مشركي مكة من الأمم الماضية، الذين مكروا بأنبيائهم والمكر إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر مثل ما مكر نمرود بإبراهيم وفرعون بموسى واليهود بعيسى، **﴿فلله المكر جميعاً﴾** يعني عند الله جزاء مكرهم. وقال الواحدي: يعني جميع مكر الماكرين له ومنه أي هو من خلقه وإرادته فالمكر جميعاً مخلوق له بيده الخير والشر وإليه النفع والضر. والمعنى أن المكر لا يضر إلا بإذنه وإرادته، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وأمان له من مكرهم كأنه قيل: قد فعل من كان قبلهم من الكفار مثل فعلهم وصنعوا مثل صنيعهم، فلم يضروا إلا من أراد الله ضره، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن لا يكون الخوف إلا من الله لا من أحد من المخلوقين **﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾** يعني أن جميع اكتساب العباد وتأثيراتها معلومة لله هو خالقها أو خلاف المعلوم ممتنع الوقوع وإذا كان كذلك فكل ما علم وقوعه فهو واجب الوقوع وكل ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع وإذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك، فكان الكل من الله ولا يحصل ضرراً إلا بإذنه وإرادته، وفيه وعيد للكفار الماكرين **﴿وسيعلم الكافر﴾** على التوحيد وقرىء وسيعلم الكفار على الجمع. قال ابن عباس: يعني أبا جهل. وقيل: أراد المستهزئين وهم خمسة نفر من كفار مكة **﴿لمن عقبى**

الأرض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون أن نفعل بهم ذلك؟ وقال مجاهد: هو خراب الأرض وقبض أهلها. وعن عكرمة قال: قبض الناس. وعن الشعبي مثله. وقال عطاء وجماعة: نقصانها موت العلماء. وذهاب الفقهاء. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إسماعيل بن أبي أُويس حدّثنا مالك عن هشام عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهّالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا». وقال الحسن: قال عبد الله بن مسعود: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدّها شيء ما اختلف الليل والنهار. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله. وقال علي رضي الله عنه: إنما مثل الفقهاء كمثل الأكفّ إذا قطعت كفّ لم تعُدْ. وقال سليمان: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر، فإذا هلك الأول قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس.

الدار﴾ والمعنى أنهم وإن كانوا جهالاً بالعواقب فسيعلمون أن العاقبة الحميدة للمؤمنين، ولهم العاقبة المذمومة في الآخرة حين يدخلون النار، ويدخل المؤمنون الجنة قوله تعالى ﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلاً**﴾ لما أنكر الكفار كون محمد رسولاً من عند الله أمره الله بقوله ﴿**قل**﴾ أي قل: يا محمد لهؤلاء الكفار الذين أنكروا نبوتك ﴿**كفى بالله شهيداً بيني وبينكم**﴾ المراد بشهادة الله على نبوة محمد ﷺ ما أظهر على يديه من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات الدالة على صدقه، وكونه نبياً مرسلاً من عند الله ﴿**ومن عنده علم الكتاب**﴾ يعني ومن عنده علم الكتاب أيضاً يشهد على نبوتك يا محمد وصحتها. واختلفوا في الذي عنده علم الكتاب من هو فروى العوفي عن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى، والمعنى أن كل من كان عالماً من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالإنجيل علم أن محمداً ﷺ مرسل من الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيهما شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم، وقيل: إنهم مؤمنو أهل الكتاب يشهدون أيضاً على نبوته. قال قتادة: هو عبد الله بن سلام، وأنكر الشعبي هذا وقال: هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة المنورة وقال يونس لسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: كيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية؟ وقال الحسن ومجاهد ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى. وعلى هذا القول يكون المعنى: كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح المحفوظ إلا هو شهيداً بيني وبينكم. قال الزجاج: الأشبه أن الله لا يشهد على صحة حكمه لغيره. وهذا قول مشكل لأن عطف الصفة على الموصوف وإن كان جائزاً إلا أنه خلاف الأصل. فلا يقال شهد بهذا زيد والفقيه. بل يقال: شهد بهذا زيد الفقيه لكن يشهد لصحة هذا القول قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب بكسر الميم والدال، وهي قراءة ابن عباس وغيره على البناء للمفعول والمعنى ومن عند الله علم الكتاب ودليل هذه القراءة قوله ﴿**وعلمناه من لدنا علماً**﴾ وقيل: معناه إن من علم أن القرآن الذي جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والإخبار عن الغيوب، وعن الأمم الماضية فمن علم بهذه الصفة كان شهيداً بيني وبينكم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك علمائهم. ﴿ **والله يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لحكمه** ﴾، لا رادّ لقضائه ولا ناقض لحكمه، ﴿ **وهو سريع الحساب** ﴾.

﴿ **وقد مكر الذين من قبلهم** ﴾، يعني: من قبل مشركي مكة، والمكر: إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر، ﴿ **فلله المكر جميعاً** ﴾، أي: عند الله جزاء مكرهم. وقيل: إن الله خالق مكرهم جميعاً بيده الخير والشر وإليه النفع والضر، فلا يضر أحد أحداً إلا بإذنه، ﴿ **يعلم ما تكْسِبُ كلُّ نفسٍ وسيعلم الكفار** ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو «الكـافر» على التوحيد وقرأ الآخرون ﴿ **الكفار** ﴾ على الجمع. ﴿ **لمن عقبى الدار** ﴾ أي: عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار ويدخل المؤمنون الجنة.

﴿ **ويقول الذين كفروا لستَ مرسلاً قلْ كفى بالله شهيداً بيني وبينكم** ﴾، إني رسول إليكم ﴿ **ومَن عنده علم الكتاب** ﴾، يريد مؤمني أهل الكتاب يشهدون أيضاً على ذلك. قال قتادة: هو عبد الله بن سلام. وأنكر الشعبي هذا وقال: السورة مكية، وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة، وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير ﴿ **ومَن عنده علم الكتاب** ﴾ أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية؟ وقال الحسن ومجاهد: ومَن عنده علم الكتاب هو الله عزّ وجلّ يدلّ عليه قراءة عبد الله بن عباس، ﴿ **ومِن عنده** ﴾ بكسر الميم والدال أي: من عند الله عزّ وجلّ. وقرأ الحسن وسعيد بن جبير ﴿ **ومِن عنده** ﴾ بكسر الميم والدال علم الكتاب على الفعل المجهول، دليل هذه القراءة: ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾ [الكهف: ٦٥] وقوله: ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ [الرحمن: ٢].

تفسير سورة إبراهيم ﷺ وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام

هي مكية سوى آيتين، وهما قوله سبحانه وتعالى ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ إلى آخر الآيتين وهي إحدى وقيل: اثنتان وخمسون آية وثمانمائة وإحدى وستون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾

قوله عز وجل: ﴿القرآن كتاب أنزلناه إليك﴾ يعني هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد والكتاب هو القرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ يعني بهذا القرآن والمراد من الظلمات الكفر والضلالة والجهل، والمراد بالنور: الإيمان. قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله: وفيه دليل على أن طرق الكفر والبدع كثيرة وطريق الحق ليس إلا واحداً لأنه تعالى قال: لتخرج الناس من الظلمات إلى النور فعبر عن الجهل والكفر والضلال بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الإيمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على أن طرق الكفر والجهل كثيرة، وأما طريق العلم والإيمان فليس إلا واحد ﴿بإذن ربهم﴾ يعني بأمر ربهم وقيل: بعلم ربهم ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ يعني إلى دين الإسلام وهو دينه الذي أمر به عباده، والعزيز هو الغالب الذي لا يغلب والحميد المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد ﴿الله﴾ قرىء بالرفع على الاستئناف وخبره ما بعده وقرىء بالجر نعتاً للعزيز الحميد فقال أبو عمرو قراءة الخفض على التقديم والتأخير تقديره إلى صراط الله العزيز الحميد ﴿الذي له ما في السموات وما في والأرض﴾ يعني ملكاً وما فيهما عبيده ﴿وويل للكافرين﴾ يعني الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الأرض، وعبدوا من لا يملك شيئاً البتة بل هو مملوك لله لأنه من جملة خلق الله، ومن

سُورَة إِبْـرَاهِيم

مكية وهي إحدى وخمسون آية إلا آيتين من قوله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ﴾ [٢٨] إلى قوله: ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾ [٣٠].

﴿ **آلر كتاب** ﴾ أي: هذا كتاب ﴿ **أنزلناه إليك** ﴾، يا محمد يعني القرآن، ﴿ **لتخرج الناسَ من الظلمات إلى النور** ﴾ أي: لتدعوهم من ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان، ﴿ **بإذن ربهم** ﴾، بأمر ربهم. وقيل: بعلم ربهم، ﴿ **إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ أي: إلى دينه والعزيز هو الغالب والحميد هو المستحق للحمد.

﴿ **الله** ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿ الله ﴾ بالرفع على الاستئناف وخبره فيما بعده، وقرأ الآخرون بالخفض نعتاً للعزيز الحميد، وكان يعقوب إذا وصل خفض وقال أبو عمرو: الخفض على التقديم والتأخير تقديره

جملة ما في السموات وما في الأرض ﴿من عذاب شديد﴾ يعني معد لهم في الآخرة ثم وصفهم فقال تعالى:

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِي
ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن
يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ
الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا أَنتُمْ وَمَن فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا إِنَّا
كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ
السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ
ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ
لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ
لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

﴿**الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة**﴾ يعني يختارون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة ﴿**ويصدون عن سبيل الله**﴾ أي ويمنعون الناس عن قبول دين الله ﴿**ويبغونها عوجاً**﴾ يعني ويطلبون لها زيغاً وميلاً، فحذف الجار وأوصل الفعل. وقيل: معناه يطلبون سبيل الله حائدين عن القصد وقيل الهاء في ويبغونها راجعة إلى الدنيا ومعناه

إلى صراط الله العزيز الحميد، ﴿ **الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد** ﴾.

﴿ **الذين يستحبّون** ﴾، يختارون، ﴿ **الحياة الدنيا على الآخرة ويصدّون عن سبيل الله** ﴾، أي: يمنعون الناس عن قبول دين الله، ﴿ **ويبغونها عوجاً** ﴾، يطلبونها زيغاً وميلاً يريد يطلبون سبيل الله جائرين عن القصد. وقيل: الهاء راجعة إلى الدنيا ومعناه يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق، اي: بجهة الحرام. ﴿ **أولئك في ضلال بعيد** ﴾.

يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق والميل إلى الحرام ﴿أولئك﴾ يعني من هذه صفته ﴿في ضلال بعيد﴾ يعني عن الحق وقيل يجوز أن يراد في ضلال بعيد ذي بعد أو فيه بعد لأن الضال يبعد عن الطريق. قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ يعني بلغة قومه ليفهموا عنه ما يدعوهم إليه وهو قوله تعالى ﴿ليبين لهم﴾ يعني ما يأتون وما يذرون. فإن قلت: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعاً بدليل قوله تعالى ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ بل هو مبعوث إلى الثقلين الجن والإنس، وهم على ألسنة مختلفة ولغات شتى وقوله بلسان قومه وليس قومه سوى العرب يقتضي بظاهره أنه مبعوث إلى العرب خاصة فكيف يمكن الجمع؟ قلت: بعث رسول الله ﷺ من العرب وبلسانهم والناس تبع للعرب فكان مبعوثاً إلى جميع الخلق، لأنهم تبع للعرب ثم إنه يبعث الرسل إلى الأطراف، فيترجمون لهم بألسنتهم ويدعونهم إلى الله تعالى بلغاتهم. وقيل: يحتمل أنه أراد بقومه أهل بلده، وفيهم العرب وغير العرب فيدخل معهم من غير جنسهم في عموم الدعوى وقيل: إن الرسول إذا أرسل بلسان قومه وكانت دعوته خاصة وكان كتابه بلسان قومه كان أقرب لفهمهم عنه وقيام الحجة عليهم في ذلك، فإذا فهموه ونقل عنهم انتشر عنهم علمه وقامت التراجم ببيانه وتفهيمه لمن يحتاج إلى ذلك ممن هو من غير أهله، وإذا كان الكتاب بلغة واحدة مع اختلاف الأمم وتباين اللغات كان ذلك أبلغ في اجتهاد المجتهدين في تعليم معانيه، وتفهيم فوائده وغوامضه وأسراره وعلومه وجميع حدوده وأحكامه وقوله ﴿فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ يعني أن الرسول ليس عليه إلا التبليغ والتبيين والله هو الهادي المضل يفعل ما يشاء ﴿وهو العزيز﴾ يعني الذي يغلب ولا يغلب ﴿الحكيم﴾ في جميع أفعاله. قوله عز وجل ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ المراد بالآيات المعجزات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام، مثل العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك من المعجزات العظيمة الباهرة ﴿أن أخرج

قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم ﴾، بلغتهم ليفهموا عنه فإن قيل: كيف هذا وقد بعث النبي ﷺ إلى كافة الخلق؟ قيل: بعث من العرب بلسانهم والناس تبع لهم ثم بثّ الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عزّ وجلّ ويترجمون لهم بألسنتهم، ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يشاء ويهدي مَن يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ أي: من الكفر إلى الإيمان بالدعوة، ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾، قال ابن عباس وأُبيّ بن كعب ومجاهد وقتادة: بنعم الله. وقال مقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة. يقال فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم، وإنما أراد بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة فاجتزأ بذكر الأيام عنها لأنها كانت معلومة عندهم، ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبّارٍ شكور ﴾، الصبّار: الكثير الصبر، والشكور: الكثير الشكر، وأراد لكل مؤمن لأن الصبر والشكر من خصال المؤمنين.

﴿ وإذْ قال موسى لقومه اذكروا نعمةَ الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ﴾، قال الفرّاء: لعله الجالبة لهذا الواو أن الله تعالى أخبرهم أن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع العذاب غير التذبيح، وبالتذبيح، وحيث طرح الواو في يذبحون ويقتلون أراد تفسير العذاب الذي كانوا يسومونهم، ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾، يتركوهنّ أحياءً ﴿ وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم ﴾.

﴿ وإذْ تأذّنَ ربُّكم ﴾، أي: أعلم، يقال: أذن وتأذن بمعنى واحد، مثل أوعد وتوعد، ﴿ لئن شكرتم ﴾ نعمتي فآمنتم وأطعتم ﴿ لأزيدنّكم ﴾ في النعمة. وقيل: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود. وقيل: لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب. ﴿ ولئن كفرتم ﴾، نعمتي فجحدتموها ولم تشكروها، ﴿ إنّ عذابي لشديد ﴾.

﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومَن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾، أي: غني عن خلقه حميد محمود في أفعاله لأنه فيها متفضل وعادل.

قومك من الظلمات إلى النور﴾ أي أن أخرج قومك بالدعوة من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ قال ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة: يعني بنعم الله. وقال مقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة. يقال: فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم بما أراد بما كان في أيام الله من النعمة والنقمة، فأخبر بذكر الأيام عن ذلك لأن ذلك كان معلوماً عندهم وعلى هذا يكون المعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد. والترغيب والوعد أن يذكرهم بما أنعم الله عليهم به من النعمة، وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فيما مضى من الأيام، والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأس الله، وشدة انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله، وقيل: بأيام الله في حق موسى أن يذكر قومه بأيام المحنة والشدة والبلاء حين كانوا تحت أيدي القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم الله من ذلك، وجعلهم ملوكاً بعد أن كانوا مملوكين ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور﴾ الصبّار: الكثير الصبر، والشكور: الكثير الشكر، وإنما خص الشكور والصبور بالاعتبار بالآيات وإن كان فيها عبرة للكافة لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات، فكأنها ليست لغيرهم فهو كقوله «وهدى للمتقين» ولأن الانتفاع بالآيات لا يمكن حصوله إلا لمن يكون صابراً شاكراً أما من لم يكن كذلك فلا ينتفع بها البتة ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم﴾ لما أمر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام أن يذكر قومه بأيام الله امتثل ذلك الأمر، وذكرهم بأيام الله فقال «اذكروا نعمة الله عليكم» ﴿إذ أنجاكم من آل فرعون﴾ أي اذكروا إنعام الله عليكم في ذلك الوقت الذي أنجاكم فيه من آل فرعون ﴿يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم﴾. فإن قلت قال في سورة البقرة: يذبحون بغير واو وقال هنا ويذبحون بزيادة واو فما الفرق؟ قلت: إنما حذفت الواو في سورة البقرة لأن قوله يذبحون تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب، وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو كما تقول جاءني القوم زيد وعمرو إذا أردت تفسير القوم وأما دخول الواو هنا في هذه

﴿ ألم يأتكم نبأ الذين ﴾، خبر الذين، ﴿ من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ﴾، يعني: مَن كان بعد قوم نوح وعاد وثمود، رُوِيَ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال بعدما قرأ هذه الآية: كذب النسّابون. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: بين إبراهيم وبين عدنان ثلاثون قرناً لا يعلمهم إلا الله تعالى. وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أباً أباً إلى آدم، وكذلك في حق النبي ﷺ لأنه لا يعلم أولئك الآباء أحد إلاَّ الله عزّ وجلّ. ﴿ جاءتهم رسلهم بالبيّنات ﴾ بالدلالات الواضحات، ﴿ فردّوا أيديهم في أفواههم ﴾، قال ابن مسعود: عضوا على أيديهم غيظاً كما قال عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ. قال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم. قال مجاهد وقتادة: كذبوا الرسل وردّوا ما جاؤوا به، يقال: رددت قول فلان في فِيْه أي كذبته. وقال الكلبي: يعني أن الأمم ردّوا أيديهم في أفواههم أي في أفواه أنفسهم أي وضعوا الأيدي على الأفواه إشارة إلى الرسل أن اسكتوا. وقال مقاتل: فردّوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك. وقيل: إن الأيدي بمعنى النعم معناه ردّوا ما لو قبلوا كانت أيادي ونعماً في أفواههم أي: بأفواههم يعني بألسنتهم. ﴿ وقالوا ﴾ يعني الأمم للرسل، ﴿ إنّا كفرنا بما أرسلتم به وإنّا لفي شكٍّ ممّا تدعوننا إليه مُريب ﴾، موجب للريبة موقع للتهمة.

﴿ قالتْ رسلهم أفي اللهِ شكٌّ ﴾، هذا استفهام بمعنى نفي ما اعتقدوه، ﴿ فاطر السمٰواتِ والأرض ﴾، خالقهما، ﴿ يدعوكم ليغفرَ لكم من ذنوبكم ﴾، أي: ذنوبكم و﴿من﴾ صلة، ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾، إلى حين استيفاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب، ﴿ قالوا ﴾، للرسل، ﴿ إن أنتم ﴾، ما أنتم، ﴿ إلا بشرٌ مثلنا ﴾، في الصورة والجسم ولستم ملائكة وإنما، ﴿ تريدون ﴾، بقولكم، ﴿ أن تصدّونا عمّا كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾، حجة بيّنة على صحة دعواكم.

السورة فلأن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح أيضاً فقوله: ويذبحون نوع آخر من العذاب لأنه تفسير العذاب ﴿ويستحيون نساءكم﴾ يعني يتركونهن أحياء ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ . فان قلت كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم؟ قلت: تمكينهم وإمهالهم حتى فعلوا ما فعلوا بلاء من الله؛ ووجه آخر وهو أذن لكم إشارة إلى الانجاء، وهو بلاء عظيم لأن البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً ومنه قوله: «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» وهذا الوجه أولى لأنه موافق لأول الآية وهو قوله اذكروا نعمة الله عليكم. فإن قلت: هب أن تذبيح الأبناء فيه بلاء فكيف يكون استحياء النساء فيه بلاء. قلت: كانوا يستحيونهن ويتركونهن تحت أيديهم كالإماء فكان ذلك بلاء ﴿وإذ تأذن ربكم﴾ هذا من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم، ومعنى تأذن: آذن، أي أعلم ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل وأذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه والمعنى وإذ تأذن ربكم فقال: ﴿ولئن شكرتم﴾ يعني يا بني اسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح ﴿لأزيدنكم﴾ يعني نعمة إلى نعمة، ولأضاعفن لكم ما أتيتكم قيل شكر الموجود صيد المفقود. وقيل: لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب وأصل الشكر تصور النعمة، وإظهارها وحقيقته الاعتراف بنعمة المنم مع تعظيمه، وتوطين النفس على هذه الطريقة وهاهنا دقيقة وهي أن العبد إذا اشتغل بمطالعة أقسام نعم الله عز وجل عليه، وأنواع فضله وكرمه وإحسانه إليه اشتغل بشكر تلك النعمة، وذلك يوجب المزيد وبذلك تتأكد محبة العبد لله عز وجل وهو مقام شريف ومقام أعلى منه وهو أن يشغله حب المنعم عن الالتفات إلى النعم، وهذا مقام الصدّيقين نسأل الله القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه وإحسانه وإنعامه. وقوله ﴿ولئن كفرتم﴾ المراد بالكفر هاهنا كفران النعمة، وهو جحودها لأنه مذكور في مقابلة الشكر ﴿إن عذابي لشديد﴾ يعني لمن كفر نعمتي ولا يشكرها ﴿وقال موسى إن تكفروا﴾ يعني يا بني اسرائيل ﴿أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾ يعني والناس كلهم جميعاً فإنما ضرر ذلك يعود على أنفسكم بحرمانها الخير كله ﴿فإن الله لغني﴾ يعني عن جميع خلقه ﴿حميد﴾ أي محمود في جميع أفعاله لأنه متفضل وعادل ﴿ألم يأتكم نبأ﴾ يعني خبر ﴿الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾ قال بعض المفسرين: يحتمل أن يكون هذا خطاباً من موسى لقومه، والمقصود منه أنه عليه الصلاة والسلام يذكرهم بأمر القرون الماضية والأمم الخالية والمقصود منه حصول العبرة بأحوال من تقدم وهلاكهم ﴿والذين من بعدهم﴾ يعني من بعد هؤلاء الأمم الثلاثة ﴿لا يعلمهم إلا الله﴾ يعني لا يعلم كنه مقاديرهم وعددهم إلا الله لأن علمه محيط بكل شيء «ألا يعلم من خلق» وقيل: المراد بقوله والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله أقوام وأمم

﴿ قالت لهم رسلهم إنْ نحن إلّا بشرٌ مثلكم ولكنّ الله يمنّ على مَن يشاء من عباده ﴾، بالنبوّة والحكمة، ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلّا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾.

﴿ وما لنا أن لا نتوكل على الله ﴾ وقد عرفنا أن لا نَنَالَ شيئاً إلّا بقضائه وقدره، ﴿ وقد هدانا سُبلنا ﴾، بيّن لنا الرشد وبصّرنا طريق النجاة. ﴿ ولنصبرنّ ﴾، اللام لام القسم مجازاً، والله لنصبرنّ، ﴿ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾.

﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنّكم من أرضنا أو لتعودنّ في ملّتنا ﴾، يعنون إلّا أن ترجعوا أو حتى ترجعوا إلى ديننا، ﴿ فأوحى إليهم ربهم لَنُهلكنّ الظالمين ﴾.

﴿ ولنسكننّكم الأرضَ من بعدهم ﴾ أي: بعد هلاكهم، ﴿ ذلك لمَن خاف مقامي ﴾ أي: خاف قيامه بين يدي كما قال: ﴿ ولمَن خاف مقام ربّه جنتان ﴾، فأضاف قيام العبد إلى نفسه، كما تقول: ندمت على ضربك أي على ضربي إياك، ﴿ وخاف وعيد ﴾ أي عقابي.

ما بلغنا خبرهم أصلاً ومنه قوله: «وقروناً بين ذلك كثيراً» وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول: كذب النسابون. يعني أنهم يدعون علم النسب إلى آدم، وقد نفى الله علم ذلك عن العباد. وعن عبد الله بن عباس أنه قال: بين إبراهيم وعدنان ثلاثون قرناً لا يعلمهم إلا الله وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أباً أباً إلى آدم، لأنه لا يعلم أولئك إلا الله. وقوله تعالى ﴿**جاءتهم رسلهم بالبينات**﴾ يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات ﴿**فردوا أيديهم في أفواههم**﴾. وفي معنى الأيدي والأفواه قولان: أحدهما أن المراد بهما هاتان الجارحتان المعلومتان ثم في معنى ذلك وجوه. قال ابن مسعود: عضوا أيديهم غيظاً. وقال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم. وقال مجاهد وقتادة: كذبوا الرسل وردوا ما جاؤوا به. يقال: رددت قول فلان في فيه أي كذبته. وقال الكلبي: يعني أن الأمم ردوا أيديهم إلى أفواه أنفسهم، يعني أنهم وضعوا الأيدي على الأفواه إشارة منهم إلى الرسل أن اسكتوا. وقال مقاتل: ردوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك وقيل: إن الأمم لما سمعوا كلام الرسل عجبوا منه. وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل الذي غلبه الضحك. القول الثاني: أن المراد بالأيدي والأفواه غير الجارحتين فقيل المراد بالأيدي النعم ومعناه ردوا ما لو قبلوه لكان نعمة عليهم يقال لفلان عندي يد أي نعمة، والمراد بالأفواه وتكذيبهم الرسل والمعنى كذبوهم بأفواههم وردوا قولهم وقيل إنهم كفوا عن قبول ما أمروا بقبوله من الحق ولم يؤمنوا به يقال فلان رد يده إلى فيه إذا أمسك عن الجواب فلم يجب وهذا القول فيه بعد لأنهم قد أجابوا بالتكذيب وهو أن الأمم ردوا على رسلهم ﴿**وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به**﴾ يعني إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به لأنهم لم يقروا بأنهم أرسلوا إليهم لأنهم لو أقروا بأن الرسل أرسلوا إليهم لكانوا مؤمنين ﴿**وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب**﴾ يعني يوجب الريبة أو يوقع في الريبة والتهمة، والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر الذي يشك فيه. فإن قلت: إنهم قالوا أولاً إنا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانياً وإنا لفي شك والشك دون

يقال: يوم حار ويوم بارد لأن الحرّ والبرد فيه. وقيل: معناه في يوم عاصف الريح فحذف الريح لأنها قد ذكرت من قبل، وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكفّار يريد أنهم لا ينتفعون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا لأنهم أشركوا فيها غير الله كالرماد الذي ذرته الريح لا ينتفع به، فذلك قوله تعالى: ﴿ **لا يقدرون** ﴾، يعني: الكفار ﴿ **مما كسبوا** ﴾، في الدنيا، ﴿ **على شيء** ﴾، في الآخرة، ﴿ **ذلك هو الضلال البعيد** ﴾.

﴿ **ألم تَرَ أنّ الله خلقَ السمٰواتِ والأرضَ** ﴾، قرأ حمزة والكسائي (خالق السمٰوات والأرض) وفي سورة النور[٤٥] ﴿ خالق كل دابة ﴾ مضافاً، وقرأ الآخرون ﴿ **خلق** ﴾ على الماضي ﴿ **والأرض** ﴾ وكل بالنصب، ﴿ **بالحق** ﴾ أي: لم يخلقهما باطلاً وإنما خلقهما لأمر عظيم، ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد** ﴾، سواكم أطوع لله منكم.

﴿ **وما ذلك على الله بعزيز** ﴾، منيع شديد، يعني أن الأشياء تسهل في القدرة لا يصعب على الله شيء وإن جلّ وعَظُم.

قوله تعالى: ﴿ **وبرزوا لله جميعاً** ﴾ أي: خرجوا من قبورهم إلى الله وظهروا جميعاً، ﴿ **فقال الضعفاء** ﴾، يعني الأتباع، ﴿ **للذين استكبروا** ﴾، أي: تكبروا على الناس وهم القادة والرؤوساء، ﴿ **إنّا كنّا لكم تبعاً** ﴾ جمع تابع مثل حرس وحارس، ﴿ **فهل أنتم مغنون** ﴾، دافعون. ﴿ **عنّا من عذاب الله من شيء قالوا** ﴾، يعني القادة للمتبوعين، ﴿ **لو هدانا الله لهديناكم** ﴾، أي: لو هدانا الله لدعوناكم إلى الهدى، فلما أضلّنا دعوناكم إلى الضلالة، ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص** ﴾، مهرب ولا منجا، قال مقاتل: يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع، ثم يقولون: تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر،

الكفر أو داخل فيه. قلت: إنهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل فكأنهم حصل لهم شبهة توجب لهم الشك فقالوا: إن لم تدع الجزم في كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكّين مرتابين في ذلك ﴿**قالت رسلهم**﴾ يعني مجيبين لأممهم ﴿**أفي الله شك**﴾ يعني وهل تشكون في الله وهو استفهام إنكار ونفي لما اعتقدوه ﴿**فاطر السموات والأرض**﴾ يعني وهل تشكون في كونه خالق السموات والأرض وخالق جميع ما فيهما ﴿**يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم**﴾ يعني ليغفر لكم ذنوبكم إذا آمنتم وصدقتم وحرف (من) صلة وقيل: إنها أصل ليست بصلة، وعلى هذا إنه يغفر لهم ما بينهم وبينه من الكفر والمعاصي دون مظالم العباد ﴿**ويؤخركم إلى أجل مسمى**﴾ يعني إلى حين انقضاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب ﴿**قالوا**﴾ يعني الأمم مجيبين للرسل ﴿**إن أنتم**﴾ يعني ما أنتم ﴿**إلا بشر مثلنا**﴾ يعني في الصورة الظاهرة لستم ملائكة ﴿**تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا**﴾ يعني ما تريدون بقولكم: هذا إلا صدنا عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ﴿**فأتونا بسلطان مبين**﴾ يعني حجة بينة واضحة على صحة دعواكم ﴿**قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم**﴾ يعني أن الكفار لما قالوا لرسلهم: إن أنتم إلا بشر مثلنا قالت لهم رسلهم مجيبين لهم: هب أن الأمر كما قلتم ووصفتم فنحن بشر مثلكم لا ننكر ذلك ﴿**ولكن الله يمن على من يشاء من عباده**﴾ يعني بالنبوة والرسالة فيصطفي من يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف ﴿**وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله**﴾ يعني وليس لنا مع ما خصنا الله به من النبوة وشرفنا به من الرسالة أن نأتيكم بآية، وبرهان ومعجزة تدل على صدقنا إلا بإذن الله لنا في ذلك ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ يعني في دفع شرور أعدائهم عنهم ﴿**وما لنا أن لا نتوكل على الله**﴾ يعني أن الأنبياء قالوا أيضاً قد عرفنا أنه لا يصيبنا شيء إلا بقضاء الله وقدره فنحن نثق به ونتوكل عليه في دفع شروركم عنا ﴿**وقد هدانا سبلنا**﴾ يعني وقد عرفنا طريق النجاة، وبين لنا الرشد ﴿**ولنصبرن**﴾ اللام لام القسم تقديره والله لنصبرن ﴿**على ما آذيتمونا**﴾ يعني به من قول أو فعل ﴿**وعلى الله فليتوكل المتوكلون**﴾. فإن قلت: كيف كرر الأمر بالتوكل؟ وهل من فرق بين التوكلين؟ قلت: نعم التوكل الأول فيه إشارة إلى استحداث التوكل والتوكل الثاني فيه إشارة إلى السعي في التثبيت على ما استحدثوا من توكلهم وإبقائه وإدامته فحصل الفرق بين التوكلين. قوله تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا**﴾ يعني ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم أيها الرسل من بلادنا وأرضنا وإما عودكم في

فحينئذ يقولون: ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص** ﴾. قال محمد بن كعب القرظي: بلغني أن أهل النار يستغيثون بالخزنة، كما قال تعالى: ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفّف عنّا يوماً من العذاب ﴾ [غافر: ٤٩]، فردّت الخزنة عليهم: ﴿ أَوَ لَمْ تَكُ تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوا بلى ﴾ [غافر: ٥٠]، فردّت الخزنة عليهم: ﴿ ادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ [غافر: ٥٠] فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا ﴿ يا مالك ليقضِ علينا ربُّك ﴾ [الزخرف: ٧٧] سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوماً واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين إنكم ماكثون، فلما أيسوا مما قبله قال بعضهم لبعض إنه قد نزل بكم من البلاء ما ترون فهلمّوا فلنصبر فلعلّ الصبر ينفعنا كما صبر أهل الدنيا على طاعة الله فنفعهم، فأجمعوا على الصبر فطال صبرهم ثم جزعوا فطال جزعهم فنادوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص، أي: من منجا. قال: فقام إبليس عند ذلك فخطبهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿ **وقال الشيطان لمّا قضي الأمر إنّ الله وعدكم وعد الحق** ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودُوا لَمقتُ الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذْ تُدعون إلى الإيمان فتكفرون، قال فنادوا الثانية فارجعنا نعمل صالحاً إنّا موقنون، فردّ عليهم: ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ [السجدة: ١٣] الآيات، فنادوا الثالثة: ﴿ ربنا أَخِّرنا إلى أجلٍ قريب نجبْ دعوتك ونتبع الرسل ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فردّ عليهم: ﴿ أَوَ لَمْ تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ [إبراهيم: ٤٤] الآيات، ثم نادوا الرابعة: ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنّا

ملتنا. فإن قلت: هذا يوهم بظاهره أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعود فيها قلت: معاذ الله ولكن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب، وفيه وجه آخر، وهو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم، فلما أرسلوا إليهم أظهروا مخالفتهم ودعوا إلى الله فقالوا لهم: لتعودن في ملتنا ظناً منهم أنهم كانوا على ملتهم ثم خالفوهم وإجماع الأمة على أن الرسل من أول الأمر إنما نشؤوا على التوحيد لا يعرفون غيره ﴿**فأوحى إليهم ربهم**﴾ يعني أن الله تعالى أوحى إلى رسله وأنبيائه بعد هذه المخاطبات والمحاورات ﴿**لنهلكن الظالمين**﴾ يعني أن عاقبة أمرهم إلى الهلاك فلا تخافوهم ﴿**ولنسكننكم الأرض من بعدهم**﴾ يعني من بعد هلاكهم ﴿**ذلك**﴾ يعني ذلك الإسكان ﴿**لمن خاف مقامي**﴾ يعني خاف مقامه بين يدي يوم القيامة فأضاف قيام العبد إلى نفسه، لأن العرب قد تضيف أفعالها إلى أنفسها كقولهم: ندمت على ضربي إياك وندمت على ضربك مثله ﴿**وخاف وعيد**﴾ أي وخاف عذابي. قوله عز وجل:

وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ
وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ
ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ
جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا
مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ
وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

﴿**واستفتحوا**﴾ يعني واستنصروا. قال ابن عباس: يعني الأمم وذلك أنهم قالوا: اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا وقال مجاهد وقتادة: واستفتح الرسل على أممهم وذلك أنهم لما أيسوا من إيمان قومهم استنصروا الله

نعمل ﴾ [فاطر: ٣٧] فردّ عليهم: ﴿ ألم نعمركم ما يتذكر فيه مَن تذكر وجاءكم النذير ﴾ [فاطر: ٣٧]، الآية قال: فمكث عليهم ما شاء الله، ثم ناداهم: ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، فلما سمعُوا ذلك قالوا: الآن يرحمنا، فقالوا عند ذلك: ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنّا قوماً ضالّين، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ و١٠٧]، قال عند ذلك: ﴿ اخسؤا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فانقطع عند ذلك الرجاء والدعاء عنهم، فأقبل بعضهم على بعض ينفخ بعضهم في وجوه بعض وأطبقت عليهم النار. قوله تعالى: ﴿ **وقال الشيطان** ﴾، يعني: إبليس، ﴿ **لمّا قُضي الأمر** ﴾، أي: فرغ منه فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وقال مقاتل: يوضع له منبر في النار فيرقاه فيجتمع عليه الكفّار بالأئمة فيقول لهم: ﴿ **إ نّ الله وعدكم وعد الحق** ﴾، فوفى لكم به، ﴿ **ووعدتكم فأخلفتكم** ﴾، وقيل: يقول لهم قلت لكم لَا بعثَ ولا جنة ولا نار. ﴿ **وما كانَ لي عليكم من**

قوله: ﴿ **واستفتحوا** ﴾ أي: استنصروا. قال ابن عباس ومقاتل: يعني الأمم وذلك أنهم قالوا: اللّهمَّ إن كان

ودعوا على قومهم بالعذاب ﴿وخاب﴾ يعني وخسر وقيل: هلك ﴿كل جبار عنيد﴾ والجبار في صفة الإنسان يقال لمن تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهو صفة ذم في حق الإنسان، وقيل: الجبار الذي لا يرى فوقه أحداً، وقيل: الجبار المتعظم في نفسه المتكبر على أقرانه والعنيد المعاند للحق ومجانبه قال مجاهد. وقال ابن عباس: هو المعرض عن الحق. وقال مقاتل: هو المتكبر. وقال قتادة: هو الذي يأبى أن يقول لا إله إلا الله. وقيل: العنيد هو المعجب بما عنده. وقيل العنيد الذي يعاند ويخالف ﴿من ورائه جهنم﴾ يعني هي أمامه وهو صائر إليها قال أبو عبيدة: هو من الأضداد يعني أنه يقال: وراء بمعنى خلف وبمعنى أمام وقال الأخفش: هو كما يقال: هذا الأمر من ورائك يعني أنه سيأتيك ﴿ويسقى﴾ يعني في جهنم ﴿من ماء صديد﴾ وهو ما سال من الجلد واللحم من القيح جعل ذلك شراب أهل النار. وقال محمد بن كعب القرظي: هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر وهو قوله ﴿يتجرعه﴾ أي يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة بعد جرعة لمرارته وحرارته وكراهته ونتنه ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أي لا يقدر على ابتلاعه. يقال: ساغ الشراب في الحلق إذا سهل انحداره فيه. قال بعض المفسرين: إن يكاد صلة والمعنى يتجرعه ولا يسيغه وقال صاحب الكشاف: دخلت يكاد للمبالغة يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة وقال بعضهم ولا يكاد يسيغه بعد إبطاء لأن العرب تقول ما كدت أقوم أي قمت بعد إبطاء فعلى هذا كاد على أصلها وليست بصلة، وقال ابن عباس: معناه لا يجيزه. وقيل: معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلي في جوفه. عن أبي إمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى «ويسقى من ماء صديد يتجرعه» قال: «يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره قال وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم وقال وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا» أخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب. قوله: وقعت فروة رأسة أي جلدة رأسه وإنما شبهها بالفروة للشعر الذي عليها. وقوله تعالى ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾ يعني أن الكافر يجد ألم الموت وشدته من كل مكان من أعضائه. وقال إبراهيم التيمي: حتى من

هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا، نظيره قوله تعالى: ﴿ وإذْ قالوا اللّهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطرْ علينا حجارةً من السماء ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال مجاهد وقتادة: واستفتحوا يعني الرسل وذلك أنهم لما يئسوا من إيمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب، كما قال نوح: ﴿ ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً ﴾ [نوح: ٢٦] وقال موسى: ﴿ ربنا اطمسْ عل أموالهم واشددْ على قلوبهم ﴾ [يونس: ٨٨]، الآية: ﴿ وخابَ ﴾، خسر. وقيل: هلك، ﴿ كل جبار عنيد ﴾ والجبار: الذي لا يرى فوقه أحداً. والجبرية: طلب العلو بما لا غاية وراءه. وهذا الوصف لا يكون إلّا لله عزّ وجلّ. وقيل: الجبار: الذي يجبر الخلق على مراده، والعنيد: المعاند للحق ومجانبه. قاله مجاهد، وعن ابن عباس: هو المُعرِض عن الحق. وقال مقاتل: هو المتكبّر. وقال قتادة: العنيد الذي أبى أن يقول لا إلّه إلّا الله.

﴿ من ورائه جهنم ﴾ أي: أمامه كقوله تعالى وكان وراءهم ملك أي أمامهم. قال أبو عبيدة: هو من الأضداد. وقال الأخفش: هو كما يقال هذا الأمر من ورائك يريد أنه سيأتيك، وأنا من وراء فلان يعني أصل إليه. وقال مقاتل: من ورائه جهنم أي بعده، ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ أي: من ماء هو صديد وهو ما يسيل من أبدان الكفّار من القيح والدم. وقال محمد بن كعب: ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر.

﴿ يتجرعه ﴾ أي: يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة جرعة لمرارته وحرارته، ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾، يكاد صلة أي لا يسيغه، كقوله تعالى: ﴿ لم يكد يراها ﴾ [النور: ٤٠] أي: لم يرها، قال ابن عباس: لا يجيزه. وقيل: معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلي في جوفه، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد بن

تحت كل شعرة من جسده وقيل يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وما هو بميت فيستريح. وقال ابن جريج: تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة ﴿ومن ورائه﴾ يعني أمامه ﴿عذاب غليظ﴾ أي شديد قيل: هو الخلود في النار. قوله تعالى ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾ هذا كلام مستأنف منقطع عما قبله وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره فيما نقص، أو فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا والمثل مستعار للقصة التي فيها غرابة، وقوله: أعمالهم كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم فقال أعمالهم كرماد. وقال المفسرون والفراء: مثل أعمال الذين كفروا بربهم فحذف المضاف اعتماداً على ما ذكره بعد المضاف إليه. وقيل: يحتمل أن يكون المعنى صفة الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد كقولك في صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول والرماد معروف وهو ما يسقط من الحطب والفحم بعد إحراقه بالنار، اشتدت به الريح يعني فنسفته وطيرته ولم تبق منه شيئاً في يوم عاصف، وصف اليوم بالعصوف والعصوف من صفة الريح، لأن الريح تكون فيه كقولك: يوم بارد وحار وليلة ماطرة لأن الحر والبرد والمطر توجد فيهما وقيل: معناه في يوم عاصف الريح فحذف الريح لأنه قد تقدم ذكرها وهذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفارالتي لم ينتفوا بها، ووجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتذهب به وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى منها شيء وكذلك أعمال الكفار تبطل، وتذهب بسبب كفرهم وشركهم حتى لا يبقى منها شيء ثم اختلفوا في هذه الأعمال ما هي فقيل: هي ما عملوه من أعمال الخير في حال الكفر كالصدقة وصلة الأرحام، وفك الأسير وإقراء الضيف وبر الوالدين، ونحو ذلك من أعمال البر والصلاح فهذه الأعمال، وإن كانت أعمال بر لكنها لا تنفع صاحبها يوم القيامة بسبب كفره لأن كفره أحبطها وأبطلها كلها وقيل: المراد بالأعمال عبادتهم الأصنام التي ظنوا أنها تنفعهم فبطلت وحبطت ولم تنفعهم البتة، ووجه خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم في الدهر الطويل لكي ينتفعوا بها فصارت وبالاً عليهم. وقيل: أراد بالأعمال الأعمال التي عملوها في الدنيا وأشركوا فيها غير الله فإنها لا تنفعهم لأنها صارت كالرماد الذي ذرته الريح وصار هباء لا ينتفع به وهو قوله تعالى: ﴿لا يقدرون مما كسبوا﴾ يعني في الدنيا ﴿على شيء﴾ يعني من تلك الأعمال والمعنى أنهم لا يجدون ثواب

الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن صفوان بن عمرو عن عبد الله بن بشر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾، قال: يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أُدني منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ [طه: ٧٤، الأعلى: ١٣]، ويقول: ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ [الكهف: ٢٩]. ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾، يعني: يجدهم الموت وألمه من كل مكان من أعضائه، قال إبراهيم التيمي: حتى من تحت كل شعرة من جسده. وقيل: يأتيه الموت من قدّامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله، ﴿ وما هو بميت ﴾، فيستريح قال ابن جريج تعلق بنفسه عند حنجرته ولا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة. نظيرها ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ [محمد: ١٥]، ﴿ ومن ورائه ﴾، أمامه، ﴿ عذابٌ غليظ ﴾، شديد وقيل العذاب الغليظ الخلود في النار.

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم ﴾ يعني: مثل أعمال الذين كفروا بربهم، كقوله تعالى: ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة ﴾ [الزمر: ٦٠]، أي: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودّة، ﴿ كرمادٍ اشتدتّ به الريحُ في يوم عاصف ﴾، وصف اليوم بالعصوف، والعصوف من صفة الريح لأن الريح تكون فيه، كما

أعمالهم في الآخرة ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ يعني ذلك: الخسران الكبير لأن أعمالهم ضلت وهلكت، فلا يرجى عودها والبعيد هنا الذي لا يرجى عوده ﴿ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق﴾ يعني لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً وإنما خلقها لأمر عظيم وغرض صحيح ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ يعني أيها الناس ﴿ويأت بخلق جديد﴾ يعني: سواكم أطوع لله منكم. والمعنى: أن الذي قدر على خلق السموات والأرض، قادر على إفناء قوم وإماتتهم وإيجاد خلق آخر سواهم لأن القادر لا يصعب عليه شيء. وقيل هذا خطاب لكفار مكة يريد يمتكم يا معشر الكفار، ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ يعني بممتنع لأن الأشياء كلها سهلة على الله، وإن جلت وعظمت. قوله عز وجل ﴿وبرزوا لله جميعاً﴾ يعني وخرجوا من قبورهم إلى الله ليحاسبهم ويجازيهم على قدر أعمالهم والبراز الفضاء، وبرز حصل في البراز وذلك أن يظهر بذاته كلها والمعنى، وخرجوا من قبورهم وظهروا إلى الفضاء وأورد بلفظ الماضي وإن كان معناه الاستقبال لأن كل ما أخبر الله عنه، فهو حق وصدق. وكائن لامحالة فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ﴿فقال الضعفاء﴾ يعني الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ يعني في الدين والاعتقاد ﴿فهل أنتم﴾ يعني في هذا اليوم ﴿مغنون عنا﴾ يعني دافعون عنا ﴿من عذاب الله من شيء﴾ من هنا للتبعيض والمعنى هل تقدرون على أن تدفعوا عنا بعض عذاب الله الذي حل بنا ﴿قالوا﴾ يعني الرؤساء والقادة، والمتبوعين للتابعين ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ يعني لو أرشدنا الله لأرشدناكم ودعوناكم إلى الهدى ولكن لما أضلنا دعوناكم إلى الضلالة ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ يعني مستويان علينا الجزع والصبر. والجزع، أبلغ من الحزن لأنه يصرف الإنسان عما هو بصدده، ويقطعه عنه ﴿ما لنا من محيص﴾ يعني من مهرب، ولا منجاة مما نحن فيه من العذاب. قال مقاتل: يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون: تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص. وقال محمد بن كعب القرظي: بلغني أن أهل النار يستغيثون بالخزنة كما قال الله وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب فردت الخزنة عليهم وقالوا ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة وقالوا ادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة، نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً واليوم كألف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله: إنكم ماكثون فلما يئسوا مما عنده قال بعضهم لبعض: تعالوا فلنصبر كما صبر أهل الطاعة لعل ذلك ينفعنا فصبروا وطال صبرهم فلم ينفعهم وجزعوا، فلم ينفعهم عند ذلك قالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص. قوله تعالى ﴿وقال الشيطان﴾ يعني إبليس ﴿لما قضي الأمر﴾ يعني لما فرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. يأخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه، وتوبيخه، فيقوم فيها خطيباً قال مقاتل: يوضع له منبر في النار فيجتمع عليه أهل النار يلومونه فيقول لهم: ما أخبر الله عنه بقوله ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ فيه إضمار تقديره فصدق في وعده ﴿ووعدتكم فأخلفتكم﴾ يعني الوعد. وقيل يقول: لهم إني قلت لكم لابعث ولا جنة ولا نار ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ يعني من ولاية وقهر، وقيل: لم آتيكم بحجة فيما وعدتكم به ﴿إلا أن دعوتكم﴾ هذا استثناء منقطع معناه لكن دعوتكم

سلطان ﴾، ولَاَيَة. وقيل: لم آتكم بحجة فيما دعوتكم إليه، ﴿ إلا أن دعوتكم ﴾، هذا استثناء منقطع معناه: ولكن ﴿ دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾، بإجابتي ومتابعتي من غير سلطان ولا برهان، ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾، بمغيثكم، ﴿ وما أنتم بمصرخي ﴾، بمغيثي، قرأ الأعمش وحمزة ﴿ بمصرخِي ﴾ بكسر الياء، والآخرون بالنصب لأجل التضعيف، ومَن كسر فلالتقاء الساكنين حرّكت إلى الكسر لأن الياء أُخت الكسرة، وأهل النحو لم يرضوه، وقيل: إنه لغة بني يربوع. والأصل ﴿ بمصرخيني ﴾ فذهبت النون لأجل الإضافة وأُدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ أي: كفرت بجعلكُم إياي شريكاً في عبادته وتبرأت

﴿فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ يعني ما كان مني إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة، وقد سمعتم دلائل الله وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفوا إليّ ولا تسمعوا قولي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى بأجابتي، ومتابعتي من غير حجة ولا دليل ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ يعني بمغيثكم ولا منقذكم ﴿وما أنتم بمصرخي﴾ يعني بمغيثيّ ولا منقذيّ مما أنا فيه ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ يعني كفرت بجعلكم إياي شريكاً له في عبادته وتبرأت من ذلك والمعنى أن إبليس جحد ما يعتقده الكفار فيه، من كونه شريكاً لله وتبرأ من ذلك ﴿إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ روى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة، وذكر الحديث إلى قوله «فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور من مجلسي أطيب ريح شمها أحد حتى آتي ربي فيشفعني، ويجعل لي نوراً من رأسي إلى ظهر قدمي. ثم يقول الكفار: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه، فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم تعظم جهنم، ويقول عند ذلك: إن الله وعدكم وعد الحق الآية. وقوله تعالى:

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ لما شرح الله عز وجل حال الكفار الأشقياء بما تقدم من الآيات الكثيرة، شرح أحوال المؤمنين السعداء، وما أعد لهم في الآخرة من الثواب العظيم الجزيل، وذلك أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم والمنفعة الخالصة إليها الإشارة دائمة بقوله: وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، وكونها دائمة أشير إليه بقوله ﴿خالدين فيها﴾ والتعظيم

من ذلك، ﴿ إن الظالمين ﴾، الكافرين، ﴿ لهم عذاب أليم ﴾، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا محمد بن أحمد الحارث أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي أنبأنا عبد الله بن محمود ثنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن رشيد بن سعد أخبرني عبد الرحمن بن زياد عن دخين الحجري عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة ذكر الحديث ثم قال: يقول عيسى عليه السلام ذلكم النبي الأمّي فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور من مجلسي أطيب ريح شمّها أحد حتى آتي ربي عزّ وجلّ فيشفعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظهر قدمي، ثم يقول الكفار: قد وجد المؤمنون مَن يشفع لهم فمَن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذي أضلّنا فيأتونه فيقولون له قد وجد المؤمنين مَن يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمّها أحد، ثم تعظم جهنم ويقول عند ذلك: ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾، الآية.

قوله تعالى: ﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام ﴾، يسلم بعضهم على بعض وتسلم الملائكة عليهم. وقيل: المحيّي بالسلام هو الله عزّ وجلّ.

وقوله تعالى: ﴿ ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً ﴾، ألم تعلم، والمثل قولٌ سائر لتشبيه شيء بشيء. ﴿ كلمةً

حصل من وجهين أحدهما قوله: ﴿بإذن ربهم﴾ لأن تلك المنافع إنما كانت تفضلاً من الله بإنعامه الثاني قوله ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ فيحتمل أن بعضهم يحيي بعضاً بهذا الكلمة أو الملائكة تحييهم بها أو الرب سبحانه وتعالى يحييهم، ويحتمل أن يكون المراد أنهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع الآفات لأن السلام مشتق من السلامة. قوله عز وجل: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً﴾ لما شرح الله عز وجل أحوال الأشقياء وأحوال السعداء، ضرب مثلاً فيه حكم هذين القسمين فقال تعالى: ألم تر أي بعين قلبك فتعلم علم يقين بإعلامي إياك فعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب فيه للنبي ﷺ ويدخل معه غيره فيه ويحتمل أن يكون الخطاب فيه لكل فرد من الناس، فيكون المعنى ألم تر أيها الإنسان كيف ضرب الله مثلاً يعني بين شبهاً، والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر، بينهما مشابهة ليتبين أحدهما من الآخر ويتصور. وقيل: هو قول سائر لتشبيه شيء بشيء آخر ﴿كلمة طيبة﴾ هي قول لا إله إلا الله في قول ابن عباس وجمهور المفسرين: ﴿كشجرة طيبة﴾ يعني كشجرة طيبة الثمرة وقال ابن عباس: هي النخلة. وبه قال ابن مسعود وأنس ومجاهد وعكرمة والضحاك (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة شبه الرجل أو قال كالرجل المسلم لا يتحات ورقها تؤتي أكلها كل حين» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ «هي النخلة» قال: فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة فقال ما منعك أن تتكلم؟ فقلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً فقال عمر لأن تكون قلته أحب إلي من كذا وكذا وفي رواية: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله ابن عمر ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت أن أتكلم ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله قال «هي النخلة» وفي رواية عن ابن عباس، أنها شجرة في الجنة وفي رواية أخرى عنه أنها المؤمن. وقوله ﴿أصلها ثابت﴾ يعني في الأرض

طيبةً ﴾، وهي قول: لا إلَه إلاّ الله، ﴿ كشجرةٍ طيبة ﴾، وهي النخلة يريد كشجرة طيبة الثمرة، وقال أبو ظبيان عن ابن عباس: هي شجرة في الجنة، ﴿ أصلها ثابت ﴾، في الأرض، ﴿ وفرعها ﴾، أعلاها، ﴿ في السماء ﴾، كذلك أصل هذه الكلمة راسخ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق فإذا تكلم بها عرجت فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله عزّ وجلّ. قال الله تعالى: ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿ تؤتي أُكلها ﴾، تغطي ثمرها، ﴿ كل حين بإذن ربها ﴾، والحين في اللغة هو الوقت، وقد اختلفوا في معناه ههنا فقال مجاهد وعكرمة: الحين ههنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر كل سنة. وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: ستة أشهر من وقت إطّلاعها إلى صرامها. ورُوِيَ ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: أربعة أشهر من حين ظهورها إلى إدراكها. وقال سعيد بن المسيب شهران من حين تؤكل إلى الصرام. وقال الربيع بن أنس: كل حين أي كل غدوة وعشية لأن ثمر النخل يؤكل أبداً ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاءً، إما تمراً أو رطباً أو بسراً، كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وآخره وبركة إيمانه لا تنقطع أبداً بل تصل إليه في كل وقت والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم وفرع عالٍ كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنبأنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنبأنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشمهيني ثنا علي بن حجر ثنا إسماعيل بن جعفر ثنا عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدّثوني ما هي»؟ قال عبد الله فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة» قال عبد الله: فذكرت

﴿وفرعها﴾ يعني أعلاها ﴿في السماء﴾ يعني ذاهبة في السماء ﴿تؤتي أكلها﴾ يعني ثمرها ﴿كل حين بإذن ربها﴾ يعني بأمر ربها والحين في اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقداره هذا وقال مجاهد وعكرمة: الحين هنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة واحدة. وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: ستة أشهر يعني من وقت طلعها إلى حين صرامها، وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً. وقال علي بن أبي طالب: ثمانية أشهر يعني أن مدة حملها باطناً وظاهراً ثمانية أشهر. وقيل: أربعة أشهر من حين ظهور حملها إلى إدراكها. وقال سعيد بن المسيب: شهران يعني من وقت أن يؤكل منها إلى صرامها. وقال الربيع بن أنس: كل حين يعني غدوة وعشية، لأن ثمر النخل يؤكل أبداً ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاءً، فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والبسر والمنصف والرطب، وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب فأكلها دائم في كل وقت. قال العلماء: ووجه الحكمة في تمثيل هذه الكلمة التي هي كلمة الإخلاص وأصل الإيمان بالنخلة حاصل من أوجه: أحدها: أن كلمة الإخلاص شديدة الثبوت في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الأرض. الوجه الثاني: أن هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن إلى السماء. كما قال تعالى: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وكذلك فرع النخلة الذي هو عال في السماء. الوجه الثالث: أن ثمر النخلة يأتي في كل حين ووقت وكذلك ما يكسبه المؤمن من الأعمال الصالحة في كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة، فالمؤمن كلما قال: لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءته بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها. الوجه الرابع: أن النخلة شبيهة بالإنسان في غالب الأمر لأنها خلقت من فضلة طينة آدم وأنها إذا قطع رأسها تموت كالآدمي بخلاف سائر الشجر فإنه إذا قطع نبت، وأنها لا تحمل حتى تلقح بطلع الذكر. الوجه الخامس: في وجه الحكمة في تمثيل الإيمان بالشجر على الإطلاق لأن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل ثابت، وفرع قائم، وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ويضرب

ذلك لعمر فقال: لأن تكون قلت هي النخلة كان أحبَّ إلي من كذا وكذا. وقيل الحكمة في تشبيهها بالنخلة من بين سائر الأشجار أن النخلة شبه الأشجار بالإنسان من حيث إنها إذا قطع رأسها يبست وسائر الأشجار تتشعب من جوانبها بعد قطع رؤوسها ولأنها تشبه الإنسان في أنها لا تحمل إلا بالتلقيح ولإنها خلقت من فضل طينة آدم عليه السلام، ولذلك قال النبي ﷺ: «أكرموا عمّتكم» قيل: ومَن عمّتنا؟ قال: «النخلة» ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾.

﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾. وهي الشرك، ﴿ كشجرة خبيثة ﴾، وهي الحنظل وقيل: هي الثوم. وقيل: الكشوت وهي العشقة، ﴿ اجتثت ﴾، يعني انقلعت، ﴿ من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾، ثبات، معناه وليس لها أصل ثابت في الأرض ولا فرع صاعد إلى السماء، كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح.

قوله تعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾، كلمة التوحيد وهي قول لا إلّه إلاّ الله ﴿ في الحياة الدنيا ﴾، يعني قبل الموت، ﴿ وفي الآخرة ﴾، يعني في القبر هذا قول أكثر المفسرين وقيل: في الحياة الدنيا عند السؤال في القبر، وفي الآخرة عند البعث. والأول أصح، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا أبو الوليد ثنا شعبة أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعيد بن عبيدة عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئِل في القبر يشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنبأنا عبد الغافر بن محمد أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنبأنا مسلم بن الحجاج ثنا محمد بن بشار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة بهذا الإسناد عن

الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ يعني أن في ضرب الأمثال زيادة في الأفهام وتصويراً للمعاني وتذكيراً ومواعظ لمن تذكر واتعظ. قوله تعالى ﴿ومثل كلمة خبيثة﴾ وهو الشرك ﴿كشجرة خبيثة﴾ يعني الحنظل قاله أنس بن مالك ومجاهد: وفي رواية عن ابن عباس إنها الكشوت وعنه أيضاً أنها الثوم وعنه أيضاً أنها الكافر لأنه لا يقبل عمله فليس له أصل ثابت ولا يصعد إلى السماء ﴿اجتثت﴾ يعني استؤصلت وقطعت ﴿من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ يعني ما لهذه الشجرة من ثبات في الأرض، لأنها ليس لها أصل ثابت في الأرض ولا فرع صاعد إلى السماء كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له. قول طيب ولا عمل صالح ولا لاعتقاده أصل ثابت، فهذا وجه تمثيل الكافر بهذه الشجرة الخبيثة. عن أنس قال أتي رسول الله ﷺ بقناع عليه رطب فقال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها قال: هي النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار قال هي الحنظلة» أخرجه الترمذي. مرفوعاً وموقوفاً، وقال الموقوف أصح. قوله سبحانه وتعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ والقول الثابت: هي الكلمة الطيبة وهي شهادة أن لا إلة إلا الله، في قول جمهور المفسرين. ولما وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة بكلمة الشرك قال: في هذه الآية ويضل الله الظالمين يعني بالكلمة الخبيثة وهي كلمة الشرك في قول جميع المفسرين وقوله: ﴿في الحياة الدنيا﴾ يعني في القبر عند السؤال ﴿وفي الآخرة﴾ يعني يوم القيامة عند البعث والحساب وهذا القول واضح ويدل عليه ما روي عن البراء بن عازب. قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال: نزلت في عذاب القبر زاد في رواية يقال له من ربك فيقول ربي الله ونبيي محمد ﷺ» أخرجه البخاري ومسلم (ق). عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وأنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة قال النبي ﷺ: «فيراهما جميعاً» قال قتادة: ذكر لنا أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس وأما المنافق وفي رواية وأما الكافر فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه. فيقال: لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين» لفظ البخاري ولمسلم بمعناه زاد في رواية «أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون» وأخرجه أبو داود عن أنس قال: وهذا لفظه أن رسول الله ﷺ

النبي ﷺ قال: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ قال: نزلت في عذاب القبر يقال له: مَن ربك فيقول ربي الله ونبيِّي محمد، فذلك قوله تعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ الآية. وأخبرنا عبد الواحد المليحي أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عياش بن الوليد ثنا عبد الأعلى ثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك أنه حدّثهم أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وُضع في قبره وتولى عنه أصحابه أنه يسمع قرع نِعالهم أتـاه ملكـان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد ﷺ، فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس قال: وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ويُضْرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها مـن يليه غير الثقلين. أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي ثنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي أنبأنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ ثنا عبد الله بن سعيد ثنا أسد بن موسى ثنا عنبسة بن سعد بن كثير حدّثني جدي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الميت يسمع خفق النعال إذا ولّى عنه

قال: «إن المؤمن إذا وضع قبره آتاه ملك فيقول: ما كنت تعبد؟ فإن هداه الله، قال: كنت أعبد الله فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول هو عبد الله ورسوله فلا يسأل عن شيء بعدها فينطلق به إلى بيت كان له في النار، فيقال له: هذا كان مقعدك ولكن عصمك الله فأبدلك به بيتاً في الجنة فيراه، فيقول: دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي. فيقال له: اسكن. وإن الكافر والمنافق إذا وضع في قبره، آتاه ملك فينهضه فيقول ما كنت تعبد؟ فيقول: لا أدري. فيقال له: لا دريت ولا تليت فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول كنت أقول ما يقول الناس فيه فيضربه بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين» وأخرجه النسائي. أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قبر الميت أو قال إذا قبر أحدكم آتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول: كنت أقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ثم ينور له فيه ثم يقال له: ثم فيقول أرجع إلى أهلي فأخبرهم فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه، ذلك وإن كان منافقاً فيقول سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثلهم لا أدري فيقولان: قد كنا نعلم أنك كنت تقول ذلك. فيقال للأرض: التئمي عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه، فلايزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» أخرجه الترمذي. عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهت إلى القبر، ولما يلحد بعد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير وبيده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه ﷺ فقال: تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً زاد في رواية قال: إن الميت ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حين يقال له: يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك وفي رواية يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله فيقولان له وما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت، زاد في رواية فذلك قوله: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم لقناه قال فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوا له من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره وإن كان الكافر فذكر موته قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان ما دينك فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري فينادي مناد من السماء أن قد كذب عبدي فافرشوا له من النار

الناس مدبرين، ثم يجلس ويوضع كفنه في عنقه ثم يُسأل» ورُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ثم ينوّر له فيه، ثم يقال له: نمْ فيقول أرجع إلى أهلي فأُخبرهم، فيقولان نمْ كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً أو كافر، قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله لا أدري، فيقولان: قد كنّا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» ورُوِيَ عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن وقال: «فتُعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيُجلسانه في قبره ويقولان له مَن ربك وما دينك ومَن نبيّك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيّي محمد فينتهرانه ويقولان له الثانية من ربك وما دينك ومَن نبيّك وهي آخر فتنة تعرض على المؤمنين فيثبته الله عزّ وجلّ، فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيّي محمد ﷺ فينادي منادٍ من السماء أنْ صدق عبدي، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول

وألبسوه من النار وافتحوا له باباً في النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه في رواية ثم يقيض له أعمى أبكم أصم معه مرزبة من حديد، لو ضرب بها جبلاً لصار تراباً فيضربه بها ضربة، يسمعها من بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير تراباً ثم تعاد فيه الروح» أخرجه أبو داود. عن عثمان بن عفان قال: «كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل» أخرجه أبو داود. عن عبد الرحمن بن ثمامة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت فبكى بكاء طويلاً، وحول وجهه إلى الجدر وجعل ابنه يقول: ما يبكيك يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا وكذا فأقبل بوجهه وقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وذكر الحديث بطوله وفيه فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة، ولا نار فإذا دفنتموني فسنوا علي التراب سنا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي». أخرجه مسلم بزيادة طويلة فيه قيل المراد من التثبيت بالقول الثابت هو أن الله تعالى إنما يثبتهم في القبر بسبب كثرة مواظبتهم على شهادة الحق في الحياة الدنيا وحبهم لها، فمن كانت مواظبته على شهادة الإخلاص أكثر كان رسوخها في قلبه أعظم فينبغي للعبد المسلم أن يكثر من قول لا إله إلا لله محمد رسول الله في جميع حالاته، من قيامه وقعوده ونومه ويقظته وجميع حركاته وسكناته، فلعل الله عز وجل أن يرزقه ببركة مواظبته على شهادة الإخلاص التثبيت في القبر، ويسهل عليه جواب الملكين بما فيه خلاصه من عذاب الآخرة، نسأل الله التثبيت في القبر، وحسن الجواب وتسهيله بفضله ومنه وكرمه وإحسانه، إنه على كل شيء قدير وقوله تعالى: ﴿**ويضل الله الظالمين**﴾ يعني أن الله تعالى لا يهدي المشركين إلى الجواب الصواب في القبر ﴿**ويفعل الله ما يشاء**﴾ يعني من التوفيق، والخذلان والهداية والإضلال والتثبيت، وتركة لا اعتراض عليه في جميع أفعاله لا يسئل عما يفعل وهم يسألون. قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

﴿**ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً**﴾ (خ) عن ابن عباس في قوله: ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً؟ قال: هم كفار مكة وفي رواية هم والله كفار قريش. قال عمر: هم قريش ونعمة الله هو محمد ﷺ ﴿**وأحلوا قومهم دار**

الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ [إبراهيم: ٢٧] أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنبأنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر بن بسطام أنبأنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشي ثنا إبراهيم بن موسى الفراء أبو إسحاق ثنا هشام بن يوسف ثنا عبد الله بن يحيى عن هانىء مولى عثمان قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت، فإنه الآن يسأل»، وقال عمرو بن العاص في سياق الموت وهو يبكي فإذا أنا متُّ فلا تصحبني نائحة ولا نار فإذا دفنتموني فسنّوا عليّ التراب سنّاً ثم أقيموا حول قبري قرد ما ينحر جزور ويقسم لحمه حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أُراجع به رسل ربي. قوله تعالى: ﴿ ويضلّ الله الظالمين ﴾ أي: لا يهدي المشركين إلى الجواب بالصواب في القبر ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ ، من التوفيق والخذلان والتثبيت وترك التثبيت.

قوله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمةَ الله كفراً ﴾ [إبراهيم: ٢٨] الآية، أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن إسماعيل ثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عمرو عن عطاء عن ابن عباس في قول

البوار﴾ قال البوار: يوم بدر وعن علي رضي الله عنه قال هم كفار قريش فجروا يوم بدر، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فقد كفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فقد متعوا إلى حين فقوله بدلوا نعمة الله كفراً معناه أن الله تعالى لما أنعم على قريش بمحمد ﷺ فأرسله إليهم وأنزل عليه كتابه ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان اختاروا الكفر على الإيمان، وغيروا نعمة الله عليهم. وقيل: يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله عليهم كفراً لأنهم لما وجب عليهم الشكر بسبب هذه النعمة أتوا بالكفر فكأنهم غيروا الشكر، وبدلوه بالكفر وأحلوا قومهم، يعني ومن تبعهم على دينهم وكفرهم دار البوار يعني دار الهلاك ثم فسرها بقوله ﴿جهنم يصلونها وبئس القرار﴾ يعني المستقر ﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ يعني أمثالاً وأشباهاً من الأصنام، وليس لله تعالى ند ولا شبيه، ولا مثيل تعالى الله عن الند والتشبيه والمثيل علواً كبيراً ﴿ليضلوا عن سبيله﴾ يعني ليضلوا الناس عن طريق الهدى ودين الحق ﴿قل تمتعوا﴾ أي قل: يا محمد لهؤلاء الكفار تمتعوا في الدنيا أياماً قلائل ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ يعني في الآخرة. قوله تعالى ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾ يعني يقيموا الصلاة الواجبة، وإقامتها إتمام أركانها ﴿وينفقوا مما رزقناهم﴾ قيل أراد بهذا الإنفاق إخراج الزكاة الواجبة، وقيل: أراد به جميع الإنفاق في جميع وجوه الخير والبر وحمله على العموم أولى ليدخل فيه إخراج الزكاة، والإنفاق في جميع وجوه البر ﴿سراً وعلانية﴾ يعني ينفقون أموالهم في حال السر وحال العلانية، وقيل: أراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية إخراج الزكاة الواجبة ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه﴾ قال أبو عبيدة: البيع هنا الفداء يعني لا فداء في ذلك اليوم ﴿ولا خلال﴾ يعني ولا خلة، وهي المودة والصداقة التي تكون مخاللة بين اثنين. وقال مقاتل: إنما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخاللة ولا قرابة، إنما هي الأعمال إما أن يثاب بها أو يُعاقَب عليها. فإن قلت: كيف نفى الخلة في هذه الآية، وفي الآية التي في سورة البقرة وأثبتها في قوله «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين»؟ قلت: الآية الدالة على نفي الخلة محمولة على نفي الخلة الحاصلة، بسبب ميل الطبيعة، ورعونة النفس، والآية الدالة على حصول الخلة وثباتها محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله ألا تراه أثبتها للمتقين فقط، ونفاها عن غيرهم. وقيل: إن ليوم القيامة أحوالاً مختلفة، ففي بعضها يشتغل كل خليله عن خليله وفي بعضها يتعاطف الأخلاء بعضهم على بعض. إذا كانت تلك المخالة لله في محبته. قوله عز وجل:

تعالى: ﴿ الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قال: هم والله كفّار قريش. وقال عمر: هم قريش، ومحمد ﷺ نعمة الله، ﴿ وأحلّوا قومهم دار البوار ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قال: البوار يوم بدر، قوله: ﴿ بدلوا نعمة الله ﴾ [إبراهيم: ٢٨] أي: غيّروا نعمة الله عليهم في محمد ﷺ حيث ابتعثه الله منهم كفراً كفروا به فأحلّوا أي أنزلوا قومهم ممن تابعهم على كفرهم دار البوار الهلاك، ثم بيّن دار البوار فقال:

﴿ جهنَّمَ يصلونها ﴾، يدخلونها ﴿ وبئسَ القرار ﴾، المستقر. وعن علي كرّم الله وجهه: الذين بدّلوا نعمة الله كفراً هم كفّار قريش نحروا يوم بدر. وقال عمر بن الخطاب: هم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية، أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

﴿ وجعلوا لله أنداداً ﴾، أمثالاً وليس لله تعالى ند، ﴿ ليضلوا ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكذلك في الحج [٩] وسورة لقمان [٦] والزمر [٨] ﴿ ليضل ﴾ وقرأ الآخرون بضم الياء على معنى ليضلوا الناس، ﴿ عن سبيله قل تمتعوا ﴾، عيشوا في الدنيا، ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾.

﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾، قال الفرّاء: هذا جزم على الجزاء، ﴿ وينفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانيةً من قبلِ أن يأتيَ يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾، مخاللة وصداقة.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ
إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ
ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ
إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿**الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج من الثمرات رزقاً لكم**﴾ اعلم أنه تقدم تفسير هذه الآية في مواضع كثيرة، ونذكر هاهنا بعض فوائد هذه الآية الدالة على وجود الصانع المختار القادر الذي لا يعجزه شيء أراده، فقوله تعالى: الله خلق السموات والأرض، إنما بدأ بذكر خلق السموات والأرض، لأنها أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار وأنزل من السماء ماء يعني من السحاب سمي السحاب سماء لارتفاعه مشتق من السمو، وهو الارتفاع وقيل إن المطر ينزل من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض فأخرج به أي بذلك الماء من الثمرات رزقاً لكم، والثمر اسم يقع على ما يحصل من الشجر. وقد يقع على الزرع أيضاً بدليل قوله: كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده وقوله: من الثمرات بيان للرزق أي أخرج به رزقاً هو الثمرات ﴿**وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره**﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى إنعامه بإنزال المطر، وإخراج الثمر لأجل الرزق والانتفاع به ذكر نعمته على عباده بتسخير السفن الجارية على الماء، لأجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات، وغيرها من بلد إلى بلد آخر. فهي من تمام نعمة الله على عباده ﴿**وسخر لكم الأنهار**﴾ يعني ذللها لكم تجرونها حيث شئتم، ولما كان ماء البحر لا ينتفع به في سقي الزروع والثمرات ولا في الشراب أيضاً ذكر نعمته على عباده في تسخير الأنهار، وتفجير العيون لأجل هذه الحاجة، فهو من أعظم نعم الله على عباده ﴿**وسخر لكم الشمس والقمر دائبين**﴾ الدأب العادة المستمرة دائماً على حالة واحدة ودأب في السير داوم عليه، والمعنى أن الله سخر الشمس والقمر، يجريان دائماً فيما يعود إلى مصالح العباد لا يفتران إلى آخر الدهر، وهو انقضاء عمر الدنيا

﴿ **الله الذي خلق السمٰوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره** ﴾، بإذنه. ﴿ **وسخّر لكم الأنهار** ﴾، ذلّلها لكم تجرونها حيث شئتم.

﴿ **وسخّر لكم الشمسَ والقمرَ دائبين** ﴾، يجريان فيما يعود إلى مصالح العباد ولا يفتران، قال ابن عباس دؤبهما في طاعة الله عزّ وجلّ، ﴿ **وسخر لكم الليلَ والنهارَ** ﴾، يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان والزيادة.

﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه** ﴾، يعني: آتاكم من كل شيء سألتموه شيئاً، فحذف الشيء الثاني اكتفاءً بدلالة الكلام على التبعيض، وقيل: هو على التكثير نحو قولك فلان يعلم كل شيء، وآتاه كل الناس، وأنت تريد بعضهم نظيره قوله تعالى: ﴿ فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقرأ الحسن ﴿ **من كل** ﴾ بالتنوين ﴿ **ما** ﴾ على النفي يعني من كل ما لم تسألوه، يعني: أعطاكم أشياء ما طلبتموها ولا سألتموها، ﴿ **وإنْ تعدّوا نعمة الله** ﴾، أي: نعم الله، ﴿ **لا تحصوها** ﴾، أي: لا تطيقوا عدّها ولا القيام بشكرها، ﴿ **إن الإنسانَ لظلوم كفّار** ﴾،

وذهابها. قال ابن عباس: دؤبها في طاعة الله عز وجل. وقال بعضهم: معناه يدأبان في طاعة الله أي في مسيرهما وتأثيرهما في إزالة الظلمة وإصلاح النبات والحيوان لأن الشمس سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة والقمر سلطان الليل، وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله عز وجل، وإنعامه على عباده وتسخيره لهم **﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾** يعني يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان، والزيادة وذلك من إنعام الله على عباده وتسخيره لهم **﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾** لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العظام التي أنعم الله بها على عباده وسخرها لهم بين بعد ذلك، أنه تعالى لم يقتصر على تلك النعم بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر. والمعنى: وآتاكم من كل ما سألتموه شيئاً فحذف شيئاً اكتفاء بدلالة الكلام على التبعيض، وقيل: هو على التكثير يعني وآتاكم من كل شيء سألتموه، وما لم تسألوه لأن نعمه علينا أكثر من أن تحصى **﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾** يعني أن نعم الله كثيرة على عباده، فلا يقدر أحد على حصرها ولا عدها لكثرتها **﴿إن الإنسان﴾** قال ابن عباس: يريد أبا جهل، وقال الزجاج: هو اسم جنس ولكن يقصد به الكافر **﴿لظلوم كفار﴾** يعني ظلوم لنفسه كفار بنعمة ربه، وقيل: الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر في غير موضعه كفار جحود لنعم الله عليه. وقيل: يظلم النعمة بإغفال شكرها كفار شديد الكفران لها، وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع بالنعمة يجمع ويمنع. قوله سبحانه وتعالى **﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً﴾** يعني ذا آمن يؤمن فيه وأراد بالبلد مكة. فإن قلت: أي فرق بين قوله اجعل هذا بلداً آمناً وبين قوله اجعل هذا البلد آمناً؟ قلت: الفرق بينهما أنه سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فيها ولا يخافون وسأل في الثاني أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمناً **﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾** يعني أبعدني وبنيّ أن نعبد الأصنام. فإن قلت قد توجه على هذه الآية إشكالات وهي من وجوه: الأول أن إبراهيم دعا ربه أن يجعل مكة آمنة ثم إن جماعة من الجبابرة وغيرهم، قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها. الوجه الثاني: أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون عن عبادة الأصنام، وإذا كان كذلك فما الفائدة في قوله اجنبني عن عبادتها. الوجه الثالث: أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أيضاً أن يجنب بنيه عن عبادة الأصنام، وقد وجد كثير من بنيه عبد الأصنام مثل كفار قريش، وغيرهم ممن ينسب إلى إبراهيم عليه السلام. قلت: الجواب عن الوجوه المذكورة من وجوه: فالجواب على الوجه الأول: من وجهين أحدهما أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء، والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب، وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على خراب مكة، وأورد على هذا ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة» أخرجاه في الصحيحين. وأجيب عنه بأن قوله:

أي: ظالم لنفسه بالمعصية كافر بربه في نعمته وقيل الظلوم الذي يشكر غير من أنعم عليه والكافر مَن يجحد منعمه.

قوله تعالى: **﴿ وإذْ قال إبراهيم ربِّ اجعلْ هذا البلدَ ﴾**، يعني: الحرم، **﴿ آمناً ﴾** ذَا أمن يؤمن فيه، **﴿ واجنبني ﴾**، أبعدني، **﴿ وبنيَّ أن نعبد الأصنام ﴾**، يقال: جنبت الشيء وأجنبته جنباً وجنبته تجنيباً واجتنبته اجتناباً بمعنى واحد، فإن قيل: قد كان إبراهيم معصوماً من عبادة بنيه الأصنام فكيف يستقيم السؤال وقد عبد كثير من الأصنام فأين الإجابة؟ قيل: الدعاء في حق إبراهيم لزيادة العصمة والتثبيت وأما دعاؤه لبنيه فأراد بنيه من صلبه ولم يعبد منهم أحد الصنم. وقيل: إن دعاءه لمن كان مؤمناً من بنيه.

﴿ ربِّ إنهنّ أضللن كثيراً من الناس ﴾، يعني: ضلّ بهنّ كثيراً عن الناس عن طريق الهدى حتى عبدوهنّ، وهذا من المقلوب نظيره قوله تعالى: **﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه ﴾** [آل عمران: ١٧٥]، أي: يخوفهم بأوليائه، وقيل: نسب الإضلال إلى الأصنام لأنهنّ سبب فيه كما يقول القائل فتنتني الدنيا، نسب الفتنة إلى الدنيا لأنها

اجعل هذا البلد آمناً يعني إلى قرب القيامة وخراب الدنيا وقيل: هو عام مخصوص بقصة ذو السويقتين فلا تعارض بين النصين. الوجه الثاني: أن يكون المراد اجعل أهل هذا البلد آمنين، وهذا الوجه عليه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الأمن في بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله: ويتخطف الناس من حولهم، وأهل مكة آمنون من ذلك حتى إن من التجأ إلى مكة أمن على نفسه وما له من ذلك، وحتى إن الوحوش إذا كانت خارجة من الحرم استوحشت فإذا دخلت الحرم أَمنت واستأنست لعلمها أنها لا يهيجها أحد في الحرم وهذا القدر من الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها وأما الجواب عن الوجه الثاني: فمن وجوه أيضاً: الوجه الأول: أن دعاء إبراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة والتثبيت، فهو كقوله واجعلنا مسلمين لك. الوجه الثاني: أن إبراهيم عليه السلام، وإن كان يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه دعا بهذا الدعاء، هضماً للنفس وإظهاراً للعجز والحاجة والفاقة إلى فضل الله تعالى ورحمته، وأن أحداً لا يقدر على نفع نفسه بشيء لم ينفعه الله به فلهذا السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء وأما دعاؤه لبنيه، وهو الوجه الثالث من الإشكالات فالجواب عنه من وجوه: الأول أن إبراهيم دعا لبنيه من صلبه، ولم يعبد أحد منهم صنماً قط. الوجه الثاني: أنه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء ولا شك أن إبراهيم عليه السلام قد أجيب فيهم. الوجه الثالث قال الواحدي: دعا لمن أذن الله أن يدعو له فكأنه قال: وبني الذين أذنت لي في الدعاء لهم لأن دعاء الأنبياء مستجاب وقد كان من بنيه من عبد الصنم فعلى هذا الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص. الوجه الرابع: أن هذا مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية: فمن تبعني فإنه مني، وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فليس منه، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. وقوله تعالى ﴿رب إنهن﴾ يعني الأصنام ﴿أضللن كثيراً من الناس﴾ وهذا مجاز لأن الأصنام جمادات، وحجارة لا تعقل شيئاً حتى تضل من عبدها إلا أنه لما حصل الإضلال بعبادتها أضيف إليها كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرتهم وإنما فتنوا بها واغتروا بسببها ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾ يعني فمن تبعني على ديني واعتقادي، فإنه مني يعني المتدينين بديني المتمسكين بحبلي كما قال الشاعر:

إذا حاولت في أسد فجوراً ... فإني لست منك ولست مني

أراد ولست من المتمسكين بحبلي، وقيل: معناه أنه مني حكمه حكمي جار مجراي في القرب والاختصاص ﴿ومن عصاني﴾ يعني في غير الدين ﴿فإنك غفور رحيم﴾ قال السدي: ومن عصاني ثم تاب فإنك غفور رحيم. وقال مقاتل: ومن عصاني فيما دون الشرك فإنك غفور رحيم. وشرح أبو بكر بن الأنباري هذا فقال: ومن عصاني فخالفني في بعض الشرائع وعقائد التوحيد فإنك غفور رحيم إن شئت أن تغفر له غفرت إذا كان مسلماً وذكر وجهين آخرين

سبب الفتنة. ﴿ فَمَن تبعني فإنه منّي ﴾، أي: من أهل ديني وملّتي، ﴿ ومَن عصاني فإنك غفورٌ رحيم ﴾، قال السدي: معناه ومَن عصاني ثم تاب، وقال مقاتل بن حيان: ومَن عصاني فيما دون الشرك. وقيل: قال ذلك قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك.

قوله تعالى: ﴿ ربنا إني أسكنتُ من ذريتي ﴾، أدخل من للتبعيض ومجاز الآية أسكنت من ذريتي ولداً، ﴿ بوادٍ غير ذي زرع ﴾، وهو مكة لأن مكة وادٍ بين جبلين، ﴿ عند بيتِكَ المُحرّم ﴾، سمّاه محرّماً لأنه يحرم عنده ما لا يحرم عند غيره. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد الله بن محمد ثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب السختياني وكثير بن أبي كثير بن المطلب بن أبي وداعة يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المناطق من قبل أُم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل

أحدهما أن هذا كان قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك كما استغفر لأبويه، وهو يقول أن ذلك غير محظور، فلما عرف أنهما غير مغفور لهما تبرأ منهما، والوجه الآخر ومن عصاني بإقامته على الكفر فإنك غفور رحيم يعني أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله من الكفر إلى الإيمان، والإسلام وتهديه إلى الصواب. قوله عز وجل إخباراً عن إبراهيم ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ (خ) عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفل إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم إلى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت آلله أمرك بهذا؟ قال نعم قالت إذن لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم فدعا بهذه الدعوات فرفع يديه؛ فقال: رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفاء أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليها ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً فهبطت منه حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي ﷺ: فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت صوتاً أيضاً فقالت: قد أسمعت أن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه، وتقول: بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف وفي رواية قدر ما تغرف قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً» قال: فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله تعالى، يبنيه هذا الغلام وأبوه وأن الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً. فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي، وما فيه ماء فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا، وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: قال ابن عباس قال النبي ﷺ: فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا أهليهم، فنزلوا

وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفل إبراهيم منطلقاً، فتبعته أُم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه، فقال: ﴿ ربّنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع ﴾، حتى بلغ ﴿ يشكرون ﴾، وجعلتْ أُم إسماعيل تُرضِع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشتْ وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلبط أو قال يتلوى، وانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هلى ترى أحداً، فلم ترَ أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم ترَ أحداً ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال

معهم حتى إذا كانوا بها أهل أبيات منهم وشب الغلام، وتعلم العربية منهم وآنسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه بامرأة منهم وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته أخرجه البخاري بأطول من هذا، وقد تقدم الحديث بطوله في تفسير سورة البقرة، وأما تفسير الآية فقوله ربنا إني أسكنت من ذريتي من للتبعيض أي بعض ذريتي وهو إسماعيل عليه السلام بواد غير ذي زرع يعني ليس فيه زرع، لأنه واد بين جبلين جبل أبي قبيس وجبل أجياد وهو واد بمكة عند بيتك المحرم سماه محرماً لأنه يحترم عنده ما لا يحترم عند غيره، وقيل: لأن الله حرمه على الجبابرة فلم ينالوه بسوء وحرم التعرض له والتهاون به، وبحرمته وجعل ما حوله محرماً لمكانه، وشرفه وقيل: لأنه حرم على الطوفان بمعنى امتنع منه وقيل: سمي محرماً لأن الزائرين له يحرمون على أنفسهم أشياء كانت مباحة لهم من قبل وسمي عتيقاً أيضاً لأنه أعتق من الجبابرة أو من الطوفان. فإن قلت: كيف قال عند بيتك المحرم ولم يكن هناك بيت حينئذ، وإنما بناه إبراهم بعد ذلك. قلت: يحتمل أن الله عز وجل أوحى إليه وأعلمه أن له هناك بيتاً قد كان في سالف الزمان، وأنه سيعمر فلذلك قال عند بيتك المحرم، وقيل: يحتمل أن يكون المعنى عند بينك الذي كان ثم رفع عند الطوفان وقيل: يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذي جرى في سابق علمك أنه سيحدث في هذا المكان ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ اللام في ليقيموا متعلقة بأسكنت يعني أسكنت قوماً من ذريتي، وهم إسماعيل وأولاده بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا أي لأجل أن يقيموا أو لكي يقيموا الصلاة ﴿فاجعل أفئدة من الناس﴾ قال البغوي جمع الموفد ﴿تهوي إليهم﴾ تحن وتشتاق إليهم. قال السدي رحمه الله: أمل قلوبهم إلى هذا الموضع وقال ابن الجوزي أفئدة من الناس أي قلوب جماعة من الناس فلهذا جعله جمع فؤاد قال ابن الأنباري: وإنما عبر عن القلوب بالأفئدة لقرب القلب من الفؤاد فجعل القلب والفؤاد جارحتين. وقال الجوهري: الفؤاد القلب والجمع أفئدة فجعلهما جارحة واحدة ولفظة من في قوله من الناس للتبعيض، قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند. وقال سعيد بن جبير: لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون تهوي إليهم قال الأصمعي: يقال هوى يهوي هوياً إذا سقط من علو إلى أسفل وقال الفراء تهوي إليهم تريدهم كما تقول: رأيت فلاناً يهوي نحوك معناه يريدك وقال أيضاً تهوي تسرع إليهم، وقال ابن الأنباري: معناه تنحط إليهم وتنحدر وتنزل هذا قول أهل اللغة في هذا الحرف وأما أقوال المفسرين فقال ابن عباس: يريد تحن إليهم لزيارة بيتك وقال قتادة تسرع إليهم. وفي هذا بيان أن حنين الناس إليهم، إنما هو لطلب حج البيت لا لأعيانهم، وفيه دعاء

النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «يرحم الله أُم إسماعيل لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء في سقائها لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة وإن هناك بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله، وكان موضع البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك، حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مُقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا إنّ هذا الطائر ليدور على ماء ولعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا وأُم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان أهل أبيات منهم وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم، وكان آنسهم وأعجبهم حين شبّ فلما أدرك زوّجوه امرأةً منهم، وماتت أُم إسماعيل فجاء إبراهيم

للمؤمنين بأن يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بأنهم ينتفعون بمن يأتي إليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع إبراهيم عليه السلام في هذا الدعاء من أمر الدين، والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركاته ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ يعني كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزرع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار، وقيل يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات إلى مكة بطريق النقل والتجارة فهو كقوله تعالى يجبى إليه ثمرات كل شيء. وقوله تعالى ﴿لعلهم يشكرون﴾ يعني لعلهم يشكرون هذه النعم التي أنعمت بها عليهم، وقيل: معناه لعلهم يوحدونك ويعظمونك وفيه دليل على أن تحصيل منافع الدنيا، إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات.

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ يعني إنك تعلم السر كما تعلم العلن عما لا تفاوت فيه؛ والمعنى أنك تعلم أحوالنا، وما يصلحنا وما يفسدنا وأنت أرحم بنا منا فلا حاجة بنا إلى الدعاء، والطلب إنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك وتذللاً لعزتك وافتقاراً إلى ما عندك، وقيل: معناه تعلم ما نخفي من الوجد بفرقة إسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بواد غير ذي زرع وما نعلن يعني من البكاء، وقيل: ما نخفي يعني من الحزن المتمكن في القلب، وما نعلن يعني ما جرى بينه وبين هاجر عند الوداع حين قالت لإبراهيم عليه السلام إلى من تكلنا قال: إلى الله قالت إذاً لا يضيعنا ﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ فقيل: هذا من تتمة قول إبراهيم يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان وقال الأكثرون: إنه من قول الله تعالى تصديقاً لإبراهيم فيما قال: فهو كقوله وكذلك يفعلون ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ قال ابن عباس: ولد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة وقال سعيد بن جبير: بشر إبراهيم بإسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة، ومعنى قوله: على الكبر مع الكبر لأن هبة الولد في هذا السن من أعظم المنن لأنه سن اليأس من الولد فلهذا شكر الله على هذه المنة. فقال: الحمد لله الذي وهب لي على الكبر

بعدما تزوّج إسماعيل يطالع تركته. ذكرنا تلك القصة في سورة البقرة. قوله تعالى: ﴿ ربَّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس ﴾، الأفئدة جمع الفؤاد ﴿ تهوي إليهم ﴾، تشتاق وتحنّ إليهم. قال السدي: معناه أملْ قلوبهم إلى هذا الموضع، قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند. وقال سعيد بن جبير: لحجّت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس وهم المسلمون. ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾، ما رزقت سكان القرى ذوات الماء، ﴿ لعلهم يشكرون ﴾.

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ﴾، من أمورنا. وقال ابن عباس ومقاتل: من الوجد بإسماعيل وأُمه حيث أسكنتهما بوادٍ غير ذي زرع. ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾، قيل: هذا كله قول إبراهيم متصل بما قبله. وقال الأكثرون: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾.

إسماعيل وإسحاق. فإن قلت: كيف جمع بين إسماعيل وإسحاق في الدعاء في وقت واحد وإنما بشر باسحاق بعد إسماعيل بزمان طويل؟ قلت: يحتمل أن إبراهيم عليه السلام إنما أتى بهذا الدعاء عندما بشر باسحاق وذلك أنه لما عظمت المنة على قلبه بهبة ولدين عظيمين عند كبره قال عند ذلك الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ولا يرد على هذا ما ورد في الحديث أنه دعا بما تقدم عند مفارقة إسماعيل وأمه لأن الذي صح في الحديث أنه دعا بقوله ربنا إني أسكنت ذريتي إلى قوله لعلهم يشكرون إذا ثبت هذا فيكون قوله الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق في وقت آخر والله أعلم بحقيقة الحال ﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾ كان إبراهيم عليه السلام قد دعا ربه وسأله الولد بقوله «رب هب لي من الصالحين» فلما استجاب الله دعاءه ووهبه ما سأل شكر الله على ما أكرمه به من إجابة دعائه فعند ذلك قال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء وهو من قولك سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله ﴿ربِّ اجعلني مقيم الصلاة﴾ يعني ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها في أوقاتها ﴿ومن ذريتي﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة وإنما أدخل لفظة من التي هي للتبعيض في قوله ومن ذريتي لأنه أعلم بإعلام الله إياه أنه قد يوجد من ذريته جمع من الكفار لا يقيمون الصلاة فلهذا قال ومن ذريتي وأراد بهم المؤمنين من ذريته ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يتقبل دعاءه فاستجاب الله لإبراهيم وقيل دعاءه بفضله ومنه وكرمه ﴿ربنا اغفر لي﴾ فان قلت طلب المغفرة من الله إنما يكون لسابق ذنب قد سلف حتى يطلب المغفرة من ذلك الذنب وقد ثبت عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب فما وجه طلب المغفرة له؟ قلت: المقصود منه الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى وقطع الطمع من كل شيء إلا من فضله وكرمه والاعتراف بالعبودية لله تعالى والاتكال على رحمته ﴿ولوالدي﴾. فإن قلت: كيف استغفر إبراهيم لأبويه وكانا كافرين؟ قلت: أراد أنهما إن أسلما وتابا وقيل إنما قال ذلك قبل أن يتبين له أنهما من أصحاب الجحيم وقيل إن أمه أسلمت فدعا لها وقيل أراد بوالديه آدم وحواء ﴿وللمؤمنين﴾ يعني واغفر للمؤمنين كلهم ﴿يوم يقوم الحساب﴾ يعني يوم يبدو ويظهر الحساب وقيل أراد يوم الناس للحساب فاكتفى بذلك أي بذكر الحساب لكونه مفهوماً عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله سبحانه وتعالى لا يرد دعاء خليله إبراهيم عليه السلام ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة. قوله سبحانه وتعالى ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا في حق الله محال فلا بد من تأويل الآية فالمقصود منها أنه سبحانه وتعالى ينتقم من الظالم للمظلوم ففيه وعيد وتهديد للظالم وإعلام له بأن لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلاً قال سفيان بن عيينة: فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم. فإن قلت: تعالى الله عن السهو والغفلة فكيف يحسبه رسول الله ﷺ غافلاً وهو أعلم الناس به أنه لم غافلاً حتى قيل له ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل

﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكِبَر ﴾، أعطاني على كبر السن، ﴿ إسماعيل وإسحاق إنّ ربي لسميع الدعاء ﴾، قال ابن عباس: وُلد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة. ووُلد إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جبير: بُشِّرَ إبراهيم بإسحاق وهوابن مائة وسبع عشرة سنة.

﴿ ربِّ اجعلني مقيم الصلاة ﴾، يعني: ممّن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها، ﴿ ومن ذريتي ﴾، يعني: اجعل من ذريتي مَن يقيمون الصلاة. ﴿ ربَّنا وتقبلْ دعاء ﴾، أي: عملي وعبادتي، سمّى العبادة دعاءً، وجاء في الحديث: «الدعاء مخّ العبادة» وقيل: معناه استجب دعائي.

﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي ﴾، فإن قيل: كيف استغفر لوالديه وهما غير مؤمنين؟ قيل قد قيل إن أُمه أسلمت، وقيل:، أراد إن أسلما وتابا، وقيل: قال ذلك قبل أن يتبيّن له أمر أبيه وقد بيّن الله عذر خليله في استغفاره لأبيه في

الظالمون. قلت: إذا كان المخاطب به رسول الله ﷺ ففيه وجهان: أحدهما التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً فهو كقوله «ولا تكونن من المشركين ـ ولا تدع مع الله إلهاً آخر» وكقوله سبحانه وتعالى «يا أيها الذين آمنوا آمنوا» أي اثبتوا على ما أنتم عليه من الإيمان. الوجه الثاني أن المراد بالنهي عن حسابه غافلاً الإعلام بأنه سبحانه وتعالى عالم بما يفعل الظالمون ولا يخفى عليه شيء وأنه ينتقم منهم فهو على سبيل الوعيد والتهديد لهم والمعنى: ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عنهم ولكن يعاملهم معاملة الرقيب الحفيظ عليهم المحاسب لهم على الصغير والكبير وإن كان المخاطب غير النبي ﷺ فلا إشكال فيه ولا سؤال لأن أكثر الناس غير عارفين بصفات الله فمن جوز أن يحسبه غافلاً فلجهله بصفاته ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ يقال: شخص بصر الرجل إذا بقيت عيناه مفتوحتين لا يطرفهما، وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة من هول ما ترى في ذلك اليوم ﴿مهطعين﴾ قال قتادة مسرعين وهذا قول أبي عبيدة فعلى هذا المعنى أن الغالب من حال من بقي بصره شاخصاً من شدة الخوف أن يبقى واقفاً باهتاً فبين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن أحوال أهل الوقف يوم القيامة بخلاف الحال المعتادة فأخبر سبحانه وتعالى أنهم مع شخوص الأبصار يكونون مهطعين يعني مسرعين نحو الدعي وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكت ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ الاقناع رفع الرأس إلى فوق فأهل الموقف من صفتهم أنهم رافعو رؤوسهم إلى السماء وهذا بخلاف المعتاد لأن من يتوقع البلاء فإنه يطرق ببصره إلى الأرض قال الحسن وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد وهو قوله تعالى ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة الخوف فهي شاخصة لا ترتد إليهم قد شغلهم ما بين أيديهم ﴿وأفئدتهم هواء﴾ أي خالية. قال قتادة خرجت قلوبهم من صدورهم فصارت في حناجرهم فلا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها ومعنى الآية أن أفئدتهم خالية فارغة لا تعي شيئاً ولا تعقل من شدة الخوف. وقال سعيد بن جبير: وأفئدتهم هواء مترددة تهوي في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه، ومعنى الآية أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة والرؤوس مرفوعة إلى السماء من هول ذلك اليوم وشدته.

سورة التوبة [١١٤]. ﴿وللمؤمنين﴾، أي: اغفر للمؤمنين كلهم، ﴿يوم يقوم الحساب﴾، أي؛ يبدو ويظهر. وقيل: أراد يوم الحساب يوم يقوم الناس للحساب، فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوماً.

قوله تعالى: ﴿ ولا تحسبنَّ الله غافلاً عمّا يعملُ الظالمون ﴾. الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور، والآية لتسلية المظلوم وتهديد للظالم، ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخصُ فيه الأبصار ﴾، أي: لا تغمض من هول ما ترى في ذلك اليوم، وقيل: ترتفع وتزول عن أماكنها:

﴿ مهطعين ﴾، قال قتادة: مسرعين. قال سعيد بن جبير: الإهطاع النسلان كعدو الذئب، وقال مجاهد: مُديمي النظر، ومعنى الإهطاع أنهم لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، ولا يعرفون مواطن أقدامهم، ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾، أي: رافِعي رؤوسهم، قال القتيبي: المقنع الذي يرفع رأسه ويقبل بصره على ما بين يديه. وقال الحسن: وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد، ﴿ لا يرتدّ إليهم طرفهم ﴾، لا ترجع إليهم أبصارهم من شدّة النظر، وهي شاخصة قد شغلهم ما بين أيديهم. ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾، أي: خالية. قال قتادة: خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت في حناجرهم، لا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى مكانها، فأفئدتهم هواء لا شيء فيها ومنه سمّي ما بين السماء والأرض هواء الخلوة، وقيل: خالية لا تعي شيئاً ولا تعقل من الخوف. وقال الأخفش: جوفاً لا عقول لها. والعرب تسمّي كلّ أجوف خلو هواء. قال سعيد بن جبير: وأفئدتهم هواء أي: مترددة تمور في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه، وحقيقة المعنى: أن القلوب زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

﴿وأنذر الناس﴾ يعني وخوف الناس يا محمد بيوم القيامة وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا﴾ يعني ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿ربنا أخرنا إلى أجل قريب﴾ يعني أمهلنا مدة يسيرة قال بعضهم: طلبوا الرجوع إلى الدنيا حتى يؤمنوا فينفعهم ذلك وهو قوله تعالى ﴿نجب دعوتك ونتبع الرسل﴾ فأجيبوا بقوله ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل﴾ يعني في دار الدنيا ﴿ما لكم من زوال﴾ يعني ما لكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور.

وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ يعني بالكفر والمعاصي ممن كان قبلكم من كفار الأمم الخالية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ يعني وقد عرفتم كيف كان عقوبتنا إياهم ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ يعني الأمثال التي ضربها الله عز وجل في القرآن ليتدبروها، ويعتبروا بها فيجب على كل من شاهد أحوال الماضين من الأمم الخالية، والقرون الماضية، وعلم ما جرى لهم وكيف أهلكوا أن يعتبر بهم، ويعمل في خلاص نفسه من العقاب والهلاك. قوله سبحانه وتعالى ﴿وقد مكروا مكرهم﴾ اختلفوا في الضمير إلى من يعود في قوله، وقد مكروا فقيل يعود إلى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، وهذا القول صحيح لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب مذكور وقيل: إن المراد بقوله وقد مكروا كفار قريش الذين مكروا برسول الله ﷺ ومكرهم ما ذكره الله تعالى بقوله تعالى ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ الآية والمعنى وأنذر الناس يا محمد، يوم يأتيهم العذاب يعني بسبب مكرهم بك. وقوله تعالى ﴿وعند الله مكرهم﴾ يعني جزاء مكرهم وقيل إن مكرهم مثبت عند الله ليجازيهم به يوم القيامة ﴿وإن

﴿ وأنذرِ الناسَ ﴾، خوّفهم، ﴿ يومَ ﴾، أي: بيوم، ﴿ يأتيهم العذاب ﴾، هو يوم القيامة، ﴿ فيقول الذين أظلموا ﴾، أشركوا، ﴿ ربَّنا أخّرنا ﴾، أمهلنا، ﴿ إلى أجلٍ قريب ﴾، هذا سؤالهم الردّ إلى الدنيا، أي: أرجعنا إليها، ﴿ نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾، فيُجابون: ﴿ أوَ لم تكونوا أقسمتم من قبلُ ﴾، حلفتم في دار الدنيا. ﴿ ما لكم من زوال ﴾، عنها أي: لا تبعثون. وهو قوله تعالى: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله مَن يموت ﴾ [النحل: ٣٨].

﴿ وسكنتُم ﴾، في الدنيا، ﴿ في مساكن الذين ظلموا أنفسَهم ﴾، بالكفر والعصيان، يعني قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم. ﴿ وتبيّن لكم كيفَ فعلنا بهم ﴾، أي: عرفتم عقوبتنا إيّاهم، ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾، أي: بيّنا مثلكم كمثلهم.

﴿ وقد مكروا مكرَهم وعندَ اللهِ مكرُهم ﴾، أي: جزاء مكرهم، ﴿ وإنْ كان مكرهم ﴾، قرأ علي وابن مسعود: ﴿ وإن كان مكرهم ﴾ بالدال، وقرأ العامّة بالنون. ﴿ لتزول منه الجبال ﴾، قرأ العامّة لتزول بكسر اللام

كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ يعني وإن كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال وقيل: معناه إن مكرهم لا يزيل أمر محمد ﷺ الذي هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في الآية قولاً آخر: وهو أنها نزلت في نمرود الجبار الذي حاجّ إبراهيم في ربه فقال نمرو: إن كان ما يقول إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أصعد إلى السماء فأعلم ما فيها فعمد إلى أربعة أفراخ من النسور فرباهن حتى كبرت وشبت، واتخذ تابوتاً من خشب وجعل له باباً من أعلى وباباً من أسفل ثم جوع النسور ونصب خشبات أربعاً في أطراف التابوت وجعل على رؤوس تلك الخشبات لحماً أحمر وقعد هو في التابوت، وأقعد معه رجلاً آخر، وأمر بالنسور فربطت في أطراف التابوت من أسفل فجعلت النسور كلما رأت اللحم رغبت فيه، وطارت إليه فطارت النسور يوماً أجمع حتى بعدت في الهواء فقال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها ففتح ونظر فقال له إن السماء كهيئتها فقال له: افتح الباب الأسفل فانظر إلى الأرض كيف تراها ففعل فقال: أرى الأرض مثل اللجة والجبال مثل الدخان. قال: فطارت النسور يوماً آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى ففعل فإذا السماء كهيئتها، وفتح الباب الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة فنودي أيها الطاغي أين تريد؟ قال عكرمة: وكان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب وأخذ معه الترس، ورمى بسهم فعاد إليهم السهم ملطخاً بدم سمكة قذفت بنفسها من بحر في الهواء وقيل إن طائراً أصابه السهم فلما رجع إليهم السهم ملطخاً بالدم قال كفيت إله السماء ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوب الخشبات إلى أسفل، وينكس اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور ففزعت، وظنت أنه قد حدث حدث من السماء إن الساعة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها، فذلك قوله تعالى وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال واستبعد العلماء هذه الحكاية وقال: إن الخطر فيه عظيم ولا يكاد عاقل أن يقدم على مثل هذا الأمر العظيم وليس فيه خير صحيح يعتمد عليه، ولا مناسبة لهذه الحكاية بتأويل الآية البتة

الأولى ونصب الثانية، معناه: وما كان مكرهم لتزول. قال الحسن: إن كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال. وقيل: معناه إن مكرهم لا يزيل أمر محمد ﷺ الذي هو ثابت كثبوت الجبال. وقرأ ابن جريج والكسائي: ﴿ لتزول ﴾ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، معناه: إن مكرهم وإن عظم حتى بلغ محلاً يُزيل الجبال لم يقدروا على إزالة أمر محمد. وقال قتادة: معناه وإن كان مكرهم شركهم لتزول منه الجبال وهو قوله تعالى: ﴿ وتخرّ الجبال هدّاً أن دعوا للرحمن ولداً ﴾ [مريم: ٩٠ و٩١]. ويُحكى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في معنى الآية: أنها نزلت في نمرود الجبار الذي حاجّ إبراهم في ربه، وذلك أنه قال: إن كان ما يقول إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أصعد السماء فأعلم ما فيها فعمد إلى أربعة أفرخ من النسور فربّاها حتى شبّت واتخذ تابوتاً وجعل له باباً من أعلى وباباً من أسفل، وقعد من أسفل وقعد نمرود مع الرجل في التابوت ونصب خشبات في أطراف التابوت، وجعل على رؤوسها اللحم وربط التابوت بأرجل النسور، وخلّاها فطرن وصعدن طمعاً في اللحم حتى مضى يوم وأبعدن في الهواء، فقال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها، ففتح الباب ونظر فقال: إن السماء كهيئتها ثم قال افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها ففعل فقال أرى مثل اللجّة والجبال مثل الدخان فطارت النسور يوماً آخر، وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال لصاحبه افتح البابين ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها وفتح الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة فنُودِيَ أيها الطاغية أين تريد؟ قال عكرمة: كان معه في التابوت غلام قد حمل معه القوس والنشاب فرمى بسهم فعاد إليه السهم متلطخاً بدم سمكة قذفت نفسها من بحر في الهواء. وقيل: طائر أصابه السهم، فقال: كفيت شغل إلّه السماء، قال: ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوّب الخشبات وينكص اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور ففزعت وظنت أنه قد حَدَثَ

﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾ يعني فلا تحسبن الله يا محمد مخلف ما وعد به رسله من النصر وإعلاء الكلمة، وإظهار الدين فإنه ناصر رسله وأوليائه ومهلك أعدائه، وفيه تقديم وتأخير تقديره ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده ﴿إن الله عزيز﴾ أي غالب ﴿ذو انتقام﴾ يعني من أعدائه قوله عز وجل ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ ذكر المفسرون في معنى هذا التبديل قولين أحدهما أنه تبدل صفة الأرض والسماء لا ذاتهما فأما تبديل الأرض فبتغيير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها وهو أن تدك جبالها وتسوى وهادها وأوديتها، وتذهب أشجارها وجميع ما عليها من عمارة وغيرها لا يبقى على وجهها شيء إلا ذهب، وتمد مد الأديم وأما تبديل السماء فهو أن تنتثر كواكبها وتطمس شمسها، وقمرها ويكوران كونها تارة كالدهان، وتارة كالمهل وبهذا القول قال جماعة من العلماء: ويدل على صحة هذا القول ما روي عن سهل بن سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس بها علم لأحد» أخرجاه في الصحيحين العفراء بالعين المهملة، وهي البيضاء إلى الحمرة ولهذا شبهها بقرصة النقى، وهو الخبز الجيد البياض الفائق المائل إلى حمرة كأن النار ميلت بياض وجهها إلى الحمرة وقوله: ليس بها علم لأحد يعني ليس فيها علامة لأحد بتبديل هيئتها، وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها أثر يستدل به والقول الثاني: هو تبديل ذوات الأرض والسماء وهذا قول جماعة من العلماء، ثم اختلفوا في معنى هذا التبديل فقال ابن مسعود في معنى هذه الآية قال: تبدل الأرض بأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك بها دم، ولم يعمل عليها خطيئة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: الأرض من فضة والسماء من ذهب. وقال أبيّ بن كعب في معنى التبديل: بأن تصير الأرض نيراناً والسماء جناناً وقال أبو هريرة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه عن أبي سعيد الخدري قال. قال رسول الله ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة» أخرجاه في الصحيحين بزيادة فيه. قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح هذا الحديث: أما النزل فبضم النون والزاي ويجوز إسكان الزاي وهو ما يعد للضيف عند نزوله وأما الخبزة فبضم الخاء. وقال أهل اللغة: هي الظلمة التي توضع في الملة يتكفؤها بالهمزة بيده أي يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتسوى لأنها ليست منبسطة كالرقاقة، وقد حققنا الكلام في اليد في حق الله سبحانه وتعالى وتأويلها مع القطع باستحالة الجارحة عليه ليس كمثله شيء، ومعنى الحديث أن الله سبحانه

حدثٌ من السماء، وأن الساعة قد قامت، فكادت تــزول عــن أماكنها، فذلك قوله تعالى: ﴿ وإنْ كان مكرُهم لتزولَ منه الجبال ﴾.

﴿ فلا تحسبنّ الله مخلفَ وعدِهِ رسلَه ﴾، بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه، وفيه تقديم وتأخير، تقديره: ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده، ﴿ إن الله عزيز ذو انتقام ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يوم تبدل الأرض غيرَ الأرض والسمٰوات ﴾، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا خالد بن مخلد عن محمد بن جعفر بن أبي كثير حدّثني أبو حازم بن دينار بن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر النّاسُ يوم القيامة على أرضٍ بيضاء عفراءَ كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد»، وأخبرنا عبد الواحد عن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يحيىٰ بن بكير ثنا الليث عن خالد هو ابن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة»، وعن ابن مسعود في هذه الآية قال: تبدل الأرض بأرض كفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم

وتعالى، يجعل الأرض كالظلمة أي الرغيف العظيم وتكون طعاماً نزلاً لأهل الجنة والله على كل شيء قدير. فإن قلت: إذا فسرت التبديل بما ذكرت فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ وهو أن تحدث أخبارها، وهو أن تحدث بكل ما عمل عليها، قلت: وجه الجمع بين الآيتين أن الأرض تبدل أولاً صفتها مع بقاء ذاتها كما تقدم فيومئذ تحدث أخبارها ثم بعد ذلك تبدل تبديلاً ثانياً، وهو أن تبدل ذاتها بغيرها كما تقدم أيضاً ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن عائشة قالت سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال: «على الصراط» أخرجه مسلم وروى ثوبان أن حبراً من اليهود سأل رسول الله ﷺ أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض قال: «هم في الظلمة دون الجسر» ذكره البغوي بغير سند، ففي هذين الحديثين دليل على أن تبديل الأرض ثاني مرة يكون بعد الحساب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وقوله تعالى ﴿وبرزوا﴾ يعني وخرجوا من قبورهم ﴿لله﴾ يعني لحكم الله، والوقوف بين يديه للحساب ﴿الواحد القهار﴾ صفتان لله تعالى فالواحد الذي لا ثاني له، ولا شريك معه المنزه عن الشبه والضد والند والقهار الذي يقهر عباده على ما يريد، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قوله تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وترى المجرمين يومئذ مقرنين﴾ يعني مشدودين بعضهم إلى بعض يقال: قرنت الشيء بالشيء إذا شددته معه في رباط واحد ﴿في الأصفاد﴾ يعني في القيود والأغلال. قال ابن عباس: يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة. وقال أبو زيد: تقرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي القيود. وقال ابن قتيبة: يقرن بعضهم إلى بعض ﴿سرابيلهم﴾ يعني قمصهم واحدها سربال وقيل السربال كل ما لبس ﴿من قطران﴾ القطران دهن يتحلب من شجر

تعمل فيها خطيئة. وقال علي بن أبي طالب: تبدل الأرض من فضة والسماء من ذهب. وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير: تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه. وقيل: معنى التبديل جعل السموات جناناً وجعل الأرض نيراناً. وقيل: تبديل الأرض تغييرها من هيئة إلى هيئة، وهي تسيير جبالها وطم أنهارها وتسوية أوديتها وقلع أشجارها وجعلها قاعاً صفصفاً، وتبديل السموات تغييرها عن حالها بتكوير شمسها، وخسوف قمرها وانتثار نجومها، وكونها مرة كالدهان، ومرة كالمهل. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا علي بن مسهر عن داود وهو ابن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عزّ وجلّ: «يوم تبدل الأرض غيرَ الأرض والسموات» فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط»، ورُوِيَ عن ثوبان أن حبراً من أحبار اليهود سأل رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ قال: هم في الظلمة دون الجسر. وقوله تعالى: ﴿ وبرزوا ﴾، خرجوا من قبورهم، ﴿ لله الواحد القهّار ﴾، الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين ﴾، مشدودين بعضهم ببعض، ﴿ في الأصفاد ﴾، في القيود والأغلال واحدها صفد، وكلّ مَن شددته شدّاً وثيقاً فقد صفدته، قال أبو عبيدة تقول العرب: صفدت الرجل فهو مصفود وصفدته بالتشديد فهو مصفد، وقيل: يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة، بيانه قوله تعالى: ﴿ احشروا الذين

الأبهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت، وهو الهناء يقال هنأت البعير أهنؤه بالهناء وهو القطران قال الزجاج: وإنما جعل لهم القطران سرابيل لأنه يبالغ في اشتعال النار في الجلود ولو أراد الله المبالغة في إحراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم مما يعرفون وقرأ عكرمة، ويعقوب من قطران على كلمتين منونتين فالقطر النحاس المذاب والآن الذي انتهى حره ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ يعني تعلوها وتجللها ﴿ليجزي الله كل نفس ما كسبت﴾ يعني من خير أو شر ﴿إن الله سريع الحساب﴾ يعني إذا حاسب عباده يوم القيامة ﴿هذا بلاغ للناس﴾ يعني هذا القرآن فيه تبليغ وموعظة للناس ﴿ولينذروا﴾ يعني وليخوفوا بالقرآن ومواعظه وزواجره ﴿وليعلموا أنما هو إله واحد﴾ يعني وليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى ﴿وليذكر أولو الألباب﴾ يعني وليتعظ بهذا القرآن وما فيه من المواعظ، أولو العقول والأفهام الصحيحة، فإنه موعظة لمن اتعظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصّافّات: ٢٢]، يعني: قرناءهم من الشياطين وقيل: معناه مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد والقيود، ومنه قيل للجبل قرن.

﴿ سرابيلهم ﴾، أي: قمصهم، واحدها سربال. ﴿ من قطران ﴾ هو ما تهنأ به الإبل، وقرأ عكرمة ويعقوب ﴿ من قطران ﴾ على كلمتين منوّنتين، والقطر النحاس والصفر المُذاب، والآن الذي انتهى حرّه، قال الله تعالى: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ [الرحمن: ٤٤]. ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾، أي: تعلو.

﴿ ليجزي الله كل نفس ما كسبتْ ﴾، من خير وشر، ﴿ إنّ الله سريعُ الحساب ﴾.

﴿ هذا ﴾، أي: هذا القرآن، ﴿ بلاغ ﴾، أي: تبليغ وعظة، ﴿ للناس ولينذروا ﴾، وليخوفوا، ﴿ به وليعلموا إنما هو إلّه واحد ﴾، أي: ليستدلّوا بهذه الآيات على وحدانية الله، ﴿ وليذكر أُولوا الألباب ﴾، أي: ليتّعظ أُولوا العقول.

تفسير سورة الحجر

مكية بإجماعهم وهي تسع وتسعون آية وستمائة، وأربع وخمسون كلمة وألفان وسبعمائة وستون حرفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ تلك إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب وبالقرآن المبين: الكتاب الذي وعد به الله محمداً ﷺ، وتنكير القرآن للتفخيم، والتعظيم والمعنى تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً، وفي كونه قرآناً وأي قرآن كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان وقيل: أراد بالكتاب التوراة والإنجيل، لأن عطف القرآن على الكتاب والمعطوف غير المعطوف عليه وهذا القول ليس بالقوي، لأنه لم يجر للتوراة والإنجيل ذكر حتى يشار إليهما. وقيل: المراد بالكتاب القرآن وإنما جمعهما بوصفين، وإن كان الموصوف واحداً لما في ذلك من الفائدة وهي التفخيم والتعظيم، والمبين الذي يبين الحلال من الحرام، والحق من الباطل ﴿ربما﴾ قرىء بالتخفيف والتشديد وهما لغتان ورب للتقليل وكم للتكثير، وإنما زيدت ما مع رب ليليها الفعل تقول رب رجل جاءني وربما جاءني زيد وإن شئت جعلت ما بمنزلة شيء كأنك قلت رب شيء فتكون المعنى رب شيء ﴿يود الذين كفروا﴾ وقيل: ما في ربما بمعنى حين أي رب حين يود يعني يتمنى الذين كفروا لأن التمني هو: تشهي حصول ما يوده، واختلف المفسرون في الوقت الذي يتمنى الذين كفروا ﴿لو كانوا مسلمين﴾ على

سُوْرَةُ الحِجْـرِ

مكية وهي تسعة وتسعون آية.

﴿ **الر** ﴾، معناه أنا الله أرى، ﴿ **تلك آياتُ الكتاب** ﴾، أي: هذه آيات الكتاب، ﴿ **وقرآن** ﴾ أي: وآيات قرآن، ﴿ **مبين** ﴾، أي: بين الحلال من الحرام والحق من الباطل، فإن قيل: لمّا ذكر الكتاب ثم قال: ﴿ **وقرآن مبين** ﴾ وكلاهما واحد؟ قلنا: قد قيل كل واحد منهما يفيد فائدة أخرى فإن الكتاب ما يكتب والقرآن ما يجمع بعضه إلى بعض. وقيل: المراد بالكتاب التوراة والإنجيل وبالقرآن هذا الكتاب.

﴿ **ربما** ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم بتخفيف الباء والباقون بتشديدهما وهما لغتان، ورُبَّ للتقليل وكم للتكثير، ورُبَّ تدخل على الاسم، وربما على الفعل، يقال: ربّ رجل جاءني وربما جاءني رجل، وأدخل ما ههنا للفعل بعدها. ﴿ **يَوَدُّ** ﴾، يتمنى، ﴿ **الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾، واختلفوا في الحالة التي يتمنى الكافر فيها الإسلام، قال الضحاك: حالة المعاينة. وقيل: يوم القيامة. والمشهور أنه حين يخرج الله المؤمنين من النار. ورُوِيَ

قولين أحدهما: أن ذلك يكون عند معاينة العذاب وقت الموت فحينئذ يعلم الكافر أنه كان على الضلال، فيتمنى لو كان مسلماً، وذلك حين لا ينفعه ذلك التمني. قال الضحاك: هو عند حالة المعاينة والقول الثاني: إن هذا التمني يكون في الآخرة، وذلك حين يعاينون أهوال يوم القيامة وشدائده وما يصيرون عليه من العذاب، فحينئذ يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين. وقال الزجاج: أن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب ورأى حالاً من أحوال المسلم ود لو كان مسلماً وقيل إذا رأى الكافر أن الله تعالى يرحم المسلمين، ويشفع بعضهم في بعض حين يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين والقول المشهور أن ذلك التمني حين يخرج الله المؤمنين من النار عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ «قال إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة: ألستم مسلمين؟ قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار. قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفرها الله لهم بفضل رحمته فيأمر الله بكل من كان من أهل القبلة في النار، فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» ذكره البغوي بغير سند، وكذا ذكره ابن الجوزي وقال: وإليه ذهب ابن عباس في رواية عنه عن أنس بن مالك ومجاهد وعطاء وأبو العالية وإبراهيم يعني النخعي. فإن قلت: رب إنما وضعت للتقليل، وتمني الذين كفروا لو كانوا مسلمين يكثر يوم القيامة فكيف قال: ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. قلت: قال صاحب الكشاف هو وارد على مذهب العرب في قولهم لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على فعله، ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون تقليله، ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكاً فيه أو كان قليلاً لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغمِّ المظنون كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه كما يتحرزون من الكثير وقال غيره إن هذا القليل أبلغ في التهديد ومعناه يكفيك قليل الندم في كونه زاجراً لك عن هذا الفعل. فكيف بكثيره؟ وقيل: إن شغلهم بالعذاب لا يقرعهم للندامة إنما يخطر ذلك ببالهم. فإن قلت: رب لا تدخل إلا على الماضي فكيف قال: ربما يود وهو في المستقبل قلت لأن المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه كأنه قال: ربما ود. قوله سبحانه وتعالى ﴿**ذرهم يأكلوا ويتمتعوا**﴾ يعني دع يا محمد هؤلاء الكفار يأكلوا في دنياهم ويتمتعوا بلذاتها ﴿**ويلههم الأمل**﴾ يعني ويشغلهم طول الأمل عن الإيمان والأخذ بطاعة الله تعالى ﴿**فسوف يعلمون**﴾ يعني إذا وردوا القيامة، وذاقوا وبال ما صنعوا وهذا فيه تهديد ووعيد لمن أخذ بحظه من الدنيا، ولذاتها ولم يأخذ بحظه من طاعة الله عز وجل، وقال بعض أهل العلم: ذرهم تهديد وفسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين وهذه الآية منسوخة بآية القتال، وفي الآية دليل على أن إيثار التلذذ، والتنعم في الدنيا يؤدي إلى طول الأمل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين. قال علي بن أبي طالب: إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى فإن طول الأمل، ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق.

عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم مَن شاء الله من أهل القبلة قال الكفّار لمَن في النار من أهل القبلة ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار، فقالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفر الله لهم بفضل رحمته فيأمر بكل مَن كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها فحينئذ يودّ الذين كفروا لَوْ كانوا مسلمين، فإن قيل: كيف قال ربما وهي للتقليل وهذا التمنّي يكثر من الكفّار؟ قلنا: قد تذكر ربما للتكثير أو أراد أن شغلهم بالعذاب لا يفرغهم للندامة إنما يخطر ذلك ببالهم أحياناً.

﴿ **ذرهم** ﴾، يا محمد يعني الذين كفروا، ﴿ **يأكلوا** ﴾ في الدنيا، ﴿ **ويتمتعوا** ﴾، من لذاتهم ﴿ **ويلههم** ﴾، يشغلهم، ﴿ **الأمل** ﴾، عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة، ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾، إذا وردوا القيامة وذاقوا وِبال ما صنعوا، وهذا تهديد ووعيد. وقال بعض أهل العلم: ذرهم تهديد وقوله: فسوف يعلمون، تهديد آخر، فمتى يهنأ العيش بين تهديدين. والآية نسختها آية القتال.

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا
سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن
كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾

﴿**وما أهلكنا من قرية**﴾ يعني من أهل قرية وأراد إهلاك الاستئصال ﴿**إلا ولها كتاب معلوم**﴾ أي أجل مضروب، ووقت معين لا يتقدم العذاب عليه، ولا يتأخر عنه ولا يأتيهم إلا في الوقت الذي حدد لهم في اللوح المحفوظ ﴿**ما تسبق من أمة أجلها**﴾ من زائدة، في قوله: من أمة كقولك ما جاءني من أحد. وقيل: هي على أصلها لأنها تفيد التبعيض إلى هذا الحكم فيكون ذلك في إفادة عموم النفي آكد، ومعنى الآية أن الأجل المضروب لهم وهو وقت الموت، أو نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وما يستأخرون**﴾ وإنما أدخل الهاء في أجلها لإرادة الأمة، وإخراجها من قوله وما يستأخرون لإرادة الرجال. قوله عز وجل ﴿**وقالوا**﴾ يعني مشركي مكة ﴿**يا أيها الذي نزل عليه الذكر**﴾ يعني القرآن وأرادوا به محمداً ﷺ ﴿**إنك لمجنون**﴾ إنما نسبوه إلى الجنون لأنه ﷺ، كان يظهر عند نزول الوحي عليه ما يشبه الغشي، فظنوا أن ذلك جنون فلهذا السبب نسبوه إلى الجنون، وقيل: إن الرجل إذا سمع كلاماً مستغرباً من غيره فربما نسبه إلى الجنون، ولما كانوا يستبعدون كونه رسولاً من عند الله، وأتى بهذا القرآن العظيم أنكروه ونسبوه إلى الجنون، وإنما قالوا: يا أيها الذي نزل عليه الذكر على طريق الاستهزاء وقيل: معناه يا أيها الذي نزل عليه الذكر في زعمه، واعتقاده واعتقاد أصحابه وأتباعه إنك لمجنون في ادعائك الرسالة ﴿**لو ما**﴾ قال الزجاج والفراء: لوما ولولا لغتان ومعناهما هلا يعني هلا ﴿**تأتينا بالملائكة**﴾ يعني يشهدون لك بأنك رسول من عند الله حقاً ﴿**إن كنت من الصادقين**﴾ يعني في قولك وادعائك الرسالة ﴿**ما ننزل الملائكة إلا بالحق**﴾ يعني بالعذاب أو وقت الموت، وهو قوله تعالى ﴿**وما كانوا إذاً منظرين**﴾ يعني لو نزلت الملائكة إليهم لم يمهلوا ولم يؤخروا ساعة واحدة وذلك أن كفار مكة كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ إنزال الملائكة عياناً فأجابهم الله عز وجل بهذا، والمعنى لو نزلوا عياناً لزال عن الكفار الإمهال وعذبوا في الحال إن لم يؤمنوا ويصدقوا ﴿**إنّا نحن نزلنا الذكر**﴾ يعني القرآن أنزلناه عليك يا محمد، وإنما قال سبحانه وتعالى: إنا نحن نزلنا الذكر جواباً لقولهم: يا أيها الذي نزل عليه الذكر فأخبر الله عز وجل أنه هو الذي نزل الذكر على محمد ﷺ ﴿**وإنا له لحافظون**﴾ الضمير في له يرجع إلى الذكر يعني، وإنا للذكر الذي أنزلناه على محمد لحافظون يعني من الزيادة فيه، والنقص منه والتغيير والتبديل والتحريف، فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الأشياء كلها لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والإنس أن يزيد فيه، أو ينقص منه حرفاً واحداً أو

﴿ **وما أهلكنا من قرية** ﴾، أي: من أهل قرية، ﴿ **إلّا ولها كتاب معلوم** ﴾، أي: أجل مضروب لا يتقدم عليه ولا يأتيهم العذاب حتى يبلغوه ولا يتأخر عنهم.

﴿ **ما تسبق من أمة أجلها** ﴾، من صلة أي: ما تسبق أمة أجلها، ﴿ **وما يستأخرون** ﴾، أي: الموت لا يتقدم ولا يتأخر، وقيل: العذاب. وقيل: الأجل المضروب.

كلمة واحدة، وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فإنه قد دخل على بعضها التحريف، والتبديل والزيادة والنقصان ولما تولى الله عز وجل حفظ هذا الكتاب بقي مصوناً على الأبد محروساً من الزيادة والنقصان، وقال ابن السائب ومقاتل: الكناية في له راجعة إلى محمد ﷺ يعني وإنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء فهو كقوله تعالى «والله يعصمك من الناس» ووجه هذا القول أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الإنزال، والمنزل دل ذلك على المنزل عليه وهو محمد ﷺ فحسن صرف الكناية إليه لكونه أمراً معلوماً إلا أن القول الأول أصح، وأشهر، وهو قول الأكثرين لأنه أشبه بظاهر التنزيل ورد الكناية إلى أقرب مذكور أولى، وهو الذكر وإذا قلنا: إن الكناية عائدة إلى القرآن، وهو الأصح فاختلفوا في كيفية حفظ الله عز وجل للقرآن فقال بعضهم: حفظه بأن جعله معجزاً باقياً مبايناً لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه، والنقصان منه لأنهم لو أرادوا الزيادة فيه والنقصان منه لتغيير نظمه، وظهر ذلك لكل عالم عاقل وعلموا ضرورة أن ذلك ليس بقرآن، وقال آخرون: إن الله حفظه وصانه من المعارضة فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارضه. وقال آخرون: بل أعجز الله الخلق عن إبطاله وإفساده بوجه من الوجوه فقيض الله له العلماء الراسخين يحفظونه، ويذبون عنه إلى آخر الدهر لأن دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على إبطاله وإفساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله تعالى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين﴾ لما تجرأ كفار مكة على رسول الله ﷺ وخاطبوه بالسفاهة وهو قولهم: إنك لمجنون وأساؤوا الأدب عليه أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ أن عادة الكفار في قديم الزمان مع أنبيائهم، كذلك فلك يا محمد أسوة في الصبر على أذى قومك بجميع الأنبياء ففيه تسلية للنبي ﷺ، وفي الآية محذوف تقديره ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك يا محمد، فحذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه، وقوله تعالى في شيع الأولين: الشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم وقال الفراء: الشيعة هم الأتباع وشيعة الرجل أتباعه. وقيل: الشيعة من يتقوى بهم الإنسان. وقوله في شيع الأولين من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾ السلوك النفاذ في الطريق، والدخول فيه والسلك إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في المخيط، ومعنى الآية كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء في قلوب شيع الأولين، كذلك نسلكه أي ندخله في قلوب المجرمين يعني مشركي مكة، وفيه

﴿ وقالوا ﴾ يعني: مشركي مكة، ﴿ يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر ﴾، أي: القرآن وأرادوا به محمداً ﷺ، ﴿ إنك لمجنون ﴾، وذكروا تنزيل الذكر على سبيل الاستهزاء.

﴿ لوما ﴾، هلاّ ﴿ تأتينا بالملائكة ﴾، شاهدين لك بالصدق على ما تقول إن الله أرسلك، ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾، إنك نبي.

﴿ ما ننزّل الملائكة ﴾، قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر بنونين ﴿ الملائكة ﴾ نصب، وقرأ أبو بكر بالتاء وضمها وفتح الزاي الملائكة رفع وقرأ الباقون بالتاء وفتحها وفتح الزاي ﴿ الملائكة ﴾ رفع. ﴿ إلا بالحق ﴾ أي: بالعذاب ولو نزلت يعني الملائكة لعجلوا بالعذاب، ﴿ وما كانوا إذاً منظرين ﴾ أي: مؤخرين وقد كان الكفّار يطلبون إنزال الملائكة عياناً فأجابهم الله تعالى بهذا. ومعناه أنهم لو نزلوا عياناً لزال عن الكفّار الإمهال وعذبوا في الحال.

﴿ إنّا نحن نزّلنا الذكر ﴾، يعني القرآن، ﴿ وإنّا له لحافظون ﴾، أي: نحفظ القرآن من الشياطين أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه أو يبدلوا بغيره، قال الله تعالى: ﴿ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ﴾ [فصّلت: ٤٢] والباطل: هو إبليس لا يقدر أن يزيد فيه ما ليس منه ولا أن ينقص منه ما هو منه. وقيل: الهاء في ﴿ له ﴾ راجعة إلى محمد ﷺ أي: إنّا لمحمد لحافظون ممّن أراده بسوء كما قال جلّ ذكره: ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة: ٦٧].

رد على القدرية والمعتزلة وهي أبين آية في ثبوت القدر لمن أذعن للحق، ولم يعاند قال الواحدي قال أصحابنا: أضاف الله سبحانه وتعالى إلى نفسه إدخال الكفر في قلوب الكفار، وحسن ذلك منه فمن آمن بالقرآن فليستحسنه، وقال الإمام فخر الدين الرازي: احتجّ أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يخلق الباطل، والضلال في قلوب الكفار فقالوا قوله: كذلك نسلكه أي كذلك نسلك الباطل، والضلال في قلوب المجرمين وقالت المعتزلة لم يجر للضلال، والكفر ذكر فيما قيل هذا اللفظ فلا يمكن أن يكون الضمير عائد إليه، وأجيب عنه بأنه سبحانه وتعالى قال: ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون فالضمير في قوله كذلك نسلكه عائد إليه، والاستهزاء بالأنبياء كفر وضلال فثبت صحة قولنا: إن المراد من قوله كذلك نسلكه في قلوب المجرمين، أنه الكفر والضلال. قوله تعالى ﴿لا يؤمنون به﴾ بمحمد ﷺ وقيل بالقرآن ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ فيه وعيد وتهديد لكفار مكة، يخوفهم أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأمم الماضية المكذبة للرسل، والمعنى وقد مضت سنة الله بإهلاك من كذب الرسل من الأمم الماضية فاحذروا يا أهل مكة أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾ يعني ولو فتحنا على هؤلاء الذين قالوا: لو ما تأتينا بالملائكة باباً من السماء فظلوا. يقال: ظل فلان يفعل كذا إذا فعله بالنهار، كما يقل بات يفعل كذا إذا فعله بالليل فيه يعني في ذلك الباب يعرجون يعني يصعدون، والمعارج المصاعد وفي المشار إليه بقوله: فظلوا به يعرجون قولان: أحدهما أنهم الملائكة وهو قول ابن عباس والضحاك، والمعنى: لو كشف عن أبصار هؤلاء الكفار فرأوا باباً من السماء مفتوحاً والملائكة تصعد فيه لما آمنوا. والقول الثاني: أنهم المشركون وهو قول الحسن وقتادة والمعنى: فظل المشركون يصعدون في ذلك الباب فينظرون في ملكوت السموات، وما فيها من الملائكة لما آمنوا لعنادهم وكفرهم، ولقالوا إنا سحرنا وهو قوله تعالى: ﴿لقالوا إنما سكرت أبصارنا﴾ قال ابن عباس: سدت أبصارنا مأخوذ من سكر النهر إذا حبس، ومنع من الجري وقيل: هو من سكر الشراب والمعنى أن أبصارهم حارت، ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع للرجل السكران من تغيير العقل، وفساد النظر وقيل سكرت يعني غشيت أبصارنا وسكنت عن النظر، وأصله من السكور يقال سكرت عينه إذا تحيرت، وسكنت عن النظر ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾ يعني سحرنا محمد، وعمل فينا سحره. وحاصل الآية أن الكفار لما طلبوا من رسول الله ﷺ،

قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك ﴾، أي: رسلاً، ﴿ في شيع الأولين ﴾، أي: في الأمم والقرون الماضية والشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم على رأي واحد.

﴿ وما يأتيهم من رسول إلّا كانوا به يستهزؤون ﴾، كما فعلوا بك ذكره تسلية للنبي ﷺ.

﴿ كذلك نسلكه ﴾، أي: كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل في قلوب شيع الأوّلين كذلك نسلكه ندخله، ﴿ في قلوب المجرمين ﴾، يعني مشركي مكة قومك، وفيه ردٌّ على القدرية.

﴿ لا يؤمنون به ﴾، يعني: لا يؤمنون بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿ وقد خلت ﴾، مضت، ﴿ سنة الأولين ﴾، أي: وقائع الله تعالى الإهلاك فيمن كذب الرسل من الأمم الخالية يخوف أهل مكة.

﴿ ولو فتحنا عليهم ﴾، يعني: على الذين يقولون لو ما تأتينا بالملائكة، ﴿ باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ﴾، فظلّت الملائكة يعرجون فيه وهم يرونه عياناً، هذا قول الأكثرين. وقال الحسن: معناه فظل هؤلاء الكفّار يعرجون فيه أي: يصعدون. والأول أصح.

﴿ لقالوا إنما سكرت ﴾، سُدّت، ﴿ أبصارنا ﴾، قاله ابن عباس. وقال الحسن: سحرت وقال قتادة أخذت، وقال الكلبي: عميت. وقرأ ابن كثير ﴿ سكرت ﴾ بالتخفيف، أي: حُبست ومُنعت النظر كما يسكر النهر لحبس

أن ينزل عليهم الملائكة فيروهم عياناً، ويشهدوا بصدقه أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لو حصل لهم هذا وشاهدوه عياناً لما أمنوا ولقالوا سحرنا لما سبق لهم في الأزل من الشقاوة. قوله سبحانه وتعالى ﴿ولقد جعلنا من السماء بروجاً﴾ يعني البروج التي تنزلها الشمس في مسيرها واحدها برج، وهي بروج الفلك الاثنا عشر برجاً وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت. وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلاً لكل برج منزلان وثلث منزل، وقد تقدم ذكر منازل القمر في تفسير سورة يونس، وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة، وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوماً، قال ابن عباس في هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر، يعني منازلهما وقال ابن عطية: هي قصور في السماء عليها الحرس. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: هي النجوم العظام. قال أبو إسحاق يريدون نجوم هذه البروج، وهي نجوم على ما صورت به. وسميت وأصل هذا كله من الظهور ﴿وزيناها﴾ يعني السماء بالشمس والقمر والنجوم ﴿للناظرين﴾ يعني المعتبرين المستدلين بها على وحيد خالقها، وصانعها وهو الله الذي أوجد كل شيء وخلقه وصوره ﴿وحفظناها﴾ يعني السماء ﴿من كل شيطان رجيم﴾ أي مرجوم فعيل بمعنى مفعول، وقيل: ملعون مطرود من رحمة الله. قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها إلى الكهنة فيلقونها إليهم، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد ﷺ، منعوا من السموات أجمع فما منهم من أحد يريد أن يسترق السمع إلا رمي بشهاب فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس فقال: لقد حدث في الأرض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو القرآن فقالوا: هذا والله حدث.

إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾

﴿إلا من استرق السمع﴾ هذا استثناء منقطع، معناه لكن من استرق السمع ﴿فأتبعه﴾ أي لحقه ﴿شهاب مبين﴾

الماء، ﴿ بل نحن قوم مسحورون ﴾، أي: عمل فينا السحر فسحرنا محمد.

قوله تعالى: ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾، والبروج هي النجوم الكبار مأخوذة من الظهور، يقال: تبرجت المرأة أي: ظهرت، وأراد بها المنازل التي تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيّارة، وهي اثنا عشر برجاً الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت. وقال ابن عطية: هي قصور في السماء عليها الحرس، ﴿ وزيّناها ﴾، أي: السماء بالشمس والقمر والنجوم. ﴿ للناظرين ﴾.

﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾، مرجوم. وقيل: ملعون قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يحجبون عن السمٰوات وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها فيلقون على الكهنة ما سمعوا فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سمٰوات فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السمٰوات أجمع فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمي بشهاب فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس، فقال: لقد حدث في الأرض حادث، قال: فبعثهم فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو القرآن فقالوا هذا والله حدث.

﴿ إلا مَن استرق السمع ﴾، لكن مَن استرق السمع، ﴿ فأتْبعه شهابٌ مبين ﴾، والشهاب الشعلة من النار

والشهاب شعلة من نار ساطع سمي الكوكب شهاباً لأجل ما فيه من البريق شبه بشهاب النار، قال ابن عباس في قوله إلا من استرق السمع: يريد الخطفة اليسيرة، وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب، فلا تخطىء أبداً فمنهم من تقتله، ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده، أو حيث يشاء الله ومنهم من تخبله فيصير غولاً يضل الناس في البوادي (خ) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض، ووصف سفيان بكفه فحذفها، وبدد أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب، قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة، فيقال له: أليس قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء».

اختلف العلماء هل كانت الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله ﷺ أم لا على قولين: أحدهما أنها لم تكن ترمى بالنجوم، قبل مبعث رسول الله ﷺ، وإنما ظهر ذلك في بدء أمره فكان ذلك أساساً لنبوته ﷺ ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين، وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب. أخرجاه في الصحيحين. فظاهر هذا الحديث يدل على أن هذا الرمي بالشهب لم يكن قبل مبعثه ﷺ فلما بعث حدث هذا الرمي. ويعضده ما روي أن يعقوب بن المغيرة بن الأخنس بن شريق قال: أول من فزع للرمي بالنجوم هذا الحي من ثقيف، وأنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له: عمرو بن أمية أحد بني علاج وكان أهدى العرب فقالوا له: ألم تر ما حدث في السماء من القذف بالنجوم؟ فقال: بلى. ولكن انظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء، لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهو والله طي الدنيا وهلاك الخلق الذين فيها وإن كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا الأمر أراده الله من الخلق قال الزجاج: ويدل على أنها كانت بعد مولد النبي ﷺ أن شعراء العرب الذين ذكروا البرق، والأشياء المسرعة لم يوجد في شعرهم ذكر الكواكب المنقضة فما حدثت بعد مولده ﷺ، استعملت الشعراء ذكرها قال ذو الرمة:

كأنه كوكب في أثر عفرية ... مسوم في سواد الليل منقضب

وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء الدنيا، ويسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا تخطىء أبداً فمنهم مَن تقتله ومنهم مَن تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله، ومنهم مَن تخبله فيصير غولاً يضلّ الناس في البوادي. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عمر وقال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبيّ الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض»، ووصف سفيان بكفّه فحدقها وبدّد بين أصابعه فيسمع أحدهم الكلمة فيلقيها إلى مَن تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَن تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أنْ يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا محمد ابن أبي مريم ثنا الليث ثنا ابن جعفر عن محمد بن عبد الرحمن عن

والقول الثاني: إن ذلك كان موجوداً قبل مبعث النبي ﷺ ولكن لما بعث شدد وغلظ عليهم. قال معمر: قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم. قلت: أفرأيت قوله وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فقال: غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ﷺ ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ابن عباس قال أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ إذ رمى بنجم واستنار فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا، قالوا كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم أو مات رجل عظيم فقال رسول الله ﷺ: فإنها لا يرمى بها لموت أحد، ولا لحياته ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلى أهل هذه السماء، ثم قال: الذين يلون حملة العرش لحملة العرش، ماذا قال ربكم فيخبرونهم بما قال، فيستخبر بعض أهل السماء بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع فيقذفونه إلى أوليائهم، ويرمون فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقذفون فيه ويزيدون» أخرجه مسلم وقال ابن قتيبة: أن الرجم كان قبل مبعثه، ولكن لم يكن في شدة الحراسة مثل بعد مبعثه، قال وعلى هذا وجدنا الشعر القديم قال بشر بن أبي حازم وهو جاهلي:

فـالعيـر يـرهقهـا الغبـار وجحشهـا ... ينقـض خلفهمـا انقضـاض الكـوكـب

وقال أوس بن حجر وهو جاهلي:

فـانقـض كـالـدر يتبعـه ... نقـع يثـور تخـالـه طنبـا

والجمع بين هذين القولين: أن الرمي بالنجوم كان موجوداً قبل مبعث النبي ﷺ، فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء وحراستها صوناً لأخبار الغيوب والله أعلم. قوله سبحانه وتعالى: ﴿والأرض مددناها﴾ يعني بسطناها على وجه الماء كما يقال: إنها دحيت من تحت الكعبة ثم بسطت هذا قول أهل التفسير، وزعم أرباب الهيئة أنها كرة عظيمة بعضها في الماء، وبعضها خارج عن الماء، وهو الجزء المغمور منها واعتذروا عن قوله تعالى: والأرض مددناها بأن الكرة إذا كانت عظيمة كان كل جزء منها، كالسطح العظيم فثبت بهذا الأمر أن الأرض ممدودة مبسوطة

عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر الذي قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحي إلى الكهّان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم» واعلم أن هذا لم يكن ظاهراً قبل مبعث النبي ﷺ ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي ﷺ، وإنما ظهر في بدء أمره وكان ذلك أساساً لنبوّته وقال يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق: إن أول مَن فزع للرمي بالنجوم هذا الحي من ثقيف وإنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج وكان أهدى العرب فقالوا له: ألم ترَ ما حدث في السماء من القذف بالنجوم؟ قال: بلى فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يُهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهي والله طيّ الدنيا وهلاك الخلق الذي فيها، وإن كانت نجوماً غيرها وهي والله ثابتة على حالها فهذا الأمر أراده الله تعالى بهذا الخلق. قال معمر قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله تعالى: ﴿ وإنّا كنّا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ [الجن: ٩] الآية؟ قال: غلظ وشدّد أمرها حيث بعث محمد ﷺ، وقال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعثه ولكن لم يكن في شدة الحراسة فصار شدة الحراسة والاهتمام بالرجم بعد مبعثه. وقيل: إن النجم ينقض فيرمي الشياطين ثم يعود إلى مكانه والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ والأرض مددناها ﴾، بسطناها على وجه الماء، يقال: إنها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها

وأنها كرة، ورد هذا أصحاب التفسير بأن الله أخبر في كتابه بأنها ممدودة، وأنها مبسوطة ولو كانت كرة لأخبر بذلك والله أعلم بمراده، وكيف مد الأرض ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ يعني جبالاً ثوابت وذلك أن الله سبحانه وتعالى لما خلق الأرض على الماء مادت ورجفت فأثبتها بالجبال ﴿وأنبتنا فيها﴾ أي في الأرض، لأن أنواع النبات المنتفع به تكون في الأرض، وقيل: الضمير يرجع إلى الجبال لأنها أقرب مذكور لقوله تعالى ﴿من كل شيء موزون﴾ وإنما يوزن ما تولد في الجبال من المعادن، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: موزون أي معلوم، وقال مجاهد وعكرمة أي مقدور فعلى هذا يكون المعنى معلوم القدر عند الله تعالى لأن الله سبحانه وتعالى يعلم القدر الذي يحتاج إليه الناس في معايشهم وأرزاقهم فيكون إطلاق الوزن عليه مجازاً، لأن الناس لا يعرفون مقادير الأشياء إلا بالوزن، وقال الحسن وعكرمة وابن زيد: أنه عنى به الشيء الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد والكحل ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن، لأن هذه الأشياء كلها توزن وقيل: معنى موزون متناسب في الحسن والهيئة والشكل، تقول العرب فلان موزون الحركات إذا كانت حركاته متناسبة حسنة، وكلام موزون إذا كان متناسباً حسناً بعيداً من الخطأ والسخف وقيل إن جميع ما ينبت في الأرض والجبال نوعان: أحدهما ما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون. والثاني النبات وبعضه موزون أيضاً: وبعضه مكيل وهو يرجع إلى الوزن لأن الصاع والمدّ مقدران بالوزن ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ جمع معيشة. وهو ما يعيش به الإنسان مدة حياته في الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس ونحو ذلك ﴿ومن لستم له برازقين﴾ يعني الدواب والوحش والطير أنتم منتفعون بها، ولستم لها برازقين لأن رزق جميع الخلق على الله ومنه قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ وتكون من في قوله تعالى: ومن لستم بمعنى ما لأن من لمن يعقل وما لمن لا يعقل، وقيل: يجوز إطلاق لفظة من على من لا يعقل كقوله تعالى: ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ وقيل أراد بهم العبيد والخدم فتكون من على أصلها، ويدخل معهم ما لا يعقل من الدواب والوحش ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ الخزائن جمع خزانة هي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء للحفظ يقال: خزن الشيء إذا أحرزه. فقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل: أراد بالخزائن المطر لأنه سبب الأرزاق والمعايش لبني آدم والدواب والوحش والطير ومعنى عندنا أنه في حكمه وتصرفه وأمره وتدبيره قوله تعالى: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ يعني بقدر الكفاية. وقيل: إن لكل أرض حداً ومقداراً من المطر. يقال: لا تنزل من السماء قطرة مطر إلا ومعها ملك يسوقها إلى حيث يشاء الله

دحيت من تحت الكعبة. ﴿ وألقينا فيها رواسيَ ﴾، جبالاً ثوابت، وقد كانت الأرض تميد إلى أن أرساها الله بالجبال، ﴿ وأنبتنا فيها ﴾، أي: في الأرض، ﴿ من كل شيء موزونٍ ﴾، بقدر معلوم، وقيل: يعني في الجبال وهي جواهر من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها، حتى الزرنيخ والكحل كل ذلك يوزن وزناً. وقال ابن زيد: هي الأشياء التي تُوزَن وزناً.

﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾، جمع معيشة، قيل: أراد بها المطاعم والمشارب والملابس. وقيل: ما يعيش به الآدمي في الدنيا، ﴿ ومَن لستم له برازقين ﴾، أي: جعلنا فيها معايش مَن لستم له برازقين من الدواب والأنعام، أي: جعلنا لكم وكفيناكم رزقها و﴿ مَن ﴾ في الآية بمعنى ما، كقوله تعالى: ﴿ فمنهم مَن يمشي على بطنه ﴾ [النور: ٤٥]، وقيل: مَن في موضعها لأنه أراد المماليك مع الدواب. وقيل: مَن في محل الخفض عطفاً على الكاف والميم في لكم.

﴿ وإنْ من شيء ﴾، أي: وما من شيء، ﴿ إلا عندنا خزائنه ﴾، أي مفاتيح خزائنه. وقيل: أراد به المطر، ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ لكل أرض حدّ مقدّر، ويقال: لا تنزل من السماء قطرة إلا ومعها ملك يسوقها حيث يريد الله عزّ وجلّ ويشاء، وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال: في العرش مثال جميع ما خلق الله في البرّ

تعالى. وقيل: إن المطر ينزل من السماء كل عام بقدر واحد لا يزيد ولا ينقص ولكن الله يمطر قوماً، ويحرم آخرين وقيل: إذا أراد الله بقوم خيراً أنزل عليهم المطر والرحمة وإذا أراد بقوم شراً صرف المطر عنهم إلى حيث لا ينتفع به، كالبراري والقفار والرمال والبحار ونحو ذلك. وحكى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده أنه قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر. وهو تأويل قوله وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴿**وأرسلنا الرياح لواقح**﴾ قال ابن عباس يعني للشجر، وهو قول الحسن وقتادة وأصل هذا من قولهم: لقحت الناقة وألقحها الفحل إذا ألقى إليها الماء، فحملته فكذلك الرياح كالفحل للسحاب وقال ابن مسعود في تفسير هذه الآية: يرسل الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء فتمجه في السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة، وقال عبيد بن عمير: يرسل الله الريح المبشرة فتقم الأرض قماً، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب، ثم يرسل المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاماً، ثم يرسل اللواقح فتلقح الشجر والأظهر في هذه الآية إلقاحها السحاب لقوله بعده فأنزلنا من السماء ماء قال أبو بكر بن عياش: لا تقطر قطرة من السماء إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها فالصبا تهيج السحاب، والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه. وقال أبو عبيد: لواقح هنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة حذفت الميم وردت إلى الأصل. وقال الزجاج: يجوز أن يقال لها لواقح وإن ألقحت غيرها، لأن معناها النسبة كما يقال: درهم وازن أي ذو وزن واعترض الواحدي على هذا. فقال هذا ليس بمغن لأنه كان يجب أن يصح اللاقح بمعنى ذات لقح حتى يوافق قول المفسرين، وأجاب الرازي عنه بأن قال: هذا ليس بشيء. لأن اللاقح هو المنسوب إلى اللقحة، ومن أفاد غير اللقحة فله نسبة إلى اللقحة وقال صاحب المفردات لواقح أي ذات لقاح وقيل إن الريح في نفسها لاقح لأنها حاملة للسحاب والدليل عليه قوله تعالى ﴿**حتى إذا أقلت سحاباً**﴾ ثقالاً، أي حملت فعلى هذا تكون الريح لاقحة بمعنى حاملة تحمل السحاب. وقال الزجاج: ويجوز أن يقال للريح لقحت إذا أتت بالخير كما قيل لها عقيم إذا لم تأت بخير، وورد في بعض الأخبار أن الملقح الرياح الجنوب، وفي بعض الآثار ما هبت رياح الجنوب إلا واتبعت عيناً غدقة (ق) عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» وروى البغوي بسنده إلى الشافعي إلى ابن عباس قال: ما هبت ريح قط إلا جثا النبي ﷺ على ركبتيه، وقال: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً اللهم اجعلها رياحاً ولا

والبحر، وهو تأويل قوله تعالى: ﴿ **وإنْ من شيء إلا عندنا خزائنه** ﴾.

﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح** ﴾ أي: حوامل لأنها تحمل الماء إلى السحاب، وهو جمع لاقحة، يقال: ناقة لاقحة إذا حملت الولد. قال ابن مسعود: يرسل الله الريح فتحمل الماء فيمر به السحاب فيدرّ كما تدرّ اللقحة ثم تمطر. وقال أبو عبيدة: أراد باللواقح الملاقح واحدتها ملقحة، لأنها تلقح الأشجار. قال عبيد بن عمير: يبعث الله الريح المبشّرة فتقمّ الأرض قمّاً ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلّف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاماً، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر. وقال أبو بكر بن عياش: لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه، فالصبا تهيجه والشمال تجمعه والجنوب تذره والدبور تفرّقه، وفي الخبران: اللقح رياح الجنوب. وفي بعض الآثار: ما هبّت ريح الجنوب إلّا وبعث عيناً غدقة. وأما الريح العقيم فإنها تأتي بالعذاب ولا تلقح أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا مَن لا أتّهم بحديثه ثنا العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس قال: ما هبّت ريح قطّ إلّا جثا النبي ﷺ على ركبتيه، وقال: اللّهمّ اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً، اللّهمّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً. قال ابن عباس: في كتاب الله عزّ وجلّ ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ [فصّلت: ١٦] ﴿ إذْ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾

تجعلها ريحاً» قال ابن عباس في كتاب الله عز وجل ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ ﴿فأرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ وقال: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ وقال ﴿يرسل الرياح مبشرات﴾ وقوله سبحانه وتعالى ﴿فأنزلنا من السماء ماء﴾ يعني المطر ﴿فأسقيناكموه﴾ يعني جعلنا لكم المطر سقياً يقال أسقى فلان فلاناً إذا جعل له سقياً، وسقاه إذا أعطاه ما يشرب، وتقول العرب: سقيت الرجل ماء، ولبناً إذا كان لسقيه فإذا جعلوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته يقال: أسقيناه ﴿وما أنتم له﴾ يعني للمطر ﴿بخازنين﴾ يعني: إن المطر في خزائننا لا في خزائنكم. وقيل: وما أنتم له بمانعين.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٢٥ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾

﴿وإنا لنحن نحيي ونميت﴾ يعني بيدنا إحياء الخلق وإماتتهم لا يقدر على ذلك أحد إلا الله سبحانه وتعالى، لأن قوله تعالى: وإنا لنحن يفيد الحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا ﴿ونحن الوارثون﴾ وذلك بأن نميت جميع الخلق، فلا يبقى أحد سوانا فيزول ملك كل مالك ويبقى جميع ملك المالكين لنا والوارث هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه الذين أمتعهم بما آتاهم في الحياة الدنيا لأن وجود الخلق. وما آتاهم كان ابتداؤه منه تعالى فإذا فني جميع الخلائق رجع الذي كانوا يملكونه في الدنيا على المجاز إلى مالكه على الحقيقة، وهو الله تعالى. وقيل مصير الخلق إليه. قوله عز وجل ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ من أحسن الناس فكان بعض الناس يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها. ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله عز وجل ولقد علمنا المستقدمين منكم، ولقد علمنا المستأخرين أخرجه النسائي وأخرجه الترمذي وقال فيه وقد روي عن ابن الجوزي نحوه. ولم يذكر فيه عن ابن عباس وهذا أشبه أن يكون

[الذاريات: ٤١]. وقال: ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾. وقال: يرسل الرياح مبشّرات قرأ حمزة وحده «وأرسلنا الريح لواقح» على الوحدة والوجه أن الريح يراد بها الجنس والكثرة، ولهذا وصفت بالجمع في قوله: ﴿ لواقح ﴾، وقرأ الباقون ﴿ الرياح ﴾ بالألف على الجمع، ووجهه ظاهر وذلك أنها وصفت بقوله: ﴿ لواقح ﴾ وهي جماعة فينبغي أن يكون الموصوف أيضاً جماعة ليتوافقا. قوله: ﴿ فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ﴾، أي: جعلنا المطر لكم سقياً، يقال: أسقى فلان فلاناً إذا جعل له سقياً وسقاه إذا أعطاه ما يشرب. وتقول العرب: سقيت الرجل ماءً ولبناً إذا كان لسقيه، فإذا جعلوا له ماء لشرب أرضه ودوابه تقول العرب: أسقيته. ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾، يعني المطر في خزائننا لا في خزائنكم. وقال سفيان: بمانعين.

﴿ وإنّا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾، بأن نميت جميع الخلائق، فلا يبقى حيّ سوانا، والوارث من صفات الله عزّ وجلّ. قيل: الباقي بعد فناء الخلق. وقيل: معناه إن مصير الخلق إليه.

﴿ ولقد علمنا المستقدِمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾، قال ابن عباس: أراد بالمستقدِمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء. قال الشعبي: الأولين والآخرين: وقال عكرمة: المستقدمون من خلق الله والمستأخرون مَن

أصح قال البغوي وذلك أن النساء كن يخرجن إلى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صف الرجال، ومن النساء من في قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صف النساء لتقرب من الرجال فنزلت هذه الآية فعند ذلك قال النبي ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها. وشرها أولها» أخرجه مسلم عن أبي هريرة. وقال ابن عباس: أراد بالمستقدمين من خلق الله وبالمستأخرين من لم يخلق الله تعالى بعد. وقال مجاهد: المستقدمون القرون الأولى والمستأخرون أمة محمد ﷺ. وقال الحسن: المستقدمون يعني في الطاعة والخير والمستأخرون يعني فيهما. وقال الأوزاعي: أراد بالمستقدمين المصلين في أول الوقت وبالمستأخرين المؤخرين لها إلى آخره. وقال مقاتل: أراد بالمستقدمين وبالمستأخرين في صف القتال. وقال ابن عيينة: أراد من يسلم أولاً ومن يسلم آخراً. وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه أن النبي ﷺ حرض على الصف الأول فازدحموا عليه، وقال قوم كانت بيوتهم قاصة عن المسجد: لنبيعن دورنا ونشتري دوراً قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم. فنزلت هذه الآية، ومعناها إنما تجزون على النيات فاطمأنوا وسكنوا فيكون معنى الآية على القول الأول المستقدم للتقوى والمستأخر للنظر، وعلى القول الأخير المستقدم لطلب الفضيلة والمستأخر للعذر، ومعنى الآية أن علمه سبحانه وتعالى محيط بجميع خلقه مقدمهم ومتأخرهم طائعهم وعاصيهم، لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه ﴿وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم﴾ يعني على ما علم منهم، وقيل: إن الله سبحانه وتعالى يميت الكل ثم يحشرهم الأولين والآخرين على ما ماتوا عليه (م) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «يبعث كل عبد على ما مات عليه» قوله سبحانه وتعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ يعني آدم عليه السلام في قول جميع المفسرين سمي إنساناً لظهوره وإدراك البصر إياه، وقيل من النسيان لأنه عهد إليه فنسي من ﴿صلصال﴾ يعني من اليابس، إذا نقرته سمعت له صلصلة يعني صوتاً، وقال ابن عباس: هو الطين الحر الطيب الذي إذا نضب عنه الماء تشقق فإذا حرك تقعقع. وقال مجاهد: هو الطين المنتن. واختاره الكسائي وقال: هو من صل اللحم إذا أنتن ﴿من حمأ﴾ يعني من الطين الأسود ﴿مسنون﴾ أي متغير قال مجاهد وقتادة: هو المنتن المتغير. وقال أبو عبيدة: هو المصبوب. تقول العرب: سننت الماء إذا أصببنه قال ابن عباس: هو التراب المبتل المنتن جعل صلصالاً كالفخار، والجمع بين هذه الأقاويل على ما ذكره بعضهم أن

لم يخلق الله. قال مجاهد: المستقدمون القرون الأولى والمستأخرون أمة محمد ﷺ. وقال الحسن: المستقدمون في الطاعة والخير، والمستأخرون المبطئون عنها. وقيل: المستقدمون في الصفوف في الصلاة والمستأخرون فيها. وذلك أن النساء كنّ يخرجن إلى صلاة الجماعة فيقفن خلف الرجال، فربما كان من الرجال مَن في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صفوف الرجال ليقرب من النساء، ومن النساء مَن كانت في قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صفوف النساء لتقرب من الرجال. فنزلت هذه الآية. وقال النبي ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرّها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرّها أولها».

وقال الأوزاعي: أراد المصلّين في أول الوقت والمؤخرين إلى آخره. وقال مقاتل: أراد بالمستقدمين والمستأخرين في صف القتال وقال ابن عيينة: أراد مَن يسلم ومَن لا يسلم.

﴿ وإنّ ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾، على ما علم منهم. وقيل: يملك الكل ثم يحشرهم الأولين والآخرين. أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن أنا أبو سعيد الصيرفي ثنا أبو العباس الأصم ثنا أحمد بن عبد الجبار ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال النبي ﷺ: «مَن مات على شيء بعثه الله عليه».

قوله تعالى: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾، يعني: آدم عليه السلام سمّي إنساناً لظهوره وإدراك البصر إياه.

الله سبحانه وتعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام، قبض قبضة من تراب الأرض فبلها بالماء حتى اسودت وأنتن ريحها، وتغيرت وإليه الإشارة بقوله: **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾** ثم إن ذلك التراب بله بالماء وخمره حتى اسودت، وأنتن ريحه وتغير وإليه الإشارة بقوله: من حمأ مسنون ثم ذلك الطين الأسود المتغير صوره صورة إنسان أجوف، فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فتسمع له صلصلة يعني صوتاً، وإليه الإشارة بقوله من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس، إذا تفخّر في الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشراً سوياً قوله تعالى **﴿والجان خلقناه من قبل﴾** يعني من قبل آدم عليه السلام. قال ابن عباس: الجان أبو الجن كما أن آدم أبو البشر. وقال قتادة: هو إبليس. وقيل: الجان أبو الجن وإبليس أبو الشياطين، وفي الجن مسلمون وكافرون يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم. وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون إلا إذا مات إبليس. وقال وهب: إن من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون، ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين والأصح أن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار، سموا جناً لتواريهم واستتارهم عن الأعين من قولهم: جن الليل إذا ستر والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر، والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر **﴿من نار السموم﴾** يعني من ريح حارة تدخل مسام الإنسان من لطفها، وقوة حرارتها فتقتله. ويقال للريح الحارة التي تكون بالنهار: السموم. وللريح الحارة التي تكون بالليل: الحرور، وقال أبو صالح: السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها، وهي نار بين السماء والحجاب، فإذا حدث أمر خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت به فالهدة التي تسمعون من خرق ذلك الحجاب وهذا على قول أصحاب الهيئة أن الكرة الرابعة تسمى كرة النار، وقيل: من نار السموم يعني من نار جهنم. وقال ابن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزء من السموم التي خلق منها الجان، وتلا هذه الآية. وقال ابن عباس: كان إبليس من حي من الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم، وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وخلقت الملائكة من النور. قوله عز وجل **﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾** أي واذكر يا محمد: إذ قال ربك للملائكة **﴿إني خالق بشراً﴾** سمي الآدمي بشراً، لأنه جسم كثيف ظاهر البشرة ظاهر الجلد **﴿من صلصال من حمأ مسنون﴾** تقدم تفسيره **﴿فإذا سويته﴾** يعني عدلت صورته، وأتممت خلقه **﴿ونفخت له من روحي﴾** النفخ عبارة

وقيل: من النسيان لأنه عهد إليه فنسي. **﴿ من صلصال ﴾**، وهو الطين اليابس الذي إذا نقرته سمعت له صلصلةً، أي: صوتاً. قال ابن عباس: هو الطين الحرّ الطيب الذي إذا نضب عنه الماء تشقّق فإذا حرّك تقعقع. وقال مجاهد: هو الطين المنتن. واختاره الكسائي، وقال: هو من صل اللحم، إذا أنتن، **﴿ من حمإٍ ﴾**، والحمأ: الطين المنتن الأسود، **﴿ مسنون ﴾** أي: متغير. قال مجاهد وقتادة: هو المنتن المتغيّر. وقال أبو عبيدة: هو المصبوب. تقول العرب: سننت الماء أي صببته. قال ابن عباس: هو التراب المبتلّ المنتن جعل صلصالاً كالفخار. وفي بعض الآثار: إن الله عزّ وجلّ خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغيراً أسود، ثم خلق منه آدم عليه السلام.

﴿ والجانّ خلقناه من قبلُ ﴾، قال ابن عباس: هو أبو الجن كما أن آدم أبو البشر. وقال قتادة: هو إبليس خلق قبل آدم. ويقال: الجان أبو الجن وإبليس أبو الشيطان، وفي الجن مسلمون وكافرون، ويحيون ويموتون، وأما الشياطين فليس منهم مسلمون ويموتون إذا مات إبليس. وذكر وهب: إن من الجن مَن يولد لهم ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين، ومن الجن مَن هم بمنزلة الريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون. **﴿ من نار السَّمُوم ﴾**، والسموم ريح حارّة تدخل مسام الإنسان فتقتله. يقال: السموم بالنهار والحرور بالليل. وعن الكلبي عن أبي صالح: السموم نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها وهي نار بين السماء وبين الحجاب، فإذا أراد الله أن يحدث أمراً خرقت الحجاب فهو إلى ما أمرت به فالهدة التي تسمعون في خرق ذلك الحجاب. وقيل: نار

عن إجراء الريح في تجاويف جسم آخر، ومنه نفخ الروح في النشأة الأولى، وهو المراد من قوله: ونفخت فيه من روحي وأضاف الله عز وجل روح آدم إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم لها كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وسيأتي الكلام على الروح في تفسير سورة الإسراء عند قوله: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ إن شاء الله تعالى ﴿**فقعوا له ساجدين**﴾ الخطاب للملائكة، الذين قال الله لهم: إني خالق بشراً أمرهم بالسجود لآدم بقوله فقعوا له ساجدين. وكان هذا السجود تحية لا سجود عبادة ﴿**فسجد الملائكة كلهم**﴾ يعني الذين أمروا بالسجود لآدم ﴿**أجمعون**﴾ قال سيبويه: هذا توكيد بعد توكيد، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال: لو قال فسجد الملائكة لاحتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم لزم إزالة ذلك الاحتمال فظهر بهذا أنهم سجدوا بأسرهم ثم عند هذا بقي احتمال آخر، وهو أنهم سجدوا في أوقات متفرقة، أو في دعة واحدة فلما قال: أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة، ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال: قول الخليل وسيبويه أجود لأن أجمعين معرفة فلا تكون حالاً. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله سبحانه وتعالى أمر جماعة من الملائكة، بالسجود لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم قال لجماعة أخرى: اسجدوا لآدم فسجدوا.

إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾

﴿**إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين**﴾ يعني مع الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم فسجدوا ﴿**قال**﴾ يعني

السموم لهب النار. وقيل: من نار السموم أي: من نار جهنم. وعن الضحاك عن ابن عباس قال: كان إبليس من حيٍّ من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السَّموم وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، فأما الملائكة فإنهم خلقوا من النور.

قوله تعالى: ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً** ﴾، أي: سأخلق بشراً، ﴿ **من صلصال من حمإٍ مسنون** ﴾.

﴿ **فإذا سوّيته** ﴾، وعدلت صورته، وأتممت خلقه، ﴿ **ونفخت فيه من روحي** ﴾، فصار بشراً حيّاً والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان وأضافه إلى نفسه تشريفاً، ﴿ **فقعوا له ساجدين** ﴾، سجود تحية لا سجود عبادة.

﴿ **فسجد الملائكة** ﴾، الذين أُمروا بالسجود، ﴿ **كلهم أجمعون** ﴾، فإن قيل: لِمَ قال: ﴿ **كلهم أجمعون** ﴾ وقد حصل المقصود بقوله فسجد الملائكة؟ قلنا: زعم الخليل وسيبويه أنه ذكر ذلك تأكيداً وذكر المبرد أن قوله: ﴿ **فسجد الملائكة** ﴾ كان من المحتمل أنه سجد بعضهم فذكر كلهم ليزول هذا الإشكال، ثم كان يحتمل أنهم سجدوا في أوقات مختلفة فزال ذلك الإشكال بقوله: ﴿ **أجمعون** ﴾. وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: إن الله عزّ وجلّ قال لجماعة من الملائكة: اسجدوا لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقهم، ثم قال لجماعة أخرى: اسجدوا لآدم فسجدوا.

﴿ **إلاّ إبليس أبى أن يكون مع الساجدين** ﴾.

قال الله ﴿يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين قال﴾ يعني إبليس ﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ أراد إبليس أنه أفضل من آدم لأن آدم طيني الأصل وإبليس ناري الأصل. والنار أفضل من الطين فيكون إبليس في قياسه أفضل من آدم، ولم يدرِ الخبيث أن الفضل فيما فضله الله تعالى ﴿قال فاخرج منها﴾ يعني من الجنة وقيل من السماء ﴿فإنك رجيم﴾ أي طريد ﴿وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾ قيل: إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض، فهو ملعون في السموات والأرض فإن قلت: إن حرف إلى لانتهاء الغاية فهل ينقطع اللعن عنه يوم الدين الذي هو يوم القيامة؟ قلت: لا بل يزداد عذاباً إلى اللعنة التي عليه كأنه قال تعالى، وإن عليك اللعنة فقط إلى يوم الدين. ثم تزداد معها بعد ذلك عذاباً دائماً مستمراً لا انقطاع له ﴿قال رب فأنظرني﴾ يعني أخّرني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ يعني يوم القيامة وأراد بهذا السؤال أنه لا يموت أبداً لأنه إذا أمهل إلى يوم القيامة، ويوم القيامة لا يموت فيه أحد لزم من ذلك أنه لا يموت أبداً، فلهذا السبب سأل الإنظار إلى يوم يبعثون، فأجابه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ يعني الوقت الذي يموت فيه جميع الخلائق وهو النفخة الأولى فيقال: إن مدة موت إبليس أربعون سنة، وهو ما بين النفختين، ولم تكن إجابة الله تعالى إياه في الإمهال إكراماً له بل كان ذلك الإمهال زيادة له في بلائه وشقائه وعذابه. وإنما سمي يوم القيامة بيوم الوقت المعلوم، لأن ذلك اليوم لا يعلمه أحد إلا الله تعالى فهو معلوم عنده وقيل: إن جميع الخلائق يموتون فيه فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل لما سأل إبليس الإنظار إلى يوم يبعثون، أجابه الله بقوله: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم يعني اليوم الذي عينت وسألت الإنظار إليه ﴿قال رب بما أغويتني﴾ الباء للقسم في قوله بما وما ومصدرية، وجواب القسم ﴿لأزينن﴾ والمعنى فبإغوائك إياي لأزينن لهم في الأرض، وقيل هي باء السبب. يعني بسبب كوني غاوياً لأزينن ﴿لهم في الأرض﴾ يعني لأزينن لهم حب الدنيا ومعاصيك ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ يعني بإلقاء الوسوسة في قلوبهم، وذلك أن إبليس لما علم أنه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على إضلال الخلق بالكفر، وإغوائهم ثم استثنى فقال ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ يعني المؤمنين الذين أخلصوا لك التوحيد والطاعة والعبادة، ومن فتح اللام من المخلصين يكون المعنى إلا من أخلصته واصطفيته لتوحيدك وعبادتك. وإنما استثنى إبليس المخلصين، لأنه علم أن كيده ووسوسته لا تعمل

﴿ قال يا إبليس ما لكَ ألاّ تكون مع الساجدين ﴾.

﴿ قال لم أكن لأسجدَ لبشرٍ خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾، أراد إني أفضل منه لأنه طيني وأنا ناري والنار تأكل الطين.

﴿ قال فاخرجْ منها ﴾ أي: من الجنة ﴿ فإنّك رجيم ﴾، طريد.

﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾، قيل: إن أهل السمٰوات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض فهو ملعون في السماء والأرض.

﴿ قال ربِّ فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾، أراد الخبيث أن لا يموت.

﴿ قال فإنك من المنظرين ﴾.

﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾، أي: الوقت الذي يموت فيه الخلائق وهو النفخة الأولى. ويقال: إن مدة موت إبليس أربعون سنة وهي ما بين النفختين، ويقال: إنه لم تكن إجابة الله تعالى إياه في الإمهال إكراماً له بل كانت زيادة في بلائه وشقائه.

﴿ قال ربِّ بما أغويتني ﴾، أضللتني. وقيل: خيبتني من رحمتك، ﴿ لأزيننّ لهم في الأرض ﴾، حب الدنيا

فيهم، ولا يقبلون منه وحقيقة الإخلاص فعل الشيء خالصاً لله عن شائبة الغير فكل من أتى بعمل من أعمال الطاعات فلا يخلو، إما أن مراده بتلك الطاعات وجه الله فقط، أو غير الله أو مجموع الأمرين. أما ما كان لله تعالى فهو الخالص المقبول، وأما ما كان لغير الله فهو الباطل المردود، وأما من كان مراده مجموع الأمرين فإن ترجح جانب الله تعالى كان من المخلصين الناجحين، وإن ترجح الجانب الآخر كان من الهالكين لأن المثل يقابله المثل فيبقى القدر الزائد، وإلى أي الجانبين رجح أخذ به ﴿قال﴾ يعني قال الله تبارك وتعالى ﴿هذا صراط علي مستقيم﴾ قال الحسن معناه هذا صراط إلي مستقيم. وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج إلى شيء. وقال الأخفش: معناه على الدلالة على الصراط المستقيم. وقال الكسائي: هذا على طريق التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه: طريقك علي، أي لا تنفلت مني. وقيل: معناه علي استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية. وقيل: هذا عائد إلى الإخلاص والمعنى أن الإخلاص طريق علي وإلي يؤدي إلى كرامتي ورضواني.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي قوة وقدرة وذلك أن إبليس لما قال: لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين، أوهم بهذا الكلام أن له سلطاناً على غير المخلصين فبين الله سبحانه وتعالى، أنه ليس له سلطان على أحد من عبيده سواء كان من المخلصين، أو لم يكن من المخلصين. قال أهل المعاني: ليس لك عليهم سلطان على قلوبهم، وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال: معناه ليس لك عليهم سلطان أن تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي، وهؤلاء خاصته أي الذين هداهم، واجتباهم من عباده ﴿إلا من اتبعك من الغاوين﴾ يعني إلا من اتبع إبليس من الغاوين، فإن له عليهم سلطاناً بسبب كونهم منقادين له فيما يأمرهم به ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ يعني موعد إبليس وأتباعه وأشياعه ﴿لها﴾ يعني لجهنم ﴿سبعة أبواب﴾ يعني سبع طبقات. قال علي بن أبي طالب: تدرون كيف أبواب جهنم هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى أي سبعة أبواب بعضها فوق بعض. قال ابن

ومعاصيك، ﴿ ولأغوينّهم ﴾، أي: لأضلنّهم، ﴿ أجمعين ﴾.

﴿ إلاّ عبادك منهم المخلصين ﴾، المؤمنين الذين أخلصوا لك بالطاعة والتوحيد، ومَن فتح اللام أي من أخلصته بتوحيدك فهديته واصطفيته.

﴿ قال ﴾، الله تعالى، ﴿ هذا صراط عليَّ مستقيم ﴾، قال الحسن: معناه صراط مستقيم. قال مجاهد: الحق يرجع إلى الله تعالى وعليه طريقه ولا يعوج عليه شيء. وقالَ الأخفش: يعني على الدلالة على الصراط المستقيم. قال الكسائي: هذا على التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمَن يخاصمه طريقك، أي: لا تفلت مني، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر: ١٤]. وقيل: معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية، وقرأ ابن سيرين وقتادة ويعقوب علي من العلو أي: رفيع وعبّر بعضهم عنه رفيع أن ينال مستقيم أن يمال.

﴿ إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾، أي: قوة. قال أهل المعَاني: يعني على قلوبهم. وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال: معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي، وهؤلاء ثنية الله الذين هداهم واجتباهم. ﴿ إلاّ مَن اتبّعك من الغاوين ﴾.

﴿ وإنّ جهنّم لموعدهم أجمعين ﴾، يعني موعد إبليس ومَن تبعه.

﴿ لها سبعة أبواب ﴾، أطباق. قال علي كرّم الله وجهه: تدرون كيف أبواب النار هكذا ووضع إحدى يديه

جريج: النار سبع دركات أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية ﴿**لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾ يعني لكل دركة قوم يسكنونها والجزء بعض الشيء، وجزأته جعلته أجزاء، والمعنى أن الله سبحانه وتعالى يجزىء أتباع إبليس سبعة أجزاء فيدخل كل قسم منهم في النار دركة من النار والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم في النار. قال الضحاك: في الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون فيها بقدر ذنوبهم ثم يخرجون منها، وفي الثانية النصارى، وفي الثالثة اليهود، وفي الرابعة الصابئون، وفي الخامسة المجوس، وفي السادسة أهل الشرك، وفي السابعة المنافقون فذلك، قوله سبحانه وتعالى «**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**» عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال «لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي أو قال على أمة محمد ﷺ» أخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب قوله سبحانه وتعالى ﴿**إن المتقين في جنات وعيون**﴾ المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك في قول جمهور المفسرين وقيل: هم الذين اتقوا الشرك والمعاصي والجنات والبساتين والعيون والأنهار الجارية في الجنات، وقيل: يحتمل أن تكون هذه العيون غير الأنهار الكبار التي في الجنة، وعلى هذا فهل يختص كل واحد من أهل الجنة بعيون أو تجري هذه العيون من بعضهم إلى بعض؟ وكلا الأمرين محتمل فيحتمل أن كل واحد من أهل الجنة يختص بعيون تجري في جناته، وقصوره ودوره فينتفع بها هو ومن يختص به من حوره وولدانه، ويحتمل أنها تجري من جنات بعضهم إلى جنات بعض لأنهم قد طهروا من الحسد والحقد.

ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿**ادخلوها**﴾ أي يقال لهم: ادخلوها والقائل هو الله تعالى أو بعض ملائكته ﴿**بسلام آمنين**﴾ يعني ادخلوا الجنة

على الأخرى، أي: سبعة أبواب بعضها فوق بعض وإن الله وضع الجنان على العرش ووضع النيران بعضها فوق بعض. قال ابن جريج: النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية.

﴿ **لكل باب منهم جزءٌ مقسوم** ﴾، أي: لكلٍّ دركة قوم يسكنونها. وقال الضحاك: في الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون، وفي الثانية النصارى، وفي الثالثة اليهود، وفي الرابعة الصابئون، وفي الخامسة المجوس، وفي السادسة أهل الشرك، وفي السابعة المنافقون، فذلك قوله تعالى: ﴿ إنَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ [النساء: ١٤٥] ورُوِيَ عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «إن لجهنّم سبعة أبواب باب منها لمَن سلّ السيف على أمتي أو قال على أمة محمد».

قوله تعالى: ﴿ إنّ المتقين في جنات وعيون ﴾، أي: في بساتين وأنهار.

﴿ ادخلوها ﴾ أي: يقال لهم ادخلوا الجنة، ﴿ بسلام ﴾، أي: بسلامة ﴿ آمنين ﴾، من الموت والخروج والآفات.

مع السلامة والأمن من الموت ومن جميع الآفات ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ الغل الحقد الكامن في القلب. ويطلق على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد، وكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل لأنها كامنة في القلب يروى أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم إلى الجنة، وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد ﴿إخواناً﴾ يعني في المحبة والمودة والمخالطة، وليس المراد منه إخوة النسب ﴿على سرر﴾ جمع سرير. قال بعض أهل المعاني: السرير مجلس رفيع عال مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لأنه مجلس سرور. وقال ابن عباس: على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل صنعاء إلى الجابية ﴿متقابلين﴾ يعني يقابل بعضهم بعضاً لا ينظر أحد منهم في قفا صاحبه، وفي بعض الأخبار أن المؤمن في الجنة إذا أراد أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان ﴿لا يمسهم فيها﴾ يعني في الجنة ﴿نصب﴾ أي تعب ولا إعياء ﴿وما هم منها﴾ يعني من الجنة ﴿بمخرجين﴾ هذا نص من الله في كتابه على خلود أهل الجنة في الجنة، والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء، وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان. قوله سبحانه وتعالى ﴿نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ قال ابن عباس: يعني لمن تاب منهم وروي أن النبي ﷺ خرج على أصحابه وهم يضحكون فقال: «أتضحكون وبين أيديكم النار فنزل جبريل بهذه الآية وقال: يقول لك ربك يا محمد مم تقنط عبادي» ذكره البغوي بغير سند ﴿وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ قال قتادة بلغنا أن النبي ﷺ قال «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم العبد قدر عذابه لبخع نفسه» يعني لقتل نفسه (خ) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله سبحانه وتعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأدخل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل

﴿ ونزعنا ﴾، أخرجنا، ﴿ ما في صدورهم من غل ﴾، هو الشحناء والعداوة والحقد والحسد، ﴿ إخواناً ﴾، نصب على الحال، ﴿ على سرر ﴾ جمع سرير ﴿ متقابلين ﴾، يقابل بعضهم بعضاً لا ينظر أحد منهم إلى قفا صاحبه. وفي بعض الأخبار: إن المؤمن في الجنة إذا وَدّ أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان.

﴿ لا يَمسُّهم ﴾، لا يصيبهم، ﴿ فيها نَصَبٌ ﴾، أي: تعب، ﴿وما هم منها بمخرجين﴾، هذه أنصّ آية في القرآن على الخلود.

قوله تعالى: ﴿ نبّيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾، قال ابن عباس: يعني لمَن تاب منهم. ورُوِيَ أن النبي ﷺ خرج يوماً على نفر من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «أتضحكون وبين أيديكم النار»، فنزل جبريل بهذه الآية وقال: «يقول لك ربك يا محمد لِمَ تقنط عبادي من رحمتي».

﴿ وأنّ عذابي هو العذاب الأليم ﴾ قال قتادة: بلغنا أن نبيّ الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورّع عن حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه». أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا قتيبة بن سعيد ثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد بن أبي سعيد بن أبي المقبري عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار».

قوله تعالى: ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ أي: عن الضيافة، والضيف اسم يقع على الواحد والاثنين

الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار» وفي الآية لطائف منها أنه سبحانه وتعالى أضاف العباد إلى نفسه بقوله نبىء عبادي وهذا تشريف وتعظيم لهم، ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمداً ﷺ ليلة المعراج لم يزد على قوله «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً» فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل في هذا التشريف العظيم، ومنها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة أولها قوله: أني وثانيها أنا وثالثها إدخال الألف واللام في الغفور الرحيم، وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة. ولما ذكر العذاب لم يقل إني أنا المعذب، وما وصف نفسه بذلك. بل قال: وأن عذابي هو العذاب الأليم على سبيل الإخبار، ومنها أنه سبحانه وتعالى أمر رسوله ﷺ أن يبلغ عباده هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة. قوله سبحانه وتعالى: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾ هذا معطوف على ما قبله أي وأخبر يا محمد عبادي عن ضيف إبراهيم. وأصل الضيف الميل يقال ضفت إلى كذا إذا ملت إليه والضيف من مال إليك نزولاً بك وصارت الضيافة متعارفة في القرى وأصل الضيف مصدر، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع في عامة كلامهم، وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان وضيف إبراهيم هم الملائكة الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى، ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط ﴿إذ دخلوا عليه﴾ يعني إذ دخل الأضياف على إبراهيم عليه السلام ﴿فقالوا سلاماً﴾ أي نسلم سلاماً ﴿قال﴾ يعني إبراهيم ﴿إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون وإنما خاف إبراهيم منهم لأنهم لم يأكلوا طعامه ﴿قالوا لا توجل﴾ يعني لا تخف ﴿إنا نبشرك بغلام عليم﴾ يعني أنهم بشروه بولد ذكر غلام في صغره عليم في كبره، وقيل عليم بالأحكام والشرائع والمراد به إسحاق عليه السلام فلما بشروه بالولد عجب إبراهيم من كبره وكبر امرأته ﴿قال أبشرتموني﴾ يعني بالولد ﴿على أن مسني الكبر﴾ يعني على حالة الكبر، قاله على طريق التعجب ﴿فبم تبشرون﴾ يعني فبأي شيء تبشرون، وهو استفهام بمعنى التعجب كأنه عجب من حصول الولد على الكبر ﴿قالوا بشرناك بالحق﴾ يعني بالصدق الذي قضاه الله بأن يخرج منك ولداً ذكراً، تكثر ذريته وهو إسحاق ﴿فلا تكن من القانطين﴾ يعني فلا تكن من الآيسين من الخير. والقنوط: هو الإياس من الخير ﴿قال﴾ يعني إبراهيم ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ يعني من ييأس من رحمة ربه إلا المكذبون، وفيه دليل على أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من القانطين، ولكنه استبعد حصول الولد على الكبر فظنت

والجمع والمذكر والمؤنث، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ليبشّروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط.

﴿ إذْ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال ﴾، إبراهيم، ﴿ إنّا منكم وجلون ﴾، خائفون لأنهم لم يأكلوا طعامه.

﴿ قالوا لا تَوْجَلْ ﴾ لا تخف، ﴿ إنّا نبشّرك ﴾، قرأ حمزة وحده ﴿ نَبْشرك ﴾ بفتح النون وإسكان الباء وضم الشين وتخفيفها وقرأ الباقون «نبشـرك» بضم النون وفتح الباء وكسر الشين وتشديدها، ﴿ بغلام عليم ﴾، أي: غلام في صغره عليم في كبره يعني إسحاق، فتعجب إبراهيم عليه السلام من كبره وكبر امرأته.

﴿ قال أبشرتموني ﴾ أي: بالوَلد ﴿ على أن مسّني الكبر ﴾، أي: على حال الكبر قاله على طريق التعجب، ﴿ فبِمَ تبشرون ﴾، فبأي شيء تبشرون، قرأ نافع بكسر النون وتخفيفها أي: تبشّرون، وقرأ ابن كثير بكسرها وبتشديد النون أي تبشّرونني أدغمت نون الجمع في نون الإضافة، وقرأ الآخرون بفتح النون وتخفيفها.

﴿ قالوا بشّرناك بالحق ﴾ أي بالصدق، ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾.

﴿ قال ومَن يقنط ﴾، قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بكسر النون والآخرون بفتحها وهما لغتان قنط يقنط وقنط يقنط أي: مَن ييأس، ﴿ من رحمة ربّه إلاّ الضالّون ﴾، أي: الخاسرون، والقنوط من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكره.

الملائكة أن به قنوطاً فنفى ذلك عن نفسه، وأخبر أن القانط من رحمة الله تعالى من الضالين لأن القنوط من رحمة الله كبيرة، كالأمن من مكر الله ولا يحصل إلا عند من يجهل كون الله تعالى قادراً على ما يريد، ومن يجهل كونه سبحانه وتعالى عالماً بجميع المعلومات فكل هذه الأمور سبب للضلالة ﴿قال﴾ يعني إبراهيم ﴿فما خطبكم﴾ يعني فما شأنكم وما الأمر الذي جئتم فيه ﴿أيها المرسلون﴾ والمعنى ما الأمر الذي جئتم به سوى ما بشرتموني به من الولد ﴿قالوا﴾ يعني الملائكة ﴿إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ يعني لهلاك قوم مجرمين ﴿إلا آل لوط﴾ يعني أشياعه وأتباعه من أهل دينه ﴿إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته﴾ يعني امرأة ﴿لوط (قدرنا﴾ يعني قضينا وإنما أسند الملائكة القدر إلى أنفسهم وإن كان ذلك لله عز وجل، لاختصاصهم بالله وقربهم منه كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا، ونحن فعلنا وإن كان قد فعلوه بأمر الملك ﴿إنها لمن الغابرين﴾ يعني لمن الباقين في العذاب والاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي فاستثناء امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿فلما جاء آل لوط المرسلون﴾ وذلك أن الملائكة عليهم السلام لما بشروا إبراهيم بالولد، وعرفوه بما أرسلوا به ساروا إلى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط ﴿قال إنكم قوم منكرون﴾ وإنما قال هذه المقالة لوط لأنهم دخلوا عليه وهم في زي شبان مردان حسان الوجوه، فخاف أن يهجم عليهم قومه فلهذا السبب قال هذه المقالة. وقيل: إن النكرة ضد المعرفة فقوله: إنكم قوم منكرون يعني لا أعرفكم ولا أعرف من أي الأقوام أنتم، ولا لأي غرض دخلتم فعند ذلك ﴿قالوا﴾ يعني الملائكة ﴿بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ يعني جئناك بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه ﴿وأتيناك

﴿ قال ﴾ إبراهيم لهم، ﴿ فما خطبكم ﴾، ما شأنكم، ﴿ أيها المرسلون ﴾.

﴿ قالوا إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾، مشركين.

﴿ إلّا آل لوط ﴾، أتباعه وأهل دينه، ﴿ إنّا لمنجوهم أجمعين ﴾، خفّف الجيم حمزة والكسائي وشدّده الباقون.

﴿ إلّا امرأته ﴾، أي: امرأة لوط، ﴿ قدّرنا ﴾، قضينا، ﴿ إنّها لمن الغابِرين ﴾، الباقين في العذاب، والاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي، فاستثنى امرأة لوط من الناجين فكانت ملحقة بالهالكين، قرأ أبو بكر ﴿ قدَرنا ﴾ ههنا وفي سورة النمل [٥٧] بتخفيف الدال. والباقون بتشديدها.

﴿ فلما جاء آل لوطٍ المرسلون ﴾.

﴿ قال ﴾، لوط لهم، ﴿ إنكم قوم منكرون ﴾ أي: أنا لا أعرفكم.

﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾، أي: يشكّون في أنه نازل بهم وهو العذاب لأنه كان يوعدهم بالعذاب ولا يصدقونه.

بالحق﴾ يعني باليقين الذي لا شك فيه **﴿وإنّا لَصادقون﴾** يعني فيما أخبرناك به من إهلاكهم **﴿فأسر بأهلك﴾** بقطع من الليل يعني آخر الليل، والقطع القطعة من الشيء وبعضه **﴿واتبع أدبارهم﴾** يعني واتبع آثار أهلك وسر خلفهم **﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾** يعني حتى لا يرى ما نزل بقومه من العذاب فيرتاع بذلك، وقيل: المراد الإسراع في السير وترك الالتفات إلى ورائه، والاهتمام بما خلفه كما تقول امض لشأنك ولا تعرج على شيء وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط، ولئلا يتخلف أحد منهم فيناله العذاب **﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾** قال ابن عباس: يعني إلى الشام وقيل: الأردن، وقيل إلى حيث يأمركم جبريل وذلك أن جبريل أمرهم أن يسيروا إلى قرية معينة، ما عمل أهلها عمل قوم لوط **﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾** يعني وأوحينا إلى لوط ذلك الأمر الذي حكمنا به على قومه، وفرغنا منه ثم إنه سبحانه وتعالى فسر ذلك الأمر الذي قضاه بقوله **﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾** يعني أن هؤلاء القوم يستأصلون عن آخرهم بالعذاب وقت الصبح وإنما أبهم الأمر الذي قضاه عليهم أولاً، وفسر ثانياً تفخيماً له وتعظيماً لشأنه **﴿وجاء أهل المدينة﴾** يعني مدينة سدوم وهي مدينة قوم لوط **﴿يستبشرون﴾** يعني يبشر بعضهم بعضاً بأضياف لوط والاستبشار: إظهار الفرح والسرور، وذلك أن الملائكة لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم في المدينة، وقيل إن امرأته أخبرتهم بذلك، وكانوا شباناً مرداً في غاية الحسن ونهاية الجمال فجاء قوم لوط إلى داره طمعاً منهم في ركوب الفاحشة **﴿قال﴾** يعني قال لوط لقومه **﴿إن هؤلاء ضيفي﴾** وحق على الرجل إكرام ضيفه **﴿فلا تفضحون﴾** يعني فيهم يقال فضحه يفضحه إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه **﴿واتقوا الله﴾** يعني خافوا الله في أمرهم **﴿ولا تخزون﴾** يعني ولا تخجلون **﴿قالوا﴾** يعني: قوم لوط الذين جاؤوا إليه **﴿أولم ننهك عن العالمين﴾** يعني أو لم ننهك عن أن تضيف أحداً من العالمين. وقيل: معناه أو لم ننهك أن تدخل الغرباء إلى بيتك، فانا نريد أن نركب منهم الفاحشة: وقيل: معناه ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من العالمين إذا قصدناه بالفاحشة.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾

﴿ وآتيناك بالحق ﴾، باليقين. وقيل: بالعذاب. **﴿ وإنّا لصادقون ﴾**.

﴿ فأسرِ بأهلك بقطع منَ الليل واتّبعْ أدبارهم ﴾ أي: خلفهم، **﴿ ولا يلتفتْ منكم أحد ﴾**، حتى لا يرتاعوا من العذاب إذا نزل بقومهم. وقيل: جعل الله ذلك علامة لمَن ينجو من آل لوط، **﴿ وامضوا حيث تُؤمرون ﴾**، قال ابن عباس: يعني الشام. وقال مقاتل: يعني زغر. وقيل: الأردن.

﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾، أي وقضينا إلى آل لوط ذلك الأمر أي أحكمنا الأمر الذي أمرنا في قوم لوط، وأخبرناه **﴿ أنّ دابر هؤلاء ﴾**، يدلّ عليه قراءة عبد الله وقلنا له إن دابر هؤلاء يعني أصلهم، **﴿ مقطوع ﴾**، مستأصل، **﴿ مصبحين ﴾**، إذا دخلوا في الصبح.

﴿ وجاء أهل المدينة ﴾، يعني سدوم، **﴿ يستبشِرُون ﴾**، بأضياف لوط أي: يبشّر بعضهم بعضاً طمعاً في ركوب الفاحشة منهم.

﴿ قال ﴾، لوط لقومه، **﴿ إن هؤلاء ضيفي ﴾**، وحق على الرجل إكرام ضيفه، **﴿ فلا تفضحون ﴾**، فيهم.

﴿ واتقوا الله ولا تُخزون ﴾، ولا تخجلون.

﴿ قالوا أو لم ننْهكَ عن العالمين ﴾، أي: ألم ننهك عن أن تضيف أحداً من العالمين. وقيل: ألم ننهك أن تُدخل الغرباء المدينة فإنّا نركب منهم الفاحشة.

فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ
مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ
مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾

﴿قال﴾ يعني قال لوط لقومه الذين قصدوا أضيافه ﴿هؤلاء بناتي﴾ أزوجكم إياهن إن أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام وقيل: أراد بالبنات نساء قومه لأن النبي كالوالد لأمته ﴿إن كنتم فاعلين﴾ يعني ما آمركم به ﴿لعمرك﴾ الخطاب فيه للنبي ﷺ قال ابن عباس: معناه وحياتك يا محمد وقال ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته والعمر والعمر واحد وهو اسم لمدة عمارة بدن الإنسان بالحياة والروح وبقائه مدة حياته. قال النحويون: ارتفع لعمرك بالابتداء والخبر محذوف والمعنى لعمرك قسمي فحذف الخبر لأن في الكلام دلالة عليه. ﴿إنهم لفي سكرتهم﴾ يعني في حيرتهم وضلالتهم وقيل غفلتهم ﴿يعمهون﴾ يعني يترددون متحيرين وقال قتادة: يلعبون ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾ يعني حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب الذي نزل بهم وقت الصبح وتمامه وانتهاؤه حين أشرقت الشمس ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ تقدم تفسيره في سورة هود ﴿إن في ذلك﴾ يعني الذي نزل بهم من العذاب ﴿لآيات للمتوسمين﴾ قال ابن عباس: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكرين. وقال مجاهد: للمتفرسين ويعضد هذا التأويل ما روي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ إن في ذلك لآيات للمتوسمين» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. الفراسة بالكسر اسم من قولك تفرست في فلان الخير. وهي على نوعين: أحدهما ما دل عليه ظاهر الحديث، وهو ما يوقعه الله في قلوب أوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس بنوع من الكرامات، وإصابة الحدس والنظر والظن والتثبت، والنوع الثاني ما يحصل بدلائل التجارب والخلق والأخلاق تعرف بذلك أحوال الناس أيضاً وللناس في علم الفراسة تصانيف قديمة وحديثة. قال الزجاج: حقيقة المتوسمين في اللغة المتثبتين في نظرهم حتى يعرفوا سمة الشيء وصفته وعلامته فالمتوسم الناظر في سمة الدلائل، تقول توسمت في فلان كذا أي عرفت وسم ذلك وسمته ﴿وإنها﴾ يعني قرى قوم لوط ﴿لبسبيل مقيم﴾ يعني بطريق واضح. قال مجاهد: بطريق معلم ليس بخفي ولا زائل والمعنى: أن آثار ما أنزل الله بهذه القرى من عذابه وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يدثر

﴿ قال هؤلاء بناتي ﴾ أزوّجهنّ إياكم إن أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام، ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾، ما آمركم به. وقيل: أراد بالبنات نساء قومه لأن النبي كالوالد لأمته.

قال الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾، يا محمد أي وحياتك، ﴿ إنهم لفي سكرتهم ﴾، حيرتهم وضلالتهم، ﴿ يعمهون ﴾، يترددون، قال قتادة: يلعبون. رُوِيَ عن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال: ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما أقسم الله تعالى بحياة أحد إلّا بحياته.

﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾، أي: حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب حين أصبحوا وتمامه حين أشرقوا.

﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيل ﴾.

﴿ إنّ في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾، قال ابن عباس: للناظرين. وقال مجاهد: للمتفرسين. وقال قتادة للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكّرين.

ولم يخف، والذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون ذلك ويرون أثره ﴿إن في ذلك﴾ يعني الذي ذكر من عذاب قوم لوط، وما أنزل بهم ﴿لآية للمؤمنين﴾ يعني المصدقين لما أنزله على رسوله ﷺ ﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين﴾ يعني كان أصحاب الأيكة وهي الغيضة، واللام في قوله لظالمين للتأكيد وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض، وشجر ملتف وكان عامة شجرهم المقل وكانوا قوماً كافرين فبعث الله عز وجل إليهم شعيباً رسولاً فكذبوه فأهلكهم الله فهو قوله تعالى ﴿فانتقمنا منهم﴾ يعني بالعذاب، وذلك أن الله سبحانه وتعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى أخذ بأنفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة كالظلة فالتجؤوا إليها، واجتمعوا تحتها يلتمسون الروح فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم جميعاً ﴿وإنهما﴾ يعني مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الأيكة ﴿لبإمام مبين﴾ يعني طريق واضح مستبين لمن مر بهما، وقيل: الضمير راجع إلى الأيكة ومدين لأن شعيباً كان مبعوثاً إليهما وإنما سمي الطريق إماماً لأنه يؤم ويتبع، ولأن المسافر يأتّم به حتى يصير إلى الموضع الذي يريده. قوله عز وجل ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾ قال المفسرون: الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وهو معروف بين المدينة النبوية والشام وآثاره موجودة باقية يمر عليها ركب الشام إلى الحجاز، وأهل الحجاز إلى الشام وأراد بالمرسلين صالحاً وحده، وإنما ذكره بلفظ الجمع للتعظيم أو لأنهم كذبوه، وكذبوا من قبله من الرسل.

وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

﴿وآتيناهم آياتنا﴾ يعني الناقة وولدها والآيات التي كانت في الناقة خروجها من الصخرة، وعظم جثتها وقرب ولادها وغزارة لبنها، وإنما أضاف الآيات إليهم وإن كانت لصالح، لأنه مرسل إليهم بهذه الآيات ﴿فكانوا عنها﴾ يعني

﴿ وإنها ﴾ يعني قرى قوم لوط، ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُقيم ﴾، أي: بطريق واضح، وقال مجاهد: بطريق معلم ليس بخفي ولا زائل.

﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾.

﴿ وإن كان ﴾، وقد كان ﴿ أصحاب الأيكة ﴾، الغيضة، ﴿ لظالمين ﴾، لكافرين واللام للتأكيد وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف، وكانت عامّة شجرهم الدوم وهو المقل.

﴿ فانتقمنا منهم ﴾، بالعذاب وذلك أن الله سلط عليهم الحرّ سبعة أيام ثم بعث سحابة فالتجؤوا إليها يلتمسون الروح، فبعث عليهم منها ناراً فأحرقتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ﴿ وإنهما ﴾ يعني مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿ لبإمامٍ مبين ﴾، لبطريق واضح مستبين.

قوله تعالى: ﴿ ولقد كذب أصحاب الحِجْر ﴾، وهي مدينة ثمود قوم صالح وهي بين المدينة والشام، ﴿ المرسلين ﴾، أراد صالحاً وحده، وإنما ذكر بلفظ الجمع لأن مَن كذّب رسولاً فقد كذّب الرسل كلّهم.

﴿ وآتيناهم آياتنا ﴾، يعني: الناقة وولدها والبئر والآية في الناقة خروجها من الصخرة وكبرها وقرب ولادها

عن الآيات ﴿معرضين﴾ يعني تاركين لها غير ملتفتين إليها ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ خوفاً من الخراب أو أن يقع عليهم الجبل أو السقف ﴿فأخذتهم الصيحة﴾ يعني العذاب ﴿مصبحين﴾ يعني وقت الصبح ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ يعني من الشرك والأعمال الخبيثة (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي» قوله سبحانه وتعالى ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ يعني لإظهار الحق والعذاب، وهو أن يثاب المؤمن المصدق ويعاقب الجاحد الكافر الكاذب ﴿وإن الساعة لآتية﴾ يعني: وإن القيامة لتأتي ليجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي فأعرض عنهم يا محمد واعفُ عنهم عفواً حسناً. واحتمل ما تلقى من أذى قومك وهذا الصفح والإعراض منسوخ بآية القتال، وقيل فيه بُعد لأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ، أن يظهر الخلق الحسن وأن يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف ﴿إن ربك هو الخلاق العليم﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى خلق خلقه، وعلم ما هم فاعلوه وما يصلحهم. قوله عز وجل ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ قال ابن الجوزي: سبب نزولها أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البز والطيب والجواهر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فأنزل الله هذه الآية. وقال: قد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل ويدل على صحة هذا قوله ﴿لا تمدّن عينيك﴾ الآية قال الحسن بن الفضل قلت وهذا القول ضعيف، أو لا يصح لأن هذه السورة مكية، بإجماع أهل التفسير وليس فيها من المدني شيء. ويهود قريظة والنضير، كانوا بالمدينة وكيف يصح أن يقال إن سبع قوافل جاءت في يوم واحد، فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فأنزل الله هذه الآية، وأخبرهم أن هذه السبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل والله أعلم، وفي المراد بالسبع المثاني أقوال أحدها أنها فاتحة الكتاب، وهذا قول عمر وعلي وابن مسعود وفي رواية عنه وابن عباس، وفي

وغزارة لبنها، ﴿فكانوا عنها مُعرِضين﴾.

﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾، من الخراب ووقوع الجبل عليهم.

﴿فأخذتهم الصيحة﴾، يعني: صيحة العذاب، ﴿مصبحين﴾، أي: داخلين في وقت الصبح.

﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾، من الشرك والأعمال الخبيثة. أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي ثنا عبد الله بن محمود أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن معمر عن الزهري أنا سالم بن عبد الله عن أبيه عن النبي ﷺ أنه لمّا مرّ بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلاّ أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، قال: وتقنع بردائه وهو على الرّحل. وقال عبد الرزاق عن معمر: «ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى اجتاز الوادي».

قوله تعالى: ﴿وما خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وإن الساعة﴾، يعني: القيامة ﴿لآتية﴾، يجازي المحسن بإحسانه والمُسيء بإساءته، ﴿فاصفحِ الصفحَ الجميل﴾، فأعرضْ عنهم واعفُ عفواً حسناً نسختها آية القتال.

﴿إنّ ربَّك هو الخلّاق العليم﴾ بخلقه.

قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾، قال عمر وعلي: فاتحة الكتاب. وهو قول قتادة وعطاء

رواية الأكثرين عنه وأبي هريرة والحسن، وسعيد بن جبير وفي رواية عنه ومجاهد وعطاء وقتادة في آخرين. ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب، والسبع المثاني» أخرجه أبو داود والترمذي (ق) عن أبي سعيد ابن المعلى قال: قال رسول الله ﷺ «الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته» أخرجه البخاري. وفيه زيادة أما السبب في تسمية فاتحة الكتاب بالسبع المثاني، فلأنها سبع آيات بإجماع أهل العلم واختلفوا في سبب تسميتها بالمثاني. فقال ابن عباس والحسن وقتادة: لأنها تثنى في الصلاة تقرأ في كل ركعة. وقيل: لأنها مقسومة بين العبد وبين الله نصفين: فنصفها الأول ثناء على الله. ونصفها الثاني: دعاء ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «يقول الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الحديث مذكور في فضل الفاتحة. وقيل سميت مثاني لأن كلماتها مثناة مثل قوله: ﴿الرحمن الرحيم إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين﴾ فكل هذه ألفاظ مثناة. وقال الحسن بن الفضل: لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة ومعها سبعون ألف ملك. وقال مجاهد: لأن الله سبحانه وتعالى استثناها وادخرها لهذه الأمة فلم يعطها لغيرهم. وقال أبو زيد البلخي: لأنها تثني أهل الشرك عن الشر من قول العرب ثنيت عناني. وقال ابن الزجاج: سميت فاتحة الكتاب مثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده، وملكه وإذا ثبت كون الفاتحة هي السبع المثاني دل ذلك على فضلها وشرفها وأنها من أفضل سور القرآن، لأن إفرادها بالذكر في قوله تعالى ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ مع أنها جزء من أجزاء القرآن وإحدى سوره لا بد. وأن يكون لاختصاصها بالشرف، والفضيلة. القول الثاني في تفسير قوله سبعاً من المثاني أنها السبع الطوال، وهذا قول ابن عمر وابن مسعود في رواية عنه وابن عباس وفي رواية عنه وسعيد بن جبير وفي رواية عنه السبع الطوال هي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف. واختلفوا في السابعة فقيل الأنفال مع براءة لأنهما كالسورة الواحدة، ولهذا لم يكتبوا بينهما سطر بسم الله

والحسن وسعيد بن جبير. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا آدم ثنا ابن أبي زيد ثنا سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني». ﴿ والقرآن العظيم ﴾، وعن ابن مسعود قال: السبع المثاني هي فاتحة الكتاب والقرآن العظيم سائر القرآن، واختلفوا في أن الفاتحة لِمَ سمِّيت مثاني، فقال ابن عباس والحسن وقتادة: لأنها تُثنَى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة. وقيل: لأنها مقسومة بين الله وبين العبد بنصفين نصفها ثناء ونصفها دعاء، كما روينا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يقول الله: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»، وقال الحسين بن الفضل: سُمِّيت مثاني لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة كل مرة معها سبعون ألف ملك. وقال مجاهد سُمِّيت مثاني لأن الله تعالى استثناها وادّخرها لهذه الأمة فما أعطاها غيرهم. وقال أبو زيد البلخي: سُمِّيت مثاني لأنها تُثْني أهل الشر عن الفسق من قول العرب ثنيت عناني. وقيل: لأن أولها ثناء. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن السبع المثاني هي السبع الطوال أولها سورة البقرة وآخرها الأنفال مع التوبة. وقال بعضهم: سورة يونس بدل الأنفال. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي ثنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي أنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد وعبد الله بن محمد بن مسلم قال: أنبأنا هلال بن العلاء ثنا حجاج بن محمد عن أيوب بن عيبة عن يحيىٰ بن كثير عن شداد بن عبد الله عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المِئِين مكان الإنجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضّلني ربّي بالمفصل»، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أُوتي النبي ﷺ السبع الطوال، وأُعطي موسى ستاً فلما ألقى

الرحمن الرحيم. وقيل السابعة هي سورة يونس ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سبحانه وتعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المثين مكان الإنجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربي بالمفصل» أخرجه البغوي بإسناد الثعلبي؛ قال ابن عباس: إنما سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود، والأمثال والخبر والعبر ثنيت فيها، وأورد على هذا القول أن هذه السور الطوال غالبها مدنيات فكيف يمكن تفسير هذه الآية بها، وهي مكية وأجيب عن هذا الإيراد بأن الله سبحانه وتعالى، حكم في سابق علمه بإنزال هذه السورة على النبي ﷺ وإذا كان الأمر كذلك صح أن تفسر هذه الآية بهذه السورة، القول الثالث: أن السبع المثاني هي السور التي هي دون الطوال، وفوق المفصل وهي المئين، وحجة هذا القول الحديث المتقدم وأعطاني مكان الزبور المثاني، والقول الرابع: أن السبع المثاني هي القرآن كله وهذا قول طاوس وحجة هذا القول أن الله سبحانه وتعالى قال «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني» وسمي القرآن كله مثاني لأن الأخبار والقصص والأمثال ثنيت فيه فإن قلت: كيف يصح عطف القرآن في قوله «والقرآن العظيم» على قوله «سبعاً من المثاني» وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟ قلت: إذا عني بالسبع المثاني فاتحة الكتاب أو السبع الطوال فما وراءهن ينطلق عليه القرآن لأن القرآن اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى إلى قوله بما أوحينا إليك هذا القرآن يعني سورة يوسف عليه السلام. وإذا عنى بالسبع المثاني القرآن كله كان المعنى ولقد آتيناك سبعاً من المثاني، وهي القرآن العظيم وإنما سمي القرآن عظيماً، لأنه كلام الله ووحيه أنزله على خير خلقه محمد ﷺ. قوله ﴿لا تمدن عينيك﴾ الخطاب للنبي ﷺ أي لا تمدن عينيك يا محمد ﴿إلى ما متعنا به أزواجاً﴾ يعني أصنافاً ﴿منهم﴾ يعني من الكفار متمنياً لها نهى الله عز وجل رسوله ﷺ عن الرغبة في الدنيا، ومزاحمة أهله عليها والمعنى أنك قد أوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شيء، فلا تشغل قلبك وسرك بالالتفات إلى الدنيا والرغبة فيها. روي أن سفيان بن عيينة تأول قول النبي ﷺ «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» يعني من لم يستغن بالقرآن فتأول هذه الآية. قيل: إنما يكون ماداً عينيه إلى الشيء، إذا أدام النظر إليه مستحسناً له فيحصل من ذلك تمني ذلك الشيء المستحسن، فكان رسول الله ﷺ لا ينظر إلى شيء من متاع الدنيا ولا يلتفت إليه ولا يستحسنه ﴿ولا تحزن عليهم﴾ يعني ولا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا وقيل ولا تحزن على إيمانهم إذا لم يؤمنوا ففيه النهي عن الالتفات إلى أموال الكفار، والالتفات إليهم أيضاً وروى البغوي

الألواح رفع ثنتان وبقي أربع. قال ابن عباس: وإنما سُمِّيت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود والأمثال والخير والشر والعبر والخبر ثنيت فيها. وقال طاوس: القرآن كله مثاني قال الله تعالى: ﴿ الله نزل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ [الزمر: ٢٣]. وسُمِّي القرآن مثاني لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه، وعلى هذا القول المراد بالسبع سبعة أسباع القرآن، فيكون تقديره على هذا وهي القرآن العظيم. وقيل: الواو مقحمة مجازه ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم.

قوله تعالى: ﴿ لا تمدنّ عينيك ﴾، يا محمد، ﴿ إلى ما متّعنا به أزواجاً ﴾، أصنافاً، ﴿ منهم ﴾ أي: من الكفّار متمنياً لها نهى الله تعالى ورسوله ﷺ عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها، ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾، أي: لا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا. أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن المقبري ثنا عيسى بن نصر أنبأنا عبد الله بن المبارك أنا جهم بن أوس قال: سمعت عبد الله بن أبي مريم ومرّ به عبد الله بن رستم في موكبه، فقال لابن أبي مريم: إني لأشتهي مجالستك وحديثك، فلما مضى قال ابن مريم: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تغبطنّ فاجراً بنعمته فإنك لا تدري ما هو لاقٍ بعد موته إن له عند الله قاتلاً لا يموت» فبلغ ذلك وهب بن منبّه فأرسل إليه وهب أبا داود الأعور، فقال: يا أبا

بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا تغبطن فاجراً بنعمته فإنك لا تدري ما هو لاق بعد موته إن له عند الله قاتلاً لا يموت قيل: وما هو؟ قال: النار» (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال، والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه» لفظ البخاري ولمسلم قال: قال رسول الله ﷺ «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» قال عوف بن عبد الله بن عتبة: كنت أصحب الأغنياء فما كان أحد أكثر هماً مني كنت أرى دابة خيراً من دابتي وثوباً خيراً من ثوبي، فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت. وقوله سبحانه وتعالى ﴿واخفض جناحك﴾ يعني ليِّن جانبك ﴿للمؤمنين﴾ وارفق بهم لما نهاه الله سبحانه وتعالى عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار، أمره بالتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين وغيرهم من المؤمنين.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿وقل﴾ أي وقل لهم يا محمد ﴿إني أنا النذير المبين﴾ لما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالزهد في الدنيا، والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به إليهم، والنذارة تبليغ مع تخويف والمعنى: إني أنا النذير بالعقاب لمن عصاني المبين النذارة ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ يعني أنذركم عذاباً كعذاب أنزلناه بالمقتسمين، قال ابن عباس: أراد بالمقتسمين اليهود والنصارى. وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة: سموا بذلك لأنهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه، فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به، وقال عكرمة: إنهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد منهم هذه السورة لي وقال: آخر هذه السورة لي، وإنما فعلوا ذلك استهزاء به، وقال مجاهد: إنهم اقتسموا كتبهم فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، وكفر آخرون منهم بما آمن به غيرهم. وقال قتادة وابن السائب: أراد بالمقتسمين كفار قريش سموا بذلك لأن أقوالهم تقسمت في القرآن. فقال بعضهم: إنه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم إنه أساطير الأولين وقال ابن

فلان ما قاتلاً لا يموت؟ قال ابن أبي مريم: النار. أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفر السرخسي أنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن الفضل الفقيه ثنا أبو الحسن ابن أبي إسحاق ثنا إبراهيم بن عبد الله العبسي أنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى مَن هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى مَن فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» وقيل: هذه الآية متصلة بما قبلها وذلك أنه لمّا منّ الله تعالى عليه بالقرآن نهاه عن الرغبة في الدنيا. رُوِيَ أن سفيان بن عُيَيْنة تأوّل قول النبي ﷺ ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن أي: مَن لم يستغنِ بالقرآن. وتأويل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ واخفض جناحك ﴾، ليِّن جانبك ﴿ للمؤمنين ﴾، وارفق بهم والجناحان من ابن آدم جانباه.

﴿ وقل إني أنا النذير المبين ﴾.

﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾ قال الفرّاء مجازه أنذركم عذاباً كعذاب المقتسمين، حكي عن ابن عباس أنه قال: هم اليهود والنصارى.

﴿ الذين جعلوا القرآن عضِين ﴾، جزؤه فجعلوه أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى قسموا كتابهم ففرّقوه وبدّلوه. وقيل: المقتسمون قوم اقتسموا القرآن، فقال بعضهم: سحر. وقال

السائب: سموا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا عقاب مكة وطرقها، وذلك أن الوليد بن المغيرة بعث رهطاً من أهل مكة. قيل ستة عشر. وقيل: أربعين. فقال لهم: انطلقوا فتفرقوا على عقاب مكة وطرقها حيث يمر بكم أهل الموسم، فإذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم إنه كاهن وليقل بعضكم إنه شاعر، وليقل بعضكم إنه ساحر فإذا جاؤوا إلي صدقتكم فذهبوا وقعدوا على عقاب مكة وطرقها يقولون لمن مر بهم من حجاج العرب: لا تغتروا بهذا الخارج الذي يدعي النبوة منا فإنه مجنون كاهن، وشاعر. وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام فإذا جاؤوا وسألوه عما قال: أولئك المقتسمون. قال: صدقوا. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ (خ) عن ابن عباس في قوله تعالى الذين جعلوا القرآن عضين. قال: هم اليهود والنصارى جزؤوه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض، قيل: هو جمع عضة من قولهم عضيت الشيء إذا فرقته، وجعلته أجزاء وذلك لأنهم جعلوا القرآن أجزاء مفرقة. فقال بعضهم: هو سحر. وقال بعضهم: هو كهانة. وقال بعضهم: هو أساطير الأولين. وقيل: هو جمع عضة. وهو الكذب والبهتان وقيل: المراد به العضة وهو السحر يعني أنهم جعلوا القرآن عضين ﴿عما كانوا يعملون﴾ يعني عما كانوا يقولونه في القرآن. وقيل: عما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي. وقيل: يرجع الضمير في لنسألنهم إلى جميع الخلق المؤمن والكافر لأن اللفظ عام فحمله على العموم أولى قال جماعة من أهل العلم عن لا إله إلا الله عن أنس عن النبي ﷺ في قوله: لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال: «عن قول لا إله إلا الله» أخرجه الترمذي. وقال: حديث غريب وقال أبو العالية: يسأل العباد عن خلتين عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين. فإن قلت: كيف الجمع بين قوله لنسألنهم أجمعين وبين قوله ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾؟ قلت: قال ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم

بعضهم: شعر وقال بعضهم: كذب. وقال بعضهم: أساطير الأولين. وقيل: الاقتسام هو أنهم فرّقوا القول في رسول الله ﷺ فقالوا: ساحر كاهن شاعر، وقال مقاتل: كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا عقاب مكة وطرفها، وقعدوا على نقابها فيقولون لِمَن جاء من الحجاج لا تغترّوا بهذا الرجل الخارج الذي يدّعي النبوّة منّا، وتقول طائفة منهم: إنه مجنون وطائفة إنه كاهن وطائفة إنه شاعر والوليد قاعد على باب المسجد نصّبوه حكماً فإذا سُئِلَ عنه قال: صدق أولئك يعني المقتسمين. وقوله: ﴿ عضين ﴾ قيل: هو جمع عضو مأخوذ من قولهم عضيت الشيء تعضيةً، إذا فرّقته ومعناه أنهم جعلوا القرآن أعضاء، فقال بعضهم: سحر. وقال بعضهم: كهانة. وقال بعضهم: أساطير الأولين. وقيل: هو جمع عضة. يقال: عضة وعضين مثل برة وبرين وعزة وعزين وأصلها عضة ذهبت هاؤها الأصلية كما نقصوا من الشفة وأصلها شفهة بدليل أنك تقول في التصغير شفيهة والمراد بالعضة الكذب والبهتان. وقيل: المراد بالعضين العضة وهو السحر يريد أنهم سمّوا القرآن سحراً.

﴿ فوربّك لنسألنّهم أجمعين ﴾، يوم القيامة.

﴿ عمّا كانوا يعملون ﴾ في الدنيا قال محمد بن إسماعيل قال عدّة من أهل العلم عن قوله لا إلَه إلّا الله، فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [الرحمن: ٣٩]، قيل: قال ابن عباس لا يسألهم هل عملتم لأنه أعلم بهم منهم ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟ واعتمده قطرب فقال: السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [الرحمن: ٣٩]، يعني: استعلاماً. وقوله: ﴿ لنسألنّهم أجمعين ﴾ يعني توبيخاً وتقريعاً. وقال عكرمة عن ابن عباس في الآيتين: إن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف مختلفة يسألون في بعض المواقف ولا يسألون في بعضها، نظير ذلك قوله تعالى: ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ [المرسلات: ٣٥]، وقال في آية أخرى: ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ [الزمر: ٣١].

لأنه أعلم به منهم، ولكن يقول لم عملتم كذا واعتمده قطرب فقال: السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ فقال تعالى ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ يعني سؤال استعلام وقوله ﴿لنسألنهم أجمعين﴾ سؤال توبيخ وتقريع وجواب آخر، وهو يروى عن ابن عباس أيضاً أنه قال في الآيتين: أن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف فيسألون في بعض المواقف ولا يسألون في بعضها نظيره قوله سبحانه وتعالى ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ وقال تعالى في آية أخرى ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قوله سبحانه وتعالى ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ قال ابن عباس: أظهر. ويروى عنه أمضه. وقال الضحاك: أعلم وأصل الصدع الشق والفرق أي أفرق بالقرآن بين الحق والباطل أمر النبي ﷺ في هذه الآية بإظهار الدعوة وتبليغ الرسالة إلى من أرسل إليهم قال عبد الله بن عبيدة. ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت هذه الآية، فخرج هو وأصحابه ﴿وأعرض عن المشركين﴾ أي اكفف عنهم ولا تلتفت إلى لومهم على إظهار دينك، وتبليغ رسالة ربك وقيل أعرض عن الاهتمام باستهزائهم، وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ أكثر المفسرين على أن هذا الإعراض منسوخ بآية القتال. وقال بعضهم: ما للنسخ وجه لأن معنى الإعراض ترك المبالاة بهم، والالتفات إليهم، فلا يكون منسوخاً، وقوله تعالى إنا كفيناك المستهزئين يقول الله تعالى عز وجل لنبيه محمد ﷺ فاصدع بما أمرتك به ولا تخف أحداً غيري فإني أنا كافيك، وحافظك ممن عاداك فإنا كفيناك المستهزئين وكانوا خمسة نفر من رؤساء كفار قريش، كانوا يستهزئون بالنبي ﷺ وبالقرآن وهم: الوليد بن المغيرة المخزومي وكان رأسهم، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة، وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه فقال: اللهم أعم بصره وأثكله بولده. والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، والحارث بن قيس ابن الطلاطلة كذا ذكره البغوي. وقال ابن الجوزي: الحارث بن قيس ابن عيطلة وقال الزهري: عيطلة أمة وقيس أبوه فهو منسوب إلى أبيه وأمة قال المفسرون: أتى جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ والمستهزئون يطوفون بالبيت فقام جبريل، وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه فمر به الوليد بن المغيرة فقال جبريل: يا محمد كيف تجد هذا قال بئس عبد الله فقال: قد كفيته وأومأ إلى ساق الوليد فمرّ الوليد برجل من خزاعة نبال بريش

قوله تعالى: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾، قال ابن عباس: أظهره. ويروى عنه: أمضه. وقال الضحاك: أعلم. وقال الأخفش: أفرق، أي: أفرق بالقرآن بين الحق والباطل. وقال سيبويه: اقضِ بما تؤمر، وأصل الصدع الفصل والفرق أمر النبي ﷺ في هذه الآية بإظهار الدعوة. ورُوِيَ عن عبد الله بن عبيدة قال: كان مستخفياً حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه ﴿ وأعرضْ عنِ المشركين ﴾، نسختها آية القتال.

﴿ إنّا كفيناك المستهزئين ﴾، يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ: فاصدع بأمر الله ولا تخف أحداً غير الله عزّ وجلّ فإن الله كافيك مَن عاداك كما كفاك المستهزئين، وهم خمسة نفر من رؤساء قريش الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان رأسهم والعاص بن وائل السهمي والأسود بن عبد المطلب بن الحارث بن أسد بن عبد العزي بن زمعة، وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه فقال: «اللهمَّ أعمِ بصره واثكله بولده» والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة والحارث بن قيس بن الطلاطلة فأتى جبريل النبي ﷺ، والمستهزؤن يطوفون بالبيت فقام جبريل وقام النبي ﷺ إلى جنبه فمرّ به الوليد بن المغيرة، فقال جبريل: يا محمد كيف تجد هذا؟ فقال: «بئس عَبْدِ عَبدَ الله» فقال: قد كفيته وأومأ إلى ساق الوليد فمرّ برجل من خزاعة نبال بريش نباله وعليه برديمان وهو يجرّ إزاره فتعلقت شظية من نبل بإزاره فمنعه الكبر أن يطأطىء رأسه فينزعها وجعلت تضرب ساقه فخدشته فمرض منها فمات، ومرّ به العاص بن وائل فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: «بئس عبد الله» فأشار جبريل إلى أخمص رجليه، وقال: قد كفيته فخرج على راحلته ومعه ابنان له يتنزه فنزل شعباً من تلك الشِعاب فوطىء على شبرقة فدخلت منها شوكة في

نبلاً له، وعليه برد يماني وهو يجر إزاره فتعلقت شظية من النبل بإزار الوليد، فمنعه الكبر أن يطأطىء رأسه فينزعها وجعلت تضربه في ساقه، فخدشته فمرض فمات، ومر بهما العاص بن وائل السهمي فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: بئس عبد الله، فأشار جبريل إلى أخمص قدمه وقال: قد كفيته. فخرج العاص على راحلة يتنزه، ومعه ابناه فنزل شعباً من تلك الشعاب فوطىء شبرقة فدخل منها شوكة في أخمص رجله، فقال: لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيئاً وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير، فمات مكانه. ومر بهما الأسود بن المطلب فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: عبد سوء فأشار جبريل بيده إلى عينيه. وقال: قد كفيته فعمي. قال ابن عباس: رماه جبريل بورقة خضراء فألهب بصره ووجعت عينه فجعل يضرب برأسه الجدار، حتى هلك وفي رواية الكلبي قال: أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ومعه غلام له وفي رواية فجعل ينطح رأسه في الشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه، فقال له غلامه: ما أرى أحداً يصنع بك شيئاً غيرك فمات، وهو يقول قتلني محمد ومر بهما الأسود ابن عبد يغوث فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: بئس عبد الله على أنه خالي. فقال جبريل: قد كفيته وأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات. وفي رواية الكلبي أنه خرج من أهله. فأصابه سموم فاسود وجهه حتى صار حبشياً، فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب فمات، وهو يقول: قتلني رب محمد. ومر بهما الحارث بن قيس فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: عبد سوء فأومأ جبريل إلى رأسه. وقال قد كفيته فامتخط قيحاً فقتله. وقال ابن عباس: إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فلم يزل يشرب الماء حتى أنقد بطنه فمات. فذلك قوله تعالى ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ يعني بك وبالقرآن.

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾
فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون﴾ يعني إذا نزل بهم العذاب ففيه وعيد وتهديد. قوله سبحانه وتعالى ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ يعني بسبب ما يقولون، وهو ما كانوا يسمعونه من الاستهزاء به،

أخمص رجله فقال لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيئاً وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير، فمات مكانه ومرّ به الأسود بن المطلب فقال جبريل: كيف تجد هذا؟ قال: «عبد سوء» فأشار بيده إلى عينيه، وقال: قد كفيته، فعمي. قال ابن عباس: رماه جبريل بورقة خضراء فعمي فذهب ضوء بصره ورجعت عيناه فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك. وفي رواية الكلبي: أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ومعه غلام له فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك، فاستغاث بغلامه فقال غلامه: لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك حتى مات، وهو يقول: قتلني رب محمد ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: «بئس عبد الله على أنه ابن خالي»، فقال: قد كفيته، وأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات حيناً. وفي رواية للكلبي أنه خرج من أهله فأصابه السَّمُوم فاسودّ حتى عاد حبشياً فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب حتى مات، وهو يقول: قتلني رب محمد، ومرّ به الحارث بن قيس فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: «عبد سوء» فأومأ إلى رأسه وقال: قد كفيته فامتخط قيحاً فقتله. وقال ابن عباس: إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فلم يزل يشرب عليه من الماء حتى أنقد بطنه فمات، فذلك قوله تعالى: ﴿ إِنّا كفيناك المستهزئين ﴾، بك وبالقرآن.

﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴾ وقيل استهزاؤهم واقتسامهم هو أن الله لمّا أنزل في

والقول الفاحش والجبلة البشرية تأبى ذلك فيحصل عند سماع ذلك ضيق الصدر، فعند ذلك أمره بالتسبيح والعبادة وهو قوله ﴿فسبح بحمد ربك﴾ قال ابن عباس: فصلِّ بأمر ربك ﴿وكن من الساجدين﴾ يعني من المتواضعين لله، وقال الضحاك فسبح بحمد ربك قل سبحان الله وبحمده وكن من الساجدين يعني من المصلين روي أن النبي ﷺ، كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، قال بعض العارفين من المحققين: أن السبب في زوال الحزن عن القلب، إذا أتى العبد بهذه العبادات أنه يتنور باطنه ويشرق قلبه، وينفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت إليها، ولا يتأسف على فواتها فيزول الهم والغم والحزن عن قلبه. وقال بعض العلماء: إذا نزل بالعبد مكروه ففزع إلى الصلاة فكأنه يقول: يارب إنما يجب عليّ عبادتك سواء أعطيتني ما أحب أو كفيتني ما أكره، فأنا عبدك وبين يديك فافعل بي ما تشاء. قوله تعالى ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ يعني الموت الموقن به الذي لا يشك فيه أحد، والمعنى واعبد ربك في جميع أوقاتك، ومدة حياتك حتى يأتيك الموت وأنت في عبادة ربك، وهذا مثل قوله تعالى في سورة مريم ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ روى البغوي بسنده عن جبير بن نفير قال: قال رسول الله ﷺ «ما أوحى الله إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحى إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» وعن عمر قال: نظر رسول الله ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها، أو قال: شريت له بمائتي درهم فدعاه حب الله، وحب رسوله إلى ما ترون» ذكره البغوي بغير سند والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

القرآن سورة البقرة وسورة النحل وسورة النمل وسورة العنكبوت، كانوا يجتمعون ويقولون استهزاء يقول هذا في سورة البقرة ويقول هذا في سورة النحل ويقول هذا في سورة العنكبوت.

فأنزل الله تعالى: ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبّح بحمد ربك ﴾، قال ابن عباس: فصل بأمر ربك ﴿ وكن من الساجدين ﴾، من المصلّين المتواضعين، وقال الضحاك: فسبّح بحمد ربك قلْ سبحان الله وبحمده وكن من الساجدين، يعني: من المصلّين. ورُوِيَ أن رسول الله ﷺ كان إذا حزَّ به أمر فزع إلى الصلاة.

﴿ واعبدْ ربَّك حتى يأتيَك اليقين ﴾، أي الموت الموقن به، وهذا معنى ما ذكر في سورة مريم [٣١] ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً ﴾ أخبرنا المطهر بن علي الفارسي أنا محمد بن إبراهيم الصالحي أنا عبد الله محمد بن جعفر بن الشيخ الحافظ ثنا أمية بن محمد الصواف البصري ثنا محمد بن يحيىٰ الأزدي ثنا أبي والهيثم بن خارجة قالا ثنا إسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم عن أبي مسلم الخولاني عن جبير بن نفير قال: قال رسول الله ﷺ: «وما أوحى الله إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إليّ أن سبّح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين». ورُوِيَ عن عمر رضي الله عنه قال: نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه أهاب كبش قد تنطق به، فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى هذا الذي قد نوّر الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلّة شراها أو شريت له بمائتي درهم، فدعاه حبُّ الله ورسوله إلى ما ترونه». والله أعلم.

فهرس المحتويات

تفسير سورة الأنفال

الآية: ١ .... ٣
الآيات: ٢ ـ ٤ .... ٥
الآيات: ٥ ـ ٧ .... ٩
الآيتان: ٨، ٩ .... ١٤
الآيات: ١٠ ـ ١٢ .... ١٥
الآيات: ١٣ ـ ١٦ .... ١٩
الآية: ١٧ .... ٢١
الآيتان: ١٨، ١٩ .... ٢٣
الآيات: ٢٠ ـ ٢٤ .... ٢٦
الآية: ٢٥ .... ٢٨
الآيتان: ٢٦، ٢٧ .... ٢٩
الآيات: ٢٨ ـ ٣٠ .... ٣١
الآيات: ٣١ ـ ٣٣ .... ٣٤
الآية: ٣٤ .... ٣٧
الآيتان: ٣٥، ٣٦ .... ٣٨
الآيات: ٣٧ ـ ٤٠ .... ٤٠
الآية: ٤١ .... ٤١
الآيات: ٤٢ ـ ٤٤ .... ٤٦
الآيتان: ٤٥، ٤٦ .... ٤٨
الآيتان: ٤٧، ٤٨ .... ٥٠
الآيتان: ٤٩، ٥٠ .... ٥٢
الآيات: ٥١ ـ ٥٤ .... ٥٤
الآيات: ٥٥ ـ ٥٨ .... ٥٥
الآيتان: ٥٩، ٦٠ .... ٥٧
الآيات: ٦١ ـ ٦٥ .... ٦٠
الآيتان: ٦٦، ٦٧ .... ٦٣
الآيتان: ٦٨، ٦٩ .... ٦٦
الآيتان: ٧٠، ٧١ .... ٦٧
الآيات: ٧٢ ـ ٧٤ .... ٦٩
الآية: ٧٥ .... ٧٠

تفسير سورة التوبة

الآيتان: ١، ٢ .... ٧٣
الآية: ٣ .... ٧٧
الآيتان: ٤، ٥ .... ٧٩
الآيات: ٦ ـ ٨ .... ٨٠
الآيات: ٩ ـ ١١ .... ٨٢
الآيتان: ١٢، ١٣ .... ٨٤
الآيات: ١٤ ـ ١٧ .... ٨٥
الآية: ١٨ .... ٨٨
الآية: ١٩ .... ٨٩
الآيات: ٢٠ ـ ٢٣ .... ٩١
الآيتان: ٢٤، ٢٥ .... ٩٢
الآيات: ٢٦ ـ ٢٨ .... ٩٩
الآية: ٢٩ .... ١٠١
الآية: ٣٠ .... ١٠٤
الآية: ٣١ .... ١٠٧
الآيتان: ٣٢، ٣٣ .... ١٠٨
الآية: ٣٤ .... ١١٠
الآيتان: ٣٥، ٣٦ .... ١١٣
الآية: ٣٧ .... ١١٦
الآيات: ٣٨ ـ ٤٠ .... ١١٩
الآية: ٤١ .... ١٢٨
الآيات: ٤٢ ـ ٤٥ .... ١٢٩
الآيات: ٤٦ ـ ٤٨ .... ١٣٢
الآيات: ٤٩ ـ ٥٢ .... ١٣٣

الآيات: ٥٣ ـ ٥٥ .... ١٣٥
الآيات: ٥٦ ـ ٥٨ .... ١٣٦
الآيتان: ٥٩، ٦٠ .... ١٣٩
الآيتان: ٦١، ٦٢ .... ١٤٦
الآيتان: ٦٣، ٦٤ .... ١٤٧
الآيات: ٦٥ ـ ٦٧ .... ١٤٩
الآيتان: ٦٨، ٦٩ .... ١٥١
الآيات: ٧٠ ـ ٧٢ .... ١٥٣
الآيتان: ٧٣، ٧٤ .... ١٥٦
الآية: ٧٥ .... ١٥٩
الآية: ٧٦ .... ١٦١
الآيات: ٧٧ ـ ٧٩ .... ١٦٢
الآيات: ٨٠ ـ ٨٢ .... ١٦٤
الآيات: ٨٣ ـ ٨٥ .... ١٦٦
الآيات: ٨٦ ـ ٩٠ .... ١٧٠
الآيات: ٩١ ـ ٩٣ .... ١٧٢
الآيات: ٩٤ ـ ٩٨ .... ١٧٤
الآيتان: ٩٩، ١٠٠ .... ١٧٦
الآية: ١٠١ .... ١٧٩
الآية: ١٠٢ .... ١٨٠
الآية: ١٠٣ .... ١٨٣
الآيات: ١٠٤ ـ ١٠٦ .... ١٨٥
الآية: ١٠٧ .... ١٨٧
الآية: ١٠٨ .... ١٨٩
الآية: ١٠٩ .... ١٩١
الآيتان: ١١٠، ١١١ .... ١٩٢
الآيتان: ١١٢، ١١٣ .... ١٩٣
الآية: ١١٤ .... ١٩٧
الآية: ١١٥ .... ١٩٩
الآيتان: ١١٦، ١١٧ .... ٢٠٠
الآيات: ١١٨ ـ ١٢٠ .... ٢٠٤
الآية: ١٢١ .... ٢١٠
الآية: ١٢٢ .... ٢١١
الآيات: ١٢٣ ـ ١٢٥ .... ٢١٤
الآيات: ١٢٦ ـ ١٢٩ .... ٢١٦

تفسير سورة يونس عليه الصلاة والسلام

الآية: ١ .... ٢١٩
الآيات: ٢ ـ ٤ .... ٢٢٠
الآيات: ٥ ـ ٧ .... ٢٢٢
الآيات: ٨ ـ ١١ .... ٢٢٥
الآيات: ١٢ ـ ١٤ .... ٢٢٦
الآيات: ١٥ ـ ١٧ .... ٢٢٨
الآيات: ١٨ ـ ٢١ .... ٢٣٠
الآيتان: ٢٢، ٢٣ .... ٢٣٣
الآيتان: ٢٤، ٢٥ .... ٢٣٥
الآيات: ٢٦ ـ ٢٨ .... ٢٣٧
الآيات: ٢٩ ـ ٣٢ .... ٢٤٠
الآيات: ٣٣ ـ ٣٥ .... ٢٤١
الآيات: ٣٦ ـ ٤٠ .... ٢٤٣
الآيات: ٤١ ـ ٤٥ .... ٢٤٥
الآيات: ٤٦ ـ ٥٠ .... ٢٤٧
الآيات: ٥١ ـ ٥٦ .... ٢٤٩
الآيات: ٥٧ ـ ٦٠ .... ٢٥٠
الآيات: ٦١ ـ ٦٣ .... ٢٥٢
الآيتان: ٦٤، ٦٥ .... ٢٥٥
الآيات: ٦٦ ـ ٧٠ .... ٢٥٧
الآيات: ٧١ ـ ٧٣ .... ٢٥٩
الآيات: ٧٤ ـ ٨٠ .... ٢٦١
الآيات: ٨١ ـ ٨٣ .... ٢٦٢
الآيات: ٨٤ ـ ٨٨ .... ٢٦٣
الآيتان: ٨٩، ٩٠ .... ٢٦٦
الآيات: ٩١ ـ ٩٣ .... ٢٦٨
الآيات: ٩٤ ـ ٩٨ .... ٢٧٢
الآيات: ٩٩ ـ ١٠١ .... ٢٧٦
الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٦ .... ٢٧٧
الآيات: ١٠٧ ـ ١٠٩ .... ٢٧٩

تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام

الآية: ١ .... ٢٨١
الآيات: ٢ ـ ٥ .... ٢٨٢
الآيتان: ٦، ٧ .... ٢٨٤

الآيات: ٨ ـ ١٢ ..... ٢٨٦
الآيات: ١٣ ـ ١٥ ..... ٢٨٨
الآيتان: ١٦، ١٧ ..... ٢٩٠
الآيات: ١٨ ـ ٢٠ ..... ٢٩٣
الآيات: ٢١ ـ ٢٦ ..... ٢٩٤
الآيات: ٢٧ ـ ٣٠ ..... ٢٩٦
الآيات: ٣١ ـ ٣٦ ..... ٢٩٧
الآيتان: ٣٧، ٣٨ ..... ٣٠٠
الآيتان: ٣٩، ٤٠ ..... ٣٠١
الآيات: ٤١ ـ ٤٣ ..... ٣٠٤
الآيات: ٤٤ ـ ٤٦ ..... ٣٠٥
الآيات: ٤٧ ـ ٥٠ ..... ٣٠٨
الآيات: ٥١ ـ ٥٦ ..... ٣٠٩
الآيات: ٥٧ ـ ٥٩ ..... ٣١١
الآيات: ٦٠ ـ ٦٣ ..... ٣١٢
الآيات: ٦٤ ـ ٦٧ ..... ٣١٤
الآيات: ٦٨ ـ ٧١ ..... ٣١٥
الآيتان: ٧٢، ٧٣ ..... ٣١٨
الآيات: ٧٤ ـ ٧٧ ..... ٣١٩
الآيات: ٧٨ ـ ٨٠ ..... ٣٢٠
الآيتان: ٨١، ٨٢ ..... ٣٢٢
الآيات: ٨٣ ـ ٨٥ ..... ٣٢٤
الآيات: ٨٦ ـ ٨٩ ..... ٣٢٥
الآيات: ٩٠ ـ ٩٣ ..... ٣٢٧
الآيات: ٩٤ ـ ١٠١ ..... ٣٢٩
الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٦ ..... ٣٣٠
الآيتان: ١٠٧، ١٠٨ ..... ٣٣٢
الآيات: ١٠٩ ـ ١١١ ..... ٣٣٤
الآيات: ١١٢ ـ ١١٥ ..... ٣٣٥
الآيات: ١١٦ ـ ١١٩ ..... ٣٣٩
الآيات: ١٢٠ ـ ١٢٣ ..... ٣٤١

تفسير سورة يوسف عليه

الآيات: ١ ـ ٣ ..... ٣٤٣
الآيتان: ٤، ٥ ..... ٣٤٥
الآيتان: ٦، ٧ ..... ٣٤٧
الآيتان: ٨، ٩ ..... ٣٤٩
الآيتان: ١٠، ١١ ..... ٣٥٠
الآيات: ١٢ ـ ١٥ ..... ٣٥١
الآيات: ١٦ ـ ١٨ ..... ٣٥٤
الآية: ١٩ ..... ٣٥٦
الآيتان: ٢٠، ٢١ ..... ٣٥٧
الآيتان: ٢٢، ٢٣ ..... ٣٥٩
الآية: ٢٤ ..... ٣٦٠
الآيتان: ٢٥، ٢٦ ..... ٣٦٥
الآيات: ٢٧ ـ ٣٠ ..... ٣٦٦
الآية: ٣١ ..... ٣٦٧
الآيات: ٣٢ ـ ٣٥ ..... ٣٦٩
الآية: ٣٦ ..... ٣٧١
الآيتان: ٣٧، ٣٨ ..... ٣٧٣
الآيات: ٣٩ ـ ٤٢ ..... ٣٧٤
الآيات: ٤٣ ـ ٤٨ ..... ٣٧٧
الآيات: ٤٩ ـ ٥٢ ..... ٣٧٩
الآيتان: ٥٣، ٥٤ ..... ٣٨١
الآية: ٥٥ ..... ٣٨٤
الآيتان: ٥٦، ٥٧ ..... ٣٨٥
الآية: ٥٨ ..... ٣٨٧
الآيات: ٥٩ ـ ٦٢ ..... ٣٨٨
الآيات: ٦٣ ـ ٦٥ ..... ٣٩٠
الآيات: ٦٦ ـ ٦٨ ..... ٣٩١
الآية: ٦٩ ..... ٣٩٤
الآيات: ٧٠ ـ ٧٤ ..... ٣٩٥
الآيتان: ٧٥، ٧٦ ..... ٣٩٧
الآيتان: ٧٧. ٧٨ ..... ٣٩٩
الآيتان: ٧٩، ٨٠ ..... ٤٠٢
الآيات: ٨١ ـ ٨٣ ..... ٤٠٣
الآيات: ٨٤ ـ ٨٦ ..... ٤٠٥
الآيات: ٨٧ ـ ٨٩ ..... ٤٠٩
الآيات: ٩٠ ـ ٩٢ ..... ٤١١
الآيات: ٩٣ ـ ٩٥ ..... ٤١٣
الآيات: ٩٦ ـ ٩٨ ..... ٤١٤

الآيتان: ٩٩، ١٠٠ .... ٤١٦
الآية: ١٠١ .... ٤١٩
الآيات: ١٠٢ ـ ١٠٦ .... ٤٢٠
الآيات: ١٠٧ ـ ١٠٩ .... ٤٢٢
الآيتان: ١١٠، ١١١ .... ٤٢٣

تفسير سورة الرعد

الآيتان: ١، ٢ .... ٤٢٦
الآيات: ٣ ـ ٧ .... ٤٢٨
الآيات: ٨ ـ ١١ .... ٤٣١
الآيتان: ١٢، ١٣ .... ٤٣٥
الآيات: ١٤ ـ ١٧ .... ٤٣٨
الآيات: ١٨ ـ ٢١ .... ٤٤٣
الآيات: ٢٢ ـ ٢٨ .... ٤٤٦
الآيات: ٢٩ ـ ٣١ .... ٤٤٩
الآيات: ٣٢ ـ ٣٦ .... ٤٥٤
الآيات: ٣٧ ـ ٣٩ .... ٤٥٦
الآيات: ٤٠ ـ ٤٣ .... ٤٦٠

تفسير سورة إبراهيم ﷺ
وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام

الآيتان: ١، ٢ .... ٤٦٣
الآيات: ٣ ـ ١٤ .... ٤٦٤
الآيات: ١٥ ـ ٢٢ .... ٤٧٠
الآيات: ٢٣ ـ ٢٧ .... ٤٧٤
الآيات: ٢٨ ـ ٣١ .... ٤٧٩
الآيات: ٣٢ ـ ٣٧ .... ٤٨١
الآيات: ٣٨ ـ ٤٣ .... ٤٨٦
الآيات: ٤٤ ـ ٤٨ .... ٤٨٩
الآيات: ٤٩ ـ ٥٢ .... ٤٩٢

تفسير سورة الحجر

الآيات: ١ ـ ٣ .... ٤٩٤
الآيات: ٤ ـ ١٧ .... ٤٩٦
الآيات: ١٨ ـ ٢٢ .... ٤٩٩
الآيات: ٢٣ ـ ٣٠ .... ٥٠٤
الآيات: ٣١ ـ ٤١ .... ٥٠٧
الآيات: ٤٢ ـ ٤٥ .... ٥٠٩
الآيات: ٤٦ ـ ٦٠ .... ٥١٠
الآيات: ٦١ ـ ٧٠ .... ٥١٣
الآيات: ٧١ ـ ٨٠ .... ٥١٥
الآيات: ٨١ ـ ٨٨ .... ٥١٦
الآيات: ٨٩ ـ ٩٥ .... ٥٢٠
الآيات: ٩٦ ـ ٩٩ .... ٥٢٣